فاروق الدملوجي



تاريخ الأديان

الألوهية وتاريخ الآلهة



الاهلية للنشر والتوزيع



الأهلية للنشر والتوزيع
بيروت ـ 2004
هاتف: 01/756116 فاكس: 01/754116
ص.ب.: 5433 113 ـ بيروت

المحتويات

مدخل

نشأ والدي ـ رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه ـ محباً للشعر وللأدب والموسيقى. وعندما التحق بكلية الطب البيطري في استنبول (تخرّج عام 1903) استهوته الطرق والوسائل العلمية الحديثة في البحث والاستقصاء وظلّت ملازمة له بعد ذلك طوال حياته.

ولد في مدينة الموصل عام ألف ومايتين وتسعة وتسعون هـ (1882 م.). وكانت الموصل حينئذ مركزاً للولاية. وتربّى في عائلة عُرفت بالدين والعلم والأدب. وكان جدّ هذه العائلة الأكبر هو الشيخ سليمان آغا من رؤساء عشيرة الشريفات العربية. وقد قدم الى الموصل مع أتباعه بمعيّة السلطان مراد الرابع، وعيّنه السلطان رئيساً للفرقة العسكرية (الانكشارية) في الولاية. وعمل ابناؤه وأحفاده بعد ذلك في الإدارة داخل الولاية وخارجها. وقد بدأ اهتمام العائلة بالعلم والأدب منذ القرن الثامن عشر عندما ظهر منهم علماء وأدباء كان أوّلهم الشيخ شمس الدين عبد الله الدملوجي المتوفي سنة 1257 هـ والذي تفرّغ للعلوم الدينية وفروع العربية، وله مؤلفات ما زالت مخطوطة أهمّها «شرح العصام على الوضع». وعلم الوضع هو من علوم اللغة العربية التي قلّ من تصدى لها في الماضي والحاضر، كما وله مخطوطات اخرى في الصوفية والأنساب.

عمل مؤلف هذه المجموعة من الرسائل في «تاريخ الأديان» طبيباً ضابطاً في الجيش العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ولم يلتحق بالخدمة ثانية الا بعد تشكيل الحكومة العراقية وتنصيب المرحوم الملك فيصل الاول ملكاً على العراق سنة 1921. وبقي في الخدمة حتى نهاية الثلاثينات من القرن المنصرم عندما طلب إحالته على المعاش (التقاعد). وتعتبر الفترة بعد خروجه من الوظيفة من أخصب المراحل في حياته نضوجاً وتأليفاً، إذ كرّس وقته للبحث والاستقصاء في تاريخ العقائد البشرية منذ فتراتها الوثنية وحتى ظهور الرسائل السماوية الثلاث.

فقد استحوذت الديانات السماوية على الجزء الأكبر من وقته واهتمامه نظراً لما لها من وقع وتأثير في حياة المجتمع البشري الماضي والحاضر.

كان والدي قد اختطّ لنفسه منهج الرجوع الى العقل والمنطق في تثبيت وإجلاء الحقائق المتيسّرة عن طريق المؤرّخين القدامى والدراسات والمؤلفات العصرية في زمانه. لذا سيجد القارىء أولاً، والباحث ثانياً ان النص الثابت الذي ورد في الرسالات السماوية هو الذي يعوّل عليه وان العرف والتقاليد والعادات وما حاولت المطامع البشريّة عبر القرون من تحوير وتدوير للنصوص بغية تسخيرها للأهواء والمنافع البشرية، انتقاداً قوياً وشديداً من المؤلف وحتى يسترجع النص عافيته وسلامة معناه، وحمل المؤلف في أعماقه هذه الطريقة المثلى. فكان منفتحاً على كل جديد ومفيد للوصول الى الحقيقة المجرّدة التي تغني المجتمع.

وقد جاءت مؤلفاته لتدوّن وتؤرّخ تاريخ المعتقدات الإلهية في هذا الشرق العربي منذ القدم والى

ظهور الاسلام في مكة المكرمة. وعندما شرع في أبحاثه عن تاريخ الديانات السماوية سنجده مدفوعاً بهذا الأسلوب العقلي الذي اختطه لنفسه؛ كان يؤمن إيماناً عميقاً ان الخالق عزّ وجلّ وهب الانسان من دون مخلوقاته نعمة العقل فالتبصّر، من ثم فرض عليه استخدامه في تفهّم هذا الكون وحياته على سطحه.

وبالطبع فان نهجاً كهذا لا يستساغ دائماً ولا يقبل به بسهولة الا عند أصحاب البحث الخالص والرأي السليم. وحين انتشرت هذه الدراسات في مطلع الخمسينات من القرن الماضي وظهرت طبعتها الاولى في بيروت سنة 1949 وأعيد طبعها بعد ذلك في بغداد على يد المؤلف أثارت الكثير من الأخذ والردّ في الصحف والمجالس العراقية.

وما ان انتشرت حتى أثارت جدلاً ونقاشاً على مستويات عديدة، وعلى الأخص بين بعض الغلاة المقلدين وبين الآخرين ممن وجدوا في الرجوع الى تفهّم النصوص الطريق الأمثل لاتباعها.

هذه الطبعة الثالثة في مجموعة كاملة هي الطبعة الأخيرة لجميع هذه الرسائل. وقد دفعني الى تقديمها للقارىء وللباحث أمران: أولّهما الوفاء لذكرى والدي وقد مضى على وفاته ما يقارب 50 عاماً (توفي في الموصل سنة 1957) والأمر الثاني رغبتي تقديم هذه الرسائل وما فيها من دراسات وحقائق في مستندٍ واحد دون عناء وتكليف.

والحمد لله أولاً وآخراً.

فيصل الدملوجي
بيروت ـ 2002

المقدمة العامة

في سنة من السنين الخوالي، وكنت أقطع الصيف في زحلة الجميلة من أعمال لبنان، خرجت صباح أحد الأيام من غرفتي، ووقفت على الشرفة، أطل على هذه القرية الفاتنة النائمة، وبزغت الشمس، وتوجت بنورها الباهت أبراج الكنائس. ولأول مرة منذ جئت هذه المدينة الصغيرة لاحظت أن الكنائس فيها كثيرة جداً بحيث لا تتناسب مع صغر المدينة. ما يقارب العشر كنائس (؟) انها عدد هائل في هذه القرية الصغيرة!

سألت أحد السكان، فعلمت أن كل كنيسة تمثل طائفة من الطوائف المسيحية، وعجبت للمرة الثانية عجباً أشد من الأول. أفي هذه القرية الصغيرة مثل هذا العدد الضخم من الطوائف؟ وأي هذه الطوائف أصحابها على الحق؟

دارت في رأسي خواطر كثيرة، وانصرف ذهني إلى الطوائف والمذاهب الإسلامية، ثم إلى الأديان الأخرى القديمة والحديثة، وشعرت بقوة في نفسي تدفعني إلى استقصاء هذه الأسرار الغامضة، التي تجذب الناس إلى أفكار معينة بذاتها، فتجعل كل فريق منهم، تحت تأثير تلقينات الكهنة والرهبان ورجال الأديان المتكررة، يعتقد أنه على الحق، ويتحمس لرأيه ويحسبه هو الصواب فيفدي مهجته في سبيله، وأن غيره على الباطل والخطأ، يجب مناجزته حتى الموت، والآخر يرى مثل ما يرى هذا. فهل ان البشر كلهم مجانين، أم ان طائفة واحدة منهم فقط على الحق والصواب، وما عداها كلهم على الخطأ والضلال، أم كلهم على الحق، أم كلهم على الضلال، فأين الصواب وأين الضلال؟!

فرغبت حينذاك إلى القيام بدراسة واسعة النطاق للأديان على اختلاف أنواعها. إلا أن هذا العزم لم يخرج تماماً إلى حيز التنفيذ، لما كان يحيط بي من مشاغل الوظيفة، ومقتضيات الحياة.

وأخيراً، بلغت الستين من العمر، وطلبت احالتي إلى التقاعد (المعاش) ورأيت نفسي بغتة في فراغ هائل من الوقت، فبم أسده؟ ووثبت الفكرة التي طالما لاحقتني فأبعدتها يد الحياة ومقتضياتها، والوظيفة ومشاغلها، وبدأت دراستي للأديان بصورة جدية ونسيت نفسي، ورحت في بحر لجب من المجلدات القديمة والحديثة، فدرست الديانات الأرضية والسماوية وطقوسها وتقاليدها وشعائرها وتاريخ كل منها في مختلف الأمم والأقوام منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر. وكنت أجد خلال مطالعاتي بعض الأمور التي أراني في حاجة لأقول عنها شيئاً. فكنت أدوّن أفكاري وآرائي وما أعجبني مما قرأته ودرسته، على أوراق بسيطة وما كنت انتهي من هذه الدراسات حتى رأيت أكداساً من الأوراق تحتوي على ملاحظاتي الخاصة حول ما قرأت ودرست. ولم أكن أعلم يومذاك أنني مقدم على مشروع ضخم وبحر خضم لا أول له ولا آخر. وما كان يخطر ببالي أن ستكون هذه الأوراق نواة لمؤلفات متعددة تحتاج إلى مجهود جبار كنت في غنى عنه، وإلى متاعب ما كانت لتخطر على بالي.

وعندما وصلت هذا الحد، رأيت من المناسب أولاً أن أضع بعض التعاريف لمعاني الكلمات والمصطلحات المشتركة التي وردت في الأديان كافة ومفهومها لدى تلك الشعوب. وإذا بي أيضاً أمام مجلد ضخم اعتبرته المقدمة لتاريخ الآلهة والمعتقدات والأديان وجعلته في أجزاء متعددة يحتوي:

الجزء الأول على فصول: الآلهة والروح والحياة.

والجزء الثاني على فصل: هذا هو الإنسان.

والجزء الثالث على فصول: السحر، المعتقدات، الإرادة، الشعور الديني، الاستغاثة، يوم الحشر.

وانصرفت إلى تصنيف الكتب وظهرت[1] كما يلي:

الكتاب الثاني:

(1) الألوهية في المعتقدات الوثنية

الجزء الأول: في الديانة السومرية والأكادية والبابلية والآشورية

الجزء الثاني: في الديانات الفرعونية واليونانية والرومانية والبرهمية والبوذية والتيبتية واليابانية والعربية الجاهلية والفينيقية والطوطمية

(2) الألوهية في المعتقدات الثنوية

الجزء الأول: في الديانة الزرادشتية

الكتاب الثالث: الألوهية في المعتقدات الإسرائيلية: (يهوه إله بني إسرائيل)

الكتاب الرابع: الألوهية في المعتقدات المسيحية

(1) (حياة السيد المسيح)

(2) (ابن الإنسان في المحاكم)

الكتاب الخامس: الألوهية في المعتقدات الإسلامية: (الجزء الأول والثاني)

وأنا على يقين أن الفلاسفة وأولو النباهة والثقافة والأحرار سيقدّرون أتعابي ويحبّذون جهودي ويقولون لي جزاك الله خيراً، وهذا حسبي... وهذا يكفيني فخراً... والسلام.

عيواضية بغداد فاروق الدملوجي

---

(1) ظهرت هذه الكتب في سلاسل متعدّدة وهي التي نجمعها هنا في مجلد واحد.

الكتاب الأول

الآلهة والروح والحياة



الفصل الأول الآلهة

1 ـ يدعي بعض الفلاسفة أن فكرة الاعتقاد بالإله الخالق للطبيعة، المدبر للكون، الحافظ القدير، الفعال، موجودة في الخلقة البشرية وأن الاستقرار الروحاني غريزة في الإنسان وضرورة للبشر، لذلك يستغيث الإنسان عند الشدائد بالإله لتخفيف ضائقته وتفريج كروبه وتسكين عواطفه الملتهبة وتطمين رغباته الملحة، يستدلون على ذلك من تجلياتها حتى عند أكثر الملحدين من الفلاسفة عند الموت أو عند اشتداد المرض وعند حلول المصائب والنكبات.

ويدّعي فلاسفة آخرون أن كثيراً من الأقوام والقبائل المتوحشة التي لم يصل إليها التبشير الديني، لا تعلم معنى للإله والخلق والتكوين وليس لديهم أي دين أو اعتقاد سماوياً كان أم أرضياً، ولا يعلمون شيئاً عن الحياة الثانية بعد الموت وعن عالم الغيب والحشر والنشر والحساب والكتاب والنعيم والعذاب، فلا يستغيثون بالإله عند الشدائد والنكبات. وقد ذهبت مساعي المبشرين عبثاً في أفريقيا وفي جزائر آسيا وفي كثير من أمم الأرض. فقد عاد زنوج هايتي مثلاً إلى عبادة الأفاعي وإلى الاغتذاء بلحوم البشر بعد تعليمهم وتنصيرهم، الأمر الذي يدل على أن فكرة الإله الخالق ليست فطرية ولا غريزية، إنما هي تلقين من الآباء للأبناء. وأما استغاثة البشر بالإله أو الآلهة عند الموت أو عند حلول النكبات والكارثات... فيجب تحري أسبابها في مخيلة الإنسان وفي أوهامه وخيالاته وطبيعته وفي حبه للحياة وفي ما غرسه الكهّان والرهبان ورجال الأديان منذ أزمان سحيقة في عقول الناس عن الحياة الثانية بعد الموت وما فيها من نعيم وعذاب.

2 ـ ظهرت فكرة عبادة الآلهة لأول مرة في منطقة الشرق الأوسط وسبقت سومر العراقية ومصر الفرعونية جميع الأمم بذلك. ثم أخذتها عنهما الأمم المجاورة كالاكاديين والكلدانيين والآشوريين والإيرانيين والفنيقيين واليونانيين والرومانيين وأخيراً الإسرائيليين، وكان لكل منهم إله واحد أو آلهة متعددة ينسب إليها عمل واحد أو أعمال كثيرة والإله نفسه واحد بالذات أو متعددة بالصفات.

3 ـ وكان الإله عند البشر غاية الخيال ومصدر القوى وكمال العقل وهو المقدر للأقدار والآجال وهو الخالق والمدبر لهذه الكائنات. فقد أعطاه كل من الأمم والأقوام، تبعاً لموقعهم الجغرافي وما يحيط بها من العوامل والمؤثرات الطبيعية والاجتماعية (الصحاري، البحار، والأنهار، الجبال، التجارة، الفقر، الاضطهاد... الخ) مزايا وأوصافاً هي أقرب إلى حالتهم الروحية والاجتماعية من غيرهم وجعلت أسس الدين تابعة لتلك العوامل. مثال ذلك، لما كانت الأمة السومرية في جنوب العراق تعيش بين الأهوار والمستنقعات، وكانت هذه الحياة تستلزم إقامة السدود وفتح الجداول وتنظيم المبازل، فقد خلقوا إلهاً يقوم بهذه الوظائف يسمى «ايا ـ انكي» وأسكنوه في أعماق المياه وجعلوا عبادته تنظيم الري وتحكيم السدود وكرى السواقي... وكذلك الأمة الإسرائيلية لما كانت مضطهدة في مصر في زمن الفراعنة، فقد شرعت منذ ذلك الزمن بجمع المال وادخاره لتتقوى به عند الشدائد. وان إلههم

(يهوه) بالنظر لما جاء في سفر التكوين، طلب من الإسرائيليات حين خروجهن من مصر ان تستعرن حلي جاراتهن المصريات بحجة التزين بها في العيد ثم الهروب بها إلى سينا. وأمثاله كثير.

4 ـ يقول أحد الفلاسفة لو ظهر نبي في القطب الشمالي لما ادعى أن في الجنة نسيماً بارداً وجوّاً رطباً وسواقي جارية وجوارى ساقية وظلالاً كثيفة تحت أشجار التين، كما هو في الحال في جنائن فرعون، إنما أظهر لقومه أن في الجنة جوّاً ساخناً وهواء حارّاً وشمساً دافئة لا حاجة للبس الفرو هناك.

5 ـ لقد تولدت فكرة عبادة الآلهة والأصنام والقوى اللامرئية عند الإنسان السامي منذ أدواره الأولى، وذلك عندما كانت المؤثرات الطبيعية تكتنفه من كل جانب وهو ضعيف بفكره ضعيف بجسمه، لا يعلم المسببات ولا يفهم الحادثات، فأراد الالتجاء إلى من هو اقوى منه بدناً وأكثر منه قوة لمقابلة الشدائد وتخفيف المصائب وخاصة المحافظة على الحياة اللذيذة من الموت الذي يراه ولا يفهم له معنى، فساقه الخيال إلى بطل كان في ما سبق يطارد الحيوانات ويحارب الأعداء، تتناقل الشيوخ مناقبه وصفاته حتى أصبحت تضرب ببطولته الأمثال وتنسب إليه شتى الخوارق والمعجزات، وكثرت عنه الأقاويل وسارت بذكره الركبان، ولم يألو القائم على ضريحه جهداً بإسناد الخوارق والمعجزات إليه حتى صار معبود قومه. فكانت العشيرة تستمد منه المعونة عند الملمات. فالتجأ إليه بكل قلبه وبكل جوارحه وشرع بملازمته وعبادته والتوسل إليه ليمنحه العمر الطويل ويقيه شر الأعداء. ولأجل حصول التقارب بين العابد والمعبود وضع كل فرد تمثالاً في كوخه ليكون رمزاً لإلهه ومستقراً لمعبوده. فكان مبدأ عبادة الأصنام. ولهذا أصبح لكل فرد صنم خاص، ولكل عشيرة صنم عام يرمز إلى الإله. فكان ولا بد لهذا البطل الإله المعبود أن يتخذ مقره الدائم في محل لا تتناوله الأيدي: في أعالي السماوات حيث لا يمكن الوصول إليه. وقد وضع له في معبده تمثالاً على شكله ليتقمصه ويحل به كلما نزل من السماء، فتكاثرت الآلهة وازدادت أسماؤها وتنوّعت أفعالها وشملت قدرتها الكائنات كلها.

6 ـ ولما شاهد الإنسان الأول حركات الكواكب والفيضانات والأعاصير وفوضى العناصر دون أن يفهم لها معنى، تخيّل بفكره أن هناك قوّة خفيّة وأرواحاً منتشرة تسيطر على الكون وتسيّر هذه المظاهر الطبيعية، فأراد أن يتودد إليها بالعبادة والتضرعات والمناجاة طمعاً بإحسانها وخوفاً من غضبها وسماها آلهة. ولما رأى الفوائد المتحصلة من المياه، تخيل بفكره وجود آلهة أخرى تسكن في الأنهر والينابيع. ولعب الكهان والرهبان خلال كر السنين والأعوام دورهم في تصنيف وظائفها وتوجيه أفعالها وتثبيت أعمالها، فأسندوا إليها أعنف الصفات البشرية كالقدرة والإرادة والعزم والنفع والضر والرحمة والغضب والخلق والتكوين وتقدير الأعمال والأعمار والآجال... وكل ما هو فوق الطاقة البشرية.

7 ـ ويقول آخرون: لما أصبحت الجماعة مستقرة في موطن اتخذته لها، شعر أفرادها بالحاجة إلى قائد حربي أو رئيس أو ملك يعمل على حمايتهم من الجيران وعلى دفع العدو من العبث بمزروعاتهم، فأدّى ذلك إلى ظهور الزعماء والأبطال. ثم تطور الأمر فأصبحوا يقيمون الشعائر وينحرون القرابين ـ من أبنائهم أحياناً ـ لزيادة الغلات وخصب الأرض وطغيان الأنهر ونزول الأمطار. فكان من ذلك الكهان، وانفصل بعد ذلك الملوك عن الكهان، فكان لكل منهم عمل خاص. وساق الكهان الناس إلى عبادة

الأبطال والزعماء وجعلوا للقمر روحاً وللشمس روحاً وللغلة روحاً وللمياه روحاً... ثم حوّل دهاء الساميين هذه الأرواح إلى آلهة روحانية محلية فكان لكل مدينة إله. ثم تطورت إلى آلهة قومية عامة مع بقاء آلهة المدن، ثم توصلوا إلى التوحيد فجعلوا لهم إلهاً واحداً فوق كل الآلهة.

8 ـ كانت قوة الآلهة وعظمتها تابعة لقوة العشيرة والأمة التي تعبدها. ويتجلى ذلك أثناء الحروب والغزوات الفاصلة. فالأمة التي تكسب الحرب تسود آلهتها معها وتعبدها أهالي الأقاليم والمجاورة لها. وبذلك تنتشر عبادة الآلهة الغالبة فيركع لعظمتها الإلهية ويسجد لقدرتها الربانية القاصي والداني تحت خفق السيوف وضرب الرقاب، وتبقى محترمة الجانب توقد لها الشموع وتسكب حولها الدموع حتى تظهر أمة جديدة أقوى فتبيد الأولى وتبيد آلهتها معها فيختفي عرشها وملكوتها ويزول اسمها ورسمها وسلطانها وتدخل في بطون التاريخ.

9 ـ كانت الآلهة كافة وحتى آلهة اليونان والكلدان المختصين بالأمطار والزوابع والصواعق والفياضانات... تلك المستمدة من آثار الطبيعة، كلها أرواح متصفة بصفات القوة والقدرة والحكم المطلق. وكلما اتسع الخيال البشري تنوعت معه صفات الآلهة وأفعالها. وبهذا مرت فكرة الآلهة من عقول البشر بصفحات وسلالم مختلفة تبعاً لسنّة التطور. فبينما كانت الآلهة رمز الأبطال والقادة والشيوخ، حوّلها دهاء الساميين إلى رمز الآثار الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم والرعد والبرق والزوابع والغيوم والأمطار، فظهر في السماء والأرض... وفي المياه والينابيع وفي الأحجار والأشجار... آلهة. ثم تطورت فأصبحت رمز الأعمال البشرية فظهر للحب والعدل والحرب والتجارة آلهة. وعند الرومانيين للمواقد والدهاليز والطعام... آلهة. وفي حوض البحر المتوسط للإخصاب والنسل... ربات تسمى الأمهات وتكون على الغالب زوجات للأرباب. فكان الإنسان الأول الجاهل أينما يلتفت كل شيء يرهبه وكل شيء يستوقفه، فيتقدم إلى الآلهة بالأدعية والصلوات رغبة ورهبة. وأما في الشرق الأقصى فتعتبر الأسلاف كالآلهة واجبة الاحترام. وأخيراً كان ان وصل المصريون إلى التوحيد فكان آمون اله الآلهة ورب الأرباب الواحد في السماء غير المنظور، إلا أن توحيدهم هذا كان مشوباً بالتثليث كما سيأتي بيانه. ثم تطور أيضاً فظهر اتوون وهو قرص الشمس الإله الواحد بنوره وحرارته وبه تجلى التوحيد المطلق في العقول البشرية بعد تطورات كثيرة. وإذا كان الكلدانيون أيضاً وصلوا إلى توحيد الإله [مردوخ] والآشوريون إلى توحيد الإله [آشور] واليونانيون إلى توحيد الإله [زفس] إلا أنهم لم يتخلصوا جميعهم من الإلهة الأخرى.

10 ـ وبينما كان السومريون في أدوار قبل التاريخ يعبدون [انليل] إله الهواء وحده، نراهم بمرور الزمن قد تكاثرت عندهم الآلهة حتى أصبحت تربو على الستماية إله وإلهة. وكان السومريون والكلدانيوان والآشوريون يصورون آلهتهم بشكل البشر، والمتاحف العراقية مليئة بتماثيلها. ويعتقدون أن لها زوجات وبنين وبنات وللبعض منها عشيقات. ومن اعظم آلهتهم (آنو) إله السماء و(انليل ـ بعل) إله الهواء والأرض و(ايا) ويسمى (انكي) إله المياه و(شمش) إله الشمس. واعتبر الكلدانيون الإله مردوخ بكر الإله ايا إله الآلهة ورب الأرباب.

11 ـ وكانت هذه الآلهة تقبل الهدايا والنذور والقرابين وكل ما يقدم إليها. ولا يوجد في أساطير السومريين والكلدانيين ما يدل على تجسد الآلهة واختلاطها مع الناس ليس لها من صفات البشر الروحية الجسمانية كالصورة والأعضاء والأكل والشرب والنكاح، إنما تنزل كل يوم من السماء وتحل في الهياكل المخصصة لها في المعابد لاستماع تضرعات المؤمنين وصلوات المصلين وتستجيب دعواتهم. وفي الأساطير السومرية والكلدانية أن لكل شخص إلهاً من الدرجة الثانية بمثابة الملائكة يتقمص جسمه ويرافقه طيلة حياته يحفظه من الآفات والشرور ويسجل عليه حسناته وسيئاته. فإذا تخلى عنه بسبب خطاياه وآثامه أو إهماله التمسّكَ بالشعائر الدينية، تحل محله الجان والمردة والشياطين فتولد فيه الأمراض.

والآلهة عندهم أيضاً تسكن في السماء وتتراوح في الأرض. وقد اتخذ الإله ايا ـ انكي كرسيه على الماء وولد له الإله مردوخ في أعماق المياه.

12 ـ وعند الساميين (ال. ايل. بيل. اللات. الآهة. آلوهة. آلوهيم إله. الله) كلها ترمز إلى معنى واحد وهو المعبود الأعظم. فكان الأصل في كلمة بابل «باب ابل» أي باب الإله، واربيل «أربعة ايل»، وعمانوئيل «ايل معنا» وجبرائيل «ايل الأعظم»، وميكا ابل «مثل الله»... الخ.

وبالنظر لما جاء في الأساطير السومرية والبابلية فان الآلهة خلقت الإنسان من دم الإله المذبوح «كنكو» ومن تراب الأرض وصورته على صورتها وشكلها ووضعته في حدائقها ليعبدها وليهيىء للآلهة كافة الطعام والشراب وليحررها من العمل.

13 ـ وكان المصريون قد ابتدعوا «آمون» إله الآلهة وقالوا إنه خالق السماء والأرض وإنه غير منظور. خلق أولاً نفسه، ثم خلق الآلهة الأخرى وثم العوالم كافة. واحد بذاته منفرد بشخصيته مثلث بصفاته، متنوع بطبائعه، مختلف بأسمائه بالنظر للفعل والعمل، وهو الأب والأم والولد بوقت واحد. ولما انتشرت عبادته في أنحاء القطر المصري كافة، كانت الضرائب والغنائم والغلات والأوقاف في مصر وفي الأقطار المجاورة وفي الميادين الحربية في فلسطين وسورية والنوبة والصومال تجبى باسمه. فأصبحت واردات المعبد أكثر من واردات الدولة، وعدد الكهان والرهبان يربو على عدد جيوش الدولة، ونفوذ رئيس الكهّان يطغى على نفوذ الملك. وكانت الفراعنة تظهر التمسك بشعائر الدين والرضوخ لقواعد الرئيس الدينية رهبة ورغبة وتنام على مضض تمشياً مع رغبات الشعب المتدين. فكانت البلاد بلاد الإله والجيش جيش الإله وكل شيء متعلق بأمر الإله وإرادته، حتى قام الملك الجبار امنحتب الرابع، فأنزل الضربة القاضية على رئيس الكهان، فصادر جميع واردات المعبد وموجوداته وطارد كلّ الكهنة والرهبان واستبدل الإله «آمون» بالإله «آتون» وهو قرص الشمس وسمى نفسه «اخت آتون». وبهذه الحركة الجريئة التي لم تتيسر لكل ملك، قضى على الآلهة القديمة المصرية كافة التي تعبد من دون «آتون» وتخلص من الكهنة والرهبان والمرتزقة الذين استغلوا موارد القطر المصري بإسم الآلهة والدين. إلا ان هذه الحركة الجريئة لم تعط ثمرتها المطلوبة. فقد تشكل بعد برهة من الزمن كهنة ورهبان للإله «آتون» كما كان الحال في معابد الإله «آمون».

وكان الاعتقاد السائد عند المصريين كافة أن لكل بلد إلهاً يحميه ولكل عمل من الأعمال إلهاً

يقوم بتنفيذه. وكانت الآلهة الفرعونية تسكن عادة في السماء. وكان للإله آمون زورق يركب فيه تسيّره في رحاب السماء أرواح المؤمنين والصالحين، يلاحظ مجاذيفه الآلهة الأخرى. وكان الإله «حابي» وحده يسكن في أعماق نهر النيل، فكان المصريون في رأس كل سنة يزفون عروساً من أجمل بناتهم ويلقونها في النيل طمعاً في اكتساب عطف الإله «حابي» ونيل رحمته.

ومن أعظم آلهة مصر «اوزيريس» إله الحساب والميزان والدينونة في الآخرة. كان اوزيريس فرعوناً في مصر فقتله أخوه سيت الظالم وفرّق أجزاء جسمه في أنحاء القطر المصري واستولى على العرش؛ ولما علمت بذلك ايزيس زوجته جمعت بقوة سحرها رفاته من أنحاء القطر وأعادت إليها الروح، وبعد أن حملت منه بابنها حورس دفنته في مدينة سايس. ولما كبر حورس نازع عمه سيت في العرش. فادعى سيت أمام مجمع الآلهة أن حورس ابن غير شرعي لاوزيريس. الا أن المحكمة الإلهية حكمت ببطلان هذه الدعوى. ولما كان اوزيريس قد سفك دمه في سبيل خلاص البشر، حكمت المحكمة الإلهية بألوهيته وبمنحه حق دينونة العالم بعد الموت، وبألوهية زوجه سيت وابنه حورس، فحصل من ذلك مثلث بلدة ابيدوس الإلهي. ولهم آلهة أخرى كثيرة ذكرناها في كتابنا «الألوهية في الديانة الفرعونية».

14 ـ لم يكن لآلهة اليونان القدماء أعمال معيّنة وصفات واضحة حتى جاء هوميروس الشاعر اليوناني فأعطى لكلّ منها عملاً خاصّاً ثم جعل زفس ـ زوس إله الآلهة وجعلها تسكن غالباً في جبال الأولمب وأحياناً في جبال ايتوم وكريت، فأصبحت الآلهة وكأنها هيئة حاكمة تدبر شؤون البشر من قمم الجبال ومن وراء ستار.

وبالنظر للأساطير اليونانية القديمة التي وضعها هوميروس، كانت الآلهة على أشكال البشر من حيث الصورة ومن حيث الخلق تتزاوج وتتناسل وتسكن القصور الفخمة والحدائق والبساتين وتؤلف حكومة مدنية يرأسها الإله زوس، وقد تمشي في الأسواق وتطير في الهواء وتسير في الغابات والصحراء وتسرح وتمرح وتأكل وتشرب وتفرح وتمرح وتقبل الهدايا والقرابين وتتدخل في شؤون الناس اليومية.

15 ـ والآلهة عند قدامى فلاسفة اليونان كانت تابعة لأفكارهم الحرّة. ولما لم يكن في اليونان أنبياء وأديان سماوية ولا شرائع إلهية، فلم يتقيّدوا بأفكارهم، على أنهم لم يتعرّضوا للأساطير الدينية التي وضع قواعدها الشعراء أمثال هوميروس، وهزيود، ولهذا لم يلتفت أحد منهم إلى الفلسفة الروحية إلا نادراً، فطغت عندهم الفلسفة الطبيعية المستندة على نتاج الفكر والعقل وإلى الماديات وإلى تحليل ظواهر الكون ونشأة العالم، من دون أن يلتجئوا إلى الخلق الإلهي والأفكار الدينية. وما كان الإنسان عندهم إلا جزءاً من هذا الكون خاضعاً لقوانينه الطبيعية، حتى ظهر طاليس فقال «ان العالم مليء بالآلهة»، ويقصد بها الأرواح. وادعى أن الآلهة ليست منفصلة عن الكون وإنما كائنة فيه وتابعة لقوانينه منذ المادة الأولى التي نشأ عنها الكون، بينما ادعى غيره من الفلاسفة أن الكون وجد قبل الآلهة، والآلهة منفصلة عن الكون وليست مندمجة فيه وانها يحكم قوتها وقدرتها استولت عليه. وادعى غيرهم من الفلاسفة أن الآلهة مستقلة عن الكون في الزمان والمكان. وسواء وجد هذا الكون أم

لم يوجد، فهي موجودة ومستقلة بذاتها بينما الكون غير مستقل عن الآلهة لأنه معلول بها وليس باستطاعته ان يستغني عنها. ومنهم من قال إن كل ذرة من ذرات الكون تحتوي في باطنها على قبس من الإله. ففي داخل كل مادة من مواد هذا الكون يوجد جزء إلهي يحركها. ومنهم من ادعى أن الآلهة بحد ذاتها هي القوة الموجودة في الكون وهي موجودة في كل جزء من أجزائه وفي قلب كل ذرة من ذراته وليست عنه. فلا يوجد والحالة هذه أية قوة محركة فوق ما هو موجود في مواد الطبيعة وخارجة عن مواد الكون.

وكان اكسانوفان يقول «ان الناس هم الذين خلقوا الآلهة على شاكلتهم وصفاتهم وهواهم ثم عبدوها. ولو «كان للخيل والبقر ايدٍ تكتب وتنحت، لجعلت آلهتها على مثالها». إلى أن يقول «لماذا تكون الآلهة على شكل الإنسان زرق العيون عند أهل تراقيه، وفطس الأنوف عند الاحباش». ويقول أخيراً «يجب أن يكون الإله واحداً ليس على شاكلتنا ولا يفكر كتفكيرنا وليس متحركاً ومتنقلاً. كله سمع وكله بصر وكله عقل، يحرك الجميع ولا يتحرك. وهو عقل محض حالّ في الكون وليس منفصلاً عنه، أبدياً أزلياً يشمل جميع الكائنات». وبهذا يصل اكسانوفان إلى مرتبة الحلول ووحدة الوجود.

ويدعي انبادوقليس «أن النفوس البشرية آلهة».

ويقول هرقليطس «النار كل شيء، والله هو النار». ويعتبر أن حركة الكون تسير وفق قوانين طبيعية ثابتة، وأن هذه القوانين موجودة حتى قبل الآلهة فلا يحكم فيها القضاء الإلهي.

ويقول اناكساغور «إن الفاعل الأصلي بهذا العالم هو العقل الصافي القدير الفعال المتحرك بذاته».

ويقول بروتاغوراس «ليس بوسعي أن أقدر ما إذا كانت الآلهة موجودة أو غير موجودة فلا أثبتها ولا أنفيها».

ويقول ديموقريطس «إن الكائنات جميعها وحتى الآلهة مكوّنة من جواهر فردية ـ ذرات ـ إلا أن جواهر النفس الإنسانية والآلهة ألطف وأدق من الجواهر الأخرى».

وأما سقراط فكان يعتقد «بالعدالة الإلهية، وأن الآلهة مجرّدة عن الشهوات فلا تتزاوج، ولا تتوالد ولا تأكل ولا تشرب».

والإله عند افلاطون، مثال الخير المطلق، والعقل المحض، وعنده أن العالم معلول بعلة عاقلة وهذه العلة هي «زوس ـ الله». وكذلك المثل العليا والنفس العالية والجمال وآلهة الكواكب والنفس الناطقة كلها آلهة، وهي من آثار المبدع الأول، والفاعل الأول الواحد بالذات وهو «زوس ـ الله».

ويقول أرسطو، إن للعالم علّة فاعلة، أولى ثابتة غير متحركة لا بالذات ولا بالعرض وهي «زوس ـ الله». وهو صورة مستقلة عن الهيولى.

وأما الفيلسوف أبيقور، فقد اعترف مكرهاً بموجودات أوفر عقلاً وأجمل صورة وألطف شكلاً من الإنسان... إلى أن قال: «يجب إخراج هذه الآلهة عن نطاق الدين ما دام وجودها قد يولد الخوف والآلام».

ثم تطورت فكرة الآلهة عند فلاسفة الأمم. فمنهم من جعلها أرواحاً لطيفة، ومنهم من جعلها

أجساماً نورانية، ومنهم من اتجه نحو وحدة الوجود الروحية أو المادية. وأما في الأزمنة المتأخرة، فقد سلك فريق منهم طريق المنطق فقال ديكارت «أنا أفكر، إذاً أنا موجود» فكان من زعماء مذهب الوجودية. وقال اللاوجوديون إذا اعتبرنا جدلاً أن «الإله موجود» فمن إذن أوجده كما يقال للمقتول من قتله؟ وإذا قيل أوجد نفسه، فهذا معناه أن هناك إرادة سابقة لوجوده حثّته على الظهور. وعلى أثر تلك الرغبة والإرادة وذلك التحفّز والعزم ظهر إلى الوجود. فيتجلى من ذلك وجود علة ومعلول، وموجد وموجود والتسلسل باطل، كما ان هناك اضطراباً في فكرة كائن هو نفسه علة وجوده. وأما الماديون فيدّعون أن الإنسان ليس مخلوقاً لله، بل الألوهية ذاتها هي من خلق الإنسان ومن نتاج تفكيره. فان من ميزة العقل البشري هي القدرة الخالقة للأشياء. ومنهم من أنكر وجود الإله ونسب كل شيء إلى الطبيعة.

16 ـ وكان الرومانيون القدماء يعتقدون بموجودات نورانية لا ترى بالعين تسمى «الآلهة» تدير شؤون البشر لكل منها عمل خاص وفوق الجميع الإله جوبتير، إله بلدة روما.

17 ـ وكان لكل قبيلة من العرب صنم من حجر أو خشب يعتبر رمزاً للإله العظيم الساكن في السماء وهذه الآلهة انتقلت إليهم من الهلال الخصيب. ومن أعظم أصنامهم «هبل ـ ابول» و«ود» و«سواع» و«يغوث» و «عميانس» و«سعد» و«اساف» و«نائلة» و«مناة» و«فلس» و«اللات» و«العزى» وغيرها. وليس لديهم نظريات خاصة حول صفات الإله الساكن في السماء إنما انحصرت أساطيرهم بأصنامهم فقط، وهم يعتقدون أن هذه الأصنام رموز للآلهة وهي وسائط وشفعاء عند الإله العظيم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله).

18 ـ وكان آلهة الهنود القدماء كسائر آلهة الآريين مأخوذة من الآثار الطبيعية. وعندما تسربت الديانات الشرقية إلى الهند ظهر إله النور والحياة «اندريا» وإله الظلام «مارا» وإله الموت «ياما» وآلهة أخرى كثيرة غيرها.

ولما كانت الأدعية والاستغاثة والتوسلات مقبولة عند الآلهة وتسمى بالهندية «براهما» أصبحت العبادات والأدعية «براهما ـ براهمن» هو الإله العظيم. فكان براهما روح الكائنات وجوهرها، فجميع الكائنات من حيوان ونبات وجماد تستمد منه الحياة، وذلك كظهور الشجرة من النواة والشبكة من العنكبوت. ولا يسمى خالق العالم إنما هو جوهر العالم. إذن هو موجود في كل ذرة من ذرات الكون. فكانت هذه النظرية الأساس لفلسفة وحدة الوجود الهندية التي انتشرت إلى اليونان والعالم كله.

19 ـ أما دين بوذا، وهو الأكثر شيوعاً في الشرق الأقصى إذ كان يدين به أكثر من خمسمائة مليون من البشر (اليوم أكثر بكثير)، فهو لا يعترف كذلك بإله خالق للكون إنما غاية الخيال عنده العدم وان عبادتهم الوحيدة هي حرمة آبائهم وأجدادهم وأمواتهم فقط، ويقال إنه لا يوجد في اللسان الصيني كلمة تفيد معنى الإله والخلقة.

وأما الإله بوذا نفسه، فبعد أن عاش دهوراً طويلة في عالم غير هذه العوالم، سكن في السماء السادسة، فذهب إليه الإله «براهما» وغيره من الآلهة وطلبوا منه أن يتجسد وينزل إلى الأرض، فقبل طلبهم وتجسد ونزل إلى الأرض فصار إلهاً وبشراً سوياً، وأعلن عن نفسه بقوله: «أنا أعظم العالم، انا

الرئيس الكبير، أنا أشرف الدنيا». ومن ثم صار رئيساً للآلهة كافة. وكذلك تجسد «مارا» وهو ابليس واقترب من بوذا ليجربه وقال له أنت ستصبح في سبعة أيام امبراطور العالم ان لم تتخذ لك حياة دينية، فقال له بوذا ابتعد عني فأمطرت السماء عطوراً وزهوراً.

20 ـ وكان الإله «لاما» الذي اتخذ مدينة لارسا في التيبت مستقراً له، قد تجسد في أحد الملوك. وعندما حضرته الوفاة أخبر تابعيه أنه سيعود ويكون معهم دوماً. فقد تنتقل روحه من شخص لآخر. ولم يزل على زعمهم حياً.

21 ـ إله اليابانيين مستقر في الشمس. ويعترف اليابانيون بأن الإله واحد وهو خالق كل شيء. ويقولون عنه انه إله الخير لا يتدخل في الشؤون البشرية والعالمية. فقد ترك أمر ذلك إلى الآلهة الأخرى التي هي بمثابة الأرواح الطيبة. فهي التي تدير شؤون العالم. ثم تليها الأرواح الكبيرة المتألهة وهي أربعة، ثم تليها أرواح الأبطال والشجعان الذين تألّهوا بأعمالهم وخدماتهم العظيمة. ومن جملة هؤلاء الأبطال «فاتس ـ مان» إله الحرب وهو الامبراطور السادس عشر المتأله أحد أجداد الامبراطور الحالي فيزعمون أن أرواح صرعى الحرب تذهب عند هذا الإله.

22 ـ ومع ان اكثرية الزنوج في أفريقيا الوسطى يعبدون الأوثان والأصنام المعمولة على شكل إنسان أو حيوان من خشب أو حجر بإسم «الفيتش» والفيتش عندهم كل شيء في العالم سواء أكان ذا روح أو جماد، فان هناك بعض القبائل الزنجية تعتقد بالطوطم. والطوطم صنم يرمز إلى حيوان أو نبات تحترمه العشائر والقبائل وتقدسه وتعبده. وقد يتخذ كل فرد طوطماً خاصاً له ويحتمي به. كما وان بعض القبائل الزنجية لا تعتقد بالطوطم ولا بالفتيش ولا بالأوثان ولا بالأصنام، إنما يحترمون رئيسهم ويخافونه أشد الخوف وترتعد فرائصهم من صوت الرعد. ويعتقدون بالسحر والخرافات والطلاسم والتمائم ويعبدون بعض الحيوانات والأشجار فقط. أما الإله والملك والشيطان والخير والشر، فهي كلمات لا يفهمون لها معنى ولا يعرفون الإله بالمعنى المتداول عندنا، وليس لديهم كهنة ولا أي نوع من ضروب العبادات. ولا فرق بين زنوج افريقيا ووحوش اوستراليا وغينيا الجديدة.

23 ـ كان الأوائل يعتقدون أن النجوم والكواكب أرباب حيّة، وكذلك الآثار الطبيعية «الرياح، الزوابع، الصواعق، مجاري المياه...» كلها أرواح تشعر وتسمع وتريد كما هو الحال في الإنسان، لذلك كانوا يسعون لاسترضائها بالدعاء والصلاة وتقديم الهدايا والقرابين كما يسترضى البشر.

24 ـ تجلّت القسوة والشراسة عند الرهبان الفنيقيين عندما كانوا يعظون الناس عن لزوم تقديم أولادهم قرابين بشرية لتسكين غضب الآلهة «بعل ـ بعليث» أو لنيل المغفرة ومحو الخطايا والآثام. وكان الأبوان يقدمان فلذات اكبادهما عن طيبة خاطر إلى مذابح الآلهة، ويقوم الكاهن بذبح الأطفال كما تذبح الأغنام في المجزرة. كل هذا لإعطاء الآلهة قيمتها العظيمة في عيون الناس. وأراد النبي إبراهيم تقديم ابنه قرباناً لإلهه كما أراد عبد المطلب «جد النبي (ص)» أن يذبح ولده عبد الله فدية لرب البيت لأنه نذر «لأن عاش له عشر بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة» إلا أنه كفّ عن ذلك بعد إخفاقه في رمي القداح ثلاث مرات. كل ذلك تحت تلك العقيدة والشعور الديني السائدين حينذاك في فنيقية وفلسطين وشمال جزيرة العرب.

وتحت هذا الاعتقاد كان الآباء والأمهات يقدمون بناتهم العذارى إلى المعابد والهياكل كعابدات وراهبات لتسكين غضب الآلهة وإرضائها «عشتار ميليتا...». والويل كل الويل لمن يعترض على ما يفرضه الكهنة ويبتدعه الرهبان من القواعد الدينية ويشك بقدرة الآلهة والمتألّهة سواء استساغها العقل البشري أم رفضها، فللمعترض الموت الزؤام لكفره بالآلهة وخروجه على التقاليد الدينية.

25 ـ وقد رضخ لهذه الحالة حتى الملوك والأمراء وأصبح رجال الدين يسيطرون على الكتلة البشرية ويسيّرونها بنظرياتهم وقواعدهم وما يختلقونه كل يوم من عقائد جديدة. يستثنى من ذلك فقط رجال الدين المجوسي (إيران). فقد منع هذا الدين الكهنة والرهبان من التدخل في أمور الناس.

ومن الظريف أن نذكر أن القاعدة الدينية عند البابليين هي أن يصفع رئيس الكهّان الملك على وجهه عند زيارته معبد الإله مردوخ في اليوم السادس من شهر نيسان من كل سنة صفعة ينبغي أن تدمع لها عينه فتكون علامة خير للملك وللأمة وإلا فتكون علامة شر.

26 ـ ولما كانت آثار الشمس في حقل الحياة ظاهرة للعيان، فقد لعبت هي أيضاً دوراً خطيراً في ميدان الآلهة، وعبدها الأقوام السابقة كافة تقريباً. وكان لكل قوم إله يسكن في الشمس ينشر النور والحياة على العالم. فكان إله الشمس عند المصريين «رع» و«اتون» وعند البابليين والسومريين والآشوريين «شمش» و«شماش» ويسمى أيضاً «اوتو». وعند الفرس «مثرا» و«اهورامازدا» وعند الهنود «فشنو» و«ايندرا» وعند الأغريق «ابوللو» وعند الرومان «هليوس». وأما إله الظلام فكان يسمى «مارا» و«اهرمن» و«ابليس». ولم تزل طائفة اليزيدية في جوار الموصل تعبد الشيطان خوفاً من شره. ويقال ان الديانة «الشامانية» المؤسسة على عبادة الشياطين وإلههم الكبير «شامان» قد انتشرت في الشرق الأقصى.

27 ـ الديانة الزرادشتية مؤسّسة على وجود إلهين اثنين هما إله النور «هرمزد» وإله الظلمة «اهرمن». وعند زرادشت أنهما أصلان متضادان حصل العالم من امتزاجهما و«زردان ـ الله» خالقهما. وهما في جدال وصراع ونضال مع بعضهما قد يصيب أحدهما الغلبة تارة والهزيمة تارة أخرى حتى يغلب النور الظلمة والخير الشر فيكون العالم كله نور وكله خير. ويتلخّص دين زرادشت في إنكار الوثنية وتقديس النار وتنزيه إله الخير «هرمزد» عن المادة والكفر بالشيطان إله الشر «اهرمن» وتعمير وجه الأرض وعمل الخير وزرع الحبوب وغرس الأشجار واجتناب الخبائث والتخريب والهدم وعمل كل خير واجتناب كل شر.

وقد منعت الديانة الإسلامية عبادة إلهين اثنين. فقد جاء في القرآن الكريم ﴿وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين إنما هو إله واحد واياي فارهبون﴾ (الانعام).

28 ـ ولما كثر الخير والشر في العالم ولم يكن للكهان والرهبان سلطة زمنية على الناس منحوا الآلهة حق إعطاء الثواب والعقاب في اليوم الآخر عن أعمال الإنسان الدنيوية وبالغوا فيهما على مر الأزمان وكر الدهور، حتى وصلوا أقصى حدود المبالغة وأكثر مما يتصوره العقل ويحيطه الخيال. ولأجل الحد بين الطاعة والمعصية والخير والشر والإيمان والكفر، وضعوا بعض القواعد والمعتقدات والطقوس الدينية، كان لمن يتمسك بها الثواب والنعيم الدائمان ومائدة اوزيريس اللذيذة والنسيم البارد تحت ظلال أشجار التين في حدائق فرعون، ولمن يخرج عليها أفظع ما يتصوره الخيال وأقصى ما يرد على البال

من أنواع العذاب والعقاب من نار تشوي الوجوه وسلاسل وقيود حامية وحيات كالمنائر وعقارب كالأفيال تغلي سمومها في البطون والأجساد. وجعل بعضهم الإله حقوداً منتقماً حتى من الجيل الثالث والرابع من مبغضيه، أولئك الذين لا يعبدونه حق عبادته ولا يقدمون له الذبائح والقرابين، وجعلوه أشد غلظة وقسوة وشراسة وأكثر حنقاً وحقداً وانتقاماً من البشر، قد يقابل الشر بشر أعظم منه والإساءة بإساءة افظع منها. كل هذه الشدة لتماهل الإنسان في بعض الطقوس والشعائر الدينية التي وضعها الكهّان والرهبان من عند أنفسهم.

29 ـ ولم يكن تجسد الآلهة والملائكة والجان والشياطين وتمثلها بالصور البشرية خاصاً بالديانات الوثنية المار ذكرها فحسب، بل تسربت إلى المعتقدات الدينية السماوية أيضاً.

30 ـ فبالنظر لما جاء في التوراة أن الإله خلق البشر على صورته «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (1 ـ 26 تكوين)، فكان البشر على صورة الإله والإله على صورة البشر وهي مأخوذة من أساطير السومريين والكلدانيين. وجاء في سفر التكوين «ان الرب ظهر لإبراهيم بصورة رجل مع ملكين فذبح لهم عجلاً سميناً فغسلوا أرجلهم بالماء وأكلوا وشربوا واستراحوا» (1 ـ 28 تكوين)، وظهر الرب بعد ذلك مرات عديدة لإبراهيم واسحق ويعقوب، ثم ظهر لموسى من وراء حجاب وفي وسط عليقة من نار وناداه «موسى! موسى! انا ربك اخلع نعليك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة» (5 ـ 3 خروج). وطلب موسى من ربه أن يرى وجهه فقال الرب «لا تقدر أن ترى وجهي. فلن تراني. إنما أسترك بيدي حتى أجتاز ثم أرفع يدي. فتنظر ورائي» (33 ـ 30 خروج). فكان الرب الإله يكلّم موسى بصوت ولفظ «فماً لفم وعيناً لعين لا بالألغاز» (8 ـ 12 عدد). وينزل ويصعد ويظهر في عمود سحاب يقف في باب الخيمة فيأمر وينهي ويتجلى فوق الجبل ويندم ويتذكر ويعقد العقود والمواثيق... الخ لا فرق بينه وبين الأشخاص البشرية (راجع كتابنا لاحقاً يهوه إله بني إسرائيل).

31 ـ الإله في الديانة المسيحية التي جاء بها السيد المسيح روح منزّه عن كل الصّفات والأجزاء البشرية «الله روح. والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي ان يسجدوا» (23 ـ 4 يوحنا). وبهذا الدستور الجليل نفى السيد المسيح عن ذات الإله كل صورة وشكل وتشبيه وتجسيم وكل صفة من الصفات البشرية من والد ومولود وأجزاء وأعضاء وأيدي وأقدام وسمع وبصر ولفظ وكلام وحيز ومكان ويمين ويسار وتجزؤ وانقسام. كما أنه أعلن بهذه الكلمات الموجزة عدم تأثره بما ورد في التوراة (العهد القديم) في قوله «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا»... فخلق الله الإنسان على صورته، وبما ورد كذلك عن لسان أنبياء بني إسرائيل في التوراة عن صفات الإله الأخلاقية والأدبية والبشرية. فجعله روحاً خالصاً لا تشوبه الأشكال والصفات ولا تشمله الحوادث والجهات ولا ينقسم على نفسه لا بقليل ولا بكثير. فكان هذا الشكل من التوحيد والتنزيه بعيداً جداً عن العقلية السائدة آنذاك في الأوساط الدينية، فلم تدركه حتى المشبهة المسيحية الذين جاؤوا بعد السيد المسيح، ومنهم حتى هذا اليوم، أولئك المتشبعون بقواعد التوراة «خلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه» (1 ـ 8 تكوين) بينما تبعاً لتلك الآية الإنجيلية كانت قد أصبحت الديانة المسيحية روحانية ورجالها روحانيين.

32 ـ فكان الإله في الديانة المسيحية الصحيحة التي جاء بها السيد المسيح واحداً واحداً فرداً صمداً لا شريك له ولا ولد «الرب إلهنا رب واحد» (29 ـ 13 مرقص). وهذا الإله إله السيد المسيح نفسه وإله الناس كافة «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (17 ـ 30 يوحنا)، وهو أعظم من السيد المسيح «لأن أبي أعظم مني» (29 ـ 14 يوحنا). وجاء في تضرّعات السيد المسيح قوله «... وهذه الحياة الأبدية ان يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي ارسلته» (1 ـ 17 يوحنا). فمن الممكن وضع هذه الجملة بالصيغة الآتية من دون ان تخل بالمعنى «الإله الواحد الحقيقي هو الله ويسوع المسيح رسول الله»، أو بالتعبير الإسلامي من دون خلل بالمعنى «لا إله إلا الله يسوع المسيح رسول الله». وكان الإله شيئاً ويسوع المسيح الرسول شيئاً آخر لا علاقة للواحد بالآخر، هذا ما جاء في الأناجيل وأمثالها في الكتب المقدسة كثير.

33 ـ لما عزم الآباء المتمسكون بقواعد العهد القديم على تأليه السيد المسيح، فسّروا الآيات المذكورة أعلاه كما يروق لهم وقالوا بالإله الواحد الذي لا مناص منه، واعتبروا كلمة «أبي» حقيقية وكلمة «أبيكم» أنها بالتبني وقالوا بالألوهية المتجسدة في المسيح فجعلوا السيد المسيح من جوهر الله ومن ذات الله، ثم أضافوا إليها الروح المقدّسة فحصل الثالوث الإلهي المسيحي المكوّن من «الآب والإبن والروح القدس» واعتبروهم ثلاثة اقانيم للإله الواحد، كما هو الحال في المثلثات الفرعونية. واعتبروا كل اقنوم على الإنفراد لا يمكن أن يكون إلهاً مستقلاً إنما هو مقيّد بالانضمام إلى غيره من الأقانيم، ومنحوا كل أقنوم عملاً معيّناً. فإن ما يثبت لأحدهم من الأعمال والصفات لا يثبت للآخر، كما ان كلاً منهم لا يكون عين أحد الاثنين الآخرين، وباجتماع الاقانيم الثلاثة تتجلى الألوهية التامة ويكون الإله واحداً.

ويعتقد الآباء ان الله غضب على آدم لأكله من الشجرة الممنوعة فحكم على أنساله بالعذاب الأبدي، ثم أشفق على البشر وأرسل ابنه الوحيد ليخلصهم، فتجسد السيد المسيح من احشاء السيدة مريم العذراء ثم فدى نفسه وتألم، فداء عن خطايا البشر ليرجع إليهم البنوة الإلهية. وبهذا كان السيد المسيح إلهاً وبشراً سوياً (راجع لاحقاً كتابنا: المعتقدات المسيحية).

34 ـ الإله في الديانة الإسلامية واحد أحد فرد صمد استوعبت قدرته جميع الكائنات تتجلى صفاته بقوله تعالى ﴿شهد الله انه لا إله إلا هو﴾. وقوله تعالى ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾. وقوله تعالى ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾. وقوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾. وقوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار﴾. وقوله تعالى ﴿نور على نور يهدي الله بنوره من يشاء﴾. وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثير.

ولقد تحيّر المتكلمون ورجال الفرق الإسلامية في مدلولات ومعاني بعض الصفات الواردة في القرآن الكريم الدالة على ما هو موجود منها في الأجزاء البشرية من سمع وبصر وارادة وكلام ويد ووجه... فذهب كل منهم مذهباً يخالف الآخر في تأويل تلك الصفات والكلمات. فقالت الحنابلة نحن نؤمن بما ورد في الكتاب والسنّة ولا نتعرض للتأويل بل نحترز عن التشبيه ونقول «كل من عند ربنا» آمنّا بظاهره وصدّقنا بباطنه، فجمدوا بذلك حول صفات الله الواردة في القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ و﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ وأمثالهما كثير بأنها معانٍ حقيقية نصاً بنص

وحرفاً بحرف لا مجاز ولا تمثيل ولا تأويل. ويقولون في الحقيقة ان هذه الصفات تقتضي التجسيم والتمثيل والتحييز فيما إذا اتخذت صفات اجسام وهي في الحقيقة صفات لغير جسم... الخ.

واستند المحدثون على بعض نصوص القرآن والسنّة حتى وصلوا إلى حدود التجسيم فجعلوا الله تعالى في موضع دون موضع، وانه على السماء دون الأرض، وانه على العرش دون ما سواه من المواضع، وأثبتوا له جلّ جلاله الكلام والنفس والأصابع والقدم والسمع والبصر والعين والوجه واليدين... بدون تكييف ولا تمثيل.

وجعل المشبهة الله تعالى فوق عرشه فوق السماء السابعة محدود الأطراف، قد ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، يتحرك إذا شاء ويقوم ويجلس إذا شاء ويضحك إذا شاء، ويقولون إن أمارة ما بين الحي والميت التحرك، وكل حي متحرك لا محالة، وكل ميت غير متحرك لا محالة...

وظهر جماعة من الشيعة الغالية وجماعة أخرى من أصحاب الحديث يطلق عليهم إسم الحشوية، صرّحوا بالتشبيه جهاراً فقالوا ان معبودهم صورة ذات أعضاء وأبعاض وأجازوا على ربهم المصافحة والملامسة والرؤية في الدنيا والآخرة، وهم ينزعون إلى تشبيه الله بالإنسان نزعة مادية. وهذه كلها مأخوذة من كتب اليهود «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (سفر التكوين).

وغلاة الشيعة جعلوا الله جسماً له يدان ووجه وعينان وأذنان وقدمان ولحم ودم. وغاية ما قالوه إنه جسم لا كالأجسام ووجه لا كالوجوه... ونقل الشهرستاني عن الكلبي أن داود الخوارزمي كان يقول إن ربه أجوف من أعلاه إلى صدره وصمت ما سوى ذلك وان له وفرة سوداء وله شعر قطط... الخ.

ونزّه الأشعري الباري تنزيهاً مطلقاً عن كل ما يتعلق بالحلول والجزء والجسم الإنساني وقال برؤية الله يوم القيامة وان الله أبدي أزلي خالق لكل شيء فعّال لما يريد، عالم بما كان وبما سيكون، وأثبت السمع والبصر لله تعالى صفتان هما ادراكان وراء العلم وأثبت أيضاً اليدين والوجه كصفات جبرية مع ترك التعرض للتأويل وقال ان الله يفعل في خلقه ما يريد. فلو ادخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً ولو أدخلهم النار لم يكن جوراً. وقال ليس للعبد تأثير في توجيه مقدوراته، وأثبت القضاء والقدر واللوح والقلم والعرش والجنة والنار ومعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء... وكما انه اثبت التنزيل لله تعالى، فقد أثبت التشبيه أيضاً بإسناده السمع والبصر واليدين والوجه لله تعالى كما هو مدلولها عند البشر، واعتبرها صفات جبرية مع ترك التأويل. فكان منزهاً ومشبهاً وكان قدرياً وجبرياً بوقت واحد، فصار مذهباً لأهل السنّة والجماعة.

وأنكر المعتزلة ان لله تعالى صفاتٍ زائدة على ذاته. وقالوا هي هو بمعنى قادر بقدرة وقدرته ذاته، وعالم بعلم وعلمه ذاته... وأولوا نصوص القرآن بما يقتضيه العقل والمنطق ووضعوا التأويل في أول صفحة من أعمالهم ليتسنى لهم تفسير القرآن بما تقتضيه الأحوال في كل زمان ومكان، فقالوا «إذا تعارض العقل مع النقل وجب التأويل بما يقتضيه العقل». وأوّلوا جميع الآيات التي تشعر بالجسمية كقوله ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ بأنه تعبير مجازي يدل على اثبات غاية السخاء له ونفي البخل عنه. وعن «الوجه» قالوا إنه ذاته تعالى نفسه. وعن السمع والبصر قالوا إنه يسمع الأصوات ويرى الأشياء بلا عين ولا أذن فلا يبصر ببصر ولا يسمع بسمع، فان وجهه كله وان سمعه ادراكه

الصوت إياه، وانه عليم بالمسموعات التي يسمعها غيره، وان بصره عليم بالمرئيات التي يراها غيره وان يده عطاؤه موسوعة ومقتدرة. فهو عالم بصير سميع مطلع لا في آلات السمع والبصر، فلا يدرك بشيء من الحواس البشرية. فكانت صفاته وأسماؤه شيئاً واحداً كله سمع وكله بصر وكله يد وكله أعلى وكله أسفل وكله علم ومشيئة وكله ذاته. وقالوا بعدم رؤية الله يوم القيامة، وقالوا ان القرآن مخلوق لله لم يتكلم الله بحرف منه. وفي أسماء الله الحسنى قالوا إنها أسماء عربية محدثة من وضع البشر هي غير ذات الله. وقالوا إذا كان الله قد استعمل صفة الكلام فيكون قد تبدل من وضع الساكت إلى وضع الناطق والعكس بالعكس وإسناد التبدل إلى الله محال. وقالوا الاعتقاد بأزلية القرآن إلى جانب قدم الله شرك... الخ.

35 ـ ليس في الديانة الإسلامية تجسد للإله أو تقمصه الصور البشرية مطلقاً، إنما قد تأخذ الملائكة الصور الإنسانية والأشكال البشرية فتظهر بزي الإنسان. من ذلك قوله تعالى ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً﴾. وفي محل آخر ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم البشرى﴾. وظهر ملاكان أمام لوط ﴿قالوا يا لوط انا رسل ربك﴾. وظهر روح الله أمام السيدة مريم أم السيد المسيح ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً﴾. وظهر جبرائيل بصورة إعرابي.

36 ـ لم يشأ قسم من العالم الإسلامي أن يبقى السيد الرسول أقل مرتبة ممن سبقه من الأنبياء فأسندوا إليه أنه رأى ربّه مرتين وهو جعد أمرد عليه حلة خضراء وله شعر قطط وانه وضع يده على كتفه... وسيد الرسل يقول «نوراني أراه». والمحدثون يقولون رآه مرتين حتى جاءت المعتزلة وحكمت العقل بالصفات فنزهوا الله عن جميع أمثال هذه المدخولات.

37 ـ ان تثليث الآلهة كان قد شغل الأفكار البشرية منذ أزمان واغلة في القدم. فان أقدم ما عثرنا عليه في تاريخ الفراعنة هو الثالوث المكوّن من الآلهة «اوزيريس، ايزيس، حورس» وهو الأب والأم والولد، الإله الواحد، وقد مزج بذاته الطبائع الثلاثة المختلفة من دون أن يطرأ عليه تغيير وهو خاص لبلدة ابيدوس.

ثم يأتي الثالوث الثاني المكوّن من الآلهة «آمون، مون، خونس» وهم أيضاً الأب والأم والولد، الإله الواحد، وقد مزج بذاته الطبائع الثلاثة من دون أن يطرأ عليه تغيير. وهو خاص لبلدة طيبة (تب) عاصمة الفراعنة.

ثم يأتي الثالوث الثالث المكوّن من الآلهة «فتاح، سخت، ايموس» وله الصفات عينها وهو ثالوث مدينة منف.

ثم يأتي الثالوث الرابع عند المصريين أيضاً وهي آلهة الحساب بعد الموت مكوّن من الآلهة «انوبيس، معات، توت». فان انوبيس مكلف بوزن قلب الميت بالميزان الإلهي، ومعات ربة الحق والعدل تضع ريشتها في كفة الميزان المقابلة للقلب، وتوت يدوّن بقلمه نتيجة الوزن، ثم تقدم التقارير إلى الإله الأعظم «اوزيريس». ووجد الانكليزي «كرفت» ورقة بردى محفوظة في المتحف البريطاني فيها أسطورة يوم الحساب، وفيها أن الإله توت واقف عن يمين الإله اوزيريس.

ثم يأتي الثالوث الخامس عند الكلدانيين وهو مكوّن من الآلهة «آنو، انليل، ايا» وآنو الأب وهو إله السماء وما فيها، وانليل إله الأرض والهواء، وايا إله المياه والزوابع.

ويأتي بعد هؤلاء الثالوث السادس عند البابليين وهو مكوّن من «شمش، سن، عشتار» وهم الولد والأب والأم.

ثم يليه الثالوث السابع عند السومريين مكوّن من «آبو، وزوجته وابنه». وفي المتحف العراقي تمثال للإله آبو ولزوجته وقد كتب تحته هذه العبارة: «وبجنب الإله يشاهد زوجته المقدسة وعلى قاعدته شكل طفل لم يبق منه إلا رجلاه، ربما كان يؤلف مع الإله وزوجه ثالوثاً أسطورياً مقدساً، عثر عليه في تل اسمر حوالى 2800 ق. م.».

ثم يأتي الثالوث الثامن وهو يخص آلهة الحساب عند اليونانيين مكوّن من «مينوس، رادامانت، ايباك»؛ فرادامانت مكلّف بمحاسبة أعمال الآسيويين وايباك بمحاسبة موتى الأوربيين ومينوس رأس الثالوث يلاحظ أعمال أخويه رادامانت وايباك وله القول الفصل في الحالات المرتبكة.

ثم يليه الثالوث التاسع عند الهنود والبراهمة وهو مكوّن من «براهما، فشنا، سيفا» فبراهما رأس المثلث وهو الإله الأعظم خالق الكائنات، منه بدأت وإليه ترجع. وفشنا الحافظ الأمين للخلائق وبيده البقاء والحياة وهو إله الشمس. وسيفا هو المغني والمعيد ومعناه الرؤوف الرحيم والمنعم والمخلص.

ويعقب هؤلاء المثلثات، الثالوث العاشر عند المسيحيين وهو مكوّن من «الآب والابن وروح القدس» الإله الواحد. فان الآب رأس الثالوث وهو خالق الكائنات، والابن بيده دينونة العالم والروح القدس هو المحيي والمميت.

ويعقبه المثلث الحادي عشر عند قبائل «اشى كونغو» من أمم الالبانتو في افريقيا مكوّن من الأب الإله (زاير) وهو اسم لنهر يجري في بلادهم، ويليه الأم (نزامبي) وهي أم النهر كونغو ثم الولد (ديسوس) وهو ابن الإله زاير.

38 ـ لم يشأ بعض الأقسام من المسلمين المغالين أن يبقوا بدون مثلث، فجعلوا مثلثهم مكوّناً من «الله، محمد، علي» وآخرون من «محمد، علي، فاطمة» فقد جاء في كتاب الوشيعة (ص 101) «روت الشيعة الغالية مثل الكافي والوافي والتهذيب أن الله خلق محمداً وعلياً وفاطمة أول ما خلق، فمكثوا ألف دهر»، «وكان قد مكث زرادشت ستة آلاف سنة»، ثم خلق العالم وأشهد هؤلاء الثلاثة خلق العالم ثم فرض طاعة هؤلاء على العالم وفوّض أمور العالم إليهم[1] فهم يفعلون ما يشاؤون ويحللون ما يشاؤون ويحرمون ما يشاؤون.

ومثلث النصيريين مكوّن من «المعنى والإسم وروح القدس». فالمعنى هو الآب وهو الله والإسم هو الابن وهو محمد وروح القدس هو الباب وهو سلمان الفارسي[2].

(1) كان الإله الفرعوني آمون قد فوّض أمور محاسبة الأرواح في اليوم الآخر إلى الإله اوزيريس وفوّض الآب الإله العظيم دينونة البشر يوم القيامة إلى السيّد المسيح، عيسى بن مريم «لأن الآب لا يدين أحداً».
(2) الكتاب الثالث، لاحقاً، الفصل الثاني.

39 ـ ومن الغريب جداً أن يكون للكلدانيين مثلث لآلهة الشر تسمى الشياطين المثلثة مكوّن من «لبارتو، لباصو، اخازو». فلبارتو جنّيه ابنة الإله آنو يعاونها لباصو واخازو في اهوار القصب وسواحل الأنهار وأفواه الآبار فتهاجم الأطفال وتغرقهم.

وللكلدانيين مثلث آخر أغرب مما سبق مكوّن من الجان «ليلو، ليلتو، ليلى». فأما ليلو فهو ذكر اعزب يهاجم النساء في الخلوات والممرات والدهاليز والصحارى وقمم الجبال فيولدهن وأما ليلتو وليلى فهما جنّيتان ليس لهما أزواج فتهاجمان الذكور من البشر في اليقظة أو في الحلم (؟).

40 ـ لماذا توجه الفكر البشري نحو التثليث؟ من المعلوم أن الإنسان الأول وحتى بعض فلاسفة اليونان، كانوا يعتقدون أن لكل إله زوجة وأن الآلهة تتناسل في ما بينها وتتكاثر كالبشر. ولما كان أصغر عائلة تتكوّن من ثلاثة أشخاص وهم الأب والأم والولد، فلأجل رفع التكاثر، يغلب على الظن أن الرهبان القدماء قرّروا الاعتماد على الثلاثة فقط. وعندما تسرّبت الفلسفة إلى الديانات، حذفوا كلمة التناسل وأقاموا مقامها الأفعال والصفات، فأصبح الإله واحداً بالذات مثلثاً بالصفات من دون أن يطرأ عليه تغيير، فأخذها أحدهم عن الآخر وانتشرت في العالم القديم والحديث ولم نجد للتثليث سبباً آخر معقولاً.

41 ـ يظهر من تتبّع أمر الآلهة عند الأقوام والملل المختلفة منذ الاكاديين والسومريين والكلدانيين والمصريين حتى يومنا هذا، أن سدنة المعابد الوثنية والكهنة والرهبان قد منحوا الآلهة والأصنام صفات القوة والقدرة والبطش أو الرحمة والعفو والصفح، وقد أقنعوا البشر بهذه الصفات وجعلوا أنفسهم واسطة بينها وبين الناس، مستفيدين من سذاجة العقول البشرية. فهم يقبضون الهدايا والقرابين والنذور والموقوفات ويحتسون الأقداح سراً وعلانية باسم الإله المقدس.

42 ـ يظهر مما مرّ أن الإيمان بالآلهة الساكنة في السماوية أو في أعماق المياه أو في قمم الجبال، وكذلك الإيمان بعبادة الأسلاف كان شائعاً في جميع الأمم والأقوام، ثم تطورت المعتقدات إلى الإيمان بمظاهر الطبيعة كالرعد والبرق والشمس والقمر. ولما رأى البشر ان رئيس القبيلة واحد والملك واحد، وأن الكثرة تستوجب الخلل والفساد، جعلوا إلهاً فوق الآلهة. فكان آمون عند الفراعنة، ومردوخ عند البابليين، وزوس عند الإغريق، وجوبتير عند الرومان، وبراهما عند الهنود، وبوذا عند الصينيين، واعتبروا الآلهة الأخرى في الصف الثاني أو عبيداً لإله الآلهة. وكان من الملوك ورجال الأديان منذ حمورابي وما قبله مَن يدعون أنهم قد أخذوا شرائعهم من إلههم الساكن في الشمس أو في السماء أو في أعماق المياه، لتكون لشرائعهم منزلة محترمة في قلوب الناس ولئلا يصيبها التبديل والتحوير. ويُرى حمورابي في مسلته واقفاً أمام إلهه شماش يستلم منه شريعته. فكانت الشرائع جميعها سماوية إلهية باستثناء بعض الأديان في الشرق الأقصى وفي اليونان. ولما وصل الإنسان إلى درجة يفرق بها بين الطاعة والمعصية، جاءت الأديان الكتابية الثلاثة المتأخرة بالتوحيد المطلق وثبتت صفات الإله الأعظم وأفعاله وأعماله وأفردته بالوحدانية والحكم والخلق والتكوين.

43 ـ لما اتسعت معارف الإنسان وانتشرت العلوم والفنون في القرن التاسع عشر وكثرت المدارس والجامعات والكليات، وارتقت الفلسفة المادية، شرع الإنسان المتعلم ينظر إلى الإله غير نظرته

الساذجة الأولى. فكان الإله الجبار الذي كان يظن ويعتقد أنه ينتقم من الجيل الثالث والرابع من أحفاد مبغضيه ومن الذين لا يعبدونه حق عبادته، المتقلب الأطوار والأفكار والذي يرضي ويسترضى بالقرابين والهدايا والنذور ويقبل الرجاء والشفاعة ويتبدل ويتغير عن إرادته ومقدراته بشفاعة الشافعين ويداهن ويستثار ويقسم سلطته بينه وبين ابنه ويغضب لأسباب تافهة، فيقلب سدوم رأساً على عقب ويضع له مرافقين ـ كملوك البشر ـ لتبليغ أوامره ونواهيه، ويعد النعيم بافراط في جنائنه، والعذاب بقسوة لمخلوقاته في جحيمه تبعاً للعقلية السائدة حينذاك، ويتدخل في كل حركة من حركات الكون وحتى ما هو كائن في أجزاء الصخور والمعادن الأرضية وفي منابع المياه وفي الجبال والوديان والصحارى والفلوات وفي الحيوانات والنباتات وفي كل ذرة من ذرات الكائنات... الخ، أصبح عند المتعلمين والمثقفين الإله الواحد الأحد الحاكم بواسطة السنن الكونية الموضوعة من قبله التي ليس لها تبديل ولا تحويل لا يتدخل بحركة الجزئيات ولا ينفعل لا قليلاً ولا كثيراً من أمور الناس، ولا يتأثر من المخالفات ولا يفرح وينتشي بعبادة الصالحين وتسبيحات المؤمنين، ولا يغضب وينتقم من الملحدين والمنكرين ومن الجاحدين والكافرين، فلا طفرة ولا رغبة ولا هوى. فقد وضع مرة واحدة لذرات هذا الكون سنناً ونواميس محكّمة الصنع ومتقنة الوضع، لا تحتاج من الأزل إلى الأبد إلى التدخل والصيانة والتعمير والترميم والاصلاح والتعديل والتبديل والتحويل؛ وهذا هو «صنع الله الذي أتقن كل شيء».

44 ـ فعلم الإنسان الحاضر أن هذا الكون لم يأتِ بضرب لازب ولم يكن كرة قدم تقاذفتها الآلهة ذات اليمين وذات الشمال، تلك الآلهة المتقلبة الأخلاق والأطوار والمتغيرة حسب الرغبات والأهواء والمتبدلة تبعاً للطلبات والشفاعات. وعلم الإنسان المتعلم أيضاً أن لا فرق بين ما يسمى بالأمور الطبيعية أو المعرفة العلمية الخاضعة للعلوم الطبيعة، وهي الحوادث المتكررة والمفهومة العلل والأسباب، وبين ما يسمى وراء الطبيعة أو المعرفة الخاضعة لعوامل فوق الطبيعة، وهي النادرة الوقوع غير مفهومة العلل والأسباب والتي كانت في ما سبق تنسب إلى أرواح أو إلى قوى مجهولة غامضة خارجة عن نطاق العلم الطبيعي، فلا طبيعية ولا ما وراء الطبيعية، إنما جميعها واحدة، منها ما هي معلومة العلل والأسباب عرفت بعد جهود متواصلة، ومنها ما هي مجهولة لم تزل في طريق الحل والكشف، وجميعها تابعة لنفس القواعد والسنن الثابتة التي وضعها المكوّن الأعظم مرة واحدة. فهي ثابتة لا تتغير ولا تتبدل بأي حال من الأحوال ولأي شخص كان وبأي زمان ومكان.

45 ـ وبعد أن اقتحم العلماء في زماننا قلب الذرة واطلعوا على مكنوناتها وما تحمله من طاقة تحير العقول والألباب، وعلموا ان كهارب ذرة الهيدروجين مثلاً هي في الأرض وفي الشمس والكواكب والنجوم والسدم محافظة على كهاربها الإيجابية والسلبية والمعتدلة بنظائر قليلة.

وبعد أن اطلع العلماء على العوامل الوراثية المشحونة في نواة الحيمن «الحوين المنوي» المكوّنة للشخص الكامل، وما تحمله من أوصاف مادية [العضلات، العظام، الأغشية، الكبد، الطحال، الرئة، الأمعاء، الجلد، الدماغ... الخ] ومعنوية [العقل، الذكاء، الفكر، الادراك وسائر الأعمال الذهنية] وكلها في حالة الذر. وكذلك ما تصنعه الخلية الحيوانية في معاملها، وهي غير مدركة، من الفرث والدم من

لبن خالص سائغ، ودمع صافٍ وظلم حلو، ونطفة حية وعصارات ـ صفراء، بانكرياس غدد... ـ هاضمة، وقابلياتها في تمثيل المواد المعدنية وقلب تلك المواد المعدنية إلى طاقة غذائية وقابلياتها في قلب الطاقة الغذائية إلى طاقة حركية وذهنية، وكذلك الخلية النباتية وما تحمله من الأوصاف الوراثية وما تصنعه في معاملها من العقاقير والمنتجات والأثمار. وكل هذه الخلايا الحيوانية والنباتية تتولد بالانقسام وتتغذى وتنمو وتكبر ثم تهرم وتنقسم على نفسها. وفي أثناء حياتها، تقوم بوظائفها الحياتية بالنظر لفصيلتها وأنواعها على نمط واحد، وتصنع على نظام واحد، وتعمل على سياق واحد وتنتج على نوع واحد لا تتعداه ولا تتخطاه، وكذلك الآلية الجسمانية. ففي الإنسان مثلاً، قد ينبض قلبه سبعين مرة في الدقيقة ومائة ألف مرة في اليوم ونحو ستة وثلاثين مليون مرة في السنة وألفين وخمسمئة مليون مرة تقريباً مدى الحياة، ويضخ القلب في سرعته القصوى نحو عشرة ليترات من الدم في الدقيقة الواحدة وأربعة عشر ألف ليتر في اليوم وخمسة ملايين ليتر في السنة وثلاثمئة وخمس وستين مليون ليتر مدى الحياة. ويقدر مجموع كريات الدم الحمراء في المليمتر المكعب الواحد خمسة ملايين كرية، تقوم كل واحدة منها بنقل الأوكسجين والغذاء إلى مختلف أنسجة الجسم لمدة اسبوعين فقط ثم تتحطم، ويقدّر مجموع الكريات التي تتحطم منها في الثانية الواحدة بمقدار عشرة ملايين كرية، ويموّن النخاع العظمي الدم بكريات جديدة باستمرار عوضاً من المحطمة، وتطرد أشلاء الكريات عن طريق الكبد. وقد يستهلك الجسد البشري ثلاثة آلاف كالوري في اليوم ومليون كالوري في السنة وسبعين مليون كالوري مدى الحياة. وكذلك أعمال الرئة، والكبد، والكلية، والامعاء... الخ. وكذلك الحال في الحيوانات على اختلاف أنواعها وأشكالها وأجسامها، كل بنسبته كما هو الحال في الإنسان. وبالاجمال، كل النظام الموجود في الآلية السماوية والأرضية والحيوانية والنباتية. وعلى هذا فلم يبق للعقل السليم إلا أن يذعن ويسلم بوجود المكوّن الأعظم الصمداني السرمدي الذي وسع كرسيه السماوات والأرض، فهو الذي صنع هذا الكون ووضع له هذه النواميس والسنن الإلهية الطبيعة وهو الذي منح كل ذرة من ذراته قوة من عنده وقبساً من نوره، حيث لم يبق لها من حاجة للاستزادة في الداخل أو ادارة شؤونها من الخارج. وهو الذي رتّب هذه العوالم بهذا الترتيب المتناسق البديع ونظّم هذه الأكوان بهذا التنظيم المتماسك المنسجم، ولا يؤده حفظ ما رتب، وصيانة ما نظّم، فكان هذا الكون وهذه النواميس الطبيعية الثابتة الدقيقة صنع عالم حكيم نظّمها ورتّبها وأتقن صنع ما نظّم وأحكم تنفيذ ما رتّب ﴿ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم﴾.

46 ـ ذهب محمد بن جرير الطبري والأشعرية كلها إلى أنه لا يكون مسلماً إلا من استدل وإلا فليس مسلماً. وقال الطبري من بلغ الاحتلام من الرجال أو بلغ المحيض من النساء ولم يعرف الله عز وجل من طريق الاستدلال فهو كافر حلال الدم. وقالت الأشعرية لا يلزمهما الاستدلال على ذلك إلا بعد البلوغ. فكان الإيمان بوجود الله القائم على الاستدلال من شروط الإسلام، وكان الاستدلال والعلم أعظم شأناً من الإيمان بالله المستند على التلقين والتقليد الأعمى. وكانت المكتشفات العلمية والقواعد الفيزيائية والتحليلات الكيميائية والعلوم الزمنية والعقلية نبراساً تهدينا إلى معرفة الله شيئاً فشيئاً. فان هذا الإله العظيم لم يعرفه البشر حق معرفته بعد، وقد كشف العلم عن جانب واحد من أعماله

وأفعاله فقط، فهو جدير ان يعرف ويعلم. والإيمان به يوافق العلم والعقل والمنطق. كل هذا من جهة القواعد الطبيعية والمحسوسات والملموسات.

47 ـ أما من جهة المعقولات، فإن العقل البشري لا يستطيع في الحال الحاضر أن يرى حقائق الأشياء على ما هي عليه، وأن يقف على ماهية الكون وعلى فهم أسرار العالم، لأن الصور والأشكال المحسوسة والملموسة للأشياء لا تدلنا على الحقيقة المطلقة إنما هي مرتبطة بأجهزتنا الحسيّة وبدرجة إدراكنا للأشياء. فلو استبدلنا هذه الأجهزة والحواس بغيرها اكثر منها دقة وإحساساً، لوجدنا ماهية الأشياء غير ما هي عليه الآن، كما حدث في اكتشاف محتويات الذرة في زماننا هذا ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ (البقرة 254). فبينما يكون الشيء حاراً إذ يصبح بارداً أو بينما يكون جامداً إذ يصبح سائلاً... فأين هي حقيقة الشيء؟ لذلك لا يجوز مطلقاً الاستناد على العقل البشري في تقرير ماهية الكون التي تخص الخالق الإله الصانع الذي قد احاط هو وحده علماً بما صنع ﴿وان الله قد احاط بكل شيء علماً﴾ (الطلاق 12).

48 ـ وأما ما يسمى «عالم الغيب» فهو عالم ما في طبقات ما فوقنا وما دوننا من طبقات الكون، وهو فوق مقاييسنا وفوق متناول عقولنا، وبعيد جد البعد عن أفكارنا وتصوراتنا، فلا يمكننا مشاهدته واختياره ولا يمكننا تحليله وتدقيقه والوقوف على ماهيته، بعد أن عجزنا عن الوقوف على «الحقيقة المطلقة» في حقائق الأشياء التي في متناول أيدينا. وإذا سلمنا بانتهاء معرفتنا العلمية الضئيلة هذه، عند حد من حدود الكون، فليس لنا الحكم على ما وراء تلك الحدود وما فيها من موجودات، وقد تكون في الآفاق التي تبعدنا ألف مليون (مليار) سنة ضوئية! قوى إلهية فوق معرفتنا وأجسام ذات بعدين فقط أو أجسام ذات بعد واحد فقط أو أجسام نورانية شفافة لطيفة بدون ابعاد، ليس لها حيّز ومكان مثلاً، وهذا ما عناه القرآن الكريم باستحالة رؤيتها في قوله تعالى ﴿فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ (الحاقة). وإذا كانت الفلاسفة وهداة البشر ورجال الأديان قد تفرسوا وجودها وذهب كل منهم مذهباً في تعريفها وتصويرها، فان أحداً منهم لن يصل إلى معرفتها ووصفها على حقيقتها ﴿ولا تحيطون به علماً﴾ (القرآن). وكلما قالوه عنها مقتبس من المعرفة البشرية والأجزاء الإنسانية والمقاييس المتعارفة الكونية.

49 ـ وبما انه تعالى لا ينفعل من أمور الكائنات ولا يتأثر من المخالفات ولا ينتفع بشكر الشاكرين ولا يتضرر من كفر الكافرين ولا يغضب من جحود المتكرين، فهو إذن لا يهمه أن يعرفه البشر ليعبدوه في هذه الأرض الحقيرة بالنسبة للكون العظيم. فهو إله العالم والكون أجمع، لا إله هذه الأرض وحدها ولا إله هذا الإنسان التافه المغرور وحده. وهو بكل شيء محيط وهو الغني الحميد وهو العلي العظيم.

الفصل الثاني الـروح ومسـتودعـها

1 ـ كان البعض من الفلاسفة القدماء يعتقدون أن القلب هو مستودع الروح، والبعض الآخر يعتقد أن ذلك المستودع هو الدم، وقليل من فلاسفة اليونان من قال إنه الدماغ. وتخبط العالم في مقر الروح، إلى ان قدّم علماء التشريح والفسلجة المعلومات الثمينة عن مقرها ومستودعها، فأثبتوا انه الدماغ. وأثبتوا ان الدماغ هو المقر العام للجملة العصبية وهو المنبع الحقيقي للتفكر والتعقل والذكاء وكافة الحركات والاحساسات والأعمال الذهنية والقوى البدنية.

وفي تاريخ علم الروح psychologie والنفس عندما قال سقراط «اعرف نفسك» كان يشير إلى شيء غير الجسم المرئي. وقرر «دموقريت» رأس الماديين أن الروح مكوّنة من ذرات مادية كذرات النار تدخل الجسم وتكوّن الحرارة. وهي متناهية في الدقة ومتناثرة في الجسد خالدة لا تموت، ولكنها تتناثر وتتقمص جسداً آخر فتدخل في حياة جديدة.

وادعى هرقليطس بمادية الروح الإنسانية وقال إنها ألطف وأدق صورة من صور النار المقدسة الخالدة فلا يشملها العدم. وأما هوميروس، فذكر ان الروح بعد أن تفارق الجسد الإنساني تنزل إلى مملكة الأموات تحت الأرض محتفظة بشعورها، إلا أنها لا تتحرك وليس عليها عقاب، ولا ثواب. وأما الشاعر هيزيود فقد اعترف بالثواب والعقاب. وذكر افلاطون أن الروح موهوبة من الله ومتحركة بالذات تتذكر الماجريات السابقة وتتقمص الأجسام بالتعاقب. ودخل أرسطو في علم النفس بطريق علم الحياة، وبعد ان قال إن البدن هو للروح، قرر ان الروح ما هي إلا قوة الحياة، والحياة هي التي تتحرك ويتغير بناؤها ومبدؤها الروح. فإن الروح عند ارسطو ليست العقل والشعور فحسب، إنما تشمل جميع الأفعال الحيوية كالتغذية والاحساسات والإدراك. ومع هذا لم يسلم ارسطو من الخطأ حين جعل النفس من القوى الميتافيزيكية. وله مطالعات حولها نضرب صفحاً عن ذكرها.

2 ـ وأخيراً بعد عهد الرنسانْس [عصر النهضة] قرّر ديكارت أن الروح والمادة ماهيتان مستقلتان عن بعضهما. ووجد أن ماهية الروح وكنهها تتقرر بالتفكرات. وجاء بعده ليبنيز Leibniz بنظريته المونادية monade «والموناد جوهر بسيط فعّال لا يفنى يدخل بتركيب الموجودات كافة»، فقال ان الروح والمادة كلاهما «موناد» قد يفترق الواحد عن الآخر ويسير عملهما متوازياً وجنباً إلى جنب تحت نظام إلهي أبدي أزلي. وقال اسبنيوزا ان الروح والمادة شيء واحد اختلفا بالأوصاف. وأما هوبس فلم يعترف بأن الروح جوهر قائم بنفسه إنما هو نتيجة عمل العقل الكلي. وربط هيوم Hume الحوادث الروحانية كافة بالاحساسات فاتجه نحو الماديات.

3 ـ وكان علم الروح «السيكولوجي» يعتبر فرعاً من علم الحياة «البيولوجي» حتى أوائل القرن التاسع عشر، وعند البعض شعبة من الإلهيات. فكانت الأبحاث الروحانية في ألمانيا مندمجة بالميتافزيكيا وبالإلهيات. وفي أواسط هذا القرن شرع العلماء في فرنسا يفحصون مختلف المظاهر الروحية في

نطاق علم الأمراض [الباثولوجيا] والفيزياء، فتأسّس علم السيكولوجيا مستنداً على التجربة والاختبار. وبذلك خرج من أيدي الإلهيين.

وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر أصبح علم الروح [السيكولوجيا] من العلوم الطبيعية فتركت الأساليب القديمة التي تبحث عن منشأ الشعور والروح جانباً ووضع وبر Weber وفخنر Fechner الألمانيان قواعد للاحساسات. وأسّس الاستاذ وندت Wundet في ليبزغ مختبراً سيكولوجياً لا يقل أهمية عن المختبرات الفيزيائية لفحص المسائل المتعلقة بالاحساسات والأفعال الروحانية المختلفة (الحافظة المخيّلة، التدقيق، الهبوط، التهيّجات، الإرادة والتفكير...). وبهذا خطا علم الروح خطوة كبرى نحو العلوم الطبيعية وأصبح من العلوم التابعة للفحص والاختبار عوضاً عن ان يبحث في مسائل نظرية صرفة لا تدخل ضمن مقاييس التجارب والامتحان، كالبحث عن منشأ الأرواح ومناسباتها مع الجسم ومصيرها بعد الموت... وغيره.

4 ـ وعند هذا الحد حصل التّماس بين رجال الدين الذين يعتبرون أن الروح جوهر سيّال غير مادي يدخل الجسم عند الولادة ويتركه عند الوفاة وعليه الحساب والكتاب، وبين علماء السيكولوجيا الذين يعتبرون الروح تابعة لدرجة ما لقواعد الفيزياء، فترك الفلاسفة كلمة الروح للروحانيين واستعملوا كلمة «علم النفس». وبذلك انتهى الخصام.

ومع هذا، لم يزل هناك في جامعات فرنسا وانكلترا وألمانيا وأمريكا من يعطي الدروس في الكليات عن السيكولوجيا المؤسسة على الروحانيات والتحريات الباطنية introspection بجانب السيكولوجيا الاختبارية.

5 ـ ولأجل إيضاح ماهية الروح بمدلولها المعلوم، لا بد أولاً من اعطاء بعض المعلومات عن وضع الدماغ وحالته التشريحية وأعماله وأفعاله ليسهل فهمها. وسيكون ذلك باقتضاب طبعاً وبقدر ما له مساس بهذا الموضوع.

ان لجميع الحيوانات، من النملة حتى الفيل، جهاز عصبي مركزه العام هو الدماغ. وهو موضوع ومحفوظ في علبة من العظام تسمى عظام القحف. يتكوّن الدّماغ من فصّين كبيرين وفص صغير آخر وراءهما يسمى المخيخ. ويتكون الفصّان الكبيران من نسيج داخلي أبيض اللون يحيط بهما قشر سنجابي يلفهما من جوانبهما كافة.

ان الدماغ هذا هو عضو التفكير الوحيد. وقد ثبت في علمي التشريح والفلسفة أن قوة الملكات العقلية والروحية متناسبة مع حجم الدماغ وشكله ونموّه وتركيبه وأقسامه المختلفة. وإذا كان لبعض الحيوانات كالحوت المسماة بالينا والفيل دماغ يفوق حجماً ووزناً دماغ الإنسان، فإن القسم النامي في هذه الحيوانات من الدماغ هو القسم الحركي ومراكز الألياف العصبية. وأما النامي من دماغ الإنسان فهي الأقسام الأمامية التي في الجبهة، وهي الخاصة بإدارة الوظائف الذهنية والمراكز الحسية والتفكير والوعي والإرادة والعقل والرأي والذاكرة. وهذا هو القسم السنجابي الذي جعل الإنسان فوق المخلوقات. كما ان كمية الدماغ في الإنسان وحدها ليست كافية لتعين درجة الذكاء وقوة الملكات

العقلية، إنما يجب ملاحظة كيفية النسيج العصبي وفاعلية الخلايا والعناصر الكيميائية المكوّنة للنسيج العصبي ـ خاصة الفوسفور ـ وصلابة الدماغ... الخ.

6 ـ ان قشر الدماغ أو الطبقة السنجابية بالإنسان ويبلغ ثخنها نحواً من 2 ـ 3 مليمترات، وعدد خلاياها التقريبي 9,500,000,000 قد نمت نمواً كبيراً فسترت الدماغ وأحاطته من جوانبه كافة. ولأجل أن تكون أكثر سعة، فقد التوت والتفّت على نفسها، الأمر الذي سبّب البروزات والانخفاضات العظمية، وهذه تسمى التلافيف الدماغية وهي مكوّنة من الألياف والخلايا العصبية.

7 ـ أما الألياف فهي التي تقوم بنقل المؤثرات الخارجية والداخلية إلى الخلايا في المراكز المختلفة. وأما الخلايا فبعد أخذها هذه المؤثرات، تحوّلها إلى الاحساس والإرادة والفكر والذكاء والحركة والذاكرة... الخ، فتصدر بشأنها من هناك الأوامر اللازمة وتنفذها عضلات الجسد التي منها العضلات الإرادية وهي المخططة الحركية، ومنها العضلات اللاإرادية وهي عضلات القلب والأمعاء وهي الملساء، فيظهر من هذا ان الجوهر السنجابي أو القشر الدماغي هو المركز الجبار والمعمل العظيم لتكوين أعمال الروح والأعمال الذهنية كالذكاء والعقل والتفكير والحس والوعي والخيال والوجدان والإرادة ومختلف الأحاسيس والانفعالات الأخرى كالخوف والفرح والضحك... الخ. وهو الذي يميز الإنسان عن الحيوان، وحتى بين إنسان وآخر. وعلى هذا تكون قوة الروح متناسبة مع نمو الجوهر السنجابي وسعته وصلابته كما مر.

وقد ثبت من تشريح ادمغة الحيوانات المختلفة أنه كلما نقصت التلافيف قلّ الذكاء؛ فإن التلافيف في الكلب أكثر بكثير مما هي في الأغنام إلى أن تصبح ملساء في الأسماك والأجنة والطيور.

8 ـ ان الدماغ ينمو في الإنسان بسرعة حتى الخامسة والعشرين من عمره، ويستمر نموه بسرعة أقل حتى يصل الدرجة القصوى في سن الخمسين ويأخذ بالضعف حتى السبعين، ومن ثم يصل الشيخوخة حيث تنصب المترشحات بين خلاياه. وفي هذه الحالة يميل إلى الميوعة وتزول صلابته، وهنا يأخذ الذكاء بالتناقص وتختل القوى الذهنية كافة بالتدريج، فيكثر الذهول والنسيان حتى يصل الشخص أرذل العمر فينسى كل شيء ولا يعلم من بعد علم شيئاً. ويكون هذا التناقص وذلك الانحطاط تابعين لصحة الشخص واشتغالاته الذهنية ومستوى معيشته... الخ.

9 ـ ومن المحقق أن للتربية والتمرينات الذهنية تأثيراً عظيماً في نمو الطبقة السنجابية وبالوسيلة في الأعمال الصادرة منها، ونقصد بها أعمال الروح. فإن الأعضاء في الحيوانات كافة تنمو نظراً لفعاليتها واشتغالها وتضمر عند سقوطها عن العمل. فالتربية القوية والتهذيب والتعليم ينمي الدماغ ويوسّع فيه ملكة الإدراك، وان اهمال أمره يؤدي إلى ضموره. والواقع ان أولاد العلماء والمفكرين والرجال العظام قد يأخذون بالوراثة ادمغة كبيرة عن آبائهم وأجدادهم. وعليهم للإبقاء على قدرتها الكبيرة ان يروّضوها بالفعل ويمرّنوها على الاشغال حيث تقوى عندهم الملكات العقلية كتقوية الملكات باليد عند الكتابة وملكات النطق عند الخطباء والمعلمين والمحامين مثلاً. قد ينبغ من بين الطبقات

المتوسطة أفراد أكثر ذكاء من أولئك بفضل مجهودهم الشخصي ومساعيهم وكثرة تفكيرهم، وهؤلاء هم العصاميون.

10 ـ ان هذه النظرية التي تقول بأن تقوية العقل والروح تتناسب مع السعي والتربية، سار مفعولها حتى في الحيوانات. وما سبقَ الإنسان جميع الحيوانات في هذا المضمار إلا بفضل إجهاد فكره دون هوادة. ولا ريب ان جمجمة الإنسان آخذة بالتوسّع، خاصة من الجهة الأمامية أي الجهة التي هي مستودع الأعمال الذهنية. وقد برزت إلى الأمام وارتفعت كثيراً بالنسبة إلى ما كان عليه الإنسان الأول البدائي الذي وجدت جماجمه في المغاور والكهوف، فكانت تلك الجماجم ضيّقة من الأمام واسعة من الوراء مما يدل على ضعف في الأعمال الذهنية وقوّة في الأعمال البدنية. فأدمغة الحمقى والمجانين والبلهاء والأغبياء هي تحت النصف المعتاد للدماغ البشري المتوسط. ويقول بعض الغلاة أن أدمغة الزنوج وقبائل أفريقيا الوسطى أصغر حجماً بكثير من أدمغة العرق السامي والقوقازي. ويدّعي العلماء الأوربيون أنه بينما سعة جمجمة الرجل الأسود الداخلية 65 عقدة مكعبة ووزن دماغه لا يتجاوز ألفاً وأربعمئة غرام إلا قليلاً فان سعة جمجمة العروق البيضاء 90 عقدة مكعبة ووزن أدمغتهم تبلغ نحواً من ألف وخمسمئة غرام. ويدّعي بعض العلماء أن أدمغة سكان استراليا الأصليين قد تتراوح بين 1350 ـ 1400 غرام. ومن أراد المزيد حول هذا الموضوع فهناك مؤلفات كثيرة في علم أحوال البشر [الانثروبولوجي] ونحن لا نذكر منها إلا ما هو متعلق بموضوعنا فقط.

11 ـ قام العلماء بإجراء تجارب على أدمغة الحيوانات للوقوف على مقر الروح ومستودعها. ففتح العالم «فورانس» قحف حيوان وقطع بين آونة وأخرى طبقات رقيقة من سطح الدماغ. فشاهد في كل مرة تناقص الملكات العقلية شيئاً فشيئاً، حتى إذا ما رفع القسم الأعظم من الطبقة السنجابية زالت الملكات تماماً وتوقف الاحساس والإدراك واختفت كل الخصائص العقلية والأعمال الفكرية، وأصبح الحيوان كالنبات لا يدرك أبداً ولا يتأثر مطلقاً بالمؤثرات الخارجية. ولقد تعيش هذه الحيوانات أسابيع وشهوراً بالتغذية الاصطناعية كالنبات وقد تكسب السمن والاعتدال. من هذه التجربة ثبت للعلماء ان الروح ما هي إلا نتيجة أعمال الدماغ وخاصة الطبقة السنجابية بحيث إذا استؤصلت يعيش الحيوان من دون إرادة وتفكير.

وهناك أعمال تتعلق بالفلسفة أيضاً تثبت وتؤيد ان مستقر الروح هو الدماغ، أو أن الروح ما هي إلا فعل من أفعال الدماغ، أو انها قبس من الكهربية المتحصّلة في الدماغ. ولما كان الدماغ وهو الحاكم العام والمدير للجسد الحيواني يتصل بكافة أقسام الجسد وأجزائه بواسطة الخيوط العصبية، فإن كل تأثير يقع في أي جزء من أجزاء الجسد ينعكس فوراً إلى الدماغ، ذلك أن هذه المؤثرات، سواء أكانت من الداخل بفعل الجهاز العصبي أو من الخارج كتلك التي تتعلق بالروح مباشرة، تنعكس مرة أخرى من الدماغ وتحت أمره إلى مختلف أنحاء الجسد لإظهار عكس التأثير. مثال ذلك الارتعاش عند الخوف واحتقان الوجه عند الاستحياء والخجل، والتماع العيون عند المسرات، وازدياد ضربات القلب عند التهيجات، وحصول الاغماء من الفرح أو من الخوف الشديد، وازدياد انصباب الصفراء عند شدة الغضب، وحصول التقيؤ عند التفيكر بشيء مستكره، وسيلان اللعاب عند أول نظرة تقع على سفرة

الطعام أو عند ذكر المأكولات الشهية، وتسمّم حليب المرضعة عند الخوف أو عند التهيجات الشديدة، وبياض شعر الرأس عند الأكدار والمحن المتمادية، والأمثلة كثيرة تلك المتعلقة بأعمال الروح مباشرة. فإن تأثير الروح في مثل هذه الحالات قد يظهر في الجسد بصورة مادية ومحسوسة. يقول العلماء الاخصائيون: لو كانت الروح جهازاً مستقلاً عن الجسد لما ظهرت أمثال هذه الوقائع المادية الأمر الذي يدل على أن الروح مرتبطة ارتباطاً مادياً بالجسد وما هي إلا فعالية الدماغ والجهاز العصبي.

12 ـ ما هي الروح وما دلائلها؟ من الأمور المسلّم بها أن الروح عندما تفارق البدن ـ على حد تعبير الكهّان ـ تبقى الجثة هامدة لا إحساس ولا حراك فيها. أفليس معنى هذا ان الروح هي التي تدير أمور الجسد، وأنها هي مركز الانفعالات والاحساسات، وأنها هي المحرّك العام للجسد سواء من الوجهة المادية أو الذهنية؟ إننا نعلم أن هذه المراكز والمحرّكات لا توجد إلا في الدماغ وأنها نتيجة أعمال ذلك المعمل الجبّار، وأن الجهاز العصبي هو المسيطر على الوجود من القمة إلى الأظفار. وهذا يجعلنا تجاه عاملين أو اسمين مختلفين «روح ودماغ». فيكون المدير العام للبدن إما الروح وإما الدماغ وتشعباته. فأمّا الدماغ وأفعاله فهي ظاهرة كما مرّ بيانه. وأما الروح فيقول الماديّون: لقد عجز الكهّان عن إثبات وجودها أو إبراز أي عمل من أعمالها بأكثر من أعمال الدماغ وشعبه لا خارج البدن ولا داخله، ويقولون إذن ان الروح والجهاز العصبي كلمتان مترادفتان، وإذن ليست هناك أرواح مستقلة عن الجسد تطير في الفضاء وتتقمص الأجساد عند الولادة وتترك الجسد عند الموت للذهاب صوب الآلهة أو لتدخل جسداً آخر كما يزعم التناسخيون.

13 ـ وإذا كان ـ كما يدعيه الروحيون القدماء ـ ان الروح هي التي تدير شؤون الجسد وهي التي تقدّر الحسن من القبيح والخير من الشر ولها حق الاختيار والتميز، وهي موجودة بذاتها ومستقلة عن غيرها كجوهر خالص لايعتَورِها انقسام ولا مرض ولا موت، فلماذا تنتهي أعمالها تماماً في الأعضاء التي تنقطع أعصابها وتبقى مشلولة لا حراك بها؟ ولماذا تضعف قوتها عند المجانين والبلهاء والأغبياء والمصابين بالأمراض العقلية والدماغية وحتى بالأمراض الاعتيادية؟ ولماذا تختل وظائفها أو تترك حاكميتها عندما يصاب الدماغ بصدمة عنيفة أو رجّة شديدة أو بنضح قطرة من الدم في الجوف القحفي أو من ضربة الشمس ورائحة الكلوروفورم واستعمال الافيون والمخدرات والمسكرات، ولا تضعف قوّتها عند بتر يد أو رجل بتراً تاماً؟

14 ـ إن الذي دعا الإنسان الأول إلى الاعتقاد بوجود الروح مستقلة عن الجسد هو الرؤيا وحالة الجنون وحادثة الموت. فهذه الحالات الثلاث ساقت الإنسان إلى الاعتقاد بوجود شيء روحاني غير مادي يدخل الجسد عند الولادة ويتركه عند الموت. وأما النائم فيذكر رؤياه وقد شاهدها في عالم غير العالم الذي هو فيه، والمجنون يكون تابعاً لبعض المؤثرات الخارجة عن دائرة شعوره.

15 ـ لقد ظهر من بين الفلاسفة من أراد التوفيق بين المادة والروح، فقرّر ان أساس الوجود ناتج عن اتحاد العنصرين المادة والروح وسمي مذهبه «مدرحي». إلا أن هذا المذهب فشل يوم ولادته. وكان من الضروري التفريق بين العقل والروح. فالعقل هو مجموعة مراكز تقررت بالقسم السنجابي وتكاملت

بمرور الأزمان السحيقة وتشعبت نظراً لتقسيم الأعمال، وحصل في نموّها التوازن حيث لم يطغ مركز على آخر. وأصبح لكل ملكة من الملكات العقلية مركز معين في الدماغ.

16 ـ يقسم العقل إلى قسمين: باطني وهو العقل القديم الموروث عن الإنسان الأول حتى الوالدين الأخيرين، وهي سلسلة أعمال انتقلت بالوراثة من الآباء والأمهات إلى الأبناء، والثاني العقل الواعي وهو مجموع تجارب واختبارات ومعلومات وثقافات مختلفة حديثة يكتسبها الشخص في حياته عن طريق الحواس بالرياضة والتربية والتعليم.

وأما الروح فهي مجموعة أفعال الدماغ بكافة أجزائه وجوانبه من حيث الاحساسات والحركات والإرادات.

يظهر من هذا التعريف أن كلمة الروح تصبح أكثر شمولاً من كلمة العقل، حيث يقال ان للحيوانات روحاً، لأن لها احساساً وحركة وإرادة ولا يقال لها عقل. وإذا كان لبعض الحيوانات كالقرد والثعلب والكلب بعض التعقل في حالات معينة، فانها لا تستحق قيمة بالنظر لأنها لم تزل بدائية؛ وأما الحيوانات الصغيرة فمعدوم عندها العقل تماماً. لهذا أصبح الإنسان هو العاقل وحده. وأما الروح بمدلولها فيشترك فيها كافة الحيوانات كبيرها وصغيرها حتى الزواحف والحشرات وغير المرئيات كالجراثيم والميكروبات، مع العلم انه لم يظهر للجراثيم حتى ليف عصبي مرئي، إنما قد تطلب غذاءها وتؤمن نسلها وتحيا بالتخرش والانتباه. وان هذا التخرش يكون السبب في تمديد الاستطالات من البروتو بلازم الذي فيها لأخذ الفريسة. ويعتبر هذا عملاً من أعمال الروح. ويعتقد بعض الفلاسفة ان للنبات أيضاً روحاً نامية. وثبت أخيراً وجود الكهربائية في النباتات.

17 ـ أما الفلاسفة الآخرون فيذهب بعضهم إلى ان الروح مستقلة خالدة وهي جوهر قائم بنفسه تدخل الجسد عند الولادة أو في رحم الأنثى منذ اليوم الأول من تكوين الجنين، ثم تترك الجسد وتطير في الفضاء عند الموت للذهاب إلى الإله أو الآلهة. أما القسم الآخر منهم وهم التناسخيون، فيعتقدون ان الروح إن كانت صالحة فتذهب إلى الكوكب الذي هبطت منه، وإن كانت شريرة فتدخل أولاً في جسم امرأة، وإن لم تصلح حالها ففي جسم حيوان وإن تمادت بالشر ففي جسم حشرة قبيحة المنظر حتى تصلح سيرتها فترتقي رويداً رويداً حتى تصل جسم المرأة فالرجل فالكوكب. وقد تبقى في صعود وهبوط عشرات الآلاف من السنين.

ويقول فلاسفة آخرون ان ليس لدينا ما نرد به على الروحانيين بأكثر من ان نذكر لهم اننا إذا فرضنا أن للروح وزناً مهما كان ضئيلاً وحتى لو كان سيالاً كهربائياً، فان أرواح البشر فقط دون أرواح عالم الأحياء الأخرى، أولئك الذين ماتوا منذ ان صار الإنسان إنساناً، لجديرة بأن تملأ وحدها فضاء الكون كله. وأما إذا أضفنا أرواح عالم الأحياء أيضاً، فسنحتاج إلى فضاء غير هذا الفضاء. ومن جهة أخرى نحيلهم إلى التاريخ المصري القديم حيث يرون فيه ان المصريين القدماء ـ ولعلهم أول من وضع نظرية الروح ـ كانوا يعتبرون ان لكل إنسان روحين: الأول ويسمى «كا» من خصائصه إعطاء الحياة إلى الجسم، ويعتقدون أنه سيعود يوماً ما إلى صاحبه، فلذلك بنوا الاهرامات وحنطوا الأجساد بغية انتظار عودته؛ والثاني ويسمى «با» فهو يفارق الجسد عند الموت ويصعد إلى السماء صوب الآلهة

وينحتونه في تماثيلهم بوجه صاحبه وجسم طائر. ولما ظهر خطل الرأي في عودة «كا» إلى الجسد، ترك هذا الروح نهائياً وارتفع من العقول وتمركز «با» في عقول الفلاسفة القدماء فأعطاه كل منهم ميزات وخصائص نظراً لفكرته وخياله. وانتشر بين العالم تحت أسماء مختلفة وظهرت له طبقة من الناس تسمى «روحانيون».

18 ـ انتقلت نظرية التناسخ كغيرها من النظريات إلى العالم الإسلامي، فظهرت فرقة التناسخيين وأكثرهم من الإيرانيين القدماء والهنود. فقد أورد الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» نبذاً عن التناسخيين الإسلاميين ونظرياتهم، ننقلها عنه بتلخيص ما يلي:

.... فمن أطاع الله في الكل أقرّه في دار النعيم، ومن عصاه في الكل أقرّه في دار العذاب، وهي النار. ومن أطاعه في البعض وعصاه في البعض أخرجه إلى الدار الدنيا فالبسه هذه الأجسام الكثيفة وابتلاه بالبأساء والضرّاء والشدّة والرخاء والآلام واللذات على صور مختلفة من صور الناس وسائر الحيوانات على قدر ذنوبهم. فمن كانت معاصيه أقل وطاعته أكثر كانت صورته أحسن وآلامه أقل. ومن كانت ذنوبه أكثر كانت صورته أقبح وآلامه أكثر. ثم لا يزال يكون الحيوان كرة بعد كرة وصورة بعد أخرى ما دامت معه ذنوبه وطاعاته... الخ. وهو لا يختلف بجوهره عما يقول به أصحاب مذهب التناسخ في الأمم الأخرى.

19 ـ وأما الروح من الوجهة الدينية السماوية فإن الديانة الموسوية لم تذكر عنها شيئاً. وأما في المسيحية فإن روح القدس هو أحد الأقانيم الثلاثة كما ورد عنها في نسخ الأناجيل الأربعة بعض الكلمات عن لسان السيد المسيح (عليه السلام) كقوله «روح أبيكم التي تتكلم فيكم» إلا أنها لم تُعرف معنى الروح. وكذلك في الديانة الإسلامية، فقد وردت هذه الكلمة في الكثير من الآيات القرآنية منها قوله تعالى﴿ونفخنا فيه من روحنا﴾، ومنها ﴿... وكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه..﴾، ومنها ﴿إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس...﴾، ومنها ﴿... فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ وغيره كثير. وقد سئل سيد الرسل عن ماهية الروح فنزلت الآية ﴿قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ وبذلك بقي كنه الروح مجهولاً لقلة العلوم آنذاك. إلا أن الباب ترك مفتوحاً للباحثين من أهل العلم في المستقبل عندما يتسع نطاق العلم وتكثر التجارب. ويستدل مما ورد في القرآن الكريم ان الروح تدخل ضمن نطاق العلوم الكونية، ولم يكن العلم آنذاك يكفي لتوضيح ماهيتها. كما ان توضيحها كان يمكن ان يسبب اضطراباً في الأفكار والنفوس فتركت للزمن. ولما اتسع نطاق العلم بالنسبة لما كان عليه قبل ألف وثلاثمائة سنة، أصبح من الجائز البحث عن الروح للوقوف على حقيقتها وماهيتها. ومن الظاهر الجلي أن العلم على قسمين: العلوم الدينية والعلوم الكونية، وان القصد من قوله تعالى ﴿وما اوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ إنما يراد به العلوم الكونية لا العلوم الدينية، لأن الدين قد كمل بقوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾. فكان علم التشريح والفلسفة والأجنة والطبيعيات وما ينتج عنها من أفعال وأعمال وقوى وظواهر، جميعها من العلوم الكونية المسموح بالبحث فيها لكل فرد ﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيراً كثيراً﴾.

20 ـ كان بودنا أن نذكر شيئاً عن خزعبلات الروحيين الأحداث المستفيدين من أعمال وتجليات الدماغ

كالسير في المنام والنوم المغناطيسي والتنويم الاصطناعي والمناضد المتحركة والسحر والفأل والمجاذيب والتنبؤات الفلكية والكشف والرقى والتعويذات وقراءة المكاتيب المغلفة والوسائط والالهامات والرؤيا والحس بالشيء قبل وقوعه والوجد والاستغراق... وهي كثيرة. والحقيقة انها ليست مما وراء الطبيعة، إنما هي أعمال الدماغ والسيالة العصبية. إلا انها ليست من مواضيعنا. ولما كنا قد تطرقنا في بحثنا إلى الكلام على أرواح الحيوانات وهي من صميم موضوعنا، فلا بد من التوسع في هذا الموضوع ولو قليلاً.

21 ـ من المعلوم ان للحيوانات من الحشرات الصغيرة حتى الفيل وحوت البالينا وبضمنها الإنسان أيضاً دماغاً مسيطراً على كافة الأفعال الإرادية والحسّية. وله مراكز ذهنية قد نمت في كل منها تبعاً للاحتياج والضرورة. وأما في الإنسان فقد تكاملت هذه المراكز الدماغية وتوسعت بمجموعها أكثر بكثير مما هي عليه في الحيوانات الأخرى. وإذن فليس ثمة ملكة ذهنية في دماغ الإنسان لا أثر لها في أدمغة الحيوانات العالية الأخرى ولو كانت بدائية. حتى مركز الضحك الذي يظن انه خاص بالإنسان وحده دون الحيوانات، فان هذه الحيوانات تظهر عواطفها وسرورها بمختلف الأوضاع والحركات، حتى أفراخ الطيور ترفرف بأجنحتها لما تشاهد مجيء امهاتها. وما الضحك إلا حالة من حالات السرور تظهر بحركات ارتجاجية مصدرها الحجاب الحاجز.

22 ـ ومن الجهة الأخرى، يعلم الأطباء والفلاسفة كافة أنه لا فرق بين جوهر مادة الدماغ في الإنسان وبينه في الحيوانات الأخرى، من حيث البنية والتركيب والنسيج والعناصر المكوّنة له لا من جهة فيزيائية ولا من جهة كيمياوية. فقد أظهر المجهر، ان الخلايا العصبية والألياف الاستطالات وأجزاء الدماغ كافة هي هي في كل الحيوانات، وبضمنها الإنسان، ولا فرق مطلقاً بين خلية دماغ الإنسان وبين أي نوع من أنواع الحيوانات. إلا أن الشيء البارز هو أن كمية الدماغ في الإنسان قد تضخّمت، وأفعاله قد تعالت وتكاملت مما سبب حصول الفوارق بينه وبين الحيوانات الأخرى. مع العلم ان الأعمال الذهنية هذه ليست بدرجة واحدة لا في أفراد الإنسان، ولا في الحيوانات الأخرى؛ ومن جهة ثانية، فان بعض الحواس قد نمت في بعض الحيوانات أكثر مما هي في الإنسان. فإن حاسة الشم عند الهر، والبصر عند الذئب، ومرونة الحركة عند النمر، والسمع عند الأرنب، وحس الاجتماع عند النمل، والنحل، مثلاً هي أقوى وأرقى مما هي في الإنسان. إلا آن دماغ الإنسان قد اكتسب النمو بمجموعه العام وتكاملت فيه مختلف المراكز الذهنية فأصبح ـ والحالة هذه ـ الفرق بينه وبين أدمغة الحيوانات الأخرى منحصراً بالكمية فقط. وأما من حيث الكيفية فلا فرق يذكر بينهما البتة، الأمر الذي استوجب الاقتصار على وضع الإنسان ضمن نطاق التاريخ الطبيعي.

23 ـ ثبت أن في أدمغة الحيوانات مراكز للأعمال الذهنية والحسية تختلف قوتها حسب أنواع الحيوانات ـ كما في الإنسان ـ إلا أنها لم تزل ابتدائية لم تكتمل بعد ولم تصل في النمو الذي وصلت إليه في دماغ الإنسان. فعندها العشق، والحب والألفة، والشعور بأداء الواجب، والشفقة، والوظيفة، والصداقة، والامتنان، والتفادي، والتفاخر، والغيرة، والحسد، والشر، والخيانة، والانتقام، وتدبير المنزل، وتربية الأولاد، والحس بالشيء قبل وقوعه، والخوف، والعداوة، والهجوم، والدفاع، وتقدير الوضع، والمقاومة

أو الفرار، وغير ذلك من الاحساسات الموجودة في الإنسان. فلا يجب والحالة هذه اعتبار الحيوانات غير مدركة، إنما هي حسّاسة مدركة مريدة ولكن ليست بدرجة احساس وإدراك وإرادة الإنسان.

24 ـ إن السائق لهذه الحيوانات إلى العمل ليس كما يزعمه بعض الفلاسفة المتأخرون من أنه «السوق الطبيعي» إنما هو الإدراك والتفكر وحس الاحتياج. وباختصار هي الأعمال الذهنية الوراثية الشخصية المكتسبة بالتجربة كل بنسبة قابلياته الدماغية. حتى الخنفساء مثلاً، فانها تأخذ بطريقة الوراثة من آبائها كثيراً من الأوصاف والمزايا الخاصة بنسلها. ولو لم يكن لديها هذا الاستعداد لما تمكنت من أخذ الحيطة حفاظاً على نفسها من أعدائها وتأمين غذائها. فإن هذا الاستعداد الذهني والوراثي متأصّل في أدمغة الحيوانات كافة ولو كان بدائياً.

25 ـ يظهر مما سبق ان للحيوانات إحساساً كإحساسنا ومحاكمة وقياساً للأشياء وإنتخاباً للصالح وتناول اللذيذ وإعطاء القرار وحفظ الحوادث الماضية وإفادة القصد والمرام (النطق) وغيره. مع العلم ان بعض الحواس عندها نامية أكثر من نموها في الإنسان كحس الشم والسمع والبصر واللمس كما مرّ. فإن ابن آوى أو الثعلب يعملان لجحرهما بابين لتأمين الهرب عند الشدائد ويهجمان على الدجاج عند النوم. وان الشيوخ من الحيوانات أكثر حيلة وتدبيراً من أحداثها. فإن العصفور وخباثته واحتياطه للطوارىء مما تضرب به الأمثال. والكلب وصدقه وذكاؤه العجيب وحتى اهلاكه نفسه في سبيل نجاة صاحبه أمر معلوم. والنظام البديع الموجود في بيوت النحل وقرى النمل والطاعة والخدمة وتقسيم الأعمال وتأمين الغذاء وادخاره لموسم الشتاء والمضمدين الصحيين لنقل مرضى النمل مما يستوجب نظر المدقق. ولقد ذكر بعض المؤلفين ان قرى النمل في أفريقيا الوسطى قد تهجم على قرية معادية أخرى وبعد جدال وعراك عنيفين تهلكها، وقد تأخذ منها أسرى لخدمتها. وأما ذكاء القرد والفيل فهو مشهور ومعلوم.

26 ـ ويدّعي بعض السائحين أن بين أهالي بورنيو واستراليا وبولينزيا الأصليين أناساً لا يختلفون كثيراً عن القرود من الوجهة الطبيعية. فأحوالهم وأعمالهم وأفعالهم بدائية جداً، وقوّة الحافظة عندهم ضعيفة بدرجة لا يتذكرون معها شيئاً مما مضى قبل يوم أو يومين إلا بعد التفكير العميق وبصعوبة. ولا يحركهم إلا الجوع وليس عندهم حركة فكرية ذهنية كسائر البشر.

27 ـ قال بعض الفلاسفة إن الإنسان حيوان ناطق فانتشرت هذه الجملة في أنحاء الشرق كافة، ودخلت في كتبهم ومؤلفاتهم فصارت مثلاً للمتفلسفين. فأمّا كون الإنسان حيواناً من وجهته المادية، فهذا لا خلاف فيه؛ وأما وصفه بأنه ناطق واعتبار هذه الصفة هي الميزة الكبرى له عن سائر الحيوانات، ففيه نظر. وكان بن حزم يقول «نفس الإنسان حيّة ناطقة ونفس الحيوان حيّة غير ناطقة فلا سبيل إلى أن يصير غير الناطق ناطقاً ولا الناطق غير ناطق» وهذا خطأ.

28 ـ فما هو النطق من الوجهة الطبيعية؟ ان النطق هو ملكة ذهنية اكتسبها الإنسان منذ أجيال بعيدة لإفادة قصده ومرامه، انتقل فيها من الإشارات إلى الأصوات ثم توسعت وتكاملت وقويت على مرور الزمن إلى أن وصلت إلى حالتها الحاضرة. وفي الحقيقة أن النطق ما هو إلا حركات اللسان المرتبطة بالاحبال الصوتية في الحنجرة. ولما وضع الإنسان الأول أسماء للأشياء كان يفيد بهذه الأصوات،

والمقاطع مقصده. وان نظرة واحدة إلى الشعوب المتأخرة في أواسط أفريقيا وجزائر الباسفيك في زماننا هذا تدل دلالة واضحة على ما كان عليه الإنسان الأول في بدء نطقه، وكيف مارس ملكة النطق كلما تقدم في سبيل التمدن والرقي الفكري، إلى أن وصل إلى حالته الحاضرة. وهو ما زال جاداً في طريقه. ومن المعلوم أن الذين يتخذون اللسان صنعة كالمعلمين والمحامين والخطباء يكونون أكثر ذلاقة من غيرهم لاستعمالهم هذه الملكة الذهنية على الدوام. يظهر من هذا ان النطق ما هو إلا ملكة ذهنية اكتسبها الإنسان خلال أجيال سابقة وأنها ليست لها أيّ قيمة معنوية البتة.

29 ـ وأما النطق في الحيوانات فإنه موجود في حالته الإبتدائية ويتركب غالباً من الحروف الآتية (ر. ن. و. ل. م. ك. هـ. ع.) ويعلم الجميع أن للقطة عدة أصوات مختلفة عن بعضها عندما تكون جائعة أو تدعو أولادها أو تطلب الجماع أو تتملق الإنسان أو في حالة خوفها. ويتركّب صوتها من ثلاثة أحرف (ن، ي، و). وكذلك للكلب أصوات ومخارج مختلفة أكثر مما هي عند القط في كل حالة من الحالات المذكورة. ففي حالة حدّته وغضبه وتملّقه وهجومه وخوفه يصدر أصواتاً متباينة عن بعضها يفهمها صاحبه بوضوح. وكذلك الضأن والقرد والثعلب. فإن هذه الأصوات هي مبدأ النطق، وان الإنسان المتوحش قد ينطق بمقاطع وأصوات أكثر من هذه الأصوات بقليل، بمعنى أنه قد قطع شوطاً في طريق التمدن أكثر من الحيوانات الأخرى.

30 ـ هذا من جهة مخارج الأصوات، أما من جهة إفادة المعنى والقصد، أي الأعمال الذهنية، فإن الحيوانات قد تتفاهم فيما بينها تفاهماً كلّياً وصريحاً، وإن الواحد منها يفهم قصد الآخر بصراحة. ومن أراد الوقوف على مدى تفاهم الحيوانات فيما بينها، فما عليه إلا أن يضع جثة حشرة في طريق النمل. فإن أول نملة تشاهد الجثة تحاول رفعها، فإن عجزت أخذت بالدوران حولها بضع مرات لتعيّن موقعها بالضبط ثم تمسّها بلوامسها مرّات للتأكد منها ثم تذهب مسرعة إلى حجرها ولا تمضي بضع دقائق حتى ترى سيلا من النمل قد أحاط بالجثة. فإن لم يسهل عليهم رفعها ونقلها، تجزأ حالاً الى قطع صغيرة وتنقل. والعجب ان مقدار النمل يكون مناسباً مع جسم الجثة وإمكان نقلها. فكيف تفاهمت هذه النملة مع رؤساء النمل في القرية وساقت هذا الجيش الجرّار لولا الأعمال الذهنية الموجودة عندها.

أما اتفاق الذئاب، تجمّعها بشكل قطعان تحت قيادة أقواها، وهجومها على القرى والقصبات، فيثبت في ذلك كله أساليب الدفاع والهجوم المنظّمة، فقد قرأه وسمعه كل فرد.

كذلك بيت النحل. النظام السائد في إدارة الخلية يعلمه الجميع ولا حاجة لبيانه. فهو مثال باهر للذكاء والتفاهم الحيواني. أما البط أو الاوز فتتّخذ لها حرّاساً في الليل من بين جماعاتها على طريقة المناوبة. وهذا الحارس يقف على رجل واحدة لئلا ينام. وإذا ما شاهد عدواً ملأ الفضاء ضجيجاً ليستيقظ النائمون للدفاع عن أنفسهم.

31 ـ ذهب بعض المؤلفين إلى أن بعض الطيور يعقدون فيما بينهم محالفات ومعاهدات فيجتمعون مرة في السنة لعقد المؤتمرات ويخرجون سوية بأسراب عظيمة تملأ الآفاق للذهاب إلى جهة معينة للسياحة أو لتأمين الغذاء أو لقضاء موسم الصيف أو الشتاء أو للحرب مع أسراب أخرى أو لهجرة عامة وغير

ذلك. فإننا نعلم ان اللقالق تأتي العراق في الصيف وتعود إلى البلاد الحارة في الشتاء، وكذلك طير الخطاف. ونعلم كذلك ان عصافير بغداد تذهب إلى الألوية الشمالية في موسم الصيف للرعي ولا تعود إلى أوطانها إلا في موسم الخريف حيث التمر قد طاب أكله.

إن دوي النحل وملامسة قرون النمل مع بعضها أثناء تقابلها، وصرير الصراصر وغيره، ما هي إلا أصوات للتفاهم مع البعض. ومن الذي لم يشاهد ضجة العصافير وزقزقتهم عندما يجتمعون على حيّة في غار يقاتلونها، أو عندما يحصل فيما بينهم نزاع أو قتال كالفاختات وطيور الحمام والديوك والحجول.

32 ـ يظهر من هذه الأمثلة وهي كثيرة، أن للحيوانات أصواتاً وعلامات ومخارج تتفاهم بها فيما بينها. وما هي في الحقيقة إلا النطق الإبتدائي الذي نما نمواً كبيراً في الإنسان يناسب مع نمو دماغه الجبار. فهل يعقل أن يستمر دماغ الإنسان على نموه وتبقى أدمغة الحيوانات جامدة لا تتكشف في المستقبل؟ الجواب: لا. فإن التعليم والتربية قد يؤثّران تأثيراً كبيراً على أدمغة الحيوانات. فهذا الكلب، مع ان أصله يشترك مع ابن آوى والثعلب والذئب، فقد تأهّل وائتلف مع الإنسان وأصبح يفوق الحيوانات بذكائه وتأثره ووفائه وصدقه وإداء واجباته. وكذلك الفرس العربي.

33 ـ الخلاصة ان مدلول كلمة الروح وأعمالها في الجسد من حيث الكيفية لا تختلف في الإنسان عما هي عليه في الحيوانات، أمّا من جهة الكمية فهي مختلفة. وهذا الاختلاف ناشىء عن حصول الانكشاف العظيم في دماغ الإنسان مما سبب نمو المراكز الخاصة للأفعال وانقسامها نظراً لقاعدة تقسيم الأعمال. وأما في الحيوانات، فبقيت متأخرة بالنسبة للإنسان من حيث العموم. إلا أن بعض المراكز الحسّية قد نمت أكثر مما هي في الإنسان. والذي أوجب ذلك طريقة معيشة تلك الحيوانات وضرورة المحافظة على نسلها من اعدائها، الأمر الذي يدل على أن استعمال أي مركز من المراكز الدماغية بكثرة يستوجب نموه وانكشافه اكثر من غيره، وأن أي مركز أو عضو يتعطل عن العمل يستوجب ضموره أو على الأقل عدم انكشافه..

34 ـ ان تكاليف الحياة شاقة والنجاح بالكد والجد غير مضمون والظفر بالمعيشة اللينة الهينة أمر عسير. لذا كان اسهل شيء لنيل الرفاه والسعادة هي الطريقة الروحانية وبضمنها الكهانة والرهبنة منذ أقدم العصور.

وعندما ظهرت في مخيلة البشر ضرورة الاستعانة بالأقوياء والأبطال لمجابهة شدائد الحياة وتطورت إلى عبادة الشجعان القدماء المتألهين والآلهة، ظهر بجانبهما اناس عاطلون لا يقوون على اكتساب رزقهم بالعمل والاجتهاد، فأصبحوا قوامين عليهما بل وكلاء يتكلمون بكلامهما ويأمرون بأوامرهما وينهون بنواهيهما ويقبضون الهبات والموقوفات والهدايا والقرابين والفضة والذهب باسميهما وعوضاً عنهما. فكان غنى وثروة، كانت عيشة راضية مرضية وحياة سعيدة وجاه وافر وعمر زاهر وسرور دائم. وكانوا لكي يوطّدوا مراكزهم يأتون في كل يوم بنظريات جديدة عن الآلهة واحتياجاتها ورغباتها وما تحبه وما تنفر منه، وعن الأرواح الطيبة منها والخبيثة وذهابها بعد الموت عند الآلهة للحساب عن الأعمال الدنيوية والنعيم والعقاب. ووصل الأمر عند بعض منهم إلى اقناع

الأمهات والآباء بتقديم ابنائهم على مذبح الآلهة لطلب الغفران. وكان قساة القلوب من كهنة الفنيقيين يذبحون القرابين البشرية بأيديهم. وما هذا كله إلا لإعطاء المنزلة العظمى للأصنام والآلهة في قلوب الناس حتى يتوفّـر لهم الرزق الكثير والجاه الطويل العريض والموقع الممتاز والحرمة الزائدة. فتمسكوا بنظرية الروح ومصيرها بعد الموت وأعطوا لآلهتهم صفات القدرة والصفح والانتقام والغضب والعفو والرحمة والخلق والأقدار والآجال والحياة الأزلية والتدخل بأمور الناس. ولما كانوا هم الوكلاء عنها في الأرض، لذلك أصبح لا يحل أمر إلا بمشورتهم ولا يربط ميثاق إلا عن يدهم، فدانت لهم الأمم وطأطأت لهم الملوك رؤوسها تارة اتقاء لشرهم وأخرى للاستفادة من نفوذهم، وثالثة باعتقاد منزلتهم عند الآلهة. ووصل نفوذ كهنة البابليين لدرجة ان اعتبروا يوم السادس من نيسان من كل سنة يوم خضوع الملك للإله مردوخ، وذلك بأن يحضر الملك في المعبد فيقوده كبير الكهنة من أذنه إلى أن يصل به أمام تمثال الإله مردوخ فيخلع عنه شاراته الملكية ويصفع وجهه صفعة يجب أن تدمع لها عينه، وإلا فتعتبر علامة شر على الملك والمملكة. وبعد أن يسجد الملك أمام الهيكل ويعترف بذنوبه تعاد إليه شاراته الملكية.

35 ـ وضع الرهبان والكهنة في مختلف الأمم والأقوام القديمة (القبط، الكلدان، اليونان، الفرس، الهنود) نظريات متضاربة حول الروح ومصيرها بعد الموت، مع انهم لم يتمكنوا من توضيح حقيقتها وتعريف ماهيتها. فمنهم من ادعى أنها تذهب إلى عالم الأموات تحت طبقات الأرض السفلى، ومنهم من قال إنها تذهب إلى عالم الأرواح في القمر أو في الكواكب أو في السماء حيث عالم مستقل يضم الأرواح كافة. ومنهم من قال بضرورة تطهيرها من الآثام أولاً، ثم وصولها إلى الآلهة فتندمج فيها. ومنهم من ادعى بالحساب والكتاب والميزان والعذاب، ومنهم من جاء بنظرية الحلول والتناسخ والتقمّص. ومنهم من اعتقد ان أرواح بعض البشر تحافظ على قوتها ونشاطها بعد ان تترك الجسد، بل إن بعض أرواح المقرّبين إلى الآلهة تكتسب بعد موت الجسد قوّة فوق قدرة البشر فتكون فاعلة قادرة إلهية تتحرك وتعمل وتتدخل في شؤون الناس اليومية، وقد تكون عونا في خدمة أولادها وأنسالها وإخوانها وأعوانها وخدامها والمنتسبين إليها، وقد تسمع نداءهم وتلبي طلباتهم وتحمي أرواحهم وأولادهم وأموالهم وتشفع لهم عند الآلهة، أو قد تكون واسطة بين الله وبينهم. ومنهم من سكت ولم يبدِ رأياً عنها أو عن مصيرها بعد الموت.

36 ـ كان الإنسان الأول يصطاد الحيوانات ويقتلها ليتغذى بلحومها وليتدثر بجلودها وقد يعتريه أثناء الصيد والصراع الخدوش والجراح فتسيل منه الدماء، فيؤثر هذا الصراع الدامي المخيف على معنوياته ويزلزل أعصابه فيراها بالحلم أثناء النوم، وعندما يستيقظ يرى جسمه سالماً من الخدوش لا أثر فيه للجروح أو الدماء. ان شيئاً آخر عدا جسمه، ولا بد، قد تأثّـر بالجراح والدماء وقد تقمّص هذا الشيء الجسم وسكن فيه. فهو يذهب ويطوف ويسري أثناء النوم ثم يعود إلى الجسم عند اليقظة. فهذا الشيء اللطيف السيّال الشفاف هو الروح (وقد أخذت هذه الكلمة في العربية من الريح). فمن هذا الاعتقاد رسخ في الأذهان وجود شيء بالأجسام الحية يسمى روحاً، واستدامت هذه النظرية واستمر هذا الاعتقاد منذ الإنسان الأول حتى يومنا هذا دون ان يتمكن أحد من جميع الأمم

والأقوام، قديمها وحديثها، من تعريف ماهيتها والبحث عن كنهها والوقوف على حقيقتها والتثبت من وجودها، أو أن يأتي بدليل واحد محسوس على وجودها بأكثر مما تقوم به الجملة العصبية من أعمالها.

وقد وجد في آثار الفراعنة ورقة بردى من كتاب الموتى وهي محفوظة في دار الآثار القديمة في بريطانيا، وفيها نقوش تدل على محاسبة الأرواح بعد الموت؛ وقد رسم فيها ميزان لوزن الحسنات والسّيئات. وبعد إجراء الحساب ترسل الأرواح الصالحة إلى بساتين فرعون تحت ظلال أشجار التين وتلقى قلوب المجرمين إلى الوحش (اماييت) ليلتهمها والأجساد إلى النار لتحرقها.

37 ـ يظهر ان افلاطون الحكيم قد أخذ محاسبة الأرواح بعد الموت من المصريين والتناسخ من الإيرانيين والهنود ووضع نظريته حول خلود الأرواح. فزعم افلاطون أن الروح السيئة المجرمة تدخل أولاً جسم امرأة، فإن لم تصلح حالتها تدخل جسم حيوان، وان اصلحت حالتها تعود إلى المرأة ثم إلى الرجل ثم إلى الآلهة. وان لم تصلح حالتها تنحدر من الحيوان إلى الديدان والحشرات. وإذا ما اصلحت حالتها ترتقي تدريجياً حتى تصل إلى الآلهة فتحاسب عن اعمالها أمام الإله «منيوس» فإن ثبت صلاحها ترسل إلى الجزائر السعيدة وإلى جنات [الاليزة] وفيها الأوراد والأزهار والعطور. وإن رجحت سيئاتها فترسل إلى واد سحيق مملوء بالنار. وأراد أفلاطون بهذه النظرية تسلية ابناء قومه أولئك الذين لم يكن لهم نصيب وافر في الحياة الدنيوية، فانتشرت فكرته التوحيدية في أنحاء المعمورة حينذاك.

38 ـ أما سكان افريقيا القدماء والمتوحشون والبرابرة والشعوب النائية عن منطقة الشرق الأوسط، فليس عندهم شيء من أمثال هذه المعتقدات.

39 ـ يدّعي الفلاسفة المعاصرون ان الروح ما هي إلا نتيجة أعمال الغدد والفعالية العضلية، وفوق الجميع أعمال الدماغ والنخاع الشوكي والأعصاب ومظاهرها الحسي والإرادة والحركة. فلا يمكن للروح والحالة هذه ان تظهر على مسرح الحياة مجردة عن الجسد أو أن تتمكن من ان تثبت كينونتها باعتبارها جوهراً مستقلاً قائماً بذاته بدليل واحد، هو ان كل ما اظهره الروحيون القدماء من الألغاز والخيالات وما احدثه بعض رجال العصر الحاضر (الاسبرماتيزيون) ما هو إلا شعوذات وأحابيل لصيد السذج من الناس.

ويقولون، كما إنه لا يتصور جسد حي بلا روح فكذلك لا يمكن تصور وجود الروح بدون جسد ولا وجود الكهرب والمغناطيس والحرارة والضياء بدون مادة ولا وجود المادة بدون قوة. ويقولون إنه عند عدم تمكن الجسد من محافظة قواه العامة لا بد وانه يضمحل ويتلاشى فتنطفىء معه شعلة الحياة وتنطفىء معه الروح أيضاً، فتذهبان إلى العدم سوية. فإن القاعدة عندهم هي أنه لا يمكن استقرار جزء خالد في جسم حادث.

40 ـ ان أهم ما يستند إليه الروحيون كدليل ملموس على وجود الروح هو الرؤيا التي يعتبرونها من تجلياتها وأعمالها وحركاتها. ويقولون إن الجسد بينما يكون راقداً أثناء النوم تخرج الروح يمنة ويسرى وتسير إلى اماكن قريبة أو بعيدة، وترى وتسمع وتفرح وتحزن ثم تعود إلى الجسد. وقد يرى النائم في حلمه أرواح الموتى ترغب وتطلب وتتحرك وتتكلم.

41 ـ فما هي الرؤيا؟ كانت الرؤيا قد شغلت أفكار الأوائل والأواخر من الناس وذهبوا في تفسيرها كل مذهب، وكانت السبب في حصول التكهنات والتخيلات والتنبؤات، مما سبّب اتجاه الأفكار لاعتبارها من تجليات الروح وأعمالها الخفية. ولما كان العلم الحاضر قد علم كنهها وسبر حقيقتها فلا بأس من إيضاح حالة النوم والرؤيا ولو بإيجاز لتعلقهما بالموضوع الذي نحن بصدده.

عندما يضعف دوران الدم من أثر الجهود والاتعاب اليومية ويقل وصوله إلى الدماغ تضعف أفعال التفكير فتظهر علائم الاسترخاء، فالنعاس فانحلال الاعضاء ثم ما تلبث العضلات ان ترتخي ويبطىء التنفس ودقات القلب وتهبط درجة الحرارة فتتناقص علائم الحياة وأعمال الروح من اثر قلة التحمض (التأكسد) في الدماغ وتبطل الحواس فيحصل عند ذاك النوم ولدفع الأتعاب. والفرق بين اليقظة والنوم هو انه في حالة اليقظة تقوم الحواس الخمس بوظائفها تماماً، أما في حالة النوم فتنعدم الحواس الخمس يضاف إليها الحركة الإرادية. وأما الأفعال الطبيعية اللاإرادية كحركات القلب والرئة والأمعاء والكلى... فانها تقوم بوظائفها وواجباتها دون توقف، في النوم كما في اليقظة.

ان توقف فعل التفكير يفلج الحواس مما يجعل الإنسان يعيش أثناء النوم بدون إحساس. وعندما يستفيق النائم من نومه تُستأنف في دماغه عملية التحميض فتعود الحواس إلى إداء أعمالها. فإن توقف أعمال الروح التي من جملتها الحواس أثناء النوم يجعل الإنسان لا يشعر بحياته ويكون كالحجر الاصم بلا شعور، ولا فرق بين النوم والموت كما قيل «النائم كالميت».

42 ـ أما الرؤيا فهي فعالية الدماغ الجزئية. فالدماغ يعمل ليلاً نهاراً، في النوم كما في اليقظة كالقلب والامعاء. وقد يتحرر الدماغ في النوم من سيطرة القيود المفروضة عليه فيعمل في حل المشكلات لوحده، فإن كانت المشكلة بسيطة وسهلة ظهرت في شكل حلم عادي، وان كانت صعبة ومستعصية ظهرت في صورة كابوس مزعج. ويمكن تجريد النفس من العقل الظاهري بواسطة التنويم المغناطيسي واستخراج دفائن النائم من عقله الباطني. ولا يعتبر الشخص الذي هو في حالة الرؤيا نائماً إنما هو في حالة بين النوم واليقظة. وأما الأشخاص الأقوياء ذوو الصحة الجيدة، فلا يشعرون بالرؤيا إلا عندما يكتفون من النوم وقبيل الانتباه بقليل. وأما المرضى والسكارى والمتخمون، فرؤياهم كثيرة ومزعجة مما يمكن اعتباره في حالة مرضية. ولا يشعر المرء بالحلم في حالة النوم العميق الهادي. فإن الدماغ حين ذلك يعمل بهدوء وسكون فلا يجد من يزعجه ويقلقه وينبهه من العوامل والمؤثرات ومن يدعوه إلى العمل الاجباري العنيف. وفي هذه الحالة الأخيرة تنتبه الحجيرات العصبية الحسية وتتململ فيرى النائم ما قد انطبع فيها سابقاً من المؤثرات القريبة العهد أو بعيدته. والطفل لا يرى في حلمه غير الرضاع فيظهر من هذا ان الروح شيء والرؤيا شيء آخر ولا يجوز الخلط بينهما واعتبار الرؤيا من تجليات الروح.

43 ـ لا علاقة بين الحلم والحادث المستقبل إلا إذا كان الشخص يفكر بشدة في شيء يتوقع حدوثه فيراه بالرؤيا مباشرة أو مشوهاً، فيحلم به. وما ذلك إلا من كثرة التفكير بذلك الموضوع. وأما رؤية الحوادث الماضية، فمع اننا نظن انها قد أصبحت في عالم النسيان إلا انها مسجلة بالدماغ تسجيلاً أساسياً وقد أثرت فيه تأثيراً عميقاً فتظهر في الحلم بين آونة وأخرى. وهناك من يقول بأنها تستقر في العقل

الباطن أي (اللاشعور). وكان قد مضى على تخرجي في مدرستي قرابة الأربعين سنة وانا بين سنة وأخرى أرى في الحلم كأني في الامتحان المدرسي أراجع الأسئلة وأكتب الأجوبة عنها!

44 ـ كثير من الناس يخطئون في تفكيرهم، ومع هذا فإنهم يعتقدون أن تفكيرهم صحيح لا شائبة فيه. حتى البله والمجانين والأغبياء يعتقدون أن تفكيرهم صحيح وأنهم عقلاء مفكرون وان الناس الذين لا ينقادون لآرائهم مجانين.

45 ـ كثير من الأفكار التي تتوارد علينا في اليقظة تتوارد على نفوسنا أثناء النوم فنعتبرها من أعمال الروح. وان تكررت هذه الرؤيا لاشتغال الدماغ بتلك المسألة دوماً نعتبرها أمراً إلهياً. فإن كثيراً من المتصوفين يرون الله في رؤياهم أو يرون الأنبياء أو الأولياء أو شيوخهم بالطريقة. يرى الحبيب حبيبته والعاشق عشيقته والثكلى فقيدها أثناء النوم للسبب نفسه. فإن تفكيرنا وتصورنا للأشياء وحكمنا عليها سواء أكان في اليقظة أو في النوم، أكثرها غلط وأكثرها خيالات وأوهام. وما الحياة والصور والأشكال التي تمر امامنا إلا شريط سينمائي لا تمتّ أكثرها إلى الحقيقة بشيء.

ومن ذا الذي يدعي أن تفكيراتنا للصور والأشياء حقيقية بماهيتها بعد ان رد العلم جميع العناصر البسيطة (ذهب. فضة. أوكسجين. نيتروجين...)، تلك التي كان يظن انها عناصر أصلية ومتباينة عن بعضها، إلى عنصر واحد وأساس واحد؟ لقد كان كل فرد مغشوش بالظواهر والصور والأشكال والألوان وكانت أكثر البراهين والأدلة والقواعد واهية. وثبت ان اكثر ما يظن انه صحيح هو باطل. وكانت هذه الاعتقادات كلها تابعة للتغير والتبدل بتغير قوى البراهين التي تدعمها. فقد سارت العلوم الطبيعية في طريق كله تعاريج وتلافيف وأخاديد. فلم يكتشف الإنسان من أمور الحياة والقوانين الطبيعية إلا الشيء القليل. وهي أجزاء متفرقة من صفحاتها. ولم يزل المجهول أكثر من المعلوم، ولم تزل الحياة بمجموعها سراً غامضاً لا بد ان يتوصل الإدراك البشري إليها يوماً ما.

46 ـ ولما كان الإنسان يتوق إلى الخلود في حياته، فقد أعطاه الكهنة والرهبان منذ أقدم العصور هذا الخلود في اليوم الآخر فاطمأنّ إليه؛ ولهذا شغلت كلمة «الخلود» التي قبلتها بعض الأمم، و«العدم» التي قبلتها الأمم الأخرى، الأفكار منذ أزمان سحيقة. فالأوّلون يطلبون حياة سعيدة خالدة لا نهاية لها بعد الموت؛ والقسم الثاني ومن ضمنهم اليهود وخاصة بوذا وكونفوشيوس يرون ان العدم هو الوسيلة الطيبة الحسنة للتخلص من الآلام والمحن والشدائد والعذاب وصرير الاسنان وحساب القبر والدينونة والأفكار والاحساس المزعج والعوامل والانطباعات المؤلمة، ويقولون ان في العدم الراحة والطمأنينة والخلاص من كل ألم محتمل الوقوع.

يقول بوذا إن العدم لا يستوجب الخوف. إنما هو ما نتمناه دائماً. فعندما ينهزم الإنسان وتنحط قواه تستولي عليه الأمراض والاسقام فتقوده هذه إلى احضان العدم اللطيف الهادي الذي يطلب الراحة والامان لكل ذي حياة. فهو مريح كالنوم الهادىء.

47 ـ ويظهر أن فلسفة الفناء والعدم بعد الموت قد شغلت أفكار الفلاسفة والشعراء العرب في الدور العباسي أيضاً. فقد جاء لشاعر لا اتذكر اسمه في مرثية قالها:

ما درى الحاملون يوم استقلوا ... نعشه للثواء أم للفناء

فليقل فيك باكياتك ما شئن ... صباحاً ووقت كل مساء

48 ـ ويقول فلاسفة آخرون أمثال لوقرص وفيخته ولوئي وبوخنر وكانت ما خلاصته: لأجل ان نثبت العدم علينا محاكمة الخلود. فلو فرضنا ان روح الإنسان خالدة إلى ما لا نهاية فما هو مصير روح الحيوانات وكيف يمكن تفريق روح الإنسان من روح الحيوانات وهي واحدة بالأصل؟ مع العلم أن الإنسان يمتاز عن الحيوان بالعقل وحده، وقد اكتسبت الروح عنده بعض الأوصاف والمزايا العالية مما جعلها تفوق الروح الحيوانية من حيث الإرادة والإدراك والاحساس والتفكير. وإذا علمنا ان للطيور والزواحف وحتى الأسماك والقشريات والشعاعيات والجراثيم أرواحاً أيضاً، بل إن روح الفيل والكلب والقرد أقوى بكثير من أرواح المجانين والبله والمعتوهين والأطفال والأجنة وحتى من الإنسان الوحش الساكن في مجاهل افريقيا وجزائر الاوقيانوس آكل لحوم البشر؛ فما هو مصير أرواح هؤلاء الناس وهذه الحيوانات؟ وكيف يمكن أن تكون أرواح الإنسان الوحشي آكل لحوم البشر والمجانين خالدة وأرواح هذه الحيوانات الأليفة المدركة محكوم عليها بالفناء والعدم؟ ان كل هذا يجرنا إلى نتيجة واحدة وهي إما ان تكون جميع أرواح هذه الحيوانات خالدة في نعيم أو عذاب لأنها تعمل الشر مع بعضها ومع الغير باعتبار أنها روح ولا قيمة للجسد، وإما ان جميع الأرواح محكوم عليها بالعدم. ولما كان الخلود مستحيلاً فإن الواقع الذي لا مناص منه هو العدم. هذا، ولم يبين الكهان ورجال الأديان ما إذا كانت الأرواح محدودة ومعينة أو أنها تتكاثر وتتزايد بالخلقة الجديدة أو بالانقسام على نفسها أو بالتجزؤ، وقد سكتوا عن كميتها وكيفيتها وماهيتها ومستودعها في الأفلاك وعن الغاية من وضعها وتكديسها وحفظها هناك منذ ملايين السنين. وكيف تستقر وتمتزج أرواح الأطفال والشيوخ والمجانين والمجاذيب والعلماء والجهلاء والمتدينين والكافرين والمؤمنين والملحدين والمثقفين والمتوحشين في صعيد واحد، كما وان الكهان والرهبان لم يزيدوا خلال الآلاف الأخيرة من السنين شيئاً عما وضعه عنها كهنة مصر الأقدمين، مع ان حياة الإنسان القصيرة وخاصة المكلف منها بالعبادة لا يستوجب بقاء أرواح هذا المخلوق الممتاز في حالة الخلود في نعيم أو شقاء لإيمانهم أو لجحودهم بالدين الصحيح. وكل فرد في العالم يدعي ويعتقد ان دينه هو الصحيح دون ان يقدم أي دليل محسوس على صحة دينه باكثر من الإيمان بما قاله الأقدمون.

يقول بوخنر الفيلسوف الالماني: لو كان الإله قد كتب بأحرف من نور في كبد السماء صفاته وأسماءه وأسماء انبيائه ورسله ومجمل شرائعهم وكتب ما يتطلبه من الناس الاعتقاد به ثم عصاه الناس وعبدوا غيره وجحدوا شرائعه كما عصاه ابليس وجهاً لوجه، لحق له بعد ذلك تعذيب كل عاصٍ وكل جاحد وكل كافر بآياته من مخلوقاته.

وقد تناول مسألة الخلود ابو الهذيل العلاف المعتزلي وكان يقول إن لكل محدث غاية ونهاية. ولما كانت الجنة وجهنم محدثتين فلا بد وان يكون لها نهاية. ونعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار سينتهيان لا محالة، ولا خلود لهما مطلقاً. وبما أن كل حركة محكومة بالتوقف والانقطاع اضطراراً، فإن حركات أهل الجنة والنار أيضاً محكومتان بالتوقف والانقطاع وسيؤلان حتماً إلى سكون دائمي وتجتمع اللذات والآلام في ذلك السكون، لأن الأزلية والأبدية لله وحده لا يشاركه فيها أحد.

وأما الخلود من الوجهة الدينية الإسلامية فقد جاء في سورة هود قوله تعالى ﴿خالدين فيها ما

دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد﴾. وبهذه الآية الكريمة أيضاً قد تحدد الخلود بما يشاءه الرحمن. وقبل أن نختم هذا الفصل، علينا أن نبيّن أيضاً الفرق بين الروح والنفس من الوجهة الدينية الإسلامية. فقد جاء في القرآن الكريم ﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي﴾ فإذا كانت الروح هي نفخة من روح الله دخلت على المادة فحرّكتها وهي فضل من الله وهبة منه على عالم الاحياء كافة وعلى الإنسان بصورة خاصة، فكيف يجوز عليها وهي جزء من روح الله الحساب والكتاب والنعيم والعذاب يوم الدين؟

إذن، ان التي ستبعث وتحشر إلى ربها يوم الدين ليست الروح بمدلولها المتعارف بين الناس التي هي نفخة من الله على عالم الاحياء، إنما هي النفس، وذلك بدليل ما جاء في سورة العنكبوت في قوله تعالى ﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾، في سورة قاف ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾، وفي سورة النحل ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت﴾، وفي سورة آل عمران ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت محضراً﴾ وفي سورة الطارق ﴿كل نفس لما عليها حافظ﴾، وفي سورة الانفطار ﴿علمت نفس ما قدّمت وأخّرت﴾، وفيها أيضاً ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ الله﴾، وفي سورة التكوين ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾، وفي سورة يونس ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردّوا إلى الله﴾، وفي سورة البقرة ﴿واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً﴾، وفي سورة لقمان ﴿ما خلقكم وما بعثكم إلا كنفس واحدة﴾، وأخيراً في سورة الفجر ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾. فإن التي سترجع إلى ربها يوم الدين هي النفس وليس هذا الجسد المكوّن من التراب وليست حتى الروح التي هي نفخة من الإله العظيم والتي لا يجب أن تتقدم للحساب ولا يجوز أن تنال الثواب وترى العذاب. والنفس من الوجهة العلمية المادية هي الدماغ وما يصدر عنه من أفعال وحركات وإرادات واحساسات ولا فرق بينهما. كما وان الروح فيه حياة الانفس، والنفس عند ارسطو هي القوة الحياتية فيجعل للإنسان نفساً وللحيوان نفساً وللنبات نفساً ويعتبر لها أربع وظائف: القوّة الغذائية ثم القوّة الحسّية ثم القوّة الإرادية ثم القوّة الذهنية.

49 ـ وأما من الوجهة الدينية فإن الله جل وعلا قد فرق بين الروح والنفس فجعل الروح قوام الحياة في الدنيا وهي فضل منه ومنة على عالم الاحياء. وأما النفس فقد شملت حتى ذاته تعالى في قوله جل وعلا ﴿ويحذّركم الله نفسه والله لطيف بالعباد﴾ (آل عمران)، وفي قوله تعالى ﴿تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك﴾. فإن التي سترجع إلى ربها وبارئها يوم الدين للحساب والكتاب والنعيم والعذاب هي النفس. فكانت الروح في الديانة الإسلامية شيئاً والنفس شيئاً آخر، ولا يجوز لبس أحدهما بالآخر، وهو موضوع يستحق الدراسة أكثر فأكثر.

الفصل الثالث الحيـاة

1 ـ أصبح علم الحياة في زماننا هذا من أهم العلوم العصرية. والمواضيع التي يتناولها، وإن كانت من الصعوبة بمكان بحيث لا نعلم عنها إلا القليل، إلا أنها ظريفة وملذة للغاية. فإذا كان شعاع العلم والبحث المتواصل بفضل المجهر قد أنار جانباً منها، فإن جوانبها الأخرى لم تزل مظلمة. وقد يجد الفكر البشري فيستطيع الوقوف على ماهيتها واستطلاع حقائقها.

2 ـ كان القدماء المصريون أول من لاحظ وجود الحياة، ودرس أفعالها وخصائصها، فقد لاحظوا نمو الأجسام البشرية من حالة الأجنة حتى الشيخوخة، وافترضوا وجود قوة في الإنسان هي التي تعطي الحس والحركة والنمو إلى الجسم، حتى إذا ما تركته هلك. واعتبروا هذه القوة الحياتية نوعاً من الروح وسموها «كا»، وهي لا تفنى بفناء الجسم. وأما الروح المسماة «يا» فهي تفارق الجسم عند الموت وتصعد إلى السماء لإعطاء الحساب عن الأعمال الدنيوية. أمام الآلهة فكانت «كا» الحياة و«يا» الروح.

3 ـ سنحاول الإجابة عن السؤال الآتي باقتضاب جهد الامكان: ما هو السر في أصل الحياة؟ وهل ان الكهربائية المتحصلة في ذات الخلية هي التي تنظم كيانها وتدبر أفعالها الحياتية؟ أم فيها قوة أخرى غير معلومة علاوة على كهربائيتها قد تسيطر على أفعالها الحياتية باستقلال كامل عنها لا تدركها مقاييس العلم والفن؟ ولما كان الوجود الحي مكوّناً من مجموعة خلايا مختلفة وجميعها تابعة لنفس القوانين الحياتية، فقد اعتبرت الخلية كوحدة قياسية للوجود كله عند دراسة علم الحياة.

ان قسماً من العلماء يعتقد أن أصل الحياة هي الكهربائية المتولدة في ذات الخلية، وانها قد يبدأ نموها من الجانب الذي ينبعث منه التيار الكهربائي الموجب الذي تولده هي. وعندما وجهوا التيار الموجب إلى الجانب الثاني منها لاحظوا أن نمو الخلية أخذ يتجه نحو ذلك الجانب.

وقرر قسم آخر من العلماء أن أصل الحياة يعود إلى التوازن الحيوي الكيمائي في الجسم، وأن العامل في إيجاد هذا التوازن هو الهورمونات التي تفرزها الغدد الصم، إذ تسيطر هذه الهورمونات على نمو الجسم وتؤدي إلى السمنة أو الكساح أو الضخامة... الخ.

وبعد ان اثبت غالياني وجود الكهربائية في الضفدع كما هو معلوم في تاريخ اكتشاف الكهربة، ثبت وجودها بصورة أوضح في حيوانات أخرى كالسنط والأسماك الكهربائية (السمك الرعاد) ثم ثبت وجود الكهربائية في النباتات أيضاً على شكل تيار كهربائي مستمر يبدأ من رأس الجذر وينتهي في الأقسام العليا من النباتات. وبذلك تحقق ان هذه التيارات الكهربائية تبقى ملازمة للحيوانات والنباتات طيلة الحياة.

4 ـ تتولد الكهربائية في كل خلية حية، فتصبح الخلية بطرية كهربائية. ومن الطبيعي أن قوة التيار الكهربائي في الخلية تكون تابعة لعمرها وقوتها ونشاطها. فالخلية التي لا تزال في شبابها وحداثتها يكون تيارها الكهربائي في ذروة قوته ثم تعود فتتناقص قوة التيار كلما هرمت الخلية، حتى إذا حدث

الموت انعدمت هذه الكهربائية تماماً. وعلى هذا تكون المقدرة على توليد التيار الكهربائي من صفات الخلية الحية. فإن حياة الحيوان مرتبطة بما تولده الخلايا من التيارات الكهربائية. وتزداد هذه التيارات قوة ونشاطاً في دور الشباب وتضعف في دور الكهولة وتنحط في دور الشيخوخة ثم تنطفىء عند الموت، كأن البطرية نفد منها الكهرباء فتوقفت عن العمل. ويقال إن الجسم البشري يحتوي على كمية من الكهرباء تكفي لإضاءة مصباح 25 وات لمدة ثلاث دقائق. وعلى هذا تكون الحياة إما نتيجة لهذه الكهربائية المتولدة في نفس الخلية أو ان توليد الكهرباء من صفات المادة الحية.

لهذا كانت الطريقة المثلى لاستدامة الحياة والتغلب على الشيخوخة هي تقوية الخلايا وجعلها قادرة على الاستمرار في توليد التيارات الكهربائية بقوة ونشاط، وذلك بممارسة الرياضة البدنية المعتدلة والتعرض لأشعة الشمس. أما الراحة والسكون وركوب السيارات المتمادي حتى في المسافات القصيرة، فهي بمثابة موت للاحياء إذ تؤدي إلى إضعاف نشاط الخلايا في توليد كهربائيتها.

5 ـ كيف وجدت الحياة فوق سطح الأرض؟ من المعلوم ان الأرض واحدة من ملايين الاجرام السماوية، وأن الشرائط المتوفرة لنمو الحياة على سطحها متوفرة أيضاً في كثير من تلك الاجرام. فلا يعقل والحالة هذه ان تكون الحياة منحصرة في الأرض وحدها. والحياة بمجموعها وكليتها نفخة من المكوّن الأعظم وهبة منه لعالم الاحياء. وهي واحدة في الأصل تتلبس الأجسام وتتفرع في الصور والأشكال. وقد تجلت فوق سطح الأرض في شعبتين عظيمتين هما الحيوانات والنباتات، ولكل منهما أنواع لا يحصيها عد، أخذت صورها وأشكالها تبعاً للغذاء والبيئة والاقليم. ولا يشترط ان تكون الحياة في الكواكب الأخرى قد تلبست المادة وأخذت أشكال الاجسام المماثلة لهاتين الشعبتين وأن تكون تابعة لقوانين الحياة التي نعلمها كوجود الأوكسجين مثلاً، إنما تكون قد نمت وتكاملت تبعاً لبيئتها وشرائطها الاقليمية في صور وأشكال لا نعرفها. وقد يكون من بين تلك المخلوقات من وصل لدرجة من العلم والمعرفة تفوق معرفة هذا الإنسان الأرضي وعلومه بمراحل كثيرة، وقد يرسل إليها إشاراته اللاسلكية في كل يوم ونحن لجهلنا لا ندركها.

وهناك فرضيات كثيرة ونظريات مختلفة متناقضة جاء ذكرها في موسوعات علم الحياة عن كيفية ظهور الحياة لأول مرة فوق سطح الأرض، خلاصتها: إن أحداً لا يستطيع ان يجزم فيقول كيف ومتى وأين وجدت أول خلية حية فوق سطح الأرض. إلا أن في استطاعتنا ان نجزم فنقول إن القوّة الكلية [الخالقة] السائدة في العالم والمسيطرة على الكائنات هي التي أعطت ومنحت لقسم من المادة الترابية نفخة من روحها وقوة من عندها تمكنت بواسطتها من تنظيم أفعالها الحياتية فأصبحت تلك المادة الترابية عضوية والأقسام المعدنية مادة حية.

6 ـ وأما الاعتقاد بأن الحياة وصلت إلى الأرض من إحدى الكواكب أو المذنبات أو الاجرام السماوية كما يدعيه بعض الفلاسفة، فهو اعتقاد باطل لارتفاع الحرارة في تلك الأماكن بدرجة تستحيل معها الحياة فيها (ما عدا المريخ الذي يظن ان الحياة موجودة فيه). وحتى لو صحّ هذا الاعتقاد والظن، فإنه من المستبعد ان تقطع الخليات الحية هذه المسافة الشاسعة بين المريخ والأرض. وعلى هذا لم يبق إلا القول بأن الحياة وجدت لأول مرة فوق سطح الأرض من تلقاء نفسها لما أصبحت طبيعة الأرض

صالحة لظهورها. وهذا النوع من الحياة هو خاص بالأرض فقط دون غيرها، ولكن حتى هذا القول لا يحل المشكلة بعد أن أثبتت العلوم والاختبارات العلمية منذ زمن باستور العالم الفرنسي عدم امكان حصول التولد الذاتي أو التولد بنفسه .G. S دون ان تكون هناك خلية سابقة، أي أنه من غير الممكن أن توجد خلية من تلقاء نفسها دون ان تتولد من خلية أخرى سابقة لها. وأما القول بتبدل الشرائط الخاصة الاقليمية اللازمة لحدوث التولد الذاتي في الأدوار الأولى من عمر الكرة الأرضية، فهو قول لا تؤيده البراهين القاطعة فلا يمكن أن يركن إليه. وعلى هذا لا تنشأ الحياة إلا من الحياة كما قال باستور، وهو قول لا شائبة فيه. إذن فلم يبق أمامنا والحالة هذه غير مذهبين:

الأول: القول بالقوة الخالقة المكوّنة الأزلية، وهي بحكم قدرتها وقوتها وإرادتها وضعت القوانين والقواعد الأساسية لخلق العالم والكون ونفخت بروح من عندها في قسم من المادة الترابية فحركتها فتكونت منها المادة العضوية الابتدائية أي الخلية أو الخلايا الأولية ووهبتها القابليات الحياتية تحت قوانين ثابتة لا تبديل لها ولا تحويل، فكانت سبباً لحصول هذه المخلوقات المختلفة، وأعطتها الاستعداد اللازم للتطور والعمل المنظم والاتجاه نحو الكمال تحت تأثير البيئة والاقليم وقوانين الوراثة، حتى وصلت بتقدمها إلى ظهور الحيوانات والنباتات العالية.

وأما المذهب الثاني فهو ما ذهب إليه داروين صاحب نظرية النشوء والارتقاء وأنصاره والمتخرجون من مدرسته في كيفية نشوء الكائنات الحية من خلية واحدة أو أكثر تحت شرائط مجهولة ارتفعت من الوجود. ونموّها وتكاثرها وارتقاءها، ثم تحت تأثير المحيط والوسط والغذاء وكذلك اتجاهها نحو الكمال تدريجياً حتى تكوّنت العضويات المركّبة المختلفة وتعدّدت الأنواع بمرور العصور وكر الدهور تحت تأثير النواميس الطبيعية وبالاتحاد مع علم العاديات ethologie والأجنّة emberyologie والفلسجة physiologie والامصال sirologie ومقايسة التشريح والجغرافيا الحيوانية والصور والأشكال morphologie، وقانون مَنْدِل صاحب نظرية انتقال الصفات الوراثية من الآباء إلى الأحفاد... الخ.

والحقيقة التي لا ريب فيها هي أن التجارب والمشاهدات قد أثبتت أن قوانين العلوم المذكورة ثابتة لا تتغير وأنها تتعاون مع بعضها في تكوين المخلوقات وليست متضادة، إلا أنه لا يعلم حتى الآن الأسباب الداعية للتطور وظهور هذه المخلوقات المختلفة الأنواع من حيوانية ونباتية ولا الطرق التي سلكتها الطبيعة والوسائط التي تهيّأت لها في زمن من الأزمان فاستطاعت أن تجعل من السلالات الحيوانية والنباتية انسالاً متباينة، وكذلك الاختلافات الموجودة في العروق البشرية والحيوانية والنباتية.

7 ـ يدعي لامارق ان ظهور الأنواع الجديدة من الحيوانات يكون تابعاً للمحيط والوسط واشتغال الاعضاء وتخصصها بوظائفها. وقد يؤدي هذا إلى تغييرات وتحورات خاصة في الأعضاء. فإذا تعطل عضو من عمله أدى هذا إلى حصول ضمور فيه وزواله من الجسد. ويستشهد لامارق على نظريته هذه بضمور عظام العصعص في الإنسان بعد أن تكوّنت عنده عظام الترقوة وتحركت يداه في كل استقامة حيث لم يبق له من حاجة إليه. وكذلك ضمور مصران الأعور بعد أن أصبح الإنسان من أكلة اللحوم.

والأمثلة على ذلك في الإنسان والقرود العالية والحيوانات الأخرى كثيرة. ويقول لامارق: إذا ما اشتغل أي عضو في الجسد يزداد حجماً وقوة كظهور الحمّالين وسواعد الحدّادين وأقدام المشّائين وأدمغة المفكّرين واليد اليمنى بالنسبة لليسرى عند بعض أصحاب الأعمال باليمنى. ويقول أيضاً إن الأوصاف المكتسبة من الآباء إلى الأبناء تحت تأثير العوامل الوراثية factor. وهذا العامل موجود في بذور النباتات وفي خليّات نطفة الحيوانات «الحوين المنوي» كما سيأتي بيانه. ويكون ظهور هذه الصفات الوراثية متأثرة بقوانين خاصة، فمنها ما تظهر في الأولاد أو الجيل الأول مباشرة فتسمى «الصفات المتغلبة» ومنها ما لا تظهر، وحينذاك تسمى «الصفات المتنحية» أو «الصفات الكامنة».

8 ـ يدّعي داروين بنظريته القديمة حول تشكل وظهور الأنواع الحيوانية والنباتية ان الأوصاف المكتسبة قد تنتقل كذلك كما تنتقل الأوصاف الطبيعية تحت تأثير العوامل الوراثية نفسها وبواسطة «العامل الوراثي». ثم أضاف إلى ذلك نظرية «الانتخاب أو الاصطفاء الطبيعي وبقاء الأصلح». وهكذا فإن ما يظهر من مختلف أشكال الأحياء قد تعيش وتتكاثر إذا ما كان المحيط والوسط يساعدها على الحياة فتظهر فيها الأوصاف والتشكلات العضوية اللازمة لبقائها ومحافظة نسلها «تنازع البقاء» كاكتساب لون المحيط للاختفاء عن الاعداء كما يظهر جلياً في بعض الطيور والحشرات، واعضاء السباحة في الماء والهواء ووسائل الدفاع لقهر العدو كالقرون والأنياب والسموم والعدو السريع والقوة الكهربائية ـ كما في السمك الرعاد ـ وذلك لكي لا يهلكها المحيط أو الأعداء.

9 ـ النظرية الوراثية الحديثة تقول بأن الصفات الوراثية وإن كانت تنتقل من الآباء إلى الأبناء، إلا أنها قد لا تظهر في الجيل الأول ـ أي الأبناء ـ وإنما قد تظهر في الجيل الثاني ـ أي الاحفاد ـ وقد تختفي مدة طويلة فلا تظهر إذا كانت من الصفات المتنحية إلا بنسبة قليلة جداً في أحفاد الأحفاد. وتقول هذه النظرية بوقوع امتزاجات وبظهور مركبات حديثة في عوامل الوراثة خلال كفاح الحياة. وتقول بظهور تحولات فجائية مجهولة الأسباب فتظهر الأنواع المختلفة من الأحياء والتي لا تشبه اصولها بل تختلف عنها.

10 ـ وأخيراً عادت فاتجهت الأفكار مرة أخرى إلى التحولات الطارئة الفجائية وعزت أسبابها إلى عوامل الوراثة [الذريات] في الخلايا التناسلية، وذلك باحتمال حصول خلل في النظام الوراثي أثناء انقسام الصبغيات فيفقد أحد الصبغيات واحداً من العوامل الوراثية وبذلك تحصل الحيوانات المتغيرة التي لا تشبه اصولها، أو ان المؤثرات الطبيعية والأشعة السينية هي التي قد تؤثر على العوامل الوراثية فتحدث التغييرات في الانسال. فقد عرّض العالم «موللر» طائفة من الذباب على قذائف الأشعة السينية كما فعل علماء الطبيعة بالذرة عند تحطيمها للتأثير على العوامل الوراثية، فهلك قسم من الذباب وتناسل ما بقي منه. وقد أثّرت الأشعة السينية على النسل فحصل تأثير واضح على العوامل الوراثية مما أدى إلى ظهور التحولات الفجائية، كأن تولد الذبابة بدون عيون أو بدون أرجل أو بدون أجنحة. وبهذه التجارب ثبت أن الأشعة السينية الواردة من أعماق السماء إلى الأرض هي التي تستوجب حصول التغيرات الفجائية وتوليد الأنواع في الحيوانات والنباتات.

11 ـ ومن هذه التجارب ظهر لدى العلماء أن عوامل الوراثة في الصبغيات يجري على قوانين ثابتة

ومعينة. وهذه العوامل هي التي تقوم بنقل الصفات الوراثية فتظهر في أجسام الأبناء. وبتعبير آخر إن للوراثة شأناً كبيراً في انتقال صفات الوالدين إلى الأولاد من جسمانية وخلقية وعقلية ونفسية، وإن اتلاف أحد هذه العوامل الوراثية أو تحويله عن محله يؤدي إلى خلل أو نقص في بناء الجسم.

12 ـ وقد رأى العلماء أن يقوموا بملاحظة الاحياء المجهرية المتصفة بسرعة التناسل، وهي كثيرة منها «ذباب الفاكهة ـ دروسوفيللا» ومنها «الأميبا». وقد تنتج الأميبا جيلاً جديداً في كل يوم فتقارن الاحفاد مع الأجداد فتظهر الفروق واضحة جليّة بملاحظة الآباء والأبناء في وقت واحد ومعرفة الفروق التي تحصل في صفاتها.

13 ـ يظهر من هذا كله ان مذهب النشوء والارتقاء الذي أسّسه داروين لا يعني تطور الكلب إلى حصان والقرد إلى فيل، إنما يحصل هذا التطور على شكل تحورات وتغييرات بسيطة في صنف معين من الأنسجة الحيوانية يؤدي إلى ظهور صفات وراثية جديدة في الأبناء بتأثير عوامل مختفة كالبيئة والإقليم والغذاء والمناخ بصورة عامة. وعندما تتكاثر هذه العوامل تزداد التغييرات بالتدريج فتظهر في الانسال القادمة بصورة واضحة بمرور الزمن. كأن يكون الأنف أفطساً أو معتدلاً أو محدباً والجلد أسود أو أصفر أو أبيض والشعر أسود أو أحمر أو أشقر.

14 ـ ما هي عوامل الوراثة؟ لأجل إيضاح عوامل الوراثة لا بدّ أولاً من إعطاء بعض الايضاحات عن تشريح الحوين المنوي في الذكور والبيضة في الإناث. وكلاهما شيء واحد من حيث البنية والتركيب والوظيفة، كما انهما متشابهان مع الخلايا البدنية الأخرى كافة، إلا أن العوامل الوراثية فيهما أكثر وضوحاً لأهميتهما في نقل الصفات الوراثية.

يصب الذكر في مهبل الأنثى في كل قذفة ملايين من الحوينات المنوية، والحوين المنوي لا يُرى إلا بالمجهر، ويمكن تصورّه كبيضة الدجاجة، إلا أن له ذنباً طويلاً يساعده على الزحف للوصول إلى البيضة المراد تلقيحها في داخل الرحم، وله رأس مدبب كالقلنسوة، وهو الجسم الإفرازي الأمامي الذي يثقب به غلاف البيضة ليسهل عليه الدخول في عصمتها والامتزاج معها، ويحيطه من خارجه غلاف غليظ وفي داخله مادة زلالية تسمى بروتوبلازما في وسطها توجد النواة ـ ويمكن تصورها كصفار البيضة ـ محاطة بغلاف قوي. وفي داخل النواة توجد شبكات كثيرة توضع فوقها جسيمات تسمى «اكروماتين». فإن هي الجسيمات تولد مادة تسمى «كروموسوم» وقد سمّيت بالعربية الصبغيات لأنها تقبل الأصباغ بشدّة. وهذه الصبغيات تحتوي على ذرات في غاية الدقة تسمى «فاكتور» ومعناها «العوامل الوراثية» وقد سميتها انا «عالم الذر» أو «الذريات» لتطابق هذه التسمية مع أوصافها، ولا اعلم ما إذا كان الاخصائيون في علم الحياة سيقبلون مني هذه التسمية أم لا. فإن هذه الذرات أو العوامل الوراثية أو الذريات تحتوي على كافة الصفات ومزايا الآباء والأجداد من مادية ومنوية ومن جسمانية وعقلية في حالة الذر وتنقلها إلى الأولاد[1]. هذا هو عالم الذر وهذه هي الذريات.

(1) جاء في القرآن الكريم حول الذريات قوله تعالى ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى﴾. وقوله تعالى ﴿ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهرون﴾. وقوله تعالى ﴿ذرية بعضها من بعض﴾.

ان عدد الكروموسات في الخلية يختلف باختلاف الأنواع الحيوانية. فيوجد في خلية الإنسان «48» كروموسوماً وفي القط «36» وفي الضفدع «24» وفي الذبابة «8» فقط.

وبينما الخلايا البدنية في الإنسان تحتوي كل منها على «24» زوجاً أي «48» كروموسوماً أثرياً، فإن بيضة الأنثى والحوين المنوي يحتوي كل منهما على نصف هذا العدد أي «12» زوجاً أي «24» كروموسوماً، كسائر الخلايا البدنية. فيأخذ الجنين المقبل نصف الذريات من الأب والنصف الآخر من الأم. وبهذا يحمل الجنين أوصاف الأبوين كافة من جسمانية وذهنية. وهنا تلعب الصدفة دورها. فإن كان الحوين الذين يقوم بتلقيح البويضة نشطاً قوياً يتغلب فيفرض أوصافه ومزاياه على البويضة فيكون الجنين أشبه بآبائه وأجداده والعكس بالعكس، وحينذاك يقال عنه «خول» أي أخذ أوصاف أخواله.

ان الكروموسومات في البويضة كلها متشابهة ومن نوع واحد، ولنرمز إليها بحرف (س) مثلاً، وأما الحوينات المنوية فنصفها يحتوي على كروموسومات متشابهة أيضاً ومن نوع (س) والنصف الآخر يحتوي على 23 كروموسوماً عادية، وكروموسوماً واحداً يسمى (اللوسوم) ومعناه القزم لأنه أصغر بكثير من غيره، ولنرمز إليه بحرف (ن). فإن الصدفة قد تلعب دورها أيضاً في تقرير جنسية الجنين. فالحوين المنوي الذي يسبق الجميع ويدخل خدر البيضة يقوم بدور التلقيح إن كان من النوع المتشابه أي من نوع (س) فتكون الخلية المخصّبة قد حملت جزئيتين من جزئيات (س) فيكون الجنين أنثى، وإن كان الداخل من نوع القزم أي من نوع (ن) فيكون قد حصل في الخلية المخصّبة أي البيضة جزئيتين أي نوعين احداهما (س) والأخرى (ن) فيكون الجنين ذكراً، وهذا يعلّل السبب في حصول نصف المواليد مذكرة والنصف الآخر مؤنّثة تقريباً.

يدّعي بعض المؤلفين أن لأوقات التلقيح علاقة وثيقة بجنسية الجنين، فيكون غالباً أنثى إن كان التلقيح في أوائل فترة الاخصاب عند الأم، وهي المدة المتراوحة بين اليوم العاشر والثاني عشر من بدء الحيض، ويكون ذكراً إن حدث التلقيح في أواخر تلك الفترة أي بين الرابع عشر والسادس عشر من بدء ظهور الحيض إذا كانت دورته الشهرية منتظمة أي كل 28 يوماً. وفي الأسبوع العاشر من حياة الجنين الرحمية تنمو الخلايا الخاصة بجنسية الجنين وتضمر الخلايا الأخرى الخاصة بالجنس الثاني. وفي الشهر الثالث من حياته الرحمية تتوضح تماماً جنسية الجنين إن كان ذكراً أو أنثى فتنمو بوضوح أعضاء تناسله.

15 ـ ولما كانت العوامل الوراثية (الذريات) في الحوين المنوي والبويضة على السواء وقد تنتقل بواسطتهما الصفات الوراثية كافة من الأجداد إلى الأحفاد، وهما الأساس في عالم الحياة نود أن نعطي تفصيلات أكثر عنهما.

ما هي عملية التناسل؟ يقذف الذكر في مهبل أنثاه نطفته أو ماء حياته. وفي كل قذفة يوجد فيها ملايين الخلايا التناسلية أو الحوينات المنوية وتسمى بالاختصار حيمن وهو لا يرى إلا بالمجهر، فتشرع هذه الحيامن، ويقدّر عددها في كل قذفة بين 60 ـ 300 مليون نسمة، وكل منها يحمل الأوصاف والعوامل الوراثية كافة على السواء، بالزحف إلى الأمام للعثور على البويضة يساعده ذنبه

بزحفه. وقد تقطع الحيامن في زحفها في كل ثلاث ساعات سنتمترين ونصف السنتمتر. فكان لمن أراد أن يخصّب أنثاه أن يقذف مادّته في مقر الرحم لا عند الباب الخارجي ليسهل على الحيمن الوصول بسهولة إلى البيضة وبدون عناء، فإن أول من يدركها هو الذي يلقحها، وينتهي الإخصاب، وأما ملايين الحيامن الأخرى فتهلك إذا لم يبق لها من عمل.

وأما ما يعود إلى البويضة، فقد تخرج من مبيض الأنثى البالغة السليمة بويضة واحدة في رأس كل شهر وتبقى مدّة من الزمن في قناة (فاللوب) بجوانب الرحم، كالعروس تنتظر زفافها، فإن لم يحضر العريس، وهو الحيمن، ذابت وارتفعت فذهبت سدى، وأما إذا صادف وحضر الحيمن وهو العريس الحقيقي وشعرت هي باقترابه، يتحدّب أو يتقعّر الجانب المقابل له منها إستعداداً لاستقباله واحتضانه فيلتصق رأس الحيمن المدبّب بمكان التحدّب أو التقمر من البويضة ويحدث بقلنسوته ثقباً له في جدارها ويدخل منه في حريمها فينتهك عصمتها وينقطع عنه الذنب إذ لم يبق له به من حاجة. ويعانقها فتعانقه ويحتضنها فتحتضنه وتقوم نواة الحيمن بدورها هي أيضاً في معانقة نواة البويضة فتحتضنها وتمتزج معها امتزاجاً تاماً. ومتى تم ذلك تظهر من النواتين المتزاوجتين الاشعاعات الاستقطابية كعلامة للتعريس ومسرة بالاقتران، وهي أول بادرة في انقسام البيضة الملقّحة. وعند ذاك يكون قد تم الاخصاب والحمل، فتهبط البويضة المخصّبة إلى الرحم لتنتج الشخص الكامل، فيكون قد حصل التناسل الحقيقي بين الذكر والأنثى عند اختلاط وامتزاج الخليتين التناسليتين (الحيمن والبويضة). عند ذاك تشرع العوامل الوراثية «الذريات» بالنمو فتظهر تدريجياً خلايا جسم الجنين المقبل على اختلاف أجزائه وأجهزته الجسمانية والذهنية. ومن بين هذه الأنسجة المختلفة يتميز بشكل واضح الخلايا الخاصة بالجهاز التناسلي بالنظر لأهميتها في حفظ النوع وفي نقل الأوصاف والمزايا الوراثية. وبهذا يثبت ان جميع الأجزاء اللازمة لتكوين الشخص الكامل من مادية ومنوية موجودة بالفعل وفي حالة الذر في الحيمن والبويضة، وإن أوصاف كل نوع من الأنواع الحيوانية كبيرها وصغيرها وكذلك أشكاله وميزاته وقابلياته الجسمانية والفكرية كلها موجودة بالفعل. وفي حالة الذر في الحيمن والبويضة وتحت تأثير هذه العوامل الوراثية والذريات، لا يلد الفيل غير الفيل ولا تلد الحية غير الحية ولا يلد الإنسان غير الإنسان. وإن ما هو موجود في الحيوانات موجود مثله في النباتات أيضاً فلا تثمر نواة التين غير التين ولا نواة التفاح غير التفاح ولا تزهر شجيرة القرنفل غير القرنفل بأشكالها وأوصافها ومزاياها، كما أنه لا يمكن لحيمن ما أن يخصّب بيضة من غير نوعه لعدم إمكان امتزاج العوامل الوراثية.

وبعد أن تستقر البويضة المخصّبة في جانب من الرحم تبدأ بأفعالها الحياتية فتنمو بانشطار الخلايا. فكل صبغي في كل خلية ينشطر شطرين ويستقطب، أي يذهب كل منهما إلى قطب من الخلية ثم تضيق الخلية من وسطها وتنقسم إلى قسمين متساويين في كل منهما 48 صبغياً فتصيران خليتين مستقلّتين متساويتين في الصبغيات وفي عوامل الوراثة أي الذريات، ويستديم هذا الانقسام حتى تتولّد ملايين الملايين من الخلايا. وبهذا تحصل الخلايا اللازمة لأنسجة الجسم المختلفة، فينمو الجسم من جوانبه كافة. وبما أن جميع العناصر اللازمة لتكوين خلايا أنسجة الجسم موجودة فعلاً

وفي حالة الذر في البويضة الملحقة أو المخصّبة، فإن الأعضاء والأنسجة على اختلافها تبدأ بالظهور ويتميّز بعضها عن بعض، كما تبدأ في الظهور الخلايا التناسلية بشكل واضح كما سبق بيانه.

16 ـ لا تقتصر عمليّة تكوين الجنين على بناء الأنسجة والأعضاء، إنما تنمو معها الصفات المعنوية والمؤهلات الشخصية كالذكاء والمزايا والصفات والميول ومختلف الأعمال الذهنية الأخرى والأمراض العصبية والاستعداد لبعض الأمراض والمناعة وغيرها. وبصورة أوضح ينمو الجنين ليظهر شخصية تختص بميزاتها المختلفة ومكيفاتها التي تساعد على أن يعيش هذا الجنين كشخص في الهيئة الاجتماعية عليه ما على غيره من حقوق وواجبات، وله ما ليس لغيره من خصائص وميول وقابليات.

17 ـ ولما كانت أحكام القوانين الطبيعية كقانون التكامل العضوي والاصطفاء الطبيعي وتنازع البقاء وبقاء الأصلح، أقول، لما كانت أحكام هذه القوانين تسري على كل كائن حيّ في الوجود من حيوان ونبات مهما علا أو دنا، فالاجدر بنا، أن نعود إلى الخليّة مرة أخرى، تلك التي تعتبر الوحدة القياسية لعالم الاحياء أو كاللبنة من هيكل الدار. فإذا ما درسنا هذه الخلية بدقة فكأننا قد درسنا عالم الأحياء كافة في شخص هذه الخلية، فما من عضو في كائن حيّ على اختلاف أنواعه «عضلات، عظام...» إلا ويتركب من مجموعة من الخلايا كما تتركّب الدار من مجموعة من اللبنات، والقوانين التي تخضع لها الخلية الحية تخضع لها الأحياء كافة.

وإذا كان عدد الخلايا في المادة السنجابية في دماغ الإنسان فقط تقدر بنحو من 9,500,000,000 خلية، فقد تتألف الحيوانات الابتدائية من خلية واحدة فقط. وإذا كان بعض الخلايا كبيرة جداً كبيض الطيور مثلاً، فإن منها صغيرة جداً لا ترى بالمجهر إلا بصعوبة كطفيلات الملاريا التي تعيش فوق الكرية الحمراء الدموية.

18 ـ يقول فلاسفة الطبيعة وعلى رأسهم أرنست هيكل الأستاذ في جامعة «فيينا» بأن الخلية ليست أول الخليقة كما ذهب بعض العلماء، إنما هي شخصية مستقلة تكاملت بمرور الأزمان وكر الدهور، فصار لها نواة وغلاف وأنسجة أخرى وأخذت شكلها الحالي. ويثبت هذا الفيلسوف نظريته هذه بوجود بعض العضويات الإبتدائية المسماة «مونر» التي لا تزال في حالة بسيطة متكوّنة من مواد مخاطية لزجة لا شكل معيّناً لها، وتحتوي على مركّبات معقّدة من الزلال «البومين» أو ما يشابهه، ليست لها نواة ولا غلاف. ويعتبر أصحاب هذه النظرية أن العضويات البسيطة هي حلقة الاتصال بين مبدأ ظهور العضويات الحية وتطورها إلى أن أصبحت خلية كاملة ذات شكل معين تخضع لقوانين معينة في حياتها وتكاثرها، وإن هذه العضويات البسيطة «مونر» كانت قد ملأت البحار والمياه ملايين من السنين حتى تطورت فظهرت من بينها الخلية المنفردة «الميكروبات» والخلايا المجتمعة التي تكوّن الجسم كما نراها الآن.

ولم يستطع أصحاب هذه المدرسة أن يعيّنوا الأسباب الحقيقية والمؤثرات الطبيعية التي أدت إلى تحول بعض العضويات البسيطة وتطورها حتى صارت منها الخلية، وإنما قالوا بأن تلك الأسباب زالت من سطح الأرض عندما بردت قشرتها.

19 ـ من المعلوم أن الجسم الحيواني بكليته متكوّن من نسيج من الخلايا المتنوعة، وكل خلية من هذه

الخلايا هي عبارة عن معمل كيمياوي صغير تجري فيه تعاملات كيمياوية معقدة (لبن، دمع، عصارات...) لم يستطع علماء الكيمياء من فهم حقيقتها بعد، لذلك لم يستطع أي معمل من معامل العالم تقليدها. وإذا كانت الكيمياء التحليلية قد تقدمت واستطاع العلماء بواسطتها تركيب وتحليل بعض المواد العضوية الناتجة عن فعالية الخلايا الحيوانية والنباتية، كالكحول والأتر والسكر وحامض الحماض وحامض النمليك وحامض الخليك وحامض اللبنيك والبوتريك... فإنهم لم يستطيعوا حتى الآن تركيب أو تحليل الفيبرين والالبومين، وهم لم يستطيعوا استحضار اللبن اصطناعياً مثلاً. ولعلهم يتوصلون في يوم من الأيام إلى استحصال الزلال (البومين) اصطناعياً، وعند ذاك يكون في استطاعتهم تحضير البروتوبلازما في أنابيب مختبراتهم فتزول المشاكل التي تعترض بحوثهم. وقد يحصل حينذاك أعظم انقلاب عرفه العالم.

20 ـ والآن لنرى ما تحمله هذه الخلايا من عناصر وما تقوم به من أعمال وأفعال. ولنذكر أولاً أن لا فرق بين الخلية الحيوانية والخلية النباتية، بل لا فرق بين الحادثات الحياتية الحيوانية والحادثات الحياتية النباتية، فإنها واحدة في الشجرتين. وقد ثبت أن في بعض الحيوانات البحرية مادة سكرية تشبه في تركيبها الكيميائي مادة السلولوز أي المادة الخشبية التي في النباتات، كما قد ثبت أن بعض النباتات الإبتدائية كالفطور champigions والجراثيم النباتية bacteries خالية تماماً من مادة السلولوز، وأن بعض النطف النباتية مجهزة بأهداب تتمكن بواسطتها من الانتقال، وأن جراثيم الحمى التيفية مجهزة بأهداب مهتزة تساعدها في الحركة والانتقال، كما ان النبات المسمى «المستحي» تتكمش أوراقه عند ملامسته، وإن أوراق نباتات أخرى تتكمش في الليل وتزدهر في النهار مما يدل على وجود الإحساس والتهيّج والحركات الانعكاسية في النباتات كما في الحيوانات، إذ ليس من فرق كبير من الوجهة الحياتية بين الخلية الحيوانية والخلية النباتية.

21 ـ ومن جهة أخرى، فإن العقل يقف حائراً مذهولاً أمام هذه الخلية الحقيرة البالغة غاية الدقة، حين يلاحظ ما تقوم به من أعمال منظمة تنظيماً كاملاً عجزت حتى أرقى المعامل وحتى المجتمعات عن أن يكون لها نظام في عملها كنظام هذه الخلية الصغيرة الحقيرة.

22 ـ تكمن في الخلية قوة محركة هائلة تنظم حياتها وتحافظ على مركّباتها وتسوقها إلى القيام بأفعالها الحياتية، وتولد فيها كهربائية خاصة عند أكتمال نموها تساعدها على تكاثرها بالانقسام البسيط، فتنقسم كل خلية في كل جسم عضوي إلى قسمين متساويين متشابهين بالقوة والقدرة والعمل والأوصاف والأفعال والمزايا والخصائص المادية والمعنوية، فيصبح كل قسم من هذين القسمين وحدة قائمة بذاتها تمتص موادها الغذائية بطريقة الابتلال والحلول والتنافذ، وتحلل في داخلها حتى المواد المعدنية للتغذّي بها. والأهم من ذلك كله قابلياته في تحويل القدرة الكامنة في الأغذية إلى قدرة تتمكن بواسطتها من القيام بأفعالها الحياتية، وهي ما تسمّى التمثيل assimilation فتحصل الاحتراقات في داخلها ثم تطرح فضلاتها من مواد مخمرة ومؤكسدة وضارة وسميّة وغير مفيدة بالطريقة نفسها التي تأخذ بها الغذاء، وهو ما يسمى ضد التمثيل desassimilation. ويلعب التنفس في ذلك دوراً كبيراً. كل هذه الأعمال تقوم بها هذه الخلية الهزيلة الحقيرة التي لا ترى إلا بالمجهر،

وهي دؤوبة على عملها بدقة وانتظام سواء أكانت في الإنسان أم في أحقر الحيوانات كالديدان والصراصر والحشرات.

23 ـ فما هذا النظام في عالم الأحياء وما هي ماهية هذه القوة الغامضة المستترة وراء سطح المرئيات، والتي تدفع هذه الخلية إلى القيام بكل هذه الأعمال؟ أهو ذكاء خارق يكمن فيها فيسوقها إلى العمل؟ أم هي قدرة مدركة تستتر في أجزائها؟ أم هي النفخة الإلهية الكبرى التي جعلت المادة عضوية حسّاسة مدركة؟ وما هي تلك الذريات التي تقوم بنقل الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء؟

الواقع أن للخلية انتباهاً خاصاً وحركة مستديمة تدل على وجود مراكز عصبية لا مرئية، وبالنتيجة تيارات كهربائية. وقد تأخذ إيعازاتها من المراكز الحياتية العامة في الجسم. ولئن كان هذا الانتباه يبدو ضئيلاً حيث لا يمد الخلية بالقدرة على تمييز المواد الصالحة من المضرة، إلا أن انتباهها يبدو عظيماً هائلاً حين ننظر إليها من وجهة أخرى حيث نراها تستمد المواد الأولية من المحيط الذي تعيش فيه فتستهلكه في احتراقاتها وفي ترميم ما يطرأ عليها من عطب وخلل، وفي المحافظة على سلامتها وفعاليتها. وقد تتخذ الحيطة اللازمة تجاه المؤثرات الخارجية وتصنع تبعاً لوظيفتها واستعدادها من مادة غذائية واحدة ابتدائية بسيطة (هي المادة المذابة في الدم) ومن بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين وأنواعاً من المنتجات الافرازية والمواد المختلفة الأخرى كالدموع والصفراء واللعاب والعرق والدهون والعصارات والمني والمذي وصملاخ الأذن والمخاط والمواد التي تفرزها الغدد الصمّ والهرمونات التي اكتشف العلماء وجودها وتأثيرها. ولكل من هذه المواد التي تحضرها الخلايا، وفي الحيوانات كافة على السواء، خصائص حكيمة وكيمائية تمتاز بتأثيرها ومركباتها وأنواعها وفوائدها.

24 ـ ومن المحقق أن هناك قوة مستترة في الخلية لا تصل إليها عقولنا ولا الوسائط العلمية ولا المقاييس البشرية، ألا وهي النفخة الإلهية الكبرى الممنوحة والموهوبة لعالم الأحياء كافة، تلك التي جعلت المادة الترابية عضوية ومحركة.

25 ـ ذهب العلماء الماديون إلى أن المنظِّم لأعمال الخلية هي الكهربائية المتحصّلة في ذاتها. فإذا قامت هذه الكهربائية بواجباتها وكان تيّارها منظّماً، نمت الخلية وتكاملت فقامت بأعمالها المختصة بها التي استورثتها من أسلافها منذ ملايين السنين، وإذا ما عجزت عن القيام بواجباتها أو اختل تيارها لسبب من الأسباب، هلكت. فهل في إمكاننا اعتبار هذه الكهربائية ذات عقل مدبّر؟ (هذا ما سنجيب عنه عند بحثنا عن ماهية الذرة في فصل حلول الجزء الإلهي في الأشخاص البشرية).

26 ـ ويقول الماديون هؤلاء ان ليس هناك في العوالم الحيّة من هو بالغ حد الكمال في خلقته، وحتى النوع البشري فهو لا يزال كما كان منذ بدأ ـ خاضعاً لقانون التكامل وقانون النشوء والارتقاء وقانون الاصطفاء الطبيعي. ويستند هؤلاء في قولهم إلى حجج منطقية، فيقولون عن الإنسان مثلاً: لو كان كاملاً في الخلقة، لخلق أوّل ما خلق بهذا الشكل جسمانياً وعقلياً. والواقع هو أنه وصل إلى ما وصل إليه بالتدريج. فبمرور السنين وكر الدهر والأحقاب وحسب نظرية النشوء والارتقاء تكامل شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى ما هو عليه، وسيظل تابعاً لهذا القانون من دون غاية معينة نستطيع أن نعتبر الإنسان فيها قد وصل إلى حد الكمال.

27 ـ وهناك ملاحظات أخرى للماديين إذ يقولون إن أعضاء جسم الإنسان ـ وهو أرقى المخلوقات ـ لم تبلغ حد الكمال في بنائها، ففيها نواقص كثيرة، نواقص فسلجية في العين والأنف والأذن وفي المثانة والكلية والكبد والقلب والرئة والأسنان... مما يساعد هذا النقص في التكوين على ظهور الأمراض فيها وفتكها بها، كما أنها معرّضة دائماً للخلل المؤدي أحياناً إلى الموت. ومن هذا نرى أن هذه الأعضاء ليست محكمة الوضع والصنع، وليست على نسق واحد ولا على نموذج واحد في الأفراد وفي الجماعات. فهي تابعة في تكوينها لعوامل كثيرة خارجية كالمحيط والوسط والمناخ والغذاء، كما ان هناك الضعف في بعض الأعضاء والاستعداد لبعض الأمراض. فقد تنتقل هذه بالوراثة من الآباء إلى الأبناء. ويقول هؤلاء الماديون: ليس هناك فرد واحد في العالم كله يشابه فرداً آخر مشابهة تامة في جسمه وهيكله وعقله وذكائه وأوصافه ومزاياه. فهو لا بد مفترق عنه تحت تأثير عوامل التطور جزئياً أو كلياً. لذلك كثرت الأنواع والأجناس الحيوانية والنباتية في العالم وانتشرت الحياة في أصقاع الكرة الأرضية. فمنها في المياه المالحة ومنها في المياه العذبة ومنها في البر والبحر ومنها في البر وحده ومنها في البر والهواء، ومنها ما هو مرئي بالعين المجردة ومنها ما لا يرى إلا بالمجهر ومنها ما لا يرى بالوسائط الفنية كافة، وهي موجودة في كل مكان وتحت مختلف البيئات وأنواع الأوساط وتباين الأجواء، وقد تكيفت في معيشتها فتباينت اشكالها، واختلفت انواعها وأحجامها تبعاً للمؤثرات الخارجية ونوع الغذاء والمحيط والبيئة والمناخ والإقليم.

فأما المؤثرات الخارجية فهي الحرارة والرطوبة وضغط الهواء وتيارات الرياح من ناحية، والقوانين الطبيعية كانتقال الصفات الوراثية والاصطفاء الطبيعي وبقاء الاصلح وتنازع البقاء... ومن جهة أخرى، تنقرض الكائنات الحية حينما يتغلب عليها من هو أقوى منها فيبيدها من عالم الأحياء نهائياً أو حين لا تستطيع أن تتلاءم مع المحيط، وحينذاك تبقى المخلوقات القوية المجهزة بالأسلحة الدفاعية والتي يلائمها المحيط ويمكنها احتمال مؤثّراته المختلفة.

28 ـ أليس من العجيب أن نعلم أن كل قطرة من قطرات مياه الأنهار والبحار تعج بسكانها من عالم الأحياء، وقد تهاجم إحداها الأخرى فتفترسها وتتغذّى بها فيعيش بعضها على البعض كما هو الحال في الحيوانات الكبيرة آكلة اللحوم. والقاعدة العامة في الكون «الحكم لمن غلب» و«القوة فوق الحق». أوَ ليس من الغريب أن يكتشف العلماء باكتريا حيّة مدفونة بالأوحال على عمق 10 ـ 20 قدماً تحت قاع المحيط في عمق 20 ـ 100 ألف قدم تحت سطح الماء، وقد حافظت هذه الباكتريا على حياتها قبل أن يظهر أول إنسان فوق سطح الأرض وما زالت تعيش خلال الملايين من السنين في طين قاع البحر في حالة تخدّر وخمول وهزال من قلّة الغذاء، ولما وضعها العلماء في وسط غذائي كثيف نمت وترعرعت وتكاثرت بصورة مدهشة؟

29 ـ وللمؤثرات الخارجية سلطة قوية تفرضها على الكائنات الحية فتؤثر في تكوينها مادياً ومعنوياً.

أما تأثيرها المادي فيكون في كيفية تكوين الجسم من الناحية الفسلجية وفي مظاهره وفي لون البشرة. فهناك اللون الأسود الذي يمتص الأشعة فوق البنفسجية فيبطل مفعولها الضار ويساعد على تحمّل الحرارة. وهناك الأنف الأفطس الذي يساعد على أخذ أكبر كمية من الهواء الحار المخلخل،

حيث استوجبت المنطقة الحارة هذا اللون وهذا المنخر. ويشاهد هذا الحال معكوساً عند سكان الجبال وفي المناطق الباردة. فإذا نقلنا زنجياً إلى القطب أو جبلياً إلى السهول، وإذا نقلنا منبوتات المناطق الباردة إلى المناطق الحارة، نشاهد بصورة واضحة التأثير السيّىء الذي يحدثه هذا الانتقال الذي قد يؤدي أحياناً إلى الموت. وهناك الألوان البشرية المختلفة، فالأبيض والأسود والأسمر والأصفر والأحمر. فكل من هذه الأجناس مع انها من الأنسال البشرية ومن عرق واحد، فقد اكتسبت صفاتها وميزاتها وألوانها من المحيط الذي هي فيه. وكذلك للأسماك في قعر البحر المظلم عيون مدورة واسعة لجمع والتقاط أكبر كمية ممكنة من الحزم الضيائية. وكذلك للحيوانات في الأقاليم الباردة فرو سميك متلاصق الشعرات لوقايتها من البرد. وهذا ما لا نجده في حيوانات المناطق الحارة لعدم الحاجة إليه. وقد زال الشعر وارتفع من الجسد البشري منذ أن اكتسى الإنسان الأثواب، حيث لم يبق له من حاجة لتدفئة الجسد، إلا في الأماكن والأعضاء المهمة الواجب محافظتها ووقايتها من المؤثرات الخارجية أكثر من غيرها، كالرأس والوجه والصدر والأعضاء التناسلية. كما أن لبعض الطيور والحشرات الضعيفة المحرومة من وسائل الدفاع، خاصية اكتساب لون المحيط للاختفاء عن أعين الأعداء. فمنها بلون التراب أو الصخور ومنها خضراء بلون أوراق النبات وغيره.

أما تأثير المحيط المعنوي فيلاحظ في الطباع والأخلاق والعادات، بحيث يتّصف سكان المناطق الحارة بالكسل والخمول وضعف البنية وسرعة الانفعال وشدة الاحساس، في حين يتصف سكان البلاد الباردة بالنشاط وقوة البنية وبرودة الطبع. كما ان سكان المناطق التي يكون مناخها دائم التغير يكونون سريعي الغضب والثورة، سريعي الرضا والاستكانة.

30 ـ ولأناث الحيوانات دخل في التطور وتحسين النسل وارتقاء الأجناس. فهي تنتخب خليلاً لها من بين ذكور بني جنسها أجملها شكلاً وأشدها قوّة وأكثرها نضالاً وأعذبها صوتاً، ولذلك كان ذكور الحيوانات كافة أضخم وأقوى وأجمل من أناثها، كالحصان والكبش والطاووس والديك والسبع، والثور بالنسبة للفرس والنعجة والدجاجة واللبوة والبقرة. وقد أصبحت هذه القضية الطبيعية معكوسة عند الإنسان وتابعة للعواطف المدنية.

31 ـ وكان بودنا أن نخوض في الحديث عن الحياة من الوجهة التطبيقية وعن علم وظائف الأعضاء «الفسلجة» إلا أنها ليست من موضوعنا.

32 ـ وقبل أن ننتهي من هذا الفصل، لا بدّ لنا من كلمة عما يسميه بوخنر «القوة الحياتية» أو كما يسميه شوبنهور «إرادة الحياة» وهو كفاح الحياة ضد الموت. فإن هذا يتجلى في كل ذرة من ذرات العالم الحي في جسم الإنسان والحيوان والنبات ضد المؤثرات الطبيعية أو ضد بعضها البعض، منذ الولادة حتى الموت وفي كل دقيقة من دقائق الحياة وفي كل خلية من خلايا الجسم، وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة الكائن الحيّ، إنسانه وحيوانه ونباته. وكلّها ترمي إلى استدامة الحياة وتجنّب الموت. وهو كفاح هائل مستمر بين الأحياء لغرض البقاء وهو ما يسمى «تنازع الحياة».

وهناك اندفاع شديد ورغبة ملحة لإدامة الحياة، ولعل لسان حال كل كائن حيّ يقول «كل شيء دون المنية سهل». فلقد طغت رغبة التمسك بأذيال الحياة على كل رغبة أخرى من الكائنات، وكانت

النتيجة الطبيعية لهذا الطغيان هو بقاء الأنواع على مر هذه الدهور الطويلة متمتعة بالحياة محتفظة بصفاتها ونوعيتها.

33 ـ ان كثرة الحوينات المنوية في الذكور، حيث تجد في كل قطرة منوية ملايين الحوينات، مع ان البويضة الواحدة لا تحتاج إلى أكثر من واحد منها فقط كما مرّ بيانه، وكثرة البذور في النباتات حيث قد تعطي كل حبة سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة وتسمح لها ان تكون غذاء للإنسان والحيوان، والتهالك الشديد في ممارسة الغريزة الجنسية، وتوتر الأعصاب الدافع لتحقيق الرغبات الشهوانية، والرغبة الملحة إلى الأمومة والأبوة، كل هذه وأمثالها ليست إلا وسائل وهبتها الطبيعة بمثل هذه القوة والسيطرة وفرضتها على عالم الاحياء لتكون وسيلة فعّالة لحفظ النوع. وإذا كانت وظيفة الذكور من الوجهة الحياتية تنحصر في التخصيب فقط، فقد تقع تكاليف إرادة الحياة على الاناث منذ طفولتهن فتظهر في شكل تغيرات في أجسامهن بمثابة التمهيد للوظيفة المقبلة.

34 ـ وللحيوانات وسائل دفاعية مختلفة لحفظ النوع واستدامة الحياة. فمنها حيوانات مجهّزة بالقرون القوية، ومنها بالأنياب والمخالب الحادة، ومنها وقائية كالاصداف المائية والسلاحف ذوات الدروع والقواقع وأشواك القنافذ، ومنها كيمائية كسموم الأفاعي والعقارب والزنابير والحشرات الأخرى، ومنها كهربائية كالسمك الرعّاد. وأما النباتات فلديها أيضاً بعض الوسائل لنشر بذورها. فهي تستخدم الحيوانات والطيور والحشرات لنقل غبار اللقاح من شجرة لأخرى، وقد تكون الرياح لواقح، إلى غير ذلك من وسائل مختلفة؛ فهذه كلها قوانين فرضتها قوة الحياة فرضاً على الاحياء ووسائل مختلفة سهلت لها إدامة الحياة.

35 ـ فما هي إرادة الحياة، أو قوة الحياة؟

يقول فلاسفة الطبيعة الماديون إنها ليست قوة من القوى فوق الطبيعة، إنما هي نتيجة عجيبة لاشتراك مختلف الأفعال الحيوية التي تجري في تلك الخلية الحقيرة التي لا ترى إلا بالمجهر. ويقولون بما أن الخلية ليست إلا بطرية كهربائية تولد الكهرباء طيلة حياتها، فإن هذه التيارات التي تولدها هي التي تنظم حركاتها وتشرف على تغذيتها ونموها وانقسامها وإنتاجها وإنه لم يثبت إلى الآن وجود قوة أخرى في الخلية تقوم بتنظيم أعمالها عدا هذه الكهربائية. وإن الخلية قد تولد شرارة موجبة في حالة انقسامها ـ وهذه أهم أفعالها ـ فليس إذن لغير الكهرباء من يد في أفعال هذه الخلية، وما إرادة الحياة أو قوة الحياة تلك إلا قبس من أقباس هذه الكهربائية.

36 ـ ويظهر ان ليس هناك منطق معقول في نظرية إرادة الحياة، ورغماً عن أن تكاليف ممارستها شاقة لا تطاق، فقد استساغها الاحياء وأصبحت من الملذات التي يحرص على التمتع بها، وذلك إما تلبية لنزعة نفسية أو إشباعاً لشهوة حسّية، فكان لا بد للأحياء أن تتزاوج وللأم أن تحمل جنينها في أحشائها أشهراً طويلة لخلق حياة جديدة متحمّلةً آلاماً مختلفة، وللطيور أن تحتضن بيضها دائبة حتى يسقط ريشها ويزداد صنفها. وكذا جميع الحيوانات، فانها تشترك في هذه الآلام وذلك الحرص. وكذا الحشرات فإنها تقوم بخدمة إعاشة أولادها حتى تشتد سواعدها.

هذا الشعور باللذة في تحمل كل هذه المتاعب والآلام، هو الهبة التي وهبتها الطبيعة للكائنات

الحية في هذا الكون لغاية واحدة، هي حفظ النوع وإدامة الحياة. وكل كائن حي مستعد لأن يبذل مثل هذه الجهود الجبارة ويتحمل تلك الآلام العنيفة لحساب غيره وهو راض تمام الرضا مغتبط بما يفعله ولسان حاله يقول: ولا شيء أحلا من عذابكم العذب.

37 ـ يمر كل كائن حي بأربعة أدوار: (1) دور الطفولة وفيه يزداد فعل التمثيل تدريجياً، (2) دور الشباب وفيه يزداد فعل التمثيل قوة ونشاطاً ويتغلب على فعل ضد التمثيل، (3) دور الكهولة وفيه يتساوى التمثيل وضد التمثيل، (4) دور الشيخوخة وفيه يزداد فعل ضد التمثيل شيئاً فشيئاً حتى تتوقف الأفعال الحيوية فيحصل الموت. وقد تحصل بعض العوارض فتبطؤ فيه أفعال تغذية الخلية فتتأخر في أعمالها الحياتية، فإن لم يتداركها الأطباء فإنها لا تعود قادرة على الاغتذاء فتموت، وإذا عمَّ الفناء والموت في الخلايا هلك الجسد بمجموعه.

38 ـ إن النساء العوانس والعزب من الرجال والخصيان يكونون دائماً أنانيين، ويكون الأطفال أكثر منهم أنانية. كل ذلك لأنهم لا يملكون من الوسائط أو القوّة الحياتية ما يقذفونه في الخارج؛ ولكن طبائع الأطفال تتحوّل في دور الشباب فيمتلىء الفتى حيوية ونشاطاً وحماسة في دور البلوغ، وهو حينئذ لا بد له من أن يخفّف عن نفسه بإنفاق قسم من حيويته الجنسية ومن أن يبذل شيئاً من ماء حياته مجاناً، بل يصرف عليها من ماله ويبذل النفس والنفيس في سبيل صرفها وإنفاقها لحساب غيره، وتحت هذه اللذة الكاذبة الوقتية الخادعة يكتسب النوع الاخصاب والبقاء، مع ان ذلك الشاب قد يبخل في إعطاء حقنة واحدة من دمه لتخليص شخص آخر من فقر الدم ومن الموت المحقّق أو في صرف شيء من ماله بدون بدل لحساب غيره. وقد يعود الشيخ إلى دور الأنانية متى فَقَدَ ينبوع حياته فيشرع بالاقتصاد على نفسه وعلى أولاده وآله وذويه، ولعل هذا هو السر في القول المأثور «يشيب المرء وتشيب معه خصلتان: الحرص وطول الأمل».

39 ـ إن الميل إلى الإستمرار بالحياة قانون من قوانين الحياة، وهو يشمل الأحياء كافة، الحيوان والنبات. وما الحياة إلا كفاح ضد الموت. فإن أعظم كارثة تحل بالكائن الحي هو شعوره باقتراب الموت أو بحلول موعد فقدان الحياة، وليس هذا الخوف من الموت إلا ظاهرة من مظاهر إرادة الحياة لبقائها مستديمة.

فكان من أشد كفاح الحياة قوّة، هو الكفاح ضد الموت. فالإنسان لم يستطع حتى اليوم أن يجد سبيلاً لقهر هذا العدو اللدود ودحره مهما بذل من جهد وعلم ومال.

ان الجسد لما له من قوة مانعة وجيوش جرارة [الكريات البيضاء] في كفاح دائم في الداخل مع من يريد التسلط عليه والتغذي به من الجراثيم المختلفة، كما وانه في جدال مستمر مع المؤثرات الطبيعية الخارجية. وما هذه الثياب التي نلبسها بعد أن تعرّى الجسد من الشعر، إلا لوقايته من التبدلات الجوية المهلكة. فكان كلما ضعف الجسد وعجز عن الدفاع، استولى عليه العدو فتتلاشى قوة الحياة شيئاً فشيئاً حتى تنطفىء ويحصل الموت. والموت معناه ختام دور الكفاح وتسليم الجسد للمؤثرات الطبيعية دون قيد أو شرط لتفعل به ما تشاء. ان أعظم نكبة تحلّ بالشيخ الهرم وفاة زوجته قبله وبقاؤه في آخر عمره منفرداً يقاسي آلام الوحدة في دور هو في أشد الحاجة إلى من يخلص إليه ويتعب في سبيله ويخفق قلبه شفقة عليه ويواسيه في حياته ويعينه في أمراضه ويسهر على راحته.

40 ـ الموت، كلمة مرعبة تقشعر لسماعها الأبدان. فإن حادثة موت أحد الناس يذكّرنا بأننا سنلاقي حتماً مثل هذا المصير. فكأن كل كائن حي ـ حتى الذبابة ـ لا ينشد شيئاً إلا الحياة. وما الموت إلا توقف أعمال الحياة، والحياة تنفر من الموت، وقد تتغلب ظاهرة الحياة على ظاهرة الموت فيكون الأمل بإطالة الحياة هو الغالب فلا يرد الموت على البال ولا يؤمن بالعدم. وما الخوف من الموت إلا شعور بحب البقاء، مع أن العقل يعلم باستحالة البقاء وان لحياته نهاية مقررة لا مناص منها. كذلك كان مصدر الجزع هو الشعور بالفناء إلى غير ما رجعة بينما العالم باق. والعقل يعلم أن العالم ليس بباق وأنه أيضاً متجه نحو الفناء، ويعلم ان الموت ليس كريهاً وليس فيه ما يستوجب الخوف والفزع أكثر من مفارقة عالم الاحياء وما تتناقله الألسن عن الحشرجة والاختناق وغصص الموت وسكراته ثم الانضمام إلى عالم اللحود وظلمات القبور، مع انه قد يكون رقيقاً كسنة النوم وقد لا يكون فيه ألم مطلقاً، إنما قد يكون خاتمة لآلام تسبق الموت، والآلام هي شطر من الحياة لا علاقة لها بالموت كما هو الحال في مرض السرطان مثلاً، وتنتهي هذه الآلام عند حلول الموت. وإذا ما حلّ الموت تضعف الحياة فيرتخي الجسد، وعند ذاك تكون كل خفقة من خفقات القلب أضعف من التي قبلها فيدب الانحلال وتسترخي الأعضاء وتنضب الإرادة ويذوب الجسم وتشخص الأبصار فتنطفىء شعلة الحياة كأن البطرية قد نفذ منها الكهرباء فيحصل الهدوء والسكون.

ومع هذا، فإننا قلّما مرّ لنا الموت على بال. فقوّة الحياة تطغى دائماً على الفناء وتعطي أملاً للفرد ببقائه إلى أجل غير محدود، فيقتنع نفسه بالبقاء إلى أجل غير معين وحينذاك ينسى الموت وقد لا يمرّ بخاطره أنه آت بخطى وئيدة. والحيوان لا يقل خوفاً من الموت عن الإنسان، فيظهر بوضوح ارتجاف الفرس وهي تسير براكبها على حافة هاوية سحيقة، وارتعاش أرجل الحصان وظهور علامات التأثّر عليه عند موت رفيق له، واضطراب النملة حين تحس بأن خطراً قد أحدق بها وهي في وعاء السكر، ونظرات الكلب الحزينة عندما يقع على كلب ميّت. أما القردة فتظهر حزنها في بقائها ساكنة بمكانها لا تتحرّك مدّة من الزمن وهي تأبى الطعام... مما يدل بوضوح على أن الحيوانات تشعر بالخوف والحزن أمام الموت.

41 ـ كان الإنسان منذ أقدم العصور، ولم يزل حتى اليوم، يتخيّل الحياة الخالدة ويسعى إلى استدامة الحياة. ومن أقدم الأساطير حول طلب الحياة هي أسطورة جلجامش البطل الاسطوري السومري الذي قام بمغامراته للوصول إلى الحياة الدائمة الخالدة، كما وصل إليها جدّه الأكبر [نوح الطوفان] وانتقاله من العالم الفاني كما جاء في الاسطورة إلى عالم الخلود وهي محررة تفصيلاً في مجلة سومر العراقية وفي الجزء الأول من كتابنا الألوهية في المعتقدات الوثنية، فلا حاجة لنا لذكرها. وكان قد أخفق جلجامش في مغامراته كلّها وباء بالفشل، وأخيراً عمل بنصيحة «سدورى» صاحبة الحانة المقدّسة وبائعة الخمر الألوهي وهي: «اجعل بطنك يا جلجامش ممتلئة والزوجة بين أحضانك سيدة، ودلّل طفلك وكن مسروراً، وارقص والعب حتى يأتيك الموت». فكفّ عن مغامراته.

42 ـ وأما معنى الخلود في الديانة البرهمية، فهو بقاء النفس بعد الموت وتداخلها في دورات زمنية في

عالم الاحياء (التناسخ) فهي تهبط وتعلو حتى تنصهر فتصل ذروة اشراقها فتتحد عند ذاك مع الإله براهما، وحين تبلغ النرفانا تنجو إذ ذاك من التناسخ ومن الدورات المتعاقبة.

43 ـ ولقد أظهرت المعرفة اليقينية ان الموت حقيقة لا مفر منها، وأن البلى سيصيب هذا الجسد حتماً. إذن كيف يمكن استدامة الحياة، وكيف يمكن تطمين هذه الرغبات، وكيف الوصول إلى الحياة الخالدة؟ إن المعتقدات الدينية قد حلّت هذه المشكلة وسدّت هذا الفراغ وأعطت الآمال اللذيذة الواسعة للمؤمنين. فإن لم يكن الخلود في هذه الحياة ممكناً، فإن الحياة الثانية التي تأتي بعد الموت والتي يقال إنها ستكون أسعد موقعاً وألذ مقاماً من هذه الحياة الدنيوية الفانية المشوبة بالآلام والأكدار والأحزان هي التي ستكون الخالدة. وكلما اعترضت المعرفة العقلية على هذه الحياة الثانية انبرت لها المعتقدات الدينية تجادلها في حقيقة الخلود الأبدي فتتغلّب عليها دائماً. وتحت هذا الاعتقاد أصبح كثير من الناس ينفر من هذه الحياة للوصول إلى حياة أفضل في اليوم الآخر.

44 ـ يقول بعض العلماء إن الانتحار جنون وقتي يصيب الإنسان. فلو فكّر المنتحر دقيقة واحدة قبل إقدامه على هذه الفعلة لانصرف عنها. ويقول هكسوس الحكيم اليوناني ان التمسّك بأهداب الحياة الأليمة المرّة هو الجنون. انه لجنون مستمر، رغم إرادة الحياة، وإلا فما قيمة عمر الإنسان إذا ما قسناه بعمر البشرية؟ وهذه المدة القصيرة التي يقطعها الإنسان متخبطاً بين تكاليف حياتية شاقة ومحن وأكدار وغصص وآلام وأمراض وأسقام، انها في الحقيقة لا تساوي سويعات قليلة من لذّة الحياة. ويقول هكسوس أيضاً: لعلّ الموت بهدوئه وسكونه وراحته خير ألف مرة من الحياة المشوبة بأنواع المنغّصات. ولكن حب الحياة يتغلب دائماً على العقل تبعاً لعواطف وميول وغرائز وهمية خيالية، فيتمسك الإنسان بأذيال الحياة ولو كانت مرة ويأمل الشفاء من الأمراض ولو كان مستحيلاً. يقول إسماعيل صبري باشا:

ان سئمت الحياة فارجع إلى الأر ... ض تنم آمناً من الأوصاب
لا تخفْ فالممات ليس بماح ... منك إلا ما تشتكي من عذاب

45 ـ هل أن النوع باق؟. فكما إن الفرد محكوم بالزوال فكذلك الأنواع أيضاً مسوقة بالزوبعة نفسها. فقد تحوّلها الطبيعة بمرور الزمن إلى نماذج مختلفة وتحطمها واحداً بعد آخر كما سبق وانقرضت آلاف الأنواع الحيوانية. فكل شيء يمضي ويتدحرج إلى الفناء فلا خلود في الأنواع ولا في الأفراد.

وقد يصيب الموت الحياة في مظهر من مظاهرها العرضية، أي بالأفراد إلى حين، حتى يكمل الكل. والحياة بمعناها الكلي باقية لمدة غير معينة ولا يستطيع الموت الفردي أن يزعزعها ما دامت هي مجهزة بتلك اللذة الكاذبة المغرية، وبذلك التيار الحاد الذي يجذب الذكر نحو الأنثى والأنثى نحو الذكر، وهي الغريزة الجنسية التي تعتبر بحق من أقوى الغرائز وأشدها وأعنفها. يقول ابن سينا عنها:

واحفظ منيك ما استطعت فانه ... ماء الحياة يراق في الارحام

46 ـ ان ملامسة الرجال للنساء وملابستهن، أحبولة غواية نصبتها الطبيعة لاستدامة الحياة وبقاء النوع. وليست هذه هبة للإنسان وحده، إنما تشترك بها معه كل الكائنات الحيّة، كبيرها وصغيرها. وما يدرينا، فلعلّ النباتات العالية أيضاً تجد لذة كالتي نجدها عند لقاحها بغبار الطلع.

47 ـ ومن المعلوم أن اناث الحيوانات كافة بعد أن يتم إخصابها، لا تقبل ذكورها مطلقاً، وإذا ما أجبرت على النزو، وسفدتها فحولها عنوة، يسقط عادة جنينها من تهيج رحمها. وأما المرأة فقد شذّت عن هذه القاعدة الطبيعية لتسلّط الرجل عليها منذ أن فرض إرادته تطميناً لرغباته ولذائذه وإشباعاً لشهواته ونهمه. فقد أرغمها على قبوله في أحضانها حتى في زمن حملها، وهي وان كانت قد تكبدت كثيراً من مصائب الإسقاط بهذا القبول، إلا أن الأمر أصبح مألوفاً لديها لا يستوجب سقط الجنين إلا نادراً. ومع هذا، فهي في هذا الدور ما زالت لا تحس للجماع برغبة ولا تشعر فيه بلذة.

48 ـ لم تكن النظرات التي يسدّدها الذكر للأنثى، ولا الحب والغرام، والعشق والهيام ولا لذة الاقتراب والاقتران إلا مقدمة لإنتاج الشخص المقبل، وجميعها شباك وشراك وأحابيل نسجتها الطبيعة وأحكمت نصبها لعالم الأحياء كافة. وهي ليست في الواقع إلا أسباباً تؤدي إلى النتيجة المقصودة من بين هذا المعترك الشهواني ـ إذا صحّ هذا التعبير ـ ألا وهو الطفل. فكأن الرجل يريد من هذا الطفل أن يقول له أول ما يخرج «السلام عليك يا أبي». وهكذا تكون الحياة قد فرضت إرادتها، والنوع قد احتفظ ببقائه، وللأبوين الصحة السلامة... فقد قضيا ما فرض عليهما من واجبات الطبيعة.

فليس في تكثير المواليد من الوجهة الطبيعية والحالة هذه ما يستوجب الفخر والزهو والغرور، إنما الفخر في تعليم المولود الفضائل الإنسانية، ويكون انسانياً.

49 ـ إن هذا بالنسبة للفرد شغل دائم مجهد، وتعب مضنٍ، وتجارة خاسرة، وغبن لا يعوّض، وعمل لا يعود على صاحبه إلا بالخسران، وإلا فما الذي اكتسبته من تقديمي ستة أفراد للمجموعة البشرية؟ لقد سبق السيف العذل.

أما بالنسبة للمجموع، فإن هذا خلود الحياة، وبقاء النوع، بل استمرار الحياة في الذريات، وليبل هذا الجسم فلا خوف من فنائه بعد هذا، فقد منح لغيره ما منح له، ولم يكن إلا حلقة واحدة في سلسلة عالم الأحياء، وقد أنتج أولاداً فاكتسبوا منه كل صفاته وميزاته. لقد قام بواجبه الحياتي وانتهى أمره ولم يبق له أي قيمة. إنه يعيش الآن في ذوات أولاده ويزداد سروراً إذ اتيح له أن يرى أولادهم فلن يصل الموت إلا إلى جسم منهك بال.

وكما إن الذين منحوه هذه الصفات والمزايا تركوا وذهبوا إلى غير ما رجعة، فهو أيضاً سيترك الذين منحهم صفاته ومزياه ويذهب مع الذاهبين إلى غير ما رجعة وحيث صار القوم صائر، أما الحياة فباقية خالدة.

50 ـ سألني أحد الأذكياء: من أنت؟ قلت: أنا جزء صغير من تراب الأرض، والأرض جزء صغير من عجينة الشمس، والشمس جزء صغير من مادة الكون قائم بالنفخة الإلهية الكبرى وبالوجود الكلي إلى حين، لم ألبث أن أرجع إلى المدخر العام الذي تتموج فيه العوالم كما تتموج أمواج البحر... فإن من واجبات كل إنسان أن يؤدي رسالة الحياة كغيره من الأحياء، ثم يسلمها إلى إنسان آخر مثله ليقوم هذا بالدور نفسه ويسلمها إلى غيره. ومن لعب دوره في مسرح الحياة وأدّى رسالته، فلا بد أن يتنحى عن الطريق ليفسح في المجال لغيره. لهذا، فإن الموت أمر طبيعي لا وجوب معه لخوف أو لفزع. ولقد أوصيت أن يكتب على جانب من قبري: «ويلٌ للخائفين من الموت».

الكتاب الثاني

هذا هو الإنسان



المقدمة

شغلت قصة ظهور البشر فوق سطح الأرض عقول الكهنة والرهبان والفلاسفة ورجال الأديان منذ العصور البشرية الأولى، وقد نظر إليها كل منهم بقدر ما توصل إليه عقله وإدراكه، فوضعوا لها أساطير متباينة تارة ومتقاربة تارة أخرى، وكثيراً ما تكون مقتبسة من بعضها بتعديلات طفيفة، الى ان ظهرت الأديان السماوية الكتابية وظهر فيها الخلق المباشر.

أما في الأزمنة المتأخرة فقد تميز من بين الفلاسفة الذين عالجوا قضية عالم الأحياء فوق سطح الأرض، الطبيعي الشهير «شارلس داروين» وأعقبه المتخرجون من مدرسته. فكانت آراؤهم وأقوالهم مستندة على الفحص والرؤية والتدقيق والتحقيق والدليل والبرهان، ثم ظهر بجانبهم علماء آخرون أخصائيون بعلم أحوال البشر [الأنثروبولوجي]. واذا كان هؤلاء العلماء قد اختلفوا في بعض المسائل، فقد اتفقوا جميعاً على ان الإنسان هو من أصناف ذات الثدايا وهو الأنموذج العالي لقانون التكامل العضوي، وهو كسائر فصائل عالم الأحياء كان ولم يزل تابعاً لأحكام القوانين الطبيعية والنشوء والإرتقاء والاصطفاء أو الإنتخاب الطبيعي، وانه يتصل بسلالة واحدة من سلالات بشرية متنوعة انقرض معظمها.

لم تكن آراء هؤلاء العلماء ومطالعاتهم كافة خاطئة، بل ان في كثير منها حقائق ثابتة لا تقبل الجدل مستندة الى الفحص والمشاهدة والامتحان والاختبار والبرهان. فقد تأسّست في مختلف العواصم الأوروبية والأمريكية دوائر ومعاهد ومختبرات علمية لدرس المباحث البشرية والتحري عن أصل الإنسان وتطوره مادياً وروحياً وتتبع تقدمه في شتى مناحي حياته الاجتماعية والفكرية. وظهر ان القسم المدوّن من تاريخه وهو لا يزيد على الخمسة آلاف سنة ما هو إلا جزء من مائتي جزء من تاريخه كلّه.

ويدّعي بعض العلماء انه كان قد أتى على الإنسان الأول الابتدائي حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، ولم تكن له آنذاك قيمة بشرية خاصة يمتاز بها عن سائر الحيوانات، بل لم يك فرق بينه وبين فصائل الحيوانات التي يطلق عليها علماء العصر الحاضر اسم القرود البشرية، فكان يعيش فوق الأشجار في الغابات أو في الكهوف والمغارات، ويأكل لحم أمه وأبيه وأخته وأخيه ميتاً، أو قد يقتل أمه وأباه إذا عجزا عن الذهاب الى الصيد بسبب مرضهما أو لشيخوختهما. ولربما كان يولم عليهما الولائم ويترك عظامهما طعمة للكلاب والذئاب، من دون أن يرى غضاضة في ذلك.

ان ذلك الإنسان الوحش الابتدائي الذي لم يكن يعلم شيئاً من أمور الدنيا، تطور بفكره وعقله وإدراكه وخصاله ومعرفته ـ علّم الإنسان ما لم يعلم ـ فتعلم الحاجيات والأشياء والأسماء كلّها ـ علّم

آدم الأسماء كلّها ـ فتطور تدريجياً خلال عشرات الألوف من السنين من حال الى حال واكتشف في الأزمنة المتأخرة النواميس الكونية، واستخدم لفائدته القوى الطبيعية، ودخل في زماننا هذا قلب الذرة فهتك عصمتها وفضح خدرها ومزّق أحشاءها وتصرّف بدقائقها وألقى القبض على الطاقة الكامنة فيها فاستخدمها لفائدته ومقاصده.

ان ذلك الحيوان البشري التافه التعس الذي كان يسعى ليله ونهاره وراء الصيد ويعيش غالباً على المنبوتات والخنافس والحشرات والديدان في الغابات، ولا يعلم حتى كيف يواري سوءة أخيه في التراب ويدفن موتاه في القبور، تطوّر فأصبح لا تكفيه موجودات الأرض التي هو عليها، فشرع يقلب أبصاره في السماء، لكي يسمو ببصره في أعماق رحاب الفضاء ليستطلع بثاقب بصره حقائق الكون. ونصب في زماننا هذا في جبل بالومار المنظار الذي قطر عدسته خمسة أمتار، ووزنها خمسة عشر طناً موضوعة في أنبوبة طولها عشرون متراً، فتمكن بواسطة هذا العملاق الجبار من تسجيل خمسمئة مليون نجمة، بألواح التصوير الى ألف مليون نجمة، ووصل الى سدم تبعد سبعمئة وخمسين مليون حتى ألف مليون سنة ضوئية (!) ولم يزل باذلاً جهده للتوغّل في أعماق الفضاء لاكتشاف أسرار عالم الغيب، حتى وصل الى القمر!.



الفصل الأول الإنســان

1 ـ **كيف ومتى ظهر الإنسان فوق سطح الأرض**[1]: لإمكان إعطاء الجواب عن هذا السؤال لا بد لنا أولا من بيان آراء الفلاسفة وعلماء الآثار عن كيفية تكوين العالم، وعن طبقات الأرض، وعلم العاديات والمتحجرات، دون التقيّد بآرائهم، ثم نعقب ذلك عن آراء كهنة الديانات الوثنية القديمة وأساطيرهم حول خلق الإنسان، وأخيراً نذكر ما ورد حوله في الديانات السماوية. وسيكون ذلك باقتضاب ومقدار ما يمس هذا الموضوع.

2 ـ **آراء العلماء**: تقول العلماء إن هذا الكون قد تطور من حالة السديم المنتشر الى حالة الاجرام السماوية، وإنه وان لم يمكن تثبيت عمر الكون تثبيتاً قاطعاً، إلا انه يمكن ان يقدّر بمئتي بليون سنة وذلك قبل ان تولد الكرة الأرضية. ويقدّر عمر الشمس بما بين الثلاثة آلاف مليون والأربعة آلاف مليون سنة، وعمر الأرض بنحو ألفي مليون سنة، وظهور الحياة فوق سطح الأرض بنحو أربعمئة وخمسين مليون سنة، وظهور الإنسان البدائي قبل ربع مليون سنة، وظهور الإنسان القديم قبل مائة ألف سنة، وظهوره كإنسان حقيقي قبل ثلاثين ألف سنة على أقل تقدير.

يقول جنر الفلكي انه كان قد اقترب جرم سماوي من الشمس قبل ألفي مليون سنة فأخرج بقوّة جاذبيته منها سدماً هائلة وتركها في مداراتها تدور على نفسها وحول الشمس، ومضى في سبيله، فتكوّنت من تلك السدم المنظومة الشمسية بشكل سيكار منفوخ دق جوانبه واستغلظ وسطه. ويعتقد «لا بلاس» ان الشمس في زمن من الأزمان كانت سديماً ملتهباً هائلاً منتشراً في الفضاء أو سحابة غازية ملتهبة منتشرة في الآفاق، وكلّما دارت على نفسها تبعاً لقوانين المادة في حركتها اليومية، وتقدّر مرّة في كل 27 يوماً من أيامنا تكاثف مركزها. وكلّما تكوّرت قذفت من طبقاتها الخارجية في الفضاء كتلاً هائلة من السدم ومن الكلف الملتهبة فتشكّلت من تلك السدم والكلف المتناثرة شهب وضّاءة تدور بسرعة فائقة حول محورها وحول أمها الشمس، فحصلت المجموعة الشمسية وتوابعها تحت قوانين المادة والحركة. هذا مع العلم انه لم ينقص من حجم الشمس بذلك القذف أكثر من جزء من عشرة آلاف جزء.

3 ـ **تكوين الأرض**: مهما يكن سبيل الانفصال، فمما لا شبهة فيه ان الشمس والأرض كانتا رتقاً أي ان الأرض كانت جزءاً من الشمس ثم انفتقت عنها وانفصلت قبل مدة يقدرها العلماء الاخصائيون بألفي مليون سنة. فكانت الأرض حينذاك سديماً أو غازاً ملتهباً فتكوّرت وبرد سطحها فتشكلت قشرتها الأولى. وقبل أن تتشكّل البحار كان سطح الأرض مغموراً بالمياه، وكانت الأبخرة المائية في دوران دائم

(1) لا يخفى ان هذه الأبحاث قائمة على أساس علمي صرف، فمنها ما لا شك فيه ومنها ما هو فرضي ومنها مؤيد بالنصوص الدينية ومنها إيماء كما سيأتي بيانه. وعلى كل حال فهي لا علاقة لها بالمعتقدات الشخصية والدينية. يقول المثل تعلم السحر ولا تفعل به. فكان من الضروري على كل فرد ان يطلع على الحركة الفكرية السائدة ويحكم عقله فيها.

أو جدال عنيف بين الأرض الملتهبة وسمائها البارد. فتسقط الأمطار بشدّة فوق الأرض وتتبخّر في الحال الى الجوّ تبعاً لشدّة حرارة سطح الأرض فتتكاثف الغيوم في السماء وتسقط الأمطار مرّة أخرى فتتبخّر في الحال أيضاً. فسبب دوران الماء الدائم هذا، يضاف إليه جريان الهواء الدائمي، غلبة الماء على النار فبرد سطح الأرض. وبعد ملايين السنين تجمعت المياه في الحفر الأرضية، فكانت البحيرات الحارة أولاً ثم الدافئة وثم الباردة. وما زالت التبخرات من بحار الأقاليم الحارة مستمرة وما زالت الرياح تسوق السحب في استقامات مختلفة من خط الاستواء الى القطبين الباردين، حتى اذا ما صادفت أثناء سيرها جواً بارداً تكاثفت فتساقط منها المطر أو الثلج أو البرد فوق سطح الأرض. ولا يزال هذا الدوران جارياً منذ ملايين السنين دون غاية معينة ودون هدف مقصود إنما تبعاً لحرارة الشمس وشدّة التبخرات وجريان الهواء وتكاثف الغيوم وتكهربها. ولم تزل البحار منها حارة ومنها دافئة ومنها باردة. ومن العجيب ان يتغلب العلم في زماننا هذا في كثير من مواضيعه على الطبيعة فيرغم السحب على إنزال مائها أو قد يمنعها من إنزال مائها.

4 ـ **ظهور أول حياة فوق سطح الأرض:** وبعد أن تشكلت القشرة الابتدائية وبرد سطح الأرض تكوّنت طبقات ترابية بعضها فوق بعض، وبتأثير الحرارة الباطنية حصلت الانفجارات والاندفاعات والزلازل العنيفة فتمزّقت تلك الطبقات والتوت على نفسها فحصلت النتوءات والمرتفعات والمنخفضات، فتشكلت الجبال والتلال والهضبات والوديان، وزادتها الزلازل والبراكين شدّة، وتجمّعت المياه في المنخفضات العميقة فحصلت البحار المحيطة واختلطت مع بعضها. وهكذا ظهرت لأول مرة في البحار والمستنقعات الدافئة قبل مدّة يقدرها العلماء بأربعمئة وخمسين مليون سنة العضويات الابتدائية البسيطة المسماة (مونر)، وهي حيوانات مائية ليس لها شكل ثابت معين معلوم، متكوّنة من مواد شبه زلالية معقدة التركيب تحت تأثير قوانين مجهولة زالت بعد ذلك من الوجود تدريجياً تبعاً لتبدل الأحوال الإقليمية. فتكاثرت هذه العضويات الابتدائية وملأت البحار والمحيطات وتطورت خلال ملايين السنين حتى ظهرت الخلية الابتدائية بغلافها ونواتها ومحتوياتها، ثم تطورت أيضاً وتكاملت فظهرت الخلية الجامعة لكلتا الفصيلتين [الحيواني والنباتي Zoophyte] ثم أعقبتها الخلايا الحيوانية والنباتية كل على حدة تبعاً لما سلكته في سبيل تغذيتها، فظهرت بالتعاقب الحيوانات الناعمة [Mollusque] كالإسفنج والديدان والمرجان والمحار والقشريات من جهة، وحشائش البحر والنباتات البسيطة الابتدائية من جهة أخرى، فكانتا الأصل في تكوين الشجرتين الحيوانية والنباتية. ولم تزل بعض الخلايا تحمل أوصاف كلتا الفصيلتين الحيوانية والنباتية كما هو معلوم. وبينما كانت الشجرة الحيوانية كلها من جنسية واحدة، افترق قسم منها الى جنسيتين ذكوراً وإناثاً كل على حدة. ولم يزل يوجد بعض الحيوانات تحمل أجهزة لتوليد الحيامن والبيض على حد سواء، فيسمى ذلك الحيوان خنثى كما هو الحال في دودة الكبد والدودة الوحيدة وبعض الحلزونات. وأما في النباتات فلم يحصل هذا الافتراق الجنسي إلا في النباتات العالية كالفستق والنخيل... وأما الأشجار المثمرة الأخرى فهي تحمل في أزهارها أجهزة الذكور والإناث فتلقح نفسها بنفسها كما هو معلوم في علم النباتات، كما وان لبعض النباتات قابلية التخرش والانتباه كالمسمى المستحى وغيره.

لقد امتازت الشجرة الحيوانية بأخذها المواد النشوية والسكرية والدهنية والزلالية من المحصولات الأرضية. فمنها ما يعيش في المياه المالحة أو العذبة، ومنها ما يعيش في المياه وفي البر، ومنها ما يعيش في البر والهواء، ومنها ما يعيش متطفلاً في أجسام الحيوانات كطفيل الملاريا الذي يعيش في كرية الدم أو في أجسام النباتات. وامتازت الشجرة الحيوانية أيضاً بالحركة والانتقال من محل إلى آخر وقابلية التخرش والتنبه والإحساس. وامتازت الشجرة النباتية بحملها حبيبات خضراء في خلايا أوراقها، تأخذ ثاني أوكسيد الكاربون، فيتّحد مع الماء تحت تأثير أشعة الشمس فتكوّن مختلف المواد السكرية والنشوية والدهنية. وهناك قسم من النباتات ـ الفطريات ـ محرومة من اليخضور لم تزل تعيش متطفلة على الحيوانات والنباتات، منها ما له فائدة عظيمة للإنسان كالخمائر وتستعمل في صناعة الجبن وفي المختمرات كافة، وقد تجلى أعظم تأثير لها في زماننا في استحضار البانسلين. ومنها ما يسبب الأمراض والتسممات.

5 ـ **تطور الحياة:** يقسم العلماء مدارج تطور الحياة على وجه الأرض إلى خمسة دهور:

1 ـ الدهر الأقدم «بامبا ليوزوئيك» وهو فجر الحياة أو دهر الحياة الأولى المار الذكر.

2 ـ الدهر الأول: «باليوزوئيك» وهو دور الحياة القديمة ودام ملايين السنين.

3 ـ الدهر الثاني: «ميزوئيك» وهو دور الحياة الوسطى.

4 ـ الدهر الثالث والرابع: «كينوزوئيك» وهو دهر الحياة الحديثة.

5 ـ الدهر الخامس: في دور التكوين.

وكانت الحياة قد تطورت وتنوعت في البحار خلال دهر الحياة الأولى فظهر بعض الفقريات والأسماك الإبتدائية والأشكال المحارية وذوات الغضاريف والقحوف الصغيرة وكثير من معدومة الفقرات، وبعض الشعاعيات والبوليب والنواعم والقشريات. وقد وجدت بقايا هذه الحيوانات مطمورة في طبقات الأرض كافة على السواء. وتشكلت في هذا الدور الأرضي الطبقات المسماة ترياس وكوراس والكلس (الطباشير) والفحم، وانفصلت خلالها البحار عن اليابسة. ولما حصل الجفاف في بعض البحيرات ويبست على أثره المياه أو كادت، تطورت ببطء بعض الأسماك من الغلاصم الى تنشئة رئات لها وأطراف، فحصلت البرمائيات، وهي التي تعيش في البرّ وفي الماء على السواء. إلا ان الحيوانات المائية كانت أكثر عدداً وأنواعاً، ثم قطعت هذه البرمائيات صلتها بالماء وأصبحت بكليتها حيوانات برية.

وأما النباتات فكانت البحار بحكم حركة المد والجزر تقذف فوق اليابسة في السواحل ما عندها من أنواع الحياة المائية، فلا تلبث هذه ان تموت. إلا ان قسماً منها استطاع ان يكيّف نفسه ويتركز في اليابسة فتكوّنت له جذور لأخذ الرطوبة من الأرض. فكانت الحياة النباتية ذات الجذور فوق سطح الأرض.

6 ـ **آكلة اللحوم:** وبينما كانت جميع الحيوانات المائية تعيش على الغذاء النباتي المبذول في البحار، ظهر من بينها طائفة تميل الى التغذي بالحيوانات فأصبحت هذه بعد ذلك آكلة اللحوم وتكاثرت بسرعة.

7 ـ **الدفاع عن النفس:** لما علمت بعض الحيوانات انها معرّضة للهلاك، شرعت بالدفاع عن نفسها.

فاختبأ قسم منها في الطين وقسم آخر كوّن له أصدافاً ومحاراً وأشواكاً وإبراً وقواقع كلسية وقشوراً صلبة وخراشف... كل ذلك كي يصعب التهامها وابتلاعها. وقسم آخر حافظ على أنساله بسرعة الهرب والجري من أمام أعدائه. ولم تزل الأسماك تعيش على المنبوتات المائية من جهة وعلى صغارها من جهة أخرى. لذلك قد تضع إناثها بيضها في السواحل وبين الصخور وفي المياه الضحضاحية لكي يصعب على الكبار منها الاقتراب إليها.

8 ـ **الفحم والنفط:** في دهر الحياة الوسطى كانت الأشجار تنمو بسرعة تحت تأثير الحرارة والرطوبة والأمطار الغزيرة فاتسعت الغابات فوق سطح الأرض، وتكدّست بقايا هذه الغابات العظيمة تحت الأتربة الكثيفة الثقيلة، وتحت هذا الضغط العظيم والتفاعلات الكيمياوية والبكترية، تحوّلت إلى الفحم الحجري الذي يستخرج الآن من مناجم في أعماق الأرض.

جاء في نشرة تصدرها شركة نفط العراق تحت عنوان «مائة حقيقة وحقيقة» عن طبقات الأرض الجيولوجية في شمال العراق بعد سبر غورها وتحليل موادها، أنها كانت تؤلف منذ مئات الملايين من السنين قعر بحر كان يمتد في غابر الأزمان من البحر الأبيض المتوسط الى الخليج الفارسي. وقد ماتت وانطمرت في أوحال ورواسب قعر هذا البحر أنواع من الحيوانات وأنواع من النباتات البحرية التي لا يحصيها عد. وان النفط كان قد يحصل تحت ظروف معينة وتحت تلك الأوحال والرواسب من التفاعلات الكيمياوية والبكترية على بقايا تلك الحيوانات والنباتات البحرية، فحبس في الصخور الترسبية هو وبقايا ماء البحر المالح والغاز على السواء. وقد ثبت في المعاينات المجهرية والتحليلات الكيماوية ان كل طبقة أرضية تحتوي على أنواع متباينة من الحيوانات والنباتات البحرية الصغيرة حتى التي لا ترى منها إلا بالمجهر. وقد يستطيع الخبير الجيولوجي ان يميز بين هذه الحيوانات عند رؤيتها، كما يمكنه ان يحدد عمر الطبقة الأرضية التي يجري فيها الحفر.

وفي الحقيقة ان بطن الأرض يضم مليارات من أنواع الأسماك والحيوانات المتحجرة. وفي المتاحف كثير منها يقدّر عمرها العلماء بمئات الملايين من السنين.

نشرت مجلة الأخبار البغدادية خبراً مؤداه ان بعثة أمريكية مؤلفة من ثلاثين عالماً بإشراف معهد الفيزياء الجيولوجية في جامعة كاليفورنيا ودائرة البحوث البحرية تحت إشراف معهد سكريس لجغرافية المحيطات، بالاشتراك مع مختبر الآلات الإلكترونية في البحرية الأمريكانية، اكتشفت سلسلة جبال طويلة تحت مياه المحيط الهادي بعمق 20 الى 100 ألف قدم تحت سطح البحر، كما وجدت هناك كائنات عضوية لا تزال على قيد الحياة بالرغم من مرور مليون سنة على انغمارها بالأوحال وبمياه البحر. كما انهم وجدوا قواقع السمك الصدفي والحلزونات وقنافذ البحر وكثيراً من الحيوانات المائية.

ووجدت البعثة حقيقة مدهشة أخرى في النماذج المستخرجة من أعماق قاع البحار، وهي وجود بكتريا حية في تلك النماذج مدفونة بالأوحال على عمق 10 إلى 20 قدماً تحت قاع المحيط، إلا انها قليلة النشاط وفي حالة تخدر من قلة الغذاء في تلك الأوحال. وعندما وضعها العلماء في وسط

غذائي تخميري نمت وترعرعت وتكاثرت بسرعة. ان هذه البكتريا حافظت على حياتها قبل ان يظهر أول إنسان فوق سطح الأرض وما زالت تعيش خلال هذه الملايين من السنين في طين قاع البحر.

9 ـ **السمكة ذات القوائم:** كان قد عثر العالم سميث الاستاذ في جامعة رودس بافريقيا الجنوبية صدفة على سمكة واحدة من الأسماك ذات القوائم التي تعيش في أعماق البحار، فتوافد عليه العلماء من كل حدب وصوب من الكرة الأرضية للاطلاع عليها، ولم يزالوا يدرسون أوصافها وصفاتها. يدّعي فارديان، العالم الألماني، ان أقدم ما عثر عليه العلماء من عالم الأحياء حتى الآن هو السمكة التي بدون فك والتي كانت قد ملأت البحار قبل ثلاثمئة وخمسين مليون سنة ثم انقرض القسم الأعظم منها وتطوّر القسم الباقي الى السمكة ذات الفك، ثم تطورت هذه أيضاً فظهر منها قبل مدة تقدر بمئتي مليون سنة السمكة الغضروفية، وتطورت هذه أيضاً فظهر منها السمكة العظمية، فالسمكة ذات القوائم التي عثر على واحدة منها ـ بعد لأي ـ العالم سميث في سواحل موزامبيق في أفريقيا الشرقية في أواخر سنة 1952.

يدعي فارديان ان هذه السمكة ذات القوائم كانت قد اقتربت من السواحل وشرعت تزحف أحياناً على اليابسة وكانت الأرض حينذاك خالية من الأحياء البرّية، فتولّدت منها الزواحف البرمائية، وهي التي تعيش في البرّ وفي الماء على السواء كالتمساح والضفدع وفرس الماء (ابيوبوتام). ثم قطع بعض الأقسام منها علاقته مع الماء نهائياً، فنشأت قبل مدة تقدر بمئة وخمسين مليون سنة الزواحف البرية. وتطورت هذه الزواحف فظهر من قسم منها قبل مدة تقدر بمئة مليون سنة الطيور، وظهر من بعض أقسامها الأخرى قبل مدة تقدر بستين مليون سنة اللبونات، وتطور فرع من هذه اللبونات فظهر قبل مدة تقدر بمليون سنة النسانيس والقردة البشرية. وفي تلك الأدوار التاريخية ظهرت أيضاً سلالات مختلفة متشعبة وتميز من بينها أوائل السلالة البشرية.

يظهر من هذا ان السمكة ذات القوائم التي عثر صدفة على واحدة منها في سواحل أفريقيا الشرقية خلال سنة 1952 كان قد تطور شكل منها قبل مدة تقدر بثلاثمئة وعشرين مليون سنة حتى ظهر منها قبل مليون سنة القرود البشرية. وكان قد انقرض الشكل الثاني منها قبل خمسين مليون سنة ولم يبق منها سوى متحجراتها. فقد عثر في نيو جرسي في أمريكا أثناء حفر أساس مكتبة جامعة برنستون على مجموعة كبيرة من الأسماك المتحجرة ذوات القوائم المذكورة يرجع عمرها الى مائة وستين مليون سنة نقلت جميعها الى المتاحف. كما توجد آلاف النماذج منها في متاحف العالم. ويقال ان لها فكاً سفلياً وذنباً مثلثاً طويلاً، ولها أربع زعانف شبيهة بالقوائم قد تقف عليها أحياناً.

وكان قد اعتبر العلماء ان هذه السمكة قد انقرضت ولم يبق لها من أثر في البحار حتى شاع في ربيع 1939 العثور على سمكة واحدة ذات القوائم في سواحل الموزامبيك، إلا ان أحد التجار كان قد سلخ جلدها قبل وصول العلماء إليها. ومنذ ذلك الحين كان الاستاذ سميث يتحرى واحدة أخرى من هذا النوع من السمك في تلك السواحل، حتى عثر على واحدة منها في شتاء 1952 فنقلها بالطائرة الى جامعة رودس في (الكاب، جنوب افريقيا) فكان وزنها 40 كيلوغراماً وطولها متراً ونصف المتر. ويقال ان لها ثقبين فوق عينيها تتنفس منهما بدلاً من الغلاصم ولكنها معدومة الرئتين.

والأمر الذي حار العلماء فيه هو ان هذه السمكة قد حافظت على شكلها الذي كانت عليه قبل ثلاثمئة وعشرين مليون سنة. وهي طبق الأصل لمتحجراتها الموجودة في المتاحف. اما كيف حافظت على شكلها دون ان يشملها التطور وكيف عاش بعضها حتى الآن في أعماق المياه بأشكالها الثابتة وأوصافها وصفاتها المعلومة، فذلك مما يشغل أفكار العلماء ويحاولون فهمه.

10 ـ **اللبونات**: ظهرت في تلك الأدوار الجيولوجية ذوات الأربع، وهي تنتسب الى البرمائيات التي تمثلها الضفادع، فتطورت تدريجياً من التنفس بالغلاصم كما هو الحال في الأسماك الى التنفس الرئوي. ولما كثرت النباتات فوق سطح الأرض ترك قسم منها سواحل المياه نهائياً وعاش في البر فأصبحت من الزواحف، وظهر منها أشكال عجيبة ثم تطورت الى لبونات ولم تزل آثار الغلاصم موجودة في الحيوانات كافة وحتى في الطيور وفي الإنسان وهي المسماة في علم التشريح «نفيراستاكي».

وفي الدهر الثالث الأرضي دبّت الزواحف والمفصليات وذوات الفقريات فوق وجه الأرض وتميز من بينها فصيلة سام أبرص، وبناء على تبدل المناخ انقرضت أنواع كثيرة من الحيوانات وامتصت الأشجار الضخمة كميات كبيرة من غاز الفحم (الكربون) الموجود في الهواء بكثرة وادخرته في أبدانها. ولما انطمرت في الأرض تكوّن منها الفحم الحجري فقلّت نسبة هذا الغاز في الهواء وهلكت على أثره الحيوانات المتآلفة معه وظهرت أنواع جديدة من الحيوانات خلفت المنقرضة لملاءمتها مع المحيط الجديد.

وفي آخر ذلك الدهر كانت الحيوانات والنباتات قد تكاملت بالنسبة لأوائله. فالزواحف الكبيرة والنباتات الصنوبرية انتشرت فوق اليابسة وأصبح الحامض الفحمي في الهواء قليلاً جداً فكانت الحيوانات الجديدة تستنشقه بسهولة من دون ان تصاب بالتسمم، وطارت البعوضة والفراشة والنحلة والذبابة في الهواء وصعدت الطيور الى الجو وسبحت الأسماك والتماسيح والضفادع ذوات الفقريات بالماء، ودبّت الزواحف والسلاحف واللبونات وذوات الأظلاف والقطط والكلاب والقردة أشباه الإنسان بالصحاري والقفار، وامتلأت الحقول وسواحل المياه بالأوراد والأزهار، وكثرت البرمائيات [Amphyble] في سواحل المياه، وارتفعت أشجار النخيل والصنوبر والأرز نحو السماء، وملأت الزواحف الضخمة وجه الأرض، فكان لهذه الزواحف وحدها الجاه والسلطان فوق سطح الأرض لا يشاركها فيه أحد.

ونشرت مجلة الاتحاد النسائي العراقي أن المعهد السمسوني في واشنطن حصل على حطام الحيوانات ذات الدم الحار التي كانت تعيش قبل نحو ستين مليون سنة.

وقد اكتشفت العظام المتحجرة هذه في وايومنغ بشمال غربي الولايات المتحدة. وتحتوي المجموعة على متحجرات من عظام القردة يعادل حجمها قرد الريسوس الحالي، ومن عظام حيوان قديم ينتمي الى فصيلة الليمور الذي يعيش حالياً في جزر الهند الشرقية.

ومن المخلوقات الغريبة الأخرى في هذه المجموعة حيوان بحجم الخنزير الكبير له أسنان معقوفة تشبه الأنياب.

11 ـ **الحيوانات والنباتات العالية**: يدخل الدهر الرابع الأرضي ويسمى الدهر الحديث، وتمتد أزمنة تكوينه بضعة ملايين من السنين تكاملت فيه الحيوانات والنباتات. وهو ينقسم الى ثلاث طبقات، الأولى «أوسن» ومعناها حمرة الشفق، والثانية «مي أوسن» ومعناها ابتداء الدور الجديد، والثالث «بلي أوسن» ومعناها الجديد وقد تكاملت فيه ذوات الثدايا وظهرت قطعان الفيلة والكركدن والخنازير والضباع والذئاب والسباع والقرود وأجداد الحيوانات كافة الموجودة الآن. وفي خلال هذه الأحقاب انقرضت الحيوانات التي عجزت عن الدفاع عن نفسها أو الهرب من أعدائها فصارت فريسة لآكلة اللحوم، وتشكلت غابات النخيل والتين والنباتات ذوات الفلقتين [Dicotyledon] فكانت الحيوانات مماثلة لما هي عليه الآن.

12 ـ **القردة الإنسانية**: حصل في هذا الدهر جفاف عام يبس على أثره كثير من المستنقعات والبحيرات والمياه السطحية ووقعت زلازل عنيفة والتواءات بتأثير الحرارة الباطنية للأرض، فنشأت بسببها جبال الألب وطوروس والأورال وكردستان والقوقاس وهمالايا. ونتيجة لتلك الزلازل انفتحت المضايق وتشكّل منها جبل طارق، استانبول، استقاجارات، وارتفعت الهضبات فظهرت جزيرة العرب وصحراء افريقية الكبرى، وانخفضت الوديان فاختلفت درجة الحرارة فوق سطح الأرض، وتحدّدت البحار عن اليابسة وتنوعت الحيوانات تبعاً للمناخ والاقليم ونوع الغذاء والحرارة والرطوبة والتيارات الهوائية والصحارى المنبتة أو القاحلة وطبيعة الأرض من صخرية أو رملية أو ترابية، وكثرت الأعشاب فغطّت سطح اليابسة فتحسنت أحوال الحيوانات وتكاثرت الوحوش آكلة اللحوم، وظهرت آثار ما يسميه العلماء سلالات القرود الإنسانية وسائر أنواع ذوات الثدايا، وانقرضت الحيوانات الضخمة كالفيل الماموثي وأجداد الكركدن والديناصور وغيرها.

13 ـ **الديناصور**: كانت بعثة أميركية قد عثرت في منغوليا على هيكل عظمي لإحدى الديناصورات وهي من العاشبات من ذوات الأربع. ووجد بيضها أيضاً متحجراً في بلاد المغول. يقال إن هذه الحيوانات التي يبلغ طولها 70 ـ 80 قدماً ووزنها يتراوح بين 40 و50 طناً كانت قد استعمرت وجه الأرض قبل ان يخلق الإنسان، فتسلطت عليها الحيوانات الأخرى من آكلة اللحوم فأكلت بيضها وأهلكت صغارها فانقرضت واندثرت وزالت من الوجود، كما زال أيضاً للسبب نفسه بعض أنواع الحيوانات من ذوات الفقريات الضخمة كالفيل الماموثي حيث لم يبق منها سوى هياكلها العظمية ومتحجراتها. وظهر كذلك في هذا الدور الأرضي فرس البحر والقردة العليا وشوهد في هذا الدور آثار البشر الأول.

14 ـ **آراء علماء الطبيعة في الإنسان الأوّل**: يدّعي داروين والمتخرجون من مدرسته أن الإنسان قديم فوق سطح الأرض. فقد ارتقى ببطء لا يتصور ولا يدرك من حيوان رخو كالعلق الى حيوان فقري، ومن سمكة الى حيوان برّي، ومن سعدان الى إنسان. وهو من أصناف ذوات الثدايا، وهو الانموذج العالي لقانون التكامل العضوي.

وعند الباحثين علم يسمى «علم مقايسة القحوف الرأسية» لتعين سعة الجماجم وكيفية تشعّب الأنواع، يفرّقون به بين السلالات البشرية المختلفة. فمنها ما يسمونه بالرأس العريض ومنها الرأس الطويل ومنها الرأس المفلطح ومنها المفرطة بالطول. ويصفون أصحاب العروق البشرية السامية بأنها

من الرؤوس الطويلة الاعتيادية المتناسبة مع عرضها، وبأن أنوفها مستقيمة ومعتدلة وقسمات وجوهها متناسبة ولونها أسمر.

في كتاب «تاريخ العالم» للسير جون هامرتن المترجم الى العربية تحت إشراف وزارة المعارف المصرية، أبحاث واسعة وصور كثيرة عن تاريخ الحيوان وانتقاله من حيوان رخو في المياه العذبة أو المالحة الى حيوان برّي، ثم كيفية تطوره الى برمائي والى اللبونات فذوات الأظلاف والحوافر والنسانيس والقردة العليا حتى تصل الى ما تسمى فصائل القرود الإنسانية، ففصيلة الإنسان.

ويدّعي آرثر كيت مؤلف كتاب «أجناس الإنسان القديمة» أن التاريخ الإنساني بدأ عندما طفق نوع من النسانيس الصغيرة البدائية يتفرّع الى ثلاث طوائف، منها اثنتان استمرت في المشي على أربع، والثالثة تشكل جسمها بشكل يساعد على انتصاب قامتها. وقد عثر على جد لهذا النوع في مصر وسمّاه القرد المصري البائد ويعتبره الجد الأعلى للقرود البشرية التي تمشي على رجلين، الى ان يقول: ولما كان الإنسان قد تكيّف للسير على اثنتين قبل نهاية عهد الفجر الحديث المتأخر، فإن سلالته قد انفصلت عن القردة البشرية الأخرى قبل مدة تقرب من نصف مليون سنة. وأما جونس استاذ التاريخ الطبيعي، فيدّعي أن عهد انفصال الإنسان عن فصيلة الرئيسيات يرجع الى عهد الفجر الحديث، وهو العهد الذي بدأت فيه اللبونات تتشعب الى فصائل مختلفة.

جاء في محاضرة ألقاها الدكتور روبنسون أمين متحف الترنسفال والأخصائي بشؤون الإنسان ما قبل التاريخ عن التطور البشري أن اكتشاف بقايا مستحدثات لخمسة نماذج للرجل القرد الذي عاش في افريقيا الجنوبية بالقرب من مدينة كورجردوس، تعتبر الحلقة المفقودة في تطور الإنسان من الرجل القرد الى الرجل البدائي. وقد انقرض جنس أربعة منهم بينما تطور الخامس الذي يعتبر جداً لرجل ما قبل التاريخ، لا لإنسان اليوم حتماً. ويقول الدكتور روبنسون انه اذا سار الرجل القرد المذكور اليوم بشوارع أفريقيا الجنوبية لابساً ثياب العصر الحاضر فلا فرق بينه وبين باقي البشر سوى وجهه(1).

ويدّعي علماء آخرون أن الإنسان ظهر في أواخر الدور الثاني الأرضي حيث وجد ان هناك بقايا عظامه.

وأما البروفسور «ويدنهى» فقد جمع من طبقات أمريكا الأرضية الجديدة (بلي أوسن) مجموعة من أنقاض الإنسان الأوّل وبقاياه. وكان هذا السبب في ادّعاء بعض العلماء الأمريكيين أن أمريكا هي مهد الإنسان الأول ومنها نشأت العروق البشرية؛ وإذا كان من المؤلفين من يرجع تاريخ الإنسان الى مليون سنة مضت فقد أجمعت آراء علماء الطبيعة على ان هذا المخلوق البشري قد افترق عن الفصائل الأخرى منذ ان شرع يعمل بيده ويستعمل الحجر كأداة، ويمشي على قدميه يقطع سلاسل الجبال الشاهقة ومسافات الصحراء الواسعة. وكان ذلك قبل مئتين وخمسين ألف سنة وفي أواخر الدهر الرابع الأرضي. ومع هذا لا يعلم بالضبط عن المرحلة الابتدائية التي كان فيها يلوح بيده بالحجر أو يقبض بها على العصا أو يحرك ابهامه لكي يواجه أصابع اليد؛ ويقدّرها الاخصائيون بربع مليون سنة على أقل تقدير.

15 ـ **الإنسان القديم:** وأما ظهور هذا المخلوق وهو كإنسان فوق سطح الأرض بشتّى أوصافه وأشكاله الخارجيّة، فكان في أوائل الدّهر الخامس الأرضي أي قبل أكثر من ماية ألف سنة بقليل. وأما ظهوره كإنسان حقيقي كما نعرفه، فلا يزيد على الثلاثين ألف سنة. يستدلون على ذلك من عظامه التي وجدوها في الكهوف والمغارات أو التي غطاها الجليد، فكانت جمجمته واسعة من الوراء ضيّقة من الأمام ما يدل على نمو الجسم وآلة الأعمال الذهنية كما هو الحال في جماجم الحيوانات.

16 ـ **القرود البشرية:** أعطت التحرّيات والتنقيبات الأثرية منذ مائة سنة للطبيعيين والمحققين فكرة قاطعة عن بعض سلالات القرود التي تشبه الإنسان بعض الشبه، ولذلك سمّاها العلماء الأوروبيون القرود الإنسانية أو القرود البشرية [Anthropoïde] ولا عبرة للاسم. وقد وجدوا عدّة سلالات منها في مختلف بقاع الأرض تختلف عن بعضها بالأوصاف والأشكال، وخاصة بحجم المخ وفي عظام الجمجمة وبالفكوك والأنياب كالاختلافات الحاصلة بين القرود العالية الموجودة الآن في أنحاء الأرض، وأعطي لكل منها اسم خاص بالنسبة لاسم الأرض التي وجد فيها.

أ ـ **إنسان جاوه:** عثر الدكتور لوجين دبوا في جاوه عام 1894 على قطع عظمية لجمجمة حيوان عجيب أسماه «الإنسان القرد الجاوي». اعتقد انه الحلقة المفقودة التي كثر البحث عنها في المجتمعات العلمية التي يرجع عهدها حسب تقدير العلماء الى ثلثمائة ألف من السنين. ولما كانت سعة جمجمته 940 سم مكعباً كانت من ناحية الحجم تحت الحد الأدنى لحجم المخ الإنساني مباشرة.

ولما كانت سعة الجمجمة في العروق الإنسانية المتكاملة بحساب الوسطى 1500 سم مكعب، وسعة الجمجمة في غالب سكان أوستراليا الأصليين يتراوح بين 1300 و1400 سم مكعب، وسعة جمجمة أكبر الأمخاخ من القردة يتراوح بين 520 و650 سم مكعباً، فقد اعتبر العلماء ان إنسان جاوه الذي كانت سعة جمجمته 940 سم مكعباً، كان على أبواب الإنسانية. فهو قد يتفهّم أوليات الأمور وله شيء من الذكاء والفطنة والقدرة على الفهم. ومن المحتمل أنه كان لديه بعض الإشارات الصوتية في حالة بدائية. كما انه ظهر من تدقيق عظام فخذه وقياسه مع عظام أفخاذ القردة الأخرى أمثاله أنه كان منتصب القامة يمشي على رجلين. ومع انه كان يحتفظ بكثير من سمات القرود، إلا ان مخه كما مرّ، كان حينذاك على عتبة باب الإنسانية. وقد مضى عليه ستماية ألف سنة حتى وصل مرحلته الأخيرة.

ب ـ **إنسان نياندر تال:** وجدت بقايا هذا الإنسان القردي في وادي نيندر [Neandirthal] قرب مدينة دسلدورف في ألمانيا، وهو يختلف كل الاختلاف عن أي جنس من أجناس القرود البشرية الأخرى. كان موطنه الجروف في سواحل الأنهار، وكان على جانب من الذكاء، له مدارك عالية جداً لا تقل عن إنسان جاوه. وكان قد ادثر بجلود الحيوانات وأوقد النار واستعمل بعض الأدوات للصيد والدفاع والهجوم وسكن في الكهوف. ويعتقد العلماء الأخصائيون بعلم أحوال البشر، استناداً على نافوخه المستدير المفلطح وفكّه العريض الضخم وجبهته الضيّقة، أنه انحدر من إنسان هيدلبرغ، وأنه كان أقرب الى القرود منه إلى الإنسان الحديث. ورغم ذلك، فإنه يعتبر فرعاً جانبياً من الجذع الإنساني الأصلي ساكن الكهوف. لذلك فهو إنسان حقيقي رغم بدائيته، وكان قد استولى على

مساحات واسعة في أوروبا الوسطى وعاش فيها مدة يقدّرها العلماء بمئتين وخمسين ألف سنة، ثم هلك وانقرض في العصر الجليدي.

ج ـ **إنسان بلتدون:** عثر على عظام هذا الإنسان القردي لأوّل مرّة في موقع بلتدون في انكلتره، وظهر من تدقيق عظام جمجمته وفكّه وأنيابه التي عثروا عليها في أراضي الكهوف ورواسب الأنهار أنه كان على جانب كبير من الذكاء والمعرفة. وقد عثروا على أدواته المصنوعة من الصوّان يرجع عهدها حسب تقدير ريدموير من مئتين وخمسين ألف أو ثلاثمئة ألف سنة. وكان قد عثر على أمثال هذه الأحجار الصوّانية أيضاً في بلجيكا وفرنسا حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وقد ذكر جون هامرتن البريطاني في كتابه «تاريخ العالم» أنه لا يزال في انكلتره جنس بشري احتفظ بكثير من صفات قرد بلتدون ظاهرة ظهوراً واضحاً في الفك والوجه والأنياب رغم ارتقائه الى المرتبة الإنسانية بالجمجمة وسعة المخ.

د ـ **الإنسان الروديسي:** وجد هذا الإنسان في جنوب أفريقيا ثم زحف إلى الشمال حتى وصل البحر المتوسط.

هـ ـ **إنسان كهف شاندر (العراق):** أصدرت مديرية الآثار القديمة العامة في العراق بتاريخ 6 تموز 1953 البيان الرسمي الآتي:

يسر مديرية الآثار القديمة العامة العراقية أن تعلن بأن بعثتها في كهف شاندر الواقع في قضاء راوندوز كشفت حديثاً بالاشتراك مع المستر رالف سوليكي ممثل المعهد السمنسوني الأميركي عن هيكل عظمي لطفل على عمق ثمانية أمتار في أرضية الكهف المذكور، ويترقى زمن هذا الهيكل العظمي الى ما قبل سبعين ألف سنة، وجد مع آلات من العصر الحجري القديم من الصناعة المعروفة بين الأوساط العلمية بالصناعة المستيرية.

وسيكون هذا الهيكل العظمي موضع اهتمام كبير ودراسة واسعة من قبل علماء الأجناس البشرية، نظراً لأنه أقدم هيكل بشري اكتشف في العراق. وقد حاول في السابق كثير من البحّاثين أن يعثروا على بقايا هذا الإنسان في بعض كهوف العراق مثل كهف هزار مرزد وزرزي بلواء السليمانية وكهوف ديان وبيستون بلواء أربيل وغير ذلك من الكهوف، فكشفوا فيها عن آلات من العصور الحجرية القديمة، غير انهم لم يتوفقوا إلى الكشف عن هيكل عظمي للإنسان الأوّل الذي صنع تلك الآلات. فلأول مرّة في تاريخ البحث في العصور الحجرية اهتدت مديرية الآثار بالاشتراك مع المعهد السمنسوني إلى الكشف عن هيكل للإنسان الذي عاش في جبال العراق قبل نحو سبعين ألف سنة. وسيتمكّن علماء الأجناس البشرية من دراسة هذا الهيكل العظمي المكتشف في كهف شاندر إلى أن يستعيدوا شكل الإنسان الأوّل في العراق.

إن أعمال الحفر لا تزال مستمرة في كهف شاندر، وقد بلغ التنقيب إلى عمق ثلاثين قدماً عن أرضية الكهف، ومن المحتمل جداً أن تعثر البعثة على بقايا أقدم عهداً يصل تاريخها إلى حدود مائة ألف سنة، وذلك باستكمال الحفر والوصول إلى الأرضية الصخرية الأولى للكهف المذكور.

ويعتبر كهف شاندر هذا مركزَ الإنسان الباليوليثي الذي عاش في العصر الحجري القديم

وبالعصر المسمّى موستيري في جبال زاغروس الواقع على بعد 250 ميلاً شمالي مدينة بغداد، وهو من فصيلة الإنسان المسمّى «نياندرنا لويد» وهو لا يشبه الإنسان الحالي.

وقد ثبت من الحفريات وجود أربع طبقات رسوبية رئيسية في كهف شاندر تمثّل سكنى الإنسان منذ أوّل العصور الثلجية في أوروبا إلى يومنا هذا، ولم يزل رعاة الأكراد يسكنون هذا الكهف الواسع مع أغنامهم في موسم الشتاء. وظهر في أعماق الحفريات سلسلة من الأنقاض المختلفة والمتنوعة التي يرجع تاريخها أولاً، وفي الطبقة العليا، إلى عصر الإنسان الحديث ثم إلى عصر التاريخ ثم إلى عصر المعادن وفي الأسفل إلى العصر الحجري القديم. وظهر في الطبقة العليا من الأنقاض القديمة ما تعود منها إلى المزارعين القدماء الذين سكنوا هذه الديار، وذلك قبل أن تظهر الحضارة السومرية والبابلية في سهول العراق بمدة طويلة من الزمن، ثم تأتي الطبقة الثانية وهي تحت الأولى تتكوّن من حجر الصوّان وهي تشبه الأدوات التي اكتشفت في كهف زارزى الذي يبعد 90 ميلاً عن كهف شاندر وبالقرب من السليمانية. وتمتاز حضارة إنسان كهف زارزى بصناعة فؤوس صغيرة من حجر الصوان، وهو دليل على تقدم الصناعة الحجرية. وكان هذا الإنسان يعتمد في قوته كإنسان شاندر على الصيد وجمع الآثار من الغابات.

ثم تأتي الطبقة الثالثة من الترسبات في كهف شاندر وتسمى بارادوست ـ باسم الجبل الذي يقع فيه الكهف ـ وظهر فيها صناعة حجرية بسيطة وشظايا وفؤوس مسننة. وفي الطبقة الرابعة وعمقها 28 قدماً اكتشف الهيكل العظمى لهيكل شاندر مع قطع من الصخور المدببة.

فكان الإنسان القرد الجاوي وإنسان نياندرتال وإنسان بلتدون وإنسان هيدلبرغ وإنسان روديسيا وإنسان انطلياس في لبنان وإنسان شاندر في العراق، وكلهم بنظر العلماء من الفصائل الإنسانية، يمثلون فروعاً منفصلة ومتشعبة في سلم الحياة الإنسانية المتطورة سبقت هذا الإنسان الحالي فعاشت وانتشرت فوق الأرض في مختلف الأزمان الغابرة، ثم انقرضت وزالت من الوجود ولم يبق منها سوى بقاياها الضئيلة مطمورة في باطن الأرض. وسلم من أولئك الأناسي فصيلة واحدة تكاثر منها هذا الإنسان الحالي فظهر منه ثلاثة عروق بشرية أساسية هي القوقاسي والمغولي والزنجي. ويأمل العلماء ان يعثروا على فروع أخرى للشجرة الإنسانية المحطمة.

وأما القرود العليا العديمة الذنب والموجودة الآن في مختلف بقاع الأرض، فهي قد تقترب في بعض أوصافها قليلاً من الفصيلة الإنسانية الحالية من جهة، وتبتعد عنها كثيراً من جهة أخرى. فهي قد تحاول الانتصاب والمشي على القدمين عند وقوفها على الأرض فيظهر لها إنحناء بارز في الظهر. ولم تتمكن في مشيها على قدميها لمسافات طويلة لضعف عضلات قوائمها. ويوجد في يديها ورجليها خمس أصابع قد يقابل ابهامها في اليدين والقدمين الأصابع الأربعة الأخرى، وذلك لتسهيل تسلقها على الأشجار ـ خلافاً لابهام القدمين في الإنسان ـ وتنتهي الأصابع بأظفار، وهي تحرّك أيديها باستقامات مختلفة وتمشي غالباً على اليدين والقدمين. وقد تشابه الإنسان وتقترب منه في كثير من مزاياها التشريحية. وثبت أن لها مع الإنسان قرابة دموية ظاهرة في الخصائص الكيماوية والحياتية. فقد تصاب هذه الفصيلة وحدها بالأمراض الانتانية الخاصة بالإنسان فقط، كمرض السفلس

والتيفوس وبعض الأمراض الطفيلية الأخرى، في حين يوجد للحيوانات الأخرى على اختلاف أجناسها وأنواعها مناعة في دمها تجاه هذه الأمراض، فلا تصاب بها مطلقاً، ما يؤيد وجود القرابة الدموية القديمة بين الجانبين[1].

يتميز من بين القرود العالية الأورانغ أو تانغ وموطنه في بورينو وسوماطره. ذراعاه طويلان جداً لتأمين تسلقه على الأشجار. وقرد الشامبانزي وموطنه في غابات أفريقيا الغربية يعيش في أسفل الأشجار ولا يتسلقها إلا قليلاً وهو أكثر شبهاً بالإنسان من القرود الأخرى. فقد تصنع أنثاه عشاً بين الأغصان لتوفر الراحة والأمن والسكون لأولادها. وقرود الغوريللا وموطنه بين نهري النيجر والكونغو في غربي أفريقيا وهو أكبر القرود حجماً وأقواها بدناً، يعيش في الغابات ويتسلق الأشجار وحين ينزل على الأرض يمشي على أربع.

17 ـ **عصر الكهوف**: شاهد علماء الآثار الفرنسيون أن عصر الكهوف في أوروبا استغرق أدواراً طويلة من الزمن تقدر بين 100,000 حتى 12,000 عام قبل الميلاد. وثبت عندهم أيضاً من العظام المختلفة والأحجار التي عثروا عليها ومن مقايسة سعة الجماجم وأشكال الفكوك والأسنان والأنياب، آن دور العصر الحجري القديم لم يكن واحداً إنما كان عصوراً حجرية قديمة متتابعة قد تطور فيها الإنسان بفكره وثقافته وأشكاله من حال إلى حال. وأيّدهم في ذلك علماء الآثار من الإنكليز والالمان والاسبان. ووجدت في فرنسا كهوف كلسية كبيرة كان قد استعملها الإنسان لسكناه أو لدفن موتاه. وقد تحقّق من حفريات أرض تلك الكهوف أن سكانها كانوا على جانب من القذارة لا يعرفون معنى النظافة والكنس، فلم ينظفوا ويكنسوا أرض كهوفهم التي كانوا يسكنون فيها، وقد يدفنون موتاهم في الكهف نفسه الذي كانوا يسكنون فيه. لذلك قد طمر تحت أنقاض ما يتساقط من سقوف الكهوف من أتربة وأحجار وما يحصل عندهم من أوساخ وأزبال كثير من مواقدهم وأدواتهم وأحجارهم وعظام موتاهم.

18 ـ **القرابة الدموية**: وثبت عند العلماء أن مخ القردة البشرية شبيه بمخ الإنسان الحاضر، إلا انه أصغر منه حجماً، وأن هذه القردة تستطيع أن تعبّر عن مقاصدها وإحساساتها بحركاتها وأوضاعها وأصواتها وهي تأتي في سلّم التطوّر الحيواني بعد الفصيلة الإنسانية. ولقد تقرر عند العلماء أن جميع هذه القرود البشرية منحدرة من أصل واحد مشترك عاش في عهد الفجر الحديث. يستدلون على ذلك من علم التشريح المقارن وحالة العظام القحفية وعلم الأجنة. ويعتقد علماء التشريح أن الغلاصم الموجودة في الأسماك قد انقلبت إلى نفير اساكي في اللبونات كافة وحتى في الطيور والزواحف، وان رحم أنثى القرد البشري كرحم المرأة في شكله ووضعه، وتظهر عادة في الأسبوع

---

(1) قد يثبت العلماء القرابة الدموية بين فصائل الحيوانات بواسطة الإصابة بجراثيم الأمراض المعدية، فمن الجراثيم المرضية ما تصيب الحيوانات كافة ـ سوى الطيور ـ وحتى الإنسان كمرض الجمرة. ومنها ما يصيب فصيلة واحدة ولا تصيب الفصائل الأخرى. فإن مرض الرعام يصيب ذوات الحافر (الخيل البغال الحمير) ولا يصيب المجترات مطلقاً، والوباء البقري يصيب المجترات [الجاموس، البقر، الغنم، الماعز] ولا يصيب الخيل والإنسان مطلقاً، والسفلس يصيب الإنسان ولا يصيب ذوات الحافر والمجترات وسائر الحيوانات مطلقاً وقد تصاب به فقط القرود العليا وخاصة منها الشامبانزي.

الثالث من حياة جنين البشر. وفي أجنة القرود البشرية المنتصبة كافة ذنب خارجي حقيقي يتألّف من عشر عقد. فإذا بلغ الجنين أسبوعه السابع وقف نمو ذنبه وفي الأسبوع الثامن يغوص ويختفي. ويعلّلون سبب غوصه واختفائه سقوطه عن العمل حيث لم يبق له من وظيفة، وذلك منذ أن تمكّن الإنسان وتلك القرود من تحريك أيديهم في مختلف الجهات. وأخيراً ادّعى ح. هـ. نتال أحد أساتذة جامعة كمبردج عام 1904 أنه أثبت التفاعلات المشتركة التي تحدث في الدم من حيث التطور والقرابة الدموية بين الإنسان وبعض القرود، وقد انقرضت تلك القردة البشرية على اختلاف أنواعها ولم يبق منها سوى أفراد قلائل مبعثرة هنا وهناك.

19 ـ **العصور الجليدية**: قبل أن ننتقل إلى الإنسان الحديث، علينا أن نذكر شيئاً عن العصر الجليدي المار الذكر لأهميته. فقد حلّت العصور الجليدية في أواخر الدّهر الرابع الأرضي فحصلت الطبقات الثلجية [Glacier] في أوروبا وفي الأقسام الشمالية من آسيا كافة، وتراكمت الثلوج بعضها فوق بعض عشرات الألوف من السنين دون أن تذوب في فصل الصيف فهلك في هذا الدور الحيوانات كافة ومن جملتها القرود الإنسانية المسماة نياندرتال وبلتدون، وكذلك أجداد السلالة البشرية الموجودة في تلك الأصقاع. وبينما كانت الثلوج تغمر أجواء أوروبا كانت الأمطار الغزيرة تغمر شمال أفريقيا وبلاد العرب وجنوب آسيا فيكثر فيها الكلأ والأشجار ويتكاثر الإنسان والحيوان على نطاق واسع. وأخيراً حصل تبدّل في وضع الشمس فهطلت الأمطار على المجمدات فذاب الجليد وانقلب إلى مياه تسربت إلى الوديان وغمرت السهول فامتلأت أحواض الأنهر وغرق من لم يهلكه الجليد وأصبحت أوروبا شبه خالية من السكان. وكان ذلك قبل خمسين ألف سنة تقريباً.

20 ـ **الإنسان الحديث**: وأما الإنسان الحالي فلم يكن قد انقلب من القرود كما يدّعي بعض الناس بل هو يختلف بكثير من صفاته وميزاته عن سائر ما يسميه العلماء الاخصائيون بالقرود البشرية. فهو منحدر من سلالة خاصة به وحده. ومع هذا فلم يعثر المنقبون الى الآن على شاهد يدل على منشأه أو السلالة التي انحدر منها. وقد ثبت عندهم من أبحاث طبقات الأرض ومن العظام المتحجرة أن وجوده كإنسان بدائي فوق سطح الأرض يتميز عن سائر الحيوانات، أكان في نهاية الدور الثالث أو في بداية الدور الرابع الأرضي. وكان هذا المخلوق معاصراً للحيوانات الضخمة ذوات الثدايا المنقرضة. مضى على ظهوره كإنسان بدائي يعيش في الغابات والأدغال مقتاتاً بلحوم الحيوانات النيّئة متدثراً بجلودها ومتّخذاً من الحجارة سلاحاً وهو أقرب إلى الحيوانية منه إلى الإنسان ما يزيد على الماية ألف سنة. وقد مضى على ظهوره كإنسان حقيقي يعيش في القرى مع رفاقه في حياة إجتماعية تسمو به عن الفصائل الحيوانية والإنسانية البدائية ما لا يزيد على الثلاثين ألف سنة. ولم يكن هذا المخلوق ثابتاً في سلّم الحياة ـ كما خلقه الله أوّل مرّة ـ إنما كان تابعاً لسنّة التطور فتطور من حال إلى حال بصفاته الجسمانية والروحية.

أما صفاته الجسمانية فلم يطرأ عليها تبدل كبير خلال المائة ألف سنة المنصرمة باستثناء جمجمته المتوسعة المندفعة إلى الأمام. أما انتصاب قامته وتكوّن عظام الترقوة في كتفيه، فيرجع ذلك إلى أبعد من هذا التاريخ. فقد سهلت له عظام الترقوة تحريك يديه في مختلف الجهات، وتكوّن

الابهام تجاه أصابعه الأربع قد سهّل له القبض على الحجر والعصا. وتحقّق لدى العلماء من نماذج الفكوك والعظام المستخرجة من باطن الأرض أن الإنسان الأقدم كان أضخم فكاً وأكبر أنياباً ولم يكن حينذاك قد استقام تماماً في مشيته.

أما صفاته الروحية وهي التي تتجلى بأخلاقه وذكائه ومعتقداته وعبقريته ووجدانه وتفكيره، إلخ... وجميعها من الأعمال الذهنية، فقد نمت فيه نمواً عظيماً واختلفت بين الأمم اختلافاً كبيراً باختلاف المحيط والموقع والوسط الذي تكوّنت به.

جاء في محاضرة ألقاها ناجي الأصيل مدير الآثار القديمة في العراق: أن ما اكتشفناه من الهياكل العظمية في مقبرة أريدو، وهي من العهد البعيد من الألف الخامس قبل الميلاد، قد أثبت تدقيقها العلمي أنها لا تختلف في شيء عن السكنة الحاليين لجنوب وادي الرافدين وهذا أمر طبيعي يدل على ان التكامل الإنساني خلال هذه المدة القصيرة جداً كان تكاملاً شعورياً خلقياً، اي وجدانياً أكثر بكثير مما هو وليد تطورات جسمانية.

22 ـ **الإنسان في التاريخ**: من علماء الأحافير وفي مقدمتهم البروفسور بريد وود رئيس البعثة الأميركية في حفريات جرمو (في العراق) من درسوا أصل الإنسان وتطوّره مادياً وروحياً في عصور ما قبل التاريخ وأدوار تاريخه الأولى، وادّعوا ان تاريخ حالة إنسان ما قبل تدوين التاريخ أوسع كثيراً من أدوار تاريخه المدوّن، وأن الجزء المدوّن منه قد لا يزيد على جزء من مائتي جزء من تاريخه كلّه، بينما القسم المدوّن لا يتجاوز الخمسة آلاف سنة الماضية، ذلك ان أدواره في ما قبل التاريخ قد تبلغ المليون سنة تقريباً. وقد عثر بريد وود على آثار تمثل دور بدء الزراعة في التاريخ حين انتقل هذا الإنسان من الغابات إالى الكهوف من عهد أكل الأعشاب البريّة وجمع المواد الغذائية من الأشجار إلى عهد تهيئة تلك المواد وإنتاج ما يكفي لإعاشته منها عن طريق الزراعة (المحاريث، المناجل) وهي شبيهة بالآثار التي عثرت عليها دائرة الآثار العراقية في حسونه (قرب الموصل) وفي جرمو وكذلك في هزار مرد وزرزي وديان وبيستون. وقد عثرت بعثة أميركية أخرى في موقع باردا ـ بالكا قرب السليمانية على آثار حجرية وهياكل عظمية للإنسان القديم، كما عثرت مديرية الآثار القديمة في كهف شاندر على هيكل عظمي لطفل صغير يرجع عهده الى سبعين ألف سنة كما مرّ ذكره.

23 ـ **إنسان الهلال الخصيب**: بهذا يكون قد مرّ على إنسان الهلال الخصيب (إنسان لبنان وإنسان سورية وإنسان فلسطين وإنسان العراق) القديم وتطوراته في أدواره الأولى عشرات الألوف من السنين. وقد فتح هذا الكشف بحثاً جديداً في ما يتعلق بسلسلة التطورات الإنسانية، وخاصة عند انتقاله من العصور الحجرية القديمة إلى العصور الحجرية الحديثة، وهو في صراع دائم وكفاح مستمر مع الحيوانات والقوى الطبيعية حتى استقرّ في أعالي الرافدين وسهول بردى والنيل وسواحل الأنهار. وكان كلّما تكرّر الجدب في منطقة انتقل إلى غيرها أكثر إخصاباً، وبهذه الهجرة انتشر الإنسان من الشرق الأوسط طلباً للغذاء.

24 ـ **تطوّر الأنسال البشريّة**: كان بعد زوال العصور الجليدية ان انتشر على هذا المنوال انتشاراً بطيئاً أيضاً من شمال أفريقيا وأواسط آسيا إلى أوروبا، فنشأ من انتشاره في مختلف البيئات والأقاليم من

الكرة الأرضية عروق بشرية متباينة وطوائف إنسانية مختلفة تتميّز بعضها عن البعض باللون والهيكل العظمي والتشكلات الخارجية، فاكتسب كل فريق من الطوائف البشرية تبعاً لمحيطه ووسطه وبيئته ومناخه وإقليمه وجباله وسهوله، أوصافاً ومزايا تكوينية خاصة فظهرت أجناس وأنسال فرعيّة مختلفة للإنسان في مختلف بقاع الأرض، وثبتت تلك الأوصاف والمزايا في الأنسال المتعاقبة، فكان الأنف الأفطس والمنخر الواسع والشعر المفلفل واللون الأسود في البلاد الحارّة، والأنف المستقيم والمنخر الضيّق والشعر الأحمر والعيون الزرق والجلد الأبيض في الممالك الباردة. وحصلت الاختلافات في العروق البشرية الملوّنة الأخرى في أقطار العالم كافة تبعاً لخطوط العرض من الكرة الأرضية.

فقد صار منخر الزنجي واسعاً ليتمكّن من أخذ أكبر كميّة ممكنة من الهواء الحار المنبسط المخلخل طلباً للأوكسجين. وصار له في جلده غدد عرقية ضخمة ومسام واسع لإفراز العرق بكثرة. وصارت الجلود سوداء لامتصاص أشعة الشمس الزرقاء وإبطال مفعولها منعاً لأضرارها في الجسم. وأما الاسكيمو وسكان الاقاليم الباردة، فلأن كثرة الهواء البارد الكثيف والمنضغط قد يولد الالتهابات الأنفية والحنجرية والصدرية، لذلك صارت مناخرهم ضيّقة وأنوفهم صغيرة وصارت جلودهم بيضاء من قلّة الأشعة الشمسية.

25 ـ **ظهور النسل الإنساني:** وعند ظهور النسل الإنساني كان سطح الأرض مليئاً بمختلف أنواع الحيوانات، فكانت الطيور والزواحف والأسماك واللبونات... أقدم منه بملايين من السنين، إلا انه تميّز بذكائه وبمعرفته بضروريات الحياة، فاتخذ بعد زوال العصر الجليدي الرماح والسكاكين والأحجار المنحوتة سلاحاً للصيد والقنص فقهر بها أعداءه وخصومه.

وظهرت حفائره في مختلف بقاع الأرض، في الترنسفال ومصر والعراق وسورية ولبنان وفلسطين والصين وجاوه وفي أجزاء أوروبا وآسيا وأميركا. وعاش آلافاً من السنين على الصيد والمنبوتات الأرضية متدثراً بالجلود تارة وعرياناً تارة أخرى. وكان كلّما أعمل فكره اهتدى إلى شيء جديد حتى عرف الزراعة وصناعة الفخّار وصهر الحديد كما سيأتي بيانه.

26 ـ **دراسة تاريخ الإنسان الأوّل:** يقول العلماء الاخصائيون ان علم أحوال البشر [الانثروبولوجي] قد أثبت ان الإنسان كسائر المخلوقات، تابع للقوانين الطبيعية من وجهة النشوء والارتقاء والاصطفاء الطبيعي، وانه يتصل بسلالة واحدة من سلالات بشرية متنوعة انقرض معظمها. وأما السلالة البشرية الحالية الحديثة، فقد ساعدها الحظ وحافظت على نفسها وسلمت من الانقراض بفضل ما اتخذته من التدابير وما أظهرته من آثار الذكاء والحيطة في وقاية نفسها وأنسالها وآلها وذويها من أعدائها آكلة اللحوم. ولقد تأسّست في مختلف العواصم الأوربية والأميركية معاهد ومختبرات للعناية بالمباحث البشرية ودراسة تاريخ الإنسان الأوّل وكيفيّة نشوئه وتطوره وتتبّع تقدمه في شتّى مناحي حياته الاجتماعية.

27 ـ **الاختلافات التشريحية بين الإنسان والحيوان:** يدّعي بعض الفلاسفة أن وجود بعض الاختلافات الظاهرية بين أشكال وأعضاء الإنسان والحيوان ووجود الذّكاء الإنساني المتفوّق والنطق والكلام... كان

سبباً لأن يبحث فلاسفة آخرون عن العلّة والغاية من تكوين الإنسان، بينما الاختلافات بين الإنسان والحيوان لم تكن في جوهر التكوين إنما هي بالفروع فقط. فكل ما في الأمر هو اختلاف أشكال الهيكل العظمي من الوجهة الجسمانية وارتقاء نوع على آخر في سلّم الحياة من الوجهة الفكرية (نمو الذكاء)، مع ان الذكاء أيضاً لم يكن منحصراً في الإنسان وحده إنما يوجد ـ ولو ابتدائياً ـ في سائر الحيوانات (الكلب، القرد، الفيل، القط). كما ان بعض الحواس قد نمت في بعض الحيوانات أكثر مما هي في الإنسان بكثير (السّمع، البصر، الشم، اللمس)، وذلك تبعاً للضرورة الماسة إليها. وفي الحقيقة ان نمو الدماغ في الإنسان بمجموعه وكليته كان السبب المباشر لتفوّق النوع البشري على الأنواع الحيوانية الأخرى، بل هو السبب المباشر لتسخير الإنسان ما في الكرة الأرضية من حيوان ونبات وجماد وكذلك القوى الطبيعية واستخدامها لفائدته ومنفعته.

28 ـ **وحدة الخليقة**: يدّعي علماء التشريح أن الخليقة والتكوين في الحيوانات كافة، كبيرها وصغيرها، من الفيل حتى الضفدع وما دونه، على انموذج واحد وعلى خليقة واحدة. فكلها من ذوات الأربع ولها عينان تبصران وأذنان تسمعان وفم وشفتان وأنف ومنخران ولسان وأسنان ويدان ورجلان وصدر وظهر وبطن وجلد وشعر، ولها في أطرافها خمسة أصابع في رأس كل منها مادة قرنية لوقايتها من الجروح والصدمات، ولها كذلك الأجهزة التنفسيّة والقلبيّة والهضميّة والبوليّة والعصبيّة والجلديّة والتناسليّة (في الذكور والإناث)؛ ولها كذلك الأجهزة المكوّنة للحواس الخمس (السمع، البصر، الشم، اللمس، الذوق). فهذه كلّها من الوجهة التشريحية والمجهرية والفزيائية والكيمائية والحياتية موجودة في الإنسان كما في الحيوانات كافة على خليقة واحدة وتعمل على آلية واحدة، لا فرق بينهما البتّة إلا بالحجم والشكل الخارجي. وقد أخذت أشكالها الخارجية المتعارفة هذه تبعاً للحاجة ولضروريات الحياة. ويقولون، لقد انقلبت الأطراف الأمامية إلى يدين في الإنسان وإلى أجنحة في الطيور، والمادة القرنية التي في رؤوس الأصابع إلى مخالب مفترسة في آكلة اللحوم، ومنبسطة أو مدورة في الحيوانات الأخرى، وصار خف الجمل مستديراً لئلا يغوص في الرمال، وانقلب البنصر والوسطي إلى ظلفين وضمر الخنصر والسبابة واندفعا الى وراء الظلفين في المجترات، والتصق الظلفان وصارا حافراً في الخيل لتأمين سرعة الجري والهرب من الأعداء لحرمانها من القرون ومن سائر وسائط الدفاع عن النفس، باستثناء الرفس بالقوائم الخلفية، وضمر الخنصر والسبابة أيضاً واندفعا وراء الرسغين (اطره الارساغ) واندفع الابهام في جميع الحيوانات وحتى في الطيور عالياً الى الوراء ـ خلافاً للإنسان والقردة العليا ـ فصارا فوق عظام السلاميات، وفي الخيل في أسفل عظم الزند من وجهه الداخلي، وأصبح أثرياً حيث لم يبق منه سوى مادته القرنية فقط، وظهرت القرون في المجترّات للهجوم والدفاع، وضمر مصران الأعور في آكلة اللحوم كافة، وأصبح حتى في الإنسان أثرياً حيث لم يبق له من وظيفة، بينما تمدّد واستطال واستغلظ في الخيل، يقابله الكرشة في المجترّات، تخزن فيها المواد الغذائية الغليظة والكبيرة الحجم كالتبن والحشائش حتى يباشر فعل الهضم، إلخ... وهكذا اكتسبت الأعضاء الخارجية والداخلية من وراء ذلك أشكالاً متباينة تبعاً للحاجة والظروف الحياتية ونوع الغذاء والاقليم... وهذه كلّها فروع اقتضتها البيئة وطرز المعيشة ونوع الغذاء والوسط والمناخ... لا

علاقة لها بالجوهر، أي الأنساج المكوّنة للأعضاء وأساسها الخليّة. فهي واحدة في الأنساج البدنية كافة المتشابهة. فان أوصاف الأنسجة المكوّنة لطبقات العين وأوصاف الخلية التناسلية في الماء الدافق (الحوين المنوي ـ والبيضة)، وكذلك الخلايا الأخرى المكوّنة للعضلات والكبد والرئة والجلد والشعر والأعصاب والعظام والأمعاء والكلى والغدد... وكذلك الدم والإفرازات المختلفة (الصفرا، الدموع، اللعاب، العصارات المعائية، الإدرار، المخاط...) وما فيها من مواد، هي في الإنسان كما هي في الخيل والمجترّات وفي آكلة اللحوم وحتى في الحيوانات الصغيرة كالضفادع، كلّها على شكل واحد وتعمل على نسق واحد... لا فرق بينها مطلقاً. ويقولون ان هذا يدلّ على ان انسال الحيوانات كافة، كبيرها وصغيرها، منحدرة جميعها من مصدر واحد، وهي لم تزل على انموذج واحد وعلى خليقة واحدة، ثم اختلفت بأحجامها وبأشكالها الخارجية.

29 ـ **ميزة النّطق والكلام:** أما ميزة النطق والكلام الموجودة في الإنسان، فيقولون عنها إنها ملكات ذهنية رسخت في الدماغ منذ أن عرف الإنسان نفسه، قد تنمو في الأطفال بسرعة وتزداد حدّة وشدّة عند الخطباء والأساتذة والمعلّمين والمحامين، وقد تضمر عند عدم استعمالها واستخدامها، وقد ثبت أن الطفل إذا ترك وحده من دون أن يتعلّم ويمارس الكلام، فانه ينشأ غير قادر على التعبير عن قصده وشعوره بأكثر من العويل والصراخ والبكاء، محروماً من النطق والكلام.

ولما كان الإنسان في أدواره الابتدائية وحشاً كالبهائم، فقد كانت ملكة التكلم عنده معدومة، فكان يعبّر عن مقاصده بمقاطع ونبرات صوتية وإشارات وتلميحات شكليّة. وإذا تحقّقنا حالة الأقوام البشرية الابتدائية الموجودة في زماننا هذا في أوستراليا وجزر الأوقيانوس وأواسط أفريقيا وهم أبناء عمومتنا لا محالة، اتضح لنا ما كان عليه البشر المتوحش آنذاك. ومن المعلوم ان أولئك الأقوام لا تزيد كلماتهم على مقطع واحد أو مقطعين من الألفاظ والأسماء، وأصواتهم أشبه شيء بأصوات الحيوانات، وليس بوسعهم أن يتذكروا ما فعلوه البارحة إلا بصعوبة، ولا يتلفظون الكلمات المركّبة من عدة مقاطع بسهولة. وهذا يؤيد ما كان عليه الإنسان الابتدائي من الغباوة والجهل قبل أن يحصل على الذكاء والذاكرة وممارسة النطق وملكة التّكلم وذلاقة اللسان.

30 ـ **ملكة النطق والكلام:** لم تكن هذه الملكة خاصة بالإنسان وحده، فقد نمت رويداً رويداً في الحيوانات كافة على اختلاف أنواعها كما سبق ذكره في فصل الروح من كتابنا هذا. فليس هناك بين الحيوانات الكبيرة من عدمت أجهزة صوتية وحبالاً في حنجرتها شبيهة بالجهاز الصوتي الموجود في الإنسان، وقد تُخْرج هذه أصواتاً شبيهة بالأصوات التي ننطق بها نحن.

ومن العجيب انها كما سبق ذكره، مكوّنة على الغالب من بعض حروف الهجاء المستعملة عندنا وهي (ن. و. ل. ي. ا. ك. هـ. ع. وغيرها). فأصوات كثير من الحيوانات مركّبة من هذه الحروف ولها معان معينة عندها لا يخرجها ويستعملها الحيوان إلا في حالات معيّنة وذلك للدلالة على شيء معيّن. وهذا دليل على ان لهذه الأصوات علاقة بالأعمال الذهنية. وقد تختلف أصوات الكلب والقطّة والخروف والثعلب حسب الحال والظروف. وكذلك لوصوصة الصراصر وزقزقة العصافير معان خاصة في ما بينها.

فهذه الأصوات ما هي إلا ألفاظ وكلمات ابتدائية تتألف منها لغة الحيوانات، وان صيرورة تلك الألفاظ ذات معان معيّنة ثابتة لم تتم وتحصل في الإنسان إلا بعد أن نشأ دماغه وتكامل عقله، فالإنسان إذن قد قطع في سلّم التفاهم مع بعضه عدّة أدوار تدرّج خلالها من الإشارات إلى الأصوات إلى الألفاظ إلى الجمل[1].

31 ـ **ظهور الأبطال**: عندما تكوّن لدى الإنسان الذكاء الإبتدائي وفكّر وقدّر واطّلع على ما حوله من الظواهر الطبيعية ورأى الزلازل والبراكين والزوابع والصواعق والأمطار والثلوج والكسوف والخسوف... ومختلف الظواهر الطبيعية الأخرى، وفكّر بما يحيط به من آثار الكون دون أن يعلم لها سبباً، خاف وارتعدت فرائصه، خاصة عندما تكون الظواهر الطبيعية عنيفة، فكان يرى نفسه تجاهها ضعيفاً بجسمه وبدنه، ضعيفاً بعقله وتفكيره، ويرى نفسه في الوقت عينه محاطاً بالأعداء من كل جانب، تريد قتله وافتراسه. فاتقاء لكل ذلك أراد الإلتجاء إلى من هو أقوى منه ليقيه شرّ هذه المؤثرات ويحميه من مظاهر الطبيعة ومن صولة الأعداء، فأوصله البحث والتحرّي إلى بطل عظيم من أفراد القبيلة كان في ما سبق حياً وهلك، يقال عنه إنه كان أكثر قوّة وأشد بأساً وأعظم منه ومن رفاقه شجاعة وبسالة. فهذا البطل الذي تتناقل الأولاد سيرته، والأحفاد مناقبه، كان يصطاد الحيوانات ويحارب الأعداء ويدفع عاديات الأرض والسّماء. فلم يكن للانسان بد من استمداد العون منه وذكره صباحاً ومساء بل في كل لحظة متضرعاً إليه ليحميه من الآفات والشرور ومن كل اعتداء خارجي، فنمت عنده فكرة العبادة والتضرعات لدفع هذه العاديات، وانتهى الأمر بأن وضع هيكلاً أو حجراً في كوخه ليكون رمزاً لذلك البطل. وهكذا بدأت عبادة الأصنام وتأليه الأبطال. ولم تزل مناقب الأبطال والأولياء والشهداء والشيوخ والقدّيسين حتى في زماننا هذا، تؤثر بشدة متزايدة في مخيلة قسم عظيم من الناس الذين ليسوا إلا أحفاد أولئك البشر.

ونذكر بهذه المناسبة ان المكيين حتى إلى ما قبل الإسلام بقليل كانوا يستصحبون في أسفارهم قطعاً صغيرة من أحجار الكعبة يطوفون حولها في حلّهم ومرتحلهم ولم يكن القصد منها سوى طلب المعونة للوقاية من الشرور.

32 ـ **شيخ القبيلة**: يقول آخرون إن الإنسان كان يعبد أجداده وأسلافه الأقوياء، وكان شيخ القبيلة وكبيرها ومنقذها حلقة الاتصال بين الأفراد الحاضرين والأبطال السابقين، فكان يطلب من الأفراد تقديم القرابين والنذور والهدايا لمراقدهم بغية اكتساب عطفهم ومحبتهم بحجة انه رآهم في الحلم جياعاً...

فكانت تلك أوّل قواعد تقديم القرابين والنذور إلى الابطال ومن ثم توسع الناس فيها، وكلّما اتسعت زادت ثروة الشيخ وعظم جاهه ونفوذه وسلطانه.

33 ـ **القوى الخفيّة**: ويقول آخرون إن الإنسان الأوّل حين شاهد الشمس والقمر والسماء والهواء

(1) وعند ذلك علّم الله آدم الأسماء كلّها فأصبح في مقدوره تلفّظ أعقد الكلمات وأصعبها بسهولة نذكر منها قوله تعالى ﴿فسيكفيكهم الله﴾ (البقرة)، وقوله تعالى: ﴿سنستدرجهم﴾، وقوله تعالى: ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ (هود ـ 28)، وقوله تعالى: ﴿ولأضلنّهم ولأمَنِّيَنَّهُمْ ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ (النساء ـ 119).

والسحاب يتساقط منه المطر، ورأى الزوابع والعواصف والصواعق، إلخ... تخيّل بفكره ان هناك قوى خفيّة تسيطر على الكون وتسيّر أمثال هذه المظاهر الطبيعية، فأراد أن يتودد لها ويتقرّب إليها بالعبادة والتضرع والمناجاة طمعاً بإحسانها وخوفاً من غضبها وعقابها.

34 ـ **الكهّان والملوك والآلهة:** ويقول علماء آخرون، لما أصبحت الجماعة مستقرة في موطن خاص شعروا بالحاجة إلى قائد حربي أو رئيس أو ملك يعمل على حمايتهم من الجيران وعلى دفع العدو من التسلّط عليهم ومن العبث بزروعهم، فأدّى ذلك إلى ظهور الزعماء. ثم تطور الأمر فأصبحوا يقيمون الشعائر لزيادة الغلات وخصب الأرض ونزول الأمطار فظهر الكهّان. وانفصل بعد ذلك الملوك عن الكهّان، فكان لكل منهم عمل خاص وتدرّجوا إلى عبادة الأبطال والزعماء، وأقام الكهّان في رؤوس الأبراج يرصدون الأفلاك فجعلوا للقمر روحاً وللشمس روحاً وللغلّة روحاً وللنهر روحاً. ثم انقلبت هذه الأرواح إلى آلهة محليّة فأصبح لكل مدينة إله يحميها، ثم خلقوا آلهة قومية عامة مع بقاء آلهة المدن، إلى أن وصل الأمر إلى التوحيد، فكان الإله الواحد إله الدولة، وإله الأمة، وإله الجيش، ثم إله الآلهة ورب الأرباب الأعظم.

35 ـ **غاية الخيال:** واذا كان أحد الزعماء والأبطال قد قام بأعمال كبيرة لعشيرته وأمّته فأظهر من القوة خارقها ومن الأعمال أعظمها مما يعجز غيره عنها، أو انه قتل مظلوماً لأسباب دينية أو سياسية، وكان مريدوه وأصدقائه من محبيه ومؤيديه فلا بد أن تبقى ذكراه مستديمة بين أفراد القبيلة أو عند تابعيه المضطهدين، فتكتنفه الرموز والألغاز وتحيط به المبهمات والمعميات وتدور حوله الأساطير والمبالغات فتسند إليه الخوارق والمعجزات والقدرة الفائقة على اتيان أعمال تتعدى سنن الكون وكل ما هو خارج عن الطاقة البشرية فيتأله ويعبد. وبهذا يكون الانسان الجاهل هو الذي يخلق معبوده بأوهامه وخيالاته ومبالغاته ثم يشرع بعبادته، ولم يزل قسم كبير من هؤلاء الناس في مشارق الأرض ومغاربها لا يختلف كثيراً بتصوراته وخيالاته عن ذلك الانسان الابتدائي.

ولقد ساعد الإنسان الخيال والوهم بمرور الأزمان إلى أن يعتبر ذلك البطل الإله متصفّاً بجميع المزايا العالية. فأسبغت كل أمة على إلهها صفات القوّة والقدرة والكمال والخلق والتكوين والنفع والضر ومنحته تقدير الأقدار والآجال بصورة غير محدودة وبأعظم ما يتمكّن الخيال البشري من الوصول إليه فأصبح ذلك البطل الإله «غاية الخيال» أو «أس الذكاء البشري».

36 ـ **في الشرق الأقصى:** وأما كونفوشيوس والأمة اليابانية كافة فلم يتطرّق أحد منهم إلى البحث عن وجود إله فوق الطبيعة خالق للكون، أي انهم لم يمرّوا بالأدوار التي مرّت على إنسان هذه الديار مهبط العلماء والحكماء والكهّان والرهبان، إنما حكّموا عقولهم بالطبيعيات مباشرة من دون الالتجاء إلى عوامل خفيّة لتسيير هذا الكون، ووضعوا قوانينهم الدينيّة والأخلاقية على أساس العقل والذكاء البشري مع حرمة الآباء والأجداد السابقين والإفراط في محبتهم واحترام ذكراهم.

37 ـ **الإنسان الطفل:** الحق ان الإنسان لا يزال طفلاً في هذا الكون لا يعلم ما في قمم جباله الشّامخة ولا ما في أعماق أرضه وبحاره، ولا تزال الأمراض تكتنفه من كل جانب لم يقو عليها ولا يعلم حتى عدد نفوسه وما يحتاج إليه من طعام ولباس، وقد يتخبّط في ظلمات لا يعلم أوّلها من آخرها. فعلمه

الحاضر وقياسه للأشياء متناسبان مع ذكائه الابتدائي المحدود. فكلّما اكتشف شيئاً واعتقد بصحته ظهر له شيء آخر مناقض للأوّل، وكلّما قطع شوطاً في سبيل التفكير ظهر له ما يخالفه، وإلا فمن كان يعلم ان الأرض تدور حول الشمس قبل أن يثبت حركتها غاليلو، ومن كان يعلم ان الأساس في العناصر البالغ عددها 93 عنصراً (ذهب، فضة، نحاس، حديد، آزوت، أوكسجين...) هو واحد ويمكن ـ وان كان ذلك نظرياً ـ تبديل عنصر إلى آخر بتزييد أو بتنقيص أحد دقائقه (الإلكترونات). ومن كان يعلم ان الأمراض الوبائية من فعل الجراثيم المرضية لا من فعل الأرواح الخبيثة ولا من أعمال آلهة الشر ولا من الهواء الأصفر ولا من تأثير الجان والشياطين، قبل ان يثبت وجودها باستور؟ ومن كان يعلم ان كثافة مادة النجم المسمى «رفيق الشعري اليماني» مثلاً هي 60 ألف مرّة ضعف كثافة الماء عندنا؟ وبتعبير آخر يفوق ثلاثة آلاف ضعف عن كثافة اكثف المواد الأرضية (البلاتين). وبتعبير آخر ان طناً من مادته قد لا يزيد حجمها على علبة الثقاب. ومن كان يعلم أيضاً ان الأساس في كلّ ذرّة مادية هي دقيقة الكهرب قبل ان يقتحم روذفورد قلب الذرة ويطّلع على أجزائها ومركباتها؟ ومن كان يعلم ان تحليل ذرة اليورانيوم (الطاقة الذرّية) قد تولد حرارة جهنمية هائلة ومن، ومن؟ فلا عصمة في العلم، ولا يشين النظريات العلمية اذا كانت عرضة للخطأ أو للتبدل المستديم حتى تستقر تماماً.

يقول اسحاق نيوتن الشهير إن البشر كالأطفال الذين يلعبون في سواحل البحر ويجمعون الأصداف والأحجار الملساء ولا يتفكرون بأكثر مما ترى أعينهم. أما ما هو خارج عن نطاق بصرهم مما هو موجود في أعماق الأوقيانوس، فلا يمر في خاطرهم.

من المعلوم ان للأجسام عندنا ثلاثة أبعاد (الطول، العرض، العمق) أفلا يوجد في العوالم الأخرى أجسام ذات بعدين فقط؟ وكيف ندرك قوانين تلك الأجسام؟ وكيف يتصور سكان أولئك العوالم، الأجسام ذات الأبعاد الثلاثة الموجودة عندنا؟ وهل يتمكنون من التفكير بوجودها ودرس قوانينها؟

ومن المعلوم أيضاً ان حواسنا الخمس استطاعت حتى هذا اليوم تثبيت ما تستطيعه من المواد والقوى الموجودة في هذا الكون (الكهرباء، الأشعة، الطاقة الذرية...) ولكن، ألا توجد في هذا الكون قوى أخرى عظيمة الأثر سيكتشفها البشر بعد حين، كما سبق واكتشف الكهرباء، وقوى ثالثة أخرى ستبقى مجهولة عن البشر، ما لم تخلق له حاسة سادسة قوية؟ أو يتمكن من إيجاد وسائل وآلات أكثر دقة وأشد إحساساً (منظار، سماعة، مجهر...) لاكتشافها وتثبيتها؟ وهويات رابعة أخرى أدق وألطف من أن يستظهرها أي جهاز بشري، فلا يتمكن البشر من استقصائها واكتشافها وتثبيتها لا حالا ولا استقبالا، وستبقى في (عالم الغيب) إلى أبد الآبدين؟ في الحقيقة إذا كانت العلوم الطبيعية قد كشفت في زماننا هذا الستار عن بعض الظواهر الطبيعية واستفادت منها البشرية فوائد عظيمة، فإن هناك مسائل أخرى كثيرة لم تزل مستعصية الحل في الوقت الحاضر وستبقى على غموضها إلى أن يصل الذكاء الإنساني إلى درجة من الرقي يتمكن معها من الوصول إلى اكتشافها. وأما الهويات المنوّه عنها الموجودة في «عالم الغيب» فهي فوق عقولنا وخارجة عن مقاييسنا، فلن يصل العقل البشري إلى تمحيصها وتثبيتها أبداً.

38 ـ **استعمال الإنسان فكره:** يدّعي علماء التطوّر والمتخرجون في مدرسة داروين أن الإنسان من أحدث المخلوقات فوق سطح الأرض. فهو ليس أعرقها أصلاً ولا أفضلها نسباً. ويقولون إنه كان قبل بضعة ملايين من السنين من ذوات الأربع يقفز كالشامبانزي من شجرة إلى أخرى، وقد اقتضت الظروف ان يقف على قدميه ليشغل يديه بالتسلق وبأعمال أخرى غير المشي وغير التوكؤ عليها كما هو الحال في الأورانغ أو تانغ والشامبانزي والغوريللا فتكوّنت عنده تدريجياً عظام الترقوة، فشرع يحرّك يديه في الجهات كافة. وان حرمانه من الأسلحة الطبيعية للدفاع عن نفسه جعله يفكر في طريقة يحافظ فيها على حياته ويتغلب على خصومه وأعدائه، فكانت كثرة تفكيره هذه سبباً لسلامته ولتخلصه من أعدائه ووصوله إلى حالته الحاضرة، بينما الكثير من سلالات الحيوانات ومن جملتها ما يسميه العلماء سلالات القرود البشرية قد انقرضت واندثرت لغباوتها وبلادتها في محافظة أنسالها من تسلط أعدائها آكلة اللحوم عليها.

39 ـ **الدور الحجري:** أتى على الإنسان الأوّل حين من الدهر يقدر بمئات الألوف من السنين لم يكن فيه شيئاً مذكوراً. فلم يكن آنذاك فرق بينه وبين الحيوانات والبهائم الأخرى. فهو يعيش كالقرود في الكهوف أو الغابات، وقد يماثلها بالغباوة والبلادة والجهل ولا يعلم حتى كيف يدفن موتاه ويواريها في التراب فيتركها في العراء طعمة للكلاب والذئاب وقد يأكل هو أيضاً منها مثلاً. وكان أعزل من الأسلحة الطبيعية ومجرداً من وسائل الدفاع لا يملك من السلاح سوى الأظفار المنبسطة والأنياب الصغيرة، بينما كان من الحيوانات الأخرى المعاصرة له ما هو مسلح بالقرون القويّة أو بالمخالب النافذة أو بالأنياب الحادة، وأخرى قد تقفز وتثب وتطير وترفس، وغيرها قد تتخلص من أعدائها بشدة الجري والركض أو بالتستر والاختفاء، وتحافظ غيرها على استدامة أنسالها بكثرة البيض والولادة، أو بأخذها لون المحيط من تراب وأحجار وأشجار لتضليل أعدائها. فكان هذا الإنسان محروماً من كل هذه الأسلحة والمزايا والأوصاف والوسائل الدفاعية. وكان على وشك الانقراض كسائر السلالات الإنسانية الأخرى المنقرضة لو لم يساعده الحظ فيستعمل فكره للتخلص من أعدائه ومناوئيه أكلة اللحوم وللمحافظة على نفسه وآله وذويه منها. وكان أعظم مساعد له في ذلك عظام الترقوة التي سهّلت له تحريك يديه في جهات مختلفة. وساعده كذلك كون الإبهام تجاه الأصابع الأربع فسهّلت له القبض على الأحجار فكان كلّما فكّر اهتدى إلى أشياء جديدة لوقاية نفسه وأولاده من أعدائه، كاهتدائه إلى سدّ أبواب كهفه بالأحجار ليلاً لتضليل آكلة اللحوم أعداءه أو إيقاده النيران طوال الليل لتخويف الحيوانات المفترسة، والصعود الى الأشجار العالية في الليل اتقاء أعدائه، فكان هذا دأبه. وفي هذه الحالة القلقة النكدة كان يسعى ليله ونهاره ويعطي بين آونة وأخرى من أولاده وأحفاده طعمة لأعدائه السباع والذئاب. وظل عشرات الألوف من السنين يتطور ببطء ويعيش حياة بدائية بسيطة حتى اهتدى بثاقب فكره الى نحت الحجر، فاطمأن على نفسه وأولاده وأنساله بهذا السلاح الماضي، وبذلك سلم من الانقراض.

40 ـ **نحت الأحجار:** يقسم الدور الحجري الى عصرين كبيرين، الاول عصر الحجر غير المصقول. والثاني عصر الحجر المصقول. وفي المتاحف كثير من هذه الأحجار، فالإنسان في العصر الثاني

الحجري كان قد نحت الأحجار وجعلها كالفأس يقاتل بها خصومه وأعداءه، فكان هذا أوّل سلاح منظم استعمله في الحرب والضرب. وكان انتصاره به لا يقل عن انتصار العرب في اليرموك وفي القادسية أو انتصار البريطانيين في واقعة واترلو أو السوفياتيين في ستالينغراد أو الأميركيين في هيروشيما. وأصبح في هذا الدور يتعرّض للحيوانات الأخرى، يصطادها ليأكل لحومها وليتدثّر بجلودها. ولم يغفل مفكرو السومريين والأكاديين عن هذا الصراع المرير بين الإنسان والحيوان، لقربهم من ذلك الدور الإنساني. فقد نشرت مجلة سومر العراقية بعددها (1 ـ 9) مقالاً حول «ادابا اريدو» جاء فيه ما ملخصه: لقد وجد في حفريات لكش عروض أثرية على الأختام الاسطوانية يرجع عهدها الى العهد السومري الاول والعهد الاكدي القديم، وهي صور لإنسان وحشي عاري الجسم وله لحية كثة وشعر كثيف مفلفل وممنطق بحزام فقط، يقابله صورة أخرى لإنسان مرتدياً رداء قصيراً ورأسه مغطى بغطاء يشبه قبعة مقرّنة وقد حلق لحيته وله خصلة من شعر رأسه، وكلاهما قد مسك بأسد أو ثور وحشي في يده بوضعية يستدل منها انهما في صراع مرير مع الحيوانات الوحشية وأنهما يحاولان القضاء على شرور هذه الحيوانات، كما يستنتج منها أيضاً ان الإنسان الثاني كان قد تمدّن وتحضّر بالنسبة للإنسان الأوّل.

ووجد أيضاً على منحوتات واجهة القصر في دور شروكين (خرصباد) من جهة رجل جبار قصير القامة بدين يكاد يكون مربع الشكل، شعر رأسه كثيف مبروم (مفلفل) حافي القدمين، في يده اليمنى سوط أو ما يشبه حجراً منحوتاً، وفي يده اليسرى أسد صغير في وضعية كأنه يخنقه أو يحاول القضاء على شروره. يقابله في الجهة الثانية رجل عملاق نحيف البدن وله لحية منظّمة وخصلة من الشعر متدليّة على رقبته ومرتدياً رداء طويلاً ولابساً في قدميه حذاء من نوع الصندل.

وكلا الرجلين يقفان بين تمثالين ضخمين لثورين مجنحين مما يستنتج منه أن الرجل القزم الأول يمثل الإنسان الابتدائي الوحش قبل تحضّره حين كان يعيش كالبهائم هائماً على وجهه في القفار والفلوات يصارع الحيوانات فيقتلها ويتغذى بلحومها. أما الرجل الثاني فإنه يمثل الانسان المتحضر السائر في ركاب المدنية والثقافة. وقد وجد كثير من أمثال هذه المنحوتات تصور الانسان في كلتا وضعيته متوحشاً ومتحضراً وأحياناً ملجماً الأسد الذي يدل على تسلطه في هذا الدور من حياته على أعدائه آكلة اللحوم. وينتهي هذا العصر في حدود الستة آلاف سنة قبل الميلاد.

41 ـ **إنسان الشرق الأوسط:** ان اول اطوار الانسان في بلاد الشرق الاوسط هو الطور المعروف عند العلماء بالحجري المعدني [Chalcolihtic] الذي يعد اول مرحلة في حضارات الشرق الاوسط، فالانسان انتقل في هذا الدور من العصر الحجري الثاني الحديث ومن العيش في العراء الى السكنى في الكهوف والمغارات والى نحت البيوت في الجبال.

وفي زمن يقدّر بعشرين ألف الى عشرة آلاف عام قبل الميلاد، كان إنسان الشرق الاوسط قد تهذبت اخلاقه ونمت عنده عواطف المحبة الممزوجة بالاحترام فشرع يدفن المرأة مع زوجها والولد مع آمه ويزين اجسامهم بالعصائب والقلائد من ودع وعظام سمك وأنياب وأصداف، ما يدل على ان المجتمع قد اصبح مترابطاً وان اواصر القربى بين افراد العائلة قد زادت توثقاً. وتحت هذه القواعد

وأمثالها هبّت نهضة بين سكان منطقة البلاد المتدة من شمال افريقية الشرقية حتى جبال فارس وهي التي سماها برستيد منطقة الهلال الخصيب، في الاختراع والنظام الاجماعي وفي تأسيس القرى والعيش المنظم، وانتقلت الجماعات من حالة الصيد الى حالة الرعي والى حالة انتاج الطعام عن طريق الحراثة والزراعة والتميز من بين الحبوب زراعة الحنطة والشعير... فكانت الامطار تهطل بغزارة في الشتاء وتغطي الانهار في الربيع ثم يعقبها الصيف بحرّه وقيظه فتنضج المنبوتات فيحصدون ويأكلون ويشبعون ويتزاوجون ويتوالدون ويتكاثرون بأمن وسلام ويعيشون عيشة جماعية راضية مرضية.

يقدر عهد ذلك الانسان في الزراعة بمدة تتراوح بين سبعة آلاف وعشرة آلاف عام، وهي المدة التي انتقل فيها من عهد جمع الاقوات من الغابات الى انتاج الأقوات. ولم يزل في أقاصي الارض وفي الجزائر النائية في المحيط الهادي اناس ما انفكوا يعيشون على جمع الاقوات من دون ان يعلموا شيئاً عن محاولة انتاجها. وهؤلاء خير انموذج لما كان عليه الانسان الاول في العصور السابقة.

42 ـ **انتشار الثقافة والمدنية:** كان ان اخترعت تلك الجماعات المتمدنة في الهلال الخصيب سن الحجارة لاتخاذها فؤوساً وعمل اللبن والفخار لبناء البيوت ومبادىء صناعة المعادن من حديد ونحاس وبذلوا جهودهم في ترويض الحيوانات وتأهيلها كالبقر والغنم والحمير والخيل والكلاب والدجاج. وأسّسوا قرى مدنية عامرة ومراكز للاستيطان في سواحل دجلة والفرات، وكذلك في الاربه جيه وفي الفاضلية وفي حسونه وفي تبه كوره قرب الموصل، ومنها في كرى رش قرب سنجار، وكذلك في جرمو وبرده بالكه وباليكوره قرب جمجمال، ومنها في تل العقير قرب بغداد. واتخذوا من الآلات والأدوات المصنوعة من الصوان وشظايا الزجاج البركاني سلاحاً لقهر الأعداء، فتكاثر الناس وعظم انتشارهم. وكان اكثر هذه المناطق ثقافة ومدنية ما يقع من جنوب الرافدين. فقد انشىء فيها الجداول والقنوات والترع لإرواء المزروعات والحدائق والجنان والبساتين، فكثرت فيها زراعة الحبوب والنخيل والاعناب واشتهرت في دلتا الرافدين جنات عدن(1). وعلموا محاسن الحياة الاجتماعية فأنشأوا المدن الكبيرة واستثمروا الموارد الطبيعية.

43 ـ **بين أهل المدر والوبر:** وفي هذه المرحلة من التاريخ البشري تجلى التطاحن بين أهل المدر والوبر أو بين أهل المدينة الزراعية والقبائل الراعية. فقد وضع السومريون أساطير عديدة حول هذه الخلافات التي تشابه من أوجه عديدة قصة هابيل وقابيل(2). ذلك ان اهل المدن اختصوا بصناعة المعادن والزراعة والري وفنون العمارة والبناء والكتابة والتعاقد والتزام القوانين، واختص الرعاة بترويض الحيوانات وصناعة الجلود والأصواف والإنتاج المنظّم ونقل السلع والذهب والحديد من مدينة الى أخرى. ولم يزل العرب البدو سكان الجزيرة العربية في هذا اليوم كما كانوا قبل عشرة آلاف سنة رعاة ابل وأغنام لم يألفوا الحياة الاجتماعية ولم يطرأ على بداوتهم اي تبدل وتحسن. والسبب في

(1) راجع الكتاب الرابع لاحقاً: «يهوه إله بني إسرائيل».
(2) راجع لاحقاً كتاب «المعتقدات الوثنية».

ذلك يرجع الى قلة المياه في جزيرتهم والى اقليمهم الحار الجاف، بينما ظهرت عبقريتهم لما تركوا جزيرتهم وهاجروا الى الهلال الخصيب ومصر وإيران والهند.

44 ـ **تطريق المعادن**: حين اهتدى الانسان الى تطريق المعادن اصطنع منها ادواته وصنع من النحاس والحديد اسلحته الماضية، فتفوق بها على خصومه وأعدائه تفوقاً عظيماً، فقهر مخاصميه من الحيوانات أولاً ثم من بني جنسه اولئك الذين يريدون اجلاءه عن اراضيه الخصبة للتنعم بخيراتها واخذ نسائه الجميلات للتمتع بهن. وكان الفائز بهذه الحروب هو المقتني لأحسن السيوف والحراب والأسنة والسكاكين والنبال. فانتقل الانسان في هذه المراحل التاريخية من دور العائلة الى جماعات اكبر وهي العشيرة او القبيلة او الافخاذ ومنها وصل اخيراً الى الامم.

45 ـ **الانسان المصري**: وأما في مصر فكان اقدم ما صنعه الانسان في العصر الحجري الاول من الصوان المنحوت في المقابر والمغاور يرجع عهده الى خمسة عشر ألف سنة ق. م. وفي حوالى 10,000 ـ 8000 ق. م. كان الإنسان المصري قد برع في صناعة الصوان والفخار والعاج ونحت الصور واتقن الزراعة وصناعة النسيج وكحل العيون واستعمال التجديف في المراكب. وفي حوالى 7000 ـ 6000 ق. م. استعمل النحاس والفضة في صنع الأدوات الصغيرة. وكان قد هبط مصر جماعات من الخليج الفارسي (ولعلهم من سومر واكاد) نقلوا إليها حضارة أهل العراق في استعمال الخشب في بناء المساكن والأختام الاسطوانية وصناعة الأدوات الثقيلة من النحاس. ومنذ زمن خوفو الملك العظيم شرعوا بتدوين الحوادث في الجدر وفي الهياكل والمحاريب والفخار.

46 ـ **الإنسان في بقاع الأرض**: ذلك ما كانت عليه حالة الإنسان في منطقة الهلال الخصيب. اما في المناطق الاخرى من العالم، فان اوروبا الشمالية بعد انتهاء الدور الجليدي كانت خالية تقريباً من السكان ثم شرع الناس يهاجرون اليها من اواسط آسيا ومن أفريقية الشمالية.

يدّعي بعض العلماء الاخصائيون أنه ما تزال في أواسط أفريقية وفي بعض جزائر المحيط الهندي أجناس بشرية صغيرة الرؤوس من بقايا جنس سابق من الاجناس البشرية المحطمة المنقرضة، وهم في مرحلة متأخرة جداً من التطور الانساني، ما زالوا يقتنصون الحيوانات ويعيشون عليها. وان بعض الاقسام من اوستراليا لم يزل سكانها الاصليون في طور الصيد وجمع الاقوات من الغابات يحنطون موتاهم بتجفيفها في دخان نار يوقدونها من حطب اخضر ويستعملون الحراب، ولا يعرفون القسي والسهام، ويجهلون صناعة الفخار وأكثر أدواتهم من العظام، يأكلون الديدان أو الخنافس والحيوانات الصغيرة والجذور والحبوب ويعتقدون بالسحر وعلى انه يؤثر على الفريسة عند صيدها وبالطواطم، والطوطم هو حجر أو شجر يقترن به شخص أو جماعة فيكونون في حكم الاخوة والاخوات.

47 ـ **الشرائع**: وأما من الوجهة الروحية فكلما اتسع الفكر البشري تهذبت معه المبادىء الاخلاقية والروحية فنشأت عنده أولا المعتقدات الدينية الوثنية[1]. ثم ظهرت في منتصف الألف الرابع قبل

(1) راجع كتاب «المعتقدات الوثنية.»

الميلاد الاصول الاولى للقراءة والكتابة. ثم ظهر التاريخ المدوّن والشرائع الوثنية لتنظيم الحياة الاجتماعية كشريعة لبت عشتار وشريعة حمورابي. ويشاهد حمورابي، في مسلته، واقفاً يستلم شريعته من «شماش» الهه. كما ان الملوك كافة كانوا يدّعون ان شرائعهم مأخوذة من الآلهة وهي إلهية في مصدرها. وكان الكهّان والرهبان الذين لا يملكون سلطات زمنية، يفرضون أفكارهم وشرائعهم على الناس بدعوى ان الإله أوحى لهم بها في الحلم. وكان أنبياء بني اسرائيل كافة ـ باستثناء النبي موسى ـ على هذه الشاكلة.

ولما انتقل الإنسان من حالة البداوة الى حالة التمدن ظهرت الشرائع الإلهية السماوية فوضعت القواعد الأساسية للعبادات والمعاملات وللأحوال الشخصية والاجتماعية فأصبح كل فرد مسؤولاً عن عمله.

48 ـ **استعمال الحديد:** كان الأشوريون أوّل من استعمل الحديد والنحاس في الجهاز الحربي المنظّم في الشرق الأوسط. وكان الحثّيون والاراراتيون (الخلديون) ينقلون هذا المعدن الجديد من شرقي الأناضول وغربي إيران الى مركز العالم المتمدن آنذاك مدينة نينوى قرب الموصل عاصمة أشور، فيصنع عمّال الأسلحة الاشوريون منه النبال والرماح والأسنة والسيوف والتروس والفؤوس والدروع ودواليب العربات الحربية... وبهذه التجهيزات الحربية المعدنية الحديثة أصبح الاشوريون سوط نقمة على الشرق، فأسّسوا امبراطوريتهم الاشورية الممتدة من البحر الى البحر، وحافظ هذا السلاح على أوليته وأهميته آلاف السنين حتى شيوع استعمال البارود.

49 ـ **الزراعة والحرب:** ساق العاملان الأراضي والحرب، الإنسان الى إعمال الفكر لاتخاذ أحسن السلاح وأحدّه وأمضاه لتأمين التفوّق الحربي. وكلما أعمل الفكر تفتّحت أمامه أساليب جديدة للزراعة والحرب. فأما الزراعة ـ وهي لا يرجع تاريخها لأكثر من عشرة آلاف سنة ـ فقد هيّأت له السبيل للانقلاب من حالة الصيد الى حياة الاستقرار في الحقول والاراضي الزراعية وأخيراً الى السكنى في المدن، وظهرت عبقريته في أول منجل صنعه لحصد مزروعاته، وهو مكوّن من قطع متعدّدة من الصوّان ملصقة لصقاً قوياً بالزفت على قطعة خشب معقوفة.

ولقد عثر المنقبون في العراق على أول وثيقة زراعية في العالم، مكتوبة فوق الطين بالخط المسماري يرجع تاريخها الى 3700 قبل الميلاد، ترشد الفلاح الى ما يجب عليه عمله منذ بداية البذر حتى زمن الحصاد. وفي نهايتها بيت من الشعر في حمد الإله «ننورتا» إله الفلاح والفلاحة. ولم يزل البشر باذلاً جهده في ترقية الزراعة حتى وصل الأمر في زماننا هذا الى الحراثة الآلية.

وأما الحرب فقد تنوّعت أساليبها في الدفاع والهجوم حتى وصل الى حالته الحاضرة. وإذا صرفنا النظر عن الحروب الدينية، فإن الأراضي والعوامل الاقتصادية كانت ولم تزل من أهم الأسباب المؤدية للحروب. فالحروب وان كانت كريهة في حدّ ذاتها إلا انها العنصر الفعّال في تطوّر العقلية البشرية، ولم تزل العنصر المهم في شحذ الذكاء وإثارة الهمم، ولذلك كان أحسن السلاح وأدقّه وأمضاه عند الأمم الأكثر مدنيّة. أما الأمم المتأخرة فإنها تبتاع سلاحها من الأقوياء أعدائها!

50 ـ **حس الحقد والحنق في الإنسان:** مهما تسامت روح الإنسان وارتفعت فهي لم تزل تحمل شيئاً

وأشياء مما كانت عليه في الدور الحجري من آثار التوحّش وحبّ سفك الدّماء وحسّ الحقد والانتقام... وقد تجلّى ذلك في الحربين العامّتين الأولى والثانية، ونحن عليهما من الشاهدين، وإننا لنرتجف خوفاً وفرقاً من الثالثة.

وقد تجلّى حسّ الانتقام كذلك في محاكم الأمم الأكثر مدنيّة. فها قد مضى سنوات عدّة على انتهاء الحرب الثانية والمحاكم العسكرية ما تزال حتى إلى وقت قريب تصدر أحكامها القاسية على القادة العسكريين المعادين لقيامهم بواجباتهم العسكرية تحت ستار «مجرمي الحرب». وأما الذين يستعملون الحرب الجرثومية والقصف الذرّي المدمّر للمدن والقرى المكشوفة الآمنة المطمئنة ويهلكون الحرث والنسل، فأولئك القادة بنظر الغالب ليسوا من مجرمي الحرب(؟!) إنما عملهم الإجرامي هذا هو بمثابة الدّفاع عن النفس(؟!) وذكرت محطة الإذاعة العراقية يوم 30 ديسمبر 1951 ان الحكومة الامريكية أعادت 1300 مجرم حرب لليابان. وذكرت جريدة الحياد البغدادية بعددها 21 في تاريخ 18 كانون الثاني سنة 1954 أن حكومة ألمانيا الشرقية أفرجت عن ألفي سجين ألماني ولم يزل أكثر من ستمئة مجرم حرب في السجون.

فإذا كانت الأديان السماوية قد أمرت بكظم الغيظ والعفو عن الناس، وإعطاء الخد الأيسر بعد الأيمن، واستطاعت في كثير من الحالات ان تلطف وتعدل بعض الغرائز الوحشيّة في الإنسان، فإنها لم تستطع تجريده من غريزة الحقد والكيد والحنق. ولعل ذلك الإنسان الوحش الابتدائي كان أهدأ بالاً وأكثر سعادة وأسمى أخلاقاً وأكثر مروءة من هذا الإنسان الجشع السفّاك في القرن العشرين الذي أقلق المضاجع بالحروب الاستعمارية المتواصلة وجعل استعمال القوّة واجباً من الواجبات الأخلاقية، وجعل القوّة فوق الحق، والمنفعة فوق كل اعتبار فأصبح العالم مهدّداً في كل لحظة بالحرب الثالثة وبانطلاق الطاقة الذرّية التي سوف لا تبقي ولا تذر.

51 ـ **تقدم علمياً وتأخر أخلاقياً**: كان المجتمع الإنساني قد انتقل من حالة التوحش الى حالة الهمجية ثم تطور الى الرق ثم الى دور الاقطاع والحكم الفردي ثم وصل الى النظم الرأسمالية والملكية الشخصية. واستحالت تلك النظم في زماننا هذا الى القواعد الاشتراكية فالشيوعية. ولم يزل النضال الحاد والتضارب العنيف مستحكم الحلقات بين الغني والفقير والظالم والمظلوم والحاكم والمحكوم والطبقة الحاكمة المستأثرة بالحكم والتشريع، والشعب الذي يريد التخلّص من النظام الاجتماعي المسنون لصالح أصحاب رؤوس الأموال، وهو تقدّم محسوس بالبشرية لا يمكن إنكاره وإغفاله. ومن جهة ثانية اذا كان إنسان هذا العصر في الحقيقة قد حرّر العقل من الخرافات والأباطيل والجهل وسهّل وسائط النقل ومكافحة الأمراض، فإنه قد تقدّم علمياً واجتماعياً وتأخّر أخلاقياً. فهو قد أهمل الحياة الروحية وترك التعاليم الدينية الأساسية وازدرى الأخلاق الفاضلة الإنسانية وخلق السياسة الماكيافيلية واستهزأ بالحق والعدل وتجافى انصاف الأمم الصغيرة وشرب نفط البلاد العربية وأوجد وهو يبتسم استخفافاً ـ بالصداقة العربية التي يدّعيها ـ ما سمّاه دولة إسرائيل في قلب البلاد العربية، وأصبح حامياً لها. وشرد لسواد عيونها ـ وهو آسف كذباً وزوراً ـ مليون عربي عن وطنه وماله ودياره دون أن يعرف للحق والعدل سبيلاً.

52 ـ **مصير الانسان:** قبل أن ننهي هذا الفصل، علينا أن نتساءل عن مصير الإنسان أو الحالة التي سيكون عليها النوع البشري في المستقبل بعد أن يصل الى درجة من الكمال. وهل انه سيتبخّر في لحظة واحدة ـ كما يدّعي بعض علماء الذرّة ـ فيما اذا حلت كل ذرّة من ذرات الأرض الذرّة المجاورة لها عند انطلاق الطاقة منها فتصبح الأرض في طرفة عين لهبات متوهّجة، أو فيما اذا حصل انفجار صغير في الشمس فتتبخّر الأنهار والأبحار وتقضي الحرارة في لحظة واحدة على كل كائن حي، أو انه سينقرض من سطح الأرض تدريجياً كما انقرض قبله عشرات الآلاف من عروق الحيوانات الصغيرة والكبيرة من أثر تغيير الشرائط الاقليمية والحياتية وتبدلها تدريجياً كاشتداد البرد من أثر كلف الشمس أو عودة الأدوار الجليدية. ويقدّر العلماء احتمال عودتها بعد أربعين ألف سنة، ومن ورائها الطوفانات العظيمة. أو ان البشر سيتطور بهيكله ومعاشه فيمتزج مع كل اقليم بالتدريج. وكلما اشتد البرد واستولى الجليد اتخذ الانسان الاحتياطات اللازمة فينظم حياته وحاجاته مع المحيط الجديد واستعان بالكحول مثلا عوضاً من الماء لتوليد أعظم كمية من الحرارة للجسم كما قد يفعل سكّان المناطق الباردة ويتخذ كل وسيلة لوقاية نفسه ضد هجمات الطبيعة وظواهرها العنيفة.

واذا كان الجواب الحقيقي ليس إلا عند انسان ذلك الزمان، فقد يدعي بعض العلماء بما ان الدماغ بالانسان قد يستهلك اكبر كمية من الدم، فمن الطبيعي ان تتضخم الجمجمة وتغلظ الرقبة لتتمكن من حمل ذلك الرأس الضخم. وتتضخم الرئتان لتصفية الكميات الكبيرة من الدم، ويتضخم معها القفص الصدري لاستيعاب الرئتين وتضمر البطن لتبدل أنواع المأكولات والأغذية والاكتفاء بالمواد الغذائية القليلة الحجم والعظيمة الأثر فتكون بطبيعة الحال العظام دقيقة والعضلات ضامرة.

وقد تنتج ضخامة الرأس الصلع فتصبح الرؤوس كأنها كرات بيلياردو... وسوف لا يسلم من هذا الصلع حتى النساء، ويرتفع الحاجبان بارتفاع عظام الحاجبين وتضعف حواس السمع والذوق والبصر والشم بازدياد تلافيف المخ فيستعيض الانسان عنها بأدوات أخرى كالمنظار والمسماع، وتنمو المراكز المتصلة بالتفكير وتشرع الحكومات بسنّ قوانين عملية الاخصاء لتطبيقها على الذكور والإناث المعتوهين والاغبياء والبلداء والمهازيل والمرضى والمجرمين. ولما كان الانسان كما نراه اليوم، وهو ثمرة غير مرضية للتطور العام خلال المليون سنة الماضية، فقد يتطور خلال المليون سنة القادمة عقلياً وأخلاقياً فيكون انسان المستقبل أشد ذكاء وأعمق تفكيراً وألطف حديثاً وأسمى روحاً من انسان اليوم.

وقد تتغير أعضاؤه الداخلية والخارجية تبعاً لظروف حاجياته فترتفع الزائدة الدودية (مصران الأعور) وتزول الأسنان من الفك لعدم الحاجة إليها، وذلك لتبدل الأغذية الغليظة بأغذية خفيفة كالحساء والحبوب والحقن والفيتامينات وغيرها، وتندثر عضلات الأذن والشعر وترتفع إصبع الخنصر من اليد والرجل لعدم لزومها وتزول فقرة من فقرات الظهر تلك المولدة للآلام والاوجاع وغير ذلك. وبينما يكون تغيير الانسان الجسدي بطيئاً جداً خلال المليون سنة القادمة، فقد يتطور روحياً وأخلاقياً بسرعة الى مخلوق جديد قد لا يشبه انسان هذا اليوم. (ولعله ينتقل خلال هذه المدة الى المريخ ليستعمره، ان لم يسبقه سكان المريخ فيستعمرنه؟!).

53 ـ **العوامل الوراثية والذريات:** وأما من الوجهة الحياتية فان العلماء كانوا ولم يزالوا باذلين جهودهم للتحكم في العوامل الوراثية (الفاكتور) الموضعة فوق الصبغيات (الكروموسومات) والموجودة في نواة الحوين المنوي. وقد نجح بعض تجاربهم بالحيوانات في تبديل الشكل واللون وتقرير جنسية الحيوان (الذكور والإناث) وكذلك القامة والطبائع في الذباب وغيره، وتمكنوا عملياً من تحويل ذكور الضفادع الى اناث والاناث الى ذكور وأخذوا من كلا الجنسين نتاجاً طبيعياً. فلو تمكنوا من إحداث تغيير في العوامل الوراثية مما يمكن تطبيقها على الانسان فحينذاك يمكن السيطرة على خصائص الاجنة حين تكونها ونموها.

ولأجل السيطرة على الذريات أو العوامل الوراثية المذكورة يقول العلماء ان لديهم طريقتين: الأولى إيجاد مادة كيمائية، والثانية إمكان توجيه الاشعة فوق البنفسجية على عامل واحد أو أكثر من العوامل الوراثية بحيث تؤثر فيه وحده من دون ان تتلف الخلية، وحتى من دون ان يحصل خلل بانتظام العوامل الاخرى.

ولما كان قد أصبح من الممكن التصرف في بناء الذرة من تزييد أو تنقيص أحد إلكتروناتها واستحصال الطاقة الذريّة منها وقلب المادة من حالة الى اخرى، فسيكون من الممكن أيضاً كما يقول العلماء الاخصائيون التصرف في بناء العوامل الوراثية وإتلاف أو تقوية عامل أو بعض العوامل فيها.

وعندما تتعيّن مراكز العوامل المذكورة ويمكن التأثير على قسم منها فقط دون أن تتأثر الاخرى، يمكن حينذاك تكوين الانسان الاكمل والامثل بالطريق العلمية. ويكون اجراء مثل هذه العملية على الانسان من السهولة بمكان، ولعله سيكون أسهل من اجراء عملية فتح البطن.



الفصل الثاني خلق الإنسان في أساطير الأولين

1 ـ **خلق الانسان في أساطير الامم:** ولا بد لنا أن نذكر اتماماً لهذا الموضوع بعض المختصرات عما جاء في أساطير الديانات الوثنية السابقة عن أسباب خلق الانسان وكيفية ظهوره فوق سطح الارض لظرافتها. فقد أشغلت قصة ظهور البشر عقول الكهنة والرهبان والفلاسفة في كل أمة، ومنذ العصور البشرية الاولى. وقد نظر إليها كل منهم بقدر ما توصل إليه عقله وإدراكه فوضعوا لها أساطير متباينة تارة، ومتقاربة تارة أخرى، وغالباً ما تكون كل منها مقتبسة من الاخرى مع بعض التعديلات.

2 ـ **خلق الانسان في الأساطير السومرية:** كان العصر السومري الذي سكن جنوب العراق أول من فكر في أسباب خلق الانسان وكيفية ظهوره فوق الأرض، ووضع له أساطير ابتدائية ساذجة لم يعثر المنقبون إلا على القليل منها كانت الأساس للأساطير المتعاقبة. وقد جاء فيها بالنظر لقراءة المستر ألكساندر وترجمة مجلة سومر.

ان الربّة العظيمة «مامي» وتسمى ايضاً «ننخر سلك، وننتو، ونن ماخ، وماما، وننو» وهي أم الإله «ننوريتا» من زوجها الإله «انليل» وهي ربة الأرض وإلهةالولادة، وبناء على تكليف وتوصية الإله «أيا ـ انكي» وغيره من الآلهة، خلقت الانسان من الطين المجبول بدم الإله المذبوح. وكان الكهّان يرتلون القصيدة الدينية الآتية عند عسر الولادة لنيل عطفها واكتساب معونتها في تسهيل الولادة.

1 ـ سيبدل القلة الى كثرة
2 ـ ويتحمل الانسان الخليقة
3 ـ ويدعون عون الآلهة الحكيمة [مامي]
4 ـ انت أيتها الأم الرحيمة
5 ـ خالقة البشر
6 ـ اخلقي الانسان وحمّليه النير
7 ـ انت اجعليه أن يحمل النير
8 ـ ففتحت [مامي] فاها
9 ـ وقالت للآلهة العظام يستحيل علي أن أصنع ذلك وحدي
10 ـ انه... كل شيء
11 ـ الطين
12 ـ ففتح الإله [أيا] فاه وقال للآلهة العظام
13 ـ لأجل تطهير الأرض
14 ـ أطلب منهم ان يذبحوا إلهاً
15 ـ ويتطهّر الآلهة في أثناء قضائهم

16 ـ وبلحمه ودمه

17 ـ اجعل [مامي] تجبل الطين

18 ـ والإله والإنسان... يتحدثان في الطين

وهكذا بأمر الإله [أيا] وموافقة الآلهة الأخرى خلقت مامي الإنسان من جزأين متضادين إلهي وترابي.

وكان لما شاهدوا ان الإنسان يمتاز بالفهم والعقل ويقدّر الخير من الشرّ، اعتبروا أن فيه جزءاً إلهياً، ولما رأوا انه غير خالد اعتبروه مثل الحيوانات ومن التراب، فنشأ من هذا ان الانسان خلق من دم إلهي ومن تراب الأرض وقد اتحد الإله والإنسان في الطين.

3 ـ **اسطورة خلق اخرى:** وهذه قصيدة سومرية اخرى قرأها وحل رموزها وترجمها المستر كرامر، خلاصتها:

ان الآلهة تذمروا عند الإله انليل من الصعوبة التي يرونها في الحصول على عيشهم ولم يلتفت الإله انليل الى تذمرهم فاستحثته أمه الإلهة «نمو» أن يغيثهم. وقالت له:

يا بني، قم من فراشك واصنع ما هو مفيد. اصنع عباداً للآلهة حتى يهيّئوا لهم الطعام والشراب.

فقال يا أمّاه: أعجبني الطين الموجود في مياه «الابسو». اصنعي منه الأعضاء والجوارح.. وستعاونك الرّبة «نن ـ ماخ» إلهة الأرض، وقدري يا أماه مصير الوليد. فصنعت الإلهة «نمو» بمعاونة الرّبة «مامي ـ ننماخ» أعضاء وجوارح لإنسان وصوّرته من الطين الموجود في مياه الابسو على صورة الآلهة ودعت اسمه «لولو».

ولما بنت الآلهة مدينة اريدو بيدها غرست الأشجار المثمرة في جنائنها ووضعت ذلك الانسان [لولو] في جنة عدن ليعبدها وليعمل بها ويهيّىء للآلهة الطعام والشراب من أثمارها.

ولما كان العقل البابلي لم يأنف من إعطاء زوجات وعشيقات للآلهة، فإنه لم ير حرجاً في إعطاء لولو زوجة له من جنسه لتخدمه في الجنة، وأباحت الآلهة لهما الأكل من صنوف الأثمار وأنواع الفواكه عدا أشجار الكروم، وما فيها من رحيق منعش، فهو خاص للآلهة، وقد حرّم عليهما. فأقام لولو فيها وبجانبه زوجه يتمتعان بلذة الحياة وخدمة الآلهة ونعمة الخلود. ولما كان للنساء حب الاستطلاع، فقد تناولت أولاً زوجه من ذلك الرحيق الخاص للآلهة وأعطت منه الى زوجها فغضبت عليهما الآلهة وأخرجتهما من جنة عدن الى الأرض (بين عدن والاردن).

وفي اسطورة سومرية اخرى ان الإله «ايا» خلق «ادابا». وقد وصف في الاسطورة بانه أول بذرة للبشر. ومنحه الإله «ايا» الحكمة ومعرفة الخير والشر وجعله يعد المائدة المقدسة ويقوم بإحضار وتوفير الطعام والشراب لأريدو مدينة الآلهة. ولما علم الإله «آنو» بذلك استدعاه الى السماء وقدّم له طعام الحياة الدائمة فلم يأكله وماء الحياة فلم يشربه، فطرده الإله آنو من محضره وأعاده الى الارض ليعمل بها. بذلك أضاع الحياة الخالدة والنعيم الدائم.

4 ـ **الأساطير البابلية:** أما القصة البابلية الاولى فهي تتفق مع القصة السومرية الأولى في كيفية خلق

الانسان فتذكر انه خلق من دم الإله المذنب «كنكو» قائد الأم العاتية الإلهة «تيومات» ومن تراب الأرض. وتتفق أيضاً مع القصة السومرية الثانية في الغاية التي من أجلها خلق الانسان وهي عبادة الآلهة وتحريرها من إحضار عيشها وشرابها بأيديها.

ولما تناولها الكهّان البابليون المتأخرون في زمن حمورابي، وكانوا قد جعلوا مردوخ إله الآلهة ورب الأرباب دخل على القصّة كثير من العلاوات جاء ذكرها في الرقم السادس من الألواح البابلية السبعة التي حلّ رموزها أكثر من عشرين عالماً من علماء البابليات ونشرتها مجلة سومر العراقية كاملة نأخذ منها ما هو متعلّق بخلق البشر فقط جاء فيها:

1 ـ ولما سمع مردوخ كلمات الآلهة
2 ـ حثّه لبه لكي يخلق أشياء عجيبة
3 ـ ففتح فاه وقال للإله [ايا ـ انكي]
4 ـ دماً أخلق وعظماً ابري
5 ـ وأصنع لولو ويدعى بشراً
6 ـ أجل لأخلق لولو الانسان
7 ـ ولأفرض عليه عبادة الآلهة
8 ـ فأجابه انكي وقال كلمة له
9 ـ ليقدم واحد من الآلهة الاخوان
10 ـ فيهلك ويصنع منه لولو البشر
11 ـ وليسلم الإله المذنب وليكن فداء للآلهة المذنبة
12 ـ وتكلّم الملك كلمة. من ذا الذي خلق النزاع بين الآلهة
13 ـ من ذا الذي حرّض الالهة تيامه على الثورة وهيأها للحرب
14 ـ أجابه الآلهة العظام
15 ـ انه كنكو الذي خلق النزاع بين الآلهة وسبّب الحرب
16 ـ فكبّلوه وأودعوه السجن أمام الإله أيا ـ انكي
17 ـ وعاقبوه بقطع عروق دمه
18 ـ ومن دمه خلقوا البشر
19 ـ وفرض عليهم أيا عبادة الآلهة وإحضار الطعام والخمر للآلهة.

5 ـ **القصة الآشورية عن خلق الانسان:** عثر المنقبون في مدينة آشور [الشرقات] على رقيم من الطين فيه رواية آشورية عن الغاية من خلق الانسان. ففي هذا الرقيم من الطين أول ذكر للانسانين الاوليين واسمهما «اوليكرا» و«زلكرا» وقد وضعت إشارة الإله قبل كل اسم من اسميهما، ما يدل على انهما كانا يتّصفان ببعض صفات الألوهية باعتبار انهما خلقا من دم إلهي ومن طين الارض، نشرتها مجلة سومر العراقية كاملة مترجمة عن الكساندر نقتبس منها الفقرات الآتية لظرافتها:

1 ـ حينما تمّ خلق السماوات والأرض

2 ـ وجاءت أم الآلهات الى الوجود
3 ـ وحينما أوجدت الأرض وأخذت الأرض شكلها
4 ـ وحينما عينت أقدار السماء والأرض
5 ـ ولما أجرى الجداول والنهر في مجريهما الصحيحين
6 ـ وثبتت ضفاف دجلة والفرات
7 ـ آنو، وانليل، وشمش، وأيا
8 ـ 10 ـ الآلهة العظام جلسوا مع الانوناكي الآلهة العظام في المعبد المجيد
11 ـ وتحدثوا في ما بينهم حول ما خلقوا
12 ـ والآن، فيما ان أقدار السماء والأرض قد عيّنت
13 ـ وأجرى الجداول والنّهر في مجريهما الصحيحين
14 ـ 15 ـ وضفاف دجلة والفرات قد ثبتت
16 ـ ما عسانا أن نفعل غير ذلك
17 ـ وما عسانا أن نخلق
18 ـ 23 ـ ان الآلهة العظام وجّهوا كلّهم جوابهم الى انليل
24 ـ 25 ـ دعنا نذبح الآلهة لامكا
26 ـ وبدمائهم دعنا نخلق البشر
27 ـ ونفرض عليهم عبادة الآلهة
28 ـ في كل الأوقات والأزمان
29 ـ وليثبتوا حدود الجداول
30 ـ 31 ـ ولتوضع الفأس والسلّة في أيديهم
32 ـ لسكنى الآلهة العظام ليشيدوا المعابد
33 ـ ويحدّدوا بين حقل وحقل
34 ـ وليثبتوا حدود الجداول
35 ـ وليجروا الجداول في مجراها الصحيح
36 ـ وليسقوا مناطق الأرض الأربع
37 ـ 38 ـ ولينبتوا النبات وليعينوا الحدود
39 ـ وليكثروا الغلّة في الأرض
40 ـ وليحتفلوا بعبادة الآلهة
41 ـ وليسكبوا ماء بارداً
42 ـ لأجل بيت الآلهة العظام
43 ـ 44 ـ اوليكرا وزلكرا دعوا اسميهما
45 ـ وعليهما أن يكثرا الثيران والأغنام

46 ـ والسمك والأطيار
47 ـ وغلال الأرض
48 ـ آنول وآريشول [آلهة الكثرة]
49 ـ أمرا بذلك بفميهما المقدّسين
50 ـ ان ارورو [مامي] امرأة الآلهة ذات السّيادة
51 ـ وهبت لهما أقداراً عظيمة
52 ـ في النهار والليل
53 ـ ليحتفلوا بأعياد الآلهة
54 ـ 55 ـ ان هذه الأقدار العظيمة فرضتها عليهم
56 ـ آنو وانليل وأيا ونن ماخ [مامي] الآلهة العظام
57 ـ فرضوها عليهم
58 ـ وفي الموضع الذي خلق فيه البشر
59 ـ عيّنت «نصابا» آلهة القمح الى الأبد
60 ـ فليعلم العقلاء السرّ للعقلاء

يستبان من هذه القصيدة الدينية انها عمرانية اقتصادية وعلى جانب عظيم من الخطورة. فإن الآلهة بعد ان ثبتت ضفاف دجلة والفرات خلقت الإنسان لكي يسعى ويعمل طيلة حياته في حفر الجداول وتنظيم الريّ وتحديد الحقول وسقي المزروعات وإكثار الغلّة وتربية الثيران والأغنام والسمك والأطيار. وقد وضعت السلّة والفأس في يده للبناء والعمران وتشييد المعابد والاحتفال بأعياد الآلهة. فرضت الآلهة هذه الأعمال فرضاً على الانسان. فالقيام بها يعتبر من الواجبات الدينية التي ترضي الآلهة. وبهذه العبادة النافعة ألزموا الناس إلزاماً بتعمير الأراضي وتنظيم الريّ وغرس الأشجار وزرع الحقول وتعمير المدن وبذلك ازدهرت ضفاف الرافدين.

6 ـ **قصص اخرى:** هناك أساطير دينية وثنية كثيرة أخرى حول الغاية من خلق الانسان وإدخاله في الجنّة ليعمل بها ويحفظها ويهيّىء الأطعمة والمشروبات للآلهة وأسباب خروجه منها الى سطح الارض، سنذكرها لاحقاً في كتاب المعتقدات الوثنية، فلا حاجة بنا لتكرارها هنا.

7 ـ **خلق الانسان في الأساطير الهنديّة:** كانت الآلهة والإنسان والحيوانات والنّباتات والمعادن والأحجار كلّها قد صدرت من الإله براهما، ليس بطريقة الخلق والتكوين، ولا كما يعمل العامل في معمله، إنما بطريقة الظهور والصدور كظهور الشّجرة من النواة والشبكة من العنكبوت. فلا يقال والحالة هذه براهما خالق العالم إنما يقال براهما جوهر العالم. وعلى هذا فإن جميع الموجودات في العالم كلّه ومن جملته الإنسان تحتوي على جزء أو جوهر من براهما. وهذا هو مبدأ وحدة الوجود الذي انتشر بعد ذلك في العالم كلّه.

ويعتقدون أيضاً ان الأرواح تنتقل عادة من جسم الى آخر ومن الإنسان إلى الحيوان ومن الحيوان الى الانسان. ولذلك عبدوا الحيوانات لاحتمال أن ذلك الحيوان كان صديقاً حميماً أو جداً

كبيراً لأسرة من الأسر دخل في محنة التطهير من الآثام. فكانت هذه العقيدة الأصل في نظرية تناسخ الأرواح والحلول والرجعة والانتقال.

8 ـ **خلق الانسان في الأساطير المجوسية**: وفي الأساطير المجوسية ان كيومرث الذي يقابل آدم في الشرائع الإلهية كان قد قتل، فنبت من دمه «ميشه وميشانه» فتزوجا وحصل البشر من تناسلهما، ولذلك كان يجوز عند أصحاب الفرقة الدينية زواج الأخوين.

9 ـ **خلق الإنسان في الأساطير اليونانية**: لما منح «زوس» إله الآلهة حفيده «ديوس» وهو المسمى «ديونيسوس» والمسمى أيضاً «ديو» عند الافرنسيين، السلطان على العالم، غارت منه «هيرا» زوجة الإله «زوس» فجمعت عليه الآلهة وطاردوه فانقلب عجلاً للتخلص من مطارديه ولم يفده ذلك فأمسكته الآلهة وذبحته وأكلت لحمه نيّئاً. الا ان الربّة «بلاس» اختطفت قلبه وأخفته عن أعين الآلهة. وبعد حين ظهر ديوس من ذلك القلب مرة أخرى واشتكى عند جدّه على الآلهة فأحرق زوس كل الآلهة التي طاردته وذبحته وأكلت لحمه نيّئاً، وخلق زوس الإنسان من رماد تلك الآلهة. فكان الانسان مركّباً من عنصرين متضادين: الأوّل عنصر آلهة الشرّ أو عنصر الخطيئة، والثاني عنصر الإله «ديوس» وهو عنصر الحب والخير. وكان لهذه الاسطورة طقوس خاصة عند الكهّان والرهبان، منها الاستحمام باللبن ومنها تقديم القرابين للتخلّص من العنصر الأوّل وهو عنصر الخطيئة[1].

10 ـ **خلق الانسان في الأساطير الصينية القديمة**: كان فضاء مظلماً فظهر في وسط ذلك الظلام جسم عظيم يشبه الانسان هو الإله الأعظم «بون ـ فو ـ وونغ». فأوجد السماء والارض وخلق بيده اليمنى الشمس وبيده اليسرى القمر ثم خلق النجوم. ولما أراد خلق البشر أخذ قطعة من الذهب وقطعة أخرى من الخشب فكوّن منهما سحاباً وشكّل من سحاب الذهب، عنصر الرجل، ومن سحاب الخشب عنصر المرأة. وعند امتزاج هذين العنصرين ظهر رجل يسمى «بينغ ـ يي» وظهرت بنت تسمى «خا ـ نوئي» فتزاوجا فتكاثر البشر من نسلهما.

11 ـ **خلق الإنسان في الأساطير اليابانية القديمة**: يوجد في دين اليابان المسمى بلسانهم «سينتو» ربّة واحدة هي ربّة الأرباب وخالقة العوالم والأكوان تسمى «اميتراسوا ـ امو كامي» تقيم في أعلى السماوات لا يهمها أمر العالم والأكوان شيئاً، وقد تركت إدارة أمور العالم الى آلهة ثانوية أخرى واستراحت هي من عناء الأعمال. فمن تلك الأعمال الثانوية إله السماء «ازاناجي ـ توميكوتو» وزوجته إلهة الأرض «ازانامي ـ توميكوتو» اللذان حصل من تناسلهما النسل الياباني.

---

(1) عنصر الخطيئة عند المسيحيين هو ان آدم كان قد أكل من الشجرة الممنوعة فغضب عليه الرب وأخرجه من الجنة فكان نسله مستحقاً للعذاب الأبدي؛ ثم أحب الله البشر وفدى ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل العالم بسبب الخطيئة.

الفصل الثالث خلق الإنسان في الديانات السماوية الكتابية

1 ـ **خلق الإنسان في الديانة الإسرائيلية:** وأما سفر التكوين العبري «التوراة» فيقول بالخلق المستقل المباشر من قبل الإله الواحد. فان الرب الإله قد خلق في اليوم الخامس كل ذوات الأنفس الحيّة، وفي اليوم السادس «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (1 ـ 26) «فخلق الله الإنسان على صورته... على صورة الله خلقه» (1 ـ 28). ويعتبر سفر التكوين «ان الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع» (2 ـ 2 ت).

وأما عن كيفية الخلق فيقول سفر التكوين «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نسمة حيّة». ثم يقول السفر «وغرس الرب الإله جنّة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله» (9 ـ 2). ثم «أخذ الربّ الإله آدم ووضعه في جنّة عدن ليعملها ويحفظها» (15 ـ 2) وأوصاه قائلاً «وأما شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها» (17 ـ 2) وأوقع الربّ على آدم سباتاً، وأخذ ضلعاً من أضلاعه، وكساه لحماً، وخلق منه زوجه حوّاء (22 ـ 2)... فرأت المرأة ان الشجرة جيّدة للأكل، فأكلت منها، وأعطت رجلها أيضاً (6 ـ 3)... فأخرجهما الربّ الإله من جنّة عدن الى الأرض (22 ـ 3).

مقارنة: لقد ذكرت الأساطير السومرية والكلدانية والأشورية أن الآلهة جبلت تراب الأرض بدم إلهي، وصوّرت بيدها منه على مثالها «لولو» أبو البشر، وذكرت التوراة أيضاً ان الرّب الإله جبل آدم تراباً من الارض وصوّره بيده كشبهه وعلى صورته ثم نفخ في أنفه نسمة حياة. فقد اتفق الجميع على ان أبا البشر قد جبلته الآلهة من تراب الأرض وخلقته من جزأين متضادين، إلهي وترابي، وصوّرته بيدها وعلى صورتها، ووضعته في جنّة عدن ليعمل بها ويحفظها، ثم أخرجته من الجنّة لأكله من شجرة معرفة الخير والشرّ على رواية، أو لشربه رحيق الكرم على رواية أخرى.

فيظهر مما سبق أن ما ورد في سفر التكوين العبري موجود مثله أو يشابهه أو بتحوير طفيف في الأساطير السومرية والكلدانية والآشورية. وقد جعل اليهود للبشر تاريخاً متصلاً بآدم وحدّدوا له زمناً قريباً جداً من حياة السومريين في العراق وهي 6500 سنة تقريباً. فيظهر من هذا أن عزرا الهاروني الكاتب في شريعة موسى (6 ـ 7 عزرا) الذي عاش في أسر بابل واطلع على الروايات السومرية والكلدانية الآنفة الذكر هو الذي سجّلها بتعديلات طفيفة في سفر التكوين العبري، وقرأها في أورشليم لأول مرة على بني إسرائيل عند عودتهم من أسر بابل، وكان قد أرسله أرتحشستا ملك فارس وبابل مع الكهنة الى أورشليم عام 547 ق. م. لإشغال اليهود بالمسائل الدينية وصرفهم عن الاشتغال بالمسائل السياسية.

ولما طرد بلوطس القائد الروماني اليهود من فلسطين وتشرّد اليهود في أنحاء العالم عام (132

ق. م.) نقلوا معهم نسخاً من توراتهم المذكورة الى البلدان التي حلّوا فيها فانتشرت مضامينها في طول البلاد وعرضها وتأثّر من محتوياتها العالم أجمع[1].

ولعلّ كلمة آدم مشتقّة من الأديم وهو تراب باطن الأرض الذي جبل الرب الإله آدم منه، أو لعلها محرّفة من (آدابا) وهو أوّل بذرة للبشر بالنظر لبعض الأساطير السومرية (1 ـ 9 مجلة سومر) آو انها محرّفة من «آدمو» وهو الروح الإنساني الذي يدخل القبر ويستقرّ مع الجثة البشرية في اللحد بالنظر للأساطير السومرية والكلدانية والآشورية.

2 ـ **في الديانة المسيحية:** قبلت الديانة المسيحية ما جاء في فصل التكوين العبري من كتاب العهد القديم، إلا انها اعتبرت الأيام الستة الواردة فيه للخليقة انما هي ستة أدوار جيولوجية وليست من أيامنا الشمسية المتعارفة. وبهذا التفسير انتهى مؤخراً الخصام الذي دام مائة عام بين الاكليروس الديني ورجال العلم.

3 ـ **في الديانة الاسلامية:** أما الديانة الاسلامية فهي تؤيّد ان الشمس والقمر والكواكب والنجوم والأرض كانت بمثابة سحابة غازية منتشرة أو سديماً منتشراً في الفضاء «كالدخان» ثم أطاعت آمره تعالى فتكوّرت وصارت آجراماً كما ذكرته النظرية العلمية، وكما هي عليه الآن في قوله تعالى ﴿ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ (11 ـ فصّلت). وتؤيد ان الأرض كانت جزءاً من سديم السماء، وكانتا مع الشمس في السماء شيئاً واحداً، ثم انفتقت عنها أي انفصلت إحداهما عن الأخرى في قوله تعالى ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ (30 ـ الأنبياء). وتؤيد تكوّر الشمس وانتثار النجوم منها في قوله تعالى ﴿اذا الشمس كوّرت وإذا النجوم انكدرت﴾ (التكوير). وتؤيّد احتمال اصطدام الأرض بجرم سماوي آخر فتنقلب سديماً مرّة أخرى فتتبدل الأرض غير هذه الأرض في قوله تعالى ﴿يوم تبدّل الارض غير الارض﴾. وتؤيد حصول الانفجارات والاندفاعات من باطن الارض عند بدء تكوينها فحصلت على اثرها الجبال والوهاد والسهول والفجاج في قوله تعالى ﴿وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا﴾ (31 ـ الانبياء). وتؤيد حصول الحياة العامة فوق سطح الارض من الماء في قوله تعالى ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حيّ﴾ (الأنبياء). وتؤيد تكرر الخليقة مرة بعد أخرى في قوله تعالى ﴿أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده﴾ (19 ـ العنكبوت). وتؤيد ضرورة السير والسفر في أنحاء الارض للنظر ولإعمال الفكر والتنقيب والتحرّي والتدقيق والفحص والتحقيق ـ كما قد يفعل الاوروبيون في زماننا هذا ـ للوقوف عن كيفية بدء الخليقة في علم الاحياء ونشوئها وانكشافها في البحار ثم فوق سطح الارض وانه تعالى ينشئها مرة بعد أخرى حتى النشأة الآخرة في قوله تعالى ﴿قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشأ النشأة الآخرة﴾ (العنكبوت). وكذلك قوله تعالى ﴿الله يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ (10 ـ الروم). وتؤيد وحدة الخليقة والتشابه في الأعضاء والجوارح والتكوين بين الانسان والحيوان وفي كل دابة

(1) راجع لاحقاً كتاب «يهوه إله بني إسرائيل».

تدب فوق سطح الأرض من النملة وما دونها حتى الفيل في قوله تعالى ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم أمثالكم﴾. وتؤيد انها مخلوقة من الماء الدافق وعلى خليقة واحدة وشكل واحد انما تطورت واختلفت تبعاً للمؤثرات الخارجية، فكان منهم من يمشي على بطنه [الزواحف] ومنهم من يمشي على رجلين [الانسان والطير] ومنهم من يمشي على أربع [مختلف أنواع الحيوانات] في قوله تعالى ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء﴾ (45 ـ النور). وتؤيد الديانة الاسلامية أن كل فرد من الانسان والحيوان مخلوق من التراب ومستحدث من الجماد، وان هذه الاتربة والطين والصلصال والمعادن الأرضية التي تدخل الجسد في أشكال الأطعمة والمشروبات لتكوين الانساني والحيواني لا تلبث أن تعود الى المدخر العام أي الأرض التي تتموّج فيها العوالم، يضاف إليها في كلها النفخة الإلهية الخالقة الكبرى التي جعلت هذا القسم من المادة الترابية والطينية والصلصالية عضوية ومتحركة. وقد تأتي كلمة نفخ بمعنى وهب ومنح وأعطى. فقد منح الخالق الخلايا البدنة قابلية تمثيل تلك المواد الترابية والمعدنية والصلصالية، واستخدامها في بناء هيكل الجسد الانساني والحيواني، وأعطاها الخالق في نفخته الكبرى كذلك قابلية تمثيل تلك المواد وقلبها من طاقة معدنية الى طاقة ذهنية، روحية، حركية، أي تحويل القدرة الكامنة في الأتربة الى قدرة تتمكن فيها من الاعمال الذهنية والفكرية والانتقال بواسطتها من محل الى آخر في الجو والبر والبحر، كل ذلك في قوله تعالى ﴿ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون﴾ (20 ـ الروم)، أي مع ان أجسادكم مخلوقة ومكوّنة من التراب، فإنكم تمشون وتنتقلون وتنتشرون بفعل تلك الطاقة الحركية التي هي قبس من قوّة الله وهي من أبلغ المعاني ومن حقائق الوجود. ومما يلاحظ ان الخطاب موجّه لجميع البشر وليس الى شخص واحد معيّن (آدم)، وان القصد من كلمة نفخ ليس معناه النفخ بالفم كما جاء في تفاسير اليهود. وأما قوله تعالى ﴿فاذا سويته ونفخت فيه من روحي..﴾ فهذا معناه اذا تممت تكوينه الفكري والعقلي والخلقي والوجداني، ومنحته جزءاً من قوتي، ووصلت تسويته لدرجة من الكمال وتميز بها عن سائر فصائل الحيوانات ﴿فقعوا له ساجدين﴾ لما له من فضائل علوية وأعمال فكرية لا توجد عند غيره من المخلوقات. وتؤيد الديانة الاسلامية خلق الإنسان من علق في قوله تعالى ﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق، خلق الانسان من علق﴾. وتؤيد أيضاً ان في البدء كانت الخليقة، ثم أعقبها التصوير في الشكل والقامة والحجم والعقل والفكر... ولما كمل تصوير الانسان في خلقه وسجاياه ومزاياه وأصبح يفرّق بين الخير والشر، أرسل الله آدم نبياً لهدايته وأمر الملائكة أن تسجد له، كل ذلك في قوله تعالى ﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا...﴾ (الأعراف). وقد تفيد كلمة ثم المتكرّرة في الآية الترتيب مع الفاصلة بين الخلقة والتصوير والأمر بالسجود لآدم. وقد يكون بينها أزمنة لا يعلمها إلا هو. ولم تتقيّد الشريعة بمدة معينة للخلق والتكوين في قوله تعالى ﴿وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ فقد تصل إلى المليون أو أكثر. وتؤيد الشريعة الاسلامية كذلك أدوار الكهوف التي قضى فيها البشر عشرات الآلاف من السنين في قوله تعالى ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ (149 ـ الشعراء). وتؤيد كذلك ان الانسان الأقدم لم تكن له هذه المنزلة الانسانية السامية التي نراها عنده

هذا اليوم من آثار الذكاء والإدراك والفطنة، ولم تكن له آنذاك قيمة بشرية يمتاز بها عن سائر المخلوقات، ولم يكن شيئاً مذكوراً في قوله تعالى ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ (الانسان). وتؤيد الشريعة الاسلامية أن ذلك الانسان الابتدائي الذي لم يكن شيئاً مذكوراً ولا يعقل ولا يدرك كان على جانب كبير من الغباوة والجهل لا فرق بينه وبين السوائم والبهائم التي قد يطلق عليها علماء العصر الحاضر اسم القرود البشرية، بل أقل منها ذكاء ومعرفة وإدراكاً؛ يستدل على ذلك من قوله تعالى ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتي أعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي﴾ (31 ـ المائدة). فإن ذلك الانسان الذي كان يترك موتاه طعمة للكلاب والذئاب، وكان هو أيضاً يأكل منها بل ويولم عليها الولائم (ولم يزل آكلو لحوم البشر في جزائر المحيط الهادي كثيرين، ولا يعلم حتى كيف يواريها بالتراب ويدفنها في الأرض حتى يتعلمها من الغراب)، تطور خلال مئات القرون من السنين بفكره وعقله حتى هداه الله وعلّمه إلى ما لم يكن يعلمه ذلك الانسان الأول ﴿علّم الانسان ما لم يعلم﴾ (العلق) فافترق الانسان الحاضر عن ذلك الانسان القديم الذي كان لا يعلم شيئاً. ولم يزل الانسان الحاضر يقطع الخطوة إثر الخطوة في ميادين العلوم الكونية وفي استخدام القوى الطبيعية، فاكتشف في زماننا الراديو والرادار وقبض بيده على الطاقة الذرّية التي قد يهدد بها الأمم الغارقة في بحر الظلمات والخيالات والأوهام والأسقام والجهل والمرض. وهذا أعظم مثال للتطور البشري الذي ينفر منه ويهابه ولا يريد ان يفهمه بعض الناس لتشبع عقولهم بالتفاسير القديمة المنتشرة في العالم.

وأخيراً تؤيد الشريعة الاسلامية وجود سلالات بشرية واناسي بدائيين عاشوا فوق سطح الارض قبل أن يخلق هذا الانسان فكانوا أحطّ منه منزلة وأقل منه فهماً وذكاء وإدراكاً، وذلك في قوله تعالى ﴿واذ قال ربّك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ (30 ـ البقرة) أي بعقله وذكائه وإدراكه وأنانيته ومعرفته. والخليفة هو الذي يخلف من سبقه من بني جنسه وكان ذلك السلف البسيط لا يعلم الأشياء وليس لها عنده أسماء فلا فرق بينه وبين البهائم وهو ما نسميه سلالات الانسان الابتدائي أو الانسان الأوّل ويسميه الاوروبيون سلالات القرود الانسانية. ولا عبرة للاسم، الأمر الذي يستدل منه ان قد كان فوق سطح الأرض قبل هذا الانسان اناسي كثيرون أقل منه عقلاً وذكاء وإدراكاً وعلماً ومعرفة. وما هذا الانسان الحاضر إلا سلالة مستخلفة واحدة مستقلة من سلالات انسانية متنوعة كثيرة كانت قد عاشت فوق سطح الارض ثم انقرضت لسبب من الاسباب فزالت من الوجود، ثم أنشأ الله هذا الانسان وكوّنه من ذرية قوم آخرين ومن سلالة اخرى وهو أيضاً معرّض للذهاب والتطور وللاستخلاف بغيره في قوله تعالى ﴿وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما انشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ (133 ـ الانعام) ومنحه العقل والذكاء فعرف الاشياء ووضع لها اسماء ﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾ (31 ـ البقرة) ففسد في الارض وسفك الدماء. يقول رشيد رضا صاحب المنار عند تفسيره ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ نقلاً عن الامامية والصوفية انه كان قبل آدم المشهور آدمون كثيرون. وجاء في رواية اخرى أن الله خلق قبل آدم ألف آدم ونقل عن روح المعاني أن الله خلق قبل

أبينا آدم ثلاثين آدم بين كل آدم وآدم ألف سنة. ويقرّر الإمام محمد عبده في تفسيره أن ليس في القرآن نص أصولي قاطع على ان البشر من ذريّة آدم وحده، وقد يكون لكل صنف من البشر أب مستقل.

وبالأخير تؤيد الشريعة الاسلامية أيضاً تطور الجسد الانساني وانتقاله من حال الى حال بأشكاله الخارجية في قوله تعالى ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ أي تارة بعد تارة والتطور معناه الانتقال من حالة غير ثابتة الى حالة غير ثابتة.

4 ـ **التطور**: يوجد في نظرية التطور مبدءان متضادان، الأول مبدأ داروين وفيه يقول بحصول التغيرات العرضية الطفيفة في الأنواع صدفة واتفاقاً. فان التغيرات التي تلائم المحيط والبيئة والمناخ تنمو وتتكاثر فيظهر منها بمرور الزمن أنواع جديدة. وأما التي لم تتلاءم مع المحيط الجديد تهلك وتزول من الوجود.

والمبدأ الثاني يعود الى لامارك وأساسه ان المحيط هو الذي يولد التكيّف ويحدّد التطور. وهذا معناه عندما يتغير المحيط تكيف الأنواع نفسها بتطويرات جديدة للاتفاق مع المحيط الجديد. فالتي تنجح تنمو وتتكاثر والتي تفشل تهلك وتزول من الوجود.

وهناك مبدأ جديد ثالث يقول بالتغييرات الفجائية ويعرف بالطفرة، وأساسه الاندفاع الحيوي أو القوة الدافعة لحصول «التغيير الدائمي وبدون انقطاع في الكائن الحيّ» وعند تجمع هذه التغيرات يحصل التطور في الأنواع.

ومهما كان السبب الحقيقي في حصول التطور لا يجب ان يفهم ان معناه كما أراد ان يفهمه البعض هو انقلاب الكلب الى حصان أو الفأر الى أسد أو القرد الى انسان وبين الصبح والمساء أو بين عشية وضحاها أو بين قرن وآخر، انما معناه الانتقال ببطء لا يتصور من حالة متشابهة الى حالة متشابهة اخرى مع تغييرات عرضية طفيفة تحصل بالصبغيات (الكروموسومات) وكذلك بأوصاف الخلايا ومزاياها المختلفة المكوّنة للجسد بعد أجيال متتابعة كثيرة خلال عشرات الالوف من السنين تحت تأثير الاقليم والمناخ والبيئة أو تحت تأثير التغيرات الفجائية... حتى اذا ما تجمعت تلك التغييرات الطفيفة العرضية ظهرت بالأجيال بشكل تخالف ما كان عليه الاجداد القدامى. فكان التطوّر جثمانياً وعقلياً ووجدانياً من جملة سنن الخالق الموضوعة لهذا الكون.

5 ـ قلت: اذا كان الجنس البشري بمجموعه وكليته على شكل واحد ويشابه بعضه بعضاً بهيكله الخارجي لدرجة مَا، فلا يوجد في الكون كله من يشابه بأجزائه غيره حتى الأب لولده والولد لأبيه والأخ لأخيه وحتى لو كانا توأمين. فكل شخص يولد يحمل معه أوصاف آبائه وأجداده القدامى ومزاياهم، ثم يضيف إليها أوصافه ومزاياه الجسمانية والعقلية الخاصة به التي يكتسبها أثناء حياته، وعند انتقال هذه الاخيرة الى الاولاد تدخل في مضاف مزايا الآباء وأوصافهم، والاجداد، ثم يضاف اليها مزايا وأوصاف ما يكتسبه المولود الجديد. وهكذا، ورغم ان السلالات البشرية كلها، من الوجهة الدينية، تتفرّع من سلالة واحدة ومن ارومة واحدة ومن نسل واحد، فقد اختلفت تلك الاوصاف الاصلية والاشكال الجسدية والسحنات والالوان والقابليات العقلية في الجماعات وفي الافراد وثبتت في

الذريات والانسال المختلفة تحت تأثير أحكام التطور. فكان الانسان الابيض والاسود والاحمر والاصفر والاسمر والطويل والقصير والسمين والضعيف والذكي والغبي والشجاع والصعلوك... وكل منهم يحمل أوصافاً ومزايا خاصة بنسله وشخصيته. فلا يمكن أن يقال والحالة هذه ان الجد الأعلى المشترك للبشر كافة (آدم) كان أبيض أو أسود أو أحمر أو أصفر وكانت عيونه زرقاً أو صفراً أو سوداً إلخ... فقد فعل التطور فعله في الانسال البشرية كافة وفي الافراد كافة كما في المجموع، فحصلت هذه الفروق بين العروق البشرية المتباينة وثبتت في الذريات، كل ذلك تحت تأثير التطور. وكل من هذه الفروق البشرية يحتوي أيضاً على مجموعات مختلفة من الذريات والانسال يتميز بعضها عن البعض في اللون والشكل والقامة والسمنة... تبعاً للبيئة والمناخ والاقليم ونوع الغذاء. يتجلى كل ذلك في قوله تعالى ﴿ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين﴾ (22 ـ الروم). فقد اختلفت الألسنة وتطوّرت السحنات والآلوان والأشكال وتلوّنت الجلود والعيون تحت تأثير الأقاليم والبيئات المختلفة، ولولا التطور لما حصلت هذه الاختلافات في الذريات وفي الالوان والاشكال البشرية والحيوانية على السواء، ولولا التطور لكان الانسان والحيوان والنبات وحتى الحشرات كالجراد والزواحف في القطب الشمالي وفي خط الاستواء كلها على نوع واحد وعلى شكل واحد ولون واحد وعلى أوصاف ومزايا واحدة، ولكان الانسان خاصة بمجموعه على حالة واحدة في الجلود والشعر والعيون، وعلى درجة واحدة في العقل والذكاء والفطنة والادراك.

لم يكن التطور منحصراً بالانسان وحده، انما قد فعل مفعوله في عالم الاحياء كافة. فكان لكل من الخيل والبقر والغنم والماعز والكلاب والقطط والطيور والزواحف والحشرات وحتى الذبابة والبعوض وحتى الجراثيم والفطريات وسائر أنواع الحيوان والطفيليات والميكروبات، وكان كذلك لكل من الأشجار والنباتات المختلفة كالأثمار والفواكه حتى الحنطة والشعير والبقول وحتى الاوراد والازهار وسائر مختلف أنواع النبات تبعاً لمختلف درجات العرض من الكرة الارضية، أنسال وأنواع كثيرة مختلفة لا يمكن احصاؤها وحصرها تتميز بعضها عن البعض بالصور والاشكال والصفات والالوان والمزايا، قد تطورت من حال الى حال تبعاً لمحيطها وبيئتها وإقليمها ومناخها، مع ان كلا منها كان يرجع في أصله إلى نوع واحد، وان نقلها من مكان إلى آخر قد يؤدي إلى تبدل صفاتها الوراثية فتنمو وتتكاثر فيما اذا تطورت وائتلفت مع الاقليم الجديد أو قد تهلك ـ من أثر الحرارة أو البرودة واليبوسة والرطوبة إلخ... ـ ان لم تتطور وتأتلف مع الاقليم الجديد. فكان الاصرار والعناد في إنكار التطور الذي قد نشاهد في كل لحظة في الحيوان والنبات، معناه الاصرار والعناد في إنكار الشمس والقمر.

6 ـ **الآيات التعبّدية والآيات الكونية**: مع ان نرغب في أن يأخذ كلٌّ من العلم والدين مجراه على حدة، فمن الضروري أن نذكر كما مر أعلاه ان كل ما هو موجود في العلوم الحديثة عن علم الفلك وعن مبدأ الخلق وخلصة عن خلق الانسان وتطوره، موجود مثله أو ما يشابهه أو إشارة عنه في القرآن الكريم. واذا كان العلماء الاعلام في صدر الاسلام قد فسروا القرآن بالنظر لما كان لديهم من علم محدود في الكون وفي النواميس الطبيعية، فلا معذرة لبعض العلماء الاجلاء في زماننا هذا، اولئك

الذين لا يعترفون بالعلوم الطبيعية ولا يريدون أن يتدبروا القرآن ولا يتزحزحوا قيد انملة عما ورثوه من أسلافهم. ومع انهم يستعملون الراديو والتلفون... وسائر المنتجات العلمية بشراهة ويركبون السيارات والقطارات والطيارات بأسفارهم، فكانوا ولم يزالوا يعتبرون العلوم الكونية والطبيعية كفراً وإلحاداً. ولو كانوا قد تدبروا أحكام القرآن لوجدوا فيه عدد الآيات الكونية أضعاف عدد الآيات التعبديّة. ومن الغريب ان بعض المفسرين القدامى كانوا قد فسّروا حتى هذه الآيات الكونية أنها تعبدية واعتبروا القرآن الكريم بمجموعه أنه كتاب عبادات وطاعات لا علاقة له بالكونيات، ولذلك كانت الوحدة القياسية للتعبد عندهم حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب (الحفاظ) وكثرة الختمات القرآنية (القراء) من دون حاجة لتدبّر معانيها. ولو كانوا قد اعتبروا حتى العبادات أنها وسيلة لتفهّم السنن الكونية التي هي من صنع الخالق الاعظم، ولو كانوا قد أفسحوا في المجال للذين يتفكرون في خلق السماوات والارض، إذاً لاكتشف فلاسفة المسلمين كثيراً من القوانين الطبيعية والسنن الكونية التي لا تبديل ولا تحويل لها، تلك السنن التي يكتشفها الاوروبيون اليوم ويستفيدون منها في أمورهم اليومية وفي معاملهم الآلية ونستفيد نحن منها مجاناً ومن دون تعب وتصب في أمورنا الاعتيادية وقد نأخذ حتى عمائمنا من معاملهم ونتباهى بنعومتها ولطافتها.

7 ـ **العلوم الطبيعية والتطور من سنن الخالق:** مما لا شبهة فيه أن رجال العلم الحديث قد وجهوا العلم وجهة ابتعد فيها كثيراً عن الوجهة الروحية والدينية وابتعد رجال الدين جد البعد عن العلوم الطبيعية الحديثة خلافاً لما كان عليه رجال الدين في الصدر الاسلامي الاول لما كانت العلوم الطبيعية والطب والفلسفة اليونانية والرياضيات والفلكيات... تدرس في أروقة الجوامع تبعاً للحديث الشريف (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة). ولو كان الطرفان قد اعتبرا ان العالم وحدة في الوجود وأن السنن الكونية الجارية أمامنا في كل لحظة وكذلك التطور في الحياة كلها من سنن الخالق الموضوعة لهذا الكون، لم يبق سوى وسائل التعرّف لتلك السنن الإلهية التي لم يعرفها المفسرون الأوّلون، وقد يكتشفها العلماء المعاصرون. ولهؤلاء العلماء أن ينعتوها بكلمة طبيعية ولنا أن نسميها إلهية، وبهذا التسامح تزول النفرة ويمكن سدّ الفجوة التي تفصل بين رجال العلم والدين.



الكتاب الثالث

سحر... ومعتقدات



الفصل الأول السحر

1 ـ يعتقد علماء الأساطير أن السحر قديم عند البشر. منشؤه الاعتقاد بوجود قوى ما وراء الطبيعة من آلهة وأرواح وجان وشياطين ومردة، يمكن الالتماس منها لتخفيف تكاليف الحياة واستخدامها في إنجاز بعض المقاصد والغايات وتأمين المطالب والرغبات. وفي أساطير سومر وبابل أن الآلهة القديمة نفسها كانت تستعمل السحر. فكان ان تغلّب الإله «أيا» بقوة سحره المقدس على جده الإله «ابسو»، وتغلب الإله «مردوخ» بقوة شبكته السحرية على الربة الأم العاتية «تيامه»، ولذلك كان قد اختلط السحر مع الدين منذ فجر التاريخ[1].

2 ـ وكان الاعتقاد السائد عند الكلدانيين أن الأرواح الشريرة والجان والشياطين هي التي تولد الأمراض وتوقد الفتن وتلقي العداوة والبغضاء بين الأفراد والجماعات، وقد تتدخل في أمور الناس وشؤونهم اليومية. فلذلك، كان كهنة الكلدان يستعملون أنواعاً من السحر باسم الدين لإرضاء أمثال هذه الأرواح ولتجنب شرورها وصد عدوانها، وساعدهم المناخ والاقليم العراقي المتقلّب الأهواء وفيضانات دجلة والفرات وما ينتج عنهما من الطوفان والغرق والأضرار المتكررة المستديمة، في تطبيق مدعياتهم هذه.

3 ـ كان السحر عند الأمم القديمة على نوعين: حلال وحرام. فأما السحر الحلال، فهو الذي كان يقصد منه طرد الشياطين المولدة للأمراض من الجسم البشري، كالجنون والصرع وغيره. وهو بمثابة فرع من الطب. وأما السحر الحرام، فهو الذي قصد منه إرسال أحد الجان والشياطين لإيقاع الأذى والأضرار والأمراض بالغير.

4 ـ وكانت السحرة تسعى بالتدخل في شؤون الكون وبجعل الأمور موافقة لرغبات الإنسان ولقلب الحقائق الواقعية وإبطال السنن الطبيعية وتغيير مجرى الكائنات ودعوة الآلهة واسترضائها لتغيير آرائها ومقاصدها، وتغيير نظام العالم وتسييره حسب الأهواء والرغبات والميول والطلبات.

وكان الإنسان القديم الابتدائي، ولم يزل البعض منه في أقاصي الأرض، يعتقد بالسحر وبقدرة السحرة على تبديل سنن الكون وتغيير مجرى الكائنات، وعلى إجراء بعض الأعمال السحرية لإجبار الطبيعة على أمثالها، كرش الساحر الماء على الأرض القاحلة وهو يتلو الرقى لكي يحصل مثيلاً له في الطبيعة فيتساقط المطر مثلاً. وكان الإنسان القديم يعتقد أيضاً أن الآلهة ترضي وتسترضي وتتدخل في شؤون البشر اليومية، وقد تنزل إلى الأرض فتطوف الشوارع لترى وتسمع النداءات والطلبات وهي مستعدة للتحوّل عن عزمها وإرادتها، ويمكن للسحرة إرضاؤها وجلب عطفها ومودتها بالتقدمات والقرابين والأدعية والنذور والطلسمات وبعض الأعمال السحرية، فتبدل مقاصدها وتغير سننها وقواعدها تبعاً للطلبات والرغبات والشفاعات والالتماسات.

---

(1) راجع لاحقاً كتاب المعتقدات الوثنية.

وكان السحر قد وصل في عقول الشعوب المتأخرة لدرجة أنه إذا مات فرد من أفراد القبيلة يعتبر موته من أثر السحر الذي اتخذته القبيلة المعادية لها، فلا يقر لقريب الميت قرار ما لم يقتل آحد أفراد تلك القبيلة المعادية، وعند ذلك ينقطع الميت عن عتابه ويستقر في لحده.

5 ـ وأما في الأزمنة المتأخرة، فقد ارتفعت هذه المعتقدات بفضل انتشار المعارف الإنسانية والعلوم الطبيعية، وعرف الإنسان المتعلم أنّه لو لم يكن لهذه الكائنات سنن وقواعد ثابتة لا يعتورها التبدل ولا يتخللها التغيير لشملها عدم الانتظام والهرج والمرج. وأصبح كل جرم من الاجرام السماوية يسير على غير هدى تبعاً لرغبات الآلهة وأهوائها. فتحصل عند ذاك الاصطدامات ويختل نظام العالم.

6 ـ إن أساطير المصريين والبابليين والكلدانيين والسومريين والاكاديين والأمم السالفة كافة، مؤسسة على الاعتقاد بأن حادثات الكون كحركات النجوم وصفحات القمر والشمس مرتبطة بشؤون البشر الزمنية. وقد وضعت هذه الأساطير بالنظر لحركة الأفلاك والاجرام السماوية. فهي والحالة هذه علمية في نشأتها. وقد امتزجت بعد ذلك مع الدين والسحر بنواقصها ومجهولاتها، فكانت العامل المهم بتوجيه الفكر البشري إلى الخيالات والأوهام. فكان امتزاج السحر والأساطير مع الدين قد سبّب الاعتقاد بأن الأفعال والأعمال كافة وحتى الأفكار البشرية وكل حركة وسكون في العالم والحياة العامة، نازلة من السماء وتابعة لحركات النجوم والأفلاك أو من أعمال الآلهة وإرادتها وأوامرها المستديمة.

7 ـ ولأجل الوقوف على ماهية السحر، لا بد لنا من إعطاء بعض المعلومات المختصرة عن الفيزياء والتشريح. وسيكون ذلك باقتضاب جهد الامكان وبقدر ما يمس موضوعنا.

كما وأن كل خلية من خلايا البدن هي بطارية كهربائية صغيرة، فإن الدماغ بمجموعه بطارية كهربائية كبيرة يصدر منه بطريقة الاشعاع دوماً موجات أثيرية إلى الفضاء. وقد يزداد هذا البث والنشر شدة عندما يشتغل الدماغ ويعمل. إن هذه الحالة موجودة في كل شخص وبنسب متفاوتة. فقد يكون هذا الاشعاع قوياً عند بعض الأشخاص وضعيفاً عند الآخرين، يسميه سنكلر «الاشعاع الإنساني» ويشبهه بأجهزة البث والمذياع، وهو فطري وليس مكتسباً وإن كان هناك من يقول بجواز تقوية هذا الاشعاع ببعض التمارين.

وتسيل هذه الكهربائية الحيوانية إلى أنحاء البدن وبالعكس بواسطة الخيوط العصبية التي لا حد لها ولا عد، وتتولد أثناء انقسام الخليات في الحيوانات والنباتات.

وقد تمكن أحد العلماء من التقاط هذه الكهربة من جذر بصلة وهي تنمو في الأرض وعلى بعد ثلاثين سنتمتراً من رأس الجذر، فكانت من الموجة القصيرة «او لترافيوليست». وتمكن «برجر» الالماني من إثبات وجود هذه القوة الكهربائية في دماغ الإنسان وسماها «الطاقة العقلية»، وذلك أنه وضع سلكين من المعدن على جانبي الرأس ووصلهما بجهاز الاكتروسكوب فشاهد ان الاهتزازات الكهربية الصادرة من الأعمال الذهنية، تختلف في قوتها تبعاً لإجهاد الدماغ. وبذلك ثبت ان التفكير الإنساني مثله كمثل الطاقات المختلفة والحركة وغيرها.

8 ـ ان القاعدة الأساسية في تكوين الكهربائية الحيوانية هو أنه عندما تنقسم الخليات يستقطب الكروموسوم فتحصل الكهربائية من أثر الاستقطاب. ولما كان الدماغ هو العضو الفعال بالإنسان وأنه يستهلك أعظم كمية من الدم، فيكون بطبيعة الحال حائزاً على أكبر كمية من الكهربائية.

9 ـ يتذكر كل فرد انه صادف مرة أو أكثر أن مرت بخياله صورة شخص ما فجأة وبدون سبب. وعندما يصل رأس الشارع يشاهد ذلك الشخص فيتعجب من هذه الصدفة. وتفسير ذلك أن الأشعة الصادرة من دماغ الشخص المذكور، قد التقطها دماغه فانتبهت الخلايا الموجودة فيه ذكرى الشخص. وهناك من الفلاسفة من يعزو هذا الكشف والشعور عن بعد إلى ما يصدره الجسم الصنوبري من أشعة فيلتقطها دماغ الشخص الثاني. وكذلك قراءة أفكار الأشخاص وما يدور في رؤوسهم وإظهار ما عملوه وتفوهوا به في بيوتهم وخلواتهم، حيث لا تحتمل الوشاية. وكذلك قراءة الرسائل المختومة والفال وغيره ما هي إلا أخذ ما هو موجود في دماغ المخاطب وسرقته بالطريقة اللاسلكية من حيث لا يشعر.

10 ـ ان قوة الالتقاط والبث هذه ضعيفة عند معظم الناس وقوية عند بعض الأشخاص، ويمكن تقويتها أكثر فأكثر بالاستعمال والترويض ولا يمكن اكتسابها عفواً، وليست تابعة للذكاء وقوّة العقل والنضج الفكري. ان هذه القوة قد توجد بالفطرة عند بعض الأشخاص، وقد تكون على جانب كبير من الشدة والقوة في شخص من أحط طبقات البشر أو عند شخص أبله أو بليد أو مجنون أو عند عالم مطلع، فيحسن هذا الأخير استعمالها والاستفادة منها فيظهر بمظهر أصحاب الكرامات ويأتي بما لم يستطعه غيره من الأعمال وخوارق العادات.

والحق أن الكائن البشري لعاجز عن أن يحيط بما يكنه معمل الدماغ الجبار. وقد يستسلم بسهولة أمام ما يصدره من الأعمال الشاذة وغير المألوفة الخارجة عن نطاق العقل والفكر فيفنى المريد بحب شيخه وأستاذه عندما يناوله تفاحة من الهواء في وقت لم يكن فيه التفاح موجوداً، ويأخذ الناس العجب عندما يكشف الفوال والحاوي والساحر ما يكنّه ضميرهم. فالفوال لا يتمكن من الاطلاع على مكنون الشخص إلا بعد أن يقول له «اضمر» فيضمر الشخص ما يريده، أي إنه يشغل فكره بالموضوع الذي يريد اكتشافه ويكرره بفكره وضميره فيشع دماغه بذلك الموضوع، وعند ذاك يتمكن الفوال والساحر وصاحب الكرامات من التقاطه بل من سرقته بالطريقة اللاسلكية بسهولة.

11 ـ في التاريخ الإسلامي حوادث كثيرة كهذه. يذكر الطبري أن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، كان قد أمر جاريته يوماً أن تشتري سمكا بدرهمين، ثم انطلق إلى المغيرة بن سعيد الساحر. فقال له الساحر: يا محمد، انك قد بعثت خادمك ليشتري لك سمكاً بدرهمين. قال: فنهضت عنه هارباً منه. ثم ألقى خالد القسري القبض عليه وأحرقه بالنار!

ويروى عن الحلاج عندما كان في اصطخر في الشتاء، أن أحد تلاميذه اشتهى الخيار، فكاشفه به، فضرب يده إلى سفح جبل، فأخرج من الثلج خيارة وناوله إياها. ويدّعي التلميذ انه أكلها. وعندنا أما إن الحلاج كان قد استحضرها وأخفاها في كمه من قبل، أو أن التلميذ النائم لم يلعق سوى أصابعه متذكراً لذّة الخيار بخياله. وأومأ مرة الحلاج يده بالهواء وأعطى تلاميذه تفاحة، فعجبوا من ذلك وقالوا له: من أين لك هذه. قال: من الجنة. فقال له بعضهم: ان فاكهة الجنة غير متغيرة، وهذه فيها دودة. قال: لأنها خرجت من دار البقاء إلى دار الفناء، فحلّ بها جزء من الفناء والبلاء. فاستحسنوا جوابه أكثر من كراماته.

12 ـ كان قد وصلني وأنا في الموصل أول رسالة من أخي الدكتور عبد الله الدملوجي بعد هدنة «1918» من بلدة الاحساء في نجد، وفيها يذكر انه منذ ابتداء الحرب مستقر عند الإمام عبد العزيز آل سعود، وهو في أرغد عيش وأطيب عافية وأتم صحة، وقد تزوج وصار له من الأولاد خالد وفياض... الخ. وفي ذلك اليوم الذي وصلني فيه الكتاب دخلت داري طفلة يتراوح عمرها بين الحادية عشر والثانية عشر، شعثاء غبراء وسخة قذرة صاحت في فناء الدار «افتح فال، فتاحة فال!...» فضحكت منها ورميت لها «آنة» باعتبارها فقيرة، ففطنت لهذا الوضع وانفعلت ولم توافق على أخذها ما لم تفتح الفال، فوافقت مضطراً على تكليفها ساخراً منها، فقالت على عادتها: «اضمر»، فلم يكن ما يشغل بالي وفكري في ذلك اليوم سوى حالة أخي، فقالت إن هذا الشخص بعيد وبعيد جداً حتى ما وراء البحر وحالته حسنة ومرتاح ومتزوج وله ولدان... فقلت متعجباً وما اسماهما؟ فقالت هات آنة أخرى. فأعطيتها مستعجلاً عن طيبة خاطر. وبعد صراع نفسي شديد قالت اسم أحدهما «خالد» فقلت والثاني فقالت هات آنة فأعطيتها آنتين وقد أخذني العجب أي مأخذ من كشفها اسم خالد، فتوقفت هنيهة وقد اصفر وجهها وارتعش بدنها ثم صرخت بأعلى صوتها «ما أفهم! ما أفهم!» فكأنها كانت تسمع صوتاً غير واضح. والصحيح أني أيضاً قد تكهربت بكهربائيتها فعدت أرتجف من دون شعوري، وكان الحق معها في عدم تحققها وفهمها اسم فياض. فإن هذا الاسم لم يكن معروفاً ولا متداولاً في الموصل، فأصبحت الطفلة في حالة التشنج والتوتر حتى ظننت أنها أصيبت بالصرع. صرت احاذر من أن يمسها سوء وهي في داري أو يمسني سوء منها. ثم عادت تبكي وتلطم وجهها وتضرب بكفيها رأسها وهي تقول «ما أفهم! ما أفهم!». فقلت هوّني عليك يا بنيتي فسقيتها ماء وألهيتها بالكلام. وبعد أن سكتت قليلاً وعاد إليها روعها، عادت تعالج فهم الاسم. وعندما أعيت قالت في يأس ورجاء دعني أضع يدي على رأسك فوافقت على تكليفها، فصرخت هذه المرة من فورها غاضبة وهي تقول بياض؟! بياض؟! هذا اشلون إسم، ما أفهم! ما أفهم! فقلت وصلت يا بنيتي الحد ووجدت الاسم فهو ليس بياض إنما فياض. ومنحتها حفنة من الدراهم وصرفتها.

وسمعت عنها بعد ذلك أنها مرّت من إحدى المقاهي وقالت لشاب كان جالساً افتح فال فأعطاها آنة، فنظرت إليه بغضب ورمت الآنة عليه وبصقت في وجهه ومشت في طريقها. وسألوه عن السبب، فقال قلت في نفسي هل لي من وصالك يا بنية! فكان كما رأيتم. ولها حوادث كثيرة مماثلة.

فما هذا؟ ومن أين لهذه البنت الفقيرة الجاهلة هذه القوة العجيبة؟ فهي كما أسلفنا أنها ليست كسبية إنما هي خلقية. فكانت تأخذ ما يدور بخلدي وخاطري أولاً بالطريقة اللاسلكية. ولما استعصى عليها الأمر أخذت اسم فياض مني بالطريقة السلكية أي بالاتصال، وذلك بوضع يدها على رأسي فحصل الاتصال الكهربائي بيني وبينها فولد عندها اسم بياض بسهولة أكثر. ولما كانت لم تسمع اسم فياض طيلة عمرها، حسبته بياض وهي معذورة. كما وأنها قد فهمت ما دار في رأس الرجل بسهولة. وعلمت مؤخراً أنها لم تعش طويلاً، فقد هلكت من الأمراض العصبية.

13 ـ قد يقع مثل هذا كثير. فقد جاء بمجلة المختار أن داننجر الساحر الأميركي العظيم قال لمخاطبه

إنك تفكر في رقم التلفون 706796. فقال المخاطب كلا اني افكر برقم 706797، فهزّ دانّنجر كتفيه استخفافاً وقال خطأ في رقم واحد. وعندنا أن المسبب لهذا الخطأ هو المخاطب نفسه لعدم تركيزه الرقم بفكره تماماً، فكانت وصية دانّنجر الدائمة لمن يريد أن يقرأ أفكاره أن يحصر فكره ما استطاع بالموضوع ويكرره بل ويجرد فكره عن سواه، وهي طريقة الفوّالين نفسها عندنا لـمّا يقولون لمخاطبهم «اضمر!» وذلك لإمكان سرقته. وقد قال دانّنجر مرة للرئيس روزفلت فكّر، ثم قال انك تفكر فلاناً أو فلاناً سيكون رئيساً للجمهورية بعدي، فقال روزفلت هذا صحيح. وقال للمستر كوردل هل وزير خارجية أميركا، إنك تفكر وتقول في نفسك يا ليتني أستطيع أن أقرأ أفكار زوجتي كما يفعل دانّنجر. فقال الوزير هذا صحيح.

14 ـ يقول الاستاذ «هوشكه» اننا نرى بواسطة المجهر في دماغ الإنسان من الانساج المختلفة ما يشبه الجبال والوديان والجسور والالتواءات والقباب والدمالج والمنحدرات والعصي والحشائش والخيوط... ما يعجز الفكر البشري عن حصره، وليس لها أسماء ولا نعرف شيئاً عنها.

وبما انه لا يمكن أن يكون عضو بدون وظيفة، فلا بد لهذه الجسور والقناطر... من وظائف خاصة لم يتوصل إليها العلم حتى الآن. فلم تعرف حقيقتها ووظائفها، وهي لم تزل في الحالة الابتدائية والأثيرية. ولعل ان يكون لنمو واحدة من هؤلاء نسبياً في دماغ إنسان ما وبطريقة الصدق سببٌ لإتيان الغرائب والعجائب وكل ما هو غير مألوف عندنا وفوق طاقتنا وتصوراتنا، فنعتبرها كرامة أو سحراً حيث الناس عاجزون عن أن يأتوا بمثلها.

15 ـ وقد يتطور الدماغ البشري بمرور الاجيال فتنمو هذه الأشكال الغريبة فيظهر الإنسان حينذاك من الأعمال والقوى ما لا نتصوره الآن. وقد يكون في هذا الكون العظيم قوى أخرى عظيمة الأثر غير الكهربائية مثلها أو أشد منها لم تستوعبها حواسنا الجسدية والنفسية في الحال الحاضر، وسنتمكن في المستقبل من اكتشافها عندما ينمو دماغ الإنسان ويتطور ويزداد حدة وشدة.

16 ـ كان يسمى من تكون عنده قوة الالتقاط والأخذ أو البث والإصدار حسب الأزمان والمعتقدات أولاً ساحراً، ثم تطورت إلى الكهانة والعرافة والوقوف على الغيب، وأخيراً الكرامات والكشف وغيره. ولما كسدت أسواق السحر والكهانة والكرامات في الأزمنة المتأخرة، قام بمحلها الفال والتنويم المغناطيسي والمانياتزم وقراءة الأفكار وراحة اليد والجميع واحد. فما من فرق بين المنوم العصري والشيخ الزاهد المطلع على الغيب عندما يسلطان انظارهما الحادة على أي شخص. فكلاهما يصدران من عينيهما التيار العصبي الحاد ما يجعل الشخص منقاداً لأوامرهما.

ذكر الطبري في تاريخه عن حوادث سنة 284 أنه كان في بغداد بعض المشايخ يعزمون على المجانين والمصروعين، فإذا سقطوا وصرعوا يسألون الجنيَّ عن بعض المسائل فيجيبهم. وهو ما يسمى في زماننا التنويم المغناطيسي نفسه.

17 ـ فما هذه العيون الساحرة؟ هي المنفذ الحقيقي الوحيد لبطرية الدماغ الكهربائية. هي المرآة الحقيقية لما يكنّه الشخص في أعماق نفسه وخفايا سريرته. هي مرآة الإنسان ومفتاح مكنوناته،

يلاحظ فيها اتساعها وضيقها وحركتها وسكونها وبريقها وخمولها واختلاجها وهدوءها، فيستدل منها على الصحة والمرض والخوف والوعد والوعيد والرضا والغضب والرغبة والرهبة والصداقة والعداوة. فمنها ما تقذف أشعتها كالشرر، ومنها ما تتألق في وجه صاحبها، ومنها ما تشع وهجاً هادئاً، ومنها ما تنعكس فيها الأفعال النفسانية كالجاذبية والحقد والحسد والمكر والدهاء، ومنها ساحرة نافذة فاتكة فاتنة قاتلة قاسية، ومنها راحمة دامعة هادية عاطفة، ومنها تدل على الحلم والدعة والسكون والطمأنينة أو الغباوة والبلادة أو الذكاء والفطنة، ومنها لتدل على الخبث والخيانة والشر والفتك، وفي غيرها قوة آمرة ناهية لتخضع من حولها من الناس، وأخرى غيرها لا يمكن التحدق بها طويلاً لحدتها وشدتها بما قد تصرع الإنسان وتكبله بل وتخفيه، فيضطر على غض النظر عنها حالا للتخلص من كهربائيتها الحادة المخيفة. وإن هذه الأخيرة وحدها هي التي تعنينا وتهمنا في موضوعنا هذا. وأما ألوانها، فقد تكون سوداء أو زرقاء أو رمادية أو بنية أو خضراء أو صفراء، فيعرف المرء من عينيه ما تنطوي عليه جوانحه وسرائره.

فإن ما تصدره هذه العيون من التيار الكهربائي قد تسخر الإنسان حيث تجعله أطوع من البنان، فيعتقد بما يملى عليه فاقداً شعوره طائعاً منقاداً ومغلوباً على أمره. وقد يلقي الخطيب والواعظ كلماته المتزنة الهادئة بنبرات متناسقة، ما يجعل سامعيه يعتقدون بكل ما يملي عليهم، وقد يثور ويتكهرب فيكهرب السامعين فينقادون لكلامه وبيانه مستسلمين قانعين صاغرين مسلوبي الإرادة والتفكير، فهم نائمون. وقد تستوجب الكلل والملل هذه الخطبة نفسها فيما إذا صدرت من فم خطيب آخر. ولهذا قال سيد الرسل «ان من البيان لسحراً».

18 ـ ولما كانت هذه الكهربية موجودة في كل انسان، وان شدتها بنسب متفاوتة عند الناس، فإن بعض الأشخاص حائزون على قسط كبير منها، وهؤلاء هم السحرة. وان تلقيناتهم لتسحر السامعين وتقلب عين الشيء وتخيل للرائي رؤية ما لا يرى. وهذا هو التنويم المغناطيسي. وقد تلين الاعين النجل القلوب كما تلين النار الحديد، فهي مملوءة سحراً وغنجاً ودلالاً، ما يجعل الرجل معها أطوع من البنان.

19 ـ وقد يبذل الساحر أو المنوم جهده لإجبار الشخص التحديق في عينيه لكي يرسل أشعته الجهنمية إلى قعر عينيه فيصرعه. وإذا غض المخاطب بصره للتخلص من الضنك والضيق المستحوذين عليه، فيوجه المنوم حينذاك نظره إلى جبهة المخاطب وأقواس عينيه وحاجبيه، ويكرر كلامه وأوامره ونواهيه بكلمات متقطعة متزنة واضحة حتى تؤثر وتنفذ في صميم وجدان المستمع، فيذعن عند ذاك مرغماً ويعتقد بصحة كل ما يقال له ويملى عليه وهو مفلوج الإرادة معطل الفكر والشعور، فهو مسحور. وقد تلين لنظرة المنوم أقوى الشخصيات وأعصى الطباع، فتصبح الناس منقادة لأقواله وإشاراته وأوامره ونواهيه، وتكون طوع مشيئته وإرادته، يبذلون النفس والنفيس بمجرد صدور إشارة منه، فيكون الشيخ الأعظم والزعيم الأكبر وقطب الأقطاب وقائد الأمة.

وصلت هذه الحالة من القوة عند بعض الأشخاص أن يسحروا جمعاً حافلاً بإشارة واحدة أو

بكلام واحد. فعندما خرج أحد السحرة الأوروبيين على المسرح، قال للجمهور المحتشد أمامه، نحن الآن في الساعة التاسعة، انظروا الى ساعاتكم. فنظروا، فكان كما قال، مع أن الساعة كانت حينذاك الثامنة فقط، وأن هذه الآلاف من الناس يعلمونها، إلا أنهم ناموا فانفلج تفكيرهم عند سماعهم هذا الأمر والتلقين، فرأت أعينهم ذلك وهم مسحورون بنظرة منه واحدة. ولا شك أن هذه العملية أعظم من عملية السحرة أمام فرعون.

فالعيون مركز السحر ومصدره. وما الساحر إلا من كانت عنده قوة البث والإصدار. وما النائم أو المسحور إلا من أضاع شعوره فوقف تفكيره تحت تأثير التيار الكهربائي.

20 ـ كان أحد الشيوخ أصحاب الكرامات قد أخرج من كمه بذرة وقال لمريديه، هذه بذرة بطيخة. قالوا نعم. فزرعها أمامهم وسقاها ماء. وقال لهم انها ستهرش، فهرشت. وقال انها ستثمر، فأثمرت. فقطع البطيخة وقدّمها لمريديه فأكلوا منها وهم معجبون بكرامته معتقدون أن قد ارتفع بينه وبين الله كل حجاب وأصبح يتصرف بهذا الكون كيفما يشاء لا يعوقه معوّق ولا تمنعه سنن الكون. فتخيل إليهم أنهم يأكلون البطيخ وهم لم يلعقوا سوى أصابعهم.

21 ـ يقول توماس هكسلي وهو من مشاهير علماء الطبيعة «إذا رأيت قطعات الحديد تسبح في الجو فإني خليق ان اعرف أن هذا يثبت وجود قانون للطبيعة أنا به جاهل».

22 ـ ولقد بذل علماء الإسلام جهدهم للمقارنة بين السحر والكرامات والمعجزات والكشف والرقي والإلهامات، وكتبوا الفصول الطوال حول هذه المواضيع، فقالوا ما خلاصته أن السحر هو قلب للأعيان وتبديل للطبائع وتخييل لأعين الناس برؤية ما لا يرى، وأجازوا للصالحين إتيان الكرامات واختراع الأجسام وقلب الأعيان وتبديل أو إحالة الطبائع، وأعطوا كل معجزة للأنبياء.

ولما كان السحر قد عرف بالشرق منذ زمن بعيد وقد ندد به القرآن وأصبح مكروهاً ومنقوراً عند العالم الإسلامي من الوجهتين الدينية والدنيوية، فمن وجد عنده فطرياً وخلقياً شيء من قوة البث والالتقاط الكهربائي لم يعد يسمي نفسه كما كان في الأدوار الجاهلية كاهناً أو ساحراً، إنما شرع يسمي نفسه شيخاً صوفياً أو صاحب طريقة. ولما كان تسعون بالمائة أو أكثر من هؤلاء الشيوخ جهلة أميين لا يحسنون القراءة والكتابة، فكانوا بعيدين عن الأحكام الشرعية والعلوم الدينية ولا يتقيدون بها.

23 ـ ومع هذا، ليس لدى هؤلاء الشيوخ من المدعيات ما تخالف الأحكام الشرعية الإسلامية الأصلية، فلذلك نظر رجال الدين الإسلامي إليهم بعين العطف والرضا وسكتوا عن شطحاتهم وتسامحوا في مدعياتهم. ولما كان لا يوجد بين الصالحين والمدّعين بالصلاح حد معين، انتشرت الدروشات وكثرت المشيخات في أنحاء البلاد الإسلامية. ولم يزل رجال الدين يعترفون بصلاحهم وتقواهم وولايتهم اضطراراً، فوضعوا لكرامات الأولياء والصالحين تعريفات مرتبكة كما مر اعلاه، لتفريقها عن السحر، ولإعطائها الصفة الشرعية اللائقة، ولتكون محترمة عند الناس. مع أنه لا يوجد من علماء الدين الاعلام من وصل إلى درجة الولاية وإظهار الكرامة وادعى بقلب الأعيان وتبديل الطبائع كأن تبديل حادثات الكون وتغيير سير العالم خاص بأولئك الذين يجهل اكثرهم آمور دينهم وقواعد شريعتهم.

24 ـ إننا نجزم أن ما ورد بالقرآن مراراً وتكراراً عن أحوال الصالحين، إنما يخص جهابذة العلماء المطلعين على النصوص الشرعية والقواعد الفقهية والعاملين بأحكامها والذين يخدمون الأمة الإسلامية بعلومهم في ما يتعلق بالأمور الدينية والزمنية، والذين يعبدون الله حق عبادته، ليس بنقر الدفوف ولبس المرقع والمسوح، إنما عن اطلاع وبيّنة، وكما يليق بذات الله يحلون ما احله الله ويحرمون ما حرمه الله كالصحابة الكرام وتابعيهم من دون زيادة أو نقصان. فإن أي عمل تبدي لا يتوافق وما جاء به الرسول الأعظم يعد بدعة وكل بدعة ضلالة.

ولا يفوتنا أن نذكر أن من بين رجال الدين الإسلامي من يعتبرهم الناس رؤساء المشيخات ونعتبرهم من أجلّ العلماء كأبي يزيد البسطامي وجنيد البغدادي وحسن البصري وأحمد الرفاعي والكيلاني ومحيي الدين بن عربي وعمر بن الفارض وأمثالهم كثير. فكان هؤلاء بالفقه من المحل الأرفع، حيث بلغوا درجة الاجتهاد، فلا يجب قياسهم مع بعض الشيوخ الأميّين المدّعين بالكرامات الذين نعنيهم.

25 ـ اننا لا نعلم من بين الصحابة الكرام والتابعين وتابعي التابعين ولا حتى من العشرة المبشرة، ثم من أبناء القرن الأول والثاني والثالث الهجري، من ارتفعت عنه حجب الكون وانكشفت له الحقائق المجردة وادعى بالكرامات الاطلاع على المغيبات، وأتى بالغرائب والعجائب كالتي يأتي بها هؤلاء الشيوخ منذ القرن الخامس حتى القرن الثالث عشر الهجري كالمشي على الماء والصعود إلى السماء ومسك الحيات وضرب السلاح والدخول بالنيران والاختفاء عن أعين الناس وأهل الخطوة وأصحاب الرؤية... إنما كان الشيء الثابت عندهم، ويتمسكون ويعملون به، هو قوله تعالى لرسوله الكريم: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك أن اتبع إلا ما يوحى إلي﴾ (50 ـ الانعام). وقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو﴾ (59 ـ الانعام). وقوله تعالى: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾. ولا يزيدون عليه شيئاً. وإذا كان ينسب إلى عمر بن الخطاب الكلام المشهور «يا سارية الجبل» فهو قول مجرد يحتاج إلى إثبات ولعله موضوع من قبلهم.

26 ـ وخلاصة الأمر هو انه قد يوجد عند بعض الأشخاص خلقة بعض القابليات منشؤها الكهربائية الحيوانية يتمكنون بواسطتها سرقة ما يدور في خلد المخاطب بالطريقة اللاسلكية أو التنويم المغناطيسي، فيخيل للناس ان هذا من قبيل قلب الحقائق وإتيان الخوارق وتسخير الدقائق. فمن كان لديه شيء من هذه القوة في الأدوار الإسلامية وخاصة في القرن الرابع الهجري وما بعده، اعتبرت أعماله كرامة فأصبح ولياً من أولياء الله وارتفعت قبته بعد مماته نحو السماء. فكانت ذريته مشايخ على طول الخط قائمين على حراسة الضريح المقدس يقبلون الهدايا والنذور ويعيشون على ما تدره عليهم الأوقاف وما يأتيهم من الهبات والصدقات والمبرات. فتأخذ المبالغات على يدهم مأخذها والمنقولات برواياتهم مكانتها، خاصة عند الغلاة والمبتدعة أصحاب الطرائق (ويقال ان في مصر 48 طريقة صوفية). وقد يتراشق مريدو الطرائق بعضهم مع البعض، هذا يقول شيخي أخذ زنبيل الأرواح

من يد عزرائيل وأعاد كل روح إلى جسدها، وآخر يقول أراد شيخي أن يطفىء نار جهنم ببصاقه، فحالت الملائكة بينه وبينها، والقوّامون على الضريح في بحبوحة من العيش الرغيد الهنيء.

27 ـ ان تاريخ أوروبا منذ القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن عشر الميلادي ويقابله القرن السادس حتى القرن الثاني عشر الهجري، وكما نجد الشرق نجد الغرب أيضاً، مملوء بحوادث السحرة والمشعوذين والأفّاكين، أولئك الذين كانوا يقلبون الحقائق ويبدلون الطبائع. ولما كانت الطقوس المسيحية لا تقبل الكرامة والولاية، ولم يتسامح معهم القسس والرهبان، فقد كافحهم رجال الدين المسيحي وطاردوهم أينما وجدوا وحلوا. فقد حكمت محكمة جنيف بإعدام أربعمائة ساحر مرة واحدة.

28 ـ وكان زعماء السحرة في أوروبا عادة من اليهود المضطهدين. فقد أنشأوا مختلف الجمعيات السرية في أنحاء أوروبا المسيحية ولحقهم ذوو الاطماع والأغبياء من الناس. وكلما زاد نفوذهم وانتشر أمرهم وقوي مركزهم، خلطوا السحر مع القواعد الاجتماعية فاختلقوا نظريات جديدة وقواعد معسولة وكلمات خلابة رنانة، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب كالحرية والمساواة والعدل والأخوة البشرية وحقوق الإنسان. وما كان قصدهم سوى التخلص من الاضطهاد والتساوي مع أبناء البلاد، فلحقتهم الشعوب المسيحية الأوروبية الساذجة واعتنقت مبادئهم من دون أن يعلموا ما وراء هذه الجمعيات والدساتير من مقاصد.

وكان اليهود السحرة يزعمون أنهم يفعلون ما يشاؤون في هذا الكون بمجرد تلفظهم اسم «بعلشم اسم الله الأعظم» فقد يلين كل شيء لإرادتهم ورغباتهم عند استعمالهم هذه الكلمة أو الاستنجاد بهذه القوة العظيمة، سواء بالتلفظ أو في كتابة الطلاسم ومخابرة الأرواح ومعالجة المرضى وممارسة أنواع السحر والشعوذات. وانتشرت آراؤهم وكلماتهم هذه في أنحاء أوروبا وقبلها منهم المسيحيون فاقتحمت حتى بيوت الملوك والأمراء والأغنياء، فاستخدمها هؤلاء لمآربهم السياسية والشخصية ولاقتناء الثروة التي كانوا بأشد الحاجة إليها. وكان «بعل شم ـ أو اسم الله الأعظم» سرّاً مكنوناً عند اليهود لا يستعملونه إلا عند الملمات.

29 ـ وجرف أوروبا سيل من السحرة، وأكثرهم من اليهود، خلال القرن السابع عشر والثامن عشر، أمثال كونت سان جرمان والكونت كاجيلوسترو وجابيتاي وهوها يلبرن ويسمى بحويل بن أورى ويعقوب فرنك مؤسس طائفة «اخوان الشعلة» في بودوليا ومارتيني باسكو مؤسس طائفة «اخوان الشعلة» في فرنسا وغيرهم. وأعظم هؤلاء جميعاً وأشدهم نفوذاً حاييم صموئيل يعقوب فرنك المشهور في أوروبا بالدكتور فرنك. فكان يزعم انه ذو قدرة خفية يستطيع بقوة «بعل شم» اكتشاف الكنوز المطمورة والوقوف على المغيبات وتسخير المستعصيات. ويروي تلاميذه والمسحورون بشعوذاته عنه قوى سحرية عجيبة وخوارق للعادات، وأنه يفعل ما يريد لا يصدّه حائل ولا يمنعه جدار.

30 ـ اشتهر أخيراً في أوروبا سنة 1863 شخص اسمه «المستر دانيال دانجلاس هوم» وكان مسيحياً كاثوليكياً، فاق جميع من سبقه من الوسطاء الروحانيين بأعماله الخارقة للعادة وكان يغشى دور الملوك والأمراء والنبلاء، وأقام مدة طويلة في قصر التويلري عند الامبراطور نابليون الثالث واستهوى الملكة «أوجيني» مدة من الزمن وزار امبراطور روسية القيصرية مرتين وثم قداسة البابا بيوس التاسع

فشمله ببركته. فكان من جملة اعماله أنه يجلس بعيداً عن المائدة، وعندما يأخذه الوجد والاستغراق ينادي الأرواح فتأتيه من كل جانب فيستخدمها لمقاصده فتتحرك المائدة وتميل إلى أحد جوانبها ويرتفع غطاؤها المزركش عنها إلى الهواء فيسمع من حولها نغمات ونقرات متلاحقة تسحر السامعين. ثم ترتفع المائدة نفسها عدة بوصات عن الأرض وتهبط بسكون. وقد يعزف البيانو من تلقاء نفسه بألحان خافتة شجية بارعة. كل هذا وهوم في غيبوبة لا حراك به قد جمد دمه وابيض لونه وهو ثابت بمكانه.

وعندما شاع خبره في أرجاء أوروبا، قصده كل الوسطاء الروحانيين والهواة والمحترفين، فكان يستحضر لهم هالات من النور في سقف البهو تتجلى فيها وجوه وأيد وأقدام بشرية فينتشر من خلالها وزواياها أصوات وألحان ونغمات موسيقية روحانية تغشى السامعين وتورث الوجد والاستغراق، فيهب عند ذاك نسيم بارد عليل فيستولي النعاس على الحاضرين. وبينما الناس في هذا الاسترخاء والاستهواء، إذ قد ترتج الأرض وتميل الجُدُر وتتقلب الموائد كأن زلزالاً عنيفاً هز الأرض هزاً ورجها رجاً، فتظهر في سقف البهو سحب مضيئة فيها رعد وبرق تتجسم من خلالها رؤوس وأيدٍ بشرية فتدق الأجراس وتلحن القيثارات والآلات الموسيقية فتسمع النغمات الحزينة المخيفة من كل جانب، وتضطرب ساعة الجدار فتضرب جرسها على غير هدى. وبالأخير، يرتفع دانيال هوم عن الأرض حتى يلمس بيده السقف ويبقى مدة معلقاً بالهواء من دون مستند ثم يعود إلى الأرض.. وقد يدخل رأسه في اتون من نار من دون أن يحترق من رأسه شعرة، أو يأخذ الجمر بيده فيقلبه بكفيه ذات اليمين وذات الشمال من دون أن تصاب أنامله بعطب. وقد يعطي الجمرة إلى من بجانبه فيقلّبها هذا أيضاً بيديه وهي باردة لا حرارة فيها. وأمثال هذا كثير.

وبينما كان باباوات رومية يطاردون المشعوذين والسحرة والأفّاكين ويحكمون عليهم بالموت الزؤام بالمفرد وبالجملة، فان هوم اعتبر من الروحانيين القديسين، فشمله عطف البابا بيوس التاسع فاكتسب قداسته. إلا أن المحكمة المدنية في بريطانيا أصدرت حكمها في دعوى مقامة عليه بأن «أعماله هذه خطة مرسومة لخداع المغرورين والضعفاء والحمقى والمؤمنين بالخرافات» وألزمته بإعادة النقود المأخوذة من المستر ليون!

31 ـ وكان من أجلّ علماء الطبيعة حينذاك الاستاذ وليم كروكس يقول «إن الروحانيين يقولون ان غرفاً ومنازل تهتز بفعل القوة الروحانية. وأما العالم فيريد أن يرى تحريك رقاص ساعة جدار موضوعة في غلاف زجاجي حيث لا يؤثر التنويم المغناطيسي عليها». وعندما شاهد كروكس ارتفاع جسم دانيال هوم بالهواء من دون ما مستند وتقليبه النار بأيديه وصدور الأنغام والألحان الشجية والحزينة من بيانو لم يمسه بشر... الخ، قال إن بالوجود البشري قوة غير اعتيادية كامنة فيه على صورة مجهولة يمكن تسميتها بالقوة الروحانية أو غير ذلك. وان هوم أكثر الناس امتلاكاً لهذه القوة المجهولة. وكان يقول كروكس، ان الظواهر التي شاهدتها تخالف المبادىء العلمية كقوة الجاذبية مثلاً، وان عقلي يحكم ان هذه الظواهر مستحيلة الوقوع إلا أني رأيتها بعيني ومسستها بيدي ولم تكن كذباً.

فنقول: لقد فات كروكس أنه كان في حالة الاستغراق ونائماً لا يعي.

32 ـ لا نود التدخل وإعطاء التفصيلات عن ماهية التأثير المغناطيسي «المانيانزم» والتنويم «الاينوتيزم»... فقد دخلت هذه الابحاث ضمن نطاق العلم والفن. وقد كتب عنها الكثير. وقد يستخدمها الأطباء في معالجة الأمراض العقلية والعصبية ويستعملها المشعوذون لجر المغنم.

33 ـ يقول محمود شكري الآلوسي: وليت شعري لم اختصت الكرامة بمسك الحيات والعقارب والضرب بسلاح مخصوص واللعب بالنار فلا وقفوا امام المدفع فدلع لسانه عليهم وأطلق كراته على وجوههم لنرى كراماتهم حينئذ أين تبقى؟ هذا هو كلام رجل الدين. فنقول ان هذا تكليف شاق بل نكلفهم بأسهل منه ألا وهو مسكهم السلك الكهربائي عوضاً عن اللعب بالنار، وحقنة قطرة واحدة من السيانور عوضاً عن لسع الحيات المخوفة، وقذيفة يدوية صغيرة عوضاً عن قنبلة المدفع؛ ولا نقترب إلى القنبلة الذرية، فهي صعبة عليهم ونرى حينذاك أين تبقى كراماتهم؟

الفصل الثاني المعتقدات

1 ـ عندما عرف الإنسان البدائي نفسه وفكّر وقدّر ثم قدّر وفكّر أكثر فأكثر، خاف من الشرور المحيطة به من كل جانب، ولم يعلم أسباب الحوادث والمؤثرات، فاستولى عليه الجزع واتسع عنده الخيال وكثرت لديه الوساوس والأوهام. وتحت هذه العوامل التجأ إلى من اعتقد بأنه أقوى منه، وفي استطاعته أن يحميه وينقذه من هذه الآفات والشرور والعلائم السماوية والأنواء الجوية والأمراض والأسقام وأخيراً الموت المبكر، فالتجأ أولاً إلى رئيس قبيلته، ثم إلى الشيخ أو الملك أو الإله. وكان بالتجائه هذا إلى من اعتقد بقوّته وسلطانه قد طمأن بعض رغباته وأراح باله، فتوجه إليه بكل قلبه وقواه وكان هذا مبدأ الاعتقاد.

وكان كلما اتسع عنده الخيال كثرت الأوهام والخيالات والوساوس، وكلما تكررت أمامه الحوادث تنوعت المعتقدات حتى ظهرت المعتقدات الوثنية أولاً، ثم الدينية. والأساس فيهما الخوف والرجاء والوعد والوعيد. فكانت هذه المعتقدات منذ الإنسان البدائي حتى العصر الأخير السببَ الفعّال في تبديل صحائف التاريخ.

2 ـ فالمعتقدات هي إيمان يستقر في قرارة النفس، تسوق الإنسان إلى العمل من دون تفكير وتمحيص على قبول أيّ طريقة أو مذهب أو فكرة. وبعد أن كان مصدرها الفكر خرجت عليه وأصبحت في معزل عنه، بل أقوى منه حيث لم يبق للفكر والعقل تأثير على المعتقدات إلا القليل.

وليس في المعتقدات شيء من التأمل والملاحظة والتدقيق وأعمال الروية والفكر. كما وأنه لا يطلب منها توافقها مع العقل والمنطق، بل يجب قبولها كما جاءت. فكانت هي والعلم والمعرفة والبرهان على جانبي نقيض. فلا يقال مثلاً كيف انفلق البحر لبني إسرائيل، أو كيف كان الانبثاق، أو كيف تكلم عيسى بالمهد، أو كيف حصل انشقاق القمر ولماذا ضحى الإله ولده، أو لماذا كان سيد المرسلين خاتم النبيين... الخ.

ان هذه الأسئلة وأمثالها في مختلف المعتقدات الدينية، قد ساقت أحد علماء المسلمين إلى أن يقول «اللهم إني اسألك إيماناً كإيمان العجائز».

3 ـ تقسم المعتقدات الدينية إلى: روحية ووثنية. فأما المعتقدات الدينية الروحية، فهي تشمل (1) الديانات الإلهية التوحيدية وهي: الزرادشتية والبوذية واليهودية والمسيحية والإسلامية، و(2) عبادة الأرواح والاسلاف وهي منتشرة بين الأمم المنحطة. وأما المعتقدات الدينية الوثنية، فهي تشمل عبادة الانصاب والتماثيل والأوثان والأصنام المصنوعة من الأحجار والأشجار والأخشاب المنصوبة في المعابد والهياكل ورؤوس الجبال، وهي منتشرة في بقاع الأرض، خاصة في افريقيا وجزائر الهند الشرقية. وقد ضل كثير من أصحاب المعتقدات الدينية الروحية التوحيدية فأقاموا لهم معابد وهياكل للتعبد والاستغاثة، واتخذوا لهم أبطالاً بشرية ليكونوا وسائط بين الله وبينهم وخرجوا عن دائرة التوحيد والتنزيه فوصلوا إلى عبادة الرموز والاوثان مع بقائهم إلهيين موحِّدين بالاسم فقط.

4 ـ وإذا كانت المعتقدات الدينية لا يشملها الاثبات والدليل والبرهان فما أسهل والحالة هذه من ابتكار المعتقدات واتيان المدعيات طالما ليس لها، ولا يطلب عنها، دليل وإثبات، واختبار وامتحان، وليس فيها ولا يطلب منها توافقها مع العقل والفكر والتأمل والتجارب والبرهان والفحص والتدقيق... الخ. فيدعي أحدهم مثلاً أنه هو الله اتخذ الهياكل البشرية ليظهر أسمى صفاته، وآخر أنه هو الله حيث لا يجوز للبشر الاعتقاد بإله لا يُرى، وآخر يقال عنه انه ابن الله تجسّد لحمل خطيئة البشر، وآخر انه صعد إلى السماء وأخذ شريعته من الله، وآخر ثلثاه إله وثلثه انسان [جلجامش]، وآخر انه الباب، وآخر انه من أهل الخطوة والحظوة وطيّ الزمان والمكان، وآخر انه صلى الظهر بمكة والعصر ببغداد والعشاء بسمرقند، والآخر انه مشى على الماء ومزّق الجبال وتكلم مع السباع، وآخر ادعى أن اسم الله الأعظم مكوّن من 73 حرفاً، كان النبي سليمان يعلم حرفا واحداً منه وبه صنع معجزاته، وعند الشيخ المدعي 72 حرفاً وقد استأثر الله بحرف واحد منه خلق به العالم، وآخر يدّعي أنه بيت الرحمة ومفتاح الحكمة، والآخر يقال عنه إنه ما مات ولا يموت وسيعود في آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وآخر وآخر... وهذه أمامنا مختلف المعتقدات منذ العصر الفرعوني الأول حتى يومنا هذا، وفيها شتى المدعيات ومختلف الموضوعات وليس فيها كلها شيء واحد يطابق العقل والمنطق، إنما كلها تستند على المدعيات والمنقولات والعنعنات والروايات. ومن الغريب أنها تجد لها من يعتقد بها.

5 ـ والعجيب أن كلاً من أمثال هؤلاء المدعين يدعي انه صاحب الحق فيتبعه ملايين من الناس. ولا يحاول أحد من هؤلاء الملايين المؤمنين أن يسأل المدعى وصاحب الدعوة دليلاً أو برهاناً على صحة ما يدعيه. ولو كان عنده دليل أو برهان واحد معقول لانتهت المشكلة وزالت الاختلافات، والناس يركضون وراء ما ورثوه من الآباء والأجداد من المعتقدات وما لفقه لهم رجال الأديان من دون أن يطلب منهم ما يدرك بالحس ويفهم بالعقل أو يستند على النص القاطع. ولذلك نرى اليهودي لا يبغي عن يهوديته بديلاً، والمسيحي قابض على صليبه مستميت بتثليثه، والمسلم يسفك دمه بالظاهر في سبيل الله وفي الحقيقة في سبيل توطيد عرش خليفته وإمامه، واليزيدي يقاتل تحت لواء شيطانه، والهندي يموت قرير العين تحت أقدام بقرته، والزنجي يتضرع إلى ملنكو إلهه... الخ. ولا يوجد بين جميع هذه المعتقدات ما هو مستند على الدليل والبرهان.

6 ـ ولو كانت المعتقدات الأساسية وحدات مستقلة لهان الأمر. فان الإسلامية وفيها سبعون فرقة أو أكثر، كل واحدة منها تناهض الأخرى وربما تكفّرها وتدّعي أن الحق بجانبها. والنصرانية واليهودية والبوذية مثل ذلك، فأين هو الحق؟ وأي منها هو الصحيح؟ والحقيقة هي أن الفرد يولد على الفطرة ثم يلقنه أبواه واصدقاؤه ما درجوا عليه من معتقدات، فيرسخ في فكره ما سمعه في طفولته من أبويه ومن إخوانه ومن أصدقائه ومن محيطه، فيوحّد ويثلّث ويعبد الشيطان... ولا يوجد من ملايين البشر من بدل دينه ومذهبه عن اعتقاد راسخ، إنما أفراد قلائل يعدون على الأصابع بدّلوا دينهم لغايات معيّنة ولمقاصد خاصة.

7 ـ وإذا كانت وطأة المعتقدات الدينية قد خفّت في أوروبا، فقد أخذت بمكانها معتقدات جديدة أخرى كالمذهب الاشتراكي والديموقراطي والشيوعي والفوضوي والنازي والفاشستي وغير ذلك من المذاهب

الاجتماعية والسياسية المعاصرة. فقد بذل الكوريون الشيوعيون أرواحهم بسخاء في سبيل معتقداتهم مثلاً، فكأن البشري لا يمكنه أن يبقى من دون معتقد.

8 ـ وبعد أن تتغلغل المعتقدات في صميم وجدان المعتقد بالتلقين والتكرار والاغواء، يؤمن بها إيماناً أعمى حيث لا يمكن صده عنها. فيعتقد أنه خلافاً لسائر الناس، قد قبض على الحقيقة الناصعة كاملة غير منقوصة، وهو يجهل ان في كل حقيقة عدداً من الأخطاء. وكثير من أصحاب العقائد الراسخة بذلوا أرواحهم في سبيل معتقداتهم، مع ان كلمة واحدة يلفظونها كانت كافية لحفظ أنفسهم وخلاصهم من الموت المحقق، إلا أنهم فضّلوا الموت على الحياة دون تلك الكلمة. ومن أغرب ما يرويه التاريخ في هذا الباب حكاية أبي جعفر محمد بن علي الشلمغاني عندما ادعى الألوهية وحلول الجزء الإلهي فيه، فكان قد أحضره الإمام الراضي بالله الخليفة العباسي مع تلميذه إبراهيم بن آبي عون، وكان قد اعتقد بألوهيته. وعندما عرض الراضي عليهما التوبة مدّ إبراهيم يده إلى لحية إلهه الشلمغاني ولثمها وقال معاذك ربي وإلهي وسيدي ورازقي أن اتركك في هذه الساعة الرهيبة. فأمر الراضي بصلبهما وإحراقهما.

وفي التاريخ الإسلامي أمثلة كثيرة كهذه، وأشدّ هؤلاء تفادياً وأكثرهم اندفاعاً الخوارج أمثال ابن ملجم والصوفيون أمثال الحلاج والفوضويون الشعوبيون وغيرهم كثير. والتاريخ العام مملوء بحوادث الذين بذلوا أرواحهم في سبيل معتقداتهم المفرطة الغريبة من كل ملة.

وقد وصل الاعتقاد لدرجة أن حارب الولد أباه والأخ أخاه بلا شفقة ورحمة، وكان الوالد يذبح ولده والولد أباه في سبيل معتقده وللتقرب إلى عوامل خفيّة أو قوى علوية اعتقد بوجودها وآمن بقدرتها وخاف من غضبها أو طمع بنعيمها، الأمر الذي يدل على تغلب العاطفة الدينية على القوى العقلية.

9 ـ والأنكى من هذا أن المعتقدين لا يقبلون نقداً لمعتقداتهم صحيحة كانت أم مخالفة حتى لأحكام دينهم الأصلي. فقد يعمى المسيحي عن إنجيله والمسلم عن قرآنه عند اصطدامه بالمنقولات الصبيانية والروايات المتكررة، تلك التي لا يقبلها المنطق الديني ولا العقل السليم، كالاعتقاد ببيع أذرع من الجنة، وبعصمة بابوات روما، ومقدرة القديسين والأولياء والصالحين على تبديل سنن الكون، وتدخّل الموتى في شؤون الأحياء وفي أمور البشر ومعاملاتهم اليومية، وملامسة أيدي الملوك، والتبرّك بمخلّفات الآباء ومسح الوجه بستائر الأولياء لنيل الشفاء، وشفاعة الشفعاء والأولياء والشهداء والشيوخ والأبدال الأبطال والأقطاب فيتمسّكون بهم تبعاً لما أملاه عليهم رهبانهم وقساوستهم وشيوخهم ورؤساؤهم، فيعيشون في جو مملوء بالأرواح. فلا حركة ولا سكون إلا بأمرهم، ولا جنة إلا بشفاعتهم ودلالتهم، ولا جهنم إلا بمشورتهم ورغباتهم. وهم محور هذا العالم، وعماد هذا الكون يتدخلون بالشؤون البشرية ويقضون بالاختلافات الزمنية، ويزيدون الأرزاق ويمدون الآجال ويمنحون للنساء العقيمات الأولاد، ويبطشون بالمخالفين، ويهلكون المعتدين، وينتقمون من الظالمين، كل هذا من وراء ستار من بطن اللحود، وهي شنشنة قديمة عند الأمم والأقوام البائدة منذ المصريين والسومريين واليونانيين والفينيقيين

والبابليين... وهي كما هي في العصور المتوسطة وحتى في المتأخرة، وكلها شيء واحد. وهي في نظر المعتقدين حقيقة ساطعة لا تقبل النقد والجدل، فلا تؤثر فيهم الأدلة العقلية ولا حتى نصوص دينهم الأساسي.

10 ـ يقول أحد فلاسفة اليونان القدماء ـ ولا اتذكر اسمه ـ ان الشريعة المصرية تجيز أخذ الأخت كزوجة وتحرّم أخذ البنت. وإن الشريعة المادية «الفرس» تجيز أخذ الأخت والبنت والأم (المزدكية)، بينما الشريعة اليونانية تحرّمهن جميعاً على الرجل؛ فأيّ من هذه الشرائع هو الصحيح؟ ويقول أيضاً ان المصريين يحنّطون موتاهم بانتظار عودة الروح إلى الجسد مرة ثانية، وإن الماديين يضعون جثث موتاهم في رؤوس الجبال وتحت أشعة الشمس حتى تأكلها الطيور وتتفسّخ؛ وإن اليونانيين يدفنون موتاهم في بطن الأرض؛ فأي من هذه الأعمال هو الصحيح؟ وأين هي الحقيقة الناصعة؟ وكل من هذه الأمم يدعي أن دينه ومعتقده الصحيح. والخروج على ذلك الدين والمعتقد يستوجب الموت!

ولقد تحيّر المعري من أمثال هذه المتناقضات فقال:

في اللاذقية ضجّة ... ما بين أحمدَ والمسيح
هذا بناقوس يدق ... وذا بمئذنة يصيح
كل يحبذ شرعه ... يا ليت شعري ما الصحيح

وقال أيضاً:

عجبت لكسرى وأتباعه ... وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى إله يُضا ... م ويُظلَم حياً ولا ينتصر
وقول اليهود إله يحب ... رشاش الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصي البلاد ... لرمي الصخور ولثم الحجر
فوا عجباً من مقالاتهم ... يعمى عن الحق كل البشر

ومن المحقق، أنه كلما تقدم الإنسان في سبيل التمدن والحضارة واطّلع على نواميس الكون سينبذ المعتقدات الخاطئة شيئاً فشيئاً حتى تنحصر معتقداته بأشياء معينة بسيطة فقط وهي «الله» وحده ولا قولَ لغيره.

الفصل الثالث الإرادة

1 ـ تناول رجال الأديان كلمة الإرادة فاعتبروا الإرادة الكلية هي «إرادة الله » الخالق، واعطوا الإنسان الإرادة الجزئية ليفرق بها الخير من الشر، وجعلوا الخير هو التمسك بالأوامر الإلهية واتباع الشرائع الدينية، والشر من أعمال «اهرمن» أو «مارا» أو «ابليس» أو «الشيطان» وهو مخالفة الأحكام الشرعية والأوامر والنواهي الإلهية.

2 ـ يدعي بعض الفلاسفة أن الإرادة ليست فطرية ولا غريزية عند البشر وليست ممنوحة ولا موهوبة لهم، كما وانها ليست ثابتة وبمقياس واحد عند الأفراد. فقد تختلف قوتها ودرجتها، نظراً لتكوين الشخص وقابلياته ومداركه وذكائه وثقافته ومصلحته وفائدته، والمحيط الذي هو فيه. فقد تظهر في بعض الأشخاص صفات الميل للعدل والحق والرحمة والاشفاق والمروءة والأخلاق الحميدة وحب الوطن والتنازل عن المنفعة الشخصية لخير المجتمع... وبالعكس، قد تتضاءل بل وتختفي هذه الصفات والميول، وقد تنقلب إلى الشرور عند الشخص نفسه فيما إذا عاشر جماعة السوء أو عاكسته الظروف القاسية، أو تغلبت عليه العواطف والأطماع والمغريات، أو عند رضوخه لمن يفسد عليه مواهبه وذكاءه ووطنيته بالإغراء والتهديد والتخويف، فترتفع تلك الميول الحسنة ويحل محلها الظلم والغدر والحقد والكيد والخيانة والطيش والخسة والغضب، وشتّى الصفات الخسيسة والدنيئة والرذيلة، فترسخ في نفسه حيث لا يمكنه التخلص منها مهما سعى ضدها وأعمل من حيلة.

3 ـ وقد يقتبس الطفل من دار أبويه الأخلاق والعادات الحسنة أو السيئة وحتى الألفاظ والكلمات النبيلة أو الرذيلة تبعاً لما يراه ويسمعه في حداثته من أهله في بيته، ومن اصدقائه في مدرسته، فيشب ويكبر في ذلك الوسط وفي تلك البيئة فتنمو معه أخلاقه وميوله فيكون صالحاً أو طالحاً. وقليلون هم أولئك الذين يستخدمون عقولهم وإرادتهم فيتجهون نحو الأعمال الخيرية رغم تربيتهم الابتدائية السيئة، الأمر الذي يدل على أن الإرادة ليست فطرية ولا ثابتة، إنما هي مجهودات عقلية تتناسب مع تربية الإنسان وميوله ومحيطه، وهي مكتسبة ومن الأعمال الذهنية وليست موهوبة ولا ممنوحة.

فقد يغامر الشاب ويقتحم كل صعوبة في الحصول على رغباته، وقد يسوق القائد الأفواج في ميدان الحرب إلى الموت تباعاً في سبيل شجاعته، ويحب البخيل المال حتى رمسه، ويبتعد الكسول عن العمل جهد امكانه، ويركض الحريص وراء الشهرة فوق طاقته، ويستمر الشيخ على جمع المال حتى موته، ولا خوف الإله ولا تضرعات البشر ولا نحيب النساء وبكاء الأطفال يؤثر في قلب المجرم والسفاك والسارق والحقود والقاتل... فإن الإرادة لا تعمل مفعولها في أمثال هؤلاء الناس إلا قليلاً.

4 ـ وأما القسم الآخر من البشر وهم أصحاب القلوب الطيبة الرقيقة، فقد تتبدل رغباتهم وميولهم بسرعة وتتغير إرادتهم بسهولة حتى من كلام فصيح أو من شعر بليغ أو من تملق وبكاء وتضرع ورجاء، وحتى من تبدل الهواء وحرارة الطقس والانفعالات أو المؤثرات الطبيعية كالعواصف والزوابع. وقد

يترك بعض الأشخاص عزمهم ونواياهم، ويتحولون عن قصدهم ومراميهم لأسباب تافهة، وهو ما يسمى بضعف الإرادة. وكثيراً ما يرتكب بعض الأفراد الأخطاء ثم يندمون على ارتكابها.

وفي حالات أخرى قد يعجز الذكاء والعقل والدين عن ردع الكبرياء وزجر الغرور ومنع الطفرة أو اكتساب الثراء باللصوصية والارتشاء أو ارتكاب الجرائم لمقاصد ذاتية أو لأسباب خسيسة دنيئة والميل لاكتساب الشهرة والشرف في الميادين المختلفة. ففي مثل هذه الحالات وأمثالها كثير، لا تؤدي الإرادة الجزئية وظيفتها لتفريق الخير من الشر والصالح من الطالح إلا بمقياس قليل. كما وانه ليس هناك من قوة خارجية زاجرة تستطيع رفع هذه الميول من البشر. وقد يعد لها شيء واحد فقط وهو التربية الصحيحة التي تقوي الإرادة والعزم في الإنسان.

5 ـ ومعنى الإرادة هو القرار الصادر بعد التفكير أو عزم الإنسان على القيام بعمل ما وتنفيذ هذا العزم. ومن وظيفتها ترجيح أحد الطرفين. ويكون هذا العزم وذلك القرار تابعين لعقلية الإنسان وتجاربه في الحياة وتربيته ومحيطه وإقليمه ووسطه الاجتماعي ونزعاته الوراثية وما يحيط به من الظروف. وما الجناة والمجرمون إلا الضعفاء بالروح والإرادة والتفكير والتربية والعلم. وأما المثقفون بروحهم وعقولهم، فقد يتغلبون على الصعوبات وتكاليف الحياة مهما استعصى عليهم الأمر وضاق عليهم الباب. فقد يجدون منفذاً للدخول والخروج من دون أن يرتكبوا أعمال الشر والمخالفات والجرائم والسرقات.

كانت الإرادة عند قطّاع الطرق والغاصبين لأموال الناس والسرّاق وأشباههم متأثرة بالتربية الابتدائية والوسط المحيط. وأما الناضجون بعقولهم فيجدون وسائل للولوج والخروج. ولا ريب في أن من بين المتعلمين والمثقفين من هو اكثر شراً من الجهلاء. فيجب تحري التربية الابتدائية عند أمثال هؤلاء المثقفين. فهؤلاء بالرغم من ثقافتهم العالية قد تدفعهم اطماعهم وميولهم إلى الطفرات واتباع الطرق غير المشروعة لكسب المال والإثراء رغم ما لديهم من مال كثير وثراء وفير. وقد تسوقهم أطماعهم حتى إلى ارتكاب الجرائم وقتل النفس. وبتعبير آخر، فإنهم يستخدمون عقولهم وعلومهم للوصول إلى غايات خسيسة لا تمتّ إلى فضيلة العقل والعلم بسبب. فهؤلاء مجرمون وجناة بالروح وبالأصل وبالطبع. وأما النبلاء، فأولئك الذين يموتون جوعاً ولا يمدون أنظارهم وأيديهم إلى أموال غيرهم، لا يرتكبون المحرّمات ولا يرتشون مما قد يسبّب هضم حقوق الغير. ولما كان الفساد يدب عادة من الكبير إلى الصغير، فقد يقلد التابعون متبوعيهم بالنزاهة والاخلاص أو في الفساد وسوء الأخلاق فيكيف الفرد نفسه تبعاً لمحيطه ووسطه واحتياجاته وما يحيط به من عوامل.

6 ـ يظهر مما سبق أن الجاني بالخلقة قد يرتكب جريمة القتل لاكتساب بضعة دنانير أو لمجرد التشفي والانتقام أو بدافع الحقد أو للوصول إلى مركز عال أو لغايات تافهة، ولا يبالي بما يحيق غيره من الآلام والأضرار والمحن والأكدار.

7 ـ وبعد، فكيف يستطيع الإنسان وهو ليس متساوياً بالخلقة والتكوين والتربية الابتدائية والوسط والمحيط والثروة والأقليم والاحتياج والتفكير... أن يستعمل إرادته ليميز الخير من الشر فيميل إلى جانب الخير عن بيّنة ويبتعد عن الشر عن علم ورويّة؟ فلو ان الإرادة متساوية عند البشر بقوّتها

ونسبتها، وأساء شخص ما استعمالها، لوجب توجيه اللائمة إليه. إلا أن الاحتياجات الكثيرة والأوضاع والظروف المختلفة وتكاليف الحياة والعواطف والمغريات قد تسوق بعض الناس إلى عمل الشر رغم ارادتهم.

8 ـ كان قد ارسل لي مكتب المستخدمين في بغداد أثناء الحرب العالمية الثانية خادماً رث الثياب أشعث أغبر قد عضه الجوع بأنيابه بقصد إطعامه وإشباعه وتخليصه من حالته التعسة باجرة زهيدة. فاستحم ولبس الأثواب النظيفة والجوارب والحذاء ثم أكل وشبع واستعاد صحته وقوته وشبابه ونشاطه، فنظر إلى هندامه فأعجبته نفسه ونظر في المرآة فراق له وجهه، واحتاج إلى دراهم اكثر فشرع يسرق السكر من الدار وصار يقامر بثمنه أو يعطيه لخليلته، فطردته لأنه جاهل لا يستطيع تقدير احساني، وبليد لا يفرق بين الخير والشر، وغبي لا يتذكر ما كان عليه من الفاقة والاملاق، ولا يحسب للمستقبل حساباً. فهل هذا البائس سيتعظ من الحوادث الماضية ويلزم جانب الصدق والاخلاص في عمله ويتجنب السرقة والخيانة فيما إذا دخل داراً أخرى؟ الجواب: لا. فقد ارتكب جريمة ثانية مشهودة مماثلة لتلك في دار أخرى وثبت عليه الجرم فأودع السجن، وما ذلك إلا لأنه لا يستطيع التمييز بين الخير والشر، كما وانه لم يتلق التربية الصحيحة في طفولته لا من أبويه ولا من حكومته. فقد ولد في وسط موبوء، ونشأ بين السفلة والمجرمين، وعاشر المقامرين والحشاشين والمتشردين، فكان أحدهم ولا يؤمل منه أن يكون أكثر صلاحاً وأعز جانباً وأشد غيرة واخلاصاً مما هو عليه، فكان من الأجدر تسليم أبويه والرجال الذين كانوا موكلين على تربيته الى الشرطة لإهمالهم هذا المخلوق البائس. ولو كان قد وجد التربية الصحيحة في طفولته ونشأ بين الطلاب وصفوف المدارس، لأصبح من خير خلق الله ولاستفادت منه البشرية والهيئة الاجتماعية أعظم فائدة.

وإذا كان رجال البرلمان البريطاني اولئك الذين أداروا في وقت دفة سياسة العالم لا يحصل الخير عندهم إلا بحصول 313 صوتاً ضد 312 مخالفاً، فلا تثريب على الخادم فيما إذا اخطأ بتقديره ما هو خير وما هو شر له.

9 ـ وأما الإرادة الجزئية المفروض وجودها في الإنسان من الوجهة الدينية لغرض التفريق بين الخير والشر وخاصة في الديانة الإسلامية، فإن الإرادة الكلية هي إرادة الله وهي إحدى صفاته الذاتية. وقد اعطى المتكلمون ورجال الدين الإسلامي للإنسان الإرادة الجزئية مؤخراً ليصبح اعتبار الإنسان مسؤولاً عن أعماله. وثار بسببها جدال عنيف بين المعتزلة والجبرية دام مئآت السنين أساسه: هل ان أعمال العباد مخلوقة لله أم مخلوقة للعبد؟ فالمعتزلة يقولون إن العبد يخلق أفعاله بمعنى أن للإنسان إرادة سميت جزئية يميز بها أعماله من خير وشر. وأما الجبرية فيقولون إن الأعمال والحركات والأفعال خيرها وشرها تعود إلى الإله الخالق وليس للإنسان حق خلق الأفعال. يستندون بذلك على بعض آي الحكيم من جملتها قوله تعالى: ﴿قل كل من عندالله ﴾. وقوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾. وقوله: ﴿إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾. وقوله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ وقوله تعالى: ﴿ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ (ابراهيم). ويقولون ان العبد مسيّر وليس مخيّراً، وجعلوا من قواعد الإيمان «خيره وشره من الله

تعالى» حيث يكررها المؤمنون بكرة وعشياً، ويقولون: لقد انقسم الناس إلى مسلمين ونصارى ويهود وصابئين وزرادشتين وبرهمين وبوذيين بقضاء الله وإرادته ولا مناص لهم من ذلك ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ (النمل).

وعند هذا الحد تثار مسألة من أدق المسائل، فإذا كان «الكل من عند الله » فلماذا النعيم والعذاب والحساب والكتاب؟ ولماذا يعذب «أبا لهب» وقد حكم عليه غيابياً وقبل أن يظهر البشر على وجه الأرض بالكفر وعدم الإيمان لسيد الرسل؟ وهل كان في وسعه أن يستعمل إرادته الجزئية ويؤمن برسالة سيد الرسل؟ فإذا آمن يكون قد أبدل القدر ولم تتحقق الآية القرآنية وإن لم يؤمن فيكون قد حكم عليه غيابياً وهو لا يدري ولا ذنب له بذلك. وما يقال عن أبي لهب يقال عن ابليس. فلو كان قد سجد لعارض المشيئة الإلهية الأزلية، فكان عدم السجود مقدّراً عليه من الأزل؟ وكذلك بالنسبة لآدم الذي عصى ربه وأكل من الشجرة الممنوعة، وكذلك الأمر بالنسبة للقواعد الدينية والاجتماعية ما هو مقدر عليه منذ الأزل ولا قيمة لشخصه طالما لم يكن إلا واسطة لتطبيق المقدر عليه وان عمل إرادته وقرر ان السرقة حرام وامتنع عن اتيانها فيكون بذلك قد كذب آيات الله ... فكيف العمل.

10 ـ وبالرغم مما أورده زعماء الفرق الإسلامية على اختلاف مذاهبهم وآرائهم الدينية والفلسفية، فإنهم لم يتمكنوا من إيضاح هذه المشكلة العويصة بأساليب العقل والمنطق وضمن دائرة الشريعة الإسلامية. والسبب في ذلك وجود بعض الآيات القرآنية التي يستند إليها الجبرية كالمحررة أعلاه، ومنها ما يستند إليها المعتزلة كقوله تعالى: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، وقوله: ﴿ومن يعمل سوءاً يجزى به﴾، وقوله: ﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾، وقوله: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾، وقوله: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى﴾، مما تجعل الإنسان حراً في عمله وتطلب منه تقدير الخير وعمله والشر واجتنابه. فأي الطريقتين يجب الأخذ بها والعمل بموجبها؟

يعتقد الفيلسوف ابن رشد انه قد حل المسألة بقوله «إذا نظرنا إلى الأسباب الخارجية قلنا إن الإنسان مجبر، وإذا نظرنا إلى الإرادة وحدها وجدنا الإنسان مختاراً. وبهذا يمكن الجمع بين الآيات المختلفة». إلا أنه لم يقدم شيئاً ولم يؤخر.

11 ـ يقول الجبريون إن قول المعتزلة «العبد خالق افعاله» ينتج منه تحديد قدرة الله وتصبح محدودة لا تشمل كل شيء في العالم، ويكون العبد شريكاً لله في أخطر عمل هو الخلق.

قلت: ان هذا القول فيه الشيء الكثير من التلاعب بالكلمات. فإن الله قد أعطى لكل ذرة من ذرات الكائنات قوة من عنده وقبساً من نوره بحيث لم يبق لها من حاجة للاستزادة. وهي سائرة في عملها وتطورها من حال إلى حال لا تحتاج إلى الأوامر والنواهي والخلق الجديد لأنها قد اخذت في المبدأ حركتها الدائمية من محركها الأول، وهي دائبة على السير بموجبها من دون أن تتلقى الأوامر والنواهي الجديدة عن كل حركة من حركاتها وعن كل عمل من أعمالها، وعن كل فعل من أفعالها. فقد أعطى للنار مثلاً قابلية الإحراق، فهي سائرة على تلك القابلية ومستعدة للقيام بعملها في كل لحظة. وقد استثناها مرة واحدة لإبراهيم فامتنعت عن إحراقه وحده فقط.

وبالإجمال، فان الله قد اعطى لهذا الكون قوة من عنده مرة واحدة. ومن بين هذه القوى العامة القوى الذهنية وقوة التمييز والتفريق بين الأشياء وتسمى بالإرادة، وهي من أعمال معمل الدماغ في الإنسان والحيوان. فكما أن الإنسان يريد، فالفرس تريد والنملة تريد... ولكل من هؤلاء إرادة تتناسب مع قوة أعماله الذهنية. ولما كان البشر غير متساو في العوامل الوراثية وفي الأعمال الذهنية، فكانت الإرادة بالتالي ليست متساوية في أفراده وهي معرضة للتبدل والتحول والقوة والضعف تبعاً للتربية الإبتدائية والمحيط... الخ. فإن قوة الإرادة هذه، وهي من جملة القوى العامة ونجدها في الإنسان كما نجدها في الحيوانات، هي التي تخلق الأفعال ـ إذا جاز أن تسمى خلقاً ـ خيراً كانت أم شراً، وهي التي تحرك عضلات اليد فترفعها وتخفضها فكانت حركة اليد تابعة لإرادة الإنسان والحيوان وهما المسؤولان عن نتائجها. فإن الذي يخلق العمل هو الفرد مستعملاً قواه الممنوحة له من الأزل. فقد منح الخالق في الحيوانات كافة على السواء الخلية العضلية قابلية تحويل الطاقة المعدنية إلى طاقة حركية، ولذلك لم يبق من حاجة لأن يخلق الله في كل لحظة الأمور الجزئية ويتدخل في كل حركة من حركات اليد أو الرجل أو الكون... فإن هذا في الحقيقة لا يسمى خلقاً جديداً كما أراد أن يسميه الجبريون، إنما هو استعمال للقوى الممنوحة فقط. فكان اعتبار وجود قوتين خالقتين غير وارد. لذلك من الواجب تقوية الإرادة وإحياء روح العمل والنشاط عند الفرد كما آرادته المعتزلة لا الجنوح إلى القضاء والقدر، كما أراده الجبريون. والسبب في هذا الاضطراب بين مذهب المعتزلة والجبرية هو اعتبار الجبريين أن الإرادة شيء معين محدود الأطراف ممنوح للإنسان وحده لتفريق الخير من الشر، وهو غلط.

12 ـ وأما الإرادة من الوجهة الفلسفية، فانها قوة باطنية تنتقل بالوراثة وتشتد بالتجارب المتكررة وتقوم بأفعالها تحت تأثير العقل، وهي جزئية وكلية. فأما الجزئية فهي المتأثرة بالمسببات والعوامل والمؤثرات والبواعث المتكررة القديمة وتسمى الجزء الإرادي أو الجزء الاختياري وتصدر عن أعمال الدماغ وعن ضمير الفرد وشعوره. ومع أنها تأتمر بأوامر العقل إلا أنها مستقلة بذاتها في أعمالها. وقد ترافق الإرادة القوية عند بعض الأشخاص العقل الكبير، فهؤلاء هم الذين يبدلون وجه التاريخ بعزمهم وإرادتهم وعقولهم الجبارة، أو تكون الإرادة قوية والعقل ضعيفاً، فهذا الشخص يريد ويريد إلا أن مراده تافه لا يستند على المعقولات مما يسمى قوة العزم والعناد في الأعمال وجهل ببواطن الأمور، فتكون مصدر تعب عظيم حين التفاهم مع الغير. وقد تكون الإرادة ضعيفة والعقل كبيراً كما هو الحال عند بعض العلماء الجبناء.

13 ـ تتجلى الإرادة بعزم الإنسان ورجائه ورغبته ورهبته ومشيئته وحبه وبغضه وقنوطه وسروره وغضبه... وفي كل الأفعال والحركات الإرادية التي تصدر عنه وترمي غالباً إلى الحصول على اللذة واجتناب الألم، وهي موجودة في الحيوانات كافة وحتى الدنيا منها. فإن العزم والرجاء والرغبة وكذلك حب البقاء والتعلق بالحياة وعشّشة العصافير وبيوت النحل وعزم النمل ما هي إلا من أعمال الإرادة. وكثيراً ما تدفع الإرادة العقل إلى العمل فيكد باستمرار ويقدم نتيجة اتعابه إليها وهي مرتاحة من دون ما تعب ونصب. وقد يحصل العته والجنون من كثرة العمل والكد، مع أن الإرادة في معزل

عنها حيث تبقى سالمة نشيطة حتى اللحد. ولعل السبب في تزايد الحرص والميل إلى الشهوات والطمع في سن الشيخوخة متأت من هذه القاعدة حيث يضعف العقل وتبقى الإرادة قوية.

14 ـ ان أحسن التفكير هو عندما تكون الإرادة هادئة لا تعتورها التهيجات والانفعالات والثورات. وفي هذه الحالة تقدم الإرادة للإنسان المعونة الكاملة فيقوم العقل بأعماله وينتج إنتاجاً حسناً. وأما عندما تكون الإرادة ثائرة فتتغلب على العقل ويكون الانتاج سيئاً.

15 ـ وأما الإرادة الكلية، فمن الفلاسفة امثال شوبنهور، من يرى في هذا الكون إرادة كلية شاملة لجميع أجزاء الكائنات. فان نمو النبات وتبلور المعادن والأملاح وتجاذب الأجسام أو تنافرها، وحتى جاذبية الأرض ما هي إلا مظاهر مختلفة للإرادة الكلية التي تسود العالم وهي في أساسها واحدة. ويرى شوبنهور ان أساس العالم كله واحد لا تعدد فيه. وما التعدد إلا ظواهر بالأشكال والصور. وهذا هو مذهب وحدة الوجود المادية.

الفصل الرابع الشعور الديني

1 ـ الشعور والمشاعر من مواضيع علم النفس، إلا أنها الحجر الأساسي لنمو المعتقدات. وهي التي اوحت إلى الإنسان الأول فكرة الآلهة ولزوم عبادتها فرسخت جذورها في أعماق النفس الإنسانية وتبلورت حتى عادت وكأنها جزء من النفس.

يشعر الإنسان باللذة والألم وبالعطش والجوع وبالميل إلى الأدب والعلوم الطبيعية، وبالخوف والانتقام وبالشيء قبل وقوعه احياناً، وبالرغبة والأمل والفرح والحزن والعجب والحقد والبغض والدين... وجميع هذه المشاعر تظهر بالإنسان كحس باطني لا يستطيع مقاومته.

2 ـ وكما ان للفرد مشاعر خاصة، فإن للمجتمع مشاعر عامة كذلك يشترك فيها افراد الأمة كافة. وقد يتجه الشعور العام ضد الحكومات فيسقطها أو يبدل شكلها مثلاً. والشعور الديني من المشاعر العامة المشتركة بين الناس. وهذا الشعور على جانب عظيم من القوة لا يماثله شعور آخر.

وفي كثير من الحالات لا يشترط أن يكون الشعور العام صحيحاً وموافقاً للمصلحة العامة. فقد يتلاعب الخطباء والسياسيون الماكرون، وكذلك الكهنة والرهبان ورجال الأديان بعقول مستمعيهم فيسخرونهم كيفما يشاؤون ويسوقونهم إلى حيث يريدون. وقد يتكون شعور عام في المجالس النيابية على أثر خطبة حماسية يثيرها أحد الخطباء لأمر قد يكون مخالفاً لمصلحة الأمة. وينقاد حتى العقلاء والاذكياء والنبغاء عند سماعهم خطبة دينية شعورية حسية تدعو إلى الزيارات والأدعية والتضرعات فيشتركون بالأوراد والتسابيح، مع علمهم اليقين بخطل الموضوع وعدم مطابقته للدين الصحيح فيرضخون رغم إرادتهم القوية وذكائهم الفذ.

3 ـ وهناك قوة أخرى أكثر رسوخاً وأقدم زمناً من الشعور وهو العقل الباطن أو اللاشعور الكامن في الإنسان، والذي يرجع رسوخه إلى الأدوار البشرية الابتدائية وهو ينتقل بالوراثة من الآباء إلى الأولاد.

ومن أقسام العقل الباطن أو اللاشعور والغرائز والعواطف، وهي إحساسات خفية متأصلة بالنفوس يشترك فيها الإنسان والحيوان، وكذلك الأعمال الذهنية، فهي تابعة للتربية والترويض. وهي في الإنسان على اشدها.

ويدخل الدين في الإنسان ضمن نطاق العواطف، ولا يبالي مطلقاً بالأعمال الذهنية أو بالواقع. وهو قوي ومتأصل في النفوس منذ ازمان سحيقة بالقدم. ويعتبر تاريخ نشأته في الإنسان، بعد تعلمه النطق والكلام، لذلك لم تتمكن الأعمال الذهنية من التغلب عليه إلا قليلاً. وإذا ما تغلبت عليه برهة من الزمن فلا يلبث أن يستعيد قوته ونشاطه ويرجع كما كان، فيصبح السيد المطلق في تصرفات الإنسان.

وإذا ما تظاهر المرء بالتسامح وعدم التقيّد بأحكام الدين، فما ذلك إلا مظهر من مظاهر

المجاملة وتكييف الشعور الديني بالنظر للمحيط والوسط ومقتضيات الزمان والمصلحة. وعندما يصطدم بمعتقدات أخرى أو يعترض سبيله أي حائل، يثور من مكمنه بحماسة متزايدة.

4 ـ وقد حار العلماء في أصل الشعور الديني ومنشئه في المخيلة الإنسانية. فمنهم من رأى أنه تولد في الإدراك الفطري للإنسان وتبلور بمرور الزمان فأصبحت له قوة الغريزة، ومنهم من يرجع منشأه وتكوينه إلى إلهام من الموجودات العلوية وهبة منها وفضلاً على الإنسان، ومنهم من يرى أنه يتولد من ميل بعض الناس إلى الزهد بالدنيا للحصول على عالم أفضل وأجمل في الآخرة. ومهما كان الأصل في هذه المشاعر، فقد اعتبرت فوق متناول الإدراك وسمّيت «ما وراء العقل» فلا تدخل ضمن نطاق المقاييس البشرية.

5 ـ ان مئات الملايين من البشر يتبركون بروث البقر وآخرون يعتقدون بحلول الجزء الإلهي بشخص من البشر، ومثلهم ترتعد فرائصهم خوفاً من الشيطان إله الشر، وغيرهم يلثمون الحجر، وفريق آخر يكلمون القبر فيستأذنون من الأجداث بالدخول إلى الحجر... الخ. مع أن من بين هذه الكتل البشرية العظيمة من هو من ارباب العقل الراجح والذكاء اللامع والثقافة العالية، ومنهم من لا يعترف بعالم الغيب أو الملكوت. إلا أن القوى الذهنية ومن جملتها العقل والإدراك والمحاكمة والعلم... قد تتضاءل جميعاً وتتلاشى عندما تصطدم بالعاطفة الدينية. وما ذلك إلا لأن هذه العاطفة أقدم زماناً وأكثر رسوخاً من غيرها، قد تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأولاد، وفيها وعد ووعيد ونعيم وعذاب. فلذلك لا تتمكن القوى الذهنية من التغلب عليها إلا قليلاً وفي حالات خاصة نادرة.

6 ـ فكان من الصعب مجادلة المؤمن بدينه وإيمانه ومذهبه ومعتقده، حتى ولو كانت عقيدته مليئة بالخرافات والأباطيل والأساطير وحتى القصص الصبيانية ومخالفة لقواعد دينه الأصيلة. والمؤمن المثقّف يعلم ذلك بقرارة نفسه ويقرّه في ضميره كلما حكّم العقل وأعمل الفكر. وبما أن جذور العواطف الدينية قد رسخت في صميم حواسه وفي أعماق وجدانه، فإن العقل والقياس والمحاكمة والأدلة والحقائق... كلها تتضاءل عند اصطدامها مع العقيدة الدينية أو المذهبية، فيخرج المؤمن من تفكيره ومحاكماته وهو لا يبغي عن شيخه وأستاذه وبطله ومعتقده وإيمانه ومذهبه بديلاً.

7 ـ من هو الذي يتمكن من التصريح باستحالة انشقاق القمر، بينما قد اعتبرها الرواة والمحدثون ورجال الدين الإسلامي كافة أول وأهم معجزة للنبي العربي وان التحدث عنها والشك فيها إلحاد بالدين وتطاول على النصوص وإبطال لأقوال المحدثين وكفر لا كفر بعده، مع ان القرآن لم يؤيد هذه المعجزة وجل ما فيه «اقتربت الساعة وانشق القمر». وربما حصل شق عظيم في سطح القمر من أثر الزلازل والبراكين أو غيرها من المؤثرات أو سيحدث عند اقتراب الساعة شقوقاً بالقمر سبق وأخبرنا عنها القرآن فاتخذها رجال الدين والرواة معجزة للنبي العربي، مع ان العقل الإنساني لا يستطيع أن يسلم بانشقاق القمر وهو بجرمه الحالي المعلوم إلى نصفين لبرهة من الزمن، كانقسام الرغيف إلى قسمين متساويين ثم عودته إلى حالته الأصلية كما يدّعون. ولو كان قد حصل ذلك فعلاً وبمادته الأصلية المعلومة لشاهده القاصي والداني في مشارق الأرض ومغاربها. وكذلك من هو الذي يتمكن من إفهام العالم ان من الأنبياء أولو العزم العظام نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام) لم

يبلغوا رسالات ربهم إلى البشر كافة؟ فهذا ما يقوله العقل والواقع. وأما المشاعر المتولدة من الاعتقاد الديني الراسخ، فتؤيد تأييداً تاماً امثال هذه المنقولات من دون إعمال الفكر حيث أن قوة العاطفة تطغى دائماً على القوة العاقلة.

8 ـ وهناك قسم من العالم الإسلامي، وهم «الغلاة» الذين يجهرون بحب علي بن أبي طالب حيث أوصل بعضهم إلى تأليهه. فإذا ما وضع هذا الحب في ميزان العقل والمنطق وحقائق التاريخ نرى أن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهو ابن عم السيّد الرسول وصهره كان أحد كبار الصحابة الممتازين. والصحابة كثيرون ولكل منهم ميزته الخاصة يمتاز بها عن غيره. فمنهم أمين الأمة، ومنهم السياسي والإداري والجابي والكاتب والفقيه والقائد والمرشد والشاعر وغيره. ومنهم من أراق دمه واستشهد طواعية وعن رغبة وإيمان في سبيل إعلاء كلمة الله. وقد قام كل منهم بخدمات جليلة لنشر الديانة الإسلامية وتثبيتها والذود عن كيانها وجاهد بسيفه ولسانه وماله. وإذا ما قدّم الرسول الأعظم علياً بن أبي طالب مرة للخدمة العامة فقد قدم غيره مرات ومرات. وقدم أسامة لقيادة الجيوش وجعل كبار الصحابة وحتى الممتازين منهم تحت أمرته. فلا يوجد والحالة هذه في تاريخه ما يستوجب التأليه. هذا ما يقوله التاريخ والعقل والمنطق. وأما العواطف فلا تدخل ضمن المقاييس المنطقية.

وكذلك يعتقد قسم من العالم الإسلامي بقدرة شيوخ الصوفية من ابدال وابطال واقطاب على تبديل مجرى الكائنات وتحويل سير الحوادث الزمنية والتدخل في شؤون الاحياء، وجميعها مخالفة لما جاء به السيد الرسول الأعظم من أحكام الديانة الإسلامية، إلا أنها مستندة على العواطف والى مدعيات السدنة والقوّامين على الأضرحة.

فلا يمكن إزالة أمثال هذه المعتقدات بالمحاكمة والعقل والمنطق والجدل، إنما قد تخف وطأتها رويداً بالتعليم والتربية ونبذ المحرضات ورفع التلقينات.

9 ـ ولقد عاد الشيوخ من الشعب الروسي إلى كنائسهم لما اعطيت لهم بعض الحرية الدينية بعد مضي ربع قرن على حرمانهم إياها، وعاد الإيرانيون إلى زيارة العتبات المقدسة لما زالت العقبات التي كان قد وضعها رضا شاه البهلوي شاه إيران في طريقهم وبعد أن حُرموها خمسة عشر عاماً. وعاد شيوخ الأتراك إلى اداء فريضة الحج لما أفسح لهم في المجال، الأمر الذي يدل على ان الشعور الديني لا يمكن رفعه بالجبر والاكراه من النفوس. إنما يكمن مكبوتاً تحت الضغط حتى تتاح له الفرص فيظهر من مكامنه.

وأما الشبان الذين لم تكدس في أدمغتهم التلقينات المتكررة ولم يسمعوا بتبشير رجال الأديان، فهم أبعد تأثراً من الشيوخ بالدين.

10 ـ ان ما ذكرناه عن الشعور الديني في العالم الإسلامي موجود مثله، بل أشد منه، في الديانات الأخرى. فالمسيحيون يعلمون جيداً ما جاء به السيد المسيح من الديانة المؤسسة على الزهد والتقوى والصفح والمحبة والتجرد من الدنيا للوصول إلى عالم الملكوت، حيث لا يمكن لفرد أن يعبد سيدين «الله ـ والمال»، ويعلمون ان الإنجيل بنسخه المتعددة لم يكتب في حياة السيد المسيح إنما كتب بعده

بعشرات السنين وقد تختلف رواية الأخبار بين الصبح والمساء. ولم تكتبه هيئات أو اشخاص متعددون بالاشتراك ويتداول الآراء، حتى إذا ما نسي أحدهم كلمة أو لفظاً ذكّره به الآخر، إنما كتبها أفراد بعد سنين كل لوحده. وهم كبشر تابعين للخطأ والنسيان في القول واللفظ. ونسخ الأناجيل المكتوبة انقص عدداً مؤخراً إلى أربع لتقاربها وتناسقها مع بعضها وأصبحت مقدسة بعد أن أقرها المجمع الديني معللاً ذلك انها كتبت بوحي من الروح القدس وإلهامه... وكذلك العلاوات التي جاء بها بولس الرسول اليهودي الأصل الطرسوسي المتنصّر، وكذلك الآباء تلاميذه من بعده مع أنهم لم يشاهدوا السيد المسيح في حياتهم فجاءوا بالتثليث والانبثاق ويوم الميلاد ويوم الأحد... الأمر الذي سبب تعدد الطوائف المسيحية. كل هذا معلوم ومسلم به. ومهما يكن من الأمر، فقد قررت المشاعر الدينية المسيحية صحتها وقبلتها كما هي عليه وأغلقت أبواب التفكير دونها والجدل فيها ومنع مجرد التكلم بشأنها والسؤال عنها، فأصبحت على مرور الأجيال متركزة في عقول القوم، هضمها واستساغها الوجدان العام.

11 ـ وأما الهنود فالشعور الديني عندهم أقوى بكثير من الشعوب الأخرى. فإن العباد والزهاد منهم يروضون أجسامهم حتى الموت، وليس باستطاعة العقل الهندي أن يناقش القدسية الموجودة في روث البقر!!

وأما الشعور المستولي على الشعب اليهودي، فهو مادي أكثر مما هو معنوي، لأن تعاليمهم لا تقول بوجود حياة ثانية بعد الموت. ولما كانوا قد تشردوا في الآفاق، فقد اتجه شعورهم نحو جمع النقود وادخارها لسد ضعفهم وتلافي نقصهم، فاستولى عليهم هذا الشعور وطغى على أنفسهم قروناً طويلة حتى أصبح عندهم الاستيلاء على الذهب والثروات العامة أمراً ضرورياً. فلا تجد والحالة هذه منهم من هو زاهد عن ادخارها.

12 ـ هناك مشاعر عامة مشابهة في جميع الأديان لا يجد العقل منفذاً للوصول إليها، بل ان التدخل فيها قد يولد انعكاساً تخشى عواقبه وانفعالاً يصعب تلافيه. فإن في جامع النبي جرجس بالموصل وفي جامع الإمام الأعظم في بغداد شعرات يقال ويعتقد أنها من شعرات الرسول الأعظم موضوعة في قنينة يقبلها في شهر رمضان آلاف الزوار. ومثلها في كنيسة اوفيد في فرنسا صندوق فيه شعرات يقال ويعتقد أن القديسة هيلانه مسحت بها رجل مخلص العالم يسوع المسيح قبل صلبه. وفي مدراس شعرات يقال ويعتقد انها من لحية بوذا يتبرك بها ملايين الزوار ولا يسأل أحد من هؤلاء المؤمنين متى وكيف وجدت هذه الشعرات والجميع مثل الواحد، والواحد مثل الجميع.

13 ـ وأما الذين اختفوا من الحياة الدنيوية وسيعودون إليها مرة ثانية ليملأوا الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً، فلكل أمة بطل من هذا القبيل قتل فتألّه وسيعود. وهي من المشاعر المتشابهة عند الأمم.

14 ـ وما علينا إلا أن ننظر إلى هؤلاء الناس وهذه المشاعر بعين ملؤها العطف والرضا والقبول مع شيء من التألم وغض النظر بقلب سمح طالما الاعتقاد بها يملأ قلوب المؤمنين سعادة ويزيد نفوس الخاشعين أمناً وسلاماً.

15 ـ وإذا كان الشعور العقلي يوحي للإنسان التفكير والبرهان والقياس والاختبار للوقوف على ماهية

الأشياء وحقيقتها، فإن الشعور الديني العاطفي يستند على قوى مجهولة عظيمة التأثير لا يعرف كنهها ولا تعلم حقيقتها ولا تأثير للعقل فيها. ولما كانت الدساتير الدينية تحتوي على ترغيب وترهيب ووعد ووعيد أي الجنة وجهنم ولا وسط بينهما، وإن الخوف والرجاء متأصلان بالبشر وليس من المحتمل أن يقتحمها العلم ويطلع على ما فيهما، فكان عدد الذين يرغبون ويرهبون ويخافون ويرجون عظيماً جداً وسيبقي كذلك آجالاً كثيرة.

16 ـ ويكون الشعور الديني عادة قوياً متغلباً بين العشائر والقبائل والجهلاء والهمج والفقراء والعجزة والشيوخ والمرضى والنساء، فيعيشون في جو مشبع بالأرواح وبوجود قوة خفية في كل حركة من حركات الكون وفي كل قوة من قوى الطبيعة تسيّرها وتحميها أو تعطلها أو تمحوها حسب رغباتها وأهوائها. وما ذلك إلا لجهلهم بسنن الخالق الموضوعة للكون، تلك التي لا تبديل لها ولا تغيير ولا تحويل.

17 ـ وأما أنصاف المتعلمين، فمع انهم يفكرون بالقوى الطبيعية فهم منقادون دائماً لشعورهم الديني فينتقلون بسهولة من الشعور العقلي إلى الشعور الديني ومن الديني إلى العقلي. واذا اصطدم الشعور العقلي بالشعور الديني كان الشعور الديني هو الغالب. ولذلك فهم يبذلون جهدهم للتوفيق بين القوى الطبيعية والقواعد الدينية. وقد سبق أن بذل العالم المسيحي جهده للوصول إلى توفيق القوانين الطبيعية مع الدين، فلم يفلح.

18 ـ وأما المتعلمون والمثقفون ثقافة عالية، فيعلمون أن لهذه الكائنات من أكبر جرم فيها إلى الدقيقة «الالكترون» والكهربائية ـ المتموجة بالفضاء والدائرة بسرعة حول الجزئية ـ قواعد وسنناً، وهي المسماة النواميس الطبيعية تسير عليها. وقد أخذت قوّتها وحركتها منذ الأزل من مكونها ومحركها الأعظم ومبدعها الأول مرة واحدة فلم يبق لها من حاجة للاستزادة أو للتنقيص والتسيير والتوقيف والتعطيل والصيانة. فلا يمكن لأحد تجريدها عن قوتها وتعطيلها عن خواصها أو إزالتها من عالم الوجود، إنما يمكن تحليلها وتبديل أجزائها وتركيب مركبات غيرها منها ضمن نطاق النواميس الطبيعية، فتبدل شكلها بآخر تحت تأثير المحللات فقط ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنّة الله تحويلا﴾.

19 ـ لقد اوقدت التعاليم الإسلامية التي جاء بها النبي الأمي في أدمغة العرب ناراً متأججة أضاءت جبال الصين وأنارت سواحل المحيط الاطلنطي بأقل من نصف قرن. ولولا مشاحنات الزعماء على الرئاسة ونشوب الحروب الداخلية، لعمت وجه الأرض ولقضت على الأديان الأخرى. فإن السائق الذي كهرب هذه الجموع المتنافرة ووحد فكرها وشدد عزمها وقوى حزمها وسهل لها الموت، هو الشعور الديني الذي كان دستوره اعلان كلمة الله أو الموت للوصول إلى قصور الجنان.

ولقد أوقد الراهب «بطرس» الشعور الديني في العالم المسيحي في القرون الوسطى وحمل العالم الأوروبي على شن الحملة الصليبية التي دامت قرنين كاملين ابتل فيها وجه الأرض من دماء المسلمين والمسيحيين. كما استطاع الراهب «لوثر» أن يثير الشعور الديني ضد البابا فأسّس مذهب البروتستانت المخالف للكثلكة بإرادته الحديدية.

20 ـ وإذا كان الشعور الديني قد تضاءل في أوروبا وحلت محله المذاهب السياسية، فإنه لم يزل مستحكم الحلقات في أدمغة الشيوخ والسيدات. وتكون النساء عادة في الأمم كافة وجميع الأديان اكثر تديناً واشد تعصباً من الرجال لضعف ارادتهن وتغلب عواطفهن على عقولهن.

21 ـ يولد الناس على الفطرة فيتأثر الولد بما يراه ويسمعه من ابويه وأصدقائه من كلمات وأفعال فيوحد ويثلث ويركع لبوذا مثلاً. فترسخ تلك العقائد في مخيلته تحت تأثير التلقين المتكرر. ومن شب على شيء شاب عليه. وجاء بالأحاديث عن سيد الرسل قوله «ما من مولود إلا ويولد على فطرة الإسلام ثم ابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه».

22 ـ ولما كان للتلقين أهميته الخاصة في تكوين المشاعر في عقول النشء فمن واجبات الحكومة أن تأخذ على عاتقها، كما اخذت التربية والتعليم، حماية عقول الناس من الأباطيل وتلقين الشباب بإفلاس وصفات البخور والتمائم والعزائم وكل ما هو ليس من اصل الدين بشيء، فيكون الدين كله لله ولا يوجد غير الله من يستحق العبادة.

الفصل الخامس الاستغاثة والنذور

1 ـ لا يشترك العقل مع العواطف في تكوين المشاعر والمعتقدات. فالمؤمن يؤمن بعاطفته دون عقله. ومع انه يظن ويعتقد بأنه مؤمن بكامل عقله وفكره، إلا أن كثيراً من البراهين التي يستند إليها قد تكون مخالفة لقواعد دينه الأساسية. وقد أقنع نفسه بصحتها، إما لجهله بقواعد دينه وإما لطغيان عواطفه على بصيرته من أثر التلقينات المتكررة التي سمعها منذ حداثته من أبويه ومن أصدقائه ومن رجال دينه ومذهبه.

ولم يزل كثير من الناس في الأمم كافة ومختلف الأديان يعتقدون ان الاستغاثة بالآلهة والأنبياء والأولياء تغير مجرى الحوادث الكونية وتبدل السنن الطبيعية، فيحرقون الشموع ويذبحون النذور ويستسقون ويلثمون الأحجار والعتبات ويذرفون الدموع للوصول إلى غاياتهم المخالفة لسنن الكون، تلك التي ليس لها تبديل ولا تحويل.

2 ـ فلو كان للاستغاثة والنذور والزيارات دخل في تسيير شؤون العالم الزمنية، لهرب العلم بكل شعباته ودقائقه، وحتى علم الطب والميكانيك، طائعاً إلى الوراء وترك مركزه السامي تحت تأثير الأرواح والسحرة والجان والشياطين والقبور والأضرحة والعزائم والتمائم والصلوات والقرابين والنذور والحناء والشموع، ولأصبح الصلح والحرب وحوادث الكون وتسيير شؤون العالم، وحتى حركة القطارات والسيارات والطيارات والدبابات والغواصات، وحتى القنابل الذرية والهيدروجينية، بأيدي الكهنة والرهبان والقائمين على المعابد والمراقد، كما كان الأمر في زمن الفراعنة ثم في الأزمنة المتوسطة بأيدي المنجمين والفلكيين...

3 ـ يظهر من تتبع علم الآثار في البلاد العربية أن تقديم القرابين والنذور للآلهة كان جارياً حتى في الأدوار البشرية الأولى وما قبل التاريخ أي حوالى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد. فقد عثر على بعض الآثار الخزفية محفوظة في دار الآثار العراقية والأجنبية وأهمها «الإناء التذري» الذي عثر عليه في مدينة الوركاء وفيه رموز تقديم النذور للآلهة «ان ـ نيين In-nin» زوجة إله السماء. فكانت هذه الربة تقبل بارتياح جميع النذور من آثار وحيوانات وسنابل وما شاكل ذلك. واستدام تقديم النذور إلى الآلهة والأولياء والصالحين والقديسيين والمعابد والهياكل عند الأمم والأقوام كافة، قديمها وحديثها بعناوين مختلفة حتى يومنا هذا.

وإذا سألتهم ماذا رأيتم من قدرتهم في تبديل سنن الكون في حياتهم حتى تطلبوها منهم في مماتهم وتقدمون لهم النذور والقرابين؟ قالوا لحملهم جزءاً إلهياً أو لما لهم من جاه مقبول ومقام محمود عند الإله العظيم. قل لو كان الله يستجيب دعاءهم كما تزعمون، لبدّل الله سنته الكونية في حياتهم ولأعطاهم قوة من عنده، أو امدهم بسرب من الملائكة، أو أوحى إليهم صنع شيء من الأسلحة الفتاكة أو بقوة الروح الإلهية العظمى، فيكبتون بها عدو الله وعدوهم من دون التستر والاختفاء عن الأعين هنا وهناك... ولم نر حدوث شيء من ذلك.

4 ـ يعلم الاذكياء والشباب والمتعلمين والمثقفين كافة ان جميع حوادث الكون، صغيرها وكبيرها، مستندة الى النواميس الطبيعية تلك التي اخذت مبدأ حركتها من محركها الأعظم وهي سائرة بطريقها بانتظام لا يمكن خرق أو توقيف أو تعطيل أو تبديل أي قانون من قوانينها لأي سبب من الأسباب ولأي شخص كان.

5 ـ ساقني حب الاطلاع إلى زيارة كنيسة القديس «بهنام» الأثرية في قرية الخضر من أعمال الموصل، ويسميها ياقوت كنيسة الجب وله ملء الحق بهذه التسمية لأنها لا تختلف عن البئر. فقادني الراهب إلى دهليز مظلم ملتوٍ تحت الأرض ضاقت منه انفاسي، إلى أن وصلت إلى دائرة مبلّطة بالمرمر عمقها ما يقارب الخمسة أمتار أو أكثر عن سطح الأرض يضيئها شعاع ضئيل من قبّتها، فتنفست الصعداء لهذا النور ونظرت إلى ما حولي فرأيت سلسلة حديد مثبتة بالجدار فدهشت منها، فأطرق الراهب رأسه وقال: نربط بها المجانين حتى ينالوا الشفاء بفضل الاستغاثة بالقديس «بهنام» وبركته. فقلت ألا تخجل، وعندنا مثلها في بيت «شيال العلم» بالموصل وقد اغتصب الأطباء منكم هذه المعالجة؟ فرفع رأسه باسماً وقال نعم. والتفت فإذا في الوسط بقعة من الأرض تقدر بمقدار طابوقة سلطانية بدون تبليط وفيها حفنات تراب فسألته عنها، فقال يأخذ الزوار من هذا التراب ويجعلونه اقراصاً صغيرة يمسحون بها جباههم وصدورهم للبركة عندما يثلثون وكلما يستغيثون بالقديس بهنام ويصلّون. وأراد أن يلهيني عن التأمل ويسبقني بالكلام، فقال ومن العجيب وبركة سيدنا القديس كلما نفد التراب نبع بمكانه آخر من تلقاء نفسه. فقلت كنبع الماء من جوف الأرض! فارتبك وقال إن البركة لا حد لها. وأيقن أني لم اكن من المؤمنين السذّج كما ظن. فقلت خفّف عن نفسك فعندنا أيضاً ما يشابهها.

6 ـ يمكن تقسيم الاستغاثة إلى قسمين: الأولى الاستغاثة الروحية كقولك اللهم ارحم فلاناً. فهذه من أقسام الشعور الديني المنحصرة بين العبد وخالقه ولا تمس حقوق الغير فلا غبار عليها.

والثانية هي التي فيها مساومة لتغيير أو توقيف أو تزييد أو تنقيص أو تبديل جزء أو كل من سنن الكون أو متعلقة بحقوق الغير أو لشفاء المريض، كقولك إذا جاء فلان من سفره سالماً فلك أيها الشيخ الولي أو المرقد المبارك أو الضريح المقدس مني ذبيحة، أو إذا أخذت روح عدوي وخلصتني من شره أو انتقمت لي منه بماله وأولاده أو نال ولدي الشفاء من مرضه.. فلك مني ذبيحتان، أو اذا اعطيتني ولداً ذكراً فلك مني كذا وكذا أو سيكون لك خادماً طيلة حياته... الخ.

والأنكى من هذا، ما كانت تفعله عجائز الموصل من إلقاء الفلفل فوق مرقد النبي جريس لكي يفلفل به كنائنهن. والكنائن يلقين إليه المكانس ليكنس بها حمواتهن. وأمثاله كثير في المراقد كافة في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية. وهذه المساومة والنذور مع الخالق أو النبي أو الولي أو الشيخ أو المرقد المبارك، لتبديل مجرى الحوادث وتغيير سنن الكون أو للانتقام من الغير، فيها من الجهل والغباوة والحماقة والرعونة وقلة الحياء الشيء الكثير. فإن الله لا يبدل مقدراته بشفاعة الشافعين ولا يذبح الذبائح عند مراقد الصالحين ولا يقبل الرشوة للتنكيل بالظالمين ولا ينتشي بالنذور والقرابين. فقد وضع لهذا الكون أنظمة وقوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل وهو القائل: ﴿فلن تجد لسنة

الله تبديلاً ولن تجد لسنّة الله تحويلاً﴾ (فاطر). وإن هذه السنن هي القواعد والنواميس الطبيعية الجارية أمامنا كل يوم وساعة.

7 ـ هل أن الله يغير مقدوراته الأزلية بالدعاء والاستغاثة؟ وهل ان الله يستجيب دعاء المظلوم والمريض والمحتاج؟ وهل ان الدعاء يكون سبباً لكي يبدل الله مشيئته؟ وهل ان الدعاء يهلك الظالم ويشفي المريض ويغني الفقير؟

ان القاعدة الدينية العامة هي ﴿ان الله على كل شيء قدير﴾، وهو ﴿لا يُسأل عما يفعل﴾، وان أفعاله كافة مقدّرة من الأزل ﴿وخلق كل شيء وقدره تقديراً﴾، وان كل ما صدر عن الله حق ورحمة ﴿وهو أرحم الراحمين﴾، وعدله وحكمه ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾، وان الله لا يظلم الناس تبعاً لمشيئة متبدلة ﴿ان الله ليس بظلام للعبيد﴾، وان الله تعالى يدير الكون وفق سننه وقواعده الموضوعة للعالم، وان تلك السنن الإلهية ـ وهي النواميس الطبيعية ـ لا تقبل التبديل والتحويل والاصلاح والتحوير، ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا﴾، وان السماوات والأرض وما فيهما لا تحتاجان إلى الصياغة والمحافظة ﴿ولا يؤده حفظهما﴾، وان قدرة الله لا تتعلق بالمستحيلات ـ كتوقيفه حركة الشمس والأرض والقمر ـ إنما تتعلق بالممكنات فقط. وان الممكنات هي القواعد الطبيعية الجارية أمامنا في كل لحظة، وان عمر الظالم مرتبط بأجله المقرر منذ الأزل ﴿إذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون﴾. وان على المريض أخذ الدواء الذي خلقه الله لشفائه ﴿فيه شفاء للناس﴾. وكانت فاطمة الزهراء قد أحرقت الحصير ووضعت رمادها فوق الجرح الحاصل في وجه السيد الرسول «ص» يوم أُحُد لوقف النزيف، ولم يعتمد «ص» على الدعاء وحده.

فكأن الدعاء والاستغاثة لتبديل مجرى القواعد الإلهية والسنن الكونية معناه الطلب من الله آن يغير سنته ويبدل إرادته الأزلية وأن يخرج على نواميسه الموضوعة لهذا العالم، وهو محال.

وأما الآية الكريمة ﴿ادعوني استجب لكم﴾ فهي تعود إلى آثار رحمته ورضوانه وعفوه وغفرانه من دون وساطة أحد من خلقه ومن دون التوجه إلى الأصنام والتماثيل التي كانت في الجاهلية شفيعة ومقربة إلى الله ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ (يونس﴾. وكان دعاء السيد الرسول من ربه لتفهيم الناس أن الأمر بيد الله لا بيد الأصنام والتماثيل والأحجار والأنصاب والوسطاء، فكانت الاستجابة الآنفة الذكر للدعاء الواردة بالقرآن الكريم ﴿ادعوني...﴾ تنحصر بالممكنات فقط، على أن لا تمس حقوق الغير ولا تكون لإطالة العمر وإهلاك الظالم وشفاء المريض والترفيه عن المحتاج... الخ. فهذه كلها مرتبطة بسنن كونية وقواعد إلهية لا يمكن تبديلها وتحويلها.

8 ـ ان سنن الكون لا تقف عند حد ولا يستثنى منها أحد. وقد ثبت مفعولها حتى بالأنبياء والشهداء والأولياء والصالحين. وبعد أن تحقق أن ضربة السيف عملت مفعولها في أنبياء بني إسرائيل وفي وجه السيد الرسول يوم أُحُد وفي عمر وعثمان وعلي والحسين، فإن ما يفعله المتمشيخون من ضرب السكاكين في بطونهم ولعبهم بالنار وغيره، ما هي إلا مغالطات ومخادعات كاذبة لا ظل لها من الحقيقة مطلقاً. كما وان سنن الكون هذه لا تشفق على شيخ هرم عضه الجوع والبرد بأنيابه، ولا على أم تذرف على طفلها المريض الدمع وهو على فراش الموت ولا على غريق تتقاذفه الأمواج... الخ. ولم

يثبت بحادثة واحدة ان سنن الكون قد تغيرت بتدخل الشيخ أو بضربة الولي. وقد تفعل المصادفات بعض فعلها فتنسب إلى الشيخ أو الولي اسناداً غير صحيح فتعتبر كرامة تناولتها الأيدي مع المبالغة جيلاً بعد جيل فيعود المسافر سالماً، ولا بد أنه عائد إن لم يكن قد هلك. وقد يهلك العدو بانقلاب سيارته صدفة مثلاً، وقد تلد الأم ذكراً، وقد ينال المريض الشفاء، وجميعها من الواقعيات والممكنات. إلا أن الشعور المتمركز حول المرقد قد يسند كل الأمور والحادثات الجارية إلى الشيخ وتصرفه والولي وشفاعته فيهرع الناس إلى طلب الامداد والاستغاثة منه فيقدمون له النذور والذبائح!!! تاركين قوله تعالى: ﴿حكمة بالغة فما تغني النذر﴾ (القمر).

9 ـ والاستغاثة بالأولياء ليست منحصرة بالعالم الإسلامي وحده، إنما هي موجودة في جميع الأمم ما خلا دين بوذا. والجميع يستغيثون ويبكون ويسكبون الدموع السخينة على العتبات، والطبيعة تسير في طريقها من دون توقف ومن دون اهتمام. ولو كانت الدموع والتوسلات والقرابين والنذور تؤثر ولو بجزء من الكل، لبطلت سنن الكون وأصبح العالم في هرج ومرج ولاختل نظام العالم.

10 ـ في الإسلام قواعد خاصة عن النذور تتلخّص بأن تكون لله وحده وهي بمثابة إعطاء الصدقات على أن لا تكون لمقاصد معينة، أي لا يطلب من ورائها قصد سوى رحمة الله، كإطعام الفقراء، وعلى أن لا يكون فيها إجهاد للنفس. وهي من أقسام الاستغاثة الروحية.

فقد روى ابن عباس أن النبي «ص» لما بلغه ان أخت عقبة بن عامر نذرت أن تحج ماشية، قال: إن الله لغني عن نذرها مروها فلتركب. وقال آخر يا رسول الله اني نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلي في بيت المقدس ركعتين، فقال: صلّ ههنا. ونذر آخر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال: مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليصم. ونذر آخر أن يذبح بعيراً بموقع يقال له «بو آ نة»، فقال له النبي: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يزار ويعبد؟ قال: لا. فقال: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قال: لا. قال: أوف بنذرك لوجه الله. وهكذا نرى ان رسول «ص» قد منع أمثال هذه النذور، ومن جملتها النذور المخصصة للأوثان التي تزار وتعبد وأجاز ما كان منها لوجه الله قولاً وفعلاً.

11 ـ هناك أحكام حول النذور، وجميعها لا تخرج عن مبدأ واحد وهو تقديم العبادات والصدقات لله وحده. وليس فيها ما يتعلق بحقوق الغير أو بطلب أو مساومة أو بـ (اذا). وهذه عادات جاهلية. فقد كانوا ينذرون للأصنام والتماثيل والأوثان فيلطخون رؤوسها بدماء النذور الحارة تقرّباً إليها. ولما جاء الإسلام أبطلها وجعلها لله وحده. فإن إشراك الأنبياء والأولياء والشهداء والصالحين أو ارسالها إلى مراقدهم وعتباتهم وقبابهم يجعلها كنذور الجاهلية، وقد حرّمها ومنعها سيد الرسل كما جاء في حادثة نذر «بو آ نة» المارة الذكر.

12 ـ يقول الله تعالى لنبيّه الكريم: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم﴾ (128 ـ آل عمران). فقد حظّر الله على نبيّه التدخل في شؤون الكون والعالم. وكان في أحرج ساعة من حياته عندما سقط بالحفرة في غزوة أحد والدم يسيل من وجهه الكريم والأعداء يحيطون به من كل جانب يريدون قتله، ولم يبق من الصحابة حوله سوى أفراد قلائل يتساقط الواحد منهم تلو الآخر بسيوف

الكفار، فيرفع النبي الرسول كلتا يديه نحو السماء فيستغيث من ربّه ويقول اللهم إلعن فلاناً اللهم إلعن فلاناً ... من صميم قلبه وأعماق وجدانه فيرد طلبه حالا بقوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، أي لا تتدخل في شؤون الربوبية.

فإذا كان النبي الكريم ليس له من الأمر شيء في تغيير مجرى الحياة والحوادث الزمنية، فكيف يفلفل صاحب الجدث البالي كنائن السيدات بالفلفل؟ وكيف للولي أن يهب للعاقر ولداً أو أن يتصرف بالجنين في بطن أمه فيحوّله من أنثى إلى ذكر أو بالعكس؟ ولو كان له في حياته شيء من القوة والقدرة وحق التصرف في الأمور الكونية والزمنية، فلماذا لم يكبت اعداءه وخصومه في حياته بينما نجده يذل ويهان ويعذب ويقتل ويصلب على يدهم، كما وقع لمنصور الحلاج والشمس التبريزي والشيخ حسن العدوي وكثير غيرهم؟ ثم إذا كان الولي قد دخل في عداد الأموات وانطوت صحيفة أعماله، أفليس من الأجدر به أن تنقطع هذه التصرفات عنه ويصبح تحت رحمة ربه لا يضر ولا ينفع! ولكن بالرغم من ذلك، فالقائمون على حراسة الولي من سدنة وخدمة وقوام لا يرضيهم هذا ولا يزالون يرون للملأ تصرفاته وكراماته التي تصل إليهم عن طريق الكشف والرؤيا ويدعونهم إلى زيارته، وقد جعلوا قبره حقلاً خصيباً يستغلونه على مدى الأزمان، كل ذلك خلافاً لقوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ (94 ـ الأنعام). وقوله تعالى: ﴿وما يستوى الأحياء ولا الأموات ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾ (21 ـ فاطر). وقوله تعالى: ﴿ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ (14 ـ فاطر). وقوله تعالى: ﴿ام اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى﴾ (9 ـ الشورى). وقوله تعالى: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل او لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، قل لله الشفاعة جميعاً﴾ (44 ـ الزمر). وقوله تعالى: ﴿قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض﴾ (14 ـ الأنعام). وكثير مثله في القرآن الكريم. وهذا كله معناه ان أصحاب القبور الذين بليت رفاتهم واستحالت ترابا، لا آذان لهم يسمعون بها من يناجيهم من الأحياء، ولو سمعوا على سبيل الفرض ما استجابوا لأحد، وخلافاً لذلك فانهم يوم القيامة يكفرون بشرك من استجار بهم، وان الشفاعة لله جميعاً لا يشاركه فيها أحد، وان الولاية لله جميعاً فهو الولي وحده في الدنيا والآخرة... الخ.

13 ـ وأما القول بأن الرسول الأعظم خاطب أحداث الكفار من قريش يوم بدر إنما هو من مبتدعات أصحاب السِّير، وليس فيه نص قاطع. فلا عبرة له. وعلى فرض صحة هذه الرواية، فهي تدخل في نطاق ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾. فإن العقيدة الأساسية بالديانة الإسلامية هي متابعة قوله تعالى: ﴿ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾. وقوله تعالى: ﴿انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ (29 ـ الزمر﴾. مما يستدل منه ان سيد الرسل أيضاً ميت، كسائر الموتى، ومن طبيعة الميت أن يكون بدون احساس وبدون ادراك وبدون حركة، ويستدل أيضاً من كلمة «ثم» على ان هناك فاصلة تمر وتنقضي في هدوء وسكون منذ ساعة الموت حتى يوم القيامة، وعند ذاك تكون المخاصمة عند الله ...

فإن المخالفة لهذه النصوص الصريحة الواضحة، والقول بأن ساكني القبور يسمعون دعاءنا ويستجيبون لنا، ونحن نرجو منهم ونتضرع إليهم للاستفادة منهم ومن جاههم عند الله ليرزقنا بالدنيا ويغفر لنا بالآخرة أقل ما يقال عنه انه جحود بهذه الآيات الكريمة، وليجد من يقول خلافها اسماً له غير الإسلام.

14 ـ ان الله يقول ادعوني أستجب لكم دون وساطة مشير أو وزير أو مدير، على أن يكون الدعاء طالباً لرحمته تعالى فقط. فإن الوساطة ومديرية التشريفات خاصة بسلاطين وملوك الأرض. وان الاعتقاد بتبدل مراد الله وتغيير إرادته الأزلية بواسطة الشفعاء والوسطاء خرق لما يجب لله من تنزيه مطلق. وهو معناه إسناد التبدل والتحول والتغيير لله تعالى، وهو محال.

15 ـ إنّنا نعلم ان الآلاف من الدراويش والمتصوفة والمرتزقة والقوّامين على المعابد وذوي المنافع من رجال الدين سيتهموننا بالتطاول والتجاوز على مراقد الأولياء والشهداء والصالحين. وفاتهم ان نحترم معتقدات الفرد حتى ذلك الذي يتبرك بروث البقر طالما انها قد تولد في قلبه السعادة والراحة والطمأنينة، على أن لا تكون واسطة للتبشير ولتضليل الغير ولا يستغلها حفنة من الرجعيين النفعيين اصحاب الملابس المزركشة والصلبان المذهبة والزنانير اللامعة والعمائم البيض والسود والخضر لمنافعهم الخاصة. فإننا ندعو العالم طراً إلى عبادة الله وحده دون غيره، وهم يعلمون ويتجاهلون ويفقهون ويكتمون ويدرون ويسكتون حفظاً لكسبهم ومصالحهم.

16 ـ وكان لما سقط العالم الإسلامي من شاهق عزه وعلو مجده وأضاع استقلاله السياسي في القرن الخامس والسادس الهجري أصيب بالعجز والكسل والخمول والفقر فكانت الطريقة الروحانية والمشيخة والدروشة خير وسيلة لاكتساب ضروريات الحياة ولو بالتوسل والتذلل والاستجداء. فهي أسهل من الكد والجد والعمل. وقال قائلهم: جرى قلم القضاء بما يكون: فسيّان التحرك والسكون. فكثر التّمَشْيخ والتّدَرْوش والتّنَسك والتّصَوف والعطل والسكون والتوكل ولبس المرقعات وإظهار الزهد والتعبد طالما لا تعب في هذه المهنة ولا يتطلب من مدعيها الامتحان ولا البرهان، فاتجهت الأمة العربية تحت إرشاد رؤساء هذه الفئة بكلّيتها نحو التوكل على الله لعلها تكسب رضاه وعطفه وتنال رحمته وعونه. وهذا ما دعا إلى الإكثار من إقامة القباب وانتشار الطرائق في طول البلاد الإسلامية وعرضها، من البصرة إلى تطوان.

17 ـ ولم يكن العالم الإسلامي وحده مبتلياً بقبور الأولياء والشهداء والصالحين، فإن البشر منذ أن تعقل وتدبر أراد الالتجاء إلى من اعتقد أنه أقوى منه تبعاً لطبيعته الضعيفة واحتياجاته الكثيرة، وذلك للتخلص من المحن والآلام وتكاليف الحياة والشدائد الدنيوية. فكانت استغاثة المصريين القدماء والكلدانيين والآشوريين واليونانيين والرومانيين والفينيقيين والبرهميين... الخ بآلهتم كلها على سياق واحد.

18 ـ وأما في زمن الحكومة الإسرائيلية، فقد تأسست المذابح والهياكل لتقديم الذبائح والبذور حيث جعل لها قواعد ثابتة خاصة محررة بالتوراة تفصيلاً. وكان من شدة وطأتها أن شطب العالم اليهودي عليها

مرة واحدة وأقام النبي هوشع مقامها التقرب إلى الله بطريقة التضرع والمناجاة فقط، وقال «اني أريد رحمة لا ذبيحة» فتركت الذبائح والقرابين والنذور.

19 ـ وجاءت الديانة المسيحية فأفرطت في تشييد قبور المطارنة والبطاركة حيث لم يبق بلد أو صقع من أنحاء العالم المسيحي إلا وفيه دير «سنت» للعبادة والاستغاثة وتقديم النذور وطلب الشفاعة. وأصبح القسس والرهبان يغفرون الذنوب والآثام مباشرة ويدخلون الناس في عالم الملكوت بالمفرد والجملة، وقد أخذ الباباوات ورجال الكنيسة الكاثوليكية يبيعون مقاعد في الجنة. وكانوا يمنحون وثائق الغفران لأصحاب المعاصي لقاء بدل معين يستوفونه منهم. كما وان الكنائس الإنجيلية في كل صقع ومكان تحمل اسم أحد القديسين كشفيع لها. فالإنكليز اتخذوا «سان جورج» شفيعاً لهم. وما يقال عن الإنكليز يقال عن غيرهم من بقية الشعوب المسيحية.

20 ـ كان الأساس الثابت الرصين الذي جاء به محمد بن عبد الله سيد الرسل وقضى حياته ورسالته من أجله، هو التوحيد المطلق الذي لا تشوبه شائبة والقضاء على الاصنام والهياكل والتماثيل وعلى اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله وتخصيص العبادة لله وحده. وقد ندّد القرآن بأولئك الذين يتخذون المساجد دار عبادة لغير الله ﴿وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احداً﴾ (الجن). ورغم التنبيهات المتكررة والتهديدات المشددة الواردة بالقرآن وبأحاديث سيد الرسل، لم يشأ قسم من العالم الإسلامي البقاء بدون هياكل فشيدوا القباب عوضاً عنها فكانت الاستغاثة والنذور في جميع الأدوار البشرية واحدة في الأصل مختلفة بالاسم والمكان، كأن الطبيعة البشرية محتاجة إلى هذه الأضرحة كاحتياجها إلى الماء والهواء، وكأن الأنبياء لم يدركوا الطبيعة البشرية هذه فلم يشرعوا لها التشريع اللازم، فجاء الكهنة والرهبان والقائمون على الهياكل والقباب والمعابد فأكملوا هذا الاحتياج البشري وجعلوا لها قواعد مكملة للشرائع السماوية.

21 ـ حفظت منذ طفولتي كما حفظه غيري من أبناء الموصل بيتاً منحوتاً بالحجر قائماً فوق باب جامع النبي جريس بالموصل يقرأه صباحاً ومساءً كل المارين والعابرين من سوق الشعارين، وفيه خلاصة لما ذكرناه من إشراك الأنبياء والأولياء والشهداء في أعمال الله وأفعاله وهذا هو:

زر حضرة ملئت نوراً وتقديسا ... واقصد نبي الهدى ذا المجد جريسا
ما جاءه قاصد يشكو ملمته ... إلا ونفّس عنه الكرب تنفيسا

فقد رآه وقرأه وحفظه علماء الدين الأمجاد كافة وحفظه الشرع وحملة القرآن وسادة الأمة والشيوخ والفقهاء وقادة الرأي والشعراء والأدباء منذ قرنين أو أكثر ولم يقم أحد منهم بتحطيم هذا الكذب المفضوح ورفع هذا الضلال المكشوف وإزالة علامة من علامات الاشراك بالله من مدخل أعظم جامع من جوامع الموصل.

22 ـ وكانت الكهنة في عهد الفراعنة تحث الناس على دفن موتاهم في حضيرة إله يوم الدين «اوزيريس» أو بجواره لكي ينالوا عفوه وعطفه ورحمته يوم الحساب. وقد انتقلت هذه العقيدة الفرعونية على كر الدهور والعصور إلى الأمم والأقوام كافة خلفاً عن سلف. ولم يزل الكهنة والرهبان ورجال الأديان كما كان زملاؤهم قبل خمسة آلاف سنة أو ما يزيد، يعظون ويحضّون ويحرّضون الناس ـ لفائدتهم ـ على

دفن موتاهم بجوار القديسين والأولياء والشهداء والأبرار والصالحين تحت أمل الانطواء تحت لوائهم والحشر معهم لنيل شفاعتهم يوم القيامة.

23 ـ وقد اتخذ كل فريق من الأمم في مختلف الأديان والمذاهب بطلاً له وسمّاه مرقداً، ودعا المؤمنين إلى الطواف حوله والركوع والسجود وسكب الدموع على عتباته. وكان الفرد الساذج المسكين، وهو يبغي الوصول إلى أبواب الجنة، يطأطيء رأسه خاضعاً ذليلاً منقاداً امام الضريح المقدّس، فيدعو ويستغفر ويطلب الرحمة وما يكنه في ضميره، وهو على يقين ان طلباته ستنفذ لا محالة. والقائمون على المعابد من مختلف الأمم والأديان وحتى عبدة الشيطان، كلهم واحد بالهدف مختلف باللباس والمنظر. وكما كان زملاؤهم قبل ستة آلاف سنة أو ما يزيد يقبضون الهدايا والنذور والموقوفات والقرابين وينسبون إلى الضريح المقدس (وكل يبكي على ليلاه) القدرة الفائقة في تبديل سنن الكون والتدخل في أمور العالم والعمل بما يريد، والعفو عن اللاجئين والمستغيثين والمستغفرين، والبطش بالمتمردين والمخالفين، ويقبل الرشوة والهبات والأعطيات والموقوفات (وهي بيت القصيد) ويفصح عن أتباعه ومريديه ومحبيه وينكل بخصومه وأعدائه ﴿نسوالله فنسيهم﴾ (67 ـ التوبة).

الفصل السادس يوم الحشر

1 ـ لما كان الموت قد يقضي على الحياة اللذيذة ولا مفر منه، وان الإنسان يتمنى الحياة الدائمة ويطلب الخلود، فقد استفاد الكهنة والرهبان منذ أقدم العصور البشرية من هذه الرغبة الملحة، فوعدوه بالحياة الثانية اللذيذة الخالدة بعد الموت. حتى إذا لم يتيسر له هذا التمني في هذه الدنيا سيجده في اليوم الآخر. فاطمأن هو إليها ورغب فيها. فكانت قد شغلت هذه المواعيد بال جميع الأمم والأقوام السابقة. وقد يرجع تركيزها إلى الأدوار البشرية الأولى. وكان قد حصل هذا الاعتقاد حتى عند الإنسان الأول المعروف باسم إنسان نياندرتال. فقد وجد العلماء في قبوره اطعمة وأسلحة استنتجوا من وجودها انه دفنها معه اعتقاداً منه انه سيعود ثانية إلى الحياة بعد الموت. وكذلك كانت قبور الأمم السالفة كافة كالمصريين والسومريين والكلدانيين جميعها مملوءة بصنوف من المأكولات والملابس والأسلحة والجرار للغاية نفسها. وكان قد انذر كهنة مصر القدماء الناس لأول مرة عن اعطاء الحساب أمام الآلهة عن الأعمال الدنيوية ووزنها بالميزان الإلهي وعن النعيم والعذاب في اليوم الآخر. ثم نضجت وتكاملت هذه القواعد فافترضوا وجود عالم آخر وراء هذا العالم المحسوس مع حياة ثانية طبق الأصل لهذه الحياة الدنيوية بعد الموت، ووضعوا لها قواعد مغرية من جهة، ومخوفة من جهة أخرى، كما سيأتي بيانه، فأخذتها عنهم الأمم الوثنية المجاورة للبحر الأبيض المتوسط وأصبحت تلك المواعيد السلاح الوحيد بيد الرجال المصلحين لسوق الناس إلى الأعمال الصالحة.

2 ـ وفي وقت لم تكن فيه الأديان الإلهية الكتابية قد جاءت بعد، ولم تكن فيه منظمات دولية تحمي الضعفاء من تعسف الأقوياء، كان الخوف من الإله أو الآلهة ومن يوم الدينونة والحساب والميزان الإلهية والحشر والنشر، العامل المهم في تأمين السكون والاستقرار واجتناب التعدي على الغير وإعطاء كل ذي حق حقه. فقد خدمت هذه الفكرة البشرية أجلّ الخدمات ولم تزل تخدمها عند الشعوب المتأخرة أكثر بكثير من القوانين المدنية التي امكن ويمكن التلاعب فيها نظراً لقوة الفكر والحيلة. وأما الخوف من الإله ومن يوم الحساب ومن ضربة الولي أو الشيخ أو السيد حيث لا تلاعب فيها ولا سبيل للتخلص منها، فكانت هي الرادعة والزاجرة لكثير من الأعمال المجحفة بحقوق الضعفاء من دون تدخل شرطي أو حاكم.

3 ـ **يوم الحشر في الديانة الفرعونية**: كان المصريون القدماء يعتقدون أن للجسد الإنساني روحاً لا تموت بموت الجسد. وإذا كانت تفارق الجسد عند الموت، فقد تعود لزيارته بعد ذلك في القبر. ولذلك شيدوا الاهرامات الجسيمة وبنوا الهياكل الضخمة وحنطوا الجثث فوضعوا داخل القبور التماثيل الحجرية، حتى إذا ما أصاب الجسد البلى تزور الروح التمثال عوضاً عن الجسد وتأنس به وتخلد معه.

بعد ذلك تطورت نظرية الروح بمرور الأزمان فأصبح للإنسان روحان: الأولى تسمى «كا» وتولد

مع الإنسان وترافقه طيلة حياته وهي بمثابة شبحه أو قرينه أو جسده الثاني فتأخذ شكل الجسد وتحتفظ بشخصيته وهي قوام الحياة ومصدر القوة والنشاط، حتى إذا ما حل الموت تركته، وقد تعاوده في القبر لزيارته والاستئناس به وترافقه يوم البعث والحشر.

والروح الثانية تسمى «يا» وهي بمثابة النفس الحي، ويصورونها بجسم طائر يحمل وجه صاحبه. وهي طليقة عن الجسد. قد تذهب يمنة ويسرى أثناء النوم وتسرح وتمرح ثم تعود «كما في حالة الرؤيا». وعندما يحل الموت تفارق الجسد وتصعد إلى السماء أو تطوف أنحاء الأرض وتتردّد أحياناً على الميت في قبره لزيارته.

4 ـ وأما الحساب عن الأعمال الدنيوية بعد الموت، فكانت مصر أول من قال بعقيدة يوم الحشر والحساب وآمنت بالثواب والعقاب في اليوم الآخر. فهي تشمل جميع الناس حتى الكهنة والرهبان وحتى الملوك. وكان الاعتقاد السائد هو أن الملوك تعطي حساباً عن أعمالها في الدنيا أمام محكمة «رع» إله الشمس. فإن كان الملك قد أحسن في اعماله تتفتح له أبواب السماء فيركب في زورق «رع» ويجوب الفضاء ويرتاد أعماق السماء ويلقى الثواب والنعيم. وإن كان قد اساء في قلبه فيلقى قلبه إلى الوحش «امابيت» ليلتهمه ويطرح جسده في النيران.

5 ـ وأما أفراد الناس فهؤلاء يعطون حساباً عن أعمالهم في الدار الدنيا أمام محكمة يرأسها الإله «اوزيريس» يساعده الآلهة الثلاثة «انوبيس، توت، معات» وحوله 42 إلها عن 42 نوعاً من الخطايا، فيتقدم الميت بدفاعه امام الآلهة مستغيثاً بهم لتخليصه من أنياب الوحش «امابيت». وقد يكتب الكهنة والرهبان صيغة الدفاع بورقة أو فوق ألواح التابوت وجُدُر المقابر ليقرأها الميت أمام الآلهة وتسمى «كتاب الموتى»، وهو الكتاب المقدس الذي تتجلى فيه الحياة الدنيوية والآخروية. ويستبان منه ان المصريين كانوا يعتقدون بيوم الحشر والحساب وبخلود النفس وبالحياة الأبدية في النعيم أو في العذاب. ويدعي المؤرخون أن كتاب الموتى كانت صيغته قد وضعت في زمن ملوك الدولة الأولى عام 4500 قبل الميلاد، وظل معمولاً به حتى القرن الثالث الميلادي.

6 ـ وفي صحيفة الموتى العبارات الآتية مترجمة من كتاب التاريخ العام لأحمد رفيق المؤرخ التركي:

«استغفرك إلهي. انت إله الحق والعدل. جئت لأمتّع نظري بجمالك الباهر. إني اعلم اسمك العظيم وأسماء الآلهة التي معك. إني لم أراوغ طيلة حياتي ولم أؤذِ الأرامل ولم اكذب في المحاكم ولم اتكاسل في عبادتك. ولم اعمل ما يستوجب سخطك. ولم اقتل أي شخص بدون حق. ولم امنع الخبز والهدايا المقدمة للآلهة. ولم انزع اكفان الموتى وذخائرها. ولم ابخس الميزان ولم اضرب الحيوانات المقدسة في المراعي. ولم اصطد الأسماك المقدسة في الأنهار والبحار ولم اخرب قنوات الماء. وها أنا مجرد من الآثام والخطيئات كافة».

وقد تكتب هذه العبارات في جُدُر المقابر وفوق التوابيت، يكتبها الكهنة والرهبان والكتّاب.

7 ـ ولقد ترجم الأستاذ عبد القادر حمزة صورة كتاب الموتى من كتاب «موري» ونشرها بكتابه على هامش التاريخ المصري القديم، وهي مفصلة أكثر ننشرها مقتبسة منه لما فيها من المعاني الدقيقة الدالة على شعور القوم ودرجة خوفهم من يوم الحساب:

«أيها القلب الذي اخذته من أمي، وولدت به، وعشت معه على الأرض، لا تشهد علي، لا تكن خصمي أمام القوى المقدّسة، لا تكن ثقيل الوزن ضدي». وبعد ان يدافع الميت عن نفسه كما مر أعلاه، يوجه خطابه إلى اوزيريس والقضاة الذين معه: انني لم اقارف الشر. ولم اسرق. ولم اقتل غدراً. ولم امس القرابين. ولم اكذب. ولم اسبب سيل دموع أحد. ولم اتدنس. ولم اعتد. ولم اذبح الحيوانات المقدسة. ولم اتلف أرضاً مزروعة. ولم اقذف. ولم اترك الغضب يخرجني إلى غير الحق. ولم ازنِ. ولم ارفض ان اسمع كلمة الحق والعدل. ولم اسيء الظن بالملك ولا بأبي. ولم أُلوث الماء. ولم أحمل سيداً على ان يسيء الى عبده. ولم أحلف كاذباً. ولم أغش في الميزان. ولم أمنع اللبن عن أفواه الرضّع. ولم أُطفىء ناراً يجب ان تشعل. ولم يخطر على بالي ان استخف بالآلهة. انني طاهر. طاهر. طاهر.».

ثم يخاطب الميت القضاة الاثنين والأربعين فيقول:

«لكم الحمد أيها القضاة. إنني اعرفكم وأعرف اسماءكم. لست اسقط امام سيفكم. انكم لا تنوون شيئاً ضدي. لهذا الإله الذي انتم حاشيته. لا شأن لكم بي. إنكم تقولون الحقيقة امام سيد كل شيء. لأنني اتبعت الحق والعدل في مصر. ولم أجذف في حق الآلهة. ولم يجد الملك المعاصر شيئاً يأخذه علي. لكم الحمد أيها الآلهة الجالسون في قاعة الحقيقتين (الوجه القبلي والوجه البحري) والذين ليس فيهم أثر من كذب. وهم يعيشون من الحقيقة امام حورس المستقر في شمسه. أنقذوني من «باباي ـ سيت» الذي يأكل احشاء العظماء يوم الحساب الكبير. هاكم انظروا انني آتي إليكم بلا خطيئة ولا سوء. وقد فعلت ما يرضي الناس والآلهة وأرضيت الآلهة بما تحبه. وقد أعطيت خبزاً للجائع. وماء للعطشان. وثياباً للعاري. وزورقاً لمن ليس له مركب. وقدمت قرابين للآلهة. وهدايا جنائزية للصالحين. انقذوني واحفظوني. انكم لا تتهموني امام الإله العظيم. انني رجل ذو فم طاهر. ويدين طاهرتين. والذين يرونني يقولون لي مرحباً بقدومك. مرحباً بقدومك.».

فيتقدم الميّت أمام الإله «أوزيريس»[1]، والآلهة الاثنين والأربعين بهذا الدفاع عند رؤية حسابه عن اعماله في الدنيا وهو يمتلىء خوفاً.

فينصب الميزان امام الآلهة ويتصدر اوزيريس الإله العظيم صدر المجلس وهو جالس على كرسيه وبيده الصولجان.

8 ـ ووجد الانكليزي «كرفت» في المتحف البريطاني ورقة بردى فيها اسطورة يوم الحشر والحساب ترجمها إلى الانكليزية سنة 1900 خلاصتها أن لفرعون «ساتي» ولداً اسمه «سينوزيريس» حاذق في علوم الحكمة والسحر. في يوم من الأيام قاد أباه إلى جبل ممفيس ونزل به إلى الدار التي تحاسب فيها الأرواح، فكانت سبع قاعات مملوءة بالأرواح. وعندما دخلا الرابعة فإذا أناس جياع والحمير تأكل الطعام وغيرهم يرون الطعام معلقاً ولا يصلون إليه. وفي القاعة السادسة رأيا شخصاً كان في حياته شريراً منطرحاً على الأرض ولولب الباب منصوب فوق عينه اليمنى وكلما فتح الباب يصيح من الألم.

(1) كان اليهود قد عبدوا هذا الإله لما كانوا في مصر وقد ورد ذكره في القرآن الكريم باسم «عزير» وهو تعريب «اوزير».

وفي القاعة السابعة آلهة الحساب جالسين، وفوق الجميع الإله العظيم «اوزيريس» جالس على عرشه وبيده الصولجان وقد وقف عن يمينه الإله توت[1] وهو الذي يزن قلب الميت ويقدم عنه التقارير، ووقف عن يساره «انوبيس» وهو دليل الأرواح يوم الحشر والحساب وقد نصبت الميزان الإلهية الخاصة لوزن الحسنات والسيئات. والوحش «أماييت» جالس قرب الميزان يلتقط قلوب الأشرار.

9 ـ يتقدم الميت للحساب. وبعد استماع دفاعه المحرر اعلاه يقوم الإله «انوبيس» ويأخذ قلبه فيضعه في كفة الميزان المنصوبة ويضع في الكفة المقابلة ريشة الرية «معات» إلهة العدل والحق، ويدوّن الإله توت بقلمه في السجل نتيجة الميزان ويقدمها إلى إله الدينونة العظيم «اوزيريس» وبعد أن يستشار الـ 42 قاضياً يصدر الحكم على الميت إما بإرساله إلى السماء للإقامة في سفينة «رع» مع الآلهة أو إلى جزر السماء في حقل «يارو» حيث هناك الطعام الكثير وشجرة الحياة والخبز والشراب المعتق، أو إلى قاعة بجوار اوزيريس فيعيش في رغد وأمان ويأكل من أنواع الأطعمة الفاخرة ويزرع ويحصد ويقتني النساء الجميلات، أو إلى جنات فرعون وفيها الماء البارد والنسيم العليل ومائدة فرعون تحت ظلال أشجار التين والجميز ويبقى فيها خالداً إلى الأبد. وإن خفّت موازينه عن الريشة فيرسل جسده إلى الجحيم لتحرقه ويرمى قلبه إلى الوحش الهائل «أماييت» ليلتهمه، أو يبقى الميت في قبره جائعاً محروماً كل أنواع الطعام وفي ظلام دامس لا يرى الشمس ابداً، أو يضربه الاثنان والأربعون قاضياً بسيوفهم، أو يركز لولب الباب على عينه وكلما يفتح الباب يصيح من الألم ويبقى مخلداً بالعذاب إلى الأبد.

10 ـ ان بيانات كهنة مصر هذه قد أذهلت عقول الناس وجعلتهم يوجسون خيفة من يوم الدين. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الشعور أن أدّت هذه المعتقدات أجلّ خدمة للمجتمع العالمي. فقد تناقص الشر وزاد الخير وكثرت الصدقات وإطعام الجيّاع وإكساء العراة، وأدى هذا الشعور أيضاً إلى عدم التعدي على الغير وتخليص الضعفاء من غطرسة الأقوياء وإعطاء كل ذي حق حقه، كل ذلك لاستجلاب عطف إله الدينونة الأعظم واكتساب رضاه وتحاشي سخطه واجتناب غضبه والتقرب منه والتخلص من ناره والدخول في جنانه. وإذا كان المعتدي قد يجد سبيلاً للتخلص من عقاب السلطة الزمنية في هذه الدنيا بنفوذه وجاهه وحرمته، فأين المفر وكيف النجاة من السلطة الإلهية بعد الموت؟ فلا قريب يدفع ولا صديق يشفع ولا معين يرفع ولا سحر ينفع سوى الأعمال الذاتية الصالحة. وحتى فرعون، وهو ابن الشمس وسليل الآلهة سيحاسب عن كل ما اقترفته يداه أثناء حياته أمام الإله «رع» العظيم، فالويل ثم الويل لأفراد الناس.

ان هذه المعتقدات الدينية قد تغلغلت في عقول الناس حتى الاشباع منذ عصر الأسرتين الخامسة والسادسة الفرعونية حتى الأزمنة المتأخرة وازدادت قوة وشدة في زمن الأسرة الثانية عشرة التي حكمت مصر من سنة 2000 إلى سنة 1788 قبل الميلاد.

11 ـ انتشرت هذه العقائد من مصر إلى شرقي حوض البحر المتوسط فأخذ منها الفلسطينيون والفنيقيون والكلدانيون وغيرهم ما شاؤوا أن يأخذوا، وصاغها كل منهم بحسب تفكيره واحتياجه

(1) وهذه تذكرنا جلوس السيد المسيح عن يمين الله.

ومحيطه وبأشكال شتى. وأما اليونانيون فقد ذكرها لأول مرة هوميروس بألياذته بصورة مشوشة مضطربة غير واضحة، وذلك بعد ألفي سنة من ظهورها في مصر ثم أيّدها الشاعر بندار Pindar بوضوح أكثر، حتى جاء افلاطون وسكبها بقالب يتفق وعنعنات مواطنيه الدينية، فجعل «زوس» الإله اليوناني عوضاً عن «اوزيريس» الإله المصري وجعل «فينوس» و«ردامانت» و«ايباك» أولاد الإله «زوس» حكّاماً عوضاً عن «انوبيس» و«توت» و«معات» الآلهة المصريين، وبقي الجوهر المصري، ذلك الجوهر في الحساب والنعيم والعذاب سوى بعض التعديلات بالأسماء والمواقع والأشكال، كما سيأتي بيانه.

12 ـ والحق أنه عمل عظيم وفكرة مستحسنة انبثقت من أدمغة الكهنة المصريين في وقت كان فيه البشر همجاً وحشاً لا رادع يردعه ولا زاجر يزجره عن التجاوز والنهب والسلب والغصب والاعتداء على الغير. فكانت هذه الفكرة بما فيها من غموض وإبهام تسوق الكتل البشرية إلى عمل الخير واجتناب الشر، وقد خطا فيها البشر خطوات واسعة في سبيل تهذيب النفس وفي ضرورة التزام جانب العدل والحق في المعاملات اليومية الجارية حذراً من آن يصيبه العقاب في يوم الحساب.

13 ـ **يوم الحساب في الديانة اليونانية:** الدينونة عند اليونان القدماء مأخوذة من دينونة المصريين تماماً كما مر ذكره، ولا تختلف عنها إلا بتبديل الأسماء. وقالوا أيضاً، عندما تخرج الروح من الجسد تسير في ظلام دامس وتقف عند ملتقى الأنهر فيتولاها «هرمس» إله الهواء والغيوم والأمطار ويوصلها إلى بحيرة عظيمة حتى يتم دفن الجسد فيستلمها منه الإله «خارون» ويسوقها إلى بلدة الظلام من طريق صعب المرور، كله تعاريج وأخاديد وتلافيف مملوء بالعفاريت فيستلمها منه كلب ذو ثلاثة رؤوس يوصلها إلى محكمة الإله «مينوس». وبعد أن ينشر كتابها ويرى حسابها عن الأعمال الدنيوية إما أن ترسل إلى جهة اليمين وإلى قصر الأليزة في الجزائر السعيدة وهناك الورود والأزهار والأثمار والأنهار والخمر المعتق والمأكولات الشهية، وإما إلى اليسار إلى واد عميق تلتهب فيه النيران وهو محاط بأسوار ثلاثة لا يمكن الخروج منه. وهي عين النظرية التي يقول بها المصريون بتعديل طفيف وتبديل بأسماء الآلهة.

ان أول من اثبت محاسبة الأرواح بعد الموت في بلاد اليونان هو الشاعر هوميروس. فقد ذكر لأول مرة في إلياذته أن الملك الإله «عوليس» عندما نزل إلى الجحيم شاهد الإله «مينوس» يقضي بين الأموات (وهي مأخوذة من ذهاب سانتي مع ولده سينوزبريس إلى القاعات التي تحاسب فيها الأرواح في جبل ممفيس) وذكر أن الميزان منصوب امام الإله الأعظم «زوس» لوزن طالع الطرفين المتحاربين (وهي مأخوذة غلطاً من الميزان المنصوبة أمام الإله الفرعوني اوزيريس لوزن الحسنات والسيئات البشرية).

وذكر الشاعر اليوناني «بندار» في قصيدته حضور قضاة العدل أثناء الحساب عند محاكمة المجرمين عن أعمالهم الدنيوية (وهي مأخوذة من ـ 42 ـ إلهاً بمعية الإله اوزيريس المصري).

وذكر أفلاطون ـ الفيلسوف اليوناني ـ ان بالجحيم قضاة يحكمون بالعدل فيرسلون الأرواح الطيبة إلى الجزائر السعيدة، والأرواح الخبيثة إلى قاع الجحيم والأرواح التي عملت الخير والشر إلى التناسخ فتولد الروح بجسد امرأة حتى تصلح حالتها وتعود إلى الرجل وإلى الآلهة، وإن لم تصلح

حالتها فتولد بجسم حيوان أو قد تنحدر إلى الخنافس والديدان حتى تصلح حالتها وترتقي حتى تصل إلى المرأة فالرجل فالآلهة.. وهي مأخوذة من التناسخ الهندي.

14 - **يوم الحساب في الديانة البرهمية:** الدينونة عند البرهميين في الهند، وهي الأصل في دينونة أفلاطون، هي أن الروح تنتقل من جسد إلى آخر (التناسخ) عادة. فعندما تخرج الروح من البدن ترسل إلى الامتحان أولاً، فإن كانت حسنة ترسل إلى «ايندرا» وتنال عند هذا الإله السعادة في النرفانا. وإن كانت شرّيرة فترسل إلى الجحيم لتأكل هناك الخبز كقرص من نار ويعذبها آلهة العذاب، ثم ترسل إلى الأرض لتدخل في الحيوانات وتكفر عن سيئاتها.

لا يوجد خلود الأرواح في حالتي النعيم أو العذاب في معتقدات البرهميين. فالأرواح الطيبة بعد أن تنال السعادة تنزل مرة أخرى إلى الأرض لتدخل في أجساد الآلهة أو المقربين للآلهة. وأما الأرواح الشريرة فتدخل في جسم كلب أو حمار، وقد تدخل في شجرة أو نبات صغيرة فتعلو وتهبط مدة تقدر بأربعة وعشرين ألف ألف سنة حتى تصلح حالتها وتتخلص من الشرور.

وقد انتشر مذهب التناسخ الهندي في بلاد إيران أيضاً فكان كثير من فلاسفة إيران ومفكريها وعلمائها يقولون بمذهب التناسخ والحلول والرجعة.

15 - واليابانيون يعتقدون بذهاب الروح الصالحة عند امبراطورهم السادس عشر المتأله ولا يزيدون عليه شيئاً. وليس لديهم معتقدات عن الحساب والنعيم والعذاب بعد الموت. ولا يوجد بعث بعد الموت. كذلك في ديانة كونفوشيوس.

16 - وكهنة «لاما» في «التيبت» يعتبرون ان للإنسان ثلاثة أرواح: الأولى تذهب إلى عالم الغيب للدينونة، والثانية تبقى في البيت بين الأهل والخلان، والثالثة تنزل الى القبر مع الجثة. ولكل روح طقوس خاصة مختلفة لطلب الغفران يتّخذها الكهنة، لجر المغنم، حتى تستريح من عنائها وتنقطع عن الأكل والشرب فيحتفل الكهان بقطع الطقوس لآخر مرة.

17 - **يوم الحساب في الديانة السومرية والكلدانية والآشورية:** كان أول من فكر في الحياة الخالدة هو جلجامش البطل الأسطوري السومري حفيد أوتو نبشتم «نوح الطوفان» كما جاء في اسطورته. ولما فشل في محاولاته كلها اعتبر السومريون الحياة الخالدة خاصة بالآلهة وحدها وأعطوا للبشر حياة ثانية تحت طبقات الأرض المظلمة وهي التي لا رجعة منها، يحكم فيها الإله قاسي القلب «نترغال» تعاونه زوجته اريش كيكال. وكانوا لا يزيدون عليها شيئاً. ولم يكن لدى الكلدان نظريات حول الحساب بعد الموت، إنما كانت التضرعات والاستغاثات بالآلهة لتأمين الصحة ودوام العافية والتمتع بالسعادة الدنيوية وإعطاء العمر الطويل واكتساب الرحمة والصفح للتخلص من الأرواح الشريرة «الجان» المولدة للأمراض.

وكان الاعتقاد السائد عندهم أن لكل إنسان ملكاً يرافقه طيلة حياته يحميه من الآفات والشرور. وإذا تخلى عنه لتقصيره في تقديم العبادات للآلهة، تحل محله الشياطين فتولد فيه الأمراض والاسقام ولا يمكن اخراجها إلا بالتوبة والاستغفار والسحر وتدخّل الكهنة. فلم يكن في الدين البابلي ما يسمى الثواب والعقاب الأخروي، إنما كانا يخصان الحياة الدنيوية فقط. أما بعد

الموت، فيذهب الناس إلى دار الأموات متساوين فلا نعيم فيها ولا عذاب. ولذلك اتجه العقل البابلي إلى الحياة السعيدة في الدنيا، فأعمل جهده للتمتع بمحاسنها والإقبال عليها والتزود بأكبر نصيب من نعيمها ومسراتها.

ثم انتقلت إلى ميزوبو تاميا [ما بين النهرين] بعض المعتقدات المصرية حول الحساب بعد الموت، فجعلوا أن الروح بعد أن تفارق الجسد تنتقل إلى محل مظلم يسمى «ارالو» تحت الأرض وهناك تتولى الإلهة «آلات» محاكمتها ليس عن أعمال الخير والشر، إنما عن علاقتها مع الآلهة في حياة الشخص وعن تقديمه الهدايا والقرابين للمعابد. وهي النظرية المصرية عينها بتبديل الأسماء.

18 ـ **في الديانة المجوسية**: أخذ زاردشت أيضاً محاسبة الأرواح ووزن الأعمال بعد الموت من الديانة الفرعونية، فيلاحظ وزن الأعمال في ديانته الإلهان «رشونة» إله العدل و«مثرا» إله النور. فمن رجح ميزانه صعد إلى السماء، ومن خفت موازينه هبط إلى الهاوية، ومن تساوى ميزانه دخل في التناسخ فيعذب بجسم حيوان حتى يتطهر من الآثام فيرتقي إلى الإنسان.

ومن قواعد الزرادشتية أن الأموات يمرون على صراط يسمى «سنغات» ينتهي رأسه في الجنة عند الإله «اهورامازدا». فأما الاخيار من الناس فيمرون عليه بسلام، وأما الأشرار فيرونه حاداً كالسيف ودقيقاً كالشعرة فيسقطون منه الى جهنم وتلتهمهم النيران.

19 ـ **يوم الحساب في الشريعة الإسرائيلية**: من الغريب أن الشريعة الإسرائيلية لم تتأثر مطلقاً بالقواعد المصرية المنتشرة في بقاع القسم الشرقي من حوض البحر المتوسط، إنما تأثرت بشدة بالقواعد البابلية. فليس في أسفار التوراة ما يدل على البعث بعد الموت والحشر والنشر والحساب والكتاب والنعيم والعذاب في اليوم الآخر لا في الأجساد ولا في الأرواح. وإذا كانت فرقة الآسية أو الآزية اليهودية قد اعتبرت أن الروح لا تموت إنما تحلق في النور أو تستقر تحت الأرض في عالم من العذاب والظلام، وأن فرقة الفريسية قد قبلت مؤخراً بنظرية السعادة بعد الموت، وذلك بالاستناد إلى ما جاء في الاصحاح الثاني عشر من كتاب النبي دانيال في قوله: «ان كثيرين من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي»، فليس في اسفار التوراة كافة، قواعد عن يوم الحشر يعبأ بها. فلذلك يشك اليهود كافة من يوم الدين ويرتابون من الحشر والنشر والميزان. وما الثواب عندهم إلا نصر أو بلاء في الدنيا فقط. وهي طبق الأصل لقواعد الديانة البابلية الأصلية، ولعلها مأخوذة عنها.

كانت التهم التي اسندت إلى بولس الرسول عند محا كمته في القدس كما جاء برسائله، هي قوله بقيامة الأموات بعد الموت، الأمر الذي لا اثر له في التوراة، فاعتبره رؤساء اليهود كفراً يستوجب الموت. ولم يتمكن الحاكم السياسي من إعدامه كسائر الفلسطينيين لحمله رعوية الامبراطورية الرومانية فأرسله إلى روما لمحاكمته ونجا هناك من الموت كما هو معلوم.

20 ـ **يوم الحساب في الديانة المسيحية**: أيّدت الديانة المسيحية الدينونة في يوم القيامة بالأرواح فقط دون الأجساد. فجاء بالاصحاح (22 ـ 30) من انجيل متّى عن لسان السيد المسيح «ان البشر يوم

قيامة الأموات لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء». وأما تلاميذ المسيح فكانت تعاليمهم هي أن يوم القيامة هو بر وسلام وفرح بالروح القدس والدخول في ملكوت الله .

يقول بولس الرسول (12 ـ 15): «ان لم تكن قيامة أموات فلا يكون المسيح قد قام». وفي (5 ـ 15): «ان لحماً ودماً لا يقدران ان يرثا ملكوت الله ولا يرث الفساد عدم الفساد». وفي (51 ـ 15): «هو ذا سر اقوله لكم، كلنا نتغير بلحظة واحدة عند البوق الأخير. فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمي فساد ونحن نتغير لأن هذا الفساد لا بد أن يلبس عدم موت».

21 ـ **يوم الحساب في الديانة الإسلامية:** ويسمى يوم القيامة ويوم الآخرة ويبدأ منذ أن يلفظ الشخص نفسه الأخير. وبالنظر لما جاء في الشريعة فإن القبر أول منزل من منازل يوم الآخرة، وفيه أول مرحلة من مراحل النعيم للصالحين والعذاب للمجرمين يتولاه الملكان «منكر ونكير» حتى تقوم الساعة. وعندما ينفخ النفخة الأولى بالصور وهو البوق وهو القرن وهو النافور ويسمى «يوم الراجفة» فيصعق من في السماوات ومن في الأرض. وفي النفخة الثانية وتسمى يوم «الرادفة» فإذا جميع البشر قيام ينظرون. فيكون كسائر الأديان البعث والحشر والحساب والكتاب والميزان ثم الجنة أو جهنم.

وأما ما يعود إلى الحساب، فقد جاء في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿وكل إنسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾. وفي سورة الانشقاق قوله تعالى: ﴿فأما من اوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى اهله مسرورا. وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعوا ثبوراً ويصلى سعيرا﴾.

وحول الموازين في سورة القارعة قوله تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفّت موازينه فأمه هاوية﴾. وفي سورة الأنبياء: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾. وفي سورة الاعراف قوله تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾.

وجاء حول البعث والحشر بعد الموت في سورة الرعد قوله تعالى: ﴿وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد﴾. وفي سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً؟ قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا﴾. وفي سورة المؤمنين قوله تعالى: ﴿قالوا اذا متنا وكنا ترابا وعظاماً انّا لمبعوثون. لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل أن هذا الا أساطير الأولين﴾. وفي سورة الصافات قوله تعالى: ﴿أءِذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أءِنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون. قل نعم وانتم داخرون. فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾. وفي 49 منها: ﴿فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمدينون قال هل انتم مطلعون﴾. وفي سورة فصلت قوله تعالى: ﴿ويوم يحشر اعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي انطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾. وفي سورة التغابن قوله تعالى: ﴿زعم الذين

كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن بما عملتم﴾. وفي سورة القيامة قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه. بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾. وفي النازعات قوله تعالى: ﴿يقولون أئنا لمردودون في الحافرة أئذا كنا عظاماً نخرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة﴾. وفي سورة ياسين قوله تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾. وفي سورة (ق) قوله تعالى: ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾.

وجاء حول الصور في سورة طه قوله تعالى: ﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا﴾. وفي سورة المؤمنين قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾. وفي سورة الزمر قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾. وفي سورة الحاقة قوله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة... فيومئذ وقعت الواقعة﴾.

22 ـ **يوم الحشر والحساب عند الدهريين والماديين:** وأما الماديون والدهريون قديماً وحديثاً، فهم ينكرون الحشر والحساب والكتاب وكل ما هو متعلق بالحياة الثانية بعد الموت ويقولون ما يهلكنا إلا الدهر وليس وراء ذلك من شيء. ويقولون كل ما جاءت به الكهان والرهبان والحكماء والأنبياء ورجال الأديان كابر عن كابر منقول بالتتابع عن أساطير الأولين.

23 ـ وإذا كنا قد ذكرنا شيئاً عن أشكال النعيم والعذاب في الأديان الوثنية والقديمة والمسيحية، فلا نرى من حاجة لذكر ما هو موجود في الجنة أو في جهنم بالنظر للديانة الإسلامية، فهو مذكور تفصيلاً في القرآن. ومن أراد الاطلاع فعليه أن يقرأ سورة «الواقعة».

24 ـ **البعث بالروح لا بالجسد:** إن الأديان القديمة كافة والحديثة الناشئة في شرقي البحر الأبيض المتوسط، سوى اليهود والكلدان، متفقة على وجود البعث بعد الموت، والمحاسبة أمام الإله، والنعيم والعذاب في اليوم الآخر عن الأعمال الدنيوية، وعلى ان البعث سيكون ـ سوى الإسلامية ـ بالروح لا بالجسد.

ولقد قرر علماء العالم الإسلامي منذ البدء حتى الآن وفي مقدمتهم الأشعري، بأن البعث سيكون بالجسد مع الروح. ويظهر من تدقيق الآيات القرآنية حول البعث التي سبق أن ذكرناها أنها وردت جميعها بصيغة الاستفهام ولم يقع الجواب إيجابياً أن سيكون البعث بالجسد مع الروح.

إن جميع هذه الأسئلة تبحث عن البعث بعد أن يكون الجسد عظاماً ورفاتاً ثم تراباً وهو في حالة العدم، وان الأجوبة عنها كافة: نعم سيكون البعث وهو لا ريب فيه إلا أنه ليس في هذه الآيات ما يدل على أن الإنسان سيقوم من قبره بعظمه ولحمه وجلده وظفره ويتقدم للحساب. وأما ما جاء في سورة فصلت في قوله تعالى: ﴿حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾. وفي قوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾. فليس معناه ان عضو السمع وهي الأذن وصيوانها، وعضو البصر وهو العين وأهدابها، ولحاف الجسد وهو الجلد وشعره وأظفاره سينطق كل منها ويتكلم ويؤدي الشهادة وهو بمادته الأصلية الدنيوية. وبالنظر لأحكام الديانة

الإسلامية وصفات الباري تعالى، فإن الله أجلّ وأعظم وأغنى من ان يستشهد الأذن والعين والجلد لحاجة الإنسان على أعماله. فإن الشهادة المنوه عنها ستكون بما يعبر عنه بلسان النجوى والحال لا بلسان اللفظ والقال. فيجب تفسير هذه الكلمات بأعضاء الحس المعنوية واعتبارها مجازية كما فسرت ﴿يد الله فوق ايديهم﴾، و﴿اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾، فهي ليست اليد المكونة من لحم وعظم وليس لسيد الرسل جناح حتى يحفظه. وما هي إلا استعارات كلامية تدل على صفات معنوية. ومن المعلوم أن الجسم الإنساني والحيواني على السواء مكون من مواد ترابية معدنية أهمها الفحم والكلس والبوتاس والصودا والحديد والماء والفوسفور وغيره، كما وان الحشرات والخنافس والديدان أيضاً كلها مكونة من هذه المواد عينها ولا فرق بينها مطلقاً، وتتحصل هذه من اكل النباتات والمحصولات الأرضية واللحوم. وهناك دورة دائمية للذرات بين الإنسان والحيوان والنباتات والأرض، فالمادة الواحدة قد تدخل ملايين المرات بالإنسان والحيوان والنبات فتمكث مدة من الزمان في جسم ما، ثم تطرح على الأرض لتدخل جسماً آخر مرة أخرى. كما وقد تهلك في كل ثانية ملايين الخليات من الجسد الإنساني فتطرح للخارج وتولد غيرها. وقد ثبت أن كريات الدم الحمر مثلاً تدركها الشيخوخة وتسقط عن العمل فتهلك بعد عمر لا يتجاوز الشهر الواحد تقريباً فتأخذ مكانها كريات جديدة فتية. ومن المعلوم ان في كل ميلمتر مكعب من الدم يوجد خمسة ملايين كرية. وفي جسم الإنسان خمسة ارطال (كيلو) دم. إذن يوجد في الجسم الإنساني دائماً خمسة وعشرون ألف مليون كرية تتبدل بغيرها خلال شهر واحد. هذا في الدم فقط. وأما خلايا الأقسام اللينة والرخوة الأخرى الموجودة في الجسد، فهي أكثر من هذا العدد بملايين المرات وتتبدل بغيرها بمدة تتراوح بين الستة أشهر والسنة، وكذلك المواد الصلبة كالعظام والغضاريف، فهذه قد تمكث بضع سنوات في الجسد، وفي ختام هذه المدة قد لا يبقى خلية واحدة قديمة بالجسد الإنساني وتقوم المواد الزلالية ببناء الجسم وتجديد خلاياه المختلفة دوماً.

25 ـ فإن إنساناً ما بهذا اليوم هو غيره تماماً قبل عشر سنوات، وسيكون غيره تماماً بعد عشر سنوات أخرى. وفي كل يوم قد تطرح منه أقسام على سطح الأرض وهي الذرات والخلايا المائية. وهذا هو الموت الجزئي المستديم المستمر في كل لحظة من دون أن نشعر به. وفي الساعة التي تتوقف فيها هذه العمليات من طرح وبناء يحصل الموت الكلي فيهلك الجسد بمجموعة. فكان التبدل الجزئي والموت الجزئي في الجسد الإنساني والحيواني على السواء جاريين باستمرار ومتتابعين منذ لقاح البويضة في رحم الأنثى حتى الموت الكلي بلا انقطاع. وتختلف نسبة تكوين الخلايا الجديدة وهلاكها بالنظر لعمر الإنسان. وأما عند الموت الكلي من أثر مرض أو شيخوخة، فلن يبقى للقبر من الجسد الإنساني إلا أقله. وإذا قلنا بحشر الأجسام وبعثها، فإن الحشر سيكون لقسم ضئيل من الجسد المادي الذي سينزل إلى القبر. وأما الأقسام الأخرى، فقد توزعت على سطح الأرض بمختلف السبل وتحولت إلى مواد أخرى.

26 ـ ان القاعدة الأساسية في الديانة الإسلامية هي ان الله قادر على جمع هذه الأجزاء كافة التي تدخل الجسد وتخرج منه طيلة حياة الإنسان منذ لقاح البويضة حتى الموت الكلي. فما هو القصد من جمعها

ثانية؟ إذا كان الغرض من جمعها للشهادة، فإن الله غني عنها وعن شهادتها وهو ليس بحاجة للاستشهاد المادي.. وهو لا يسأل عما يفعل وله حق التصرف بمخلوقاته من دون معارض. ومن جهة أخرى، ان جميع هذه الذرات التي دخلت الجسد وخرجت منه طيلة الحياة قد تشكل جسماً يعادل عشرات أضعاف الجسم الطبيعي للإنسان. وان ذرة واحدة من ذراته من المحتمل أن تكون قد دخلت في تركيب أجساد ومواد أخرى عشرات آلاف ملايين المرات. كما ان الجراحين في زماننا هذا قد ينقلون بعض الأعضاء بكاملها «كالدم والجلد والعظام وقرنية العين... الخ، من جسد حتى أو من ميت إلى جسد آخر للمعالجة والترقيع فتبقى في الجسد الأخير وتكون كجزء منه. فيكون كل جزء من هذه الأجزاء مشتركاً بين شخصين أو أكثر لا محالة. ومع هذا كله يمكن أن تشهد كل ذرة من هذه الأجزاء هنا كذا وهنا كذا ولا بأس بذلك، ولكن ما هو مصير تلك الذرة المادية بعد أدائها الشهادة؟ فيجب ان تقاسي العذاب الأبدي لفسق شخص كانت فيه، ويجب آن تجد السعادة الأبدية لتقي شخصاً آخر كانت فيه كذلك. فهل يجوز أن تجد تلك الذرة سوء العذاب وحسن الجزاء في وقت واحد؟

27 ـ ان مدلول الآيات القرآنية تؤكد وقوع البعث وتؤيّد قدرة الله على جمع الأجزاء كافة وإحياء العظام وهي رميم وإعادتها كما خلقها الله وأنشأها أول مرة، إلا أنها لا تؤكد ولا تؤيد على ان هذه العظام وبقايا الجسد المكونة من التراب ستقوم من القبر مضافاً إليها الأقسام المنتشرة فوق سطح الأرض لكي تكون كما كانت في كل دور من أدوار الحياة الدنيوية وتتقدم للشهادة والحساب والكتاب والنعيم والعذاب، مع العلم ان لا فارق كيماوياً بين ذرة حديد المسمار وذرة الحديد في دم الإنسان، فماذا يفعل الله بحفنة من تراب لا حس لها والأرض مليئة بأمثالها؟

ولما كان الأحساس والشعور والإدراك من مميزات النفس الإنسانية وبدونها لا قيمة للمعادن الأرضية التي تتألف منها ذرات الجسم المادي، فوجب ان يكون النعيم والعذاب للأقسام ذات الأحساس من الوجود أضراراً، والشيء الحساس ليس إلا النفس الإنسانية.

فلو كان قد حصر بعض رجال الدين الإسلامي كلامهم حول النفس فقط لكانت اقرب إلى احكام ونظريات الديانة الإسلامية من اوجهها الأخرى، خاصة في ما يتعلق منها بصفات الله من الرؤية وغيرها. ويظهر أن رجال الدين رجحوا البعث بالجسد الإنساني المادي للاستمتاع بلذائذ الجنة إلى أقصى حد مستطاع، معتبرين أن هذه الحياة الأخروية هي مادية صرفة كحياتهم هذه. وقد فسّر المفسّرون في مختلف الأزمنة وعلى اختلاف أرائهم وافكارهم الآيات القرآنية على هذه الشاكلة من دون أن يستندوا على آية صريحة واحدة تؤيد مدعاهم.

28 ـ فلا يجب والحالة هذه اعتبار الشراب الطهور والحور العين والغلمان المخلدين واللبن الذي لم يتغير طعمه، من المادة التي نعلمها، إذ إن هذه المادة كافة معرضة للتبدل والتحول ويتغير طعمها، وبهذا تكون محتويات الجنة جميعها ليست مادية بداهة.

فلما كانت محتويات الجنة روحانية صرفة فكان من الضروري أن يكون البعث بالنفس لحصول التجانس وملائمة الوسط وليتمكن الإنسان أن يخلد فيها، إذ ليس من الممكن أن يبقى جسم معدني

مادي في وسط روحاني لحظة من الزمن، فكان من الواجب على أرباب المعارف أن ينفوا عنهم الصور الجسمية ويستبدلوها بالصفات النفسانية.

وإذا فرضنا جدلاً ان محتويات الجنة هي مادية ـ وهو فرض محال ـ فيجب أن تكون أولاً عرضة للتبدل والتغير تبعاً لقوانين المادة. ثانياً لا فرق حينذاك بين هذه الجنة الموعودة المادية وما نعيش فيه الآن على ضفاف الرافدين وبردى والنيل ولدينا القصور الشامخة والحدائق الفاخرة، فيها الأوراد اليانعة والأزهار الزاهية تجري من تحتها الأنهار، أرائكها حرير وديباج، وسررها زان وعاج ونساؤنا الجميلات الفاتنات كحور العين لم يرتشف ظلمهن غيرنا إنسان، ولم يطمثهن دوننا إنس ولا جان. وقد بذل أجدادنا أرواحهم لإيصالنا إلى هذه الجنان. وها ان الديانة الإسلامية فيها خالدة ونحن فيها مخلدون منذ ألف وثلثمائة سنة ولا قيمة للفرد إنما العبرة للمجموع. فتكون الجنة المرغوبة بالنظر للتفسير المادي الذي يراه بعض رجال الدين الإسلامي قد حصلت لدينا وتبوأنا مقاعدها وجلسنا على سررها وأرائكها. إلا أن هذا ليس من الواقع في شيء مطلقاً ولم يكن هذا قصد علماء الإسلام بتفاسيرهم المطولة، إنما كان قصدهم هو الترغيب لدخول الفردوس والتمتع باللذائذ الجسمانية المادية التي يعلمونها إلى أبعد حد ممكن. وهذا لا يمكن أن يكون على زعمهم إلا بالجسد المادي. ولم يخجل بعض الرواة ولم يتورع البعض من المحدثين من أن يسندوا زوراً وكذباً إلى سيد الرسل قوله: «يعطى المؤمن في الجنة قوة مائة من الجماع»، مما يدل على أن هؤلاء وجهوا افكارهم إلى أقصى حدود اللذائذ المادية وتركوا الآية الكريمة الصريحة الواردة في سورة الفجر «28» التي تؤيد وتؤكد أن البعث سيكون بالنفس لا بالجسد المادي وتلك قوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾. وكذلك ما جاء في سورة قاف قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾. وفي سورة النحل: ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون﴾. وفي سورة آل عمران ـ 29: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمداً بعيداً﴾. وفي سورة الانفطار ـ 4: ﴿علمت نفس ما قدّمت وأخّرت﴾. وفيها ـ 18: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾. وفي سورة التكوير ـ 13: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾. وفي سورة يونس 27 ـ 29: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين اشركوا مكانكم... هنالك تبلوا كل نفس ما اسلفت وردوا إلى الله ...﴾. وفي سورة البقرة ـ 48: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً...﴾. وفي سورة لقمان ـ 28: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة...﴾. وفي سورة العنكبوت ـ 57: ﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾. وكذلك المعنى الدقيق في قول سيد الرسل: «ان الجنة لا تدخلها العجائز... إلى أن قال ـ أن الله يحوّلهن ابكاراً عرباً اترابا» تدل دلالة واضحة على أن التي سترجع إلى ربها يوم القيامة وتحاسب عن أعمالها وتدخل الجنة راضية مرضية هي «النفس». وان التي ستأتي يوم الوعيد هي النفس وليست العظام والجلود والعيون والآذان والأيدي والأقدام، وبالجملة ليس هذا الوجود البالي من صبيان وكهول وشيوخ وعجائز. وأما ما هو موجود بالجنة من القصور والشراب والحور العين والسرر والفاكهة واللحوم، فليست من المادة فلا نكون نحن ولا

محتويات الجنة والنار من المادة الأرضية التي نعلمها. فإذا كان حساب وكتاب ونعيم وعذاب، فللنفس وما هذا الهيكل الذي نراه إلا حفنة من تراب وإلى التراب يعود.

29 ـ ولما كان لا يوجد في عالم النعيم الأخروي ضرورة التناسل والتكاثر لاستدامة الحياة، فلا يجب ولا يحتمل ولا يؤمل إمكان حصول الاقتراب الجنسي بين الرجال والحور العين كما قد ينتظره الكثيرون من العباد والزهّاد، إنما يكون هناك تمتع منوي ﴿ورضوان من الله اكبر﴾ (التوبة)، لا علاقة له بالغرائز المادية الجنسية التي نعلمها. وأما الاعتقاد بأن الحور العين واقفات وراء باب الجنة ينتظرن الواردين إليهن لإشباع غرائزهم الحيوانية فهو غلط ولا يليق ببيت الله. فقد جاء بالقرآن الكريم: ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾ (25 ـ البقرة). فإن التطهير يستعمل في الأجسام والأخلاق وفي الأفعال كافة وهو ضد الدنس.

30 ـ ان هذا التصريح والتفسير، وان كان يخالف آراء أكثر رجال الدين الإسلامي ويغيظ كافة الدراويش والزهاد والعباد أولئك الذين يحلمون بمعانقة الحور العين ويطمعون بالمأكولات الشهية والمشروبات الإلهية اللذيذة وهم كما هم بجسدهم الحالي المعروف عندهم، إلا أنه قد يخلص الديانة الإسلامية من انتقاد اولئك الذين يعتبرون بغير حق، وبالنظر لما سمعوه من البعض، من ان جنة المسلمين ما هي إلا أكل وشرب ونكاح، ويتفاخرون بأن جنتهم لذة وسرور بروح القدس.

31 ـ يقول الشيخ محي الدين بن عربي في كتابه «الفتوحات المكية» في الباب الرابع والثمانين ومائتين ما يلي:

أن صور الحشر لا تنحصر ولكن نذكر طرفاً منها الأول الحشر في الصورة التي اخذ عليهم الميثاق بها الثاني ـ الحشر من تلك الصورة إلى هذه الصورة الجسمية الدنيوية. الثالث الحشر في الصورة التي تنتقل الروح إليها بعد الموت الرابع ـ الحشر في الصورة التي يسألون فيها في قبورهم. الخامس ـ من الصورة التي سألوا عنها إلى الصورة التي يمكثون فيها في البرزخ فيكون فيها احدهم كالنائم إلى نفخة البعث فيحشر في الصورة التي فارقها في دار الدنيا ان كان بقي عليه سؤال لأجل جسده الموصوف بالتكلف، فإن لم يسأل يحشر في الصورة التي يدخل بها الجنة والنار فإن الناس إذا دخلوا الجنة أو النار حشروا في صور لا نهاية لها. إلى أن يقول: «إذا دعوا إلى الرؤية حشروا في صور لا تصلح إلا للرؤية فإذا عادوا حشروا في صور تصلح لأهل الجنة».

وقال الشيخ محي الدين أيضاً «وقد زل بعض أهل الكشف فقال تحشر الأرواح دون الأجسام حين رأى تطور أهل الجنة بصورهم كيف شاؤوا وغاب عنه انطواء الأجسام في الأرواح خلافاً لأهل الدنيا المنطوية أرواحهم في اجسامهم».

ويقول فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿متكئين عليها متقابلين﴾ ان كل احد يقابل كل احد في زمان واحد. فإن جميع جهاتهم وجه كالنور الذي يقابل كل شيء.

وقد تحاشى الاستاذ الكبير أحمد أمين الدخول في هذا المعترك عند بحثه لهذا الموضوع في كتابه «فجر الإسلام» واعتبر أن في الجنة نوعين من الثواب: نوع من اللذائذ الجسمانية «من أكل وشرب وأزواج»، ونوع روحي وهو رضاء الله والقرب منه.

31 ـ قلت من المعلوم أن الشيخ محي الدين بن عربي من فلاسفة الإسلام وقد ذهب به الفكر والاجتهاد إلى ضرورة تبدل الصور والاشكال مرات ومرات لامكان تكييف الإنسان ونقله من العالم المادي المحسوس إلى العالم المعنوي اللامحسوس. وقد اعترف بضرورة الحشر في صور تصلح لأهل الجنة تاركاً مصير الجسم المعدني الإنساني جانباً. إلا أنه عاد واعترض على بعض أهل الكشف القائلين بحشر الأرواح دون الأجسام مئولاً ذلك تأويلاً خيالياً بقوله «انطواء الأجسام في الأرواح» فتكون على زعمه الروح الظرف والجسم المظروف خلافاً لما هي عليه الحالة في الدنيا. وبذلك تكون الروح بالنظر لتأويله طليقة من المادة تقيل الصور وتتحرك كيفما تشاء وتأخذ الأشكال المختلفة. ولكنه لم يبين كيفية امكان انطواء الجسم المادي والمعدني الكثيف في الروح الشفافة الخفيفة اللطيفة وما هي الضرورة الماسة لوجود هذا الجسم مظروفاً لا حراك به مسلوب الإرادة. ومع هذا، فرغم انتقاده اهل الكشف فإنه قد اعترف أن هذا الجسم المعدني لا يدخل الجنة وأن التي ستدخلها وتتنعم بها هي الروح بصورها المختلفة. ولعله تذكر ان الروح لا تستكمل لذتها ما لم تتقمص المادة وهو ذهاب مغلوط، أو انه أبى بهذه النظرية العجيبة في تبدل الصور خشية منايرة وللتخلص من منتقديه الجامدين آنذاك.

الكتاب الرابع

المعتقدات الوثنية ـ 1

الديانات السومرية والاكدية والكلدانية والأشورية

المقدمة

منذ أن فكر الإنسان ووعى وقدر ودبر، خاف من العوامل المحيطة به من كل جانب، منها الآتية من السماء وهي الآثار الطبيعية كالرعد والبرق والزوابع والصواعق والخسوف والكسوف والمذنبات... ومنها الأرضية كالطوفان والأوبئة والأمراض والاسقام والآلام، وأخيراً الموت الذي هو أكثر ما يخافه المرء ولم يكن يفهم له معنى. ولما لم يستطع تعليل هذه الحوادث الكونية ساقه حب الحياة إلى تحري المسبب لهذه العوامل القاسية والالتجاء إليه لوقاية نفسه. ولما عجز عن إدراك السبب والوصول إلى المسبب تخيل بفكره انها نازلة من السماء وأن هناك قوى خفية وأرواحاً شديدة التأثير لا ترى بالعين تسيطر على هذا الكون، وهي التي قد تصب بين آونة وأخرى هذه الآفات وتنزل من عليائها هذه العوامل والمصائب والمهلكات، وهي التي قد تسبب له الموت وفقدان الحياة اللذيذة. وكلما زاد عنده الخيال رسخت في مخيلته وتجسمت في أفكاره هذه القوى الخفية اللامرئية فاتجه إليها بكل عواطفه طالباً معونتها وراجياً عطفها ومودتها لتحفظه من الآلام والاسقام والموت المبكر وتمنحه القوة والصحة والعافية والعمر الطويل، وشرع بعبادتها والتودد إليها وسماها «آلهة» ووضع قواعد وشعائر لهذا الطلب والرجاء وسماه «دين».

ولما تطورت عنده الأفكار وكثرت الاحتياجات واتسعت الأوهام والخيالات اعتبر كل ظاهرة من الظواهر الطبيعية إلهاً. فكان كل إله من الآلهة في بدايته لا يعدو كونه شكلاً من اشكال القوة التي تتمثل في الظواهر الطبيعية.

وكلما ارتقت الحضارة تطورت معها صفات الآلهة. وأول شيء توارد على أفكاره إعطاؤها الصفات البشرية، منها المادية كالصورة والشكل والجسم والأعضاء المختلفة، ومنها الروحية كالفكر والرأي والعواطف والميول. ثم جُعلت تأكل وتشرب وتسكن في البيوت والمعابد ولها بنون وبنات وزوجات وعشيقات. وأخيراً أعطيت لها مقادير الكون وتدوير أمور البشر ومنح النعيم وفرض العقاب وتعيين الآجال وتقدير الأقدار وعلم الغيب وشؤون العالم. وبهذا كان الإنسان هو الذي يخلق إله هواه ثم يعبده ويقدم له القرابين، من أولاده أحياناً.

ولقد تحقق من المخطوطات المسمارية السومرية المكتشفة حديثاً أن العناصر المكونة للخليقة وأصل الوجود والثنوية المجوسية الفارسية وآلهة الشمس وعبادة الكواكب وقواعد التعبدات والخضوع لمشيئة الإله والأقدار والآجال والأدعية والصلاة والخير والشر والقوانين والنذور والشرائع الإلهية ووجود الجان والشياطين وكثيراً من الصفات التي أسبغها هوميروس على آلهته في ما وراء الطبيعة وأسس كل الديانات السابقة والاستقصاب الأربعة اليونانية موجودة ولو بشكل بدائي ساذج بسيط في اساطير السومريين والكلدانيين وقصصهم. وبعد أن نفض المنقبون التراب عن الآثار السومرية الخالدة ثبت وجود مساع بشرية محكمة الصنع والوضع والتنظيم، سبق أن تعب في تركيزها

وترسيخها، من السومريين رجال ذوو حنكة ودهاء وفطنة وذكاء درسوا الأحوال الكونية والطبائع الإنسانية والاحتياجات البشرية فوضعوا أسس الحضارة والمدنية ومبادىء الشرائع الدينية والدنيوية وبذلوا الجهود في سبيل الارتقاء العلمي والتقدم الاجماعي فكانوا حلقة الوصل بين الإنسان القديم والإنسان الحاضر.

ولم تزل دائرة الآثار العراقية تبذل الجهد والجهود لاكتشاف المدن الرئيسة المطمورة تحت التراب والمدفونة في التلول والكثبان، تلك التي كانت في الأزمنة الغابرة مهد الحضارة البشرية تشع من جوانبها بالعلوم الفلكية والشرائع الزمنية والمعتقدات الدينية والآلهة السماوية والأرضية والمائية.

وتصدر دائرة الآثار العراقية مجلة «سومر» مرتين في السنة تنشر فيها ما تحصل عليه من معلومات وبحوث ودراسات قيّمة في التاريخ والفن والآثار والديانات واللغات، وهي من أرقى وأثمن المجلات العلمية ومن أهم مصادرنا.

أن زيارة متاحف أوروبا الغربية ومتحف استانبول، وخاصة المتاحف العراقية الغنية بآثارها في بغداد والموصل، قد تعطي فكرة للمتأمل، ومعرفة للمعقب، وعبرة للمحقق، ودرساً للمدقق، عما كان عليه سكان العراق القدامى الذين وضعوا أول قواعد الإلهيات، وشعائر التعبدات، والشرائع الدينية، والحقوق المدنية قبل أن يضع اليونان إلياذتهم، والإسرائيليون اسفارهم بأزمان موغلة في القدم.

وإن لم اكن أركيولوجياً، فقد بحثت في دور الآثار القديمة والكتب والمجلات والنشرات الأثرية وسجلت ما عثرت عليه من البحوث الإلهية والديانات والعبادات والمعتقدات في كل ديانة، وعند كل أمة، فكان من جملة ما حصل بيدي هذه الكتب عن الديانات الوثنية القديمة ومن الله التوفيق.

الفصل الأول معلومات عامة

1 ـ لقد اعتبر المنقبون الأثريون الأدوار التي مرت على الحضارة العراقية كما يلي:

العصر الحجري القديم	20000	عام ق. م.
عصر حسونه	5000	عام ق. م.
عصر سامراء	5000	عام ق. م.
عصر حلف	4500	عام ق. م.
عصر تل العبيد	4500 ـ 3800	ق. م.
عصر الوركاء	3800 ـ 3200	ق. م.
الطوفان العام	4000 ـ 3000	ق. م.
دور جمدة نصرة	3500 ـ 3000	ق. م.
دور فجر السلالات	3000 ـ 2500	ق. م.
ظهور الكتابة والتدوين	3500 ـ 3300	ق. م.
دور السومريين	4000 ـ 2000	ق. م.
حكم أول سلالة اكدية	2500 ـ 3340	ق. م.
عصر الكوتي	2370 ـ 2282	ق. م.
زوال البابليين السياسي	600	ق. م.

جميعها من عصور ما قبل التاريخ. وهي العصور التي سبقت ظهور السلالات المعروفة، وسبقت زمن الحوادث المكتوبة. وعرفت بهذه الأسماء بالنظر للأسماء والمواقع التي اكتشفت فيها. وتسمى دويلات المدن.

2 ـ **أهوار العراق:** يعتقد الاخصائيون بعلم طبقات الأرض الذين سبروا أغوار مختلف أنحاء العراق في مختلف اعماق الطبقات للعثور على النفط، أن طبقات الأرض الجيولوجية في شمال العراق كانت تؤلف منذ عشرات، بل مئات الملايين من السنين قعر بحر، كان يمتد في غابر الأزمان من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج الفارسي، وقبل مائة ألف سنة تقريباً كانت شواطىء خليج فارس تقع في خط يمر من هبهب إلى سامراء وإلى عانة. وكان العراق الوسطي والجنوبي مغموراً آنذاك بالمياه، وقد حوّل الغرين المنساب من دجلة والفرات هذا البحر إلى جزر متفرقة هنا وهناك، وكلما امتلأت البحيرات والمستنقعات بالطمى المنحدرة من الجبال اتسعت اليابسة فعمل فيها الإنسان. ولم تزل الأهوار موجودة بكثرة في العراق الجنوبي لم تملأ بعد.

3 ـ **سكنة العراق في دور العصر الحجري المصقول:** وجد العلماء ورجال الحفريات والتنقيب من اجانب ووطنيين كهوفاً بشرية في السليمانية وفي شمال العراق تعود إلى العصور الحجرية ما قبل التاريخ تقدر بعشرين ألف سنة أو ما يزيد، سكنها بعض الناس الأولين. وكان اقدم قرى عامرة عثرت عليها

البعثات العراقية والأجنبية تقع في مواقع تسمى «جرمو، وكريم شاهر، وكهف زرزى، وهرزارمرد، وبرده بالكه، وكهف باليكورة، بين السليمانية وكركوك»، تعود إلى عصر الحجري المصقول. وعثروا في مواقع تل حسونة، والاربه جية، وتبه كوره، قرب الموصل، وفي كرى رش قرب سنجار على قرى كان يسكن فيها لفيف من الفلاحين.

كانت محاريثهم من الصوان ومناجهلم من الفخار أو من الأحجار الصوانية الملصقة بالقير[1] فوق خشبة معكوفة. نزحوا إلى العراق في زمن يرقى إلى خمسة آلاف سنة ما قبل التاريخ المسيحي. وعثروا كذلك في تل العقير الذي يبعد خمسين ميلاً من جنوبي بغداد على بيوت اثرية يرجع عهدها إلى أربعة آلاف عام قبل الميلاد. وعثرت بعثة شيكاغو في كهف باليكورة وموقع كريم شاهر وقلعة جرمو وفي «قره يتاغ» قرب كركوك على آثار من عصور ما قبل التاريخ (6 ـ 8 ق. م.). فكان هذا الإنسان الابتدائي أول من سكن العراق، وأول من أنشأ القرى، وأول من استعمل السكاكين والمناجل المعمولة من الصوان وخاصة السكاكين المصنوعة من شظايا الزجاج البركاني الذي وجد بكثرة في طبقات جرمو، وصنع فؤساً يدوية من الصوان وحجر الكلس وآدوات من الحصى والمكاشط وآحجار الجرش والمجارش الخاصة لطحن الحبوب في مرحلتها البدائية الأولى، وعلى يده نشأت الحضارة وعنده ظهرت أول المعتقدات الإلهية والدينية بشكل مشوش لا وضوح فيها ولا قواعد ثابتة معينة.

4 ـ **أول الحضارة العراقية**: سكن في جنوب العراق وعلى ساحل البحر وبين الأهوار والمستنقعات حوالى عام (4000 ق. م.) اقوام تميز من بينهم السومريون، وفي أواسط العراق حتى بلد الحديثة الاكديون والكلدانيون، وفي شمال العراق ـ وكان يسمى «شوبارتو» وتسمى منطقة الموصل «مسبلا» والبادية الغربية «مارتو» ـ الآشوريون. لن يكون من موضوعنا البحث عن اوطانهم السابقة التي نزحوا منها وعن جنسياتهم وأعمالهم السياسية والحربية والمدنية التي خلّفوها، إنما سنحصر كلامنا في ما يعود إلى آلهتهم وديانتهم ومعتقداتهم وكل ما مس الأمر إلى ملوكهم وكهنتهم فقط.

كان لقب ملوك السومريين والأكاديين بالمناوبة. وكلما استولى احدهم على البلاد (ملك سومر واكد) كان يؤسّس سلالة ملوكية جديدة. وكانت هذه البلاد مقسمة إلى مجموعة من الدويلات الصغيرة ولكل مدينة حاكم، وقد يطغى احد الحكام فيستولي على مدينة مجاورة أو أكثر أو على العراق بأجمعه. وقد عثر المنقبون في مدينة لارسا على مجموعة من الفخار تحتوي على أسماء سلالات الملوك (ثبت الملوك السومري) الذين حكموا العراق قبل الطوفان وما بعده من السومريين والاكاديين، سجّلها لأول مرة «برحوشا» الكاتب البابلي حوالى سنة آلفين ق. م.. وليس من موضوعنا ذكر اسمائهم وأعمالهم المدنية والحربية.

وظهر اناس آخرون في الشمال كانوا يصنعون الفخار ويستعملون آلات الحجر. وسكن في الجنوب جماعات في محل يسمى تل العبيد تقدموا السومريين، وجميعهم أيضاً لم يخلفوا آثاراً دينية، مما تمس موضوعنا، تستحق الذكر.

---

(1) في الحفريات التي قامت بها دائرة الآثار العراقية في حسونة ظهر ان القير المستخرج من القيارة كان يستعمل أيضاً لطلاء الحفائر التي تخزن فيها الحبوب.

5 ـ السومريون: لقد تحقق أن السومريين هم من أوائل المهاجرين الذين استوطنوا العراق الجنوبي وخلّفوا تراثاً دينيّاً وثروة فكرية عالمية. وقد ظهرت هذه الأمة العجيبة فجأة. ولا يعلم حتى الآن منشأها الحقيقي بالضبط، فأسست في الأراضي المنخفضة وبين الأهوار والمستنقعات مدناً عامرة [اور، اريدو، لارسا، لكش، اوروك...] وشيدت المعابد والهياكل والزقورات الضخمة ووضعت أساليب وتنظيمات للمجتمع وأسست القواعد الدينية والتعبدية التي توارثتها عنهم الأجيال. ثم زاحمهم الاكديون الساميون من أواسط العراق للاستيلاء على أراضيهم ومدنهم فكانت حروباً دامية وصراعاً مريراً بينهما دام أزماناً طويلة تنتهي تارة بظفر السومريين وأخرى بتفوق الأكاديين.

وكان قد غزا سرجون او ساركون والمسمى أيضاً «سارِرو كينو» الاكادي عام 3800 قبل الميلاد اقاليم سومر فاكتسب عطف الكهنة باحترامه الشعائر الدينية وتجديده ابنية المعابد وتقديمه الذبائح والقرابين إلى الآلهة، ما أكسبه خضوع المدن السومرية الواحدة تلو الأخرى. فشيد معبداً عظيماً في عاصمته للآلهة «اجادي» وتسمى «ايستار» وهي نجمة الزهرة عند شروق الشمس وتسمى الإله «اوروك» والإله «بيلت Belit» عند غروب الشمس. وجدّد بناء معبد الإله «انليل» في نفر وعين أكبر بناته كاهنة للإله «ننار» وحذا ابنه الملك «نرام ـ سن» حذوه في تأسيس المعابد وتجديدها. وبذلك اكتسب عطف الشعب السومري حتى تفسخت الدولة الاكادية على يد الكوتيين فتأسّست السلالة الكوتية وحكمت سمر واكدة مدة طويلة. ولم تعتن هذه الدولة بالمعابد وضيّقت الخناق على الكهنة والرهبان حتى ظهر «اتو حيجال» أمير أرك وتغلب على الكوتيين وطردهم من البلاد، وسجل انتصاراته بالعبارة الدينية الآتية: «الكوتي ثعبان الجبل، وعدو الآلهة، سالب ملوكية سومر، وناقلها إلى الجبل، قد ملأ سومر بالعداوة والبغضاء ونهب الزوج والزوجة، وحمل معه الأب والطفل. ان انليل إله الأقطار عهد إلى انا [اتو حيكال] الرجل العظيم ملك ارك، ملك الجهات الأربع أن امحو اسمه[1]، فوطىء بقدمه عنق «تريقان» آخر ملوك كوتي وأعاد إلى سومر استقلالها».

6 ـ وبعد ان تم تحرير سومر من الكوتيين الغرباء ظهر اور ـ نمو السمري حاكم مدينة اور، وأعلن نفسه ملكاً على جميع مدن سمر وأكد وأسس سلالة ملوك أور. فجدد بنايات للمعابد في لارسا واريدو واوما ولجش وارب. وعمر بناية الآلهة فنار وننجال وشيّد الزقورة في عاصمته اور وبنى له قصراً فخماً ورمم سور المدينة وحفر السواقي والقنوات ونظم الري وغرس الجنان تقرباً إلى الإله ايا، ووضع الكهنة والرهبان ترتيلة خاصة ترمز إلى معبد اريدو العظيم، وهي وثيقة خطيرة من الأدب السومري نشرتها مجلة سومر بعددها ج 7 ج 2.

ويظهر اور ـ نمو في المسلات يتضرع إلى تموز إله الخصب لكي يجري من فيضه العميم الخير والبركة على البلاد ويتسلم من الآلهة احكام الشريعة والأوامر الإلهية.

وفي زمن الملك دونجي أو شولجي اصبحت مدينة اور عاصمة المملكة مركزاً عسكرياً مهماً للامبراطورية السومرية ـ الاكدية، وازدهرت فبلغت الذروة في الرفاه والتقدم والتجارة والعمران

(1) يظهر آن البشر كان، ولم يزل يعيد كل نكبة تصيبه إلى غضب إلهه منه.

فظهرت عبقرية الكهنة والرهبان في التحري عن معرفة اسباب الظواهر الكونية وحركات النجوم وفي البحث عن نظام الكون والرياضيات والتنجيم وماهيات الآلهة وما تحبه وما تنفر منه وقواعد التعبدات وتقديم القرابين... كما سيأتي بيانه.

7 ـ **العيلاميون**: وفي وقت كانت فيه الأمة السومرية في بحبوحة من العيش الرغيد، وقد وصلت زقوراتها عنان السماء، قد يكتشف كهنتها من قممها اسرار الكائنات، كانت الأقدار قد خبأت لها ما لم يكن في الحسبان. فقد شهدت في السنين الأخيرة من الألف الثالث قبل الميلاد احتضارها ومصرعها وزوال ملكها واسمها ورسمها من عالم الوجود على يد العيلاميين بعد ان قدّمت أجلّ الخدمات للحضارة العالمية بنظمها الاجتماعية والدينية. فما حل عليها الألف الثاني قبل الميلاد حتى غلبت نهائياً على أمرها فزال ذكرها وانطوت آثارها تحت طيات التراب وأصبحت كأن لم تكن بالأمس. فرثاها احد الكتاب السومريين بالمرثية الدينية الخالدة الآتية:

فلما غلبوا والنظام خربوا
ثم كالطوفان دمر العيلاميون كل شيء
فالى أي حال يا سمر بدلوك
فالسلالة المقدسة من المعبد اجلوها
وخرّبوا المدينة والمعبد دمروه
وحكم البلاد اغتصبوه
وبأمر [انليل] النظام محوه
بروح [آنو] العاصف الهائج قضي على النظام
وحوّل [انليل] وجهه ونظره إلى أرض غريبة
وسيق [ابي ـ سن] المقدس اسيراً إلى عيلام.

8 ـ **حمورابي**: وضع حمورابي والملوك الذين حكموا من بعده في بابل اساس حضارتهم على انقاض المدنية السومرية ـ الاكدية وتوسعوا فيها ما امكنهم التوسع وانتشر استعمال الكتابة المسمارية وأصبحت اللغة السامية الاكدية اللغة الرسمية في التجارة وقواعد الدين. وجعلوا إلههم مردوخ إله الآلهة وحامي مدينة بابل. وبعد ان رفعوا شعلة العلوم الكونية والدينية ما يقارب الألف سنة، استولى على بابل الحثيون ثم الكشيون لمدة ما يقارب الستمائة سنة. واستعاد اجوم الثاني الملك الكشي من حثي الأناضول تماثيل الآلهة البابلية التي نهبوها من بابل خلال مكوثهم فيها.

ثم استولى الآشوريون على بابل. ولما انقرضت دولة آشور عام 612 ق. م. استولى على بابل نبوبولاسر الكلداني فأسس الامبراطورية البابلية الحديثة التي ظهر منها نبوخذ نصر الذي افتتح اورشليم وأخذ اليهود كافة إلى بابل اسرى. وجدد في منطقة المعابد من مدينة بابل معابد الآلهة وفتح شارعاً لمواسم الأعياد ينتهي في باب عشتار وشيد برج بابل بجوار معبد الإله مردوخ وأنشأ في سطح قصره الجنائن المعلقة التي تعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع في العالم.

واقتفى الملك نبونهيد اثر نبوخذ نصر فجدد بناء معبد الإله العظيم شمش وكان في زمن ابنه بيلشاصر الوارد اسمه كثيراً في اسفار النبي دانيال، قد هجم كورش الفارسي على بابل. وكان كورش قد استفاد من تذمر الشعب البابلي من حكامه الطغاة، فادعى ان الإله البابلي مردوخ هو الذي أمره ان يذهب بنفسه إلى مدينة بابل... وأنه أذن له ان يدخل المدينة بدون حرب وأن يخلص الشعب من طغيان حكامه ومظالم رؤسائه... فقد سهلت له هذه الدعوى اشعال مدن العراق كافة وطأطأت له الأمم كافة رؤوسها. فكان نهاية المجد البابلي... فتساقطت معابد بابل العظيمة الواحدة تلو الأخرى وانغمرت في طيات التراب، ودخل اسم الإله العظيم مردوخ في صفحات التاريخ بعد أن سكب البشر دموعه السخية على اعتاب معبده بضعة آلاف من السنين كانت كلها من صنع الكهنة والرهبان ورجال الدين. ولعل كورش هو الذي نقل مسلة حمورابي من بابل إلى «سوس» عاصمة ملكه فعثر عليها مؤخراً الفرنسيون.

وأما الآشوريون الآنفو الذكر فهم بدو ساميون نزحوا من البادية العربية حوالى 3000 ق. م. فأشغلوا ضفتي دجلة وأسسوا عواصمهم الكبرى، منها مدينة آشور في ناحية الشرقات الحديثة، ونينوى بجوار الموصل ودور شروكين في خرصاباد الحديثة وكالح المسماة نمرود جنوب شرقي الموصل.

وفي دور الفتوحات امتد سلطانهم في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد بلدان الشرق القديم كافة، من شلالات مصر حتى شمال فارس، ومن البحر الأسود حتى خليج إيران. وعند دخولهم مدينة بابل احترموا آلهتها وقدّموا لها القرابين. ولما استولى اسرحدون الآشوري على مصر نقل آلهة ترهاقه فرعون مصر الحبشي، إلى آشور رمزاً للانتصار.

9 ـ الكتابة: لم يكن في العصور الأولى التي ما قبل التاريخ ما يمكن تثبيته كديانة لها قواعدها وشعائرها. ولم يعثر المنقبون لحد الآن على ما يدل على معتقداتهم بصورة أكيدة. وجل ما هو موجود اسطورة دوّنها أحد السومريين القدامى (عام 2000 ق. م.) عن اناس كانوا قبله بألف سنة أو أكثر سنذكرها عند بحثنا عن الآلهة، أو بعض الاختام التي كانوا يستعملونها في عقودهم وهي مصنوعة من الفخار المطبوخ وعليها بعض رسوم الآلهة أو الأساطير الخرافية المتداولة بين الناس.

ولقد كشف العلماء مدينة اوروك (قرب السماوة). وهي بثماني عشرة طبقة من طبقات ما قبل التاريخ. وظهر في الطبقة الرابعة من اعلاها اقدم كتابة معروفة في العالم وهي كتابة صورية شكلية تتألف من علامات واضحة ترسم على لوح طين تدرجت في ما بعد إلى ترقيم الأعداد وإلى الرسوم الساذجة فأخذت اشكالاً وخطوطاً مستقيمة كالمسامير، تكوّنت منها بعد ذلك الكتابة المسمارية. ومنذ هذا التاريخ شرعوا يسجلون معتقداتهم كتابة فوق الطين بحروف لها ألفاظ وأصوات ومعانٍ معينة ثابتة قابلة للتعبير عما يراد ذكره. فكانوا يكتبون فوق ألواح الطين انواعاً من الأناشيد والتسابيح والتراتيل والمراسيم الدينية والأساطير والخرافات الدارجة على الألسن، والملاحم المتناقلة بالتواتر والواردة إليهم عن الأقدمين بروعة وفصاحة وجلال.

وكان في زمن حمورابي قد انتشر استعمال الكتابة المسمارية انتشاراً واسعاً، وأصبحت اللغة السامية الأكدية التي كان يتكلم بها البابليون، اللسان الرسمي لتدوين الأدعية الدينية والقواعد

التعبدية، وحتى الاتفاقات التجارية والمراسلات الدولية في أنحاء الشرق الأوسط. ثم ظهرت الكتابة الفينيقية واستعارها منهم الآراميون أو الآرميون - من أرم كما ذكرها الأب انسطاس الكرملي - حوالى سنة 1000 ق. م. وكانت مقتصرة على علامات هجائية، ثم استعاروا منهم القلم والحبر فاتسع نطاق الكتابة الآرامية فنقلتها القوافل إلى أنحاء الشرق حتى وصلت العراق وحلّت بمحل الكتابة المسمارية. ولما وصلت الهند انتشرت فيها الحروف الهجائية.

10 - وعثر المنقبون العراقيون في العقير على رأس حربة من النحاس ذات مقبض خشبي يعود إلى عصر العبيد، وحربة أخرى من الصوان، ما يدل على بدء استعمالهم المعادن في اعمالهم. كما وانهم عثروا على قرن جاموس يعتقد أن هذا الحيوان ادخل إلى العراق حديثاً (3500 ق. م.).

وقامت دائرة الآثار العراقية بإجراء الحفريات والتنقيبات في تل هرمل قرب بغداد، وهو يمثل عهد ايسن ولارسا، فعثرت على رقم الطين فيه شريعة اشنونا التي هي اقدم من شريعة حمورابي بمايتي سنة ورقم آخر فيه مسائل رياضية. ونقبت ايضاً في حسونة قرب الموصل، وهي اقدم مستوطن في العراق، عثرت فيها على مناجل من الصوان تمثل أدوات الزراعة الابتدائية، ونقبت كذلك في اريدو المدينة الدينية السومرية وهي أقدم مدينة في العالم، كان يعتقد السومريون ان الآلهة بنتها بيدها. وأجرت بعض التنقيبات في عكر كوف عاصمة دولة الكشيين. وأجرت الحفريات أيضاً في اطلال مدينة الحضر التي تبعد 150 كيلومتراً عن الموصل وعثرت فيها على عدة معابد للإله «مسترا» و«بعلشمين» وبيوت اصنام وتماثيل متنوعة. وتحقق ان زمن تأسيس المدينة يعود إلى عهد الملك كوريكالنرو الأول، في بداية القرن الخامس عشر ق. م. وغيره. ولم تزل تساهم العلماء والبعثات الأجنبية في كشف ماضي العراق ونشوء الحضارة العالمية.

11 - وفي الدور الأكدي يظهر الإله «شمش» ويسمى «شماش» ويسمى أيضاً «اوتو» جالساً على العرش وبيده مفتاح يفتح به أبواب السماء لتبزغ منه شمس الصباح. ويظهر إله المياه «ايا - اي آ - EYA» تجري المياه من اناء في يده أو من بين كتفيه، ثم الإله «ايتانا» يصعد على ظهر نسر إلى السماء (سنذكر هذه الأساطير في فصل الأساطير)، وأحد الآلهة يعاقب الطير «زو» لسرقته ألواح القدر من الإله انليل ولتعديه على المزروعات، ومنظر صراع آلهة الشر وغيره وكلها محكوكة فوق ألواح الطين أو فوق الاختام الطينية.

12 - وكان الطابع الذي تتسم به الديانة السومرية والبابلية هو صبغة امتزاجها مع السحر والكهانة. واستدام هذا الطابع في ادوار السومريين والكلدانيين التاريخية كافة من البدء حتى النهاية، وقد تغلغلت هذه المعتقدات في حياتهم الخاصة والعامة. واعتبروا أن الإله هو الفاعل الحقيقي للعالم كله وما الملوك إلا نواب عنه فوق الأرض يحكمون بحكمه ويأمرون بأمره وينهون بنهيه. وما العلائم السماوية والأنواء الجوية وحركة الأفلاك والشمس والقمر والرعد والبرق إلا بأمره ومشيئته وحكمه وتسييره.

ولا يمكن تعيين الوقت الذي نضجت فيه هذه القواعد الدينية. فمن المحقق انها كانت في بدايتها وفي زمن السومريين ناقصة بسيطة مشوشة ساذجة ثم تطورت بمرور الزمن حتى تكاملت

وأصبحت عند الاكاديين والكلدانيين في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد وما بعده نظاماً دينياً شاملاً بأصوله وفروعه وبهياكله ومعابده وبكهنته ورهبانه.

13 ـ كانت هذه الديانة مجهولة عن أعين العالم واستدامت بضعة آلاف من السنين تحت طيات التراب لا يعلم احد عنها شيئاً بأكثر مما رواه المؤرخون هيرودوت اليوناني وتيودور الصقلي وزينوفون الذين زاروا بلاد ما بين النهرين وسجلوا ما سمعوه ورأوه في رحلتهم من هنا وهناك. وكان الأكثر منها اساطير مشوشة مضطربة لا تستند على معلومات صحيحة ـ كأسطورة سميراميس مثلاً ـ حتى قام لأول مرة اميل بوتا (قنصل فرنسا في الموصل) بالحفريات والتنقيبات في تلول خرسباد عام 1842 م. فعثر على قصر آشوري للملك سرجون الثاني الآكادي، وهو بناية تضم ثلاثة معابد صغيرة وزقورة شاهقة يرقى إليها بمصعد حلزوني. وأعقبه لايارد الانكليزي في خرائب نينوى فاهتدى إلى دور كتب كاملة من الآجر المطبوخ ومعابد وهياكل للآلهة حل رموزها وقرأ خطوطها المسمارية كثير من العلماء. ثم توافدت البعثات الأثرية الأجنبية والعراقية إلى مختلف أنحاء العراق للتحري والتنقيب فعثروا على آثار حضارة يرجع تاريخها إلى أربعة آلاف سنة ما قبل الميلاد. وبهذا تحقق انها كانت الحجر الأساس للحضارات العالمية كافة وحجر الزاوية للديانات المتعاقبة.

14 ـ وبينما كان الاعتقاد السائد عند الجميع أن ما ورد في الأساطير الفرعونية وفي أشعار هوميروس وازيود وفي الثنوية المجوسية الفارسية وفي سفر التكوين من التوراة... عن القواعد الدينية المختلفة مستقلاً بعضه عن بعض، ظهر بعد قراءة المخطوطات المسمارية (السومرية ـ الكلدانية ـ الاكدية) أن آفاقاً دينية واسعة الأرجاء ترجع جذورها إلى 4000 ق. م. كانت راسخة في سواحل دجلة والفرات سبق أن انبثقت من عقول الكهنة والرهبان تحت تأثير الإقليم العراقي المتقلب الأهواء والأجواء والمعرّض للغرق والطوفان في كل سنة. ودامت هذه الآفاق الدينية، على الرغم من غموضها قروناً كثيرة كان قد خضع لها الملوك والناس كافة فأصبحت في ما بعد الأساس للديانات الوثنية التي حدثت بعدها. فلم يكن المتأخر من واضعي الديانات إلا مكملاً للمتقدم، مما يمكن القول ان كثيراً من اساطير الديانة المصرية واليونانية والسورية واليهودية والفنيقية والمجوسية الفارسية وحتى البوهمية والبوذية كلها مشتقة كلياً أو جزئياً من الديانة الكلدو ـ سومرية. وإذا كان قد دخل عليها تبعاً لسنّة التطور ونظراً لحاجة الأمم والأقوام ومواقعهم الجغرافية وأحوالهم الأخلاقية والاجتماعية وما يحيط بهم من المؤثرات الطبيعية وقابليات الفلاسفة ورجال الأديان، بعض التبديل والتحوير والاصلاح والتحسين والتزويق والتنميق والتخويف والتهويل والوعد والوعيد، فإن الأساسات الأصلية التي بنيت عليها نظرية الخلق والتكوين وقواعد الديانات والتعبدات والخضوع لمشيئة الإله والمعابد والعبادات والصلوة والأدعية والاستغاثة وعالم القبور والخير والشر والقرابين والنذور وتأثير الجان والشياطين... هي هي لم تتغير إلا بالفروعات فقط.

15 ـ ولما تناولت عقول الساميين والآريين هذه العناصر الدينية سكبتها بقوالب مختلفة، صاغها كل منهم نظراً لقوة مخيلته وقابلياته واحتياجاته وما يحيط به من العوامل الاقتصادية والأقليمية والدينية،

بأشكال جديدة خيالية قصصية روائية، فثبت من تلك العناصر شيء وأضيف عليها بعض الشيء ورسب منها أشياء. فكانت الديانات القديمة كافة واحدة بالأصل مختلفة بالفروع.

لذلك يمكن إرجاع أسس المعتقدات الإلهية القديمة في العالم كله، من آلهة الأولمب إلى آلهة النيل وإلى الاثينية الفارسية (النور والظلام) وإلى الآلهة الوثنية الكثيرة المنتشرة في الشرق والغرب كلها إلى أب واحد «ابسو» وأم واحدة «تيومات»، الإلهان اللذان اولدتهما عقول كهنة السومريين والكلدانيين من مياه الأهوار والمستنقعات كما اولدت للبشر أيضاً أباً واحداً «لولو» عند السومريين و«اوليكرا» و«زيلكرا» عند البابليين والآشوريين.

16 ـ ولما كانت اعمال آلهة السومريين والكلدانيين على غاية من البساطة، وقد تطابق اعمالها الأعمال والحركات والاحتياجات البشرية وهي في الأصل مشتقة على الأكثر من قوى الطبيعة وخاصة من الشمس والقمر والسيارات وحركة الافلاك، فقد غذّتها عقول الأمم المجاورة من إغريقية وفرعونية وسامية على كر السنين والأعوام فأسبغت عليها في ما بعد صفات القوة والقدرة والحسن والجمال وأعمال الخير والخلق والتكوين وتقدير الأقدار والأعمار والآجال والأرزاق بشكل أكثر وضوحاً مما كانت عليه عند الكلدانيين والسومريين. ثم جرّدتها عن الرموز والأشكال والتماثيل والتشبيه والتجسيم فأعطتها صفات روحانية نورانية خالصة وأسكنتها في الكواكب والنجوم أو في اعالي السماوات أو في اعماق المياه حيث لا تتناولها الأيدي ولا يمكن الوصول إليها للوقوف على ماهيتها.

الفصل الثاني الكهنة والرهبان

1 ـ بينما كانت الأمم والأقوام غارقة في الجهل والغباوة والفوضى والبداوة كانت العقول السومرية والاكدية ترقى إلى السماء ثم تهبط إلى الأرض وثم إلى أعماق المياه فتنتج قواعد دينية وأفكاراً عالمية لم تزل آثارها باقية حتى الآن. وكانت المدن زاهرة يانعة بمنتجات عقول الكهنة والرهبان، وبما وضعته من الدساتير الدينية والدنيوية. وكانت مدارس مدينة أور عاصمة السومريين، وهي المدينة التي ولد فيها النبي إبراهيم، قد تألقت فوق ربوع دجلة والفرات تنشر العلوم الفلكية والرياضيات والإلهيات فتنير العقول المتعطشة للوقوف على أسرار الكائنات. وكان الملوك المجاورون يرسلون رعاياهم ليأخذوا العلم من هذه المدينة العظيمة الراقية بالعلوم الدينية الكونية.

ولما استولى حمورابي على العراق الجنوبي احترم الآلهة السومرية كافة واستعمل اللسان السمري في النصوص الدينية. وبذلك ورث كهنة الكلدان ما وضعه كهنة سومر واكاد من التراث الديني العظيم فتوسعوا فيه.

2 ـ وفي الحقيقة كان الكهنة والرهبان ورجال الدين يفكرون ويسهرون ويتأملون ويبذلون الجهود العقلية للوصول إلى معرفة أسباب الظواهر الكونية والعلائم الجوية وحركات النجوم ومنازل الشمس والقمر، وفي البحث عن نظام الكون والخلقة وظهور الإنسان على وجه الأرض، والرياضيات والتنجيم والسحر وسر النظام العالمي، والوقوف على ماهيات الآلهة التي ذكرها الأقدمون، ورغباتها واحتياجاتها وما تحبه وما تنفر منه وطريقة استرضائها بالأدعية والقرابين والصلوات. فإذا كانوا قد أخفقوا في كثير من هذه المسائل فقد نجحوا في تثبيت الأقسام الأخرى منها وهي القواعد والمعاملات البشرية الجارية امامنا كل يوم وساعة، تلك التي نعتبرها اليوم تافهة اعتيادية بسيطة ساذجة وما هي في الحقيقة إلا نتيجة تفكير عميق وبذل جهود سبق ان تعب في تثبيتها وتعيينها الكهنة والرهبان، فصارت علماً للبشرية كلها وصارت قواعد عالمية.

3 ـ كان للكهنة مقام رفيع في الدولة ودرجة مرموقة عند الناس. فكانت منزلة رئيس الكهان في التشريفات الملكية تأتي بعد درجة الملك. وقد يتشرف الملك بتعيين نفسه رئيساً للكهان. فكان ملك آشور يلقب نفسه «كاهن الإله آثور». وأعطى الملك جوديه نفسه عنوان «كاهن الإله نتجرسو». ولقب كوريكالزو ملك عكر كوف نفسه «كاهن الإله انليل». وقد يتقلد القواد والحكام والأمراء منصب الكاهن الأعلى بالفعل أو بالاسم. فكان المشرّع والكاتب السومري العظيم دودو (3600 ق. م.) كاهن الإله نتجرسو في مدينة لكش، وكانت الأميرة ابنة الملك سرجون الاكدي كاهنة للإله «ننار». وكانت الدولة تعفي الكهان قاطبة من كل الضرائب والالتزامات ـ عدا دور حمورابي ـ. وأما الناس فكانت تحترمهم وتنقاد لأقوالهم لما لهم من اطلاع على الغيب وسلطان على الجان والشياطين والأرواح الخبيثة وقدرة

في منح الخير ودفع الشر، ومهارة في السحر واعمال الطلاسم والتعاويذ والرقي وتفسير الأحلام وتعليل لخوارق الأمور ووقوف على أسباب العلائم الجوية واخبار عن المستقبل...

4 ـ وإذا كانت الحضارة الراقية والمدنية المترفة قد اوصلت رئيس الكهان في بابل إلى أن يرضخ حتى الملك إلى أقواله ونصائحه الدينية، فقد كان الأمر على خلاف ذلك في آشور. فكان ملك آشور الحربي الذي لا يستقر له قرار في عاصمة ملكه، فما يخلص من حرب إلا ليدخل في حرب أخرى، كان هذا الملك المحارب ظل الإله «آثور» الأعظم في الأرض، هو المصدر الوحيد لكل ما يختص بالمسائل الحربية والمدنية والدينية ولا فرق بينه وبين إلهه آثور. وقد ينظر الآشوريون إليه نظرة الإله، فهو الحبر الأعظم والمشرّع الأكبر، وهو رئيس الكهّان.

5 ـ كان السومريون يطلقون على رئيس الكهان الأعلى اسم اوريكلو، وعلى الرؤساء شنكا ماخ وعلى الكاهن شنكا أو شانكو. ويوجد ما يربو على الثلاثين صنفاً من اصناف الكهنة لكل منهم أعمال خاصة وواجبات معينة. فمنهم خدمة المعابد والهياكل والجباة والمحاسبون والنظّار، ومنهم العرّافون والعزامون والراقون، ومنهم من يقوم بتفسير الأحلام والفأل والأخبار عن شؤون الغيب، ومنهم من يلاحظ ذبح القرابين والكشف على الكبد والأمعاء، ومنهم المغنون والمزمرون والمرتلون، ومنهم الكاهنات في المعابد.

6 ـ كانت واردات المعابد قد طغت على واردات الدولة. وكان الملوك كافة يرضخون لنفوذ رئيس الكهان وما يمليه عليهم الرهبان من قواعد دينية صارمة ومن تدخل في أمور الناس. فلم يطق «اروكاجينا» حاكم لجش على هذا الحال صبراً[1]، فأجرى الإصلاحات الدينية ومنع طبقة الكهّان من ابتزاز أموال الناس بالباطل باسم الدين، وخفّض أجور الدفن إلى خمس ما كانت عليه، وحظّر على الكهنة ورجال الدولة التصرف بأموال الأوقاف والهبات والنذور وبما يجبى للمعابد من المحصولات المتنوعة. وفي أواخر حكمه العادل كان قد دخل بحرب مع حاكم مدينة «اوما» وقتل فيها، فرثاه أحد الكهنة الأحرار في قوله: «لتحمل ندابا آلهة الملك لو جال زاجيزي خطيئة اروكاجينا على رأسها».

7 ـ عندما حاول كهنة بابل كشف القناع عن أسرار الطبيعة والوقوف على سر الكائنات شاهدوا النظام الكوني الشامل في الدورات الفلكية وفي دورة الأرض اليومية الظاهرة في تناوب الليل والنهار، وفي الدورة الظاهرة في الشمس في تناوب الفصول والمواسم وتأثيرها على عالم الأحياء من إنسان وحيوان ونبات وكيف يستفيق النبات من رقدته فيزدهر في الربيع ثم يثمر في الصيف وتنثر اوراقه في الخريف ويهجع في الشتاء، وكيف يتابع النحل والنمل والدبيب حياته مع الدورة الفلكية والفصول الأربعة وكذلك الطيور والحيوانات كافة في تنظيم حياتها تبعاً لاحكام المواسم والدورة السنوية، فاعتقدوا بوجود اتصالات وثيقة بين شعاع الشمس والتغيرات الحاصلة في احوال الجو وبين عالم الأحياء من جهة وبين ظهور الكواكب في السماء وبين ما يقع على الأرض من حوادث موسمية من جهة

(1) كان الملك الجبار أمنحتب الرابع، فرعون مصر، آكثر من اروكاجينا شجاعة وأشد منه بأساً لما صادر اوقاف المعابد واستبدل عبارة الإله (أمون ــ ع) بالإله اتون.

أخرى، فتوصلوا إلى أن حرارة الشمس هي العامل الأساسي في الظواهر الجوية وفي تناوب الفصول والمواسم وبالوسيلة في ديمومة الحياة على وجه الأرض. واعتقدوا أيضاً بتأثير الكواكب وبعض الظواهر الطبيعية على الإنسان وعلى المحصولات الأرضية، وذهبوا إلى اكثر من ذلك فقرروا أن كل ما يقع على سطح الأرض وما يحصل فيها حتى من الأمور الدارجة والحالات الجارية، وحتى عن الحالة السياسية والاجتماعية والفيضانات والأوبئة والخصب والاقحال والرخاء والشقاء والاقبال والأرزاق والأقدار والآجال... من الصغير إلى الكبير ومن التافه إلى الجسيم، آتٍ من السماء ومن اعمال الآلهة الساكنة هناك وإرادتها وتقديرها. ويستدلون عليها من حركة الاجرام السماوية وما يحصل في الكواكب من ظواهر. وساقهم هذا القرار والاعتقاد والافتراض إلى تأثير المقدارات الإلهية على مصير الدول وعلى افراد الناس وحتى على الأحوال النفسية (النشاط التعب، الفتور، العمل، النجاح، الفشل...) وعلى كل ما حصل ويحصل في العالم من حركة وسكون وسعد ونحس وخير وشر وضيق ورجاء وبؤس وشقاء، كله بإرادة الآلهة وتقديراتها وعلمها الأزلي. فانتشرت معتقداتهم الجبرية هذه في العالم كله وتأثرت بها الديانات المتعاقبة كافة.

وعند ولادة الأشخاص كانوا يلاحظون في تلك الساعة حالة الكواكب والنجوم والبروج وحركاتها ووضعها وتقاربها وتباعدها عن بعضها فيستدلون من طوالع نجم الشخص على مصيره وخيره وشره ويسره وعسره.

8 ـ وسددوا انظارهم نحو السماء للوقوف على حقيقتها واستطلاع ماهيتها فردّوا أبصارهم إليها مرات ومرات. فكان يرجع إليهم البصر في كل مرة خاسئاً. فاعتبروها من المادة الصلبة، مكونة من سبع طبقات بعضها فوق بعض بعدد الكواكب السبعة المقدسة، واعتقدوا انها كانت في الأصل متصلة مع سبع طبقات الأرض. ولما ولد إله الهواء «آن ـ ليل» وتمدد واستطال، فصل السماء اباه «آن» عن الأرض أمه «كي»[1] كما سيأتي بيانه في ما بعد.

ولما صار مردوخ إله الآلهة ورب الأرباب، كان أول عمل قام به هو تخليصه الكون من الفوضى الضاربة اطنابها فيه من شرور الآلهة، فوضع الشمس والقمر والأبراج والكواكب كلاً بمحله ونظّم حركة الأفلاك والليل والنهار ووضع النجوم الثوابت في السماء... وخلق اتصالات وثيقة بين حركة الأفلاك وما يحصل على سطح الأرض، وربط طوالع الأشخاص بطوالع النجوم والكواكب.

9 ـ ونظروا بوجه خاص إلى حركة كواكب السيارات. فكان أعظمها وأهمها تأثيراً عندهم الشمس والقمر ثم المريخ Mars ويسمونه «نرجال» وهو إله الآلهة ورب الأرباب، ثم يليه زحل (ساتورن) ويسمى كيلوس Kelos ويسميه الإغريق كرونوس Kronos، ثم الزهرة Venus وهي إلهة الحب والغرام والجمال العابث والمتعة واللذة وهي بغي الآلهة وتسمى ايستار وعشتار وعشتروت وهي ام كيوبيد الروماني وهو تموز الآشوري، ثم عطارد Mercur ويسمونه «نابو» وهو إله البحار عند اليونان، ثم المشتري Jupiter وهو

(1) أيد العلم الحاضر أن مادة الكون في الأرض وفي الشمس والكواكب كافة واحدة وقد اكتشف بالمطياف ما يزيد على الخمسين عنصراً في الشمس من العناصر الموجودة في الأرض وعددها 93 عنصراً. وكذلك الحال في الكواكب الأخرى مما يدل على وحدة الوجود المادية الكونية. وقد ايد ذلك القرآن الكريم أيضاً في قوله تعالى: ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾.

«آثور» عند الآشوريين و«بعل» عند الكلدانيين وإله الصواعق عند الإغريق وإله الآلهة عند الرومان. وقد انتشرت عبادة هذه الكواكب السيارة السبعة في جميع سواحل البحر الأبيض المتوسط وتأثرت بعبادتها الأمم والأقوام كافة باعتبارها ترمز إلى معبودات حقيقية.

10 ـ فكان الكهنة يستدلون من الشروق والغروب ولون الكواكب ومن حركات السيارات على الحوادث المقبلة وما هو آت إلى الأرض، وعلى الفيضانات والجفاف والعواصف والأمطار والأوبئة والأمراض وكل سعد ونحس. وقد امتازوا بهذا العلم الخفي المسمى عندهم علم التنجيم، واستدام احتكاره قروناً كثيرة حتى انتشر منهم إلى اليهود في اسر بابل أولاً ثم إلى العالم كافة في ما بعد حتى قضى عليه العلم الحديث.

وكانوا يدّعون أيضاً أن البحار والأنهار والرياح والأعاصير والكواكب كلها مأهولة بالآلهة وبمخلوقات كثيرة لا ترى بالعين، شديدة التأثير على الأعمال البشرية فيلجأون إلى البخور والقرابين والأدعية والتوسلات لاجتذاب رضاها أو اجتناب غضبها واكتساب عطفها أو تحاشي سخطها.

11 ـ وما عدا الآلهة العظام كان الاعتقاد سائداً بأن لكل إنسان إلهاً أو ملكاً خاصاً يلازمه طيلة حياته فيحميه من الشرور ويقيه من الأمراض والآلام ويسجل عليه حسناته وسيئاته. وهو الوسيط بينه وبين الآلهة الأخرى، كما وانه مسؤول عن أعمال الفرد في سوقه إلى الأعمال الصالحة وهدايته إلى أقوم السبل فيتقمص جسم الشخص ويرافقه طيلة حياته. وإذا ما تخلى عن صاحبه لسوء افعاله أو لإهماله أمراً من أمور الشريعة لحظة من الزمن، يحل الشيطان بمحله فيولد فيه الأمراض والآفات والنكبات. ولا يمكن طرده من الجسد بعد ذلك إلا بطريقتين: الأولى، هي عودة الفرد إلى التمسك بالواجبات الدينية وقيامه بإداء الأدعية والصلوة والاستغاثة وتقديم الهدايا والقرابين إلى المعابد، والطريقة الثانية، تعود إلى ما يتخذه الكهنة من العزائم والتمائم والرقي والأحجية والبخور ومختلف الأعمال السحرية. فإذا استعصى عليهم اخراجه يستحضرون رئيس الشياطين لطرده من جسم المريض. وقد انتقلت عناصر هذه العقيدة إلى الأمم الأخرى خاصة عند سحرة اليهود. فقد اشتهر من بينهم سيمون الساحر السامري (9 ـ 8 اعمال) وباريشوع الساحر النبي اليهودي (6 ـ 13 اعمال) في زمن السيد المسيح فكانا يخرجان الشياطين بقوة يعلزبول رئيس الشياطين.

12 ـ جعل الكهنة عبادتهم وأسس ديانتهم مستمدة على الغالب من علم الفلك. فعبدوا الشمس مثلاً لما لها من تأثير محسوس في عالم الاحياء وشيدوا لها الهياكل في كل مكان. وكان اعظم هيكل لإله الشمس شماش في مدينة سبارا. وكانت ناره في مواقدهم لا تنطفىء تكريماً له. ويشاهد حمورابي في مسلته وهو واقف امام شمش، إله الشمس يقدم خضوعه ويستلهم منه قوانينه. ومن المحقق ان الديانة المجوسية الفارسية الاثنينية المستندة على عبادة النور والنار مأخوذة من الديانة الكلدانية. فكانت النار في بيوت النيران الفارسية أيضاً لا تنطفىء. وقد اخذ كهنة الفراعنة والفينيقيين أيضاً كثيراً من قواعد كهنة بابل، كما اخذوا كثيراً من علومهم ونظرياتهم في الكون، خاصة في نظرتهم إلى الكواكب السيارة، فانتشرت هذه العلوم الفلكية في بلاد اليونان والرومان وثم إلى أطراف العالم. ولم يزل كثير من تلك القواعد مستديمة عند بعض الأمم المتأخرة في الشرق الأوسط.

13 ـ كان كهنة الكلدان أول من أعمل الفكر لاكتشاف حقائق الأشياء ولوضع قواعد ثابتة للمعاملات الجارية بين البشر. وكان إذا ما استعصى عليهم أمر من الأمور الجارية أسندوه إلى الآلهة واستراحوا من عناء البحث. وهذا شأن الساميين في كل دور من أدوار حياتهم. ففي نظرتهم إلى الكون مثلاً قالوا إن العلائم الجوية والأنواء السماوية أثر من آثار الآلهة وسر من اسرارها لا يجوز التدخل فيها والاعتراض عليها.

وتوصل كهنة الكلدان إلى تثبيت أيام السنة فقالوا ان السنة 365 يوماً وربع اليوم، وإن نور القمر مكتسب من الشمس، وإن خسوفه متأت من وقوع ظل الأرض عليه. وتنقسم السنة إلى اثني عشر شهراً قمرياً، وإن دورة الشهر القمري ثمانية وعشرون يوماً تنقسم إلى أربعة أسابيع، كل أسبوع سبعة أيام بعدد الكواكب السبعة. وسموا هذه الأيام السبعة بأسماء الكواكب واعتبروا كل يوم اثني عشر جزءاً (ساعة) نصفها ليل والنصف الآخر نهار. وكانت الوحدة لقياس الزمن عندهم الـ«بيرو» وهي الساعة البابلية، وتعادل ساعتين من ساعاتنا. واعتبروا آخر يوم من الأسبوع يوم راحة للجميع لا يجوز العمل فيه. واهتدوا إلى الحساب العشري، ولعلهم اخذوه من عدد أصابع الكفّين، واعتبروا محيط الدائرة 360 درجة وكل درجة 60 دقيقة. وتمسكوا بالطريقة الاثني عشرية (الدستة ـ الدزينة) والستينية باعتبار أنهما تقبلان القسمة بمختلف اقسامها، فانتقلت هذه القواعد وأمثالها كثير إلى العالم ولم يزل يعمل بها. واستخدم العلماء في العلوم الرياضية بحوثهم بعلم الفلك ووضعوا المعادلات المختلفة والمتواليات في قياس الفصول وضبط أبعاد الأجرام السماوية فتوصلوا إلى معرفة المقادير الزمنية للشمس والقمر وخمسة من الكواكب السيارة وإلى حركاتها في مداراتها ومنازلها في سيرها، ووضعوا الارصاد الفلكية لمعرفة اوقات كسوف الشمس وخسوف القمر قبل حدوثهما.

وقد اكتشفت البعثات العراقية للتنقيب في تل حرمل لوحاً رياضيّاً يعود إلى بداية الألف الثاني ق. م. فيه بحث مستفيض عن تشابه المثلثات الحاصلة من انزال عمود من الزاوية على وتره فيكون المثلثان المحدثان على جانبي العمود متشابهين، وهي النظرية المنسوبة إلى اقليدس اليوناني الذي عاش في القرن الثالث ق. م. جاء تفصيله في مجلة سومر العراقية مجلد6 جزء6 وليس من موضوعنا التوسع فيه. فإلى أولئك الكهنة وحدهم يرجع الفضل في ما اكتسبته البشرية من تقدم وارتقاء.

وكان قسم من كهنة المعابد قضاة للمحاكم يحكمون بين الناس بالمعاملات القضائية والعقود والتجارة وما يستوجب الحلف واليمين.

14 ـ ولما كان فيضان نهر الفرات المستديم قد ينقل الطمى بكثرة فيسد المجاري النهرية ويملأ الجداول والقنوات والسواقي، وقد يحول مجرى النهر الأصلي من جهة إلى أخرى مما يسبب التعب المضني للملوك في تطهير القنوات وتنظيم الري ويحتاج التغلب عليها إلى قوة خارقة وتعب مستديم. فقد جاء الكهنة اولئك الذين يفيضون ذكاء ومعرفة بنظرية دينية على غاية من الخطورة والأهمية والبراعة، ما قد تخفف كثيراً عن عاتق الملوك في أمور الري، وهي أنهم خلقوا إلهاً يسكن في اعماق النهر سموه «ايا ـ آوه ـ ياوه ـ يهوه ـ اهوا ـ اهيه ـ انكى ـ نودميد ـ نديمو ـ نن ايكيكو» ـ وسنعيد ذكر اسمائه وصفاته عند بحثنا عن الآلهة ـ واعتبروه إله الينابيع والأنهر وإله عمق المياه العذبة وإله الحكمة

والعرفان وإله بناء البيوت والمدن. وهو من اقدم الآلهة التي تحب البشر وتغدق عليه الخيرات. وجعلوا العبادة التي ترضيه تنحصر في تشييد السدود وتطهير القنوات ورفع الطمى وفتح الجداول وتنظيم الري وإقامة النواظم وتصريف المياه وغرس الأشجار (النخيل والاعناب والرمان) وزرع الحقول (الحنطة، الشعير، السمسم...). وبهذه العبادة النافعة ألزموا الناس إلزاماً بتعمير الأراضي وتنظيم الريّ وغرس الأشجار وتكثير الأثمار، ولم يسمحوا لفرد ان يطلب معونة الإله ما لم يغرس شجرة أو يزرع غلة، وإلا لم يقبل دعاؤه، فأترعت الحياض وأمرعت المروج وأصبحت ضفاف دجلة والفرات بفضل هذه القواعد التعبدية الإلزامية وبسواعد ابنائها المؤمنين بكرم الإله «ايا ـ انكى» وعطفه يانعة خضراء كثيرة الخصب وافرة الغلال عديدة الترع والجداول والأنهر تزينها البساتين المملوءة بأنواع النخيل والأعناب التي يستخرج منها الدبس والخمر. فقد اغدقت هذه المروج والبساتين على البابليين المجد والثراء وجعلت ضفاف ما بين النهرين مكتظة بالنفوس وبالمدن العامرة والبساتين الزاهية الزاهرة. وكان من نتائج نظام الري وضرورة المحافظة على السدود واحترام حقوق الغير وتحمل المسؤوليات المتولدة عن ذلك، ما دفع الناس إلى احترام القواعد والنظم الاجتماعية والرضوخ للحق والعدل والخضوع للقوانين والشرائع والنظام. وتحت تأثير هذه القواعد الدينية وأمثالها كان الناس يعيشون كل مع الآخر في أمن ووئام حسبما يقتضيه نظام الري وواجباته، فارتقت الحضارة وخلّف أبناؤها للأمم ثروة فكرية ونتاجاً عقليّاً استفادت منهما البشرية بضعة آلاف من السنين ولم تزل.

ولما كانت بلاد بابل تستمد حياتها وخصوبتها من ماء الفرات، فقد وضع له الكهان ترتيلة خاصة[1] جاء فيها:

يا أيها النهر، يا خالق كل شيء
حينما حفرك الآلهة العظام
اقاموا أشياء طيبة على شطآنك
وفي طيات غمرك؛ بنى ايا ملك الغمر مقامه
وأنعموا عليك بفيض من المياه لا نظير له
والنار والغضب والجلال والرهبة
قد وهبها لك ايا ومردوخ
وأنت الذي تقضي في قضايا الناس
فيا ايها النهر العظيم، ايها النهر المجيد، يا نهر المعابد المقدسة
مياهك تفرج الغمة فتقبلني برأفة
وخذ ما في بدني وارم به على شطآنك
وغرّقه عند ضفافك، وغطسه في اعماقك

15 ـ ولما علم الكهنة ان الكواكب السيارة سبعة واعتقدوا انها آلهة تسير على بصيرة وهدى في مستقر لها

(1) عن مجلة سومر العراقية.

في السماء، اعتبروا العدد 7 من الأعداد المقدّسة. فكانت عندهم الآلهة السبع والملائكة السبع والأنهر السبع والجبال السبع والأبحار السبع والأفلاك السبع والكواكب السبع والسماوات السبع والأرضين السبع والشياطين الشريرة السبع وطبقات (الزيقورات) السبع وعدد أيام الأسبوع السبع. وقد خلق الإله السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع. والإنسان يعمل ستة أيام ويرتاح في اليوم السابع. وكان أعظم حلف عندهم (سبع في سبع).

فانتقل تقديس عدد 7 إلى اليهود[1] أولاً، ثم إلى الجزيرة العربية، وأخيراً إلى الأمم الأخرى كافة. ولم يزل إلى يومنا هذا يعتبر اليوم السابع من الأسبوع يوم راحة للبشر، وذلك بفضل ما شرّعه كهنة الكلدان في العصور السحيقة.

16 ـ وكان الكهنة يشيدون الزقورات (الأبراج ـ الاهرامات) ـ ومعنى الزقورة الصرح أو البرج العالي ـ لغرض إقامة الشعائر الدينية في الأعياد والحفلات فيجعلونها في المدن الكبيرة بسبع طبقات، كل طبقة أصغر من سابقتها تدهن كل طبقة بلون خاص يرمز إلى إحد الكواكب السبعة السيّارة بقصد تذكير الزائرين بالآلهة السبع الساكنة في الكواكب السبعة ـ وقد يوجد زقورات في المدن الصغيرة بأربع أو خمس طبقات فقط ـ ويشيدون في قمتها البالغ ارتفاعها مائة متر أو ما يزيد بيتاً للرب مكسوة قبته بصفائح الذهب حتى إذا ما انعكست عليها أشعة الشمس تظهر كأنها كوكب دُرّيٌ متلألىء في اعالي الجو. ومن أهم الزقورات برج بابل وكانت قاعدته مربعة أي 91 × 91 متراً وارتفاعه ما يقرب من مقدار ضلع قاعدته. وكذلك وبرج عقر كوف وقاعدته 60 × 70 متراً وارتفاعه بنسبة مقدار أضلاعه، وبرج أور وبرج نمرود. ويكون الصعود عليها إلى القمة من الخارج ـ كما هو الحال في منارة الملوية في سامراء ـ بدرج يدور حول كل الطبقات. وفي نصف الطريق مقاعد للراحة يجلس عليها الصاعدون إلى القمة.

وقد وصف هيرودوت المؤرخ اليوناني زقورة بابل وصفاً مطولاً خلاصته أنها في سبع طبقات. وفي الطبقة الثامنة البرج وهو بيت الرب، وهو معبد واسع فيه سرير ثمين غني بالزخرف ومزين بأنواع الزينة، خاص لاستراحة الإله مردوخ كلما نزل من السماء. وبجانب السرير طاولة من ذهب وتقيم فيه ليل نهار امرأة اصطفاها الإله لنفسه من بين النساء البابليات تنتظر دائماً مجيء الإله لتقوم بخدمته لا يحل لها قبول غيره في أحضانها. ويعتقدون ان الإله ينزل بنفسه إلى تلك الغرفة وينام على السرير. وفي أسفل الزقورة معبد آخر فيه تمثال الإله مردوخ وفيه مذبحان للقرابين. وقد ينزل الإله من برج الزقورة (بيت الإله) إلى المعبد الأرضي فيجلس فوق الدكه قرب المحراب لسماع صلوات العباد وقبول قرابينهم واستجابة طلباتهم واستماع دعاويهم. ووجد في زقورة عقر كوف معبد باسم الإله انليل، وهو الإله بعل، ومعبد آخر باسم الربّة تنليل وهي زوجة انليل. ومعبد ثالث باسم

---

(1) جاء في سفر التكوين ان الله خلق السماء والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، وأعطى إبراهيم سبع نعاج لا بيمالك لحفره بئر سبع، وخدم يعقوب حموه سبع سنوات لزواجه بليئه وسبع سنوات لزواجه براحيل. وفسر يوسف حلم فرعون ان سبع سنابل حسنة يقابلها سبع سنابل ضعيفة وسبع بقرات سمان يقابلها سبع هزال معناه سبع سنين رخاء وسبع سنين مجاعة. وانتظر الرب فرعون سبعة أيام وأكل الفطير سبعة أيام وعيد المظال سبعة أيام... وغيره كثير.

نورتا وهو ابن الإله نليل، فكان ثالوث مكوّن من الأب والأم والولد ولكل منها مذبح خاص لذبح القرابين المقدمة إليه[1]. ان جميع هذه المعابد من آثار الملك الكشي كوريكالزو الثالث.

ولما نضجت الحضارة البابلية كان كبار العلماء يدرسون من برج المعبد حركات النجوم.

17 ـ لم تكن نظرية الروح معينة واضحة عند الكلدانيين كما كانت عند كهنة مصر الفرعونية. فكانوا يعتقدون أن الميت كالنائم. فكما ان النائم يفقد احساسه وإدراكه ويحتفظ بالحياة فقط، كذلك الميت يحتفظ بشيء من الحياة الخفية لا يمكن الوقوف على حقيقتها. وقد أعملوا جهدهم للوصول إلى تفسير معنى الموت والوقوف على حقيقة هذا السر الغامض فلم يفلحوا وباءت جهودهم بالفشل والخسران.

ويعتقدون ان الروح شبح يتمثل في ما يسمونه «آدمو»[2] وبعد مفارقته الجسد بسبب الموت يبقى آدمو حائماً هائماً على وجهه لا يستقر له قرار حتى يدفن الجسد وفق القواعد الدينية. وعند ذاك يدخل آدمو مع الجسد في العالم السفلي وفي عالم الأموات وتحت سبع طبقات الأرض وفي ظلام الأبدية الذي يحكم فيه قاسي القلب الإله «نرجال»، وتحكم معه فيه زوجه «ايرش ـ كيجال»، وتسمى أيضاً «اللات»، ومعهما العفريت «نمتار». وان لم تتوفر القواعد الدينية اثناء الدفن أو لم يدفن الجسد في القبر أو لم يقدم أهل الميت القرابين للمعبد أو في حالة نبش قبر الميت وإخراج رفاته ـ بقصد إيقاع الأذى بالميت ـ يخرج معه آدمو من القبر فيبقى شارداً مضطرباً قد ينقلب إلى شيطان مارد، إما بزيّ إنسان أو حيوان وإما غير مرئي فيهاجم الأحياء وينزل البلايا والمنايا والرزايا والمصائب في أهل بيت الميت وجيرانه وأهل حارته ويجعل الدور جحيماً لا تطاق.

وقد تتقمص روح المرأة التي تموت وتترك ولدها جسم بومة فتنعق في الخربات والدور المهجورة.

18 ـ وإذا كان ما يؤاخذ عليه كهنة بابل فهو اهمالهم قدسية المرأة وتسامحهم بعفافها، فلم يمنحوها ما تستحقه من عناية واحترام في مجتمعاتهم وجعلوها كالآلة المسخرة باسم الآلهة لفائدتهم. فقد روى هيرودوت أن كان للبابلين شريعة غير شريفة تحتّم على كل امرأة بابلية رفيعة كانت أم وضيعة ان تذهب ولو مرّة واحدة في حياتها الى حضيرة معبد الآلهة ميليتا Mylitta المقدّس، ويسميها الآشوريون «فنوس»، فتقدّم عفافها إلى من يختارها من الكهنة والرهبان والرجال والقوامين على المعبد. ومتى دخلت المرأة في حضيرة المعبد لا يجوز لها أن تعود إلى بيتها ما لم يخترها أحد الرجال. فيلقي في حجرها بعض النقود ويقول لها: (لتكن الآلهة ميليتا بمعونتك). فتنقاد إليه صاغرة وتختلي معه في حجرة من حجرات المعبد وتصبح تلك النقود ان قلّت أو كثرت مقدّسة تحافظ عليها طيلة حياتها.

---

(1) وهذا يذكرنا أيضاً اتخاذ اليهود أولاً خيمة الاجتماع بيتاً للرب كلما نزل من السماء. فكان يجلس الرب (على الغطاء من بين الكروبين الذين على تابوت الشهادة 24 ـ 25 خروج) ثم اتخذوا قدس الاقداس في هيكل سليمان بيتاً للرب فانتشرت منهم هذه العقيدة إلى الجزيرة العربية فاعتبر العرب في الأدوار الجاهلية الكعبة بيتاً للرب وثم اصبحت جميع المعابد في العالم كله بيوتاً للرب.

(2) لعله صار بعد ذلك رمزاً لآدم الوارد ذكره في سفر التكوين.

فتكون المرأة قد اوفت نذرها للآلهة ميليتا ويكون الكهنة قد قضوا وطرهم من نساء الأمة كافة. فأما الجميلات الرشيقات منهن فلا ينتظرن كثيراً. وأما الدميمات المشوّهات فقد ينتظرن اسابيع وشهوراً وسنوات حتى يوفين نذرهن للآلهة. ولعل اقليم بابل الحار الرطب كان قد جعل منها مدينة شهوانية شديدة الغلمة.

لم تكن هذه الشريعة التي كلها فسق وفجور خاصة بمعبد الآلهة ميليتا وحدها، إنما كان في كل معبد بغايا مقدّسة نذرن نفوسهن وأجسادهن للآلهة تحت عنوان خدمة المعبد المقدس. فصادفت هذه الشريعة رغبة وهوى في نفوس كثير من كهّان الديانات الوثنية الأخرى في الشرق والغرب لتسليتهم في وحدتهم. ولأجل إعطاء عملهم هذا صفته التشريعية، جعلوا الإله نفسه بحاجة إلى زوجة أو عشيقة، فأقاموا بجانبه الربّات والعشيقات تشتركن معه بصفاته وسلطانه ومجده، كما هي ونوس ـ ايستار ـ عشتروت. فهي كوكب الزهرة الوهّاج، وهي بغي الآلهة، وهي تمثل العشق والحب والغرام والهوى والاستهتار بالعفاف فجعلوا تضحية العفة مما يرضي هذه الآلهة. فقد وضعت كل هذه القواعد الشرعية لتكون قدوة للنساء حتى يمتثلن سيرتها ويسهل عليهن تقليدها. ومن الغريب جداً ان يصل الاستهتار بالعفاف ويعم الخنا لدرجة ان كوباد الملكة السامية من سلالة كيش الثالثة اشتهرت بأنها كانت صاحبة مبغى يؤمها الناس من كل حدب وصوب. ومع هذه الإباحية والتساهل بالعفاف، شدّدوا في الغسل من الجنابة بعد كل اضطجاع وفرضوا على الرجل وزوجه ان يتبخرا بالبخور أولاً ثم يغتسلان بالماء عند بزوغ الشمس، ولا يحل لهما ان يلمسا شيئاً قبل الاغتسال. وتوجد امثال هذه الشريعة مشددة عند اليهود.

الفصل الثالث الحياة الثانية بعد الموت

1 ـ لم يكن عند الكلدان في باديء أمرهم فكرة الحياة الثانية بعد الموت. ولم تكن لديهم، كما كانت عند كهنة مصر، جنان يانعة وموائد إلهية وظلال كثيفة ونسيم بارد وميزان عدل لوزن الحسنات والسيئات. فلم تكن عندهم آمال دينية لذيذة وحياة سعيدة هنيئة خالدة بعد الموت، حتى إذا ما فاتتهم في هذه الحياة يجدونها في اليوم الآخر أو في الحياة الثانية. وجل ما كان عندهم هو حياة شبيهة بالحياة الشعورية بعد الموت أو عالم يسمى عالم الموتى ويسمى أيضاً عالم الظلمات والأبدية.

2 ـ ومن بين مراسيم تكريم الموتى ظهرت قواعد دينية كثيرة من الواجب على أهل الميت اجراؤها عند الموت وقبل الدفن وبعده كما سبق بيانه، لتأمين استقرار «آدمو» مع الجسد في اللحد بهدوء وسكون إلى أبد الآبدين. ولما كانت الآلهة قد خلقت الإنسان ليعبدها فكانت العبادات عندهم تنحصر بتقديم الطاعات والخدمات والقرابين والأدعية والالتماسات والتضرعات إلى الآلهة لتأمين الصحة واستدامة العافية والتخلص من تسلط الأرواح الشريرة والتمتع بلذة الحياة وزينتها وبالعمر الطويل والتخلص من الآلام والاسقام. فكان الثواب والعقاب الفردي والاجماعي عندهم يعودان إلى الحياة الدنيوية فقط. فأما الذنب الفردي فيستوجب تسلط الجان والشياطين على الشخص المذنب؛ وأما الذنب الاجماعي فيستوجب الأوبئة الماحقة أو الأعداء أو الطوفان العظيم فيهلك البشر بجرة قلم واحدة. فكان الخوف من الجزاء الدنيوي العاجل أكثر وقعاً بالنفوس من العقاب الأخروي الآجل الذي يمكن تلطيف شدته وحدته بالالتماسات والشفاعات والتوبة والاستغفار في آخر العمر.

وأما بعد الموت فقد يذهب الناس إلى دار الأموات وإلى دنيا الظلمات متساوين فيها. فلا نعيم ولا عذاب ولا جنة ولا جهنم ولا عقارب ولا حيّات، وللآلهة الحياة الأبدية الخالدة.

وبهذا كان الفكر البابلي قد اتجه تحت هذه الدساتير الدينية إلى اقتناء الحياة السعيدة في الدنيا، فأعمل الفرد جهده للاستفادة من الحياة والتمتع بمحاسنها ولذائذها وفي الاقبال على الدنيا والتزود بأكبر نصيب من نعيمها ومسراتها وخيراتها وحسناتها، فسلم من عذاب القبر ونهش العفاريب ومن البعث والحشر والميزان والعذاب الأبدي ومن حفر النار المملثة بالحيات والعقارب[1].

---

(1) كانت عقيدة اليهود تشابه كل المشابهة عقيدة الكلدانيين في الحياة الثانية بعد الموت ولعلهم اقتبسوها منهم. فليس في الشريعة اليهودية في أسر بابل أي بحث عن الحياة الثانية بعد الموت، إنما جاء في سفر الجامعة للملك سليمان فقرة واحدة غامضة لا يعلم القصد منها وهي «أليس إلى موضع واحد يذهب الجميع» (6 ـ 6). ولم يفسر الملك سليمان قصده من هذه الكلمة. ولعله كان يقصد بها عالم الظلمات ودار الأموات.

وجاء في كلام النبي دانيال عند سبي بابل «آما أنت فاذهب إلى النهاية فتستريح وتقوم لقرعتك في نهاية الأيام» (13 ـ 12). ولم يزد النبي دانيال أيضاً عليها شيئاً. وهذا جل ما هو موجود في التوراة من أوله إلى آخره عن الحياة الثانية بعد الموت.

3 ـ ثم انتقلت إلى بابل بعض المعتقدات المصرية حول الحساب والنعيم والعذاب بعد الموت فوصلتهم بشكل مضطرب مشوش. وجعلوا ان الروح بعد أن تفارق الجسد «آدمو» تنتقل إلى محل مظلم يسمى «آرالو» تحت الأرض عند الإله «نرجال» فتتولاها هناك الآلهة العاتية «اريش ـ كيكال» وتسمى «اللات» وتسمى أيضاً «ايركلا» لمحاكمتها، لا عن أعمال الخير والشر التي عملها الشخص في حياته كما هو الحال عند المصريين، إنما عن علاقتها مع الآلهة في الحياة الدنيوية وعن تقديمها الهدايا والقرابين للمعابد فقط.

والسبب في هذا الاعتقاد هو أن الكلدان كانوا يعتقدون ان الخلود خاص بالآلهة وأما الإنسان فهو محكوم بالفناء. وهذا خلاف لما كان يعتقده المصريون عن احتمال عودة الروح إلى الجسد. ثم كثرت آلهة الظلمات فظهر للعالم السفلي «بيسوكال» و«حيرو» من الأرباب و«باو» و«كوله» من الربات وغيرهم.

4 ـ كانت الموتى في مصر تدفن بجوار حضيرة الإله اوزيريس لنيل عطفه ورحمته، فانتقلت هذه العقيدة الرابحة إلى ما بين النهرين وشرع كهنة بابل يحثون الناس على نقل موتاهم من مسافات بعيدة لدفنها في المدن المقدسة وبجوار معابد الآلهة في بابل واريدو وشوشن والوركاء... فكانت هذه العقيدة تدر الأرباح على الكهنة والرهبان. وهي خير وسيلة لابتزاز الأموال.

ولما كان في نقل الجنائز إلى حضيرة الآلهة والمتأهلة أو القديسين والأبرار غنم لرجال الدين، فقد انتشرت هذه العقيدة بسرعة في أنحاء العالم كافة. ولم يزل رجال الدين ذوو المنافع، كل من جانبه، يبذلون جهدهم لترسيخها ويحثون الناس عليها لفائدتهم.

الفصل الرابع الشرائع

1 ـ من المحقق ان الشرائع الدينية العراقية ترجع في عروقها ونشأتها إلى عصور واغلة في القدم وإلى الأدوار البشرية الأولى. وكان أول ما دوّنه الكلدانيون والسومريون في عصر التدوين بالكتابة اللفظية في الألف الرابع قبل الميلاد هي الشرائع والقوانين التي كانت متداولة ومتعارفة بين الناس. وبهذا كان سن الشرائع لتنظيم الحياة الدينية والدنيوية وتثبيت المعاملات التجارية بين الناس من أولى الجهود البشرية.

ولم تكن مصر واليونان واليهود وسكان شرقي البحر المتوسط كافة قد جاؤوا بشرائع جديدة مبتكرة الا القليل منها. وأما القواعد الدينية الأساسية فقد وضعت في اوروك واريدو واور الكلدان وبابل ثم انتقلت كلياً أو جزئياً إلى الأمم المجاورة والمتعاقبة فصقلها وهذبها كل منهم تبعاً لسنّة التطور ونظراً لاحتياجاته وعنعنات أمته وما يحيط به من المؤثرات الطبيعية. فدخل عليها كثير من التحوير والتبديل والتحسين والتنميق. إلا ان القواعد الأساسية في مدلول الآلهة وعبادتها كانت ولم تزل هي هي.

2 ـ وكانت الشرائع التي يسنها الملوك كلها تعتبر إلهية وبوحي من الإله «شمش»، إله العدل والحق تعاونه في اقامة الحق وتوزيع العدل ابنتاه «كيتو» إلهة الحق و«ميشارو» إلهة العدل.

واعتبر بعض البابليين أن الآلهة عشتار أيضاً تنظم التقاضي بالشرع والعدل بين الناس.

3 ـ وكان الملوك يدّعون انهم مسوقون بإرادة إلهية في تدوين شرائعهم، وعلى الشعب ان يتمسك بالشرائع باعتبار أنها صادرة عن الآلهة. وكان الحاكم أو القاضي يمثل الإله في تطبيق الاحكام الشرعية. ولذلك كانت جميع الشرائع تتصف بالقدسية التي لا يجوز لأي فرد الاعتراض عليها أو تحويرها أو تبديلها نصاً ومعنىً. وإذا ما اقتضى لها أي شرح أو تفسير فهو يعود للملوك وحدهم، فهم الذين يفسرونها ويشرحونها بوحي يأتيهم من الآلهة. وقد حذت الشعوب الشرقية كافة في ما بعد حذو البابليين ـ سوى الإغريق ـ فجعلوا شرائعهم كلها إلهية منزله أو بوحي من الآلهة لتكون لها منزلة رفيعة عند الناس ولئلا تعتبر بشرية شخصية فيصيبها التحوير والتبديل. وبهذه القدسية كانت تحافظ على نصوصها وحروفها وألفاظها وأحكامها.

4 ـ ان اقدم وثيقة طينية عثر عليها في العراق مكتوبة باسم الملك «اروكاجينا» جاء فيها: انه باسط العدل وحامي الضعفاء وانه اقام حدود الشريعة والعدل التي فرضها الإله «ننجرسو».

وجاء في شريعة الملك «اور ـ نمو» مؤسس سلالة اور الثالثة السومرية: «لقد جعلت شرائع الإله شمش تسود في البلاد».

ووجد رقم طين سجل فيه الملك «سن ـ ادنام» احد ملوك لارسا أنه ادخل الفرح إلى قلب الإله تموز ومكن الأحكام والشرائع المقدسة في البلاد.

وجاء في خاتمة شريعة «لبت ـ عشتار» احد ملوك مدينة ايسن: بالعدل الثابت المستمد من الإله «اوتو ـ اله الشمس» جعلت بلاد سومر واكد تتمسك بالعدل. وبأمر الإله «انليل ـ إله الهواء» لقد قضيت انا لبت عشتار ابن انليل على البغضاء والعنف.

5 ـ وثبت لدى العلماء الاخصائيين بالآشوريات مما استخرج من ارقام الطين العائدة للسومريين والأكديين من نصوصها ومضامينها أن شريعة حمورابي مستمدة في اصولها من الشرائع السومرية والأكدية التي سبقتها. وقد ثبت أن كان للسومريين شرائع ومحاكم قضائية دينية ومدنية قبل حمورابي بأزمان سحيقة في القدم، وأن أول من وضع الشرائع أو نسبت إليها الشرائع هي الإلهة «نصابه» إلهة الحكمة والمعرفة والكتابة. وكان زوجها «خاني» إله الأختام والوثائق الدينية. وقد اكتشف في مدينة «نفر» مجموعة من الطين باللغة السومرية تحتوي على شريعة الملك البابلي «لبت ـ عشتار»، الملك الخامس من سلالة ايسن (في بداية الألف الثاني ق. م.) سبقت شريعة حمورابي بنحو قرنين من الزمن. كما وعثرت البعثة العراقية بحفرياتها في تل جرمل على رقيم من الطين يحتوي على شريعة زمنية تسبق زمن حمورابي بنحو أيضاً قرنين من الزمن خاصة بمملكة اصتدنا تحتوي على الوثائق التجارية والقانونية كالبيوع والديون وعقود الزواج والطلاق والتبني. وليس من موضوعنا التوغل فيها.

6 ـ كانت شريعة حمورابي تتألف من مجموع الشرائع السومرية والاكدية السابقة مع بعض التعديلات والعلاوات فيها نظراً لما اقتضته الحالة الاجتماعية في الامبراطورية البابلية. فقد سجل حمورابي شريعته على سياق لبت ـ عشتار في مسلة عظيمة ارتفاعها ثماني اقدام من حجر الديوريت الأسود في ثلاثة آلاف سطر من الكتابة المسمارية البابلية. وكان الحجر قد نقله إلى مدينة السوس ملك عيلامي فاتح فاكتشفه هناك الفرنسيون فنقلوه إلى متحف اللوفر. وقد جاء في مقدمتها:

«لما عهد «آنو» العظيم سيد ملائكة الأرض و«انليل» رب السماء والأرض الذي بيده مصير البلاد إلى «مردوخ» بكر الإله «ايا» أن يحكم جميع البشر، وعندما عظّماه بين ملائكة السماء وجعلا إسم بابل مجيداً انتدبني آنئذ «آنو وانليل» انا حمورابي الأمير الكريم عابد الآلهة لأنشر العدل في البلاد وأقضي على الشر والغش وأمنع القوي من اضطهاد الضعيف... الخ». ثم ينتقل إلى الأحكام الخاصة بالزراعة وإيفاء الديون وأحوال الطلاق وحقوق المرأة وإيجار الأرض والبيوت والوصايا... الخ.

ويظهر حمورابي في مسلته ـ نسخة منها طبق الأصل، موضوعة في مكتبة المتحف العراقي ـ واقفاً امام الإله «شمش»، إله الشمس والعدل والحق يتسلّم بخضوع شريعته من إلهه الجالس.

وكان الملوك كافة يتفاخرون انهم يخشون الآلهة ويتمسكون بشرائعها وينفذون أوامرها وإرادتها وأنهم يعدلون بين الناس في تطبيق القواعد الشرعية.

الفصل الخامس السحر

1 ـ ان أساس السحر هو الاعتماد على الأرواح الطيبة أو الخبيثة أو القوى الخفية واللامرئية من جان وشياطين وجلبها وإحضارها لإنجاز أمر من الأمور وتحقيق مقصد من المقاصد. وقد عرف السحر بين شعوب العالم منذ أزمان سحيقة بالقدم، ويكاد أن يكون كل أنواعه على نمط واحد ويشابه بعضه بعضاً.

وكان كهنة بابل قد اشتهروا بأعمال السحر والتصرف بأنواعه وأشكاله. وظهر منهم سحرة ماهرون أقنعوا الشعب بقدرتهم وتسخيرهم الجان والشياطين مثلما يقصدون ويطلبون، وجعلوا الشعب يؤمن إيماناً قاطعاً ويعتقد اعتقاداً جازماً بمدعياتهم وأقوالهم حتى أصبح يؤمن بكل ما يملى عليه ويعيش في جو مشبع بالأرواح الشريرة والمردة والعفاريت والسعلوات وهو معرّض لهجومها من كل جانب وفي كل وقت وزمان. ووضعوا لها أشكالاً وأوضاعاً مفزعة مخوفة وجعلوها تخرج من مكانها بالليل فتكمن وراء الجدر وتختبىء في المنعطفات وتصطاد الناس في الوحدة والخلوات والظلمات وعند رؤوس الآبار وسواحل الأنهر، وتباغت السابلة وأفراد الناس في الصحاري المقفرة ورؤوس الجبال... فلا يمكن الوقاية من شرورها ولا يمكن التخلص من هجومها وتعرضها إلا بوصفة يمنحها الكاهن واقية أو شافية تحتوي على أنواع من التعاويذ والرقى والأحجية والتمائم والطلاسم والعزائم... وقد تحمي هذه الوصفة صاحبها وحاملها من اصابة العين ومن الحسد ومن التباعد والتنافر أو التآلف والتقارب ومما قد يتخذه العدو ضد حاملها من أنواع السحر... وبهذا أصبح المجال واسعاً لتدخل الكهنة بين المرء وزوجه وبين الفرد وإلهه وبين أفراد الناس في ما بينهم.

2 ـ وبهذه التلقينات والخزعبلات وتحت تأثير الجو العراقي المتقلب، أصبح الفرد السومري الكلدي البابلي أكثر إيماناً بالمنقولات واعتقاداً بالفال والطيرة والخيرة والسحر وأشد تعلقاً بالدين وبما يمليه عليهم رجال الدين من الأمم كافة. وقد انتقلت بالتواتر هذه العقائد إلى الأمم الأخرى. وكثير في هذا الزمن من بين الطبقات الواطئة من البشر من يعتقد بصحة السحر والفال ومفعول الأحجية والتماتم ويحملها دوماً.

3 ـ ولأجل اعطاء الكهنة الصفة الشرعية للسحر اعتبروا ان الآلهة القديمة هي التي كانت تستعمل السحر. وكان عند الإله «ايا»، إله المعرفة والحكمة أسرار السحر وأنواع القوى والكهانة والعرافة. وقد تغلب على جده الإله «ابسو» بقوة سحره المقدس. وكان الإله «مردوخ» أيضاً قد قضى بسحره المقدس وبشبكته السحرية على جدته «تيامات» الإلهة العظيمة كما سيأتي بيانه.

4 ـ والسحر على نوعين: حرام وحلال. فأما الأعمال السحرية المحرّمة، وكان يمارسها كهنة بابل سراً، فهي إرسال أحد الجان أو الشياطين إلى العدو المراد إيذاؤه أو اهلاكه فيقترب الشيطان من الشخص ويلازمه حتى إذا ما وجد الفرصة دخل في جسده وأوقع فيه الجنون والخبال والأمراض والآلام حتى الموت. وكذلك أنواع السحر كافة التي تستوجب إقلاق راحة الناس وتستوجب الأذى للغير.

وأما السحر الحلال فهو الذي يقصد منه طرد الشياطين وشفاء الأمراض، وذلك باعتباره شعبة من الطب. واستدام هذا النوع من السحر عند البعض من الناس حتى زمننا هذا. ولما كان الاعتقاد ان الجنون هو مس من الشياطين فكان الاخصائيون بطرد الجان والشياطين من الجسد الإنساني حتى إلى وقت قريب يجلدون المجانين التعساء بالعصي جلداً مبرحاً ويصرخون بملء افواههم اخرج! اخرج! حتى يهلك المريض من الضرب.

5 ـ وقد صنّف البابليون الجان والشياطين إلى عدة أصناف، منها المسماة المثلث الشيطاني وهو مكون من «لبارتو ـ لباصو ـ آخازو». لبارتو هي جنية وبنت الإله آنو، ولباصو وآخازو من الذكور. ويسكن هذا المثلّث في فوهات الآبار والبلاليع وفي سواحل الأنهر فيغرق الأولاد.

وعندهم مثلث آخر من الجان مكون من «ليلو ـ ليلتو ـ ليلى»، فليلو ذكر ليس له زوجة، يهاجم النساء في الممرات والدهاليز والصحارى المقفرة فيطأهن عنوة ويولدهن ـ وهي طريقة رابحة للرجال ومعذرة للنساء الحبالى وشرعية للمولود بدون أب ـ وأما ليلتو وليلى فهما جنيتان ليس لهما زوج فتهاجمان الشبان في اليقظة أو في الحلم.

وعندهم من الشياطين «اساكو» الذي يولد الأمراض الخبيثة. و«جلتو» الذي يسكن في الخرائب. و«رابصو» الذي يتحيّن الفرص للإيقاع بالناس فيهاجمهم بالليل. و«اوتكو» يسكن في الفيافي والصحارى. وفوق هؤلاء كان رئيس العفاريت الجني «بوزوزو» الذي يظهر رسمه فوق الألواح السحرية[1].

فلكل من هذه الشياطين نوع من السحر لطرده من الجسد الإنساني. فيعمل السحرة للأشخاص المسحورين تمثالاً من الدمى رمزاً لها ويحرقونها بالنار كناية عن احراق الشيطان أو تهديداً له بالإحراق ويبخرون المريض بأنواع من البلاسم والبخور (بذور الحرمل مثلاً) فيترك الشيطان جسم المريض ويهرب.

وأما الذين اصابتهم الشياطين لتقصيرات ظهرت منهم أو لاهمالهم تقديم العبادات للآلهة أو في حالة ارتكابهم المعاصي الدينية، فيحرقون لها انواعاً خاصة من البخور رمزاً لإحراق سيئاتهم وذنوبهم ويقرأون انواعاً من التعاويذ لطرد الأرواح الخبيثة من الجسد.

وقد يوقعون الخير أو الشر في الإنسان عندما يحصلون على شيء من أظفاره أو شعره أو ثيابه فيتخذون منها أداة لعمل السحر باعتبارها أشياء مماثلة. وإن ما يقع في هذه الأجزاء قد يقع في الجسد المراد له الخير أو الشر. وكذلك الحال في إصابة العين. فيسرقون شيئاً مهما كان ضئيلاً ومهما كان نوعه وجنسه من متاع الشخص الذي يحتمل اصابته الناس بعينه ويحرقونها ويبخّرون بها المريض. وان لم يهتدوا إلى الشخص فيجمعون أزبال المحلة ويحرقونها للغاية نفسها.

وفي سبيل إيذاء العدو يعملون دمية كرمز له فيكسرون يدها أو رجلها أو يفقئون عينها أو يحرقونها بالنار بقصد إيقاع الشيء نفسه بالشخص الذي تمثله الدمية، وهو ممنوع بقانون حمورابي.

---

(1) تسرّب الاعتقاد بالجان والشياطين إلى جزيرة العرب وكان عرب الجاهلية يسمون الذكور من الشياطين زوبعة والاناث تابعة. ولابن شهيد الأندلسي كتاب الزوابع والتوابع فيه الشيء الكثير عن احوال الجان والشياطين.

6 ـ ولأجل اجتناب خطر الجان والشياطين والمردة والأرواح الشريرة بصورة دائمة كانت ملوك بابل تضع امام أبواب قصورها تماثيل الإله مردوخ. وأما الآشوريون فكانوا يضعون الثيران المجنحة برؤوس البشر. ووضع السومريون «اسد اريدو» في باب المدينة رمزاً للقوة حتى إذا ما رأتها الشياطين والأرواح الشريرة هربت منها ولم تدخل المدينة أو الدار[1]. وأما الشعب فكان يضع فوق باب داره حسب توصية الكاهن اناء خزف أخضر اللون أو نعل حافر الخيل أو قرن تيس الماعز أو دمية صغيرة زرقاء وما أشبه ذلك، حتى إذا ما رأتها الشياطين تعبر الدار ولا تدخله[2]. ولم يزل في الشرق من يضع فوق باب داره علامة من العلامات المذكورة.

وكان يعتبر ذبح حيوان على عتبة باب بيت جديد قبل سكنه مما يمنع الكوارث والشرور ويرد الآلام والأحزان عن أهل البيت. ولم يزل ذبح حيوان على عتبة دار جديدة سائداً في الشرق كله، إلا أنها تطورت إلى هدية للعمال. وقد تذبح الذبائح على عتبة الدار للقادم من السفر بعد غيبة طويلة.

وأما الأفراد الكبار والصغار فيحملون في أعناقهم أو يربطون في سواعدهم قلادات من اسطوانات حجرية صغيرة وخواتم فيها صور الآلهة وأحجية وتمائم للوقاية من الجان والشياطين أو للوقاية من كل عمل سحري يفعله العدو.

7 ـ ولما كان الاعتقاد السائد أن عيون الجان زرقاء خضراء فان الأمهات الجاهلات كانت ولم يزل كثير منهن تعلقن في اعناق أولادهن قلادة من الخرز الأزرق أو الأخضر بقصد تضليل الجان حتى إذا ما رأت اللون تعطف على الأولاد ولا تمسهم بسوء وتسمى عند العامة حرز. وأخيراً استبدلت الفصوص الثقيلة بقطعة صغيرة من الذهب يكتب عليها «ما شاء الله» لرد إصابة العين.

وقد انتشر حمل الاحجية والتمائم والتعويذات في بقاع الشرق الأوسط كافة وتأثرت منها كثير من الأمم والأقوام ولم تزل هذه الفكرة موجودة عند الأمم المتأخرة حتى هذا اليوم.

(1) مما يجب ذكره أن العالم الأثري ج. أي. تايلر كان قد عثر على أسد اريدو عند حفرياته في اريدو عام 1855 وطمره في التراب لصعوبة نقله ثم اخرجته مديرية الآثار القديمة عام 1947 ونقلته إلى المتحف العراقي في بغداد، وهو معروض في المتحف للزائرين.

(2) تذكرنا هذه العقيدة ما جاء في سفر الخروج من التوراة «مسو العتبة العليا بالدم... فان الرب يجتاز ليضرب المصريين فحين يرى الدم على العتبة العليا يعبر الرب عن الباب» (22 ـ 12 خروج).

الفصل السادس العبادة

1 ـ كان الاعتقاد السائد عند البابليين كما سيأتي بيانه عند البحث في اسطورة الخليقة أن الإله مردوخ اسر بشبكته السحرية الإله «كنكو» وزير حرب الآلهة «تيامات» وقدمه للآلهة مصفداً بالاغلال لمحاكمته فأودعته الآلهة إلى الإله «ايا» فأهدر دمه. وعادت الآلهة فخلقت من دمه ومن التراب أول مخلوق بشري «لولو» وهو جد الإنسان الأول ليعبدها كجزاء أبدي للإله كنكو. ومن هنا نشأت العبادة.

والعبادة هي اطاعة أوامر الآلهة ونواهيها والتمسك بشرائعها وسننها وتشييد المساكن لإقامتها وتقديم الذبائح والقرابين لمعابدها وإحضار الأغذية والأطعمة اللازمة لها واستجلاب عطفها ورضاها بالأدعية والصلوات واجتناب سخطها وغضبها بالتوسلات والمناجاة. وأما إذا عاد الإنسان فتمرد وعصى على آلهة أو على الآلهة، فانها تعاقبه بالتخلي عنه وبإهماله فتحتل جسده المردة والجان والشياطين والأرواح الخبيثة فتولد فيه الأمراض والجنون والآفات وتصب عليه البلايا والمصائب والنكبات. فكان الوجهاء والأثرياء يضعون تماثيلهم في المعابد امام الآلهة لتقوم مقامهم في تقديم العبادات والطاعات ليلاً ونهاراً وعلى كر السنين والأعوام.

وبعد ان ألقى الكهنة الرعب في قلوب الناس بمثل هذه المعتقدات شرع الفرد البابلي يهرع إلى الصلوة وتقديم القرابين والاستغاثة والتوبة والاستغفار من الذنوب السابقة واللاحقة وترتيل الأدعية الدينية بخضوع وخشوع، فيبكي وينتحب ويرجو ويأمل. كل هذا خوفاً من عقاب الآلهة. وبهذا طغى الدين بمراسيمه ومناسكه وشعائره على الحضارة البابلية.

2 ـ ان الأدعية الدينية التي كان يكررها الفرد البابلي في صلواته هي:

اللهم سكّن غضب قلبك الثائر. وليسعني حلم الرب الذي أجهله.

اني ارتكب الأثم ولست أدري يا إلهي.

إن ذنوبي وخطاياي كثيرة وكبيرة. [ثلاث مرات].

يا إلهي الذي أعرفه، ويا أيها الإله الذي لا اعرف،

إن ذنوبي كثيرة وكبيرة [ثلاث مرات].

ايتها الآلهة التي أعرفها، ويا أيتها الآلهة التي لا أعرفها،

إن ذنوبي وخطاياي كثيرة وكبيرة. [ثلاث مرات].

ليسكن الغضب الذي في قلب ربي وليصفح عني الإله الذي اعرفه والذي لا اعرفه. ولتصفح الآلهة التي اعرفها والآلهة التي لا اعرفها.

وهكذا أخر ساجداً وما من أحد يمد يده نحوي.

وأجهر بالدعاء ولا من يسمع.

يا إلهي خطاياي سبعة في سبعة فاغفرها لي.

وكان الاعتقاد السائد أن السماء مملوءة بالآلهة، منها التي يعرفونها ومنها التي لا يعرفونها. وعلاوة على هذه الآلهة السماوية كان لكل مدينة كبيرة إله يحميها. فكان الإله «نرجال» في كوشي والإله «انليل» في نفر والإله «مردوخ» في بابل والإله «آثور» في نينوى حماة المدن والشعوب.

3 ـ كانت شعائر الصلوة عند البابليين هي ان يقف المصلي أمام هيكل الرب ويرفع يديه ويفتح راحتيهما، وهذا ما يسمى بـ «القنوت» ثم يدعو ويستغفر ويركع ويسجد ويقبل قدمي تمثال الرب ويبكي ويتألم ويقرأ الادعية المؤثرة.

وشعائر الصلوة عند السومريين هي وضع اليد اليسرى فوق اليمنى ثم وضعهما فوق الصدر. أما الاكديون والساميون فكانوا يرفعون اليمنى وهي مفتوحة ويسبلون اليسرى وهي منقبضة. وفي أثناء الصلوة كان يحرق البخور في مباخر من النحاس. وأما القرابين المقدمة إلى المعبد فكانت من الطير أو السمك أو من مختلف أنواع الحيوانات. وكانت العادة في دفن الموتى عندهم هي وضع يدي الميت على صدره وثني ركبتيه قليلاً. ومن العادة ان توضع بجانبه جرار جميلة الصنع فيها خبز وفاكهة ودهن وإناء مملوء. وتدفن معه فأسه وخنجره وختمه، ويكسى بأحسن ما لديه من الثياب. اما المرأة فتزود بأكثر مما للرجل بمساحيق وادوات الزينة ودبابيس وبحليها وقلائدها واقراطها. وقد وجد المنقبون في حفريات تل القصير من دور فجر السلالات مقابر فيها أدوات للطعام والشراب.

4 ـ كانت الأعياد الدينية العامة تقام في المدن الكبرى وخاصة في العواصم. ففي أول يوم من نيسان من كل سنة وهو رأس السنة عندهم، يبتدأ الاحتفال بالعيد الكبير فتجمع تماثيل آلهة بابل من الأطراف ويحضر تمثال الإله «نبو» ابن الإله «مردوخ» من لابنة بورسبا ويسير الموكب في شوارع بابل باحتفال عظيم حتى يصل معبد «ايساكل» وهو المعبد الرئيسي بين معابد المدينة والمخصّص لعبادة الإله مردوخ. ومعنى ايساكل بالسومرية «البيت الرفيع». فتقدم أولاً الآلهة هناك خضوعها للإله مردوخ ثم يتقدم في كل يوم صنف من الصنّاع والحاكة والصاغة والنحاتين والزراع وسائر ارباب الصنائع والمهن إلى معبد الإله مردوخ لتقديم الخضوع وفرائض العبادة. وعند ذلك يرتل المرتلون بالأدعية المؤثرة ويغني المغنون بالأناشيد الدينية ويضرب الموسيقيون بالصنوج والدفوف فيسود المعبد جو من الخشوع والرهبة.

وفي اليوم السادس من شهر نيسان يحضر الملك الى معبد «ايساكل» لتقديم فرائض الخضوع إلى الإله مردوخ. وعندما يدخل الملك في حضيرة الإله يستقبله رئيس الكهنة المسمى بلسانهم «اوريكلو» فيأخذ منه تاجه وسيفه وصولجانه وشاراته الملكية ويضعها تحت اقدام الإله مردوخ ويعود فيلطم الملك على وجهه ويسحبه من اذنه إلى حضور الإله. وينقاد الملك صاغراً ويسجد على أقدام مردوخ. ويعد ان يصلي ويستغفر يخاطب الإله بقوله: «يا إلهي سيد البلدان إني لم اقترف ذنباً ولم أهمل معبدك ولم اخرب بابل...». فيقول له الكاهن الأعظم: «سيباركك الإله مردوخ ويقضي على اعدائك... لا تخف ولا تحزن». وبعد هذه المراسيم الدينية يعيد الرئيس إلى الملك ما سلبه منه من الشارات الملكية. وعندما يهم الملك بالخروج يصفعه الكاهن على وجهه صفعة أخرى أشد من الأولى يجب ان تدمع لها عينه. فإن دمعت فتكون علامة خير للملك وللأمة وإلا فتكون علامة شر للملك وللأمة.

وفي السابع من نيسان يزين تمثال الإله مردوخ بأنواع من الثياب الفاخرة ويخرج من معبده وبجانبه تماثيل الآلهة كافة باحتفال مهيب ويمشي الملك في الشارع بجانب تمثال الإله مردوخ حتى معبد الإلهة «عشتار» ثم يعبر النهر بالقوارب ويسير إلى مكان يدعى «معبد الصلواة ـ بالسومرية زر». وتبقى تماثيل الآلهة فيه والكهنة يمجدون بطولة مردوخ وينشدون مقاطع من قصة الخليقة حتى اليوم الحادي عشر من الشهر ثم تعاد تماثيل الآلهة كل إلى مسكنها ومستقرها، ويعاد تمثال الإله نبو ابن الإله مردوخ إلى معبده.

5 ـ ومن جملة العنعنات الدينية التي كانت تجري في رأس كل سنة احتفالاً بالسنة الجديدة، هو انتخاب كاهن وكاهنة حديثي السن يمثّلان إله الخصب «تموز» وإلهة الخصب «عشتار» فيؤخذان بعد مراسيم دينية كثيرة في المعابد بموكب ديني إلى حجرة من حجرات الزقورة وهنالك يجري تحت إشراف الكهنة زفافهما الرمزي تفاؤلاً بإخصاب السنة الجديدة. وعند اقترانهما يتجرّدان من الصفات البشرية ويكتسبان الصفات الألوهية وينتهي أجَلَهُما فيدفنان سوية بمراسيم دينية عظيمة. وقد عثر المنقبون في أور على كثير من أمثال هذه القبور بدون عنوان أو لقب بشري فقد ذهبوا ضحية هذه القواعد والشعائر الدينية الصارمة.

6 ـ وقد دلت الحفريات والتنقيبات على أن العراقيين القدامى في الأزمنة التي ما قبل التاريخ وحتى في ادوارهم الواغلة في القدم [5000 ق. م.] كانوا متدينين لا يخلو دار من دورهم من معبد خاص لعبادة الإله[1]، إلى أن تأسّست المعابد العامة الأرضية ووضعت فيها التماثيل والأصنام. ثم شيّدت الزقوراة لاستراحة الآلهة عند نزولها من السماء. فمن المعابد الكبيرة معبد الإله «انليل» في عقرقوف ويسمى «اي ـ يو ـ كال» ومعبد الإله «نبو» في يورسبا «اي ـ زيدا» ومعبد الإلهة السيدة «ننليل» في عقرقوف ويسمى «اي ـ كشان» ومعبد الإله مردوخ في بابل ويسمى «اي ـ ساكل». وكلمة «اي» في البابلية: تعني المعبد.

وكان القصد من إقامة التماثيل هي تذكير العبد بمعبوده والمعبود بعبده.

(1) هذا يدل على ان العراقيين كانوا عاطفيين مفرطين في عواطفهم. فكان العراق بعد ذلك مسرحاً للمعتقدات المختلفة. ففيه ظهر الخوارج والقرامطة وسائر الغلاة من اصحاب المذاهب. أما المعتدلون منهم فقليلون.

الفصل السابع العرافة

1 ـ ويقصد بكلمة العرافة التنبؤ والوقوف والاطلاع على ما يخبؤه المستقبل والأخبار عنه قبل وقوعه وتفهم مشيئة الآلهة وإرادتها والعمل بموجبها. ولما كان الاعتقاد السائد ان الأعمال والآجال البشرية كافة مقدّرة من الأزل، وأن كل ما حدث ويحدث في هذا العالم معلوم عند الآلهة، وأن جميع الحادثات الكونية تابعة لإرادتها وقضائها وقدرها، فكان من الممكن لطبقة من الناس، وهم الكهّان خدمة الآلهة، الوقوف على ما في طيات الغيب وتلمس آثار ما سيحدث في العالم.

2 ـ ولما كان الإنسان حسب طبيعته الضعيفة واحتياجاته الكثيرة والآفات المحيطة به من كل جانب يود الاطلاع على ما يخبئه له المستقبل إن خيراً فيفرح به أو شراً فيتقيه، فقد تشكلت طبقة من الناس يطلق عليهم اسم «العرافيين» هم الذين يستدلون على ما سيحدث للفرد أو للمجتمع من حوادث فردية أو جماعية من الظواهر والعلامات والإمارات الجوية أو الحادثة منها فوق سطح الأرض.

اما العلامات الجوية فهي الخسوف والكسوف وحركة المذنبات والشهب والاجرام والكواكب وكل ما قد يحصل في السماء من حركات فلكية.

وأما الحادثة منها فوق سطح الأرض فهي على الغالب يستدل عليها من أحشاء القرابين المقدّمة كذبيحة للآلهة وخاصة من حالة كبدها ومن حالة الزيت المسكوب فوق الماء وما يشكله من حلقات، ومن إطلاق الطيور بالهواء واتجاهات سيرها، ومن نعيق الغراب، ومن الحوادث الفجائية غير المترقبة، ومن أول كلمة ينطق بها الرجل الغائب عند حضوره أو من أفواه الرجال المارة بالطريق أو مما يقوله الطفل أو من نبح الكلاب وزقزقة الطيور والعصافير... الخ.

3 ـ وكان العرافون والكهنة يفسرون الأحلام ويعتبرون الرؤيا من تجليات الآلهة وإرادتها. فقد تظهر الآلهة في الحلم إلى الناس الصالحين فتبلغهم أوامرها ورغباتها وما تنوي ان تفعله. وأما إذا كانت الرؤيا مضطربة وغير واضحة فتحتاج إلى معبر والمعبرون هم العرافون والكهان.

وقد وجد تفسير الاحلام مرتعاً خصباً عند الكهان البابليين وانتشر منهم إلى الأمم الأخرى واختص به كهنة اليهود في وقت لاحق.

4 ـ وكان العرافون يلاحظون علامات الفأل من الأطيار كالديك والحمام والعصفور والصقر والنسر، ومن الحيوانات كالحمار والغنم والبقر والكلاب والخنازير، وبما يصدرونه من حركات وعلامات غير اعتيادية فيتخذونها مصدراً للتفاؤل أو للتطيّر أو للتشاؤم. وكان يعتبر عندهم الغراب نذير الفراق والبوم شؤماً وأليف الخراب.

الفصل الثامن التنجيم

1 ـ كان الاعتقاد السائد ان الأعمال كافة وكل ما حدث وما سيحدث، وما هو كائن وما سيكون، وكل حركة وسكون في الكون كله وحتى الأعمال البشرية آتية من السماء ومن صنع الآلهة المتخذة مستقرها في النجوم. وكان من الممكن لقسم من الناس الممتازين معرفة رغباتها وقضائها وقدرها وما تحبه وما تنفر منه واحتياجاتها ومقاصدها والاطلاع على نواياها والوقوف على ما تريد اتخاذه قبل حدوثه وتلافيه إن امكن بالأدعية والتوسلات والقرابين والصلوات. وبسبب هذا الاحتياج ظهر المنجمون الذين يقرأون الإرادة الإلهية قبل حدوثها وما هو آت في هالة القمر وفي نجوم السماء وفي حركات الكواكب وفي الاجرام السماوية والاستدلال من كل ذلك عما سيحل بالملكة وبالملك وبالأمة من قحط ووباء وفيضان وغزو...

وكلما مر الزمان اتسع نطاق التنجيم فأصبح يشمل أفراد الناس أيضاً من يسر وعسر وسعد ونحس وصعود وهبوط. ويستدلون على معرفة طالع الإنسان من نجمه ومن التأثيرات الحاصلة في الأبراج وفي الكواكب، والحالة السائدة في الشمس والقمر ساعة ولادته. وقرروا أن أكثر الحوادث التي تحدث للإنسان ما بين ولادته وموته يرجع إلى تأثير نجمه عليه.

2 ـ ولما كان إله المعرفة «سن» قد اتخذ مستقره في القمر وله قارب يجوب به رحاب السماء، فكان القمر في هلاله وتربيعه وبدره موضوعاً مهماً للمنجمين يستدلون من رؤيته مع الشمس في وقت واحد على أمور كثيرة منها الحسنة ومنها السيئة تبعاً لمصادفة ذلك اليوم من أيام الشهر. وكان اختفاء كوكب الزهرة «عشتار» وظهورها مرة ثانية ولمعانها وخفوتها موضوعاً مهماً للمنجمين. وكذلك المشتري «مردوخ» فإن تألقه وتلألؤه يعتبران فال خير وخفوته دليل شر للبلاد. وقد قسّم المنجمون السنة إلى اثني عشر شهراً ووضعوا أمام كل يوم خواصه من سعد أو نحس وخير أو شر.

3 ـ وكان الناس يخافون جد الخوف ويهابون ويتطيرون من كسوف الشمس ومن خسوف القمر فيهرعون إلى المعابد للصلوة والدعاء. وقد انتقل هذا الخوف جيلاً بعد جيل حتى زماننا هذا. فلم يزل بين الناس الجهلة من يخاف ويتطير من الخسوف والكسوف. وأما الدهماء فيعتقدون ان الحوت السماوية هي التي تبلع الشمس أو القمر.

ومن أنواع التنجيم ما كان يعلمه المنجمون في طبيعة الأيام الصالحة من الطالحة. فكانت للأيام عندهم خاصية النحس والسعد. فلذلك لا يمكن لأي ملك أو أمير أو قائد وحتى لأي فرد من أفراد الناس أن يقوم بأي عمل مهماً كان أو تافهاً ما لم يعيّن له الكاهن اليوم السعيد. وقد تغلغلت هذه العقيدة في عقول الناس واستدامت حتى الأزمنة المتأخرة، بل ولا تزال بعضها موجودة في زماننا الحاضر.

ومن الغريب أن ظهر حديثاً علم جديد يهدف إلى معرفة ما يخبئه المستقبل بصورة علمية من

طريق الدورات المنتظمة للتقلبات الجوية وما تلابسه من التقلبات الاقتصادية والعمرانية والنفسية والصحية، فقد نشرت مجلة الهلال نقلاً عن مجلة ريد طرفاً من أقوال مختلف العلماء جاء فيها ما خلاصته: ان التنبؤ بحالة المستقبل من الأنواء الجوية على مدى واسع سيمكّن الفلاحين من اختيار أنواع المزروعات التي تلائمها هذه الأجواء، كما يمكنهم من تفادي تأثرها بالزوابع والأمطار المحتمل وقوعها. كما ان الوقوف على الدورات الجوية ستمكن الأطباء من الاستعداد لمواجهة الأوبئة والأمراض. وقد سجّل «رايموند» ان لكل من نوع الحكومات وأزمنة الحرب وتقدم الأديان وازدياد السكان أو قلتهم وتقدم الفن أو انحطاطه واعتدال المناخ أو تطرفه دورة منتظمة مرتبطة بالتقلبات الجوية والأنواء السماوية ارتباطاً وثيقاً. وقام دوجلاس، بدراسة جذوع مئآت الأنواع من الأشجار القديمة للوقوف على حالات الجو خلال مئآت السنين، فشاهد أن الحلقات الرفيعة تدل على جفاف الجو، ثبت ذلك من مقارنتهما مع جداول الأحوال الجوية في مختلف الأزمنة. فكانت تقلبات الجو وانتقاله من فترة دافئة إلى أخرى باردة والعكس تؤثر تأثيراً مباشراً على سلوك الإنسان وأخلاقه وعاداته وإثارة الحروب والنزعات الفنية والحاصلات الأرضية والجفاف والأمطار والطوفان وتقلبات السياسة والمنازعات الدولية... وهذا ما كان قد تفرس وجوده الأقدمون.

الفصل التاسع الآلهة

كان السومريون في بادىء أمرهم وفي الأدوار البشرية الأولى [3000 ق. م.] يعيشون في زمن يسود فيه الأمن والسلام. ولم تكن القواعد الدينية المخيفة قد ظهرت بعد، ولم يكن قد تسرب إلى قلوبهم الخوف من الآلهة ومن بطشها وغضبها ووعدها ووعيدها وما تحبه وما تنفر منه. وكانوا يعبدون ببساطة إلهاً واحداً فقط هو الإله انليل ـ بعل إله الهواء ويطلبون منه المعونة في اعمالهم ولا يشاركون في عبادته أحداً.

وقد عثر المستر كرامر في متحف استانبول على رقيم من الطين يرجع تاريخ تدوينه وكتابته إلى ألفي سنة قبل الميلاد وجد في حفريات مدينة نفر، قرأه وترجمه إلى الانكليزية وسماه اسطورة «انمر كاروسيدراتا». وقد نقله إلى العربية الاستاذ بشير فرنسيس ونشره في مجلة سومر العراقية ويعتبر أول اسطورة إلهية مدونة جاء فيها ما يلي:

في تلك الأيام ـ وقصد كاتب الاسطورة الأيام السالفة ـ لم تكن الأفعى
ولم يكن العقرب ولم يكن الضبع ولم يكن الأسد
ولم يكن الكلب المتوحش ولا الذئب.
لم يكن هناك خوف ولا رعب.
ولم يكن للإنسان غريم.
في تلك الأيام كانت بلاد شوبور وحمازى (في الشرق).
مع اطيب الصلات مع سومر (في الجنوب) بلاد الأمراء العظيمة.
وكانت اور (في الشمال) البلاد المكتفية بكل ما تحتاج إليه.
وكانت بلاد مارتو (في الغرب) تعيش بهدوء وسكون.
وكان الكون كله والناس قاطبة
تقدم إلى الإله انليل بلسان واحد آيات الشكر والامتنان.

يظهر من هذه الوثيقة ان السومريين القدامى في بادىء أمرهم ـ والكون كله في تلك الأيام الغابرة كما يقول محرر الاسطورة ـ والناس قاطبة تعبد إلهاً واحداً هو الإله انليل. ولم يعرف احد شيئاً عن تعدد الآلهة وعن سخطها وغضبها وعقابها.

وكان كلما تطورت الحضارة وكثرت الاحتياجات وبمرور الأزمان والأجيال تكاثرت اعداد الآلهة شيئاً فشيئاً حتى أصبحت عند السومريين والكلدانيين كما كانت عند المصريين واليونانيين وسائر الأمم الأخرى رمزاً للآثار الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم والرعد والبرق والزوابع والغيوم. فظهر للسماء إله وللأرض إله وللجو والهواء إله وللعدل إله وللشمس إله وللقمر إله. ثم انتقلت إلى رمز الأفعال البشرية فظهر للحرب إله وللعدل إله وللإخصاب ربّات... وبهذا اصبحت الآلهة البابلية متعددة بعدد القوى الطبيعية والأعمال البشرية. فلكل قوة إله يمثلها ولكل عمل إله يؤيده ويحميه.

ومع أنهم كانوا يعتقدون أن الآلهة هي أرواح وقوى فكانوا يجسمونها تجسيماً كاملاً ويعتقدون أنها على شكل البشر وصورته وصفاته المادية والمعنوية ـ أو أن الآلهة خلقت الإنسان على صورتها ـ فلها عيون تبصر وآذان تسمع وأيد تصنع وأقدام تمشي، تحب وتبغض وتريد وتنفر وتأكل وتشرب وتنزل وتصعد وتستقر في البيوت والمساكن والمعابد، ولها بنون وبنات وزوجات وعشيقات تدير شؤون العالم من وراء ستار، وتقدر الآجال والأقدار، بيدها مفاتيح اعمال البشر من خير وشر وسعد ونحس ورخاء وشقاء وعسر ويسر. فقد تغدق على الإنسان الرفاه والسعادة وطول العمر. وفي حالة الذنب الفردي تسلط عليه الأمراض والاسقام والأوجاع والآلام والفقر والجوع. وفي حالة الذنب الاجماعي تسلط عليهم الأعداء والآفات والأوبئة والطوفان... وتحت هذا الاعتقاد كانوا ينحتون لها تماثيل رمزاً لها لتحتلها حين نزولها من السماء إلى الأرض.

ولما كان الإله هو الفاعل الحقيقي في الكون كله وما من حركة وسكون إلا بأمره وإرادته، ولما كان الملوك هم أبناء الآلهة ووكلائها على أرضه فقد تقلدوا منه هذه السلطة المطلقة القاهرة وأصبحوا يحكمون بحكمه ويقضون بقضائه ويسنون الشرائع باسمه وعوضاً منه. فهم ظل الله في العالم وقوته الإجرائية.

وكما ان الآلهة قد خلقت الإنسان ليعبدها فقد فرضت عليه أيضاً التمسك بالشرائع التي توحي بها إلى الملوك مباشرة وبالقواعد الدينية التي تتجلى للكهان في الحلم[1] وبالأنظمة الاجتماعية والعنعنات والعادات المتعارفة بين الناس. وإذا قصّر الإنسان في أي من تلك السنن والقواعد الشرعية يبطش به الإله وينتقم منه بماله وزوجه وأولاده. وقد يفرض شتى العقوبات الزمنية عليه.

لذلك كان الفرد البابلي يخشى الآلهة ويخاف بطشها ويسعى للحصول على رضاها بكل ما يستطيع من قوة وجهد لتمنحه رغد العيش والعمر الطويل ولئلا تتركه بدون حماية فتحتل جسمه الشياطين والمردة. وأما الملوك فكانوا اشد خوفاً من عامة الناس. فغضب الآلهة عليهم قد يستوجب تسلط الأعداء على عروشهم ومملكتهم فكانوا يسترضونها بالقرابين وتشييد المعابد وتزين التماثيل والدعوات والصلوات.

ولما توحد القطر البابلي وانتقلت الأمة من دور الدويلات الصغيرة إلى الامبراطورية الواسعة الأطراف دخل الانتخاب الطبيعي في صفوف الآلهة فتحددت أفعالها وأعمالها وصفاتها وتميز من بينها المثلث الإلهي المكون من آلهة العناصر آنو ـ انليل أو بعل ـ ايا او انكى. وقد يضيف إليه البعض إلهاً آخر هو ننخرساك فيكون المربع الإلهي المقدس.

1 ـ آنو: وهو رأس المثلث البابلي ومن اقدم الآلهة السومرية ويسمى أيضاً «آن». وهو رئيس الآلهة قاطبة والأب الأعظم وحاكم السماء المطلق. كان عرشه فوق السماء الثالثة التي هي أعلى السماوات. تخشاه جميع الآلهة وتجله وتحترمه حذراً من بطشه وهو لا يحب البشر ولا يرأف به. عبده السومريون والاكديون والكلدانيون والآشوريون خوفاً منه. وله في كل جهة من العراق معابد. زوجته تسمى «انتو»

(1) كان الإله يهوه يبلغ أوامره الإلهية إلى انبياء بني إسرائيل كافة (عدا موسى) بالحلم أيضاً.

وله زوجة غيرها تسمى «ان ـ نين» تتصف بأنها تقبل الهدايا والنذور وكل ما يقدم إليها بارتياح. وفي المتحف العراقي الإناء النذري الذي عثر عليه في الوركاء المعروفة في القديم باسم اوروك وفي التوراة باسم أرك، وفيه موكب فخم يتقدم إلى الآلهة ان ـ نين In-nin زوج آله السماء آنو وهي واقفة تتقبل النذور والهدايا المقدمة إليها. يرجع عهد الإناء إلى 3300 ق. م.، وعلى ظاهره خمسة ثيران متتابعة، ومن خلف كل ثور سنبلة كبيرة. ويعتبر الثور أو البقرة عندهم من الماشية المقدسة. وكثيراً ما يرسم مع السنبلة كدلالة على العلاقة بين الحيوان والنبات وفي الحياة المعيشية للإنسان ورمز للخصب والوفرة. عبدها «اي اناتم» أمير لجش فجعلته ملكاً على مدينة كيش. وللإله آنو زوجة ثالثة تسمى «نن ـ زالي» وله عشيقة تسمى «نن ـ اورسالي» وخليلة أخرى تسمى «انانا» او عشتار التي رفعها إلى مقام زوجته الأولى فقال لها «ليكن اسمي اسمك، انت انتو صاحبة الجلال».

2 ـ **انليل**: ويسمى أيضاً بعل أو بيل؛ وهو الإله الثاني من المثلث البابلي وهو أبو الآلهة وملك الملوك، حاكم الجو والهواء وبيده القضاء والقدر. يمتد حكمه بين السماء والأرض. مقره في قمم الجبال الشامخة. وهو كوالده آنو لا يحب البشر، وكان هو السبب في حدوث الطوفان العام. وزوجته تسمى ننليل وهي تعطف على البشرية، لذلك يسميها سكان نفر نبدو أي الأم العظيمة ولما استبدل الآشوريون الإله انليل بإلههم آشور اتخذوا الآلهة ننليل زوجة له. وكانت قد انجبت للإله انليل سبعة أولاد كانوا حراس مقر الظلام الأبدي في جوف الأرض. ومن اعظم أولاد انليل الإله «ننورتا» او «نن اورتا» إله الحرب والصيد عند السومريين وابنته نرودو ويسميها الآشوريون «سيبتى». وللإله انليل معبد في نفر نبرو قرب عفك يسمى «آي ـ كور» ومعناه بيت الجبل، ومعبد في أرك يسمى «آي ـ انا» ومعابد في مختلف أنحاء العراق تقصده أولاده الآلهة من نواحي سومر لتقدم له الخضوع وتنال بركته. وقد اكتشفت دائرة الآثار العراقية معبداً عظيماً له في عكر كوف بناه عام 1500 ق. م. الملك كوريكالزو مؤسس الدولة الكوشية في العراق الوسطى. ومن أولاده من زوجته ننليل الإله ننار إله القمر ويسمى أيضاً «سن» أولده لينير له الظلام. ولزواج انليل بالآلهة ننليل اسطورة خلاصتها: ان عجوز مدينة نفر الآلهة «ننبار ـ شيكينو» نصحت ابنتها العذراء الآلهة «ننليل» وقالت لها:

اغتسلي في النهر الصافي يا عذرائي
اغتسلي في النهر الصافي
يا ننليل تمشي على شاطىء «ادنون ـ بردو»
فان ذا العيون النجل الصافية الرب، ذا العيون النيرة
سيراك الجبل العظيم، الأب انليل، ذو العيون الصافية
سيراك الراعي، الذي يقدر المصائر، ذو العيون البراقة وسوف... وسيقبلك.

وكان نتيجة هذه النصيحة ان حملت ننليل بالإله القمر ننار. ولما قصد انليل العالم السفلي تبعته ننليل فواقعها هناك وولدت له نرجال ـ ننرغال إله الظلام ثم تبعته مرة أخرى فواقعها وولدت له إلهاً ثالثاً يدعى ننازو.

3 ـ ايا: EYA: هو الإله الثالث من المثلث السومري، وهو ابن الإله انليل ويسميه السومريون «انكى»

و«نودميد» و«نديمو» و«نن ايكيكو». ويسميه البابليون «يا ـ يهوه ـ اهوا ـ اهيه ـ ياوه». يخيل الينا ان كلمة يهوه مشكلة من كلمتين يا ـ هوا وكل من هاتين الكلمتين هي اسمه ـ وعنده جميع أسس الحضارة وأركانها ومصائرها وهو إله مدينة اريدو المقدسة، وهو إله الأرض والمياه العذبة. وبعد ان قضي على حياة جده الإله ابسو ـ عنصر الماء المذكر، اتخذ مسكنه على الماء أو في اعماق المياه العذبة وسماه اي ـ ابسو، ومعناه معبد المحيط. ويقصد بالمحيط الماء. ولذلك يسمى «ملك العمق» لاتخاذه اعماق نهر الفرات مسكناً له، وهو الذي بيده مياه الينابيع والأنهر يتفرع منها ساقيان دجلة والفرات يسقي الجنان والحدائق ويروي المزارع والحقول ويغدق الأرزاق والخيرات والحسنات، كما ان بيده الآجال والقضاء والقدر. وهو من اعرق الآلهة السومرية، علم الإنسان الحكمة والعرفان وبناء البيوت والمدن والفلاحة والزراعة. وتنحصر عبادته بتشييد السدود وإنشاء الجداول وتطهير القنوات وتنظيم الري وغرس الأشجار. وهو يحب البشر، لذلك انذر «اوتو نبشتيم ـ نوح الطوفان» ان يصنع له فلكاً وينجو وأهله من الغرق الذي سيرسله ابوه انليل ـ بعل. وهو أيضاً إله الكتابة والقوى والصناعات والتشريع والقضاء والصلاح والصدق والكذب والنجارة والحدادة... عنده أسرار السحر، وله معابد كثيرة في أنحاء العراق، من اهمها المعبد المسمى اي ـ ابسو الآنف الذكر في مدينة اريدو المقدسة. وله معبد آخر في مدينة برس ـ نمرود. وزوجته تسمى دام ـ كينا أو دام كال نونا. وله زوجة أخرى تسمى نن كي ومستقره العام في أعماق نهر اهوا المسمى باسمه، وهو نهر الكوفة الحالي. وكان يسمى نهر جيحون وسماه اسكندر الكبير بالاكوباس. وهو يلتقي مع نهر دجلة بجوار مدينة اريدو المقدسة... ولذلك بالغ الكهان، ولم يزل يبالغ الصابئة احفاد اولئك الكلدان بالاستحمام بالنهر ويعتبر عندهم بمقام العبادة. وللإله «انكى ـ ايا» اساطير سومرية كثيرة نشرتها مجلة سومر العراقية «ج5 ج1 » ترجمها الاستاذان طه باقر وبشير فرنسيس نقلاً عن س. ن كرامر نقتبس منها اسطورة «انكى وانانا» لظرافتها. وتعد هذه الأسطورة من اجمل الأساطير المتعلقة بالآلهة «انانا» ملكة السماء وانكى ـ ايا رب الحكمة. وهي ذات قيمة كبيرة في تطور الحضارة البشرية الأولى في بلاد ما بين النهرين. وهذه الأسطورة وجدت اكثرها في رقم من الطين في مدينة نفر. ملخصها: ان «انانا» معبودة مدينة أرك «اوروك» «الوركاء» وهي ملكة السماء وآلهة الحرب والحضارة عند السومريين وهي الآلهة عشتار عند البابلين وهي خليلة الإله آن ثم زوجته الشرعية ـ وقد مر ذكرها ـ تاقت إلى تكثير الخير في مدينتها فعزمت على الذهاب إلى اريدو مركز حياة السومريين العقلية والروحية حيث يسكن في معبدها الإله «انكى ـ ايا». ولما اقتربت من معبد انكى في اريدو في الابسو أسر الإله بجمالها فدعا رسوله اسيمد وخاطبه:

«هلم يا رسولي اسيمد واصغ إلى اوامري. سأقول لك كلمة فافهم ما اقول. لقد جاءت العذراء وحدها إلى اريدو. انانا، قد اتجهت بقدمها لوحدها إلى الابسو [البحر] دع انانا تدخل بحر اريدو. وإذا دخلت العذراء بحر اريدو فقدم لها خبز الشعير مع الزبد وأعطها ماء بارداً لترتوي وليطمئن قلبها. واسكب لها خمر التمر في وجه الأسد. وعلى المائدة الطاهرة، مائدة السماء... حيي انانا بتحيات طيبة».

تجلس انانا وانكى في وليمة الأكل. وبعد ان طاب قلباهما بالشراب، قال انكى:

لأهدين انانا الطاهرة ابنتي

السعادة. والربوبية والتاج المقدس وعرش الملوكية

فتقبلتها انانا الطاهرة.

لأهدين انانا الطاهرة ابنتي

الصولجان السامي والعصا والمعبد المقدس والرعاية والملوكية

فتقبلتها انانا الطاهرة.

وهكذا اخذ انكى يقدم أسس الحضارة وأركانها ومصائرها كالسلطة الملكية والسلطة الإلهية والتاج الأزلي والعرش وصولجان ورياسة المعبد ووظائف الكهنة وحق الذهاب والعودة إلى العالم السفلي والطوفان والجماع... حتى تتجاوز المئة. فتقبلتها انانا بفرح وحملتها في السفينة السماوية وقصدت بها مدينة ارك. ولما صحا انكى من تأثير الخمر ندم على ما فعل وقرر ان يمنع السفينة من الوصول إلى ارك. فقال إلى رسوله اسيمد اذهب ودع عفاريت البحر تأسرها. فأدرك اسيمد السفينة وقال لانانا: يا ملكتي ابوك ارسلني اليك، وقال لي: دع انانا تذهب إلى ارك، ولكن اعد لي سفينة السماء إلى اريدو. قالت انانا: حقاً لقد كذب عليّ أبي، لقد نطق بالكذب. ولما فاهت انانا بهذه الكلمات مسكت العفاريت سفينة السماء. فقالت انانا لرسولها ننشوبور: خلص السفينة! ومشيئة انانا! وكان بعد ذلك ان كل ما ارسل انكى من حيتان البحر وعفاريته ردها ننشوبور حتى وصلت السفينة سالمة إلى ارك، واستقبلها الناس فرحين فأفرغت حمل سفينتها مشيئة مشيئة وكل واحدة منها تنطوي على ركن من اركان الحضارة[1]...

ولما علا شأن البابليين حل محل ايا ابنه الإله مردوخ الأكبر.

4 ـ مردوخ: هو ابن الإله ايا. ومعنى مردوخ المضيء أو ابن الضوء ويسمى «لوكال دوكوكا». كان في بادىء أمره من الآلهة الصغار في مدينة بابل لا يعبأ به كثيراً بالنسبة للآلهة الكبار العظام الثلاثة الأُوَلْ. ولما تشكلت سلالة بابل الأولى وأصبح حمورابي امبراطور العراق وضع كهنة بابل قصة الخليقة وفيها ان الإله مردوخ بعد انتصاره في الحرب وقتله الست تيامات العاتية عنصر الماء المؤنث وأم الآلهة كافة اصبح إله الآلهة ورب الأرباب بالحق والاستحقاق فعظم شأنه ورضخت الآلهة كافة لربوبته وتنازلت له عن ألقابها وصفاتها وفضائلها كافة وعن الاطلاع على الآجال والأقدار وأصول السحر والحكمة والمعرفة والخلق والتكوين وتنظيم العالم... زوجته تسمى «صربنتيم» ومعناها الوضاءة. يرمز إليه بالحيوان المسمى «مشخشو».

وبعد ان أصبح مردوخ إله الآلهة شرع بتنظيم أمور الكائنات، فوضع الشمس والقمر والكواكب

---

(1) كان النبي إبراهيم قبل أن يهاجر إلى حرّان ـ وكان ذلك حوالي امبراطورية حمورابي على العراق ـ يعرف الإله ايا ـ ياوه ويعرف منزلته بين الآلهة. ولما استقر في فلسطين سمى آلهة يا ـ هوا أو يهوه ـ إله السماء والأرض. وجاء بلسان الرب إلى النبي موسى قوله: «قل لبني إسرائيل اهيه ارسلني اليكم» (14 ـ 3 خروج). فكان يهوه وأهيه إله بني إسرائيل يرادف اهوا وياوه ويا إله السومريين. وهي أسماء مختلفة له ولا عبرة بالاسم.

والنجوم كلاً بمحله وحبس ملائكة تيامات الأثني عشر في اثني عشر برجاً من أبراج مملكته السماوية، وسيطر على المياه والأمطار والفيضانات وأنشأ شبكة من القنوات والجداول وأحدث الجنائن وغرس فيها الأشجار فهدأت السماوات وسكنت الأرض من شرور الآلهة القدماء. ويعتبر لدى السومريين مخترع النبال. وهو الحبر الأعظم للآلهة.

كان إنزال مردوخ هذه المنزلة وإحلاله هذه المكانة بين الآلهة أن حمل بعض المستشرقين إلى الاعتقاد بوجود التوحيد عند البابليين. وإذا كان البابليون قد اقتربوا حقيقة من فكرة التوحيد فإنهم لم يتخلصوا من الاعتقاد بالآلهة الأخرى.

5 ـ **نبو**: ويسمى نبولونابسو ويسميه اهالي دلمون انزاك وانشاك ـ هو ابن الإله مردوخ. هو إله تعليم الكتابة والحكمة والشرائع. ومعنى نابولونابسو بالكلدانية: المتكلم وفصيح الكلام. معبده في بورسبا ـ برس نمرود في مملكة آشور. يحترمه الآشوريون والبابليون على السواء. له زوجة تسمى تشميتو ومعنى هذه الكلمة باللغة السامية السميعة أو السماعة.

وما عدا المجموعة الإلهية المارة الذكر يوجد مجموعة الهية ثانية، تكوّن ثالوثاً آخر يحتوي على الآلهة «سين» و«شمش» و«عشتار» ويضيف البعض إليها إلهاً رابعاً هو «أدد» فتكون المجموعة رباعية كما هو الحال في المجموعة السابقة.

6 ـ **سين**: هو رأس الثالوث وهو إله القمر وإله مدينة اور الكلدان وولده اوتو ـ شمس ـ شماش وعشتار فيكون الثالوث مكوّناً من الأب والولد والبنت. وهو ابن الإله انليل ـ بعل ويسميه الكلدانيون أيضاً انزو ونِنار وننا. ومن صفاته انه يعين الأزمنة السنين والشهور والأيام للناس وله معبد في أور وآخر في حران وزوجته تسمى ننكال وهي أم شمش وعشتار. جاء في الأساطير السومرية أن الإله القمر انليل رأس الآلهة السومرية كافة، ليحصل على البركة والخير والرفاه لمدينته أور وكانت الأرض مليئة بالحيوان والنبات ولكن الإنسان لم يكن قد خلق بعد. فشد الرحال إليها. وحمّل سفينته بأنواع الهدايا النفيسة من النبات والأشجار والحيوان. تقول الأسطورة[1]:

توجه إلى مدينته للامتثال امام أبيه
«ببار» وجه وجهه، وصمم
انا البطل، وذهب إلى مدينتي واقفاً أمام أبي
واقف أمام أبي انليل
نعم، لأذهب إلى مدينتي وأمثل أمام أبي انليل

وسار بالفرات. وكلما اقترب من مدينة سومرية خرج إلهها لاستقباله والترحيب به حتى وصل مدينة نفر:

في الميناء اللازوردي ميناء انليل
ارسى ننار سفينته

---

(1) مراجع هذه الأسطورة ونصوصها في مجلة سومر مترجمة عن كرامر.

في الميناء الأبيض، ميناء انليل
ارسى «اشكر ننار» سفينته
وقال إلى حاجب انليل:
افتح البيت، يا حاجب، افتح البيت
افتح البيت، يا أيّها الملاك الحارس، افتح
افتح البيت يا من ينبت الشجر، افتح
يا حاجب افتح البيت، سأعطيك ما في مقدم سفينتي
والذي في مؤخرة السفينة سأهديك إياه
ففتح الحاجب الباب للإله «ننا»
وفتحه وهو مسرو، فتحه فرحاً
وفرح انليل بسين
فأكل الإلهان في وليمة وخاطب ننار أباه وقال:
امنحني الماء الغزير في النهر
وهبني غلة كثيرة في الحقل
وأعطني في البطاح العشب والقصب
وفي الأحراش... وفي السهول... وفي بساتين النخل والكرم أعطني الدبس والخمر
وفي القصر امنحني العمر الطويل، وسأذهب إلى أور.
فاستجاب انليل ابنه ووهبه انليل ما اراد
وعاد سين إلى أور

8 ـ شمش: ويسمى اوتو، ويسمى أيضاً «شماش» وهو ابن سين الإله القمر ومقره في الشمس. ولما كان الاعتقاد عند البابليين أن النهار يتكون من الليل، فقد جعلوا الشمس بنت القمر واعتبروا شمش المشرع الأعظم، منه تصدر الشرائع إلى العالم. وفي المسلة يظهر حمورابي واقفاً أمام الإله شمش يستلم منه شريعته ويقدم له خضوعه. وله ابنتان الأولى كتو[1]، وهي إلهة العدل، والثانية ميشارو وهي إلهة الحق. ويصوره الكلدانيون في الاختام رجلاً ملتحياً بيده منشار يفرق به الحق من الباطل. يحترمه البابليون والآشوريون على السواء وله معابد عندهما، وقد يعبد هو وأبوه سين في معبد واحد. وزوجته تسمى آي.

9 ـ عشتار: هي الإلهة التي اشتهرت في العالم القديم كله، ابنة سين الإله القمر وأخت أوتو الإله الشمس وهي ملكة السماء وإلهة الحرب والحضارة عند السومريين. عبدها الاكاديون باسم «جادى» وتسمى عندهم أيضاً اوروك. وعبدها السومريون باسم انانا وآن نانا واينانا وننى و ننا[2] ولبات وعبدها

(1) لم يزل بقايا الآشوريين والكلدانيين في الموصل يسمون بناتهم كتو وكتي.
(2) لم يزل بقايا الآشوريين والكلدانيين في الموصل يسمون بناتهم ننى وننو وانو.

الكلدانيون والآشوريون باسم عشتار واشتار وايستير. وعبدها السوريون والفنيقيون باسم عشتروت واليونانيون والرومانيون باسم ونوس. رمزها كوكب الزهرة الوهاج ذات الأشعة الثمانية. وهي عند الجميع إلهة الحب العابث والشهوة والمتعة واللذة والحب والغرام والعشق والهيام. وهي أم كيوبيد الروماني عشيقها. وهي أم تموز إله الربيع عشيقها أيضاً الذي يموت في كل خريف ويحيا في كل ربيع كما هو محرر في اسطورتها في محل آخر من هذا الكتاب. وهي بغية الآلهة والبشر وحتى الحيوانات. وهي في الأصل عشيقة «آن» إله السماء، فأغرته بحسنها وغنجها ودلالها وذكائها فتخلى عن زوجته انتو واتخذها له خليلة ثم صارت زوجته فصارت تعبد معه في معابد اور والوركاء وبابل وكيش ونينوى وأربل وفي كل معبد وفي كل مكان. وهي محبوبة البشر والآلهة على حد سواء. ووجد في حفريات نينوى معبد عظيم لها بجوار قصر الملك سنحاريب، ووجد فيه تمثال لها بهيئة امرأة عارية. وكان من عشاقها ابنها «تموز» وقد امرت بالبكاء عليه سنة بعد سنة، و«الشقراق» فكسرت جناحه وجعلته يندب في البساتين والأحراش، والأسد وقد حفرت له سبع حفر لاصطياده، والحصان فسلطت عليه السوط والمهماز والسير والجري والتعب والعرق، وراعي القطيع فمسخته ذئباً (ايشولاتو)، وفلاح نخل أبيها فمسخته خلداً. كل هذا بعد أن تقضي وطرها منهم. ولها اساطير شعرية كثيرة في الأدب السومري والبابلي، منها نزولها إلى العالم السفلي لزيارة اختها اريش كيكال، ومنها رحلتها إلى اريدو لزيارة انكى إله الماء لنقل معالم الحضارة والمدنية، ومنها تفضيلها الزواج من انكيمود الإله الفلاح على دوموزي الإله الراعي. وهي تشبه كل الشبه قصة هابيل وقايين سيأتي ذكرها في ما بعد.

10 ـ **ادد**: يسمى بالسومرية مير ومور واشكر ويسميه الساميون كافة أدد ورمان. وهو إله الرعد والبرق والزوابع والعواصف والرياح والأمطار. شيدت له معابد في العراق وسوريا، وله زوجة تسمى شاله، وهي إلهة الثلج والجبال. ويعتبر الثور، الحيوان المقدس، رمزاً للإله أدد.

وما عدا المجموعات الإلهية العظيمة الآنفة الذكر يوجد آلهة أخرى كثيرة نذكرها تبعاً لحروف الهجاء كما يلي:

11 ـ **آبو**: تمثاله مع زوجته في المتحف العراقي. عثر عليه في تل اسمر. وعلى قاعدة التمثال شكل طفل لم يبق منه إلا رجلاه، ربما كان يؤلف ثالوثاً اسطورياً مقدساً. وهو إله الخصب والنبات لمدينة اشنونة العاصمة للسلالات السومرية القديمة.

12 ـ **ابسو**: الجد الأعلى لكل الآلهة.

13 ـ **اترعتا**: تقابل عشتار البابلية. انتشرت عبادتها في الحضر وشمال سوريا. عبدها الآراميون. لها معبد في كل مدينة يجاوره بركة ماء مقدسة فيها اسماك إلهية. يعتقد ان اترعتا غطست في البركة فحلت روحها في اسماكها. ابنها ادونس وبعلها هداد أو هدد أو أدد إله البرق والصواعق ويسميه الآشوريون رمون إله الصواعق.

14 ـ **اتو**: إلهة الأشجار والنباتات وحفيدة الإله انكي الذي كان قد اقترن بالإلهة نن خرساك في مدينة دلمول الاسطورية ودام الحمل تسعة أيام بدل تسعة أشهر فولدت الالهة نن سار، ثم اقترن انكي بابنته

نن سار فولدت بعد تسعة أيام الإلهة نن كور، ثم اقترن انكي بحفيدته نن كور فولدت بعد تسعة أيام الإلهة اتو.

15 ـ **اجادى:** اسم آخر للآلهة عشتار.

16 ـ **ارش كيكال:** زوجة نرغال إله الأرض المظلمة السفلى وهي مع زوجها تحكم في عالم الأموات. وهي اخت عشتار ملكة السماء.

17 ـ **ارورو:** اسم آخر للآلهة نتخرساك بصفتها حامية للأطفال وإلهة الولادة. يرمز إليها بصقر فوق عمود. اشتركت مع مردوخ في خلق بذرة البشر، وهي امرأة الآلهة ذات السيارة. خلقت انكيمدو لينافس جلجامش ويلهيه عن ظلم الناس. ترمز لإلهة الحرب.

18 ـ **اريشول:** ربة الكثرة والوفرة.

19 ـ **اشكر:** اسم آخر للإله أدد إله الصواعق والزوابع والعواصف والأمطار وقد قبض بيده مفتاح السماء.

20 ـ **اشخرا:** إحدى آلهة الحب عند الكلدانيين وربة العالم السفلي عند الاكاديين.

21 ـ **اشكرننار:** اسم آخر للإله القمر سين.

22 ـ **اشنان:** إله الغلة.

23 ـ **آشور:** يسمى أيضاً آثور وهو كوكب المشتري. وهو جوبيتر إله الصواعق والزوابع عند الإغريق. وهو بعل عند الكلدانيين. وهو إله الحرب والإله الأعظم عند الآشوريين. وإذا كان الآشوريون يحترمون الآلهة البابلية كافة فإن آثور عندهم بمثابة مردوخ عند البابليين وسموا مملكتهم باسمه تبركا به وباعتبار أنه حامي الملك والمملكة وله معابد في المدن الآشورية كافة.

24 ـ **اللات:** ربة الظلمات والأموات وهي أخت عشتار وعدوتها اللدودة. تسمى أيضاً ارش كيكال.

25 ـ **ام دو كد:** إله محارب يتولى ذبح الآلهة الخرافية والكاذبة. يرمز إليه بشكل طائر برأس أسد.

26 ـ **آن:** اسم آخر للإله آنو إله السماء.

27 ـ **انانا:** ملكة السماء وهي أخت اوتو الإله الشمس وابنة سين الإله القمر ومعبودة ارك، وهي عشتار البابلية.

28 ـ **اذانا:** الإلهة الأم، معبودة مدينة خفاجي.

29 ـ **انتو:** زوجة آنو إله السماء.

30 ـ **انتيم:** ام الإلهة عشتار.

31 ـ **انتراك:** ابن الإله مردوخ واسم آخر للإله نيولونابسو، إله القراءة والكتابة.

32 ـ **انترو:** اسم آخر للإله سين.

33 ـ **انسار:** من الآلهة القديمة، ولد مع كيسار.

34 ـ **انشان:** إلهة الحبوب. وقد حصل نزاع بينها وبين اخيها لهار كالنزاع الذي حصل بين قايين وهابيل. خلقها الإله انليل في غرفة دول كوك، غرفة الآلهة لعملية الخلق لتعتني بالحقول والزرع وتهيىء للآلهة الطعام والملبس. وذلك قبل خلق الإنسان الذي كلف بهذه الأعمال.

35 ـ **انشكاك:** اسم آخر للإله نبولونابسو.

36 ـ **انكي:** اسم آخر للإله ايا.

37 ـ **انكيدو:** رفيق جلجامش وصاحبه الوفي.

38 ـ **انكميدو:** إله الانهار والجداول والزرع والفلاحة.

39 ـ **آن ليل:** تسمى أيضاً نن ليل، زوجة الإله آنور وهي عشتار الآشورية.

40 ـ **آن لي لولو:** إله مياه دجلة والفرات.

41 ـ **آن نانا:** الإلهة السومرية وهي عشتار البابلية، وهي ملكة السماء وربة النور والحب والحياة. يسميها السومريون أيضاً انانا، واينانا، وننى وننا، ولبات.

42 ـ **آنو:** إله السماء وقد سبق ذكره.

43 ـ **انليل:** إله الهواء وقد سبق ذكره.

44 ـ **انول:** رب الكثرة.

45 ـ **آن تين:** زوجة الإله آنو إله السماء الثانية. وهي التي جعلت أمير لجش (أي اناتم) ملكاً على مدينة كيش.

46 ـ **انوناكي:** مجموعة آلهة أو ملائكة خصهم العراقيون القدامى بالأرض والماء وطبقات الأرض السفلى، سيدهم الإله انليل، وفي الأساطير السومرية أن عددهم يربو على الستماية إله من بينها ستون إلهاً معظماً.

47 ـ **اوانس:** الإله السمكي، نصفه الأعلى بشر ونصفه الأسفل حوت. يخرج من البحر كل يوم ليعلم الناس الحضارة والمدنية والآداب الاجتماعية، وقد انتقلت هذه الأسطورة إلى أنحاء العالم فافترضوا وجود مخلوقات بحرية نصفها الأعلى كجسم الإنسان ونصفها الأسفل من جنس السمك وسموها جنية البحر. وصفها كثير من أهل الجزائر بأنها كما لو كانت امرأة حقيقية بعينيها وأنفها وفمها وذقنها وأذنيها ووجهها وصدرها وبطنها وأنها جميلة جداً ومتناسقة الأعضاء وشعرها يغطي جسمها، وكلها خرافة.

48 ـ **اوتونبشتيم:** نوح الطوفان البابلي. ارتقى إلى مصاف الآلهة بعد خروجه من سفينته. يسميه الأكاديون اوكزسطروس والكلدانيون القدماء اتراخاسيس والسومريون زيوسورا.

49 ـ **اورا:** إله الأوبئة والأمراض.

50 ـ **اوروك:** اسم آخر للإلهة عشتار عند غروب الشمس.

51 ـ **آي:** زوجة أوتو الإله الشمس.

52 ـ **ايتانا:** هو الملك الثالث عشر من سلالة ملوك كيش الأول المؤسسة بعد طوفان نوح. صعد على ظهر نسر إلى السماء لكي يبحث عن نبات سحري عند الآلهة ليعين زوجته في وضعها.

53 ـ **ايد:** ويسمى نارو ونهرو إله مياه النهر الذي يلقى فيه المتهمون بالجرائم، فإن نجا المتهم من الغرق يعد بريئاً وإن هلك كان مجرماً.

54 ـ **ايكيكي:** مجموعة آلهة أو ملائكة خصهم قدامى العراقيين بالسماء.

55 ـ **ايرا**: وتسمى اورا إلهة الأمراض والآلام والأوبئة والاسقام.
56 ـ **ايركلا**: إلهة العالم السفلي وهي اسم آخر للإلهة ارش كيكال.
57 ـ **ايرنتي**: إلهة ولعلها عشتار.
58 ـ **ايميش**: إله الزرع والفلح والحيوان وهو الذي نازع اخاه اينتين كالنزاع الحاصل بين قابين وهابيل.
59 ـ **اينانا**: اسم آخر لعشتار البابلية ولها قصة حول قتلها كور، أي التنين السومري.
60 ـ **اينتين**: إله الزرع والفلح والحيوان وهو الذي نازع اخاه ايميش كنزاع قايين وهابيل.
61 ـ **باو**: من الربات الأمهات، كان البشر يعبدها باعتبار أنها أكثر شفقة من الآلهة. وهي من ربات العالم السفلي.
62 ـ **بيار**: اسم آخر للإله الشمس اوتو.
63 ـ **بعلشمين**: أعظم إله في مدينة الحضر سيد السماوات.
64 ـ **بيلت**: اسم آخر للربة عشتار عند غروب الشمس.
65 ـ **بيسوكال**: إله العالم السفلي.
66 ـ **تشباك**: ويسمى تشوب إله مدينة اشنونة.
67 ـ **تشميتو**: زوجة الإله نبولونابسو ومعناه السميعة.
68 ـ **تموز**: ابن الإلهة عشتار وعشيقها ويسمى «دوموزي»، وهو إله الحضائر والاسطبلات والزبد واللبن والخصب والخير والرفاه. يحيا ستة اشهر في الربيع والصيف ويموت ستة أشهر في الخريف والشتاء.
69 ـ **تيامه**: الجدة الأولى لكل الآلهة.
70 ـ **صدادا، خمبابا**: حارس دار الخلود والحياة الدائمة.
71 ـ **خاني**: زوج الإلهة «نصابا» وهو إله الاختام والوثائق الدينية. اكتشفت مديرية الآثار العراقية معبداً لهما في تل حرمل.
72 ـ **خلديا**: الإله الأعظم لحكومة اراراتو الخلدية الواقعة في اعالي بحيرة أورمية دوان. اقام له ملكها اشبوئيني مسلة في كيله شينى قرب راوندوز رمزاً لانتصاراته على الآشوريين (10 ق. م).
73 ـ **دازي موآ**: ولدتها الربة ننخرساك لمعالجة جانب الإله انكي. وهي زوجة الإله نن كتزيدا.
74 ـ **دام كينا**: زوجة الإله ايا وأم الإله مردوخ وتسمى أيضاً دام كال نونا.
75 ـ **دموزي**: ويسمى أيضاً تموز وهو إله الخصب والرعاة. يموت في كل خريف وشتاء فتشفع له أمه عشتار عند الإله الشمس شمش فيعيده إلى سطح الأرض في كل ربيع.
76 ـ **رمان**: اسم آخر للإله ادد عند السومريين.
77 ـ **رمون**: إله الصواعق عند الآشوريين.
78 ـ **زبابا البابا**: اسم آخر للإله «ننورتا» إله الحرب.
79 ـ **زو**: طير الصاعقة الشرير الذي سرق ألواح القدر من الإله انليل حتى استردها منه بعد عناء كبير.
80 ـ **سبيتى**: ابنة الإله انليل عند الآشوريين ويسميها البابليون نرودو.

81 ـ **ستران:** إله من آلهة مدينة بدره.

82 ـ **سوقان:** إله السهول والجبال. ورد ذكره في اسطورة لهار وانشان.

83 ـ **سيرو:** من آلهة مدينة بدره.

84 ـ **سيزاره:** من آلهة الخليج.

85 ـ **شارو:** ابن عشتار. وقد عجز عن التعرض إلى زو طير الصاعقة.

86 ـ **شاله:** زوجة الإله ادد.

87 ـ **شعرى:** إلهة الخمر.

88 ـ **شمش:** اسم آخر للإله اوتو إله الشمس ويسمى شماش.

89 ـ **شوشناك:** اسم آخر للإله ننورتا.

90 ـ **شيكينو:** اسم آخر للإلهة نن بار عجوز مدينة نقر. وهي أم الربة نن ليل زوجة الإله آن ليل.

91 ـ **صربتيتم:** زوجة الإله مردوخ ومعناها الوضاءة.

92 ـ **صيرو:** من آلهة العالم السفلي.

93 ـ **فنار:** عمّر معبدها اورغو حاكم اور.

94 ـ **كتو:** إلهة العدل وابنة اوتو الإله الشمس.

95 ـ **كلكامش:** اوجلجامش بطل اسطورة دار الخلود. يعتبر ثلثاه إلهاً وثلثه إنساناً.

96 ـ **كنكو:** قائد الأم العاتية الربة تيامة. سفك دمه بأمر الآلهة وخلق الإنسان من دمه ومن تراب الأرض.

97 ـ **كولة:** من آلهة العالم السفلي. وجد معبده في بابل.

98 ـ **كيتا:** إله الآجر والطابون.

99 ـ **كيسار:** ولد مع انسار وهما الجيل الثالث من الآلهة.

100 ـ **لامكا:** في الأساطير الآشورية ذبحته الآلهة ومن دمه خلقوا البشر.

101 ـ **لخمو ولخامو:** ظهرا من اتحاد الإله ابسو بالآلهة العاتية تيامة وبعد مرور ازمان طويلة ظهر منهما انسار وكيسار اللذان ولدا اوتو الإله الشمس.

102 ـ **لهار:** إله الماشية وقد حصل نزاع بينه وبين انشان إله الزرع كالنزاع الذي حصل بين قايين وهابيل. خلقه الإله انليل في غرفة «دول كوك»، وهي غرفة الآلهة لعملية الخلق ليعتني بالماشية ويهيىء للآلهة الطعام.

103 ـ **لوكال دو كوكا:** اسم آخر للإله مردوخ.

104 ـ **لولو:** جد الإنسان الأول. خلقته الآلهة من دم الإله المذبوح كنكو ومن تراب الأرض.

105 ـ **مارتو:** إله سامي، حامي مدينة نتاب.

106 ـ **مامي:** اسم آخر للربة ننخرساك وتسمى أيضاً ماما.

107 ـ **موشدما:** إله جميع لوازم البناء وكل البنائين.

108 ـ **مير ـ مور:** اسم آخر للإله أدد عند السومريين.

109 ـ **ميرو:** من آلهة الظلمات.

110 ـ **ميشارو:** إلهة الحق والعدل وابنة اوتو الإله الشمس.

111 ـ **نابو:** كوكب عطارد. إله العلم والحكمة.

112 ـ **نارو:** اسم آخر للإله ايد.

113 ـ **نازي:** ولدتها ننخرساك لمعالجة امراض الإله انكي.

114 ـ **ناناي:** ابنة الإله آن. كانت تعبد في الدركاء.

115 ـ **نانشة:** اخت الإله ننجرسو. معبودة العائلة المالكة في لجش. عمّر معبدها الملك «اورنانشة» فوق انقاض معبد الإلهة كاتم دوك.

116 ـ **نبولونابسو:** ابن الإله مردوخ وإله مدينة بورسبا ويسمى نبو. ويسميه أهل دلمون انتراك وانشاك وهو إله الحكمة والعلم والمعرفة.

117 ـ **نتمار:** إله الموت والأوبئة ووزير اريش كيكال.

118 ـ **نتمارو:** زوجة الإله نتمار.

119 ـ **ندابة:** إلهة الملك زاجنيري حاكم مدينة أوما، وهي من الربات الأمهات.

120 ـ **نديمو:** اسم آخر للإله ايا.

121 ـ **نركال:** من آلهة اور ويسمى أيضاً نرجال وهو كوكب المريخ.

122 ـ **نرودو:** ابنة الإله انليل ويسميها الآشوريون سبيتى.

123 ـ **نسكو:** إله النار في ما تحت الأرض.

124 ـ **نصابه:** إلهة الحكمة والمعرفة والكتابة والقمح. زوجة الإله خاني، إله الاختام والوثائق الدينية.

125 ـ **نموشدا:** إله مدينة كزالو في اقليم عيلام. اعطى ابنته زوجة للإله مارتو.

126 ـ **نمو:** أم الإله انليل.

127 ـ **ننا:** اسم آخر للإله القمر سين.

128 ـ **نناكال:** إله الحدادة والحدادين.

129 ـ **نن انكيكو:** اسم آخر للإله ايا.

130 ـ **نن اورسالي:** عشيقة آنو الإله السماء.

131 ـ **نن بار:** تسمى أيضاً شكينو عجوز مدينة نفر وأم الربة نن ليل زوجة الإله انليل.

132 ـ **نن جال:** إله سومري، عمّر معبده اورنمو الحاكم السومري في اور.

133 ـ **نن بارشيكنو:** والدة الربة نن ليل زوجة الإله انليل. تسمى شيكينو ونن بار.

134 ـ **ننار:** اسم آخر للإله القمر سين.

135 ـ **ننازو:** زوج الربة نن سوتو بأمر الإله انكي.

136 ـ **نن تى:** ولدتها ننخرساك لمعالجة ضلع الإله انكي.

137 ـ **نن تل:** ولدتها ننخرساك لمعالجة ردف الإله انكي.

138 ـ **نن تو:** اسم آخر للربة ننخرساك ويرجح أنها الربة «اينانا» السومرية وعشتار البابلية. وهي التي تألمت وحزنت وناحت على مصير البشر لما ارسل انليل الطوفان. رمزها امرأة تحمل بيدها اليسرى

طفلاً ترضعه وتصلي بيدها اليمنى. وهي في حالة حنانها تحب البشر، وفي حالة غضبها تقطع الحرث والنسل. لها معابد في بابل ولكش وجزيرة تلمون.

139 ـ **ننجرسو**: من الآلهة السومرية القديمة. وجد حجر ـ محفوظ في المتحف العراقي ـ منقوش عليه «اني ـ بدا» ابن «مس آنيبدا» ملك اور السومري بنى معبداً في لجش إلى الإله ننجرسو، وعبده بعد ذلك جوديا حاكم مدينة لجش. لننجرسو أخت اسمها نانشة نقلهما جودية إلى اريدو حتى تم بناء معبدهما في لجش.

140 ـ **ننخرساك**: أم الإله ننورتا من انليل وتسمى ننتو ومامي وننماخ أي الأميرة العظيمة وتسمى أيضاً ماما وننو. وهي أم الآلهة العظام وربة الولادة وحامية الأطفال. لها اسطورة خاصة يقرؤها الرهبان عند عسر الولادة سنذكرها في ما بعد. ويعتقد البابليون انها هي التي ولدت حمورابي الملك المصلح العظيم، وهي التي اجلسته على عرش بابل. وهي التي ترضع من ثدييها جميع ملوك سومر وبابل وتسمى «ارورو» بصفتها حامية للأطفال، وننخرساك بصفتها سيدة الجبال. وعرفت في اور باسم ننجال وفي أوما باسم نيدابا وفي ارك باسم انين وفي أدب باسم ماخ. وكان قد عمّر معبدها في أدب ميسليم ملك كيش ونعت نفسه أنه الابن الحبيب للإلهة ننخرساك. وكان يقرن اسمها بأسماء الآلهة السماوية. فهي مع انليل تدعى ننليل ومع ايا تدعى ننكي ومع آنو تدعى آنين. انتشرت عبادتها في جميع البلاد حتى اواسط نهر الفرات. بني معبدها لأول مرة في مدينة نفر قرب عفك بلواء الديوانية «مس اني بدا» مؤسس سلالة اور الأولى وأكمل بناءه وزخرفته ابنه «اني بدا» وزيّنه بنقوش وتماثيل حجرية عثرت عليه بعثة التنقيب العراقية. وقد ورد اسم ننخرساك كثيراً في أساطير خلق البشر. فقد جاء في اسطورة بابلية ان الإله ايا ـ انكي وغيره من الآلهة طلبوا من الربة ننخرساك الأم العظيمة ان تجبل الطين بدم الإله المذبوح كنكو وتضع منه جوارح الإنسان لولو، وبذلك يتحد الإله مع الإنسان في الطين.

141 ـ **ننداز**: زوج الإلهة نازى بأمر من الإله انكي.

142 ـ **ننرغال أو ننرجال**: ابن الإله انليل من الربة ننليل وهو إله الأرض المظلمة السفلي ورب الأموات ورئيس الشياطين والمردة والعفاريت التي تدخل جسد الإنسان فتولد فيه الأمراض والآلام والأسقام، وقد يقضي 180 يوماً في سبع طبقات الأرض السفلى وفي أول الربيع يخرج فوق سطح الأرض. زوجته اريش كيكال. له معابد في كوتي ولارسا وايسن وفي البلاد الآشورية كافة، تعبده الناس خوفاً من شره. ولعله انقلب بعد ذلك إلى إله الشر.

143 ـ **نن زالي**: زوجة الإله آنو في السماء الثالثة.

144 ـ **نن سار**: ابنة الإله انكي من الربة ننخرساك التي دام حملها تسعة أيام بدلاً من تسعة شهور فولدت «نن سار» في مدينة دلمون الأسطورية التي حملت من أبيها انكي فولدت بعد تسعة أيام الربة «نن كور» التي حملت من جدها انكي فولدت بعد تسعة أيام «اتو» إلهة الأشجار.

145 ـ **نن سكل**: ربة مدينة دلمون الأسطورية.

146 ـ **نن سوتو**: ولدتها ننخرساك لمعالجة اسنان الإله انكي وهي زوجة الإله ننازو بأمر من انكي.

147 ـ **نن سون**: من الربات الأمهات.

148 ـ **نن كاسي**: ولدتها ننخرساك لمعالجة فم الإله انكي. وهي الربة التي تسر القلوب وتكثر الأفراح بأمر من انكي.

149 ـ **نن كال**: زوجة الإله القمر «ننار ـ سن» وأم الإله الشمس «اوتو ـ شمش». عمّر معبدها اورنحو حاكم مدينة اور.

150 ـ **نن كتزيدا**: زوج الربة دازي موا بأمر من الإله انكي.

151 ـ **نن كور**: حفيدة الإله انكي من نن سار.

152 ـ **نن كورا**: لعله إله المعدنيين.

153 ـ **نن كي**: الزوجة الثانية للإله انكي.

154 ـ **نن ليل**: زوجة الإله انليل وأم الإله القمر سين.

155 ـ **ننو**: اسم آخر للربة ننخرساك.

156 ـ **ننورتا**: من أعظم آلهة السومريين والبابليين والآشوريين، ابن الإله انليل البكر من الربة ننخرساك وتسمى أيضاً ننماح. يعتبر إله الحرب والصيد والقنص ورب الآبار وسدود الأنهار والري عند السومريين وإله الحرب والنصر عند الآشوريين. له معابد في عكر كوف ونفر وايسن وبابل وفي البلاد الآشورية في مدينة كالح وكيش. وقد يدعى باسم الآلهة الأخرى فيسمى ننجرسو وشوشناك وزبابا ـ البابا. وله قصة حول قتله «كور» أي التنين السومري الذي كانت عنده المياه الأولى، ولما كان قد حصل الجفاف في سنة من السنين ولم تستطع المياه العذبة الوصول إلى الحقول ويبست المزروعات، انبرى له ننورتا فجمع المياه التي غمرت بطن الأرض وصبّها في دجلة والفرات. وبذلك حصل فيضان الرافدين فرويت الحقول والبساتين. ولما شاهدت الآلهة عمله هذا وتغلبّه على كور اعتبرته رب الأنهار والري.

157 ـ **نن ماخ**: اسم آخر للربة ننخرساك. ومعنى ننماخ سيدة الآلهة والأميرة المعظمة. يرمز إليها سيدة عارية مصلبة اليدين إلى صدرها.

158 ـ **نمو**: والدة الإله انليل.

159 ـ **نودميد**: اسم للإله انكي.

160 ـ **نهرو**: اسم آخر للإله ايد.

161 ـ **نينيتو**: إلهة الولادة.

162 ـ **نينسون**: أم كلكامش البطل الأسطوري الخالد وزوجة البطل «لوكال بندا» يسمى معبدها «ايكلماخ».

163 ـ **وليات**: اسم آخر لعشتار.

164 ـ **وارازو**: لعله إله العمارات.

165 ـ **هدد**: ويسمى هدو ويسمى أيضاً أدد إله الصواعق. زوجته اترعثا.

166 ـ **هرقل**: أحد آلهة الحضر روماني.

الفصل العاشر الخليقة والتكوين

1 ـ شغلت فكرة الآلهة والأفلاك والخلقة والتكوين وقصة ظهور البشر فوق سطح الأرض... العقول البشرية منذ اقدم الأزمان حتى هذا اليوم فنشأ في كل أمة كهان وأصحاب رأي وفلاسفة تناولوا هذه المواضيع فنظر إليها كل منهم بقدر فهمه وفكره وإدراكه وما توصل إليه عقله واجتهاده، فتكونت عدة مذاهب وعقائد متباينة تارة ومتقاربة تارة أخرى عن أصل الوجود وخلق العالم وكيفية نشوء الإنسان والحيوان والنبات.

2 ـ وكان العنصر السومري الذي سكن جنوب العراق أول من فكر في هذه المواضيع ووضع لها قواعد ابتدائية ساذجة لم يعثر الباحثون إلا على القليل منها جاء فيها:

في البدء كان مياه البحر الأول تمثله الإله ابسو عنصر الماء المذكر والآلهة تيامات أو تيومة عنصر الماء المؤنث[1] فولدا آن إله السماء وكي إلهة الأرض. وتولد من اجتماع آن وكي انليل إله الهواء وفصل انليل اباه آن عن أمه كي. وولد انليل ننار إله القمر لينير له ظلام الليل، وولد ننار اوتو ـ شمش إله الشمس. ثم اتحد انليل بأمه «كي» وبمساعدة الإله يا ـ انكى واوتو ـ شمش ظهرت حياة النبات والحيوان على سطح الأرض. وأما الإنسان فقد اشتركت في خلقه الآلهة انو ـ انليل ـ شمش ـ ايا. وكانت عملية الخلق والتكوين تشمل تنظيم الكون وخلق الإنسان والحضارة والعمران...

يظهر ان هذه الأسطورة السومرية كلها رموز ترمي إلى أن المياه الأولى كانت ازلية في الوجود وهي مبدأ الكون ولم يخلقها احد وهي التي خلقت الآلهة والأشياء ومنها صدر الجميع فتكوّن منها لأول مرة الإلهان ابسو وتيومه فأولدت تيومه «آن» وهو عنصر السماء و«كي» وهو عنصر الأرض وكانا متحدين لا انقسام بينهما. ثم تولد عنصر الهواء وهو انليل وبتمدده واستطالته انفصلت السماء عن الأرض. ولما وجد انليل نفسه يعيش في ظلام دامس أولد ننار الإله القمر لينير له الليل، وأولد ننار شمس فكان نيراً اكثر من والده. وظهر من اتحاد الهواء مع الشمس والماء والتراب أنواع الحياة من نبات وحيوان وإنسان فكانت هذه الأسطورة الدعامة الأساسية للاستقساط اليونانية الأربعة.

وأما كيفية خلق الإنسان فقد جاء في اسطورة سومرية[2] أن الآلهة تذمروا عند الإله انليل من الصعوبة الموجودة في الحصول على عيشهم ولم يلتفت انليل إلى تذمرهم. فاستحثته أمه الإلهة «نمو» أن يغيثهم وقالت له: يا بني، قم من فراشك واصنع ما هو مفيد. اصنع عباداً للآلهة حتى يهيئوا لهم الطعام والشراب... فقال يا أماه: اعجني الطين الموجود في مياه الابسو واصنعي الأعضاء والجوارح. وستعاونك الإلهة نن ـ ماخ «نن خرساك ـ الإلهة الأرض». وقدري يا أماه مصير الوليد[3].

---

(1) يمكن اعتبارهما الاوكسجين والهيدروجين (!)

(2) تجد مراجع هذه الأسطورة ونصوصها في مجلة سومر العراقية مترجمة عن كرامر.

(3) اما سفر التكوين العبري فيقول: «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في انفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية» (7 ـ 2 تكوين). وفيه مشابهة غريبة لما جاء في الأسطورة السومرية عن خلق الإنسان من الطين والتراب.

وأما القصة البابلية فتختلف عنهما في كيفية خلق الإنسان وتذكر أنه خلق من دم الإله المذنب «كنكو» قائد الأم الإلهة العاتية تيومات ومن تراب الأرض. وتتفق مع القصة السومرية في الغاية التي خلق من اجلها وهي عبادة الآلهة وتحريرها من الحاجة إلى العمل لتأمين العيش.

وهناك قصة أخرى عن خلق الإنسان[1] وهي ان الإلهة نن خرساك وتسمى أيضاً مامي ونن ماخ وننتو، بناء على توصية الإله انكي «ايا» وغيره من الآلهة، هي التي خلقت الإنسان من الطين المجبول بدم إله مذبوح كما ورد في القصة البابلية. وقد يرتل الكهنة القصيدة الآتية لنيل عطف إلهة الولادة مامي ـ ننخرساك ومعاونتها عند عسر الولادة.

1 ـ 2 ....

3 ـ سيبدل القلة إلى كثرة.

4 ـ ويتحمل الإنسان.... الخليقة.

5 ـ ويدعون الآلهة عندما يقفون معاً.

6 ـ عون الإلهة الحكيمة مامي:

7 ـ أنت الأم الرحيمة.

8 ـ خالقة البشر.

9 ـ اخلقي الإنسان وحمّليه النير.

10 ـ أنت اجعليه أن يحمل النير.

11 ـ ....

12 ـ ففتحت ننتو ـ مامي ـ نن خرساك فاها،

13 ـ وقالت للآلهة: يستحيل علي أن اصنع ذلك وحدي.

14 ـ انه..... كل شيء.

15 ـ الطين.

16 ـ فتح انكي فاه، وقال للآلهة العظام.

17 ـ لأجل تطهير الأرض،

18 ـ اطلب منهم أن يذبحوا إلهاً.

19 ـ ويتطهر الآلهة في اثناء قضائهم.

20 ـ وبلحمه ودمه.

21 ـ اجعل نن خرساك تجبل الطين.

22 ـ والإله والإنسان!

23 ـ .... يتحدان في الطين.

وقد حافظت هذه الأساطير على قوتها مدى حياة السومريين السياسية.

---

(1) تجد مراجع ونصوص هذه الأسطورة في مجلة سومر مترجمة عن الكساندر.

ولما اضطر الشعب السومري إلى التنازل والتخلي عن سيادته إلى الشعب الأكدي أولاً ثم إلى الشعب الكلداني، تناولت هذه الأساطير ايدي كهنة الكلادن فوضعوا قصة الخليقة الآتي بيانها وهي بلا ريب من انفس ما خلقته العقول الكلدانية.

3 ـ كان قد عثر لأول مرة المستر لايارد على مكتبة للملك آشور بانيبال في خرائب نينوى تحتوي على اسطورة الخليقة البابلية وهي مكتوبة بما يقارب الألف سطر بالخط المسماري فوق ألواح الطين في سبع مجموعات تشكل قصة واحدة حول الخليقة وأصل الوجود. ثم عثر المنقبون على بعض النسخ طبق الأصل وعلى اقسام مكملة للمكتبة من هذه القصة في خرائب الشرقات وكيش والوركاء، وجميعها من مخلفات الكلدانيين تؤيد الواحدة الأخرى. وعثر المنقبون أيضاً في ارك الوركاء ونفر وعدد من المدن العراقية القديمة على نصوص أخرى سومرية وبابلية اقدم عهداً من اسطورة الخليقة البابلية الآنفة الذكر تبحث عن الخليقة والتكوين وأصل العمران البشري، وجميعها لا تتعدى الاسطورة البابلية.

والذي يراه علماء الآثار بالنظر لأسلوب القصة البابلية الأدبي ولغتها ومما وجد في الألواح السومرية المكسرة والناقصة الأخرى أن القصة البابلية هذه منقولة بتصرف عن نسخ قبلها كانت في الأصل سومرية وبشكل بسيط. ويرى الدكتور هول صاحب كتاب «تاريخ الشرق الأدنى القديم» أن السومريين ايضاً اخذوا هذه القصة من شعب سامي كان يسكن العراق قبلهم فصبغوها بالصبغة السومرية القوية المتمدنة وجعلوا انليل إله الهواء بطل القصة. ولما تناولها الكهان البابليون في زمن حمورابي استبدلوا الإله انليل بالإله مردوخ وأفرغوها في قالب خاص قصدوا منه إعلاء شأن الإله مردوخ وجعله متناسباً مع ما صارت إليه بابل من عظمة ومن عاصمة لامبراطورية واسعة الارجاء. فقد اقتضى ان ينقل إلهها أيضاً من إله عادي بسيط إلى إله الآلهة ورب الأرباب، فدخل على القصة كثير من العلاوات وأصبحت خاصة بأسطورة الخلق للكلدانيين وحدهم. وأطلق بعض علماء الآشوريات عليها اسم «الألواح البابلية السبعة» والبعض الآخر «اساطير الخليقة السبع» أو بالاختصار «رقيم الخليقة السبعة». ومما يجلب النظر أن واضع القصة قد جعل الأصل في كل شيء وحتى الآلهة من الماء وجعل الماء في الأصل مكوّناً من عنصرين ذكر وأنثى ـ كما هو الحال في اسطورة السومريين ـ ومنهما تكونت الآلهة والبشر وجميع الأشياء.

قرأ القصة وحل رموزها اكثر من عشرين عالماً من علماء الآشوريات من مختلف الأمم، ولا يزال البحث والجدال مستمرّين على معاني بعض كلماتها بين العلماء.

وقد اعتمد الاستاذان طه باقر وبشير افرنسيس على الترجمة المتفق عليها ونشراها كاملة في مجلة سومر العراقية. وتعتبر هذه القصة اقدم وثيقة دينية عثر عليها بأجزائها كاملة دون ان تصل إليها يد التخريب. وهذا ملخص القصة أولاً ثم يعقبها بعض النصوص من الألواح كما وردت في المجلة.

4 ـ **ملخص ما جاء في ألواح الخليقة السبعة:** في البدء لم تخلق سماء ولا أرض ولم يكن سوى العماء (هيولى ـ أصل المادة ـ chaos) تمثله المياه الأولى التي تولدت منها الآلهة وجميع الأشياء. وكانت هذه

المياه عنصرين مختلطين، احدهما مذكر وهو «الابسو» عنصر الماء العذب، وثانيهما مؤنث وهو «تيامات» أو «تهومات» أو «تيامه» عنصر الماء الاجاج. ثم جاء منهما إلهان هما لخمو ولخامو تولد منهما بعد مرور الزمان إلهان آخران هما انشار وكيشار اللذان ولدا الإله آنو الذي نافس آباءه الآلهة العتيقة في القدرة والحول. ثم جاء من بعد ذلك الآلهة الحديثة الأخرى. وبعد ذلك نشأ نزاع بين هذين الجيلين من الآلهة لأن الآلهة الحديثة تحزبت معاً لمناوأة الآلهة القديمة وأرادت ان تحل النظام في العالم بدلاً من العماء والفوضى وأن تستبد بشؤون الكون دونها. فأحفظ هذا الأمر الآلهة العتيقة المحافظة. لذلك عزمت بزعامة الإله ابسو على احباط هذه المؤامرة وكبح جماح الآلهة الحديثة المتمردة بشن الحرب عليها ولم توافق الأم تيومه على تدمير ابنائها. وقبل ان تشرع الآلهة القديمة بمؤامرتها علم الإله «ايا» بالمكيدة فعزم على ردها واستطاع بسحره المقدس وبحكمته ان يقضي على الإله ابسو وابتنى في المياه الأولى معبده وسكنه هو وزوجته دام كبنا [فسماه البابليون أي - ابسو ومعناه معبد المحيط]. وولد لأيا في اعماق المياه ابن هو مردوخ الذي كان على اتم ما يكون من كمال الخلق، فكان قرة عين أبيه. أما تيامات زوج ابسو فقد اشتد حقدها على الآلهة الحديثة بعد مقتل زوجها فأعدت ما استطاعت من حول وقوة للانتقام والثأر فخلقت لهذه الغاية انواعاً شتى من العفاريت والشياطين ومخلوقات مخيفة أخرى من عقارب وأفاع وحيتان وأسود ... وأمرت للقيادة كنكو احد الآلهة العتيقة من ابنائها وزودته بالسحر المقدس وأودعت إليه ألواح القدر وجعلته زوجها. بيد ان الإله ايا علم للمرة الثانية بكل ذلك فأحزنه ما عسى ان يؤول إليه مصير الآلهة الحديثة، فالتجأ إلى جده الإله العتيق انشار يستعطفه فشجعه هذا على ان يتصدى لجموع تيامات وأن لا يجبن، وهو الذي قضى بسحره المقدس على زوجها ابسو. ولكن هذا التشجيع لم يجد نفعاً، فعهد إلى آنو ان يذهب إلى تيامات ليهدىء من غضبها ويصالحها. غير ان انو لم ينجح في مهمته إذ ارتد خائفاً مذعوراً إلى أبيه انشار وتداول الآلهة في مجلسهم المقدس الشورى في ما عسى هم صانعوه. ولكنهم جبنوا كلهم وأسقط في أيديهم ولم يجرؤ أحد منهم ان ينازل تيامه العاتية. ولما بلغ اليأس منهم هذا المبلغ فطن الإله ايا إلى ما يتصف به ابنه مردوخ من قوة وبطولة فنصحه ان يتولى عن الآلهة ذلك النزال فقبل على شرط ان تعترف الآلهة بزعامته. فاجتمعت كلها في وليمة أكلت فيها وشربت وغنت وقصفت وزال فرقها وانتخبت مردوخ ليكون سيد الآلهة وملكها ومجدت اسمه وأقامت له عرشاً سامياً وأسبغت عليه كل ألقابها وعهدت إليه بمصير العالم. وبعد ذلك اخذ مردوخ يتهيأ للقتال فتسلح بالقوس والسهم المقدسين وحمل معه شبكته المقدسة وركب عربته متوجهاً لقتال تيامات وجموعها. فبدأ القتال بأن ارسل امامه الرياح الأربع ليسد بوجه تيامات سبل الهرب. وما ان اقترب من اتباعها حتى خافت وارتعبت وأخذت تيامات تتلو سحرها لتصرع مردوخ ولكنه نشر شبكته المقدسة فأسرها فيها وساق فيها العاصفة فانتفخ جسمها. عند ذلك بادرها بطعنة مميتة بسهمه فشق بطنها وقضى عليها. وحاولت جموعها ان تهرب ولكن مردوخ لم يدع احداً يفلت من يده فجمعهم في شبكته ومعهم قائدهم كينكو فأخذ منه ألواح القدر وختمها بختمه واحتفظ بها في صدره ثم رجع إلى تيامات وهشم رأسها وقطع مجاري الدم من جسمها فتصاعد منه الدم مع الرياح. ورأته الآلهة فسرت وهتفت تمجد باسم

مردوخ. ثم قسّم جسمها قسمين جعل نصفه الأعلى سماء ومن نصفه الأسفل أرضاً. وعين في السماء مناطقها وبروجها ومواضع الآلهة وبروج الكواكب ووقّت الأوقات والفصول والشمس والقمر. ثم رأى مردوخ من بعد ذلك ان يخلق مخلوقاً من دم وعظم ولحم هو الإنسان ليعبد الآلهة، فأشار عليه «ايا» قائلاً: «ليضحّ احد الآلهة لكي يخلق البشر. لتجتمع الآلهة كلها وليقدم الإله المذنب». فأجابت الآلهة «ان كنكو كان السبب». فقيّدته الآلهة بالأصفاد وقدمته إلى ايا فأهدر دمه. وخلقت الآلهة الإنسان من دمه ومن التراب ليعبدها. وبعد ان كمل خلق الإنسان أسست الإلهة آي ـ ساكلا معبد الإله مردوخ في بابل واجتمعت فيه بعد تمامه في حفل مقدس، رتلت فيه الأناشيد بمجد مردوخ ومنحته اهم ألقابها المقدسة فصار يجمع في شخصه أكبر صفاتها.

وتنتهي الملحمة في الرقيم السابع الذي خصص ليكون ترتيلاً لعبادة مردوخ.

ومما لا شبه فيه أن هذه الآلهة كلها رموز قد ترمي إلى أمرين: الأول إلى خطورة الأنهر والفيضانات وكيف كان النهر ابسو وتيومه يجلب للناس الخراب والدمار والغرق. ولما انشئت السدود وتم التغلب على المياه اخذت الأنهر على العكس من الأول تمثل الرخاء والحياة فظهرت الجنائن السومرية. اما الأمر الثاني فهو ان قوى النور، وتمثلها الآلهة الحديثة، وقوى الظلام والفوضى، وتمثلها الآلهة القديمة كانت في قتال وخصام دائمين حتى تغلب إله الخير على آلهة الشر[1].

5 ـ هذه بعض نصوص الألواح السبعة للخليقة الكلدانية للوقوف على الأسلوب الأدبي والفكري والديني كما هو في تلك العصور السحيقة بالقدم.

الرقيم الأول:

اينوما ـ ابليش أو رقيم الخليقة السبعة.
حينما في العلى لم يكن للسماء اسم
ولم تكن الأرض شيئاً مذكوراً
ولم يكن في البدء غير ابسو ابوهم
والأم تيامه التي ولدتهم جميعاً
وكان ماءاهما ممتزجين معاً
ولم تكن اليابسة بل ولا ضحضاح يرى
ولم يكن أي من الآلهة قد ولد بعد
بل ولا ذكرت اسماؤهم ولا كتبت اقدارهم
ثم خلقت الآلهة في وسطهما [أي الماءين ابسو وتيامه]
لقد ولد لخمو ولخامو وسميا باسمهما
ثم مرت الدهور وتتابعت السنون
فخلق بعدهما انشار وكيشار فبزاهما

(1) تأثرت الآداب الإيرانية والهندية والعبرانية من هذا الصراع بين الآلهة فجعلته بين الرب (إله الخير) والشيطان (إله الشر).

وتوالت الأيام الطويلة وتتابعت السنون
فولد ابنهما انو غريم آبائه
فصار انو بكر انشار نظيراً له
وولد انو نودميد (ايا) على صورته ومثاله
وصار نود ميد سيد آبائه
متحلياً بالمعرفة والحكمة والحول
وأشد قوة من جده انشار
فريداً ليس له ثان بين الآلهة اخوانه
وصار الآلهة الأحداث حزباً واحداً
وأساؤوا إلى تيامه واعتدوا على حاميهم ابسو
وقد أحزنوا قلب تيامه
لقد صالوا وجالوا في المقام المقدس
وما وسع ابسو ان يخفف من ضجيجهم
ورضخت تيامه إلى أفعالهم
ولكن سلوكهم آذى ابسو
فاضطر ابسو أبو الآلهة العظام
ان يصرخ وينادي (ممو) وزيره قائلاً:
«يا ممو يا وزيري يا طيب كبدي
هلم إليّ ولنذهب معاً إلى تيامه»
وتشاوروا ما بينهم في أمر الالهة أول اولادهم
وفتح ابسو فاه
وقال لتيامه الأم القديسة بصوت عال:
«ان صنيعهم يحزنني
فلا في النهار أستريح ولا في المساء أهجع،
لأبيدنهم جميعاً وأقضين على ما يصنعون
فتعم السكينة وننعم بالراحة».
فلما سمعت تيامه هذا
احتدت وانتهرت زوجها
وأعولت واستشاطت غضباً
لأن لؤم ابسو احزن قلبها
«ما حدا بنا إلى ان نهلك ثمرتنا التي نتجناها
ان فعالهم مزعجة حقاً ولكن لتطب بها نفساً»

وتكلم ممو وأشار على ابسو
وكانت مشورة ممو الغدر والضر
«اجل يا أبي اقض على صنيعهم المزعج»
فتهلل وجه ابسو لهذا القول
بسبب الشر الذي دبره ضد الآلهة ابنائه
فقبّل ممو عنقه
وقعد على ركبتيه وعانقه
ولكن ما دبرا من خطط في ندوتهم
نقل إلى الآلهة أول ابنائهم
فلما سمع الآلهة ذلك اضطربوا
وارتج عليهم وقعدوا واجمين
ولكن احكم الآلهة وأبصرهم وأرعبهم
ايا[1] المحيط بكل شيء انعم النظر في
احباط نيتهما
فحزم أمره ودبر سحره واحتاط
وألف اقدس رقيه
وقرأها على الماء (ابسو)
فأحل فيها السبات وغط في النوم
وبعد ان ارقد ابسو ونام ابسو
التفت إلى ممو المشير
وسحب اشعته واكتسى بها نفسه
وكبل ابسو وذبحه
وشد وثاق ممو وأوصد الباب عليه
وابتنى في ابسو (الماء) مسكنه
واسر ممو ومسك خزام انفه.
وبعد ان قهر ايا أعداءه وأخضعهم
ومكّن انتصاره على اعدائه
عاد إلى مقره ونعم بالراحة
وسمى (مسكنه) آي - ابسو وخصصه للمعابد
وفي ذلك الموضع اقام بيته المقدس

(1) وصار بعد ذلك يعرف باسم: يا - ياوه - آوه - اهوا - ياهوا - يهوه.

وسكن ايا وزوجته (دمكينا) بجلال معاً (هناك)
في بيت الأقدار وموطن المصائر
ولد أعقل الآلهة وأحكمها
ففي ابسو ولد (مردوخ)
في ابسو المقدس ولد مردوخ
أما الذي انجبه فكان (ايا) اباه
ودمكينا امه هي التي حملته
وأرضعته من اثداء الإلهات
وغمرته مرضعته التي احتضنته بجلال يبعث الهول
وكان فاتن الشكل ونظرات عينيه هي البرق
وكان جليلاً في مشيته ومشيراً منذ القدم
ولما رآه ايا ابوه الذي انجبه
تهلل فرحاً وتألق وجهه وغمر قلبه الفرح
وفضّله على غيره وأنعم عليه صفة مضاعفة من الألوهية
وبذلك علا قدراً وبز الآلهة في كل شيء
وكان جسمه رائع الجمال
لا يتصوره البشر والأبصار ترتد عنه خاشعة
أربعاً كانت عيونه وأربعاً كانت آذانه
فإذا ما حرك شفتيه اندلع منهما النار
واستطالت آذانه الأربع
وكانت عيونه الأربع ترى كل شيء
لقد كان المفضل بين الآلهة وليس لشكله مثيل
لقد كانت جوارحه عظيمة الحجم ولا يفوقه احد
فيا له من ابن! فيا له من ابن!
ابن إله الشمس، ابن شمس الآلهة
كان متحلياً بأنوار عشرة إلهية
وكان خارق القدرة
وانثالت عليهم هيبة جلالهم النيرة
وأولد آنو الرياح الأربع
لتكبح التنين اشد الزمرة (العفاريت)
... فاضطربت تيامه
واهتاجت تيامه وصارت تجول ليل نهار

وازداد حنقهم وحزنهم
ودبروا الشر في قلوبهم
وإلى تيامه قال الأخوة
عندما يذبحون زوجك ابسو
لا تسيري بجانبه بل اسكني
واصنعي سلاحاً يبث الرعب
وإذا مزقت احشاؤك فلن نجد الراحة
تذكري ابسو زوجك
وممو قد قهر فلم يبق إياك
... اركضي سريعاً الا تحبيننا
عيوننا قد زاغت لنستكن على الدوام
ونثأر لهما ونسلمهم إلى الزوبعة.
لما سمعت تيامه ذلك طاب لها القول.
لنضع عفاريت ووحوشاً... والآلهة في الوسط
ولنشن الحرب على الآلهة، لنشن.
فاتحدوا إلى جانب تيامه، ساروا
استشاطوا غضباً ودسوا الدسائس ولم يركنوا ليلاً ونهاراً
تحفزوا للحب ملتهبين غاضبين
اعدوا جيشاً ورسموا خطة القتال
الأم (خبر ـ تيامه) تصنع كل شيء
سلّحتهم أيضاً بأسلحة لا تقهر تولد ثعابين مخيفة
أسنانها حادة وأنيابها مهلكة
وملأت ابدانها بالسم بدل الدم
وألبست الرعب وحوشاً مخيفة
وجللتها بالمهابة وجعلتها كالآلهة
فمن ينظر إليها يهلك من الرعب
فكانت أجسامهم تندفع إلى الأمام ولا ترجع القهقرى
صفت الأفعى والتنين ولخامو
والأسد الهصور والكلب العقور والإنسان العقرب
والزوبعة العاتية والإنسان السمكة والثور
تحمل اسلحة لا تبقي ومن القتال لا ترهب
وكانت أوامرها صارمة ولا ترد

وكان مجموع ما خلقت احد عشر نوعاً من العفاريت
وبين هؤلاء الآلهة ابناؤها الأُول الذين انحازوا إلى جانبها
لقد اعلت شأن كينكو وعليهم امرته
ليمشي امام الحشد وليقود الجموع
وليشهر الأسلحة للقتال وليبرز إلى الهجوم
القيادة العليا في القتال
قلدتها اياه وأجلسته في الندوة وقالت:
لقد سحرت لأجلك، وقد فضّلتك على الآلهة أجمعين
ومنحتك السلطان على جميع الآلهة
فلتكن عظيماً أنت يا زوجي المصطفى
ولتصر اسماؤك اعظم من اسماء جميع الانوناكي (إلهة الأرض السفلى)
أعطته رقيم الأقدار وعلّقته في صدره وقالت
اما انت فقيادتك لن تبدل وأمرك مطاع
وعندها مجد (كنمكو) ونال السلطان الأعلى
قدرا اقدار الآلهة ابنائها وقالا:
عسى أن تغلب كلمتكم الإله النار (أي مردوخ)
وتعلو قوتكم عليه.

انتهى الرقيم الأول ويليه الرقيم الثاني على هذا المنوال وهو محرر بمجلة سومر العراقية مجلد5 ـ جزء1.

وهذا بعض ما جاء في الرقيم السادس حول خلق البشر:
1 ـ ولما سمع مردوخ كلمات الآلهة
2 ـ حثه لبه لكي يخلق أشياء عجيبة
3 ـ ففتح فاه وقال لآيا
4 ـ دماً اخلق وعظماً ابرى
5 ـ وأصنع لولو ويدعى بشراً
6 ـ اجل لأخلق لولو: الإنسان
7 ـ ولأفرض عليه عبادة الآلهة
8 ـ فأجابه ايا وقال كلمة له
9 ـ ليقدم واحد من الآلهة الاخوان
10 ـ فيهلك ويصنع منه لولو: البشر
11 ـ وليسلم الإله المذنب وليكن فداء الآلهة المذنبة
12 ـ وتكلم الملك كلمة... من ذا الذي خلق النزاع

13 ـ وحرّض تيامه على الثورة وهيأها للحرب

14 ـ فأجابه الآلهة العظام...

15 ـ انه كنكو الذي خلق النزاع

16 ـ فكبلوه وأودعوه السجن امام ايا

17 ـ وعاقبوه بقطع عروق دمه

18 ـ ومن دمه خلقوا البشر

19 ـ وفرض عليهم آيا عبادة الآلهة

20 ـ ....

6 ـ وعثر المنقبون في مدينة آشور الشرقات على رقيم من الطين فيه رواية آشورية بابلية أخرى عن الغاية من خلق الإنسان. وقد جاء في هذا الرقيم أول ذكر للإنسانين الأولين واسمهما اوليكرا وزلكرا، وقد وضعت إشارة الإله قبل كل اسم من اسميهما ما يدل انهما كانا يتصفان ببعض صفات الألوهية باعتبار انهما خلقا من دم إلهي ومن طين الأرض[1] جاء فيها:

1 ـ حينما تم خلق السماوات والأرض

2 ـ وجاءت ام الآلهات إلى الوجود

3 ـ وحينما اوجدت الأرض وأخذت الأرض شكلها

4 ـ وحينما عينت اقدار السماء والأرض

5 ـ ولما أجرى الجداول والنهر في مجرييهما الصحيحين

6 ـ وثبتت ضفاف دجلة والفرات

7 ـ انو، وانليل، وشمس وايا

8 ـ الآلهة العظام

9 ـ جلسوا مع الانوناكي الآلهة العظام

10 ـ في المعبد المجيد

11 ـ وتحدثوا في ما بينهم حول ما خلقوا:

12 ـ والآن: فبما ان اقدار السماء والأرض قد عينت

13 ـ وأجرى الجدول والنهر في مجرييهما الصحيحين.

14 و15 ـ وضفاف دجلة والفرات قد ثبتت

16 ـ ما عسانا ان نفعل غير ذلك

17 ـ وما عسانا ان نخلق

18 ـ يا ايها الانوناكي، انتم الآلهة العظام

19 ـ ما عسانا ان نفعل غير ذلك

(1) مراجع هذه الأسطورة ونصوصها في مجلة سومر مترجمة عن الكساندر.

20 ـ وما عسانا ان نخلق.

21 ـ إن الآلهة العظام الذين كانوا حاضرين

22 و23 ـ وجهوا كلهم جوابهم إلى انليل

24 و25 ـ دعنا نذبح الإلهة لامكا

26 ـ وبدمائهم دعنا نخلق البشر

27 ـ ونفرض عليهم عبادة الآلهة

28 ـ في كل الأوقات والأزمان

29 ـ وليثبتوا حدود الجدول

30 و31 ـ ولتوضع الفأس والسلّة في أيديهم

32 ـ لسكنى الآلهة العظام يشيدون المعابد

33 ـ ويحددوا بين حقل وحقل

34 ـ وليثبتوا حدود الجدول

35 ـ وليجروا الجداول في مجراها الصحيح

36 ـ وليسقوا مناطق الأرض الأربع

37 ـ ولينبتوا النبات...

38 ـ وليعينوا الحدود

39 ـ وليكثروا الغلة في الأرض

40 ـ وليحتفلوا بأعياد الآلهة

41 ـ وليسكبوا ماء بارداً

42 ـ لأجل بيت الآلهة العظام

43 ـ اوليكرا وزلكرا

44 ـ دعوا اسميهما

45 ـ وعلى اوليكرا وزلكرا ان يكثرا الثيران والأغنام

46 ـ والسمك والاطيار

47 ـ وغلال الأرض

48 ـ انول واريشول آلهة الكثرة

49 ـ امرا بذلك بفميهما المقدسين

50 ـ ان ارورو امرأة الآلهة ذات السيادة

51 ـ وهبت لهم اقداراً عظيمة

52 ـ في النهار والليل

53 ـ ليحتفلوا بأعياد الآلهة.

54 ـ إن هذه الأقدار العظيمة

55 ـ فرضها عليهم
56 ـ انو وانليل وايا ونن ماخ
57 ـ الآلهة العظام فرضوها عليهم
58 ـ وفي الموضع الذي خلق فيه البشر
59 ـ عينت نصابا (إلهة القمح) إلى الأبد
60 ـ فليعلم العقلاء السر للعقلاء

يستبان من هذه القصيدة الدينية انها اقتصادية عمرانية على جانب عظيم من الخطورة. فان الآلهة بعد ان ثبّتت ضفاف دجلة والفرات خلقت الإنسان لكي يسعى ويعمل طيلة حياته في تعمير الجداول وتنظيم الري وحفر السواقي وتحديد الحقول وسقي المناطق الزراعية ومحافظة النبات وإكثار الغلة في الأرض وتربية الثيران والأغنام والسمك والاطيار. وقد وضع الفأس والسلة في يده للبناء والعمران وتشييد المعابد والاحتفال بأعياد الآلهة. وقد فرضت الآلهة هذه الاعمال فرضاً على الإنسان، ويعتبر القيام بها من العبادات التي ترضي الآلهة.

اسطورة أدابا ملخصة عن مجلة سومر ـ كان ادابا من أهل اريدو، وصف بأنه أول بذرة البشر ـ ولعل هذا الاسم انقلب بعد ذلك إلى اداما، أدم، آدم ـ خلقه لأول مرة «يا» إله الحكمة والمعرفة وعلّمه اسراراً إلهية كثيرة ومنحه الحكمة وجعله يعد المائدة المقدسة وتوفير الطعام والشراب لاريدو كل يوم، إلا أنه لم يهبه الحياة الخالدة. وبينما كان يصطاد لاريدو السمك في عرض البحر هبت عليه الريح الجنوبية وأغرقته في مملكة السمك فكسر جناحاً من جناحيها، فلم تهب الريح على الأرض سبعة أيام. فلما علم آنو إله السماء بذلك استشاط غضباً وطلب من وزيره إحضار أدابا إلى السماء في الحال. فقال «ايا» الذي يعرف ما يجري في السماء لأدابا: البس لباس الحزن، وقل إلى الإلهين الواقفين في باب آنو، عند وصولك إلى السماء عن سبب حزنك أنه: «لقد اختفى إلهان من الأرض وهما تموز وكيزدا». وعند ذلك يفرحان ويرحبان بك ويشفعان لك عند آنو وسيعطيانك بأمر الإله الأعظم آنو طعام الموت فلا تأكله، وماء الموت فلا تشربه. وسيهبانك رداء فالبسه... فأخذه رسول آنو وصعد به إلى السماء وعمل أدابا بكل ما اوصاه به ايا. فقال آنو: علام كشف ايا لإنسان دنّس أسرار السماء والأرض فجعله عظيماً؟ من هو الذي علّم الإنسان أكثر مما يعلم؟ فلما كان قد حصل على هذا العلم أطعِموه طعام الحياة واسقوه ماء الحياة ليكون خالداً مثلنا! ولما قدموا له الطعام لم يأكله، والشراب لم يشربه، والرداء لبسه، تبعاً لوصية الإله آيا الخاطئة. فقال آنو، انك إذن لن تنال الحياة الخالدة، أخرِجوه، وأعيدوه إلى الأرض. وبذلك أضاع الحياة الدائمة والنعيم الأبدي، ونزل إلى الأرض ليعمل فيها.

سادت هذه العقائد ثلاثة آلاف سنة أو أكثر سكب البشر خلالها دموعه السخينة على أعتاب معابد الآلهة وهو يرتل هذه القصائد.

الفصل الحادي عشر مدينة اريدو المقدسة

1 ـ اعتبر السومريون القدماء أن الآلهة هي التي شيدت بيدها مدينة اريدو لتكون مقراً للآلهة النازلة من السماء. فكانت أول مدينة بنيت على وجه الأرض. وفيها سكن لولو وزوجه بعد خروجه من جنة عدن المجاورة لاريدو. وهي إحدى المدن الخمس التي أُسّست قبل الطوفان. فقد ورد في اسطورة سومرية قديمة:

لم تكن «نبر» مخلوقة ولم يكن (اي انكورا مشيدا)
ولم تكن الوركاء مخلوقة ولا اريدو مشيدة
إلا ان اريدو بنيت على الغمر (الماء الكثير).

2 ـ ونقل ويلكوكس في كتابه بين عدن والأردن قصة الخليقة السومرية ترجمة للدكتور و. ل. كينغ التي تعتبر الأصل لقصة الخليقة البابلية الآنفة الذكر جاء فيها:

1 ـ لم تكن سماء فوقنا
2 ـ ولم تكن أرض تحتنا
3 ـ لكن الإله القديم ابسو خلقهما
4 ـ وكانت الإلهة تيومات أماً للسماء والأرض
5 ـ ثم امتزجت مياههما بعضها ببعض
6 ـ لم تكن هناك حقول ولا اهوار
7 ـ لم يكن بعد في الوجود احد من الآلهة
8 ـ انت ايها النهر خلقت لنا جميع الأشياء
9 ـ لما انشأتك الآلهة العظام
10 ـ إنها ألبست ضفافك حلة الرخاء
11 ـ اختار ايا ـ ملك العمق ـ بيته في وسطك
12 ـ أما بيت الآلهة المقدس فلم يكن بعد قد بني في الأرض المقدسة
13 ـ إذ لم ينبت القصب ولم تنبت الأشجار
14 ـ لم يكن هناك عمق ولم تُبنَ مدينة اريدو
15 ـ كانت الأرض كلها بحر
16 ـ إذ ذاك تحرك البحر
17 ـ فبنيت مدينة اريدو (اي ساكل)
18 ـ واتخذ الإله لوكال دو كوكا (مردوخ) مدينة اي ساكل الواقعة في وسط العمق مسكناً له.
19 ـ ثم وضع مردوخ القصب على وجه الماء

20 ـ ونثر التراب على جوانب ذلك القصب.

21 ـ لكي يهيىء للآلهة المساكن التي تهواها افئدتهم.

وكلها رموز للخليقة تبين كيفية ظهور الحياة في وسط المياه العذبة ونمو القصب في تلك المستنقعات، ثم بناء مدينة اريدو ومعبدها (اي ساكل) فوق قليل من القصب والتراب في وسط المنخفضات والاهوار[1].

3 ـ وفي مجلة سومر العراقية ترتيلة سومرية أخرى عن بناء اريدو جاء فيها:

1 ـ الرب ايا المسمى أيضاً انكى رب العمق ورب الغمر الذي يقدر المصائر.

2 ـ بنى بيته من فضة ولازورد وانبعثت الخلائق من الغمر في اريدو.

3 ـ وبنى (بيت شاطىء الماء) بيت انكي منزل المعجزات.

4 ـ وبعد ذلك، يرفع انكى ـ ايا مدينة اريدو من الغمر.

5 ـ ويجعلها طافية فوق الماء مثل جبل اشم.

6 ـ ويملأ بساتينها المثمرة الزاهرة بالأطيار ويكثر أسماكها.

وجاء فيها ترتيلة ثالثة لبناء اريدو:

1 ـ لما كتب الأجل لجميع المخلوقات.

2 ـ وعندما خلق البشر في إحدى سنوات الخير.

3 ـ عندها بنى الملك انكى رب البحر.

4 ـ انكى الذي يبت في الأجل.

5 ـ جميع الآلهة تذهب إلى نودميد الرب.

6 ـ من الفضة بنى بيتاً وزركشه باللازورد وكساه بالذهب.

7 ـ في اريدو بنى على الساحل بيتاً.

8 ـ يا بيت، يا من شيدت على الساحل.

9 ـ خلقت مأوى لقوى الآلهة المتكاملة.

10 ـ يا ايها البيت القائم على جانب المحيط.

11 ـ يا ايها الأسد القائم وسط ابسو (البحر).

12 ـ يا بيت انكى الشامخ الذي يمنح العرفان للناس.

13 ـ لما رفع انكى اريدو صارت حصناً منيعاً.

14 ـ وعلى طرف نصبت اريكة من القصب.

15 ـ وفي حديقته الخضراء التي تحمل وافر الثمر.

16 ـ فيها تفرخ الطيور.

---

(1) من الغريب أن بعض الأعراب، وهم احفاد اولئك الأقوام ما زالوا حتى اليوم في أواسط الأهوار والبحيرات العذبة، يشيدون بيوتهم من القصب مع قليل من التراب ينقلونه من السواحل كما كانوا قبل ستة آلاف سنة أو ما يزيد. ولا غرابة، فالأهوار تلك الأهوار والأرض تلك الأرض وبعض الناس احفاد اولئك الناس.

ويكون انكى الآن مستعداً لمتابعة رحلته بالسفينة إلى نفر لينال بركة والده انليل على مدينته ومعبده الجديدين وعلى ذلك يطلع من الغمر.

1 ـ حينما ينهض انكى... السمك ينهض

2 ـ ويدخل الفرح في البحر

3 ـ ويشمل الخوف الأعماق

4 ـ ويمسك الذعر النهر المبجل

5 ـ وترفع الريح الجنوبية الأمواج في الفرات

وهكذا يستقر (انكى ـ ايا) في سفينته فيصل أولاً مدينة اريدو نفسها ويذبح فيها كثيراً من الثيران والأغنام ثم يتابع سفره إلى نفر «سوريباك» حيث يعد حال وصوله جميع أنواع الخمور إلى الآلهة ثم:

1 ـ انكى في المعبد نفر

2 ـ ليعطي لأبيه خبزاً ليأكل

3 ـ وأجلس أولاً الإله آن ـ إله السماء.

4 ـ ثم أجلس انليل بعد آن.

5 ـ وأجلس ننتو في الجانب الكبير.

6 ـ وأجلس الانوناكي الواحد بعد الآخر.

7 ـ وهكذا احتفل الآلهة فأكلوا وشربوا وطابت قلوبهم.

8 ـ واستعد انليل لتلاوة بركته:

9 ـ قال انليل للانوناكي.

10 ـ يا ايها الآلهة العظام الواقفين امامنا.

11 ـ ولدي بنى بيتاً، الملك انكى.

12 ـ رفع اريدو مثل جبل من الأرض.

13 ـ بناها في موضع طيب.

14 ـ اريدو المكان النظيف حيث لا يسوغ لأحد ان يدخل.

15 ـ بنى البيت من فضة وزيّنه باللازورد.

16 ـ ونظم البيت بالأناشيد السبعة.

17 ـ انسجم الغمر مع المشيئة الإلهية.

18 ـ وبنيت اريدو البيت الظاهر.

19 ـ فيا انكى، لك الحمد والثناء.

وكانت هذه الترتيلات تغنى على ضربات الموسيقى ونقر الدنابك والدفوف مع نغمات العذارى من راقصات المعبد في الأعياد والاحتفالات.

4 ـ وكانت مدينة اريدو في عصر العبيد، وتعرف الآن بتل ابو شهرين، تقع على ساحل البحر، وهي المركز

الروحي والثقافي للأمة السومرية وباعتبارها مقراً للإله انكى ايا. كانت المدينة المقدسة الزاهية بمعابدها. وكان فيها الزقورة العظيمة والمباني الفخمة الشاهقة. وفيها البساتين الواسعة والحدائق الجميلة. وكانت مقر الكهنة والرهبان يؤمها الناس للعبادة والزيارة من كل حدب وصوب فاستدامت شهرتها في عصر الوركاء حتى بداية التاريخ في العراق (2500 ق. م.)، ثم أخذت المدينة تتقلص بعد هذا التاريخ لانحسار الماء وابتعاده عنها. إلا أنها حافظت على كرامتها وقدسيتها أحقاباً أخرى باعتبارها مقراً للإله ايا ـ انكى.

سبق ان ذكرنا ان الإله انكى ـ ايا، بعد تغلبه على الإله القديم ابسو، بنى معبده على الماء وفي اعماق المياه بجوار اريدو ودعاه اي ابسو ومعناه بيت المحيط. واتخذه مقراً له ولزوجته دام كينا فاعتبره السومريون والكلدانيون إله المياه التي فوق الأرض وتحتها، وإله المعرفة ورب الابداع وحامي أهل الصنعة والعلم. وهو والد مردوخ إله البابليين. فكان معبد اريدو مقر الإله ايا أقدس معبد وأعظم هيكل في الجنوب كله.

يقول ويلكوكس في الفقرة 409 من كتابه: ان الإله ايا يعبر عنه بكلمة يهوا، وإن كلمة تيامات او تهومات او تيامه ترادف كلمة تيهوم العبرية الدالة على معنى العمق.

5 ـ ظهر اثناء الحفريات التي اجراها جي اي. تايلر، عام 1855، والمنقبون العراقيون، بعض الوثائق التي تدل على ان مدينة اريدو، فضلاً عن كونها مدينة دينية مقدسة، كان قد حكم فيها بعض السلالات من الملوك قبل الطوفان العام وبعده، وأنها كانت أقدم مدينة في سومر، ومن اعظم المدن في عصور ما قبل التاريخ. وقد ايد الدكتور «كون»، احد أفراد البعثة الأميركية المنقبة في اطلال نبر، أن سكان اريدو في ابان الألف الرابع قبل الميلاد كانوا من اقوام البحر المتوسط الذين هم من العرب.

ووجدت البعثة العراقية المنقبة في تلول اريدو تحت معابد عصر العبيد أكواخ الفلاحين، فيها مناجل من الفخار المطبوخ وثقالات شباك لصيد السمك ومحار الأهوار. وكان تصميم الكوخ وانتظام لبن جدُره دليلين على ان سكانه كانوا على جانب من الحضارة والعمران. وعثرت في الطبقة العاشرة على كوخ مشيد بالقصب، يعتبر اقدم كوخ شيد في جنوب العراق.

وكان الملك السومري اورنمو، الملك الأول لسلالة اور الأولى، قد شيد في اريدو صرحاً ومعبداً للإله انكى ـ ابا ثم حكم من بعده الملك دونجي او شولجي وبنى كثيراً من معابدها، وقد نصت الآثار على انه «قد عني عناية كبيرة في مدينة اريدو التي هي على ساحل البحر». ثم شيد الملك بورسن زقورة انكى التي لا زالت قائمة في اريدو. ووجد هناك بعض الآجر مختوماً بكتابة هذا نصها: «بورسن المدعو اسماً من قبل انليل في مدينة نبر وحامي معبد انليل الملك القوي ملك مدينة اور للإله انكى، ملكه المحبوب، قد بنى معبد ابسو (البحر المحيط) المحبوب».

ولقد نظمت ترتيلة البناء عن معبد انكى وعن تجديد بناء زقورة ـ وجدت نصوصها في نسخ عديدة بمائة وتسعة وعشرين سطراً نشرتها مجلة سومر كاملة بعددها 2 ـ 7.

وبعد ان تعاقبت الملوك من مختلف السلالات حكم في اريدو الملك نواردد، ووجدت دائرة الآثار آجرة مختومة باسمه جاء فيها: «نواردد الرجل القوي الكاهن الذي زيّن معبد اي ببار. لقد دمرت

اريدو قديماً فأنشأها ليكون حكمه سعيداً. وبنى لانكى مقره الطاهر ومكانه المحبوب». إلا انها لم تسترجع عمرانها الأول وبقيت مدينة مقدسة لسكنى الرهبان والكهنة ولعل تدميرها المنوه عنه كان بسبب طوفان نوح.

وكان قد ذكر مدينة اريدو المقدسة حمورابي في مسلته. ولقب نبوخذنصر نفسه بوالي مدينة اريدو. واستدامت اريدو بصفتها مدينة مقدسة حتى النصف الأولى من الألف الأول قبل الميلاد المسيحي ثم تقهقرت وانحطت ودخلت تحت حكم سرجون الملك الآشوري حوالى (710 ق. م.).

مدينة نفر: وأما أهالي مدينة نفر (سوريباك) فيعتقدون ان الإله انليل كان قد شيد بيده مدينتهم وبنى بيده معبده (اي كور) قبل ان يبني انكى مدينته في اريدو وقبل ان يبني سين او ننا الإله القمر مدينته في اور، وأن إلهي المدينتين السومريتين اريدو واور كانا قد شدا الرحال إلى مدينة نفر ليحصلا من إلهها انليل على البركة لمدينتيهما.

6 ـ ولما علت ضفتا نهر الكوشين (نهر كوتي القديم) بسبب كميات الطمى الهائلة التي كانت تحملها المياه وتحول النهر إلى مجرى آخر، انقطع الماء تدريجياً عن مدينة اريدو ولم يبق من يقوم بتطهير الأنهر بقصد العبادة كما كان سابقاً فيبست اهوارها وجفت مياهها فأخذ الناس ينزحون عنها إلى مناطق اهوار جديدة تسقى سيحاً طيلة ايام السنة، فوجدوا منخفض بابل فأسسوا مدينة سموها: بابل ـ باب ايل ـ باب الإله. ونقلوا إليها من اريدو معبد اي ساكل، وهو المعبد المقدس للشعب السومري وجعلوه علماً لمردوخ. وعلى أثر نقل المعبد من اريدو هجرها الناس والعباد والزهاد والحجاج والزوار كافة فسقطت تدريجياً عن قدسيتها حتى أصبحت خالية خاوية فغطتها الاتربة والرمال ودخلت في طيات التاريخ.

الفصل الثاني عشر جنة عدن السومريين[1]

1 ـ كان البحر قريباً من مدينة اور الكلدان. فقد تشكلت في ما بين مصب الأنهر دجلة والفرات والكرخة وكارون دلتا واسعة تمتد من مدينة اور الكلدان واريدو في الجنوب حتى العمارة في الشمال ومدينة اواسط في الغرب. وكانت هذه الدلتا العظيمة مكوّنة من أراضٍ مستوية منخفضة تطغى المياه على قسم كبير منها في موسم الفيضان فتشكل المستنقعات والأهوار. وأما الأقسام اليابسة منها فتسقي سيحا في موسم الصيف من دجلة والفرات.

وكان لهذه القطعة من الأرض المكونة من الطمي والترسبات تحت تأثير الشمس المحرقة والمياه الكثيرة قوة إنباتية عظيمة تنمو فيها الأشجار الباسقة والمنبوتات الأرضية وأنواع المزروعات الصيفية والشتوية. وكان السومريون القدماء قد شقوا فيها الترع وفتحوا الجداول ونظّموا الري فأسسوا البساتين العامرة والحدائق الزاهرة، فارتفعت اشجار النخيل نحو السماء وغطت الكروم وجه الأرض وغمرت أشجار التين واللوز والفستق والرمان والتوت والخوخ والمشمش والموالح والحمضيات... البساتين، فأصبحت هذه الدلتا بفضل التربة الصالحة وسواعد ابنائها المغاوير كلها جنات وحدائق وبساتين مليئة بالنخيل والاعناب والأشجار المثمرة وغير المثمرة كالاثل والأرز والسرو والصفصاف والدلب والصندل والآس... تتخللها الجداول والسواقي والنهيرات، تضرب بجودة ثمرها الأمثال كما هو الحال في تمور البصرة في زماننا.

2 ـ ولما شرع كهنة سومر في إعمال الفكر في الخليقة والتكوين أوصلهم البحث إلى وضع اساطير عديدة ذكرنا قسماً منها في ما سبق، كان من جملتها كيفية ظهور الإنسان فوق سطح الأرض. وقد عجزوا عن التوصل إلى حل لهذه المشكلة. ولما كانت اساطيرهم تنص على ان للآلهة كافة أباً واحداً هو ابسو، عنصر الماء المذكر، وأمّاً واحدة هي تيومة، عنصر الماء المؤنث، ومنهما تناسلت الآلهة، فساقهم الخيال إلى فرض أب واحد للنسل الإنساني كله، وهو لولو (آدم) وأم واحدة. وفي اسطورة سومرية قديمة أخرى هو أدابا. ولعل هذا الاسم انقلب بعد ذلك إلى اداما وأدم وآدم. وفي الأساطير الآشورية والبابلية اوليكرا وزيلكرا واعتبار تفرع الانسال البشرية كافة من ذلك الأب والأم. فمن يكن هذا الأب البشري؟ وكيف يجب خلقه؟

لم يعجز الخيال عن حل لهذا الأس البشري المجهول ولهذا السر الغامض. فجعلوا الآلهة خالقة لأبي البشر (لولو) من دم كنكو الإله الاسطوري المقتول ومن تراب الأرض. (راجع اسطورة الخليقة من هذا الكتاب) فكان لولو شخصاً سماوياً أرضياً وأسكنوه في جنة عدن ليعمل فيها ويحفظها ويعبد

---

(1) ان الجنة في الديانة المسيحية بر وفرح وسرور وسلام بروح القدس. وفي الديانة لإسلامية: ﴿عرضها كعرض السماء والأرض اعدت للمتقين﴾ (الحديد).

الآلهة التي خلقته جزاءً أبدياً له، ويهيىء لها الطعام والشراب والخمر، ويحررها من الحاجة إلى العمل للعيش. وسنأتي على تفسير كلمة عدن في ما بعد.

وإن لم يعثر المنقبون حتى الآن على رقيم يؤيد وجود جنة عدن عند السومريين بأوصافها المعلومة كما وردت في سفر التكوين العبري، إلا أن هناك اسطورة سومرية تسمى اسطورة دلمون (البحرين) اشبه شيء بجنة عدن أو الفردوس الأرضي خلاصتها:

ان الإله انكى ـ ايا إله الماء السومري يذهب مع نن خرساك وتسمى ايضاً ننتو، وهي أم الآلهة العظام إلى موقع يسمى في الأسطورة دلمون فيحل ضيفاً على نن سكل إلهة دلمون، ثم تقول الأسطورة:

صار ذلك الموضع نظيفاً وصار نيراً.

في دلمون لم ينعق الغراب.

ولم تصرخ الحدأة بصوتها.

ولم يفترس الأسد.

ولم يختطف الذئب الحمل.

ولم يعرف الكلب عاقر الجدي.

ولم يعرف الخنزير مخرب الغلة.

ومريض العين لم يقل أنا مريض العين.

ولم تقل عجوز دلمون أنا عجوز.

ولم يقل شيخ دلمون انا شيخ عجوز

ولم ... عذراء دنسة في المدينة.

ولم ينح نائح برثاء.

ولم يندب احد في المدينة...

وكان النقص البارز في هذه المدينة التي لا يوجد فيها شيخ وعجوز ولم ينح فيها نائح برثاء، هو فقدان الماء العذب. فتضرعت آلهة دلمون إلى انكى أن يمنحها الماء العذب. وبعد ان سمع تضرعاتها أمر «اوتو» الإله الشمس ان يحقق رغباتها فأخرج الماء العذب من الأرض وازدهرت المدينة.

ثم تصف الأسطورة ولادة بعض الآلهة وخلق النبات والأشجار في دلمون.

وفي أسطورة أخرى سومرية مشهورة بملحمة كلكامش تتعلق بالطوفان إشارة إلى أرض دلمون المقدسة وكيف خلق فيها الإنسان والحيوانات[1].

3 ـ وأما سفر التكوين العبري فيؤيد ان جنة عدن كانت في جنوب العراق. وفي الحقيقة يظهر من مقارنة ما جاء في الفصل الأول من سفر التكوين العبري مع ما جاء في بعض اساطير الخليقة السومرية أنهما متقاربتان مع بعضهما. وقد تؤيد الواحدة الأخرى في بعض الظروف والأحوال. ولما كان

(1) ملخصة عن مجلة سومر والأصل في كرامر.

السومريون قد وضعوا أساطيرهم في أزمان واغلة في القدم وقبل ظهور العبرانيين بألفي سنة تقريباً، فمن الضروري اعطائها الأقدمية في القواعد كافة المتشابهة والمتناظرة عند وجود التشابه والتناظر بغض النظر عن المصدر الذي نشأت منه. ولما كان العهد القديم يوضح بعض ما غمض من جنة عدن ـ في الأقسام المتشابهة ـ فنذكر ما هو متعلق بهذه الأقسام فقط.

فقد جاء في الاصحاح الثاني من سفر التكوين العبري ما يلي:

«وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة. ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة... واسم الثاني جيحون وهو المحيط بأرض كوش، واسم النهر الثالث حداقل، وهو الجاري شرقي اشور، والنهر الرابع الفرات».

ان من بين هذه الأنهر التي أشار إليها العهد القديم (سفر التكوين العبري) فيشون فهو فرع نهر قديم اكتشف اثره ويلكوكس كان يبدأ من الرمادي وينحدر إلى كربلا ثم الكوفة ويشكل فيها أهواراً تمتد إلى الشنافية تسمى الأهوار البابلية. وأما أرض الحويلة فكانت تطلق على القسم الشمالي من الجزيرة العربية وتمتد حتى حدود سورية. والثاني نهر جيحون الذي يصدر من الأهوار التي يتركها فيشون شرقي الكوفة وينحدر إلى اور الكلدان وأريدو المقدسة. وكان هذا النهر يسمى أيضاً نهر خابور (1 ـ 1 حزقيال) ويسمى نهر اهوا (31 ـ 8 عزرا) وذلك باعتباره مستقراً للإله (اهوا... ياوه... اهيه... ايا) وسماه الاسكندر الكبير بالاكوباس وهو نهر الكوفة الحالي. وفي الحقيقة كان يمر ضمن الأراضي التي يسكنها الكوشيون الذين حكموا هذه البلاد مدة طويلة وكانت عاصمتهم عكركوف الشهيرة قرب بغداد. وامتدت حكومتهم حتى جنوب الديوانية. والنهر الثالث حداقل ويسمى دقلاتو ودقلة ثم صار دجلة. كان ولم يزل يجري شرقي آشور (الشرقات) وهي مدينة عامرة للآشوريين وينصب بأجمعه في شط الغراف ثم يختلط مع الفرات بجوار اور الكلدية وأريدو. وأما منطقة العمارة فكانت اهوار ماء عذبة تتخللها اليابسة. والنهر الرابع الفرات (افراتو) لم يزل محافظاً على اسمه حتى هذا اليوم، مما يستدل منه بصورة لا تقبل الشك أن جنة عدن المنوه عنها في سفر التكوين العبري كانت تقع في قسم من العراق وفي منخفض من أرضه وفي وسطها يتفرع النهر الأصلي فيصير أربعة أنهر. وأما هذا المنخفض فلا يحتمل ان يكون إلا في القسم الجنوبي من العراق حيث تتلاقى وتتشابك فيه مياه الأنهر الأربعة المذكورة وهي في قسم من اقسام الدلتا السومرية، فأين هذا القسم؟

جاء في اسطورة الخليقة السومرية ـ كما ذكرنا سابقاً ـ أن أول مدينة بنتها الآلهة فوق سطح الأرض هي مدينة اريدو المقدسة الواقعة شمال مدينة اور الكلدان. وهي واقعة على رأس الدلتا في الجانب الجنوبي منها. وقد أسس فيها الإله ايا معبده اي ساكل بيده ليكون مقراً له ولزوجه دامكينا وللآلهة. ثم بنت الآلهة مدينة اريدو بيدها.

4 ـ ولما كانت مدينة اريدو المقدسة مهبط الآلهة ومستقرها فمن الضروري ان تكون الجنة التي غرستها الآلهة ووضعت فيها أول شخص بشري خلقته ليهيىء لها الطعام والشراب قريبة منها، وللاحظته

أيضاً في عبادته لها (وسمعا صوت الرب ماشياً في الجنة ـ التكوين) فكانت جنة عدن والحالة هذه تقع في شمال مدينة اريدو وأور الكلدان وفي منطقة الأهوار والمياه العذبة الواقعة في دلتا دجلة والفرات.

ويرى الأخصائي بالآشوريات الاستاذ سايس أن جنة عدن كانت تقع في سهل بابل بدليل ان كلمة عدن بابلية وتفيد معنى السهل.

أما الدكتور كينغ فيذهب إلى أن جنة عدن تقع قريبة من ساحل البحر مستدلاً على ذلك من القطعة الحجرية الموجودة في المتحف البريطاني والتي ترجع إلى العهد البابلي وكانت تحدد مساحة من الأرض تقع في جنة عدن وعلى قناة عدن نفسها ويحدد أحد جهاتها البحر (بين عدن والأردن).

5 ـ ولما كان العهد القديم ينص على أن النهر كان يخرج من عدن «وهي رأس دلتا الفرات المبتدئة من جنوب بلدة هيت» ثم يتفرع إلى أربعة فروع «فيشون وجيحون وحداقل والفرات» فيقول ويليام ويلكوكس إن جنة عدن الساميين الواردة بالعهد القديم «وهي غير جنة عدن السومريين» تقع في محل أعلى من الدلتا ومن هذه الأنهر الأربعة فيحدد لها المنخفضات الواقعة بين عته وهيت. ويقول إن الاكاديين، وينتمي اليهم بنو إسرائيل أيضاً، سبق ان استوطنوا هذه الأرض عند أول نزوحهم من الجزيرة العربية فعمروها وأنشأوا في أهوارها الحقول والبساتين وهي «جنة عدن الساميين» وهم «الاكاديون والعبرانيون» ولما امتلأ هذا المنخفض بالطمي وبدّل نهر فيشون مجراه والتحق بالفرات هاجر الاكاديون إلى الجنوب فاتصلوا بالسومريين، فكانت بينهم حروب للاستيلاء على الأراضي. وهذا ما عناه العهد القديم بإرسال الإله عليهم الطوفان العام.

وفات ويلكوكس أن النهر الأصلي بالنظر لنصوص العهد القديم يتفرع إلى أربعة رؤوس بعد ان يدخل جنة عدن في وسطها وليس في مبدأها. وهذا ينطبق على دلتا العراق الجنوبي الذي منه تتشابك وتتفرع مياه الأنهر كلها فتكوّن فيها جنائن كثيرة الأعشاب كثيفة الغابات. وكانت هذه الدلتا تمتد من اور إلى موقع القورنة وإلى العمارة. وعلى جانب من هذه الجنائن الكثيرة في الدلتا، وقريباً من اريدو، تقع جنة عدن السومريين أو الجنة التي غرستها الآلهة بيدها. وبهذا كانت جنة عدن واحدة فقط وليس جنتين كما ذهب إليه ويلكوكس.

6 ـ وجاء في العهد القديم «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في انفه نسمة حياة... واخذ الرب آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها». وجاء فيه أيضاً «وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً».

وأما الأساطير الكلدانية والسومرية والآشورية حول خلقة الإنسان، فهي كثيرة ومتنوعة وقد سبق ذكرها. وأهم ما جاء فيها أنه بناء على توصية الإله ايا فإن الربة ننخرساك هي التي جبلت دم الإله المذنب كنكو بتراب الأرض وخلقت منه البشر ليعبدها جزاء ابدياً لكنكو وأسكنته بجوارها في بستان يقع على قنال عدن ليحرسها ويبني لها المعابد ويقيم شعائرها ومناسكها ويستحضر لها الخبز والطعام والخمر والشراب.

ولما شاهدوا أن الإنسان يمتاز بالفهم والعقل ويقدّر الخير من الشر اعتبروه مثل الآلهة. وبما أنه غير خالد فاعتبروه مثل الحيوانات. فنشأ من هذا أن الإنسان وسط بين الإله والحيوان وأنه خلق من دم إلهي ومن تراب الأرض، وقد اخذ الجزء الإلهي من دم الإله الشرير «كنكو» فكان عمل الخير والشر من طبيعة الإنسان.

7 ـ وكان الإله «ايا ـ انكى» بعد ان قتل جده الإله ابسو وضع مسكنه في المحيط «ابسو» وسماه «اي ـ ابسو» بمعنى معبد الميحط فجعل مسكنه على الماء أو في أعماق النهر، ولذلك يسمى ملك العمق. ولأجل تشويق الناس على إعمار الأرض، اعتبر السومريون اعماق المياه العذبة مقراً للإله (ايا) وهو يرمز إلى عنصر الماء الذي ينشر الحياة فوق سطح الأرض. فهو الذي ينشىء الجنان ويلبسها حلة خضراء، وهو الذي يغرس النخيل والأعناب بيده. فقد جاء في اسطورة الخليقة السومرية وقد مرّ ذكرها:

انت ايها النهر خلقت لنا جميع الأشياء.

لما انشأتك الآلهة العظام.

انها البست ضفافك حلة الرخاء.

اختار (ايا) ـ ملك العمق ـ بيته في وسطك.

فكان الذي يمنح الرخاء ويلبس الضفاف الحلل الخضراء والأعمال كافة، هي الآلهة. فكان لغرس البساتين وتنظيم الري وفتح القنوات وزرع النخيل وتكثير الأثمار في الحقول والجنائن صفة قدسية مما ترضي الإله ايا وتستوجب عطفه وقربه. وبهذا كانت جنة عدن من صنع الآلهة وغرسها. فوضعت فيها أول مخلوق بشري وهو المسمى لولو (آدم) لعبادتها وليكون قريباً منها وتحت نظراتها. ولا غرابة في إعطائه زوجة، فإن للآلهة كافة زوجات ولبعض منها عشيقات. وأبيح له ولزوجه الأكل من مختلف أثمار الجنة إلا شجرة معرفة الخير والشر [بالنظر للعهد القديم] أو شجرة الكرمة وما فيها من رحيق منعش. ذلك لأنها خاصة بالآلهة بالنظر للأساطير السومرية. لذلك حرّمت عليهما.

ولما كان في النساء حس التجسس فقد تناولت الزوجة من ثمرة الشجرة الممنوعة أولاً، ثم اعطت منه إلى زوجها فغضبت عليهما الآلهة وطردتهما من الجنة في عدن إلى اليابسة ليعمرا الجنائن ويأكلا من ثمرها.

الفصل الثالث عشر اساطير الأولين

ان معظم الأساطير الدينية هي من صنع خيال السومريين والاكديين والبابليين، وضعت لتفسير الخليقة والتكوين وأحوال الآلهة والإنسان وعلاقة احدهما مع الآخر، وإيضاح حادثات الكون الكبرى والأوضاع الاجتماعية وفكرة الجان والشياطين والروح والنفس. وانتشرت منهم إلى الجزيرة العربية، وانتقلت بالتواتر إلى العالم كله. وهي كثيرة ومتنوعة لا يمكن احصاؤها. منها قصة الطوفان العام وملابساته، ومنها شياطين الشر السبعة، ومنها خطيئة الإله «زو» وخطفه الواح الأقدار من الإله انليل، ومنها إله الطاعون، ومنها قصة الفرس والثور، ومنها عالم الظلمات وعالم ما بعد الموت، ومنها اسطورة الحدائق المعلقة، ومنها فكرة الآلهة المتنوعة وكيف أن الإنسان خلقها ثم عبدها وقد سبق ذكرها، ومنها تبليل الألسنة عند بناء برج بابل، ومنها اسطورة نمرود الجبار وغيرها من أساطير الأدب السومري والآشوري والكلداني. وسنذكر منها في هذا الفصل بعض الأساطير المهمة فقط.

قبل أن يكتشف علماء الآثار الدفائن المطمورة تحت التراب والرمال العائدة إلى السومريين والاكديين والبابليين والآشوريين كانت المعلومات عنهم منحصرة بما رواه بعض المؤرخين امثال هيرودوت اليوناني وتيودور الصقلي وبما ورد عنهم في التوراة من المقتضبات ومن بعض المصنفات فقط.

وكان من تلك المعلومات الزهيدة ما رواه المؤرخ تيودور الصقلي عن اسطورة سميراميس الخيالية التي انتشرت في الأساطير الإغريقية ولم تؤيدها كلياً أو جزئياً حتى الآن الحفريات الجارية منذ مائة سنة في مختلف ربوع العراق.

1 ـ أسطورة سميراميس: كان قد روى تيودور أن سميراميس هي ابنة رجل بشري وأم سماوية إلهية تركتها أمها في الصحراء تخلصاً من عارها فغذتها أسراب الحمام سنة كاملة، ثم تبناها الرعاة حتى إذا ما شبت وكبرت وترعرعت تزوجها ضابط من الجيش الآشوري. وبينما كان الجيش يحاصر القلاع، وقد عجز عن فتحها، تسلقت ذات يوم سميراميس جدار القلعة لما لها من قوة سماوية وقتلت الحراس وفتحت أبواب القلعة فدخلتها الجيوش وانتهى الأمر. فأعجب الملك نينوس بمهارتها وبطولتها ومغامرتها وبحسنها وجمالها وافتتن بها فطلب من ضابطه زوجها أن يتنازل له عنها فانتحر الضابط وصارت سميراميس ملكة البلاد المتوجة. وبعد وفاة زوجها الثاني، ملك نينوى تقلدت مقاليد الحكم وأصبحت ملكة آشور فاشتغلت بالحروب وامتدت حدود مملكتها من البحر إلى البحر. فشيدت مدينة بابل وسوّرتها بسور منيع تجري فوقه ست مركبات جنباً إلى جنب، وأنشأت على الفرات قناطر، وبجوانبه الأرصفة. وبنت القصور ونصبت الهياكل في وسط بابل للإله بيل ـ بعل، وهو والد زوجها المتوفى. وأحجمت عن الزواج الشرعي فكانت تختار لنفسها اجمل رجال حاشيتها حتى إذا قضت منهم وطرها أعدمتهم. وأخيراً أمرت أن تقام مسلة يكتب فيها: «ان الطبيعة خلقتني امرأة ولكن أعمالي أعظم من أعمال الرجال».

واختفت فجأة من عالم الوجود، ولا يعلم احد مصيرها. ويعتقد انها ارتفعت إلى السماء عند قريبتها عشتار ودخلت في مصاف الآلهة... وجميعها من الأساطير الخرافية التي لم تؤيدها الحفريات والتنقيبات لا بقليل ولا بكثير.

2 ـ **اسطورة ايتانا**: ان بطل هذه الاسطورة هو الملك الثالث عشر من سلالة ملوك كيش الأولى المؤسسة بعد الطوفان العام مباشرة. وهي من اقدم الأساطير السومرية. تصف هذه الاسطورة ان ايتانا عزم ان يصل إلى السماء، إلى مقر الآلهة ليبحث عن نبات سحري يعين زوجته في وضعها. فربط أربعة نسور مع بعضها وعلّق فوق رؤوسها قطعات من اللحم ووضع على ظهورها لوحاً من الخشب وجلس عليه. فطارت النسور. ولما وصلت إلى أبواب السماء أومأت إليه ان يعيد نظره إلى الأرض فرآها صغيرة تافهة. فسقط إلى الأرض ولم يحقق شيئاً من اغراضه. وينسب العرب هذه الأسطورة إلى نمرود البطل الجبار وأنه أراد الصعود إلى السماء ليحارب الآلهة. ولما عجز عن الوصول إليها غرس سهمه في ظهر احد النسور وعاد إلى الأرض وسهمه يقطر دماً.

3 ـ **اسطورة اينانا عشتار**: قرأها وحل رموزها المؤلفة من أربعة عشر رقيماً وكسرة سومرية، وألقاها كمحاضرة في بغداد البروفسور كرامر. ترجمها ونشرها الاستاذ البحاثة بشير فرنسيس في مجلة سومر العراقية مجلد3 جزء2 وتسمى «هبوط اينانا إلى العالم السفلي»، أو نزول الآلهة العظيمة «اشتار» إلى الجحيم لنزع ابنها «تموز» من مرقد الأموات في عالم الظلمات الذي تحكمه آلهة الأرض السفلى. وهي محررة فوق ألواح الطين بالخط المسماري السومري بأسلوب أدبي ديني مؤثر رائع نقتبس فحواها وبضعة اسطر منها كنموذج للشعر القصصي السومري.

ان بطلة هذه الأسطورة التي يجمل ان تسمى بـ «هبوط اينانا إلى العالم السفلي» هي الإلهة السومرية اشتار التي تقابل عشتار البابلية وافروديت الإغريقية وفنوس الرومانية. ان اينانا هذه هي ملكة السماء وإلهة النور والحب والحياة ـ عشتروت ـ كانت قد اشتاقت إلى زيارة العالم السفلي لتخليص ولدها تموز الذي فقدته، من عالم الظلمات وانتزاعه من مرقد الأموات. فجمعت معها كل القوانين السماوية وتحلت بكسبوتها وجواهرها الملكية وأعدت كل ذلك لدخول الأرض السفلى التي لا رجعة منها. ان ملكة العالم السفلي التي تحكم عالم الأموات هي اخت اينانا الكبرى ومن ألد اعدائها ويسميها السومريون ارش كيكال والبابليون ايركلا، وهي إلهة الظلمة والموت. ولخوف اينانا من ان تقتلها اختها أوصت رسولها الإله نينشوبور وزير الإله الأعظم الذي هو رهن اشارتها على الدوام، بأنه إذا خابت في العودة بعد ثلاثة أيام عليه ان يذهب إلى السماء فيصرخ ويبكي في مجلس الآلهة. فإذا امتنعوا فليذهب إلى مدينة نفر ويبكي هناك ويتضرع امام الإله انليل ـ إله الجو والهواء، سيد الآلهة السومرية لانقاذ اينانا من قبضة اختها. فإذا أبى انليل فليذهب إلى اور (اور الكلدان التي خرج منها النبي إبراهيم مهاجراً) وعليه ان يعيد هناك تضرعاته امام إله القمر ننار ـ سن السومري العظيم. وإن رفض ننار أيضاً فعليه أن يذهب إلى مدينة اريدو، المدينة المقدسة وأن يبكي ويتضرع امام الإله انكى وهو الإله ايا العظيم (وهو أبو مردوخ إله بابل المعظم وهو جد جلجامش الذي ستأتي اسطورته في ما بعد). فإن الإله انكى هو الذي يعرف غذاء الحياة ويعرف ماء الحياة وسيعمل على اعادة اينانا ـ عشتروت إلى الحياة.

وبعد أن اخذت اينانا للأمر كل ما ذكر من حيطة واحتراس هبطت إلى العالم السفلي ووصلت إلى معبد اختها ارش كيكال اللازوردي فقابلها عند الباب كبير الحجاب وسألها من تكون؟ ولماذا جاءت؟ فلفقت اينانا عذراً وهمياً لزيارتها ثم قادها الحاجب بأمر سيدته ارش كيكال واجتاز بها أبواب العالم السفلي الأرض السبعة. وكلما اجتاز باباً من الأبواب خلع عنها بعض كسائها وجواهرها، على الرغم من احتجاجها. ففي أول باب نزع عنها التاج الذي يزين رأسها. وعند الباب الثاني نزع عنها اقراطها. وعند الثالث عقدها، وعند الرابع طيلسانها، وعند الخامس حزامها المرصع بالحجارة الكريمة، وعند السادس اساورها وخلاخيلها. وعند الباب السابع يخلع اقرب ثوب إلى جسمها فتصيح «لماذا تنزع ثوب عفافي أيها الحارس» فيقول «أيتها الإلهة هذه شريعة آلهة الأرض». ودخلت الباب الأخير عارية الجسم راكعة امام اختها ارش كيكال ومن حولها انوناكي السبعة[1]، وهم قضاة العالم السفلي المرعبون. فصوب هؤلاء إلى اينايا «نظرة الموت». وما عتمت ان اصبحت اينانا جثة هامدة معلقة في عمود. ولما كانت إلهة الحب، فقد عمّ الحزن وشمل وجه الأرض وابتعد الثور عن البقرة والحمار عن الاتان ورغبت الزوجة عن الزوج تقاومه وهي بين ذراعيه.

وهكذا مرت ثلاثة ايام وثلاث ليال. ولما وجد نينشوبور في اليوم الرابع أن سيدته لم ترجع قام بتنفيذ أوامرها بالتوجه أولاً نحو الآلهة في السماء وثم الآلهة الأرضية. وكما تنبأت اينانا فإن كل من آلهة السماء وانليل إله مدينة اور لم يوافقوا على تقديم أيّ معونة لها. على ان ايا ـ انكى الحكيم إله مدينة اريدو المقدسة دبر تدبيراً حكيماً لإعادتها إلى الحياة. لقد احضر كوركرو و كلاترو وأودع إليهما «غذاء الحياة» و«ماء الحياة» وامرهما بالذهاب إلى العالم السفلي ونشر هذا الطعام ورش هذا الماء على جثة اينانا الهامدة ستين مرة. ففعلا ذلك وعادت اينانا إلى الحياة وتركت العالم السفلي وصعدت إلى الأرض ثانية مصحوبة بأطياف الموتى وأشباح المخلوقات الخرافية وهي طيور برؤوس نسائية كان موطنها هناك. وقد هامت اينانا وهي محاطة بهذا الجمع من الأشباح من مدينة إلى مدينة في بلاد سومر... وهنا تنقطع الأسطورة وتنخرم ولا يعلم كيف كانت خاتمتها. وقد يعثر المنقبون على بقية القصيدة في الحفريات الجارية في مدينة اريدو.

هذا فحوى القصيدة. أما القصيدة نفسها فهي محررة بمجلة سومر كاملة نقتبس منها بضعة اسطر فقط كنموذج للشعر القصصي السومري الأسطوري:

من السماء العليا قصدت إلى الأرض السفلى.
الالهة. من السماء العليا قصدت إلى الأرض السفلى.
اينانا. من السماء العليا قصدت إلى الأرض السفلى.
سيدتي. هجرت الأرض إلى العالم السفلي هبطت.
اينانا. هجرت السماء هجرت الأرض إلى العالم السفلي هبطت.
نبذت الربوبية. نبذت السيادة. إلى العالم السفلي هبطت.
القوانين السماوية السبعة في الجنوب ربطتها وفي يدها وضعتها.

(1) مجموعة إلهية بمثابة الملائكة خصهم قدامى العراقيين بالأرض السفلى وسيدهم الإله انليل.

التاج [شو كورا] على رأسها وضعته
والضياء نورت به محياها
ومقياساً من اللازورد مسكت بيدها
أحجاراً صغيرة من اللازورد عقدت حول عنقها
وأحجار «اريمتو» المتلألئة علقت على صدرها
وخاتماً من ذهب لبست في يدها
ودرعاً ربطت حول صدرها
وكل حلل السيادة جللت بها بدنها
وبالصبغ زينت وجهها
اينانا مشت إلى العالم السفلي... إلى آخر القصيدة.

4 ـ **اسطورة اينانا وشوكاليتودا:** نشر الاستاذ طه باقر أمين المتحف العراقي في مجلة سومر هذه ـ الأسطورة مترجمة عن مقال نشره الاستاذ كرامر جاء في نهايتها ما خلاصته بتصرف:

ان الإلهة السومرية اينانا بعد أن ساحت في السماء والأرض وفي القطرين المجاورين لسومر وهما عيلام وشوبور تعبت فاضطجعت بجسمها المتعب في موضع قريب من بستان الفلاح شوكاليتودا، فانتهز هذا البستاني فرصة رقادها وانتهك حرمتها. ولما احست اينانا في الصباح غضبت غضباً شديداً فقدمت على افناء ذلك البشر الذي اجترأ واعتدى على عفافها. فسلّطت على البلاد أنواعاً من البلاء منها بلاء الدم فامتلأت ينابيع البلاد وآبارها بالدماء وغمرت بالدماء احراش النخيل والأشجار. وصار الخادم إذا جاء بالأكل لا يجيء بغير الدم. وصارت الأمة إذا جاءت لتسقي الماء لا تجد غير الدم. ولم يستطع أحد أن يشرب غير الدم... ومع هذا فلم تعثر اينانا على الفاعل فعزمت الذهاب إلى مدينة اريدو إلى بيت الإله انكى إله الحكمة السومري لتسأله النصح والعون. وهنا تنحزم الطينة ولا يعلم كيف تنتهي الأسطورة[1].

5 ـ **اسطورة الأمير الآشوري «كمايا»:** وجدت هذه الأسطورة في مدينة آشور، يرجع زمنها إلى منتصف القرن السابع ق. م. كان قد رغب كمايا في أن يرى العالم السفلي، فقدم القرابين إلى الالهة «اريشكيكال» وزوجها «نرجال» ليطلعاه على عالم الأموات، فاستجابا تضرعاته. ورأى في الحلم أنه نزل إلى دار الظلمات وشاهد نمتار، وزير الإله نرجال وخمسة عشر إلهاً آخرين تقشعر منهم الأبدان، وقد جلس نرجال على عرشه الملكي يخرج من عينيه الشرر ومن ذراعيه البرق ومن حوله الانوناكي الآلهة العظام مطأطئي الرؤوس، فصرخ صرخة عظيمة وجذبه من شعر ناصيته يريد قتله لجسارته في مجيئه إلى هذا المكان. فتشفع له ايشعام وزيره ومستشاره في إبقائه على الحياة لينقل إلى أهل الأرض ما رآه وشاهده في عالم الموتى.... وتنتهي الأسطورة بتمجيد آشور الإله العظيم.

---

(1) من الغريب إذ يصادف أن من بين البلايا التي سلطها الله على قوم فرعون، وبالنظر لما ورد في التوراة التي املاها عذراً الكاهن الهاروني على الشعب في اورشليم بعد عودته من اسر بابل، كان من بينها الجراد والقحل والضفادع وتحويل ماء النيل إلى دم!

6 ـ **اسطورة سرجون الاكدي:** هو الذي سخّر لحكمه العراق الشمالي والجنوبي. وكان في بادىء أمره ساقياً للملك اور ـ البابا حاكم كيش. فأعلن نفسه ملكاً واتخذ مدينة اكاده عاصمة له. يقول سرجون عن نفسه: «لقد كانت أمي وضيعة. ولا اعرف لي أباً. وكان خالي ساكناً في الجبل. وكانت مدينتي ازوبراني على شاطىء الفرات. لقد حملتني أمي الوضيعة وولدتني سراً فوضعتني في صندوق من البردى وأحكمت بابه بالقير وألقت بي في النهر الذي لم يغرقني. فحملني الماء إلى أكي الفلاح.. فرآني اكي الفلاح لأكون ابنه. وأخذ يعلمني البستنة. وفي عملي في البستنة احبتني عشتار فصار الملك ملكي طيلة أربع وخمسين سنة[1].

7 ـ **اسطورة البطل جلجامش:** هو حفيد اوتونبشتيم، نوح الطوفان الذي وصل إلى درجة الخلود بعد خروجه من سفينته. وأراد هو أيضاً الوصول إلى الخلود عند جده ليتخلص من الموت ومن الذهاب تحت طبقات الأرض. وأخيراً باء بالفشل كما سيأتي بيانه.

ظهر من ثبت الملوك السومري، وهو الذي يذكر اخبار الملوك الذين حكموا في العراق الجنوبي قبل الطوفان وبعده، أن «اكا» الوارد ذكره في اسطورة جلجامش كان آخر ملك من ملوك مدينة كيش، وهي أول سلالة حكمت في العراق الجنوبي بعد الطوفان العام وفي دور عصر فجر السلالات (3000 ـ 3400 ق. م.). ثم انتقلت الملوكية حرباً من كيش إلى مدينة الوركاء ارك فتأسست فيها السلالة الملوكية الثانية التي ظهر منها البطل الأسطوري جلجامش. وفي بعض الأساطير أن نزاعاً حدث بين اكا وجلجامش فانتقلت على اثره الملوكية من كيش إلى الوركاء. وفي أساطير أخرى ان جلجامش كان خامس ملك من ملوك الوركاء. وظهر اسمه في ثبت الملوك السومري بين اسماء ملوك سلالة ارك ـ الوركاء التي حكمت بعد الطوفان العام. وهو صاحب اعظم اسطورة في الأدب البابلي. وهو الذي بنى المعبد المشهور اي ـ انا الذي كشف الالمان عن خرائبه حديثاً. وبنى أيضاً مصلى الالهة ننليل في معبد الإله انليل بنفر. ويعتبر إلهاً من آلهة العالم السفلي وقاضياً في عالم الأرواح.

وجاء عن ولادته عدة اساطير منها أنه لما كان سيدخوروس يحكم على البابليين، تنبأ الكهنة الكلدانيون ان الابن الذي سيولد لابنته سيغتصب الملك من جده. فشدد عليها الحراسة. ولكن البنت حملت بدون علمه وولدت طفلاً فرماه حراسها خوفاً من الملك من برج القلعة التي سجنت فيها. ولكن نسراً (عقاباً) رأى الطفل يسقط. وقبل ان يصطدم بالأرض صار تحته وحمله على ظهره ونقله إلى البستان وألقاه هناك بلطف. وما ان شاهده البستاني ورأى جماله أحبه ورباه ودعا اسمه جلجامش ومعناه بالسومرية رجل يؤسس أسرة جديدة. ولما كبر حكم على البابليين (سومر).

وفي أسطورة أخرى ان جلجامش ابن إلهة تسمى ننسون حملت به من أب بشري يسمى لوكال بندا، كان كاهن كلاب الأعلى. والكلاب موضع في الوركاء. ولذلك كان جلجامش ثلثاه إله وثلثه إنسان. ثم اعتبره الكلدانيون إلهاً من آلهة العالم السفلي.

وأما انكيدو الوارد اسمه في الأسطورة، فكان في أول أمره انساناً وحشياً يعيش في الغابات

(1) افلا نجد بين هذه الأسطورة وإلقاء موسى باليم من مشابهة غريبة؟

يأكل الأعشاب ويشرب مع سائر الحيوانات. ولما بلغ أمره إلى جلجامش ارسل احد بغايا المعبد إلى الغابة لاصطياده. فأغرته البغية بوصالها وسحرته بغمزها ولمزها فوقع أسيراً بفخها وعاش معها سبعة أيام من دون ان تصله عين الرقيب. فسهل عليها بعد ذلك اقناعه في الابتعاد عن الغابة وعن الضواري والذهاب إلى مدينة ارك لينعم بها في ظلال الدور... وأراد جلجامش استرداد البغي منه فحصل نزاع وشجار بينهما فتصارعا كالثيران ثم تفاهما وتصالحا وصارا صديقين حميمين.

وعند عودة جلجامش إلى مدينة ارك من غزوته في دار الحياة القصية شاهدته الإلهة عشتار وهو يستحم فعشقته. إلا أنه رفض توسلاتها وبكاءها ونحيبها وتضرعاتها. فسرعان ما انقلب حبها إلى غضب فصعدت إلى السماء إلى حضرة أبيها الإله آنو، أبو الآلهة تشتكي على جلجامش لإهانته إياها. ولما رفض آنو معاونتها هددته بأنها ستحطم باب العالم السفلي وتتركه مفتوحاً وتقيم الموتى وتطلعهم فينافسون الأحياء. فرضخ آنو لطلبها وخلق ثور السماء وأرسله ليفتك بجلجامش. إلا ان جلجامش قضى بمعاونة زميله انكيدو على الثور وخرج من المعركة سالماً. فتملكه الغرور والزهو وصار يسأل عذارى أرك: «من الأمجد بين الأبطال ومن الأشهر بين الرجال؟»، فتجيبنّه: «جلجامش»!

ولما توفي انكيدو بعد حادثة الثور رثاه جلجامش بقصيدة مؤثرة وعزم على القيام بمغامرة أخرى فيزور جده اوتونبشتيم للوقوف على سر الحياة الخالدة. ولما اخفق في مغامرته هذه أيضاً، كما سيأتي بيانه، عاد إلى ارك وعمل بنصيحة سدورى، صاحبة الحانة وبائعة الخمر: «ولما خلقت الآلهة البشر قدرت عليه الموت واستأثرت بالحياة. اجعل يا جلجامش بطنك ممتلئة. وكن مسروراً. وارقص والعب. ودلل طفلك. واجعل الزوجة سعيدة بين أحضانك...». فكفّ عن مغامراته وعن البحث عن سر الخلود وعاش سعيداً بين احضان زوجته حتى آخر عمره.

والأسطورة مكتوبة باللغة الاكدية السامية. ترجع في عناصرها إلى منابع سومرية ألقاها كرومر كمحاضرة في بغداد، ترجمها إلى العربية ونشرها في مجلة سومر العراقية الاستاذ البحاثة بشير فرنسيس نقتبس منها فحوى الاسطورة المنطوية عليها القصيدة ومبدأها فقط.

ان الأمير جلجامش[1] لما ادرك أنه كغيره من الفانين الهالكين معرّض للموت عاجلاً أو آجلاً صمم على ان يقيم لنفسه صيتاً باقياً قبل أن يوافيه اجله المحتوم. فقرر أن يرحل إلى دار الحياة القصيّة، إلى دار الخلود والمعروفة لدينا باسم «أرض الأرز». يطلب من وراء هذه السفرة قلع أرزها ونقله إلى مدينته ارك إذا استطاع ذلك. وأخبر تابعه وصاحبه الوفي انكيدو بعزمه هذا، فنصحه صديقه بأن يطلع إله الشمس اوتو ـ شمش على خطته أولاً لأن اوتو هو الموكل بأمر الأرز.

جاء جلجامش بالهدايا والهبات إلى اوتو متوسلاً إليه بإسداء معونته لتحقيق هذه السفرة إلى دار الحياة. أما اوتو فقد خالجه الريب في مقدرة جلجامش، ولكن جلجامش لم يهن. بل أعاد تضرعاته بكلمات اشد اغراء فأشفق اوتو عليه وقرر مساعدته، فشلّ حركة الشياطين الشريرة السبعة التي تمثل الظواهر الجوية المهلكة والتي قد تهدد سلامة جلجامش في سفرته عبر الجبال السبعة

(1) يوجد تمثال جلجامش في المتحف العراقي وهو البطل السومري الاسطوري صاحب الملحمة المشهورة التي ورد فيها ذكر الطوفان وورد ذكره كأحد الملوك القدامى في الوركاء. وقد عده السومريون ثلثيه إله وثلثه الباقي إنسان.

الراسية بين أرك ودار الحياة. وتهلل جلجامش فرحاً وجمع خمسين متطوعاً من أرك الذين هم على اتم استعداد لمرافقته. وبعد أن احضر جلجامش سلاحاً من البرنز والخشب عبروا جميعاً بمعونة اوتو الجبال السبعة الراسية. وأقسم جلجامش بأمه الإلهة نينسون وبأبيه البطل لوكال بندا بأنه لا راد يرده عن دخول دار الخلود والحياة الدائمة، ولن يبالي بأي عائق من حراسها بشراً كان أم إلهاً. فتوسل انكيدو إليه أن يعود لأن الإله انليل هو الذي عيّن البطل حواوا ـ خمبابا ليحرس غابة الأرز، حواوا خمبابا الغول الذي ليس بوسع أحد قط صد هجومه المهلك. ولكن جلجامش لم يأبه بأي تحذير وكان على يقين من أنه بمساعدة انكيدو لن يصاب بأذى. وكان حواوا يتجسس من بيته المصنوع من الأرز، فحاول ان يطرد جلجامش وعصبته المغامرة بكل ما وسعه من حول، غير ان مسعاه باء بالفشل ـ ويلي ذلك ضياع بعض السطور من الأسطورة ـ وبعد أن اقتطع جلجامش بسيفه سبع اشجار دخل مقصورة حواوا خمبابا الداخلية. ومن الغريب حقاً أن يستسلم حواوا مذعوراً امام هجوم يقوم به جلجامش ويتضرع إليه راجياً الرحمة والحماية. وكان جلجامش يود أن يعامله معاملة المنتصر الكريم فيومىء إلى انكيدو لاطلاق سراحه، غير ان انكيدو اعترض على هذا العمل الطائش خوف العاقبة. فأنّبه حواوا تأنيباً مراً على قسوته فأسراه وقدماه إلى انليل وزوجته ننليل[1]، ورجعا إلى ارك.

وبعد أن دفن جلجامش صديقه انكيدو بعد حادثة الثور كما مر، عزم على القيام بمغامرة أخرى والسفر إلى جده اوتونبشتيم ليسأله كيف حصل على الخلود. وبعد سفر طويل مملوء بالاخطار وصل إلى جبال ماشو، ولعلها لبنان، ومنها إلى البحر وحل ضيفاً عند سدورى صاحبة الحانة المقدسة وقص عليها ما آل إليه صاحبه انكيدو وجزعه عليه وقال لها: «يا صاحبة الحانة، أيكون بوسعي أن لا أرى الموت الذي اخشاه؟»، فنصحته بالعدول عن مبتغاه وقالت له كلمتها: «ان البشر يموتون».

إلا أنه أصرّ على طلبه وركب بحر الموت ووصل إلى ساحل مقر اوتونبشتيم وسأله عن سر الخلود. فقصّ عليه اوتونبشتيم قصة الطوفان (الفصل اللاحق)، وأن الآلهة، وعلى رأسهم انليل هم الذين صيروه إلهاً مثلهم. وطلب منه ان يتغلب على النوم ستة أيام وسبع ليال حتى إذا تغلب على الموت الأصغر تغلب على الموت الأكبر. فغلب على جلجامش النوم وضاع آخر أمل له في الحياة الخالدة فعاد إلى أرك وعمل بنصيحة صاحبة الحانة بائعة الخمر المقدسة وعاش سعيداً بين احضان زوجته كما مر ذكره.

وهذا نموذج من القصة كما هو في الأصل:

ان الأمير عزم على الذهاب إلى دار الحياة.

وقال لتابعه انكيدو. يا انكيدو، إن أجلي المحتوم لم يحتم بعد.

اريد أن ادخل الأرض. اريد الإشادة باسمي.

في الأماكن التي رفعت فيها أسماء الآلهة.

اريد أن ارفع اسمي. وفي الأماكن التي لم ترفع فيها أسماء الآلهة.

(1) من الغريب أن أهل الموصل لم يزالوا يطلقون اسم حواوا على كل رجل مخنث يتزيا بزي النساء. ولهم أغانٍ شعبية فيه، منها: «حواوا شقوا دفه... كل البنات بصفه...»، إلى آخر الأغنية.

اريد ان ارفع اسماء الآلهة.

فأجابه انكيدو: يا سيدي ان أردت دخول الأرض فأخبر اوتو.

أخبر اوتو. البطل اوتو. إن أرض الأرز يحميها البطل اوتو.

القى جلجامش يديه على جدي أبيض ناصع. ثم قال لاوتو.

يا اوتو إله السماء أريد دخول الأرض. فكن حليفي.

اجابه اوتو السماء. ماذا؟ اذاهب أنت إلى الأرض... الخ

8 ـ **اسطورة ايميش واينتين**[1]: وهي تشبه قصة قايين وهابيل الواردة في التوراة وتنتهي بالصلح دون القتل كما في التوراة. خلاصتها:

لما أراد إله الهواء انليل ان تنمو الأشجار والحبوب، وأن تحل في البلاد الوفرة والرخاء، خلق لهذه الغاية مخلوقين اخوين هما ايميش واينتين ليعنيا بشؤون الزرع والفلح والحيوان. فظهر نزاع بين الاثنين أفضى بهما إلى التحكيم. ولكن انليل اختار اينتين وجعله فلاح الآلهة كما يبدو من الأسطورة الآتية:

1 ـ جعل اينتين النعجة تلد الحمل والمعزى تلد الجدي.

2 ـ وجعل البقر يتكاثر، وأكثر من نتاج السمن واللبن.

3 ـ ولقد... في السهول ابهج قلب التيس والغنم والحمار.

4 ـ وجعل أطيار السماء تبني أعشاشها في الأرض الفسيحة.

5 ـ وجعل اسماك البحر يلقي بيضه في المستنقعات والأهوار.

6 ـ وجعل من نتاج النخيل والاعناب الدبس والخمر.

7 ـ وأكثر من ثمار الأشجار حيثما نبتت... والكلأ.

8 ـ وجعل الحقول تكثر من غلاتها.

9 ـ ومثل الإلهة انشان[2] البنت الرحيمة أظهر القوة.

10 ـ وجعل حظائر الماشية والأغنام كثيرة.

11 ـ وأكثر من نتاج المزارع وجعل الكلأ يغطي الأرض.

12 ـ وملأ البيوت بغلات الحصد.

فظهر خصام بين الأخوين، وكثر الجدل والنزاع بينهما حول عملهما في الزرع والحيوان. وأراد اينتين ان يتخصص بالزرع والفلح ويصير فلاح الآلهة فنقم عليه أخوه ايميش وحسده من الحظوة في أعين الآلهة. ولكن الأخوين بدل أن يقتتلا كما فعل قايين وهابيل ذهبا إلى نفر، مقر الإله انليل المقدس واحتكما عنده وبدأ اينتين يعرض ظلامته:

1 ـ يا أيها الأب انليل انت الذي وهبتني المعرفة فأكثرت من مياه الخير.

(1) تجد مراجع هذه الأساطير ونصوصها في مجلة سومر مترجمة عن كرامر.

(2) إلهة الحبوب.

2 ـ وجعلت مزرعة لصق مزرعة وملئت الأهراء.

3 ـ ومثل انشان. الإلهة الرحيمة أظهرت الحول والرفاه.

4 ـ والآن فان ايميش الطاغي الذي لا يعرف سر الحقول.

5 ـ ينازعني سلطتي وقدرتي.

ثم بدأ ايميش أيضاً يعرض ظلامته على انليل. فيصدر انليل حكمه بجانب اينتين ويلقبه بفلاح الآلهة وهذا قضاء الإله:

1 ـ اجاب انليل ايميش واينتين وقال.

2 ـ ان اينتين هو الذي يعرف سر الماء الذي يحيي الأرضين وبصفته فلاح الآلهة.

3 ـ لقد نتج كل شيء.

4 ـ فيا بني ايميش أنّى لك أن تقرن نفسك باينتين اخيك.

5 ـ فكانت كلمة انليل المجدة ذات المغزى العميق.

6 ـ وقبل القضاء لا يبدل فمن ذا الذي يغيره.

7 ـ فركع ايميش ازاء اينتين.

8 ـ وحله إلى بيته خمرة العنب والتمر.

9 ـ وأهدى ايميش اينتين الذهب والفضة واللازورد.

10 ـ فسكبا معا ماء القربان المقدس بأخوة وصداقة...

11 ـ فسبحانك يا أيها الأب انليل...

وهكذا تنتهي الأسطورة بالصلح والسلام بين الاخوين.

9 ـ **اسطورة انشان ولهار**: هناك اسطورة سومرية تشبه أيضاً قصة قابين وهابيل تسمى اسطورة الإلهان انشان [آلهة الزرع والحبوب] ولهار [إله الحيوان] جاء فيها:

لأن اسم انشان لم يكن موجوداً. ولم يخلق بعد. ولأن اتو [إلهة الأشجار] لم تخلق بعد. لم يكن هناك شاة ولا حمل. ولم تكن معزى ولا جدي. ولم توجد الحبوب الناعمة ولا حبوب الجبل. وقمح الأربعين يوماً ما كانت موجودة. ولم ترتفع تيجان النبات. ولأن «سموقان» إله السهل لم يجىء إلى الوجود بعد. ولم تعرف الآلهة أكل الخبز. ولم يعرفوا لبس الكساء. في تلك الأيام. في حجرة خلق الآلهة. في بيتهم دول كوك خلق لهار وأخته انشان. في حجرة الخلق الخاصة بالآلهة خلق لهار وانشان. لكي يعملا للآلهة المأكل والملبس.

ويلي ذلك نزول الإلهين إلى الأرض وما اسبغاه من نعم الزرع والفلح على البشر:

في تلك الأيام قال «انكى» لـ «انليل»: يا أيها الأب انليل، إن لهار وانشان اللذين خلقتهما في الـ «دول كوك» [غرفة الآلهة لعملية الخلق] لننزلهما من دول كوك. وبكلمة انكى وانليل المقدسة نزل لهار وانشان إلى الأرض [وهي شبيهة بنزول آدم وحواء إلى الأرض]. وخصص انليل وانكى الماشية إلى لهار. وعينا له الخُضر والعشب. وبنيا لانشان بيتاً. وقدما لها النير والمحراث. فاختص لهار بالماشية ورعاها، وانشان عنيت بالحقول والزرع. عذراء رحيمة وكريمة هي. جلبا الوفرة والخير إلى المجلس

(مجلس الآلهة). وفي الأرض احّلا نسمة الحياة. ونفذا مشيئة الإله. وفي بيت الفقير المترب. احلا الخير والنعيم لقد طيبا قلب آن وانليل...

وبينما كان الصفاء سائداً بين الأخ الراعي والأخت الفلاحة يظهر العداء المستحكم بين الراعي والفلاح أو بين أهل المدر والوبر، وهي تشبه فكرة هابيل وقايين وحدث ذلك عندما شربا الخمرة. بدآ في الخصام والشجار في المزارع والحقول. فاضطر الإلهان انليل وأنكى إلى أن يتدخلا بين الأخت والأخ... وهنا تنقطع الأسطورة ولا يعلم نتيجة التدخل... إلا أنه يظهر من مقدمة الأسطورة انها تصف العلة التي من اجلها خلق البشر ليقوم بهذه الأعمال في قولها:

ولأجل العناية بالطيبات في حظائرهم.

نفخ الروح في الإنسان.

10 ـ اسطورة انانا: ويظهر أن النزاع كان مستديماً بين الفلاح والراعي، وقد وضعت لهما أساطير كثيرة للتخفيف من حدته وشدته. وهذه اسطورة ثالثة تشبه قصة هابيل وقايين تسمى «انانا تفضل الفلاح»[1]. يظهر فيها ابطال القصة أربعة: انانا الإلهة وأخوها اتو الإله الشمس ودموزي الإله الراعي وانكيمدو الإله الفلاح. نقتبس منها خلاصتها وبضعة اسطر منها فقط.

خلاصة القصة ان انانا ملكة السماء وابنة سين الإله القمر عشتار ـ البابلية عزمت على اختيار زوج لها، وكان أخوها أوتو الإله الشمس يحثها على التزوج من دوموزي الإله الراعي ولكنها كانت تفضل انكيمدو الإله الفلاح. يأتي إليها دوموزي. فيأتي إليها ليعرف السبب الذي يدفعها إلى تفضيل الفلاح عليه، وهو أي دوموزي الراعي الذي يمتلك من الأشياء ما لدى الفلاح وأكثر منها، غير أن انانا لا تحر بجواب. أما انكيمدو الفلاح والذي يظهر أنه من المسالمين والمحترسين فإنه يسعى لترضية منافسه دوموزي. بيد أن الأخير يأبى الانثناء عن عزمه إلى أن يعده الفلاح بتقديم انواع من الهدايا وحتى تقديم انانا نفسها. وهذه المسألة الأخيرة من القصة غير واضحة المعنى.

تبدأ الأسطورة بخطاب أوتو الإله الشمس إلى أخته انانا:

يا اختي! الراعي المكتنز أشياء كثيرة.
لماذا لا تحسنين إليه، يا أيتها العذراء انانا؟
إن سمنه جيد، وخمرته من التمر طيبة:
يا انانا ان دوموزي المكتنز أشياء كثيرة.
لماذا لا تحسنين إليه؟

بيد ان انانا ترفض لقولها:

انني لن اتزوج الراعي المكتنز أشياء كثيرة.
انا العذراء، سأتزوج من الفلاح.
الفلاح الذي يكثر من انتاج الزرع.

---

(1) ترجمة مجلة سومر والأصل عن كرامر في «سومرين ميثولوجيا».

الفلاح الذي يكثر من انتاج الحبوب.
ثم يأتي دوموزي الإله الراعي إلى انانا ويقول لها:
أي شيء لدى الفلاح أكثر مني؟
....

ويظهر ان دوموزي الإله الراعي قد تغلب على انكيمدو الإله الفلاح. وتنتهي الاسطورة وكلها ترمز إلى أهمية الفلاحة في انتاج الحبوب والفلاح الذي يكثر من انتاج الزرع ليكون غذاء للإنسان والحيوان.

11 ـ **اسطورة المجاعة:** وجدت كسرتان في حفريات بابل وكسرتان أخريان تكملة للأولى في بقايا مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال في نينوى تتضمنان النص الآشوري لملحمة اتراخاسس وهو نوح الطوفان عند البابليين تختلف عن نصوص الطوفان السومري ويرجع تاريخها إلى دور السلالة البابلية الأولى في عهد الملك «أمي صادوقا» نشرتها مجلة سومر العراقية بعددها ج6 ج2 ترجمة عن آ. هايدل جاء فيها ما ملخصه: انه لما استمر الناس على شرهم ارسل الإله انليل بعل كبير الآلهة المجاعة والأوبئة والأمراض لعقابهم. إلا أن هذا الإنذار لم يردعهم واستمروا أيضاً على ضجيجهم وشرهم فأرسل عليهم الطوفان لمحوهم جميعاً. إلا أن الإله ايا، محب البشر أخبر اتراخاسس، نوح الطوفان، بما سيكون، وأمره ان يصنع له فلكاً وينجو وأهله به من الغرق.

فجاء في القسم الأول من الأسطورة.

صارت الأرض واسعة وكثر فيها الناس، وامتلأت الأرض، فانزعج الإله انليل إله الهواء من جمعهم وسمع الإله ضجيجهم، وقال للآلهة العظام، أصبح النوم مستحيلاً فلتقطع شجرة التين عن الناس، ولتكن بطونهم خالية من الخضر، وليقلل أدد ـ إله الزوابع والمطر مطره، ولتغض مياه العيون، ولتنقطع الينابيع، ولتهب الريح، ولتمسك الغيوم لئلا تنزل الأمطار، وليقل نتاج الحقل، ولينقطع الحقل عن انتاجه، وليتحول ضرع نصابا ـ آلهة الأغذية عن الأدوار، فلا ينبت نبت، ولا يخرج قمح، وليتفشى المرض في الناس، ولا يلد ولدا.

ومرت السنة الثانية والثالثة والرابعة في عسر وضيق، والناس هاموا على وجوههم في الطرق اذلاء، وفي السنة الخامسة التجأت البنت إلى بيت أمها، تاركة بيت زوجها من الجوع والعسر، ولكن الأم لا تفتح الباب لابنتها، والبنت تحاسب أمها. والأم تحاسب بنتها على اكلها.

وفي السنة السادسة، أكلوا البنت طعاماً، وأكلوا الطفل طعاماً. وصار كل بيت يلتهم البيت الآخر، وصاروا مثل أرواح الموتى وجوههم كاسفة، وعاش الناس بأنفاس ضعيفة خاوية، وفي السنة السابعة حل فيهم الفرج[1].

ولما لم تؤثر هذه الكوارث في الناس، ولم تردعهم عن عمل الشر، قرر الآلهة باستثناء ايا إرسال الطوفان لمحو البشر.

(1) تذكرنا هذه القصة بمجاعة يوسف في مصر التي امتدت كذلك سبع سنوات.

الفصل الرابع عشر الطوفان العام

لم يكن الطوفان العام بحد ذاته اسطورة دينية خيالية كسائر الأساطير، أو قصة روائية كسائر الروايات، إنما هو من الحقائق التاريخية الواقعية ومما قد يحدث في العراق من ذوبان الثلوج في الجبال في كل عام تقريباً. ولما كان العراق محاطاً من الشرق والشمال بجبال زاغروس وطوروس، وان انحدار الأرض فيه يبلغ خمسة اقدام للميل الواحد حتى البحر، فقد يتكرر الطوفان فيه دائماً وبنسب متفاوتة في كل عام. لذلك فقد شغلت اقامة السدود، والسيطرة على الأنهار، ودرء الفيضان، وتنظيم الري، وإحياء الأراضي، اهالي العراق منذ اقدم الأزمان. وكانت تعتبر من اقسام العبادات التي ترضي الإله ايا المتخذ مستقره في أعماق المياه. وكان الإنسان يقارع الطبيعة في تلك الأهوار والمستنقعات، فيتغلب عليها تارة وتتغلب عليه أخرى.

وكان أكثر السدود أهمية هو السد الذي أقيم على صدر نهر حداقل أو صدر نهر الصقلاوية الحالي. فكان هذا السد قد ضاعف من تصريف مياه الفرات فارتفع مستوى النهر ما يقارب ضعف ما كان عليه، وتحقق من الترسبات الطينية الثخينة في الوركاء وقاره أن قد هطلت في العصور التي سبقت عصر فجر السلالات، أي في عصر جمدة نصر وفي سنة من تلك السنين حوالى (3500 قبل الميلاد)، ولم يعين التاريخ بالضبط بعد أمطاراً غزيرة بشكل فوق المعتاد، فكوّنت فيضانات عالية امتلأت على اثرها الوديان بالمياه وطفت على كل الصحارى والسهول والمنخفضات فأغرقت مدن العراق الجنوبي كافة ومن جملتها اور، والوركاء (ارك) وكيش وفاره (شورباك) واريدو المقدسة، فأحدثت خسائر فادحة في الأنفس وتدميراً بالغاً في الأموال وهزّة عظيمة بين سكان العراق، لما لمدينة اريدو، مهبط الآلهة ومقر المعابد، من منزلة رفيعة مقدسة بين الناس.

انتقلت هذه الكارثة بالتواتر جيلاً بعد جيل من السومريين إلى الكلدانيين إلى الآشوريين وإلى الأمم المجاورة كافة فسجل كل منهم عناصر هذا الطوفان بشكل تتوافق وحالته الروحية والاجتماعية. وظهر من قراءة «قائمة الملوك السومرية» التي عثر عليها في حفريات مدينة لارسا والمحتوية على السلالات الملوكية، أنها تحتوي على أسماء بعض الملوك الذين حكموا البلاد قبل الطوفان وأسماء الملوك الذين حكموا بعد الطوفان. وتذكر ان الملوكية قد هبطت من السماء إلى مدينة كيش للمرة الثانية بعد الطوفان فتأسست سلالة ملوك القسم الثاني. وظهر من التنقيبات التي اجرتها مديرية الآثار القديمة العراقية في أربع مدن رئيسة قديمة في جنوب العراق وهي اور والوركاء وكيش وفاره شورباك أن هناك ترسبات طوفانية وطبقات ثخينة من الطين الخالص في مستوى واحد يبلغ ثخنها حول الوركاء خمسة اقدام، وجد فوقها وتحتها بقايا بشرية اعتبرت دليلاً على الطوفان العام.

دخلت حادثة الطوفان في اساطير السومريين، وظهرت كجزء من اسطورة البطل البابلي

جلجامش. وقد حصلت دائرة الآثار العراقية على كثير من النسخ المتعلقة بالطوفان تتكون كلها من حادثة واحدة، انحدرت بأشكال مختلفة وصور متعددة، اعرقها في القدم النص السومري الذي عثر عليه في خرائب نفر. يتناول القسم الأول منه خلق الإنسان والحيوان وتأسيس خمس مدن من مدن ما قبل الطوفان وهي اريدو، بادئير، الوركاء ارك، سبار، شورپباك، والقسم الثاني منه قصة الطوفان التي املاها اوتونبشتيم، نوح الطوفان، على جلجامش وفيها أن الآلهة ـ باستثناء الإله ايا والربة نينتو إلهة الولادة قررت في مجمعها محو البشر من على الأرض بالطوفان. وأوصت الإله انليل إله الجو ان يقوم بتنفيذ ذاك، أما الإله ايا، إله الحكمة والبصيرة وصديق الإنسان، فقد افشى السر وأخبر صديقه اونونبشتيم بعزم الآلهة وإرسالها الطوفان ونصحه ببناء فلك واسع لينجو فيه كما سيأتي بيانه.

وكان قد اكتشف الانكليزي جورج سميث في خزانة الإله نبو، إله الحكمة والمعرفة في مكتبة آشور بانيبال (668 ـ 633 ق. م.) في نينوى عام 1900، أرقاماً من الطين تسمى «ساردانوبولس» وهي محفوظة في لندن، فيها قصة الطوفان البابلية تفصيلاً خلاصتها: لما ظهر الفساد بين البشر عزم الإله انليل على اغراقهم جميعاً بالماء، فأرسل الإله «ايا» إلى الحبر اوتونبشتيم الصالح ابن «اوباراتوتو» من سكان مدينة شورپباك على الفرات أن يصنع له فلكاً ويضع فيه كل ما يملك، وكل بذور الحياة وقطعان الحقل وكل الصناع وكل اهله وعائلته وعشيرته وينجو بهم وبأهله وأولاده من الغرق، فكان الطوفان العام وهلك جميع البشر. وهي توافق ما جاء في التوراة.

وأما الرواية الآشورية، فتذكر أن السبب بإرسال الطوفان هو أن الآلهة أرسلت قبل الطوفان الأوبئة والجفاف والقحط والمجاعة... فلم يرتدع الانسان عن آثامه وتمرده. وعلاوة على ذلك كان للناس ضوضاء وضجيج مما ازعج الآلهة، وأخل براحتها فأودعت أمر الطوفان إلى انليل، ففتح هذا الإله ابواب السماء على الأرض فحصل الطوفان (لاحظ أسطورة المجاعة).

دام الطوفان، بالنظر للرواية السومرية، سبع ليال وسبعة ايام. وبالنظر للرواية البابلية استمر ست ليال وستة ايام. وأما في الرواية العبرية فإنه استمر مئة وسبعة وتسعين يوماً، وفيه ونظر.

ثم اكتشفت الألواح السبعة الكلدية ـ السومرية التي هي الأصل في قصة الطوفان. قرأها وحل رموزها كثير من المستشرقين، واعتمد في قراءتها ويليام ويلكوكس على قراءة الدكتور ر. و. روجرز احد اساتذة قسم الدراسات اللاهوتية، وترجمها إلى العربية الاستاذان محمد الهاشمي والدكتور أحمد سوسه. كان بطل الحادثة فيها «اوكزسطروس» الاكادي أو «اتراجاسس» الكلداني القديم أو «اوتونبشتيم» البابلي أو «زيوسدرا» السومري ـ والمعنى في جميعها «صاحب الحياة الخالدة» لدخوله في مصاف الآلهة ـ أو نوح الطوفان العبري. فقد قال هذا لحفيده البطل جلجامش الذي كان يبغي الخلود مثله:

سأطلعك على سر من أسرار الآلهة؛ لقد رأى الآلهة آنو، انليل، نينورتا، انوكى ـ وكان ايا جالساً معهم في مدينة شورپباك ـ أن يحدثوا طوفاناً، فنقل أيا حديثهم إليّ وقال لي: يا رجل شورپباك الصالح اوتونبشتيم، ابنِ سفينة وانج بنفسك، وخذ معك كل بذرة حياة، وعندما يمطر الإله ادد الموكل

بالأمطار والزوابع والأعاصير، ادخل السفينة واغلق بابك. فسلمت قيادة السفينة إلى الملاح بوزرا ـ آموري وانتظرت.

اقترب الوقت الموعود في السماء.

ارسلت الآلهة مطراً غزيراً.

لقد خشيت فجر ذلك النهار وخفت أن أرى ذلك اليوم.

دخلت الفلك وأوصدت الباب دوني.

هبت العاصفة شديدة عالية.

فطغى الماء، وغطى وجه الصحراء.

إنها أداة تخريب كنسوا بها البشر.

لم يكد يرى المرء صاحبه.

لقد انكرت السماء الجنس البشري.

خشيت الآلهة. الطوفان.

تراجعت وتسلقت سماء آنو.

ربضت الآلهة كالكلب وانحنت بجانب الجدار.

بكت اشتار بكاء المرأة وهي في المخاض.

ناحت ملكة الآلهة وهي تبكي. بصوت عال: استحالت العناية الأولى إلى طين.

هبت العاصفة ثم جاء الطوفان وغطى وجه الأرض ستة أيام، سويا.

وفي اليوم السابع هدأت العاصفة وتوقف الطوفان.

بعد أن حارب حرب الجيوش.

فهدأ البحر. وسكنت العاصفة. ثم توقف الطوفان.

نظرت الى البحر وأنا أرفع صوتي بالعويل: استحال الجنس البشري إلى طين.

غدت الحقول كالأهوار.

فتحت النافذة فارتسم النور على وجهي.

سجدت ثم جلست ابكي حتى سالت دموعي على خدي.

نظرت إلى الأرض فكانت كلها مغمورة بالماء.

لكن بعد ان مضى اثنا عشر يوما. لاح لي وجه الأرض.

فاتجهت السفينة إلى صحراء[1] نصير.

ولكن صحراء نصير اوقفتها هنالك.

ولما دنا اليوم السابع. ارسلت حمامة وتركتها تذهب.

طارت الحمامة هنا وهنالك.

---

(1) اختار المترجم كلمة صحراء لعدم وجود جبل بالمعنى المعروف في أرض بابل.

ولكنها رجعت حيث لم تجد لها مكاناً تجثم فيه.
ارسلت عصفورة وتركتها تذهب.
طارت العصفورة هنا وهناك.
لكنها رجعت حيث لم تجد مكاناً تجثم فيه.
ارسلت غراباً وتركتها تذهب.
طارت الغراب. فرأت انحسار الماء.
اقتربت من الأرض. خاضت. نعقت. ولم ترجع.
ثم اطلقت كل شيء صوب الجهات الأربع. وقدمت القرابين.
سكبت الدم على الأكمة الصحراوية.
قدمت اطباق القرابين. سبعاً سبعاً.
جمعت تحتها اكوام القصب.
وخشب الأرز والآس.
فتنسمت الآلهة الرائحة.
تنسمت الرائحة الزاكية.
اجتمعت الآلهة كالذباب. حول من قدم القرابين.
ولما دنت سيدة الآلهة اشتار رفعت الجواهر الغالية التي صنعها آنو وفقاً لرغبتها.
وقالت: سوف لا انسى هذه الأيام التي طوقت فيها عنقي بالمجوهرات.
سأفكر في هذه الأيام وسوف لا انساها. لتأت الآلهة إلى القرابين.
اما انليل بيل (بعل) إله الأرض والبشر فلا يأتي إلى القرابين.
لأنه استبد برأيه فأرسل الطوفان.
وسام بذلك شعبي إلى الفناء.
تنحنح ايا وتكلم بملء فيه.
تحدث إلى المحارب انليل بيل (بعل).
انت أيها المحارب بيل. انت الناطق باسم الآلهة.
لقد ارسلت الطوفان حيث لم يكن ثمة من يخلص لك النصيحة.
يُكتب على جبين المجرم جرمه.
يُكتب على المعتدي اثم عدوانه. كف.
لا تدع الخراب يعم العالم. ولا تدع البريء يكون...

فلما رأى انليل السفينة سالمة استشاط غضباً وقال للآلهة الايكيكي: لقد كان من المقرر ألا يعيش بشر. فقال الإله نينورتا: أيستطيع أحد ان يفعل شيئاً بدون ايا الذي يدرك كل شيء. فقال ايا: ايها البطل انليل كيف جاز لك أن تحدث هذا الطوفان بلا ترو. ما كان اجدر ان ترسل اسداً أو ذئباً أو مجاعة على البشر أو جاء «ايرا» إله الأوبئة. واحل الوباء...؟ ثم صعد انليل إلى السفينة وأخذني

وأخرجني مع زوجتي وأمرنا بالسجود له ثم باركنا وقال: كنتما من البشر وصرتما الآن إلهين... وأما بالنسبة إليك يا جلجامش من ذا الذي ستجمع لك الآلهة حتى تمنحك الحياة الخالدة... وطلب منه أن يتغلّب على النوم ستة أيام وسبع ليال حتى إذا تغلب على الموت الأصغر تغلب على الموت الأكبر.

فكان كما مر ذكره في أسطورة جلجامش.

لا خلاف في أن طوفان نوح الذي ورد ذكره في العهد القديم هو الطوفان نفسه الذي أشارت إليه هذه القصص السومرية. ولا خلاف في ان البقعة التي وقعت فيها تلك الكارثة هي القسم المخفض من دلتا الفرات ودجلة الواقع شمال مدينة اور الكلدية...

ويعتقد السومريون ان «زيوسدرا» نوح الطوفان بعد خروجه من سفينته صعد إلى سماء دلمون البحرين وارتقى إلى درجة الخلود مع الآلهة. وأما الرواية البابلية فتذكر أن «اوتونبشتيم» بعد خروجه من سفينته قدّم قرابين إلى الآلهة، فهدأ غضب الإله انليل وذهب إلى سفينته وباركه وجعله هو وزوجته يسجدان له، وقال لم يكن «اوتونبشتيم» حتى الآن سوى إنسان فانٍ، وأما الآن فإن «اوتونبشتيم» وزوجه إلهان مثلنا. ومن تلك اللحظة دخل «اوتونبشتيم» في مصاف الآلهة.

ولما جفت الأرض وانتشر الناس على اليابسة هبطت الملوكية مرة ثانية من السماء على مدينة كيش فتأسست سلالة ملوك كيش الأولى.

أخذ الفريجيون اسطورة الطوفان هذه فقالوا ان الملك نانا كوس تنبأ بمجيء طوفان عام وبكى على شعبه. وأخذها اليونان وقالوا ان ملك تساليا اخبر عن أبيه بمجيء طوفان عام فبنى له فلكاً ونجا به. وأخذها الفارسيون وقالوا ان العالم قد فسد من اعمال اهرمن إله الشر فوجب غسله بالماء. وأخذها الهنود وقالوا ان الملك سايتا فرايتا أمره الإله ان يبني له فلكاً ويضع داخله كل أنواع النباتات والحيوانات...، وأخيراً ورد ذكرها في العهد القديم التوراة وهي تطابق ما جاء في الأسطورة البابلية بتعديلات قليلة وتبدل بالأسماء والتوجه إلى الإله الواحد، حتى ليظهر أنهما روايتان لحادثة واحدة. مما يستدل منه ان محرر سفر التكوين الذي اقام مدة طويلة في اسر بابل كان قد اطلع اطلاعاً تاماً على الأساطير البابلية.

وفي مجلة سومر العراقية ترجمات كثيرة عن قصة الطوفان مترجمة عن الواح الطين المستخرجة من حفريات مدينة شورييباك، المدينة التي ولد فيها نوح الطوفان.

الكتاب الخامس

المعتقدات الوثنية ـ 2

الفصل الأول عبادة الأوثان عند عرب الجاهلية

يدّعي مؤرخو العرب أن أول من ادخل عبادة الأوثان إلى الجزيرة العربية هو عمرو بن لحي. فكان قد خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض الشام، وبها يومئذ العماليق، رآهم يعبدون الأصنام فقال: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم أفلا تعطونني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟. فأعطوه صنماً يقال له هبل، لعله ابول الإله اليوناني. فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. وكان ذلك قبل الإسلام بأربعماية سنة.

وهناك رواية أخرى هي أن هبل محرّف من هبعل، وهذا محرّف من بعل وهو اسم آخر للإله السومري «انليل». وان الهاء التي تصدّرت اسم هبل هي بمقام «ال» التعريف في النُبطية. ويقال إن هذا الإله نقل من مدينة هيت على الفرات إلى مكة.

وكان أبناء مكة منذ أزمان سحيقة بالقدم يعبدون الأحجار. فما ظعن منهم ظاعن إلا أخذ معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم حيثما حلوا ونزلوا. وصنعوه في وسطهم وطافوا حوله كطوافهم بالكعبة حتى أدى ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم، فعبدوا الأوثان على أثر ذلك. ويعتقدون ان فيهم بقايا عقائد قديمة يتمسكون بها كتعظيم البيت واعتبار الكعبة بيت الله كما اعتبر اليهود الهيكل بيت الله، والطواف به والحج والعمرة والسعي والتلبية وتقصير الشعور والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدى البدن كما سيأتي بيانه.

ويظهر ان عبادة الأصنام عند العرب كانت قبل عمرو بن لحي بأزمان واغلة في القدم. وقد يكون هذا ادخل من سورية بعض الأصنام الأخرى. أما العرب فإنهم قديمو عهد بعبادتها بالنظر لأن ود وسواع ويعوق ويغوث ونسرا كانوا آلهة العرب قبل ذلك بكثير. فيقول المؤرخون ان هذيل بن مدركة من بني إسماعيل كان قد اتخذ «سواعاً»، وكذلك كان كلب وبره من قضاعه قد اتخذا «ودا» بدومة الجندل، وبني انعم من طي وأهل حرش من مذحج اتخذوا «يغوثا» وخيوان بطن من همدان اتخذوا يعوق بأرض همدان من أرض اليمن، وذو الكلاع من حمير اتخذوا «نسراً» صنماً لهم.

وكان لخولان صنم يقال له «عم انس» أو «عميانس» يقسمون له من أنعامهم قسماً بينه وبين الله بزعمهم. وكان لبني ملكان بن كنانة من خزيمة بن مدركة بن الياس من مضر صنم يقال له «سعد» وهو صخرة بفلاة من أرضهم طويلة. فكان قد أقبل رجل ومعه إبله ليطلب من سعد البركة فلما رأته الإبل نفرت وتفرقت فضربه الرجل بصخرة هشمه وقال له لا بارك الله فيك نفرت علي ابلي ومضى يقول:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وقال:

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة ... من الأرض لا يدعو لغي ولا رشد

وجاء إعرابي لزيارة إله له بالفلاة فرأى ثعلباً يبول عليه فقال:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

فضربه بحجر وهشم رأسه.

وكانت قريش قد اتخذت لها صنماً على بئر في جوف الكعبة يقال له هبل واتخذوا «اسافا ونائلة» على موضع قرب زمزم في موقع بين الصفا والمروة يسعون بينهما ويهرلون ثم ينحرون عندهما. ويعتقدون أن ساف رجل ونائله امرأة من جرهم. فوقع ساف على نائله بالكعبة فمسخهما الله حجرين. ولهم على ظهر الكعبة صنم يرمز إلى الشمس. وكانوا يسمون به ابناءهم ويقولون عبد شمس.

وكان لقريش صنم يقال له «العزى» وهو يرمز إلى كوكب الصبح الوضّاح. وكانت العرب تسمى به ويقولون عبد العزى وسدنته بنو شيبان ويحترمه ويعبده عرب بطرا ودومة الجندلي وغيرهم.

وكان في موقع المزدلفة القريب من جبل عرفة صنم يقال له «قزح» يعتبر إله الرعد والبرق والغيث والعواصف، قد يقضي الحجاج العائدون من عرفة ليلتهم متعبدين بجواره وتكون نيرانهم ملتهبة تكريماً له حتى مطلع الشمس. وعند ذاك ينفرون إلى وادي منى لرمي الحجارة رجماً للشيطان ولنحر القرابين والضحايا والنذور تقرّباً للآلهة.

ولثقيف صنم يقال له «اللات» وسدنتها بنو متعب من ثقيف، وهي في الأصل ربة الظلمات وباطن الأرض عند البابليين.

وكانت مناة للأوس والخزرج، وكان لدوس وخثعم صنم يقال له «ذو الخلصة». وكان «فلس» لطي ومن يليها بجبلي طي.

وكان لأهل كل دار في دارهم صنم يعبدونه ويتبركون به عند سفرهم.

وكان عند هبل في جوف الكعبة أقداح سبعة (كل قدح منها فيه كتاب). قدح منها فيه «العقل» إذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة، فان خرج العقل فعلى من خرج حمله. وقدح فيه «نعم»، فإن خرج عملوا إليه. وقدح فيه «لا» فان خرج تركوه. وقدح فيه «منكم»، وقدح فيه «ملصق»، وقدح فيه من «غيركم»، وقدح فيه «المياه»، إذا ارادوا ان يحفروا للمياه ضربوا القداح.

وكانوا إذا أرادوا أن يختتوا غلاماً أو ينكحوا أو يدفنوا ميتاً أو شكّوا في نسب أحدهم ذهبوا إلى هبل وبماية درهم وجذور، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ثم قربوا صاحبهم وقالوا يا إلهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا... فأخرج الحق فيه. ويقولون لصاحب القداح اضرب فيضرب فان خرج منكم فهو منهم، وان خرج من غيركم فهو حليف، وان خرج ملصق كان على منزلته لا نسب له ولا حلف، وان خرج نعم عملوا به، وان خرج لا أخّروه للحول القادم. فكانت هذه خير وسيلة لابتزاز الكهّان أموال الناس ولتأمين عيشهم الهنيء.

من المحقق ان العرب كانوا يعلمون جيداً ان هبل والأصنام الأخرى ليست آلهة ويعلمون انها منحوتة ومن عمل الناس لا قيمة لها بالذات، إنما قد تكون وسائط لتحل فيها الآلهة كلما نزلت من السماء. وكان البعض منهم يصنع صنمه من التمر أو من الزبيب ويعبده في داره وقد يأكله كلما مسّت

الحاجة إليه، على أن يتوب ويستغفر ويعتذر ويظهر احتياجه إلى أكله، ومنهم من كان يحتقر الأصنام ويسب الأوثان والأحجار والأنصاب ولا يبالي.

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة بيوتاً تسمى طواغيت، جمع طاغوت. وهي بيوت للأصنام تعظمها كتعظيم الكعبة. إلا أنها تعرف فضل الكعبة عليها. ولها أيضاً سدنة وحجاب وتهدي إليها كما تهدي للكعبة وتطوف العرب بها كطوافهم بالكعبة.

وبقيت الأصنام قائمة عند العرب إلى أن قضى الإسلام عليها. ولم تقم لها في الشرق الأوسط قائمة مرة أخرى. يقال أن محمداً (ص) لما دخل مكة فاتحاً وجد في الكعبة 360 صنماً فحطمها كافة. ومن أراد المزيد فعليه بكتاب «الأصنام» لابن الكلبي وسيرة بن هشام وبلوغ الأرب في أحوال العرب للآلوسي...

لم يكن للدين في نفس العربي في الأدوار الجاهلية من أثر فعّال في حياته اليومية. كما لم تكن للروح موقع ممتاز في أموره الدائمية كما كان عند المصريين والبابليين. إنما كان البدوي يمارس قواعد دينه وتعبداته تبعاً للعرف والعادة، وما وضعه الكهان والعارفة من شعائر ومناسك ساذجة بسيطة. وكان العرب جميعاً يعترفون بوجود إله خالق للكون واحد في السماء يدعى «إله» أو «الله»، ويسميه الأنباط والسريان والكلدان واليهود «ايل. اللات. آلوهة. آلاهة. آلوهيم...» وجميع هذه الأسماء من الشامية القديمة ترمز إلى الإله الخالق ويعتبرون الأصنام وسائل ووسائط للتقرب لذلك الإله العظيم المجهول.

وكان قد تسرب بعض الأساطير الدينية من الأمم المجاورة إلى الجزيرة العربية خاصة منها معتقدات الكلدان في ما بين النهرين من عبادة الأصنام والتماثيل والأنصاب والجان والسحر والأرواح الشاردة والتمائم والرقي والطلاسم والتعويذات والأدعية والأحجار وعقد النفاثات وكثير من الخرافات كالتوالد من اناث أو ذكور الجان[1] واصابة العين ووضع الأواني الزرقاء فوق أبواب الدور لئلا تدخلها الجان والعفاريت ووضع الخيوط الزرقاء بالمعاصم والأعناق للشفاء من الحميات أو لوقاية من الأمراض والاعتقاد ان لأرواح الأنبياء والأولياء والعظماء وكبار الكهنة والرهبان وكذلك للأصنام والاوثان والانصاب والصخور مواقع ممتازة وكرامة مرموقة عند الإله العظيم .وقد تتوسط بين الإله والإنسان للشفاعة ولمحو الذنوب والآثام ولنيل السعادة الدينية والدنيوية.

ويزعمون أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان يسمى «هام». فإذا مات أو قتل الشخص لم يزل مطيفاً به في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً ويكون بحجم البوم. ويزعمون أن الهامة هذه لا تزال في فناء الدار لتعلم ما يكون بعد الميت فتخبره به.

ويزعمون أيضاً أن الغول وجمعها غيلان هو بين الإنسان والحيوان وله رجلا عنزة ويكون ذكراً أو أنثى، يظهر في أنواع من الصور، يتراءى لهم في الليالي وأوقات النهار في الصحارى والفلوات،

---

(1) كان العرب يعتقدون بإمكان وقوع التناسل بين عالم الأرواح والعالم الجسماني، الا انهم لم يؤلّهوا من كان متولّداً منهما. واعتبروا عمرو بن يربوع الذي يزعمون انه متولّد من السعلاة والإنسان، وكذلك جرهم وبلقيس ملكة سبأ والإسكندر ذو القرنين من نتاج الملائكة والإنسانيين.

فيظنون أنه أو انها إنسان فيتبعونها حتى تزيلهم عن الطريق وتتيههم. وهي من أقسام الشياطين والمردة والجن.

وتسرب من سورية إلى الجزيرة العربية أيضاً بعض من المعتقدات والأسماء. فإن كلمة رضوان يحتمل أنها مشتقة من كلمة رادامانت Radamante اليوناني، وهو ابن الإله «زوس» وأحد القضاة الثلاثة الذين يحكمون بالعدل. وكلمة ابليس يظن أنها محرّفة من كلمة ديابولس Diabolis إله الظلمات عند اليونان. وهبل محرفة من كلمة آبول إله النور والشمس. وحدودو مأخوذة من هيدون Hedon إله تحت الأرض والجحيم. وفلس صنم لطي مشتق من فاللوس الإله اليوناني الخاص لإزالة بكارة العذارى. وذو الكفين الصنم العربي محرّف من كوبيدون Copidon وأمثاله كثير.

وتسرب من فنيقية وفلسطين إلى شمال الجزيرة العربية تقديم الضحايا البشرية من أطفال وأولاد وفتيان إلى الآلهة. وتحت هذا الشعور الديني كان النبي إبراهيم قد عزم على تقديم ولده ذبيحة للآلهة. تحت هذا الشعور أيضاً كان قد نذر عبد المطلب ذبح ولده عبد الله تقرباً للآلهة إلا أنه فشل في القداح.

فكانت هذه العبادة الفنيقية القاسية قد انتشرت في الانباط وفي عرب بطرا ودومة الجندل حتى الحجاز. فكانوا يضحون اجمل اسراهم. وان لم يكن لديهم أسرى فأجمل ناقة بيضاء ناصعة البياض للربة العزى ـ نجمة الصبح ذات الأشعة الثمانية، الزهرة ـ عشتروت....

وكان من العشائر الدينية عند العرب الجاهلية الحج والأسواق التجارية والوقوف في مزدلفه وذبح الضحايا وتقصير الشعور والعمرة والسعي بين الصفا والمروة والطواف حول الكعبة والتلبية..

والحج هو من أقدم شعائر العرب الدينية. ولعله يرجع في جذوره إلى أول بنايه للكعبة أو أن الكعبة بنيت لكي يحج الناس. وكان قد جعلها بانيها منذ أول أمرها هدفاً للنسك ومقراً للعبادة والزيارة والتجارة.

والحج في اللغة القصد والقدوم وكثرة الاختلاف والتردد مرة بعد أخرى. وتأتي خاصة بمعنى قصد مكة للتنسك ـ القاموس المحيط ـ لأن العرب كانوا يأتون خلال شوال وذي القعدة والعشرة الأولى من ذي الحجة من كل سنة إلى مكة لأداء فريضة الحج وزيارة الكعبة وما وضعه الكهان والعارفة من الشعائر الدينية كذبح الضحايا وهدى البدن والوقوف على عرفة والمزدلفة والطواف والعمرة والاهلال بالحج والسعي والتلبية والعمرة من جهة والاشتراك بالأسواق التجارية المقامة في عكاظ والمجنة وذي المجاز من جهة أخرى.

وكان سوق عكاظ يقام في شوال وذي القعدة في محل يقع بين مكة والطائف وفيه الانصاب والصخور الملطخة بدماء الضحايا والنذور يؤمه الناس من كل حدب وصوب يتاجرون ويطوفون حول الأنصاب والازلام ويقدمون الهدايا والنذور لسدنتها ويخطبون ويتناشدون الأشعار ويتعارفون مع بعضهم ويتبادلون سلعهم وحاجياتهم. فتكون هذه الأسواق لهم بمثابة اعياد موسمية حتى إذا ما انهوا تجارتهم ونذورهم ذهبوا إلى المجنة بأسفل مكة فيمكثون فيها عشرة أيام. ثم يسيرون في أوائل ذي الحجة إلى ذي المجاز قرب عرفة، وهو محل يجتمع فيه الحجاج من أطراف الجزيرة العربية. وفي

اليوم الثامن من ذي الحجة، ويسمى يوم التروية، يملأ الحجاج اوعيتهم وجرارهم كافة بالماء حيث لا ماء بعرفه. وفي اليوم التاسع منه يسيرون إلى عرفات للوقوف فيها فيناجي كل فريق وكل فرد منهم صنمه وإلهه فيقضون هناك أهم وأعظم قسم من شعائر الحج الدينية. ولعل هذا الوقوف مأخوذ من وقوف اليهود في جبل سينا لما كان الإله يتجلى على الجبل. (راجع الاصحاح التاسع شعر من سفر الخروج).

وبعد أن يقف الناس يوماً كاملاً في عرفات يفيضون إلى المزدلفة وهي قريبة من عرفة على أن يصلوها قبل غروب الشمس فيقضون ليلتهم في إيقاد النيران إلى آلهة «قزح»، إله الرعد والبرق حتى مطلع الفجر (وإيقاد النيران إلى الآلهة عادة مجوسية كلدانية كانت توقد للإله الشمس في مدينة سبارا الكلدانية لا تنطفىء تكريماً له. ثم انتقلت بيوت النيران إلى بلاد الفرس القدماء).

وعند بزوغ الشمس كانوا يسيرون سراعاً إلى «منى» لرجم الشيطان بالحجارة. وبعد أن يفرغوا من الرجم يباشرون بذبح الضحايا والنذور التي يعتبرونها من أهم وأعظم الشعائر الدينية.

ولم يكن تقديم الضحايا حديث عهد عند العرب. فقد ترجع هذه العادة إلى أقدم عهودهم الجاهلية. فكان لهم من ورائها هدفان اثنان: الأول صب دم الضحية الحار فوق رؤوس الأنصاب والأصنام طلباً لرضاها واجتناباً لغضبها وتودداً إليها وطمعاً بشفاعتها، والثاني الاطعام، ويقصد منه امتزاج لحومها ودمائها بطريقة الحلول والتناسخ والاتحاد بلحوم ودماء للناس.

وفي اليوم العاشر من ذي الحجة تنتهي شعائر الحج من وقوفهم في عرفة وافاظتهم في مزدلفه فيذهبون إلى منى لرجم الشيطان وثم ذبح القرابين والضحايا والنذور.

وعلاوة على ما مر كان عندهم من شعائر الحج أيضاً حلق الرؤوس أو التقصير، ولعله كان يقصد النظافة والتخلص من القمل والحشرات الأخرى كي لا يسري وينتشر بين الحجاج. وكان عندهم من الشعائر أيضاً الاحرام، وهو ترك الأثواب الاعتيادية جانباً واكتساء أثواب خفيفة جداً للطواف فقط. يظن ان ذلك كان بقصد عدم ازعاج الحجاج وقت الازدحام بروائح الأثواب الوسخة القذرة القديمة. فإن لم يجدوا هذه الأثواب الخفيفة، أو لم يكن باستطاعتهم تداركها وشراءها، يطوفون حول البيت عراة حفاة ولا عتاب عليهم بذلك. وأما النساء فقد تستر الواحدة منهن عورتها فقط.

وأما العمرة، وتسمى الحج الأصغر، فهذه يجوز اداء مناسكها طوال السنة سوى الأشهر الخاصة للحج. ومع هذا كان قد خصص للاعتمار شهر رجب لاعتباره من الأشهر الحرم، وهي: «ذو القعدة، ذو الحجة، محرم ورجب» لا يجوز فيه التعرض للغير حتى للقاتل. وشعائر العمرة الطواف بالبيت والسعي أو الهرولة بين الصفا والمروه، وهي عادة جاهلية قديمة لا يعلم بالضبط سببها. ولعلها تتصل بسبب مع اسطورة اساف ونائلة كما مر.

وكذلك الطواف حول الأصنام والأوثان والرقص والتصفيق والصفير والهلهلة والتلبية... كلها من العادات الوثنية الجاهلية القديمة.

وكان لكل قبيلة أثناء الطواف تلبية خاصة بها. فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا «لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، لبيك لا شريك لك تملكه وما ملك».

وكانت تلبية قبيلة نزار «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه مهما ملك». فكانوا يوحدون بالتلبية ثم يدخلون معه اصنامهم ويجعلون ملكها بيده.

وكانت تلبية قبيلة ثقيف «لبيك اللهم لبيك. ان ثقيفاً قد اتوك واخلفوا المال وقد رجوك».

ولما كانت مكة تقع في واد غير ذي زرع، فقد وضع كهّان قريش القدامى هذه المناسك والشعائر والتعبدات والقواعد الدينية... لمقاصد تجارية بحتة، وذلك بقصد جلب الناس إليها لكي يعيش ابناؤها على البيع والشراء في الأسواق الموسمية من جهة، وعلى ما تدره أكف الحجاج والزوار والعباد والزهاد والنساك على سدنة الكعبة وحجاجها وسقاتها وبيوت الأصنام والأوثان من جهة ثانية.

فكانت التجارة والديانة والمنافع في موسم الحج في مكة متداخلة بعضها مع البعض. أو آن الأصنام والأوثان والأنصاب وشعائر الديانة والسدانة وضعت كلها للتجارة والمنافع والربح والكسب. وكانت كلها شباك وشراك ومصايد وأحابيل نصبت لاصطياد المغفلين.

ولما جاء الإسلام لم تكن من الحكمة الإلهية رفع هذه القواعد الوثنية المتأصلة في عقول القوم والشطب عليها بجرة قلم واحدة. فكان بعد أن حطم الإسلام الأصنام والأوثان استبدل تلك الشعائر الوثنية بالتوجه إلى الله مباشرة دون اتخاذ الوسائط والوسائل والشفعاء والأولياء والأعزاء والمقربين للوصول إليه تعالى فقال عز وجل: ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾ (الزمر)، وقال جل وعلا: ﴿قل اغير الله اتخذ ولياً﴾، وامثاله في القرآن كثير. وبذلك استبدلت تلك الشعائر والمناسك الجاهلية التي كانت تعتبر الأصنام شفعاء عند الله بقواعد دينية إسلامية تعبدية صحيحة ترمي بمجموعها التوجه إلى عبادة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد والدعاء منه مباشرة: ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم﴾ دون وساطة احد من مخلوقاته كائناً من كان.

الفصل الثاني الألوهية في المعتقدات الفنيقية

الفنيقيون من الأقوام السامية ومن الكنعانيين الذين سكنوا سواحل البحر وأودية أرض كنعان. وهم في الأصل من بني كوش رحلوا إلى العراق عام «2300 ق. م». ثم جاؤوا إلى شطوط البحر المتوسط. كانوا يعتقدون بوجود الأرواح الطيبة والأرواح الخبيثة ويعتبرونها كالآلهة قد تفعل الخير والشر وتنفع وتضر وتتدخل في شؤون الاحياء اليومية.

وكان لكل مدينة إله خاص تحتمي به وتعبده وتعتبره الإله الحاكم العام للمدينة. منه تصدر الأوامر والنواهي وكل ما يتعلق بالشؤون العامة. ويكون الكهان والرهبان بطبيعة الحال وكلاء عنه يبلغون شرائعه ورغباته وقواعد عبادته.

وكما ان لكل مدينة إلهاً خاصاً، فإن للفنيقيين كافة إلهاً عاماً يستقر في الشمس يعتبر خالق السماوات والأرض. وهو المصدر الوحيد للقوى والحركات في العالم كافة يسمى في حالة هدوئه ورضاه «بعل» وتسمى زوجته «بعليث». وأما في حالة حدته وغضبه فيسمى «مولك» أو «مولوخ». وفي هذه الحالة يرمز إليه برأس عجل أو بشكل عجل كامل الخلقة، فيرسل الأوبئة والأمراض والطوفانات والزلازل الأرضية ويسلط الاعداء على البلاد ويهلك الحرث والنسل ولا يمكن تسكين حدته وشدته، وإزالة ثائرته وغضبه ورفع حقده وغيظه إلا بذبائح من النفوس البشرية فتنحر على مذبح هيكله عشرات بل مئات الأطفال والأولاد[1] والأسرى. وعند ذاك يفرح ويبتسم وينتشي من هذه القرابين ويزداد سروراً من لطخ دماء الأطفال الحار فوق جدار مذبحه فيزول عنه غضبه وغيظه وتعود إليه بهجته وأفراحه. ودام هذا الحال عند الفنيقيين حتى بعد قطعهم الأشواط البعيدة في طرق المدنية، وحتى بعد استيلائهم على قرطاجة وتأسيسهم الحكومة الحديثة فيها. ويؤخذ من أقوال تيودور الصقلي ان الفنيقيين يعتبرون فشلهم في الحروب من آثار غضب الإله «مولك» عليهم. ففي مثل هذه الحالة تقدم القرابين البشرية على مذبحه بدون حساب حتى يرضى ويسكن غضبه. ثم انتشرت عبادته في سواحل البحر المتوسط الشرقية كلها وعبده اليهود في فلسطين مدة طويلة.

من أهم وأعظم آلهة الفنيقيين أيضاً ربة الوجود والعدم والمسرات والأحزان «آسر» أو «عشتار» أو «عشتروت». وهي من الربات السومرية البابلية التي اشتهرت في العالم القديم كله، عبدها السومريون باسم «عشتار» و«اينانا»، وعبدها الكلدانيون باسم «اشتار»، وعبدها الآشوريون باسم «استير»، وعبدها اليونانيون باسم «استارته»، وعبدها الرومانيون وأهالي الجزائر في بحر إيجه باسم «ونوس»، وعبدها العرب باسم «العزى». رمزها كوكب الزهرة الوهاج ذو الأشعة الثمانية. وهي عند

---

(1) وتحت هذا الشعور الديني الذي كان سائداً في سواحل سورية كافة أراد النبي إبراهيم نحر ولده كذبيحة لإلهه.

الجميع الهة الحب العابث والمتعة واللذة والحب والغرام. وهي أم «كيوبيد» الروماني عشيقها، وهي أم «تموز» الكلدو ـ سومري إله الربيع وعشيقها أيضاً. وهي بغيء الآلهة والبشر وحتى الحيوانات. وهي محبوبة الآلهة والبشر على السواء. كانت في ما سبق معشوقة إله الحرب مارس الجبار «المريخ» فهجرته والتحقت بولدها تموز. ولما علم مارس بهذا الحب الجديد قرر الانتقام من الشاب الجميل تموز فانتقل إلى جبال لبنان وتقمص جسم خنزير بري واعترض تموز في طريقه وهو عائد من الصيد فوثب عليه ومزقه إرباً إرباً وتركه جثة هامدة مضرجاً بدمائه، فاختلطت دماؤه بماء النهر المسمى باسمه «ادونيس» وهو مشتق من اسم «ادوناي»، وهي كلمة عبرية معناها السيد العظيم. فهرعت استارته أو عشتروت إلى حبيبها حافية القدم عارية الصدر تفتش عنه في غابات لبنان حتى تدمت قدماها فاصطبغ شقائق النعمان باللون الأحمر من دمها حتى وجدته مضرجا بدمائه، فاحتضنته ميتاً وبكت عليه ولطمت وجهها وقرعت صدرها حزناً. وكان الشعب الفنيقي يقيم الحفلات الدينية في أول الربيع يوم قيامة ادونيس ـ وهو تموز الكلدو سومري ـ من عالم الأموات فتخرج الفتيات والنساء والرجال بمهرجان عظيم إلى طريق مدينة جبيل حيث قتل ادونيس، فيمزق الرهبان ثيابهم وينتفون لحاهم ويجزون شعر رؤوسهم، وتستعد النساء للمناحة تقليداً للربة استارته. وكن يهيئن دمية، شبهاً لأدونيس ويسرن إلى البحر حافيات الأقدام، قارعات الصدور، فيرمين الدمية في البحر. وبعد أن تكمل المناحة والبكاء والصراخ والعويل ولطم الوجوه وضرب الصدور أسبوعاً كاملاً تنتهي مراسيم الدفن وتنتهي معها هذه المأساة، فيعودون إلى المدينة لإجراء حفلات العيد ابتهاجاً بقيام الإله تموز من عالم الأموات وصعوده إلى السماء فتعم المدينة موجة من الفرح والسرور والاباحية المقدسة تقليداً للربة استارته بعيد القيامة تدوم أيضاً اسبوعاً كاملاً. وهي بمجموعها مأخوذة من أسطورة كلدو ـ سومرية عنوانها «نزول الآلهة» «اينانا ـ استار» إلى العالم السفلي لتخليص ولدها تموز من عالم الأموات والظلمات»[1]. ونقل اليهود اسطورة تموز من بابل إلى فلسطين. وجاء ذكرها في سفر حزقيال عن النساء اليهوديات في اورشليم عند قوله «وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز». وحقيقتها كلها رموز ترمي إلى انتصار قوى الخير والخصب في العالم على قوى الشر التي تسعى إلى إبادة العالم، أو إلى الحياة والممات، أو إلى الصيف والشتاء. فقد يبقى أدونيس ستة أشهر في عالم الأموات. ولما تخرج الطبيعة من جمودها في فصل الربيع يبعث أدونيس إلى الحياة فيقيم وينعم مع معشوقته «استارته» ستة أشهر حتى الخريف.

وأما الأساطير اليونانية فتذكر أن أدونيس كان ثمرة حب وغرام بين سبيراس ملك قبرص وابنته ميرا. فكانت قد هربت إلى جبال لبنان قبل أن يفتضح أمرها فمسختها الآلهة شجرة. وعند الولادة تفسخت الشجرة وخرج منها أدونيس. وكان على غاية من الحسن والجمال فالتقت به فنوس أو عشتروت الشاردة من عشيقها «مارس الجبار» أو «اريش الغيور» وبادلته الحب والغرام. وتبعها مارس وتقمص جسد خنزير بري. وبعد عراك مرير وقع أدونيس مضرجاً بدمائه فحملته الآلهة إلى عالم

(1) راجع اسطورة هبوط اينانا إلى العالم السفلي في الجزء الأول من كتابنا الثاني (الألوهية في المعتقدات الوثنية).

الأموات... فذهبت فنوس إلى جوبتير تتوسل إليه أن يعيد لها أدونيس من عالم الموتى. ووافق جوبتير على ذلك. إلا آن «بروزبين» زوجة الإله «بلاطون» إله الجحيم هي أيضاً أحبت أدونيس فلم توافق على خروجه من عندها. فقضى جوبتير أن يبقى أدونيس ستة أشهر فوق الأرض عند فنوس وهو يرمز إلى موسمي الربيع والصيف، وستة آشهر في عالم الظلمات والأموات عند «بروزبين» وهو يرمز الى الخريف والشتاء[1].

وعند انتقال «استارته» من معبد إلى آخر كان يوضع هيكلها على ظهر أسد، أو توضع على عجلة تجرها الأسود. ولذلك كان الأسد عندهم من الحيوانات المقدسة. وكان لها حظ وافر أيضاً بالطيور والأسماك. لذلك كان الفنيقيون يضعون في معابدها الطيور المختلفة والأحواض لتكثير الأسماك.

وإذا كان «مولك ـ بعل» الإله اللبناني عدواً للإنسان ولا يسكن غضبه وغيظه إلا بدماء الأطفال والأولاد الأبرياء، فإن بعل إله مدينة صور ويسمى «ملقارت»، على الخلاف من ذلك. فهو المحب المخلص للإنسان ومانح الحياة ومعيد العمران بعد الخراب. وهو الذي يؤثر على منطقة البروج فيزيل مضراتها ويخفف شدائد الشتاء وحرارة الصيف ويهلك الذئاب والحيوانات المفترسة كافة، ويقوم بسياحة بين أمة وأخرى ويدور حول الأرض كلها لتفقد أحوال الفنيقيين في غربتهم، ويساعدهم على تأسيس المستعمرات ويخلصهم من القوى الشريرة والأرواح الضارة.

ولدى الفنيقيين آلهة أخرى من الصنف الثاني يحترمونها اجمالاً كإله الطوالع والخيرات ويسمى «ايل» وزوجته «ايلاث». وكذلك الإله «طاغوت أو كاوت» وهو من آلهة المصريين. كما وانهم تأثروا أيضاً بعقائد الصابئة فأدخلوا في عبادتهم الأصنام والأجرام السماوية.

يقول المؤرخ «مومزن» ان عبادة الفنيقيين محرومة من أي إبداع ديني. وكانت تحرك الوحشة والاحتراصات في قلوب الناس اكثر مما تسكنها وتلطفها. قلت: لقد جاء الكهنة والرهبان بقواعد دينية وحشية بربرية تقشعر منها الأبدان وهي اقناع الأبوين بلزوم تقديم أولادهم وفلذات اكبادهم ذبائح للإله «مولوخ» لتسكين حدته وغضبه. واعتقد الشعب ـ على العادة ـ بصحة ما قالوه. فكان الابوان يقدمان أولادهم ذبائح على مذبح الآلهة عن رضا وطيبة خاطر، تبعاً لما كان يمليه عليهم الكهنة والرهبان من الوعظ والإرشادات الدينية. وكان الجلادون من الرهبان يستحضرون السكاكين الحادة اللامعة القاطعة للقيام بهذه العملية التعبدية القاسية، وذلك لقطع رأس الطفل بجرة واحدة لا تحتاج إلى ثانية وأخرى. وما قصدهم من هذه الطريقة المؤلمة إلا إيقاع الرعب والخوف من الآلهة إلى أقصى حد مستطاع في قلوب الناس ليسهل لهم بعد ذلك العيش الهنيء والتذوقات والتلذذات الجسمانية والإباحية المقدسة في الهياكل والمعابد واستلام الهبات والاعطيات من أيدي المؤمنين السذج البلهاء الأغبياء.

---

(1) هي نسخة طبق الأصل لاسطورة اينانا ـ عشتار في فصل اساطير الأولين في الجزء الأول من كتابنا الثاني (الألوهية في المعتقدات الوثنية).

والحقيقة ان هذه البربرية لم تكن خاصة بالفنيقيين وحدهم، إنما كانت الطريقة الافضل لاسترضاء الآلهة الوثنية عند كثير من الأمم القديمة. فكان أهل الحبشة يذبحون فتيانهم للشمس وفتياتهم للقمر. وكان المصريون يزفون في كل رأس سنة عروساً من آجمل بناتهم ويلقونها في النيل لكسب عطف الإله حابي. وكان الفرس القدماء يضحون البشر بضربة السيف أو بدفنهم احياء. واليونانيون والرومانيون كانوا يذبحون شخصاً واحداً قبل شروعهم في الحرب. ولم تسلم انكلترا وفرنسا وجرمانيا من تقديم القرابين البشرية. وانتشرت هذه العادة الوحشية من فنيقية إلى فلسطين وإلى شمال الجزيرة العربية.

الفصل الثالث المعتقدات عند زنوج أفريقيا

1 ـ من أغرب المعتقدات التي سادت في أواسط افريقيا وارخبيل الهند كان الايمان بالطوطم. ويقصد به صنماً يرمز إلى أي حيوان أو نبات كالبط والبومة والعقرب والثعبان وفرس البحر والغزال والذئب... والذرة والفول والحنطة والشعير والأشجار وغير ذلك. تحترمه العشيرة والقبائل وتقدسه تعبده فلا تؤذيه ولا تقتله ولا تلمسه ولا تطأه بأقدامها حرمة وخشية ورعاية. وكما أن لكل قبيلة طوطماً عاماً يحترمه جميع أفراد القبيلة. فلكل فرد طوطم خاص يحتفظ به لوقايته من الشرور ويحتمي به من الآفات والأمراض والاسقام في زمن السلم والحرب، فلا يقدم الفرد على قتل طوطمه أو ذبحه أو أكله إلا عند الضرورة القصوى والاحتياج المبرم. وعند ذلك يأسف ويستغفر ويتوب[1]. وقد تذبح طوطمها العام فتأكل من لحمه وتشرب من دمه بقصد أن يشعر كل فرد أنه قد اتحد مع آلهة، وان في جسده جزءاً من أجزاء آلهة. وقد يشترك في هذا العشاء المقدس جميع أفراد القبيلة للاندماج بإلههم. وهي عنعنة قديمة عند البشر[2].

ويعتقدون أن الطوطم ـ حتى إذا كان ذئباً ـ لا يؤذي صاحبه. إنما بالعكس يحميه من الغير ويدفع عنه الأذى، فيطلبون رضاه بأن يتشبهوا به. ويصنعون من جلده أو ريشه قبعات لرؤوسهم ويلبسون جلوده تشبهاً به. ويعلقون في اعناقهم انيابه ومخالبه ويقلدونه بشكله وصوته ومشيه ومظهره. وإذا ما تزوج الرجل بامرأة من غير قبيلته ولها طوطم آخر غير طوطمه وحصل حرب بين القبيلتين ينفصل الرجل عن زوجته، فتذهب إلى أهلها ويلتحق بها أولادها كافة باعتبار أنهم أبناء أمهم ـ ولا عبرة للأب ـ حتى يتم الحرب.

2 ـ وكان النوبيون في جبال النوبة وكردفان وقبائل الهمج hammage المقيمون على جانبي النيل الأزرق وثنيين يعبدون الأصنام والأوثان. وكان لهم طواطم بأنواع مختلفة. ثم اعتنقوا الديانة الإسلامية واختلطوا في اعالي النيل مع المسلمين عند فتح السودان.

3 ـ وأما قبائل الدنكا والشلوك والباري والمدندو والمومبوتو الساكنة بين السودان المصري والكونغو فلم يزالوا وثنيين. وتعتبر قبائل الدنكا الهها «دنكديت» منزل الغيث ومانح الخيرات والبركات فيمثلونه بزي الملوك والأمراء ويكسونه بلباس من ريش النعام.

4 ـ وفي سواحل الأوقيانوس الهندي قبل استيلاء البريطانيين عليها كان لقبائل البانتو bantu الزنجية مملكة واسعة الأطراف أسسها الملك كنتو، ومعناه الأب والكاهن والرئيس والملك المنزه عن النقائص والعيوب. فكان قد علم الناس الزراعة وتربية الحيوانات. ولما فسد أمر الناس اختفى ولم يرجع حتى

---

(1) وهذه تذكرنا ببعض القبائل العربية الجاهلية التي كانت تصنع اصنامها من الزبيب أو من التمر وتأكلها كلما جاعت ومست الحاجة إلى اكله.

(2) وهذه أيضاً تذكرنا بالعشاء الرباني عند المسيحيين.

الآن وما زالوا بانتظار عودته. وقد جعله بعض قبائل البانتو الهاً يسمونه بلسانهم مولونقو ومرنكو آو ملينكو. وتعتبره قبائل أخرى من البانتو انه أبو البشر. ويعتقد آخرون منهم أن البشر بالنسبة إليه بمثابة الدجاجة وافراخها.

ومن قبائل الالبانتو في الكونغو امة البابيزه. وفي نيازبلاندا قبائل الوياو والمانغانجا لم يزالوا على عاداتهم الوثنية. يذكر السواح ان رؤساءهم ما زالوا يأكلون لحوم البشر ويولمون عليها الولائم سراً. وليس لديهم معتقدات واضحة عن الآلهة. وقد يعتبرونها ممتزجة مع الشياطين والأرواح الطيبة أو الخبيثة. وعند البعض الآخر منهم أن الموتى كافة بمثابة آلهة قد تتجلى وتظهر للناس وتسكن في القرى والغابات وقمم الجبال وهي التي ترسل الرياح وتنزل الغيث وتظهر في الحلم، أو قد تبدو بصورة أسد أو نمر أو ثعبان أو فرس البحر.

ومن أمم الالبانتو أيضاً أمة تسمى «اشى كونغو» وهي تقطن جنوب نهر الكونغو لها مثلث إلهي يرأسه الإله «زاير» وهو اسم لنهر يجري في بلادهم. ويليه الأم «نزامبي» وهي آم النهر كونغو. ثم الولد «ديسوس» وهو ابن الإله زاير. كما وانهم يؤلهون مظاهر الطبيعة ويعتقدون بالأرواح ويعبدون الانصاب (الفتيش). والفتيش كلمة برتغالية feitico تأتي بمعنى التعاويذ والفتيش، كل شيء في العالم سواه كان ذي روح أو جماد. ويعملون اصنامهم على شكل إنسان جميل أو حيوان مخيف أو شيطان مريد أو عفريت من الجن من طين أو حجر أو خشب أو صخر فيعبدونه ويرقصون حوله ويقدمون له في بعض الحالات حتى الضحايا البشرية. ويعتقدون بالسحر والطلاسم والأرواح الشريرة. ولكل قبيلة كاهن أو ساحر يقوم بتدبير أمور القبيلة، وهو الواسطة بين الفتيش والناس يعلم الغيب ويخبر عما هو آت ويستنزل الغيث ويدل القبيلة على نوايا الأعداء.

ولهم أخلاق وعادات خاصة بهم لا تشبه عوائد وأخلاق أهل الأديان السماوية ولا يعرفون ما نعرفه من الحلال والحرام. وليس عندهم ما عندنا من القواعد الدينية. ومن عاداتهم تضخيم الشفة العليا إلى آقصى حد مستطاع ووشم جميع الجسد بأنواع النقوش والوسوم وخزم الأنف وتعليق مختلف الدبابيس في الرأس ووضع المعاضد الحديدية في السواعد.

5 ـ ويعتقد بعض القبائل الأفريقية بوجود أرواح بمثابة الملائكة لا تدخل الأجسام البشرية إنما تتصل بالسحرة والعرافين فقط وتخبرهم عن الحوادث المقبلة وهي تحت سيطرة الإله «مولنكو» الذي بيده الموت والحياة وأعمال البشر كافة.

6 ـ وأما سكان القارة الاسترالية القدماء فهم من أحط الطبقات البشرية. يرجعون في آصلهم إلى الجنس الزنجي، وهم في طريق الانقراض اذ هبط عددهم في الحال إلى 20 آلف نسمة فقط. ولم يكن لهم دين خاص في ما سبق، إلا أنهم آمنوا بإله عام له ثلاثة آقانيم: الاول «بويما» وهو الأب ورأس المثلث خالق كل شيء، والثاني الولد ويسمى «غروغورا غالي» وهو الوسيط بين الإله الأب والبشر. والاقنوم، الثالث هو «موجيكالي» وهو المشرع. ولعل هذا المثلث قد تسرب اليهم من المبشرين المسيحيين الذين دخلوا اوستراليا. ومع هذا ليس لديهم طقوس دينية إنما يهابون الأرواح الشريرة فقط.

7 ـ ان معبود البابوان Papuanse، وهم من الأقوام القاطنة في ارخبيل الهند، يسمى «اتيتيجي» وهو من الآلهة الشيطانية له عين من الامام وعين من الوراء وله ست اصابع في كل يد، وله ظفر طويل حاد يغرسه في أجساد الأسرى ليختار من لحومهم ما يشاء منها. وقد يطبخ الأسير لغذائه أو يشوى على النار. لذلك كانت لحوم البشر عندهم من أنفس الأطعمة. يذكر السواح آنهم يربطون الأسرى بالأمراس ويعلقونهم بالأشجار ثم يوقدون تحتهم النيران إلى أن ينضجوا فينقضون عليهم بالسكاكين.

8 ـ ومن الزنوج السودانيين قبائل الفانتي Fanti والاشانتي Achanti في شواطىء سواحل الذهب يعتقدون بوجود إلهين اثنين لإدارة أمور البشر، أحدهما «بويوليس» والآخر «تاندو» يعلو فوقهما إله السماء الأعظم «نانانيانكوبون». ومنهم من يعتقد بوجود إلهين آخرين أحدهما «ستراهمانتين» وهي ربة تقيم بين أشجار القطن، والثاني «سابونسوم» إله يقيم في الغابات والتلال الحمراء ويتسلط على المارين والعابرين. فكانت تقدم له القرابين البشرية لتسكين غضبه. ولحسن حظ الأسرى انها استبدلت مؤخراً بالماشية.

9 ـ ومن قبائل الزنج الشلوك Shilluk المقيمون على الشواطىء الغربية للنيل الأبيض الذين يعتقدون بإله يسمى «كوى بكاغو» أو «الجوك» استوعبت قدرته جميع الكائنات. وهو خالق الكائنات، له ابن يسمى لوكاما يسكن في الماء. ولهم إله آخر للخير والشر على السواء يسمى ميكاما. ومن أبطالهم كجور الذي يعتبرون آنه ولي من أولياء الآلهة يستجيرون بضريحه عند الشدائد ويستجيرون به عند الاختلافات.

10 ـ ان من بين هذه الأمم والقبائل الزنجية من ليس لديهم أي اعتقاد أو دين سماوي أو أرضي ولا يعلمون شيئاً عن الآلهة وأعمالها والخلق والتكوين والدين والعبادة وعن الحياة الثانية بعد الموت وعن عالم الغيب والحشر والنشر والحساب والكتاب والنعيم والعذاب. وهم في حالة بشرية بدائية كالانعام، بل هم آضل، وقد ذهبت جميع مساعي المبشرين معهم عبثاً حتى الآن.

الفصل الرابع الدين البرهمي الهندي

1 ـ كان سيل من الآريين قد وصل بنجاب من الشمال ثم امتد نحو الشرق حتى وصل نهر الكفنج. ثم استولى هؤلاء الآريون على الهند حوالى «1500» سنة قبل الميلاد بعد معارك دامية مع الأهالي المحليين. وكان دأبهم السلب والنهب إلى أن تفرد أحد رؤسائهم وقام بتشكيل الحكومة واستقر الأمر بيدهم. فأصبح الشعب الهندي منقسماً إلى عدة أقسام هم: المحاربون (الجيش) والزراع والأهالي والعباد. ويسمى العباد بلسانهم «براهمن». والقسم الأول والثاني والرابع كانوا من الآريين. وأما القسم الثالث فهم سكان الهند القدماء. وكان الآريون يدعون أنهم يجيئون إلى الدنيا مرات عديدة بينما يكون مجيء القسم الثالث مرة واحدة فقط.

ولما كان صنف البرهمن هو القسم الممتاز بين الطبقات، فكان لهم مدارس خاصة لتربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم حتى يصبحوا رجالاً للدين. فلذلك كان على كل برهمن أن يجتاز أربعة أدوار: الأول هو دور التلمذة وفيه يتعلم من استاذه دين البرهمية ويكون الاستاذ كوالد له. آما الدور الثاني فهو دور الدعاء ويسمى «وهدا» ويتعلم فيه الأدعية والمناجاة والاستغفار وتكفير الذنوب. وفي هذا الدور يجب على الطالب أن يتزوج ببنت برهمية. أما الدور الثالث فهو دور الخلوة والتفكر. ويليه الدور الرابع وهو يتضمن العودة مرة ثانية إلى عالم الوجود. إلا أنه ليس من الضروري على كل برهمي أن يقطع هذه الأدوار إنما يمكنه أن يقف في دور التلمذة مثلاً. ولما كان صنف البراهمة أقرب إلى الآلهة من غيرهم فهم فوق كل سعادة مادية، ويحتم على الصنوف الأخرى أن تقدم لهم الهدايا والأطعمة معيشتهم.

2 ـ **التكوين عند البرهميين:** قبل أن تظهر الحياة على وجه الأرض كانت هناك بيضة ذهبية تطفو على سطح البحار فانفجرت وتناثرت منها الحياة وكان الإله الأعظم ذكراً وأنثى في الوقت نفسه. فكان الأب والأم لجميع الأحياء. ولما أراد خلق الكون أمر بقوله كن فكان.

3 ـ **آلهة الهند القدماء:** عندما كان الآريون في بنجاب وقبل ان يتوغلوا في اطراف الهند كانت ديانتهم عبارة عن عبادة الآثار الطبيعية وما يظهر منها لأعينهم كالنور والنار والرياح والأمطار والبحار. ولما تفرقوا في أنحاء الهند ظهرت عندهم المعتقدات الشرقية من بابلية وآشورية وفرعونية وفكرة الأرواح الخبيثة والطيبة وتأثيرها على الإنسان. وكان من عوائد البرهمية أيضاً عبادة الأسلاف والآباء القدماء الأمجاد وتقديس الملوك.

وكانت الأرواح الطيبة عندهم الضياء والنور، والأرواح الخبيثة هي الظلمة والشرور. فتنتشر آلهة النور الضياء دوماً على الكائنات وتحارب آلهة الظلام، وإله النور الأعظم عندهم هو «ايندرا ـ ذو مئة قوة» وهو يجلس في السماء ويكون بجوانبه «فايو» إله الهواء و«ماروت» إله الزوابع و«فشنو» إله الكون، لمعاونته في تنظيم آمور الكون والعالم. وان اسم ايندرا مشتق من كلمة ايندو ومعناها بلسانهم المطر فهو منزل الغيث وباعث الخير. وهناك إله آخر يسمى «رودرا» يعاون ايندرا بطرد الأرواح الخبيثة

عندما تهطل الأمطار بشدة وتخرج من مكامنها. وما عدا هؤلاء يوجد آلهة آخرى أمثال «اوشاس» إله الشفق والفجر، و«ثريا» إله الشمس، و«كرشنا» إله الهندوس. ومن أقدم الآلهة عند الهنود «ديفا» أو «ديوا» ومعناه المعطي والموهب. وقد تطور هذا الاله الآري إلى ديونييس وثم إلى ديوس عند الأوروبيين وإلى زيوس عند الاغريقيين وإلى ديو dieu عند الفرنسيين وإلى ديتي deity عند البريطانيين. كما تطورت بيتار petar الهندية الآرية إلى يوبيتر أو جوبيتر اللاتينية.

كان الآريون يعبدون الشمس ويحترمونها اكثر من أي معبود آخر، لأنها تعتبر مركز النور والحياة. وهناك فوق هذه الآلهة جميعاً إله أعظم هو إله السماوات والأرض اورانوس وارونا varuna بيده الحياة والسعادة البشرية ورخاء العالم، وهو الذي خلق الكائنات وخلق لها نظاماً ثابتاً لا يعتوره الخلل. وخلق النجوم وحركاتها وأودع الأوصاف والخواص للأشياء، وبأمره تنجلي الغيوم عن الشمس وتسكن البحار ويذهب ظلام الليل. وهو يعلم كل شيء حتى ما هو موجود في قلب الإنسان. وعنده أسرار الكائنات. ودامت عبادته حتى ظهر «ايندرا» الإله الأكبر للهنود فحل محله وجعله في الصنف الثاني من الآلهة. وهناك إله آخر هو «ياما» إله الموت، وربة تسمى «كالي» ربة الظلمات والخراب. وهي تتقبل القرابين البشرية بارتياح. جاء في لاروس القرن العشرين ان معناها «السوداء» وهي من الآلهة البرهمية وزوجة الإله سيفا، وتعتبر آلهة الجحيم مثلثاً بشكل زنجية بأربعة اذرع، ماسكة بكل يد رأس إنسان، وفي عنقها قلادة من الجماجم.

4 ـ ان الطريقة الوحيدة لتأمين رضاء الآلهة هي تقديم الهدايا والعطايا لها وخاصة المشروب المسمى «امريتا». وبما ان الآلهة لا ينالها الموت فهي بحاجة ماسة مستديمة لهدايا الإنسان وعطاياه الكريمة التي تشبعها من جوع. ومهما كانت الهدايا عظيمة وكثيرة فإنها عادة لا تشبع وتكون الآلهة دائماً ودائماً بحاجة إلى اكثر فأكثر. وهي تشتهي خاصة الحلويات المعمولة من عصير قصب السكر وبعض النباتات المماثلة الأخرى. فهذه مقبولة جداً لديها.

5 ـ دين براهما: بينما كان الناس يعبدون الآلهة الكثيرة السابقة الذكر إذ حصل تطور في الأفكار وخاصة عند رجال الدين. فقد قيل إنه ما دامت الآلهة تقبل استغاثة البشر بواسطة الأدعية والمناجاة، فان الدعاء نفسه هو المؤثر في هذا الكون. ولذلك وجب عبادة الدعاء براهما. وبموجب هذه الفكرة أصبح براهما الذي معناه الدعاء إلهاً اعظم. وقيل لمعتنقي هذه الفكرة «براهمان أو براهمن». وازدادت هذه العقيدة قوة واتساعاً بمرور الزمن حتى أصبح براهمن هو الكل في الكل في هذا الكون. وقد انشقت عن براهما آلهة أخرى هما فشنو وسيفا فأصبح ثالوث الهنود مكوّناً من براهما وفشنو وسيفا ومن هذا الثالوث يتكون الاله الأحد. ولكل منهم أربعة أوجه وأربعة اذرع بأربع اياد. فإن براهما هو الموجد الخالق للعالم، وهو فشنو المحافظ الأمين، وهو سيفا المنتقم المخرب الهادم وهم في الأصل واحد. ويعتقدون بتجسد احد هؤلاء الآلهة ان عاجلاً وان آجلاً فيتقمص الأشكال البشرية ويفعل ما يريد. وبهذه العقيدة كانوا من الموحدين المثلثين. إلا ان الغالب عندهم هو الإيمان بإله واحد. ومع توحيدهم هذا فان معابدهم مملوءة بالأصنام والأوثان، فهم والحالة هذه وثنيون.

ولعل من الطريف أن نذكر المناجاة التي كان البرهميون يرددونها في دعائهم وهي:

«يا إلهي... إني أرى بوجودك الإلهي الآلهة الأخرى كافة وذوي الحياة كافة. لا أستطيع أن انظر إليك إلا بصعوبة، لأن وحدانيتك الفسيحة الارجاء مثل الشمس قد استوعبت كل الكائنات. ذاتك لا تقبل القسمة. علاك فوق الإدراك. لا حد ولا نهاية لقدرتك. انت منزه عن المبدأ والوسط والنهاية».

ومن هذه المناجاة نجد أن البرهميين يعتقدون أن براهما ليس فقط إلهاً عظيماً إنما هو في نظرهم روح جميع الكائنات تستمد منه الروح والحياة. ويعتقدون أن الكون كان قد ظهر ومن جملته الإنسان من الإله براهما. فكان براهما في نظرهم مبدأ كل شيء وخالق كل شيء. إلا أن طريقة هذه الخلقة لم تكن كعمل العامل في معمله إنما هي كظهور الشجرة من النواة والشبكة من العنكبوت. ولا يجب أن يقال براهما خالق العالم، بل يجب أن يقال ان براهما هو جوهر العالم الفرد. وعلى هذا فان جميع الموجودات السماوية والأرضية «والشمس والقمر والآلهة والإنسان والحيوانات والنباتات والأحجار» لا بد وأن تحتوي على جزء أو جوهر من براهما. وهذا هو مبدأ وحدة الوجود. وهو الأصل في نظرية تناسخ الأرواح والحلول. وعلى هذا فهم يقولون بأن الأرواح تنتقل من جسم إلى آخر. ولأجل التطهير من الذنوب قد تنتقل من الإنسان إلى الحيوان وثم من الحيوان إلى الإنسان. ولذلك عبدوا الحيوانات واعتقدوا بأن الإله يتجلى في كل موجود. في الحجر والشجر أو في الحيوان والإنسان. فكان كل حيوان في نظرهم يحتمل أنه كان يوماً ما صديقاً حميماً أو جداً كبيراً لأسرة من الأسر فدخل في محنة التطهير من الآثام. وتسمى هذه عندهم بالتناسخ أو انتقال الأرواح وحلولها.

6 ـ **الدينونة**: عندما تخرج روح الإنسان من بدنه ترسل إلى الامتحان. فان كانت أعمالها حسنة تصعد إلى السماء عند الإله ايندرا وتنال السعادة الأبدية هناك. وان كانت أعمالها سيئة تقع في واحدة من دور جهنم التي عددها ثمانية وعشرون جهنماً، وهناك تطعم الروح الخبز على شكل أرغفة من النار. وأما الزبانية فينهشونها نهشاً ولا يمكن أن تبقى الروح خالدة في السماء أو في جهنم مدة طويلة. وإنما تنزل إلى الأرض ثانية للدخول في جسم المخلوقات. فأما الروح الطيبة فهي تدخل في جسم أحد الآلهة أو أحد المقربين إلى الإله الأعظم. وأما الروح الشريرة فتنتقل إلى جسم شخص شرير أو جسم كلب أو حمار، وقد تنتقل إلى النباتات. وتبقى الروح تعلو وتسقط مرات عديدة حتى تعلو رويداً رويداً وتصبح من الأرواح الطيبة. وقد تحتاج لغرض هذه التصفية إلى مدة لا تقل عن أربعة وعشرين ألف ألف سنة. فإذا انتهت هذه المدة وطهرت الروح من جميع الأدران المعلقة فيها تعود حينذاك إلى براهما منبعها الأصلي.

7 ـ ان البرهمية تنكر الذات الإنسانية كما تنكر الذات الإلهية إذ تعتبر الآلهة بغير ذات مشخص، وتؤمن كذلك بتناسخ الأرواح وهو نظام لانتقال الأرواح بين الأحياء لا تعلم حقيقته.

وتؤمن كذلك بالدورة العامة في الكون. فقد ينقلب الكون من حال إلى حال وتنتقل الروح من جسد إلى جسد.

ويعتقدون أيضاً أن الآلهة التي هي من الصنف الثاني الموجودة في السماوات السفلى وعددها ثلاثة وثلاثون مليوناً لا بد أن يتجسد كل واحد منها بهيئة من الهيئات. فهم يترقبون دائماً ظهور آلهة

متجسدة. ومن الغريب ان فرقة منهم ادعت ان الجنرال نكلسن البريطاني إنما هو متجسد وشرعوا بعبادته ولبسوا لأجله برانيط تقليداً له. ولما اتوا إلى خيمته طردهم. فزعموا أنه غضبان عليهم لخطاياهم فشرعوا بالتوبة والاستغفار، يلطمون وجوههم ويقرعون صدورهم لكي يسترضوه وليقبل توبتهم ويغفر خطاياهم. ولما قتل الجنرال، قتل رئيس هذه الفرقة نفسه ليلحق به[1].

ولا نهاية عند البرهمين للزمان أو المكان. فقد مدوا نطاق الكون وسعة الفضاء لدرجة لم يسبقها إليهم أحد من المتقدمين. فقد اعتبروا عمر الكون بضعة ملايين من السنين وسيبقى بعدها ملايين آخرى ينتقل من حال إلى حال.

8 ـ وبينما كانت العبادة عندهم عبارة عن تقديم الهدايا للآلهة، إذ تعقدت وأصبحت مشوشة ومضطربة قد تشغل الإنسان عن أعماله طيلة حياته وظهرت التفرعات الكثيرة الواجب رعايتها في العبادة. وفي الأدعية الاغتسال والاستحمام وفي اللباس والزينة والأكل والشرب وفي النوم واليقظة والقيام والقعود وفي كل حركة وكل عمل مهما كان اعتيادياً، وكثرت المحرمات حتى لأبسط الأعمال. فقد كان من المحرّمات القفز فوق مربط البقرة والركض في المطر وشرب الماء بالراحتين وحك الرأس بكلتا اليدين وقطع الحشائش بالأظفار وقتل الحيوانات... الخ... وان الذي يجتنب هذه المحرمات وأمثالها يكون قد آخلص للإله الأعظم، فيكون من المقربين. أما المتساهل فتذهب روحه إلى إحدى الحيوانات وهناك الطامة الكبرى.

9 ـ ان من أول الواجبات المترتبة على كل برهمي هو أن يكون طاهراً ونظيفاً، وان الأوساخ تكون سبباً لدخول الأرواح الخبيثة فيه. فقد تنتهي حياة الشخص وهو بحالة أشبه ما تكون بالجنون لتأمين الطهارة والنظافة في البدن. وعلى المجرمين والمتهاونين في الأحكام والفرائض الدينية أن يتوبوا عن خطيئاتهم وتقصيراتهم. وعلى من يسبب هلاك بقرة بدون قصد أن يكتسي جلدها باستمرار مدة ثلاثة أشهر لينال العفو عن هذه الجريمة. ولأجل التخلص من الذنوب والخطيئات وبقاء الروح صافية وبدون دنس، على المرء أن ينزوي ويتخذ التجرد والانعزال عن العالم طريقة له. وهذه هي ناحية الخمول والكسل في هذا الدين. وغالباً ما يرجح الشيوخ والكهول طريقة التجرد عن العالم لتجنب الوقوع في الخطايا فيقضون بقية حياتهم في الصوم والأعمال المضنية والوقوف عراة تحت الأمطار الغزيرة والمكوث تحت أشعة الشمس المحرقة وأعمالاً أخرى مشابهة لهذه. وكل هذا لتأمين الغفران. ففي هذه المدة يقضي الشخص عمره بالاستعطاء والاستجداء ويكون عالة على المجتمع فتكون يده ممدودة للمحسنين دون أن ينطق بكلام. والبعض منهم يشقق جلده بالموسى أو يغرز المسامير في جلده. والبعض الآخر يطبق اصابعه في راحة يده ويغرس أظفاره فيها حتى تصل العظام من دون أن يتأوه أو تظهر عليه علائم الألم والاكتئاب. وفيهم من لا يتخذ لباساً مطلقاً فيقضي عمره عرياناً. ومنهم من يكون دأبه إلقاء نفسه في الأوحال والأقذار. ومنهم من يمكث واقفاً على رجليه أو متكئاً الى

---

(1) ان هذه الحادثة تذكرنا بأولئك الذين راحوا تحت تأثير السبائيين وحبهم للإمام علي بن أبي طالب وقالوا له أنت إلهنا أنت خالقنا أنت رازقنا. فارتاع الإمام ودعاهم إلى التوبة. ولما أصروا تحت تلقينات عبد الله بن سبأ أمر الإمام باحراقهم في النار. فصاحوا وهم يحترقون لا يحرق بالنار غير رب النار فأنت الله حقيقة.

شجرة مدة سنوات لا يرقد لحظة واحدة. ومنهم من يشبك يديه ويضمهما على رأسه دائماً والناس تلقمه الطعام كالأطفال. ومنهم من لا يستعمل رجليه أبداً فيرقد دائماً ولا يتحول عن موضعه إلا بظهره. ومنهم من يحلق شعر رأسه ويربط رجليه في غصن شجرة ويبقى معلقاً فيها حتى ينبت شعر رأسه مجدداً كما كان. ومنهم من يكابد العذاب على أرجوحة دينية وهو أن يلقي نفسه إلى الأرض فيعلق بعض الرجال الأرجوحة في لحم ظهره بصنارتين من الحديد ويربطونهما على طرف سارية الأرجوحة التي تدور على رأس عمود عالٍ ويديرون السارية ويدور معها المعلق فيها سابحاً في الهواء. ويقال ان بعضهم يبقى معلقاً خمس دقائق وبعضهم نصف ساعة. ويقال إن إنساناً واحداً تعلق في اليوم ثلاث مرات فمدح وعظم قدره من الجميع لأنه تخلص من جميع خطاياه. ومنهم من يقدم نفسه ضحية لمعبوده بطرح نفسه تحت عجلات عربة ذلك المعبود في يوم عيده عندما يطوفون به في الشوارع والأسواق ويكون هذا غالباً في عيد يوم الإله الأعظم الذي هو أعظم الأعياد عندهم ويحضره أكثر من نصف مليون نسمة، فيقع تحت عجلات عربة هذا الإله الثقيلة عدد وافر من الزوار. ومنهم من يضع مريضه بساحل نهر الكونك لتأخذه الأمواج ويطهر من الخطايا. وأما الذين يذهبون إلى نهر الكونك للاستحمام والتخلص من الخطايا والذنوب فلا عد لهم ولا حساب.

ان الأعمال الشديدة التي يقوم بها هؤلاء المتدينون كثيرة جداً لا يمكن تسجيلها. والقصد منها جميعاً هو التغلب على الرغائب والاحتراصات البشرية وإزالتها من القلب وولوج باب الموت طاهراً من الأدران البشرية. كل هذا لكي يصل إلى براهما مباشرة وهو منزه عن كل عائق يعترضه.

10 ـ ولا يمكن لكل براهمي ان يسلك هذه الطريقة. وإذا ما أراد شخص ما ان يسلكها فعليه أولاً أن يقرأ كتاب الـ «وهدا. الدعاء» ويراعي جميع الأحكام الدينية ويكون رئيساً لعائلة. وقبل كل شيء عليه أن يذهب أولاً إلى جبال «مه رو» الواقعة في الشمال الغربي من الهند ويبقى عرياناً تحت أشعة الشمس حتى يمتلىء بدنه نوراً من ضيائها. إن جبل مه رو هو فرع من جبال هملايا الغربي، وهو الجبل المقدس عندهم. ويظن أن الهنود الآريين هؤلاء قد مكثوا في هذا الجبل مدة عند قدومهم إلى الهند فاعتبروه المنزل الأول من هجرتهم الموفقة.

وفي الكتاب الديني المسمى «مهابراتا» وصف لهذا الجبل حيث يقول: ان جبل «مه رو» عال ولطيف ومكسو بالخضرة والأشجار. يقع في منتصف طبقات الأرض السبع «ولذلك سمي (مه رو) بمعنى مركز». فإن الشمس بقدرتها وعظمتها تتجلى على الجبل.

وذكر في كتاب «مانو» أموراً كثيرة حول المسائل الوجدانية. يقال فيه «ان الشاهد لا يمكن أن يشهد ويعترف بالحقيقة الناصعة. لا يمكن الوصول إلى العدالة ما لم يعترف بالحقيقة. فلأجل الوصول إلى العدل يجب عدم كتمان الحقائق. إن الروح هي التي تشهد على الإنسان، فيجب تخليصها من الشهادات السيئة. نسي أرباب السيئات ان لم يرهم أحد، ان الخواص الروحانية أو القدرة الإلهية الموجودة في قلوبهم هي أكبر شاهد عليهم. إلا أن الجزاء لا يمكن أن يظهر بسرعة ولا بد له من مرور زمن كنمو البذر في الأرض. ويمكن التخلص من الجزاء خلال هذه المدة بالاعتراف بالذنب وإعطاء الصدقات والندامة على ما مضى وغير ذلك.

يظهر مما مر ان دين براهما منكر للسعادة المادية والدنيوية ويعتبر آن الدنيا ما هي الا ميدان لامتحان الحياة البشرية. وقد اعترض «زانكيا» على بعض أحكام هذا الدين ووضع قواعد أخرى له كسائر رجال الاصلاح والأديان المختلفة. فكان الكتاب المسمى «باكوادجيتا» أي انشودة الرب يحث الناس على الفعل والعمل.

11 ـ يقول المقريزي ان البراهمة أصحاب برهم ينكرون نبوة البشر وهم طوائف كثيرة منها «البردة»، وهم زهّاد عبّاد يهجرون اللذات الطبيعية وهم أصحاب الرياضة والتناسخ، ومنها البهادرية والناسوتية والياهرية والكابلية حتى إن فيهم من يجهد نفسه بالرياضة حتى يسلطها على جسده فيصعد في الهواء على قدر قوته. ان هؤلاء الهندوس ينفرون أشد النفر في بلادهم من فرقتين يسميان «الباريا والبوليا» وهما طبقات الانجاس ولا يختلط بهما أحد مطلقاً. وإذا قرب احدهما من أحد البراهمة فلا يبعد عليه قتله. كما وانهم يرون في كل فرد من أصحاب الديانات الأخرى نجساً يجب اجتنابه.

12 ـ نبغ من بين البرهمانيين حكماء اشتغلوا بالفلسفة والشرائع ودونوا الكتب والأحكام منها الكتاب المسمى «صاشه اوشتر» وكتاب آخر اسمه «ويدا او فيدا» وهما من أهم الكتب الدينية عندهم. ان كتابهم الديني المسمى «كيتا» أو «ويدا» أو و«فيدا» هو بمثابة القرآن عند المسلمين قداسة والإنجيل عند المسيحيين. وهو يقسم إلى أربعة أقسام:

1 ـ الرجفبدا وهي مجموعة من الشعر تحتوي على أناشيد الكهنة والعائلات المقدسة والإله السوما «القمر» وأساطير وقصص خرافية أخرى.

2 ـ السامافيدا وهي أيضاً مجموعة تحتوي على اشعار موجهة إلى إله النار اجني وإله المطر اندرا.

3 ـ يورجافيدا يرتلها الكهنة وقت اشعال النار المقدسة.

4 ـ فافيدا وهي أناشيد تتلى للبركة والزواج وضد الشياطين.

وما عدا هذه الكتب المقدسة لديهم كتب دينية أخرى كثيرة منها كتاب «ساطا باطا» البرهمي. ومما جاء فيه ان الذهب اكسير الحياة الخالدة، وان الشمس هي التي وهبت له لونه الجميل، وهو يستمد بريقه من نور إله الشمس وانه البذرة الأولى التي ولد منها الإله «اجنى» إله النور والنار، وهو المادة الخالدة التي تعطي الخلود للملوك والحياة الطويلة والأولاد الكثيرة للناس، وهو مصدر الحياة والخصب، وما كان نزول الآريين من جبال همالايا إلى الهند إلا للعثور على مناجم الذهب.

13 ـ تقول نظرية التكوين عندهم إن جميع الدقائق والذرات في هذا الكون، وحتى الشمس والقمر والنجوم، منبثقة من الإله الأعظم برهمان. وكانت هذه الدقائق يومئذ عديمة الترتيب فخلق براهما بيضة من ذهب كبيرة ودخل فيها ومعه جميع هذه الدقائق والذرات. وبعد آن مكث فيها آلاف الملايين من السنين، وهي عائمة فوق الماء، خرج وآخرج معه الدقائق والذرات مكونة لهذا الكون منسقة أحسن التنسيق. وهي آربعة عشر عالماً منها سبعة تحت أرضنا وسبعة فوقها. فآما العوالم السفلية فهي قوم المخلوقات الشنيعة والعلوية مقام الآلهة.

ويعتقدون أن لهذا العالم بداية ونهاية وان الإله براهما يملؤه بذاته، وأن الأرواح بعد الموت

تتناسخ فتمر من جسد إلى آخر. والذي يعاقب على ذنبه تنتقل روحه إلى جسد احد الحيوانات الدنيئة كما ذكرنا. وهذا الاعتقاد هو الذي يمنعهم عن ارتكاب الذنوب وأكل لحم الحيوانات.

فلهذا كان قتل الحيوانات بوجه عام محذوراً عندهم وخاصة البقر خوفاً من أن يكون قد حل فيه إله من الآلهة الأولى. ويعتقدون أن أكبر الكبائر في القتل خمسة أنواع إذا تعمدها الإنسان لا يسامح أصلاً: الأولى قتل احد البراهمة، الثانية قتل ملك، الثالثة قتل امرأة، الرابعة قتل صاحب، الخامسة قتل بقرة. وان قتل البقرة أعظم جرماً من كل قتل ما عدا الأربعة السابقة.

14 ـ وأما المعابد والهياكل الخاصة لهذه الأمة فهي كثيرة جداً ويوجد في كل زاوية من زوايا الهند معبد للعبادة. وهناك بعض المعابد على جانب من عظيم من الأهمية منها في مدراس ومنها على نحو خمسة أميال من أحمد آباد وهو على صورة البيت الحرام في مكة وفيه الهياكل والتماثيل، ومنها في بلدة «مدور» الكائنة في جنوب الهند ويحيطه سور عظيم، وعلى الأبواب أبراج علو الواحد منها سبعون ذراعاً وقد نقشت عليها الأصنام ذكوراً وإناثاً. وفي داخل السور 50 بيتاً مخصصاً للعبادة. ويقال ان عدد خدام المعبد الذين يلازمونه دائماً يبلغ 736 شخصاً منهم أربعون امرأة للرقص امام الآلهة. ومصروف هذا المعبد يتحصل من خراج 150 قرية موقوفة له.

15 ـ يصف الأوروبيون الذين عاشوا في تلك البلاد مدداً طويلة أن الهنود قد ينذرون اطفالهم للمعبد ليكونوا خدماً أو راقصات طوال عمرهم تقرّبا إلى الإله «فشنو» وزلفى له. فتأخذ النساء الخادمات في المعبد الطفلة تحت رعايتهن حتى إذا بلغت السادسة أو السابعة من عمرها، وتكون قد حذقت فن الرقص والغناء، تقدم إلى الكهنة لإيفاء النذر باسم الإله. وعند ذاك يطلق عليها اسم عاهرة الإله ـ ديفاد اسبس.

16 ـ ولهم أيضاً مدن يحتسبونها مقدسة بجملتها ويحجون إليها ويقصدون زيارتها، منها مدينة «بارس» موطن البراهمة. ويزعمون أن من مات فيها يخلص لا محالة من كل حساب. ومدينة «اوديان» وهيكل «جفرنوت» وغيرها.

17 ـ وأما عبادتهم اليومية فهي أن يأخذوا الأوثان ويغسلوها ويدهنوها بالطيوب ومن ثم يصلي الكهنة لها والنساء تغني وترقص امامها.

18 ـ ولهم أعياد مخصوصة يحيونها باحتفال عظيم. وقد يجتمع مئات الألوف من الزوار ويجرون الأصنام بعربة في شوارع المدينة والقرى بالتهليلات والأغاني الدينية ويجمعون الدراهم من الشعب ليعملوا بها وليمة لها. وعلى الرغم من انتشار اليهودية والمسيحية والإسلامية في أنحاء الهند فلم تنقرض الوثنية من العالم الشرقي.

19 ـ وكان من عوائد الهنود حرق جثث موتاهم بالنار. وقد تطورت هذه الحالة حيث أصبح الواجب الاخلاقي والديني على كل من مات زوجها ان تحرق نفسها معه وهي حيّة طائعة مختارة. وكانوا يعتقدون أن المرأة تفعل ذلك إكراماً للآلهة لكي تخدم زوجها في العالم الآخر. ويعتقدون أن براهما كان قد تجسد مرة وتزوج عدة نساء، ولما مات احرقت أحب زوجاته إليه نفسها فصارت سنّة متبعة بينهم. وان من العادة ان أقدم زوجات الميت هي التي تفعل ذلك. فإذا أبت الأولى فعلت الثانية. وكان

إقدام النساء على الموقد يختلف باختلاف الجرأة والشجاعة عندهن. وهناك من تثب على الموقد وتحتضن زوجها وتحترق معه ولا تصرخ ابداً. ومنهن ضعيفات الإرادة لا تدخلن إلا بالادعية البراهمية وبترغيب الأبوين وبكمية كبيرة من الافيون. وكان حينما تلقى في النار تضرب الآلات والطبول وتوهج النار بالدهن الخالص لكيلا يسمع صراخ نكيدة الحظ وتوسلاتها. ويقع اللوم بهذا على رجال الدين الذين يعظون النساء بأن كل امرأة تحترق مع زوجها لها بعدد كل شعرة من رأسها تمتع ألف سنة بعيشة راضية. فلذلك كان كثير من النساء يقدمن على النار من غير خوف ولا حزن بعد ان يهبن حليهن للمعابد ولرجال الدين ولأحبائهن.

ومن حسن حظ النساء الهنديات ان البريطانيين عند احتلالهم الهند قد أبطلوا هذه العادة الشنعاء النكراء واتجه سلطان الكهنة إلى الاضمحلال وانعقدت جمعية خيرية بين البراهمة لأجل إبطال هذه العادة الوحشية. وكان أول زيجة أرملة هندية وقعت في شهر حزيران/يونيو سنة 1869 بحضور جمهور من الرؤساء والذوات المعتبرين. ولعل رجال الدين والكهنوت اصبحوا متذمرين من تسامح الناس في أمور دينهم ولعلهم نادوا بالثبور وعظائم الأمور لهذا التهاون وأوجسوا خيفة من انتشار اللادينية بين الشباب. وبعد أن خرج الانكليز من الهند واكتسبت البلاد استقلالها التام أصدرت الحكومة الوطنية دستور البلاد الوطني وجعلت فيه الأديان تبعاً لرغبات منقذها الأعظم غاندي حرة وبالتساوي للجميع ودون ان تتقيد هي بدين رسمي.

الفصل الخامس الديانة البوذية

يقال ان كلمة بوذه تأتي بمعنى الفهم والإدراك والحكمة والمعرفة والنور.

ولد بوذا من عائلة مالكة في شمال بلاد الهند سنة 623 قبل المسيح بمملكة «كيبلا». وهي واقعة في شعوب جبال همالايا. وعندما ماتت أمه وهو طفل صغير ربّاه أبوه وزوجه وهو ابن 16 سنة. ولما كان بوذا يميل إلى السكون والراحة والتفكير والدرس والتنسك هرب من لدن أبيه والتحق بجماعة من حكماء البراهمة لكي يتعلم علومهم. وبعد أن وقف على خفايا دين البراهمة شرع في الاختلاء بنفسه للتأمل والتفكر مدة ست سنوات حتى انكشفت له المعرفة، وكان حينذاك جالساً تحت شجرة. ومن ثم سمى نفسه بوذا أي المنور. وعندما انكشفت له هذه المعرفة شرع ينشرها بين الناس لإصلاح الدين البرهمي فأخذ يظهر الكرامات والمعجزات فآمن به خلق كثير. فطاف في المدن الهندية وخاصة في بنارس وجميع بلاد شمال الهند وعلّم مدة 45 سنة إلى أن مات وهو ابن ثمانين سنة من عمره. وانتهى الأمر بأن تغلبت تعاليمه على تعاليم الدين البرهمي في الهند. وبفضل جهود تلاميذه انتشرت تعاليمه حتى وصلت إلى الصين عام 370 بعد الميلاد. وانتشرت كذلك في جزر الهند الشرقية وسيام واليابان ونقلت ملايين الناس من الدين البرهمي الى عقيدة أفضل وأرقى فأصبح عدد معتنقي هذا الدين ما يربو على مئات الملايين من النفوس البشرية.

ذكر العلامة نوفل في كتابه أصول العقائد والأديان ما ملخصه:

لما كانت القوانين والأحكام البشرية قاسية جداً فقد شرع بوذا بإصلاح هذا الدين ووضع أسسه على أنظمة بسيطة مبنية على الرأفة والحلم. وكان تاريخ بوذا مقسّماً إلى 12 قسماً: الأول تاريخ حياته لما كان في السماء الرابعة واختار لنفسه ان تلده «سود هورانا» آمه. (2) نزوله من السماء إلى الأرض بهيئة فيل أبيض كأنه شعاع ذو خمسة ألوان. (3) ولادته من خاصرة آمه اليمنى مع حدوث معجزات كثيرة وتكلمه عما سيقوم به من الأعمال حين ولادته بفصاحة فهمها الجميع. (4) تسميته باسم ثارفا ويحتمل أن يكون معناها المخلص. ثم موت أمه بعد ولادته بسبعة أيام واعتناء خالته به. (5) اختياره زوجة له اسمها كوبا وهي أيضاً من الآلهة المتجسدة. (6) تركه بيت أبيه وتقشفه بأحكام الدين البرهمي. (7) احتماله الآلام وذهابه إلى البرهميين للتعمق بالدين وسكناه تحت ظل شجرة للتفكر والتأمل. (8) احتماله تجربة ماريا إله الظلام والخطايا والموت وصموده تجاهه بكل شجاعة. (9) تذكره ولادته السابقة وتكوينه الكائنات، ووصوله إلى المعرفة الحقيقية، وعدد أسمائه الاثنا عشر ألف اسم، ووقوف كل الكائنات على خبر وصوله وعودته، وخبر التاجرين اللذين أتيا من بلاد بعيدة ونظراه قبل كل أحد من البشر وقدما له عسلاً ولبناً، وغيره. (10) خبر ابتدائه في تعليم الدين واجتماع الرجال والنساء والأغنياء والفقراء والمرضى حوله وإيمان كثيرين من الحكام والأغنياء به

وبناء مدينة سرافاستي أي مدينة السماء على شاطىء نهر الكنك الشمالي في الهند، وبناء دير فيها حيث عيّن رسله وعمل المعجزات، ومجادلته الفلاسفة وغلبته عليهم وعلى كل الحيل والشراك التي نصبت له. (11) خراب مدينته وإهلاك كل قومها قبل موته بمدة قصيرة. وموته وله 80 سنة من العمر. وحدوث اضطرابات عظيمة في الطبيعة عند موته. (12) عدم احتراق الخشب والحطب الذي جمعوه ليحرقوا به جسده وخروج نار من صدره وحرقها جثته وحدوث شغب عظيم للحصول على عظامه التي كانت بيضاء كالدر وكانت تفوح منها روائح سماوية. ولما كان بوذا قد مات قبل المسيح بخمس مئة وثلاث وأربعين سنة فان تشابه بعض علامات السيد المسيح بهذه الأسطورة قد جلبت أنظار المحققين، فادعى النابهون من الربانيين المسيحيين ان الشيطان لما علم ان السيد المسيح سيجيء بعد خمسمائة سنة أراد تشويه سمعته فألقى على قلب بوذا وأتباعه هذه العلامات (؟!).

وفي أساطير البوذيين ان بوذا جلس يوماً تحت الشجرة وصاح «أنا أعظم من في العالم. أنا الرئيس الكبير. أنا أشرف الدنيا. وهذه هي ولادتي الأخيرة». وروى عن نفسه أنه عاش عدة أجيال في عوالم أخرى غير الأرض ثم انتقل وسكن في السماء السادسة فمضى إليه الإله براهما وغيره من الآلهة وطلبوا منه أن يظهر بالجسد هذه المرة في الأرض فقبل طلبهم وتجسّد وأقام 29 سنة في حالة الغنى العظيم و6 سنين في حالة الزهد والتقشف والسكن بالبرية ثم مضى وجلس تحت شجرة حتى أعلن أنه رب الكون ورئيس الآلهة كافة فأخذ البراهمة يبشرون به ويعظمونه. وظهر له هناك الإله «ماريا» إله الظلام لكي يمنعه عن تملك الكون فجعل ظلمة حالكة على وجه الأرض وبقي بوذا يشع الضياء والنور اكثر من الشمس دون خوف ووجل، وأمر الأرض ان تثبت حقه في الكون فارتجفت مئة ألف مرة فخاف «ماريا» وأقرّ بسلطته. وللحال ظهرت الآلهة والبراهمة لخدمة بوذا، ومن ثم صار رئيساً لجميع الآلهة.

أقام بوذا دينه على أساس الرحمة والحنان والشفقة نحو الضعفاء ومن جملتهم المرأة ومكافحة الألم والشر في العالم عوضاً مما كان عليه الدين البرهمي من القواعد والقوانين الجائرة والظالمة. ولئن كانوا يعتقدون بإله واحد فوق الآلهة إلا أنهم لم يتركوا الأوثان والأصنام كالهنود، فهم والحالة هذه وثنيون. وأما ما يتعلق بالروح فهي ان أرواح البشر والحيوانات كلها خالدة ومن مادة واحدة ولا تختلف إلا بالنظر لظروفها، وان لهذه الأرواح ثواباً وعقاباً بعد الموت بالنظر لأعمالها. فأما الثواب فهو الخلود في دار السعادة الأبدية وتسمى «جوكورا كف» وتسمى أيضاً عالم «النرفانا» أي عالم الآلهة. فالسعادة تكون بالنظر لاستحقاق الشخص وبنسبة أعماله الخيرية على أن يحس بنفسه أنه أسعد الأشخاص لئلا تنغص عليه حياته بوجود أسعد منه. لذلك كان الوعي عند البوذيين أساس كل بلاء. ولا يمكن التخلص من الآلام الدنيوية إلا بالتخلص أولاً من الوعي والفكر ثم التخلص من الجسد للدخول في عالم النرفانا ـ عالم الآلهة، وهو دار السعادة الأبدية. والنرفانا قد تخلص الإنسان من الوعي فلا يعي ذاته ولا يعي غيره. وان الذي يصل إلى عالم النرفانا لا يولد بعد ذلك ولا يدخل في الأجسام الحيّة مرة أخرى. وان إله دار السعادة أو دار الخلود يسمى «اميديا» وهو يحب البشر ويغفر لهم خطاياهم ويكون التقدم إليه وجلب رضاه بالتقوى وبأعمال البر والمحافظة على قواعد بوذا

العشرة. والذين يخالفون هذه الأحكام ترسل أرواحهم إلى دار الشقاء وتسمى «دسيجوكف» لتتعذب فيها بالنسبة لمخالفتها فقط، وليس العذاب إلى الأبد إنما بحسب ذنوبهم. وان إله العذاب هو جيما ويسمى أيضاً جرجيما. ومن جملة معتقدات البوذيين آن لدى الإله بوذه عدسة مكبرة يرى فيها ذنوب الخاطئين فيعاملهم بما يستحقونه من نعيم وعذاب. على ان دعوات أهل الميت وخيراتهم تؤثر في تخفيف العذاب بدرجة محسوسة. وان أفضل الدعوات والمبرات هي ما يقوم به الناس من خدمة للدين ومن تقديم الهدايا والقرابين للآلهة والمعابد. فإن استرضاء الإله اميدا يجعل الإله جيما يطلق سبيل المعذبين ويردهم إلى دار السعادة الخالدة.

وان لم تقدم الهدايا والقرابين ولم يستجلب عطف الآلهة ورضاها فيكون العذاب كاملاً ومتناسباً مع درجة المخالفات بدون زيادة أو نقصان، ثم ترسل الروح مرة أخرى لتدخل في جسم حيوان فيصير في حية أو في ضفدع أو في سمكة آو حمار آو فرس. ثم يرتفع رويداً من جسد إلى جسد آخر أعظم منه، حتى يدخل جسد إنسان مرة ثانية. فإن سلك طريق الصلاح والتقوى وقدم الهدايا والقرابين إلى المعابد، دخل في عالم النرفانا أي في دار السعادة الأبدية، وخلافاً لذلك ترسل روحه مرة ثانية إلى دار العذاب وإلى الدخول في دورة تناسخية ثانية.

وأما نظرية الخلقة عند بوذه فهي ان العوالم في حركة دائمة من الأزل تظهر وتتلاشى. والحقيقة هي أن شيئاً يخلق شيئاً. وهذا الدوران ليس له سبب، ولذلك لا بداية لهذا الكون. اما العوالم فلكل منها اسوار حديدية ولكل منها شمس وقمر ونجوم. وتقسم السماوات إلى آقسام عدة وان الآلهة تسكن في سماء السادسة والعشرين.

أربعة أشياء عند البوذيين لا تقدر: (1) علوم بوذه (2) مساحة الفضاء (3) عدد الأجسام الحية (4) عدد العوالم. وان من يقول خلاف ذلك يكون قد كفر.

ولما كثرت الأساطير حول بوذه انقسم اتباعه إلى شماليين وهم آصحاب تيبت ورئيسهم «اللاما» والجنوبيين المنتشرين في آسيا الجنوبية والشرقية والجزر.

يحلل بوذه فلسفة اللذة والألم فيقول: (1) اللذة الناقصة تؤلم (2) طلب اللذة ألم (3) للتخلص من الألم يجب الابتعاد عن طلب اللذة (4) لمنع الألم يجب اتخاذ الطريق الأوسط. فكان دستوره العام خير الأمور اوسطها.

ان الخطايا عند البوذيين هي: (1) الاسترسال بالملذات (2) سوء القصد والنية (3) الغباوة والجهل.

وآما الوصايا العشر البوذية فهي كما جاءت في الفلسفة البوذية:

1 ـ لا تزن.

2 ـ لا تسكر.

3 ـ لا تكذب.

4 ـ لا تقضِ على حياة.

5 ـ لا تأخذ إلا ما يُعطى اليك.
6 ـ لا تأكل في الليل طعاماً غير ناضج.
7 ـ لا تقتنِ الأثاث الفاخر.
8 ـ لا ترقص.
9 ـ لا تستعمل العطور.
10 ـ لا تقتنِ ذهباً وفضة.

ولم يذكر بوذه في تعاليمه شيئاً عن الله الخالق. إنما اثبت الثواب والعقاب بعد الموت فقط واعتبر الثواب هو السعادة الأبدية لكل إنسان حسب استحقاقه منها بالنظر لمحافظته على نواميس بوذه وتعاليمه ووصاياه العشرة. والعقاب للذين يخالفون تلك الوصايا فان أرواحهم ترسل إلى دار الشقاء ليعذبوا فيها إلى حين، ثم يرسلون إلى التناسخ.

الفصل السادس المعتقدات الصينية

1 ـ المشرّع «لاو ـ تسو»: ان اقدم مشرّع ظهر في الصين هو «لاو ـ تسو» ومعنى لاو المعلم. فالشرع الذي وضعه هذا المشرع ينحصر في عبادة الآباء والأجداد والملوك القدماء والأسلاف كافة باعتبار أن أرواحهم اصبحت لا تتأثر بالقوانين الزمنية ولا تشملها القواعد الحكومية، فلذلك في وسعها أن تؤثر تأثيراً مباشراً على مقدرات الأحياء. فكان لا بد من استرضائهم بعبادتهم لتأمين استقرارهم في لحودهم.

2 ـ المشرع «فو ـ هي»: يعتبر الصينيون أن واضع الدين الصيني الأقدم هو «فو ـ هي». فقد وضع هذا المشرع تعاليمه على أساس مادي وعملي صرف مما لها علاقة مع المعاملات الزمنية والأمور الدنيوية ولا علاقة لها مع السماء وبالمغيبات. فقد تنحصر في تسهيل آمور الناس وتيسيرها وتخفيف وطأة تكاليف الحياة ودفع الهموم والأحزان وجعل الحياة مستساغة لذيذة لا تنغصها المحن والأكدار... فقد تركت هذه الأسس الدينية الناس بدون قيد ديني. فلا يعلمون للحياة الثانية بعد الموت معنى. وجل ما عندهم هو الفناء بعد هذه الحياة.

3 ـ المشرع «لاعو ـ جه»: ظهر هذا المشرع عام «604 ق. م». وقد أجرى تعديلات في الدين الصيني وتتلخص قواعده بما يلي:

ان المادة أزلية أبدية لا تفنى، وان الكائنات خلقت من الفضاء تديرها قوة فعّالة عاقلة، لذلك كانت افعالها واعمالها كافة معقولة. وكانت هذه القوة الفعالة العاقلة تسمى «طاعو». ويعتبر الإنسان تمثال الأرض، والأرض تمثال السماء والسماء تمثال القوة وهي الخالقة للكائنات. ولما كان الإنسان قد حصل من مادة الأرض فإنه يعود إلى الأرض ويتلاشى في التراب. فيجب على الإنسان والحالة هذه ان يتجنب المحن والأكدار ويبتعد عن العواطف والمؤثرات والمزعجات ويكافح الشهوات النفسانية ويتجرد عن الميول والرغبات والاطماع والاحتراصات والأهواء والتجاوز على الغير... فأما الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى هذه المرتبة في تهذيب أرواحهم واخلاقهم، فقد تسقط ارواحهم تحت الأرض وإلى أسفل السافلين. استدامت هذه القواعد الدينية حتى دخل الدين البوذي في الصين عام 65 بعد الميلاد.

4 ـ المشرع العظيم كونفوشيوس او كنفوجيوس او كونفوشو: ويسميه العرب «كنفزه» وهو أحد فلاسفة الصين العظام. ولد في بلدة «لوا» الصغيرة من أعمال بلدة «كنتون» سنة 551 ق. م. قبل الميلاد وذلك قبل وفاة بوذه ببضع سنوات، وتوفي أبوه وله ثلاث سنوات من العمر فكفلته أمه وأحسنت تربيته وغرزت فيه محبة العلم والأدب، حتى إذا ما بلغ أشده دخل في خدمة الحكومة. وفي الرابعة والعشرين من عمره توفيت والدته فاستقال من خدمة الحكومة ليقوم بواجبات الحداد على أمه ومدتها ثلاث سنوات. فدرس خلال هذه المدة التآليف القديمة واطلع على آراء العلماء والحكماء فعزم

على القيام بإصلاح العادات والشرائع القديمة في الصين. ثم انخرط في سلك المعلمين وكثر تلامذته وشرع يتنقل من بلد إلى آخر واعظاً ومعلماً ينشر تعاليمه بين الناس وفي مختلف الأوساط. وفي سنة 506 ق. م. عاد إلى بلده وتقلد رياسة الوزارة ثم استقال منها أيضاً لقضاء بقية حياته بنشر العلم والشرائع الزمنية. ومات سنة 479 ق. م. وله من العمر 72 سنة. وكانت وفاته قبل ولادة سقراط الفيلسوف اليوناني بإحدى عشرة سنة. وكان قد اكتسب محبة الجمهور ليكاد ان يكون بدرجة الآلهة ولا زال نسله عند الأهلين محترماً إلى هذا اليوم.

ويقال ان عبادة هذا الفيسلوف هي الآن ديانة أهل الصين الشرعية والوطنية، وله في كل مكان من البلاد الصينية هياكل وتماثيل وأنصاب باسمه ومعابد لعبادته وتقدم لمذابحه في المعابد أنواع الهدايا والاكراميات. كما وان قد يعبده كافة المعلمين والمعلمات باعتباره رئيسهم الأعلى، كذلك جميع الحكام وموظفي الدولة والشيوخ والأهالي مع انه لم يدع في حياته بالألوهية. وكان قد اكتفى بدساتيره الاخلاقية والحكمية فقط.

5 ـ **مؤلفات كونفوشيوس**: تنحصر مؤلفاته في خمسة كتب ذكر فيها امثاله لإيضاح سنن الكون والطبيعة وشرائع المملكة والحقوق ما بين الملك والرعية وما بين الوالد والأولاد وما بين الرجل وامرأته وما بين الأخوة وما بين الأصحاب وكذلك عن الفضائل والأخلاق. وتحتوي خاصة على «البر والمحبة والحشمة والمعرفة والإيمان وحقوق المرأة». ومما يلفت انه لا يوجد في قواعده هذه أي بحث عن الروح وعن الخيال والإحساس والعواطف والمعتقدات. كما انه لا يوجد فيها اي إشارة عن واجبات الإنسان نحو الآلهة والأديان. فقد تحاشى التكلم عن المعتقدات الدينية وأقام حكمته الأدبية على أساس العقل والذكاء ومكارم الأخلاق. فكان يقول «احترم الآلهة وابتعد عنها والعن كل من صنع صنماً». وبهذا قطع علاقته عن السماء وعن ما وراء الطبيعة وعن العناية الربانية وعن الروح والبعث والحشر والنشر والخلود بالنعيم أو العذاب.

6 ـ **الخليقة عند كونفوشيوس**: أيّد كونفوشيوس ما قاله «لاعوجه» بأن المادة أزلية أبدية لا تفنى. ومنها خلق «شانغ ـ تي» الإله الأعظم الكون والعالم ووضع لهما قوانين ثابتة لا يعتورها الخلل والزلل والفساد. وما هذه السماء بنجومها الوضاءة وحركاتها المنظمة إلا نموذج للنظام العلوي الذي وضعه الإله الأعظم لهذه الكائنات والعوالم. فهو الذي يلاحظ مجرى الكون ويراقب الأعمال ويهب الحياة للأحياء. وهو الذي اعطى للإنسان العقل ليميز به أعماله وأفعاله ومنحه الذكاء والإدراك والمعرفة ليسعى إلى عمل الخير والفضائل والبر والإحسان ومكارم الأخلاق ويتجنب الشرور والرذائل وعقوق الوالدين وكافة الموبقات والمخالفات.

7 ـ **إله الآلهة**: أن أعظم آلهة الصين منزلة وقدراً هو إله السماء «شانغ ـ تي»، إله الآلهة فيتقربون إليه بالذبائح وبإيقاد النيران فوق قمم الجبال وتحت الأشجار وفي المعابد.

ويعتبر الصينيون السماء والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحب والزوابع والصواعق... كلها آلهة تستحق العبادة.

ويعتقدون أن الملك هو ابن السماء وهو وكيل «شانغ ـ تي» الإله الأعظم فوق سطح الأرض

فيصدر أوامره بالنظر لما يتلقاه من السماء فتكون أوامره وشريعته كلها إلهية مقدسة ليس لأحد حق الاعتراض عليها. ومع هذا لا فرق بينه وبين افراد البشر في طاعة الإله الأعظم، وفي اداء الشعائر الدينية.

8 ـ **الخطايا**: يعتبر الصينيون الخطيئة انحرافاً للإنسان العاقل عن فضائله الفطرية ومزاياه الإنسانية الممنوحة له من الإله الأعظم. فقد تتجمع هذه الانحرافات فتكّون خطيئة كبيرة تورث الخلل في نظام الكون وتؤثر على اعمال الحكومة والمجموعة البشرية وحتى الأفراد. ولأجل اعادة النظام إلى مجراه الطبيعي يترتب على الحكومة أن تفرض الجزاء على المخطئين وتعيدهم إلى احترام القوانين وأوامر الدولة وان تسعى إلى سوق الناس إلى عمل الفضائل واجتناب الرذائل وان تمنع ارتكاب الخطيئات، لكي تتولد السعادة بالنفوس البشرية.

9 ـ **التكوين عند الصينيين القدماء**: كان فضاءً مظلماً، وكان كل شيء في وسط ذلك الظلام. فظهر في ذلك الوسط جسم عظيم يشبه الإنسان فأوجد السماء والأرض. ولأجل إزالة الظلام خلق بيده اليمنى الشمس فكان النهار وبيده اليسرى القمر فأزال ظلمة الليل، ثم خلق النجوم. ولما آراد خلق البشر اخذ قطعة من الذهب وقطعة أخرى من الخشب فكّون منهما سحاباً وشكل من سحاب الذهب عنصر الرجل ومن سحاب الخشب عنصر المرأة. وعند امتزاج هذين العنصرين آو الروحين ظهر رجل يسمى بينغ ـ بي وظهرت بنت تسمى خانوئي فتزاوجا فتكاثر البشر من نسلهما.

يعتقد الصينيون أن ذلك الجسم المار ذكره هو الإله العظيم «بون ـ فو وونغ» وكان له معابد في أنحاء الصين كافة.

10 ـ **المعابد**: في أجمل موقع وأوسع شارع من بلدة بكين عاصمة الصين القديمة يوجد أعظم معبد للإله غير المنظور شنكي. وعلى جوانب المعبد توجد عدة مذابح للصلاة والعبادة، أولها مذبح السماء، وثانيها مذبح قبة السماء وفيها تماثيل وأصنام كثيرة لعبادة آلهة الشمس والقمر والكواكب والنجوم، وثالثها مذبح الإله «شنكي» العظيم الذي يعتقد أن عبادته جارية في الصين منذ عام «220 ق. م.». ويقال إن العلماء والفلاسفة الذين لا يعتقدون بالآلهة المتعددة الكثيرة وبالأصنام والتماثيل يعتقدون بهذا الإله فقط ويعبدونه بمعبده. وكان هذا معبد الدولة الرسمي في بكين.

وفي مدينة نانكين معبد قديم تم بناؤه سنة 1430م. تعلو قبته 131 ذراعاً بلط خارجه بالقاشاني الصيني القديم ومملوء داخله بالأصنام المختلفة التي وضعت لمقاصد متعددة. وفيه 125 جرساً كبيراً يقال إن رفات بوذه العظيم مدفونة فيه. وفي مدينة كنتون معابد وهياكل كثيرة يقال ان في احداها يوجد ظفر من أظفار بوذا العظيم. وفي مدينة آخرى قرب البحيرة الغربية معبد عظيم فيه «500» صنم لـ «500» إله، كل إله يحتل تمثاله متى أراد ذلك.

ولكل إنسان صنم خاص يعبده في أوقات معينة. وإذا ما حدث لشخص ما عمل مستعجل ولم يتمكن من عبادة صنمه أو من أداء واجباته الدينية ففي وسعه أن يوكل غيره لعبادة صنمه أو لأداء واجباته الدينية.

11 ـ **الكهنة**: تنقسم الكهنة في بلاد الصين إلى أربعة أقسام: (1) كهنة بوذه. (2) كهنة لاما. (3) كهنة

التونير. (4) كهنة كونفوشيوس. ولكل منهم لباس خاص يعرف به. وتكون ملابسهم وقت الصلاة غالباً صفراء وقطنية أو حريرية ويعلقون عليها مسابح وأجراساً صغيرة ويوقدون الشموع في معابدهم. وقد يذهبون إلى بيوت الأهالي فيقيمون الصلاة لأجل شفاء المرضى. ومع ان هؤلاء الكهنة يختلفون بالفروع فانهم متفقون في قواعد عبادة البشر الأحياء منهم والأموات خاصة عبادة فلاسفتهم وحكمائهم وأسلافهم كافة.

يعيش كهنة البوذيين في أديرة فيها أسباب المعيشة كافة تأتي مصروفاتهم من الأوقاف. وقد يجمعون من الأهالي نقوداً أو أرزاً أو زيتاً وهم يرتلون اسم بوذه فيعطيهم الناس ما تسمح به نفوسهم كفارة عن ذنوبهم.

12 ـ **عبادة الإنسان:** يحتم على كل فرد صيني أن يركع تعبداً أمام والديه وأجداده وأعمامه وعماته وأخواله وخالاته. ولما كان الموتى في منجى من أحكام القوانين الزمنية ولا ينالهم العقاب الدنيوي، فكانوا أقدر على عمل الشر من الأحياء، فلذلك أصبحت عبادة أرواح الأموات عقيدة عامة شائعة بين الطبقات كافة.

13 ـ **الأرواح:** للإنسان عند الصينيين ثلاث أرواح. فعند الموت تذهب الأولى إلى عالم الغيب في السماء، والثانية تبقى في الدار بين الأهل والخلان، والثالثة تذهب إلى القبر مع الجثة. ولكل روح طقوس خاصة ومراسيم متنوعة واحتفالات وولائم مختلفة وطرق ملتوية لطلب الغفران للميت لا حد ولا نهاية لها تدوم ثلاث سنوات. وعند ذاك يقام آخر احتفال ديني تقطع فيه الطقوس وتكون روح الميت قد انقطعت عن الأكل والشرب والضيافات والولائم.

وقد يرسل الكهان إلى رؤساء العائلات الغنية والموسرة اخباراً يكتشفونها من عالم الغيب بأن روح المتوفى لم تزل في حالة من البؤس والعناء والشقاء فيهب رئيس العائلة للتكفير عما تبقى من خطايا المتوفى، فتجدد الاحتفالات الدينية ويوقد البخور وتضرب الأجراس. وطبعاً تكون المصرفات متناسبة مع غنى رب العائلة. ويحافظ الملوك على نفوذهم الدنيوي في السماء بعد الموت. ولهذا السبب كان قد دفن مع الملك المتوفى عام (620 ق. م.) كثير من الخدم والنساء وهم أحياء ليقوموا بخدمته في السماء. ثم تطور دفن الاحياء إلى دفن أشخاص من خشب عوضاً منهم لتقوم بخدمة الملك.

ومن غريب عقائدهم ان أرواح أجساد الغرقى والأجساد التي تبقى بدون دفن في ساحات الحرب تبقى متشردة متسولة لا قرار لها ولا مسكن يأويها فتزعج الناس بالتسول والاستكداء. وقد ينضم إليها أرواح اولئك الذين يتغافل عنها أصحابها وأهلوها وعشيرتها ويتركونها بدون مراسيم دينية فيزعجون الناس بالتسول. وقد يوقعون أصحاب الغنى والثراء خاصة بأنواع الأمراض والمصائب والنكبات فلا يمكن طردها وإبعادها ولا يمكن التخلص من شرورها إلا بإرضاء الكهنة والرهبان.

هذا ما كان عليه الصينيون من المعتقدات في زمن الامبراطوريات. ولعل الحروب المستديمة والانقلابات السياسية والمدنية الجارفة والمذاهب الاجتماعية المعاصرة الحديثة قد رفعت هذه المعتقدات واستبدلتها بأخرى غيرها اكثر ملاءمة لاحوالهم العامة.

الفصل السابع لاما . . . إله التيبت

1 ـ دين الإله لاما فرع كبير من فروع دين بوذه المنتشر في أنحاء الشرق الأقصى. كان قد اتخذ الإله لاما مقره في قصر باتولي قرب مدينة «لارسا» آو «لهاشة» من بلاد التيبت الواقعة في جنوب الصين وشمال جبال همالايا.

2 ـ كان الإله لاما قد تجسد في أحد ملوك الهند قبل الميلاد المسيحي بنحو آلف سنة تقريباً. ولما حضرته الوفاة اخبر تابعيه انه سيعود وآنه سيبقى معهم إلى آخر الدهر. فصدقوا كلامه واعتقدوا أنه عاد كما وعد به وانه لم يزل حياً ينتقل من جسد إلى آخر في شخصية لاما العظيم. ولما يوجس لاما اقتراب منيته بسبب الشيخوخة أو بغير ذلك، يخبر الكهنة بأن روحه قد انتقلت إلى جسد طفل آخر لا يتجاوز الأعوام الستة فيطوف الكهنة البلاد شرقها وغربها للعثور على ذلك الطفل ولهم فيه علامات، حتى إذا ما عثروا عليه اخذوه باحتفال ديني بالغ إلى القصر ليكون ولي عهد اللاما العظيم عند وفاته.

3 ـ كان الإله لاما المسمى عند الصينيين «فو» وعند اللامين «لا» أو «لابي لاما» او «دلاي لاما» يلبس الحلي الذهبية والجواهر الثمينة ويجلس على عرشه الإلهي صامتاً ساكتاً لا ينطق بكلمة واحدة. ولا يمكن أن يقترب منه إنسان خشية ورهبة إلا من كان ملكاً آو أميراً أو قائداً فيضع الإله لاما يده على رأسه ويباركه بدون أن يمن عليه بنظرة، وبدون أن ينطق معه بحرف واحد. وآما عظماء الأهالي فيبذلون جهدهم للحصول على شيء من فضلاته الطبيعية فيضعونها في كيس ويعلقونها في اعناقهم. وعندهم أن ذلك يحميهم من الأمراض. وقد يوضع شيء منه في قمم الجبال أو في سطوح القصور لصيانة الإنسان والمواشي من الأمراض.

4 ـ يعتقد التيبتيون ان روح الإله قد حل في جسد الإله لاما فكان إلهاً بهذا المعنى. ويعتقد الآخرون منهم أنه هو الإله بالذات وبالنفس فيطلقون عليه اسم «لا ـ ماكنجو» ومعناه بلسانهم الأب السماوي الأزلي. ويصفونه بجميع الصفات الخاصة بالألوهية وبالمعبود الأعظم. ويعتقدون أنه لا يموت ولن يموت انما تنقل روحه من جسد إلى آخر. وهو يرى ما لا يراه الناس، يطلع على الغيب وعلى ما يجول في قلب كل إنسان وما تكنه الضمائر.

5 ـ يأتي الزوار والعباد في المواسم المخصوصة لزيارته وعبادته من اقاصي البلاد، ويحملون معهم مختلف أنواع الهدايا الثمينة لتزيين قصره العظيم، وأنواع الهبات والأطعمة والنذور والألبسة والأواني للرهبان والكهان وعددهم لا يقل عادة عن العشرين ألف راهب وكاهن، لا عمل لهم سوى تقديم الطاعات والتسبيحات للإله لاما العظيم. وتكون قرب منازلهم وبعدها عن القصر تابعة لرتبهم الدينية ودرجاتهم في سلسلة المراتب الروحانية.

6 ـ ولما كانت قبائل التتر تعبد الإله لاما العظيم فكان اباطرة الصين السابقون كافة، وهم من عنصر

التتر، يحترمون هذا الإله ويبذلون في سبيله الأموال الطائلة، ويقومون حتى بنفقات سفيره في عاصمتهم بكين من ميزانيتهم.

7 ـ لم يكن نفوذ الإله لاما منحصراً في التيبت وحدها إنما كان يمتد حتى بلاد المغول وفي أكثر البلاد الهندية وفي قلب الصين وشرقيها حتى البحر. وله أعوان وخدم يسمون اللاميين الصغار، لهم سلطان واسع في البلاد ينقاد إليهم الشعب انقياداً اعمى، ولهم مدارس ومعابد يتعلمون في آروقتها وحجرها الفرائض الدينية وقوانين الدولة وشيئاً من الطب وعلم الفلك وغيره.

8 ـ لما دخلت جيوش الصين الشعبية بلاد التيبت عام 1952 اعترفت بالنظام الديني السائد فيها ولم تتعرض إلى الإله لاما بسوء. وذكرت برقيات 4 تشرين الأول 1952 ان الدالاي لاما رئيس التبيت الروحي والزمني البالغ من العمر عشرين عاماً اعلن أن أي مواطن من مواطني التبيت سيكون باستطاعته التحدث معه من الآن وصاعداً، كما وأنه شرع يسوق سيارته بنفسه في شوارع لارسا من آجل مقابلة الناس.

الفصل الثامن الديانة اليابانية

1 ـ **الديانة**: تسمى الديانة اليابانية سينتو Cinto ومعناها «تابع الآلهة»، يدين بها جميع اليابانيين إلا ما قلّ وندر، وعددهم يربو على التسعين مليوناً يقطنون في جزائر اليابان وفي بعض نواحي الشرق الأقصى.

ولما كان التبشير بالأديان لا يتعارض والقوانين اليابانية المدنية طالما لا يخل براحة الملك وهدوئه وسكونه، فقد انتشرت في اليابان الأديان السماوية والأرضية كافة على اختلاف نزعاتها ومبادئها. إلا أن الدين الرسمي السائد في البلاد هو دين «سينتو»، وهو فرع من فروع الديانة البوذية ومؤسس على عبادة الشمس والأوثان.

2 ـ **عبادة الشمس**: كان اليابانيون منذ القديم ولم يزالوا يعبدون الشمس ويقيمون لها تماثيل في معابدهم وهياكلهم ويعتبرون الحصان رمزاً لها في الأرض فيضعون في كل هيكل صوراً وتماثيل كثيرة للأفراس المقدسة.

3 ـ **الآلهة**: يوجد في دين السينتو ربة واحدة هي ربة الأرباب وخالقة العوالم والأكوان «اميتراسوا ـ امو كامي». وكانت قد امتزجت في ما سبق مع الإله «سوسا ـ نو ـ وو». ومع ان اليابانيين يحلفون باسمها في حلفهم الرسمي، إلا أنهم لا يقيمون لها وزناً في أعيادهم الرسمية وفي احتفالاتهم الدينية باعتبار انها في أعلى السماوات لا يهمها أمر العالم ولا تتدخل في أمور البشر اليومية. وقد تركت أمور البلاد إلى آلهة ثانوية أخرى تحت سيطرتها منها امبراطور اليابان ذاته القائم بالعمل فعلاً، ومنها إله السماء «ازاناجي ـ توميكوتو» وزوجته آلهة الأرض «ازانامي ـ نوميكوتو» اللذان حصل من تناسلهما النسل الياباني، ومنها أرواح الصالحين النزيهة المقدسة وهي التي تدير شؤون العالم وأمور الكائنات، ويمكن الحصول على رضاها بالصلاة والدعاء والاستغاثة وإطاعة أوامر الملك وحفظ قوانين المملكة وحسن السلوك والنظافة وطهارة القلب... الخ. فلذلك كان اليابانيون يحترمون ويعبدون هذه الآلهة التي هي بتماس دائم مع البشر تلاحظ أمور البلاد وشؤون محصولاتها وسعادتها وشقاءها وخيرها وشرها.

4 ـ **الأرواح**: ولقد تميز من بين الأرواح المقدسة الكبيرة المسماة «واي ـ زن» أربعة آلهة، الأول إله الصيادين وتجار البحار، والثاني إله الأرز والمال والملبس، والإله الثالث يعبده اليابانيون في رأس السنة فقط، وذلك لكي يبارك في أعمالهم وينالوا نجاحاً وتوفيقاً طيلة السنة، والاله الرابع إله الثراء والصحة والسعادة.

ويلي الأرواح الإلهية الأربع المارة الذكر أرواح الأبطال الذين خدموا الأمة اليابانية وتألهوا بأعمالهم العظيمة وصفاتهم الحميدة. ورئيس هذه الآلهة هو «فاتس ـ مان» امبراطور اليابان السادس عشر، إله الحرب. فقد تذهب عنده جميع أرواح صرعى الحروب والمقتولين في ساحة الوغى. وبما ان اباطرة اليابان كافة من نسل هذا الامبراطور الإله فهم بهذه الوسيلة يحملون جزءاً من الألوهية وهم آلهة بهذا المعنى. وكان هذا هو السر في تفادي اليابانيين في الجندية وفي خدمة الامبراطور الإله.

5 ـ **يوم الدينونة:** وأما اعتقادهم بيوم القيامة والدينونة فهو مرتبك ومضطرب. فهم يعتقدون بالدينونة في يوم الحساب وبوجود دار الثواب ودار العذاب، إلا أنهم لا يفهمون معنى الثواب والعقاب وكيفية وقوعه وماهيته الحقيقية، إنما يعتبرون الثواب في ذهاب الأرواح الصالحة إلى دار السعادة في مكان يقع تحت سماء الثالثة والثلاثين عند الآلهة، والعقاب هو منع الأرواح الشريرة من الدخول في تلك الدار حتى تكفر عن خطيئاتها.

6 ـ **قواعد الدين:** يعتمد اليابانيون في دينهم على خمسة أمور: (1) النار الطاهرة والمطهرة للأشياء. (2) التطهير الروحي ومعناه الخضوع لما يوحيه العقل، والتطهير الجسدي ويقصد به الاحتراس من النجاسة العينية كالدم وأكل اللحوم المحرمة ومعاشرة السفهاء والسباب والشتائم وتلفظ الأقوال القبيحة والمستهجنة. (3) حفظ أيام الأعياد الكثيرة. (4) الحج إلى الأماكن المقدسة التي تبلغ عندهم 22 معبداً وأعظمها معبد إله الشمس. ويحتم على كل ياباني أن يزوره ولو مرة في السنة. (5) عبادة الآلهة في الهياكل والمعابد. ويضاف عند البعض منهم أمر سادس وهو قهر الجسد.

7 ـ **المعابد:** من أعظم المعابد عندهم معبد «ميا» أو «مياكو» ومعناه القصر الملكي أو مسكن الأرواح الخالدة، وهو مقر الامبراطور الروحي الإله.

8 ـ **صنف الكهنة:** ويسمونهم «كانوثري» ومعناه المعلمون الروحيون. ليس لهم في الديانة اليابانية مواقع ممتازة ومراتب ومقامات ورسوم وامتيازات كسائر الأديان، إنما يقيمون بجوار المعابد والهياكل ويعيشون على صدقات الزوار. ويعتبر الامبراطور بحسب مركزه الديني رئيس الكهان الأعظم في البلاد وهو الواسطة بين الآلهة والناس.

9 ـ **الأديان الأخرى:** بناء على وجود حرية التبشير بالأديان، فقد دخلت عقائد كونفوشيوس وبوذا إلى بلاد اليابان وانتشرت في كل مكان وأقامت لها الهياكل والمعابد بجانب هياكل ومعابد السينتو أو الشنتو. ولما لم تلق النجاح الكامل من جانب الشعب، اندمجت في دين السينتو وظهرت بهيئة اصلاحات جديدة ادخلت على الدين فأصبح دين السينتو كجذع الشجرة ودين كونفوشيوس بمثابة الاغصان، ودين بوذا بمقام الزهور كما قال البرنس شوكوتو.

10 ـ ولما كانت تعاليم كونفوشيوس تقضي بالخضوع التام للحاكم ولرب العائلة، فقد أصبحت الطاعة عند اليابانيين ليست فضيلة، إنما بمثابة دين للحاكم والمحكوم والآباء والأبناء والكبير والصغير. وقد صادفت هذه التعاليم وأمثالها كثير مرتعاً خصباً في بلاد اليابان فازدهرت واعطت ثمرتها. وكذلك تعاليم بوذا التي تقضي بفناء الجميع في شخص بوذا لمن يريد لروحه النجاة في عالم اللانهائي فانقلبت إلى تضحية النفس في سبيل المجتمع.

11 ـ **الامبراطور الإله:** ان الامبراطور الحالي «هيرو هيتو» (يوم وضع هذا الكتاب) وهو الرابع والعشرون بعد المائة من اباطرة اليابان وحفيد جيمو Jimmu أول اباطرتهم الذي اعتلى عرش اليابان قبل 2600 سنة وهو حفيد الآلهة «الشمس المحرقة» التي اتخذتها البلاد لرايتها، قد جمع ووحد تحت رايته الملايين من النفوس، كل فرد منهم لا وزن ولا قيمة له بمفرده إنما قيمته بمجموع الأمة في شخصية

الإله الامبراطور، فكان كل ياباني يعتقد من صميم قلبه ووجدانه أنه ابن الشمس المشرقة وهو الذي وهبته الطبيعة القوة والقدرة للسيطرة على الشرق.

12 ـ **المصير المحزن للإله المتجسد:** ولما غلبت اليابان وانخذلت واستولى الأميركيون على البلاد عام 1945، تحطم نفوذ الامبراطور وخرج عن كونه إلهاً وأعلن عن نفسه أنه بشر كسائر الناس لا قدسية كاذبة له ولا ربوبية زائفة. وتم إلغاء ديانة الدولة الرسمية من القوانين الأساسية المؤسسة على تأليه الامبراطور. وقبل الشعب الياباني المذاهب السياسية المعاصرة فتشكلت الأحزاب الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية في طول البلاد وعرضها.

الفصل التاسع الديانة الفرعونية

1 ـ ان الدين هو اقدم شيء عرفه الإنسان. ولعله يأتي بعد معرفته النطق والكلام. ولما كانت الأكثرية من الناس في كل دور من أدوار الخليقة فقراء بؤساء في حياتهم الدنيوية، فقد جاء الكهان بقواعد دينية مما تخفف عنهم فقرهم وبؤسهم، حتى إذا ما فاتهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها يجدونه في اليوم الآخر.

ولقد ظهر من قراءة المسلات وأوراق البردى أن فكرة الدين والتوحيد والعبادة والحساب بعد الموت ووزن الأعمال بالميزان الإلهي والنعيم والعذاب، كانت موجودة حتى عند اقدم الأقوام المصرية. وقد وضع الكهان والرهبان ورجال الدين قواعدها فأحكموا بمرور الزمن اصولها وفروعها وأدخلوها في عقول الناس بحذق ودهاء حتى أصبحت التعبدات الجزء المهم من اعمال الناس اليومية. ولذلك كان المصريون أكثر الأمم الشرقية تعبداً وتمسكاً بأحكام الدين. ومنهم انتشرت القواعد الدينية إلى الأمم المجاورة، فكانت هي والقواعد الدينية السومرية الأساس للديانات المتعاقبة.

كان خلود الروح في نعيم أو عذاب في اليوم الآخر، المبدأ الأساسي في حياة المصريين القدماء. فكان المصري يعتبر الدنيا دار فناء والآخرة دار بقاء. فكان يعيش في هذا العالم للتزود إلى العالم الآتي خلافاً للكلدانيين الذين كانوا يعيشون لهذا العالم لا للعالم الآتي بعد الموت.

وكانت ديانة الفراعنة الأصلية ترتكز على التوحيد. ثم جعلوا كل صفة من صفات الإله إلهاً. فاعتبروا الخالقية إلهاً والحكمة إلهاً والرحمة إلهاً والعناية الربانية إلهاً، وكل صفة من صفات الإله إلهاً، ثم جعلوا لكل شيء جزءاً من الإلهية يستحق العبادة حتى الحيوانات وحتى الدنيا منها والنباتات. فلذلك كان الثور عندهم من أعظم الآلهة كما سيأتي بيانه.

واعتبر المصريون كذلك الملك إلهاً. وهو اصل الشريعة وكلمته نافذة بحكم القانون الإلهي. كما وان منزلة الكهنة عند المجتمع المصري كانت عظيمة جداً حتى ان الملك كان احياناً يجعل نفسه كاهناً.

2 ـ التكوين: تأتي قواعد التكوين في مقدمة الديانة الفرعونية وتتلخص بما يلي:

بينما كانت الأرواح ترفرف فوق البحار وفي الفضاء إذ قد نفذ روح الإله آمون في هذا الفضاء وخلق كل شيء في هذا الكون. وهو منزه عن الخطأ وعالم بكل شيء. وهو غاية الكمال، لا يشمله الزمان ولا يحيط به المكان، خلق السماوات والأرض ولم يخلقه أحد، أبدي أزلي استوعبت قدرته جميع الكائنات. فإن هذه العوالم المرئية ما هي إلا نموذج صغير لعظمته. وهو حاضر وموجود في كل جهة وقد ملأ كل حيز ومكان وأحاط بكل شيء. فإذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون!

وأما كيفية التكوين فإن اقدم اسطورة فرعونية تنص على ان بيضة عظيمة طفت على وجه البحار فخرج منها «رع» رب الشمس فكان أول ما خلق الإلهين الأولين «شو» و«تفنوت» إلهي الفضاء، ثم خلق «توت» إله السماء و«جب» إله الأرض. وعندما تزاوجت الأرض مع السماء ولد منهما «أوزيريس» و«ست» و«نفتيس».

3 ـ **الآلهة المصرية:** وبينما كان المصريون في بادىء أمرهم موحّدين فقد شرع الكهنة بوضع رموز لصفات الإله حتى نسي الناس التوحيد وحل محله التثليث وتعدد الآلهة. فكان المصريون القدماء يعتقدون ان الإله واحد بذاته متعدد بشخصيته وصفاته. فهو الأب والأم والولد الإله الواحد وقد مزج بذاته طبائع مختلفة دون أن يطرأ عليه تغيير. وتتمثل الوحدانية في كل من الطبائع الثلاث. فإن الإله عندهم واحد بالذات، مختلف بالأسماء والصفات بالنظر للفعل والعمل ثم أصبح لكل مدينة إله خاص يطلق عليه هذا الوصف. فكان «آمون» إله طيبة و«رع» إله هيلوبولس و«توت» إله هرموبولس و«بتاح» إله منفيس وغيرهم كثير، حتى جاء اخناتون فأعلن الوحدانية الإلهية المطلقة كما سيأتي بيانه.

وكان فرعون مقدساً على الأرض حتى إذا مات صعد إلى السماء في مملكة رع. ويساعده بالصعود بعض الآلهة الرحماء ويصبح الملك الممجد إلهاً ومستشاراً للآلهة. وان الآلهة ينشفون جسده إذا استحم. وما رع إلا ملك من ملوك مصر الأقدمين في الأعصر الذهبية.

4 ـ **عبادة الحيوانات:** من جملة اساسات الدين المصري عبادة الحيوانات. فكانوا ينظرون إليها كأنها رمز للآلهة، وأن اجزاء الآلهة قد حلت فيها وتقمصتها. وكان الرهبان المصريون يمتنعون عن اعطاء أي علم للاجانب عن هذه العبادة. فكان لكل بلد حيوان مقدس. كما وان بعض الحيوانات تعتبر مقدسة في أنحاء القطر المصري كافة، وتبذل العناية التامة بإطعامها وإعاشتها وإعالتها وتنظيفها وغسلها وتحنيطها عند هلاكها. وتعطى لها احسن الأطعمة وما لذ وطاب من الأشربة. ويوضع في اعناقها الأطواق الذهبية وبأقدامها الخلاخل الفضية.

ولما يراد جعلها رمزاً للإله فتظهر بشكلها الحالي أو يوضع فوق رأسها رأس إنسان. وما أبو الهول إلا أسد برأس إنسان يرمز إلى الإله «آمون ـ هارماكيش»، ويرمز إلى الإله «حورس» برأس صقر، وإلى فتاح برأس عجل، وإلى استارت برأس لبؤة، وإلى إيزيس برأس بقرة، التي تعتبر رمز العطف والحنان»، ويرمز إلى آمون برأس كبش، وإلى تحوت برأس أبي قردان، وإلى الأبيس برأس ابن آوى، وإلى الربة هاتور ربة الحب والجمال بأذني بقرة، أو مع قرنيها، وإلى نوت والدة الإله الشمس بجسم طائر ورأس امرأة. وفي بعض الأحيان يرمز بأشكال مختلفة إلى نفس الإله. فقد يرمز إلى الإله حورس بشكل إنسان أو بشكل صقر أو إنسان برأس صقر أو صقر برأس إنسان. وكان الصقر معبود مدينة الكاب وهي عاصمة عباد الإله حورس.

وكان لكل حيوان مقدس خدام وخادمات يرثون الخدمة عن آبائهم وأمهاتهم. ولهم حق الجلوس في صدور المجالس حرمة لهم. وتدفن الحيوانات المائتة بعد تحنيطها في مدافن الآلهة. وإذا مات هر مقدس في بيت وجب على أهل البيت أن يحلقوا حواجبهم. وان مات كلب مقدس يجب عليهم أن يحلقوا رؤوسهم وأجسادهم. وكان لكل حيوان مقدس أرض موقوفة لمعاشه ومعاش خدامه علاوة على ما يقدمه الشعب من هبات ومن نذور وكفارات.

وكانوا يبنون معابد هذه الحيوانات في وسط الحدائق ويزينونها بالزخارف والنقوش ويضعون فيها الآنية الثمينة والمصنوعة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ويفرشون أرضها بالمفروشات الغالية حتى إذا ما رفع الستار شوهد هر أو كلب أو تمساح أو حية تتمرغل فوق تلك المفروشات وبجانبها ما لذ وطاب من الأطعمة والمأكولات الفاخرة اللذيذة.

ان الحيوانات المقدسة التي عبدها المصريون هي السبع وفرس البحر والتمساح والثور والكبش والثعلب والقط والصقر والنسر وابن آوى وبعض الحشرات الصغيرة. وكان أهل طيبة يعبدون التمساح، بينما أهالي فانتين كانوا يقتلونه. وكان أهالي مصر العليا يعبدون فرس البحر «ايبوبوتام». وان التعدي على هذه الحيوانات يعتبر جرماً يستوجب الموت. ولم يكتف المصريون بعبادة الحيوانات، فقد عبدوا أيضاً الأسماك وكذلك الحبوب كالعدس والفول والبصل وغيره.

ومن أغرب ما يذكر عنهم أنه لما دخل قامبيز ملك العجم مصر فاتحاً وأراد أن يأخذ مدينة بلوز بدون حرب وضع امام جيشه صفاً من الحيوانات المقدسة فامتنع أهل المدينة عند ذلك من الحرب خشية أن يصيبوا أشياء منها فدخلها قامبيز بدون حرب.

5 ـ ولما كانت الآلهة المصرية كثيرة جداً فقد وضعناها حسب ترتيب الهجاء بما يلي:

أبيس: كان للعجل أبيس أعظم قدسية وأكبر منزلة عند المصريين القدماء. وهو يرمز إلى الإله بتاح أو فتاح معبود مدينة منف، ويعتبر ابناً لاوزيريس. معبده في مدينة منفيس. وهو ليس من الثيران الاعتيادية إنما له أوصاف ومزايا خاصة يتصف بها يجب أن تتوفر فيه ليكون معبوداً. ومن أهم أوصافه أن يكون أسود اللون في جبهته غرة بيضاء مثلثة الشكل وفي لسانه ما يشبه جنح حشرة، وأن يكون شعر ذيله مضاعفاً من كلا الجانبين. ويعتقدون أن هذا الثور يولد من أثر البرق الساقط من السماء على بقرة فتلد العجل بأوصافه المذكورة، ولا تستطيع بعد ذلك أن تلد غيره. وعند العثور عليه يأخذه الرهبان إلى معبد فتاح في مدينة منفيس ويعبدونه باعتبار انه ابن السماء أو ابن الإله بتاح ابن الإله اوزيريس.

ولا يجب ان يعيش الأبيس أكثر من خمس وعشرين سنة. وإذا عاش فيجب خنقه بالماء ثم تحنيطه ودفنه. وأما روحه فتصعد إلى السماء وتتحد بروح الإله اوزيريس.

وكان الفرعون رمسيس الثاني قد أنشأ مقبرة خاصة تسمى «سه رابيوم» لدفن هذه الثيران. ودام الدفن فيها مدة تربو على الألفي سنة إلى أن دخل الدين المسيحي مصر فتركت هذه العبادة وطمرت المقبرة. وفي سنة 1851 اكتشف ماريه بك هذه المقبرة وكانت بحالتها الأصلية لم تمسها يد الخراب.

تأثر العبرانيون لما كانوا في مصر بعبادة العجل «ابيس» فعبدوه طيلة بقائهم فيها حتى دخل لون جلد البقرة الواجب تقديمها إلى مذبح الإله في عنعنات ديانتهم.

اتمى: ربة الشرع والعدل.

اتوم: من أقدم الآلهة المصرية. يعتبر رب الكائنات. يمثلونه كهلاً ملتحياً وعلى رأسه تاجان: الأول أحمر ويمثل مصر السفلى والثاني أبيض ويمثل مصر العليا. ويدعى «رع هيرختي آتوم» ومستقره في الشمس، بيده صولجان الحكم، معبده «عين شمس».

اتون: كان ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية يحاربون ويفتحون البلاد باسم «آمون» إله مدينة طيبة «تب». وكان نفوذ رئيس رهبان معبد آمون قد طغى على نفوذ فرعون. وكانت خزينة معبد آمون اكثر ثراء من خزينة فرعون. لذلك أصبح وضع رئيس الرهبان بنظر فرعون لا يحتمل ولا يطاق،

فكان من الضروري توجيه الضربة الحاسمة إلى الرئيس ومن حوله، وحتى إلى الإله آمون نفسه ومصادرة الأملاك والأوقاف والعقارات والمشتملات كافة والشطب مرة واحدة على هذه التشكيلات الدينية الطويلة العريضة التي استوعبت القطر المصري واستغلت خيراته ومبراته. إلا آن هذه التصفية لم تكن مما قد يفعلها كل فرعون فكانت الفراعنة تنام على مضض وتظهر التدين واحترام الاله وسندته الرهبان مماشاة للجمهور المتدين حتى ولد الزمان الملك الجبار فرعون مصر امينوفيس الرابع الذي سمى نفسه «خون اتون» او «اخناتون» أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة فأنزل الضربة القاضية على رأس رئيس الكهان وقبض بيديه الحديدتين على كل ما هو موجود في معبد آمون وطارد الكهنة والرهبان واستبدل الإله «آمون رع» بالإله «اتون» الواحد الأحد. وترك الملك النبي عاصمته طيبة ونقل إلى عاصمته الجديدة «اخت اتون ـ افق الشمس» التي بناها في تل العمارنة وأعطى الإله (آتون) صفات الإله الواحد الأحد الذي لا إله غيره الأبدي الأزلي الذي لا شريك ولا صورة ولا صفة ولا مكان له، مقيماً الرحمة والصفح والعفو والمحبة (هكذا أحب الله العالم...) عوضاً من الحنق والحقد والكيد والهوى والقسوة والبطش والمقت (والانتقام من الجيل الثالث والرابع من مبغض الإله). وكان هذا من مبدأ التوحيد والدين الصحيح الذي تجلى لأول مرة في العقول البشرية. وبذلك قضى على عبادة الآلهة اوزيريس وفتاح ورع واتوم وغيرهم كثير وألغى الأرباب كافة التي تعبد من دون اخناتون ورفع من المعابد جميع الأصنام والتماثيل مشرداً كهانها مسفهاً احلامهم. وبهذه الحركة الجريئة تخلص من الديانة القديمة ومن نفوذ كهنتها ورهبانها وانتقل من الشرك إلى الوحدانية، ومن خصوصية كل إله بعمل معين وكل إله لشعب معين، إلى الإله الواحد رب الكون أجمع.

وبالنظر للقواعد التي وضعها اخنانون فان الإله اتون ليس هو قرص الشمس ولا نورها ولا حرارتها إنما هو القوة أو ما نسميها في زماننا هذا الطاقة الصادرة والمنبثقة من قرص الشمس بنورها وحرارتها. ومع هذا فلقد حصل لهذا الإله الجديد بعد حين قساوسة ورهبان وكهنة ورجال دين. كما وان لم تنطفىء جذوة رهبان آمون الإله القديم واستدام الجدال تارة خفية وأخرى جهراً بين الرهبان في ما بينهم من جهة، وبين كهنة آمون والملوك الفراعنة من جهة ثانية، دام ثلاثة قرون متوالية. وفي الأخير قهر رهبان آمون ملوك الأسرة الحادية والعشرين وانفردوا بحكم الوجه القبلي من مصر وأعادوا عبادة الإله آمون مرة أخرى، فظهر ثانية المثلث الإلهي المكوّن من: «آمون. موت. خونس» وهم الأب والأم والولد، وهو مثلث مدينة طيبة (تب) العاصمة السابقة. واستدام الحكم بيدهم إلى أن استولى عليها الأجانب فحل المثلث المسيحي المكوّن من: «الأب والأبن وروح القدس» محل المثلث الفرعوني الآنف الذكر.

الربة استارت: يرمز إليها برأس لبؤة وتسمى ايستار وعشتار وعشتروت وهي الربة المعلومة.

الإله آمون: إله بلدة طيبة (تب) عاصمة الفراعنة في مصر العليا. يرمز إليه بالمسلات باللون الأزرق وفوق رأسه ريشتان عظيمتان وفي يده صولجان الحكم العام والحياة المعنوية. يمثلونه بكبش ذي تاج طويل وقرنين عموديين فهو أكبر الآلهة، وهو رب الأرباب وخالق السماوات والأرض وما فيهما على الاطلاق. وأنه خلق نفسه ثم خلق الآلهة الأخرى.

ووجد مكتوباً على ورقة بردى محفوظة في «نورن» العبارة الآتية: «يا إلهي آمون. يا خالق الكائنات. لم يخلقك أحد. إنما وجودك مخلوق منك. تشمل عنايتك المخلوقات التي خلقتها. انت متحرك بقوتك الذاتية. الأرض والسماء تحت حكمك. قلت كن فكانت الأرض والجبال والأنهر والبحار».

ويعتبر الرهبان أن آمون ويسمى أيضاً «رع ـ هارماكيس» يركب في السماء زورقاً تسيّره أرواح المؤمنين والصالحين ويراقب مجاذيفه ودقته الآلهة الأخرى.

وكان لما صارت طيبة عاصمة البلاد ومقر الفراعنة أصبح إلهها آمون إله الآلهة ورب الأرباب ورأس ثالوث طيبة المكون من «آمون. موت أو معات. خونس» وهم الأب والأم والأبن. ولما ذاع صيت هيلوبولس اعتبر الكهان الإله آمون والإله رع إلهاً واحداً وصار يدعى «آمون ـ رع» الخالق العظيم. ومنذ بدأت الأسرة الخامسة الفرعونية اعتبر ملوكها أبناء الإله «رع» من أم بشرية. وكان الملوك يلقبون أنفسهم بأبناء الشمس. ولقد عبد الفراعنة «آمون رع» مدة طويلة من الزمن. ووضعت له اناشيد كثيرة تشير إلى أنه خالق الكائنات، وهو مظهر النور ومخفف الأحزان ومعزي الأشجان. وكانت صيغة الدعاء والتضرعات إلى الإله آمون كما يلي: «يا آمون ـ رع ـ هارما كيس، يا حاكم الافقين، يا إله الالطاف والمحاسن والنور، أنت تسير في السماء وتهلك اعداءك. كل إله وكل إنسان يعبدك ويركع للشمس امامك. ويغتبطون عندما يشاهدون رع قد اهلك اعداءه. انت تملأ السماء والأرض شوقاً ونشاطاً بقدرتك. تدفع كل قبيح وتهلك كل ملحد. فيسقط اعداء رع بالنار ويحترقون. ان رع قوي وأعداءه ضعفاء. رع يصعد وأعداؤه يهبطون. رع كبير وأعداؤه صغار. رع نور وأعداؤه ظلمات. رع قدير وأعداؤه جبناء.

يا رع اطل عمر فرعون. وأحسن إليه بالخبز والماء والروائح الطيبة ليدهن شعر رأسه. ارتفع يا آمون ـ رع ـ هارما كيس، يا خالق ذاته. ان جميع الطرق مملوءة بأشعتك الذهبية. انت خلقت الأرض والسماء والفضة والذهب والأحجار اللازوردية كافة. انت خلقت الحشائش للحيوانات والمخضرات للإنسان. تسبح باسمك الأسماك بالأنهر والبحار وتطير بقدرتك الطيور في الجو. تنفح في البيضة فتكون مخلوقاً. تحيي الزواحف في داخل الأرض وترزق الفأر وهي في جحرها وتغذي الطيور وهي فوق أغصان الأشجار خلقت جميع الناس من عينيك فهم يقدسونك وهكذا.

السلام عليك يا إله. انّا نركع امامك شاكرين ألطافك لانك خلقتنا. فأنت مقدس عند جميع المخلوقات».

ان هذه الأدعية الخلابة المؤثرة وأمثالها سحرت اعين الناس واجتذبتهم إلى المعبود آمون.

وكان في عهد امينوفس الثالث، من أكبر ملوك الأسرة الثامنة عشرة، ان اتسعت الدولة ووصلت حتى الفرات من جهة وبلاد النوبة والصومال من جهة أخرى. وكان الاتساع يعتبر مظهراً من مظاهر العناية الآمونية الإلهية. فكانت الهدايا والهبات والأوقاف والمبرات والغنائم والغلات، كما سبق ذكره، تنهال على المعبد من الأقطار المجاورة كافة ومن ميادين الحروب ومن أنحاء الدولة المصرية لشكر الإله الأعظم، فعظمت ثروة الكهنة والرهبان وزاد نفوذهم في المملكة وتجمعت النقود والذخائر والحبوب

في مخازن المعبود آمون من اسلاب الحروب ومن الضرائب التي يفرضها الكهان على سكان الوجهين القبلي والبحري. وكان لما يصاب الأهالي بالفقر والجوع والقحط في السنين الماحلة ويراجعون هذا الإله للترفيه عن حالتهم لا يجدون منه غير السكوت. وأما رئيس الكهنة الآمونيين فكان قد انفرد بالنفوذ المطلق. فهو الوزير الأول وهو صاحب الكلمة المطاعة في المملكة المصرية. وكان قد حشد حوله جيشاً عرمرماً من الكهنة والكتبة ورجال الحكومة والجنود والفلاحين والعبيد. وجمع بين الوظائف والألقاب «حبيب آمون. وفم السلام. والمتصرف المطلق بأمر الملك بمصر. وحاكم مدينة طيبة. ورئيس البلاط الملكي. وزعيم الشعب. وكبير الأمناء. ورئيس الأنبياء للمعبود الإله آمون» حتى قضى عليه امينوفس الرابع كما مر بحثه سابقاً.

ويظهر لنا ان اليهود أثناء اقامتهم في مصر تأثروا بالإله «آمون» فحرفّوه إلى «آمين» ودخل في شعائر تعبداتهم.

أنوبيس: إله دليل الأرواح يوم الحساب وعندما تنصب الميزان لوزن قلب الميت بحضور الإله اوزيريس، يأخذ انوبنس قلب الميت ويضعه في كفة الميزان الإلهية المنصوبة هناك ويضع في الكفة المقابلة ريشة الربة «معات» إلهة العدل والحق وزوجة الإله آمون ويدوّن الإله «توت» بقلمه نتيجة الوزن ويقدمها إلى الإله اوزيريس ويقف عن يمينه ثم يقود انوبيس الموتى إلى العالم الأسفل. ويرمز إليه برأس ابن آوى وهو ابن سخت ونفتيس.

ايزيس: اخت اوزيريس وزوجته وأم حورس. وكان لما قتل سيت الظالم أخاه اوزيريس وقطع أوصاله إرباً إرباً ووضعه في صندوق وألقاه في البحر، ملأت ايزيس الدنيا صراخاً وعويلاً وتمكنت بقوة سحرها من العثور عليه ومن جمع رفاته ومن إعادة الروح إليه ومن الحمل منه بابنها حورس. ثم حكمت الآلهة ببراءتها مما اتهمها به سيت من الحمل غير الشرعي بابنها حورس وبألوهيتها مع زوجها وابنها كما سيأتي تفصيله عند البحث عن زوجها اوزيريس. يرمز إليها برأس بقرة. وهي إحدى أركان الثالوث المقدّس المكوّن من «اوزيريس. ازيس. حورس» وهم الأب والأم والولد لبلدة ابيدوس.

ايموس: أحد أركان ثالوث مدينة منف المكوّن من: «فتاح. سخت. ايموس».

انحور: أحد آلهة الشمس.

اوزيريس: وتعريبه «اوزير» و«عزير». ورد ذكره في القرآن الكريم. عبدته اليهود طيلة بقائهم في مصر. ولد في مدينة طيبة «تب». زوجته هي أخته «ايزيس» وولده «حورس». وكان لما وضعته أمه «توت» سمع الناس صوتاً من السماء يقول «ولد ملك الأرض»[1]. له معبد في الجيزة بناه طوتموزيس الأول، فرعون مصر. يدفن أرباب الثراء موتاهم فيه وقد تنقل الجنائز من أنحاء القطر المصري لدفنها بجواره.

---

(1) لقد استندت أمثال هذه البيانات في ما بعد إلى كثير من الأشخاص المتألهة في الديانات المتعاقبة. فقد «ضحك زرادشت عند ولادته ضحكة تبينها من حضر من الناس». وقد «تكلم بوذا حين ولادته بفصاحة فهمها الجميع عما سيقوم به من الأعمال». وسمع الناس صوتاً من السماء عند ولادة السيد المسيح يقول «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة».

ولاوزيريس اسطورة خاصة هي أنه لما كان فرعوناً في مصر قتله أخوه سيت غدراً عندما كان في الصيد ووضعه في صندوق وألقاه في البحر فحملته المياه إلى جبال لبنان ودخل في شجرة فعثرت عليه زوجته ايزيس بقوة سحرها المقدس ونقلته الى مصر وحملت منه بابنها حورس ثم دفنته وناحت عليه وبكت عليه. وعرف سيت برجوعه فسرقه وقطّع أوصاله ارباً ارباً وفرّقها في أنحاء القطر ورمى قسماً منها في نهر النيل واستولى على الحكم. فظهرت ايزيس للمرة الثانية وجمعت رفاته بقوّة سحرها من أنحاء القطر ودفنتها في بلدة سايس. ولما كبر ابنه حورس نازل عمّه سيت بقصد اخذ ثار أبيه اوزيريس. واجتمعت الآلهة لرؤية الدعوى. إدعى سيت أن حورس ابن غير شرعي لاوزيريس، وادعت أمه ايزيس أنها بقوة سحرها المقدس أعادت الروح إلى زوجها اوزيريس وحملت منه. فحكمت المحكمة الإلهية بصحة كلام ايزيس وببطلان دعوى سيت الظالم وحكمت لحورس بالملك والصولجان على مصر وأدخلته مع أمه وأبيه في مصاف الآلهة فحصل المثلث الإلهي المكون من: «اوزيريس. ايزيس. حورس». وأما اوزيريس فقد سكن بالشمس مع الآلهة وصار إله عالم المغرب وعالم الأموات.

ولما كان اوزيريس قد دفن تحت التراب فإنه يقبل بارتياح كل من يدفن بجانبه وبجواره. ومن هنا نشأت عند جميع الأمم والأقوام دفن الموتى بجوار القديسين والأولياء والصالحين.

ويعتقد المصريون القدامى ان في كل معبد جزءاً من جسم اوزيريس. فيجتمع الناس في المعابد لعبادته والترحم عليه في الأيام المخصصة. وبما أنه قتل غدراً وسفك دمه في سبيل خلاص العالم من الخطايا، فقد عينته الآلهة قاضياً للأموات وإلهاً لدينونة البشر يوم القيامة. وكان من عادة النساء المصريات أن يبكين ويلطمن وجوههن ويضربن صدورهن ويملأن الفضاء صراخاً وعويلاً تقليداً للأم الإلهة ايزيس وجرياً على طريقتها. وأما الرعاع من الرجال فكانوا يطوفون الشوارع والأسواق زرافات وجماعات يندبون ويألمون تقرباً إلى الإله اوزيريس وطمعاً برحمته في اليوم الآخر. وفي تلك الأيام المخصصة يخطب الرهبان في المعابد عن حياة اوزيريس الصالح العظيم وكيفية قتله ودفنه وقيامه من الأموات وصعوده إلى السماء ودخوله في مصاف الآلهة.

انتشرت عناصر هذه الأسطورة في سواحل البحر المتوسط كافة وكان لها أثر بالغ في تطور الأفكار لقبول الديانة المسيحية التي ستظهر في ما بعد. واستدامت في مصر حتى القرن الثالث الميلادي حيث قضت عليها الديانة المسيحية وحلت بسهولة محلها[1]. ولا شك ان قصة اوزيريس كلها كانت في الأصل رموزاً تهدف إلى موت الطبيعة شتاء ورجوع الحياة إليها ربيعاً أو التطاحن بين الخصب والنمو مع الهلاك والموت.

وكان كهنة منفيس قد وحدوا بين العجل ابيس الذي يرمز إلى إلههم فتاح واوزيريس فسمي اوزيريس ابيس واوزيز ابيس وسيرابيس الذي اتخذه الرومان واليونان في ما بعد إلهاً لهم. وهو على صورة إنسان. ووصلت عبادته حتى انكلترا ودامت حتى الحكم الروماني.

(1) جاء في كتاب الينابيع المسيحية «وكان في الاسكندرية تمثال الأمين الأم ايزيس وعلى كتفها حورس والأم مريم وعلى كتفها يسوع جنباً إلى جنب حتى اواسط القرن الثالث الميلادي».

ويعتبر اوزيريس عند المصريين من أعظم الآلهة بصفته إله الدينونة ومحاسبة الأرواح في اليوم الآخر عن أعمالهم في الحياة الدنيوية كما سيأتي بيانه في ما بعد.

اونه بريس: من آلهة الأرض.

باخت: مقرها في مدينة بوبابت وهي معشوقة الاله فتاح وحاكمة منفيس. وعند زيارة هذه الربة يحتم على الزوار الخفة والحركة والنشاط والقفز والركض والطرب والحب والغرام والفرح والسرور. فيتقدم الناس إلى معبدها بطبولهم وصنانيجهم وهم يرقصون ويلعبون ويقفزون ويقضون عبادتهم بالأنس والمسرات.

بتاح: كان يعبد في مدينة منفيس ثم صار معبوداً عاماً للقطر المصري وخالقاً للكون. ثم صار يطلق عليه اسم الإله ابيس وهو أعظم معبود من الحيوانات التي تحل فيها روح الآلهة.

بس: إله حجرة النوم والأحلام، يصورونه قزماً له تاج من ريش.

بسطت: ربة الفرح والمسرات وربة حرارة الشمس. عبدها اهالي منفيس. يرمزون إليها بقطة. وهي معشوقة الإله فتاح إله منفيس.

تحرت: ويسمى أيضاً توت وهو خالق العالم بكلمته وإله الحكمة والكتابة والقوانين والمعارف. وهو يعاون روح الميت بحضرة اوزيريس يوم الحساب ويعتبر أيضاً إلهاً للقمر.

تحوت: يرمز إليها برأس أبي قردان.

تفنوت: زوجة شو إله الفضاء.

توت: اسم آخر للإله تحرث وهو الذي يزن قلب الميت بالميزان الإلهي ويضع ريشة الربة معات في الكفة المقابلة للقلب ويقدم عنه التقارير إلى الإله اوزيريس ليرى رأيه فيه. ويقف عادة عن يمين الإله اوزيريس.

توت: هي أم الإله اوزيريس. ولما ولدته سمعت صوتاً من السماء يقول: «ولد ملك الأرض». وهي الهة الغنى والثراء.

حب: إله الأرض القديم وزوج الربة توت ووالد الإله اوزيريس الذي خلفه على عرش مصر.

حاتحور: ربة النقمة والغضب ارسلها ريح للانتقام من العصاة والجناة.

حابي: إله نهر النيل وله زهرة قائمة فوق رأسه من زهر الحندقوق. ويقال ان المصريين القدماء كانوا يزفون في رأس كل سنة عروساً من أجمل بناتهم ويلقونها في النيل لتكسب عطفه. وقد فنّد عبد القادر حمزة بكتابه «التاريخ المصري القديم» هذه الرواية. ويتصف هذا الإله بكفاح الصحاري القاحلة لقلبها إلى المزارع والجنائن العامرة ويعطي الخير والبركة للمصريين.

حار مخيس: إله من آلهة الشمس يرمز إليه برأس صقر فوق قرص الشمس وأحياناً بأبي الهول.

حورس: ابن الإله اوزيريس وأحد أركان الثالوث المقدس لمدينة ابيدوس المكون من اوزيريس. ايزيس. حورس وهم الأب والأم والولد. وكان لما كبر حورس ادعى بعرش مصر من عمه سيت الذي قتل أباه واستولى على العرش فنازعه عمه سيت وادعى امام الآلهة انه ابن غير شرعي لاوزيربس

وادعت أمه ايزيس انها تمكنت بقوة سحرها المقدس من جمع رفات اوزيريس ومن اعادة الروح إليه ومن الحمل منه بابنها حورس فحكمت المحكمة الإلهية بصحة دعوى ايزيس وببطلان دعوى سيت الظالم وحكمت لحورس بالملك والصولجان على مصر وحكمت بإدخال اوزيريس وايزيس وحورس في مصاف الآلهة. وهو معبود مدينة الكاب. يرمز إليه برأس صقر كما مر بحثه.

ختوم: خلق الدنيا بمعاونة الإله فتاح وهو إله اصوان.

خشوم: إله الشلال.

خنومو: معبود مدينة ايلفنتين، كان الملك زوسر قد استغاث به فأغاثه وأجرى نهر النيل بزيادة بعد انخفاضه. وهو الإله الموكل على جريان النيل، وهو الذي يصنع بيده كل شيء ينفع الناس.

خونسو: أو خونس إله القمر. أحد مثلث مدينة تب المكون من آمون. موت. خونس وهم الآب والآم والابن.

رع: إله بلدة هليوبولس وهو الإله الحاكم الفعال المحافظ على الحياة، مقره في الشمس أو ان الشمس هي الرمز الحقيقي للإله رع. والإله رع رمز الفراعنة كافة أو ان الفراعنة كافة أولاد رع. وفي اسطورة قديمة ان رع ملك الدنيا وظهر الفساد بين البشر فسلط عليهم ربة النقمة «حاتحور» وندم على ذلك وترك الدنيا فحملته البقرة السماوية ثم اندمج في اوزيريس فصار «رع اوزيريس». ثم ترك اوزيريس واندمج مع آمون فصار «آمون ـ رع». ثم صار اتون. وكما ان رع حاكم الكائنات والعوالم كافة، فان كل فرعون وحتى كل من حكم في مصر يعتبر نائباً عنه، ويظهر رع في المسلات وبيده العصا وفوق رأسه قرص الشمس. ويرمز إليه باللون الأحمر ويكون رأسه غالباً كرأس الطير.

ولما كان رع ملك من ملوك مصر في الأعصر الذهبية فقد اعتبر فراعنة مصر منذ الأسرة الخامسة الفرعونية كافة أنهم أبناء الإله رع من أم بشرية. ولذلك كان الملوك يلقبون أنفسهم أبناء الشمس. وإذا مات أحد الفراعنة تصعد روحه إلى السماء في مملكة رع السماوية ويساعده بالصعود بعض الآلهة الرحماء ويعطى حساباً عن أعماله في الدنيا أمام محكمة رع. فإذا كان قد أحسن في أعماله تنفتح له أبواب السماء ويصبح الملك المجد إلهاً ومستشاراً للآلهة فيركب في زورق رع ويجوب الفضاء ويرتاد أعماق السماء ويلقى الثواب والنعيم.

سب: اسم آخر للإله جب إله الأرض.

ست: هو الذي قتل أخاه اوزيريس غدراً وقطع أوصاله إرباً وفرّقها في أنحاء القطر ورمى قسماً منها في نهر النيل واستولى على العرش المصري وعلّم الناس الشرور وأغرق الناس في الظلمات. يعتبره عباد حورس أنه إله الشر ويرمزون إليه برأس حمار حتى انتقم حورس لأبيه منه.

ست تيفون: من آلهة العناصر.

سبك: إله الماء ويرمز إليه بالتمساح.

سخت: من الآلهة القدماء ويعتبره البعض اسماً آخر لست الظالم.

سخمت: من الربات يرمز إليها برأس لبؤة تمثل القوات الشريرة وحرارة الشمس المحرقة والأوبئة والأمراض.

سكري: من آلهة الموتى.

سنه ف: من الربات عبدها أهالي مدينة سيه ن.

سوفكو: من آلهة العناصر.

سيرابيس: عبده المصريون في زمن البطالسة واتخذه الرومان والإغريق إلهاً وهو على صورة إنسان. انتشرت عبادته في أوروبا الجنوبية والغربية. يتجسد بالعجل (ابيس).

شو: من آلهة الشمس وإله الفضاء.

طوريس: ربة ولادة الطفل. يرمز إليها بفرس الماء (ايبوبوتام).

فتاح: من اقدم الآلهة المصرية. معبود مدينة منفيس وبوجوده زال الظلام عن وجه الأرض باعتباره مصدر النور والحياة. وهو مدبر آمور الكائنات والعالم. وهو إله الحق والعدل. زوجته «من» ربّة الحقيقة. ولما كانت وظائف هذا الإله كثيرة ومتنوعة فقد اعطيت له آسماء كثيرة بالنظر لأعماله. يرمز إليه في المسلات باللون الأخضر وبشكل طفل صغير. له في منفيس معبد عظيم، كلما جاء فرعون جديد زاد في بنائه وأكمل زينته. وكان قد اقتحم كيكاوس شاه العجم هذا المعبد عندما دخل مصر تحقيراً له. وكان فتاح رأس ثالوث منفيس المكون من فتاح وسخت وايموس. وهو الذي ساعد الإله ختوم في خلق العالم. وكان رمزه في بادىء الأمر العجل ابيس ولما وحدوا بين الإلهين فتاح واوزيريس في العجل سمي اوزيريس ابيس أو اوزير ابيس أو سبر ابيس. وهذا الإله اتخذه الرومان والإغريق إلهاً لهم كما سبق ذكره حتى وصلت عبادته جزائر انكلترا ودامت حتى زوال الحكم الروماني.

كب: اسم آخر للإله جب إله الأرض.

مات أو موت أو معات: أم الآلهة وزوجة الإله آمون. ويتركب مثلث مدينة طيبة منهما ومن ابنهما خونس. وهي ربة الحق والعدل. وهي الابنة المعززة للشمس المقدسة ولها ريشة نعامة فوق رأسها تحضر عند وزن قلب الميت بالميزان الإلهي وتضع ريشتها في كفة الميزان ويكون القلب في الكفة الأخرى فإن خف القلب عن ريشة معات كان صاحبه ناجياً. ويقدم التقرير إلى الإله اوزيريس.

من: زوجة الإله وربة العدل والحقيقة.

مين: إله المحصولات والمنتجات.

نابري: إله الحبوب.

نفتيس: اخت ايزيس وزوجة سيت الظالم إله الشر. اشتركت بالبكاء مع أختها وحزنت على اوزيريس ورثته بالبكاء فرقّ لهما الآلهة وأقاموه من بين الأموات وأدخلوهم في مصاف الآلهة.

نمسيس: ربة الانتقام.

نو: إله الماء.

نوت: ربة السماء والضوء. ترسم على غطاء التوابيت.

نه بث: أم إله الشمس ملكة الملكات وربة الربات وربة القنص والصيد ومعبودة مدينة سايس.

هاثور: هي رمز البقرة المقدسة وهي ربة الحب والجمال يرمز إليها بأذنيّ بقرة أو مع قرنيها. وكان لما اكتشف الأقدمون ان في وسع البقرة ان تمد الأطفال بالحليب والغذاء الكامل اعتبروها

مرضع الجنس البشري وهي الأم الكبرى المقدسة. سماها المصريون هاثور ومعناها واهبة الحياة للناس. فهي تحمل الموتى المقدسين على ظهرها وتصل السماء بخطوة واحدة.

هارما كيس: اسم آخر للإله آمون.

هراوري: من آلهة العناصر.

6 ـ **التثليث المصري:** اعتقد المصريون بتثليث الإله وهو تمثيل الإله بثلاثة اقانيم. فكان ثالوث طيبة آمون وموت وخونس، وثالوث منف فتاح وسخت وايموس، وثالوث ابيدوس اوزيريس وايزيس وحورس، وثواليث أخرى غيرها. وكلها ترمز إلى الأب والأم والابن. واعتقد بعضهم بتسعة اقانيم في اقنوم واحد. ويقال إن بعض المنقبين عثروا على الصليب المصري الذي كان يعتقد به اهالي الوجه القبلي قبل ألفي سنة قبل الميلاد.

7 ـ **الإله الواحد:** ومع كثرة الآلهة عند المصريين واعتقادهم بالتثليث فكانوا يقولون ويعترفون بالإله الواحد، بمعنى أن للإله الواحد ثلاث صفات. والثلاثة هي في الأصل واحدة فقط. فقد ورد في آثارهم كثير من العبارات الدالة على إقرارهم بالوحدانية الإلهية، منها قولهم: «الواحد الذي لا شريك له»، و«كل شيء خلقه الإله العظيم بنفسه»، و«خالق الكائنات والأشياء»، و«الخالق لكل مخلوق الذي لم يخلق وهو خالق السماوات والأرض»، و«الموجد لكل ما يكون اما الذي لم يكن فهو في مكنونه»، و«الإله معبود باسمه الأزلي خالق الأرواح والأشباح»، و«تمضي الدهور وهو باق دائماً»، و«ذو الأزلية التي لا حد لها»، و«لا يمسك بالذراع ولا يقبض باليد»، و«لا تدركه الأبصار»، و«سميع لمن يتضرع إليه»، و«الذي يكون والذي لا يكون يختص به»، وأمثالها من العبارات كثير وكلها تدل على التوحيد.

8 ـ **المعتقدات:** كان المصريون القدماء يعتقدون أن للجسم الإنساني روحاً لا يموت بموت الجسد. وإذا كان يفارق الجسد عند الموت فقد يعود لزيارته بعد ذلك في القبر. ولذلك شيدوا الاهرامات الجسمية وبنوا الهياكل الضخمة وحنطوا الجثث وصنعوا التماثيل الحجرية بحجم الإنسان الطبيعي، حتى إذا ما اصاب الجسد البلي قبل اليوم الآخر يرافق الروح التمثال عوضاً على الجسد ويأنس به ويخلد معه.

9 ـ **الروح:** ثم تطورت نظرية الروح فاعتبروا للإنسان روحين: الأولى تسمى «كا» تولد مع الإنسان وترافقه طيلة حياته. لا ترى بالعين. وهي بمثابة شبحه أو قرينه أو شبيهه أو جسده الثاني. فتأخذ شكل الجسد وتحفظ شخصيته. وهي قوام الحياة ومصدر القوة والنشاط حتى إذا ما حل الموت تركت الجسد وأصبحت طليقةً منه. إلا أنها تحن إليه دوماً فتعاود الجسد في القبر لزيارته، وإن كان اصابه البلى فتتقمص التمثال للاستئناس به.

والروح الثانية تسمى «يا» وهي بمثابة النفس الحيّة. ويصورونها بجسم طائر يحمل وجه صاحبه. وهي طليقة عن الجسد. قد تذهب يمنة ويسرة أثناء النوم وتسرح وتمرح ثم تعود (كما في الرؤيا). وعندما يحل الموت تفارق الجسد. وقد تصعد إلى السماء أو تطوف في أنحاء الأرض. وتتردد أيضاً على الميت في قبره فتبقى معه وبجانبه مدة من الزمن. وبهذا اعتقد المصريون أن للإنسان نوعين من الروح باقيين فرتبوا على بقائهما حياة ثانية بعد الموت يحياها الإنسان في نعيم أو عذاب تبعاً لأعماله في الدنيا.

10 ـ **يوم الحساب:** كانت مصر أول من قال بعقيدة الأرواح وبالحساب يوم الدين وبالثواب والعقاب في اليوم الآخر عن الأعمال الدنيوية. وكان الاعتقاد السائد هو أن الملوك تعطي حساباً عن أعمالها في الدنيا امام محكمة إلهية فتصدر المحكمة قرارها وتبلغه إلى الإله الأعظم رع بأن اعمال الملك في الدنيا فحصت فلم يوجد فيها ما يستوجب الإدانة والمؤاخذة فيستحق الملك حينذاك أن تفتح له آبواب السماء وأن يجوب الفضاء في سفينة رع السماوية. وأما أفراد الناس فيعطون حساباً عن اعمالهم في الدار الدنيا امام محكمة يرأسها الإله اوزيريس يساعده الآلهة الثلاثة انوبيس وتوت ومعات وحوله 42 إلهاً عن 42 نوعاً من الخطايا أو عن 42 اقليماً من اقاليم مصر. فيتقدم الميت بدفاعه امام الآلهة مستغيثاً بهم لتخليصه من أنياب الوحش امابيت. وقد يكتب الكهنة والرهبان صيغة الدفاع بورقة أو فوق ألواح التابوت وجدر المقابر ليقرأها الميت امام الآلهة وتسمى «كتاب الموتى» وهو الكتاب المقدس الذي تتجلى فيه الحياة الدنيوية والآخروية. ويستبان منه أن المصريين كانوا يعتقدون بيوم الحساب وبخلود النفس والحياة الأبدية في النعيم أو العذاب. ويدعي المؤرخون أن كتاب الموتى كان قد وضع في زمن ملوك الدولة الأولى أي حوالى 4500 ق. م وظل معمولاً به حتى القرن الثالث الميلادي.

11 ـ ووجد الانكليزي (كرفت) في المتحف البريطاني ورقة بردى فيها اسطورة الحساب ترجمها إلى الإنكليزية سنة 1900 خلاصتها ان لفرعون سانتي ولداً اسمه سينوزيريس حاذقاً في علوم الحكمة والسحر. ففي يوم من الأيام قاد أباه إلى جبل منفيس ونزل به إلى الدار التي تحاسب فيها الأرواح فكانت سبع قاعات مملوءة بالأرواح. وعندما دخلا الرابعة فإذا اناس جياع والحمير تأكل الطعام وغيرهم في القاعة الخامسة يرون الطعام معلقاً ولا يصلون إليه. وفي القاعة السادسة رأيا شخصاً كان في حياته شريراً منطرحاً على الأرض ولولب الباب منصوب فوق عينه اليمنى وكلما فتح الباب يصيح من الألم. وفي القاعة السابعة آلهة الحساب جالسين وفوق الجميع الإله العظيم اوزيريس وهو جالس على عرشه وقد وقف عن يمينه الإله توت وهو الذي يزين قلب الميت ويقدم عنه التقارير وأمامه اونوبيس وهو دليل الأرواح يوم الحساب. والميزان منصوب لوزن الحسنات والسيئات. والوحش امابيت، وله رأس تمساح وجسم أسد، جالس قرب الميزان يلتقط قلوب الأشرار. فمن رجحت حسناته سيئاته ارسل إلى صوب الآلهة لينال النعيم بقربها، ومن رجحت سيئاته حسناته ألقي إلى امابيت ليفترسه أو يلقيه في النيران الموقدة بجانب من المحكمة. ومن تعادلت حسناته وسيئاته يرسل إلى خدمة الأموات.

12 ـ جاء في كتاب التاريخ العام لأحمد رفيق المؤرخ التركي العبارة الآتية من كتاب الموتى:

«استغفرك إلهي. انت إله الحق والعدل. جئت لامتع نظري بجمالك الباهر. أني أعلم اسمك العظيم. وأسماء الآلهة التي معك وهم 42 إلهاً. ولم أراوغ طيلة حياتي ولم أؤذ الأولاد والأرامل. ولم أكذب في المحاكم. ولم اتكاسل في عبادتك ولم أعمل ما يستوجب سخطك. ولم أقتل أي شخص بدون حق ولم أمنع الخبز والهدايا المقدمة للآلهة. ولم انزع أكفان الموتى وذخائرها. ولم ابخس الميزان. ولم اضرب الحيوانات المقدسة في المراعي. ولم اصطد الأسماك المقدسة في الأنهار والبحار. ولم اخرب قنوات الماء. وها أنا مجرد من كل الآثام والخطيئات».

وقد تكتب هذه العبارات في جدر المقابر وفوق التوابيت بكتبها الكهنة والرهبان والكتاب.

13 ـ ولقد ترجم الاستاذ عبد القادر حمزة صورة كتاب الموتى من كتاب موري ونشرها بكتابه على هامش التاريخ المصري القديم. وهي مفصلة اكثر ننشرها مقتبسة منه لما فيها من المعاني الدقيقة الدالة على شعور القوم ودرجة خوفهم من يوم الحساب.

«ايها القلب الذي اخذته من آمي. وولدت به. وعشت معه على الأرض لا تشهد علي. لا تكن خصمي امام القوى المقدسة. لا تكن ثقيل الوزن ضدي».

وبعد أن يدافع الميت عن نفسه كما مر اعلاه، يوجه الميت خطابه إلى اوزيريس والقضاة الذين معه:

«انني لم اقارف الشر. ولم اسرق. ولم اقتل غدراً. ولم أمس القرابين ولم أكذب. ولم اسبب سيل دموع أحد. ولم اتدنس. ولم اعتد ولم اذبح الحيوانات المقدسة. ولم اتلف أرضاً مزروعة. ولم اقذف. ولم اترك الغضب يخرجني إلى غير الحق. ولم أزنِ. ولم ارفض ان اسمع كلمة الحق والعدل. ولم اسيء الظن بالملك ولا بأبي. ولم ألوث الماء. ولم أحمل سيداً على أن يسيء إلى عبده. ولم احلف كاذباً. ولم اغش في الميزان. ولم امنع اللبن عن افواه الرضيع. ولم اصطد طيور الآلهة. ولم ارد ماء الا حين الحاجة إليه. ولم اسد قناة ري على غيري. ولم اطفىء ناراً يجب أن تشعل. ولم يخطر على بالي أن استخف بالآلهة. انني طاهر. طاهر. طاهر».

14 ـ ثم يخاطب الميت القضاة الاثنين والأربعين فيقول:

«لكم الحمد ايها القضاة. انني اعرفكم وأعرف اسماءكم. لست اسقط امام سيفكم. إنكم لا تعلنون شيئاً ضدي لهذا الإله الذي انتم حاشيته. لا شأن لكم بي. انكم تقولون الحقيقة أمام سيد كل شيء لأنني اتبعت الحق والعدل في مصر. ولم اجدف في حق الآلهة. ولم يجد الملك المعاصر شيئاً يأخذه علي. لكم الحمد أيها الآلهة الجالسون في قاعة الحقيقتين [الوجه القبلي والوجه البحري] والذين ليس فيهم أثر من كذب. وهم يعيشون من الحقيقة أمام حورس المستقر في شمسه. أنقذوني من باباي ـ سيت الذي يأكل احشاء العظماء في يوم الحساب الكبير. هاكم انظروا انني آتٍ اليكم بلا خطيئة ولا سوء. وقد فعلت ما يرضي الناس والآلهة وأرضيت الآلهة بما تحبه. وقد اعطيت خبزاً للجائع وماء للعطشان وثياباً للعاري وزورقاً لمن ليس له مركب. وقدمت قرابين للآلهة. وهدايا جنائزية للصالحين. انقذوني واحفظوني. انكم لا تتهمونني امام الإله العظيم. انني رجل ذو فم طاهر ويدين طاهرتين والذين يرونني يقولون لي مرحباً بقدومك. مرحباً بقدومك».

فيتقدم الميت أمام الإله اوزيريس والآلهة الـ 42 بهذا الدفاع عند رؤية حسابه عن أعماله في الدنيا وهو ممتلىء خوفاً.

15 ـ ينصب الميزان أمام الآلهة ويتصدر اوزيريس الإله العظيم صدر المجلس وهو جالس على كرسيه وبيده الصولجان فيتقدم الميت للحساب. وبعد استماع دفاعه المحرر اعلاه يقوم الإله انوبيس تحت ملاحظة الإله توت، فيأخذ قلبه ويضعه في كفة الميزان المنصوبة هناك ويضع في الكفة المقابلة ريشة الربة معات إلهة الحق والعدل. ويدوّن الإله توت بقلمه في السجل نتيجة الميزان ويقدمها إلى الإله

الأعظم اوزيريس. وبعد ان يستشار الـ 42 قاضياً يصدر الحكم على الميت إما بإرساله إلى السماء للإقامة في سفينة رع مع الآلهة أو إلى جزر السماء في حقل بارو حيث هناك الطعام الكثير وشجرة الحياة والخبز والخمر أو إلى قاعة بجوار اوزيريس فيعيش في هدوء وسكون ورغد عيش وأمان ويأكل من أنواع الأطعمة الشهية الفاخرة ويزرع ويقتني النساء الجميلات للتمتع بهن. أو إلى جنائن فرعون وفيها الأنهار الجارية والماء البارد والنسيم العليل ومائدة فرعون اللذيذة وفيها لحوم الطيور ومختلف الأثمار والخبز والفطائر والخمر تحت ظلال اشجار التين والجميز ويبقى خالداً ابداً. وفي جميع الحالات يكون شاباً موفور القوة والصحة. وإما يرسل إلى الجحيم ويرمى قلبه إلى امابيت الوحش الهائل ليلتهمه بلقمة واحدة ويرسل الجسد إلى النار لتحرقه أو يبقى الميت في قبره جائعاً محروماً كل أنواع الطعام وفي ظلام دامس لا يرى الشمس أبداً أو يضربه الاثنان والأربعون قاضياً بسيوفهم أو يركز لولب الباب على عينيه وكلما يفتح الباب يصيح من الألم ويبقى مخلداً بالعذاب إلى الأبد.

16 ـ ان نظريات كهنة مصر هذه قد اذهلت عقول الناس وجعلتهم يوجسون خيفة من يوم الدين. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الشعور ان قدمت هذه المعتقدات أجلّ خدمة للمجتمع العالمي. فقد تناقص الشر وزاد الخير وكثرت الصدقات وإطعام الجياع وإكساء العراة وعدم التعدي على الغير وتخليص الضعفاء من غطرسة الأقوياء وإعطاء كل ذي حق حقه، كل ذلك لاستجلاب عطف الإله الأعظم واكتساب رضاه وتحاشي غضبه والتقرب منه والتخلص من ناره والدخول في جناته. وإذا كان المعتدي قد يجد سبيلاً للتخلص من عقاب السلطة الزمنية بنفوذه وجاهه وحرمته وحيلته، فأين المفر وكيف النجاة من السلطة الإلهية بعد الموت؟ فلا قريب يدفع ولا صديق يشفع ولا معين يرفع ولا سحر ينفع سوى الأعمال الذاتية. وحتى فرعون وهو ابن الشمس وسليل الآلهة سيحاسب عن كل ما اقترفته يداه اثناء حياته أمام الإله رع العظيم. فالويل ثم الويل لأفراد الناس.

17 ـ ان هذه المعتقدات الدينية قد تغلغلت في عقول الناس منذ عصر الأسرتين الخامسة والسادسة الفرعونية حتى الأزمنة المتأخرة وازدادت قوة وشدة في زمن الأسرة الثانية عشرة التي حكمت مصر من سنة 2000 إلى سنة 1788 قبل الميلاد. والحق انه عمل عظيم خطا بالإنسان خطوة جبارة في سبيل تهذيب النفس والخوف من الإله.

18 ـ انتشرت هذه العقائد من مصر إلى شرقي حوض البحر المتوسط فأخذ منها الفلسطينيون والفنيقيون والكلدانيون وغيرهم ما شاؤوا ان يأخذوا وصاغها كل منهم بحسب تفكيره واحتياجه ومحيطه. وأما الإغريق فقد ذكرها لأول مرة بصورة مشوشة هوميروس بإلياذته وذلك بعد 2000 سنة من ظهورها في مصر. ثم أيّدها الشاعر بندار Pendar بوضوح أكثر حتى جاء افلاطون وسكبها بقالب يتفق وعنعنات مواطنيه الدينية فجعل «زه وس» الإله اليوناني الأعظم عوضاً من «اوزيريس» الإله المصري، وجعل «مينوس» و«ردامانت» و«ايباك» أولاد الإله «زه وس» حكاماً عوضاً من «انوبيس» و«توت» و«معات» الآلهة المصرية، وبقي الجوهر المصري ذاته، ذلك الجوهر في الحساب والنعيم والعذاب باستثناء بعض التعديلات بالأسماء والمواقع والأشكال.

19 ـ والحق أنه عمل عظيم ومجهود جبار وفكرة مستحسنة انبثقت من أدمغة الكهنة المصريين في وقت كان فيه البشر همجاً وحشاً لا رادع يردعه ولا زاجر يزجره عن التجاوز والنهب والسلب والغصب والاعتداء على الغير. فكانت هذه الفكرة بما فيها من غموض وإبهام تسوق الكتل البشرية إلى عمل الخير واجتناب الشر من دون تدخل شرطي أو حاكم. وقد خطا فيها البشر خطوات واسعة في سبيل تهذيب النفس وفي ضرورة التزام جانب العدل والحق في المعاملات الجارية مع الغير. إلا أن هذه المعتقدات لم تبق على عصمتها. فكان أن ظهر بجانبها مؤخراً، كغيرها من المعتقدات، اناس من السحرة يدّعون بأن الأعمال السحرية قد تؤثر حتى على أعمال الآلهة وقد تسخرها لخدمة الإنسان ورغباته، وان في مقدورهم بفضل أعمالهم السحرية استحصال الحكم بالبراءة من محكمة اوزيريس، مهما كانت ذنوب الميت كثيرة وخطاياه عظيمة وسيئاته جسيمة. وان في استطاعتهم اعطاءه النعيم الخالد في جنان الآلهة وان كان لا يستحقها. فكانت هذه المدعيات والمقولات قد افسدت إيمان الناس بعدالة الآلهة وأباحت لهم ارتكاب المثالب والمعاصي والمنكرات تحت أمل التخلص منها في دور الشيخوخة بالتوبة والاستغفار وزيارة معبد اوزيريس وتوزيع بعض الهبات والهدايا والقرابين والاعطيات على الكهنة والرهبان والسحرة، أو الشطب على تلك المعاصي والآثام والسيئات بعد الموت بفضل الأعمال والصيغ السحرية. وبذلك التخلص مرة واحدة من العذاب والعقاب في يوم الحساب.

الفصل العاشر المعتقدات اليونانية القديمة

1 ـ يستند دين اليونان القدماء في بدايته إلى الأساطير الآرية الغامضة. وان السبب في عدم استناده على قواعد دينية ثابتة معينة هو عدم وجود طبقة الرهبان والكهان عندهم حينذاك. فكان انكشاف قواعد الدين تابعاً لتفكير الأشخاص والأفراد. فلذلك لم يكن عند اليونانيين القدماء تناقض بين النور والظلمة والأرواح المقدسة والشريرة، بين الحار والبارد، والعلوي والسفلي كما كان موجوداً عند الإيرانيين والمصريين والهنود.

2 ـ لم تكن اعمال الآلهة وصفاتها عند اليونان القدماء منظّمة واضحة حتى جاء هوميروس شاعر الأمراء وسجل في إلياذته الشهيرة بعض صفاتها وأعطى لكل إله نوعاً من الأعمال والمزايا والصفات. وأعقبه ازيودس أو هزيود شاعر الفلاحين والعمال وكتب كتابه «آصل الآلهة»، وهي مجموعة من الأساطير والمعارف والمنقولات القديمة، اثبت فيها تناسل الآلهة وخروج الصغير من الكبير كخروج الجبال من الأرض والأنهر من البحار. وكانت آلهة الأولمب عنده آخر مواليد الآلهة، وكان «زوس» إله الآلهة يحكم الناس بالعدل وترى عينه كل شيء في العالم وهو الذي يهب القوة للضعفاء الصالحين وينزعها من الأقوياء المتمردين العاصين. وهو الذي يرفع قوماً ويذل آخرين.

3 ـ **الآلهة:** قسّم اليونانيون آلهتهم إلى قسمين: القسم الأول الآلهة من الدرجة الأولى، والقسم الثاني أنصاف الآلهة وهم كالملائكة. اما القسم الأول. فان اقدمهم الفلك وله ولدان «ساتورن»، وهو زحل، و«تيتان». ولدتهما له امهما «وستا»، وهي أم الآلهة. وأما القسم الثاني فهم الرجال العظام الذين تأهلوا بحسن افعالهم فدخلوا في مصاف الآلهة. ولما كانت الآلهة اليونانية كثيرة جداً فقد رتبناها تبعاً لحروف الهجاء كما يلي:

ئه اوس: إله الفجر.

ابول: إله أشعة القمر يصيب بسهامه النساء.

ابوللون: إله النور والضياء. «وهو يتصف بصفات مترا إله النور عند الفرس» مسلحاً بقوس وسهام من فضة كعلامة لنور الشمس يصيب بها الرجال ويطرد بها الظلام. وبما أنه كان في ما سبق راعياً لقطعان البقر السماوية فلذلك يعتبر إله الرعاة. وهو ينعش الزرع وينضج الأثمار وينمي البقول ويهدي أصحاب السفن إلى السواحل والمراسي ويرفع الأخطار عن المستجيرين به، يعلم كل شيء ويرى كل شيء ويحب كل شيء. قد ينتقم من الناس بقطع الأمطار عن زروعهم أو بإرسال أشعة الشمس الحارة لإحراقها ويعطي الحمى والأمراض والموت للعصاة. وقد تطغى رحمته على غضبه فيخلص الإنسان من المخاطر والأهوال.

اتسي: إله الخضرة والزراعة والخصب يقابل تموز البابلي وادونيس الإغريقي. وهو ابن الربة سيبل الرومانية وعشيقها. كان عيده يوم 22 آذار، وهو يوم المنقلب الربيعي. وكانوا يضعون في معبده

شجرة صنوبر ويزينون جذعها بأوراد البنفسج رمزاً له. ولعلها انتقلت إلى العالم المسيحي في يوم 25 كانون الأول في يوم الإنقلاب الشتوي.

اثنه: ظهرت هذه المعبودة من رأس زوس فكان لها من القوة والقدرة والبصيرة ما يمكنها من معاونة زوس في تنظيم أمور الكون والعالم وفي سوق الغيوم وتوزيع الأمطار على الأرض، وفي إلقاء القبض على العفاريت والمردة وإحراقها بالصواعق والشهب. وكان اهالي تساليا واثنه يعبدونها ويستجيرون بها ويعتبرونها إلهة الحرب والعلوم والذكاء والمعرفة.

أدونيس: هو مشتق من «ادوني» ومعناه سيدي ومولاي. وهو تموز الإله السومري. يعتقد اليونانيون ان أدونيس ثمرة حب وغرام بين كينيراس او سيزاس ملك قبرص وابنته ميرا. فكانت قد هربت ميرا قبل أن يفتضح أمرها إلى جبال لبنان فمسختها الآلهة بطريقة سحرية إلى شجرة البخور. وعند الولادة تفسخت الشجرة وخرج منها أدونيس. ولهذا كان البخور يحرق في عبادة أدونيس الذي كان على غاية من الحسن والجمال، فالتقت به عشتروت أو فنوس الشاردة من عشيقها «مارس الجبار» أو «اريس» الغيور فبادلت أدونيس الحب والغرام وتبعه مارس وتقمص جسد خنزير برّي. وبعد عراك مرير وقع ادونيس مضرجاً بدمائه فحملته الآلهة إلى عالم الأموات. فذهبت فنوس إلى جوبيتر تتوسل إليه أن يعيد لها أدونيس من عالم الموتى فوافق جوبيتر على ذلك. إلا آن بروزيين «اللات» ربة الظلمات وزوجة الإله بلاطون إله الجحيم هي أيضاً أحبت أدونيس فلم توافق على خروجه من عندها وإفلاته من يدها. فأصدر جوبيتر أمره أن يبقى أدونيس ستة أشهر فوق الأرض عند فنوس، وهو يرمز إلى موسمي الربيع والصيف، وستة أشهر في عالم الظلمات والأموات عند بروزيين وهو يرمز إلى موسمي الخريف والشتاء. وهي نسخة طبق الأصل أو بتحوير طفيف لاسطورة استارته «عشتروت» مع مولودها وعشيقها تموز، الأسطورة الكلدو ـ سومرية بتبديل الأسماء والمواقع.

ارتميز: وتسمى «ارتيموس» و«ارطاميس». هي الأخت التوأم البكر للإله «أبوللون» من الإله زوس. وتقابل افروديت وفنوس. كانت ربة النور والضياء في الليل. وكان موطنها الطبيعة بجبالها وأنهارها وأحراشها. وهي ربة الصيد والحرب وربة الأمومة والرضاعة وحماية الأطفال.

اره س: إله الحرب يقابل فارس عند الرومانيين.

آستارته: او عشتروت اللبنانية أو ايستار الكلدانية وهو اسم آخر للإله فينوس الإغريقية.

اسكولاب: ابن الإله ابدلون وهو إله الطب. وكان قد تعلم الصناعة من أبيه.

انانكي: من آلهة الجحيم لمحاكمة العظماء من الناس.

افروديت: «افروديت اورانيا» ربة الحب المثمر والزوجة التقية الصالحة الطاهرة و«افروديت بانديموس» ربة الجمال العابث المليء بالمتعة واللذة والمحبة والهوى والسرور والطرب والعشق. وهي تقابل عشتروت اللبنانية وعشتار أو ايستار البابلية.

اورفيوس: إله الموسيقى والأنغام والألحان ورب القيثارة. وفي رواية ان احد الآلهة حاول اغتصاب امرأته الجميلة فهربت منه فداست على ثعبان وماتت من لدغته، فالتفّت حوله النساء الجميلات يراودنه، فامتنع عنهن إخلاصاً لزوجته، فقتلنه ومزّقن جسده إرباً إرباً. وفي رواية أخرى ان

زوس بعد حادثة امرأته قتله بصاعقة فاحترق جسده. وأما رأسه فدفن في لسبوس في معبد فخم وارتفعت قيثارته إلى السماء واستقرت في برج القيثارة.

ايباك: أحد القضاة الثلاثة أولاد الإله زوس الذين يحكمون بالعدل في الجحيم ويفحصون أرواح الموتى. وبعد المحاكمة والحساب ترسل الأرواح الصالحة منها إلى الجزائر السعيدة، والطالحة منها إلى السجن الأبدي. ذكرهم هوميروس في إلياذته وأيّد وجودهم افلاطون.

ايروبس: إله الظلمات ظهر من الإله خاوس، إله العالم الأسفل.

ايروس: إله الحب والتناسل. كان قد عقد الزواج بين «جيا» ربة الأرض و«كاوس» رب الفضاء فحصلت الموجودات السماوية والأرضية وحتى آلهة الأولمب من تناسلهما.

باكشوس: ويقال له باقوس من أولاد جوتير وهو إله الخمر والمسكرات كافة. وهو أول من غرس أشجار العنب.

باليه: من آلهة الرعاة وكانوا يستغيثون به عند الشدائد.

بان: ابن الإله مركور كان نصفه الأعلى صورة إنسان والأسفل على صورة حيوان. وهو إله الأرض.

برسيفونه: ابنة الربة «ده ميتر» وزوجة الإله هادس إله العالم السفلي (وهي تقابل الربة اريشكيكال عند السومريين). راجع بحث ديميتر عنها.

برسوس: قاتل التنين اليوناني بمعاونة هرقل «هيراقليوس».

بركان: ابن الإله جوبيتر وهو إله الحدادين والصواعق.

بروميتوس: إله النار المقدسة وهو أول من انزل النار من السماء إلى الأرض لقضاء الحاجيات البشرية. ولما كانت النار توقد دائماً في المداخن وتطبخ المأكولات في كل بيت، وهي بمثابة الحياة للبشر، فكان هذا الإله قد قدم أحسن الخدمات وأكملها لبني الإنسان. وكان الإله زوس قد أنزل العقاب برأس برميتوس لنقله النار من السماء إلى الأرض.

بروزبين: زوجة الإله بلوطون إله الظلمات وعالم الأموات وإله الجحيم وهي التي احبت ادونيس ولم توافق على خروجه من عندها في عالم الأموات وإفلاته من يدها، فأصدر جوبتير قضاءه بأن يبقى ادونيس ستة أشهر عند فنوس وهو رمز الربيع والصيف وستة أشهر عند بروزبين وهو رمز الخريف والشتاء.

بلاس: هي الربة التي اختطفت قلب «ديونيسوس» الطفل، حفيد الإله زوس وأخفته لما طاردتها الآلهة وذبحته وأكلت لحمه، ثم ظهر ديونيسوس مرة أخرى من ذلك القلب. وهي ربة الحكمة والحرب.

بلاطون أو (بلوتون): رب الجحيم والنيران وأحد الثالوث الأخوي المشكّل من: «جوبتير ونبتون وبلاطون» أولاد «ساتورن ـ زحل» رب الزراعة. وكانت أنهر النيران ثلاثة وهي: «حزون وكوسينه وفلجتون». وكان صاحب النيران كلباً له ثلاثة رؤوس يسمى «قربيره» وكان خازن النيران يسمى «قارون» تحت أمره ثلاثة زبانية وهي: «الفتو وتيسيفون وميجير». وكان الإله «مركور» يأخذ أرواح

الموتى فيوصلها إلى قضاة النيران فيحاسبونها ويرسلونها إما إلى الجنة وإما إلى النار المسماة «طرطوس» عند بلاطون فتربط مع الحيات والأفاعي.

بلوطوس: إله الثروة والغنى.

بوزه ثيدون: إله منابع المياه، وقد تجري السفن بقوته وقدرته في الأنهر والبحار.

بومونة: ربة الأثمار.

تنتالوس: يقال له «طنطالوس» وبالعربية «طنطل» وهو من الآلهة الأشرار. كان قد صنعته الآلهة عقاباً له لإفشائه أسرار الإله زوس في وسط النهر وهو عطشان. فكلما انحنى ليشرب ابتعد عنه الماء. وقد وضعت فوق رأسه الأغصان المثقلة بالأثمار فكلما مد يده ليقطع شيئاً منها ابتعدت عنه.

تيتان: الابن البكر للفلك الأعظم، تخلّى عن المُلك لأخيه ساتورن.

تيفون: إله الشر وهو يقابل «سيث» الإله الفرعوني الذي قتل أخاه اوزيريس الصالح المتأله.

جايا: ويقال لها أيضاً غايا وده ميتر وهي معبودة الأرض وربة تموين الإنسان والحيوان والغذاء. تعلّم الناس استعمال الآلات الزراعية وفلاحة الأرض، فيقدم الفلاحون أول وجبة إليها من محصولاتهم.

جوبيتر: ويسمى يوبيتر، وهو كوكب المشتري وإله الآلهة وأحد «الثالوث الأخوي» أولاد «ساتورن ـ زحل» رب الزراعة وإله الصواعق عند الإغريق. عبده الآشوريون باسم «آشور» والكلدانيون باسم «بعل ـ بل». ولما استولى على العالم قتل أولاد عمه تيتان خوفاً من دعوى الميراث وطرد اباه ساتورن من السماء وقسّم العالم بينه وبين أخوته فأخذ هو السماء وما فيها وأعطى لأخيه نبتون مياه الأرض ولبلوطون النيران وشرع هو في صنع النوع الإنساني. وكانت زوجته أخته المسماة «بوتون»، وهي إلهة النكاح والولادة. وبنتها تسمى «هيا» وهي ربة الصبا. ولها ولد يسمى «مارس» وهو المريخ إله الحرب. ولها ولد آخر يسمى «بركان» وقع على الأرض وانكسرت رجله فصار إله الحدادين. وولد لجوبيتر من غير بوتون ولد اسمه «بلاس»، ولد من رأسه، وآخر اسمه منيرفا إله الحكمة، وآخر اسمه ابولون ولد من معشوقته «لاطون» وغضب عليه فجعله إله الرعاة ثم رده إلى السماء وجعله يقسم الأنوار العلوية على العالم فهو الذي اخترع الغناء والموسيقى وعلمها للموزات بنات جوبتير من زوجته ميموزينة التي ولدت له أيضاً ـ ديانة ـ إلهة الصيادين. ومن أولاده أيضاً «بخوس» من زوجته سميلة.

خارون: من آلهة العالم الأرضي السفلي. فبعد ان يتم دفن الجسد يستلم الروح من الإله هرمس في جوار بحيرة مكونة من ملتقى نهرين فيسوقها في طرق ملتوية ضيقة محفوفة بالمخاطر حتى يوصلها بسلام إلى سر بيروس حارس العالم الأسفل وتمضي بطريقها إلى الإله مينوس لمحاكمتها.

خلوس: ذكره لأول مرة ازيود شاعر الفلاحين. أنجب إله النور «ابوللون» وإله الظلمات «ايروبس».

خرونوس: اسم آخر للإله «زوس».

ده ميتر: اسم آخر للربة «جايا» أو «غايا» وهي ابنة «كرونس» إله الزمن وأمها «ريا» وهي اخت زوس إله الجو. ومن اعظم الربات منزلة وقدراً في اليونان، تمثل الحنان والشفقة والنظام والقانون

والأرض والطبيعة وتعتبر ربة الزراعة والحبوب والخصب وحامية الزواج وشفيعة النساء. وكان قد ضاجعها أخوها زوس فولدت ابنتها «برسفوني»، وهذه تقابل عشتروت السامية. وفي غفلة من الزمن داهمها «هادس» إله العالم السفلي واختطفها وأنزلها عنده في باطن الأرض فخرجت ده ميتر تجوب الأرض في ثوب آسود وفي يدها مشعل تفتش عن ابنتها برسفوني حتى وصلت إلى مدينة ايلوزيس في اليونان فعلّمت أهل المدينة الزراعة فعبدوها. وأخيراً اخبرها الإله الشمسي «هيليوس» بالأمر الواقع فحزنت وحنقت على الآلهة فأجدبت الأرض ويبّست الحقول وانقطعت الأمطار فتدخل زوس وقضى على ان تعيش برسفوني ستة أشهر في باطن الأرض، وهي ترمز إلى الخريف والشتاء وستة آشهر فوق سطح الأرض، وهي ترمز إلى موسمي الربيع والصيف وهما رمز لموت الطبيعة وحياتها. (راجع اسطورة اينانا السومرية في الكتاب الرابع).

ديانا: ربة الذكاء والفهم والقوة والنشاط والعمل. بنت جوبتر.

ديوس: ويسمى «ديونيسوس» ويسمى الغا «زاغروس» ومعناه الممزق لأنه قتل وتمزق جسمه إلى اشلاء ثم قيامته من الموت. ويسميه الفرنسيون «ديو» وهو من الآلهة الآريين. وهو إله الخمر واللهو والترف والحب والنشوة. وهو حفيد الإله زوس من ابنته برسفوني. وعلى رواية «سملا» كان يجوب البلاد ليعلّم الناس زرع الكرمة وشرب الخمرة. وكان قد منحه الإله زوس وهو طفل، السلطان على العالم فغارت منه «هيرا» زوجة الإله زوس فجمعت عليه الآلهة وطاردوه. ولما انقلب عجلاً ليخفي نفسه ويتخلص من مطارديه ألقي عليه القبض وذبح وأكلت الآلهة لحمه نيئاً. إلا أن الربة «بلاس» اختطفت قلبه وأخفته عن أعين الآلهة الأخرى. ثم ظهر «ديونيسوس» من ذلك القلب مرة أخرى واشتكى عند جده زوس ما فعلته به الآلهة فأحرق زوس الآلهة كافة التي طاردته وذبحته وأكلته فخرج البشر من رماد تلك الآلهة. فكان الإنسان مركّباً من عنصرين متعارضين: الأول عنصر آلهة الشر والثاني عنصر ديونيسوس وهو عنصر الحب والخير[1]. وكان لهذه الأسطورة طقوس خاصة رتبها الكهان والرهبان وهي الاستحمام باللبن وتقديم القرابين للتخلص من العنصر الأول وغيره. ولديهم كتاب شبيه بكتاب الموتى عند المصريين ولعلهم أخذوه منهم.

ديبون: اسم آخر للربة «هرا» زوجة الإله زوس. وهي معبودة أهالي كرطوم وسيسام.

رادامانت: أحد القضاة الثلاثة أولاد الإله زوس الذين يحكمون بالعدل ويفحصون أرواح الموتى ويرسلون الأرواح الصالحة إلى الجزائر السعيدة، والطالحة منها إلى العذاب الأبدي.

ريا: زوجة الإله كرونوس وأم الإله زوس والربة ده ميتر.

زاغروس: اسم آخر للإله ديونيسوس.

زوس: ويسمى أيضاً «زفس» وهو كوكب المشتري ومعناه باليونانية القديمة المخفي نفسه وغير المنظور. كان قد تمكن بعد حروب دامت عشرات السنين من التغلب على جميع منافسيه من الآلهة فأغرقها كافة في بحر الظلمات وقتل حتى آباه «كرنوس» وحلّ محله واستقل بالألوهية المطلقة ووضع تحت أمرته الحوادث الكونية كافة.

---

(1) في الأساطير الكلدانية والسومرية ان الإنسان مركب من عنصرين: عنصر إلهي وعنصر ترابي.

وكان سلاحه في تحطيم اعدائه من الآلهة الأنواء الجوية كالصواعق والأمطار والغيوم وخاصة الرعد والبرق. وبعد أن استقل بالألوهية ولم يبق من ينازعه فيها أصبح إله الآلهة ورب الأرباب وهو منزل الغيث ومحيي الأرض وهو خالق الإنسان والحيوان وهو المتصرف الوحيد في تصريف شؤون الكون والعالم. وأما الأنهار فهي تنبع من السماء ومن فيضه العميم. ويذهب بعض المؤلفين إلى ان «زوس» مشتق من «ديوس» أو «ديونيسوس» الإله الآري. ونظراً لرواية الشاعر «هومر» فان الإله «زوس» كان قد غمر نهر «اكه لوس» بعنايته وشمله بعطفه. ولزوس عدة معابد في جبال «ايتون» و«اركاديا» و«كريت» وأهمها في جبال «اولمبيا».

انجب زوس ثلاثة أولاد: «مينوس» و«رادامانت» و«ايباك» وهم قضاة العالم الآخر يحكمون بالعدل. وفي غفلة من الزمن اضطجع مع أخته «ده ميتر» فأولدها «برسفوني» التي اختطفها «هادس» إله العالم السفلي.

ساتورن: هو ابن الفلك الأعظم. أمه «وستا» أي الأرض وشقيقته تيتان وهو رب الزراعة والفلاحة. انجب ثلاثة أولاد «جوبيتر» و«بلاطون» و«نبتون» ويطلق عليهم عنوان «الثالوث الأخوي». ولما استوى جوبيتر على العالم طرد ساتورن من السماء فنزل إلى الأرض.

سلكت: من امهات الآلهة.

سيبل: أو كيبل وهي الأم العظيمة. نقلها سناتو روما مع كهنتها ورهبانها إلى روما باحتفالات دينية بالغة.

فاللوس: يقال إن له قضيباً من حجر تقدّم العذارى له بكارتهن ليلة الزفاف. ويعتقد أنه في الأصل من آلهة الآشورين. انتقل إلى سورية وثم إلى جبل طي وما يليها باسم «فلس».

فول: إله الجو وهو جد ساتورن Cupidon.

فنوس: وهي الربة الرومانية بنت ابولون إلهة التناسل والتولد وأم «كوبيدون» من عشيقها «مارس» الجبار. تقابل استار السومرية وعشتار البابلية وده ميتر اليونانية. ولما شردت من عشيقها إلتقت بأدونيس وبادلته الحب والغرام فتعقبها مارس وترك أدونيس مضرجاً بدمائه فذهبت فنوس إلى جوبيتر تستعطفه لكي يعيد لها أدونيس من عالم الأموات، فوافق جوبيتر على أن يخرج ستة أشهر فوق الأرض عند فنوس وهو يرمز إلى الربيع والصيف ويبقى ستة أشهر في عالم الظلمات والأموات عند بروزبين زوجة الإله بلوطون رب الجحيم وهو يرمز إلى موسمي الخريف والشتاء. والأسطورة مأخوذة من تموز وعشيقته استار عند الكلدانيين. وهو في الأصل إله الزراعة والخصيب وقطعان الماشية عند السومريين، وعرف في فينيقيا باسم «ادوني» أي سيدي وربي ومولاي. وورد اسمه في سفر حزقيال باسم «تموز». عند انتقاله إلى بلاد الإغريق صار يعرف باسم «آدونيس» وقد سبق ذكره.

فلورة: ربة الأزهار.

كاوس: رب الفضاء. وكان «ايروس» رب التناسل قد عقد الزواج بين «جيا» ربة الأرض و«كاوس» رب الفضاء فحصلت الموجودات السماوية والأرضية وحتى آلهة الأولمب من زواجهما.

كرونوس: إله الزمن يرمز إلى كوكب زحل وهو والد الإله زوس والربة ده ميتر. زوجته «ريا». وكان إله الآلهة ورب الأرباب حتى قتله ولده زوس وحل بمحله.

كوبيدون: ابن فنوس اليونانية وهو تموز الكلداني. كانت آمه تذوب فيه وجداً فنزلت إلى جوف الأرض لتخليصه من عالم الأموات كما هو محرر في اسطورته.

لاطون: معشوقة الإله جوبيتر ووالدة الإله ابولون.

مارس: ابن جوبيتر وهو المريخ إله الحروب والأسلحة وقاهر الأعداء.

موزات: بنات الإله جوبتير من زوجته منيموزينة.

منيموزينة: زوجة جوبتر.

مركور: هو عطارد إله التجارة.

منيرفا: إله الحكمة.

ميرا: ابنة كنيراس ملك قبرص. حملت من أبيها فهربت إلى جبال لبنان قبل ان يفتضح أمرها فمسختها الآلهة شجرة ثم تفسخت الشجرة عند الولادة وخرج منها ادونيس.

مينوس: أحد أولاد الإله زوس الثلاثة، قضاة العدل بعد الموت وفي اليوم الآخر. ولمينوس سلطة الفصل وحق اعطاء القرار النهائي في الأحوال المرتبكة.

نبتون: رب البحر وابن الإله ساتورن رب الزراعة وأحد الثالوث الأخوي. وهو الذي يهدي السفن إلى المرافىء والسواحل.

نيت: من أمهات الآلهة.

هادس: إله العالم الأسفل ورب الأموات تعاونه زوجته «برسيفونه». تحفظ عنده الأموات حتى يتولى مينوس محاكمتها.

هرا: زوجة الإله زوس ومعناها عين البقرة وتسمى أيضاً «ديبون».

هرقل: إله القوة ويسمى باليونانية «هيراكليوس».

هرمس: إله إثارة الهواء وسوق السحب والغيوم. ولما يفرح وينتشي ويطيب له الهوى يغني بصوته الحلو الرخيم فتطرب لصوته الكائنات كافة وتزدهر. وهو الذي علّم الناس القراءة والكتابة والحكمة والعلوم والفنون. وهو شقيق الربة ايزيس. وهو يرمز إلى عطارد.

هيا: المخلص.

هيبا: بنت الإله جوبيتر من زوجته يونون وهي إلهة الصبا والشبوبية.

يونون: زوجة الإله جوبيتر وأخته. وهي إلهة النكاح والولادة. لها بنت تسمى هيبا وولد يسمى مارس أي المريخ وبركان إله الحدادين والصواعق.

4 ـ لا يوجد لدى اليونانيين القدماء ما يسمى رهباناً. إنما هناك لقسم من الناس بعض الارتباط والمناسبات مع الآلهة فيكونون الواسطة لقضاء حاجيات الناس والتوسط لدى الآلهة.

5 ـ وأما العبادة فهي بسيطة للغاية. وهي عبارة عن قراءة قصائد وأشعار لتعظيم الآلهة وتبجيلها ثم تقديم الذبائح والمأكولات والمشروبات والخمر على ان يحرق بعض اقسامها بالمواقد وتخصص الأقسام الأخرى للضيوف.

6 ـ ولم تكن محاسبة الأرواح بعد الموت معلومة عند اليونانيين القدماء وكان أول من جهر بها هوميروس (في القرن التاسع قبل الميلاد) في إلياذته، فقال ان «عوليس» الملك المتأله نزل بعد موته إلى الجحيم وشاهد بعينه ان الإله «مينوس» يقضي بين الأموات لا عن أعمال الناس في الدنيا إنما عن المنازعات والمخاصمات بين الأموات فقط[1]. وشاهد الميزان الإلهي منصوبة أمام الإله زوس لا لوزن حسنات الأفراد وسيئاتهم إنما ليضع فيها طالعاً للطرفين المتحاربين فتهبط كفة وتعلو أخرى فيكون النصر للأولى والهزيمة للثانية[2].

7 ـ وجاء بعد هوميروس الشاعر اليوناني «بندار» في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد وذكر في قصيدته «ان العظماء سيجدون في الجحيم قضاة عدل لمحاكمتهم عن الأعمال الاجرامية التي ارتكبوها في حياتهم». وبهذه القصيدة ظهرت لأول مرة محاكمة الأرواح بعد الموت في الآداب اليونانية.

8 ـ وجاء بعد ذلك الفيلسوف اليوناني الكبير «افلاطون» فذكر ان بالجحيم قضاة يحكمون بالعدل وهم آلهة الشاعر هوميروس «مينوس» و«ردامانت» و«ابياك» أولاد «زه وس» إله الآلهة يفحصون أرواح الموتى بعد المحاكمة والحساب فترسل الصالحة منها إلى الجزائر السعيدة والطالحة منها إلى السجن الأبدي. ولمينوس سلطة الفصل وإعطاء القرار النهائي في الأحوال المرتكبة. وبينما كانت الآلهة الثلاثة عند هومر تقضي في المنازعات والمخاصمات الحاصلة بين الأموات أصبحت عند افلاطون تحاسب الأموات على اعمالهم في الحياة الدنيوية. ويقابل ذلك آلهة مصر الثلاثة الموكلة على المحاسبة «اوزيريس واتوبيس وتوت». وبهذا اثبت افلاطون عقيدة الحساب المصرية بعد الموت في الديانة اليونانية وجعل الأرواح على ثلاثة أقسام: الأولى الأرواح الطيبة وهذه ترسل إلى الجزائر السعيدة فيها المأكول والمشروب والخمر المعتق، والثانية الأرواح الشريرة وترسل إلى السجن في قاعة الجحيم للعذاب الأبدي، والثالثة الأرواح التي عملت الخير والشر فهذه تدخل بالتناسخ بين الحيوانات لتكفر عن سيئاتها وعما اقترفته من ذنوب حتى يفرج عنها. ولم يتطرق افلاطون إلى الميزان المصرية فترك الحكم لرأي آلهة العدل وما يرتأونه من نعيم أو عذاب، دون الميزان. ويظهر ان افلاطون اخذ هذه النظريات من كهنة معبد هليوبوليس عندما زار مصر وصبغها بصبغة الأساطير اليونانية.

9 ـ وضعت بعد ذلك لمحاسبة الأرواح نظريات وقواعد ثابتة صيغت بشكل مخيف وهي أنه عندما تخرج الروح من البدن يتلقاها الإله «هرمس» فيسوقها تحت الأرض حتى يصل بها إلى جوار بحيرة متكونة من ملتقى نهرين فيوقفها هناك حتى يتم دفن الجسد. وعند ذلك يأخذها «خارون» إلى بلدة الظلام حيث تمر في طرق ملتوية ضيقة محفوفة بالمخاطر ويستلمها في نهاية الطريق حارس العالم الأسفل

---

(1) من المحقق ان نظرية محاسبة الأرواح بعد الموت هي من موضوعات كهنة مصر منذ أقدم العصور وقد انتشرت في حوض البحر المتوسط ومنها إلى اليونان بعد الفي سنة أو ما يزيد حتى أثبتها لأول مرة هوميروس بالياذته.

(2) ولا شك ان هذا الميزان الإلهي مأخوذ من ميزان الإله اوزيريس الفرعوني لوزن حسنات الموتى وسيئاتهم. ويكون عقاب الإله للأشرار بدرجات مختلفة. فكان قد عوقب (تنتالوس) الذي أفشى أسرار الإله زوس بأن وضع في وسط النهر وهو عطشان فكلما انحنى للشرب ابتعد عنه الماء ووضع فوق رأسه أغصان مثقلة بالأثمار فكلما مد يده إليها ابتعدت عنه. وهي مأخوذة من ترول سانتي مع ولده مينوزيريس إلى الدار التي تحاسب فيها الأرواح في جبل ممفيس.

«سربيروس»، وهو عند «هادس» إله العالم الأسفل ورب الأموات والظلمات تعاونه زوجته «برسيفونة» حتى يتولى محاكمتها الإله «فينوس» الساكن في محل واسع. وبعد المحاكمة ترسل إما يميناً إلى جزيرة الـ «اليزة» حيث هناك الأوراد والأزهار والأنهر والمأكول والمشروب، وإما إلى اليسار فهناك واد سحيق تجري فيه النيران كالأنهار وهو محاط من جوانبه كافة بأسوار ثلاثة.

10 ـ ان الآلهة عند اليونانيين كالبشر تأكل وتشرب وتعمل الخير والشر وتتزاوج في ما بينها. ولهذا كانت الديانة عندهم مستندة على إرضاء الآلهة وتجنب سخطها وما يزعجها ويثير انفعالاتها. يقول اكسانوفان «من الطبيعي ان الآلهة تحمي الأشخاص الذين يحترمونها ويكرمونها فقط» ولهذا يطلب اليونانيون من آلهتهم عوضاً من تقديم العبادات والطاعات، حمايتهم من الشرور.

روى هوميروس في إلياذتة عن راهب أبوللون عندما اغتصبوا ابنته أنه ناجى إلهه بقوله: «يا إلهي، يا صاحب القوس الفضي، والسهام النافذة اسمعني. لقد زيّنت معبدك بالأقواس الفضية وذبحت في محرابك الغنم والبقر، فالآن اقبل دعائي واستجبني ووجّه سهامك إلى اليونانيين».

ان احسن وسيلة لجلب رضاء الآلهة هي تقديم الهدايا والذبائح وكل ما يصلح للإنسان من أنواع المآكل والمشرب واللباس والجواهر والأثاث. وكان من جملة الطقوس الدينية عند اليونانيين إراقة الشراب والحليب في أرض المعبد كما وانهم يريقون في مجالس شربهم مقداراً من الشراب على الأرض على شرف الآلهة ويقدمون كذلك الدقيق والعسل والأثمار والخضر ومختلف الحاصلات، وخاصة اللحوم إلى المعابد باسم الآلهة. وكان تقديم اللحوم يرجح على تقديم بقية الأنواع الأخرى.

11 ـ ولما كانت الآلهة تقيم في رؤوس الجبال وفي الغابات والكهوف فقد انشئت هناك محاريب ومحاريق لذبح الحيوانات. ومن المحتم ان تكون الحيوانات المقدمة كذبائح للآلهة سالمة من كل عيب ومن كل نقص في جسمها ولا بأس ان تكون من أي نوع كان من البقر، العجول، الاكباش، النعاج، المعز، الخنازير... على ان تخصص الذكور من الحيوانات للآلهة والإناث منها للربّات، كما وان عادة تقديم الذبائح البشرية أيضاً كانت جارية عند اليونان ولعلهم اخذوها من الفينيقيين. ولليونانيين مواسم معلومة كانوا يقيمونها في اوقات معينة حرمة واكراماً لآلهتهم تقدم فيها الصلوات والذبائح للآلهة. وكانت تقام في مدينة بنميا من بلاد المورا في جنوب اليونان ملاعب في كل سنتين مرة واحدة اكراماً لهرقل احد انصاف الآلهة لقتله اسداً بقرب المدينة المذكورة، وملاعب في برزخ كورنثوس في كل أربع سنين مرة واحدة اكراماً لنبتون إله البحار، والملاعب الأولمبية التي كانت تقام في كل أربع سنوات مرة واحدة بمدينة أولمبة في المورا أيضاً اكراماً للإله جوبيتر. كانوا يتصارعون فيها ويتغالبون ويتراكضون ويتسابقون في كل أنواع الألعاب البدنية.

وكانت الذبائح التي تقدم للآلهة غالباً من الحيوانات المعاكسة لأعمال ذلك الإله. فكانوا يقدمون الخنازير ذبائح لآلهة المحصولات الزراعية لأنها تسحق بأقدامها سيقان الزرع وتفسد الغلة، ويقدمون الماعز ذبائح إلى الإله باكشوس أبو باقوس إله الخمر لأنها تؤذي أشجار الكرم.

12 ـ ولذبح الحيوانات مراسيم خاصة يتخذها الرهبان. فيقدم الحيوان امام المذبح وعليه التيجان والأطواق فيعطى له حفنة من الشعير المحمص ثم يتقدم الراهب ويخبر الإله بمطالب الشخص وسبب

تقديمه الذبيحة ثم يضرب الحيوان على رأسه بفأس كبيرة فيطرحه على الأرض جثة هامدة، وعند ذاك يأخذ مقداراً من دمه فيطلي به جدر المذبح ويقدم من كل عضو قطعة صغيرة لإحراقها كحصة للآلهة، ثم يطبخ ما تبقى من الذبيحة للمارين والعابرين والحاضرين والرهبان والكهنة.

وقد تحرق كل الجثة بالنار كما أنه قد يذبح مئة رأس من الحيوانات مرة واحدة.

13 ـ يظهر مما مر اعلاه انه لم يكن في بادىء الأمر عند اليونانيين إله واحد يستبد ويحكم ويأمر وينهي. إنما كانت آلهتهم من وحي خيالهم وهم الذين خلقوها وعبدوها فكاهة وليست هي التي خلقتهم كما هو الأمر عند الأمم الأخرى. وليس عندهم كتاب مقدس مطاع يحدد اعمالهم ويكبت تفكيرهم، إنما كانت أعمالهم وأفكارهم حرة وطليقة من كل قيد قد تستمد قوتها من عقولهم. وأما الشرائع فهي القوانين والعرف والعادات وما يقوله الشعراء والحكماء والفلاسفة من الأقوال المستندة إلى العقل والمنطق الإغريقي وعلى دقة الاحساس في التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح والصواب والخطأ. فإن الخير ما كان يوافق منطق العقل، والشر ما يخالفه، فلا كتب سماوية تُملى على قواعد عليهم من عالم الغيب تحدد نشاط عقولهم، ولا رجال دين نصّبوا انفسهم وكلاء عن الآلهة يحللون ويحرمون، ولا نظام كهنوتيّاً ضيّقاً يفرض إرادته على مصالح الناس وأعمالهم اليومية ويقمع كل حركة تخالف المعتقدات الموضوعة. إلا أن هذا الحال لم يدم طويلاً، فقد تطورت بمرور الزمان نظرية الحساب والنعيم والعذاب من حال إلى حال واستكملت قواعدها وثبتت احكامها فأصبحت كما هي عند الأمم كافة تستند على قوى مجهولة غامضة لا يمكن تحقيق كنهها والاطلاع على ماهيتها وحقيقتها. فظهر رجال الأديان والكهان والرهبان وشرعوا يسوقون الناس كالأنعام إلى عبادة تلك القوى المجهولة رغبة ورهبة ويقبضون الذبائح والهدايا وينعمون بأحسن اللباس والأثاث والجواهر والسكنى والجاه والسلطان.

الفصل الحادي عشر الآلهة عند فلاسفة اليونان القدماء

1 ـ كانت الأساطير اليونانية القديمة بناء على الاحتياجات البشرية الكثيرة قد فرضت وجود قوة كبرى في هذا الكون تسيطر على الموجودات كافة. ومن المحتمل جداً أن تكون هذه الأساطير انتقلت من الشرق، من السومريين. الكلدانيين. العيلاميين. المصريين...، فصاغها السحرة والكهنة اليونانيون تبعاً لما تقتضيه حالتهم الاجتماعية والاقليمية وبشكل توافق عقليتهم.

2 ـ ولما كان في الإنسان ميل للتجسس والوقوف على المغيبات وطلب الغنى واجتناب الفقر وإشباع الرغبات... الخ. فقد تكونت طبقة من اذكياء الناس «السحرة والكهنة...» لإرضاء امثال هذه الميول وإشباع تلك الرغبات. ولا يكون ذلك الا بفرض عالم الغيب ووجود قوة عظيمة غير مرئية تسيطر من وراء ستار على الكون وعلى العقول والأفكار والحركات والأعمال فيكون هؤلاء الأذكياء هم الواسطة بينها وبين الناس، فيطلبون منها منح السادة ورفع الأذى وتخفيف الآلام وتسكين الزوابع والأعاصير وإزالة الأوبئة والأمراض. وتحت هذه المؤثرات تجسمت في أدمغة السحرة والكهنة تلك القوة العظمى وسميت «زه وس» أو «زفوس» الإله العظيم.

3 ـ وبينما كان الإله واحداً فقط فقد اعطيت صفات الألوهية مؤخراً إلى آلهة السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم ثم إلى الأنهر والبحار والأحجار والأشجار. وكلما اتسع الخيال البشري والاحتياج تعددت الآلهة حيث أصبح يمثل كل إله مظهراً من مظاهر الحياة أو قوة من قوى الطبيعة.

4 ـ وبعد ان تعينت الآلهة وتوضحت صفاتها وأعمالها أصبح الدين يضاهي بقوته ما هو موجود منه عند أهل بابل والهند والصين، وخاصة كما هو في مصر الفرعونية. فكان يظهر بين آونة وأخرى اولئك الذين يدّعون الاطلاع على الغيب، والسحرة الذين يبدلون طبائع الأشياء ويعالجون الأمراض العقلية والجسدية. إلا أن هؤلاء لم يكن لهم حينذاك من القوة ما يمكّنهم من الاصطدام مع رجال الفلسفة والشعراء والحكماء، مع ان الفلسفة حينذاك كانت في حالتها الابتدائية ولم تتعد التفكير بأحوال الكائنات وحصول الحياة وماهية المعتقدات.

5 ـ وبينما كان الدين آخذاً بالانتشار وكان الكهان في كل يوم يأتون بقواعد جديدة عن الآلهة واحتياجاتها. شرع رجال الفلسفة بتحليل أحوال الكائنات والخلقة والمادة والحركة وما ينجم من آثار الطبيعة من كون وفساد وعلل ومعلومات، وتطرقوا بطبيعة الحال إلى الآلهة وأعملوا فكرتهم فيها كل حسب ذكائه وعلمه وعقله وتفكيره. ولما لم يكن عندهم أنبياء ولا توجد شرائع سماوية تحد من عقولهم فكان التفكير والاجتهاد على درجة من الحرية وإن كان التعرض للآلهة وانتقاد أعمالها أو إنكار وجودها محذوراً. فلذلك لم يلتفت آحداً منهم إلى الفلسفة الروحية إلا نادراً. فطغت عندهم الفلسفة الطبيعية المستندة إلى الماديات وتحليل ظواهر الكون ونشوء العالم دون اللجوء إلى الخلق الإلهي. وما كان الإنسان عندهم إلا جزءاً من هذا الكون خاضعاً للنواميس الطبيعية.

6 ـ كانت آلهة هومر تسكن في الجبال وخاصة في قمم الألب وفي الغابات، وتقيم في أحسن القصور وأجمل الحدائق، وتؤلف حكومة مدنية يرأسها الإله الأعظم «زيوس[1]» ومن حوله الآلهة والآلهات الأخرى. وقد تتقمص الأجسام البشرية ولا يصيبها الموت ولا تجرحها السهام البشرية إنما تجرحها سهام الآلهة الأخرى امثالها. فتطير بالهواء وتسير في البحار وتمشي على الأقدام لا يمنعها حائل ولا يصدها جدار، تتزاوج وتتناسل وتأكل وتشرب وتفرح وتحزن وتظهر وتختفي وتتحرك وتعادي وتقبل الهدايا والقرابين وكل ما يقدّم إليها من انواع الطعام. وعندما تتمثل وتتقمص الأشكال والصور البشرية تسرح وتمرح في الشوارع والمنعطفات والمضايق والساحات وتختلط مع الناس وتدخل البيوت فتتكلم وتصاحب وتفعل ما تريد، وضعاف العقول من الرجال والنساء يخشون بطشها ويخافون وعيدها!

7 ـ وأما شيخ الفلاسفة «طاليس» فقد روى عنه ارسطو أنه كان يقول: «ان العالم مملوء بالآلهة وهي التي تحرك فيه كل متحرك». وقد يكون قصده من هذا القول ان العالم مملوء بالأرواح والأنفس وأن الأرواح منبثة في العالم وأن الروح هي التي تحرك المادة. وكان يعتبر الماء هو الجوهر الأساسي في المادة الحية وهو الأصل في كل شيء ومنه تظهر الحياة. وقد أخذ هذه النظرية من هوميروس الشاعر اليوناني الذي يقول: «ان البحار هي المصدر للأشياء». وكان طاليس يقول: «لولا الماء لما عاش حيوان أو نبات». فكل شيء حيٌّ متأت من الرطوبة. وادعى أن الآلهة ليست منفصلة عن الكون، إنما هي كائنة فيه وتابعة لقوانينه.

8 ـ لم يتطرق «انكسيمندريس» بأبحاثه إلى الآلهة مع أنه كان شيخ الفلاسفة ورأس الحكمة وواضع الفلسفة التي يسميها العرب بـ «الفلسفة الدهرية». فكان ينسب جميع حادثات الكون إلى الدهر ويمد الوجود إلى غير حد في الزمان والمكان. ويقول بعوالم لا تحصى وبدور عام يتكرر إلى ما لا نهاية له. وأما التكوين عنده فما هو إلا اجتماع العناصر المادية وافتراقها تحت تأثير الحركة والدوران دون ان يكون لها سبب أو علة فاعلة وحتى دون غاية، وهي فكرة قريبة من مذهب الماديين القائلين بالنشوء والارتقاء. وما العالم عنده إلا المادة والقوة. ولأجل هذا لم يتطرق إلى الآلهة.

9 ـ عندما اتسع نطاق الحركة الفكرية في ايونيا (اليونان) كان الفلاسفة يصفون القواعد الفلسفية لإيضاح تكوين العالم ومظاهر الحياة ويبحثون عن أسس المعتقدات. فوضع «اكسانوفان» الشاعر اليوناني (583 ـ 577 ق. م.) نظرية 'الآلهة في ميزان العقل لأول مرة. فكان يطوف بالبلاد معلناً شكوكه في المعتقدات الدينية وفي الآلهة وفي أنها ذكور وإناث وأنها على شكل الإنسان ومتصفة بأخلاقه وعاداته وصفاته. وانتقد آلهة هوميروس الخاصة للأمراء وايزيودس الخاصة للفلاحين انتقاداً مراً واستهزأ بالمناسبات والعلاقات الجارية بين الآلهة والأشخاص البشرية (الكهنة والرهبان). وكان ايزيدوس يعتقد بوجود إله الشر ويسميه «خاوس Chaus» ومعناها باليونانية القديمة الظلمات أو الهاوية وهي مقتبسة من إله الشر «اهرمن» عند الفرس القدماء. ويعتقد أيضاً بإله الحب والتناسل

(1) زيوس هو كوكب المشتري وأبوه زحل.

ويسميه «ايروس Eros» وقد تكاثرت الآلهة بعد ذلك من انسال هذين الإلهين، فظهر من خاوس إله الظلمات «ايروبس Erobus» وإله النور «ابوللون Epollos». وقبل هؤلاء جميعاً كانت الأساطير اليونانية قد وضعت الإله «خرونوس Chronos» وهو والد الإله «زيوس Zeus» فوق الآلهة جميعاً وهو كوكب المشتري وهو إله الآلهة ورب الأرباب الأوحد. ولا ريب ان هذه الآلهة المتأخرة كان قد وضعها ايزيود لتطمين رغبات امته.

وبعد أن اطلع اكسانوفان على فلسفة اناكسيمندريس كان يقول ان الآلهة فوق متناول خيال الإنسان وإن الناس هم الذين خلقوا الآلهة وعبدوها ومنحوها القوة والقدرة والصفات البشرية الممتازة، ومنحوها أخلاقاً وأعمالاً كأخلاقهم وأعمالهم. وقد خلق كل قوم إلهه على صفاته وشاكلته وهواه. ويستهزىء بالآلهة الموضوعة والمعتقدات الدينية ويقول لماذا تكون الآلهة على شكل الإنسان زرق العيون عند أهل تراقيه وفطس الأنوف عند الأحباش؟! فلو كان للخيل والبقر والسباع آيد تكتب وتنحت لرسمت وكتبت ونحتت آلهتها على اشكالها. ويقول، فكان من الضرورة المنطقية ان يكون الإله واحداً يشمل جميع الكائنات ليس على شكلنا ولا على قوامنا وهيئتنا ولا يفكر كتفكيرنا وليس متحركاً متنقلاً من مكان إلى آخر إنما هو صمد ثابت مستقر كله بصر وكله عقل وكله سمع يحرك الجميع بسهولة ولا يتحرك.

وذكر أرسطو عن اكسانوفان أنه نظر إلى العالم فقال إن أصل الوجود والأشياء واحد وهو «الله ـ زفوس» فكان بقوله هذا يميل إلى عقيدة أهل وطنه يونيا في وحدة الوجود المادية!

فكان اكسانوفان موحداً «monotheiste» ومؤمناً في الوقت نفسه بوحدة الوجود «pantheiste» ومع هذا فقد كان يظهر الميل إلى الآلهة الأخرى من الصنف الثاني من الآلهة كآلهة النجوم والعناصر إلا أنه يعتبرها منبثقة من الإله الأوحد «زفوس» أو «زيوس».

وكان اكسانوفان يقول إن العالم موجود واحد وله طبيعة واحدة وإن جميع الكائنات متشعبة من ذلك الواحد. ولا يعتقد أن الواحد هو الماء أو النار أو الهواء كما كان يعتقد بعض الفلاسفة، أولئك الذين ينسبون التكوين إلى الحركة والتغير العرضي مثل التكاثف والتخلخل والاجتماع والانفعال وغيره، بل إنه يقول ان العالم كله واحد وفي حالة الكون ولا توجد هناك الكثرة والتغير والحركة. ويسخر من اعتقاد فيثاغوروس حول التناسخ.

ارتفع اكسانوفان بعقله الناضج فوق عقول أبناء قومه المعاصرين له وأدرك بثاقب فكره ان الحكايات والروايات والمنقولات والأساطير التي كان يتناقلها الناس عن الآلهة وتعددها ومشابهتها للإنسان ما هي إلا حديث خرافة وأباطيل يقصد بها تضليل الناس لجر المغنم. وكان يعتقد ان الذين اخترعوا واستحدثوا هذه الآلهة قد نسبوا اليها المثل العليا من القوة والعاطفة والاحساس وكل ما هو موجود بالإنسان لفائدتهم الخاصة ومنافعهم الذاتية، فضلّوا وأضلّوا.

وكان اكسانوفان يدّعي أن الأشياء جميعاً عالم واحد، وسمى هذا العالم الله ـ زفوس ولم يوضح إن كان العالم الذي يعنيه واحداً من حيث المادة أو من حيث الصورة. وعلى كل يظهر أن اكسانوفان كان حلولياً. وقد أخذ هذه العقيدة عن أسلافه الفلاسفة.

10 ـ كان آنبادوقليس يعتقد أن النفس البشرية إلهية سبق ان اخطأت فوقعت إلى الحضيض[1] ووجب عليها أن تقضي ثلاثين ألف سنة بعيدة عن عالم السعادة فتتقمص دائماً للأجسام البشرية والحيوانية. وقيل عنه إنه كان يدعي بأنه يذكر حيوانيته السابقة وإنه لم يزل يجتهد للوصول إلى عالم السعادة متمسكاً بطريقة الزهد والتقشف وترجيح العقل على الحواس والتطهر من الماديات. ويعتقد أن الغاية القصوى هي العودة إلى عالم المحبة والوحدة، حيث تجد النفس راحتها الأزلية في ظلها.

11 ـ كان هرقليطس صاحب نظرية وحدة الوجود والتغير المستمر والنار كل شيء والله هو النار وجميع الكائنات من النار وإلى النار. وكان يعتقد بالإله الواحد هو إله الحكمة Sagesse. وكان يستهزىء بمراسيم العبادة ومناسك الدين كالوقوف أمام التماثيل وطلب الشفاعة من الآلهة وغيره. ولما كان هرقليطس من أفراد عائلة ملك افسوس وله صفة رهبانية فكان لوعظه تأثير عند العامة.

ان النار التي يقصدها هرقليطس ليست هي النار التي ندركها إنما هي نار إلهية لطيفة رقيقة أثيرية. وهي عبارة عن نسمة حارة حية عاقلة أزلية أبدية تملأ فضاء العالم، وقد يعتورها في بعض الأحيان وهن وخمود فتصير ناراً اعتيادية، وقد يعتري النار هذه حالات أخرى فتكون ماء ويترسب الماء فتكون أرضاً ويرتفع البخار من البحار والأرض فيكون سحاباً يصطدم بعضها بالبعض فتتكون البروق فتضطرم فيها النيران فتكون غيثاً وتعود مرة أخرى إلى البحر والأرض. فكانت النار المصدر الأساسي لجميع الكائنات. ويتولد الإنسان والحيوان والجماد على وجه الأرض من بين هذا التغير المستمر. وقد تعود هذه الكائنات مرة أخرى إلى اصلها النار وتزول هذه الموجودات. ويقول هرقليطس ان هذا العالم وهذه الكائنات لم يصغها أحد من الآلهة إنما تكونت من النور والنار، وهذا النور أو النار الذي غمر السموات والأرض هو الله، وما الله إلا كل شيء يتخذ صوراً مختلفة. وما حرارة الجسم إلا نار إلهية حيّة تستعر أو تنطفىء بمقدار معين إلا أنها كائنة وستكون دوماً ناراً حية.

يظهر من هذا المذهب ان التبدل بين النار والأشياء مستمر بدون انقطاع وأن هذا العالم لم يصنعه احد من الآلهة، ولكنه كان وهو كائن وسيكون ناراً إلهية حية تستعر أو تنطفىء بحساب، وأن هذه النار هي الإله الأعظم أو ان الإله الأعظم هو النار. وأما النفس الإنسانية والحيوانية النباتية فهي قبس من هذه النار الإلهية وان جميع الأشياء والمواد متكاثفة من تلك النار وقد يصيبها التغيّر فتأخذ أشكالاً مختلفة. فكانت هذه النظريات تطابق آراء فلاسفة العصر الحاضر من أن الكهربائية هي الأصل في الكائنات. وكان هرقليطس يقول بوحدة الوجود بل إنه شيخ هذا المذهب وموجده كما وأنه شيخ مذهب الشكّاكين.

12 ـ اما فيثاغورس الفيلسوف اليوناني الرياضي المشهور فلم يهاجم الآلهة وإنما نقّح وعدّل مذهب الاورفيزم Orfisme نسبة إلى مؤسسه اورفيوس المستند على أسطورة ديونيسوس المارة الذكر، وعلى خروج الإنسان من رماد آلهة الشر التي احرقها الإله زوس ومن عنصر الخير من ديونيسوس. وكان هذا المذهب مع نظرياته هذه يستند على الأسرار nysteres. فإن الكهنة والرهبان المتازين عندما يتصلون بالطريقة السحرية بالإله الأوحد «زوس» يطلبون منه السعادة أو الشقاء لأفراد الناس فكانوا

(1) وفي الأديان السماوية أنها اخطأت فأكلت من الشجرة الممنوعة فخرجت من عالم السعادة وهبطت إلى الأرض.

الواسطة بين الله والبشر وهم بمثابة الوكلاء عنه فوق الأرض. فكان فيثاغور قد جعل الكهنة من الاخوان فقط ولم يتعداها إلى غيرهم. وفيثاغور أول من قال بالتناسخ والتقمص في بلاد اليونان ولعله اخذ هذه النظرية من فلسفة الهنود والفرس والغاية منها الطهارة والسعادة. وهو أول من ادعى ان الدماغ هو مركز التفكير. وكان ذلك في القرن الخامس قبل الميلاد. وكان فيثاغور أيضاً متأثراً بنظرية وحدة الوجود والحلول ويحرم آكل لحم الحيوانات ويقول بالتناسخ بين الإنسان والحيوان ويعتقد بالنسب العددية.

13 ـ وجاء بعد ذلك الفيلسوف «اناكساغور» وكان هذا صديقاً حميماً لبريكلس. فقد جاهر في الكفر بآلهة اليونان وفسّر الكون تفسيراً آلياً وقال إن الآلهة المقدسة بعيدة عن المادة. فكان يهاجم عبادة النجوم ويدّعي ان الشمس والنجوم تشبه أرضنا في أحجارها وصخورها وموادها إلا أنها نار مذابة، مستشهداً بالأحجار السماوية المتساقطة منها على الأرض، وإن القمر مكوّن من صخور وتراب. ويقول إننا لا ندرك حقيقتها لضعف حواسنا، ثم يقول ان الفاعل الأصلي بهذا العالم هو العقل وهو جوهر خالد لا تعدد فيه ولا تباين ولا تناقض وهو اللطيف الصافي الخالص العالم القدير المتحرك بذاته، وهو مصدر كل حركة دوارة، وهو الصلة بين الله والعالم. فكانت هذه الأفكار والمطالعات بعد أفول نجم صديقه بريكلس سبباً لإحضاره امام المحاكم والحكم عليه بالاعدام لكفره بالآلهة لولا ان تداركه صديقه باريكلس مرة أخرى بما تبقى له من النفوذ السياسي وبعد أن برّأته أثينا هجرها. وقضى بقية عمره في بلدة «لبسك» بالأناضول ودفن فيها سنة 427 ق. م. ونصب تلامذته حجراً فوق قبره.

وهناك رواية أخرى حول ترك اناكساغور أثينا وهي ان شخصاً عثر على كبش بقرن واحد فادعى الكهنة والرهبان ان هذا دليل على انه ستحدث مسائل سياسية واجتماعية كبرى. وادعى أناكساغور أن ليس في هذه الحادثة أمر مهم يتعلق بالمغيبات والأسرار السحرية إنما هي من أثر حصول سوء التشكل في عظم الرأس فامتزج القرنان بقرن واحد. وصفق الجمهور لأناكساغور عندما ذبح الكبش وكشف عن عظام رأسه. إلا أن الرهبان الفاشلين كعادتهم في كل شيء عرفوا كيف ينتقمون منه بعد فشلهم هذا، فألّبوا عليه الجماهير من ناحية أخرى وذلك لكفره بالآلهة وعدم اعطائها ما تستحق من آثار التعظيم والتوقير، ما جعل اناكساغور يترك أثينا ويخرج منها مهاجراً إلى لبسك.

وعلى كل حال، فإن هذه الحادثة قد اعطت للعلماء والفلاسفة فكرة ضرورة التحري والاختبار في كل عمل يحدث.

14 ـ وكان بروتاغورس Protagoras، وهو من الصوفيين، يقول: لست قادراً على الاعتراف بوجود الآلهة أو بعدم وجودها فلا اثبتها ولا انفيها، كما واني لا اعلم صورها واشكالها وحقيقتها وماهياتها وما ذلك إلا للغموض المستحوذ عليها. كما ان عمر البشر ليس كافياً للتحري عنها. وكان قد حكم عليه بالكفر فأحرق كتابه وغرق اثناء هروبه إلى جزيرة سيسيليا.

15 ـ وأنكر هيبوقراط Hypocrate الأمراض الربانية المفروضة على الإنسان فرضاً من الآلهة كمرض الصرع وسائر الأمراض العصبية خلافاً للاعتقاد السائد. وقال ان للأمراض اسباباً يجب التحري

عنها وليس هناك أي حادثة من دون سبب ابتدائي. وبما أن حركة النجوم المنتظمة وعلاقتها بالمواسم واتصالها بحياة الإنسان وشؤونه قد ولدت فكرة سكنى الآلهة فيها فكان ايبوقراط يقول ان هذه القوة الإلهية قد اعطت للحكماء القدرة على شفاء الأمراض ومعالجتها من دون ان تتدخل هي فيها.

وكان ايبوقراط قد أسّس في القرن الخامس قبل الميلاد أول مدرسة للطب في جزيرة استانكوي. وكان يقول: «مدى العلم طويل والعمر قصير». ولم يقتصر تعليمه في الجزيرة وحدها فتعداها إلى سواحل بحر مرمرة وجزيرة طاشوز ووصل إلى اثينا ينشر في كل محل يحل به علومه الطبية. وعاش ما يقارب المائة سنة وعلّم أولاده وأصهاره كافة علومه الطبية. ولم يزل الأطباء الأحداث في زماننا هذا يقسمون عند اخذهم الشهادة الطبية اليمين نفسها التي وضعها ايبوقراط، ان لم يكن عيناً تماماً فتقريباً.

16 ـ كان ديموقريطس يقول: ان الكائنات جميعها وبضمنها النفس الإنسانية وحتى الآلهة امتداد وحركة وهي مكونة من جواهر فردية «ذرات» إلا أن جواهر النفس الإنسانية والآلهة ألطف وأدق من جواهر الأشياء الأخرى وتخضع للقانون العام أي لقانون الفساد بعد الكون. وبينما كان الفلاسفة الأقدمون يقولون بوجود قوة خارجية تحرك المادة، كان ديموقريطس يقول بأن القوة المحركة كامنة في الجواهر الفردية أي إنها داخلية وليست خارجية. ويقول إن كل شيء من الذرة، حتى النجم متحرك ولا يوجد سكون مطلق. ويعتقد ديموقرطيس تبعاً لأساطير ذلك الزمان أن في النجوم موجودات علوية أدق حساً وأعلى مرتبة من الإنسان وهي الآلهة، إلا أنه لا يشارك الناس في أن الزوابع والصواعق والخسوف والكسوف والرعد والبرق.... من أعمال تلك الآلهة، إنما هي من أعمال الطبيعة.

ويقول ان الكائنات جميعها مكونة من الجواهر الفردية ولم يستثن النفس الإنسانية ولا الآلهة منها. إلا أنه يعترف بوجود «روح كلية» تشمل العالم.

يظهر أن النظريات التي وضعها ديموقريطس حول الذرة لم تزل محافظة على قوتها في الأوساط العلمية، وقد استخدم العلماء المعاصرون الطاقة الكامنة في قلب الذرة لمقاصدهم (الطاقة الذرية). وقد صدق قوله ان القوة المحركة كامنة في داخل الجواهر الفردية ولم يسبقه أحد من الفلاسفة بمثل هذا التحليل والتفكير الصحيح لأجزاء الكائنات، وكان قد نشر فلسفته هذه في الأوساط التي لا تهتم كثيراً بالنظريات الدينية في بلده «ابديرا Abdera» ولذلك سلم من تعقيبات رجال الدين ومطاردتهم.

17 ـ وكان سقراط الحكيم يستمع إلى هاتف يوحي إليه طريق الرشد والصلاح ويعتقد أن في ذمته رسالة إلهية يجب عليه أن يؤديها مجاناً للناس وبدون ثمن. فكان يعلّم الحكمة والمعرفة للناس كافة على السواء مرجحاً الفقير على الغني والكوخ على القصر، راغباً عن متاع الدنيا وزينتها. كل هذا لكي يؤدي الرسالة الإلهية بأمانة ودون تقصير.

وأما اعتقاده بالآلهة فكان يمتنع عن القول بأن للآلهة شهوات وأنها تتزاوج وتتوالد وتأكل وتشرب وتتخاصم كما يعتقد اليونانيون. ففي هذه الحالات يقول لا يمكن أن نعلم أياً من الآلهة يحب أي عمل من الأعمال لكي نتقدم به إليه. وقد يكون أحد الأعمال المقبولة عند واحد مردودة ومنفورة عند الآخرين. فكانت هذه الصفات جميعها مردودة لا تمت إلى الحقيقة بصلة.

وأما الدين الذي يدين به سقراط فهو الاعتقاد بالعدالة الإلهية التي ترعانا ولا يمكن اكتسابها بتقديم القرابين وتلاوة الصلوات إنما باجتناب الأعمال الشريرة ونقاوة الضمير والعمل الصالح. وكان سقراط يؤمن بخلود النفس وبأنها منفصلة عن البدن فلا تفسد بفساده بل تعود إلى صفاء طبيعتها عند خلاصها من الجسم حين الموت. ويقول انه يسمع صوت ضميره عندما ينهاه عن كل عمل مضر بالبشرية. وكان منهج سقراط في الجدل يسيء خصومه ويجرح قلوبهم فضاقوا به ذرعاً فأسندوا إليه إنكار الآلهة وتعليم تلاميذه تقديم الباطل على الحق وأنه يفسد عقول الشباب. وبينما كان سقراط يرعى حرمة آلهة المدينة ويشارك الجماهير في الشعائر الدينية كان يعتقد أيضاً بآلهة أخرى توحي الخير وتعطى التفكير الحر للبشر.

وقد اتهمه ثلاثة من الاثينيين بالكفر والزندقة والالحاد وعدم احترام الآلهة فتقدموا بعريضة أمام القضاء يدّعون فيها أنه ينكر آلهة المدينة ويقول بغيرهم. فأما إنكار آلهة اثينا فكان من الجرائم التي لا تغتفر لأن لكل مدينة إلهاً محترماً عند الجميع ويرجع إليه أمر المدينة ونشوئها وحمايتها وحروبها. فالكفر به قد يستجلب غضبه على الجميع. وأما التهمة الثانية فهي قوله بآلهة آخر غير الآلهة المعلومين عند الأثينيين.

يظهر من هذه التهم أنها كانت من عقائده الفلسفية وتصريحه باستماع صوت ضميره وتعليمه الشبان بعدم الاعتماد وحتى الاعتقاد بالديانة الموروثة المستندة على المنقولات والتقليدات وعن ضرورة تحكيم العقل في المسائل كافة. وقد دافع سقراط عن نفسه امام القضاء مبيناً آراءه ومعتقداته مدعياً بأن في عنقه رسالة إلهية عليه ومن واجبه أن يؤديها إلى مواطنيه وهي تعليمهم طريق الصواب والحكمة والصلاح. فهو والحالة هذه قد أدى واجبه ولا يبغي عوضاً منها من اعراض الدنيا. وأعلن إلى القضاة أنه إذا برأت ساحته من هذه التهمة فإنه لا يغير من سيرته شيئاً. فحكمت المحكمة عليه بالموت على ان يسقى سماً لتطاوله على الآلهة فتجرع السم بكل شجاعة داعياً الآلهة أن يعينوه في هذا الرحيل من العالم الفاني إلى العالم الباقي. ولما صدر عليه حكم الاعدام قال: إني لم أذق طعم الموت بعد، ولعله يكون لذيذاً وأمراً طيباً فأنا لا احذره ولا اتمناه.

يلاحظ من نظرات سقراط إلى الدين والفلسفة (وهذا طبعاً من مخلفات تلميذه افلاطون) أنه لم يتعرض صراحة إلى العنعنات الدينية السائدة في المجتمع اليوناني. ويظهر ذلك من دفاعه أثناء المحاكمة. فقد خاطب خصمه ملتوس عند المرافعة بقوله:

«يا ملتوس: هل أنا منكر للآلهة، ان هذا شيء غريب. لماذا تتكلم هكذا، اني كسائر الناس مؤمن بأن الشمس والقمر إلهان».

مليتوس ـ (يخاطب الحكام) تفضلوا أيها الحكام المحترمون ألم يدّعِ هذا الشخص أن الشمس أحجار ملتهبة والقمر تراب.

سقراط ـ انت يا ملتوس لم تتهمني وإنما قد تتهم اناكساغور. انك قد تتهم هؤلاء الحكام بالجهل كأنهم لا يعلمون ان هذه الأفكار والمعلومات مكتوبة بكتاب اناكساغور. نعم إني لست منكر للآلهة بل بالعكس أحترمها وأقدسها... لقد آن زمن الفراق، انكم ستعودون إلى حياتكم الاعتيادية، وأنا إلى الموت، والله وحده يعلم من هو الذي سيحظى بأحسن نصيب منا.

الفصل الثاني عشر الآلهة عند فلاسفة اليونان في الأدوار المتأخرة

١ ـ افلاطون: بعد أن تجرع سقراط السم في سبيل الآلهة، اشتهرت الكلية العلمية (بيت الحكمة ـ اقاديمياً) في اليونان. وكان مؤسسها واستاذها افلاطون كأستاذه سقراط يتحاشى التحرش بالآلهة جهاراً، وما ذلك إلا للحكم الصارم الذي كان سائداً حينذاك في بلاد اليونان. ولذلك أوصى بكتابه «الجمهورية» بلزوم تعليم أحكام الدين لرجال السياسة والإدارة لصيانة المملكة.

ومع هذا لم تكن أفكار الفيلسوف العظيم متجهة نحو الهيات هوميروس وايزيود الخيالية وإلى العنعنات الخرافية والأساطير المنقولة والسحر وغيره، إنما بالعكس انه كان قد هاجم هوميروس وايزيود بكتاب الجمهورية الثاني هجوماً عنيفاً فيقول فيه لمخاطبه آديمنتس: «ان الشاعر الذي يصور الآلهة بالأوصاف القبيحة هو كالرسام الدنيء الرأي الذي يعتقد أن رسمه مطابق للحقائق وللأشياء المصورة. فإن ما جاء في اشعار هوميروس وازيود من نزاع الآلهة مع بعضها والحيل والمداورات الجارية بينها حتى إذا ما كانت بطريقة الاستعارة والتشبيه والمجاز لهو شيء تافه تعافه النفوس ولا يجوز تدريسه للأطفال والأولاد».

وعندما سأله اديمنتس عن صفات الآلهة الواجب للأطفال اجاب افلاطون: «ان الإله خير مطلق «مثال الخير»، وعقل محض لا يمكن أن يصدر عنه شر قط ولا يجوز تصوير الإله بالتقلب من شكل إلى آخر كالسحرة أو كما جاء في أشعار هوميروس وازيود». وقال افلاطون: «اكرر كلامي مرة أخرى، علينا أن نخلص الأمهات من حفظ اشعار هوميروس وازيود تلك التي تؤكد ان الآلهة عند حلول الظلام تتقمص اشكالاً غريبة وتتمثل اجساداً بشرية فتتقلب بالشوارع والمنعطفات وتتعرض للناس. وقد يستفيد من هذه الأوضاع كل افّاك ساقط زنيم فيتعرض للنساء الغافلات باسم الآلهة فيولدهن».

وكانت الأمهات تخوف أولادها بهذه الآلهة. لذلك كان افلاطون يوحي بإرشاد الأمهات ويقول: علينا أن نعلم الأولاد أن الله هو الحق والعدل والكمال في أقواله وأعماله وأفعاله وان ما جاء بأقوال الشعراء ما هو إلا خيال محض لا يمت إلى الحقيقة بشيء.

ويقول افلاطون: ان حركة العالم منظمة تنظيماً دقيقاً لا يستطيعها العالم بذاته ولا تستطيعها الآلهة المتقلبة الأفكار والأطوار التي ترضى وتسترضي فهي معلولة لعلة عاقلة مدبرة وهذه العلة هي زه وس ـ الله. فقد اعطى الله حركة منظمة سائر عليها منذ القدم حتى الأبد وقد منعه من أن يجري على غير هدى. فان المادة عند افلاطون بحاجة إلى من يحركها وليست إلى من يخلقها. فإن المحرك هو زه وس ـ الله قد يدفع المادة إلى الكمال. ولما كان الله (لأنه عقل) قد منح المادة الشوق والتدرج والارتفاع إلى الكمال، فهي تحاول دوماً الصعود إليه والوصول إلى مرتبة العقل المحض؛ وعلى هذا كانت دائماً صاعدة متسامية من الأسفل إلى الأعلى إلا أنها لا تصل إلى صفات الكمال لأن الكمال لله وحده.

والمادة هي منبع الشرور بالعالم لأنها كثيفة وناقصة. فان الإله لا يخلق الشر ولا يصدر عنه شر إنما كله خير فلا يخلق إلا الخير. وأما الإنسان فإنه لا يطلب الشر ولا يسعى إليه مع علمه به إنما يساق إليه بجهله وبفساد تكوينه. فإن الشر الموجود في العالم لم يكن من تقصير الآلهة إنما من جهل الإنسان.

ويعتقد افلاطون بوجود «عقول وسطى» تتراوح بين الله والإنسان كالملائكة في الأديان السماوية وأرواح سامية تحرك الكواكب السيارة في افلاكها.

ويقول: لا يمكن أن يكون هذا النظام الدقيق الجاري فيما بين الأشياء بالاجمال وفيما بين اجراء كل منها بالتفصيل نتيجة علل اتفاقية تجمعت صدفة، إنما هو صنع عقل كامل توخى الخير في عمله ونظّم ورتّب كل شيء عن علم وقصد فأكمله. فان الله خير محض ـ لأنه عقل ـ لا يخلق إلا الخير.

وعلى هذا، فإن الله عند افلاطون هو روح عاقل متصف بالصدق والعدل والكمال، بسيط لا جارحة له ثابت لا حركة فيه. وهو المحرك العام والمنظم للأشياء كافة لا تنوع فيه ولا التباس، صمد لا يتغير واحد لا يتجزأ لا أول له ولا آخر سرمدي منزه عن التحيز والانفعال لا يشمله الزمان ولا يحيطه المكان ولا يدخل بأشكال مختلفة ولا يتقلب من حال إلى حال وهو حاضر موجود وناظر في كل مكان.

ويقول: إذا كان الله لا يهتم بأمورنا وسيرتنا وأعمالنا فذلك إما لأنه عاجز وليس له سلطة كاملة، وهو محال، وإما لأن الإنسان بحد ذاته شيء تافه ولا يستوجب عناية الله الكاملة وهذا أيضاً محال. إذن فإن الله والحالة هذه يعنى بسيرتنا ويلاحظ اعمالنا ويتفقد شؤوننا ويطّلع على أمرنا ويريد لنا الخير كله. ومن المحال أن يكون العالم كله خيراً فيشابه حينذاك خالقه (وهو الله ـ زفس). لذلك كان العالم ناقصاً بالخلقة إلا أنه احسن عالم ممكن وعناية الله وعدله تشمل الكليات والجزئيات. فوجود الله يقول افلاطون، حقيقة لا ريب فيها وإنكارها جريمة تستوجب العقاب.

وأما ان في استطاعة الإنسان شراء رضاء الإله بالتقدمات والتوسلات والزيارات والقرابين والنذور دون العمل الصالح واعتبار الآلهة مرتشية، فهي بدعة شنعاء لا تغتفر جاء بها الشعراء والسحرة والافاكين. وهي أحق بالسخط منها بالقبول. ويقول افلاطون على لسان تيماوس: كل ما هو حادث فقد حدث عن علة ضرورية والعالم حادث لأنه محسوس تابع للتغير والتبدل والحدوث فلا بد والحالة هذه من ان يكون للتغيير والحدوث والتبدل من صانع. والصانع هو الله ـ زفس. وبما ان الصانع بريء من الحسد فأراد احداث الأشياء مشابهة له وعلى مثاله ما امكن. فعلم ان العاقل خير من غير العاقل والعقل لا يوجد إلا في النفس الحية فجعل العالم حياً عاقلاً على غير نموذج سابق. فان العالم واحد وصانعه واحد ولا يوجد خارج هذا العالم من يفسده ويعطل سنته ويغير انظمته وقواعده. وقد تكوّن هذا العالم من مادة ابتدائية لا ندركها بالحواس، لا كما يقوله الفلاسفة من العناصر الأربعة (الماء والهواء والنار والتراب). فقد يحصل تغير بهذه المواد. وكل ما هو معرّض للتغير لا يمكن أن يكون المادة الابتدائية. فهذه المادة الأولى لا يمكن أن تتحرك بدون نفس تديرها. وان الحركات غير المنظمة لا يمكن ان تولد شيئاً منظماً فتبقى مضطربة هوجاء وان حصول الأشياء

المنظمة لدليل على ان الإله المبدع اعطاها نظاماً لا تتحداه وعيّن لكل مادة حركتها ورتب مكانها ووضع الشمس والقمر والنجوم مشتعلة لتكون بحركاتها مقياساً للزمان. وجعل لكل منها نفساً أو روحاً تحركه. فإن الأرواح هي التي تحرك الكواكب السيارة في افلاكها بشكل مستدير وضمن خطوط دائرية. وان هذه الأنفس هي إلهية عاقلة خالدة تتوخى التشبه بالإله الواحد في خلق الخير والجمال. ولما كان كل صانع يصنع ما يماثله، وان الصانع الأول لا يصنع إلا نفوساً إلهية، فقد اعطى لنفوس النجوم والكواكب حق صنع نفوس اقل مرتبة منها. فالرجل الصالح تصعد انفاسه الخالدة إلى الكوكب الذي هبط منه فيقضي هناك حياة سعيدة شبيهة بحياة إله الكوكب. والرجل الطالح المسيء تولد نفسه مرة ثانية امرأة. فإذا اصرت على شقاوتها ولدت ثالثة حيواناً تناسب خطيئتها (طيور، دواب، زاحفات، ديدان، جراثيم...) ولا تتخلّص من آلامها ولا تعود إلى حالتها الأولى ما لم تصلح نفسها وتصعد السلم حتى تكون رجلاً صالحاً فتصعد إلى كوكبها... وهذه هي نظرية التناسخ مأخوذة بتعديل من الفيثاغورين.

وكل شيء عند افلاطون كالمثل العليا والجمال والنفس العالمية والقوة الناطقة من النفس الإنسانية وآلهة الكواكب وآلهة الأولمب كلها آلهة أو إلهية، لأنها من آثار المبدع الأول. فأينما وجد الترتيب والتدبير والنظام دل على وجود العقل، وأينما وجد العقل دل على وجود الألوهية أي الروحية، فالنفس الكلية وآلهة الكواكب جميعاً هي من اثر المبدع الأول وجميعها مدينة بوجودها وخلودها إليه. فهي آلهة باشتراك الاسم فقط. وأما الصانع والمبدع والفاعل الأول من حيث هو علة فاعلية، فقد عبّر عنه افلاطون «الواحد بالذات» وسماه إله آلهة ورب الأرباب «زوس ـ الله» وهذا ما دعا ان يعتبر المسلمون افلاطون موحداً ومقراً بوحدانية الله.

ولا يغرب عن البال ان توحيد افلاطون هو ليس كما نعرفه في عقائد الأديان السماوية، فانه مشوب بالعقائد الوثنية والأساطير الدينية والنظريات العلمية ومستند على الحدس والقياس العقلي بتفضيل الأفضل بين الآلهة حتى يصل إلى الفضيلة العليا وهي منحصرة بالضرورة في واحد منعا للتسلسل وهو إله الآلهة وهو العقل الكلي وهو «الله ـ زفس».

اخذ افلاطون محاسبة الأرواح بعد الموت من المصريين عندما زار مصر واطّلع على نظرياتها في محاسبة الأرواح بعد الموت. فقال في محاورتيه «مدح سقراط» و«جورجياس» ان محاكمة الناس من اعمالهم في الدنيا كانت تجري في السنين الأولى من حكم جوبيتر على يد قضاة احياء في اليوم نفسه الذي يموت فيه الميت. وكان القضاة يتأثرون بجاه الميت وثروته فيصدرون احكاماً خاطئة فاشتكى حكام الجزائر السعيدة (الجنة) وحكام الجحيم (الإله بلوطون ابن الإله ساتورن) إلى زفس فأمر زفس ثلاثة من ابنائه «مينوس، رادامانت، ايباك» ان يتولوا محاكمة الأرواح في المحل الذي تنتهي إليه الطرق الثلاثة، فإذا كانت مملوءة خبثاً وفساداً ارسلت الروح إلى السجن لتتلقى فيه العذاب الذي تستحقه فيكون هناك العذاب والآلام والعقاب بالنظر لعظم الجرائم فيتولى رادامانت هذه الوظيفة بعدل وحياد. وان كانت الروح قد عاشت في طهر وصلاح فترسل إلى الجزائر السعيدة لتنال السعادة تحت رعاية مينوس. ويكون ايباك هو الحكم الفصل في جميع القضايا.

والروح عند افلاطون جوهر بسيط لا تتحلل إلى أجزاء كما هو الحال في الجسد المركّب، تلابس المادة في حياتها الجسدية ثم تتركها لتذهب إلى حضيرة الملائكة والأرواح الصالحة أو تهبط وتتقمص جسم امرأة أو حيوان أو حشرة أو مخلوق حقير لتكفر عن سيئاتها.

2 ـ **أرسطو**: ان القواعد العلمية والطبيعية التي وضعها أرسطو قد اشغلت أفكار العالم منذ القرن الرابع ق. م. حتى القرن السادس عشر الميلادي أي عشرين قرناً كاملاً. وقد اثّرت تأثيراً عظيماً في تفرعات الديانتين الكبيرتين الإسلامية والمسيحية. فكان جميع فلاسفة الإسلام والأدباء والمؤرخين والعلماء والمتصوفين... متأثرين بفلسفة أرسطو أشد التأثير.

ولد سنة 384 قبل الميلاد في قرية استاجيرا Stagera ومات سنة 321 في خاليكيديا وكان أبوه طبيباً لفيليب ملك مكدونيا. وبعد أن درس في اكاديمية افلاطون تعين معلماً لإسكندر الفاتح العظيم وثم عاد إلى اثينا واشتغل بالتعليم والتدريس حتى وافاه اجله وهو ابن 63 سنة فانتشرت فلسفته في أنحاء العالم المعمور حينذاك، وكانت تدرس في المدارس ببلاد الشرق كما كانت تدرس في بلاد الغرب.

كان أرسطو يقول ان الكرة الأرضية هي مركز الكائنات وإن السماء تبتدىء منذ سطح الأرض. والسماء شيء والأرض شيء آخر. ولكل منها سنن وقواعد ونواميس متباينة عن بعضها فكانت هذه المطالعات في الظاهر توافق ما جاء في التوراة (اشعيا 55 8 و9) التي يقول فيها: «... لأن أفكاري ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقي يقول الرب لأنه كما علت السماوات عن الأرض هكذا علت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم». وهذا ما دعا إلى رضا الكنيسة عن فلسفته الفلكية، كما دعت فلسفة افلاطون التوحيدية إلى رضا العالم الإسلامي عنه، وان كانت أفكار أرسطو مادية وأفكار اشعيا النبي معنوية. ولقد قبل أرسطو ما تصوره فيثاغورس ثم استاذه افلاطون بأن أكمل الأشكال وأكمل الحركات هي الدائرة. وأما السماء الدنيا ففي وسطها الأرض تشمل أولاً دائرة الهواء ثم دائرة الماء ثم دائرة التراب ثم دائرة النار وتأتي فوق هذه السماء سماء السيارات السبع وفوقها سماء النجوم الثوابت وفوق الجميع السماء العليا أو المحرك الأعظم الذي يهب الحركات الدائرية لهذه السماوات والآفاق المختلفة. وقد قبل مفكرو الإسلام هذه التقسيمات بحذافيرها وأدخلوها بكتبهم.

وزعم أرسطو ان العناصر الأربعة وهي التراب والماء والهواء والنار منحصرة بالسماء الأرضية تلك التي تحد منازل القمر. وأما السماوات الأخرى فليس فيها سوى الأثير. ويزعم ان العناصر الأربعة في حالة سكون ما لم تنفعل بالمؤثرات الخارجية فتتحرك تحت تلك المؤثرات. فان الحركة تنتقل من المحرك الأعظم وهو الإله الساكن في السماء العليا حتى تصل سماء القمر ومنها إلى الأرض وبذلك تؤثر السماء على الأرض وعلى الموجودات الأرضية كافة.

ان الروح عند أرسطو هي التي تعطي الأفعال والصور للأجسام الحية وليس لها وجود ذاتي قائم بنفسه. وبهذا الإيضاح يختلف أرسطو عن استاذه افلاطون. وعنده أن الروح على ثلاث درجات: الأولى الروح النباتية وهي للتغذية والتكاثر، والثانية الروح الحيوانية وهي التي تولد الحركة والاحساس، والثالثة الروح العاقلة وهي خاصة بالإنسان دون غيره فتدير فيه الشعور والاعمال

الذهنية. فان ذوي الحياة قد يمتلكون بنسب من هذه الدرجات تبعاً لسلم الحياة. ويعني أرسطو بكلمة النفس بالقوة الحيوية فيجعل للإنسان نفساً وللحيوان نفساً وللنبات نفساً ويعتبر لها أربع وظائف: القوة الغذائية ثم القوة الحسية ثم القوة الإرادية ثم القوة الذهنية.

والجوهر الخالد بالإنسان ثم دائرة الماء العقل» وهو جوهر ليس بمحسوس ولا بهالك إنما ينفعل بتأثير العقل الفعال وهو يسعى للوصول إليه إلا أنه لا يدركه.

ويقول أرسطو ان الله لا يفكر بغير ذاته ولا يريد شيئاً من العالم لأنه لا يحتاج إلى شيء ولا يؤثر فيه شيء فلا يهتم بالعالم ولا يفكر به وهو بمعزل عنه، إنما العالم هو الذي يريد الله ويهتم به ويسعى للوصول إليه لاحتياجه إليه. وما الإرادة إلا تغير وطلب وحركة وأمر ونهي والله منزه عن التغير والحركة لا بالكيف ولا بالكم ولا بالمكان ولا بالزمان. ويقول بقدم العالم لأن استدامة الخلق تستوجب تغييراً في ذات الله أي إنه يتبدل من وضع الفاعل إلى الوضع الساكن والعكس بالعكس، وان احداث العالم لا يزيد بفضل الله وكماله ولا ينقص منهما شيئاً. ومن عمل عملاً لا فائدة له منه يعتبر عمله عبثاً والله منزه عن العبث. ويقول بالعقل الكلي والروح الكلي وينفي الروح الفردية وهذا معناه لا حساب للفرد بعد الموت.

وأرسطو يقول يجب أن يكون لحركة العالم علة فاعلة أولى ثابتة غير متحركة. فلو كان المحرك الأول متحركاً لوجب أن يكون له محرك والتسلسل باطل كما ان لا يمكن ان يكون المحرك الأول متحركاً بذاته فحينذاك يجب أن ينقسم على نفسه جزأين: الأول محرك والثاني متحرك لأن شيئاً واحداً لا يمكن أن يتحرك بنفس الحركة التي يحرك بها غيره. فإن الجزء الأول هو المحرك أي إن المحرك الأول غير متحرك بالضرورة وهذا المحرك الأول هو السرمدي الذي لا أول له ولا آخر وهو الجوهر الأول في الكائنات جميعها وهو العلة الفاعلة وهو «زفس ـ الله». فكان الله يحرك غيره ولا يتحرك. ومعنى الحركة الانتقال والتحول بالكيفية أو بالكمية وبالمكان أو بالزمان. وان هذه الحركات لا تجوز في حق المحرك الأول أو العلة الأولى. كما وأنه لا يجوز أن يكون ذا ابعاض واجزاء وإلا افتقر إلى شيء من خارجه يستوفيه، وهو مجرد عن المادة لأن المادة بحاجة إلى من يحركها وعن الهيولي لأنه صورة محض. والصورة هي ماهية الشيء لا شكله المحسوس. فان الإنسان بماهيته يصبح إنساناً لا بجلده وعظمه. وكل موجود مركب من صورة ومادة وكلما سمت الصورة في سلم الحياة قل نصيبها من المادة. فكان الله صورة محض لا تشوبه شائبة المادة. والصور مستقلة عن الهيولي وموجودة بالقوة، والهيولي موجود بالفعل وبما ان الحركة أزلية فان المحرك الأول يكون ازلياً ولا يمكن ان يكون هناك محركان اثنان أزليّان فلا بد من أن يكون على رأسهما محرك واحد ازلي. فكان هذا المنطق يوافق ما جاء بالقرآن: ﴿قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ وفي محل آخر ﴿لذهب كل منهما بما خلق﴾ فكانت هذه الفلسفة الإلهية تتوافق والأحكام الإسلامية التوحيدية تماماً.

ويعترف أرسطو بالعقيدة القديمة القائلة ان الكواكب آلهة على شرط ان ينظر اليها في نفس ذاتها من دون اضافة الأساطير والتصاوير البشرية والحيوانية اليها. ولعل تصديقه واعترافه بهذه النظرية كانا لتطمين أفكار الشعب اليوناني المتعصب لآلهته حينذاك.

ويفرق أرسطو بين المحرك الأول ومحركي الكواكب الأخرى فيعتبر الأول غير متحرك أصلاً لا بالذات ولا بالعرض، بينما الأخرى متحركة بالعرض مع افلاكها. والمحرك الأول خارج عن العالم والأخرى في أفلاكها، ثم يقرر أرسطو بأن العالم واحد لا تجزؤ فيه. ويبرهن على ذلك بقوله: لو كانت هناك عوالم عدة لاقتضى هذا وجود مبادىء محركة عدة فما كان المحرك الأول بريئاً عن المادة ولا يقبل الانقسام ولا التكاثر، حيث ان المادة هي التي تكثر الصور. فلذلك ان المحرك الأول واحد والعالم واحد. ويقول أرسطو إن المحرك الأول ليس جسمياً. فلو كان جسمياً فلا يخلو من أن يكون اما متناهياً واما لا متناهياً ويمتنع الجسم المتناهي ان يحرك حركات لا متناهية ابدية أزلية كما وانه لا يمكن وجود جسم لامتناه إذ ان المحرك الأول ليس جسمياً.

ويقول ان المحرك الأول ليس في مكان وما ذلك إلا لأنه ليس جسمياً ولا يشمله الزمان إذ لا أول ولا آخر له وهو عقل لأنه فعل محض وأفعاله التعقل ومفعوله ذاته لا شيء آخر فانه لا يتأثر بغيره ولا يقبل الطلبات والالتماسات وهو إله قدير فعّال.

وعندما وصل أرسطو إلى هذه النتيجة اعطى للمحرك الأول الأوصاف كافة التي اعطاها استاذه افلاطون لإلهه [مثاله الخير]. ولما كان المحرك الأول متصفاً بالكمال وهو صورة لا يعتوره التغير وخارج عن نطاق المادة فهو ازلي أبدي وهو المثال الأعلى للخير وهو العقل الكلي. فان هذا العقل الكلي أو الإله يؤثر على الموجودات كما يؤثر الرسم وتؤثر الأفكار على احساسات الناس. ولم يكن محتاجاً لأحد. بل بالعكس ان الإنسان والحيوان والأشجار والأحجار متجهة إليه وان كل التغيرات والتبدلات والحركات في عالم الطبيعة متولدة من هذا الاتجاه صوب العقل الكلي أو الكمال الكلي أو الإله «زه وس ـ اللّه». فهو يرى الماهيات ويطلع على دقائق الهيولا ويشاهد نفسه فيهما.

وبهذه العلة الفاعلة وصل أرسطو إلى ان الإله الواحد خارج عن المحسوسات والملموسات، بل عن نطاق هذا الكون. وهو غير عالم بالكليات والجزئيات إنما علمه هو عقله لنفسه وهو الكمال المطلق فليس بحاجة إلى شيء يستوفيه من المعلومات من الخارج ولا يعلم العالم لأن الموجودات اقل من أن يعلمها وهو غير مريد لأن الإرادة رغبة وطلب والرغبة احتياج والطلب افتقار واللّه منزه عنهما. فكان بهذه المطالعة كاستاذه افلاطون من الموحدين. وما الإله عنده إلا العقل الكلي.

وبهذه الفلسفة اجتنب التحرش بالمعتقدات اليونانية ولم يهاجم الاحساسات الدينية. وقد نزه الإله العظيم بعقله الجبار عن الحركة والانتقال والتجزؤ والجسمية والزمان والمكان والتدخل في الشؤون البشرية والتأثر بطلبات الغير أحسن التنزيه، وكما يليق بذات الإله العظيم. إلا أن الجمهور اليوناني بعد وفاة اسكندر الكبير (323 ق. م.)، وكان أرسطو من حاشيته، اتهمه بالإلحاد والكفر، ولئلا يساق إلى المحاكم كما سبق من قبله سقراط هرب إلى آغريبور Egriboy وهو يقول لا أريد ايصال الفلسفة إلى صالات المحاكم. ويقول لا داعي لتمكين اهالي اثينة من ارتكاب جريمة أخرى في قواعد الفلسفة.

3 ـ بارمنيدس: كان بارمنيدس يدّعي أن لا وجود لغير الواحد الذي لا يقبل التجزئة والانقسام والكثرة فلا تغيير ولا اضداد في العالم إنما هي حالة واحدة تتراوح بين الشدة واللين والقوة والضعف. فان

الضوء مثلاً قد يكون قوياً أو ضعيفاً فلا ظلام ولا برودة ولا مرض... إنما درجات متفاوتة للوجود الواحد. وما الاضداد والتغير إلا اغلاط حسية لا أصل لها في الحقيقة. وهذا الواحد ليس خالقاً للكون ولا إلهاً خلق العالم من العدم إنما هو كل، لا تجزئة فيه، وهو وحدة الكون نفسه. ويقول لا يمكن أن يأتي شيء من لا شيء. فان حدوث الشيء قد يستوجب قبل حدوثه عدمه والعدم واللاشيء لا يولد شيئاً وهذا معناه أن العالم قديم وليس بحادث.

4 ـ **ابيقورس**: أسّس ابيقورس فلسفة خاصة بعد أرسطو. ومع أنه لم يهتم كثيراً بالآلهة والدين فقد اعترف ـ ولعل اعترافه خوفاً من الجماهير ـ بموجودات لطيفة اثيرية أوفر عقلاً وأكثر حسناً وألطف شكلاً من الإنسان تعيش عيشة هانئة مجردة وفي عزلة عن الناس لا تشغل نفسها بشؤون الكون وبمن فيه. وقد شغلت هذه الموجودات الأبدية الأزلية أفكار البشرية وشاعت اخبارها بين الناس. ويقول لما كانت كل لذة هي الخير، وكل ألم هو الشر، وإن الآلام والمخاوف كافة متأتية من الآلهة وان هذه الآلام والمخاوف خاصة ما يتعلق منها باليوم الآخر من أنواع الحيوانات المفترسة والنار المحرقة وأسوار الجحيم الشاهقة، قد أقلقت بال البشر وجعلت الحياة مرة لا تطاق، فلم يبق إلا اخراج الآلهة عن نطاق الدين طالما أن وجودها سبب للآلام والعذاب. وانتهى ابيقورس إلى إنكار وجود إله صانع حكيم مدبر للكون فوضع حقوق الفرد فوق كل اعتبار واعترف بوجود موجودات نورانية أثيرية وهي أعلى مرتبة من الإنسان بعقولها وتفكراتها وجمالها، إلا أنها لا تتدخل بأمور الناس اليومية ولا تتقمص الأشكال البشرية، وقد تهب أفكارها بطريقة الوحي والالهام إلى البشر. ولم يتعرض ابيقورس إلى المراسيم والطقوس الدينية. وكان يقول لا بد أن يكون لكل شيء ضده في الوجود. فان الوجود الفاني المتألم لا بد أن يقابله وجود سعيد دائم، وان اجسام الآلهة لطيفة متحركة مخلدة سعيدة لا تعنى بنا ولا تهتم بشؤوننا ولا تعلم شيئاً عن القرابين والذبائح والنذور المقدمة إليها. فهي أعظم وأجلّ من قبول القرابين وخاصة القرابين البشرية لاستجلاب رضائها. فعلينا أن نجرد نفوسنا من كل خوف منها.

ولما كان مذهب ابيقورس مستنداً على السعادة وهي اللذة الجسمية ولا يعترف بغير المادة ويقول ان غاية الحياة هي اللذة فلا توجد عنده جنة ولا جهنم ولا حيوانات مفترسة ولا عذاب ولا ألم.

5 ـ **الرواقيون**: أشهر فلاسفة الرواقيين زينون وكليانتس. فأما زينون فعنده أن العقل الكلي الفعال والقدر وزوس كلمات مترادفة تدل على موجود واحد. فقد شاء هذا الموجود الواحد ان يخلق الدنيا فصار هواء ثم صار ماء وظهرت اوائل الأشياء: النار والماء والهواء والتراب، فحصلت المادة الحية من هذه التراكيب. ويقول ان الموجود إما فاعل وإما منفعل. فأما الفاعل فهو العقل الكلي وهو زوس، وأما المنفعل فهي المادة المكونة لكل الموجودات. والإله عنده جوهر شفاف لطيف قد تخلل المادة فلا تخلو ذرة في الكون إلا وفيها جزء من الألوهية قد تلبست خلاياها.

هاجم زينون تعدد الآلهة وقال انها من تشبيهات الخيال. فقد وضعت العامة لكل حادثة من حوادث الطبيعة إلهاً ونسجت حوله الأساطير، ومع توحيده هذا فقد جعل زينون إلهه من عنصر الأثير اللطيف.

6 ـ ويتجلى مذهب الرواقيين حول الآلهة بمناجاة كليانتس Cleanthes تلميذ زينون مؤسس المذهب الرواقي للإله الأعظم زه وس Zeus رب الأرباب وفيها يقول:

يدور الفلك الدوار تحت مشيئتك. ان يدك القابضة على الرعد والبرق قد جعلت كل شيء تابعاً للعقل الكلي. بدونك لا يكون شيء في كل زمان ومكان وفي جميع الحالات، نعم، حتى افعال المجانين والأغبياء هي منك. ان الذي يخرج من الواحد اثنان ويجمع المتضادين هو أنت، وبحضورك ينقلب الجفاء صفاء.

ايها الإله الحاكم من وراء الغيوم والزوابع والصواعق. خلص الإنسان من جهله واكشف الغيوم المتلبدة عن بصيرته وروحه. يا إلهي. أشركني في العقل الكلي الذي هو وسيلتك في تطبيق احكام العدل حتى اعبدك دوماً كما يليق بذاتك الباقية وبجسمي الفاني لأنه ليس هناك من مرتبة أعلى من توجيه ما يناسب من آيات الاحترام للباقين والفانين». ويعتقد كليانتس كأستاذه زينون ان الإله الواحد يشمل جميع أجزاء الكون فلا تخلو ذرة إلا وفيها جزء من الألوهية. وحتى الروح الإنسانية فهي قبس من تلك القوة. ويستدل على وجود الإله الواحد الكامل من سلسلة الحيوانات وتفضيل بعضها عن بعض في سلم الارتقاء. ويرى في الإنسان، وهو افضل المخلوقات، كثيراً من النقائض، وعلى هذا يقول إذن إنه ليس افضل الموجودات ولا بد من وجود من ليس فيه نقص، وهذا الوجود المبرأ الكامل من النواقص هو الإله الواجبة عبادته.

7 ـ وكان الرواقيون ـ خلافاً لأرسطو ـ لا يفرقون بين الجسم والروح ولا بين القوة والمادة، إلا أنهم ينسبون القوى كافة إلى الألوهية وإلى العقل الكلي أو إلى إله العقل. ولم يهاجموا المعتقدات الدينية السائدة بين الشعب جهاراً إنما اكتفوا بإعطاء بعض الرموز لآلهة الأساطير خوفاً من استثارة شعور الناس الديني.

يظهر أن الفلاسفة بعد حادثة سقراط ومنذ عهد افلاطون لم يتعرضوا للآلهة والأساطير الدينية كما كان الأمر سابقاً إنما يمرون من جوانبها مر الكرام أو أنهم يحاولون إيجاد التوافق والانسجام بين الفلسفة والدين. فقد اعطى الرواقيون للآلهة بعضاً من آيات التبجيل والاحترام وبعض الرموز والاستعارات أو أنهم اخذوا هذه الآلهة ضمن نطاق فلسفتهم حذراً من نقمة الشعب المعتز بآلهته. فاعتبروا الموجودات كافة في السماء والأرض وحتى آلهة جبال الأولمب هي آلهة صرفة وبذلك تقربوا من وحدة الوجود وأصبحوا ماديين. فقالوا كل موجود هو جسمي ولما كان العقل الكلي (الإله) موجوداً، فهو وأفعاله وأعماله كافة جسمي. فيعبدون الآلهة في صلواتهم بأسمائها الأساطيرية لمجاراة الديانة الشعبية. وما هي عندهم إلا رموز للكواكب وأسماء لمظاهر الكون. وإذا ذكروا العناية الإلهية فإنما يريدون بها، ويقصدون منها، القوة العاقلة المحيطة بالعالم، تلك التي تتناول الكليات والجزئيات ـ وتوغلوا كثيراً في فلسفة القدر والاخلاق والمنطق والتنجيم والحرية وجميعها ليست من مواضيعنا.

8 ـ بعد الرواقيين يأتي الشكّاك أو الريبيون. وكان ظهورهم بعد انقسام مملكة الاسكندر الكبير. فتوجهت رغبة العقلاء والفلاسفة إلى الراحة والاستقرار والهدوء والسكينة وهو أمر طبيعي بعد كل

انحطاط سياسي. فتأسّست المدرسة الشكية ومنهجها اللاأدرية والإعراض عن زخرفة الدنيا والخلود إلى التقاليد والعنعنات السابقة والشك في كل ما يقال وإنكار العلم والفلسفة واليقين حتى وصل الأمر بهم إلى انكار الظواهر المحسوسة التي تدرك بالحواس كالألوان (الأحمر. الأخضر...) والأذواق (الحلو. المر...) والحرارة (النار. الثلج). وأنكروا كذلك العقل والعرف.. فكل شيء عندهم له وجهان. فان الايجابي قد ينقلب سلبياً والخير قد ينقلب شرّاً والعكس بالعكس. وكانت الفتوحات الاسكندرانية ثم زوالها هي التي أوحت إلى «بيرون» أن يؤسس هذا المذهب.

9 ـ فكان اناسيداموس، وهو تلميذ بيرون، يقول في حججه ان المصريين يحنطون الموتى والرومانيين يحرقونها بالنار والفرس يلقونها في رؤوس الجبال لتلتهمها الطيور، والهنود يرمونها في الأنهر والبحار، وكذلك يجيز الفرس زواج الأولاد من امهاتهم ويجيز المصريون زواج الأخت، وأما القوانين اليونانية فانها تحرّم كل هذه الأعمال فأي منها هو الصحيح؟ وعلى هذا لم يبق لنا إلا ان نشك بالقوانين والعادات والعرف والأفكار وكل شيء يقع عليه نظرنا وليس في استطاعتنا أن نقول إن هذا الشيء صحيح أو غير صحيح.

ولما كان الريبيون أو الشكاك يعتقدون بعدم إمكان الوصول إلى حقيقة الأشياء فقد هاجموا المسالك الفلسفية والدينية كافة وانتقدوا آلهة الرواقيين انتقاداً مرأً وقالوا ان فكرة الآلهة مملوءة بالمتناقضات لا تسعها عقولنا، فليس لها محل عندنا. إنما يمكن في المعاملات العامة مراجعة الطبيعة والأعداد والاحتمالات.

10 ـ فكان ما جادت به عقول فلاسفة اليونان انسانية في مجملها وتفصيلها وتوحيدية في معظم موضوعاتها ومؤسسة على الحقوق الإنسانية والحياة البشرية وما يقتضي لهذه الحقوق والحياة من واجبات الإنسانية ورفاهها، فأنتجت الحضارة اليونانية الزاهرة.

الفصل الثالث عشر آلهة اليونان بعد الفلاسفة

1 ـ في أواسط العصر الأول ق. م. أصبحت اليونان ولاية رومانية فانتقل فلاسفة اليونان إلى روما للتدريس وشباب روما إلى اليونان لدرس الفلسفة اليونانية. وقد عقمت البلاد اليونانية من ان تلد عظماء الفلاسفة، وظهر المقلدون والتابعون. فكانت الفلسفة في هذا الدور تمشي جنباً إلى جنب مع الدين إذا لم نقل إنها اندمجت فيه اندماجاً تاماً.

2 ـ وبعد أن احتكت الفلسفة اليونانية في الاسكندرية مع الأديان المصرية والكلدانية والعبرانية وتفاعلت معها ظهرت على ثلاثة أشكال:

1 ـ في تأليف نظريات ما وراء الطبيعة اليونانية مع الديانة اليهودية (الفلسفة اليونانية اليهودية).

2 ـ النظريات الجديدة المؤسسة على عقيدة فيثاغورس.

3 ـ الفلسفة الافلاطونية الجديدة المستخرجة من دروس افلاطون.

ومع ان لكل من هذه الطرق الفلسفية نظريات دينية خاصة إلا أنهم متفقون على كثير من المسائل الخاصة بالدين كاعتبار ان الله موجود كامل علوي خالق. وان الله والعالم شيئان مفترقان ولا تكون معرفة الله إلا بالطرق الخفية وبالوحي والالهام والزهد والتقوى والعبادة والتجرد عن الدنيا والاعتقاد بالملائكة والشياطين... الخ.

ولا ريب ان الافلاطونية الجديدة هي التي استخلفت الفلسفة اليونانية. فقد جاءت بالإله غير المحدود عوضاً من العقل الكلي أو العقل الإلهي. وعند هذا الحد من التطور والتكامل قد يخرج الإله عن ساحة جميع المحسوسات والملموسات وحتى الفكر والعقل ويقترب من صفات الإله في الأديان السماوية فيبتعد عما يتصوره الخيال البشري.

3 ـ يقول بلاطين Platimus اليهودي الاسكندراني وهو مؤسس الافلاطونية الجديدة (240 ـ 270) ان منشأ الأشياء ومبدأها واحد بالأصل بمعنى ان هذه الوحدانية هي الألوهية وهذا الإله هو موجود بالذات وموجوديته بذاته وان الذي يوجد من نفسه من دون وساطة من غيره هو واحد بالضرورة لأن الوحدانية أو وحدة الأجزاء تستلزم الوجود من دون الاحتياج إلى الغير. فان هذا الواحد هو فوق جميع الكائنات ووراء الوجود والصفات وحتى فوق الوجود والحقيقة لا يعرف ولا يوصف ولا في مكان ولا يخلو منه مكان. والعقل لا هو متناه ولا غير متناه، فلذلك لا نجد في لغاتنا وصفاً مطابقاً لكنهه وحقيقته. وبينما نضع له الأسماء لتعريف أوصافه نرى أنه يفوق كل وصف وأن لا حد له ولا وصف. وبهذا المنطق قطع افلوطين تحت تأثير الديانة اليهودية أشواطاً بعيدة في التنزيه أكثر من أرسطو بكثير ويقول: إن الخير والفيض والقوة والنشاط قد تنتشر منه دوماً. فإن هذا النشر وعلى حد تعبير بلاطين هذا النزول ليس معناه النفاد أو الانحطاط إنما هي من آثار قدرته اللامتناهية. ويقول يمكن

للإنسان أن يرى هذا الإله العظيم في ضميره ويجده في نفسه! إلا أن هذه الرؤية ليست ميسورة لكل واحد. وأما عن النفس الفردية فيقول إنها صدرت وانبثقت من النفس الكلية ولها اتجاهات مختلفة. فان اتجهت إلى النفس الكلية فتكون إلهية خالصة وان اتجهت إلى المحسوسات والملموسات فتكون حيوانية بهيمية.

4 ـ وبهذه التعريفات جعل بلاطين إلهه مكتنفاً بالغموض. إلا أن تلميذه بورفوريوس قد خفف بعض الشيء من هذه الأسرار والمبهمات فقال ان بين «الإله اللامتناهي» وبين العالم المحسوس يوجد موجودات أخرى. وقد توضع الأسس الدينية في ساحة هذه الموجودات. فان الآلهة الموجودة في هذه الساحة هي التي تعين البشر للوصول إلى الإله العظيم اللامتناهي.

وبعد ان وصل بورفوريوس إلى هذه الساحة رأى من المباح اتخاذ أي وسيلة للوصول إلى اقرب إله. ولهذا يجوز عبادة الأساطير والعنعنات والهياكل والتوسل بالادعية والطلاسم والتمائم وتقديم القرابين والنذور وحتى اتخاذ السحر. فان هؤلاء جميعاً رموز دخلت بين المعرفة الحسية والمعرفة العقلية وقد تتجاوز الروح حدود الجسد في حالة الاستغراق والتجليات فتسمو مرتفعة حتى تتصل به. وعندما يرجع الإنسان إلى عقله بعدها ينحدر إلى مرتبة العقل التي هي دون مرتبة (الاحد). (وعند انتشار هذه النظرية اتخذها بعض رجال الدين الإسلامي والمسيحي وسيلة لإقامة وسطاء بين الله والناس وثبتت في القواعد الصوفية).

5 ـ وكانت الفلسفة اليونانية حتى قبل بلوطين وتلامذته قد قوي جانبها بالتلاميذ الرومانيين. فقد ظهر فيها كما يقول زللر Zeller مؤرخ الفلسفة اليونانية ما يدل على ظهور انقلاب في العالم الفكري. فقد ظهر أولاً بلوطين وتلامذته بالاسكندرية فجاؤوا بنظرياتهم الدينية الفلسفية المارة الذكر ثم ظهرت المسيحية.

6 ـ يظهر مما مر اعلاه أنه قد حصل تعارض مستمر بين الفلسفة والاحكام الدينية، وقد طورد كثير من الفلاسفة الذين وضعوا فلسفتهم حول إيضاح الحادثات الكونية وماهيات الآلهة والقواعد الطبيعية جهراً وعلانية وبوضوح تام من دون التستر والاختفاء وراء الأحكام والقواعد الدينية ومن لم يهرب كما هرب ارسطو فجزاؤه الحبس والإهانة أو الحكم عليه بالموت.

ومع هذا كله فان للدين اليوناني المؤسس على الأساطير والمنقولات مرونة كاملة لتحمل الأفكار الجديدة أكثر من أي دين آخر. وللشعب اليوناني ميل لتقبل الآراء الحديثة أكثر من أي شعب آخر. وسنرى أن الأديان والشعوب الأخرى حتى في القرون المتوسطة كانت اشد بطشاً بالعلماء والفلاسفة من الشعب اليوناني نفسه.

الفصل الرابع عشر في المعتقدات الرومانية

1 ـ كان الرومانيون كسائر الأمم القديمة يعتقدون بموجودات لا ترى بالعين قادرة على عمل ما يعجز عنه الإنسان، تتصرف في شؤون الكون وحادثاته. وهذه الموجودات تسمى «آلهة». فلكل منها عمل خاص تقوم بإجرائه ومحل مخصوص تقيم فيه.

ان اعظم الآلهة عند الرومانيين وأشدهم نفوذاً أو مقدرة هو الإله جوبيتر حامي بلدة روما، ويعتبر إله النور والزوابع وله معبد في الكابتيليوم مكتوب على بابه جوبيتر العالي الكامل (يوبتير او بتيموس).

ثم يليه الربة «يوتون» وهي إلهة النور والضياء وتعتبر زوجة لجوبيتر وهي تحمي نساء روما.

وعندهم الإله «مارس» إله الحرب والصواعق، والرية «وستا» ربة النار والمواقد و«يانوس» إله ذو وجهين «وساتورن» إله اللاتين «وميزو» إله الذكاء «ولكن» إله الحدادين و«ديان» إله الصيادين و«ليبر» إله الكروم و«مركور» إله التجار وابناء السبيل و«اوركوس» إله الأرواح و«هليوس» إله الشمس و«بنيوس» إله العمق في نهر التيبر. ويعتبرون كذلك الأرض والقمر كلها مأهولة بالآلهة. والإيطاليون كسائر الأقوام يعبدون آلهة السماء.

2 ـ ويعتقدون بوجود الأرواح والجان والملائكة في منابع المياه والصحاري وقمم الجبال الشامخة وفي الغابات والدور المهجورة، كما وان لكل دار بل لكل باب ونافذة وحجرة جنياً يحميه، ولكل شخص ملكاً يقيه الشرور. ولم يكتفوا بذلك، فقد جعلوا لكل عمل من الأعمال الاعتيادية ولكل فعل من الأفعال الجارية ملكاً موكلاً على تنفيذه وإجرائه. فان للطالع والحظوظ [فورتونا] والحدود [ترمينوس] والسلامة [سالوس] والصداقة [فيوس] والاتحاد [كونكورديا] ولكل نوع من الفضائل والرذائل وكل شيء ماديا كان أو معنوياً، ولكل نهر وبحر وجبل وواد، إله أو ملائكة موكلة عليها. وأهم هؤلاء عندهم هو الخاص للطالع والحظوظ فلا يخلو دار إلا وفيه هيكل لفورتونا.

ولم يهتم الرومانيون بصفات الآلهة ولم يعرفوا في باديء أمرهم عبادة الأصنام. وكانت الآلهة عندهم لا تشبه البشر ولا تتزاوج وليس لها أساطير قديمة، إنما هي عبارة عن موجودات تتجلى على الإنسان وقد تعمل الخير والشر وتفيد أو تضر. فكان من الضروري عندهم اكتساب رضاها.

3 ـ أما العبادة عندهم فهي تنحصر في تقديم المأكولات والمشروبات والأثمار واللحوم إلى الآلهة لجلب عطفها وتسكين غضبها. ويطلبون مقابل هذه التقديمات والهدايا منحها ترويج المطلوبات. وأهم التقديمات هي الذبائح والقرابين (بقر. غنم. خنازير) وقد يسكبون الخمر والحليب بجوار المحاريب. ومن العادة أن يقدم إلى الإله جوبيتر ثوراً أبيضَ وإلى الآلهة التي هي تحت الأرض ثوراً أسودَ كذبيحة. فتحرق عظامه وشحومه في مواقد المعبد. ويعلن الراهب أن هذه الذبيحة من فلان إلى الإله فلان.

ولم يعتمد الرومانيون على أسماء الآلهة لأنهم يعلمون أنها من وضع الإنسان وأن للآلهة أسماء أخرى مجهولة عند البشر. فلذلك يخاطبون آلهتهم «أيها الإله الكريم المتعالي جوبيتر أو من تكون!»[1].

4 ـ ويقوم الرهبان بإجراء المراسيم الدينية وهم على عدة اصناف. منهم موظفون على المشاعل وتقديم الذبائح، وثلاثة منهم في معبد الإله جوبيتر وواحد في معبد كيرنيوس وآخر في معبد مارس. ومنهم صنف العذارى يقمن بإيقاد النيران في المحاريب وفوق الجميع رئيس الرهبان وهو من اكابر رجال رومية يعتبر الحاكم العامّ لكل الأمور الروحانية والبشرية.

ويوجد في كل دار محرقة مقدسة يجتمع حولها افراد العائلة قبل كل طعام فيسكبون في أرضها من الخمر ويعبدون إلههم جوبتير حولها. ويعتقد الرومانيون بوجود الأرواح بجوار المحارق تحمي أهل البيت فيقدمون لها الأطعمة والمشروبات. ولما انتشرت الأصنام في الأزمنة المتأخرة كانوا يضعون الهياكل والتماثيل والأصنام بجوار المحرقة.

5 ـ ومن عادات الرومان تقديم المأكولات والمشروبات إلى قبر الميت فيعتقدون ان لروح الميت قوة خارقة فوق القوة البشرية قد تزعج الأحياء وتتدخل حتى في شؤون البشر اليومية، ولذلك يقدمون لها المقليات والمشويات من اللحوم ويسكبون الخمر والحليب فوق القبر لإرضائها وتسكين غضبها ولإبقائها ساكنة هادئة في مستقرها ومستودعها من دون ان تخرج على سطح الأرض وتحوم بين الناس للارتزاق.

6 ـ ولم يكن من فرق كبير بين معتقدات الرومانيين واليونانيين. فان عاداتهم وعباداتهم واحدة تقريباً. وقد يحترم الرومانيون آلهة اليونان ابوللون ولاطون وهراكل ويسمونها «هراكل ـ قاسطور ـ بوللوكس» ويرتلون الأشعار اليونانية المقدسة في صلواتهم. وقد اخذ الرومانيون المعتقدات اليونانية من اليونانيين المقيمين في روما مع محافظتهم على أساطير ديانتهم السابقة. فلم يكن من فرق بين الديانتين سوى الاختلاف في أسماء الآلهة.

فلذلك كان الإله «جوبتير» يقابل الإله «زفس» و«يونون» يقابل «هرا» و«مينرو» يقابل «باللاس» و«ديانا» تقابل «ارتميز» و«ولكن» تقابل «هفائيسطوس» و«مركور» يقابل «هرمس» و«ليبر» يقابل «ديونيزوس» و«مارس» يقابل «آره س» و«سرس» يقابل «ديميتر» و«ونوس» تقابل «آفردويت» بالأوصاف والميزات والعمل. وبهذا انقلب آلهة اليونان إلى آلهة اللاتين لدرجة ان يقال جوبيتر زفس وهرايونون... الخ.

7 ـ توجه الرومانيون في أواسط القرن الثاني الميلادي إلى قبول الديانات الشرقية من دون تعديل. فقد ارسل السناتو هيئة من الرهبان إلى بلاد اليونان لنقل هيكل الآلهة «كيبل، سيبل ـ الام الكبيرة» إلى روما. وقد نقل الهيكل بمراسيم دينية على غاية من الأبهة والحشمة مع كهنته اليونانيين. كما انهم نقلوا من فرثيا وليديا من أعمال بر الأناضول القديم الإله اتس Attis وهو إله الخضرة والخصب والزراعة، وهو كتموز الإله البابلي وكأدونيس الإله الإغريقي. وتدّعي الأساطير الرومانية انه ابن

(1) تذكرنا هذه الفقرة بالجدال العنيف بين الفرق الإسلامية حول أسماء الله الحسنى التي اعتبرتها المعتزلة من وضع البشر.

الربة سيبل ويقال انه كان عشيقها وانه قتل لأنه تجرأ وأحب سيبل أم الآلهة، فكان له عيد يشبه أعياد تموز يبدأ في 22 آذار وهو يوم المنقلب الربيعي وينتهي في 27 منه. وكانوا في أول يوم من العيد يقصون شجرة صنوبر ويضعونها في معبد الربة سيبل ويزينون ساقها بأوراد البنفسج رمزاً للإله اتس. كما وانهم يعلقون دمية رمزاً لاتس في جذع الصنوبر ويقوم الكهنة بالطواف حول الشجرة ويضربون اجسادهم على انغام الطبول والمزامير إلى أن تدمى فيرقصون ويندبون ويألمون ويلطمون حتى 25 آذار حيث يقوم اتس من الأموات فيكون عيد قيامته منتصراً على الموت وهو اشبه بيوم قيامة ادونيس وما فيه من سكر وفرح وإباحية مقدّسة حتى ينتهي العيد وينتهي حمل صورة سيبل الام الربة العظيمة وطوافها بالشوارع. كما وانهم نقلوا من قابادكيا ربة أخرى وعبدوها تحت عنوان الإلهة «بللونا».

ووصل إلى ايطاليا بعض من سحرة الكلدان وكهنتها ومنجميها واتشغلوا بإعطاء المعلومات عما سيحدث في المستقبل وعن كشف المغيبات وحل المعميات فأخرجتهم الحكومة سنة 140 من روما وأعادتهم إلى بلادهم.

وفي هذا الدور انتشرت اللادينية في أنحاء ايطاليا فأصبح الناس يستهزئون بالآلهة القديمة والأساطير الدينية والمنقولات الخرافية. وكان لكل فرد ان يزاول العبادة التي تروقه أو لا يزاولها ابداً على أن لا يهاجم معتقدات الآخرين. وكتب احد اليونانيين كتاباً هاجم فيه الآلهة، ومما قاله ان هذه الآلهة ما هي إلا اشخاص بشرية تألهت بعد وفاتها وما «زفس» الإله العظيم عند اليونان إلا أحد ملوك جزيرة كريت. فترجم هذا الكتاب الشاعر انتيوس إلى اللاتينية فانتشر بين الطبقات الايطالية فكان سبباً لانتشار اللادينية والاستهزاء بالآلهة والطقوس الدينية. حتى إن احدهم أوصى أن يكتب على قبره «كنت عدماً. فوجدت على غير رغبة مني. ثم صرت عدماً. ولا يهمني ذلك؟!».

8 ـ وفي القرن الثاني والثالث الميلادي تعرضت الديانة «المسيحية في ايطاليا لأنواع المظالم والتعذيب حتى ان ديوكلسيان الامبراطور كان قد ألقى كثيراً من المسيحيين بالنار وأمر بتخريب كل الكنائس والمعابد والأديرة المسيحية وأجبر من تبقى من المسيحيين على تقديم الذبائح والقرابين إلى المعابد الرومانية. وبعد أن دام اضطهاده سبع سنوات اصدر اعلاناً بالكف عن «هؤلاء المجانين».

9 ـ وفي أواخر القرن الثالث الميلادي كانت روما اشبه شيء بمعرض عام للآلهة والأديان. فقد نقل إليها من أنحاء الامبراطورية أنواع الهياكل ودخلتها مختلف الديانات وتأسس فيها كثير من معابد آلهة الشرق. فكان فيها معابد لآلهة روما القديمة ولزفس إله اليونان ولأيزيس واوزيريس وحورس آلهة المصريين ولكيبل الإلهة العظيمة وللبعل السوري ولمترا إله الشمس الإيراني يضاف إليها الكنائس المسيحية.

كانت معابد الإله مترا تبنى تحت الأرض وتنحت تماثيله كرجل فارسي يصارع ثوراً فيغلبه. وأصبح مترا إله الحياة والبعث وعبادته تنحصر في تحمل الجوع والعطش والحر والبرد وشتّى الشدائد والمحن والآلام. وأخيراً صار إله جيوش روما. ثم اعتبره الامبراطور اورليان إله الامبراطورية الرسمي وأنشأ له في روما معبداً ضخماً فكانت القياصرة كافة تحمل عنوان راهب مترا.

10 ـ كانت «النا» والدة قسطنطين مسيحية وكان أبوه الامبراطور قسطانطينوس قد اظهر التسامح للمسيحيين عند قيامهم بطقوسهم الدينية تحت تأثير الامبراطورة النا. فنشأ قسطنطين محباً وميالاً للمسيحيين وأخيراً تنصر تحت تأثير رجال الدين المسيحي ونشر امراً في بلدة ميلان 313م. أعلن فيه حرية الدين والمذهب وإجراء الشعائر والمراسيم الدينية في أنحاء الامبراطورية الرومانية كافة وان لكل فرد من التبعة ان يعتنق أي دين يراه موافقاً له. واستناداً إلى هذا المرسوم الامبراطوري استعادت الكنائس المسيحية الأموال كافة التي اغتصبها القياصرة السابقون منها.

وأعلن قسطنطين بمرسوم آخر بما ان يوم الأحد هو اليوم الذي قام فيه السيد المسيح من القبر وهو يوم خاص لعبادة الإله مترا إله الشمس وتمجيده، فيجب غلق ابواب المحاكم ودواوين الحكومة في اليوم المذكور باعتباره يوم عطلة لإله الشمس. وقد اظهر رجال الكنائس من المرونة والقدرة خارقها في تمشية الأمور لكسب عطف الجمهور واجتناب غضب الناس، ما جعلهم يقبلون كثيراً من طقوس الديانة المترية المنتشرة في أنحاء البلاد.

11 ـ وبهذا اكتسب رجال الدين المسيحي اعظم معركة من المعارك الفاصلة، وصفا لهم الجو وتغلبوا تدريجياً على سائر الأديان الوثنية في أنحاء أوربا والعالم.

الكتاب السادس

الزرادشتية والمعتقدات الوثنية

المقدمة

نظر الإنسان القديم إلى أعماق السماء، وردّد نظراته مرات ومرات، فرجع بصره في كل مرة خاسئاً حاسراً، وانكسر في كل مرة خائباً حائراً، لا يفهم من هذا الفضاء العميق شيئاً، فهناك نور ساطع يملأ الفضاء خلال النهار فتنتعش منه الكائنات، ثم يعقبه ظلام دامس تنحط فيه القوى فيخيم الهدوء والسكون حتى سطوع الشمس، وهناك قمر يتطور من الهلال الى البدر الى المحاق ثم يختفي ليعود فيمثل الأدوار السابقة نفسها. فما هذه السماء البعيدة الغور، وما هذه الشمس المشرقة، وما هذا الظلام الدامس، وما هذه النجوم التي تلمع في الفضاء بهذا الجمال الفاتن، منها الثوابت ومنها السيارات والشهب والمذنبات، وكيف يتعاقب الليل والنهار، وما هذا النظام السائد في الكون، وما هي تلك القوة الخفية المستترة وراء سطح الآفاق والتي تسيطر على هذا الكون العظيم؟

أشغلت هذه الأسئلة أدمغة المفكرين وأذهان الفلاسفة آلاف السنين فوضعوا لها نظريات وقواعد مختلفة كل حسب نظرته الى الكون وما توصل إليه عقله وعرفانه وتفكيره، الا انهم جميعاً كانوا قد اتفقوا على ان الشمس مصدر القوة والحركة والنشاط والحياة، وأن الظلام مصدر الشرور والضلال والموت الانحلال، فجعلوا لكل منهما إلهاً يسعى للوصول الى أهدافه، فسمي الأول إله الخير والثاني إله الشر.

وكان السبب في توجه الفكر البشري الى هذين الالهين المتناحرين المتنافرين هو انه شاهد بالفطرة ان الحياة ليست كلها خيراً ولذة وصفاء وبهجة انما قد يلابسها كثير من المحن والآلام والأحزان، وأخيراً الموت الذي لا يفهم له معنى. ورأى حالة الارض مثلاً، بينما تكون خضراء يانعة زاهرة زاهية، والاشجار باسقة مورقة مثمرة، اذ تكون الارض جافة يابسة قاحلة والاشجار عارية نائمة ميتة، تخيل بفكره ان في أعالي الجو قوتين عظيمتين تعملان في اتجاه معاكس، الاولى تهب الحياة والنشاط والخيرات للعالم، والثانية تعمل للشر والخراب والهدم والانحلال والهلاك والموت، فشرع يتودد الى الاولى ويسعى لنصرتها في حربها ضد الثانية واسترضائها واستمالتها لجانبه بالذبائح والقرابين وبالصلوات والتعبدات، كل ذلك لتأمين عطفها وكرمها، ولتمنحه من احسانها وخيراتها ما يسد عوزه واحتياجه ولتهبه العمر الطويل.

وكان قد اتفق الفلاسفة أيضاً على ان الارض ثابتة وهي مركز الكون تحيط بها سبع سيارات لكل منها محرك ثابت، تدور حول الارض والشمس، تجري من الشرق الى الغرب فتدخل في كل مساء في بحر الظلمات. واستدامت هذه الفكرة حتى جاء كوبرنيك وأثبت لاول مرة حركة المجموعة الشمسية وأقر الارض في موضعها وحدد موقعها ومكانتها وأثبت حركتها ودورانها على نفسها وحول الشمس، ثم أعقبه غاليلو بتلسكوبه، فوضعا أسس علم الفلك الحديث بالاستناد على الاختبار والفحص والرؤية والرياضيات. وتناول الأمر خلفاؤهما من بعدهما حتى أصبح علم الفلك الحديث، كما هو معلوم، من أهم العلوم العصرية وأدقها وامتزج بأبحاثه مع الكيمياء والفيزياء وسائر العلوم الطبيعية والرياضية الأخرى.

الفصل الأول الألوهية في الديانة الزرادشتية

﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين انما هو إله واحد فاياي فارهبون﴾ (النحل)

1 ـ **إله الخير وإله الشر:** من يتتبع الديانات القديمة يشاهد فيها اتجاه الفكر البشري مدة طويلة من الزمن الى الهين اثنين هما: إله الخير وهو النور وهو النار وهو النهار ومقره في الشمس. وكان يسميه السومريون «اوتو» والبابليون «شمش» أو «شماش» والفرس القدماء «مترا» و«أهورا مازدا» و«يزدان» والمصريون «رع» و«اتون» والاغريق «ابولون» والرومانيون «هليوس» والبرهميون «ايندرا» وهو الذي ينشر النور ويمنح الحياة ويهب الخيرات للعالم. وإله الظلام والشرور ويسميه السومريون «نترغال» وهو عندهم إله الارض المظلمة السفلى، ورب الموت والأموات ورئيس الشياطين والمردة والعفاريت تعاونه في أعماله زوجته الربة العاتية «اللات» وتسمى أيضاً «ارش كيكال» ويسميه الكلدانيون «ايسار وكيسار» والفرس القدماء «اهرمن» و«ديو» والهنود «مارا» والفراعنة «سيت» والاغريق «خاوس» وفي الديانات السماوية «ابليس» و«الشيطان» وعند اليزيديين «طاووس ملك» ومقره عند الجميع في الدهاليز والممرات المظلمة والكهوف والآبار وقمم الجبال الموحشة. وقد يسير تحت طبقات الارض السفلى، ويدخل أحياناً في قلب الانسان، فيولد فيه الوساوس والاوهام والاطماع والشهوات والنزوات وقد يسوقه الى ارتكاب الاجرام والمحرّمات الشرعية والسلب والنهب والغصب والى اتيان الأعمال المستنكرة والمساوىء الاخلاقية والمعاصي الدينية ما استطاع الى ذلك سبيلا.

2 ـ **المجوس:** يقال ان مجوس كلمة فارسية معناها «فاقدو الآذان» ذلك لان أحد رؤسائهم قد قلعت أذناه. ويقال إن أصلها «مغ» أو «مغو» ومعناها «حارس النار المقدسة» وتأتي أيضاً بمعنى المبشر.

والديانة المجوسية فرع من فروع الديانة الآرية في أواسط آسيا التي كانت تعبد آثار الطبيعة. وقد جعلها الفرس القدماء خليطاً من الآرية والبابلية والهندية وحتى المصرية واليهودية ومتناسبة مع أخلاقهم وعاداتهم.

فقد أخذ المجوس من المصريين محاسبة الأرواح في العالم الآخر، ومن البابليين السيارات السبع وجعلوها ملائكة، ومن الهنود نهاية العالم، ومن التوراة خلق العالم في ستة أيام [أدوار] وهي عندهم أولا السماء ثم الماء ثم الارض ثم النبات ثم الحيوان ثم الإنسان وارتاح الإله في اليوم السابع كما جاء في التوراة. كما وقد أخذت الزرادشتية الشيء الكثير من شريعة موسى مثل العشور للكهنة والحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة وغيره، وقد خالفتها في أشياء أخرى كإجازتها للإنسان أن يتزوج بأمه وبنته واخته.

3 ـ **الفرق المجوسية:** انقسم المجوس الى ثماني فرق، متفقين بالأصل مختلفين بالفرع، وهم: الكيومرثية

أصحاب كيومرث الذي يقال إنه آدم كان قد قتل فنبت من دمه «ميشة وميشانة» فتزوجا وتكوّن البشر من تناسلهما (ولذلك يجوز عندهم زواج الأخوين)، والزروانية أصحاب زروان الكبير، والزرادشتية أصحاب زرادشت بن يورشب الحكيم، والثنوية أصحاب الاثنين الازليين، والمانوية أصحاب ماني الحكيم، والمزدكية أصحاب مزدك الخارجي، والديصانية أصحاب ديصان القائل بالأصلين القديمين، والفرقونية القائلون ان الشر خرج على أبيه ثم وقع الصلح بينهما. وأهم هذه الفرق وأكثرها انتشاراً هي الفرقة الزرادشتية.

4 ـ **الزرادشتية:** مؤسس الزرادشتية زرادشت أو زردشت أو زرتشت بن يورشب [583 ق. م.] من أهالي أذربيجان، ويعتبر نبي الفرس. وفي الأساطير الزرادشتية ان «زروان ـ الله» خمّر طينة زرادشت ستة آلاف سنة ثم انفذ مشيئته في صورة نور متلألىء على صورة الإنسان وأحاط به سبعين من الملائكة المكرمين، ثم جعل روح زرادشت في شجرة انشأها في الجنة وغرسها في جبل من جبال أذربيجان ثم مازج صورة زرادشت بلبن بقرة فشربه أبو زرادشت فصار نطفة ثم علقه ثم مضغه في رحم أمه «دغد»، ثم قصده الشيطان لاغوائه. فسمعت دغد الام نداء من السماء على برءها فبرأت. ثم لما ولد [583 ق. م.] «ضحك ضحكة تبيّنها من حضر من الناس[1]»، ثم احتالوا عليه ووضعوه في مزود في اصطبلات البقر والخيل ونشأ هناك. وعند بلوغه الثلاثين من العمر بعثه «هرمزد» رسولاً ونبياً ومعلماً للبشر. يقول بعض كتّاب الافرنج، ولعلهم من اليهود، إن زرادشت كان تلميذاً لدنيال النبي، ويقول آخرون منهم انه كان خادماً عند النبي ارميا. ويعتقد زرادشت ان الإله اصطفاه نبياً ورسولاً عنه للتبشير والانذار وسوق الناس الى الاعمال الصالحة والافكار الصالحة والكلمات الصالحة والابتعاد عن الشرور والمظالم ولإبادة الاصنام والاوثان التي تعبد من دونه، وانه كان يأتيه الهاتف ويسمع الاصوات الخفية من وراء ستار، وانه كان يعرّج الى السماء عند إلهه هرمزد وكان يسأله عن أحكام الشريعة ويسمع جوابه ويسأله عن أشياء كثيرة أخرى فيجيبه عنها. وقد جمعت هذه الأسئلة والاجوبة برسالة واحدة سميت «ونديدار» وهي الجزء التاسع عشر من الزندافستا أو الازفستا أو الابستاق الذي يبحث عن طريقة مقاومة أعمال اهرمن التخريبية وإبطال عملها ومفعولها ومطاردة الشياطين، وعن عمل الخير والاحسان؛ وعن طريقة التطهير من النجاسة التي وضعها وخلّفها اهرمن في الانفس والكلمات، وفي الاشياء والأعمال، وفي جثث الموتى، وفي كل شيء؛ وعن بعض قواعد الشريعة؛ وعن المحافظة على حقوق الحيوانات النافعة، وخاصة منها الكلب والثور؛ وعن حرث الأرض وبذر البذور وغرس الأشجار وتنظيم الري وتعمير الارض.

5 ـ **يزدان واهرمن:** الديانة الزرادشتية، كسائر الفرق المجوسية، مؤسّسة على وجود إلهين اثنين مديرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد، يسمى أحدهما إله النور وهو المسمى اورمزد Ormezd أو اهورا مازدا Ahora-mazda ومعناه السيد الحكيم أو يزدان Yezdan؛ والثاني إله

(1) لما ولد اوزيريس الإله المصري سمع الناس صوتاً من السماء يقول «ولد ملك الأرض». ولما ولد بوذا «تكلم بفصاحة فهمها الجميع عما سيقوم به من الأعمال». وسمع الناس عند ولادة السيّد المسيح صوتاً من السماء يقول «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة».

الظلام وهو المسمى اهرمن Ahremen. وجاء في بعض الأساطير الزرادشتية ـ خلافاً للكيومرثية ـ انهما أخوان ولدهما الإله «زروان»، إله الآلهة. وهما متماثلان في الأزلية والقوّة والقدرة.

6 ـ **الديانة الزرادشتية:** يتلخص دين زرادشت في إنكار الوثنية وتحريم عبادة الأصنام وتقديس النار، وتنزيه إله الخير «هرمزد ـ الله» عن المادة، والكفر بالشيطان، والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتبشير بالثواب، والانذار بالعقاب وتعمير وجه الارض وعمل الخير وزرع الحبوب وغرس الاشجار واجتناب الخبائث والظلم والتخريب والهدم... وعند زرادشت النور «هرمزد» او «اورمزد» والظلمة «اهرمن» أصلان متضادان حصل العالم من امتزاجهما، و«زروان ـ الله خالقهما ومبدعهما». وزروان واحد لا شريك له، ولا ضد ولا ند، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة كما قالت الزروانية، انما هي تبع له كالظل. فان الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث انما حصلت من امتزاج النور والظلمة. ولو لم يمتزجا لما حصل هذا العالم. فلذلك هما في جدال ونضال وصراع وكفاح مستديم مع بعضهما. فقد يصيب أحدهما الغلبة والظفر والنصر مرة والهزيمة والانكسار والخذلان مرة أخرى، ولكل من الطرفين المتخاصمين المتجادلين أعوان وجيوش ووسائط تكافح وتجادل وتحارب مع بعضها البعض ولم يزالا في صراع مرير وجدال مستمر وجيوشهما في عراك واصطدام مستديم حتى يغلب النور الظلمة والخير الشر، فيكون العالم كله خير وكله نور وكله بركة ومسرات. وبهذه الدساتير الدينية اقترب زرادشت من التوحيد والتنزيه وابتعد عن التشبيه والتجسيم وعبادة الاصنام والاوثان.

فكان كتاب الزرادشت «الزندافستا» من أبدع الكتب الدينية القديمة، وكان دين من أهم الاديان التي وضعها البشر القدامى، ولعله من أحسن ما يمكن لبشر أن يضعه وأن يصل إليه بمفرده في تلك الأدوار الغابرة لولا ان كهنة المجوس أفسدوا هذه العقائد في ما بعد.

7 ـ **دين الدولة:** انتشر مذهب زرادشت أولا في بلخ ثم في أنحاء إيران كافة وخصوصاً بين أهالي بارس «فارس» القاطنين في جنوب إيران. ويقال إن الملك دارا كان زرادشتيا، ويحتمل أن يكون كيخسرو وكيكاوس أيضاً زرادشتيين قبله، فأصبح دين زرادشت دين الدولة الرسمي الى أن فتح العرب بلاد إيران فأخمدوا نيران المجوس وقضوا على هذه الديانة.

وقد لعبت عبادة العناصر كما هو الحال عند الآريين دوراً مهماً في حياة الفارسيين، فعبدوا النجوم والشمس والقمر ليطمئنوا بها حاستي الخوف والامل. وتمركزت عندهم خاصة عبادة الشمس باعتبارها منبع الحياة للانسان والحيوان والنبات، ومصدر النور والحرارة والقوة والحركة، وهي المانحة للخيرات والبركات كافة في العالم، ولولاها لانطفأت الحياة من سطح الارض، فكان على كل إنسان أن ينحني ويركع أمام هذا الكوكب الجبار المحيي المميت والذي بيده كل الخير.

8 ـ **عبادة الشمس:** لم تكن عبادة كوكب النهار من مبتدعات الفرس القدماء، فكان قد عبده قبلهم كثير من الأمم والأقوام البائدة. وكان أول من عبد إله الشمس تحت قواعد دينية منظمة هم السومريون والكلدانيون، فأسّسوا لعبادة إله الشمس «أوتو» مدينة «سبارا». وكانوا يوقدون في معابدها ناراً لا تنطفى تكريماً له، وعنهم انتشرت عبادة الشمس.

9 ـ **يوم ولادة الإله مترا:** يعتقد الزرادشتيون انه عندما يتضاءل نور الشمس آثناء الشتاء تكون الشمس قد وقعت في قبضة اهرمن فتدخل في جدال منهك حتى تضمحل قواها. وفي 24 كانون الأول «ديسمبر» تتخلص بعد جهد جهيد من قبضة اهرمن. وفي 25 منه تبدأ بالصعود نحو السماء. وقد اعتبر الزرادشتيون هذا اليوم يوم ولادة للإله مترا الساكن في الشمس. وآخذ هذا العيد عنهم اليونانيون واعتبروه يوم ولادة للإله «أبوللو» الساكن في الشمس. وفي الاعتدال الربيعي، هو يوم النوروز ويعتبر «عيد القيامة»، تكون الشمس قد استعادت نشاطها فتنشر النور والحياة على العالم فتنمو الأشجار وتكثر الأثمار وتزداد الحركة والقوة والنشاط في الأحياء كافة، وعند ذلك تنحني الرؤوس العارفة إجلالاً واحتراماً لهذا الإله العظيم الذي اتخذ قرص الشمس مسكناً ومستقراً له وبه كان كل شيء، وبدونه لم يكن شيء.

10 ـ **النار المقدسة:** وكان الزرادشتيون يسجدون للشمس على ركبة واحدة ويعبدون النار ويسجدون لها لمشابهتها بنور الشمس وقدسها على انها أصفى وأطهر العناصر. وبينما كانوا يعبدون الشمس والنار فوق التلال وبين الأشجار أمرهم زرادشت أن يبنوا بيوتاً للنيران. وكان «منوشهر» قد صعد الى السماء لملاقاة الإله فأخذ حزمة من النار المقدسة ونزل بها على وجه الأرض وأوصلها حية فكانت النيران المقدسة التي يحفظونها في هياكلهم ومذابحهم مشتقة من تلك النيران التي هي في الأصل من ذات الله (اهورا مازدا)[1].

11 ـ **محاسبة الأرواح:** أخذ المجوس من الديانة الفرعونية محاسبة الأرواح ووزن الأعمال بالميزان الإلهية بعد الموت، فمن رجحت ميزانه في أعمال الخير صعد الى السماء، ومن ثقلت موازينه هبط الى الهاوية، ومن تساوت أعماله يدخل في التناسخ معلقاً حتى يتطهر من الآثام أو تقوم القيامة. ويقوم بوزن الأعمال الإلهان «رشنوة» إله العدل و«مترا» إله النور في ملتقى الطريق المسمى «شنناد».

ويعتقد الفرس القدماء ان الأموات يمرون على صراط يسمى «سنغات» ينتهي رأسه في الجنة حيث مقر الإله «اهورا مازدا». فأما الاخيار من الناس فيرونه واسعاً عريضاً ويمرون عليه بسلام حتى يصلوا الجنة، وأما الأشرار فيرونه دقيقاً كالشعرة حاداً كالسيف فيسقطون من فوقه الى جنهم فتلتهمهم النيران حتى ينصهروا ويذهب رجسهم.

12 ـ **النار المقدّسة أيضاً:** أمر زرادشت أتباعه أن يكون المشرق قبلة لهم وتكون العبادة في أوقات الطلوع والغروب أمام الشمس والنار. والنار عندهم تعتبر رمزاً للألوهية توقد في صدر الهيكل «في المذبح أو المنبر أو القبلة» وعليهم أن لا ينفخوا النار بأفواههم لئلا تتنجس بأنفاسهم. كما وانه لا يجوز التقرّب من النار المقدّسة إلا والبراقع على الوجوه، ولا يجوز لهم أيضاً استعمال المروحة والوقود الاعتيادية، إنما يجب أن تشتعل النار من تلقاء نفسها على أن يكون الحطب يابساً ونظيفاً ومقشوراً. وان انطفأت النار لسبب من الأسباب الاضطرارية فتوقد من نار مقدّسة أخرى تكون موجودة عادة في آحد الهياكل.

---

(1) في الأساطير الإغريقية ان الإله زوس أنزل العقاب بالإله بروميتوس لنقله النار من السماء الى الأرض.

13 ـ **الأعياد:** وكان زرادشت قد رتّب لأتباعه عيدين وهما النوروز ومعناها اليوم الجديد وهو أول يوم الربيع حينما يكون الاعتدال، والثاني المهرجان وهو أول يوم الخريف وفي الاعتدال الأرضي أيضاً.

14 ـ **شريعة الزواج:** من أقبح ما في هذا الدين ما ذكره المؤرخون ـ إن صدقاً أو كذباً ـ من إجازته لمعتنقه ان يتزوج بأمه وبنته وأخته، وأن الذي يتزوج بأمه تكون أولاده أقدس من غيرهم. ويقال ان كثيرين من أبناء فارس القدماء سلكوا على هذه الطريقة ولا سيما ملوكهم ورؤسائهم. الا ان فرقة السيسانية منهم ورئيسها يقال له «خواق» حرّم عليهم أخذ الامهات والبنات والاخوات وحرم عليهم الخمر وعبادة النيران وأمرهم استقبال الشمس على ركبة واحدة فقتله أبو مسلم. وقال أصحابه انه صعد الى السماء على برذون أصفر وانه سينزل وينتقم من أعدائه ويملأ الأرض عدلاً.

15 ـ **تعدد الزوجات:** أباح الدين الزرادشتي اخذ اكثر من واحدة من النساء حسب استطاعة الشخص، وفي أحوال خاصة كالعقر، سوء السلوك، المرض... وكان في السابق محظوراً على الزوجات والجواري أن يخرجن من البيوت إلا نادراً. وعند خروجهن يجب عليهن أن يتبرقعن ويتسترن. إلا ان هذه العادة ارتفعت وأعطيت لهن الحرية التامة ليظهرن في المجتمعات سافرات. ولهن مثل الذي عليهن من واجبات.

16 ـ **الزند آوستا:** ولد زرادشت في بلخ من عائلة مالكة «منهوشهر». ويعتقد الايرانيون ان الإله «اهورا مازدا» أمر زرادشت بإصلاح العالم عند ولادته فاضطر الى محاربة الجن والشياطين مدة طويلة. وعندما وصل الى سن الثلاثين أتاه رئيس الملائكة المسمى «فوهو مانو» وأصعده الى السماء وأوصله الى حضور الإله الأعظم «اهورا مازدا» فسأله الإله «من هو أكمل المخلوقات»؟ فأجاب زرادشت «ان طاهر القلب هو أكمل المخلوقات»، فسرّ الإله من هذا الجواب. وبعد أن تعلّم منه وظائف المخلوقات النافعة والمضرة والملائكة والشياطين أخذ كتاب الـ«زنداوستا أو الزندافستا أو الابستاق» وعاد الى الأرض حيث شرع بمجادلة العلماء والحكماء والملوك في بلخ بالاستناد الى العلم الموجود في كتاب «زنداوستا» فقبل الجميع أحكام هذا الكتاب وأصبحوا زرادشتيين.

قتل زرادشت في بلخ بصاعقة سقطت عليه ويقال ان أحد أفراد الجيوش التورانية هجم عليه وطعنه وقتله وكان له من العمر سبعاً وسبعين سنة.

17 ـ **الونديداد:** ان كلمة زنديق المستعملة في اللسان العربي مأخوذة من «الزند اوستيون» آي القائلين والمعتقدين بأحكام هذا الكتاب.

يحتوي كتاب الزنداوستا على أحكام مذهب الزرادشتية الأصلية وهو مكوّن من 1250 قطعة جلد في 21 كتاباً. وقد ربطت هذه الأجزاء بأربطة مذهّبة وحفظت في بلدة «برسه بوليس». ويدعي الإيرانيون ان اسكندر الكبير قد رفع هذا الكتاب من عالم الوجود. ويدّعي آخرون ان الذي أحرق هذا الكتاب بالنار هم العرب. وقد سلم من الإحراق خمسة أجزاء فقط خاصة بالإلهيات، وأهمها الكتاب المسمى «ونديداد»، وهو يبحث عن طريقة مكافحة أعمال اهرمن وإبطال مفعولها.

18 ـ **طبقات الكهّان:** يلبس المجوس ثياباً فضفاضة نظيفة ويضعون على رؤوسهم عمائم صلبة كالطرابيش ذات لون أسود أو قاتم. أما الكهنة فيلبسون العمائم البيضاء. والمجوس ينقسمون الى طبقتين مختلفتين: الأولى طبقة الكهّان وهم على درجات ثلاث: كهنة الدرجة العالية ويسمون «الدستور»، كهنة الدرجة الوسطى ويدعون «الموبذ»، وكهنة الدرجة السفلى ويدعون «الهرباذ». أما الطبقة الثانية فهي سواد الشعب لا فرق بين غنيّه وفقيره.

والرتبة الكهنوتية عندهم وراثية فلا يكون المرء كاهناً إلا اذا كان كذلك أبوه وجدّه من الكهّان.

ويدير شؤونهم وأحوالهم الشخصية مجلس ملي إنتخابي يدعى «بنجايات» مكوّن من خمسة كهنة من درجة «الدستور» واثني عشر من درجة «الموبذ» وتكون أحكام المجلس نافذة ومطاعة.

فإذا ما كان كهّان هذا الدين قد وضعوا الأنظمة الدينية ونظّموا الحياة الاجتماعية وعلّموا الأهالي طرق السعادة الدينية والدنيوية فإنهم لم يتدخلوا مطلقاً في أمور الدولة خلافاً لكهّان الملل والأقوام الأخرى. ولذلك كان الدين أمراً وجدانياً عند الإيرانيين. وأما أعمال الدولة فكان رائدها الدهاء الإيراني وعبقرية الفرس مما امكن أن يفتح الإيرانيون العالم المتمدّن حينذاك. ولو كانت أمور الدولة تابعة لآراء الكهّان من جائز وممنوع وسعد ونحس ورضاء وسخط لما تمكن الملوك الإيرانيون من تسخير العالم.

19 ـ **الآلهة:** وبموجب المذهب الزرادشتي فان الإله «اهورا» خلق الأرض والسماء والانسان وكل ذي حياة من حيوان ونبات. وهو الذي خلق المدن والقرى في العالم وأوجد في إيران وحدها سبع عشرة مدينة. و«مازدا» وضع نظام الكائنات والعوالم، وان كلمة «هرمز» المستعملة بين الايرانيين الأحداث هي مختصر كلمة آهورا مازدا. فهذا الإله وهو إله النار والنور والخير والنظافة والحقيقة والصحة والعافية. وهو روح لا يرى بالعين وهو «الروح المقدسة»، لديه سبعة ملائكة يحفون به ويبلغون شرائعه وأوامره ونواهيه. وهؤلاء هم المقرّبون الخالدون. وهناك أرواح أخرى تسمى «بازاتا» تتوكل بتنظيم أحوال الماء والهواء والتراب وكل ما هو متعلق بنظام هذا الكون. ويأتي في الدرجة الثانية الموكل على النور والنار الإله «مترا» الإله الشمس، إله الصحة والحياة والإله «هوما» وثم إله مقاومة الأمراض وإبعاد الموت والوقاية والشفاء الإله «فروة شريتا».

20 ـ **شعار المجوس:** يقال إن هذه الآلهة مأخوذة من آلهة الآريين. وبما ان الفرس آريون بالأصل فقد قبلوا الآلهة الآرية وجعلوها بالدرجة الثانية وتحت حماية آلهتهم وخدّاماً لها. وكانت النار مقدّسة عند الآريين وهي العنصر الحيّ في هذا الكون تطرد الظلمة وتدفع الجن والشياطين ويجلي ضياؤها روح الانسان من الشرور والظلمات، فان اشتعال النار في العائلة يدل على الحياة، وانطفاءها يدل على الموت، فلهذا كانت النار تشغل الموقع الأول في معتقدات الفرس القدماء. فكان لهم بيوت خاصة توقد فيها النيران المقدسة دوما تسمى بيوت النيران، وكان شعارهم اللون الأخضر.

يقول المسعودي في «مروج الذهب» عند بحثه عن بيوت النار: «وكان هذا البيت ينصب على أعلاه الرماح عليها شقائق من الحرير الأخضر». وكان لملوك العجم مواقد متحركة توقد فيها النار المقدسة، وتنقل معهم أينما ساروا، في الصيد أو في الحروب.

21 ـ أنواع النيران: كانت النيران على قسمين: النار المقدسة وقد مرّ ذكرها، والنار الدائمية وهي التي توقد في البيوت. وكان يحرّم تقريب الموتى من النار خلافاً للهنود الذين كانوا يحرقون موتاهم بالنار. ويحتم الدين الزرادشتي احترام الماء والتراب والهواء أيضاً، ولكنه احترام لا يغالى فيه كما في النار. ويفرض الاعتقاد بوجود ملائكة مكلّفين بحماية الإنسان، يجادلون الأرواح الشرّيرة عوضاً منه لوقايته منها، كما وان لكل انسان ملكاً خاصاً لصيانته وحمايته يرافقه حتى الموت يسجل عليه حسناته وسيئاته، وعند ذلك يذهب الملك الى السماء ويكون محترماً بالنسبة لأعمال إنسانه. وهذا مأخوذ من الديانة الكلدانية بتعديل قليل.

22 ـ الأرواح: تكون الأرواح على نوعين: الأرواح النورانية، والأرواح الشريرة، وكلاهما كثير العدد. فإن الأرواح النورانية تكون عند إله الخير وهو اهورا مازدا أو يزدان، وأما الأرواح الشرّيرة فتكون عند الإله اهرمان أو اهريمان أو اهرمن.

كان الإله الأعظم «اهورا مازدا» قد حبس اهرمن في الظلمات، الا انه تخلّص من الحبس وهرب الى الأرض فكان إله الأرض، ورئيس الشياطين، ورأس كل بلية ومصيبة وان روحه الخبيثة النجسة هي الأصل في الأعمال الفاسدة والمضرّة والشرّيرة كافة. ولما خلق اهرمن الجبال والمياه والتراب، ملأها بالأرواح الخبيثة وسلّطها على الإنسان. فهو الذي جعل أيضاً للنار الصافية المضيئة الدخان الخانق، وهو الذي خلق الأمراض والموت والكذب والرياء والنفاق والرذائل والموبقات والغضب والاغتصاب والسلب والنهب والفسق والفجور والجراد والنمل والبكاء والنواح والظلم والجور والكفر والكسل والعطل ومخالفة الشرائع، ودفن الموتى في باطن الأرض لتنجيسها. وكان كلما خلق اهورا مازدا شيئاً نافعاً، خلق اهرمن ضدّه شيئاً مضراً. وقد انتقلت هذه المعتقدات حتى الى الأعمال اليومية. فكان اهرمن إله اللصوص والسراق والكذابين والمنافقين والسفاكين والمجرمين والهدامين والمخربين... إلخ... واهورا مازدا إله البستانيين والزراع ورجال العلم والفضيلة، يصون نظام الحكومة والعائلة المالكة والملك نفسه، ويقهر الأعداء، ويكسب للملك الحرب... إلخ.

فكان هناك جدال مستديم بين اهورا مازدا واهرمن أو بين الخير والشر والصدق والكذب، والحق والباطل والنظام والفوضى والحياة والموت... إلخ. وكان الفرد حينما يصلي يطلب الخير من اورمزد لنفسه والشر من اهرمن لعدوه. وكانوا يكتبون اسمه مقلوباً لبغضهم إياه.

23 ـ نزاع الأرواح: يعتقد الإيرانيون القدماء ان الرعد والصواعق لا تتكون من الاصطدام بل من النزاع بين الارواح النورانية والارواح الشريرة، وأما البرق فهو سلاح الإله لإحراق الشياطين والارواح الخبيثة التي تروم الوصول الى السماء، فلذلك كانت النار مطهرة من الخبائث، وينبوعاً للحياة والنظافة.

24 ـ انتصار اهورا مازدا: لم يتمكن اهرمن من الوقوف أمام إله الخير فكان يهرب ويختفي هنا وهناك. ومع هذا فإن إله الخير لا يستطيع القضاء عليه وإزالته من عالم الوجود الا في الصراع الأخير وعند انتهاء العالم، وذلك بعد مرور سبعة وعشرين ألف سنة على ولادة زرادشت، فتنقلب حينذاك الظلمات نوراً والموت حياة والشر سعادة. عند ذلك يعترف اهرمن بقدرة «اهورا مازدا» وسلطته العامة في

الحكم على الكون فيحصل السكون المطلق في هذه الكائنات. والى أن تحصل هذه النتيجة السعيدة ستظل الارواح الصالحة والخبيثة تصطدم بعضها ببعض، تحترب وتتجادل في كل مكان. ولما كان القصد من هذا الاصطدام والجدال والحرب هو تقوية النفوذ وكسب المعركة والتفوّق والغلبة على العدو، فكان من واجب كل إنسان أن يسعى في معاونة اهورا مازدا وتقويته على خصمه، وذلك باجتناب الرذائل والابتعاد عن جميع الشرور، وأن يجتهد جهد طاقته في اكتساب الفضائل ويسعى الى الاعمال الخيرية، وأن يكون دائماً طاهراً بقلبه نظيفاً بثيابه نزيهاً في أفعاله عادلاً في أعماله وأن يقف تجاه أعمال اهرمن في كل لحظة وزمان، وأن يسعى ويجتهد في قلب الأرض البوار الى أرض صالحة للزرع، ويبتعد عن النجاسات ويتحاشى الظلم والغدر والكيد والتجاوز على الغير، وأن يكون قبل كل شيء مستقيماً بأفعاله وأقواله ويجتنب الكذب غاية الاجتناب ويعتبره من أعمال اهرمن، ومن أشنع وأقذر الأعمال الفاسدة. وعليه كذلك الابتعاد كل البعد عن السرقة والاحتيال وشهادة الزور وتبديل المذهب والمعتقد والدين.

25 ـ **الطهارة والنظافة**: ان من أهم القواعد في هذا الدين هي الطهارة والنظافة لوقاية الجسد من الأمراض التي هي من أعمال اهرمن. ويأتي في الدرجة الأولى من المطهرات عندهم نور الشمس ثم «بالنيرانج» وهو بول ثور صحيح البنية كامل الخلقة[1]، لا عيب فيه ولا نقص في أعضائه. ويليه ماء المزن والامطار وبعض بخور اللبان والنباتات العطرية.

26 ـ **الروح البشرية**: يعتقد الإيرانيون ان الروح البشرية نظيفة في أصلها إلا ان اهرمن ولغ فيها كما يلغ الكلب بالإناء. فلهذا يجب الاستحمام وتقليم الأظفار وقطع الشعر ودفنها في شقوق الأرض أو رميها أبعد من الإنسان بعشرة أذرع، ومن النار عشرين ذراعاً، ومن الماء ثلاثين ذراعاً. وما عدا هذه الطهارة التي يتّخذها الأفراد بالأقوال والأعمال والأفعال فهناك طهارة دينية أخرى تمتد طقوسها سبعة أيام يقوم بها الرهبان وحدهم عوضاً من المكلّفين وقد تكلّف غالياً. فإن لم يسترض الراهب ويكون مسروراً فلا حكم للطهارة التي يتّخذها الفرد أو المكلّف ويبقى الإنسان خبيثاً نجساً مدى الحياة.

27 ـ **مولود المجوسي**: يولد المجوسي عادة في الطبقة الأرضية من المنزل، اذ ان التعاليم الدينية تقضي بأن يبدأ الإنسان حياته في أوطأ درجة ولا يرتفع في حياته وينهض ويرقى سلم السؤدد والحياة العليا في الدنيا والآخرة إلا بأفكاره الصالحة وكلماته الصالحة وأعماله الصالحة.

ومتى بلغ المولود اليوم السابع من عمره جيء بأحد العرّافين ليقرّر طالع الطفل ويختار له اسماً فيطرح على والديه عدّة أسماء ليختارا منها اسماً، ثم يأتي بلوح عريض من خشب ويرسم عليه نقوشاً رمزية وعلامات بالطباشير، ويحسب نجم الطفل وطوالعه ويكتب بياناً بما سيأتي على الطفل من نحس وسعد وما يجب تلافيه وما يجب اتباعه. ويحفظ هذا اللوح للطفل ليكون مرشداً له طول حياته.

واذا ما بلغ الطفل السابعة احتفل بتطهيره فيأتي الكاهن ويغسله «بالنيرانج» وهو بول البقر

(1) من المعلوم ان عبادة البقرة والتبرّك بروثها لم تزل قائمة في الهند.

ويضع في وسطه «الكوستى»، وهو حبل تفتله النساء الكهنة من اثنتين وسبعين خيطاً تمثل الآيات الاثنتين والسبعين من سورة «الباسنا» احدى سور الكتاب المقدّس «الزندافستا».

وعندما يشد الكاهن هذا الحبل حول خصر الصبي يتلو آيات من الكتاب المقدّس وينشر فوق رأسه قطعاً من الفاكهة والبروز والعطور. ومتى تمّ هذا العمل اعتبر الصبي مجوسياً يدين بدين زرادشت وأصبح مسؤولاً عن أعماله أمام الله يحاسب عليها. وأما اذا مات الطفل قبل ذلك فانه يدخل الجنة من دون حساب لأنه لم يصل الى السن التي يجازى فيها عن أعماله (على نحو ما موجود في الديانتين المسيحية والإسلامية).

يهتم المجوس اهتماماً كبيراً بالطقوس الجنائزية فيبرزونها في كثير من مظاهر المهابة والوقار. فعندما يقرّر الطبيب المعالج ان حالة المريض لا أمل فيها وأنه قد وصل الى حشرجة الموت، يتقدم من فراشه كاهن يتلو عليه آيات الزندافستا ويستغفر له عن ذنوبه ومعاصيه. ومتى فاضت روحه صلى عليه صلاة الموت، وتوسل الى الله أن يدخله الجنة ليقابل أهله وذويه الصالحين ثم تحمل الجثة الى الطبقة الأرضية من المنزل حيث ولدت. وهناك تغسل وتعطر وتلبس ثياباً بيضاء نظيفة وتوضع في نعش حديدي ويؤتى بكلب الميت ليبقى بجوار الجثة حتى يطرد عنها الأرواح الشريرة.

ويدخل أهل الميت وأصدقاؤه واحداً فواحداً فيقفون أمام الجثة ويرفعون أيديهم كل بدوره، على رؤوسهم تحية للراحل ثم يحمل النعش أربعة من أخصاء الميت في ثياب بيضاء مطهرة ويسير في أثرهم أهل الميت وأصدقاؤه الى «الرخما» أو بيت الصمت أو مقبرة المجوس أو البرج المقدس.

28 ـ الموت: يعتبر الموت غلبة الأرواح الشريرة. فلذلك يحرّم تماس الموتى. وتقرأ الأدعية لطرد تلك الأرواح. ان من أعظم الخطايا في دين زرادشت هي خطيئة دفن الميت في القبور وفي الظلمات تحت التراب أو إلقائه بالماء الجاري أو الراكد أو إحراقه بالنار. واذا ما حصل موت في بيت ما يحرّم إيقاد النار في الشتاء تسعة أيام وفي الصيف ثلاثين يوماً. ولما كان إحراق الجثث يلوث النار ودفنها يلوث التراب فيجب إبقاء الجثث في برج مرتفع مقابلاً لنور الشمس وناظراً الى الشمس وتحت تأثير الرياح والأمطار التي يرسلها هرمزد حتى تطهر من الأرجاس والآثام. ويسمى هذا البرج الذي هو بمثابة مقبرة المجوس الرخما أو بيت الصمت وقد سبق ذكره. وفي بومباي عدة أبراج من هذا النوع على قمم تلال «ملابار» بين حدائق غنّاء وأشجار تحتشد العقبان والنسور فوق أغصانها. والبرج عادة بناء من الحجر يرتفع عن الأرض ثماني أقدام والى جانبه باب للدخول. فمتى وصل موكب الجنازة الى البرج انزل النعش حاملوه وتقدموا به الى مذبح النار حيث تتلى على الجثة الصلاة ثم تنقل الى مرقدها الاخير في البرج. ولا تكاد الجثة توضع في وسط البرج حتى تنقض عليها العقبان والنسور تنهش لحمها والكلاب تجرّد عظامها، وعندما تستهلك الجثة تجمع العظام في مستودع مبني بالحجارة والجص ويسوى ذلك التراب. وان الذي يسوى تراب جثته، يكون قد غفرت له ذنوبه، ما تقدّم منها وما تأخر. ان هذه العادة كانت مستحكمة بين قبائل البختاريين والهيكارنيين والبارتيين. وأما في زمان دارا وكيخسرو فكانت تغطس جثث الملوك والحكام والأمراء وأرباب الثراء في مائع شمع العسل، وبعد انجماد الشمع تدفن.

ويعد أن يسوى التراب يعود أهل الميت الى البرج ويدخلون مذبح النار الخالدة المسمى «انش بهرام» ويقف الكهنة أمام النار المقدّسة الموقدة ويصلّون على روح الميت الصلاة الأخيرة ثم يتقدّم ولد الميت الأكبر أو وريثه ويقسم بأنه يقوم بكل الطقوس اللازمة للميت، ثم يناول الكاهن قائمة التبرعات التي كتبها أهل الميت عن روحه. ويشيد في منزل الميت لذكراه قبر من حديد مشبك توضع فيه الأزهار وأواني الورد الفضية. ويصلي أهل الميت أمام هذا القبر ثلاث مرات كل يوم لتنعم روحه بالراحة الأبدية ويتسنى لها «عبور الصراط» الذي يقودها الى اهورا مازدا في جنة الخلد.

29 ـ **الحيوانات المقدسة**: كان للإيرانيين الحيوانات المقدسة أيضاً يعتبرونها خاصة للإله اهورا مازدا وهي: القنفذ والديك والطير والكلب. يقول اهورا مازدا في كتابه الزنداوستا بحق القنفذ انه يهلك النمل الذي يسرق الحبوب. وعن الديك انه ينبه الناس بصوته العذب الجهوري لأجل الصلاة. وعن الطيور انها تأكل الجثث. ويقول بحق الكلاب: لقد خلقت الكلب بعزم قوي فهو يصدق صاحبه، ويحافظ على القطعان الغنمية، ويهجم على الأعداء ولا يمكن للذئب أو اللص أن يقترب من القطيع عندما تكون صحته جيدة وصوته خشناً. اما الحية والعقرب وأبو سام والذباب والبرغوث والضفدع والفأر والنمل... فهي من مخلوقات اهرمن، ومن الحيوانات الضارة الواجب إهلاكها. فيجب مكافحة أمثال هذه الحيوانات المضرّة وإبادتها، وخلافاً لذلك، بذل العناية بتربية الحيوانات المفيدة والصالحة. وعندهم إهمال الكلب وتركه جائعاً بدون غذاء خطيئة تستوجب العقاب، بل وتعتبر معالجة الكلب عند مرضه من الواجبات الدينية. ويكون عقاب الرجل الذي يضرب كلب راع فيسبب هلاكه سبعماية سوط، والذي يقتل كلباً سائباً خمسمائة سوط، وضرب جرو كلب ثلاثمائة سوط[1].

30 ـ **الشمس عين الإله ميثرا**: واذا كانت أسس الدين الزرادشتي ترتكز على الطهارة والنظافة والفضائل والمكارم الاخلاقية والتعاون في الاعمال الخيرية، فمن المحقق أنه قد لا يتمسك بهذه القواعد الدينية إلا قسم ضئيل من الناس، وأما العوام فلا يعلمون عنها سوى عبادة الشمس والنار، باعتبار انهما مصدر النظام الطبيعي. ولما كان الاعتقاد عندهم هو ان الشمس هي عين الاله «ميثرا» وهي التي قد تنشر النور والحرارة والضياء على العالم، فيجب والحالة هذه عبادة هذا الإله لآثاره الملموسة والمحسوسة.

31 ـ **ربة الفيض والبركة**: اعتبر الفرس كذلك الآلهة «اناهيداردويسورا» ربة الفيض والبركة والزراعة والمحصولات الطبيعية، وان حرث الأرض وفتح الترع والإرواء بمثابة عبادة صامتة لها. فكان من أقوى العبادات في الديانة الزرادشتية وأهمها زرع القمح وتعمير البساتين وغرس الأشجار وكل ما يتعلق بالزراعة والفلاحة. ويعتقدون انه لا يمكن لبشر ان يقوم بعبادة الإله وبطنه خاوية من الطعام وهو

(1) تنبهت الحكومات الاميريكية في زماننا هذا الى العناية بالكلاب فأصدرت تشريعات تقضي بغرامة أقصاها خمسمئة دولار والحبس مدة أقصاها سنة على من يقتل كلباً أو يصيبه بكسر أو بعاهة أو يعطيه سماً بقصد قتله. كما انه يعتبر التخلي عن الكلب في الطرقات عملاً يقع تحت طائلة القانون. وكذلك إثارة معركة أو صراع بين الكلاب غرامته أقصاها ألف دولار أو بالحبس مدة أقصاها سنة. وعلاوة على ذلك ان بعض الولايات الاميريكية تصرّ على أن يتمتّع الكلاب بحماية القانون شأن البشر تماماً. وقد دلّت الإحصاءات انه يوجد في أمريكا 22 مليون كلب.

يشكو ألم الجوع. فمن لم يزرع ويحصد ويأكل ويشبع يكون قد أعان اهرمن على هلاك العالم. ولذلك كان الصوم عندهم من المحرّمات.

32 ـ **آلهة حديثة:** أدخل على هذه المعتقدات بمرور الزمن معتقدات حديثة أثّرت في الدين الزرادشتي نفسه، بل كان لها أبلغ الأثر في دين الحكومة الرسمي. وقد عثر على كتابة خلّفها اردشير الثاني ملك العجم في المعبد الذي أنشأه دارا ووسّعه اردشير الاول، فيها تصاوير الآلهة ميترا واناهيد وهوما وغيرهم من الآلهة الحديثة المدخلة على الدين الزرادشتي والمسبّبة لخروجه وابتعاده عن قواعده الأساسيّة.

وانتقل هذا الدين الإيراني بشكله المنسوخ الى ارمينية وقبادوكيا. وفي زمان حكومة الاشكانيان رجع الناس الى «اهورا مازدا» وزال اثر الآلهة الآخرين.

33 ـ **ملة تهاجر الى الهند:** عندما انتشرت الديانة الإسلامية في ربوع إيران وكافحت المجوسية بجميع قواها في كل مكان، انتقلت بقايا هذه الملة ويسمون البارسيين، من بلاد العجم الى الهند وسكنوا فيها تخلّصاً من الاضطهاد. وما زالوا كما كانوا يعبدون الشمس والنار الإله الواحد. يقول بعض السيّاح الأوربيين الذين سكنوا في تلك الديار انهم لا يشركون في عبادتهم اهرمن كما كان يفعل أجدادهم الأقدمون. وقد وصلوا الى التوحيد. ويقال انهم ما زالوا يبنون مقابرهم على ترتيب يوافق معتقداتهم السابقة التي وضعها زرادشت فيضعون الموتى فوق سطح برج عال مبلط وعلى لوح من الحجر عار مكشوف للشمس. وتكون هذه الألواح الحجرية على ثلاثة صفوف للرجال والنساء والاولاد، وتبقى تلك الرمم تحت حرارة الشمس وهطول الامطار الى ان تأكلها الطيور والوحوش البرية وتبلى، فيطرحون العظام في حفرة أو بئر عميقة معدة لهذه الغاية كما سبق بيانه. ويزعمون ان الشمس وحرارتها تطهر هذه الأجسام من دنس الخطيئة فتدخل النعيم مطهرة مقدسة. ومن ثم، يقال ان لم يبق في بلاد العجم من يدين بهذا المذهب إلا نحو من أربعمئة عائلة في نواحي يزد من جنوبي خراسان في إيران ولهم هيكل على رأس جبل هناك يحفظون فيه النار المقدّسة حتى الآن.

34 ـ **الديانة المثرية:** قبل الانتهاء من هذا البحث لا بد لنا من إعطاء بعض التفصيلات عن ديانة مثرا التي سادت نحو ستة قرون وانتشرت من إيران الى مصر ومنها الى روما واليونان ووصلت حتى جزيرة بريطانيا. كان الإله «مثرا» من آلهة الآريين يدين به الهنود والفرس والطورانيون كافة، وقد جعله الفرس إله الشمس والنور والحق والعدل والكون وخالق الإنسان وعدو اهرمن وقاهره. وكان قد كاد اهرمن للإله مثرا وهو طفل بأنواع الحيل والدسائس لإهلاكه، كما كان قد كاد لزرادشت أيضاً في طفولته، فلم ينجح في كلتا الحالتين فأرسل مثرا على الأرض طوفاناً ليغسل بها أعمال الشر التي صنعها اهرمن ولم ينج من الغرق إلا «يما»، نوح الطوفان عند الفرس، مع آله وأنعامه، فتجدد بذلك منهم نسل الإنسان والحيوان. فكان ذلك الطوفان الفارسي.

ويعتقد أصحاب هذه الديانة ان مثرا مصلح عظيم بين الله والإنسان وقد ولد في كهف في 25 ديسمبر «كانون الأول» وهو يوم الانقلاب الشتوي. فقد تصل الشمس الى نهاية انحدارها يوم 23 ديسمبر وتتوقف بمكانها يوم 24 وتشرع بالنهوض والاعتلاء يوم 25 ديسمبر وهو يوم تخلّصها من

قبضة اهرمن، وهو رمز ولادتها ويوم ميلاد مثرا من أم عذراء. ونشأت عبادته في المغاور والكهوف ورمزه النور والشمس ومات في سبيل خلاص البشر ودفن وقام مرة ثانية من القبر وأحيى عند قيامته باحتفال عظيم. وكانت أعياده يوم الانقلاب الشتوي، 25 ديسمبر وهو يوم ولادته، ويوم النوروز (الاعتدال الربيعي) وهو يوم قيامته. ويوم الأحد، وهو يوم الشمس Sun Day من كل أسبوع، ويسمى يوم إله الخلاص والمخلص، وله معمودية والعشاء الرباني، وذلك ان أتباع مثرا يجتمعون الى وليمة دينية يأكلون فيها ويشربون رمزاً لاتحادهم بمثرا.

وكان لأتباع الإله مثرا سبع درجات للوصول الى درجة العارفين. وكلما انتقل المريد من درجة الى أخرى يتناول في وليمة كسرة من الخبز المقدّس وهو بمقام العشاء الربّاني، يمسح بالماء الطاهر، وهو بمقام المعمودية. وقد فرض مثرا الفضيلة وعمل الخير ومعاونة الفقراء والبؤساء على اتباعه.

35 ـ **المسيحية ترث المثراوية:** كانت هذه الديانة في أوائل القرن الثالث الميلادي منتشرة في كل مكان من العالم المتمدّن. ولما كانت حكومة إيران الرسمية في هذا العهد قد هرمت ووهنت ولم يكن في استطاعتها حماية الديانة المثرية ودعمها بالقوة، كان أباطرة القسطنطينية يحمون الديانة المسيحية والقسس والمطارنة ويسعون لنشرها بين الناس، فأخذت المثراوية بالتقلص والمسيحية بالامتداد. ولم يكن انتقال أتباع المثراوية الى المسيحية أمراً صعباً، فالعقائد والطقوس والأحكام الدينية كلها متشابهة والمسيح نور العالم ومثرا إله النور حتى ليخيّل للناس ان الواحدة مشتقة من الأخرى. فلذلك تغلّبت الديانة المسيحية تدريجياً وبسهولة على الديانة المثرية في البلاد اليونانية والرومانية فزاحتها حتى رفعتها من الوجود وحلّت محلّها. فكان المسيحيون يمجّدون السيد المسيح في الأيام التي كان عباد مثرا يمجدون فيها مثرا إله الشمس وذلك إطمئناناً لعواطف الناس وتسهيلا لجلبهم الى حظيرة الديانة المسيحية.

وكان لما ظهر زرادشت وجاء بالثنائية القائمة على إلهين اثنين ولم يكن بمقدوره محو دين مثرا من بين أتباعه اعتبر مثرا مساعداً لاهورا مازدا إله النور وأبقاه محترماً بمكانه.

36 ـ **الديانة المانوية:** أما المانوية فهم أصحاب ماني بن فاتك الحكيم. ولد حسب تقدير البيروني عام 215 م. وظهر في زمان شابور بن اردشير ثم قتله بهرام ابن هرمز ابن شابور، وقد أحدث ماني ديناً بين المسيحية والمجوسية والكلدانية القديمة فانتشر دينه في حوض البحر المتوسط وفي سائر المملكة الرومانية. وكان هذا الدين خطراً على الديانة المسيحية لإنكاره المعتقدات الأساسية الكنسية وفي نظرته الى طبيعة السيّد المسيح وإنكاره ولادته ووجوده وتجسّده.

ذكر الشهرستاني ان ماني كان يزعم ان العالم مصنوع مركّب من أصلين قديمين: النور والظلمة. وانهما أزليان لم يزالا ولن يزالا، وأنكر احداث شيء من لا شيء وقال إن النور والظلمة قوّتان حسّاستان سميعتان بصيرتان، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادتان، وفي الحيّز متحاذيان تحاذي الشخص والظل. ويزعم ماني ان الظلمة والشرور وما يتعلّق بهما سقط الى أسفل والنور وجوهره صعد الى القمر ومنه الى الشمس. وبمرور الزمان تتخلص العوالم من شرورهما وتكون نوراً صرفاً. ومن الواجب معاونة الطبيعة بالصلوات الأربع في اليوم والليلة، والدعوة الى الحق

وترك الكذب والقتل والسرقة والزنا والبخل والسحر وعبادة الأوثان وأن لا يأتي على ذي روح ما يكره أن يأتي إليه بمثله للوصول بسرعة الى انتصار النور وإخفاق الظلام. وكان ماني قد نشأ في القرن الرابع الميلادي على دين المجوس، ودرس الدين المسيحي وألّف كتاباً بين المسيحية والمثرية سمّاه «ارتنغ» أي الانجيل أراد به إحداث ديانة مسيحية جديدة. وقد جعل جماعته ورهبانه على قسمين، وادعى انه نزل من السماء ليكمل الديانة المسيحية التي اعتبرها ناقصة، وأيّد الأعمال التي صدرت عن مثرا إله الشمس والنور، وقال بالأصلين اللذين أحدهما المادة الشفّافة اللطيفة وهي النور المستولي على إله الخير، والثاني المادة الكثيفة وهي الظلمة التي هي من عمل إله الشر. فالأجسام البشرية ناشئة من المادة الكثيفة وهي من خلق اهرمن، والأرواح ناشئة من المادة الشفّافة والخير، وان من الحكمة أن يقمع الإنسان الشهوات ويخلص الروح من سجنها الكثيف. وقد ناظره موبذ موبذان إيران بحضور الملك بهرام ابن بهرام في مسألة قطع النسل وتعجيل فراغ العالم لتخليص الروح من سجنها ورجوع كل شيء الى أصله، وان ذلك حق واجب. فقال ماني نعم ان ذلك حق واجب ومن الواجب أن يعان النور على خلاصه بقطع النسل مما هو فيه من الامتزاج. فقال الموبذان من الحق الواجب أن يعجل لك هذا الخلاص الذي تدعو إليه، وعندما انقطع ماني عن الجواب أمر الملك بهرام بقتله فقتل هو وجماعته من أصحابه ولم يظهر له أصحاب وجماعات ومرده وأتباع ينشرون دينه من بعده.

37 ـ **الزروانية**: ان الإله الأعظم الواحد الأحد عندهم هو الإله «زروان». يقول الشهرستاني «ان الإله شكّ في شيء من الأشياء فحدث اهرمن من ذلك الهم وحدث هرمز من العلم فكانا جميعاً في بطن واحد. وكان هرمز أقرب من باب الخروج فاحتال اهرمن حتى شقّ بطن أمه فخرج قبله وأخذ الدنيا. ولما مثل بين يدي زروان فأبصره ورأى ما فيه من الخبث والشر والفساد لعنه وطرده فمضى واستولى على الدنيا».

38 ـ **المزدكية**: وأما المزدكية فصاحبها مزدك. ظهر في أيام قباد والد انو شروان ودعا قباد الى مذهبه فقبله هذا الأخير في بادىء الأمر الى أن اطلّع عليه فطلبه وقتله. ان قول المزدكية هو كقول المانويه في الكونين والأصلين. إلا ان مزدك يقول ان النور يفعل بالقصد والاختيار، والظلمة تفعل على غير هدى بالخبط والاتفاق. والنور عالم حسّاس، والظلام جاهل أعمى. وكان مزدك ينهي الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال. ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال فأحلّ النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والهواء والنار والكلام. يقول الشهرستاني: روي عن مزدك ان معبوده قاعد على كرسيه في العالم الأعلى على هيئة قعود خسرو في العالم الأسفل وبين يديه أربع قوى، قوّة التعبير والفهم والحفظ والسرور وتلك الأربع تدير أمر العالم بسبعة من وزرائها. وهذه السبعة تدور في اثني عشر روحانيين: خوانندہ، دهنندہ، ستانندہ، برندہ، خورندہ، دوندہ، خيزندہ، كشندہ، زنندہ، كنندہ آيندہ، شوندہ، بايندہ، وكل إنسان اجتمعت له هذه القوى صار ربّانياً في العالم السفلي وارتفع عنه التكليف.

39 ـ **الكيومرثية**: كان المجوس منذ القديم قد أثبتوا أصلين قديمين يقتسمان الخير والشر أحدهما النور

وثانيهما الظلمة كما مرّ أعلاه. ثم ظهرت فرقة منهم تقول ان الأصلين المذكورين لا يجوز أن يكونا قديمين بل النور أزلي والظلمة محدثة من النور. وظهرت فرقة منهم اخرى تدّعي ان النور لا يحدث شراً جزئياً، فكيف يصدر عنه أصل الشر. فظهر كيومرث وقال ان يزدان وحده أزلي قديم وان اهرمن إله الشر محدث مخلوق، وقال ان يزدان فكر في نفسه انه لو كان لي منازع كيف يكون ذلك، فحدث الظلام من هذه الفكرة الرديئة المخالفة لطبيعة النور وسمى اهرمن، وكان مطبوعاً على الشر والفساد، فخالف يزدان وجرت بينهما محاربة ثم جرت مصالحة على أن يكون العالم العلوي ليزدان والعالم السفلي لأهرمن لمدة سبعة آلاف سنة ثم يسلّم اهرمن العالم السفلي الى يزدان ويكون العالم كلّه نور وكلّه خير وبركة. وفي كتاب الملل والنحل للشهرستاني تفصيلات أخرى عن هذه الديانات والمذاهب وخاصة عن الديصانية والمرقونية والصيامية وأصحاب التناسخ نضرب صفحاً عنها.

الفصل الثاني الثنوية في أوروبا

1 ـ كانت عبادة إله الشمس «مترا» قد انتقلت من إيران الى اليونان فسمى الإله مترا باليونانية «أبو اللون» أي إله الشمس والخير، ثم انتقلت الى روما ومنها الى أنحاء أوروبا حتى وصلت جزيرة بريطانيا. وكافحتها مؤخراً المسيحية عند انتشارها حتى أبادتها من الوجود وحلّت محلّها ولم تترك لها أثراً في أوروبا.

2 ـ **إلها الخير والشرّ:** في أواخر القرن الحادي عشر ظهرت للمرّة الثانية فكرة إلهي الخير والشر في جنوب أوروبا واجتاحت فرنسا. وكان القائمون بنشرها جمعية فرسان المعبد Les Templiers. وبينما كانت قد تأسّست هذه الجماعة في بادىء أمرها لخدمة الحجّاج الذين يقصدون البيت المقدّس اصبحت بمرور الزمن خوارج على النصرانية لا يؤمنون بألوهية السيّد المسيح فاعتنقوا المانوية أو الثنوية. ونظريتهم هي كالتي عند اليزيديين القاطنين في لواء الموصل، وهي أن إله الخير الساكن في السماء كله خير لا يصدر عنه شر ولا يصل إليه البشر. أما إله الشر الساكن في الأرض فهو كلّه شر لا يصدر عنه خير وهو منظّم العالم المادي وإلهه وسيّده. وعلاوة على ذلك انهم أصبحوا يعتقدون خلافاً للدين اليزيدي، أن استجلاب رضا إله الشر ليس بالأعمال الصالحة إنما بارتكاب المخالفات الشرعية وعمل الشرور، وإجراء كل ما يحبه الشيطان ويرضاه. ولما كان هو الذي خلق الشر فيطلب من أتباعه عمله وفعله دائماً. فكانت هذه الجماعة قد بدأت بعمل الخير وانتهت بأعمال الشر وبتقويض النصرانية ومبادئها الدينية والأخلاقية.

3 ـ **جمعية الألبيين:** أعقبت جمعية الفرسان جمعية الألبيين Albigensis نسبة الى «ألبي» إحدى المدن التي كانت مركزاً للجمعية. كان هؤلاء نصارى بالظاهر ثنويين أو مانويين بالخفاء. فكانوا يرتكبون ويقترفون كل رذيلة، ويحلّون الزنا والسلب والنهب واغتصاب الأموال وكل عمل خبيث. وانضم تحت لواء الجمعية فلول الملحدين والوثنيين والسحرة والأفّاكين وكل ناقم وكل مضطهد في كل ناحية من نواحي أوروبا، فانتشرت الإباحية والتسري واجتاح الفجور معظم الطبقات وسقطت الأخلاق الى الحضيض وسحقت سيادة الكنيسة وهيبتها. وكان لهم رسوم جديدة للعبادة تعرف بالقدّاس الأسود.

كان من تعاليم هذه الجمعية الانضواء تحت لواء إله الشر والظلام أو ابليس أو الشيطان الذي هو عدو لدود لإله الخير. وبما انهما متساويان ومتكافئان بالقوّة والقدرة، وان إله الشر أيضاً كإله الخير أبدي أزلي يفعل ما يريد، فإنه لا يهاب إله الخير ولا يهتم به ولا يحسب له حساباً. وكان الدعاة يقيمون طقوسهم الدينية في الغابات الكثيفة ورؤوس الجبال أو في الوديان العميقة حيث يهرع إليهم تلاميذهم وكل ساحر وجاحد وكل شرير وخارج على الأنظمة الكنسية من كل حدب وصوب. ويقال إنهم كانوا يسقون تلاميذهم المخدرات فينقلونهم الى جنّات فيها ضروب من النساء العاريات، وكلما لذّ وطاب، ويوهمونهم بأن كل ما شهدوه في عالم الشيطان وفي جنّته ستكون للمخلصين من عباده.

4 ـ **عناصر شيطانية:** وفي القرن الرابع عشر الميلادي اتخذت التعاليم الثنوية وجهة جديدة في أوروبا وهي التوسط بإله الشر لمحاربة إله الخير والتوسّل بإله الظلام لسحق إله النور والتمسّك بالسحر الأسود في العبادات. والفكرة العامة هي التدنيس في كل شيء وفي كل عمل فلا تقبل شعائر الشيطان ما لم تدنّس وتحقّر شعائر إله الخير وسحق أقدس رموزه وشعائره وطقوس عبادته. فاجتاحت هذه الفكرة عقلية المجتمعات الأوروبية من أقصاها الى أقصاها وحطّمت التعاليم والعقائد الكنسية من أساسها. وما لبثت الكنيسة تطاردها وتكافحها بكل قوة وعزم حتى تغلّبت عليها فذهب ضحيّتها كثير من العلماء والكيميائيين والمخترعين وأرباب العلوم والفلسفة والفنون والنابهين بتهمة ميلهم الى السحر وعبادة الشيطان. وكان العلم، وكل ما هو مخالف للكتاب المقدّس يعتبر من العناصر الشيطانية. فكل عالم ومفكر أصبح معرّضاً للريب والشبهات وحياته للخطر. وكان قائد هذا المذهب المارشال جيل دي رتز. ولما أخفق هذا المارشال بمحالفة الشيطان بالمراسلة عكف على استرضائه والتسول إليه بأشنع ضروب التدنيس فأقام مع صحبه ورفاقه الرسوم والشعائر السوداء وأمعن بالفسق والفجور وصنوف الرذائل وخطف الأطفال من بنين وبنات حتى ألقي عليه القبض وأعدم وأحرق.

5 ـ **عبدة الشيطان:** ما لبثت الثورة على النصراينة في تلك القرون تضطرم في أنحاء أوروبا الجنوبية كافة واتخذت التعاليم الثنوية وجهة جديدة، فلا تكمل شعائر التوسل بالشيطان ما لم تدنس شعائر إله الخير وتسحق أقدس رسومه وتدنس كذلك رسوم الكنيسة. وكانت عبادة إله الظلام أو الشيطان مقرونة مع الاشتغال بالسحر والأعمال الشيطانية والخزعبلات وجلب الأرواح الشريرة وهدم تعاليم النصرانية الروحية ومبادئها الأخلاقية وكل من يقوم بهذه الأعمال يكون قد قبل سيادة الشيطان. وعندما نشطت السلطات الدينية والمدنية في القرن الخامس عشر أحرقت في جنيف خمسمائة ساحر وفي «جان بورج» ستمائة وفي فرتمبورغ ثمانمائة، وحكمت محكمة طولوز بقرار واحد بإحراق أربعمائة ساحر أو عابد شيطان. ويقول المؤرخ «جان بودان» ان عددهم كان يبلغ في أوروبا مليونين.

6 ـ **جمعية الصليب الأحمر:** وأما جمعية الصليب الأحمر Der Rosenkreuzer التي انتشرت أيضاً في أوروبا، خاصة في بروسيا الشرقية وبولندا في أوائل القرن السادس عشر، فكانت نزعتها الروحية كما يلي:

إنكار إله الخير أو الله وعبادة إله الشر وهو الشيطان والطعن بالتثليث، وتحقير العذراء وجميع القدّيسين، والتحالف مع الشيطان وتركيب السموم والرقص مع الشياطين... إلخ!!

ومما لا شبهة فيه ان مؤسّس هذه الجمعيات في أوروبا والداعين لها أكثرهم من اليهود وذلك بقصد سحق هيبة الكنيسة المسيحية وتضليل العالم المسيحي.

7 ـ **ابليس:** وأما في الشرائع السماوية فقد ذكرت التوراة شيئاً عن شجرة معرفة الخير والشر عندما كان آدم في الجنة، وعطفت فعل الشر على الحية ولم تذكر شيئاً عن إبليس والشيطان حتى زمن النبي أيوب، ففي هذا الدور ذكرت شيئاً عن تسلطه على أموال النبي أيوب: من ماشية وأولاد وغلمان وجوارٍ وخدم، وبالأخير على جلده ولحمه وعظمه سوى نفسه برضاء من الله ولا يوجد ذكر للشيطان في شريعة موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل سوى ما هو عائد للنبي أيوب المار ذكره.

وذكرت الأناجيل تقرب إبليس بضع مرّات من السيّد المسيح لإغوائه ولم يفلح.

وقد أطنبت الديانة الإسلامية في بحثها عن إبليس، واعتبرت انه كان ملكاً مخلوقاً من نار فأمره الله أن يسجد لآدم فأبى فطرده من جواره ولم يشأ إزالته من الوجود رغم عصيانه، وجعله من المنتظرين الى وقت معلوم. وفيها مغزى التنازع بين عمل الخير والشر في الطبيعة البشرية لا يمكن رفعه في الأحوال الحاضرة.

8 ـ **الجان والشيطان:** كان عرب الجاهلية يعتقدون بالجان والشياطين، ولعلّها تسرّبت إليهم من الكلدانيين. وكانوا يسمون الذكور من الشياطين «زوبعة» والأناث «تابعة». ولابن شهيد الأندلسي كتاب «الزوابع والتوابع» فيه الكثير عن أحوال الجان والشياطين.

9 ـ **خدا وطاووس الملك:** قال لي أحد شيوخ اليزيدية ان خدا، وهو اسم الله عندهم، كله خير لا يصدر عنه شر. ولو لم يكن طاووس ملك، وهو اسم الشيطان عندهم، يعادل خدا بقوّته وقدرته ونفوذه وعظمته وجبروته لما امتنع عن السجدة لآدم. فهو لا يخاف من إله الخير ولا يهابه أبداً. وماذا كان من خدا بعد ذلك الامتناع؟ لم يكن من شيء. إنما طاووس ملك هو هو، يتدخل في كل كبيرة وصغيرة، ويفعل كل شيء. ولذلك نخاف من شره ونسترضيه بعبادتنا له. فضحكت منه.

وقد دافع الحلاج عن إبليس الذي اعتبر السجود لغير الله شركاً. ويقول الحلاج لقد قضت مشيئة الله أن يعصي أمره فأطاع المشيئة الإلهية وثبت على مبدأه التوحيدي وما رجع عن دعواه. فهو أفضل مخلوق دافع عن التنزيه الإلهي.

10 ـ **الثنوية:** قضت الديانة الإسلامية بالشرق على الثنوية ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين إثنين إنما هو إله واحد وإياي فارهبون﴾ (النحل) ولم يبق من معتنقيها الا طوائف قليلة مبعثرة في الموصل وإيران والهند والقوقاس.

11 ـ **الخير والشر والفلسفة:** ما هو الخير والشر من الوجهة الفلسفية؟ كل عمل أو حركة تورث الخلل فتستوجب الفساد بالسعادة البشرية وراحتها ورفاهها هي الشر؛ وكل عمل أو حركة أو فعل يعاون بحصول السعادة البشرية وراحتها ورفاهها هو الخير. فقد تحصل السعادة البشرية بالاحترام المتقابل وبالحقوق المتساوية بين أفراد البشر. ويحصل الشر من الأنانية المفرطة التي تستوجب الضرر بالنفع العام. وكلما قطع الإنسان شوطاً في مضمار التمدّن ترك من أنانيته شيئاً للمجتمع العام فيقل الشر ويكثر الخير. وما الأنانية إلا حب الذات والتمسّك بالنفع الشخصي قبل النفع العام. وما من بشر إلا وفيه شيء من الأنانية لا يمكن أن يسلم منها. فإن التمدّن الحقيقي هو التنازل عن النفع الخاص لمنفعة البشر وبذلك تحصل السعادة المشتركة للجميع. وقد يتمكّن الفرد من تأمين منافعه الخاصة دون أن يضر بغيره. وإذا حصلت هذه فلا بد أن الجرائم ستقل بين أفراد البشر وترتفع الإختلافات الدينية والدولية وبالنتيجة الحروب.

قلت: ان الخير والشر هما من الأمور النسبية عند البشر. واذا كان الشر اسماً جامعاً للآثام والرذائل والجرائم الدينية والأخلاقية المخالفة لمعتقداتنا وعوائدنا وشرائعنا، فإن كثيراً من أمثال هذه الأفعال والأعمال التي نعتبرها من الشرور موافقة لعوائد غيرنا وشرائعه. فإذا كان قتل الأب الشيخ أو

الأم العجوز وإحراق الأرملة بالنار تعد من أعظم الجرائم وأعظم الرذائل وأشنع الأفعال والشرور عندنا فانها كانت مفخرة عند أهالي جزائر البورنيو في الأولى وعند الهنود في الثانية. وإذا كان الغيث يعتبر خيراً ومن رحمة الله عند أصحاب المزروعات الشتوية المطرية، فإنها شر عند أصحاب حقول الأقطان والمزروعات الصيفية. وإذا كان الزنا محرّماً في جميع الأديان فهو الحب عند البعض من الأمم وقد يعتبر مباحاً شرط أن لا يكون ببدل مادي. وإذا كان الكذب ممنوعاً في الدساتير الأخلاقية عند الأمم والأقوام كافة فقد يجلب الخير عند السياسيين والمرابين. وإذا كانت سرقة الكسرة من الخبز لسد رمق الجوع تعتبر جريمة ومن أعمال الشر فإن سرقة نفط الأمم والأقوام الضعيفة ببدل زهيد جداً يعتبر عند الغاصبين من أعمال الخير. وقد تكون المصائب عند أقوام أخر فوائد، وقد ينعت الغالب في الحرب قوى عدوه المغلوبة «قوى الشر». وقد يعتبر الهواء البارد في الصيف خيراً وفي الشتاء شراً. وأما ما يتعلق بالشرور المتحصّلة من البطن والفرج فهي غريزية يرجع ترسيخها الى تكوين العالم العضوي، وما الشر فيهما إلا مخالفة أحكام الشرائع وتجاوز حدود القوانين. فكان الخير والشر يختلفان باختلاف العادات والأخلاق والزمان والمكان والأمم والأقوام.

12 ـ **الله خير محض**: وأما الخير والشر عند المتكلمين فهم يقولون: هل الشر موجود أو غير موجود؟ فإذا قيل إن وجود العالم من وجود الله فإن الله منزّه عن الشر. وإذا قيل إن العالم محدث فمعناه ان الشر محدث، والمحدث لا يكون إلا بإرادة المحدث. وإذا قيل ان أفعال البشر كافة من فعل الله فمعناه ان الشر مخلوق لله. هذا مع العلم ان الله خير محض لا يصدر عنه الشر ولا يأمر به.

الفصل الثالث الشمس ومركزها في الكون

﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ (القرآن الكريم)

1 ـ استحم الفيلسوف بنور الشمس لعلمه بما تصدره من القوى المادية، وعبدها العالم لأنها مصدر الحياة للحيوان والنبات، وعبدها الجاهل لأنها تدفئه من زمهرير الشتاء، وعبدها الكاهن لأنها مقر إله الخير والبركات، وعبدها الفلاح لأنها تنمي زرعه وتنضج غلّته... والكل يعتقد بانه لولاها لما كانت الحياة فوق سطح الأرض. فهي المحيي وهي المميت وهي التي تهب الحركة والنشاط والقوة والحياة الى الحيوان والنبات.

ولما كان لكل من الأمم والأقوام القديمة إله يسكن في الشمس وقد اشغل قرص الشمس أفكار البشر مدة طويلة من الزمن، فكان لزاماً علينا إتماماً للبحث ان نذكر بعض المختصرات عن السماء وموقع الشمس من الكون وكل ما مس الأمر شيئاً عن علم الفلك الحديث للوقوف على حقيقة قرص الشمس وماهية النور اللذين عبدهما البشر آلاف السنين.

2 ـ نجد في زماننا هذا حتى طلاب المدارس الابتدائية والأطفال يعلمون ان السماء ليست قبة فوق الأرض، معلّقة فيها النجوم، وأن الكواكب ليست مصابيح لتنوير طرق السماء، وأن الشمس ليست مقراً للآلهة، والقمر ليس أول منزل للأرواح الصاعدة من الأرض، ولم يكن نوره مقتبساً من نور الأرواح الساكنة فيه، وليس لكل مولود نجم خاص بالسماء يشتغل بمقدار وينطفىء بمقدار تبعاً لسعد الرجل ونحسه.. ولم تكن الكواكب آلهة أو مقراً للنفوس الإلهية أو للأرواح الصالحة من البشر أو للعقل الفعّال. وان الخسوف والكسوف لم يأتيا من ابتلاع الحوت السماوية القمر والشمس. ولم تكن السماء من المادة الصلبة وليس لها أبواب للولوج فيها والخروج منها إنما هي فضاء سحيق لا يعلم منتهاه، تسبح فيه ملايين المجرات السماوية ولكل مجرة ملايين الملايين من الأجرام السماوية. وما شمسنا إلا جرم واحد متوسط الحجم من أجرام المجرّة التي ننتسب إليها، وان التي نراها بالعين المجرّدة من النجوم في كبد السماء، وهي لا تزيد على الستة آلاف نجمة، لا تعد شيئاً مذكوراً بالنسبة الى التي لا نراها بنظرنا من مجرتنا، وان نجماً منها نراه في أعماق السماء ضئيلاً قد يكون أكبر من شمسنا مائة ألف مرة لا ترى شمسنا منها لصغر حجمها بالنسبة لبعدها الشاسع عنه. وما الثوابت التي نراها في السماء الا شموس منبثة في طول الفضاء وعرضه وجميعها من المجرة التي تنتسب إليها شمسنا. وقد يكون لكل من تلك الشموس سيارات وتوابع وأقمار تدور حولها كالسيارات التي تدور حول شمسنا وكالأقمار التي تدور حول سياراتنا وجميعها لا ترى لبعدها. وهناك ملايين المجرات ترى بعضاً منها كالسحاب المضيء لا تزيد على لطخة في كبد السماء، والقسم الأعظم لا ترى بالعين المجرّدة لبعدها.

وان الفضاء الموجود بين منظومتنا الشمسية وأقرب نجم ثابت إليها قد يسع بضعة آلاف من السنين. وإذا ما كانت شمسنا أكبر من الأرض مليون مرة تقريباً فان النجم المسمى «ابط الجوزاء» في برج الجبار اكبر من شمسنا بسبع وعشرين مليون مرة، وما الأرض التي نحن عليها بالنسبة للأجرام الأخرى إلا ذرّة صغيرة أو ذريرة في هذا الكون.

ويقول العلماء ان أضعف ضوء نشاهده الآن في السماء بدأ رحلته منذ 140 مليون سنة.

وكما ان الثوابت والشمس والسيارات تظهر لنا انها في السماء، فإن الأرض نفسها هي أيضاً بالسماء بالنسبة لغيرها، والكل يسبح في هذا الفضاء منذ ملايين من السنين والى ملايين السنين.

3 ـ ثبت عند الفلكيين ان الشمس ومنظومتها معها تجري في مستقر لها ـ ذلك تقدير العزيز الحكيم ـ حول قطب المجرة التي تنتسب إليها وقد تكمل دورتها السنوية في 300 مليون سنة لتعود الى الموضوع الذي بدأت منه في رحلتها في بدء سنتها.

ان اكثر النجوم المرئية في السماء وحتى السحاب المضيء المسمى «درب التبان» هي من مشتملات مجرتنا. وتتكون هذه المجرة حسب تقدير الفلكيين من مائة ألف مليون نجمة، الصغيرة منها والكبيرة. وطبعاً لا يمكن ان يتميز منها سوى الكبيرة التي بحجم الشموس وكلها شموس، وتقع منظومتنا الشمسية في جانب منها. وما شمسنا إلا واحدة متوسطة الحجم من تلك الشموس.

4 ـ ويقدّر قطر مجرّتنا الأطول بمئتي ألف سنة ضوئية، أي التي يجتازها الضوء السائر بسرعة 186 ألف ميل بالثانية. وتكون هذه الشموس مجموعات وأكواماً نجمية تسبح في الفضاء بسرعة خمسمائة مليون ميل بالسنة ولا يمكن ملاحظة التغييرات التي تطرأ عليها لبعدها، حتى بأكبر العدسات المعروفة لدينا. وهي تظهر كأنها ثابتة لا تتحرّك.

وهناك ملايين المجرات في كبد السماء ترى كسحابة مضيئة لا يزيد حجمها على صفحة الورق، مع انها أكبر من مجرتنا بكثير وأقربها إلينا تبعد عنا بمسافة 850 ألف سنة ضوئية وأبعدها ألف مليون [مليار] سنة ضوئية.

5 ـ وقد اكتمل بناء المنظار الجبار الذي قطر بلورته خمسة أمتار ووزنها خمسة عشر طناً موضوعة في أنبوبة طولها عشرون متراً ونصب في جبل بالومار في مقاطعة كاليفورنيا في أمريكا تحت قبّة ارتفاعها 41 متراً وبلغ وزنه العام مع أدواته الأخرى خمسمئة طن ويدور الى مختلف الجهات بواسطة الأزرار الكهربائية فيكون جاهزاً للعمل حينما تختفي آخر أنوار الشفق الأحمر من الأفق حتى ظهور شفق الفجر فيرى ما لا يقل عن ثلاثة أرباع مساحة السماء. وقد سجل العلماء حتى الآن 500 مليون نجمة وسجلوا بواسطة ألواح التصوير ألف مليون نجمة واستطاعوا بواسطة هذا المرقب الوصول الى سدم تبعد عن الأرض 750 مليون حتى ألف مليون [مليار] سنة ضوئية، وهو ما يقطعه النور في سيره خلال ثانية واحدة بالفضاء 186,300 ميل وخلال سنة واحدة 6 ملايين بليون ميل.

لم تقتصر عمليات العلماء في بالومار على دراسة أحوال الكواكب والنجوم وحركاتها وتدقيق صورها الكهربية، انما يقومون بدراسة المادة التي صنع منها الكون وسر تركيبه والسحب الغازية الكونية والغبار الفضائي والسدم اللولبية المنتشرة وما فيها من بخار كوني وانفجارات النجوم وكيفية

تحول الهيدروجين الى هليوم في الشمس وفي بعض النجوم تحت تأثير ملايين الفولطات الكهربية والتيارات المغناطيسية العنيفة.

واذا كان هذا التلسكوب العملاق المنصوب فوق جبل بالومار الذي يبلغ قطر عدسته 5 أمتار يستطيع أن يصور أشياء كائنة على بعد مليار سنة ضوئية من الأرض، فهناك منظار آخر أصغر منه منصوب على جبل ويلسون يبلغ قطر عدسته 2,5 متر يستطيع أن يصوّر ركناً من أركان السماء الى مسافة خمسمئة مليون سنة ضوئية فقط من الأرض.

وكان لما أثبت الفلكي ادوين هويل خلال سنة 1925 بواسطة المنظار 2,5 متر الآنف الذكر أن السديم الأكبر اندروميد يبعد عن الأرض مليون سنة ضوئية، كان قد ادعى الفلكي جيمس جنس أننا قد أصبحنا على حدود الكون النهائية. وهكذا، لقد ارتفعت المعلومات البشرية عن الاجرام السماوية وعن سعة الفضاء في فترة ما بين الحربين العالميّتين لأكثر من ألف ضعف. والفضل يعود بذلك الى تلك المنظارات الكبرى.

واذا كان البعض من هذه الارقام الفلكية قد تعتبر تقريبية ولم تتعين تماماً بعد، وقد تتعين بأقرب وقت بفضل المنظار الجديد، فان القسم الاعظم منها مستند الى الحقائق والملاحظة والمشاهدة والتدقيق والتحقيق والتحليل وخاصة الرياضيات العالية، فلا تستوجب الشبهات.

6 ـ ولأجل إعطاء فكرة تقريبية عن سعة الفضاء، يقول الفلكيون اذا انطفأ كوكب بهذا اليوم على سبيل الفرض فان الأجيال البشرية القادمة ستراه مستقراً في قعر السماء حتى ألف مليون (مليار) سنة اخرى حتى تنفذ أشعته المارة بالفضاء بطريقها للوصول إلينا.

7 ـ يعتقد لابلاس الفلكي ان الشمس في زمن من الأزمان كانت سديماً هائلاً منتشراً في الفضاء أو سحابة غازية منتشرة في الآفاق. وكلما دارت على محورها تبعاً لقوانين المادة في حركتها اليومية تكاثف مركزها، وكلما تكوّرت وتجمّعت، قذفت من محيطها ومن طبقاتها الخارجية كتلات هائلة من السدم والكلف في الفضاء فحصل من تلك السدم والكلف المتناثرة هذه الكواكب السيّارة وتوابعها المسماة المجموعة الشمسية وهي مكوّنة من الأجرام الآتية: عطارد، الزهرة، الارض، المريخ، المشتري، زحل، اورانوس، نبتون... واذا كان للأرض قمر واحد فإن للمريخ قمرين وللمشتري أربعة أقمار ولزحل ثمانية أقمار ولنبتون قمراً واحداً.

وأما جنر الفلكي فيقول انه منذ مئات الملايين من السنين كان قد مر بالقرب من شمسنا كوكب آخر اكبر منها حجماً، فلما اقترب من جوارها انفصل منها جزء بفعل الجاذبية فاستطال فاستغلظ وسطه ودقت جوانبه. ومنه تكوّنت السيارات العشر التي بدت أمام الشمس في شكل السيكار المنتفخ من الوسط وبرد بعضها وجمد كالأرض والمريخ ولم تزل الأقسام الأخرى غازية ملتهبة.

8 ـ يقدّر عمر الشمس بنحو أربعة الاف مليون سنة وعمر المجموعة الشمسية ثلاثة آلاف مليون سنة، وعمر الارض بنحو ألفي مليون سنة، وظهور الحياة على سطح الارض بنحو 450 مليون سنة، وظهور سلالات القرود البشرية بنحو مليون سنة، وظهور الانسان الابتدائي بنحو 250 ألف سنة، وهو كإنسان مئة ألف سنة، وهو انسان حقيقي ثلاثين ألف سنة. ولا خوف على الشمس، فقد تبقى شمساً مشعّة

متناقصة الضياء بنحو 50 مليون مليون حتى مائة مليون مليون سنة اخرى. وفي الفضاء شموس تفوق شمسنا في تألقها وإشعاعها عشرة آلاف ضعف أو ما يزيد.

9 ـ فلا دهشة ولا حيرة من هذه الملايين الفلكية ولا سخرية ولا ازدراء بها، فقد يقدّر العلماء عمر الصخور من نفاية المعادن المشعّة. فبينما عنصر الراديوم يشع حتى يتحوّل نصفه الى نفاية خلال 1600 سنة فقط، فان عنصر الثوريوم يستغرق 650 مليون سنة حتى يتحوّل نصفه الى نفاية، وان عنصر اليورانيوم بحاجة الى 4500 مليون سنة لتحوّل نصفه الى نفاية بنتيجة الإشعاع.

وقد عثر العلماء على نفاية اليورانيوم والثوريوم في الارض وفي الشهب السماوية الساقطة على الارض ولم يجدوا نصف نفاية فيهما حيث لم يمض وقت كاف لحصول نصف النفاية فيهما. ومن هذه النفايات ودرجاتها يمكن حساب عمر الارض والشمس والنجوم. وبهذه الطريقة يقدّر العلماء ان عمر النظام الشمسي هو ثلاثة آلاف مليون سنة.

10 ـ تشع الشمس من مادتها في كل يوم بحساب الوسط 360 ألف مليون طن وفي الثانية 4 ملايين طن من الضوء والحرارة. فكل شعاعة من الضوء تدخل عيوننا كانت قبل ثماني دقائق ونصف الدقيقة بالشمس وكانت جزءاً منها فوصلت وتكدّست فوق الارض. فيظهر من هذا ان الشمس قد تفقد شيئاً من حرارتها ولكنها قد تعوّض عنها أثناء تحوّل الايدروجين فيها الى هليوم أي الى القنبلة الهيدروجينية. وفي أثناء هذا التحوّل قد تنطلق حرارة كبيرة جداً هي حرارة الشمس التي قد يصلنا قسم ضئيل منها. ولولا هذا التحوّل لبردت الشمس من نفاذ حرارتها منذ زمن بعيد. وقد يكفي الايدروجين وقوداً للشمس بنحو عشرة آلاف مليون سنة. ومن المعلوم ان كثيراً من الشموس هي أكبر من شمسنا عشرات بل مئات آلاف المرات وان كثافة الاجسام في بعض النجوم [رفيق الشعرى اليماني مثلاً] قد تبلغ 60 ألف ضعف كثافة الماء عندنا.

11 ـ نرى اننا لم نتمكن لحد الآن من وصف عظمة الكون كما هو. ولأجل إعطاء فكرة تقريبية اخرى عن سعة الكون نقتبس من أحد مصادرنا في هذا الفصل ما أورده الاستاذ فؤاد صروف في كتابه «العلم الحديث» حيث قال ما خلاصته: «ان الأرض التي نعلمها هي احدى السيارات التسع. وهذه السيارات مع كثير من النجميات والاقمار والشهب تدور جميعها حول الشمس. وما الشمس إلا واحدة من آلاف النجوم التي نراها في السماء بالعين المجرّدة وجميعها تشكل المجموعة النجمية. وهذه المجموعة النجمية ما هي إلا واحدة من آلاف المجموعات التي تتكوّن منها مجرّتنا. وما مجرّتنا بمجموع مجموعاتها إلا واحدة من ملايين المجرات المنتشرة في طول الفضاء وعرضه».

ولأجل إعطاء لوحة واضحة أخرى عن عظمة الكون وسعته يقول الاستاذ «لو امتطينا قطاراً يسير بسرعة 200 ميل في الساعة لقطعنا الأرض عند خط الاستواء في خمسة أيام ولوصلنا القمر في خمسين يوماً وبلغنا الشمس في 35 سنة. وإذا توجّهنا الى نبتون لاقتضى لنا زمن قدره ألف وخمسمائة سنة. واذا سرنا الى أقرب نجم منفرد أو مزدوج لوصلناه في 13 مليون سنة. واذا أردنا الوصول الى حدود مجرّتنا لوجب علينا أن نسير تسعين ألف مليون سنة. وأما اذا خرجنا من مجرّتنا وأردنا الوصول الى أقرب مجرّة مجاورة لنا لوجب ترقيم سطر كامل من الأعداد.

«واذا أردنا الاستعجال بالسفر، فعلينا أن نمتطي شعاعة من نور الشمس. فانها تسير بسرعة 186,300 ميل بالثانية فنصل القمر في ثانية واحدة وثلث الثانية تقريباً ونصل الشمس في ثماني دقائق وخمس وعشرين ثانية وأقرب نجم في أربع سنوات وفي كل بضع سنوات نصل الى شمس من شموس مجرّتنا. وعندما تنقضي مائتا سنة توصلنا الشعاعة الى حدود مجرتنا.

«واذا أردنا السفر الى أقرب مجرة مجاورة لنا ونحن على ظهر تلك الشعاعة، فعلينا أن ندخل في فضاء يمتد قروناً كثيرة من دون أن نمتع أنظارنا بتلك النجوم التي كنا نراها في كل بضع سنوات مرة واحدة ضمن مجرّتنا فندخل في بحر من الفضاء لا أول له ولا آخر وقد نرى شيئاً واحداً فقط وهو لطخة من نور في كبد السماء. وكلما انقضت القرون على مسيرنا وتقرّبنا إليها، كبرت واتسع حجمها، واذا التفتنا الى الوراء نرى مجرّتنا قد أصبحت كاللطخة من نور في كبد السماء. كلما ابتعدنا عنها صغر حجمها فلا نجم ولا شمس يمكن تميزه من بينها ولا فرق بين التي نقصدها وبينها. وبعد أن نداوم السير ونقضي قرونا اخرى على مسيرنا نصل الى حدود المجرة المقصودة فيتميّز من بينها تدريجياً الشموس الوهّاجة والنجوم اللامعة كما هي الحال في مجرتنا... واذا هي مكوّنة من ملايين النجوم والشموس والنيازك والشهب... هذه هي أقرب مجرة إلينا. واذا علمنا ان هناك ملايين المجرّات أمثالها استطعنا ان ندرك سعة الفضاء وما تحتويه من أجزاء الكائنات وتفاهة أرضنا التي نعيش عليها، فهل يستطيع الانسان بعد الآن ان يقف مرفوع الصدر منتفخ الأوداج ولو كان يحمل على رأسه تيجانا بعدد النجوم»؟.

ان هذا الحيوان البشري الذي يعيش فوق جرم صغير من أجرام المنظومة الشمسية التي هي في زاوية من زوايا مجرة لا تختلف عن الملايين من المجرات أمثالها...

ان هذا الحيوان البشري الصغير قد يتطاول فيسمو ببصره في أعماق رحاب الفضاء ليستطلع ويفهم أسرار الكون؟؟؟ فيثبت وينفي على غير هدى بما يعلمه وبما لا يعلمه.

12 ـ وثبت أخيراً ان شمسنا ليست في وسط المجرة إنما هي في زاوية من زواياها بحيث ان العين المجرّدة لا تتمكن من رؤية الشموس الأكثر إشراقاً من شمسنا لبعدها الشاسع. وبما ان العيون المجرّدة لا تستطيع ان ترى شموساً يزيد بعدها على 3000 سنة ضوئية وأن مركز مجرتنا يبعد عنها 40,000 سنة ضوئية فلا يمكن تعيين حدود مجرتنا بالوسائط الفنية الحاضرة، وقد يكون طولها 200,000 سنة ضوئية وعدد النجوم التي فيها يربو على مائة ألف بليون نجمة.

13 ـ كل هذا ما يتعلّق بمجرتنا وحدها. وهناك ملايين المجرات كل منها أكبر أو أصغر من مجرّتنا، ترى بعض المجرات منها بالعين المجرّدة كالسديم الواقع قرب كوكب المرأة المسلسلة كسحاب مضيء لا تزيد سعتها على سعة الصحن وتتضح نجومها وشموسها عندما يوجه إليها التلسكوب.

14 ـ وكلما قذفت الشمس من مادتها ضعفت جاذبيتها فتبتعد عنها أجرامها. وهذا الحال واقع في الشموس الأخرى أيضاً، الأمر الذي قد يؤدي سعة الكون وامتداده.

فما هي حالة الكون قبل ان يمتد في طول الفضاء وعرضه؟ يجيب عن هذا السؤال الراهب ليمتر Le Maître وهو من كبار الفلكيين، فيقول إن الاجرام السماوية كافة نشأت من ذرة كبيرة عند انفجارها. وهو جواب خيالي أقرب ما يكون الى الحقيقة بالنظر للنظريات العلمية الحديثة.

ومعنى الذرة الكبيرة هي مادة الكون. فكانت أجزاؤها متقاربة ومتماسكة مع بعضها ساكنة في مستقرّها هادئة في مستودعها ملايين السنين حتى حصل فيها قبل مدة تقدّر بعشرة الاف مليون سنة فجأة انفجار عظيم كما تنفجر القنابل الذرّية فتطايرت منها كتلات الدقائق والذرات النارية الملتهبة وتفرّقت في الفضاء السحيق كتلاً هائلة غازية فتكوّنت على أثره منها المجرات والشموس والاجرام السماوية كافة. ولم تزل الانفجارات والاشعاعات ترى وهي جارية في مادة الكون وفي أجزائها ودقائقها كافة حتى هذا اليوم وستبقى كذلك ملايين من السنين. وفي السنوات الأخيرة شوهد ما لا يقل عن عشرين انفجاراً عنيفاً من هذا النوع في مجرات أخرى سابحة في الفضاء.

ان هذه الانفجارات قد تعلّل الأسباب الداعية الى اتساع الكون وامتداده حيث يقع بعد السديم المسمى «كانس» بما يقدّر بمليون سنة ضوئية. ولم يزل هذا السديم يقطع رحاب الفضاء مبتعداً عنّا في كل لحظة. كما وان هناك في أعماق الفضاء سدماً لا ترى الا بأكبر العدسات أو الألواح الفوتوغرافية ولا تصلنا أضواؤها الا بمئات الملايين من السنين الضوئية. وهذه السدم هي مجموعات نجمية كل منها يقدّر بألوف الألوف من النجوم والشموس. وجميعها آخذة بالتمدّد والاتساع والابتعاد بعضها عن بعض في هذا الفضاء السحيق كأنّما قد بعثرها انفجار هائل. ويقول الفلكيون ان الكون وجد منذ زمن محدود وانه محدود الحجم وان كان يزداد إتساعاً على الدوام بجميع أجزائه فهو قد يبتعد عنا. وكلما ابتعد زادت سرعة ابتعاده. ومن المحتمل ان بعض أجزائه تبتعد بسرعة تزيد على سرعة النور.

15 ـ وفي الكون قوّتان متضادتان، الأولى القوّة الجاذبة وهي التي تجذب الالكترونات والبروتونات بعضها الى بعض فتسعى للتكتل والتقلص ما استطاعت، وتقابلها القوّة الدافعة والإشعاع وتسعى الى الابتعاد والتنافر والتمدّد ما تمكّنت. فيظهر من وضع الكون ان القوّة الثانية قد تتغلب على القوّة الأولى ما يسبب اتساع الكون وتمدده.

16 ـ قد تقذف الشمس في كل ثانية 4,200,000 طن من الحرارة والضوء، وهي تفعل ذلك منذ ألف مليون سنة من دون أن تنفد طاقتها. وحصة كل ميل مربع من سطح الأرض في اليوم الواحد من هذه الطاقة يعادل تقريباً خمسة ملايين حصان. ومن المعلوم ان الطاقة الحرارية قابلة للوزن والقياس تبعاً للنظرية النسبية، فيقال رطل من الحرارة كما يقال رطل من الخبز. فإن رطلاً من الحرارة اذا استهلك تماماً قد يقلب 20 مليون طن من الجامود الى منصهرات متوهّجة. ان بعض العلماء يشبّهون مركز الضوء بقذيفة اذ تنبعث منها ذرّات ضوئية الى جميع الجهات، والبعض الآخر يعتبرون الضوء بمثابة موجات تنتشر في الفضاء كموج البحر.

يقول بعض العلماء أصحاب نظرية الإنحلال انه سيأتي يوم تنفد فيه حرارة الشمس. ويقول آخرون لو كانت الحرارة الصادرة من الشمس متولّدة من احتراق الذرات أو تفاعلاتها الكيماوية لنفدت طاقة الشمس منذ زمن بعيد. الا ان مصدر الطاقة الحاصلة في الشمس هو من تحطيم ذرات العناصر، فتنبعث الطاقة المخزونة في الذرات باستمرار. وان هذا التحطيم قد يصيب جزءاً يسيراً من مادة الشمس بالنسبة الى حجمها، فقد لا يتضاءل جرمها إلا قليلاً جداً. وقد نجح الاميركيون اولاً في

تحطيم ذرات اليورانيوم فصنعوا منها القنبلة الذرّية ثم تمكّنوا من صنع القنبلة الهيدروجينية، وان هذا التحطيم يولّد الإشعاع والحرراة. وكذلك الحال في سائر النجوم، فلا خوف من نفاد حرارتها.

17 ـ ولهذه الأشعة ضغط يعرف بقوّة ضغط الإشعاع. فإن للإشعاع، سواء كان ضوءاً أو غيره، ضغطاً يمكن تسجيل قوّته. ويقول الفلكيون إن قوّة الإشعاع المنبعثة من قلب المذنّب (نواته) يضغط على الاجزاء والدقائق التي حوله فتمتد للجهة المقابلة لسيره فيظهر كأن له ذنباً. ويقول الفلكيون ان سبب بقاء النجوم المزدوجة سابحة في الفضاء ـ وهي كثيرة ومتقاربة مع بعضها ـ دون أن تصطدم الواحدة بالأخرى أو تفلت عنها هو وجود التوازن بين قوّة الجذب وقوّة الدفع (الاشعاع) الصادر من وجهي النجمين المتقابلين (وتقدّر الحرارة في وجهيهما بأربعين مليون درجة) لأن الإنجذاب والإفلات تابعان لتغلب احداهما على الأخرى.

وبهذه المناسبة نذكر ان علماء الفلك وجدوا نجمين مزدوجين يدور احدهما حول الآخر مرة في كل أربعة أيام ويبلغ إشراق أحدهما 12 ألفاً، والآخر 15 ألف ضعف إشراق شمسنا ـ فيا لها من حرارة جهنميّة ـ وكل منهما يحدث اضطراباً وإشعاعاً في جوّ رفيقه يفوق مليون ضعف ما تؤثره شمسنا. وتحت قانون الجذب والدفع سيظلان متجاورين الى أن يتغلب أحدهما على الآخر، فإما أن يتعانقا ويمتزجا وينصهرا بعد فراق دام ملايين السنين، وإما أن يفترقا في هذا الفضاء الواسع دونما رجعة، وهو الراجح. حينذاك يتأثّر كل منهما بجرم آخر من الأجرام السماوية الكثيرة.

18 ـ ان الطاقة المنبعثة من الشمس والواصلة منها الى الارض ـ نوراً وحرارة ـ منذ ملايين السنين قد خزّنت في أجسام النباتات في الادوار الجيولوجية الاولى وطمرت هذه النباتات في الارض فصارت فحماً. وعند إشعال هذا الفحم تنطلق الطاقة الكامنة فيه فتحرّك آلات المعامل، وكذلك البترول. وان لم يهتد العلماء الى منشئه فلا بد وانه اكتسب الطاقة عن الشمس أيضاً لا محالة، اذ ان الطاقة الكامنة فيهما واحدة. فكل الطاقة التي نستعملها في أعمالنا اليومية مصدرها الشمس. ولا بد من أن يأتي يوم ينفد فيه الفحم والبترول من جيوب الأرض، ويقدّر العلماء ان حلول هذا اليوم سيكون بعد ألف سنة تقريباً.

فلذلك توجه العلماء الى التفتيش عن منابع أخرى للطاقة تقوم قيام الفحم والبترول عند نفادهما، فنظروا في إمكان الاستفادة من حركة الأرض في دورانها اليومي والسنوي ومن المد والجزر ومن هبوب الرياح ومن نور الشمس ومن سقوط المياه والشلالات ومن الطاقة التي تربط أجزاء الذرة. وقد نجحت التجارب في استخدام الطاقة الذريّة.

وكان العلماء في أميركا قد تمكّنوا عام 1945 من حلّ الرباط الذي يربط أجزاء الذرة بعضها ببعض، وبهذا تمكّنوا من السيطرة على الطاقة التي تخرج منها وصنعوا القنبلة الذرية ثم صنعوا القنبلة الهيدروجينية لمقاصد حربية. ولم تزل طريقة التحليل من الامور السرية العسكرية. والامل معقود على ان هذه الطاقة ستغني البشر عن غيرها. وكان قد صرّح أحد العلماء ان الطاقة الكامنة في نصف كوب ماء تعادل الطاقة المتولّدة من بليون طن من الفحم. فلو أمكن تحطيم ذرات سائر المواد بسهولة كما حطّمت ذرات اليورانيوم وألقي القبض على الطاقة الكامنة فيها لاستغنى الإنسان من الآن

عن كل مصدر آخر غيرها. ولو أمكن خزن الطاقة الواصلة الى سطح جزيرة العرب من الشمس وأمكن تكثيفها واستعمالها لأمكن الاستغناء عن الفحم والبترول في أنحاء العالم. فقد يصل لكل متر مربّع من سطح الأرض وخلال ساعة واحدة فقط من طاقة الشمس ما يعادل 1800 كالوري (وهو وحدة الحرارة) كما هو معلوم.

19 ـ ولنأتِ بشيء عن آراء علماء الطبيعة في نهاية الكون. ففريق منهم يرى الدوران بين الطاقة والايدروجين والعناصر الأخرى أشبه شيء بدوران المادة بين الجماد والحيوان والنبات او كدورة الماء بين البحر والأبخرة والمزن والأمطار والأنهر فيقولون إن العناصر المختلفة قد تتولّد في رحاب الفضاء من عنصر الايدروجين ـ وعلامة هذا التولّد الأشعة الكونية ـ وان عنصر الايدروجين يتولّد من تحويل الطاقة المنتشرة بالفضاء والطاقة تنتشر من تحوّل العناصر، وبهذا الدوران لا يضيع شيء من مادة الكون وان نظام الدوران هذا لا نهاية له. ويزعمون ان الطاقة لا تفنى إنما قد تتحوّل من شكل الى آخر وهي بمجموعها ثابتة لا تتغيّر. وها هي الشمس تشعّ من مادتها يومياً 360 ألف مليون طن فتسير هذه الأشعة في رحاب الفضاء لتوليد الايدروجين. وكذلك النجوم الاخرى تشعّ كل منها نوراً وحرارة بالنسبة لحجمها وان هذا الاشعاع والطاقة ايضاً قد يتكاثف ويتحوّل الى دقائق من الايدروجين في رحاب الفضاء السحيق. ويقولون كما أنه لا يمكن إيجاد مادة من العدم فلا يمكن الحصول على طاقة الا من المادة او من طاقة أخرى.

ويرد العلماء الآخرون على هذا الفريق بقولهم ان الطاقة حقيقة لا تتلاشى بمقدارها، الا انها تتحوّل من شكل الى آخر باتجاه منحدر أي من الأعلى الى الأسفل. فان ألف طاقة من النور قد تنقلب الى ألف طاقة حرارة. وأما ألف طاقة حرارة فلا تنقلب الى ألف طاقة نور. وان تحوّل المادة الى الطاقة سهل وأما تحوّل الطاقة الى مادة فصعب، لأن الطاقة المشعّة تتحوّل دائماً من حالة الأمواج القصيرة الى حالة الأمواج الطويلة، وان أشعة النور أقصر من أشعة الحرارة، لذلك لا تتحوّل الحرارة نوراً بسهولة. وقد تنقلب الطاقة من شكل صالح بنائي الى شكل عاطل غير مفيد. وهذا هو الانحطاط الذي قد يؤدي الى التوقف الأبدي في يوم من الأيام حين تتحول آخر طاقة قصيرة فعّالة الى طاقة طويلة عاطلة فتقف عند ذلك ظاهرات الكون والحياة العامة.

وبما ان أشعة النور هي من ذات الأمواج القصيرة فقد تتحوّل الى أشعة حرارة ذات أمواج طويلة. وليست أشعة الشمس إلا مزيجاً من النور والحرارة. وبتعبير آخر خليط من مختلف الأمواج. ففيها الاشعة القصيرة والطويلة وما بينهما من الامواج المختلفة. فان أشعة النور، وهي قصيرة الامْواج، فبإمكاننا أن نراها. أما أشعة الحرارة فهي أطول أمواجاً من أشعة النور ولهذا فإننا نحس بها ولا نراها. وأما الأشعة الكونية واللاسلكية وهي طويلة تتراوح بين العقدة حتى الميل الواحد فلا نحسّها ولا نراها وإنما نتوصّل لمعرفتها بواسطة الآلات.

فكان الأصل في أشعة الشمس هو النور القصير الموجات وكلما ابتعدت هذه الأشعة عن قلب الشمس انقلبت الى أشعة طويلة الموجات فتتكوّن الحرارة، وان الحرارة تتكوّن كنتيجة لانقلاب النور وتحوّله.

20 ـ كيف تتحوّل الموجات القصيرة الى موجات طويلة؟ وهل ان الحرارة والنور الواصلين إلينا من الشمس هما في عين الدرجة والقوّة اللتين كانتا عليهما حين إنبثاقهما منها؟

ان نظرية الكونتوم التي قبلتها الجامعات والأوساط العلمية المختصة كافة هي التي تعطي الجواب عن هذا السؤال وخلاصتها ان قلب الشمس في حالة انصهار عظيم تقدّر درجة حرارته بعشرين مليون درجة بالمقياس المئوي، وعندما تتحطّم الذرات في قلب الشمس تحت تأثير هذه الحرارة تنطلق الكهارب كالمقذوفات منها الى المحيط وتكون بمقادير عظيمة الطاقة ومن الأمواج القصيرة. وبعد أن تسير برهة من الزمن الى سطح الشمس تتحوّل تبعاً لتحوّل حرارة المحيط واختلافه (ويقدّر العلماء درجة حرارة سطح الشمس بـ 6000 درجة مئوية او 10800 بمقياس فهرنهيت) فتتحوّل الكهارب في الطبقة الخارجية من حالة الأمواج القصيرة الى الطويلة. وعلى هذا فان كمية معينة من المقادير القصيرة الأمواج قد تنقلب الى كمية أكبر من المقادير الطويلة الأمواج. وهذه الطبقة الخارجية من الغاز تكون بمثابة الغطاء او اللحاف للحرارة الداخلية وهي تقينا من الاحتراق. وكلما طالت الأمواج قلّت حرارتها فتسير هذه الأمواج في الفضاء من دون عائق حتى اذا ما اصطدمت بالجواهر والكهارب الشاردة أو ذرّات الغبار المنتشرة في الفضاء ازداد طولها. فمن جهة الأعداد تتكاثر المقادير، ومن جهة قوّتها فإنها تضعف. ولكن من حيث مجموع الطاقة التي تحتوي عليها فانه لا يطرأ عليها أي تغيير حتى يصبح طول تلك الأمواج كطول أمواج الحرارة الاعتيادية وعند ذاك لا تكون لها فائدة كبيرة في بناء الكون.

ولما كانت الأجسام كافة تشع حرارة وان هذه الحرارة تنطلق في الفضاء السحيق ولا يمكن استعادتها كاملة غير منقوصة، فعندما تنقلب المواد كافة الى أشعة وتتحوّل من الموجات القصيرة الى الموجات الطويلة، تصبح حرارة اعتيادية مبعثرة بالكون ليس باستطاعتها أن تكون مصدراً للنشاط البنائي الطبيعي، وهناك النهاية.

هذا ما توصل إليه علماء الطبيعة. وقد تظهر نظرية أخرى مخالفة لهذه القاعدة المعتبرة في اليوم فنية علمية. فان النظرية السائدة منذ القدم حتى أوائل هذا القرن كانت تعتبر ان العناصر الأساسية وعددها بهذا اليوم قد بلغ 93 عنصراً لا يمكن تحويلها من حال الى حال. ولقد ثبت وتحقق إمكان تحويلها وثبت ان عنصر الراديوم بعد الاشعاع الطويل ونفاد أجزائه المشعة خلال الاف من السنين قد ينقلب الى رصاص. وكذلك تمكن روذرفورد من قلب غاز النيتروجين الى أوكسجين كما وقد ثبت ان عنصر الراديوم يتولّد من انحلال عنصري الأورانيوم والثوريوم، وان العناصر كافة تشع طاقة كانت قد خزنت فيها خلال الادوار الاولى من التكوين، وان هذا الاشعاع قد يذهب قسم منه في الفضاء، وان بعض العناصر الأساسية ما هي إلا نفاية لغيرها من العناصر ولم تزل تشع فتنقلب الى عناصر أخرى.

وبينما كانت النظرية تقول ان لكل عنصر وزناً خاصاً لا يتعدّاه، ظهر لكل عنصر أوزان. فان عنصر الاوكسجين مثلا ووزنه الذري يشتمل على 16 بروتوناً و16 الكترونا، فقد اكتشف له صنف وزنه الذرّي 17 أو 18. وكذلك لعنصر الرصاص سبعة أصناف، ولعنصر الزئبق تسعة أصناف نظائر أو

مماثل. وهذا معناه ان النواة في عنصر ما تختلف وزناً عن نواة العنصر الآخر لما فيها من أعداد البروتونات فكان 93 عنصراً ليس ثابتاً بوزنه الذرّي ولكل منها أنواع مختلفة.

21 ـ ان النظرية الأخيرة السائدة في هذا اليوم تقول بتكوّن العناصر الثقيلة في الفضاء السحيق، وبين السدم، من الايدروجين. وثبت من التحليل الطيفي وجود الايدروجين والنتروجين والكبريت والهليوم في تلك الرحاب بكثرة حيث لم يزل يجري فعل التكوين والبناء هناك منها وان الأشعة الكونيّة المكتشفة أخيراً ما هي إلا نتيجة لهذا البناء والتكوين، وأما انها واردة من الشمس مع أمواج النور والحرارة فلم يثبته برهان قاطع بعد.

22 ـ وأما الفضاء الذي تسبح فيه هذه الأجرام السماوية فهو مملوء بغاز الايدروجين، كما وانه ليس بخال من الهواء. فقد يوجد فيه مواد غازية أيضاً قد تحجب أحياناً ضوء الكواكب عنّا. كما وان الفضاء الذي بين النجوم ممتلىء بالمادة اللطيفة السيالة الرقيقة. فيقدّر العلماء ان في كل سنتميتر مكعّب من الفضاء يوجد ما لا يقلّ عن ذرّة واحدة فيه تائهة أو الكترون شارد أو أشعة الضوء المشتتة التي تمخر رحاب الفضاء ولا يعقل أن يكون الكون من غير نهاية. واذا كان الفضاء المحيط بالكون ممتداً وراء آفاق التلسكوبات والى رحاب أخرى، فلا بد من ثم أن تكون له نهاية.

23 ـ ما الشهب إلا أحجار سماوية تائهة في أعماق الفضاء وهي كثيرة جداً. وعندما تدخل تحت تأثير جاذبية الأرض تهوي بسرعة البرق فتكون سرعة سقوطها وشدّة احتكاكها مع غاز الاوكسجين في الهواء سبباً لاشتعالها وانصهارها. فالصغيرة منها تنفجر وتنقلب غازاً في الحال وتتلاشى نهائياً. وأما الكبيرة فيحترق قسم كبير من أطرافها ويسقط على الأرض ما يتبقى منها. ان أمثال هذه الأحجار السماوية أو بقايا الشهب موجودة بكثرة في المتاحف وقد يجزئها العلماء لاختبار العناصر المركّبة منها. وقد ثبت فيها وجود عناصر الراديوم والاورانيوم علاوة على العناصر الأخرى.

24 ـ من المعلوم ان نور الشمس أو أي شعاع مضيء، اذا مرّ من منشور زجاجي مثلث الأضلاع [بلورة مثلثة] أو من قطعة زجاج مخططة أو انكسر في سطح مجلا مائل يتحلل الى ألوان سبعة [الطيف الشمسي] ويظهر كشريط ملوّن جانبه الأسفل أحمر وأعلاه بنفسجي كما هو الواقع في «قوس قزح»، وان كل عنصر من العناصر الطبيعية الموجودة على سطح الارض اذا انصهر وتوهّج وتحلّل نوره ظهر فيه طبقة بشكل يتميّز به عن غيره. ولذلك أصبح من الممكن بمعونة المطياف تحديد العناصر الكيميائية التي تتمثل في أي جسم يرسل شعاعاً من النور. وأمكن تعيين درجة الحرارة في النجوم القريبة والبعيدة، وذلك لأن الاشعاع المتوهج يختلف بالنظر لحرارته فيبدأ أولاً بالأحمر ثم بالأصفر والأبيض الى الأزرق. وبهذا التحليل الطيفي تمكّن العلماء من الوقوف على ماهية المواد المكوّنة للشمس. فان للحديد مثلاً طيفاً شعاعياً يختلف عن الطيف الشعاعي الذي للذهب، وان في الضياء المنتشر من قطعة الصوديوم المنصهر مثلاً يوجد خط أسود في محل معيّن من منطقة اللون الأصفر في طيفه. وهذه هي الميزة الخاصة الثابتة لعنصر الصوديوم. فإذا وجد في طيف الشمس في منطقة اللون الأصفر خط أسود مشابه لذلك، حكم بوجود عنصر الصوديوم في الشمس، وهكذا في العناصر الاخرى. وبهذه الطريقة تمكن العلماء من إثبات وجود خمسين عنصراً في الشمس من العناصر

الموجودة بالأرض وعددها 93 عنصراً. وعلاوة على ذلك وجدوا عنصر الهليوم بالشمس قبل ان يجدوه على سطح الارض وهو الغاز الذي كان يملأ منه البلونات. ولم يجدوا لحد الآن في الشمس عنصر الزئبق والبلاتين والذهب. وقد تكون هذه العناصر مختبئة في باطن الشمس ولم تظهر على سطحها الخارجي بعد، فلم يتمكن العلماء من التقاط طيفها. وهذا ما يدل على ان الارض كانت جزءاً من الشمس. ولم تكن هذه الحالة منحصرة بين الشمس وأرضها فقط إنما تشترك فيها كل الشموس والكواكب والنيازك، وجميعها في الأصل بنيت من عنصر الايدروجين باعتباره أبسط العناصر وذرته تتكون من بروتون واحد والكترون واحد فقط ما يثبت وحدة الوجود المادية الكونية.

25 ـ وقد يحدث في قلب الشمس كثير من الانفجارات الداخلية والعواصف المغناطيسية، فتظهر على سطحها المشاعل النارية وتمتد ألسنة اللهيب المندلعة منها الى مسافات شاسعة، وقد تثور فتحصل الاضطرابات الكهربائية المغناطيسية، وقد تجعل سطوحها الكلف الشمسية فتمنع إنبثاق النور والحرارة. كل هذه الحالات تؤثر على السيارات ومن جملتها الأرض تأثيراً بالغاً فيكون الفيض شديداً أو الجفاف مستديماً أو البرد قارصاً فيضطرب الجو ويتقلّب الطقس فتؤثر على صحة الإنسان ونمو النبات أسوأ تأثير. وكلما كبرت الكلف الشمسية منعت صدور الأشعة الشمسية فتسبب شدة البرد في الشتاء والعواصف والزوابع والارتباكات المختلفة في الأحوال الجوية. وهذا يشبه تماماً سقوط الحرارة في موسم الصيف اثناء الزوابع الرملية عندما تجلل السماء فتمنع وصول أشعة النور والحرارة الى الأرض.

26 ـ وقد تقذف الشمس إشعاعات كهربائية تسير بالفضاء فتكهرب محيط بعض السيارات والطبقات العليا من الهواء فتحصل طبقة متكهربة في أعالي الجو قد تمنع الأشعة اللاسلكية من تبعثرها وانتشارها وضياعها بالفضاء الرحب فتعكسها على الارض حتى تلتقطها آلة الراديو.

وهناك نظرية ثابتة حول انعكاس الأشعة على الارض وعدم تسربها الى الفضاء وهي وجود الآزوت المتبلور في أعالي الجو. وقد أثبت فيجاور الاستاذ في جامعة اوسلو وجود طبقتين من هذه البلورات احداهما على بعد أربعين ميلا من سطح الارض، والثانية على بعد مائة ميل. فهذه الطبقات الآزوتية هي التي تمنع ضياع الأمواج وتشتتها بالفضاء، وهي التي تكوّن زرقة السماء. ولذلك نرى السماء أكثر زرقة في سمت الرأس لقربها منا وأقل زرقة حول الأفق لمرورها من خلال طبقات الهواء الأشد كثافة.

وأثبت هذه الظاهرة الضوئية الزرقاء المتحصّلة في السماء الاستاذ «لونس» في مختبره اذ حصل على بلورات الآزوت بتبريده الغاز الى 378 درجة فهرنهايت تحت الصفر، فأحدث اللون الازرق ضمن الأنابيب الزجاجية. وبما ان غاز الآزوت أخف من الهواء ويصعد الى أعالي الجو ويتكاثف هناك ويتبلور بالبرودة الشديدة السائدة هناك فيحصل لون السماء الأرزرق.

وأما اللون الأحمر أو الأصفر أو البرتقالي الذي يشاهد وقت الغروب في الأفق، فهو ان الأتربة المعلقة في الجو قد تحلّل الضوء وتحبس الأشعة القصيرة الموجات وتترك الأشعة الطويلة الموجات وهي الحمراء والصفراء والبرتقالي فيكون الشفق وهّاجاً يخلب الألباب بألوانه المختلفة.

27 ـ الخلاصة أن الشمس تصدر من جوانبها الى الفضاء حرارة وضوءاً منذ ملايين السنين، تسمى طاقة، لا يصلنا منها الى الارض الا جزء واحد بقدر قرص وجه الارض المقابل للشمس. ويقدر هذا القرص بواحد 2300 مليون جزء. وقد تستفيد السيارات الاخرى من نور الشمس وحرارتها كل بنسبة سعة قرصها. وما تبقى من هذه الملايين تنتشر في الفضاء مع أشعة النجوم الاخرى لتكوين عنصر الايدروجين وهذا العنصر يكوّن بدوره العناصر الثقيلة.

ان الجزء الضئيل هذا الواصل إلينا من الشمس هو الذي ينشر الحياة على سطح الارض وفيه حياة الانسان والحيوان والنبات ولولاه لكانت الارض صخرة مظلمة باردة متشرّدة في الفضاء كغيرها من الاجرام المنطفئة.

28 ـ وهذه الشمس التي عبدها الأقدمون ما هي الا كرة من نار ملتهبة يقدّر قطرها بنحو 86500 ميل تدور على نفسها بانتظام وحولها طبقة تتألف من غازات ملتهبة وفي سطحها بقع مظلمة قد يكون عرض كل منها بضعة آلاف ميل تسمى كلف الشمس تتكوّن من العواصف العنيفة التي تسببها الانفجارات في باطن الشمس، وتقذف كتلاً من مادتها أكبر من حجم الارض أضعاف المرات وهي الاندفاعات الشمسية.

29 ـ فماذا يحصل لو حصل انفجار عظيم في شمسنا؟ لما كانت المسافة التي بين ارضنا وشمسنا تقدّر بـ 93 مليون ميل فقط وان الاشعة الصادرة من الشمس قد تصلنا خلال ثماني دقائق ونصف الدقيقة لا أكثر، فان اول موجة من الحرارة والاشعاع المنبعثة من الانفجار قد تهلك بمرة واحدة كل شيء حي ماشياً وسابحاً وطائراً كما حصل في هوروشيما المدينة اليابانية حينما تلقت القنبلة الذرية من الجو. وأما الموجة الشمسية فتبخر البحار والأنهار والأهوار والمياه كافة بطرفة عين وثم تجعل شتّى المعادن والصخور منصهرة متوهجة.

هل من المحتمل وقوع مثل هذه الكارثة؟ قد ينفجر نجم على بعد ملايين الملايين من الاميال في زاوية من الجو فلا يهتم به احد الا باعتباره مصباحاً جميلاً قذفته السماء! ومن المحقق ان الشمس قد انفجرت قبل هذا مرة أو مرات، وبأكبر احتمال انها ستنفجر مرة أو مرات اخرى كسائر الاجرام السماوية. وقد سجل من هذا النوع عشرين انفجاراً عنيفاً خلال السنوات الخمس المنصرمة في المجرات الاخرى، أو قد يظهر نجم مذنب مجهول في السماء فيحرق الكرة الأرضية بطرفة عين.

وأما من الوجهة الحياتية فلا حاجة لانفجار الشمس للقضاء على الانسان والحيوان والنبات انما يكفي ان يتغير اشعاع الشمس بمقدار لا يتجاوز واحداً بالمائة زيادة أو نقصاً للقضاء على جميع مظاهر الحياة. وسيكون هذا إما فجائياً من أثر الانفجارات الداخلية والعواصف المغناطيسية وإما تدريجياً وذلك عندما تبلغ الشمس سن الشيخوخة.

ولما كانت الشمس لا يزيد عمرها كثيراً حسب تقدير الفلكيين على ثلاثة آلاف مليون سنة فقط، وان عمر أي نجم عادي مثل الشمس بحساب الوسط يقدر بـ 12 ألف مليون من السنين، فان شمسنا شابة حديثة السن كالغادة الحسناء وهي لم تزل عروساً في مقتبل العمر، أمامها تسعة آلاف مليون سنة لتبلغ سن الكهولة أو عمر الاجرام الاخرى، ولذلك كان هذا النوع من الخطب بعيداً عنا قريباً من أنسال ذلك الزمان.

30 ـ **الأشعة النورية وفوائدها:** ان الاشعاع يشتمل على الاشعاع الكهربائي المغناطيسي في اللاسلكي والراديو والاشعة الحمراء المنعكسة والنور الكهربائي الذي نستعمله والأشعة فوق البنفسجية وأشعة ايكس وغيره. والنور هو نوع من الطاقة ينتقل مع أشعة الحرارة بموجات مختلفة تقدّر سرعتها بـ 186300 ميل بالثانية ولولاه لما عاش على سطح الأرض حيوان ونبات. ولم يكن هذا الاشعاع خاصاً بالكرة الارضية وحدها انما تستفيد منه المجموعة الشمسية بأجمعها وأخذت الارض حصّتها منه مجاناً قبل ان تظهر الحياة على وجه الارض بملايين السنين.

وعندما تعرض أشعة النور على آلة المطياف تتحلّل الى سبعة ألوان كما هو الحال في قوس قزح. فالاول الاحمر ويليه البرتقالي فالاصفر فالاخضر فالازرق فالنيلي فالبنفسجي. وكل من هذه الامواج أقصر من الامواج التي قبلها، بمعنى ان اللون الاحمر أطول أمواجاً والبنفسجي أقصرها. الا انها تسير في الفضاء نحو الارض على السواء فتصلها خلال ثماني دقائق وبضع ثوان.

ومن الغريب ان الأجسام كافة تصدر اشعاعاً من مادتها. فمنها ما هو محسوس كالعناصر المشعة وقد سجل اكثر من عشرة أنواع يضاف إليها أنواع اخرى تشع مع الصخور ومنابع المياه والشقوق الارضية، ومنها غير محسوس وهي أشعة العناصر الاخرى. وقد وجد بعض العلماء امكان تحويل العناصر غير المشعة الى عناصر مشعة. فقد وجدوا ان عناصر ساكنة هادئة مستقرة كالذهب والفضة والقصدير... يمكن تهيجها ببعض المؤثرات والقذائف فتصير مشعة. فقد أمكن تحويل نصف عنصر الصوديوم خلال 15 ساعة فقط الى عنصر مشع يصدر أشعة «جما» ولا يولد تسمماً وتآكلاً في الجسد عند استعماله في القواعد الطبية. وبذلك استحدث فيه النشاط الإشعاعي بدلاً من الراديوم الذي يتطلب تحويل نصفه الى إشعاع 1622 سنة ويعطي أشعة «ألفا» فيطلق القذائف المنبعثة من انحلاله زمناً طويلاً فيولد التخريبات في الجسد. وتمكّن العلماء أيضاً من اكتشاف ما يقرب من 400 نظير مشع من نظائر العناصر، للبعض منها فوائد في الطب من بينها نظائر الصوديوم واليود والفوسفور والكالسيوم والكلور والكربون والكوبلت والنحاس والحديد والذهب والزئبق والفضة والقصدير والزنك.

وهناك أشعة من النور لا ترى بالعين انما تؤثر في الألواح الزجاجية. فقد يوجد ما وراء الأشعة البنفسجية المرئية أشعة غير مرئية تسمى الأشعة ما وراء البنفسجية وهي تقوي الجسم وتعالج الكساح وتكافح الشيخوخة وتولد بالجسم فيتامين (د) وقد توقظ الحياة.

31 ـ وتحقّق وجود الشبه بين الكلوروفيل المسمى اليخضور وهو المادة الخضراء بالنباتات المحتوي على مادة المغنسيوم بكثرة وبين الهيموكلوبين وهو المادة الحمراء بالدم الحيواني المحتوي على الحديد. وهاتان المادتان الكلوروفيل والهيموكلوبين هما العاملان في تمثيل وتكوين فيتامين (د) بالوجود. فان الأشعة فوق البنفسجية تؤثر على المواد الدهنية الموجودة فوق الجلد فتتفاعل مع الهيموكلوبين فتنقلب الى فيتامين (د) فيمتصه الجلد. وهذا يؤثر على عنصري الكلسيوم والفوسفور فيتمثلان في بناء الخلية. وفي حالة فقدان فيتامين (د) من الوجود لا يتمثل العنصران المذكوران فيطردان من الوجود من دون الاستفادة منهما.

لا تقتصر فوائد الأشعة فوق البنفسجية على توليد فيتامين (د) بالجسم الحيواني، بل تسبب احمراراً أو حرقاً في الجلد بالنسبة الى مدة التعرّض إليها وتقوي الدم «الكريات البيضاء والحمراء» والعضلات والاعصاب وتقاوم الميكروبات الداخلة في الجسم وتنبّه الحواس والقوى العقلية وتمنع الكساح والضعف العام وفقر الدم وتهيّىء أسباب الوقاية من السرطان، وبالأخير تنشط الغدد الصم وتؤخر الشيخوخة. وأما النبات فلا يقل استفادة عن الحيوان من هذه الاشعة. ولأجل ان يقوم الجسم الحيواني بحركة يعتمد على الاغذية وهي مائيات الفحم والشحوم والمواد الزلالية. فان كمية كبيرة من طاقة الشمس قد خزّنت وتجمّعت وتمركزت في هذه المواد الحيوانية والنباتية. فقد خزّنت أولاً في النباتات ثم انتقلت الى الحيوانات لاستبدالها من طاقة بالقوة كامنة الى طاقة حركية. فان كل حركة وبضمنها حتى الاعمال الذهنية ما هي الا اطلاق قسم من الطاقة الشمسية المحبوسة فكانت الشمس هي المحرّك العام للأشياء كافة فتحصل الحركة في الاتجاه الذي اختارته الارادة.

32 ـ توجد أشعة اخرى لا ترى بالعين تحت الاشعة الحمراء المرئية وتسمى الاشعة ما وراء الحمراء وهي اشعة حرارية تحتوي اشعة الشمس على 60 بالمائة منها. ولها خصائص انها توسع الاوعية الدموية في الجلد فتستعمل لذلك في معالجة التهاب المفاصل والروماتيزمة والتهاب العضلات والاعصاب. ومن اوصافها انها تخترق الضباب وترى الاجسام في الظلام وتسجلها، وهي لازمة لإدامة الحياة كالاشعة ما وراء البنفسجية. فقد تستحصل هذه الاشعة اصطناعياً من بطاريات خاصة وتستعمل لتجفيف الاثمار والخضر ولإنبات البذور وهي تفتك بالحشرات في حبوب القمح وبالبراغيث في جلود الكلاب وتخفف من ألم المصابين بوجع المفاصل وتستعمل كذلك في اخذ الصور الضوئية في الظلام الدامس أو في الضباب الكثيف.

33 ـ وكان لما سدد وليم هوشل في سنة 1800 لأوّل مرة شعاعة من ضوء الشمس الى منشور من الزجاج «مطياف» شاهد تحلل الضوء الى الألوان السبعة فوضع مقياساً للحرارة في كل منطقة من مناطق الألوان ورأى ان منطقة اللون الاحمر أشد حرارة من المنطقة البنفسجية. وعندما وضع مقياس الحرارة وراء منطقة الحمراء ارتفع الزئبق ارتفاعاً ظاهراً. وبهذا ثبت وجود أمواج غير مرئية طويلة جداً مما يجعلها لا ترى وهي أمواج الحرارة تأتي وراء الطرف المرئي من اللون الاحمر وعلى حافته.

وثبت بعد ذلك ان هذه الامواج موجودة في مصادر الحرارة كافة، كهربائية كانت او أي مصدر آخر، كلهب غاز او نار اعتيادية او جهازاً مشعاً. وقد يستفيد الامريكيون من هذه الاشعة ببنائهم أفراناً خاصة يقام داخلها بطاريات من المصابيح الكهربائية لتجفيف الجزر والبطاطا واللحم تجفيفاً تاماً من دون ان يطرأ عليها أي تغيير.

وكان بودنا ان نذكر شيئاً عن ماهية النور وكيفية تكوّن المنظومة الشمسية والاقمار وغيره من المسائل الفلكية، الا اننا ضربنا صفحاً عنها بغية الاختصار. ومن أراد المزيد فهناك كثير من الكتب حول هذه المواضيع في مختلف اللغات.

وبعد، فإذا كانت الشعوب القديمة قد بنت الهياكل لإله الشمس واستحمت بنوره فما ذلك الا لمشاهدتهم آثار النور البارزة في الكون ظناً منهم ان الشمس هي الأول والآخر في العالم وبيدها الموت والحياة.

الكتاب السابع

يهوه... إله بني إسرائيل

المقدمة

للعبرانيين تاريخ قديم يرجع إلى أكثر من أربعة آلاف سنة، لم نأخذ منه إلا ما يتعلق بموضوعنا حول الآلهة والمعتقدات والدين، وبالملوك والكهّان ما يتعلّق منهم بموضوع بحثنا.

تحد فلسطين من الشمال جبال لبنان ومن الشرق صحراء الجزيرة العربية ومن الغرب البحر المتوسط ومن الجنوب صحراء سيناء وتقدّر مساحتها بـ 36000 كيلو متر مربع. يشطرها نهر الأردن (يوردان) إلى شطرين؛ شرق الأردن ويمتد حتى الصحراء العربية، وغرب الأردن ويمتد غرباً حتى البحر ويشمل الأراضي الزراعية المنبتة.

كان يقطن فيها لفيف من الأقوام الساميّة أكثرهم عدداً الكنعانيون الذين هاجروا إليها من الجزيرة العربية قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة، ثم يليهم الفنيكيون والعموريون والموابيون والآمونيون والعمونيون.

وفي سنة 1920 قبل الميلاد تقريباً هاجر إلى فلسطين ابرام (ابراهيم) ابن تارح رأس القبيلة العبرية ومعه ساراي (ساره) زوجته ولوط ابن أخيه. وهاجر إليها الإسرائيليون هجرتهم الثانية عند خروجهم من مصر عام 1500 ق. م. تحت قيادة يشوع بن نون خادم النبي موسى وقائده.

ليست هناك مستندات حقيقية ومراجع ثابتة لتاريخ إسرائيل الديني أكثر مما ذكر عنها في صفحات سفر التكوين العبري، وهو يشمل الخليقة والتكوين وخروج آدم من الجنة وتكاثر أولاده وأحفاده في الأرض وقصة الطوفان العام وظهور النبي ابراهيم في الميدان الديني وذهاب أولاده وأحفاده إلى مصر وبقاءهم فيها حتى ظهور النبي موسى.

فأما أقسام الخليقة والتكوين منه فقد تؤيدها في بعض وجوهها ونواحيها أساطير الكلدانيين والسومريين المكتشفة حديثاً. وأما الأقسام التاريخية الأخرى فلا يوجد ما يؤيدها من المخلّفات الأثرية والمخطوطات والعاديات والمنابع الخارجية.

وبينما كانت الأفكار البشرية متجهة بكليتها نحو تعدّد الآلهة إذ ظهر في الميدان الديني النبي ابرام ساخراً من الآلهة التي شاهدها في حلّه وترحاله في معابد أور الكلدان وحرّان وفلسطين ومصر، تلك المنحوتة من الأحجار أو المصنوعة من الخزف والقوارير أو المتخذة مقرّها في الأجرام الفلكية الآفلة، هازئاً من الإله آمون الذي يعتبره المصريون إله الآلهة ورب الأرباب الواحد بذاته، والمثلث بصفاته. وكذلك من الإله آتون وهو قرص الشمس الواحد بالذات والصّفات والآفل كل يوم، متّخذاً إلهه واحداً بالذات والصفات والفعل والعمل وسمّاه يهوه ـ خالق السماوات والأرض. وعبده من بعده أولاده وأحفاده باسم يهوه ـ إله إسرائيل.

كان الإعتقاد السائد عند الأمم كافة أن قوّة الآلهة وقدرتها تتجلّى باكتسابها الحروب. فكان الإله القدير الفعّال العظيم ـ ان لم يكن قد غضب على عباده ـ هو الذي يحطّم الآلهة الأجنبية الأخر، وهو الذي يكسب الحروب ويمزّق شمل الأعداء، وهو الذي يعطي النصر والظفر لعبدته فتفرض الأمة الغالبة عبادة إلهها فرضاً على الأمة المغلوبة، وبذلك تنتشر عبادة الإله الغالب في كل مكان فيركع لعظمته الإلهية ويسجد لقدرته الرّبانية القاصي والداني تحت خفق السيوف وضرب الرقاب. ويزول الإله المغلوب من الوجود فيدخل في بطون التاريخ. وبهذا تشرق آلهة فتسود العالم وويل للجاحدين بقدرتها وعظمتها، وتغرب آلهة فينكسف ظلّها ويختفي عرشها. والويل والثبور للكفرة المتمسكين بعبادتها. فكانت قوّة الأمم تابعة لقوّة آلهتها وقوّة الآلهة تابعة لقوّة سيوف الأمّة التي تعبدها.

ولما لم يكن للأمة الإسرائيلية الصغيرة في كل دور من أدوار حياتها ما كان للفرس وللأشوريين والكلدانيين والمصريين والعرب المعاصرين من القوّة والشوكة والقدرة ما تستطيع معها أن تفرض عبادة إلهها يهوه بقوة السيف فرضاً على الأمم والأقوام الوثنية المجاورة، كما انها لم تكسب حرباً من الحروب الفاصلة مع أعدائها، ولم تتجاوز جيوشها حدود فلسطين، لهذا كله كانت عبادة الإله يهوه منحصرة في دائرة ضيّقة جداً في بني إسرائيل وحدهم. وقد يلفظه الإسرائيليون فتنحصر عبادته في سبط لاوي فقط. وقد يتركه بنو لاوي أيضاً فتنكمش عبادته وتنحصر بالهارونيين وحدهم. وقد يتجاوز الهارونيون أيضاً حدود الشريعة.

ظلّت عبادة الإله يهوه بأوصافه وأفعاله وصفاته في بني إسرائيل بين مدّ وجزر وعلى وتيرة واحدة مع قليل من التعديلات، مؤيدة من أنبياء بني إسرائيل قرابة ألفي عام حتى ظهر من بينهم السيد يسوع المسيح بقواعد إلهية صوفية جديدة لا تمت الى صفات الإله يهوه المعلومة بصلة فرفضها اليهود ولم يقبلوها منه. فانحصرت عبادة الإله يهوه بأوصافه وصفاته المعيّنة بالتوراة ببني إسرائيل وحدهم دون أن يشاركهم فيها أحد من الأمم والأقوام المجاورة لهم.

ولما كان النبي موسى يستند على سيوف بني لاوي الأشداء، وهم قوته التنفيذية في تطبيق أحكام شريعته، فلم ير من ضرورة للجزاء الآجل في شريعته من وعد ووعيد وترغيب وترهيب في الحياة الثانية بعد الموت. لذلك لا توجد في شريعته قيامة أموات وحشر ونشر ونعيم وعذاب، مع علمه بما هو موجود منها في الشرائع الفرعونية التي أتقن دراستها لما كان في البلاط الفرعوني. إنما وضع في شريعته لكل مخالفة شرعية أو زمنية جزاء عاجلاً وسمّاها كفّارة عن الذنوب والمعاصي وهي تشابه من هذه الوجهة الديانة الكلدانية.

مرّت الشريعة العبرية بعد ذلك في مراحل مختلفة إلى أن انصهرت في التطبيق العملي، خاصة لما قال النبي هوشع عن لسان الرب «اني أريد رحمة لا ذبيحة». فقد ارتفعت من قواعدها الأساسية كافة الذبائح والقرابين والنذور المؤيدة بالتوراة مراراً وتكراراً، فأصبحت الشريعة اليهودية من أروع الشرائع المنظمة القديمة، ثقيلة في الأحوال الشخصية، خفيفة في الأحكام التعبّدية. وقد أحكم أنبياء

اليهود وكهنتهم تطبيقها في المعاملات البشرية، فكانت ركن الزاوية لشرائع كثير من الأمم والأقوام الأخرى. ولما كان لا يوجد في الديانة اليهودية نظام ديني ضيّق قد يفرض على الفرد مختلف أنواع القيود والشعائر والمعتقدات، وليس فيها عقيدة كونية معينة وآراء علمية محدودة وأبحاث عن البعث بعد الموت وما ينتج عنها من معتقدات تعارض الأدلة العلمية وتقيد الفرد بأحكامها، فلم تكن المعتقدات الدينية العبرية حجر عثرة في ارتقاء العلم الحديث ولم تقاومه ولم تقف في سبيله. فلم يحصل أي نزاع بين الشريعة الإسرائيلية والثقافة العلمية لا سابقاً ولا لاحقاً. ولذلك كان فلاسفة اليهود ينقلون العلوم العربية الاندلسية إلى أوروبا ويؤسسون فيها المدارس الطبية (بولونا ـ سالرنو...). وبهذا قدم اليهود أجل الخدمات وأعظمها في نقل التراث العلمي العربي إلى أوروبا عن طريق ايطاليا، فكانت السبب في ازدهار المدنية الأوروبية.

الفصل الأول أصل الوجود والتكوين عند الأمم القديمة

كان موضوع الخليقة والتكوين، وأصل الوجود، وظهور البشر فوق سطح الأرض، قد شغل أفكار رجال الدين والفلاسفة من مختلف الأمم والأقوام، قديمها وحديثها، منذ العصور البشريّة الأولى، فوضع كل منهم قواعد خاصة وأسساً معيّنة، تتفق وما توصّل إليه تفكيره ووسعة إدراكه، وكانت هذه القواعد والأسس، قريبة الشبه من بعضها، وغالباً ما تكون كل منها مقتبسة من الأخرى، مضافاً إليها ما اقتضته حالة الأمة الفكرية والخلقية والاجتماعية من تعديلات.

السومريون: كان السومريون من أقدم الأمم التي وضعت الأساطير عن الخليقة وأصل الوجود. وتتحدث الأسطورة السومرية فتقول: «في البدء، قبل أن تُعرف السماء، ويُعرف للأرض اسم، كان المحيط، وكان البحر، ومنه تولّدت الكائنات...».

وهناك أسطورة سومرية أخرى تعطينا تفصيلاً أوسع من هذه في شرح بدء الخليقة وقصّة التكوين، فتقول:

في البدء كانت مياه البحر الأولى، مؤلفة من عنصرين: أبسو وهو عنصر الماء المذكر وتيامه، عنصر الماء المؤنث، وقد اجتمعا فولّدا آن إله السماء وكي إلهة الأرض. ومن اجتماع هذين، ولد أنليل إله الهواء. وعند تمدد هذا الإله واستطالته، فصل أباه آن عن أمه كي ثم ولد له ولد سمّاه ننار ويسمى سن أيضاً، إله القمر لينير لأبيه الظلام. ثم ولد ننار الإله أوتو ويسمى شمش وهو إله الشمس، الذي صار أكثر نوراً من أبيه. ثم اتحد أنليل بأمه كي، ومن اتحادهما ظهرت حياة الحيوان والنبات عل سطح الأرض، بمعاونة الآلهة الأخرى.

البابليون: أخذ البابليون أسطورة السومريين تلك، وجعلوها أساساً لأسطورتهم عن الخليقة، بعد أن أضفوا عليها ما يتناسب وسعة امبراطوريتهم المترامية الأطراف، وما أسبغوه على إلههم مردوخ من القوّة والعظمة اللامتناهيتين. وتتلخص أسطورة البابليين فيما يلي:

لم تكن سماء، ولم تكن أرض، ولم يكن في الوجود سوى العماء (أصل المادة)، تمثله المياه الأولى التي تولد منها الإلهان أبسو وهو عنصر الماء العذب المذكّر، وتيامه وهو عنصر الماء المالح المؤنث. ومن هذين الإلهين تولّدت الآلهة الكثيرة، وهي رمز المادة الأساسيّة، فحصل نزاع بين الآلهة القديمة والحديثة، أدّى إلى قتال بينهم، فقتل الإله أيا أباه الإله أبسو وكوّن من جسم والده القتيل، مياه المحيط أو البحر السفلي الذي استقرّت فيه الأرض، وبنى معبده في وسط الماء وسماه آي ـ أبسو.

وقتل الإله مردوخ ابن الإله أيا، الأم العاتية تيامه وشطر جسمها إلى شطرين: جعل نصفه الأعلى سماء، وخلق فيها الكواكب والنجوم والبروج والشمس والقمر، ووزّعها في أماكنها، ثم رتّب الكون ونسّق العالم، ترتيباً محكماً، وتنسيقاً دقيقاً.

أما النصف الأسفل من جسم الآلهة القتيلة، فقد جعله أرضاً، وخلق على وجه الأرض أنواع الحياة، من حيوانات ونبات....

وجاء في أسطورة بابليّة أخرى:

«أنت أيها النهر، خلقت لنا جميع الأشياء. لما أنشأتك الآلهة العظام اختار الإله أيا ملك البحر بيته في وسطك. كانت الأرض كلّها بحراً. ولما تُبنَ مدينة أريدو. ثم بنيت أريدو. واتخذ أيا وسط عمق المياه مسكناً له. ثم وضع مردوخ القصب على وجه الماء. ونثر التراب حوله. لكي يهيّىء للآلهة المساكن المعابد».

وقد كان الاعتقاد السائد عند السومريين والكلدانيين، أن الآلهة أرواح وقوى، على هيئة البشر، وهي التي خلقت أبا البشر لولو، من دم الإله المذنب كنكو قائد حرب الإلهة تيامه بعد أن مزجته بتراب الأرض. وقد خلقته على صورتها، ومنحته صفاتها، وأسكنته في الجنة ليعبدها، ويكفيها مؤونة العمل، ويهيّىء لها الطعام. وهذا هو الجزاء الأبدي الذي تعين على أبي البشر لولو تقديمه للآلهة التي خلقته.

الفراعنة: أما أصل الوجود والخليقة عند الفراعنة، فقد تحدّثت عنه أقدم أسطورة فرعونية بقولها:

«أن بيضة عظيمة طفت على وجه البحار، فخرج منها ربّ الشمس، ومنه ظهرت الإلهة شو وتفنوت إلها الفضاء، ونوت إله السّماء، وجب إله الأرض. ثم تزاوجت الأرض والسّماء، فتولّدت منهما الكائنات...».

وهناك أسطورة فرعونية أخرى تقول:

«إن الأرواح كانت ترفرف فوق البحار، وفي الفضاء، ونفذ روح الإله آمون في ذلك الفضاء، وخلق الأرض والسّماء والبشر وكل شيء».

ولما ظهر الإله أتون عند الفراعنة وضعت أسطورة أخرى هي:

«في البدء كان الماء الأول، أو المحيط المظلم. وكان الإله أتون وحده. فخلق الآلهة والبشر والأشياء».

براهمة الهنود: أما قصّة الخليقة والوجود عند الهنود البراهمة فتقول:

«قبل أن تظهر الحياة فوق وجه الأرض، كانت هناك بيضة ذهبية تطفو فوق سطح البحار، فانفجرت وتناثرت منها الحياة، وكان الإله الأعظم براهما يجمع في شخصه صفتي الذّكر والأنثى، فكان الأب والأم لجميع الأحياء. فكان براهما مبدأ كل شيء، ومنه ظهرت الموجودات الحيّة كظهور الشجرة من النواة، أو الشبكة من العنكبوت، فلا يقال له خالق العالم، إنما هو جوهر العالم».

وعلى هذا تكون هذه الفكرة أساس مبدأ وحدة الوجود.

الفصل الثاني

الخليقة والتكوين في سفر التكوين العبري (4004 ق . ب .)[1]

لم يكن سفر التكوين العبري، الذي يستند إليه نشوء الأمة الإسرائيلية، بأكثر من موضوعات دينية تاريخية، سجّلها أحد الإسرائيليين، ليجعل لأمتّه الصّغيرة منزلة رفيعة بين الأمم، وليسبغ عليها مظهر الأمة الممتازة التي اصطفاها الخالق لنفسه، وجعل منها شعبه المختار، وفضلها على العالمين كافة.

وبينما كانت الأفكار البشريّة متّجهة إلى مبدأ تعدّد الآلهة، فقد نسب محرّر سفر التكوين الخلق والتكوين لإله واحد، وبدأ بموضوع تكوين العالم في ستّة أيام وخلق آدم وإسكانه في الجنّة، فإخراجه منها، تخلّص من هذا بلطف وبصورة غير مباشرة، وانتقل بلباقة إلى ظهور الفساد بين البشر، ثم حدوث الطوفان العام، ثم.. إلى بيت ابراهيم وأولاده وأحفاده... فكأن القصد من تحرير السفر، لم يكن إلا إثبات نسب ابراهيم، وإيصال سلسلة نسبه من آبائه وأجداده، بسلسلة أنساب أولاده وأحفاده. وقد ساق هذا المحرر الحوادث بلباقة ينتهي منها إلى القول بأن الإله قد خلق الكون والعالم لأجل هذه الأمّة المختارة!! ولا قيمة لغيرها من الأمم والشعوب الأخرى.

ومما لا جدال فيه أن سفر التكوين العبري، بصرف النظر عن تحيّزه لبني إسرائيل، يعتبر من أبدع ما خلّفه لنا العقل البشري من تلك الأدوار الغابرة وأثمنه.

ولما كان قد أخذ محرر سفر التكوين، بمبدأ الإله الواحد، فقد تحدّث عن قصّة الخليقة على هذه الصورة:

«في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية. وعلى الغمر (الماء) ظلمة. وروح الله يرف على وجه المياه. وقال الله ليكن جلد (الأرض الصلبة) في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه... ودعا الله الجلد سماء... وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد وتظهر اليابسة. ودعا الله اليابسة أرضاً. وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً وشجراً يعمل ثمراً كالجنّة وكان يوماً ثالثاً[2]. وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل فعمل الله النورين العظيمين وكان يوماً رابعاً... وخلق الله كل ذوات الأنفس الحيّة وكان يوماً خامساً... وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا... فخلق الله الإنسان على صورته... على صورة الله خلقه... وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حيّة... وفرغ الله في اليوم السادس من عمله، واستراح في اليوم السابع...».

مقارنة: يظهر لنا من مقارنة قصص الخليقة لدى مختلف الأمم والأقوام، ان العناصر الأساسيّة التي تقوم عليها جميعاً متشابهة متناظرة بعضها مع البعض الآخر.

فقد اتّحدت الأساطير السومرية والكلدانية والبابلية، في أن الماء هو المادة الأزلية، ومنها تكوّنت الآلهة والأشياء. وكان عنصر الماء (الإله المادي) هو الخالق للآلهة والأشياء ولكل الموجودات. وهو الأزلي الذي لم يسبقه أحد، ولم يخلقه أحد. واتجهت الأساطير الفرعونية هذا الاتجاه نفسه واعتبرت انه كان في البدء، المياه الأولى أو المحيط المظلم، وكانت الأرواح ترفرف فوق البحار ونفذ روح الإله وخلق كل شيء.

وأما سفر التكوين العبري، فقد أيد وجود الغمر (الماء) فوق الأرض، وأن روح الإله كانت ترف على وجه المياه. واتفقوا على أن الإله فصل السماء (وهو من المادة الصلبة عند الجميع) عن الأرض. واتفقوا أيضاً على أن الإله أو الإلهة خلقت آدم على صورتها وشكلها، وعلى انه خلق من جزأين متضادين إلهي وترابي.

إن الفرق البارز في الخليقة والتكوين هو أن الأساطير الكلدية والسومرية قد أعطت الأزلية إلى المياه الأولى التي تكوّنت منها الآلهة، وهي التي خلقت الكائنات، وأن الإله مردوخ هو الذي خلق الكواكب والنجوم والشمس والقمر، وحدّد المواقيت والزّمن، فقسم الكهنة الأسبوع إلى سبعة أيام تيمّناً بعدد الكواكب السبعة المقدسة، واعتبروا اليوم السابع من الأسبوع يوماً مقدساً. وأما سفر التكوين فقد اتجه إلى وحدانية الإله وأعطى الأزلية إلى الخالق الواحد (الرب) الذي سبق المادة وهو الذي خلق الأنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، فكانت بدء الزمان، وخلق جميع الكائنات في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع، فكان يوماً مقدساً.

الجنة: يبدو أن محرر سفر التكوين، كان واسع الاطلاع على ما جاء في الأساطير السومرية والكلدانية حول جنة عدن، وخلقة آدم وإسكانه في الجنة، ثم إخراجه منها، وتكاثر البشر فوق الأرض والطوفان العام وبرج بابل، مما ذكرناه مفصلاً في كتاب آخر عند بحثنا في الديانة الكلدوسومرية، نأخذ منها هنا ما نحتاج إليه لمقارنتها مع ما جاء في سفر التكوين العبري.

الجنة السومرية والكلدانية: عني «السير وليم ويلكوكس» مهندس الريّ الشهير، بفحص الأراضي المنخفضة التي يمكن إرواؤها سيحاً طوال أيام السنة على جانبي الفرات، فعثر على مكانين، احدهما يقع بين مدينتي عنه وهيت. وكان هذا المكان فيما مضى مقراً للآكديين والعبريين، وكان فيه زراعة واسعة، وأشجار وكروم، فاعتبرها جنة عدن الساميين، التي ورد ذكرهافي سفر التكوين. والمكان الثاني يتألف من المنخفضات الواقعة بجوار الأهوار والمستنقعات بين مدينتي أور الكلدان وأريدو في الملتقى القديم لنهري دجلة والفرات، وكانت هناك جنة عدن السومريين، وهي التي ورد ذكرها في الألواح السومرية السبعة عن الخليقة.

ويرى المستشرق «سايس» أن جنة عدن الكلدوسومرية، كانت تقع في سهل بابل، بدليل أن كلمة عدن أصلها بابلية، ومعناها السهل البابلي.

غير أن الدكتور «كينغ» يدّعي بأن جنة عدن، كانت تقع قرب مدينة أريدو المقدسة، الواقعة بالقرب من الخليج العربي، مستدلاً من رأيه هذا بقطعة حجرية بابلية محفوظة في المتحف البريطاني، فيها تحديد للمساحة التي تقع على قنال عدن في جنوب ملتقى نهر دجلة بالفرات من البحر.

لقد أجمعت أكثرية الباحثين على مخالفة رأي ويلكوكس، وقالوا بأن جنة عدن الإسرائيليين هي نفسها جنة عدن السومريين الواقعة شمال مدينة أريدو، لأن هذا المنخفض والبحيرات والأهوار العذبة، بما فيها من أشجار النخيل الباسقة والكروم، والرياض والحدائق.. كانت كلها قد اشتهرت في دلتا الرافدين بحسنها وجمالها وجودة أثمارها، اشتهار تمور البصرة في زماننا هذا. يضاف إلى ذلك كله حرمان الأماكن الأخرى من أمثالها في تلك الأزمنة، مما سبّب انتشار شهرتها في كل مكان.

وكان الإعتقاد السائد عند السومريين والكلدانيين ان الإله أهوا ـ أيا الذي اتخذ مسكنه في أعماق نهر أهوا ـ جيحون ـ خابور هو الذي يغرس الأشجار ويسقي الزرع وينشىء الجنان ويلبس الحقول حللاً خضراء. فقد جاء في أسطورة كلدوسومرية: «أنت أيها النهر خلقت لنا جميع الأشياء لما انشأتك الآلهة العظام. إنها ألبست ضفافك حلة الرخاء، واختار أيا بيته في وسطك».

وأما سفر التكوين العبري فقد ذكر هذه الصفات إجمالاً فقال: «أن الرب الإله هو الذي غرس الجنة في عدن شرقاً».

وجاء في سفر التكوين أيضاً (وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس اسم الواحد فيشون وهو المحيط بأرض الحويلة، واسم الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم الثالث نهر حداقل وهو الجاري شرقي آشور والنهر الرابع الفرات (10 ـ 2 تكوين). ولما كان نهر فيشون يروي الأراضي الكائنة بين الرمادي وكربلا، ونهر جيحون هو نهر الهندية الحالي وكان يسمى أيضاً نهر الخابور (1 ـ 1 حزقيال) ويسمى نهر أهوا (31 ـ 1 عزرا) باعتباره مستقراً للإله أهوا وكان يخترق أراضي الحكومة الكشية الممتدة حتى جنوب الديوانية، ونهر حداقل (دقلة) هو نهر دجلة الحالي، وكان ولم يزل يجري شرقي آشور (الشرقات) والفرات حتى الآن، ولم يزل محافظاً على اسمه، فان أسماء هذه الأنهر لتدل دلالة واضحة لا لبس فيها ولا شك، على أن جنة عدن الساميين المنوّه عنها في سفر التكوين العبري، كانت في جنوب العراق، وفي ملتقى هذه الأنهر، وهو المحل الواقع بين مدينة أريدو وأور الكلدان، وكانت تمتد حتى الموقع الذي فيه مدينة القرنة الآن.

أبو البشر: جاء في الأساطير الكلدوسومرية انه لما حكمت الآلهة بقتل الإله المذنب كنكو قائد الربة العاتية الأم تيومات، قرّرت خلق لولو ـ أبو البشر من دمه ومن تراب الأرض ليعبدها، ووضعته في جنة عدن ليعمل بها ويهيّىء لها الطعام والشراب كجزاء أبدي له. ولما كان العقل البابلي لم يجد بأساً من اعطاء زوجات وعشيقات للآلهة فإنه لم ير حرجاً في إعطاء لولو زوجة له من جنسه لتخدمه في الجنة. وأباحت له الآلهة الأكل من صنوف الأشجار والأثمار وأنواع الفواكه، عدا أشجار الكروم وما فيها من رحيق عذب منعش، فهو خاص للآلهة، وقد حرّم عليهما. فأقام فيها وبجانبه زوجه يتمتع بلذة الحياة ونعمة الخلود، بين صنوف الأشجار والأثمار. ولما كان في النساء حب الاستطلاع، فقد تناولت أولاً زوجه من ذلك الرحيق الخاص بالآلهة، وأعطت منه إلى زوجها، فغضبت عليهما الآلهة وأخرجتهما من جنة عدن إلى الأرض (بين عدن والأردن).

آدم عند السومريين: وجاء في أسطورة سومرية أخرى أن الإله أيا خلق أدابا ـ ولعل هذا الاسم انقلب بعد ذلك بالتداول، إلى أداما وأدم وآدم ـ. وقد وصف في الأسطورة بأنه أول بذرة للبشر، ومنحه الإله

الحكمة ومعرفة الخير والشرّ، وجعله يعد المائدة المقدّسة ويقوم بتوفير الطعام والشراب لأريدو مدينة الآلهة. ولما علم بذلك الإله آنو، إستدعاه إلى السماء وقدّم له طعام الحياة الدائمة، فلم يأكله، وماء الحياة الدائمة، فلم يشربه، فطرده الإله آنو من لدنه، وأعاده إلى الأرض، وبذلك أضاع الحياة الخالدة والنعيم الدائم.

وفي الأساطير الكلدانية أيضاً، أن روح الإنسان شبح يتمثل فيما يسمونه آدمو ـ ولعل هذا الاسم انقلب بعد ذلك إلى آدم ـ وصف انه يولد مع الإنسان، ويدخل القبر مع الجسد، ويستقر في اللحد، إذ لم يحصل ما يستوجب تشريده.

آدم عند الآشوريين: ووجد نص في رقيم عثر عليه في مدينة آشور (الشرقات) فيه ذكر للإنسانين الأوليين واسمهما أوليكرا وزلكرا، وقد وضعت إشارة الإله قبل كل اسم من اسميهما، مما يدل على أن الأبوين الأولين للبشر، كانا يتّصفان ببعض صفات الألوهية. ولعل مبعث ذلك الاعتقاد، أنهما خلقا من دم إلهي، وأن الطين جبل به (سومر).

وفي مسلة حمورابي أيضاً ذكر لقصص عنهما وعن إخراجهما من الجنة وعن الطوفان العام.

آدم في سفر التكوين: أما سفر التكوين العبري فيقول: «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة... ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها... وأوصاه قائلاً: وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها. وأوقع الرب الإله على آدم سباتاً، وأخذ ضلعاً من أضلاعه، وكساه لحماً، وخلق له منه زوجه حوّاء... فرأت المرأة أن الشجرة جيّدة للأكل... فأكلت منها وأعطت رجلها أيضاً... فأخرجهما الرب الإله من جنّة عدن...».

مقارنة: لقد ذكر الطرفان أن أبا البشر قد خلق من جزأين متضادين، إلهي وترابي، ووضع في الجنة ليعمل بها، وأن المرأة هي التي أغرت زوجها على مخالفة الأمر، واختلف في نوع الشجرة التي من أجلها أخرجا من الجنة إلى الأرض. ويظهر لنا ـ وان لم نعثر على نصّ صريح في التوراة ـ أن خروج آدم من الجنة عند العبريين كان نهائياً على أن لا يعود هو وأحفاده إليها مرّة ثانية. لذلك لا نجد في الشريعة اليهودية ما نجده في الشرائع الدينية الأخرى، من ذكر الحياة الثانية بعد الموت... وقد ارتفعت الأساطير القديمة كافة من الوجود، وثبّت سفر التكوين العبري فقط، لاعتصام الديانة المسيحية به جزئياً أو كلّياً.

قايين وهابيل: ثم يأتي سفر التكوين على قصة قايين وهابيل... ولدي آدم فيقول: «كان قايين عاملاً في الأرض وهابيل راعياً للغنم. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه.. ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر.. وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله».

أما الأساطير السومرية التي وجدت في حفريات نفر فهي ترمز إلى القصد نفسه. وقد نشرت مجلة سومر العراقية الاساطير مترجمة عن كرامر جاء فيها: أن الأخوين انشان إلهة الزرع ولهار إله الحيوان، لما شربا الخمرة وثملا حصل بينهما نزاع، فانقلب الصفاء السائد بين الأخ الراعي والأخت الفلاّحة جفاء. فتدخّل الإلهان أنليل وانكي بين الأخ والأخت... وهنا تنقطع الأسطورة ولا نعلم نتيجة التّدخل.

وهناك أسطورة سومرية أخرى شبيهة بقصّة قايين وهابيل تسمى أسطورة الأخوين ايميش واينتين خلاصتها: لما أراد إله الهواء أنليل أن تنمو الأشجار والحب فوق الأرض، وأن تحلّ في البلاد الوفرة والرّخاء، خلق مخلوقين أخوين هما: ايميش واينتين ليعنيا بشؤون الزرع والحيوان. فظهر نزاع بين الأخوين حول عملهما. فقد أراد اينتين أن يتخصص بالزرع ليكون فلاح الآلهة فنقم عليه أخوه ايميش، وحسده على الحظوة في عين الآلهة. ولكن الأخوين بدلاً من أن يقتتلا كما فعل قايين وهابيل ذهبا إلى مدينة نفر مقر الإله أنليل واحتكما عنده فحكم أنليل لأينتين. وركع ايميش ازاء اينتين.. وتنتهي الأسطورة بالصلح والسلام بين الأخوين.

ويظهر أن النزاع كان مستديماً بين أهل المدر والوبر، فقد عثر على أسطورة سومرية ثالثة شبيهة بقصّة قايين وهابيل تسمى انانا تفضل الفلاح يظهر أبطال القصّة فيها أربعة: انانا الإلهة، وأخوها اتو إله الشمس، ودموزى (تموز) الإله الراعي، وانكيمدو الإله الفلاح خلاصتها: «ان انانا عزمت على اختيار زوج لها، وكان أخوها أتو يحثّها على التزوّج من دموزى الإله الراعي، ولكنها هي نفسها كانت تفضّل انكيمدو الإله الفلاح، فيأتي إليها دوموزى، ليعرف السبب الذي يدفعها إلى تفضيل الفلاح عليه. إلا أن أنانا لا تحير جواباً. أما انكيمدو فيظهر انه من المسالمين إذ راح يسعى لترضية منافسه الراعي. بيد أن الراعي يأبى الرجوع والانثناء عن عزمه.. إلى أن يعده الفلاح بتقديم الهدايا، وحتى أنانا نفسها، لإرضائه...» وهنا تنخرم الطينة ولا يعلم نتيجتها، ويظهر أن دومودى الإله الراعي الجلف، قد تغلّب على انكيمدو الإله الفلاح المسالم.

إن هذه الأساطير، تعطينا صورة واضحة للنزاع الذي يحصل دائماً بين أصحاب الزرع وأصحاب المواشي.

جعل محرّر السفر لآدم ولداً مقدساً سمّاه شيث وتمسّك بأنساله تاركاً أولاده الآخرين. وفي الجيل العاشر من آدم ومن نسل شيث المقدّس يظهر نوح صاحب الطوفان العام في الميدان الديني.

الهوامش

(1) بدء الخليقة كما ورد في أرقام سني الآباء الأولين. وفي بعض نسخ التوراة المتعددة من يجعل بدء التكوين وخلق العالم سنة 2936 قبل الميلاد.

(2) ذهب محرّر سفر التكوين الى أن الرّب خلق العشب والبقل والشجر قبل خلقه النورين العظيمين. وفي هذا نظر!

الفصل الثالث الطوفان العام (2248 ق. م.)

آراء العلماء: لما كان العراق محاطاً من الشرق والشمال بجبال زاغروس وطوروس فقد يحدث فيه الطوفان من الأمطار الغزيرة، ومن ذوبان الثلوج بنسب متفاوتة في كل عام تقريباً. فقد شغلت إقامة السدود وتنظيم الريّ أهالي العراق منذ أقدم العصور حتى هذا اليوم. وكان قد جعلها كهنة بابل من أقسام العبادات التي ترضي الإله «أيا» المتّخذ عرشه في أعماق هذه المياه. ولما كان مستوى مياه الفرات قرب بغداد يعلو بكثير مياه دجلة، فقد استغل المهندسون القدامى هذه الظاهرة فأقاموا السدود وحفروا القنوات بين النهرين للاستفادة منها في أمور الريّ والزراعة. وكان أكثر السّدود المقامة على ضفاف الرّافدين أهمية، هو السدّ الذي أقيم على صدر نهر حداقل، نهر الصقلاوية الحالي. ويدّعي السير ويليام ويلكوكس مهندس الريّ الشهير، أن هذا السدّ العظيم كان قد ضاعف من تصريف مياه الفرات فارتفع مستوى النهر إلى ضعف ما كان عليه قبل إنشاء السدّ.

حدث في سنة من السنين حوالى 3500 ق. م. أن حصلت أمطار غزيرة فوق المعتاد، فانحدرت إلى دجلة والفرات، فارتفع مستوى النهر إلى أربعة وعشرين قدماً بدلاً من ستة عشر قدماً كما كانت الحال قبلاً. فكانت فيضانات عالية ملأت أحواض الأنهر والوديان، وتمزّقت على أثره السدود فغمرت المياه المنخفضات وكافة الصحاري والسهول، فأغرقت مدن العراق الجنوبية بأجمعها وبضمنها أور الكلدان وكيش وفاره والوركاء وأريدو المقدّسة وسوريباك، فأحدث هذا الطوفان رجّة عنيفة وكارثة عظيمة بين سكّان العراق لم يكن لها مثيل فيما سبق، خاصة لما لمدينة أريدو المقدّسة، مقر الآلهة والمعابد، من منزلة رفيعة بين الناس، باعتبارها أوّل مدينة بنتها الآلهة بيدها. وهي مدينة الزّوار والعبّاد والزهّاد، يحج إليها الناس من كل حدب وصوب، فدخلت في أساطير السومريين والكلدانيين، وورد ذكرها في أسطورة جلجامش الشهيرة، فانتقلت هذه الكارثة بالتواتر جيلاً بعد جيل، من السومريين إلى الكلدانيين وإلى الاشوريين، ومن ثم إلى كل الأمم والأقوام المجاورة، فسجلّها كل منهم بشكل يتوافق وميوله الإجتماعية وحالته الروحيّة.

الطوفان عند السومريين: عثر المنقّبون العراقيون في أربع مدن رئيسة قديمة في جنوب العراق وهي: أور والوركاء وكيش وفاره، على طبقات ثخينة من الطين الخالص، في مستوى واحد، يرجع تكوينه إلى نهاية دور جمدة نصر 3500 ق. م. ووجدوا فوقه وتحته بقايا بشرية تعتبر دليلاً على الطوفان العام الوارد ذكره في التوراة.

وكان الإنكليزي «جورج سميث» قد إكتشف في خزانة الإله نبو، إله الحكمة والمعرفة في مكتبة آشور بانيبال (668 ـ 633 ق. م.) في خرائب نينوى عام 1900 للميلاد الحجر المسمى «ساردانا بولس» وهو محفوظ في لندن، وفيه أسطورة الطوفان تفصيلاً خلاصتها: لما ظهر الفساد بين البشر عزم الإله أنليل ـ بعلى ـ بيل على إغراقهم جميعاً في الماء. فأرسل إلى قس ثوطروس ـ أوتو نبشتيم ـ نوح

الطوفان أن يصنع له فلكاً وينجو بأهله وأولاده من الغرق. فكان الطوفان العام وهلك جميع البشر.

وورد ذكر الطوفان في مسلة حمورابي وهي توافق على ما جاء في الحجر ساردانا بولس. ثم اكتشفت الألواح السبعة السومرية التي هي الأصل في أسطورة الطوفان التي وجدت في خرائب نينوى. قرأها وحلّ رموزها كثير من المستشرقين، وقد اعتمد السير ويليام ويلكوكس على قراءة الدكتور (ر. و. روجرز) أحد أساتذة قسم الدراسات اللاهوتية وترجمها إلى العربيّة الأستاذان: محمد الهاشمي والدكتور أحمد سوسة.. كان البطل فيها يسمى: أوتو ـ نبشتيم، والمسمى نوح الطوفان، وهي جزء من قصة البطل السومري المشهور كلكامش، قصّها عليه نوح الطوفان في عالم الخلود. وهذا نصّها لمقارنتها مع ما جاء في سفر التكوين العبري[1]:

اقترب الوقت الموعود. في المساء أرسلت الآلهة مطراً غزيراً.
لقد خشيت فجر ذلك النهار. وخفت أن أرى ذلك اليوم.
دخلت الفلك. وأوصدت الباب دوني. هبّت العاصفة شديدة عالية.
فطغى الماء. وغطّى وجه الصحراء. إنها أداة تخريب كتسوا بها البشر.
لم يكد يرى المرء صاحبه. لقد أنكرت السّماء الجنس البشري.
خشيت الآلهة الطوفان. تراجعت وتسلّقت سماء (آنو).
ربضت الآلهة كالكلاب. وانحنت بجانب الجدار.
بكت (اشتار) بكاء المرأة وهي في المخاض.
ناحت ملكة الآلهة وهي تبكي بصوت عال.
[استحالت العناية الأولى إلى طين].
هبّت العاصفة. ثم جاء الطوفان.
وغطّى وجه الأرض ستة أيام. سويّاً.
وفي اليوم السابع هدأت العاصفة وتوقف الطوفان.
بعد أن حارب حرب الجيوش.
فهدأ البحر وسكتت العاصفة. ثم توقف الطوفان.
نظرت البحر وأنا أرفع صوتي بالعويل.
[استحال الجنس البشري إلى طين].
وغدت الحقول كالأهوار.
فتحت النافذة فارتسم النور على وجهي.
سجدت ثم جلست أبكي.
بكيت حتى سالت دموعي على خدي.
نظرت إلى الأرض فكانت كلها مغمورة بالماء.
لكن بعد أن مضى اثنا عشر يوماً.
لاح لي وجه الأرض.

فاتجهت السفينة إلى صحراء نصير.
لكن صحراء[2] نصير أوقفتها هناك.
ولما دنا اليوم السابع.
أرسلت حمامة وتركتها تذهب.
طارت الحمامة هنا وهناك.
لكنها رجعت حيث لم تجد لها مكاناً تجثم عليه.
أرسلت عصفورة وتركتها تذهب.
طارت العصفورة هنا وهناك.
لكنها رجعت حيث لم تجد لها مكاناً تجثم عليه.
أرسلت غراباً وتركتها تذهب.
طارت الغراب. فرأت انحسار الماء. اقتربت من الأرض. خاضت. نعقت. ولم ترجع.
ثم أطلقت كل شيء صوب الجهات الأربع. وقدّمت القرابين.
سكبت الدم على الاكمة الصحراوية. قدّمت أطباق القرابين سبعاً سبعاً.
جمعت تحتها أكوام القصب. وخشب الأرز والآس.
فتنسّمت الآلهة الرائحة. تنسّمت الرائحة الزّكيّة.
اجتمعت الآلهة كالذباب. حول من قدّم القرابين.
ولما دنت سيدة الآلهة (استار)
رفعت الجواهر الغالية التي صنعها (آنو) وفقاً لرغبتها.
وقالت: «سوف لا أنسى هذه الأيام التي طوّقت فيها عنقي بالجواهر.
سأفكر في هذه الأيام وسوف لا أنساها».
لتأت الآلهة إلى القرابين. أما بيل ـ بعل فلا يأتي إلى القرابين.
لأنه استبدّ برأيه فأرسل الطوفان.
[وسلم بذلك شعبي إلى الفناء].
تنحنح (ايا) وتكلّم بملء فيه. تحدّث إلى المحارب (بعل).
أنت أيها المحارب بيل ـ بعل.
أنت الناطق باسم الآلهة.
لقد أرسلت الطوفان حيث لم يكن ثمة من يخلص لك النصيحة.
يكتب على جبين المجرم جرمه.
يكتب على المعتدي إثم عدوانه.
كيف. لا تدع الخراب يعمّ العالم. ولا تدع البريء يكون....

ولما كان آنو إله السّماء واستار أو عشتار بغي الآلهة وآلهة الحب والغرام وبعل ويسمى أنليل إله الجوّ والهواء وأيا ويسمى أيضاً انكي ويسمى «يا ساهوا» و«يا ـ هوه»[3] إله الأرض والمياه عند

السومريين والكلدانيين فلا خلاف أن طوفان نوح الوارد ذكره في العهد القديم هو الطوفان نفسه الذي أشارت إليه هذه الأسطورة السومرية وقد وقع حوالى 3500 ق. م. في القسم الجنوبي وفي القسم المنخفض من دلتا الفرات ودجلة، وهي الأرض الواقعة شمال مدينة أور الكلدانية. وكانت مدينة «سورياك» وجنائن مدينة أريدو من جملة ما غرق بالطوفان.

ويعتقد السومريون أن أوتو ـ نبشتيم ـ نوح الطوفان بعد خروجه من سفينته صعد إلى السماء وارتقى إلى درجة الخلود مع الآلهة.

الطوفان عند الأمم الأخرى: أخذ الفريجيون أسطورة الطوفان فقالوا: إن الملك «نانا كوس» تنبّأ بمجيء طوفان عام وبكى على شعبه. وأخذها اليونانيون وقالوا: أن ملك تساليا أخبر عن أبيه بمجيء طوفان عام فبنى له فلكاً، نجا به. وأخذها الفارسيون وقالوا: إن العالم قد فسد من أعمال اهرمن إله الشر، فوجب غسله بالماء. وأخذها الهنود وقالوا: ان الإله أمر الملك سايتا فرايتا أن يبني له فلكاً ويضع داخله كل أنواع النباتات والحيوانات...

الطوفان في سفر التكوين: وأما سفر التكوين العبري فقد سجّل قصّة الطوفان في سفر التكوين في الأصحاح السادس والسابع والثامن بما خلاصته:

«... إن أبناء الله رأوا بنات الناس. انهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا... وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة... ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض... فحزن الرب من عمل الإنسان في الأرض، وتأسّف في قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته... لأني حزنت أنّي عملتهم... وأما نوح فوجد نعمة في عين الرب... فقال الله لنوح: اصنع لنفسك فلكاً من خشب... وتطليه بالقار... فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح... فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك. ومن كلّ حيّ ومن كل ذي جسد اثنين... تكون ذكراً وأنثى من الطيور ومن البهائم... ومن كل دبّابات الأرض... لأنّي بعد سبعة أيام أمطر على الأرض أربعين يوماً وليلة... وأمحو عن وجه الأرض كلّ قائم عملته...

فدخل نوح ومن معه الفلك... وانفتحت طاقات السماء... وتكاثرت المياه... وتغطّت جميع الجبال الشامخة، التي تحت كلّ السّماء. خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع. تعظمت المياه. فتغطّت الجبال، فمات كل ذي جسد كان يدبّ على الأرض... فمحا الله كل قائم على الأرض... ثم ذكر الله نوحاً ومن معه في الفلك... فهدأت العاصفة. فامتنع المطر من السّماء... وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه واستقرّت الفلك... على جبال أراراط... وحدث بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك... وأرسل الغراب فخرج متردّداً... ثم أرسل الحمامة ليرى هل قلّت المياه... فرجعت إلى الفلك، وعاد فأرسل الحمامة من الفلك... فأتت إليه... وورقة زيتون خضراء في فمها... وبعد سبعة أيام عاد وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه... فكشف نوح الغطاء عن الفلك. وإذا وجه الأرض قد نشف... فخرج نوح وبنوه [سام ـ حام ـ يافث] ومن معه إلى الأرض... وأصعد محرقات على المذبح فتنسّم الرب رائحة الرضا... وبارك الله نوحاً وبنيه... وابتدأ نوح يكون فلاحاً...»(4).

يظهر من مقارنة رواية الطوفان العبرية مع الرواية السومرية، أنهما متقاربتان جداً، وقد أيّدت

الرواية العبرية ما جاء في الرواية السومرية، بفارق واحد هو أن المحرّر العبري قد وصفها بشكل يتوافق وأهدافه التوحيدية فقال: «تنسّم الرب رائحة الرضا»، واعتبر مدة الطوفان مئة وسبعة وتسعين يوماً، وفيها نظر، بينما وصفها المحرر السومري بشكل يتلاءم والمظاهر الطبيعية، ومبدأ تعدّد الآلهة السائد في عصره، فقال: «تنسّمت الآلهة الرائحة الزكيّة»، واعتبر مدّة الطوفان اثني عشر يوماً فقط، وهي مدة الفيضانات العالية الحقيقة.

لم يكن من المعقول، أن يغطي الماء الذي ارتفاعه خمسة عشر ذراعاً ـ كما ورد في السفر ـ الجبال الشامخة. ولما كان لا يوجد في العراق الجنوبي الذي وقعت فيه هذه الكارثة ما يطلق عليه اسم جبل بالمعنى المعروف، فلا بد وانه قد غمر الأراضي الصحراوية المرتفعة التي قد يطلق عليها أهالي الأقسام الواطئة اسم جبل.

ولعل كلمة أراراط إنما تشير إلى بلاد «أراراتو» الواقعة في الشمال الشرقي من جبال أرمينية، إن لم يكن لها مدلول آخر بالعبرية. فلا خلاف في أن الطوفان، قد وقع في الأقسام المنخفضة من دلتا دجلة والفرات شمالي مدينة أور، وكانت مدينة أريدو العاصمة المقدّسة مركزاً للكارثة. فكان كل ما جاء في سفر التكوين عن عناصر الكون الأولى، وخلق آدم وإسكانه بالجنّة، ثم إخراجه منها، وتكاثر أولاده وأحفاده، فوق سطح الأرض، وظهور الفساد بين البشر، وغضب الإله وإرساله الطوفان لمحو الإنسان، ونوح وسفينته، موجود مثله أو ما يشابهه عند الأمة الكلدوسومرية.

ومما يستوقف النظر، أن محرر سفر التكوين العبري، يترك انسال حام ويافث جانباً، ويتمسّك بأنسال سام فقط. فيخرج من نسل سام ابرام أو ابراهيم، ثم أولاده وأحفاده على طول الخط، كأن المطلوب من قصّة التكوين والخليقة هو تثبيت هذه الأنساب فحسب، ولا عبرة للأنسال البشريّة الأخرى كافة.

الهوامش

(1) في مجلة سومر العراقية ترجمات كثيرة لا تخرج عن نطاق هذه الترجمة.

(2) اختار المترجم كلمة صحراء لعدم وجود كلمة تقابل كلمة (جبل) بالمعنى المعروف في جنوب العراق.

(3) ولعل يهوه إله بني إسرائيل مشتقّ من هذا الإسم.

(4) بينما نجد القرآن الكريم، ينصّ على أن طوفان نوح كان موضعياً وخاصاً بقوم نوح فقط كما هو الواقع. فقد جاء في سورة العنكبوت: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ (14). وفي سورة الشعراء: ﴿كذّبت قوم نوح المرسلين﴾ (105)... ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون. ثم أغرقنا بعد الباقين﴾ (120)، وفي سورة الأعراف: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه.... فكذّبوه وأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا انهم كانوا قوماً عمين﴾ (64) وفي سورة هود: ﴿وأوحى إلى نوح انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ (36)، وفي سورة الفرقان: ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية﴾. مما يستدل منه أن نوح لم يكن من أنبياء أولو العزم ورسولاً إلى البشر كافة إنما أرسل إلى قومه فقط. ولذلك كان الخطاب في جميعها موجّهاً إلى نوح وقومه. ولم يكن من عدل الله أن يأخذ جميع البشر والحيوانات وكلّ ما يدبّ على سطح الأرض بجريرة قوم نوح.

الفصل الرابع النبي ابرام بن تارح (1996 ـ 1821 ق. م.)

هجرة العبريين: لما هاجر الاكديون وكان معهم العبريون، من شمال الفرات إلى جنوبه، استوطنوا في القطعة الكائنة بين بابل وأور، وبدأوا يزاحمون السومريين في احتلال دلتا الرافدين. فحصل نزاع بين الساميين المهاجرين، والسومريين سكّان البلاد الأصليين، فكان فساد في الأرض امتدّ أجيالاً كثيرة. ويعتقد أن هذا الفساد هو الذي أشار إليه العهد القديم بقوله: «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، فحزن الرب من عمل الإنسان في الأرض... فقال امحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته»، فأرسل عليهم الطوفان.

وإذا كان جنوب العراق قد غرق في الطوفان فقد ازدهرت بعد ذلك المدن كافة، وعمرت أور الكلدان موطن النبي ابرام فكانت عاصمة البلاد.

طرد العبريين: كان الاكديون الساكنون في أور، قد سئموا تصرّفات العبرانيين النزلاء في كنفهم، تلك التصرّفات المخالفة للشرائع المحليّة، فاضطهدوهم وأخرجوهم من ديارهم. وكانت آخر قافلة عبرية خرجت من أور الكلدان، في طريقها إلى حرّان ـ نظراً لرواية السفر ـ تحت قيادة تارح بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح، ومعه ابرام وناحور ابناه، ولوط بن هاران ابن ابنه المتوفى في أور الكلدان، وساراى بنته وكنّته امرأة ابرام ابنه.

ويظهر انه كان في حرّان ـ المسمّاة بعد ذلك بلاد آرام ـ فريق من العشيرة العبريّة، سبق أن هاجرت إليها من العراق الجنوبي، واستوطنت فيها، فلحقتها هذه القافلة الصغيرة، وسكنت معها.

النبي ابرام: وبينما كانت الآلهة والأديان، والشرائع والمعتقدات عند مختلف الأمم والأقوام، تابعة لما يمليه الرهبان والشعراء والحكماء والكهنة ورجال الأديان، وهي متناسبة من حيث الرّقي الفكري والاجتماعي، مع العقلية السائدة عند تلك الشعوب والأمم، وبما يحيط بهم من الصحاري والجبال والمياه، والحروب والمؤثرات الطبيعية، والاحتياجات المختلفة، وهي موسسة في الغالب، على آثار الطبيعة. وبينما كانت معابد الاكديين والسومريين في أور والوركاء ونفر وأريدو... مليئة بتماثيل الآلهة آنو وأنليل ـ بعل وأيا ـ ياوه ـ انكى ومردوخ وسن وشمش... إذ ظهر في الميدان الديني النبي ابرام، خارجاً على آلهة مواطنيه، منددأ بعبادة الأحجار والأنصاب والتماثيل والأصنام، ساخراً من عبادة الشمس والقمر والنجوم، مزدرياً بآلهة الأمم التي شاهدها في حلّه وترحاله وحضره وسفره... وبينما كان في حرّان مستغرقاً في حيرته، يبحث عن إله يعبده، إذ تجلّى له الرب، فأمره بالرحيل إلى أرض كنعان... فأطاع ابرام قول هذا الرب، وهو لا يعلم ما وراء هذا الأمر. فرحل إليها عام 2000 ق. م. طلباً للعيش، مستصحباً معه لوط إبن أخيه، وساراى زوجته.

بين الكنعانيين: كان الكنعانيون الساميون قد استوطنوا فلسطين حوالى عام 4000 قبل الميلاد، فلم يكن هذا الوطن الجديد بغريب على المهاجر ابرام السامي، فأقام معهم بسهولة ودون عناء.

وهنا يظهر له الرب للمرة الثانية، وهو في أرض كنعان، ويقول له «لنسلك أعطي هذه الأرض»، فيعلم ابرام القصد من هذه الهجرة، ويبني هناك معبداً ويدعوه «بيت أيلي» أي بيت الرب. إلا أن ابرام لم يكن حتى ذلك الوقت، قد استوعب صفات هذا الرب الذي تجلّى له مرتين، وهو لم يزل نهب الحيرة والرّغبة في الاطّلاع.

عند الفراعنة: وكان ابرام مولعاً بالسفر، لا يستقر له في محل قرار، فما ان حلّ في مدينة أو قرية، إلا رحل عنها إلى أخرى، كأنه فيها عابر سبيل. وكان فقيراً معدماً لا يملك ما يقتات به. وكانت البلاد تجتاحها موجة من القحط والغلاء، فرحل إلى مصر طلباً للعيش والارتزاق، وأقام فيها مدّة من الزّمن، اطّلع خلالها على صفات الآلهة الفرعونية الكثيرة العدد. وكان النزاع في مصر حينذاك قائماً على قدم وساق، بين فرقتين من كهنة الآلهة، الأولى: فرقة الإله آتون، وهو قرص الشمس، الإله الواحد الأحد، ولكن ابرام يرفض عبادته لأفوله مساء كل يوم. والثانية فرقة الإله آمون وهو إله الآلهة وربّ الأرباب، الإله الواحد غير المنظور، والمخفي نفسه، خالق السّماوات والأرض، والذي لم يخلقه أحد، وهو الذي خلق كل شيء، الأبدي الأزلي، والحاضر والناظر في كل مكان، والقادر على كل شيء، وقد استوعبت قدرته جميع الكائنات، إلخ... ومع هذا التوحيد بالذات، كان هذا الإله مثلثاً بالصفات وهو رأس ثالوث طيبة عاصمة الفراعنة المكوّن من آمون ـ موت ـ خونس فيعرض ابرام عن عبادته أيضاً لتعدّد صفاته. وبعد أن درس واطّلع على أفعال وصفات الآلهة كافة التي رآها سابقاً في أور وحرّان وأرض كنعان ومصر، تلك المنحوتة من الأحجار، والمصنوعة من الخزف والقوارير، أو المتّخذة مستقرّها في السّماء أو في الشّمس أو في الأجرام الفكليّة الآفلة... اتّخذ له إلهاً واحداً وسمّاه يهوه ـ إله السّماوات والأرض، ولم يزد على هذه الصّفة شيئاً. وكلمة يهوه باللّغة الكلدانية، تأتي بمعنى الأبدي ـ الأزلي ـ الدائم الوجود.

الأسباط: يظهر الإله للمرّة الثالثة لأبرام في أرض كنعان، ويقول له: سيكون اسمك من الآن وصاعداً «ابراهيم». ويقطع معه عهداً على أن يُخرج من صلبه اثني عشر سبطاً، يملكون أرض كنعان، مقابل عبادتهم له وحده، وعلامة العهد أن تختن غرلة كل ذكر وهو ابن ثمانية أيام.

زيارة الرب: تقول التوراة، أن الرب تراءى لابراهيم بعد ذلك في اليقظة والحلم مرّات عديدة. وقد ظهر له مرّة ومعه رجلان من رجاله، وقت حرّ النّهار، وكان النّبي ابراهيم جالساً في باب خيمته، فاستقبلهم وأجلسهم تحت الشّجرة، وقدّم لهم ماء ليغسلوا أرجلهم، ثم ذبح لهم عجلاً سميناً. وبعد أن أكلوا واستراحوا قالوا له: «أين ساره امرأتك؟» فقال: «ها هي في الخيمة» (9 ـ 8)، فبشّر أحد الرّجال الثلاثة وهو (الرب) النبي ابراهيم، بأنّه سيكون له ابن من زوجته ساره. «فضحكت ساره في باطنها» (12 ـ 18) لأن بعلها كان شيخاً، فيغتاظ الرب لضحكتها، ويقول لابراهيم: «لماذا ضحكت ساره قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت، هل يستحيل على الرب شيء» (13 ـ 18)، فخافت ساره من كلمة الرب ومن هذا التّهديد، «وأنكرت قائلة لم أضحك. فقال: لا بل ضحكت» (15 ـ 18) وبشّرها بإسحاق فحملت به.

سبب الزيارة: تقول التوراة، إن سبب نزول الرب إلى الأرض هذه المرة، هو انه رأى أن صراخ مدينة سدوم

قد كثر، وخطيئتها قد عظمت، حتى وصلت إليه، فرغب أن ينزل ليرى ويعلم سبب هذا الصّراخ والعويل، وحقيقة هذه الخطايا.... فخرج الرّجال الثلاثة من عند النبي ابراهيم، وتطلّعوا نحو سدوم، فأرسل أحدهم (الرب) أمامه الرجلين الآخرين (الملكان) إليها. يقول السفر: «بعد أن آخرجا لوطاً مع بنتيه منها، أمر الرب فأمطرت السّماء عليها دخاناً وكبريتاً وقلبا المدينة رأساً على عقب».

يقول بعض السوّاح الذين شاهدوا هذه الدّيار، إن تربتها بركانيّة صخريّة، وهي معرّضة للزلازل دائماً. وقد حصل فيها في زمن من الأزمان زلزال، سبّب غوراً في الأرض بعمق 3800 قدم عن مستوى المدينة المقدّسة (أورشليم)، و1300 قدم عن مستوى البحر. ومن هذا الانخفاض، تكوّنت «بحيرة لوط» التي تصب فيها مياه نهر الأردن.

ذبح اسحاق: كانت العقيدة الفينيقية، تحتّم تقديم القرابين البشريّة إلى الإله مولوخ، وقد انتشرت هذه العقيدة في سواحل البحر المتوسط كافة. ولعلّ هذا الشعور الديني هو الذي دفع النبي ابراهيم لأن يقدّم ولده اسحاق ذبيحة للآلهة. فأخذ حطب المحرقة، والنار والسكين، وصعد مع ولده الجبل، ولما مدّ السكين لذبح ابنه، ارتجفت يداه، فخيّل إليه أنّه سمع صوتاً من السماء يقول: «يا ابراهيم علمت انك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنّي؟». فسقطت السّكين من يده، ولما التفت وراءه رأى كبشاً يرعى في الجبل، فأخذه وذبحه عوضاً من ابنه، وسمّي ذلك المحل: «يهوه يرأه» (14 ــ 22)، وهي بمعنى الرب رأى.

كلمة يهوه: ووردت كلمة يهوه وأهيه في سفر الخروج، وفي أسفار الأنبياء بعد ذلك كثيراً، في قول الرب لموسى، «وأما باسمي يهوه فلم أعرف عندهم» (4 ــ 6) ومنها «هكذا تقول لبني اسرائيل: أهيه أرسلني إليكم» (14 ــ 3 خروج). وفي محل آخر أيضاً، «تقول لبني اسرائيل: يهوه إله آبائكم إله ابراهيم واسحاق ويعقوب أرسلني إليكم». وجاء في سفر النبي عاموس «يهوه اسمه» (6 ــ 9)، وفي سفر النبي اشعيا «لأن ياه يهوه قوتي» (2 ــ 13)، وكان قد مسح النبي اليشع يا ــ هوا بن يهو شافاط، مسحه بالزيت المقدّس وجعله ملكاً على يهوذا (3 ــ 9 م. ث.) وكان ياهو بن حناني، نبياً في اسرائيل (1 ــ 16 م. أ.) ويهوذا ابن النبي اسحاق، أحد رؤوس الاسباط الاسرائيلية، وإليه ينتسب اليهود، وكان يهو آشى بن يهو آحاز بن ياهو ملكاً على اسرائيل (10 ــ 13 م. ث.)، وكان الإله يهوه قد قال لجدعون: السلام لك، فبنى جدعون مذبحاً للرب ودعاه: «يهوه شلوم» (24 ــ 6 قضاة) أي الرب سلم. وفي سفر أرميا يهوه اسمه (2 ــ 33)، وفي سفر عزرا «فجمعتهم إلى النهر الجاري إلى أهوا، ونزلنا هناك ثلاثة أيام» (15 ــ 8). فمن هو (يا) و(ياه) و(أهيه) و(أهوا) و(يهو) و(ياهو) و(يهوذا) و(ياهوا) و(يهوه) وثم يهود؟ ومن اين أتت هذه الأسماء المترادفة؟

مصدر كلمة يهوه: كان السومريون يسمون أحد آلهتهم العظام أيا .E. A ويعتقدون انه حفيد الإله أبسو، وهو والد الإله (مردوخ)، ويسمى أيضاً للتخفيف (يا)، ثم صار بالتعاقب ياه وياوه ويا ــ هوا ويهوه، وكان هذا الإله على زعمهم يسكن في النّهر المسمّى خابور، (1 ــ 1 حزقيال)، ويسمّى أيضاً نهر اهوا (21 ــ 8 عزرا). وسماه الاسكندر الكبير بالاكوباس. وسماه العرب نهر الكوفة، وهو النهر الذي يمر حذاء مدينة بابل، فيسقي مدينة أور ومزارع مدينة أريدو المقدّسة، فيغدق عليهما الأرزاق والخيرات

والبركات. وكان عندهم فتح الجداول وتطهير القنوات، وتنظيم الريّ، وإقامة السّدود، وغرس الأشجار، وسقي الجنان، كانت هذه الأمور كلّها مما يرضي هذا الإله، ويستوجب عطفه وكرمه، فيمنحهم الرّخاء. أما اهمالها فيستوجب غضبه وانفعاله، فيرسل عليهم الطوفان والأمراض.

ويظهر من قول عزرا الكاهن، «فجمعتهم إلى النهر الجاري إلى أهوا»، أنه كان هناك معبد للإله أهوا في جنوب مدينة بابل، فسمّي النهر باسمه. وقد ورد ذكره في سفر عزرا مرة أخرى فقال: «ثم رحلنا من نهر أهوا... لنذهب إلى أورشليم» (31 ـ 8)، وورد ذكره للمرة الثالثة في قوله: «وناديت بصوم على نهر أهوا» (21 ـ 8). فكان يا وياه وأهيه وياوه وأهوا ويهوه، أسماء مترادفة للإله أيا.

وكان السومريون يحترمون من بين آلهتهم الكثيرة العدد، هذا الإله أيا، المتّخذ مقرّه في الأهوار، وفي أعماق المياه العذبة، دكلاتو وفراتو، أي دجلة والفرات، لتغلبه على الإله جده أبسو، ولأمر ما كان قد عجز عن التغلب على الربة العاتية تيامة، حتى ظهر ولده مردوخ فقضى عليها.

ذكر ويلكوكس في كتابه «بين عدن والاردن»، عند بحثه عن ألواح الخليقة البابلية السبعة في البند 35، (وهذه القصص ترجع إلى العصر السومري الاول، ويستفاد من هذه الألواح أن نهاية حكم الربة تيامه أو تهومة أو تهومات، وكانت أماً للسماء والأرض، وكانت المبدع الأول للكائنات، كانت على يد مردوخ إله البابليين، لا على يد يهوه، إله السومريين).

وكان لما شاهد الأقدمون، أن الماء سبب الحياة في العالم، وان الأنهر هي التي تروي الأرض وتحيي الزرع وتسقي الاشجار، اعتقدوا أن الآلهة تسكن في أعماق المياه. وفي حالة رضاها تسقي الزرع وتغرس الأشجار وتمنح الخيرات للبشر، وفي حالة غضبها ترسل الطوفانات فتغرق البشر والمزروعات. فكان لكل نهر إله يقوم بهذه الأعمال، أو ان الأنهر هي نفسها تعتبر آلهة. فكان عند الرومانيين إله لنهر التيبر، ويسمى بنيوس، وعند اليونانيين القدماء إله لمنابع المياه يسمى: بوزه ئيدون. وعندهم الإله زوس، وهو يسكن في نهر اكه لوس. واعتبر طاليس شيخ الفلاسفة، أن الماء: هو الجوهر الأساسي في المادة الحيّة، وهو الأصل في كلّ شيء. وقال هوميروس الشاعر اليوناني: «ان المياه هي المصدر الأساسي للأشياء». واعتبر أن الإله زوس، قد غمر نهر اكه لوس بعنايته. والهنود يقدّسون نهر الكنج، وعند المصريين إله «النيل» ويسمى: هابي أو حابي. وعند السومريين والاكديين إله لنهر أهوا ويسمى: ياوه ـ ياه ـ أيا ـ يا ـ أهيه ـ أهوا ياوه ـ يهوه وهي أسماء مختلفة، ولعلّها صفات متعدّدة للإله الواحد، وقد اتخذ كرسيه على الماء، بعد أن قتل جدّه أبسو، وبنى معبده فيه آي ـ ساكل. ويسمّيه السومريون انكى أيضاً، وهو أحد أركان المثلّث البابلي المكوّن من: انو ـ أنليل أو بعل ـ أيا وهو ابن الإله آنو وزوجته وتسمى: دام ـ كينا، ولدت له في أعماق المياه الإله مردوخ، وهو يحب البشر، وهو الذي أخبر اوتو نبشتيم ـ نوح الطوفان أن يصنع له فلكاً وينجو به من الطوفان.

وكان القدماء يتسابقون بتقديم القرابين إلى آلهة النهر. وبهذا الاعتقاد كان المصريون يزفون عروساً من أجمل بناتهم وأرشق فتياتهم إلى نهر النيل، طمعاً في إرضائه، ورمزاً لهباته، باعتبار انه مصدر الرزق العميم.

ويظهر لنا أن كلمة يهوه، مركبة في الأصل من كلمتين أيا ـ أهوا وكل واحدة منهما هي اسمه. فامتزجتا عند التلفظ والكلام فصارتا يا ـ هوا ثم يهوا ومنها صيغت يهوذا ويهود[1].

اختار النبي ابرام، لإلهه اسم يهوه، بأوصاف تخالف أوصاف الإله يهوه السومري. ويظهر انه كان قد عرف اسمه ومنزلته بين الآلهة السومرية، عندما كان في أور الكلدان، فاتخذه اسماً للإله الواحد في السماء، ولا عبرة للاسم، ثم عبده أولاده وأحفاده من بعده باسم يهوه ـ أهوا ـ أهيه ـ أهيا إله إسرائيل.

مثالب ومنكرات: يبدو أن المقاييس الادبية والاخلاقية والدينية، كانت قد انحطت في الزمن الذي كتب فيه المحرر سفر التكوين، انحطاطاً كبيراً. فقد أباح المحرر لنفسه أن يسجل بعض المثالب والمنكرات، على كثير من أنبياء بني اسرائيل، مدار عزه وفخره. وقد يكون هذا نتيجة لما كان عليه اليهود في عصر التأليف من ذلة ومسكنة، وما أصابهم من اضطهاد وتشتيت، فأدى هذا كله إلى تكييف مقاييسهم وأخلاقهم تكييفاً معيناً جعل ما دونه محرر سفر التكوين شيئاً مألوفاً.

سكرة نوح: ذكر محرر سفر التكوين، أن نوحاً بعد خروجه من سفينته، شرب من الخمر فسكر، وتعرّى داخل خبائه، فأبصره حام، وأخبر أخويه عنه، فأخذ سام ويافث الرداء، ومشيا إلى الوراء. وسترا عورة أبيهما ـ ووجهاهما إلى الوراء، فلما استيقظ نوح من سكرته، علم ما فعل به ابنه حام، فلعنه وجعله عبد العبيد لأخوته (9 ـ 20 ـ 27 ت).

ابرام في مصر: والأعظم من هذا، ما أسنده المحرّر إلى النبي ابرام بن تارح، في الاصحاح الثاني عشر من سفر التكوين. فقد ذكر أن النبي ابرام انحدر إلى مصر بسبب الغلاء. ولما اقترب منها قال لزوجته ساراى: «قد علمت انّك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون انهم يقولون هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك. قولي إنك اختي ليكون لي خير بسببك. وتحيا نفسي من أجلك» (11 ـ 12 ت). ووقع ما كان يتوقعه ويخشاه، «فأخذت المرأة إلى بيت فرعون. فصنع فرعون إلى ابرام خيراً بسببها. وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال... فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراى امرأة ابرام... فدعا فرعون ابرام وقال له لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي... خذها واذهب...» (14 ـ 12 ت)، وأمر فرعون رجاله بتسفيره «فشيّعوه وامرأته وكل ما كان له» (20 ـ 12 ت). فخرج ابرام من مصر ومعه امرأته وابن أخيه، وكل ما أغدقه عليهم فرعون من الأموال والماشية والخدم والعبيد، فأصبح ابرام «غنيّاً جداً في المواشي والفضّة والذّهب» (2 ـ 13 ت)، وأصبح كذلك لوط ابن أخيه غنيّاً من هبات فرعون وعطاياه (5 ـ 13 ت).

ابرام في جرار: ولم يكتف محرّر السفر بما أسنده إلى النبي ابرام، بل جاء عليه بفرية أخرى، فذكر انه لما اقترب من مدينة «جرار» قال لامرأته ساراى أيضاً: قولي هو أخي. ووقع أيضاً ما كان يتوقّعه ويخشاه، فأرسل أبو مالك ملك جرار، وأخذ ساراى وقال له ابراهيم «انها أختي قالت ساره انه أخي» (2 ـ 5 ـ 20 ت)، ثم استدرك محرّر السفر هفوته فقال: «فجاء اللّه إلى أبي مالك في حلم اللّيل، ولم يكن أبو مالك قد اقترب إليها، وقال له.. انها متزوّجة ببعل.. لذلك لم أدعك تمسّها، فالآن ردّ امرأة الرّجل»... (7 ـ 20 ت). واعتذر ابرام بعد ذلك لأبي مالك بقوله: «اني قلت ليس بهذا الموضع خوف اللّه البتة.

فيقتلونني لأجل امرأتي. وبالحقيقة هي أيضاً أختي ابنة أبي. غير انها ليست ابنة أمي. فصارت لي زوجة، وقلت لها هذا معروفك الذي تصنعين إليّ في كل مكان نأتي إليه قولي عني هو أخي» (13 ـ 20 ت)، فأعطاه أبو مالك أيضاً «غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وألفاً من الفضّة وردّ إليه ساراى امرأته» (14 ـ 20 ت) وصرفه من عنده. وأصبح ابرام غنيّاً جدّاً من هذه العطايا.

لوط مع بنتيه: لم يكتف محرّر السفر بهذه المثالب والمنكرات، فوسم النّبي لوطاً وبنتيه أيضاً بأبشع الصّفات. فذكر ان ابنتي لوط، بعد خروجهما من سدوم، وفي مغارة صوغر، سقتا أباهما خمراً، واضجعتا معه بالمناوبة، فحملتا منه، وولدت الكبيرة ابناً سمّته «مواب» وهو أبو الموابيين، وولدت الصّغيرة ابناً وسمّته «بني عمي» وهو أبو بني عمون (31 ـ 37 ـ 19 ت) وهو كذب وافتراء على النّبي لوط. ولا بدّ لنا أن ننزّهه عن هذه الجريمة الشّنعاء. فليس هناك من عامة النّاس، من يفقده الخمر إدراكه ووعيه إلى درجة يستطيع معها مضاجعة النّساء، وهو لا يدرك ما يفعل. ولكن محرّر سفر التكوين، اتّخذ الخمرة سبباً لفقدان الشّعور، فأباح لنفسه تسجيل هذه الفرية على النبي لوط وابنتيه. ويظهر مبلغ كذب المحرّر جلياً، إذا تذكّرنا أن الله ـ جلّ وعلا ـ قد أرسل مَلكين قلبا مدينة سدوم، لما كان عليه أهلها من فحش، فلو كان ما رواه محرّر السفر عن لوط صحيحاً ـ وإنّنا نجلّ لوطاً عن هذا ـ لأهلك الملكان لوطاً قبل قلب المدينة، إذ إنّ الفّعل الذي أسنده إليه محرّر السفر لا يقل شناعة عن أفعال أهل تلك المدينة.

اسحاق وامرأته: ولم يتورّع محرّر السفر عن أن يسند إلى النّبي اسحاق أيضاً، ما أسنده إلى أبيه النّبي ابرام. فقد ذكر انّه لما سأله أهل مدينة جرّار عن امرأته «رفقة» الحسناء، «فقال هي أختي لأنه خاف أن يقول امرأتي. لعلّ أهل المكان يقتلونني من أجل رفقة، لأنّها كانت حسنة المنظر» (7 ـ 26 ت). وحدث أن ملك جرار أشرف من الكوّة ونظر وإذا اسحاق يلاعب رفقة امرأته، ولما عاتبه ملك جرار وقال له: إنما هي امرأتك فكيف قلت هي أختي؟ اعتذر له اسحاق بقوله: «لأنني قلت لعلّي أموت بسببها» (10 ـ 26 ت)، واستدرك محرّر السفر هذه الهفوة أيضاً بقول الملك له: «لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً» (11 ـ 26 ت)، ولما بارك الرب زرعه وصار له مواشي من الغنم والبقر كثير، قال له الملك: «اذهب من عندنا» (17 ـ 16 ت).

يهوذا وأرملة ابنه: وجاء محرّر سفر التكوين بتهمة أخرى، فذكر أن يهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم، صادف أرملة ابنه ثامار في الحقل، «وقال لها هاتي أدخل عليك» (16 ـ 38 ت) فأولدها «فارص» ـ الإصحاح 38 سفر التكوين ـ سفاحاً، عن طريق الزّنا، مما يجعل «فارص» وذرّيته خارجين عن جماعة الرب. وفارص هو الذي ذكره «متّى» في إنجيله، «ويهوذا ولد فارص... من ثامار» (2 ـ 1)، بأنه الجدّ الأعلى للملك داود، والنبي سليمان، وأنبياء بني اسرائيل كافة.

مروق موسى وهارون: وقد ذكر التوراة، مروق النبي موسى وأخيه هارون عن الدين، وعصيانهما أوامر ربهما، وخيانتهما عهود إلههما. فقد جاء في سفر الخروج (5 ـ 32)، أن هارون صنع العجل الذّهبي بيده، ودعا القوم لعبادته، وقال غداً عيد الرب... وجاء في سفر التثنية: «وكلّم الرب موسى في ذلك اليوم قائلاً: إصعد إلى جبل عباريم في أرض مواب الذي قبالة أريحا، ومت في الجبل الذي تصعد

إليه، كما مات هارون أخوك في جبل هور، لأنكما خنتماني في وسط بني إسرائيل، عند ماء مريبة في برية صين، إذ لم تقدّساني في وسط بني إسرائيل» (52 ـ 32).

داود وزوج خادمه: ومثله ما أسنده محرّر التوراة إلى النّبي داود، وتسلّطه على يتشبع زوجة أوريا أحد خدمه، وحملها منه سفاحاً (5 ـ 11 ص. ث.)، ثم إرساله أوريا إلى الحرب، وقتله ظلماً وعدواناً، بوضعه في الخط الأمامي، ثم زواج داود من زوجه بعد ذلك رسمياً، فولدت له الملك والنبي سليمان (24 ـ 12 ص. ث.). ومثله تفضيله ابنه سليمان من يتشبع محبوبته على ابله البكر وإجلاسه على كرسي الملك خلافاً للشريعة الموسويّة.

ابشالوم ونساء أبيه: ومثله أيضاً ما أسنده محرّر التوراة إلى «أبشالوم» ابن النّبي داود، وتسلّطه على نساء أبيه، وإخضاعهن لمشيئته (23 ـ 16 ص. ث.)، وهذا غاية ما يصل إليه سقوط الأخلاق.

أمنون وأخته: وهذا أكثر شناعة من سابقه، فقد ذكر محرّر التوراة، ان أمنون ابن النّبي داود، قد أخضع اخته ثامار لشهوته واضطجع معها (15 ـ 13 ص. ث.).

النبي سليمان: ولم يكتف محرّر التوراة بما ألصقه بأنبياء إسرائيل من مثالب، حتى اتّهم النبي سليمان أيضاً بارتداده عن عبادة إلهه يهوه، ونصّبه الأصنام والتماثيل والأوثان فوق الجبل، وفي معابد زوجاته كما سيأتي تفصيله بمحلّه.

فكان من أغرب الغرائب، وأعجب العجائب ان يسمح محرّر التوراة لنفسه بتسجيل هذه المنكرات على أعاظم أنبياء وملوك بني إسرائيل مدار عزّهم ومجدهم وفخرهم. ففي الوقت الذي أراد فيه ان يؤيّد نبوّتهم ويسبغ عليهم شيئاً من العظمة والشّجاعة والبطولة، إذا به يوقعهم بمنكرات شرعيّة لا تليق بمنزلتهم، وهذه القصص وأمثالها هي التي دفعت المسلمين إلى الطّعن بالتوراة، واعتباره محرّفاً.

بين الكنعانيين: لما كان النبي ابراهيم وحيداً في أرض كنعان، وأصبح ـ نظراً لرواية السفر ـ غنياً جداً بالأموال، وليس له من أهل وعشيرة يستند إليها ويحتمي بها، فكان مستضعفاً تجاه الشعوب والملوك الذين يحلّ بكنفهم ـ كما وقع له مع أبي مالك ملك جرار ـ، فلذلك لم ينعت إلهه يهوه باسم رب العالمين، لكيلا يغيظ الملوك الأقوياء من مجاوريه، أولئك الذين يغارون على آلهتهم، ويحترمون أصنامهم. فقد اكتفى بتسميته يهوه الإله العليّ خالق السّماء والأرض. ولم يزد عليه شيئاً. وبأمثال هذا التسامح وغيره، تمكّن من أن يمكث محترماً بين الكنعانيين أينما حلّ، ويعيش معهم بهدوء وسكون من دون أن يزعجهم بمعتقداتهم.

نفوذ ساره الحسناء: وبالنظر لما جاء في سفر التكوين، يظهر ان النّبي ابراهيم كان حليماً هادئاً مسالماً، وكان لسارة الحسناء نفوذ عظيم عليه، فلم يكن في وسعه مخالفتها. فقد أبعد عنه ـ بإصرارها وتوصيتها ـ أكبر أولاده، اسماعيل (سمع الرب) من جاريته هاجر، ثم صرف عنه ـ بناء على توصيتها ـ، بقية أولاده الكثيرين من زوجته قطورة، ومن السراري الأخريات، بعد أن أعطاهم بعض العطايا والهبات[2]. ولم يترك في بيته من أولاده ـ لأمر ما ـ سوى اسحاق من ساره زوجته فقط، ليكون وارثه على بيته، وعلى كل ما اقتناه في مصر وجرار، وكل ما يملكه من ماشية وخدم وإماء.

الرئاسة لاسحاق: ولما توفي النّبي ابراهيم، دفن اسماعيل أباه بيده[3]، في المكفيلة في حيرون، بجانب

ساره زوجته المتوفية قبله، وانتقلت ـ كما يقول محرّر سفر التكوين ـ رئاسة العشيرة الدينيّة والزمنيّة، إلى اسحاق، الولد الثاني من أبيه، دون اسماعيل بكر أبيه، لأسباب سنذكرها فيما بعد.

اسحاق بن ابراهيم: عبد اسحاق بن ابراهيم (1896 ق. م.)، إله أبيه، «إله السّماء والأرض»، ولم يظهر له إلهه أكثر من مرّتين فقط. قال له في إحداهما: «لا تنزل إلى مصر بسبب الجوع. تغرب في هذه الأرض، فأكون معك وأباركك. ولنسلك أعطي جميع البلاد، وأفي بالقسم الذي أقسمت لابراهيم أبيك...» فأقام اسحاق، في مدينة جرار عند أبي مالك. وفي المرّة الثانية قال له: «لا تخف، لاني معك من أجل ابراهيم عبدي»:

رحيله عن جرار: وكان اسحاق وحيداً في بيته، وقد تفرّق عنه إخوانه، ولم يبق في بيته سوى زوجته رفقة الحسناء، وبعض الخدم والرعاة. فكان كأبيه في أرض كنعان، يلتجىء إلى الملوك المجاورين، للمحافظة على أمواله ومواشيه. ولهذا السّبب كان اسحاق يسكن بجوار مدينة جرار للاحتماء بملكها أبي مالك، حتى أبعده الملك عن جواره، بسبب رفقة الحسناء زوجته، حذراً من ان ينال شعبه غضب الآلهة، «لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنباً عظيماً» (11 ـ 26 ت).

العاقر تلد: وبينما كانت رفقة عاقراً، فقد صلّى اسحاق إلى الرب، فاستجاب له، وحملت فولدت له توأمين، الأوّل: وهو البكر فاتح الرحم عيسو، ومن وراء عيسو يعقوب. فأحب اسحاق عيسو لرجولته وشجاعته وأصالة رأيه في تدبير أمور بيته، وأحبّت رفقة يعقوب لهدوئه وحلمه، ولميله إلى الراحة والسّكون. وبينما كان من الواجب أن تنتقل رئاسة العشيرة الدينية والزمنية بعد اسحاق إلى عيسو بكر أبيه، نقلها محرّر سفر التكوين، بطرق ملتوية احتيالية ساذجة غير مشروعة إلى يعقوب، منها شراء يعقوب بكورية أخيه عيسو بأكلة عدس، ومنها ما اتخذته رفقة من حيلة لتوجيه بركة اسحاق إلى يعقوب الولد الثاني لأبيه. وكان يجب أن لا تخفى هذه الحيلة على النّبي اسحاق، وأن لا تسند إلى النّبي يعقوب، وبمثل هذا الاحتيال المزري، انحصرت بركة اسحاق بابنه الثاني يعقوب، كما انحصرت بركة ابراهيم بابنه الثاني اسحاق. وإذا كان الظّاهر يسوقنا إلى الاعتقاد، بأن هذا من عمل النساء، فسنذكر الأسباب الحقيقية فيما بعد.

يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم: ورأى النبي يعقوب بن اسحاق حلماً، وهو في طريقه إلى ابن عم أبيه، لابان بن ناحور الساكن في حرّان، وكان قد هرب من وجه أخيه عيسو، لأخذه بركة أبيه اسحاق بخدعة ارتكبتها أمه. وإذا به يجد سلماً ـ كما تقول التوراة ـ منصوباً على الأرض، يمس رأسه السماء، وملائكة الله نازلة صاعدة عليه، والرب واقف على رأس السلم في السماء وهو يقول: «أنا الرب إله ابراهيم أبيك وإله اسحاق». فاستيقظ يعقوب من نومه، فنصب حجراً في ذلك المحل، وصبّ على رأسه زيتاً، ودعا ذلك المكان «بيت أيلي» بالآرامية: «البطل ـ العظيم ـ القوي»، ويقصد به الإله أو الله.

اسباط إسرائيل: استخدم لابان بن ناحور يعقوب بن اسحاق، راعياً في غنمه سبع سنين، على أن يزوّجه ابنته الصّغرى راحيل الحسناء. فاحتال عليه لابان وخدعه ليلة الزّفاف، فقدّم له ليئة الدميمة ابنته الكبرى، فانخدع يعقوب بها حتى الصباح. ولما لم يفده العتاب، عاد وخدمه سبع سنين أخر براحيل.

فولدت له ليئة راؤبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون. وولدت له راحيل يوسف وبنيامين. وجميعهم صاروا رؤوس أسباط إسرائيل فيما بعد.

وجاء في سفر التكوين، انه لما أكمل يعقوب عقده مع لابان، رحل من عنده مستصحباً معه أولاده ونساءه، متّجهاً نحو فلسطين. وكانت راحيل قد سرقت أصنام أبيها، وخبّأتها في حداجة جملها، فلحقه لابان، وطالبه بالأصنام، وفحص أخبئته وأمتعة نسائه للعثور عليها، فجلست فوق الحداجة معتذرة عن النهوض لعادتها الشّهرية، فانطلت الخديعة على لابان، وانطلت الخديعة على النبي يعقوب، فكانت راحيل تعبد أصنام أبيها سراً في بيت يعقوب، ولم يخبره الإله عن وجود الأصنام في بيته.

مصارعة مع الرب: وجاء في سفر التكوين أيضاً، انه بينما كان يعقوب في طريقه عائداً إلى فلسطين، إذ لاقته ملائكة الله، فقال يعقوب حين رآهم: «هذا جيش الله» (1 ـ 32 ت). وبعد ذلك أجاز يعقوب امرأتيه وجاريتيه وأولاده الأحد عشر، وكلّ ما كان له من مال، عبر مخاضة يبوق، وبقي يعقوب وحده، فتعرّض له في اللّيل رجل وهو في مخاضة يبوق، فظلّ يصارعه حتى طلع الفجر، وانخلع حقّ فخذ يعقوب من شدّة الصراع، فقال له ذلك الرّجل (الرب): «أطلقني لأنّه قد طلع الفّجر»، فقال له: «لا أطلقك إن لم تباركني»، فقال له: ما اسمك؟ قال: يعقوب. قال: «بل يكون اسمك إسرائيل، لأنّك قد جاهدت مع الله وقدرت»، وباركه هناك (27 ـ 32 ت). فقال يعقوب: «انّي نظرت الله وجهاً لوجه» (30 ـ 32 ت).

ولما أصبح الصّباح، التحق يعقوب بأهله، وأصبح اسمه «إسرائيل» اعتباراً من تلك الليلة التاريخية!

دفن الآلهة: سرعان ما تسرّبت الآلهة الغريبة والأصنام بكثرة، من الأمم المجاورة، إلى بيت يعقوب. ولما أمره الإله أن يصنع مذبحاً في بيت أيل، جمع يعقوب كافة الآلهة الغريبة والأصنام والأوثان التي في بيته، وفي أيدي الذين كانوا معه، «وطمرها تحت البطحة في شكيم» (40 ـ 35)، وأقام مذبحاً للرب، ودعاه بيت أيل أي بيت «إله إسرائيل».

إلى مصر: وظهر الرب ليعقوب مرّة أخرى، وباركه وقال له: «أنا الله القدير. أمة وجماعة. وملوك سيخرجون من صلبك». فنصب يعقوب عموداً من حجر تذكاراً للرب. وكلّم الله يعقوب في الحلم للمرة الأخيرة، وقال له: «أنا الله إله أبيك. لا تخف من النزول إلى مصر». فركب إسرائيل (يعقوب) وبنوه رجالاً ونساء، في العجلات التي جهّزها لهم يوسف ابنه، وتوجّهوا جميعاً إلى مصر، وكان عددهم سبعين نسمة (27 ـ 7)، ولم يظهر الإله مرّة أخرى ليعقوب، طيلة السبع عشرة سنة التي قضاها في مصر (1706 ق. م)، وذلك بسبب تفريطه في منح بركته النّبوية، جزافاً إلى فرعون لما تمثل أمامه، «وبارك يعقوب فرعون» (7 ـ 47).

هذا وان الإله لم يظهر ليوسف بن يعقوب، لا في الحلم، ولا في اليقظة، طيلة حياته. ومع أن الله كان معه دائماً، فلم يعتبره اليهود نبياً.

يوسف حفيد ابراهيم (1712 ق. م): ظهرت عبقرية ابراهيم، في حفيده يوسف، وكان قد سجن في مدينة

«زوان» عاصمة مصر السفلى، في أواخر عهد فراعنة الرعاة (الهكسوس ـ 1730 ق. م.). وتعلّم اللغة المصرية، تكلماً وكتابة وقراءة في الحبس.

ولما مثل بين يدي فرعون، وكان قد سمع من المسجونين، «فأخذ يوسف ووضعه في بيت السجن، المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه» (2 ـ 39 تكوين)، الشيء الكثير عن العداوة الموجودة بين فراعنة مصر العليا، وفراعنة مصر السفلى، وتفرس المعنى المستتر في رؤيا صاحبه، عن البقر السمان والهزيلة، الخارجة من النهر، وكيف أن سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وكذلك عن السنابل، وفسرها ـ كما يقول السير ويليام ويلكوكس مهندس الري ـ تفسيراً اقتصادياً، فقد علم أن فراعنة مصر العليا، الأعداء الأشداء، سيقومون إن عاجلاً أو آجلاً، بهدم سد بحيرة موريس العظيم، لكي لا يفيض النيل، ويغمر الأراضي الزراعية الواقعة على ضفتيه، فيحصل الجفاف. فالمجاعة في مصر السفلى، مجاعة وجفافاً، يمتدان سبع سنين، فتأكل سنوات القحط، سنوات الرخاء. حتى يشيد السد من جديد، فمن الواجب انتهاز الفرصة، لخزن الحبوب والأرزاق، لتكون ذخراً للبلاد، في سني الجدب المقبلة.

من السجن الى الحكم: استطاع يوسف، بفضل دهائه الخارق المنقطع النظير، إلى اكتساب ثقة أبو فيس Apophis، الذي كان فرعون مصر السفلى، قبل عصر الاسرة الثامنة عشرة، ببضع سنين، فتولى الوزارة، رغم رجال الدولة، والمجتمع المصري، ورغم شرائه ببضعة دراهم معدودات، ورغم حبسه مع الجناة والمجرمين.

فحكم مصر، من أقصاها إلى أقصاها، وتقلّد خزائن مصر، بما فيها من الأموال والنقود والذخائر، فأظهر من الكياسة واللباقة في أعماله الوزارية، ما يفوق قابليات المجتمع المصري، والوزراء والأمراء. فكان الوزير الخطير، والمالي الممتاز، والمخلص الأمين لمليكه فرعون، الذي أوصله إلى هذه المرتبة الرفيعة، وأوقف منافسيه من رجال البلاط الفرعوني عند حدّهم، وأهمل سعاياتهم.

الأساليب الاقتصادية المبتكرة: اتبع يوسف طرقاً متعددة، وأساليب مختلفة، لتلافي المجاعة في مصر، ونفذ خطته، خطوة خطوة، حتى جعل الشعب وما يملك ملكاً للدولة.

فقد بدأ عمله، بجمع المتداول من النقود في أيدي أبناء الشعب، عند بيعه الحبوب المدخرة، ووضع تلك النقود في صندوق الدولة. ثم أخذ يبيعهم الحبوب بطريقة المقايضة، فكان يأخذ منهم بدل النقود، الخيل ومختلف المواشي، كالغنم والبقر والحمير.

وفي السنة الرابعة من الغلاء، أخذ من أبناء الشعب، الحقول الزراعية، وحق الأرض ـ عدا الموقوف منها للكهنة والمعابد ـ وجعلها جميعاً، ملكاً لفرعون.

وفي السنة الخامسة، وضع على المزارعين، ضريبة الخمس، عن كل ما يحصل في أراضيهم من غلال.

وفي السنة السادسة، جعل الشعب، وما يملك من الثروة العامة، ووسائل الإنتاج، والأرض، جعلها كلها ملكاً للدولة[4].

يوسف مخلص العالم: اكتشف فرعون عبقريّة يوسف، وقدّرها حق قدرها، فوضع خاتمه في أصبع يوسف، وطوقه الذهبي في عنقه، وسمّاه مخلّص العالم. وزوّجه اسنات بنت قوطى فارع كاهن مدينة أون، وجعل منزلته مساوية لمنزلة أعظم كاهن في مصر على الإطلاق.

إسرائيل تنسى يهوه: ولما توفي يوسف في مصر، ترك بنو إسرائيل إلههم يهوه، ونسوه تماماً. فلم يذكره أحد منهم أبداً، وراحوا يعبدون الآلهة المصرية، أمثال: آمون وأوزيريس وإيزيس وحورس وأبيس ـ العجل ـ مدة أربعمائة وثلاثين سنة، حتى ظهر النبي موسى، وأخرجهم من مصر.

ويقول التوراة، أن عدّدهم كان «ستمائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد» (27 ـ 12 خروج). وفي هذا مبالغة مفرطة.

وبهذا ينتهي سفر التكوين، الذي أراد محرّره أن يرفع به بني إسرائيل إلى أعلى المراتب.

الهوامش

(1) وردت كلمة ياهو، أهياء شراهيا وأمثالها كثير في كتاب الجلجلوتية ـ وهي من صنع اليهود ـ التي يعتقد بعض الشيوخ أن فيها اسم الله الأعظم، وأن في قراءتها خطراً عظيماً على الناس لدعوتها الملائكة والجان والشياطين للحضور. فلا يقرؤها الا الشيوخ الأخصائيون بأعمال السحر والطلاسم، لإنجاز أمر من الأمور العظيمة بقوّة من آيا، شراهيا، آهيه، يهوه، ياهو، ادوناي، بعلشم، أصباؤث... وغيره من الأسماء.

(2) (5 ـ 25 ث).

(3) (9 ـ 25).

(4) تذكرنا هذه القصة، بأسطورة المجاعة، التي وجدت في حفريات بابل، ويعود تاريخها الى دور السلالة البابلية الأولى، على عهد الملك أمي ـ صادوقا، تلك المجاعة التي استمرت سبع سنوات. وقد جاء في تلك الأسطورة: «مرّت السنة الثانية والثالثة والرابعة، في عسر وضيق، والناس هاموا على وجوههم في الطرق، وفي السنة الخامسة، إلتجأت البنت إلى بيت أمها، تاركة بيت زوجها، ولكن الأم لا تفتح الباب لابنتها، والبنت تحاسب أمها على أكلها، وفي السنة السادسة، أكلوا البنت طعاماً، وأكلوا الطفل طعاماً، وصار كل بيت يلتهم البيت الآخر... وفي السنة السابعة، حلّ فيهم الفرج» ـ عن مجلة سومر العراقية، (ج6 ـ ج2).

الفصل الخامس من هو محرّر سفر التكوين ؟

آراء العلماء: كانت الأفكار متّجهة في بادىء الأمر، إلى أن محرر سفر التكوين، هو النبي موسى، ثم نسبه علماء اللغات، والباحثين، إلى ثلاثة مؤلفين، جاؤوا بعد داود وسليمان، ثم نسب إلى عزرا الكاهن. ويقول الدكتور «جيمس بريستد»: انه كتب في أيام آخاب، ملك إسرائيل، وفيما بعده. وقد أراد محرّره تسجيل تاريخ الأمة العبرانية، وفقد كثير من أجزائه، ولا يزال جزء كبير منه موجوداً، يمثل سير وتراجم وأحوال البطارقة العبرانيين، ابراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف، وهي من أنفس ما وصل إلينا من كتابات الأمم السابقة.

وظهر آخرون من المستشرقين الأوروبيين، أنكروا وجود ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف، واعتبروهم من بنات أفكار أحد الإسرائيليين، أراد أن يعطي لأمته الصغيرة، بطريقة المبالغة المفرطة ـ كما أعطيت لسليمان في سلطته الزمنية والدينية ـ منزلة رفيعة بين الأمم، فأخذ الشيء الكثير من أساطير الكلدانيين، وصاغها بالشكل الذي يناسب معتقده في وحدانية الإله، وأضاف إليها من مخيلته سلسلة من الروايات الغريبة عن منشأ الأمة الإسرائيلية، فسجّلها تحت عنوان: «سفر التكوين العبري»، بشكل روائي ديني فلسفي رائع جذّاب. ويستدلون على رأيهم هذا، بعدم وجود أي أثر تاريخي لهم في فلسطين، وفي المكتشفات الأثرية المصرية. يقولون: لو كان يوسف قد نال تلك المنزلة الرفيعة في البلاط الفرعوني، وحكم مصر كوزير للماليّة، من أقصاها إلى أقصاها، وتقلّد خزائنها عشرات السنين، وأدارها بأساليب اقتصادية مبتكرة، كما ورد في سفر التكوين، لورد ذكره في المسلات والأحجار، أو في أوراق البردى والمخطوطات الأثريّة، في حين انه لم يرد له أي ذكر في تلك الآثار.

وقد يكون في إنكار العلماء الأوروبيين، لما جاء في سفر التكوين، عن منشأ الأمة الإسرائيلية، بعض المغالاة.

ولئن كان قد ورد الشيء الكثير في السفر، عن الآباء ابراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف، من المبالغة في منحهم بعض الصفات والألقاب، وصياغة الأخبار صياغة خاصة فيها الكثير من التحريف ومجانبة الحقائق، في سبيل إظهار الأمة الإسرائيلية، بالمظهر الذي أراده لها محرر السفر، فقد يكون لبعض ما ورد في السفر نصيب من الصحة. إذ ليس ببعيد أن يذهب الإسرائيليون، وهم من العشائر الرحالة، من فلسطين إلى مصر، بسبب الغلاء، طلباً للارتزاق.

كما انه ليس بالبعيد، أن ينبغ أحدهم، فيتقرّب من دواوين الحكومة بطريقة من الطرق، ثم يتدرّج في مراتب الدولة، حتى يصل البلاط الملكي، فيضع قواعد إدارية، ويبتكر وسائل اقتصاديّة، تكون فوق مستوى الفكر المصري، ثم يكتسب عطف فرعون وعنايته، بما يراه فيه هذا الأخير من مقدرة ونبوغ، وإخلاص في العمل.

ورجل نابغ كهذا، يجيء مصر غريباً ثم يتدرّج في مراتب الدولة، حتى يبلغ أعلاها، وأرفعها، بما

يظهره من مقدرة كبيرة في الأمور الإدارية والمالية، يكتسب بها ثقة الملك، رجل كهذا لا بد أن يكون على جانب كبير من الذّكاء، وسعة الفكر، وخصب الخيال. ولا بد له، وهو في هذا المركز المرموق بالبلاط المصري، أن يغدق على آبائه وأجداده، من صفات العظمة والرفعة والكهنوتية، ما يظهرهم بالمظهر المناسب لمركزه السامي. فيجعلهم أعزاء عند ربهم، محبوبين من إلههم، بل إن الله خلق العالم لأجلهم، وفضّلهم على العالمين كافة.

وإذا كان المحرر، قد أخطأ في أيام الخليقة، وتعداد الأجيال، والأعمار البشرية، فإنه قد أصاب الهدف الذي سعى إليه بتحرير سفره، وهو إعلاء شأن قومه في أنظار المجتمع المصري، فأوجد له ولقومه، أساطير خاصة دينية، فاقت الأساطير الدينية المصرية، بمراحل كثيرة.

والواقع هو أن سفر التكوين، يعتبر من أثمن ما خلّفه الأقدمون. كان له تأثير عظيم في تركيز فكرة التوحيد، في العقول البشرية، امتد حتى زماننا هذا.

ولما أملاه عزرا الكاهن الهاروني، الذي كان مطلعاً على الأساطير البابلية تمام الاطلاع، عند عودته من أسر بابل، كان قد أدخل عليه بعض التحريف والتعديل، والإضافات والعلاوات، مما يتلاءم والمستوى الروحي والاخلاقي آنذاك فلم يبق كما كتبه محرّره. كما سيأتي بيانه.

يوسف محرر سفر التكوين: يذهب العلاّمة جبر ضومط في كتابه «سفر التكوين»، إلى أن محرّر هذا السفر، هو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم. وكانت غايته من كتابته، هي أن يظهر أمام منافسيه، وحسّاده في البلاط الفرعوني، أنه من بيت ليس دون بيوتهم، وأنه وارث رئاسة كهنوتية لا تقل في منزلتها، عن رئاسة «فوطي فارع»، كاهن أون. وهذا كله، ليبدو انه أهل لأن يكون زوجاً لأسنات بنت فوطي فارع، رئيس الكهّان جميعاً في مصر، تلك التي تزوجها بأمر فرعون.

يشتمل كتاب «السفر»، على مقدمة للخليقة، يتطرق بعدها إلى آدم، وهبوطه إلى الأرض، والمنافسة بين قايين وهابيل، ثم ينتقل إلى قصّة الطوفان. ويترك أنسال حام ويافث ولدي نوح جانباً، وينتقل بلباقة من سام إلى ابراهيم فاسحاق فيعقوب فيوسف، وينتهي السفر! كأن المقصود من تحريره، لم يكن إلا إثبات نسب يوسف، وأن الله لم يخلق آدم والبشر كافة، إلا لأجل هذه السلالة، ولا قيمة لما عداهم من البشر. وكأن الهدف الوحيد من تحرير هذا السفر، هو إعلاء منزلة يوسف في المجتمع المصري.

وقد ذكر المحرّر في عمود النسب من ابراهيم إلى نوح، عشرة آباء، ومن نوح إلى آدم عشرة آباء أيضاً. وكأن المقصود من إثبات تلك السلسلة، تثبيت نسب جدّ يوسف الأعلى ابراهيم، وإيصاله إلى نوح، فإلى آدم، حيث اعتبره أعظم نسباً وأشرف أرومة من البشر، بل وحتى من رجال الكهنوت في العالم كافة.

السفر والأساطير: ظهر من الحفريات في جنوب العراق، خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، أن جميع ما ورد في مقدّمة سفر التكوين، عن الخليقة وأصل الوجود، وجنّة عدن، وظهور البشر فوق سطح الأرض، وقصّة قايين وهابيل، والطوفان العام، وبرج بابل، موجود مثله، أو ما يشابهه، مع اختلاف بسيط في الأسماء، بين ما ورد في سفر التكوين، وفي الأساطير السومريّة والكلدانية. وهذا

يدلّ في الغالب، على أن عزرا، الذي أقام مدّة طويلة في الأسر ببابل، واطّلع على أساطير السومريين والكلدانيين، هو الذي جعلها مؤخراً، مقدمة لسفر التكوين، الذي كتبه يوسف لأول مرة.

لماذا كتب السفر؟ لقد جعل يوسف، محرّر سفر التكوين، كما يدّعي الأستاذ جبر ضومط، لبيت ابراهيم منزلة رفيعة، تفوق منزلة الكاهن فوطي فارع بكثير، وجعل نفسه وإخوته وأباه وعمّه وعمّ أبيه، في الصف الأول من الخلائق، وفضّلهم على العالمين طراً. وهذا عمل عظيم، لا يستطيع أن يأتيه في ذلك الزمن، إلا يوسف وحده، ذو المواهب الممتازة. وكان يريد أن يثبت به لفرعون مليكه، ولحميه كبير الكهنة، وللمجتمع المصري، أنه ابن بيت كهنوتي عريق النسب، لا كما كانوا يتحدّثون عنه، من انه لقيط، بيع في السوق بثمن بخس. لذلك فهو جدير أن يلبس في إصبعه خاتم فرعون، وفي عنقه طوق فرعون الذهبي الخاص بالوزارة، وأن يركب في المركبة الثانية بعد فرعون، وينادي المنادي على الناس أمام مركبته: «إركعوا... إركعوا...»، وأن يسمى مخلص العالم، ويتخذ اسنات ابنة رئيس الكهّان، ويحكم مصر من أقصاها إلى أقصاها.

يستنبط الاستاذ جبر ضومط، بلباقة ودقّة، من ثنايا سفر التكوين، الطرق الملتوية التي سلكها يوسف، لإسناد رئاسة الكهنوت إلى ابراهيم دون لوط، بكر أبيه، وإلى اسحاق دون اسماعيل، بكر أبيه، وإلى يعقوب دون عيسو بكر أبيه، وإلى يوسف، دون أخيه راؤبين بكر يعقوب من زوجته ليئة، ودان بكر يعقوب من زوجته بلهة، واستقرار الرئاسة فيه. إذاً، فيوسف إن هو إلا رئيس كهنة لأمة اصطفاها الخالق لنفسه، وفضّلها على العالمين كافة. وإذا به أعظم وأقدس وأفضل من أية شخصية على وجه الأرض. فكان الإسرائيلي الحق، والسياسي البارع، والمفكّر الحاذق، والكاتب المحنّك، والوزير الخطير، والأديب الفذّ.

ويرى الاستاذ ضومط أيضاً، أن الإله لم يظهر صراحة، أو حلماً، لا لهاران ولا لناحور ولا لاسماعيل ولا لعيسو، وهؤلاء هم فاتحو الأرحام، ومن حقّهم الرئاسة الدينية، على الأمة العبرانية. إلا انه ظهر صراحة ومراراً، لابراهيم واسحاق ويعقوب، وما ذلك إلا لأنهم آباء يوسف لا غير.

ثم يمضي الاستاذ جبر ضومط في حديثه، فيعدّد ما لم يكن يعرفه يوسف، من حقائق الأوضاع التي كانت قائمة في فلسطين وصيدون، والحكومات المجاورة، والأمكنة والأشخاص، والوقائع التاريخية. إلا انه لم يذكر شيئاً، لا كناية ولا صراحة، عن مصير العبرانيين، وظهور موسى، والعودة إلى فلسطين، إلى غير هذا.

ويستنتج من هذا، أن السفر، ما هو إلا رواية من أغرب الروايات التاريخية. ومن أولى الناس بكتابته؟ وزير فرعون، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم، أمير العشيرة العبرانية وكاهنها، ليبعد عنه ما رماه به منافسوه أشراف مصر، من حقارة المولد، والشك في النسب. أولئك كانوا يلتفون حول فرعون طامعين في منصب يوسف، يعز عليهم أن يروه وبيده الأمر والنّهي. وهو الذي بيع في السوق كما يباع العبيد.

سفر التكوين.. محرّف: يظهر لنا أن سفر التكوين، الذي كتبه يوسف، كما يدّعي الأستاذ جبر ضومط، قد تلاعبت به الأيدي، وعبثت به الأقلام، ولم يبق على ما كان عليه، لأننا نستبعد أن يكون يوسف قد

اطلع على دقائق أساطير الكلدانيين والسومريين، وهو في مصر، في الوقت الذي لم يكن يعلم شيئاً، عما يجري في فلسطين، وهي بلده، أو ما يجري في صيدون والحكومات المجاورة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كيف يمكن أن يسجل يوسف على نفسه غلطة فاضحة، في رواية كان هو نفسه أحد أبطالها!! فقد جاء في سفر التكوين (36 ـ 37)، ما نصّه بالحرف الواحد: «وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط». وفي (1 ـ 36) من السفر توجد العبارة الآتية: «وأما يوسف فأنزل إلى مصر واشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط رجل مصري من يد الاسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك».

امرأة الخصي: فاذا كان فوطيفار خصياً، كما تكرّر بيانه، فكيف تكون له إمرأة، وهي في مقدمة أبطال الرواية المعهودة، والتي سبّبت حبسه؟ وعندما ألقينا هذا السؤال على الأب «أنستاس ماري الكرملي»، وهو من رجال الكهنوت المسيحي، قال بعد أن راجع التفاسير: «إن مفسري الكتب المقدسة يؤكدون بأن العادة في زمن الفراعنة أن يكون للخصي جارية لإدارة أمور منزله. وكان فوطيفار من كبار رجال الدولة الفرعونية ولا بد أن تكون له خادمة تخدمه».

وعند إعادة النظر في الأصحاح (39) من فصل التكوين شاهدنا العبارة الآتية: «فكان لما سمع سيده كلام امرأته التي كلمته به...». وفي (7 ـ 39) «وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت اضطجع معي، فأبى وقال لامرأة سيده»... إلخ. وهذا كله يدل على انها كانت امرأة فوطيفار نفسه، وليست جاريته أو خادمته، ومن جهة أخرى، فقد ذكر يوسف لإخوته كيفية بيعه للإسماعيليين (28 ـ 37) أبناء عمومته ثم لمصريين (4 ـ 45) ولم يذكر لهم حادثة زوجة فوطيفار معه مطلقاً، مما يستدل منه انه لم يكن على علم بها، ولم يعرفها، وقد أدخلت في السفر مؤخراً.

ومما يدل أيضاً على جهل يوسف لهذه الحادثة، أنه لما فسّر لرئيس السقاة رؤياه، وبشره برجوعه إلى منصبه السابق، طلب منه أن يذكره عند فرعون، ويقول له عن لسانه «لأنني قد سُرقت من أرض العبرانيين، وهنا أيضاً لم أفعل شيئاً، حتى وضعوني في السجن»، (تكوين 15 ـ 40). وبهذه الفقرة أيضاً لم يذكر شيئاً لفرعون عن حادثة امرأة فوطيفار، ولو كان قد أسند إليه سيّده رئيس الشرط شيئاً من المخالفات الشرعية والتّحديات الأدبية أو اتهمه بشيء من الاجرام الاخلاقية، لما ادعى أمام فرعون بأنه لم يفعل شيئاً حتى حبسوه. ولما وافق فرعون على إخراجه من السجن، ولما ألقى مقاليد بلاده من أقصاها إلى أقصاها، إلى رجل لقيط شرّير مجرم غريب لا أخلاق له.

من هم الاسماعيليون: انهم أولاد اسماعيل بن ابراهيم، وهم أبناء عم يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم، وجميعهم يتكلمون بلسان واحد، ويعرف بعضهم بعضاً بالأسماء والأشخاص. وإذا كان أخوة يوسف قد غدروا بأخيهم لأمر ما، فمن المستبعد أن يغدر الإسماعيليون بابن عم أبيهم، ويشترونه وهم يعرفونه بسيماه، من اخوته أبناء عمهم، بعشرين من الفضة، ثم يبيعونه في مصر بيع العبيد. وإذا صحّ هذا، فمعناه أنهم جميعاً محرومون من عاطفة القرابة الدموية، وأنهم جميعاً يفضلون اقتناء الفضة والذهب منذ نشأتهم الأولى، على أولادهم وبناتهم وإخوانهم وأعمامهم وذوي قرباهم...

أسطورة الأخوين: ومن الغريب، أن العناصر المكوّنة لقصّة يوسف مع امرأة سيّده فوطيفار المصري، تشبه

من أوجه عديدة، أسطورة فرعونية قديمة تسمى: «قصة الأخوين»، وجدت مكتوبة على ورقة بردي (الدوربيني Dorbiney)، وقد نشرتها مجلة: «كل شيء والدنيا» المصرية، بعددها 546 الصادر بتاريخ 22 ابريل 1936 وخلاصتها:

أنه كان لانوبيس امرأة حسناء لعوب، راودت أخاه باتا قائلة له: «كم أنت قوي يا صغيري المحبوب، ولطالما أعجبت بقوّتك وفتوّتك منذ أن تزوجت أخاك. انك تشبه الآلهة. قوي. جميل. عظيم»، وطوّقت عنقه بذراعيها البّضتين، ثم هوت على وجهه تقبيلاً، وهمست في أذنه بين أنفاسها الحارّة قائلة: «هيا يا صغيري لنتمتّع». لكن الفتى الكريم، دفعها عنه بشدّة، وهو غاضب حانق، وانطلق لا يلوي على شيء. فاستوقفته قبل أن يخرج، وقالت في غضب المرأة المغلوبة على أمرها: «يا وحش!. لقد كنت أريد أن أجزيك على استسلامك بثوب بديع»، فقال لها: «انك لي كأم، وزوجك لي كأب، تعهّدني وربّاني فلا أخونه»، وخرج على الأثر.

وظلّت الزوجة تراجع نفسها وتتميّز غيظاً وحنقاً، حتى رجع إليها زوجها من حقله، فراعه منظرها. فقالت له في خبث ودهاء: «ان أخاك الأصغر دعاني لمضاجعته... يا للدنيء الخسيس... وذكّرته بأني كأمّه وأنك كأبيه، وتمنّعت عليه... فلم أعد أطيق رؤيته.. ألا يستحق منك القتل؟». واصطنعت البكاء والعويل والنشيج.

وعندما كان باتا يتقدم القطيع راجعاً إلى البيت قالت له البقرة:

«إن أخاك انوبيس يتربّص لك بخنجره. يبغي قتلكَ» فلاذ بالفرار! واستنجد بالآلهة رع حورس، أن يبيّن الظالم من المظلوم. فعاش باتا طريداً شريداً في وحشة بوادي الصنوبر، حتى ظهرت له جماعة الآلهة التسعة وقالوا له: «ها أنت يا باتا الذي شرّدتك زوجة انوبيس!.. ألا فاعلم أن أخاك قد قتلها شرّ قتلة. وهاك لك فتاة سماوية تؤنسك في وحشتك»، فحمل ماء النيل خصلة من شعرها إلى ملابس فرعون عندما كانت تغتسل بماء النيل وعبق شذاها في القصر، فدلّه الكهنة على مكان الفتاة، فأخذت إلى فرعون وصارت له زوجة...

وبعد حكايات كثيرة ـ لا تتصل بموضوعنا ـ خلف باتا فرعون، وصار ملك مصر العظيم، ودخل في مصاف الآلهة.

تشابه: وبعد، أفلا نجد بين هذه الأسطورة المصرية، وبين ما أورده سفر التكوين عن رواية يوسف مع زوجة فوطيفار رئيس شرطة فرعون، مشابهة غريبة؟

هدف سفر التكوين: لما كان الهدف الأصلي في سفر التكوين، هو إيصال ابراهيم بآدم، وتثبيت نسبه وسلالته به، فقد أخطأ محرّروه في تقدير الأجيال، والأزمنة اللازمة لربط بعضها ببعض، من آدم إلى نوح، ومنه إلى ابراهيم. ومن المعلوم أن التوراة على ثلاث نسخ متباينة: الاولى عبرية، ويبلغ مجموع الأعمار فيها من آدم إلى نوح 2023 سنة، والثانية سامرية ويبلغ مجموع الأعمار فيها 2324 سنة، والثالثة سبعونية ويبلغ مجموع الأعمار فيها 2242 سنة، وذلك بالنظر لما جاء في الاصحاح الخامس من سفر التكوين. وقد اتفقوا جميعاً على أن الفترة بين عهد ابراهيم وعهد نوح، عشرة أجيال، ومن عهد نوح إلى عهد آدم، عشرة أجيال فقط، ولا حاجة لذكر أسمائهم، فهي مسجلة في سفر التكوين.

أرقام سفر التكوين: ان الاكتشافات الأثرية المصرية، ودرس حالة البرجين، دندرة واستا، اللذين اكتشفا سنة 1793، وقراءة شامبوليون الافرنسي، للكتابة الهيروغليفية، ثم للخطين المصريين الديموتيقي والهيراتيقي، وما حرّر بها جميعاً، فوق الاحجار والجدر، في المعابد وعلى أوراق البردى وغيرها، هذه المصادر كلها أثبتت خطل هذا التقدير، وتحقق أن المدنية المصرية قد ترجع إلى (10 ـ 15) ألف سنة قبل المسيح. وثبت انه قد حكم أكثر من مائتي ملك في مصر، قبل مجيء السلالة الثامنة عشرة الفرعونية، وأن هناك ملوكاً كثيرين حكموا مصر، قبل أن يتوصل البشر إلى اختراع الكتابة، مع أن النسخة السبعونية، تذكر أن الفترة بين عهد آدم وعهد نوح 2242 سنة، ومن عهد نوح إلى عهد ابراهيم 1147 سنة فقط. وهذه المدة الأخيرة، هي وحدها التي يجب أخذها بنظر الاعتبار، وهي لا تنطبق مطلقاً مع الحقائق التي توصّل إليها الباحثون، مما وجدوه في تلك الآثار المصرية.

الكنيسة الانجيلية: عندما انتشرت هذه المعلومات في أوروبا، وظهر زيف الأرقام المحرّرة بالسفر، أخذ النّاس ينظرون إليه نظرة تعجّب واستغراب وشك. فقامت قيامة الكنيسة الانجيلية، حامية الكتاب المقدّس، وثار معها أنصارها، دفاعاً عن نصوص التوراة التي لا يمكن أن يأتيها الباطل، ويتسرّب إليها الخطأ. واستمر الصدام أكثر من مائة سنة، بين الاكليروس، وعلماء الآثار. وأخيراً تراجعت الكنيسة أمام الحقائق الأثرية الخالدة، وأعادت النّظر مرّات ومرّات في التوراة، حتى اهتدت إلى تفسير لحلّ المشكلة. وخلاصة هذا التفسير هي:

أولاً: أن وجود ثلاث نسخ للتوراة متباينة فيما بينها، تنفي قدسيّتها.

ثانياً: أن التوارة حينما يقول: (فلان ولد فلان) قد يكون المولود ولده أو حفيده، أو من أحفاد أحفاده، وقد يكون بين الوالد والمولود جيل أو بضعة أجيال، وقرن أو بضعة قرون. وأن القصد من كلمة (ولد) هو النسل. فمن الخطأ والحالة هذه، أن تجمع الأرقام الواردة في التوراة، للاستدلال على عمر البشريّة. وبهذا التعليل انتهى الخصام، وخرجت الكنيسة من المعركة ظافرة!

ومع هذا كله، إذا كان من الواجب النظر إلى ما ورد في أسفار التكوين والخروج... من الوجهة الدينية الإسرائيلية، على أنها صحيحة لا غبار عليها، فلا يمكن الاعتماد على صحّتها من الوجهة التاريخية والأثرية، وستبقى موضع شك إلى أن تؤيد من منبع تأريخي آخر. وقد يعتبر بدء التأريخ الإسرائيلي، منذ بناء الهيكل، وما بعده صحيحاً فقط. وبالنظر لما جاء في الأسفار الخمسة يمكن تسجيل التأريخ الإسرائيلي كما يلي:

	سنة
من ابراهيم إلى خروج بني إسرائيل من مصر	430
من الخروج إلى بناء هيكل سليمان	480
من بناء الهيكل إلى أسر بابل	242
من أسر بابل إلى التأريخ المسيحي	588
	1922
من التأريخ المسيحي إلى اليوم	1951
	3873

الفصل السادس النبي موسى بن عمرام (1571 ـ 1451 ق . ب .)

آراء المستشرقين: كثرت الأقاويل في الأزمنة المتأخّرة، حول النّبي موسى بن عمرام. فمن منكر لوجوده تماماً، معتبراً أنّه أسطورة خيالية، لا أصل لها في التاريخ، وضعها المشرّعون القدماء، الذين كتبوا سفر الخروج. ومن قائل إن كلمة موسى أو مسو، كلمة مصرية، تأتي بمعنى الولد، ولا يوجد لها أصل بالعبرية، لذلك فهو من نسل قبطي، لا من أصل إسرائيلي، أرضعته إسرائيلية، واتّخذها والدة له، وبذلك انتسب إلى عشيرتها ـ بيت لاوي ـ، واتّخذ ابنها هارون أخاً له بالرضاعة.

ومن قائل، ان أمر فرعون بقتل مواليد الذكور من بني إسرائيل[1]، بحجّة كثرتهم في البلاد، كما هو محرّر في سفر التكوين[2]، مبالغ فيه[3]، فليس هناك من مبرّر لإبادة شعب فقير، يشتغل باللبن والطّين، لا خوف من قوّته الحربيّة. كما وجد في أساطير بعض الأمم، من حوادث قتل الذّكور من المولودين، تلك الحوادث التي اتّخذها المؤرخون والكهنة والرّهبان، ذريعة لتمجيد رؤسائهم وأبطالهم.

ولم تذكر التوراة عدد المواليد الإسرائيليين الذين قتلوا أو أغرقوا تنفيذاً لذلك الأمر، كأنّه لم يكن القصد من ذكر تلك القصّة، إلا موسى وحده.

وفيهم من يقول، إن فرعون، لو كان قد أمر بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل حقيقة، لما تجرّأت ابنته على انتشال موسى من الغرق، وهو ابن ثلاثة أشهر، مع علمها بأنه إسرائيلي، من ختانه، ولما تجاسرت على إبقائه في البلاط الفرعوني، ليشبّ ويكبر، رغم إرادة فرعون، دون أن تحاذر من بطشه به انتقاماً لبني قومه.

وهناك من يقول، بأنّ قصّة إلقاء موسى في اليمّ، تشبه أسطورة «سيت» الظالم، الذي قتل أخاه أوزيريس الفرعون الصّالح المتألّه غدراً، ووضعه في صندوق، وألقاه في النّهر، ثم عثرت عليه إيزيس الأم.

وهناك من يقول، بأن قصّة موسى، تشبه أسطورة بابليّة عثر عليها المستشرقون مؤخراً، في حفرياتهم عند تنقيبهم عن الآثار الاكديّة، وكانت مكتوبة بالخط المسماري. وهي تحتوي على ما رواه سرجون الأوّل[4] ملك الاكديين عن نفسه، من انّ أمّه كانت وضيعة، فحملت به ووضعته سرّاً، فخبّأته في سلة طليت بالقار، وألقته في مجرى بنهر الفرات، فعثر عليه أكي الفلاح، وأنقذه من الغرق، ثم صار بستانياً، ثم ساقياً لملك أكد، أور ـ البابا حاكم كيش، فعشقته عشتار، ثم صار ملكاً على أكد[5].

وذهب بعضهم، إلى أن موسى مصري الجنسية، كان كاهناً معروفاً في معبد أون، فهرب من وجه فرعون، لقتله أحد الأقباط، بسبب تعدّيه على أحد الإسرائيليين. فلما عاد بعد غيبة طويلة، تزعّم بني إسرائيل.

وذهب البعض الآخر، إلى أن الغموض الذي يكتنف وفاة موسى ودفنه بيد الرب في جبل نبو، قبالة أريحا، دون أن يعرف إنسان قبره[6]، هذا كلّه يدلّ على أن قصّة موسى من أساسها، أسطورة لا ظلّ لها من الحقيقة.

حقيقة موسى: أما التوراة، وعليه المعول، فيقول: «وأخذ عمرام عمته زوجة له، فولدت له موسى وهارون» (20 ـ 6 خروج).

ومهما تكن روايات المستشرقين الغريبة، وآراؤهم العجيبة، فان موسى، كان قد نشأ في أحضان البلاط الفرعوني، في عهد منفتاح، فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، وكان يومها أعظم بلاط في العالم، وتثقّف على أيدي كهنة وحكماء، وساسة ماهرين، فاطلع على دقائق الديانة المصرية والأديان الأخرى السائدة في العالم آنذاك. وأصبح كاهناً في معبد أون. وقد أتاحت له هذه النشأة تعلّم القراءة والكتابة ودراسة الحكمة والقوانين والشرائع الدينية على اختلافها، والاطلاع على أعمال السحر والخزعبلات التي كانت سائدة في ذلك المجتمع بين مختلف طبقاته. فكانت نشأته، والظروف التي أحاطت به هي التي خلقت منه زعيماً لإسرائيل، حيث أخذهم أخيراً وخرج بهم من مصر.

حالة الإسرائيليين في مصر: في حوالى عام 1600 ق. م.، استطاع فراعنة طيبة في مصر العليا، أن يستولوا على فراعنة الرعاة الهيكسوس في مصر السفلى، على عهد أهمس، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة للفراعنة، فحكم أهمس منطقة الدلتا بأجمعها.

وكان هذا التبدّل السياسي، نكبة كبرى حلّت ببني إسرائيل، الذين كانت تربطهم بالهيكسوس المغلوبين، صلة القرابة والدم، بالإضافة إلى ما قدّمه يوسف، من خدمات قيّمة للهيكسوس، فكان الإسرائيليون موضع اضطهاد المصريين.

وقد بلغ هذا الاضطهاد ذروته، في عهد رعمسيس الكبير، ثاني ملوك السلالة التاسعة عشرة، عام ١٤٠٠ قبل الميلاد[7]، فأذلّهم المصريون غاية الإذلال، واستخدموهم كالعبيد في بناء المدن[8] بطريقة السخرة، وفي الأعمال العنيفة الشاقّة الأخرى[9]. وقد ظلّوا على هذا الحال من المذلّة والهوان، يقاسون مرارة الاضطهاد والاحتقار، حتى أخرجهم النبي موسى من مصر.

الخروج من مصر: جاء في سفر الخروج، أن الإله ظهر أول مرة لموسى، عند عودته من مدين، في طريقه إلى مصر، في وسط عليقة من نار متوقدة لم تكن تحترق، وناداه: «موسى! موسى! اخلع حذاءك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدّسة». وأمره بالذهاب إلى فرعون، وإخراج بني إسرائيل من مصر، كما هو معلوم مما لا حاجة لبيانه. وكان موسى على جانب عظيم من الفطنة والذكاء، والحنكة والدهاء، فلم يصطبر على بقاء العبرانيين في مصر، يسامون سوء العذاب، ويعاقبون أشد العقاب، يذبح أبناؤهم، وتستحل نساؤهم، أذلاء صاغرين. فبذل جهده لتخليصهم من الأعمال الشاقة المضنية، بواسطة رجال حكومة فرعون، وتمكن بفضل حكمته وذكائه، ودهائه ودرايته، من انتشالهم وإخراجهم من مصر، وإيصالهم إلى صحراء سيناء.

(يهوه) يأمر بالسلب[10]: جاء في التوراة أن نساء العبريين، حينما عزموا على الخروج من مصر مع موسى، ذهبن إلى جاراتهن المصريات، وزعمن انّهن ورجالهن سيحتفلون بالعيد في الصحراء، على بعد ثلاثة أيام من مدينتهم، سألنهن استعارة حليهن ليتجمّلن بها في احتفالهن بهذا العيد[11]. فأخذن حلي

جاراتهن، وهربن بالحلي إلى سيناء. وكانت هذه الجريمة المشهودة، والسرقة المفضوحة، قد ارتكبت بطلب من النبي موسى! على أثر توصية من الإله «يهوه»!

مطاردة اللصوص: وقد طاردتهم الشرطة الفرعونية، لا لإعادتهم إلى مصر، فإن مصر التي كانت قد سئمت من تصرفاتهم، وكانت تتمنى الخلاص منهم[12]. إنما طاردتهم الشرطة على انهم لصوص سرّاق، ومحتالون خدعوا الشعب المصري، فسلبوا حلي المصريات بالاحتيال والتدليس، وخدعوا رجال منفتاح فرعون مصر، بقولهم: انهم ذاهبون إلى الصحراء، ليقدموا القرابين إلى إلههم، على بعد ثلاثة أيام من المدينة[13]. فكانت خدعة بارعة سهّلت لهم الابتعاد عن مكان الخطر. وكانوا أكثر براعة، حين سلكوا طريقاً آخر، غير الطريق المألوف، إذ توجهوا إلى بحيرة سوف «بحيرة التمساح»، فتخلّصوا من مطاردة الشرطة، وهربوا بالغنيمة الباردة!...

طريق الهروب: لم يسلك النّبي موسى بقومه الطريق الاعتيادي المألوف، المتّجه إلى صحراء سينا، في استقامة البحر الأحمر، للعبور بالسفن كالمعتاد، وهو أقرب الطرق من غيره، خوف أن يبغتهم رجال الشرطة والسفن أثناء العبور، إنما اتجه بهم شمالاً نحو بحيرة سوف «بحيرة التمساح»، واجتاز البحر حسبما يظهر لنا، من البرازخ الممتدة بين البحيرات المحاذية للبحر المتوسط. وهو المحل الذي حفرت فيه قناة السّويس، بجوار الإسماعيلية، وهو طريق بعيد غير مألوف، وغير معروف لدى الناس. وكان موسى قد عرفه واجتازه متخفّياً، عندما هرب من مصر لأول مرّة، تخلّصاً من تعقيبات الشرطة، عندما قتل القبطي. ولعله رجع من الطريق نفسها عند عودته إلى مصر ثانية. يقول التوراة: «إن الله لم يهدهم في طريق أرض فلسطين، مع انها قريبة، فأدار الله الشعب في طريق بحر سوف» (17 ـ 13)، فاجتاز العبرانيون البرازخ من بين البحيرات، وشاهدوا المياه عن يمينهم وشمالهم، وكانت أقدامهم لم تزل تمشي على اليابسة، ثم دخلوا صحراء سينا بالفعل، من دون أن تبتل ثيابهم.

وقد أحجم رئيس الشرطة المصريّة ـ لأمر ما ـ عن تعقبهم بعد وصوله إليهم، وتغاضى عنهم بعد أن أدركهم وأحاط بهم[14].

معجزات: كانت هذه الحوادث كلها، من الأمور العظيمة التي لا تستوعبها عقولهم، ومن المعجزات البينات التي لا تدركها أفهامهم. فليس بوسعهم حلّ رموزها، والوقوف على حقيقتها، لأن المعلوم عند الناس أجمع، هو أن الدخول إلى صحراء سينا لا يكون إلا بعبور البحر بالسفن، وأن الشرطة لا يمكن أن يخونوا فرعونهم، ولا يمكن أن يرتشوا بمقادير من الذهب والفضّة والأمتعة، فيتماهلون في استرداد المنهوبات. وليس من الممكن أن يكفّ رئيس الشرطة عن مطاردتهم، أو يتركهم وقد أحاط بهم.

الحقيقة: والحقيقة، هي انهم إنما عبروا على اليابسة، وأصبح البحر وراءهم، والمسروقات من الذهب والفضة والجواهر في أيديهم، وقد كف رئيس الشرطة عنهم، ونجوا من التعقيب والمطاردة...

إيضاح المعجزة الكبرى: كان من السهولة إيضاح هذه المعجزة الكبرى: إن الإله الذي سبق، وعقد ميثاقه مع الآباء والأجداد، ابراهيم واسحاق ويعقوب، كان قد وعدهم بأرض فلسطين التي تدر لبناً وعسلاً، ووعد أن يجعل أنسالهم بعدد الكواكب والنجوم. هذا الإله.. هو الذي أخرجهم بيد قوية من مصر، هو الذي فلق البحر لعبورهم، من دون أن تبتل أقدامهم، وهو الذي أغرق فرعون ـ امبراطور العالم

حينذاك ـ وجنوده في اليم، بأعجوبة سماوية، فخلصوا من مطاردته. وهو الذي أوصلهم مع المسروقات والمنهوبات! إلى أرض سيناء بأمن وسلام...

التمرّد والعصيان: وقبل أن يستقرّ الشعب في صحراء سينا، أخذ يتمرد على النبي موسى، ويطلب العودة إلى مصر، ضارباً بإله الأجداد، وبامتلاك فلسطين أرض اللبن والعسل، وبمواعيد موسى كافة، وبأقواله ومعجزاته، ضارباً بهذا كلّه عرض الحائط، لكي يأكل ويشرب هناك في ظلال الدور هنيئاً مريئاً، ويعبد العجل أبيس، والإله عزير أوزيريس، ويستغل الشعب القبطي بأعماله التجارية، وبالربا والصيرفة والأعمال المختلفة.

ندم وتمرّد: «ليتنا متنا بيد الرب، في أرض مصر إذ كنّا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع» (2 ـ 16 ت)، هذا ما تمنّاه العبرانيون. ثم قالوا لموسى: «لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش» (4 ـ 17 ت). لقد ندموا على خروجهم من مصر، وتمرّدوا على موسى وزعامته، ولو كان عندهم من الجرأة والشجاعة شيء، لهاجموا موسى وقتلوه، وعادوا إلى مصر يستغلون الأقباط، بالربا والتجارة.

العجل الذهبي: تقول التوراة، لما أبطأ موسى بالجبل، اجتمع بنو إسرائيل عند هارون، فصنع لهم من أقراط الذّهب المسروقة من المصريين، عجلاً مسبوكاً ومصهوراً بالنار، فعبدوه ورقصوا حوله، وبنى هارون له مذبحاً بيده[15] كما سيأتي تفصيله.

مصادرة الذهب: ولما عاد موسى من الجبل، ورأى قومه يعبدون العجل، كانت خير فرصة له، لمصادرة الذهب المسروق من المصريين، واتخاذه زينة لتابوت العهد. ولما كان موسى منتسباً إلى سبط لاوي القوي الشكيمة، فقد اتخذ من رجاله شرطة له، ينفذون أوامره ونواهيه، وأحكام شريعته[16]... وبهذا أمن موسى شرّ الأسباط الآخرين، ولم يخف من تكتّلهم وتمرّدهم.

وقد أظهر عزماً وحزماً، وشدّة وصرامة، عندما أمر بني لاوي، وهم قوّته التنفيذية، بقتل جميع رجال الأسباط الآخرين، من سنّ الخامسة عشرة وما فوق، لعبادتهم العجل. وتقول التوراة، انّهم كانوا ثلاثة آلاف شخص، وكانوا قد شبّوا وشابوا تحت صفعات المصريين ولطماتهم، فتحطّمت معنوياتهم، وفسدت أخلاقهم. ولم يبق لهم من الحيويّة والنّخوة القوميّة، ما يقارعون بها الأعداء ليدخلوا أرض فلسطين. فكان من الضروري إبادتهم عن بكرة أبيهم، وخلق شعب جديد، بعيد عن المخاوف والمشاغبات، والتّمرد والعصيان، يصارع الوحوش في الصحاري، ويقارع الأعداء، في ميادين الحروب، بالأسنة والسّيوف، غير هياب ولا وجل. شباب عزيز النفس، قويّ العزم، شديد البطش، بدوي الطبع، لا يرتجف من قطرات الدم، ولا يهاب صولة الأعداء، ليتمكّن من الدّخول بهم إلى أرض الميعاد، ويجادل بهم الأمم والأقوام. وهي فكرة ناضجة، إن كانت تنطوي على الكثير من القسوة فهي تدلّ على بعد النّظر، وعلى الحزم والعزم. وهي في الوقت ذاته خطوة خطيرة جريئة، تنطوي على خطأ كبير، إذ لو علم به أعداؤه العمالقة، وكان قد حصل بينهما حرب[17]، لهاجموه وقتلوا الأولاد، وسبوا النساء، وأسروا ما تبقّى منهم، ولانقرض الشعب العبري بأسره بسبب حدّة جامحة.

معجزات موسى: أما معجزات النبي موسى التي لم يعتقد بصحّتها رجال بلاط فرعون، ولم يطمئن إليها

الشّعب، فكانت جميعها بنظرهم من آثار الطبيعة، ومن الأمور الجارية المتداولة، ومن الواقعيات التي لا يعبأ بها كثيراً. فأما معجزة صيرورة العصا ثعباناً، فيقول التوراة عنها: «فاشتد قلب فرعون ولم يسمع». فيكون عدم سماعه واهتمامه بها، دليلاً على وقوع أمثالها من قبل السّحرة والأفّاكين. وأما تحويل ماء النيل إلى دم، فقد يكون الماء أحمر قانياً من الطمى أثناء الفيضان. وأما ظهور القمل والضفادع والبعوض والذباب والجراد بكثرة، فقد يكون من الأمور الطبيعية العاديّة. وأما الدّمامل، فهي من الأمراض المستوطنة القديمة في القطر المصري. وكذلك بول الدم (البلهارزيا)، والإسهالات (الدوسنطريا)، والوباء (الكوليرا)، والطاعون البشري والحيواني، وسقوط البرد، وموت بكر فرعون، وغيره.. هذه جميعها من الأمراض المستوطنة، ومن الأمور الطبيعية الجارية كل يوم. ولهذا لم يعتبرها فرعون وقومه، بل وحتى بنو إسرائيل، من المعجزات البيّنات.

لما علم بنو إسرائيل بعد ذلك، بالحكمة في عبورهم البحر من اليابسة، والسّبب في نجاحهم من مطاردة الشرطة، بعد أن أدركتهم، لم يعودوا يهتمون بهذه المعجزة كثيراً. ولم يهتموا بموسى وشريعته وشرعوا يعبدون «بعل فغور» ويتزوجون بنات مواب، وموسى بين ظهرانيهم[18].

حفلة حول العجل الذهبي: وبالنظر لما جاء في التوراة، يظهر أن هارون أيضاً لم يكن يعتقد بمعجزات موسى، وكان في شك من صدق نبوّة أخيه. لذلك تقول التوراة انه طلب من الشعب، أن ينزعوا الأقراط التي في آذان نسائهم ويأتوه بها[19]، فصنع لهم العجل منها بيده، ودعاهم لعبادته[20]. بعد أن كمل بناء المذبح[21] بكروا في الغد، وقدّموا محروقات وذبائح سلامة، وأكلوا وشربوا أمام المذبح، ورقصوا ولعبوا حول العجل.

دسائس هارون: وإذا كان موسى قد تغاضى عن هارون، وعفا عن زلّته، ولم ينتقم منه عاجلاً، لما أمر بقتل الثلاثة آلاف شخص من بني إسرائيل لعبادتهم العجل، فإن هارون لم يرعو بهذا التّسامح، ولم يقدر هذا الإحسان عليه، فظلّ على مخالفته لموسى. فكان يعقد المؤتمرات السرّية بين حين وآخر، ويتكلّم فيها منتقداً أعمال أخيه[22].

مصرع هارون: ولما ضاق موسى بهارون ذرعاً قرّر إزاحته من الطريق، ونصّب ابنه ألعازر رئيساً للكهنة مكانه. فقد جاء في العدد (20 ـ 24) ما نصّه: «يضم هارون إلى قومه، لأنكم عصيتم قولي عند ماء مريبة. اخلع عن هارون ثيابه، وألبسها ألعازر ابنه. واصعد بهما إلى جبل هور. فينام هارون ويموت هناك. فمات هارون على رأس الجبل».

وبالطبع لم تكن موتة هارون هذه طبيعية، بل انها مقصودة نتيجة لتماديه في غيّه ودسائسه التي ظلّ مستمراً عليها.

مصير المعارضين: تقول التوراة، إن الأرض ابتلعت من المخالفين والمعارضين للنبي موسى، ثلاثة من رؤساء اللاويين، وهم: اثان وقورح وابيرام، فدفنوا أمام الخيمة. وربّما كان قورح ـ أحد هؤلاء الثلاثة ـ هو نفسه قارون المعروف.

كسر الألواح: ويظهر أن النبي موسى كان حديدي الطبع، عصبي المزاج. فهو لم يملك نفسه، عندما عاد من الجبل بعد غيبة أربعين يوماً، وشاهد قومه يعبدون العجل، ويرقصون حوله، فألقى الألواح على

الأرض وكسرها، من دون أن يفكّر بأنها ـ بالنظر لنصوص التوراة ـ من الله، وفيها وصايا الله، وهي من صنع الله، ومنقوشة بكتابة الله، فكان أن كتبها الله له بيده مرة ثانية.

ومن الغريب أن تذكر التوراة، ان الألواح كانت من الحجر الصلّب المنحوت وتكسّرت عند إلقائها على الأرض[23]، مع انها لو كانت حقيقة من الحجر، لما تكسّرت وتفتّتت بمجرد إلقائها، مما يدل على أن الكاتب، قد جانب الحقيقة في روايته هذه[24].

الوصايا العشر

شريعة المصريين: كان النبي موسى، قد تعلّم القراءة والكتابة في البلاط المصري كما قدّمنا، واطلع على أحكام الديانة المصرية، والديانات السائدة حينذاك في العالم، إطلاعاً تاماً. فقد جاء في الشريعة المصرية، ما يقوله الميّت، عند الدفاع عن نفسه أمام الإله عزير (أوزيريس)، والقضاة الاثنين والاربعين الذين معه: «لم أعتد. لم أزن. لم أسرق. لم أقتل غدراً. لم آكذب. لم أتدنس. لم أقذف. لم أستخف بالآلهة....» ...

شريعة موسى: وجاء النبي موسى بالألواح، وفيها ما يشابه هذه الأحكام، وهي المسماة بالوصايا العشر، مع تحوير بسيط، يتلاءم وما تقتضيه الأوضاع الدينية والاجتماعية والاخلاقية، التي كان عليها بنو إسرائيل، وهي كما جاءت في الاصحاح العشرين:

1 ـ أنا الرب إلهك، الذي أخرجك من أرض مصر، بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى، أمامي.

2 ـ لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما، مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت. وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك. غيور افتقد ذنوب الآباء في الابناء، في الجيل الثالث والرابع من مبغضي، وأضع إحساناً إلى ألوف من محبّي وحافظي وصاياي.

3 ـ لا تنطق باسم الرب، إلهك باطلاً، لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلاً.

4 ـ أذكر يوم السّبت، (ومعنى يوم السبت الرّاحة) لتقدّسه. ستّة أيّام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملاً ما، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك ونزيلك، الذي داخل أبوابك. لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكلّ ما فيها، واستراح في اليوم السابع، لذلك بارك الرب يوم السّبت وقدّسه.

5 ـ أكرم أباك وأمك، لكي تطول أيامك على الارض التي يعطيك الرب إلهك.

6 ـ لا تقتل.

7 ـ لا تزن.

8 ـ لا تسرق.

9 ـ لا تشهد على قريبك شهادة زور.

10 ـ لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده، ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً من قريبك.

حقيقة الوصايا: يظهر في هذه الوصايا، أن أكثرها يتّصل بالأخلاق والاجتماع، وبمستقبل الأمة

الإسرائيلية، وقليل منها ما يتصل بالدين والعبادة. وكان حمورابي قد وضع في شريعته، ما يشابه هذه القواعد، وعنها أخذها الفراعنة مع تعديل قليل، لتتلاءم وما كانت عليه المعتقدات الفرعونيّة.

أما النبي موسى، فقد جاءت وصاياه بتعديلات أكثر، لتلائم تلك القواعد، وما كانت عليه حالة بني إسرائيل الاجتماعية والعقلية، ولتنسجم مع مبدأ التّوحيد.

ولو أمعنّا النّظر قليلاً في هذه الوصايا، لوجدنا فيها من الغرائب ما لا نجده في مختلف الشرائع الأخرى.

فلم يسجل تاريخ الآلهة والأديان، أن إلهاً منع عباده من شهادة الزّور على القريب فقط ـ ويقصد بالقريب هنا كلّ فرد إسرائيلي ـ ثم يسكت عن شهادة الزّور عن الآخرين.

ولا يوجد في تعاليم مختلف الأديان، ان إلهاً منع عباده من أن ينظروا ويشتهوا بيت القريب، وامرأته وعبده.. إلى آخر ما جاء في الوصيّة العاشرة. ثم يسكت عن (غير القريب)، أي (غير الإسرائيلي). فيظهر أن هذه الأمور كانت محظورة على اليهود، بالنسبة لليهودي، أما بالنسبة لغيره... فقد يأتي السّكوت بمعنى الجواز.

وكان هناك إنسجام، بين الوصيّة التاسعة والعاشرة، وبين الأمر الموجّه من الإله يهوه، إلى بني إسرائيل، على لسان النّبي موسى، عند خروجهم من مصر. فقد قال: «لا تمضون فارغين. بل تطلب كل امرأة من جارتها، ومن نزيلة بيتها، أمتعة فضّة وأمتعة ذهب، وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين» (22 ـ 3 خروج).

إنّنا لو تصفّحنا تعاليم الأديان، منذ أن عرف الدين على وجه الأرض، حتى الآن، لما وجدنا بينها إلهاً يأمر عباده بالنّهب والسّلب، والسّرقة والاحتيال، على هذه الصورة، بواسطة النّساء. كل هذا يدلّ على تلاعب الأقلام، في توراة النّبي موسى المقدّسة الأصلية.

التاريخ الإسرائيلي

بالنّظر إلى أرقام سني الآباء الأوّلين، الواردة في التوراة، يمكن تسجيل التاريخ الإسرائيلي، على الوجه الآتي:

	السنة قبل الميلاد
التكوين وخلق العالم	4004
الطوفان العام	2248
خروج ابراهيم من أور	1921
ولادة إسحاق	1896
ولادة يعقوب	1836
ولادة يوسف	1712
يعقوب في مصر	1706
ولادة موسى	1571
الخروج من مصر	1491

الهوامش

(1) «ان كان ابناً فاقتلاه» (16 ـ 1 خ).
(2) «هوذا إسرائيل شعب أكثر وأعظم منّا» (8 ـ 1 خروج).
(3) جاء في سفر التكوين، أن عدد أفراد بيت يعقوب، الذين دخلوا مصر، كان سبعين (27 ـ 46 تكوين)، ومكثوا في مصر، أربعمائة وثلاثين سنة (40 ـ 12 خ) ومع هذا يدّعي سفر التكوين بانّهم لما خرجوا من مصر، كان عددهم ستّ مئة ألف ماش من الرّجال عدا الأولاد، (37 ـ 12 خروج)، وسكت عن النّساء.
(4) حكم حوالى عام 3000 قبل الميلاد.
(5) الرافدان ـ سيتون لويد.
(6) جاء في (5 ـ 34 تثنية): «ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم».
(7) «ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف» (8 ـ 1 خروج).
(8) «فجعلوا عليهم رؤساء تسخير، لكي يذلوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعون مدينتي فيثوم ورعمسيس» (11 ـ 1 خروج).
(9) «ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن، وفي أعمال الحقل» (14 ـ 1 خروج).
(10) جاء في سفر الخروج (22 ـ 3)، «فيكون حينما تمضون لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة، وأمتعة ذهب، وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين».
(11) «وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين» (26 ـ 12 خروج).
(12) «بيد قويّة يطردهم من أرضه» (1 ـ 6) و«عندما يطلقكم يطردكم طرداً من هنا بالتمام» (2 ـ 11 خروج).
(13) (27 ـ 8 خروج).
(14) «سعى المصريون وراءهم وأدركوهم» (9 ـ 14 خروج).
(15) (6 ـ 32)
(16) «خذ اللاويين ويكونون لي. ويخدمون بخيمة الاجتماع. فهم موهوبون لي من بين بني إسرائيل، من ابن خمس وعشرين سنة الى ابن خمسين سنة، يتجنّدون في خدمة خيمة الاجتماع» (عدد 8).
(17) «وكان عماليق قد حارب إسرائيل، وهزم يشوع عماليق وقومه».
(18) (2 ـ 25 عدد).
(19) (4 ـ 32).
(20) «وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر» (25 ـ 32).
(21) «نادى هارون، وقال غداً عيد الرب» (6 ـ 35 خروج).
(22) «فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدي موسى» (عدد 12)، والخطاب هنا مرجّه إلى هارون، وأخته مريم النبيّة (22 ـ 15 خروج).
(23) ثم قال الرب لموسى: «انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين. فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما» (1 ـ 34).
(24) وقد يكون من المفيد، أن نذكّر بأن قصّة تحطيم الألواح، تشبه كل الشّبه قصّة تحطيم جلجامش بطل الأساطير السومرية، صور الحجر، وهي ألواح فيها رقية، كانت السفينة تعبر بقوّتها مياه الموت في بحر الظلمات، الذي يقطن وراء أوتوبنشتيم (نوح الطوفان) في دار الخلود عند الآلهة (جلد 6، جزء 2 مجلة سومر).

الفصل السابع التـوحيـد

توحيد الفراعنة: كان تعدّد الآلهة شائعاً في العالم كلّه، ولم يجد البشر غضاضة في ذلك. وإذا كان الفراعنة قد اعتبروا الإله آمون، إله الآلهة، ورب الأرباب، واحداً بذاته، خالق السّموات والأرض، فقد جعلته متعدّداً بشخصيّته، مثلثاً بصفاته، متنوّعاً بطبائعه، مختلفاً بأسمائه، بالنّظر للفعل والعمل. فهو الأب والأم والولد بوقت واحد، مزج هذه الصّفات جميعاً بذاته، دون أن يطرأ عليه تغيير. فكان التوحيد المصري هذا مشوباً بالتثليث.

ثم ظهر التوحيد في مصر بالإله أتون، وهو قرص الشمس. وإذا كانت ذاته وصفاته واحدة بالفعل والعمل، وهو يرمز إلى التوحيد المطلق، فانه آفل كل يوم. والآفل لا يكون إلهاً دوماً.

توحيد الكلدانيين: للكلدانيين آلهة متعددة كثيرة، أكثرها نفوذاً وأهميّة الإله مردوخ، إله الآلهة ورب الأرباب. وإذا كان الكلدانيون قد اتجهوا نحو توحيد الإله مردوخ، فإنّهم لم يتخلصوا من الآلهة الأخرى.

التوحيد عند أفلاطون وأرسطو: جاء أفلاطون بعلة عاقلة واحدة، تدبر حركة العالم، وسمى هذه العلة: المبدع الأول، والفاعل الأول، (زوس ـ الله).

وقال أرسطو أن للعالم علة عاقلة أولى، ثابتة غير متحرّكة، لا بالذات ولا بالعرض، مستقلة عن الهيولي، وسمّاها زوس ـ الله أيضاً، هذا مع اعتقادهما بوجود آلهة أخرى، بمثابة الملائكة. فكان توحيدهما توحيداً فلسفياً، مبنياً على المنطق والعقل، وليس توحيداً دينياً بالمعنى المفهوم.

النبي ابراهيم أوّل موحّد: بعد أن اطّلع النبي ابراهيم، على هذه الآلهة، ودرس أفعالها وصفاتها، وجّه وجهه إلى فاطر السماوات والأرض، وجعله واحداً وسمّاه يهوه إله السّماء والأرض، ولم يذكر شيئاً عن ذاته وصفاته، وأفعاله وأعماله. ومع هذا الغموض والابهام، فان النبي ابراهيم يعتبر أوّل موحّد ديني في العالم كلّه، وقد عبد إلهه من بعده أولاده وأحفاده، حتّى يومنا هذا.

التوحيد الإسرائيلي: عندما ظهر بنو إسرائيل في الميدان الديني، كان لكلّ أمة ولكل قبيلة في فلسطين، إله خاص، تعبده وتحتمي به. فهو الذي يحارب الأعداء، وهو الذي يكسب الظفر لعباده، أو يسلّط عليهم أعداءهم، عند تمرّدهم أو إهمالهم عبادته، ويكون البلد بلد الإله، والجيش، جيش الإله.. وقد يرسل الإله جنوده لقهر أعداء عباده، ويحارب عنهم وهم قاعدون... وعلى هذا الاعتبار، نشأ التوحيد الإسرائيلي في فلسطين. فكان اليهود يعتبرون إلههم يهوه، إله بني إسرائيل فقط، ولا علاقة له بالأمم المجاورة الأخرى. فهو ليس رب العالمين، بل رب إسرائيل وحدها فحسب. ولهذا لم يهتم اليهود بتوحيد المسلمين، ولم يعتبروا الله إلهاً، ولهذا لم يؤمنوا برسالة محمد (ص).

نقص التوحيد الإسرائيلي: ان النقص الظاهر في التوحيد الإسرائيلي ـ ولعلهم معذورون في ذلك، نظراً للعقلية السائدة حينذاك بين الأمم ـ هو انهم أخذوا صفات إلههم (يهوه)، من صفات آلهة الكلدانيين

والسومريين، وجعلوه على صورة البشر، والبشر على صورة الإله[1]. فجعلوا له أعضاء، من أيد وأقدام، وجسّموه تجسيماً كاملاً[2]، وقالوا انه كان يتكلم مع موسى، «فما لفم وعيانا لا بالالغاز» (8 ـ 12 عدد)، وبصوت ولفظ، «وقال.. موسى، موسى! فقال: ها آنذا، فقال لا تقترب إلى هنا، اخلع حذاءك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدّسة» (5 ـ 3). وفي كل صفحة من صفحات سفر التكوين، والخروج من التوراة، توجد مكالمة بين الرب وابراهيم واسحاق ويعقوب وموسى.

وكان الإله يهوه، يسكن عادة في السماء، وينزل أحياناً إلى الأرض[3]، ويتقمّص الأشكال البشريّة[4]، ويكلّم الأنبياء، بصوت ولفظ[5]، ويأكل ويشرب[6]، ويظهر في عمود سحاب، ويجلس على غطاء التابوت (الكروبيم)، ويقف أمام باب الخيمة، ويتجلى فوق الجبل، فيندك منه الجبل، ويجادل ويأمر وينهي ويجلس في خيمة الاجتماع، ويتدخّل في شؤون الأمة، التافهة منها والهامة، ويندم[7]، ويتذكّر[8] ويخاصم ويقهر، ويعقد العقود والمواثيق[9]، ويشتد غضبه، ويتشفى ويحقد، ويفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، وفي أبناء الأبناء، حتى الجيل الثالث والرابع من مبغضيه[10]. ثم يعفو ويصفح، لا فرق بينه وبين الأشخاص البشرية، وسائر أفراد الناس، من الوجهتين: الجسدية والأخلاقية. وقد يراه الناس أيضاً بعيونهم[11]، ويكتب الوصايا العشرة على الألواح بيده[12]. وقد يأتمر بأوامر النبي موسى[13]، ويعتريه الوهن والكسل، والوسن والخمول، فينشط من غفلته، ويستيقظ من غفوته[14]، ولا يعلم الأشياء إلا بعد رؤيتها[15].

والأهم من كل ما سبق، أنهم جعلوه بعيداً عما يفعله البشر في الأرض، لا يستوعب الأمور الجارية في ملكه إلا بعد الرؤية والاختبار[16]. وكثيراً ما ينسى فيتذكر عهوده[17]. وقد يتحفّز لعمل ما، ثم يرجع عن عزمه ويندم، ويقبل النصيحة[18]. ثم يندم مرة أخرى ويصرف النظر عن قلب مدينته نينوى، بعد أربعين يوماً من عزمه على قلبها[19].

والأغرب من كل ما سبق، هو ما نسبوه إلى إلههم، من سلب حلي النساء المصريات عند خروجهم من مصر، من ذهب وفضة وثياب، بالاحتيال والخديعة، وهروبهم بها ليلاً. فبورك فيه من رب، عندما ينصح شعبه المختار بقوله: «ولا تمضون فارغين بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وذهباً وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين» (22 ـ 3 خروج). ويضيف التوراة إلى هذا تأييداً آخر فيقول «وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعارهم أمتعة فضة وأمتعة ذهباً وثياباً فسلبوا المصريين» (36 ـ 12 خروج).

أصبح هذا الغش والاحتيال من سجايا اليهود الخلقية. كان هذا السلب والنهب، هو الذي دفع رئيس شرطة فرعون إلى مطاردتهم، عند خروجهم من مصر، لا لمنع هجرتهم، إنما باعتبار أنهم سرّاق محتالون، خدعوا الشعب المصري، وسلبوا أمتعته، وهو جرم يستوجب العقاب عند جميع الأمم، وفي قوانين العالم وشرائعه كافة. ولا يقل عن هذا غرابة، ما ورد في التوراة، من أن يهوه، إله إسرائيل، قد دفن موسى بيده «ودفنه في الحواء، في أرض موآب... ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم» (5 ـ 34 تثنية).

ملحوظة: إن هذه الفقرة الأخيرة الواردة في التوراة، تدل دلالة واضحة، لا لبس فيها ولا شك، على أن

التوراة، المتداولة بالأيدي، ليست التوراة المقدسة، التي كتبها موسى بيده، إنما كتبها إنسان ما بعده، حيث لا يمكن ان يكتبها وهو على قيد الحياة.

تطوّر صفات الإله

النبي أشعيا: تطوّرت صفات الإله على أيدي الأنبياء المتعاقبين. فقد جاء في كتاب النبي أشعيا، حول الصّفات «أنا الأوّل وأنا الآخر، ولا إله غيري. أنا الرب صانع كلّ شيء.. ناشر السّماوات، باسط الأرض، لا إله سواي، مصدر النور، خالق الظلمة، صانع السّلام، خالق البشر. أنا الرب صانع كلّ هذه، أنا صنعت الأرض، وخلقت الإنسان عليها، يداي أنا نشرت السماوات...».

النبي أرميا: وتطوّرت أكثر من ذلك، على يد النبي أرميا، عند قوله عن لسان الرب: «إذا اختبأ إنسان في أماكن مستترة أما أراه يقول الرب، أما أملاء السماوات والأرض يقول الرب».

النبي أيوب: وتطوّرت أكثر فأكثر على يد النبي أيوب فقال: «الذي بيده أنفس كلّ حيّ وروح كل البشر» (11 ـ 12).

وكلّما تعاقب الأنبياء، تطوّرت الصّفات. فبينما كان الإله المنتقم من أبناء الأبناء، حتى الجيل الثالث والرابع من مبغضيه، في زمن النبي موسى ـ (الوصايا العشر) ـ إذا به أصبح إله الحقّ والعدل، وأصبح كل فرد مسؤولاً عن عمله، إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً. فقد جاء على لسان النبي حزقيال: «النفس التي تخطىء هي تموت. الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الإبن، برّ البار عليه يكون، وشرّ الشّرير عليه يكون» (19 ـ 18).

وأخيراً «أليس أب واحد لكلّنا، أليس الله واحد خلقنا» (10 ـ 2 ملاخى).

السيد المسيح: وفي النهاية جاء السيد يسوع المسيح بقول يخالف كلّ ما سبق فقال «الله روح، وبالروح والحقّ يجب أن يسجد له» (24 ـ 4 يوحنا). وبهذا الدستور، نفى عن الله كلّ تجسيم وتجسيد، وكل صفة من الصفات البشرية، كالمشي والنزول والصعود والإرادة والكلام، والأيدي والأقدام، والوجه والوراء والتجزؤ والانقسام. إلا أن اليهود لم يقبلوا منه هذا التنزيه لانطباعهم على الاحتكار.

الهوامش

(1) «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (26 ـ 1 ت)، و«خلق الله الإنسان على صورته» (28 ـ 1 ت).

(2) «وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة» (8 ـ 3 تكوين»)، ثم قوله لموسى: «لا تقدر أن ترى وجهي. فلن تراني إنما، أسترك بيدي حتى اجتاز، ثم أرفع يدي فتنظر ورائي» (23 ـ 33 خروج).

(3) «فانه هوذا الرب يخرج من مكانه وينزل ويمشي في شوامخ الأرض» (4 ـ 1 ميخا).

(4) «ونظر فإذا ثلاثة رجال واقفون لديه» (2 ـ 18).

(5) «وموسى يتكلّم والله يجيبه بصوت» (19 ـ 19).

(6) «ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم فأكلوا» (8 ـ 18).

(7) (14 ـ 32).

(8) «فمتى كانت القوس في السّحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً» (16 ـ 9).

(9) «ها أنا مقيم ميثاقي معكم» (8 ـ 9 ت).
(10) (6 ـ 20).
(11) «رأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفّاف. فرأوا الله وأكلوا وشربوا» (9 ـ 24).
(12) «والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين» (16 ـ 32).
(13) وعند ارتحال التابوت كان موسى يقول قم يا رب... وعند حلوله كان يقول ارجع يا رب (35 ـ 10 عدد).
(14) «اسكتوا يا كل البشر قدام الرب لأنه قد استيقظ من مسكن قدسه» (12 ـ 2).
(15) «يأخذون من الدم ويجعلونه على العتبة العليا فيكون علامة على البيوت التي انتم فيها فأرى الدم واعبر عنكم» (13 ـ 12).
(16) «انزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليّ (21 ـ 8).
(17) «فتذكر الله ميثاقه مع ابراهيم واسحاق ويعقوب».
(18) «اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم. فقال موسى أرجع وأندم. فندم الرب».
(19) «فلما رأى الله أعمالهم انهم رجعوا عن طريقهم الرديئة، ندم الله على الشر الذي تكلّم ان يصنعه بهم. فلم يصنعه» (10 ـ 3 يونان).

الفصل الثامن التـــوراة

القاضي الأوّل: كان النبي موسى، أوّل قاضٍ إسرائيلي، وكانت الأحكام التي يصدرها تسمى «تورث» ومفردها «تورا». ثم أعقبه الأنبياء والكهنة. وكان كلّ منهم يحكم بما يتراءى له ويصدر «تورا» باسم الرب، باعتبار انه ممثل للإله يهوه. وعلى هذا، كان التوراة عندهم إلهياً في مصدره، مقدساً في منشئه، جاء من الإله على لسان الأنبياء، لا يحقّ لأحد ان يعترض على حرف واحد من حروفه.

أسفار الشريعة: ثم جمعت هذه الأحكام، فصارت مجموعة كبيرة، أطلق عليها اسم «توراة». والتوراة يحتوي على أسفار مختلفة، وأقسام متعدّدة، منها سفر التكوين، ومنها سفر الخروج من مصر، تحت قيادة النبي موسى، ومنها أحكام الشريعة الموسوية الأصلية، التي هي أصل التوراة، وهي مؤلفة من أربعة أسفار: الخروج واللاويين والعدد والتثنية.

ومنها دخول بني إسرائيل الأراضي المقدّسة تحت قيادة يشوع بن نون، ثم يليه دور القضاة وأخبار الملوك، وأخبار الأيام، وأسفار الأنبياء صموئيل الأول والثاني، وعزرا ونحميا وأيوب، ومزامير داود، وأمثال سليمان، والجامعة، وأشعيا وأرميا وحزقيال ودانيال وهوشع وعاموس وعوبيديا ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجي وزكريا وملاخي وغيرهم.

التوراة: وأهم أقسام هذه المجموعة، هو «التوراة»، الذي يعتقد ان موسى كتبها بيده، وقد اختفت تلك النسخة، ولم يبق لها وجود. كما سيأتي بيانه.

من كتب التوراة؟: يقول بعض العلماء المحقّقين، ان موسى عاش في القرن السادس عشر قبل الميلاد، في حين ان الكتابة العبرية، لم تظهر إلا في أواسط القرن الثامن ق. م.، وعلى هذا فلا يمكن ان يكون موسى هو الذي كتب التوراة بيده.

وقد يبدو هذا الرأي صحيحاً، غير أنه من المؤكد، ان موسى سبق أن تعلم الكتابة والقراءة في البلاط الفرعوني، وربما كتبت التوراة باللّغة الهيروغليفية أو غيرها، ثم فقد ذلك التوراة، وحلّ محلّه التوراة الذي قرأه فيما بعد عزرا.

انقسام إسرائيل: عندما توفي الملك سليمان، انقسمت الدولة الإسرائيلية إلى قسمين: الإسرائيلية، واليهودية، ثم ظهر في الميدان الديني توراتان مختلفان عن بعضهما تمام الاختلاف. الأول: التوراة السامري، نسبة إلى السامرة ـ نابلس ـ عاصمة الحكومة الإسرائيلية. والنسخة الثانية من التوراة، هي المتناقلة بالتواتر، عن كنهة الحكومة اليهودية. وراح كلّ من الفريقين يدّعي ان التوراة الذي عنده هو توراة موسى.

عودة للعجل الذهبي: ولما تولى الحكم «يربعام بن ناباط»، أوّل ملك للحكومة الإسرائيلية، أراد أن يحوّل أنظار بني إسرائيل، عن قبلتهم في أورشليم، فاتّخذ لهم عجلين من ذهب. وضع الأول في بيت ايلي، ووضع الثاني في دان[1]. وبنى لهما المعابد والهياكل، وعيّن الكهّان والرؤساء من بيت غير بيت لاوي،

ووضع لهم توراة مزيّفة من عنده. وكان ان تحوّلت الديانة اليهوديّة هناك، إلى عبادة العجول الذهبية.

توراة اليهود: أما النسخة المتناقلة بالتواتر، على ألسنة كهنة اليهود، فلم يبق منها إلا ما علق بالأذهان من روايات مشوّشة، وأقوال مضطربة، لا يعتمد عليها، ولا يعلم أحد عنها شيئاً، حتى ظهر التوراة العبري، وهو المتداول في الأيدي الآن. وكان قد أملاه عزرا الكاهن لأوّل مرّة على الشعب في أورشليم، بعد سبي بابل عام 545 ق. م.، أي بعد مضي ما يقرب من الألف سنة على وفاة النبي موسى[2]. وقد كتب باللغة العبرية وتناقلته الأيدي.

ترجمة التوراة: عندما تولى بطليموس الثاني، عرش مصر[3]، واسمه فيلادلف اليوناني، عني بنشر العلوم والآداب. وكان اليهود الذين استوطنوا الاسكندرية، قد نسوا اللغة العبرانية، فأوعز فيلادلف إلى رجل من أعوانه، فقيه في العلوم الدينية يسمى ديموطريوس يرافقه ستة شيوخ من كل سبط، يضاف إليهم آخرون، حتى كانت عدّتهم اثنين وسبعين حبراً، من أعلام الأحبار، أن يترجموا التوراة إلى اللغة اليونانية[4] ليفهمه اليهود.

ثم ترجم التوراة إلى اللغة السريانية في مستهل القرن الثاني بعد الميلاد، وإلى اللغة القبطية (المصرية) في القرن الثالث بعد الميلاد، ثم إلى اللغة الحبشية عام 320 للميلاد، وإلى اللاتينية في القرن الرابع للميلاد، وإلى العربية عام 718 للميلاد.

التوراة محرَف: إن التوراة الذي تتداوله الأيدي محرّف، بالنسبة للنسخة المقدّسة، التي كتبها موسى بنفسه، بالنظر للحقائق التالية.

التوراة في تابوت العهد: كان موسى، قد سلّم التوراة يداً بيد إلى اللاويين، لحفظه في تابوت العهد، عندما جمعهم في خيمة الاجتماع (بيت الرب)[5]، وأمرهم بقراءته أمام كلّ الشّعب، في نهاية السّبع سنين، في ميعاد سنة الابراء، وفي عيد المظال[6]. وقد حفظ في تابوت العهد، في بيت الإله (الخيمة)، عملاً بوصيّة موسى. وكانت تلك النسخة هي التي كتبها موسى بيده، وهو التوراة المقدّس دون ريب.

وقد نفّذ يشوع بن نون، خلف النبي موسى الوصية، فقرأ التوراة أمام بني إسرائيل جميعاً، لأول مرة، عند مدينة «عاي» عبر الأردن[7]. ولم يقرأ مرة أخرى بعد ذلك، ولم يرد له ذكر أبداً.

ضياع التابوت: ولما اشتبك بنو إسرائيل في حرب مع الفلسطينيين، بعد دور القضاة، على عهد صموئيل الاول، استصحبوا معهم «تابوت عهد الرب الجالس على الكروبيم» ـ وكان محفوظاً في شيلوه، تيمناً به، ليسهل لهم الانتصار، فخسر الإسرائيليون المعركة[8]، واستلب أعداؤهم التابوت، مع الغنائم التي غنموها منهم. وكان قد أُسر مع التابوت لوحا الحجر، ونسخة التوراة المقدّسة الوحيدة[9].

اختفاء التوراة: ثم أعيد التابوت إلى الإسرائيليين بعد سبعة أشهر، ووضع في بيت أبينا داب، في قرية بعاريم، لمدة عشرين سنة، حتى نقله الملك داود، إلى بيت عوبيدادوم، ثم إلى أورشليم، بعد ثلاثة أشهر. ولم يكن في التابوت، سوى لوحي الحجر فقط. أما التوراة المقدّسة، التي كتبها موسى بيده، ووضعها في التابوت، فلم يرد لها ذكر مطلقاً، وقد اختفت من الوجود، ولا يعلم مصيرها أحد.

دور الملوك: وقد أيّد دور الملوك الأول (8 ـ 9) ما قلناه. فقد ذكر أن «لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر»[10]. وعندما نقله الملك داود من بيت أبينا داب إلى الخيمة في أورشليم، ولما نقله الملك

سليمان من الخيمة إلى محراب قدس الأقداس، في الهيكل، وذلك بعد مضي 487 عاماً على خروج بني إسرائيل من مصر، ذكرت هذه الكلمات بحروفها مرة أخرى في أخبار الأيام[11].

هذا كله يدل دلالة واضحة، على ان نسخة التوراة الوحيدة، قد فقدت أثناء حرب إسرائيل مع الفلسطينيين أو بعدها. وربما كان الفلسطينيون هم الذين أتلفوها، وتركوا لوحي الحجر في التابوت، لأنهم لم يفهموا منهما شيئاً. هذا ولم يرد في الأسفار، ما يدلّ على أن أحداً من الأنبياء أو الملوك، قد اطّلع على توراة موسى، أو عرف ما فيها من أحكام. ولو كان لنسخة التوراة وجود، في أي مكان كان، لاستحضرها الملك داود، أو الملك سليمان، ولقرأها الأنبياء والملوك والكهّان أمام الشّعب، تنفيذاً لأمر النبي موسى. وحينذاك، كانوا يستطيعون ان يقضوا بقراءتها على الخلافات الكثيرة، ويبطلوا ما ادعته الحكومة الإسرائيلية من أن توراتها هو الصحيح، ويمنعوا الشّعب من عبادة الآلهة الأجنبية، بدلاً من صراخ الأنبياء ووعظهم ونصائحهم التي لم تثمر. وهذا يدلّ على أن نسخة التوراة الحقيقية، لم تكن موجودة آنذاك، وأنها فقدت وارتفعت من الوجود.

الغزوات والغارات: إن الغارات الكثيرة التي وقعت على أورشليم، كانت وحدها سبباً كافياً لضياع توراة موسى، ان لم يكن قد ضاع من قبلها. فقد تعرّضت أورشليم لغزوات كثيرة، كانت تنهب فيها خزائن الملك وبيت الله. ومما سجله التوراة من الغارات:

غارة فرعون: فقد أغار شيشق فرعون مصر على أورشليم، في أيام رحبعام بن سليمان[12]، وأخذ خزائن بيت الرب، وخزائن الملك.

غارة إسرائيل: وعلى عهد أمصيا، ملك يهودا، أغار بواشي آحاز، ملك الإسرائيليين، على أورشليم، ودخلها عنوة[13]، وأخذ كلّ ما فيها من الذهب والفضة، وكل الآنية الموجودة في بيت الله، وخزائن الملك.

لقد كانت العداوة الدينية المتأججة بين الحكومتين، تجعل كلاً منهما تصم صاحبتها بالكفر والإلحاد. وحين يدخل يواشي أورشليم فاتحاً، وهو العدو الديني اللدود لليهود، لا بد أن يكون قد قضى على كل ما وجده في بيت الله، ولم يترك أثراً للسرادق أو التابوت. وكان قد أباد الكهنة والرؤساء ورجال الدين كافة عن بكرة أبيهم. ولو فرضنا ان التوراة كان موجوداً حينذاك، لما سلم من يد هذا العدو.

غارة البابليين: كانت الغارة الثالثة التي منيت بها أورشليم، هي غارة نبوخذ نصّر، ملك البابليين. ولم يكتف هذا الملك الغازي بسلب كل ما وجده عند اليهود، وتخريب مدينتهم، بل انه أخذ الشّعب اليهودي جميعاً أسرى إلى بابل، كما هو معلوم.

فكان من المستبعد جداً، بل من المستحيل، أن يبقى سفر الشريعة الذي كتبه موسى بيده، بعد هذه المدة التي تقارب الألف سنة، أن يبقى سالماً محفوظاً في بيت الرب، أو في أي مكان آخر دون أن يظهر له ذكر.

نسخة واحدة: كان التوراة بنسخة واحدة فقط، كتبها موسى بيده، ولم يكتب نسخة إضافية عنها إطلاقاً. وليس هناك ما يشير إلى أن أحداً قد نقل نسخة، عن توراة موسى، لا من قبل، ولا من بعد.

فكان ضياع النسخة الوحيدة، يعني انعدام التوراة من الوجود.

سفر التثنية: جاء في سفر التثنية (5 ـ 34) ما نصّه «فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ودفنه (الرب) في الحواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم». إن هذه الجملة من السفر تدل دلالة واضحة على أن النبي موسى لم يحرّر هذا السفر، لأنه لا يمكن أن يتحدث عن موته ودفنه وقبره بهذه اللهجة الإخبارية، ولا يمكن ان يتحدث عنها وهو على قيد الحياة، كما انه لا يمكن ان يكون قد كتب السفر بعد موته! بل لا بد ان يكون هناك شخص آخر غير النبي موسى، حرر هذا السفر. وإذا ثبت وجود جملة واحدة مدسوسة في الأسفار حصل الشك في جميعها.

أسفار الكاهن حلقيا: كانت أوّل إشارة وردت في أسفار التوراة، عن سفر الشريعة الذي كتبه موسى، هي التي وردت في الاصحاح (22 و23) من سفر الملوك الثاني، عام 600 ق. م.، أي قبل غزوة البابليين باثني عشر عاماً. وكانت على شكل قصة خلاصتها:

أن الكاهن العظيم حلقيا، عثر على سفر الشريعة في بيت الرب، وأعطاه إلى شافان الكاتب فقرأه، ثم ذهب شافان إلى الملك (يوشيا) وقرأ عليه السفر، فمزق الملك ثيابه (كذا)، ثم جمع شيوخ يهوذا، والكهنة والأنبياء، وأفراد الشّعب كافة، أمام بيت الرب، وقرأ عليهم السفر، ثم أمر الملك فأخرجت جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية ولأجناد السماء من بيت الرب، وهدمت المرتفعات التي بناها سليمان لعشتروت ولكموش ولمكولم، ثم أمر الملك شعبه أن يعملوا فصحاً للرب، وكانوا لم يفعلوا هذا منذ أيام القضاة وملوك إسرائيل ويهوذا[14]. ثم أرسل الملك حلقيا الكاهن إلى خلده النبية امرأة شلوم وكلمها عن سفر الشريعة[15].

سوء الوضع: نستنبط من ثنايا هذه القصة أموراً كثيرة. فان إقدام الكاهن حلقيا على إعلان عثوره على سفر الشريعة، يدل دلالة واضحة على ما وصلت إليه الحال من سوء عند بني إسرائيل، وليس أدلّ على ذلك من أن بيت الرب كان مليئاً بالآنية للبعل والسارية وأجناد السماء، أي إن الأمة الإسرائيلية كانت حينذاك تعبد الأصنام في بيت الرب، علناً وجهاراً وقد نسيت الإله «يهوه» وتعاليم موسى، وفقدت سفره الذي كتبه بيده للشعب الإسرائيلي.

حقيقة قصّة حلقيا: يبدو أن الكاهن حلقيا، كان رجلاً حكيماً ذكياً، قد لاحظ ما وصلت إليه الأمة الإسرائيلية من عبادة للأصنام، وتفرق في الكلمة، وانغماس في الضلالة والغيّ، وتفسّخ في الأخلاق، وانحطاط عام. فراح يفكّر في وسيلة يستطيع بها أن ينقذ الشعب الإسرائيلي مما وصل إليه من سوء الحال، ومن عبادة الأوثان، فلم يجد وسيلة يحقّق بها هذه الرغبة، خير من قصة عثوره على سفر الشريعة، في بيت الرب. ذلك السفر الذي كتبه بنفسه، ثم أعطاه لشافان الكاتب، فقرأه على الناس، وعلى الملك.

لقد استطاع ذلك الكاهن الجبّار، أن يوجّه الأمة الإسرائيلية ولو لمدة موقتة، إلى عبادة إله إسرائيل، ويطرد كهنة الأصنام الذين يوقدون النار على المرتفعات، في مدن يهوذا وما يحيط بأورشليم، والذين يوقدون للبعل وللشمس والقمر والمنازل، ولكل أجناد السماء (6 ـ 12).

ليس في الإمكان، تصديق قصّةِ العثور على سفر موسى في بيت الرب، بعد أن أحرق بيت الرب

بضع مرات، وبعد تلك الغزوات العديدة التي تقدّم ذكرها. فضلاً عن أن بيت الرب (قدس الأقداس)، لم يكن إلا غرفة فارغة ليس فيها سوى التابوت. وقد ثبت ان هذا التابوت، لم يكن فيه في عهد الملك سليمان، سوى لوحي الحجر فقط[16]. ففي أي مكان من بيت الرب، كان السفر محفوظاً يا ترى، طوال ألف سنة منذ وضعه موسى، حتى عثر عليه حلقيا؟

مصير توراة حلقيا: لم يمض زمن طويل، على عثور حلقيا على سفره ببيت الرب، حتى هاجم «نخاو» فرعون مصر فلسطين، وقتل الملك يوشيا، وتولى الملك من بعده (يهو أحاز)، فارتد هذا عن الشريعة، وعمل الشر في عين الرب[17]، وحكم ثلاثة أشهر فقط. ثم جاء من بعده يهو ياقيم، الذي حكم إحدى عشرة سنة، وعمل الشرّ في عين الرب[18] أيضاً. وجاء من بعده يهو ياكين، ولم تمض ثلاثة أشهر على توليه الملك، حتى تحققت نبوءة النبية (خلدة)، فدخل نبوخذ نصّر أورشليم، وأشعل النار في بيت الرب، وهدم أسوار أورشليم، وأحرق المدينة كلها، بعد أخذ كل ما فيها، وسبى جميع أهلها[19].

أما السرادق والتابوت، فلم يرد لهما ذكر في التوراة بعد هذا، كما انه لم ترد أي إشارة، إلى نسخة السفر الوحيدة التي وجدها حلقيا!! وقد يكون حلقيا، أودعها إلى أولاده، فظهرت بعد ذلك عند حفيده الكاهن عزرا الهاروني!!.

توراة عزرا الهاروني[20]: بعد عودة اليهود إلى أورشليم من أسر بابل، ومرور سبعين عاماً على خراب بيت المقدس، أعلن عزرا الهاروني وجود التوراة عنده، ولعله انتقل إليه من جده حلقيا[21]، وكان عزرا كاتباً ماهراً في شريعة موسى، التي أعطاها الرب إله إسرائيل[22]، ثم قرأ هذا التوراة على الشعب، عند رجوعه إلى أورشليم من السبّي[23]، ولم يكن بين ذلك الشعب المحطم حينذاك، من يعرف شيئاً عن الألواح والسفر، والشريعة والتابوت، والعنعنات الدينية الأخرى.

حقيقة عزرا الهاروني: لم يكن عزرا الهاروني، إلا رسولاً أرسله «أرتحششتا» الطويل، ملك فارس، مع الكهنة واللاويين إلى أورشليم[24] عام 547 قبل الميلاد، أرسله لإصلاح حالة اليهود، ولإشغالهم بالمسائل الدينية، وإبعادهم عن الأمور السياسية، حتى لا يثيروا القلاقل والفتن في أورشليم التي كانت تحت حماية الفرس.

ومن الغريب حقاً، أن تبقى شريعة موسى مفقودة، لا يعثر عليها عظماء الأنبياء: صموئيل، وأشعياء، وأرميا، وحزقيال؛ والملوك: داود، وسليمان؛ والكهنة، وأفراد الشّعب، منذ عهد يشوع بن نون خليفة موسى، إلى ما بعد سبي بابل، ثم يأتي عزرا من بابل بتلك الشريعة ويتلوها على الشعب، من دون أن يبيّن لهم، متى وكيف ومن أين؟ وصلت إليه!!

النبي نحميا: أما النبي نحميا (ناحوم)، الذي كان معاصراً لعزرا الكاهن، وقد اطّلع على التوراة التي أملاها عزرا، فقد أورد لأول مرة في الاصحاح التاسع من سفره، خروج ابرام من أور الكلداني، وذهاب الشعب الإسرائيلي إلى مصر، ثم خروجه منها وانفلاق البحر، وعبور الشعب على اليابسة، وغرق فرعون في اليمّ، وتجلّي الإله على جبل سيناء وتبليغه الشريعة والوصايا العشر والفرائض على يد موسى، وإعطاؤه الخبز من السماء، وإخراجه الماء من الصخور، وتمرّد الشّعب، واتخاذه العجل المسبوك، وضلاله أربعين سنة في البرية من دون أن تبلى ثيابه وتتورّم أقدامه.. والوقائع المهمة كافة

الواردة في التوراة، منذ ظهور موسى في الميدان الديني حتى الدور الأخير، يضاف إليه كذلك ما ورد في الاصحاح العاشر من سفره عن مجمل أقسام شريعة موسى حول مخصّصات خبز الوجوه والتقدمة، والمحرقة، والسبوت، والأهلّة، والمراسم، والأقداس، وذبائح الخطيئة، وجمع الحطب، وباكورات الأرض، والأثمار، والبنين، والبهائم، وأوائل العجين، والرقائع، والخمر، والزيت، وعشر الأرض، وعشر الأعشار للتكفير عن إسرائيل إلى اللاويين، والكهنة، والخدمة، وإلى بيت الرب، والمخدع، وقدس الأقداس... وغيرها من الأمور التعبديّة الهامة، التي خفيت عن أعين أنبياء بني إسرائيل السابقين كافة. فلم يرد لها ذكر في أسفارهم لا إجمالاً ولا تفصيلاً، مما يستدل منه على انه قد أخذ هذه المعلومات كافة، مما أملاه عزرا عن توراته وأنها لم تكن معلومة عند اليهود فيما سبق. فكان عزرا الكاتب الذي جاء بهذه التوراة، ومن الأحرى أن تسمى توراة عزرا، لا يقل مقدرة ودهاء عن النبي موسى نفسه.

عزرا الصهيوني: ويبدو أن عزرا الكاهن، كان أوّل صهيوني في التاريخ، فقد أسّس القومية اليهودية، حين أرغم اليهود على ترك زوجاتهم الأجنبيات، للمحافظة على النسل المقدّس! والاعتزاز بالنسل اليهودي، الشعب المختار. وكانت هذه خطوة تمهيدية، لتأسيس القوميّة اليهوديّة، وجعل شريعة مستقلة لها، ليؤسّس بعد ذلك دولة يهودية مستقلة، ثم يعلن إنفصاله عن الإمبراطورية الفارسية.

ولما كان عزرا الهاروني، قد قطع زمناً طويلاً في الأسر ببابل، فقد كانت قصص الخليقة والتكوين، التي وردت في أسفاره، وقصة آدم والجنّة، وهابيل وقايين ولديْ آدم، تتشابه تشابهاً كبيراً مع الأساطير الكلدانية والسومرية كما بينّا فيما سبق.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا التوراة الذي تتداوله الأيدي الآن، وثبتت أحكامه قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون، يعتبر من أبدع ما خلّفه العقل البشري حيذاك، من الآثار الدينية والأدبية والتاريخية. فقد سجّل في صفحاته، بصورة غير مباشرة، كثيراً من تواريخ الأمم الغابرة، لم نكن لنعرف عنها شيئاً لولاه، فضلاً عن ان اليهود مدينون لهذا التوراة، الذي كان الرباط الوحيد الذي ربطهم ببعضهم، والذي جعلهم يتكتّلون فيما بينهم، ولا يمتزجون مع الشعوب والأقوام التي أقاموا بينها، فكان في الوقت نفسه وبالاً عليهم. فقد جعلهم موضع اضطهاد الشعوب واحتقارها، لعدم امتزاجهم وتقرّبهم ممن يعيشون معهم.

الهوامش

(1) (12 م. أول).
(2) توفي موسى عام 1451 ق. م.
(3) حكم مصر (285 ـ 247 ق. م.) وكان ثاني ملك بعد الإسكندر، إذ سبقه بطليموس الأول.
(4) كان ذلك عام (280 ق. م.).

(5) «فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة، في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً: خذوا هذا الكتاب وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون شاهداً عليكم» (24 ـ 31 تثنية).

(6) «تقرأ هذه التوراة، أمام كل إسرائيل في مسامعهم» (9 ـ 31 تثنية).

(7) (25 ـ 8).

(8) «فسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل وأخذ تابوت الله» (11 ـ 4 ص1).

(9) «وكان تابوت الله في بلاد الفلسطينيين سبعة أشهر» (1 ـ 6 ص10).

(10) «ولم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر اللّذان وضعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الرب بني إسرائيل عند خروجهم من مصر» (9 ـ 8 الملوك الأول).

(11) (10 ـ 5).

(12) (12 ـ اخبار الثاني).

(13) (24 ـ 25 أخبار الثاني).

(14) (22 ـ 22).

(15) قالت هذه النبية للكاهن، عندما حدثها عن السفر، «هكذا قال الرب إله إسرائيل، قل للرجل الذي أرسلك انك ستضم الى آبائك بسلام، ولا ترى عيناك كل الشرّ الذي أنا جالبه على هذا الموضع» (14 ـ 22 م. ث.).

(16) «لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر، اللذان وضعهما موسى في التابوت، حينما نقله الملك سليمان من الخيمة الى بيت الرب (الهيكل)، الذي بناه. وكان ذلك في السنة الحادية عشرة من ملكه» (6 ـ 37 أيام. ث.).

(17) (21 ـ 22 م. ث.).

(18) (26 ـ 22).

(19) «وسلم الرب بيد نبوخذ نصّر يهو ياكين، ملك يهوذا مع بعض آنية بيت الله، فجاء بها الى أرض شنعار إلهه، وأدخل الآنية الى خزانة بيت إلهه» (1 ـ 2 دانيال).

(20) وهو عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا ـ كما جاء في الاصحاح السابع، من سفر عزرا.

(21) «وكان عزرا، قد هيّأ قلبه لطلب شريعة الرب، والعمل بها وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء» (10 ـ 7).

(22) (7 ـ 6 عزرا).

(23) عند وصول عزرا إلى أورشليم، «اجتمع كل الشعب وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتي بسفر شريعة موسى. فأتى عزرا الكاتب بالشريعة أمام الجماعة. وفتح عزرا السفر أمام كل الشعب وقرأها من الصباح الى نصف النهار أمام الرجال والنساء... واللاويون، أفهموا الشعب الشريعة وفسّروا المعاني... وعمل كل الراجعين من السبي مظال في العيد، من أغصان الزيتون والنخل. كل واحد على سطحه وفي داره، وسكنوا فيها لأنه لم يعمل بنو إسرائيل المظال من أيام يشوع بن نون خليفة النبي موسى. وانفصل نسل إسرائيل من جميع الغرباء» (7 ـ 8 نحميا).

(24) وقد أرسل معه هذا الملك كتاباً جاء في مقدمته «من أرتحششتا، ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السّماء إلخ...، من أجل انك مرسل من قبل الملك ومشيريه لأجل السؤال عن يهوذا أورشليم حسب شريعة إلهك التي بيدك إلخ»... (7 عزرا).

الفصل التاسع الوثنيّة الإسرائيليّة وملوك إسرائيل

اشتهر الشعب الإسرائيلي بضعف إيمانه، وعدم تقديره للمعنويات والروحيات، وتعلّقه بالمادة. واشتهر كذلك بكثرة ارتداده عن الدين الذي جاء به الآباء ابراهيم واسحاق ويعقوب وموسى، في مختلف مراحل حياته.

في عهد النبي موسى: ارتدّ الشعب الإسرائيلي بسرعة عن دينه وانصرف عن عبادة إله يهوه، في عهد النبي موسى نفسه. فحين ذهب موسى لمناجاة ربّه، انصرف الشعب إلى العجل الذهبي، فبنوا له معبداً، ورقصوا حوله، وعبدوه. حتى عاد إليهم ووجدهم على هذه الحال فقتل منهم ثلاثة آلاف شخص في ليلة واحدة، ولم يسلم من القتل سوى الأطفال كما قدّمنا.

الجيل الصالح: وحتى أولئك الأطفال الذين أراد موسى ان يخلق منهم جيلاً صالحاً، ما ان كبروا، حتى اتخذوا يزنون مع بنات موآب، ويسجدون لآلهتهن[1]، في حياة النبي موسى.

موسى أيضاً: لم يستطع موسى ـ على ما رواه التوراة ـ إلا أن يماشي هذا الشعب الذي تغلغلت المادية في عروقه، فصنع لهم حية من نحاس لتكون رمزاً لبني إسرائيل. فما كان منهم إلا أن راحوا يقدّسونها ويوقدون لها الشموع، حتى جاء حزقيال بن آحاز المؤمن، ملك يهوذا، فحطّم تلك الحية، مع ما حطمه من التماثيل والأصنام[2].

حالة السكان في فلسطين: ولما دخل يشوع بن نون أرض فلسطين[3] لم يكن فيها حكومة يخضع لها السكّان، إنما كانت هناك مدن، ولكل مدينة ملك، لا يختلف كثيراً عن رئيس القرية أو الجماعة العراقية أو رئيس العزبة المصرية (العمدة). وكان كل من هؤلاء الملوك، ينتفخ انتفاخ الأسد كلّما خلا بنفسه، وينظر إلى غيره من الملوك الذين يجاورونه، بعين الطمع والحسد، والريبة والشك. ينتظر كل منهم ناحية ضعف في صاحبه، ليهاجمه ويوسع رقعة ملكه الصغيرة على حسابه. وقد دبّ بينهم الشقاق والنّفاق، وعميت بصيرتهم عما يهدّدهم من الأخطار الخارجية وما ينتظرهم من سوء المصير. ولم يلتفتوا إلى ضرورة الاتحاد، للوقوف بوجه إسرائيل، بل استأسد بعضهم على بعض، وتكابروا وتحاسدوا، حتى أصبحوا على درجة كبيرة من الضعف والتخاذل.

كان التنافر بين ملوك الفلسطينيين، قد سهّل على يشوع مهمّته، فقضى عليهم واحداً بعد واحد. ويدّعي التوراة أنه قد قتل منهم واحداً وثلاثين ملكاً[4]، واستولى على أراضيهم تدريجياً وعلى مهل، تنفيذاً لوصيّة موسى[5].

عبادة بالقوة: ظلّ يشوع، يحكم إسرائيل إحدى وثلاثين سنة، كانوا خلالها متمسكين بشريعة موسى، مؤمنين بقدرة الإله يهوه، وبإنجازه ما وعد به آباءهم من فتح قريب، ونصر مبين[6]، وذلك بتأثير الفتوحات الكثيرة، وقوّة يشوع، وسيطرته عليهم بصفته قائدهم الفاتح.

ولما توفي يشوع، خلفه فنيحاس بن أليعازار بن هارون، وهو صاحب الخيمة، والكاهن الأكبر.

وكان التوراة محفوظاً عنده، فظلّ يحكمهم خمساً وعشرين سنة، وهم متمسّكون بأحكام الشريعة وتقديم الطاعة للرب إله إسرائيل.

الرّدة: ما إن توفي فنيجاس، حتى ارتد الشعب الإسرائيلي عن عبادة إلهه، والتجأ إلى الآلهة الغريبة. فلم يكن لبني إسرائيل بعد فنيجاس، حكومة توحدهم، أو ملك يحميهم ويجمع شملهم[7]. وفي هذا الدور كان قد دخل الإسرائيليون بحرب مع الفلسطينيين، وأخذ التابوت أسيراً وفقدت التوراة التي كتبها موسى بيده.

وكان القضاة والشيوخ يحكمون، كتولع ويائير وعثائيل، والأنبياء يتنبأون، أمثال ياهو ويوناثان وأهود وجدعون. وكان الزعماء والأبطال يقاتلون، كشمشون، ويفتاح وشاؤول. فكان كل فرد يعمل ما يشاء، ويعتقد بما يشاء، لا يتقيّد أحدهم بالآخر، ولا يرتبط به.

وفي هذه الفوضى، ترك اليهود يهوه ـ إله إسرائيل الساكن في السماء، واتجهوا إلى الآلهة الغريبة الأخرى، التي يرونها بأعينهم، ويلمسونها بأيديهم[8]، وقبلوا التزاوج مع الميديين والكنعانيين ومصاهرتهم، وعبدوا آلهتهم وبنوا لها السواري والمعابد.

ولم يبق منهم من يعبد الرب، سوى بيت لاوي والأنبياء وبعض الشيوخ والعجائز والقضاة. أما الشعب، فاستدام في تمرّده يعبد البعل وعشتروت، والنساء يصنعن الكعك والخبز لآلهة السماء، والأولاد والبنات يقفزون من فوق النيران والرجال تسجد للشمس أجيالاً كثيرة.

أول ملك إسرائيلي: ظهر النبي صموئيل، في الميدان الديني وارتأى ـ بناء على رغبة الجمهور ـ ضرورة تأسيس الملوكية لإسرائيل لتحمي كيانه، وتجمع شمله وتخلصه من الحياة القبلية والبدوية وترسخ قدمه في فلسطين، فوقع اختياره على شاؤول من نسل بنيامين. وصب على رأسه قرن الزيت المقدس ومسحه لأول مرة ملكاً على إسرائيل (1 ـ 10 ص) وخطب في الشعب وقال: «أرأيتم الذي اختاره الرب... فهتف كل الشعب وقالوا: ليحيى الملك» (20 ـ 10 ص). فكان أول ملك للرب ملك على إسرائيل، فاستخلص رويداً رويداً جميع المدن الإسرائيلية من الفلسطينيين.

وبعد أن قويت شوكة الملك شاؤول، جاءه النبي صموئيل يذكره بثأر إسرائيل لدى عماليق، ويطلب منه إبادتهم عن بكرة أبيهم، فهاجمهم شاؤول، على غفلة وقتل منهم كل رجل وامرأة وطفل ورضيع، ولم يترك منهم ذا حياة سوى ملكهم اجاج فكان قد عفا عنه ولم يقتله، مما أثار غضب النبي صموئيل عليه، فأحضره وقطّعه إرباً إرباً بالسيف.

التفتيش عن ملك: بالرغم من أن الملك شاؤول تحت إصرار النبي صموئيل، قد قتل «اجاج» ملك العمالقة، إلا أن هذا لم يرض النبي صموئيل فعاد إلى بيت لحم، وراح يبحث عن شخص جديد يوليه الملك على إسرائيل. فعثر على داود بن يسي، وكان يرعى الغنم لأبيه، فمسحه بالزيت المقدّس، ليكون ملكاً في المستقبل على إسرائيل[9].

داود: تقول التوراة إن أول عمل قام به داود، هو قتله جليات جالوت الجبار (51 ـ 17 ص. أول)، زعيم الفلسطينيين، بحجر رماه بمقلاعه، فأصاب منه صدفة مقتلاً في رأسه. فكانت هذه الحادثة البسيطة سبباً لاشتهاره بالبطولة والشّجاعة، وباباً لوصوله إلى ملوكية إسرائيل.

لقد سئم الملك شاؤول، من تدخلات الأنبياء والكهنة في شؤون الدولة، وخاصة من الخضوع لأوامر النبي صموئيل باسم الرب القدوس فلم يلتفت بعد إلى تنبؤاتهم وأقوالهم. ولما أحسّ الميل إلى داود قتل من كهنة الرب 85 رجلاً (19 ـ 22 ص.) لذلك «لم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالاوريم» (7 ـ 28 ص). وكان بعد ذلك كلما أراد شاؤول أن يقتل داود ويزيله من الوجود فشل، بينما نال داود منه مقتلاً مرّتين، ولم يصبه بأذى بحجّة انه مسيح للرب. وبهذه السياسة اكتسب داود محبة الشعب.

مؤامرة لقتل داود: وضاق شاؤول بداود ذرعاً فأرسل جواسيسه لاغتياله ليلاً، فشعرت ميكال امرأة داود بإحاطة الجواسيس بالدار وأنهم يبغون قتل داود في فراشه، فأنزلته من كوة البيت وهرّبته إلى الخارج، ووضعت لبدة المعزى في فراشه وغطتها لتضليل الجواسيس. فكان لما هجم الجواسيس قبيل الصبح على الدار لم يروا في الفراش سوى لبدة المعزى (19 ص أول). وبهذه الخديعة نجا داود من مكيدة شاؤول، والتجأ إلى النبي صموئيل في الرامة.

فكان كلما أرسل شاؤول الجواسيس إلى الرامة يتنبأون عندما تقع أنظار النبي صموئيل عليهم ولا يعودون، وأخيراً ذهب شاؤول بنفسه إلى الرامة، ولما وقعت عينا صموئيل عليه أصيب بما يسمى بالتنويم المغناطيسي، فتنبأ هو أيضاً، «ونزع ثيابه وانطرح عرياناً ذلك النهار كله، وكل الليل» (24 ـ 19 ص).

عصابة داود: ولما لم يبق لداود عمل في الرامة، تدعى التوراة، جمع حوله عصابة من اللصوص والمتشرّدين وقطاع الطرق، وكل من لا عمل له. فتجمّع حوله أربعمائة شخص كلهم من الأشرار (3 ـ 22 ص)، فترأس عليهم وشرع يشن الغارات يمنة ويسرة ويعيث في الأرض فساداً، ويغزو وينهب ويسلب المارين والعابرين، ويهاجم أهل القرى الآمنة المطمئنة، فطارده شاؤول في كل مكان. ولما ضاقت به الأرض هجر ومن معه أرض يهودا، وكانوا قد بلغوا حد السبعمائة شخص (3 ـ 27 ص)، فأقاموا في مدينة صقلغ في كنف ملك جت. وكان له هناك أيضاً غزوات عديدة، أفزع بها الناس وسفك فيها الدماء حتى قتل شاؤول في حرب مع الفلسطينيين وصفا له الجوّ.

الملك داود: ولما عاد داود إلى يهودا بعد مقتل شاؤول مسح رجال يهوذا داود ملكاً على إسرائيل (1055 ق. م.) وهو ابن ثلاثين سنة وملك أربعين سنة وسكن في حبرون سبع سنين وستة أشهر ثم استولى على حصن صهيون من اليبوسيين، واتخذه عاصمة له وسماها أورشليم[10]. ونقل تابوت العهد من بيت ايناداب في قرية بعاريم، إلى بيت عوبيدادوم. وبعد ثلاثة أشهر نقله مرة أخرى، إلى مدينته الجديدة، بمهرجان عظيم، ووضعه في خيمة في وسط المدينة.

امرأة القريب: من المحقق ان النبي داود لم يكن مطلعاً على أحكام الوصايا العشرة، المحررة بألواح النبي موسى، لفقدانها. فقد جاء في المادة العاشرة منها «لا تشته امرأة قريبك...»، وبينما كل امرأة ذات بعل محرمة على كل أحد من أفراد العالم، فقد أعجبته يثشبع امرأة أوريا لما شاهدها من سطح داره، وهي تستحم في دارها، وكان أوريا في جبهة الحرب فأخضعها لمشيئته وهي مطهرة من طمثها، ونال منها ما أراد، فحملت منه سفاحاً. فطلب داود من قائده يوآب إعادة أوريا إلى داره لستر الفضيحة، إلا أن أوريا لم يشأ الذهاب إلى داره، فأرسله داود إلى الصف الأول من جبهة القتال، وقتله بيد الأعداء ظلماً وعدواناً، وهلك الولد عقب ولادته وحظيت يثشبع بعد ذلك عند داود فتزوجها وولدت له الملك سليمان.

غضب الرب: تقول التوراة لقد غضب الإله على داود على فعلته هذه وانتقم منه بتسليط ابنه امنون على بنته ثامار فأخضعها لمشيئته ونال منها ما أراد. وانتقم منه للمرة الثانية لما دخل ابنه ابشالوم أورشليم فاتحاً، وكان قد فرّ داود من وجه ابنه، فتسلط ابشالوم على عشرة من سراري أبيه، ومن أحب نسائه إليه، وأخضعهن لإرادته، وجميعها من المخالفات الأخلاقية التي لا توجد عند الأمم الأخرى، يمجها الذوق البشري، وتستنكرها الشرائع الإلهية والأرضية.

وتذكر التوراة ان الرب غضب للمرة الثالثة على النبي داود لما أراد إحصاء نفوس بني إسرائيل. فأنذره النبي «جاد رائي» عن لسان الرب بالوباء. فأرسل الله ملاكاً على أورشليم لإهلاكها فسقط سبعون ألف رجل. فندم الرب على الشر، وقال للملاك كفى... رد يدك... يدعي الملك داود أنه رفع عينيه نحو السماء، فرأى ملاك الرب واقفاً بين السماء والأرض، وسيفه مسلول بيده.

وكان داود يخضع لما يمليه عليه الأنبياء أمثال صموئيل وناثان وجاد، وكان قد اكتسب محبة شعبه بحرمته للأنبياء وخضوعه لرغباتهم وقبوله تنبؤاتهم، وكان الملك الوحيد من ملوك بني إسرائيل الذي عرف ربه وعبده حق عبادته، وإن مزاميره التي كان يترنم بها في قيثارته لدليل على خضوعه وخشوعه لإلهه.

الملك سليمان: لقد ضل بنو إسرائيل عند اعتبارهم سليمان بن داود (1015 ق. م.) ملكاً وليس نبياً. فكان قد تراءى له الرب مرة في الحلم (الاصحاح الثالث ملوك 1) في جيعون وأخرى بالكلام (11 ـ 6 ملوك 1) وثالثة بعد إكماله بناء الهيكل (2 ـ 9 ملوك 1). ومن يتجلى له الرب ويكلمه فهو نبي لا محالة. فكان نبياً وملكاً كداود أبيه ومن المحال أن يرتد عن إلهه كما سيأتي بيانه.

وكان النبي والملك سليمان فيلسوفاً حكيماً بنى بيت الله (الهيكل) عام 480 لخروج بني إسرائيل من مصر (1003 ق. م.) تقرباً إلى الله ووضع فيه تابوت العهد. ولم يكن في التابوت حينذاك إلا لوحا الحجر فقط. وأظهر خضوعه لله العظيم، في خطبة بليغة مؤثرة ألقاها في مهرجان افتتاح الهيكل بيت الله.

ارتداد سليمان أيضاً: تدعي التوراة، أنه لما شاخ سليمان، تراخت عزائمه في تمسكه بإله إسرائيل، فتسامح بأمور الشريعة كثيراً واستسلم في أواخر حكمه لرغبات زوجاته الأجنبيات، من موآبيات وادومونيات وصيدونيات وحثيات، ويبلغ عددهن نظراً لرواية التوراة سبعمائة من السيدات، وثلاثمائة من السراري، ومن الامم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل، لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم، فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى، غير إلهه، فبنى مرتفعه لكموش إله الموابيين، ولملوك إله بني عمون، ولعشتروت إلهة الصيدونيين، ولملكوم إله العمونيين. وكانت نساؤه الغريبات يوقدن ويذبحن لآلهتهن، ما استوجب غضب الرب على سليمان، لابتعاده عن إله إسرائيل، الذي تراءى له، وأوصاه أن لا يتبع آلهة أخرى، فلم يحتفظ بما أوصاه به الرب[11]. كل هذا كان إشباعاً لغرائزه الجامحة، وعواطفه المرهفة، التي لا حدّ لها. وهذا يدل دلالة واضحة على أنه لم يكن مطلعاً على نصوص التوراة التي كتبها موسى «لا تأخذ بناتهم لأبنائك» (ص 34). ولو كانت في عالم الوجود لأحضرها أنّى كانت واطلع على ما فيها.

القمة: كان الإسرائيليون في عهد الملك سليمان، قد وصلوا القمة، مع أن حدود مملكتهم كانت لا تتجاوز أرض فلسطين وحدها، وهي التي تمتد من دان إلى بئر سبع وإلى غزة[12] وتخوم مصر[13]، وهي شقة من الأرض لا يعبأ بها. وكان ملك دمشق خصماً لإسرائيل طيلة حكم الملك سليمان[14]، فلم يتمكن سليمان من إخضاعه والتغلّب عليه.

دعايات: والواقع هو أن الملك سليمان، وإن كان قد أخضع طوائف الملوك من الكنعانيين مجاوريه، فلم يكن بأكثر من ملك صغير الشأن، لا قيمة له بين الملوك العظام، والغزاة الفاتحين، الذين سخّروا العالم لمشيئتهم، وأسسوا الامبراطوريات الواسعة في أرجاء العالم، إلا أن بناءه الهيكل في أورشليم، وحرمان الشعب الإسرائيلي الصغير من مظاهر الملك والعظمة، جعلهم يعطون لسليمان الأهمية، بطريقة المبالغة المفرطة. فبالغوا في أدبه وفي أسفاره[15]، وبالغوا في سلطنته وعظمته وثرائه[16]، وبالغوا في معرفته وحكمته، وبالغوا في عدد زوجاته وسراريه، وفي لقائه مع ملكة سبا، وبالغوا في عدد جيوشه ومركباته الحربية[17]. وبالغوا بكرسيه وبأواني شربه، وبسفنه وبتجهيزاته الحربية[18]، وبالغوا في تسخيره الجان والمردة والعفاريت والشياطين، وبالغوا في سعة ملكه وقوته وسلطانه وعظمته، حتى جعلته هذه المبالغات من أعظم الأنبياء معجزة، ومن أعظم الملوك درجة، ومن أعظم السلاطين منزلة وقدراً. وقد انطلت هذه المبالغات والدعايات اليهودية على كثير من الناس، وانتشرت في أنحاء العالم. وإذا كان الملك سليمان قد قضى حقيقة على طوائف الملوك في القرى والقصبات، وعلى الأمراء الصغار مجاوريه من الكنعانيين في أرض فلسطين، فقد عصى عليه الآراميون في الشام، والآدميون والموابيون والامونيون في الجنوب[19] ولم يتمكن من إخضاعهم لسلطانه. وبهذا يعتبر فاشلاً في أموره الحربيّة، وفي سياسته الخارجية، وناجحاً في إدارته الداخلية، وفي نشره العدل والحكمة بين الشعب. فكان قد قسّم مملكته إلى اثنتي عشرة إمارة، وعيّن لكل منها أميراً إدارياً لتأمين جباية الأموال اللازمة لسلطنته، وقد أرهق البلاد بالقروض والضرائب المختلفة.

ووجدت الدعاية اليهودية للملك سليمان مرتعاً خصباً عند المؤرخين، فاعتبروا انه جمع تحت حكمه الانس والجن والشياطين، وحتى الطيور والأسماك والحشرات، وزعموا ان له قمقماً يحبس فيه الغيلان والمردة والعفاريت، وبساطاً سحرياً يطير به في الفضاء حيث يريد، وخاتماً يفعل المستحيلات والمستعصيات، فيجعل به القوانين الطبيعية والنواميس الكونية طوع مشيئته ورهن أمره ونهيه، يتصرّف بها كتصرّف المالك بملكه، وأنه يفهم لغة السباع والطيور والنمل، ويكلّمها فتخاف منه ومن جنوده[20].

مبالغات المؤرخين: ذكر الاسحاقي في تاريخه «أخبار الأول» أن معسكر سليمان كان مائة فرسخ وخمسة وعشرين فرسخاً للأنس، ومثلها للجن، ومثلها للطير. وكان له ألف بيت من قوارير على خشب، فيها ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية، وكان يأكل من مطبخه مائة ألف رجل، وكان يذبح له كل يوم ألف شاة وثلاثون ألف بقرة، وكان يلبس الصوف، ويأكل الشعير......

وزاد عليه الطبري من روايات عبد الله بن منبه وغيره فقال: كان يوضع لسليمان بن داود ستمائة كرسي، ثم يجيء أشراف الأنس فيجلسون مما يليه، ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي الانس، ثم يدعو الطير فتظلهم، ثم يدعو الريح فتحملهم، فتسير في الغداة الواحدة مسيرة شهرا!

وذكر جرجس عبد يشوع في كتابه «التواريخ المقدسة» أنه لما احتفل الملك سليمان بنقل التابوت المقدس، من الخيمة إلى قدس الأقداس في الهيكل، نُحِرَ اثنان وعشرون ألف ثور، ومائة وعشرون ألف شاة.

ولما كان التوراة قد جعل النبي والملك سليمان يخطىء تجاه إلهه، مما استوجب غضب الرب عليه في أواخر أيامه، فكانت هذه المبالغات والروايات كلها غير واردة، ولا تعدو أن تكون جميعها دعايات مفرطة، وخيالات وأوهاماً، لا صلة لها بالحقيقة، ونوعاً خاصاً من الدعايات برع فيها اليهود دون غيرهم.

أواخر أيام سليمان: بدأ الشعب بعبادة الآلهة الأخرى واحترامها علناً وجهراً، في أواخر سلطنة الملك سليمان بن داود. كما ان قسماً من الشعب اعتنق المجوسية، فسجد للشمس (أخناتون) نحو الشرق[21]، وأصبح لكل بلد إله يحميه[22]. وقد ندّد النبي نحميا بالملك سليمان، لأخذه النساء الأجنبيات[23].

كان الملك سليمان حراً في تفكيره، سمحاً في قبول معتقدات زوجاته، فلم يهتم كثيراً بأقوال الأنبياء. أو ان الأنبياء الذين نجلّهم ونحترمهم الآن، لم يكن لهم من حرمة في زمانهم، ولم يعبأ بأقوالهم أحد.

انقسام المملكة: انقسمت المملكة بعد وفاة النبي سليمان (980 ق. م.)، إلى حكومتين، الحكومة الإسرائيلية، وتضم عشرة أسباط من بني إسرائيل، ومركزها السامرة (نابلس)، والحكومة اليهودية، وتحتوي على سبطين فقط هما: يهوذا وبنيامين، ومركزها أورشليم.

الحكومة الإسرائيلية: أما الحكومة الإسرائيلية، فكان أول ملك عليها هو يربعام بن ناباط (980 ق. م.)، وقد نصّبه أخيا النبي ملكاً على الأسباط العشرة من بني إسرائيل. وكان أوّل عمل قام به هذا الملك، هو بناؤه المعابد للأصنام والأوثان، وإقامته عجلين من الذهب وسواري، ثم سجد لها[24]، وأمر شعبه أن يسجد لها أيضاً[25]. ولم يعترف بفضل أورشليم ومكانتها الدينية[26]. وأسّس ديانة جديدة أساسها عبادة الأصنام والعجول الذهبية، مدعياً أنه يعمل بما جاء في شريعة موسى الأصلية الحقيقية، ونصّب للمعابد كهنة من غير اللاويين. وتبعه الملوك الذين جاؤوا من بعده كافة، فكان الأنبياء يخافونهم، وقد منعوا الذهاب إلى أورشليم. فكان كل نبي تسول له نفسه الاعتراض، لا يرى إلا مقتولاً مضرجاً بدمائه، أو هارباً يتربّص ريب المنون[27]، فلا يؤمنون بنبي بعد موسى، ويدّعون أن أحكام التوراة التي يتناقلها كهنة أورشليم بالتواتر، وعن ظهر قلب، محرفة وموضوعة، لا قيمة دينية لها. فكتبوا لهم توراة وصنعوها كما يشتهون، وسمّيت بالتوراة السامرية، ـ وقد اختفت مؤخراً وزالت من الوجود ـ وكان قد تمسّك بها جميع ملوكهم وكهنتهم وعامتهم. وقد تعاقب على الحكم في هذه الدولة عشرون ملكاً حكموا مدة مائتي عام وواحد وسبعين عاماً، وكانوا جميعاً منكرين لإله إسرائيل، مؤمنين بالعجول الذهبية. وإذا كا قد ظهر من بينهم الملك ياهو بن يهو شافاط، وأباد هيكل البعل، وقتل أنبيائه وكهنته كافة، وعبد رب إسرائيل، فإنه أبقى في الوقت نفسه على عبادة العجول الذهبية، التي وضعها يربعام بن نابط في بيت أيل[28]. كما ان ابنه يهو آش الذي خلفه في الحكم لم يتعرّض للعجول ولم يرفعها من المعبد.

تقدير: ان هذه الاخبار التي تتحدث عن الالحاد وكفر الدولة الإسرائيلية، ملوكها وشعبها، وردت في التوراة اليهودية، وقد يكون في هذه الاخبار شيء من المبالغة، لما بين الدولتين الإسرائيلية واليهودية من عداء مستحكم.

نهاية إسرائيل: كان قد هجم فقح بن رمليا ملك إسرائيل على أورشليم وأحالها إلى نار ودم. فاستنجد أحاز ملك يهوذا بتاغلا بثليصير ملك آشور، وأرسل له هدايا[29] ليساعده على فقح، فهجم الملك الآشوري على السامرة، ووضعها تحت الجزية، وغزاها للمرة الثانية سرجون الثاني الملك الآشوري، ودخلها عنوة، وأسر هوشع وسبى الأسباط العشرة على الطريقة الآشورية، إلى نصيبين ونينوى وصندور ودهوك وزاخو وسائر المدن الآشورية، والى أنحاء العراق الأخرى، حتى مديا. وشملت عملية التهجير والتشتيت من السامرة وحدها 27 ألف و290 إسرائيلياً، وأسكن سرجون بدلهم في السامرة وحواليها أسرى من بابل وكوتا وحماة، وجعل مملكة إسرائيل مقاطعة اشورية. وبذلك انقرضت الدولة الإسرائيلية وزالت من الوجود نهائياً (720 ق. م.)، ولم يبق في فلسطين إلا سبط يهوذا وحده.

الحكومة اليهودية (980 ق. م.): وأما الحكومة اليهودية، فكان أول ملك عليها رحبعام بن سليمان. وأراد رحبعام غزو الحكومة الإسرائيلية، فكان كلام الرب إلى النبي أشعيا «لا تحاربوا اخوتكم» (4 ـ 11)، فرجع عن عزمه وانصرف إلى تدبير أمور مملكته، لكنه سرعان ما ترك شريعة الرب، هو وكل اليهود معه[30]، وحادوا عن عبادة إله إسرائيل[31]، وانصرفوا إلى عبادة الأصنام.

ولما غزا شيشق، فرعون مصر، مملكة يهوذا ودخل مدينة أورشليم فاتحاً وسلب كنوز الهيكل، عاد رحبعام وتذلّل إلى إلهه، وخضع لنصيحة النبي أشعيا، فاستجاب الإله لتضرعاته ـ كما تدعي التوراة ـ وصرف شيشق عن مدينته.

عودة للفسق: وفي أواخر أيامه عاد إلى خطاياه الأولى، ومات على فسقه، وكان قد حكم مدة سبع عشرة سنة. وحكم على إسرائيل بعد رحبعام، ابنه ابيا، فداخل قلبه الفساد وعبد الأصنام، وكان قائده الديني النبي (عدو) وقد دام حكمه في الحكومة اليهودية ثلاث سنين.

ملوك يهوذا بين التوبة والردّة: حكم يهو آما بعد أبيه أبيا، وكان النبي عزريا بن عوديد القائد الديني في زمانه. وهذا الملك، وإن كان لم يحد عن طريق الرب، إلا انه لم ينزع التماثيل، ولا تعرض للمرتفعات المقامة للأصنام[32]، تلك التي أبقتها جدّته «معكا» وأكرمتها.

وحدث أن عقد الملك يهو آسا حلفاً مع «بنهداد» ملك الشام الوثني، لمحاربة «بعشا» ملك إسرائيل، فبكت النبيّة «حناني»، لتحالفه مع الوثنيين، ولكن يهو آسا، لم يلتفت إليها، بل ألقى بها في السجن.

وقد أعقبه في الحكم، ابنه يهو شافاط، فأمر بتقوى الرب وعبادته[33]. ولكن الشعب لم يصغ لطلبه، ولم يتمكن من إزالة المرتفعات[34]. وكان القائد الديني في زمانه، هو النبي ياهو بن حناني.

وأعقب يهو شافاط في الحكم، ولده يهو رام، وقد اتبع هذا آراء زوجته، عتليا، ابنة آخاب ملك إسرائيل. فترك عبادة إله آبائه[35]، وسلك مسلك ملوك حكومة إسرائيل، في عبادة العجل، فاستجاب الرب دعاء النبي إيليا، فسلّط عليه الفلسطينيين، فقتلوا أولاده، وسبوا نساءه، ونهبوا داره، فهلك غير مأسوف عليه[36].

وخلف يهو رام في الحكم، ولده اخزيا، فاقتدى بكفر أبيه يهو رام، وأمه عتليا[37]، وسلك مسلك بيت آخاب ملوك إسرائيل، وعبد العجل والتماثيل الذهبية، ثم هلك وخلف أولاداً كثيرين. ولكن أمه عتليا، سعت الى قتل أحفادها جميعاً، لتجلس هي على العرش. ولقد تمّ لها قتلهم جميعاً، إلا يوآشي بن اختريا، فقد سلم من القتل، بفضل يهوشبع زوجة يهوياداع الحبر الأعظم، وتركته في الهيكل، تحت عناية زوجها.

عتليا: حكمت ست سنوات، وكان بنوها قد هدموا بيت الله، وشيدوا هيكلاً لبعل، وسلبوا من هيكل الله، أفخر ما فيه من زينة وأثاث، وصيّروا كل أقداس بيت الرب للبعليم. وأخيراً قتلها الكاهن يهوياداع شرّ قتلة، أمام الهيكل. ونصّب الكاهن يهوياداع، الصبي يو آشي بن اخزيا ملكاً، ولم يكن قد تجاوز السابعة من عمره. فانتهز الكاهن فرصة صغر الملك، فدخل مع تلاميذه وبعض أبناء الشعب، بيت الرب، وهدموا البعل وحطّموا مذابحه وتماثيله، وقتلوا كاهن البعل «منان» أمام المذبح[38].

ووضع يهوياداع، الملك الصبي، تحت وصايته الدينية. ولما توفي يهوياداع، ارتدّ الملك والشّعب بأجمعه، عن عبادة إلههم، وعبدوا السواري والأصنام[39]. وهجم الشعب بأمر الملك، على الكاهن زكريا بن يهوياداع، فرجموه بالحجارة في بيت الرب حتى الموت في المحل الذي قتل فيه منان[40].

أمصيا: تولى الملك بعد يوآش ابنه أمصيا، فترك إله إسرائيل، وعبد آلهة بني ساعير، وأقام له آلهة، وسجد أمامهم وأوقد لهم[41]. وفي زمانه دخل يوآش ملك الحكومة الإسرائيلية مدينة أورشليم، وهدم أسوارها، ونهب كل ما وجد في بيت الله وبيت الملك. وقضى أمصيا بقيّة حياته التعسة مصفداً بالحديد.

وفي عهد الملك أمصيا، ظهر في الميدان الديني النبي يونان (يونس). تقول التوراة: ان الله أمره بأن يسير إلى نينوى المدينة العظيمة، ليدعوها إلى التوبة، في وقت كانت أورشليم فيه أحوج إلى الأنبياء من نينوى. الا انه لم يمتثل أمر الرب، بل توجه إلى يانا، وركب سفينة قاصداً ترشيش، فثار عليها ريح عاصفة، وأشار يونان على الملاحين أن يطرح في البحر، فأرسل الرب حوتاً عظيماً ابتلعه وأمسكه في بطنه ثلاثة أيام، وعند تمامها لفظه على الشاطىء صحيحاً سالماً. فذل وأطاع أوامر الرب وأخذ طريقه إلى نينوى...

ثم ملك من بعد أمصيا ابنه عزريا، وكان مستقيماً مع إله بني إسرائيل في بادىء أمره، ثم عصى وتولى وأدبر فضربه الله بالبرص[42].

وملك يوثام بن عزريا على يهوذا، وكان أكفر وأفسق ملك قام في دولة يهوذا. وفي زمانه هجم فقح ملك إسرائيل على أورشليم وأحالها إلى نار ودم، وعاد إلى السامرة ومعه من الأسرى مائتا ألف نفس يهودي تقريباً. ثم أعادوهم إلى أورشليم بتوسط النبي عوديد.

وملك آحاز بن يوثام، فأغلق أبواب بيت الرب، وعمل تماثيل مسبوكة، وذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال، وتحت كل شجرة خضراء[43]. وعبر ابنه في النار، وهو الذي أرسل رسلاً وهدايا (الذهب والفضة، الموجودة في بيت الرب)، إلى تاغبلات فلاسر ملك اشور، ليعينه على فقح ملك إسرائيل، فزحف على السامرة ووضعها تحت الجزية، ثم زحف عليها شلمناصر ابنه مرة ثانية ودخلها عنوة، مما أدى إلى خرابها وزوالها من عالم الوجود. وساق أبناء إسرائيل على الطريقة الاشورية أسرى إلى

بلاد اشور كما سبق بيانه، «فسبى إسرائيل من أرضه إلى آشور إلى هذا اليوم» (23 ـ 17 م. ث.) ولم يبق في فلسطين إلا سبط يهوذا وحده (19 ـ 17 م. ث.)، وهي غلطة كبرى ارتكبها آحاز، كانت السبب في غزو الاشوريين فيما بعد لأورشليم، ومحاصرتها أكثر من مرّة، وأخيراً سقوطها بيد البابليين وزوال الدولة اليهودية من الوجود.

وملك بعده ابنه حزقيا، ففتح أبواب بيت الرب ورمّمها، وأخرج الكهنة «كل النجاسة التي وجدوها في هيكل الرب» (16 ـ 39)، ودخل فيه كل الجماعة[44]، واستقامت خدمة بيت الرب، فأرسل حزقيا دعاته إلى جميع إسرائيل لعمل الفصح في أورشليم. فكان السعاة يقابلون بالضحك والهزء والسخرية في كل مكان[45]. ومع هذا، فقد اجتمع في أورشليم خلق كثير، لعمل عيد الفطر. وكان فرح وسرور في أورشليم لم يسبق له مثيل منذ أيام سليمان[46]، فكسروا الأنصاب وقطعوا السواري، وهدموا المرتفعات والمذبح في كل يهوذا وبنيامين[47].

ولما كان الاشوريون بتحريض من الحكومة اليهودية، قد نجحوا في غزوهم فلسطين، عزم سنحاريب ملك اشور أن يمثل في أورشليم الدور الذي فعله أبوه شلما ناصر في السامرة، فأرسل جيوشه إلى أورشليم لحصارها، وقدّم رسالة إلى الشعب اليهودي جاء فيها: «كما ان الهة أمم الارض لم تنقذ شعوبها من يدي، كذلك لا ينقذ إله حزقيا شعبه من يدي» (17 ـ 32). وكان القائد الديني حينذاك النبي أشعيا، فصلى الملك حزقيا والنبي أشعيا إلى إله إسرائيل، ولحسن الحظ بلغ سنحاريب وجود ثورة في بابل فرجع عن حصار أورشليم، وسافر إلى العراق لتسكين ثورة البابليين. وعند وصوله نصّب ابنه، آشور نادن شم ملكاً على بابل. وبذلك سلمت أورشليم هذه المرة من الدمار. وملك بعد حزقيا ابنه منسى. وكان ملحداً لم يلتفت إلى إله إسرائيل، فعاد وبنى المرتفعات التي هدمها أبوه وأقام مذبح للبعليم، وعملوا سواري، وسجد لكل جند السماء في بيت الرب، وعبر بنوه من فوق النار[48]، حتى تجرأ أن ينصب صنماً في هيكل الرب، وبأمره قتل أشعيا النبي، وعمره ينيف على مائة سنة. فقد ضلّ وأضلّ الشعب معه، وسمى ابنه امون تبركاً باسم الإله المصري آمون[49]، ووقع أسيراً بيد قواد أسر حدون ملك اشور. ولما اطلق من الاسر وعاد إلى أورشليم، ندم على ما فعل وأزال السواري والمرتفعات، وطهّر بيت الرب من الأرجاس.

وملك بعده ابنه امون، فذبح للتماثيل التي عملها أبوه منسى، وازداد إثماً على إثم، فقتله عبيده في بيته.

وملك بعده ابنه يوشعيا المؤمن، وكان القائد الديني حينذاك حلقيا الكاهن، ولما ثبت في ملكه ابتدأ حلقيا الكاهن، يطهّر أورشليم وسائر المدن من المرتفعات والسواري والتماثيل والمسبوكات، وهدم مذابح الشمس وتماثيلها، وأحرق عظام الكهنة[50] ورمّم بيت الرب إلهه.

وادّعى حلقيا الكاهن أنه وجد سفر الشريعة في بيت الرب، فأعطاه لشافان الكاتب ليقرأه أمام الملك، كما قدّمنا. وجعل الملك يوشعيا، جميع أهالي أورشليم، تحت إرشاد حلقيا الكاهن ونفوذه، يعبدون الرب الإله. وظهر في زمانه أنبياء كثيرون، من جملتهم أرميا النبي، فكان ثاني وآخر ملك من بني إسرائيل لم يعص الرب ولم يفعل ما يغضبه.

وقد خلف يوشعيا في الحكم، ولده يهو آحاز، ولكنه حكم مدة ثلاثة أشهر فقط، جاء بعدها نخاو ملك مصر، فعزله، وأخذه أسيراً إلى مصر[51].

وجاء بعده أخوه يهو ياقيم، فخرج عن طريق الرب كذلك، وعبد الأصنام والتماثيل[52]، حتى جاء نبوخذ نصّر فقيّده بسلاسل من نحاس، وأخذه أسيراً[53].

وجاء بعده يهو ياكين، وعمل الشرّ كذلك في عين الرب، وعبد الأصنام والتماثيل[54]، فعزله نبوخذ نصّر، وأخذه أسيراً إلى بابل[55].

وأعقبه صدقيا، فعمل الشرّ في عين الرب[56]، ولم يصغ لنصائح النبي أرميا، عن فم الرب. وفي زمانه هجم الملك البابلي نبوخذ نصّر على أورشليم، وأسر صدقيا، وجميع بني يهوذا، وأخذهم سبايا إلى بابل عام (585 ق. م.) كما قدّمنا. وبذلك انقرض دور الملوك الثاني، وانقرضت معه الدولة اليهودية، بعد أن دامت ثلاثمائة واثنين وتسعين عاماً.

استعراض: لو استعرضنا تاريخ ملوك يهوذا، الذي قدّمناه، لوجدنا أنهم جميعاً قد انصرفوا عن عبادة إلههم يهوه، إلا اثنين منهم.

أما أولهما، وهو حزقيا، فقد كان السبب الأول من تمسّكه بعبادة يهوه، هو انه استنجد به عندما هاجمه سنحاريب ملك البابليين، فحدث ان قامت ثورة في بابل، اضطرت سنحاريب إلى الانسحاب من إسرائيل لقمع الثورة كما مرّ بيانه، فخلص حزقيا من شرّه. وظن ان إلهه يهوه هو الذي أنقذه من هذا الغازي، فظلّ على عبادته.

وأما ثانيهما، فهو يوشعيا المؤمن. فقد تولى الملك وهو ابن ثمان سنين كما قدّمنا، وكان الوصي عليه، حلقيا الكاهن. فربّاه تربية دينية بحتة، كان لها الأثر الأوّل في حياته، بعد أن نصّب ملكاً.

على دين ملوكهم: أما الكهنة والشعب، فكانوا يتّبعون ملوكهم، فان كان الملك مؤمناً تقيّاً، تبعه الكهنة والشّعب، وإن استهتر بالدين، تبعه شعبه في هذا الاستهتار.

ولقد سجّل تاريخ يهودا وإسرائيل، لملوكهم وشعبهم، صفحات كثيرة من الإلحاد والوثنية. فقد نجّسوا بيت الرب في أورشليم[57]، وعبدوا الأوثان والعجول الذهبية، وأقاموا الأنصاب في رؤوس الجبال، وتحت الأشجار الخضراء[58]، ولم يبق من قيمة للأنبياء عندهم[59].

وكان أبناء الشّعب يتناقلون فيما بينهم أحاديث تقول بأن هناك إلهاً خاصاً لبني إسرائيل وحدهم، وهو الذي أخرجهم من مصر على يد النبي موسى، إلا انهم لا يعلمون شيئاً عن هذا الإله، وهم في شك من قدرته، وعلاقته معهم، فلا يعرفونه، ولا يعبدونه، ولا يتقرّبون إليه إلا تحت ضغط الأنبياء الأقوياء، أو عند حلول النّكبات والمصائب، والمحن والشدائد، فيخضعون له، حتى تنفرج الأزمة، فينقلبوا إلى عبادة الآلهة الغريبة، والبعل وعشتروت، ويحرقوا لها البخور، ويرقصوا حولها.

وقد صوّر النبي أرميا، حالة اليهود قبل سبي بابل ببضع سنين، على لسان الرب بقوله: «الكهنة لم يقولوا أين هو الرب، وأهل الشريعة لم يعرفوني والرعاة عصوا عليّ والأنبياء تنبّؤوا ببعل وذهبوا وراء ما لا ينفع» (8 ـ 2).

ولم يبق عند اليهود في تلك الأدوار من دينهم، سوى القسم بالرب «حي هو الرب». وحتى هذا

القسم، يحلفون به جزافاً، صدقاً أو كذباً[60]، حتى إذا أرادوا أن يكون قسمهم أوثق، حلفوا باسم بعل ـ شم. ومعنى (شم) إسم، فيكون الحلف باسم البعل العظيم أو باسم الإله الأعظم وترجم إلى العربيّة باسم الله الأعظم كما سبق بيانه.

وقد تأسّست جمعية سريّة يهودية باسم (بلشم)، في القرون الوسطى، راح أعضاؤها يتعاطون السحر وكشف الغيب واستطلاع المستقبل، وهم يعتقدون أن جميع المشاكل والمستعصيات تتلاشى أمامهم تحت تأثير هذا الاسم. وقد تغلغل أعضاء هذه الجمعية في مختلف نواحي أوروبا.

أما دولة إسرائيل، فلم يسجل التاريخ بين ملوكها من آمن بالإله يهوه واتّبع شريعة موسى، إلا ملكاً واحداً، وهو الملك ياهو الذي توّجه النبي أليشع ملكاً على إسرائيل أثناء الثورة. وحتى هذا الملك المؤمن، لم يهدم معبد العجول.

عبادة الذهب: ومن هذا نرى أن أحفاد النبي ابراهيم، ظلّوا يعبدون العجول الذهبية، منذ خروجهم من مصر، أي منذ عام 1491 ق. م. ـ باستثناءات قليلة ـ حتى عام 585 ق. م. عندما قضى نبوخذ نصّر على حكمهم في أسر بابل.

ولم يكن بنو إسرائيل، يعبدون العجول الذهبية، على اعتبار ان الإله قد حلّ فيها، كما كان يعبدها المصريون أو الهنود، بل كانوا يعبدونها لأنها من سبائك الذهب، وقد صيغت على هيئة عجول[61].

ومن هذا نرى ان عبادة اليهود للمال والذهب، ليست حديثة العهد، إنما هي متأصلة في أعماق نفوس أبناء الشعب الإسرائيلي، منذ عهود آبائهم وأجدادهم، وقد ظلّت تزداد رسوخاً بمرور الأجيال.

طرد إسرائيل: لما دخل كورش ملك فارس المجوسي، مدينة بابل فاتحاً، شاهد فيها الشعب الإسرائيلي يستغل الشعب البابلي، استغلالاً فظيعاً، فأراد التخلّص منه، فأجلاه عن بابل، وأعاده إلى فلسطين بلده القديم[62]، بحجة ان إله السماء ـ الذي لا يعرفه ولا يؤمن به ـ أوصاه أن يبني له بيتاً في أورشليم[63]، وأعطاهم ما يلزم لبناء بيت الرب إله إسرائيل، مع جميع آنية بيت الرب التي صادرها نبوخذ نصّر من أورشليم. وأرسل لهم بعده الزعيم الديني الكبير الكاهن عزرا، محرّر التوراة، وزميله النبي نحميا أو ناحوم، لإرشادهم وتعليمهم. ولم يعين ملك فارس والياً على اليهود بعد موت نحميا، الذي كان معاصراً لملاخيا[64] إنما كان الأحبار يدبرونهم على مقتضى أصول شريعتهم، تحت سلطة الفرس، حتى صارت اليهودية بعد ذلك جزءاً من ولاية الشام.

الإسكندر: ولما افتتح إسكندر الكبير سوريا[65] تقدّم إليه يدوع الحبر الأعظم، وعرض عليه تنبؤات النبي دانيال عن دمار السلطنة الفارسية، على يد ملك يوناني. وبهذه الحيلة النادرة، تخلّص من غزو إسكندر، ومن اعطائه الخراج السنوي، واكتسب عطفه ومودته. وعلاوة على ذلك لما افتتح الإسكندر مصر، وبنى الإسكندرية، تلطف على اليهود، فأحضر منهم إليها عدداً كبيراً لتعميرها، وأعطاهم حقوقاً مماثلة للمكدونيين. ونقل منهم إليها بطليموس سوتير ملك مصر مائة ألف إسرائيلي. وقام الملك بطليموس فيلداف بترجمة التوراة إلى اليونانية كما سبق بيانه.

وفي سنة 172 قبل الميلاد، دخلت فلسطين تحت حكم انطيوخس ملك الشام، فأكره اليهود

أجمعين على الجحود بشريعة موسى والتمسك بعبادة الأوثان. وحدثت معارك دامية بينه وبين يهوذا المقابّى، وأخيراً قتل يهوذا، وأصيب اليهود باليأس والقنوط، فارتدّوا إلى عبادة الأصنام والأوثان. وفي هذا الدور انقسم اليهود إلى شيع شتى، ومن جملتها اثنتان كانتا مستظهرتين، هما شيعة الصدوقيين وشيعة الفريسيين. ولما بسطت الامبراطورية الرومانية سلطانها على فلسطين، أقامت الملك هيرودوس (40 ق. م. ـ 4 ب. م.) بن انضيباطر، وأصله من أدرم، وكان قد أعان يوليوس قيصر وأنجده في غاراته على مصر، ملكا على اليهود فأعطاهم الحريّة الدينية الكاملة، لاشغالهم بها عن التفكير في إنشاء الحكومة الوطنية. وما كان ظهور ثوداس والنبي يوحنا المعمدان، والسيد المسيح في هذه الفترة من الزمن وهم متسترون ستار الدين، إلا لاستعادة كرسي سليمان وداود، إلا انهم لم يفلحوا، فانتشرت المستعمرات اليهودية في الاسكندرية واسميرنة وقبرص، والمدن الكبيرة كافة في سواحل البحر الأبيض المتوسط، الداخلة ضمن الامبراطورية الرومانية. واستدام ازدهارها وتوسّعها، حتى ظهرت الفتنة الأخيرة في عام 70 بعد الميلاد، وسقطت مدينة القدس بيد الرومان الفاتحين، وصار قدس الأقداس مذبحاً للإله زوس.

المسيحية: ولما قبل الرومانيون بعد ذلك الديانة المسيحية (400 ب. م.) ادعوا أن اليهود قد صلبوا السيّد المسيح، فنزع الله منهم وعده لهم بأرض فلسطين، مهد السيّد المسيح. فكان من حقّ المسيحيين إشغال فلسطين وعدم إعطاء المجال بتشكيل اليهود حكومة لهم فيها.

إلا أن اليهود بعد تشردهم في الآفاق منذ ألفي سنة أو ما يزيد لم تزايل مخيلتهم لحظة واحدة، تلك الرغبة الملحة في العودة إلى فلسطين، واحتلالها مرة أخرى، واستعادة كرسي سليمان وداود، فعملوا كل جهدهم، وبذلوا كل طاقتهم في سبيل الوصول إليها. وها هم، قد استغلوا الوضع العالمي الحاضر، فأسّسوا حكومتهم المزعومة في فلسطين.

الحروب الدينية: قلنا، إن المملكة اليهودية قد انقسمت بعد سليمان إلى قسمين، هما (اليهودية) وهم الأقليّة و(الإسرائيلية) وهم الأكثرية، فتوالت الصدمات على رأس الشعب، الواحدة تلو الأخرى، وما خلص من حرب إلا ودخل في حرب أخرى، مع الدول المجاورة التي اعتدى عليها الملك سليمان، من جهة، والحروب الداخلية الدينية بين الدولتين الإسرائيلية واليهودية من جهة أخرى، حتى اضمحلت قوى الشعب الإسرائيلي.

سبب الحروب: وكان السبب في الحروب الدينية، هو أن الحكومة الإسرائيلية ـ بالنظر لما جاء في التوراة ـ لم تعترف بقدسية أورشليم، وبتوراة موسى المتداولة بالتواتر على الألسن، وبالنظام الديني اليهودي. وأنها ارتدت عن عبادة الإله يهوه، وتركته على عجل، وعادت إلى عبادة العجل المسبوك، وجعلت له كهنته من غير اللاويين، الذين جعلهم النبي موسى كهّاناً للإله يهوه، واتخذت السامرة عاصمة لها. فان يربعام بن نياط أول ملك للحكومة الإسرائيلية، كان قد اتخذ له عجلين من ذهب، ومنع الشعب من الذهاب إلى أورشليم، وعين لهما كهنة من غير اللاويين. وسجلت التوراة العبارة الآتية، بحق آخر ملك من ملوك إسرائيل «احزيا بن آخاب ملك على إسرائيل في السامرة. ملك سنتين، وعمل الشر في عين الرب، وسار في طريق أبيه وطريق أمه وطريق يربعام بن نباط (أول ملك لإسرائيل)، الذي جعل إسرائيل يخطىء».

الدور الثاني: ولم يكن ملوك الدور الثاني لحكومة إسرائيل، أحسن عبادة وأقوى ديناً لرب الجنود يهوه، من الملوك الأول. فكانت الاضطرابات والتحريضات الدينية، التي أشعل أوارها النبيان العظيمان: اليا واليشع أو اليسع، ومن ورائهما المتعصّبون اليهود، ضد آحازيا ملك إسرائيل، لتزوجه بعلزبيل، أو باختصار إيزابيل، ابنة اثبعل، أمير سورية الوثني. وكان هذا الزواج قد أدّى إلى نشوب الثورة، وتوسعها في كل مكان. واستفاد النبي اليشع من هذه الثورة، فمسح يا ـ هو بن نمشي بالزيت المقدّس، وتوّجه ملكاً على إسرائيل. فكان هذا أول وآخر ملك أطاع الرب في إسرائيل، مع انه لم يرفع الأنصاب والتماثيل.

وفي هذا الدور، كانت العداوة الدينية بين الدولتين اليهودية والإسرائيلية، قد وصلت حدّاً جعل احاز ملك يهوذا يستنجد بتاغلا نبليصر ملك آشور، وأرسل له الهدايا[66]، ليساعده على فقح بن رمليا، ملك إسرائيل، فوضعه تحت الجزية كما مرّ بيانه.

وقد سجّل التوراة (17 م. ث.) في حق هوشع بن أيلة، آخر ملك لإسرائيل، العبارة الآتية: «وعبدوا الأصنام التي قال الرب لهم عنها لا تعملوا هذا الأمر، وتركوا جميع الوصايا التي أمر الرب بها إلههم، وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجلين، وعملوا سوارى وسجدوا لجميع جند السماء، وعبدوا البعل، وعبروا بنيهم وبناتهم في النار... فغضب الرب جداً على إسرائيل ونحّاهم من أمامه، ولم يبق إلا سبط يهودا وحده... فسبى إسرائيل من أرضه إلى آشور، فقبض شلما ناصر ملك اشور على هوشع ملك إسرائيل وأوقفه في السجن، وأخذ ملك آشور السامرة (عاصمة إسرائيل)، وسبى إسرائيل إلى اشور إلى هذا اليوم».

ولما سقطت الدولة الإسرائيلية على يد الآشوريين، وسبيت بنات إسرائيل إلى آشور، فزعت الدولة اليهودية لسقوط زميلتها، فانتبهت إلى الخطر المحدق بها. وكان القائد الديني حينذاك النبي أشعيا فأخبرهم ان تغلّب إله الآشوريين آشور، على إله الحكومة الإسرائيلية ابيس ـ العجل، إنما كان انتقاماً من الإله يهوه، فصدق اليهود قوله. وكان هذا وسيلة لتنبيه أفكارهم، وإيقاظهم نحو إلههم، ولو لمدة قليلة من الزمن. إلا أن هذا التحذير لم يمنع الدولة اليهودية التي كانت السبب بزوال الدولة الإسرائيلية، من أن تصاب بالعاقبة نفسها وتزول من الوجود.

طوفان من الأنبياء: وقد امتازت هذه الأدوار بكثرة أنبيائها. فكان قد ظهر في بني إسرائيل، أنبياء لا يحصيهم عدّ، حتى بلغ عددهم في زمن آخاب ملك إسرائيل وحده، أربعمائة نبي[67]، يؤيدون جميعهم حكم الملوك وعبادة العجول الذهبية، ويتنبأون بما تمليه عليهم مصالحهم ورغبات الملوك إلاّ نبياً واحداً من بينهم وهو «ميخا بن يمله» الذي كان يخالف آراء الملوك، ويعارض رغبات الحكّام في تنبؤاته. ويقال إنه كان في بني إسرائيل، مدارس لتخريج الأنبياء!! وما هذا القسم من الأنبياء، إلا كهّان وعلماء في الدين والشريعة، أكثرهم سياسيون ماكرون، ومراؤون نفعيون، ومقلّدون مشعوذون[68].

ويقول النبي آرميا، عن هؤلاء الأنبياء الكذبة، والكهنة الضالين: «لأن الأنبياء والكهنة تنجّسوا جميعاً بل في بيتي وجدت الشرّ ممنهم يقول الرب. لم أرسل الأنبياء لم أتكلّم معهم بل هم تنبؤوا» (22 ـ 23)، ولما لم تكن هناك حدود وعلامات للنبوّة. فكان لكل مشعوذ أن يدّعي النبوة، وقد يدّعي بها أي

فرد من جهلة الناس. «أنا لست نبياً، ولا أنا ابن نبي، بل أنا راع. فأخذني الرب من وراء الضان وقال لي: اذهب تنبأ لشعبي إسرائيل» (14 ـ 3 عاموس). وظهر في بني إسرائيل، حتى النبيات، أمثال خلدة امرأة شالوم، ودبورة زوجة لفيدوت[69] ونوعدية النبية، وحنة بنت فنوئيل من سبط اشير، إلخ...

علامة النبوة: وكانت علامة النبوة، هي أن ينزع الشخص ثيابه، وينطرح عرياناً طيلة النهار، وقد تعتريه حالة أشبه بالصرع، فيظهر الجنون والخبال أمام الناس، فيعتبر هذا دليلاً على نزول روح الله عليه، وحلولها فيه، فيتنبأ حينذاك عن الحال والمستقبل.

أنبياء إسرائيل: سجلت التوراة ستة عشر نبياً، منهم أربعة يعرفون بالأنبياء العظام، وهم أشعيا وأرميا وحزقيال ودانيال، واثنا عشر يعرفون بالأنبياء الصغار، وهم هوشع وعاموس ويوال وعبيديا ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجى وزكريا وملاخيا. وقد يضم إليهم باروخ الذي ذكرت نبوته في ذيل سفر نبوة أرميا.

قيمة الأنبياء: ولما كثر الأنبياء والنبيات، سقطت قيمة الأنبياء، والتنبؤات من أعين الشعب[70]، فلم يعد يلتفت إليهم أحد. وكان مقام الكهنوت اليهودي قد انحط كثيراً، حتى أصبح سخرية في أعين الشعب. ويقال إن عدد الكهنة في أورشليم في ذلك الزمن، كان قد بلغ 24 ألفاً، وفي أريحا 12 ألفاً، عدا من كانوا في المدن الاثنتي عشرة الأخرى.

وكان هذا من جملة الأسباب التي جعلت اليهود يجحدون نبوّة السيّد المسيح، ويحكمون عليه بالقتل والصلب.

نظرة إسرائيل للرب: كان الشعب الجاهل، يعلم أن هناك بيتاً يسمى بيت الرب، أو هيكل الرب، وله كهنة ورؤساء يقبضون كفارة الذنوب، ويستلمون باكورة الأرض، والهدايا والقرابين، فلم ينقطع عن زيارته في الأيام المخصوصة، والسبوت والأعياد، إلا انه يجهل هذا الرب الذي بني الهيكل باسمه، فكانوا يضعون الأصنام والأوثان في داخله. ويقول أرميا عن لسان الرب: «وضعوا مكروهاتهم في البيت الذي دعي باسمي لينجسوه» (29 ـ 7)، ويعبدون فيه الآلهة الغريبة، ويبخرون فيه للبعل والبعلم وعشتروت ومولك وملكوم وكموش وأوانيس... وقد يساعدهم بذلك الكهنة والرؤساء الضالون، فكان فشحور الناظر الأول في بيت الرب. قد ضرب وسجن النبي أرميا، لدعوته الشعب إلى عبادة إله إسرائيل، ولتنبؤاته وإرشاداته المخالفة لرغبات الرؤساء والكهنة في الهيكل[71]. ولما أصر الرؤساء في طغيانهم، واستكبروا استكباراً في ضلالهم، وتمادوا في غلوائهم، أنذرهم النبي أرميا بأنه سيكون هذا البيت (كشيلوة)، وأن تكون هذه المدينة أورشليم، لعنة لكل شعوب العالم. وكان قد تنبأ عليهم مرة أخرى بلزوم تسليم أورشليم إلى الكلدانيين (البابليين)، بدون حرب، للإبقاء على حياة الجمهور، وسلامة الهيكل والمدينة من الإحراق. فهجم عليه الكهنة والأنبياء وكل الشعب، يريدون قتله، لولا أن تداركه الملك اخيقام بن شافان أولا، والملك صدقيا بن بورشيا ثانيا، من الموت، فألقوه في السجن وتركوه فيه عدة سنوات حتى سقطت أورشليم بيد البابليين.

إلا أن هذه التهديدات والإهانات، لم تردع الأنبياء ولم تخيفهم، فكانوا يجهرون برسالتهم، ويؤيدون فكرة التوحيد، وإرجاع الشعب إلى عبادة إلهه (رب الجنود) بإصرار، ما استطاعوا إليه

سبيلاً. فينجحون في الأحوال الاستثنائية كحرب أو وباء أو أسر، أو استيلاء، فيعود الشعب الإسرائيلي إلى عبادة إلهه يهوه، تحت تأثير المحن والشدائد والآلام والمصائب. ويتقرّب إلى هذا الإله المجهول، تحت إرشاد أنبيائه بالهدايا والقرابين، لتسكين غضبه، وتهوين نقمته، وإزالة حدّته، واستجلاب رضائه، واكتساب عطفه، حتى تزول الكارثة، فيعودون إلى عبادة الأصنام بالجملة، تاركين إلههم وراء ظهورهم[72]. وهكذا يتّجه الشعب بكليته، إلى عبادة الآلهة الغريبة، وإلى ملكة السماوات ـ والشمس ـ وإلى عبادة النار[73]، فانتشرت الآلهة الغريبة في كل مكان، وكثرت أعدادها. فلم تكن من مدينة يهودية إلا ولها إله خاص ترقص حوله[74].

قيمة الهيكل: وكانت قيمة الهيكل قد سقطت عندما فقد منه تابوت العهد، الذي كان الإله بين حين واخر، يحلّ ويجلس بينه وبين الكروبيم (الغطاء)، وفقد منه أيضاً على التتابع لوحا الحجر، وقسط المن السماوي، الذي كان لا يتلف ولا يفسد، وعصا هارون التي أفرخت، وسفر الشريعة الذي كتبه موسى بيده، والزيت المقدّس، ودهن المسحة، والنار المقدّسة.

نظرة يهودا للرب: كانت الدولة اليهودية أيضاً وملوكها كافة، من نسل داود قد ارتدّت بأجمعها عن عبادة الإله يهوه، واتخذت لها آلهة أخرى، حتى سبي بابل. فكان وعظ النبي أرميا في الهيكل وفي أبواب المدينة، وفي سراي الملك وتحذيره من غضب الإله يهوه، وصراخه وعويله وخطبه النارية، كلها تتبخر وتذهب أدراج الرياح. وقد تستوجب غضب الملوك والرؤساء والكهنة والشعب.

ولما حاصر نبوخذ نصّر، ملك بابل أورشليم وافتتحها نبوزرادان، رئيس شرطته عنوة، عام 585 ق. م. أحرق الهيكل القديم والمذبح، وبيت الملك، وكل بيوت أورشليم، وهدم جميع التماثيل والأصنام والسواري، وسبى الشعب اليهودي كافة إلا القليل الشارد والضعيف المقعد إلى بابل، ونقل كل ما عثر عليه من ذهب وفضّة ونحاس وقدور وصحون ومجامر ومناضح، وحتى قواعد بيت سليمان، حيث لم يبق في أورشليم سوى الأحجار المحترقة. وبذلك انقرض دور الملوك الثاني أيضاً (53 ـ 13 أرميا). ومما يجب ذكره أن نبوخذ نصّر لم يأخذ أحداً من الكنعانيين والفينيقيين أسيراً إلى بابل.

وأما الضعفاء والمشردون والمقعدون، الذين تركهم نبوخذ نصّر من الشعب الإسرائيلي في أورشليم، فقد هاجر قسم منهم إلى مصر، وكان معهم النبي أرميا. وعند وصولهم في هجرتهم مدينة «مجدل»، شرع النساء يقدّمن النذور والبخور ويسكبن السكائب إلى ملكة السماء كعادتهن في أورشليم. ولما اعترض عليهن النبي أرميا قلن له: «سنبخّر إلى ملكة السماوات، ونسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم. فشبعنا خبزاً وكنا بخير ولم نر شراً، ولكن من حين كففنا عن التبخير لملكة السماوات فنينا بالسيف والجوع» (16 ـ 44 أرميا). وأما النبي حزقيال فقد قال عنهم: «وإذا نسوة هناك جالسات يبكين على تموز»[75] (15 ـ 8)، وقال «... وهم ساجدون للشمس نحو المشرق» (18 ـ 8)، ويقول النبي نحميا: «رأيت في يهوذا قوماً يدرسون معاصر يوم السبت ويأتون بحزم، ويحملون جميراً ويدخلون أورشليم بخمر وعنب وتين وكل ما يحمل، والصوريون يأتون بالسمك ويبيعونها في السبت لبني يهوذا في أورشليم» (13 ـ 17)، ان هذه الصرخات تدل على أن الشعب اليهودي لم يلتفت إلى إلهه حتى في زمن المحن والأسر والشدائد،

وعلى أن اليهود المتمسكين بدياناتهم أشدّ التمسك في زماننا هذا لم يكن عندهم لدينهم في وقته من حرمة وقيمة.

فساد الدم المقدس: وبينما كان على أولئك الذين رجعوا من الأسر إلى أورشليم، أن يتجهوا إلى إلههم، ويتمسّكوا بشريعتهم التي أملاها عليهم عزرا الكاهن، سرعان ما تزوجوا بنات الكنعانيين والحثيين والفيرثيين واليبوسيين والعموريين والمؤابيين والمصريين والأموريين، (9 ـ 1 عزرا) وسائر الأمم المستوطنة عبر النهر في فلسطين، وخلطوا الزرع المقدّس بشعوب الأرض خلافاً لأحكام الشريعة «لا تأخذ بناتهم لأبنائك» (34 خروج)، ولا غرابة في ذلك. فان النبي موسى نفسه كان قد اتخذ له امرأة كوشية (1 ـ 12)، مما سبّب تذمر هارون ومريم وتكلّمهما عليه (8 ـ 12 عدد)، ووجد كثيراً من بين أبناء الكهنة من اتخذ نساء غريبة (10 ـ 18 عزرا) ضاربين بشريعتهم عرض الحائط. وبشهادة عزرا الكاهن الأعظم هذه ثبت مرة أخرى، ان الشعب المسمى (اليهودي) لم يكن من ذريّة إسرائيل وحده، إنما قد اختلط وامتزج مع دماء الأمم والأقوام الأخرى منذ القديم امتزاجاً قوياً لا يمكن تحديد مداه، ما جعله بعيداً جداً عن دم إسرائيل وسحنته المثالية وقريباً جداً من مميزات وتشكلات الأمم الأخرى. وكلّما مضت السنون وكرت الأعوام اكتسب الشعب المسمى اليهودي تشكلات الأمم التي يقطن في محيطها ويعيش في اقليمها وبذلك ذابت قوميتهم وتميعت عنصريتهم، ولم يبق لديهم سوى الجامعة اليهودية. فهي التي قد تربطهم مع بعضهم برباطها الخاص كما قد تربط الأمم المسيحية والإسلامية جامعتاهما.

إخلاص بيت لاوي: ومع جحود الشعب بأحكام الشريعة كان سبط لاوي مخلصاً للأنبياء مؤيداً للشريعة، قد يهاجم الهياكل والمعابد المعادية لإله إسرائيل كلما سنحت له الفرص والظروف فيصادر فضتها وذهبها وينقلها إلى هيكل الإله العظيم، فكان كل فرد من بيت لاوى (وهو البيت الذي ظهر منه موسى) حارساً أميناً للدين يقدم الوعظ والإرشاد للناس ويسعى لإرجاع قومه إلى عبادة يهوه إله بني إسرائيل وإله يعقوب واسحاق وابراهيم ما استطاع إلى ذلك سبيلا. فكان بالاشتراك مع الأنبياء القدوة الحسنة، لاستدامة التوحيد في العالم، ولم ينقطع التوحيد بفضل وجود هذا البيت.

وأما الشعب اليهودي بمجموعه فلم يكن يعرف لكلمة التوحيد معنى ولم يرتفع عنده المستوى الروحي، ولم تظهر عنده العاطفة الدينية ولم يهتم بقوميته وعنصريته، ولم يتكتّل حول حكومته، فظهر الأنبياء المصلحون بكثرة ـ وهم كرجال السياسة في زماننا ـ لما بدأت حكومتهم تتفسّخ وتتلاشى وتقترب من الزوال لعلّهم يؤخرون سقوطها، فكانت أسفارهم كلها عبارة عن نوح وبكاء وصراخ وعويل وتحريض وتهويل ووعد ووعيد. ولما أجلاهم الرومان لآخر مرة عن فلسطين وتفرّقوا في البلاد وتشرّدوا في الآفاق أعادوا النظر في التوراة، وفي أقوال أنبيائهم وتمسكوا بأحكام الشريعة وأسفار الأنبياء قلباً وروحاً، وأصبحوا أكثر الأمم تديّناً لعل إلههم كثير الرحمة قليل الغضب يعود فيصفح عنهم ويعفو عن زلتهم.

التوحيد الإسرائيلي: الخلاصة ان التوحيد كان يظهر في بني إسرائيل لمدة قصيرة، ويختفي لمدة طويلة، طيلة بقائهم في فلسطين. ولم يكن قد تغلغل هذا الإله غير المنظور، في أعماق وجدان الشعب

الإسرائيلي. وما ذلك إلا لتوجههم إلى الماديات، وترجيحهم الآلهة المصنوعة من الذهب والفضة على الإله المعنوي، ووجود الآلهة المجسّمة القوية الأخرى عند الأمم والأقوام المجاورة، وهم أضعف من أن يكون لهم إله مستقل خاص بهم وحدهم. ـ يحافظون على كرامته بسياج من سيوفهم وأسنتهم وفؤوسهم ـ فتركوا إلههم يهوه، طيلة بقائهم في مصر، ونسوه تماماً، وعبدوا العجل الذهبي أبيس وعزير أوزير. وإذا كانوا قد رضخوا بعد ذلك ولو لمدة قصيرة من الزمن، تحت تضييق النبي موسى الشديد، لإله اسحاق وابراهيم، فلم يخلصوا لإلههم حتى في زمن النبي موسى. فقد عبدوا العجل أولاً (بعل فغور 7 ـ 29 عدد) وثانياً[76] عادوا في زمن القضاة وما بعدهم، إلى عبادة البعل والبعلم والبعلزبول وعشتروت وملكة السماء وآلهة الأمم المجاورة علناً وجهاراً، واستمرت عبادتهم للآلهة الغريبة، حتى تفرقوا في الأرض شذر مذر، عام 365 م، فتمسكوا عند ذلك بإلههم يهوه، وبقوميتهم وعنصريتهم.

ولما ترعرعت الديانة المسيحية، المنبثقة من الديانة اليهودية، وانتشرت في العالم، وهي تؤيّد ما جاء بالعهد القديم وبأسفار الأنبياء، وأعقبتها الديانة الإسلامية، وامتدّت في أنحاء الأرض، وهي أيضاً تؤيّد الإله الواحد خالق السّماوات والأرض، وتؤيّد أيضاً أنبياء بني إسرائيل؛ ولما قضت هاتان الديانتان العظيمتان، على الأديان الوثنية والآلهة الغريبة ـ إلا ما كان منها في أقاصي الأرض ـ ولم يبق من أثر لا للبعل ولا لبعلزبول، ولا للعجل ولا لعشتروت ولا مما يروق لبني إسرائيل عبادته من بين الآلهة المجسّمة؛ ولما أصبح الإسرائيليون شراذم صغيرة متفرّقة منفورة مكروهة مضطهدة في البلاد، لا وطن يحميهم، ولا كيان يجمعهم، التفّوا عند ذلك حول إلههم يهوه، وتمسّكوا بأسفار أنبيائهم وشرائعهم، وتركوا أخذ بنات الأمم الغريبة، للمحافظة على نقاوة نسلهم، وللبقاء على دينهم وقوميتهم وعنصريتهم، ولئلا يذوبوا بين الأمم والأقوام، فيذهب ريحهم وينطفي ذكرهم. ومنذ نجاح استير في إقناع أجشويرش ملك بابل بالكف عن اضطهاد اليهود، اتخذوا هذه الطريقة، نبراساً للوصول إلى غاياتهم، فتسامحوا في إعطاء بناتهم الجميلات لرجال السياسة، ولكبار القوم في الأمم الأخرى، لتكون لهم مسنداً في البلدان التي يقيمون فيها، ولم يأخذوا منهم بنات مطلقاً، لئلا يفسد الزرع المقدس. فكان ولا بد، أن يصبحوا ـ بعد انتشار الديانتين المسيحية والإسلامية ـ أكثر تمسكاً بإلههم، وأشد تعصباً لدينهم وشريعتهم من غيرهم، تلك الشريعة التي لم يعيروها اهتماماً أيام عزّهم، ولم يحترموها أيام سلطانهم وسؤددهم.

الهوامش

(1) «ابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب. فأكل الشعب من ذبائح آلهتهن وسجدوا لآلهتهن. وتعلّق إسرائيل ببعل فغور إله المديانيين» (3 ـ 25 عدد).

(2) «أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى لأن بني إسرائيل كانوا الى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نحشتان» (4 ـ 18 الملوك الثاني).
(3) «كان ذلك حوالى عام 1451 قبل الميلاد».
(4) (24 ـ 12).
(5) «قليلاً قليلاً اطردهم الى ان تملك الأرض... واجعل تخومك من بحر سوف (مصر) الى بحر فلسطين ومن البرّية الى النّهر» (23 خروج).
(6) «وعبد إسرائيل الرب كل أيام يشوع» (30 ـ 24).
(7) «وفي تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل. كان كل واحد يعمل ما يحسن في عينه» (15 ـ 21 قضاة).
(8) «وساروا وراء آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها فأغاظوا الرب» (2 ـ قضاة).
(9) «وأخذ قرن الدهن ومسح داود بن يسي في وسط اخوته وحل روح الرب عن داود» (13 ـ 16 ص.).
(10) معنى أور بالكلدانية مدينة، كأور الكلدان وأورفه وأورياك وأوروك.. ومعنى شليم سلام. فيكون معناها مدينة السلام. وهذا يدل على تأثر العبرانيين بالثقافة الكلدانية.
(11) «الملوك الأول».
(12) (25 ـ 4).
(13) (21 ـ 4).
(14) (22 ـ 11).
(15) الأمثلة والجامعة ونشيد الإنشاد.
(16) «وجعل الملك الفضة والذهب في أورشليم مثل الحجارة» (15 ـ 1م. ف.).
(17) «فكان له ألف وأربعمائة مركبة واثنا عشر ألف فارس» (27 ـ 10 م. أ.).
(18) «وعمل سليمان مائتي ترس وثلاثمائة مجن من ذهب مطرق» (16 ـ 10).
(19) (11 ـ ملوك).
(20) الطبري وغيره.
(21) (8 ـ 17 حزقيال).
(22) «على عدد مدنك صارت آلهتك يا يهودا» (2 ـ 29 أرميا).
(23) قال النبي نحميا «أليس من أجل هؤلاء أخطأ سليمان ملك إسرائيل.. هو أيضاً جعلته النساء الأجنبيات يخطىء» (13 ـ 26).
(24) «وعملوا لأنفسهم سبوكات عجلين، وعملوا سواري، وسجدوا لجميع جند السماء، وعبدوا البعل، وعبر بنوهم وبناتهم في النار» (16 ـ 17 م. ث.).
(25) قال الملك لشعبه: «هوذا آلهتك يا إسرائيل، الذين أصعدوك من أرض مصر» (29 ـ 12 م. أول).
(26) (12 م. أول).
(27) (13 م. أول).
(28) (28 ـ 10 م. الثاني).
(29) «فأخذ آحاز الفضة والذهب الموجودة في بيت الرب، وفي خزائن بيت الملك وأرسلها الى ملك آشور هدية» (8 ـ 16 م. ث.).
(30) (1 ـ 12).
(31) «وعمل يهوذا الشر في عين الرب... وبنوا أيضاً لأنفسهم مرتفعات وأنصاباً وسواري على كل تل مرتفع، وتحت كل شجرة خضراء» (24 ـ 14 م. أول).
(32) (7 ـ 15).
(33) «آمنوا بالرب إلهكم فتأمنوا. آمنوا بأنبيائه فتفلحوا» (20 ـ 20).
(34) «الا أن المرتفعات لم تنزع» (23 ـ 20).
(35) (11 ـ 21).
(36) (20 ـ 21).
(37) «فعمل الشر في عين الرب» (4 ـ 22).
(38) (16 ـ 22).

(39) (18 ـ 24).
(40) (24 ـ 21).
(41) (14 ـ 25).
(42) (21 ـ 26).
(43) (4 ـ 28).
(44) «المغنون يغنون والمبوقون يبوقون» (28 ـ 29).
(45) (10 ـ 30).
(46) (26 ـ 30).
(47) (1 ـ 31).
(48) (3 ـ 33).
(49) «ولا يحتمل أن تكون كلمة (آمين) المستعملة بكثرة عند اليهود» (6 ـ 8 نحميا) واستعملها السيد المسيح (9 ـ 6 متى) وجاءت في آخر كل إنجيل مأخوذة من (آمون) كما يزعم بعض المؤلفين، ولا بد أن يكون لها معنى آخر في العبرية. وأما (آمين) الإسلامية فهي بمعنى التأمين. وجاء في تفسير الخازن معناها: «اللهم اسمع واستجب. وقيل هو اسم من أسماء الله تعالى، وقيل هو خاتم الله تعالى»، وهي ليست من نصوص القرآن، فلم تثبت في آخر الفاتحة.
(50) (4 ـ 34).
(51) (4 ـ 6 ـ 1 أ. ث.).
(52) (6 ـ 26).
(53) (7 ـ 36).
(54) (5) و(10 ـ ٣٦).
(55) (12 ـ 36).
(56) (14 ـ 36).
(57) «ويهوذا أيضاً لم يحفظوا وصايا الرب إلههم بل سلكوا في فرائض إسرائيل التي عملوها» (19 ـ 17 م. ثاني).
(58) «فكانوا يهزأون برسل الله ويتهاونون بأنبيائه» (16 ـ 36).
(59) «وان قالوا حي هو الرب يحلفون بالكذب» (2 ـ 5).
(60) «من حلف بالهيكل فليس بشيء، ومن حلف بذهب الهيكل يلتزم» (18 ـ 23 إنجيل متى).
(61) (535 ق. م.).
(62) (3 ـ 1 عزرا).
(63) (397 ق. م.).
(64) (332 ق. م.).
(65) (الملوك ـ 12).
(66) (8 ـ 16 م. ث.).
(67) (4 ـ 18 أخبار 2).
(68) «قال الرب عن الأنبياء الذين يتنبأون باسمي، وأنا لم أرسلهم» (15 ـ 14 أرميا).
(69) (4 ـ 4 قضاة).
(70) «الأنبياء يتنبأون بالكذب» (30 ـ 5 أرميا).
(71) (1 ـ 20).
(72) «لكي آخذ بيت إسرائيل بقلوبهم، لأنهم كلهم قد ارتدوا عني بأصنامهم» (14 ـ 5 حزقيال).
(73) «أما ترى ماذا يعملون في مدن يهودا، وفي شوارع أورشليم، الأبناء يلتقطون حطباً، والآباء يوقدون النار، والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكاً لملكة السماوات، ولسكب سكائب لآلهة أخرى، لكي يغضبوني» (7 ـ 17 أرميا).
(74) «لأنه بعدد مدنك صارت آلهتك يا يهودا، وبعدد شوارع أورشليم، وضعتم مذابح للتبخير للبعل» (11 ـ 13 أرميا).
(75) أحد الآلهة.
(76) (2 ـ 25 عدد).

الفصل العاشر الأنبياء والحكماء والكهانة والفلاسفة

كان الناس على الفطرة، فظهر بتعاقب الأزمان، رجال الأديان والحكماء، والكهّان والفلاسفة، وجاء كل منهم بشرائع وقواعد تخالف الأخرى. فتبع كل منهم فريقاً من الناس، رغبة أو رهبة، فظهرت الاختلافات، واشتدت العداوات بين الأمم والأقوام.

إله الأمة: وكانت كل أمة تدعي أن معبودها وإلهها، أقوى من غيره، وتعتقد انه في حالة رضاه وارتياحه منها، يحارب عوضاً منها، ويهزم أعداءها، فيمنحها النصر والظفر، ويشملها بعطفه وعنايته. وفي حالة سخطه عليها، يسلط عليها الأعداء والأوبئة، فتتقدم إليه بالقرابين والهدايا، والأدعية والتوسّلات، وتسكب على عتبات معبده الدموع، وتلتمس منه المعونة، وتتوسّل إليه العفو والمغفرة، وترجو منه سعادة الدنيا والآخرة... ويكون الجيش جيش الإله، والعدو عدو الإله، والشعب شعب الإله، وكل شيء متعلق بأمر الإله وإرادته... حتى تظهر أمة أخرى أكثر منها نشاطاً وعملاً وأشد منها قوة وبطشاً واقتداراً، فتبيدها وتبيد إلهها معها، فتسود هي عوضاً منها، ويسود إلهها معها، فيصبح جيشها جيش الإله، والعدو عدو الإله، إلخ...

خصام وجدال: فكان البشر ولم يزل في خصام مرير، وجدال منهك، بعضه مع بعض، وقد ينظر الواحد إلى الآخر شزراً، وقد يقضي أثمن أوقاته ومعظم ساعاته، بتنفيذ الأوامر والنواهي التي أملاها عليه رجال الأديان والكهّان، والحكماء والفلاسفة.

أنبياء: وكان ملوك سمر وأكد وبابل واشور، أول من ادعى بأن شرائعهم إلهية وأنها بوحي من الآلهة. فانتقلت هذه الفكرة إلى بني إسرائيل، فظهر من بينهم أناس لا يحصيهم عدّ، يدّعون انهم أنبياء مرسلون من الإله الأعظم، لتبليغ أوامره ونواهيه الإلهية المقدّسة. وقد لا يكون للإله علاقة له معهم «لم أرسل الأنبياء لم أتكلّم معهم، بل هم تنبؤوا» (22 ـ 23 أرميا).

إسرائيل فقط: ويبدو مما ورد في التوراة، «أن الإله الأعظم، قد اختار أكثر رسله من بني إسرائيل فقط، من هذه الأمة الصغيرة الضعيفة التي لم تكن لها منزلة بين الأمم الكبيرة، ذات التراث العقلي العظيم، والحضارات العريقة، كالاغريق والفرس، ومصر والهند والصين، أو أن هذه الأمم لم يكن لهم حاجة الأنبياء ولم تتسرّب إليها هذه الفكرة، فلا يعرفون شيئاً عنها.

وربما كان ادعاء النبوة ـ باستثناء الأنبياء العظام ـ، وظهورها في بني إسرائيل بكثرة ـ كما وردت في التوراة ـ ما هو إلا وسيلة من الوسائل التي يلجأ إليها السياسيون عادة ـ تحت ستار الدين المباح ـ لتخليص الدولة والشعب من الفوضى والتبلبل والتردي والانحلال السياسي والاخلاقي، وتأخير سقوط الدولة، وتثبيت الأمل وتقوية روح المقاومة، ورفع النزاع، بين الدولتين: اليهودية والإسرائيلية، ورفع شأن هذه الأمة الضعيفة المتخاذلة...

شعب الله: يظهر من دراسة التوراة وأسفاره، أن أولئك الأنبياء لم يكونوا مرسلين إلى البشر كافة، إنما

لبني إسرائيل وحدهم. وحتى مواعظ السيّد المسيح، لم تكن موجهة إلا للشعب الإسرائيلي وحده، دون أن تشترك معهم في هذا شعوب الأمم الأخرى مطلقاً. ومن الغريب أن متى قد حذّر من إعطاء القدس للكلاب والخنازير وكأنه يريدها لشعب مختار دون آخر[1]. إلا أن تلاميذ المسيح من بعده، جعلوا رسالته عامة للبشر.

وهذا كله يدل على أن الرغبة في الاحتكار، حتى في احتكار الإله، كانت وما تزال متغلغلة في أعماق نفوس الشعب الإسرائيلي.

رجال عظام: ومع هذا، فالحقيقة الواقعة، هي انه قد ظهر من بين هذا الشعب الصغير، رجال عظام، بدّلوا وجه التاريخ. وكان لشرائعهم وأعمالهم تأثير عظيم في تطور الأفكار العالمية، وفي تدرج الرقي الإنساني. فمنهم النبي ابراهيم الذي وقع اختياره على عبادة يهوه خالق السماوات والأرض، الإله الواحد غير المنظور، فكان ولم يزل لنظريته الدينية هذه، تأثير على الأفكار البشرية في مشارق الأرض ومغاربها، ولا يزال يحترمها العالم كافة.

يوسف: ومنهم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الذي حكم مصر من أقصاها إلى أقصاها، كوزير أوّل لفرعون، بعد أن كان قد بيع ببضعة دراهم معدودات، وبعد أن سجن مع المجرمين والمشردين. فكان الاقتصادي الفذّ، والوزير الخطير، انتشل قومه من المجاعة والفاقة، ومن الموت والهلاك. وسجّل أقسام التاريخ الديني من سفر التكوين الإسرائيلي، فجعل فيه نفسه وآباءه وأجداده، شعب الله المختار، وفضّلهم على العالمين كافة.

موسى: ومنهم النبي موسى، صاحب الشريعة الإسرائيلية الذي أنقذ قومه من قيد العبودية، وأدخلهم صحراء سينا، وهيّأهم لامتلاك فلسطين، ووضع لهم شريعته الخالدة، التي أصبحت حجر الزاوية للديانات الأخرى.

داود وسليمان: ومنهم النبيّان العظيمان، داود وسليمان، مؤسّسا مجد العبرانيين.

ومنهم أشعيا وآرميا ودانيال ونحميا وحزقيال وهوشع وزكريا، الأنبياء المصلحون. ومنهم عزرا الكاتب، الذي أملى التوراة على بني إسرائيل، بعد أسر بابل، ومنذ ذلك الوقت ثبتت فكرة التوحيد في العالم.

عيسى: ومنهم عيسى بن مريم، صاحب الديانة المسيحية، الذي جاء بدساتير دينية جديدة، تخالف قواعد الأنبياء كافة الذين سبقوه، فانتشرت ديانته من بعده في مشارق الأرض ومغاربها.

بولص: ومنهم بولص الرسول، الذي نشر الديانة المسيحية في أوربا وقضى على عبادة الأوثان.

عبد الله بن سبأ: ومنهم عبد الله بن سبأ، المعروف بابن السوء اليماني، الذي قال لعلي بن أبي طالب «أنت أنت» وقد أراد بها «أنت الله»، وكان يرمي بهذا إيقاع الفساد بين المسلمين، فكان أول مؤلّه لعلي بن أبي طالب، فأدخل الاختلاف بين صفوف المسلمين، ذلك الاختلاف الذي لم تزل آثاره باقية حتى يومنا هذا.

الإسكندراني: ومنهم فيلون الفيلسوف اليهودي الإسكندراني المشهور.

دزرائيلي: وأما في الأزمنة المتأخرة، فظهر من بينهم دزرائيلي، ذلك الرجل الذي وضع أسس أمجاد الامبراطورية البريطانية. ولا تزال آثاره باقية حتى الآن.

كارل ماركس: ومنهم كارل ماركس مؤسس المذهب الإشتراكي، الذي قلب النظم العالمية رأساً على عقب، ونادى بالحرّية والعدل والمساواة، الأقانيم الثلاثة. وما كان قصده الحقيقي في بداية أمره، إلا حرية اليهود، وتخليصهم من الاضطهاد، وتأمين حقوقهم وتساويهم مع أهل البلاد. فلقيت دعوته في الأوساط الصّناعية المسيحيّة أذناً صاغية، واعتقد الأغبياء من الآريين، أن في تعاليمه مساعدتهم وتحقيق آمالهم، فطفت الدعوة حتى شملت أوروبا، وازدهرت في كل مكان، فنال الشّعب الإسرائيلي ما كان يبتغيه من الحقوق والتساوي مع أهل البلاد وتحكّم في مقدرات الغرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية...

الهوامش

(1) «لا تعطوا القدس للكلاب. ولا تطرحوا درركم قدّام الخنازير» (6 ـ 7).

الفصل الحادي عشر الفرق اليهودية والمجامع الدينية

الإسرائيلية: تفرّق بنو إسرائيل، من بعد موسى، إلى فرق، منها: الإسرائيلية، القائلة ان البلدة المقدّسة هي سامرة ـ نابلس. وهؤلاء لا يعترفون بحرمة بيت المقدس (أورشليم)، ولديهم توراة تسمى السامرية، وهي غير التوراة المتداولة بالأيدي. وهم لا يعترفون إلا بنبوة موسى ويوشع فقط، كما انهم لا يعترفون بالبعث والحشر، والنشر والقيامة، والعذاب والنعيم بعد الموت، وقد انقرضوا وزالوا من الوجود، إلا شراذم قليلة منهم، يقال انها بالشام، وفي قرى دهوك وزاخو والعقر من مدن الموصل.

الصدوقية: ومنها الصدوقية، نسبة إلى مؤسسها صدوق الكاهن. وهم أصحاب أوزيريس، المسمى بالعبرية عزير. ويقال إن فرقتهم لم تزل موجودة باليمن، وهم أرباب الغنى والثروة والجاه والمقام، ويعتبرون بمثابة الأحرار في الدين والسياسة، ويتمسكون بأسفار موسى الخمسة فقط، ولا يعترفون بغيرها، وكانوا قريبين جداً من الفرقة الإسرائيلية إلا في بعض الفروع. وقد تأثّر الصدوقيون بفلسفة أبيقور اليوناني، فاعترفوا بوجود الله، لكنّهم أنكروا البعث والحشر والنشر، ووجود الأرواح، وخلود النفس، وقيامة الأموات.

الفريسيون: ومنها الفريسيون، وهي كلمة عبرانية تأتي بمعنى المفروزين أو المعتزلة، وذلك لاعتزالهم الشعب، باعتبار أنهم كهّان. وهم الفقراء والصعاليك والعباد والزهاد، وأخذوا بالفلسفة اليونانية، وخاصة منها فلسفة زينون وكريستبوس، يقفون عند ظاهر الشريعة ويتمسكون بالتقاليد، ويقرّون بقيامة الأموات، ووجود الأرواح.

الكتبة: ومنها فرقة الكتبة، وهم الناموسيون. وكانوا ينسخون التوراة ويفسّرون الشريعة، ويهذّبون الشعب.

الآزيون أو الاسينيون: ومنها فرقة الآزيون، أو الاسينيون، وهم فرع من الفريسيين، أخذوا بالفلسفة الكلبية اليونانية، فكانوا يدرسون علم الطب، والأدب والفلسفة، وكانوا يؤمنون بالسعادة بعد الموت، إلا انهم يشكّون في الدينونة، ويرتابون من الحشر والميزان. وكان طراز معيشتهم أشبه بالكهّان، وهم من العمال والفلاحين والعطلة والسفلة. ومع ما هم فيه من الفقر يعملون البر والإحسان لإخوانهم وزملائهم الفقراء، ويواسون المرضى وذوي الآلام، وطريقتهم الاشتراك بالأموال ان قلّت أو كثرت، ولكل فرد منهم أن يأخذ ما يلزمه من مال إخوانه لقضاء حاجته. وقد كانوا أشبه بجمعية خيرية منهم، بفرقة دينية. تنحصر عبادتهم بتقديس الشمس عند طلوعها، ولا يأكلون لحماً ولا يشربون خمراً، ويبالغون في طهارة أجسامهم. ويصومون كثيراً ويحترمون أيام السبت ويقرأون العزائم، ويفسّرون الأحلام ويشتغلون بالسحر وكشف المستقبل. وإخراج الشياطين من المرضى، ولا يتدخلون في أمور الكهنة والرؤساء. ولا يعارضون الفرق الدينية الأخرى.

العنانية: ومنها فرقة العنانية، وهم أصحاب عانان الداوي. ويتمسّك هولاء بالتوراة، ويتبرأون من الأحبار والشروحات والتفسيرات.

الربانية: ومنها فرقة الربانية وهم اليهود المنتشرون في العالم، وهؤلاء يحترمون الأحبار وشروحاتهم، والتلمود وما فيه، وهم الربانيون.

نواة الصهيونية: كانت نواة الصهيونية، قد ألبست رداء كهنوتياً أول الأمر. فقد انعقد لأول مرة، مجمع ديني لشعب إسرائيل في ليبسيك، بألمانيا في 28 حزيران سنة 1869، حضره وكلاء من النمسا والمجر وجرمانيا ورومانيا والبلجيك وانكلترة وجزائر الهند الغربية وأمريكا الشمالية. ودام الاجتماع أسبوعين. قر فيه الرأي العام، على تقديم أربعة تقارير عمومية وهي:

1 ـ ان هذا المجمع، حسب تعاليم موسى والأنبياء، وبناء على واجبات وعوائد الهيئة الاجتماعية، يكون السلطان السياسي بحسب الديانة اليهودية، مناسباً وموافقاً لمبادىء محبة البشر، ومساواة كل الناس، وللحرية التامة لجميع الخلائق البشرية، من جهة الأفكار والاعتقادات الدينية.

2 ـ ان سلامة جميع الأديان ورجاحتها، متعلقة على استعمال الأسلحة الروحية، لأجل تأمين الحق.

3 ـ ان دوام الديانة اليهودية، متعلّق على تثبيت هذه المبادىء.

4 ـ ان غاية الديانة اليهودية، هي الإقرار بهذه المبادىء، وانتشارها في العالم.

وانعقد مجمع من حاخامي اليهود، في مدينة فلادلفيا بأمريكا أيضاً. وقرّر إبطال استعمال اللغة العبرية في الطقوس الدينية، لكي يفهمها جميع يهود العالم، ورفضوا تعليم قيامة الأجسام بعد الموت، وصرّحوا بأن الكهنوت الموسوي قد مضى، ولم يبق سوى كهنوت شعب إسرائيل العمومي، أي (الصهيوني).

الوطن القومي: وتوالت المؤتمرات اليهودية، حيث تقرّر في إحداها استرجاع فلسطين وأورشليم، وتأسيس حكومة سياسية قومية دينية فيها. واستعادة مجد بني إسرائيل وكرسي داود وسليمان.

الفصل الثاني عشر الإصلاح الديني والاضمحلال السياسي

إصلاح العقائد: أفاق الشعب اليهودي من غفلته، بعد الضربات القاسسية التي أصابته في أسر بابل. فقد قبل الهارونيون، أقوال النبي أشعيا عن الرب: «لماذا كثرت ذبائحكم يقول الرب. أتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات. وبدم عجول وخرفان لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة. البخور هو مكرهة لي» (10 ـ 1). وقبلوا أيضاً ما ورد بنصائح النبي هوشع بأن إله الجنود ينفر من الذبائح والقرابين والنذور ويحب العبادة الخالصة «اني أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات» (6 ـ 6). فرفعوا من عبادتهم عبادة تقديم القرابين إلى المذبح، وإحراق الشحوم في المواقد، تلك العادة الواردة في التوراة تأييداً وتأكيداً، وجرّدوا العبادات من العوارض والرسوم المختلفة الكثيرة ووجّهوا الشعب إلى العبادة الخالصة المنبثقة من الفكر والوجدان، ووضعوا قواعد الصوم والصلوات المتعارفة. وهذّبوا أمر الدين.

إنشاء المعابد: وكان يوشع بن نون، قائد النبي موسى العظيم، قد عزم على غزو بني رأوبين وبني جاد، لبنائهم مذبحاً في شرق الأردن. ولما اقتنع بأنهم لم يقيموه لقربان ولا لتقديس، وإنما أسّسوه على التقوى والإيمان، كفّ عن غزوهم. فكان منذ ذلك الحين قد حرم روساء الكهنة، من تأسيس الكنيس، وبيوت العبادة، ومجامع الذكر والمحارق، والذبائح، في خارج أورشليم. وحصروا محل العبادة في أورشليم، وفي بيت الله، وفي الهيكل فقط، وذلك لرغبتهم في حصر الهدايا والقرابين، والأموال والهبات وكفّارة الذنوب المقدّمة إلى المذبح فيهم وحدهم، لا يشاركهم فيها أحد. ولما كانت هذه الطريقة الاحتكارية قد سبّبت شرود الشعب الجاهل عن يهوه إله إسرائيل، وتوجّهه إلى الآلهة الأخرى المجاورة له، فقد رأى الهارونيون المصلحون بعد سبي بابل، وبعد هجرة اليهود إلى الاسكندرية، وإلى المدن كافة الواقعة على شواطىء البحر المتوسط، رأوا افساح المجال لتأسيس المعابد في كل مدينة، وفي كل قرية من أنحاء العالم، وذلك لإمكان توسيع الإرشاد الديني، وتسهيل ممارسة أمور الشريعة، وتعميم أحكام الدين لأولئك الذين لا يتمكنون من الوصول إلى أورشليم. فتأسست المعابد في كل ناحية من نواحي المملكة وفي الخارج، واتسع نطاق الإرشاد الديني.

احترام الطقوس: وعلاوة على ذلك، فقد اعتنى أبناء هارون المصلحون بوضع الطقوس الدينية، وأحكام الصلوات، وحرمة يوم السبت وقواعد الهيكل، وتطبيق الاحكام الأخرى الواردة بالتوراة، تلك التي قرأها عليهم عزرا الكاهن، بعد عودتهم من أسر بابل، وضعوها جميعاً موضع التطبيق الإلزامي، حيث أصبح اليهود في دور الاحتلال الروماني، وبعد الدروس القاسية، والضربات المؤلمة التي أصابتهم بدولتهم وبأراضيهم وبأملاكهم، وبأعز ما هو موجود عندهم، أكثر الأمم تمسكاً بالههم، ذلك الإله الذي لم يحترموه أبداً ابّان عزهم، وأيام سؤددهم واستقلالهم. ولا يزالون سائرين على الخطة نفسها التي رسمها لهم كهّانهم الهارونيون القدماء فكانوا أشبه شيء بالشاب الطائش الذي لا يلوي على شيء فأدّبه الزمان.

فكرة التوحيد: وبينما كانت الشريعة الإسرائيلية، قد اعتبرت يهوه إله بني إسرائيل، كسائر الآلهة القديمة، ينزل ويصعد ويمشي ويتكلم، ويأكل ويشرب ويرضي ويسترضي، ويحقد ويغضب ثم يعف ويرحم، إلخ... لا فرق بينه وبين الأشخاص البشرية، إذ قد تطورت الفكرة الإلهية، والصفات التي يتصف بها الإله على أيدي الأنبياء المتعاقبين، إلى ما يليق بالكمال الإلهي، فأصبح التوحيد الخالص من مميزات الديانة الإسرائيلية وآثارها. وبهذا خدم هولاء الأنبياء الشعب اليهودي أعظم خدمة، في نشر التوحيد في العالم وتعميمه.

ثورة على الرومان: كان معبد جوبيتر في أورشليم، خلال الاحتلال الروماني وقبل الميلاد المسيحي وبعده، مشمخر الرأس، رافع الجبين في أورشليم، يضاهي بعظمته بيت الله الهيكل. وفوق ذلك فقد أراد الامبراطور الروماني «غاليغولا»، وضع هيكله في بيت الله (سنة 65 ب. م.) كعادته، ومن دون أن يقيم للشعب وزناً فثار الشعب، وأعلن العصيان في القدس وأطرافها، وشرع الثوار يصطادون الجيوش الأجنبية ويقتلون الأغنياء الموالين للسلطة الحاكمة، فانتشرت الثورة يوماً بعد يوم، حتى عمّت فلسطين عام (66 ب. م.). ولما لم ينجح الجيش السوري الروماني بإخماد الثورة، جاء تيطس أوتيتوس ابن الامبراطور سبازيانوس، فحاصر القدس خمسة أشهر، ودخلها عنوة فأشعل النار فيها، وتفرّق اليهود من القدس في أقطار العالم. وكان ذلك بعد سبي بابل بأربعماية وتسعين سنة، وبعد الميلاد المسيحي بإحدى وسبعين سنة.

انقراض اليهود: وفي سنة (132 ـ 134 م.)، دخل والي سورية الروماني للمرة الثانية، فاتحاً أرض اليهود، بأمر الامبراطور هاردیانوس، وأشغل من اليهود 50 قلعة و985 قرية، وأهلك 580 ألف يهودي وأخرج جميع اليهود من القدس، ومنعهم من العودة إليها، واستعاض عن اسم اليهودية بأرض فلسطين سورية، وبذلك انقرضت الحكومة اليهودية، وامحت من خريطة العالم نهائياً، وظلّت فلسطين كجزء من الامبراطورية الرومانية، حتى الفتح العربي.

فانتشر اليهود من الأرض المقدسة، حاملين معهم نسخاً من توراتهم، إلى أنحاء العالم كافة، وتمركزوا في بادىء الأمر في سواحل أفريقيا وآسيا الصغرى، وأوروبا الجنوبية والجزيرة العربية، والهند والصين والحبشة، ثم توغلوا في أوروبا الشرقية والغربية، وانصهر قليل منهم بفضل التزاوج مع الأمم والأقوام المختلفة، فأضاعوا جنسيتهم السامية. وانتشرت اليهودية في بعض الأمم الوثنية، فاكتسب اليهود عناصر جديدة كثيرة من الساميين والآريين والمغول والزنوج والأسلاف، حتى إن ملك بلاد الخزر اعتنق عام 662 م. الديانة اليهودية واعتبرها ديناً رسمياً لدولته، وجلب لها المعلّمين من إسبانيا، والحاخامين لإدارة المعابد اليهودية من أطراف أوروبا، فانتشر الشعب اليهودي في أوروبا الشرقية، ثم في أوروبا الغربية، ثم في أميركا، وأصبح الكثير منهم زرق العيون، شقر الشعور، حمر الوجوه، بيض البشرة. ومع هذا، فإنّهم كانوا ولم يزالوا خلال هذه السنين الطوال، يتّخذون كل وسيلة لإعادة ذكرى حكومتهم في القدس، وما بكاء الزوار تحت حائط المبكى، إلا حقنة لتنبيه الشعور اليهودي وإيقاظه، بما كان لهم من سلطان في الأيام الغابرة، من الواجب على كل فرد يهودي العمل لاسترداده. وقد تلقّن أطفالهم بمختلف الطرق والوسائل، بأن الإله يهوه لم يزل يشملهم بعطفه ورعايته، وهم لم يزالوا شعب الله المختار.

الفصل الثالث عشر وصايا الأنبياء السياسية

القومية اليهودية: عندما بدأ الإضمحلال يدب في جسم الدولة اليهودية، وبعد أن تشرّد اليهود في مشارق الأرض ومغاربها، بدأ أنبياؤهم يضربون على وتر جديد، يختلف عما كان يذهب إليه أنبياؤهم في ابان تأسيس دولتهم اليهودية.

فقد ظهر من سبط يهوذا أنبياء سياسيون قوميون، اتجهوا وجهة قومية جديدة. فقد ادعوا النبوّة، وتكلموا باسم الرب، فكان لكلامهم وقعه عند الشعب، في ذلك الوقت الذي تفرّق أبناؤه أيدي سبأ.

وكان الغرض الذي يرمي إليه أولئك الأنبياء، هو العمل على غرس روح المقاومة والجهاد في نفوس أبناء الشعب الإسرائيلي، ليقابلوا ما حلّ بهم من الشدائد والمحن، فجاءت أسفارهم مليئة بالوعد والوعيد والرجاء والأمل.

فهي تعلن رضا الرب عن شعبه المختار، وصفحه عن خطيئاته، وأنه سيعيد الشعب إلى أورشليم. ويقوي بيت يهوذا. ويعاونهم في فتح البلاد وينتقم من أعدائه المجاورين.

النبي أشعيا: جاء في الاصحاح الحادي عشر من سفر أشعيا ما يلي: «ويكون في ذلك اليوم، ان السيّد يعيد يده ثانية، ليقتني بقية شعبه التي بقيت من اشور ومن مصر ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر. ويرفع راية للأمم. ويجمع منفيي إسرائيل. ويضم مشتتي يهودا من أربعة أطراف الأرض. افرايم لا يحسد يهوذا، ويهوذا لا يضايق افرايم. وينقضان على أكتاف الفلسطينيين غرباً. وينهبون بني المشرق معاً، يكون على ادوم وموآب امتداد يدهما. وبنو عمون في طاعتهما. ويبيد الرب لسان بحر مصر. ويهز يده على النهر بقوّة ريحه ويضربه إلى سبع سواق. ويجيز فيها بالأحذية».

النبي زكريا: وقال النبي زكريا في سفره، عن لسان الرب ما يلي: «غرت على صهيون وعلى أورشليم غيرة عظيمة» (15 ـ 2). ثم يقول زكريا: «ترنّمي وافرحي يا بنت صهيون، لاني ها أنذا آتي وأسكن في وسطك يقول الرب... والرب يرث يهوذا نصيبه في الأرض المقدسة، ويختار أورشليم بعد» (10 ـ 2). ثم يقول: «هكذا قال الرب ها أنا أخلص شعبي من أرض المشرق، ومن أرض مغرب الشمس، وآتي بهم. فسيكونون في أورشليم، ويكونون لي شعباً، وأنا أكون لهم إلهاً» (8 ـ 8). ثم يقول «وأقوّي بيت يهوذا وأخلص بيت يوسف. وأرجعهم. لأني قد رحمتهم. ويكونون كأني لم أرفضهم. لأني أنا الرب. إلههم فأحييهم» (9 ـ 10). ثم يقول: «لأن كبرياء الأردن خريت» (3 ـ 12). ويقول: «في ذلك اليوم أجعل أمراء يهوذا كمصباح النار بين الحطب وكمشعل نار بين الحزم، فيأكلون كل الشعوب حولهم عن اليمينة عن اليسار. فتثبت أورشليم أيضاً في مكانها بأورشليم» (5 ـ 12). ويقول: «وهذه تكون الضربة التي يضربها الرب كل الشعوب الذين تجنّدوا على أورشليم» (12 ـ 14).

هذا قليل من كثير. وهناك في أسفار الأنبياء الذين عاصروا فترة الاضمحلال كما قدّمنا، الكثير من أمثال هذه الأحاديث والصرخات الصادرة من أعماق القلوب، والتي تبعث ميت الأمل في النفوس، وتوقد فيها شعلة التفاؤل بالمستقبل. كما انها فعلت ما هو أبعد وأكثر من هذا، فقد جعلت أبناء الشعب الإسرائيلي، يشعرون دائماً وأبداً، بانّهم غرباء مضطهدون مظلومون، ينتظرون بين الأمل والرّجاء وعد الرب الذي أبلغهم إيّاه هولاء الأنبياء.

وكان هذا هو السبب الذي جعلهم يتكتّلون وينعزلون عن الشعوب التي أقاموا بينها في مختلف أنحاء العالم. وكان وجودهم في هذا الوضع، مما يثير كراهيتهم في نفوس الأقوام الذين يعيشون بينهم، ويجعلهم غرباء مهما امتدت مدة إقامتهم بينهم، وهدفاً لاضطهاد الشعوب وجعلهم يقومون بأعمال لا تتفق وضرورات الحياة التي تقضي بالتعاون بين أبناء القطر الواحد. فقد دأب اليهود على خطة الاعتزال والتعاون فيما بينهم، وعلى استغلال من يعيشون بينهم، مما أدّى بأولئك إلى أن ينظروا إليهم نظرهم إلى عدو يتربّص الفرص لجر المغانم، وهو لا يصلح أن يكون مكاناً للثقة والاطمئنان.

الفصل الرابع عشر المناجاة والأدب والشعر عند العبرانيين

مزامير داود: تتجلى المناجاة الدينية، في مزامير النبي والملك داود، بعبارات هي أقرب إلى أنّات تنبعث من قلب كسير، أمام إله عظيم، فقد جاء بالمزمور الثاني ما نصّه: «أمل يا رب اذنك. استجب لي. لاني بائس ومسكين. أحفظ نفسي لأني تقي. يا إلهي خلّص أنت عبدك المتّكل عليك. أرجعني يا ربّي لانني إليك أصرخ اليوم كلّه. فرّح نفس عبدك لأنني إليك يا رب أرفع نفسي لانك أنت يا رب صالح وغفور وكثير الرحمة لكل الداعين لك. اصغ يا رب إلى صلاتي وانصت إلى صوت تضرعاتي في يوم ضيقي. أدعوك لانك تستجيب لي. لا مثل لك بين الآلهة يا رب ولا مثل أعمالك. كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يا رب ويمجّدون اسمك. لأنك عظيم أنت وصانع عجائب. أنت الله وحدك.

وهذا مزمور آخر للنبي داود(1) وهو في منتهى الرّقة والبلاغة والتّدين الصحيح.

«سبّحوا الله في قدسه. سبّحوه في فلك قدرته. سبّحوه على قوّته، سبّحوه على عظمته، سبّحوه بصوت الصور، سبّحوه برباب وعود، سبّحوه بدفّ ورقص، سبّحوه بأوتار ومزمار، سبّحوه بصنوج التصويت، سبّحوه بصنوف الهتاف، كل نسمة فلتسبّح الرب».

يدّعي بعض المؤرخين الأوروبيين، وفي مقدمتهم بريستيد، أن قسماً من المزامير، (كالمزمور الرابع بعد المائة)، قريبة من صلوات (اخناتون) الفرعوني المصري.

أدب سليمان: وأما الملك سليمان، فقد ترك صوراً خالدة للأدب العبري، وحكماً بالغة في نشيد الإنشاد. ولما كانت لا تتصل بموضوعنا، نذكر منها لوحة واحدة فقط، من قسم الجامعة. وهي هذه:

«الكل باطل. ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس؟ دور يمضي ودور يجيء، والأرض قائمة، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق. الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال. كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن، إلى المكان الذي جرت منها الأنهار إلى هناك تذهب راجعة. كل الكلام يقصر، لا يستطيع الإنسان أن يلم بالكل، العين لا تشبع من النظر، والأذن لا تمتلىء من السمع. ما كان فهو ما يكون والذي صنع فهو الذي يصنع، فليس تحت الشمس جديد. ان كان شيء جديد فهو منذ زمان كان، في الدهور التي قبلنا. ليس ذكر للأوّلين، والآخرون الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم، عن عناء رديء جعلها الله لبني البشر ليعنوا فيه كل الأعمال التي تحت الشمس باطل وقبض الريح، في كثرة الحكمة كثرة النعم، والذي يزيد علماً يزيد حزناً»...

والذي يصغي إلى هذه الجمل، لا يستطيع إلا أن يقف أمامها خاشعاً أمام هذا الشعور العميق، وهذه الصور الأدبية الرائعة، وهذه الحكم البالغة، والفلسفة الموغلة في العمق.

مراثي أرميا: ولعل مراثي أرميا النبي، عن قفر أورشليم بعد سبي بابل، لا تقلّ روعة وجلالاً عمّا جاءنا عن داود وسليمان. فقد كانت صوراً من الشاعرية الخالدة، صوراً رائعة عميقة لا يستطيع الإنسان إلا أن يعتبرها من أنفس ما جاءنا من آداب ذلك العصر.

الهوامش

(1) (م 150).

الفصل الخامس عشر الأخلاق والسجايا اليهودية

أحاطت بالشعب اليهودي، منذ نشأته، حتى يومنا هذا، ظروف ومؤثرات وملابسات، جعلت منه شعباً يختلف عن الشعوب الأخرى في حياته النفسية، وفي مظاهر نشاطه المختلفة، وفي طريقة تفكيره، وفي نوع السبل التي يسلكها في حياته العامة بمختلف مظاهرها المعنوية والمادية.

مؤثرات: ان الأوامر الإلهية، والدساتير الدينية، والقواعد التشريعية التي سبق بحثها، والنّكبات التي نزلت بالشعب الإسرائيلي خلال الأربعة الاف سنة المنصرمة، وما قاسوه من عبودية، وما حلّ بهم من ذل وهوان، وسبي وتشريد... قد خلقت في أعماق وجدانه جذوراً مختلفة، عملت مجتمعة في تكييفه تكييفاً معيناً. فقد امتلأت جوانحه، بالعقد النفسية المركبة الموغلة في العمق والقدم، وأصبحت له خصال وسجايا خاصة، وقابليات وميزات متنوعة معينة، انفرد بها عن سائر شعوب العالم.

فقد جعلته صغير النفس، قوي البديهة، ذكي الفؤاد، ليّن العريكة، يقتحم المصاعب، ويصبر على الأذى والمذلّة والهوان، قانعاً صبوراً دؤوباً على أعماله، كدوداً في مكاسبه، يميل بطبيعته ـ شأن كل ضعيف ـ إلى الغش والاحتيال.

التلون: وهو شعب سريع التلون، سهل الانسجام مع المحيط الذي يعيش فيه، رغم اختلافه عنه في العادات والصّفات المحليّة، مع الشّدة في المحافظة على عنصريته وعزلته في الشؤون الخاصة.

التقليد: ومن ذلك استعداده الفطري، لتقليد مظاهر الشعوب الأجنبية وعاداتها، إلى الحد الذي يسهل له قضاء مصالحه، فيلبس لباسهم، ويتزيا بزيّهم، ويتكلم لغتهم.

والشعب الإسرائيلي بمجموعه، يميل إلى الاشتغال بالأمور الفكرية الهادئة، ويبتعد عن الأعمال التي تحتاج إلى القوة البدنية، لصعوبتها ومشقّتها.

الشعور بالنقص: وهو بدافع شعوره بالنقص الإجتماعي، يحاول أن يسدّ هذا الفراغ بما يبذله من جهود فكرية، وأعمال ذهنية لا تعرف الكلل والملل. وكان هذا الاندفاع، سبباً في تقدّمه في بعض الأعمال الفكرية، وفي ميدان التجارة والاقتصاد بصورة خاصة.

ومن ذلك، فقد أورثه حب المال والحياة، الميل إلى الأمن والسكون، والراحة والاستقرار، والابتعاد عن الحرب والضرب، والغزو والقتال، وأورثه الهلع والخوف والجبن.

ويبدو أن صفة الجبن والخوف ليست جديدة على الشعب الإسرائيلي، إنما كانت صفة لاصقة بهذا الشعب منذ عهد النبي موسى. فقد جاء في سفر لاوي، ما قاله النبي موسى، عن لسان الرب إلى الشعب الإسرائيلي: «ألقي الجبانة في قلوبهم في أرض أعدائهم. فيهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهارب من السّيف، ويسقطون وليس طارد» (37 ـ 26 لاوي).

وقد حدث ان أرسل النبي موسى جماعة من إسرائيل، للتجسس على أعدائهم العمالقة، فما كان منهم إلا أن عادوا إليه خائفين من ضخامة أجسام أعدائهم[1].

وعلى هذا، يظهر أن المحاربين الذين حاربوا في فلسطين، لم يكونوا من الشعب الإسرائيلي، إنما هم من الآريين الذين اعتنقوا الديانة اليهودية.

الغاية تبرّر الواسطة: وللشعب الإسرائيلي، قابلية في التخلص من المحن والشدائد، منقطعة النظير. فكلما أصابته نكبة، أو حلّت به محنة، يتّخذ كل وسيلة ويذلّل كل عقبة ويسهّل كل صعوبة معقولة في سبيل حلّها حتى الوصول إلى غاياته.

السلب بالربا: وقد اشتهر الشعب الإسرائيلي بتعاطيه الربا، وباستغلاله هذه الطريقة لسلب الشعوب. فقد سلب ثروات الأمم بطريقة الربا التي برع فيها منذ أوائل عهده وبزّ فيها الأمم والأقوام كافة. وحتى ان النبي موسى كان قد أباحه لأمته، مع انه لم يشتغل بالتجارة طيلة حياته، على أن يؤخذ ربا من الأثرياء اليهود فقط، ومن الأجانب أثرياء كانوا أو فقراء[2].

الوطنية!!: واليهودي يظل يهودياً بالدرجة الأولى، أنّى أقام، وحيث وجد، فليس هناك يهودي واحد في العالم كلّه، مرتبط بالوطن الذي يعيش فيه. إنما تكون خدماته لذلك الوطن، بمقدار ما يعود عليه منه من فائدة وربح. أما الإخلاص للوطن والنصح والاستشارة الخالصة للفرد ولأبناء الوطن، وأما الوفاء للبلد الذي يعيش فيه، فهذه أمور مقدّرة في عرف اليهودي. ويعتبر نفسه غريباً في كلّ بلد، مهما طالت مدة إقامته فيه. وأكبر دليل على ذلك هولاء الآلاف بل عشرات الآلاف، الذين سجّلوا لإسقاط جنسيّتهم العراقية، مع أن آباءهم وأجدادهم يعيشون في العراق منذ الاف السّنين. وهم عراقيون قبل العرب العراقيين بأزمان واغلة في القدم كما سيأتي بيانه.

شعب الله: ويعتقد اليهود انهم شعب الله المختار، الذي اصطفاه الخالق لنفسه، وفضّله على العالمين طراً. ولئن غضب الله عليه مدة من الزمان، فانه لا ينساه.

المال والذهب: لقد اتجه اليهود بكلّيتهم إلى المال، فراحوا يطلبونه بمختلف الوسائل، وشتّى الطرق، حتى أصبحت أكثر البيوت المالية، والمصارف والبنوك تحت تصرّفهم. وليس المال عند اليهود بأقلّ شأناً من يهوه إلههم. وليس هذا بالبعيد على قوم عبدوا العجول الذهبية منذ أوائل عهدهم، وطيلة حكمهم في فلسطين، لا على انها آلهة، بل لأنها من ذهب فحسب كما قدّمنا. وهم الذين يسمون الذهب عصب الحياة ومدار محور العالم، ولهذا فقد اقتنوه وعبدوه.

الحقد والانتقام: لما كان اليهود قد قاسوا صنوف الأذى والمحن، وأنواع الضغط والإكراه والاضطهاد، لذلك فقد امتلأت نفوسهم بمرور السنين والأعوام، وحتى منذ أن كانوا في مصر، ضغينة وحقداً على الأمم الأخرى كافة. وأصبح هذا الحقد المكبوت يسعى للخروج دوماً. حتى إذا وجدوا سبيلاً للتنفيس عنه، وأحسّوا ضعفاً من عدوّهم ونالوا منه مقتلاً نكّلوا به تنكيلاً لا تعرف معه الرحمة سبيلاً إلى قلوبهم.

من ذلك ما جاء في سفر التثنية، عن قول الرب لموسى: «وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكوره بحدّ السّيف.. وأما النساء والأطفال والبهائم فتغنتمها لنفسك.. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما» (10 ـ 20 تثنية)[3].

ومثل هذا، حدث عندما غزا النبي موسى الموآبيين بجيشه. فلم يكفه قتل كل ذكر، وسبي النساء

والأطفال، ونهب الأموال بل أمر «بقتل كل ذكر من الأطفال وكلّ امرأة عرفت رجلاً، سوى الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر» (17 ـ 31 عدد).

شبيه بهذا، ما فعله يشوع بن نون، قائد النبي موسى، عند دخوله مدينة أريحا. فقد جاء في سفره «وخرقوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدّ السيف» (21 ـ 6).

ومثله ما فعله النبي صموئيل، لما أمر بقتل «أجاج» ملك عماليق الذي سلم وحده من قومه الذين أبادهم شاؤول عن بكرة أبيهم، لا لذنب أتى به عماليق، بل لوقوفه في وجه إسرائيل عند صعودهم من مصر بقيادة النبي موسى، قبل مئات من السنين وقد مرّ ذكره.

سفك الدماء: وإذا كانت التعبئة العسكرية قد ساقت جنكز خان وأتيلاّ وغيرهما من القوّاد الفاتحين إلى الإسراف في القتل وسفك الدماء، فلم تكن تلك العبقرية العسكرية موجودة ولا أثر لها عند قواد بني إسرائيل، إنما هو حقد كامن مكبوت في قلب هذا الشعب قد يتجلى بسفك الدماء البشرية عندما يجد من خصمه ضعفاً أو يستولي على قرية صغيرة.

وقد تجلى هذا الحقد على أوضح الصور، في واقعة دير ياسين عام 1948، عندما قتلوا النساء والأطفال العرب من السكان المدنيين بالجملة، كما فعل موسى وأنبياء بني إسرائيل بخصومهم من قبل. وهذا لا يدل على شجاعة وبسالة، إنما يدل على القسوة والشراسة. ويستثنى منهم سبط يوسف فقط، فقد ثبت في تاريخهم أنهم لم يستعملوا السيف مع الكنعانيين لما دخلوا بلادهم فاتحين ولم يطردوهم من قراهم، بل اكتفوا بأخذ الجزية منهم فقط (27 ـ 1 قضاة).

اضطهاد اليهود: كانت تلك الصفات التي اتصف بها اليهود، وما زالوا، سبباً في اضطهادهم في مختلف أدوار حياتهم، وفي كل أرض حلّوا بها، منذ أقدم الأزمنة، حتى يومنا هذا، وكانوا دائماً موضع كراهة الشعوب التي يعيشون معها.

فقد اضطهدهم العرب الاكديون، قبل ستة آلاف سنة في سواحل الفرات. واضطهدهم البابليون فأخرجوهم من أور الكلدان، وكان معهم النبي ابراهيم. واضطهدهم الكنعانيون في فلسطين عندما هاجروا إليها لأوّل مرة. واضطهدهم كذلك الفراعنة في مصر، خاصة في زمن رعمسيس الكبير كما سبق بيانه حتى خرج بهم النبي موسى إلى سينا. ثم سبي الآشوريين وأسرهم في نينوى، وسبي البابليين وأسرهم في بابل، حتى وصل الاضطهاد إلى درجة أراد هامان وزير الملك أحشويرش البابلي إبادتهم (9 ـ 3)، لولا أن اقتربت استير بتدبير عمها مردخاي إلى الملك... وأنقذتهم من الهلاك المحقّق. فقد لاقوا من البابليين صنوف الأذى والأعمال الشاقة فكانوا يساقون قسراً إلى القيام بحفر الأنهر وكريها من الترسبات. وبعد أن يأخذ التعب منهم مأخذه، يجلسون على حافة تلك الأنهر يذرفون الدموع[4].

ثم جاء الفرس فأجلوهم عن بابل، ثم اضطهدهم الرومان طيلة حكمهم لفلسطين. وقد ذكر أن من مات منهم عند احتلال تيتوس القائد الروماني لمدينة أورشليم بلغ مليوناً من الأنفس، حتى تفرّقوا في أرجاء العالم القديم والحديث.

لا اضطهاد في الإسلام: أما في العالم الإسلامي، فقد اضطهدهم المسلمون ـ بعد غزوة الخندق ـ لحلفهم مع المكيين المشركين بطرقهم المعروفة. حتى إذا استقرّ الإسلام بعد ذلك، لم يلق اليهود من الشعوب العربية والإسلامية أي اضطهاد، بأي شكل من الأشكال، بل اعتبروا من الذميين، وسمح لهم بتعاطي أنواع الحرف والصنائع، والاشتغال بالتجارة، ومنحت لهم حريّة العبادة بأجلى مظاهرها، في البلاد الإسلامية كافة.

اضطهاد اليهود في أوروبا: لقد كان اليهود في أوروبا، موضع اضطهاد واحتقار، وكانوا يقتلون ويضطهدون وينهبون، سراً وعلانية، في كل مكان. وكان المسيحيون في أوروبا، لا يعدمون سبباً لاضطهادهم. فكلما خسروا حرباً، أو نزل بهم وباء، اضطهدوا اليهود بتهمة التجسس ومساعدتهم الأعداء، أو بحجة عملهم السحر، أو بتهمة سرقة الأطفال وقتلهم ليخلطوا شرابهم الديني بدماء أولئك الأطفال...

في فرنسا: طرد اليهود من فرنسا عام 1182 م.، ثم طردوا عام 1306 م. مرة ثانية، ثم طردوا منها للمرة الثالثة عام 1394 م. وبهذا يكون اليهود، قد طردوا من فرنسا وحدها ثلاث مرّات.

في انكلترا: وطرد اليهود من انكلترا جميعاً عام 1290 م.، وكان عددهم حينذاك يتراوح بين ستة عشر وسبعة عشر ألف نسمة.

في ألمانيا: وطرد اليهود مرّات عديدة من ألمانيا، وكان آخر اضطهاد نالوه، على يد هتلر زعيم ألمانيا النازية.

في الحروب الصليبية: واضطهدهم الصليبيون في مدينة وورمس ومانيس وجنوه وكولونيا وبراغ، وغيرها من المدن الكبيرة في أوروبا.

وتوالت مذابح اليهود طيلة الحروب الصليبية في كل مكان، حتى ذبح منهم في مقاطعة بروفنس وحدها، عشرون ألف يهودي تقريباً.

ولما دخل الصليبيون مدينة أورشليم، وضعوا كل من وجدوا فيها من اليهود، في كنيس وأحرقوهم بالنار.

في اسبانيا: ثم طرد اليهود من اسبانيا نهائياً، وكان عددهم مائتي ألف يهودي تقريباً، هاجروا جميعهم إلى الشرق، فحلّوا في تركيا وبولونيا، وما تبقّى منهم، في المدن الغربية.

وكان اليهود في أوروبا يعيشون في أسوأ حال، يقاسون مرارة الاضطهاد والاحتقار والتضييق من كل جانب، حتى انفصلت هولندة عن اسبانيا، فوجدوا لهم في هولندة مرتعاً خصباً، وابتسم لهم الزمان.

حقوق الإنسان: وبعد أن أعلنت فرنسا حقوق الإنسان عند ثورتها المعلومة، وبعد ثورة أمريكا المعروفة، تبدّل وضع اليهود في العالم الاوروبي، تبدلاً محسوساً، حتى جاء كارل ماركس اليهودي، ووضع مثلثه المؤلف من العدل والحرية والمساواة للجميع، دون النظر إلى الجنس والدين والمذهب، فتساوى اليهود مع أبناء البلاد، واستولوا تدريجياً على مقدرات المجتمعات الأوروبية والأمريكية، باسم المدنية والإنسانية.

وقاحة يهودية: ومن الجدير بالذكر، ان اليهود كانوا خلال تلك المدة، لا يعترفون بالهزيمة مطلقاً، مهما

كانت قاسية، بل كانوا دائماً يعودون إلى المدن التي طردوا منها تدريجياً، وكلما سنحت لهم الفرصة. فقد عادوا إلى فرنسا وألمانيا وانكلترا، بعد القرن الخامس عشر فرادى وجماعات. ففي عام 1655 م. سمح أوليفر كروموبل لليهود بالبقاء في انكلترا، وفي عام 1847م. انتخبت بلدية لندن، البارون دي روتشيلد نائباً عن لندن. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، منح اليهود حقّ الرعوية والجنسية البريطانية. وفي السنوات الأولى من القرن العشرين بدأت الوزارة تضم عدداً من الوزراء اليهود، حتى إن واحداً منهم عيّن نائباً للملك في الهند، وآخر مندوباً سامياً في فلسطين.

ان الاضطهادات التي حلّت باليهود وفي كراهية الشعوب لهم، ترجع إلى سببين أساسيين هما:

أولاً: إن أنبياء اليهود وكهّانهم جنوا على شعبهم جناية أبدية، إذ جعلوا إلههم يهوه في بادىء أمرهم إله بني إسرائيل فقط، وجعلوا اليهود شعب الله المختار، فلا يجب تدنيسه بزرع الشعوب الأجنبية. وسموا الشعوب الأخرى كافة «كوبيم» وقد يطلقون عليهم اسم «عام هاآرص» أي شعوب الأرض. وبذلك جعل هؤلاء الأنبياء الشعب اليهودي عدواً أبدياً للشعوب الأخرى. ولولا تلك التعاليم الجافة وأمثالها، لاندمجوا مع بقيّة الشعوب، كما اندمج غيرهم فاستراحوا وأراحوا، كما تقضي بذلك سنن الكون.

ثانياً: ما أدّت إليه تلك التعاليم، من اتصاف اليهود بصفات معيّنة خاصة، سبق أن تحدّثنا عنها في أوّل هذا الفصل. وهذه الصفات والميزات والأخلاق والسجايا هي التي جعلت اليهود موضع اضطهاد الشعوب وكراهيتهم واحتقارهم.

ورغماً عن هذ الكراهية الملحّة العامة، والنفرة المستديمة، لم يزل هذا الشعب، بفضل ذكائه السامي، ونشاطه المستمرّ، وقدرته الفائقة على الأعمال، وميزاته التي اختصّ بها وحده بين شعوب العالم، لم يزل محافظاً على عنصريته وكيانه ودينه، وهو في مختلف الأوساط العالمية المتضاربة، وفي أنواع البيئات الاقليمية المتباينة، مقتحماً كل عقبة تستوقفه، وكل مانع يعترضه. فقد شاهد مصرع كثير من الأمم التي ناوأته كالكلدانيين والآشوريين والفراعنة والرومانيين واليونانيين وأخيراً الألمان الذين كان هو السّبب في مصرعهم. كما وانه لا يتردد في مناوءة الحكومات التي ساعدته مادياً وأدبياً في تأسيس وطنه في فلسطين حينما يشعر منها انحرافاً عنه. فقد عضّ اليد البريطانية التي كتبت له وعد بلفور، وهو لا يحجم عن كسر اليد الأميركية التي ساعدته، متى وجد له مستنداً أقوى منها. وكان لما وصل اسكندر الكبير حدود فلسطين غازياً، عرض عليه الحبر الأعظم يدوع، تنبؤات النبي دانيال عن دمار السلطنة الفارسية على يد ملك يوناني (21 ـ 8 و20 ـ 10 دانيال)، وحرّضه على غزو ملك الفرس الذي أطلق الشعب الإسرائيلي من أسر بابل، وأعاده إلى فلسطين، وساعده في بناء هيكل الرب. ولا غرابة في إنكار الجميل هذا. فكان قد حرّض آحاز بن عزريا ملك يهوذا، تاغتبلا ناصر ملك نينوى، كما مرّ سابقاً، على غزو المملكة الإسرائيلية، فدخل شلمناصر السامرة عنوة، وقضى عليها قضاء نهائياً، ونقل ما تبقى من الأسباط الإسرائيلية العشرة أسرى إلى مملكته. فإن الشعب الذي يفعل مع أبناء عمومته هذه العملية القاسية لا يستبعد اتخاذه ما هو أشنع منها مع غيره.

كما وإن الشعب اليهودي، لا يتأخّر عن القضاء على أي فرد يؤذيه، أو يقف في سبيل أطماعه بالاغتيال، كما فعلوا مع الكونت برنادوت، أو بوسائل أخرى يحذقونها، كنشر الدعاية السيئة له.

ولا يزال الشعب اليهودي، في بحبوحة من العيش، يقبض على زمام ثروة العالم، مستفيداً من احترام الآريين للحرّية الفردية والعدالة الاجتماعية التي هو خلقها لهم.

خداع: تمكن هذا الشعب الصغير، بدهائه المنقطع النظير، من إقناع الأغبياء في العالم المسيحي الأوروبي والأمريكي، بحقوق الإنسان، وبدستور الأخوّة البشرية، وباللادينية واللاقومية، وبالعدل والحرية والتساوي للجميع دون النظر إلى العرق والجنس والاقليم والدين والمذهب والمعتقد، ومن الاستهتار بالمفاهيم الأخلاقية السياسية ومن إثارة الاضطرابات والحروب بين الدول الأوروبية، بعد ان استولى على أدوات الطباعة ووسائل النشر. واشترى ذمم رجال السياسة في كثير من البلاد.

وهو لا يفتأ يبث سموم الفساد والانحلال بين الأفراد، ويحتكر الاستيراد والتصدير، وسائر وسائل التجارة، بواسطة اليهودية العالمية.

هذا كله مع بقائه متمسّكاً بيهوديته في الخفاء، كتمسّك الأعمى بعكازه، لا يفتر عنها لحظة واحدة، ولا يبغى عنها بديلا.

اليهود يهود: وبينما تترك مئات الملايين من المسيحيين، في مختلف أنحاء العالم، دينهم وقوميتهم تحت تأثير القواعد التي جاء بها ماركس اليهودي، نبي العصر الحاضر، فلا يوجد ولا يحتمل أن يترك يهودي واحد من دينه وقوميته مثقال ذرّة. فهو إذا ما كان في موسكو أو في لندن أو في نيويورك، يكون يهودياً بخصاله وميزاته. وهو يهودي بأوصافه وسجاياه، في كل وقت وزمان، مهما كانت الظروف والأحوال ومهما كان مظهره ولغته ولونه السياسي، وسواء أكان رأسمالياً أو اشتراكياً أو شيوعياً، فهو محتفظ بدينه وقوميته وعنصريته، أكثر وأشدّ من أي فرقة أو شيعة أو مذهب، في العالم كلّه. فان لم يجهر لها أمام المجتمع فقد يؤدّي طقوسها في الخفاء. فقد عرف هذا الشعب كيف يلبس لكلّ حالة لبوسها. وهو حافظ على دينه وقوميّته، في مختلف الأوساط العالمية، خلال الثلاثة آلاف سنة المنصرمة، رغم ما قاساه من البؤس والشّقاء، والمذلة والهوان، ورغم ما يراه عليه الأجانب من حقارة الأرومة والعنصر، حتى قبض في زماننا على ثروة العالم، فسخّر بها الدول العظمى، وجعلها طوع إرادته ومشيئته.

الهوامش

(1) «رأينا بني عناق والعمالقة طوال القامة.. ورأينا الجبابرة.. فكنّا في أعيننا كالجراد.. وهكذا كنّا في أعينهم» (عدد 13).

(2) جاء في وصايا موسى: «اذا افتقر أخوك وقصرت يده عندك... لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة» (25 لاويين)، كما جاء في سفر التثنية: «للأجنبي تقرض ولكن لأخيك لا تقرض بربا» (20 ـ 23).

(3) بينما كان السيد المسيح يقول: من ضربك على خدك الأيمن فأعطه الأيسر، وكان محمد بن عبد الله (ص) قد عفا عن أهل مكة أعدائه الألداء، وخصومه الأشداء، لما دخل مكة فاتحاً، وتمكن من رقابهم. وكان أبو بكر الصديق (رض) قد خطب في جيش أسامة، ومما قاله: «لا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا إمراة، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل..».

(4) «على أنهار بابل هناك جلسنا، بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون... ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون» (137 المزامير).

الفصل السادس عشر الأبوّة والبنوّة وظهور السيّد المسيح

في انتظار المسيح: تكرّر التبشير بالمسيح في المجتمع الإسرائيلي، في كثير من أقوال الأنبياء، خاصة بعد أسر بابل، وعلى الأخصّ عند دخول بني إسرائيل تحت رعاية الرومان. فكانت عيون العارفين من أبناء الأمة، تتردد في أطراف السماء، بانتظار المسيح ليخلصهم من الرق والاستعباد، ومن رجس زوس، ولوث جوبيتر، وشرك الرومان الكافرين. وكانت كلمة المسيح في عرف اليهود، هي عبارة عن من يمسح من الأشخاص (نبي، ملك، قائد، كاهن). حتى إن الأحجار والأماكن إذا مسحت بالزيت المقدّس، فتصبح مسيحة ومقدّسة. فالمسيح بمعنى (الممسوح)، أي الممسوح بالزيت المقدّس.

وقد وردت كلمة المسيح، في كثير من صفحات التوراة، منها لما انفتحت أبواب السماء للنبي يعقوب في الحلم، نصب حجراً في ذلك المكان الذي هو فيه، ومسحه بالزيت المقدّس، وسمّاه بيت أيل، أي بيت الرب (17 ـ 18 ت)، ومسح النبي صموئيل، الملك شاؤول بالزيت المقدّس، وصار مسيحاً أي ملكاً على إسرائيل، (4 أيام الأول)، ودعا النبي اليشع واحداً من تلامذته، وقال له: اذهب إلى القائد ياهو بن يهو شافاط، وخذ بيدك قنينة الدّهن، وصبّ على رأسه، وقل هكذا قال الرب: قد مسحتك ملكاً على إسرائيل (1 ـ 9 م. ت)، وفي المزمور الخامس بعد المائة: «لا تمسوا مسحائي ولا تؤذوا أنبيائي»، وقد تمسّح الكهّان أيضاً «تأخذ دهن المسحة وتسكبه على رأسه وتمسحه» (خروج)، وقد يمسح كل ما يراد تقديسه، «ثم أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن وكلّ ما فيه وقدّسه... ومسح المذبح... وصبّ من دهن المسحة على رأس هارون ومسحه لتقديسه». وبذلك تكون الأشخاص والأحجار والأماكن مسيحة ومقدّسة.

هذا ما كان اليهود يفهمونه من كلمة المسيح، ولم يزالوا. وهو النبي أو الملك، أو القائد الديني، أو الزمني المخلص الذي يخلصهم من الاستعباد والاسترقاق، ومن الذلة والهوان، ويعيد إليهم كرسي داود وسليمان، وملكهم المضاع، ومجدهم الغابر، فكانوا ولم يزالوا ينتظرون مثل هذا المسيح المخلّص الزمني.

المسيح عند اليهود: فلم يكن المسيح المنتظر عند اليهود، هو «ملكوت الله. وابن الله. وأحد الأقانيم الثلاثة، والإله المتجسّد لحمل خطيئة البشر...». بل كانوا يتخيّلونه ملكاً جبّاراً، أو قائداً محنّكاً، أو كاهناً عظيماً، أو نبيّاً مرشداً، كأحد رجالهم الأسبقين، وهو الذي يعيد إليهم غزّهم وسؤددهم، فيمسحونه بالزيت المقدّس، ويكون مسيحاً أو ملكاً أو رئيساً للملّة.

المادية واليهودية: ولما كان الإسرائيليون ماديين، يعبدون العجول الذهبية لأنها من الذهب، لا على أن آلهة تحلّ فيها، ولا يقيمون للروحانيات وزناً، فلم يؤمنوا بمسيحيّة السيّد المسيح، وبنبوّته، لأنهم كانوا ولم يزالوا يطلبون المسيح الزّمني، الذي يخبرهم بكل شيء، ويعمل كلّ شيء (25 ـ 4 يوحنّا).

الأبوّة والنبوّة: كانت الأبوّة والنبوّة الإلهية بالروح معروفة عند الإسرائيليين، ومسطورة في كثير من أسفار

الأنبياء، ولعلّهم كانوا قد أخذوها من الفراعنة، الذين يعتبرون أنفسهم أولاد إله الشمس اتون، فأسبغوها على رجالهم وأبطالهم أولاً، ثم على الشعب الإسرائيلي كافة «كلكم أولاد الله تدعون»، وفي هوشع «يقال لهم أبناء الله الحي» (11 ـ 1).

وكان لما أراد النبي داود، أن يبني بيتاً للرب، جاءه النبي ناثان، وأخبره بقول الرب: «يقول الرب متى كملت أيامك أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك، وأثبت مملكته. هو يبني لي بيتاً لاسمي، وأنا أثبت كرسي مملكته إلى الأبد، أنا أكون له أباً، وهو يكون لي ابناً، ولا أنزع رحمتي عنه، ويأمن بيتك ومملكتك إلى الأبد» (7 ـ 12 ص. ت). ولما حضرت داود الوفاة، أوصى ابنه الملك سليمان، وقال له: «قال لي الرب لقد سفكت دماً كثيراً فلا تبنِ لي بيتاً باسمي، هوذا يولد لك ابن، ويكون اسمه سليمان، هو يبني بيتاً لاسمي، وهو يكون لي ابناً، وأنا له أباً، وأثبت كرسي مملكته على إسرائيل إلى الأبد»، (22 ـ 14 و29 ـ 2 أخبار). فشرع سليمان ببناء البيت وأكمله، وهو الهيكل، وبذلك تحقّق قسم من نبوّة النبي ناثان. وأما القسم الأخير، وهو ثبات كرسي سليمان فلم يتحقق.

بشارة: ولما زال كرسي سليمان، اعتبر رجال الدين المسيحي، نبوّة النبي ناثان، بشارة للسيّد المسيح، وهو من نسل الملك داود عذريا. وقد ثبتت الكنيسة المسيحية، التي هي بيت الله، وستثبت إلى الأبد «على هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (16 ـ 19 متى)، وأن ثباتها يؤيّد نبوّة النبي ناثان، بحق السيّد المسيح، بصورة لا تقبل الشّك والجدل عند المسيحيين.

تفسير اليهود: وأما اليهود وأحفاد صهيون، فيدّعون أن الذي بنى بيت الله (الهيكل)، هو ابن الله، والله أبوه بالروح. وفي الحقيقة ان الملك سليمان، هو الذي بنى بيت الرب وأكمله. إذن فهو ابن الله، والله أبوه بالروح. ويقولون لقد كملت نبوة النبي ناثان بحق الملك سليمان، وأن بيت الرب لم يزل قائماً، وإذا كان الكرسي قد زال موقتاً فقد زال قبلها مرّات ومرّات، ثم عاد ويجب أن يعود مرّة أخرى، وهو عائد. وبيت الله وهو الهيكل لم يزل قائماً، وسيبقى قائماً إلى الأبد.

فكان توجه الصهاينة إلى أورشليم في زماننا، ما هو إلا لاستعادة حصن صهيون، وإقامة كرسي سليمان، وتجديد الهيكل بيت الله، وتثبيت نبوءة النبي ناثان مرة أخرى، تلك النبوءة القائلة بأن الكرسي والمملكة لا يزولان إلى الأبد، وبذلك تتحقق نبوءة أشعيا في (11 ـ 11) عند قوله «...... ويجمع منفيّي إسرائيل ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض... وينقضان على أكتاف الفلسطينيين. وينهبون بني المشرق معاً...».

نكبة المسيحيين: واذا ما تحقق لديهم هذا الحلم، وتشكّلت الحكومة اليهودية على أيدي المسيحيين المغفّلين ومعاونتهم الفعليّة فسيعلنون على رؤوس الأشهاد، أن الملك سليمان هو ابن الله، والله أبوه (7 ـ 12 ص. ث)، بالنظر لنصوص التوراة التي يسمّيها المسيحيون كافة (العهد القديم) و(الكتاب المقدّس) ويحترمها بعضهم إحترامهم للأناجيل التي لا تقبل الاعتراض، وعلامته (الكرسي. والمملكة. والهيكل بيت الله).

ولما كان لا يوجد غير الملك سليمان، من يستحق هذا العنوان بنظر اليهود، وليس لله أولاد كثيرون، وبما انهم لم يعترفوا بنبوّة السيّد المسيح، ففي الخطوة الثانية، سيعلنون نبوة النبي ناثان،

وأقوال الملك داود، بأن كرسيه لا يزول إلى الأبد. ولا يوجد من يستحق عنوان ابن الله والله أبوه، سوى الملك سليمان الذي بنى الهيكل (22 ـ 14 و9 ـ 2 و22 ـ 8 أخبار الأول)، فيصبح الصراع والحالة هذه دينياً بين اليهود والمسيحيين أكثر مما هو سياسي جغرافي بين اليهود والعرب. فان الطعنة النجلاء التي يريد الصهاينة إنزالها بالديانة المسيحية لهي أقوى أثراً، وأعظم شأناً، وأشد مرارة وأعمق مصيبة، مما قد يصيب المسلمين والعرب في حدودهم الاقليمية.

لينتبه المسيحيون: فلا بد للعالم المسيحي ورجال الدين المسيحي، أن يتدبّروا ما يخفيه الصهاينة في خطوتهم الأولى، وهي أولاً التمركز في أرض فلسطين، ثم القيام بكفاحهم وجدالهم ضد الكنائس المسيحية، والديانة المسيحية، بل ضد ذات السيد المسيح نفسه، فتكون الخطوة الثانية هذه، التي تشمل الأبوة والنبوة، أعمق أثراً من الأولى، لتعلقها بصفة من أعظم صفات السيّد المسيح الأساسية.



ملحق

يهود العراق ليسوا يهوداً
إنهم إسرائيليون!

كتب هذا المقال لنشره في إحدى الصحف المحلية بناء على طلبها، ثم ارتأينا نشره في نهاية هذا الكتاب

كان النبي والملك داود قد هاجم حصن صهيون بجوار أورشليم وأخذه من اليبوسيين «وأخذ داود حصن صهيون» (7 ـ 5 ص 20). واتّخذه عاصمة لملكه، ثم أقام فيه النبي والملك سليمان وبنى الهيكل بيت الله.

ولما توفي النبي سليمان انقسمت مملكته الى قسمين: الأولى الحكومة اليهودية وكانت تحت حكم رحبعام بن سليمان وعاصمتها أورشليم وتشمل سبط يهوذا وحده «لم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده» (20 ـ 12 الملوك الأولى) ثم التحق بهم قسم قليل من سبط بنيامين؛ والثانية الحكومة الإسرائيلية وعاصمتها السامرة «نابلس» وهي تحت حكم يربعام بن ناباط وتشمل الاسباط العشرة الباقية روبين، وشمعون، ولاوي، ويساكر، وزبولون، ونفتالي، ودان، وجاد، ويوسف، وآشير.

كانت العداوة الدينية متأصلة بين الطرفين، تكفر كل دولة أختها. فكان الإسرائيليون لا يعترفون بملوكية أحفاد سليمان، ولا بقدسية أورشليم ولا يؤمنون بنبي بعد موسى ولا بالنظام الديني اليهودي... . ولهم توراة خاصة بهم تسمى التوراة السامرية... وتندد بهم التوراة اليهودية فتقول «عصى إسرائيل بيت داود إلى هذا اليوم» (19 ـ 10 أخبار الثاني). وأحصي لاسرائيل عشرون ملكاً، حكموا في السامرة 271 عاماً حتى استنجد «آحاز» ملك يهوذا بملك آشور وأرسل له الهدايا يحرّضه على الدولة الإسرائيلية (8 ـ 16 م. ث) فحاصر شلما نصر الملك الآشوري مدينة السامرة وافتتحها عنوة (720 ق. م.) وأسر آخر ملكها هوشع بن أيله، وسبى الأسباط العشرة الإسرائيلية الذين سلموا من السيف، وأجلاهم على الطريقة الآشورية الى أطراف نينوى «ووضعهم في حلح وخابور ونهر جوزان وفي مدن مادى» (12 ـ 18 الملوك الثاني) وهي نصيبين والخابور وزاخو والعقر وسائر المدن الآشورية الممتدة حتى بلاد مادى (إيران). وكان منهم الساكنون الآن في قرية صندور قرب دهوك. وسجلت التوراة اليهودية عنهم العبارة الآتية «وسبى إسرائيل من أرضه الى آشور الى هذا اليوم» (23 ـ 17 م. ث.).

وكان قد شملت عملية التهجير والتشتيت من السامرة وحدها 27 آلفاً و290 إسرائيلياً نقلوا جميعهم الى آشور واستوطنوا في العراق الشمالي، ووضع سرجون الثاني الآشوري عوضهم في السامرة خليطاً من أسرى بابل وكوتا وحماة... (24 ـ 17 م. ث.) وجعلها مقاطعة آشورية. ومنذ ذلك الوقت انقطعت علاقة إسرائيل بفلسطين نهائياً وأصبح الإسرائيليون عراقيين منذ ثلاثة آلاف سنة أو ما يزيد. ولم يذكر التاريخ وقوع هجرة يهودية أخرى الى شمال العراق. وبذلك حافظ الإسرائيليون

على أنسالهم طيلة هذه المدة فكانوا عراقيون قبل توغل العرب في العراق بألفي سنة تقريباً. فانتشروا قبل العصر الأخير بمدة وجيزة في العراق الوسطى والجنوبي ولم يزالوا يتكلمون بكلام أهالي شمال العراق كما هو معلوم.

واما الحكومة اليهودية المتخذة مقرها في حصن صهيون (أورشليم) فكانت تشمل سبط يهوذا وحده «ولم يبق إلا سبط يهوذا وحده» (19 ـ 17 م. ث.). وأخيراً وقعت هي أيضاً بما هيئته لزميلتها الإسرائيلية من سقوط بيد الأعداء فدخل نبوخذ نصّر أورشليم فاتحاً وأخذ سبط يهوذا أسيراً إلى بابل. ولم يكن بينهم من الاسباط العشرة سوى أفراد قلائل من بيت لاوي. وبعد أن مكثوا حوالي سبعين سنة في الأسر أعيدوا الى فلسطين (عام 547 ق. م.) ولم يبق منهم في العراق أحدا.

دخلت أورشليم بعد ذلك تحت حكم الرومان. وفي عام (134 م.) دخل والي سورية الروماني أورشليم فاتحاً لقمع الثورة والاضطرابات وأخرج جميع أبناء يهوذا من أرض فلسطين جبراً حيث لم يترك فيها يهودياً واحداً. فتفرقوا في أنحاء العالم الغربي، في الاسكندرية وقبرص وازمير وكافة مدن السواحل في البحر المتوسط ومنهم من ذهب الى الحبشة والحجاز واليمن. ثم انتشروا في أنحاء أوروبا وأخيراً وصلوا أميركا. ولم يأت أحداً من أبناء يهوذا الى سورية وشمال العراق والشرق كافة لوقوعه حينذاك تحت سيطرة الرومانيين. وبهذا انفصل أبناء يهوذا عن أبناء الأسباط العشرة منذ وفاة النبي سليمان، وبالأحرى منذ تهجير الإسرائيليين من السامرة الى آشور.

وبعد، فإن هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم اليهود في سورية والعراق وإيران ليسوا من نسل يهوذا مطلقاً ولا علاقة لهم بالحكومة اليهودية والصهيونية المتخذة مقرها في أورشليم أبداً. إنما هم من بقايا الأسباط العشرة الإسرائيلية، وهم أعداء ألداء لليهودية والصهيونية كابراً عن كابر. فلم يعترف أجدادهم بحرمة أورشليم عدوتهم التأريخية اللدودة، ولم يعترفوا بالتوراة المتداولة بأيدي أبناء يهوذا، ولم يعترفوا بنبوة وملوكية أنبياء وملوك يهوذا. فما ان انقرضت دولتهم الإسرائيلية في السامرة، واستوطنوا في مملكة آشور في العراق الشمالي وفي مدن مادي «إيران» وتفرقوا بعد ذلك في البلاد الشرقية وارتفعت توراتهم السامرية من الوجود، حتى أصبحوا أقليّة ضئيلة وشراذم متفرقة بالنسبة لليهود المنتشرين في أنحاء العالم الغربي. ولما كان قد ندّد القرآن بالسامري وأيّد أنبياء يهوذا كافة وكانوا هم بتماس دائم مع المسلمين، فلم يكن لهم بد من التسمية باسم اليهود والانتساب إليهم والامتزاج معهم وقبول توراتهم اضطراراً ومرغمين ليتخلصوا من كلمة السامري ويعيشوا في البلاد الإسلامية. وكانت قد ترجمت التوراة اليهودية وانتشرت في العالم كله.

وإذا كان الإسرائيليون يتصلون بنسبهم مع يهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم، فان العرب المستعربة أيضاً يتصلون بنسبهم في اسماعيل بن ابراهيم كما يدعيه النسّابون، ولذلك كان أبناء يهوذا ينظرون الى الإسرائيليين كنظرتهم الى العرب «كفرة أعداء يهوه» وكانوا ولم يزالوا تبعاً لعداوتهم الدينية القديمة يحتقرون ابناء الأسباط العشرة وينظرون إليهم شزرا.

دام هذا الوضع بين يهود الشرق ويهود الغرب أحقاباً كثيرة حتى ظهور الصهيونية في أوروبا، والتي كانت محتاجة إلى الأعوان وإلى من يشد أزرها في كل مكان، فتقرّبوا من الإسرائيليين

الشرقيين، وتغاضوا عن الماضي البعيد، وأرسلوا المعلمين والمبشرين إلى المدارس الإسرائيلية الشرقية لإغراء الشباب الإسرائيلي وإغوائه بالعودة إلى فلسطين وتأسيس الدولة الإسرائيلية! واستعادة كرسي داود وهيكل سليمان، فتبعهم بعض الشباب الإسرائيلي الطائش المغفّل حيث يدري ولا يدري. ولو علم هذا الشباب انه سامرئي وإسرائيلي، ومن أنسال الأسباط العشرة لا من نسل يهوذا، ولا فرق بينه وبين العرب المستعربة عند النسابين، ولو علم أن توراته السامرية ومعتقداته بالأنبياء وشرائعه شيء، والتوراة اليهودية التي قرأها عزرا الكاتب على الشعب اليهودي بعد عودته من أسر بابل (8 ـ 8 عزرا) شيئاً آخر، ولو علم أن كلمة يهود تطلق على أبناء يهوذا وحدهم دون إشراك الأسباط الأخرى، «جاء رجال من يهوذا فسألتهم عن اليهود الذين نجوا... وعن أورشليم» (2 ـ 1 نحميا)، ولو علم أن محرّري أسفار الملوك الأولى والثانية، وأخبار الأيام الأولى والثانية، قد هاجموا السامريين هجوماً عنيفاً لا هوادة فيه ورموهم في كل صحيفة من صحائفهم بالكفر والإلحاد والخروج عن عبادة الإله وعبادة العجول الذهبية، والأصنام والآلهة الغريبة وعبادة الشمس والنار، وألبسوا حقدهم السياسي المتأصل ضد السامريين ثوب الدين، ولو علم هذا الشباب ان الذين رجعوا من أسر بابل إلى أورشليم كانوا اثنين وأربعين ألفاً وثلاث مئة وستين شخصاً (64 ـ عزرا) وكلهم من أبناء يهوذا، ولا يوجد من بينهم من الأسباط الأخرى سوى أربعة وسبعين شخصاً فقط من بني لاوي (60 ـ 2 عزرا)، وكلهم هاجروا بعد ذلك إلى الغرب، ولم يأت واحد منهم إلى الشرق. ولو علم ان آحاز ملك يهوذا استنجد بتغلث فلاسر ملك آشور «وأرسل آحاز رسلاً إلى تغلث فلاسر ملك اشور قائلاً أنا عبدك وابنك، اصعد وخلّصني من يد ملوك إسرائيل القائمين عليّ» (7 ـ 16 م. ت.)، وأرسل له هدايا «فأخذ آحاز الفضة والذهب الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك، وأرسلها إلى ملك اشور هديّة» (8 ـ 16 الملوك الثاني) ليساعده على فقح بن أرمليا ملك إسرائيل (4 ـ 16 م. ث.)، فكانت غزوة آشور هذه قد أسالت دماء الإسرائيليين بغزارة في شوارع السامرة والمدن الأخرى، وكانت السّبب بزوال الحكومة الإسرائيلية من الوجود، ولو علم بنظرات الازدراء والتحقير التي كان ولم يزل يسدّدها إليه أبناء يهوذا، لو علم هذا الشباب كل ذلك لحارب وكافح الصهيونية والصهاينة بكل ما أوتي من علم وقوّة ومال كما حارب آباؤه وأجداده القدامى الحكومة اليهودية والصهيونية.

ولكن أنّى لهؤلاء الناس أن يدركوا انهم إسرائيليون سامريون لا علاقة لهم بيهوذا وأنساله؟ وأنّى لهم ان يستخرجوا الحقائق من صفحات الأسفار، وقد امتلأت رؤوسهم بالقواعد اليهودية وبالديانة المتعارفة المنتشرة في العالم، وأصبحوا يهوداً رغم أنفسهم؟ وأنّى لهم أن يعلموا انهم عراقيون قبل العرب بألف سنة تقريباً؟ ولو علموا ذلك ولو رجعوا إلى توراتهم السامرية وتاريخهم ومعتقداتهم الأصلية لأعلنوا للملأ كافة انهم إسرائيليون سامريون، ثم عراقيون عريقون بالقدم، وتبرؤوا من يهوذا واليهودية والصهيونية والصهاينة، فعلاً لا قولاً، وحقيقة لا رياء، وانتقموا من الصهاينة أعدائهم القدامى الذين كانوا السّبب بزوال دولتهم وتشتيتهم في العالم الشرقي، وبما قاسوه وتجرّعوه من غصص وآلام خلال هذه المدة الطويلة، وكالوا لهم الصاع صاعين واللطمة لطمتين وأراحوا واستراحوا.

الكتاب الثامن

المعتقدات المسيحية

المقدمة

بينما كان الاعتقاد السائد عند السومريين والكلدانيين والمصريين واليونان والأمم والأقوام البائدة كافة في الشرق الأوسط أن الآلهة قد تتقمص الأشكال البشرية وتتزاوج وتتوالد وتقيم في السماء... أو في اعماق المياه العذبة والمالحة... أو في قمم الجبال والمعابد والهياكل... والقصور... والحدائق، وتكون مجموعات إلهية تدير شؤون العالم من وراء ستار... ولها بنون وبنات وزوجات وخليلات وعشيقات... تأكل وتشرب... وتطلب وتريد، شأنها شأن البشر من كل الوجوه؛ وفي الوقت الذي كان فيه حتى الرب الإله يهوه إله بني إسرائيل، يأتي في كل يوم عند هبوب ريح النهار ماشياً على قدميه في الجنة عند آدم (8 ـ 3 تكوين)، وقد يتراءى للأنبياء ويأكل من سفرة إبراهيم ويصارع يعقوب ويكلم النبي موسى تكليماً ووجهاً لوجه بصوت ولفظ ويقول له: اخلع نعليك، وينزل في عمود سحاب ويبلّغ الأوامر والنواهي والشريعة والقوانين من خيمة الاجتماع أو من رؤوس الجبال... ويكتب الألواح بيده ويتدخل في كل كبيرة وصغيرة من أمور بني إسرائيل... إذ ظهر السيد المسيح (عليه السلام) في الميدان الديني معلناً على رؤوس الاشهاد... ولأول مرة في العالم، وخلافاً لما كان عليه البشر سابقاً، متحدياً كل الأنبياء والحكماء والفلاسفة وجميع المعتقدات السائدة قديماً «بأن الله روح... والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي ان يسجدوا» (24 ـ 4 يوحنا).

وبهذا الدستور الجليل العظيم وبهذه الآية القوية الناصعة... وبهذه الكلمات البليغة الموجزة، نفى السيد المسيح عن ذات الله كل ما يستدل منه شائبة التجسيم والتجسد وكل صفة من الصفات البشرية وكل جزء من الأجزاء الإنسانية من والد ومولود وأجزاء وأبعاض وأيد وأقدام وسمع وبصر ولفظ وكلام ونزول وصعود وحيز ومكان ويمين ويسار وتجزؤ وانقسام. كما وانه اعلن بهذه الكلمات عدم تأثره بما ورد مراراً وتكراراً على لسان أنبياء بني إسرائيل الكثيري العدد في التوراة عن صفات الإله الأخلاقية والأدبية والبشرية كاعتباره إلهاً دكتاتورياً، يغضب ويثور ويحقد فينتقم، ويتذكّر فيخاصم، ويندم فيعفو.. ويرضى ويُستّرضى بالهدايا والنذور وبالذبائح والقرابين ويقبل الشفاعات عن الأشرار والمجرمين... فجعله روحاً خالصاً لا تشوبه الأشكال والأجسام ولا تشمله الحوادث والجهات، منزهاً تنزيهاً مطلقاً عن الأفعال والأعمال البشرية كافة، وعن جميع الحركات والصفات الإنسانية. فكان هذا التنزيه المطلق الذي انبثق من لسان السيد المسيح حدثاً جديداً لم يتوصل إليه الحكماء والفلاسفة والأنبياء والمرسلون كافة.

والروح كما يفهمه الروحانيون أنفسهم، ليس بالجسم ولا بالعرض ولا له أجزاء وأبعاض وتحيز وجهات وبنون وبنات... ولا يشمله الزمان والمكان، ولا ينقسم على نفسه لا بقليل ولا بكثير.

وكان السيد المسيح قد درس اسفار الأنبياء الذين سبقوه فأخذ عنهم الشيء الكثير واطلع على فلسفة وحدة الوجود الروحية فتأثر بها، فكان يخاطب تلاميذه واليهود كافة بقوله: «أبانا. وأبوكم. وأبي الذي في السماء». ويقول: «كلكم ابناء الله تدعون». ويقول: «ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماء». وجاء في مختلف المواضيع من الأناجيل قوله: «اني أنا في أبي. والأب الحالّ فيّ. الأب فيّ. وانا فيه. وانا في الأب. وانا فيهم. وانت في. وانا فيكم. وانتم في...» وكلها ترمي إلى مذهب الحلول وإلى وحدة الوجود الروحية.

ويلاحظ أن السيد المسيح لم يخصص الأبوّة والبنوّة لنفسه فقط، وإنما جعلها للبشر كافة. فكانت جميع الأرواح العالمية صادرة عن الأب وهو الله، وهو الذي نفخ في عالم الاحياء بروح منه وبقوة «روح ابيكم الذي يتكلم فيكم» فأصبح نسمة حية. فان هذه الروح المقدسة المنبثقة من الأب هي التي شملت العالم كافة وهي تعطي القوة والحياة لعالم الاحياء أجمع.

لا يوجد في الكتب المقدسة أي إشارة تدل على ادعاء السيد المسيح بالألوهية وبتساويه مع الإله بالذات والجوهر، غير اقواله حول وحدة الوجود الروحية، والحلول الروحي، وانه ابن الله كسائر الناس. وقد امتاز عن سائر انبياء بني إسرائيل بأقوال وكلمات ومصطلحات دينية لا يعرفها اليهود، ولم يألفوا سماعها، مأخوذة من وحدة الوجود الروحية، كقوله «الله روح» (24 ـ 4 يوحنا)، وقوله «قبل ان يكون إبراهيم انا كائن» (5 ـ 8 يوحنا)، وقوله «انا والأب واحد» (30 ـ 10 يوحنا)، وقوله «انا نور العالم» (12 ـ 8 يوحنا)، وما يماثله من البيانات والتعاليم الروحية. فكان وقعها ثقيلاً عليهم، وكانوا يعتبرونها كفراً وتجديفاً يستحق قائلها الموت الزؤام.

وكانت اقوال السيد المسيح وتعاليمه تفترق تماماً عن آراء الشعب اليهودي ومعتقداته، وعما انطوت عليه نفوسهم، بما يمكن اجماله بفكرته عن صفات الرب الإله، وبميله إلى وحدة الوجود الروحية وإلى مذهب الآزيين (في مكافحة اصحاب الثروات والأموال، وإن لم يكن آزياً) بينما كان اليهود يحبون المال حباً جماً ولا يعطون للروح قيمة ولا يقيمون للمعنويات وزناً. ولا يوجد في شريعتهم ما يدل على مصير الروح بعد الموت، وليس فيها قيامة اموات. وكانت شريعة السيد المسيح بعيدة كل البعد عن ادخار المال وخزنه، قريبة كل القرب من عالم الإيمان والضمير والوجدان وملكوت الله، ومتصلة اشد الاتصال بالروح ومصيرها بعد الموت... فلذلك لم يصدق اليهود بأقواله، ولم يعتقدوا بنبوته، ولم يهتموا بتعاليمه، رغم معجزاته الباهرة، وآياته الساطعة الواضحة التي كان يعملها أمامهم وكانوا ينبهرون بها ويعجبون منها.

ولم يكن التثليث من آثار رجال الكنائس المسيحية. فقد ذكرنا في فصل التثليث من كتابنا هذا ما عثرنا عليه في صفحات تاريخ الأمم البائدة، مما يزيد على عشرات المثلثات الوثنية، سبق ان سكب البشر دموعه السخية على عتباتها. ولقد كافح رجال الدين المسيحي تلك المثلثات الوثنية المنتشرة في الشرق الأوسط حتى تمكنوا من ابادتها ومن اقامة عبادة الإله العلي بمكانها، فدخلت جميعها في

بطون التاريخ، فاندثرت وانطوت صحيفتها من شؤون العالم، ودام المثلث المسيحي الإلهي وحده حتى يومنا، وانتشرت عبادته بفضل جهود رجاله الافذاذ في أنحاء العالم كافة. إلا انه لم يتمكن من الاندفاع والانتشار بقوة في آسية، لأن الديانة المجوسية في فارس والبرهمية في الهند والبوذية في الصين وثم الإسلامية في آسية وافريقية جابهته، وإنما ترعرعت عبادته وازدهرت فانتشرت في المدن الأوروبية وبين الأمم والأقوام الوثنية بالاقناع والوعظ والارشاد تارة، والشدة والغلظة والارهاب تارة أخرى، ثم في أمريكا وفي كل البلاد التي سكنها الأوروبيون فيما بعد: تلك التي لم يكن لها دين قويم، يحدد مداه ويوقف خطاه. والحقيقة التي لا ريب فيها أن رجال الدين المسيحي قد قدموا خدمات عظمى في إبادة الوثنية وفي نشر العقيدة الإلهية، وفي تثبيت القواعد الروحية الأخلاقية، وفي تطبيق الأحكام الدينية في المعاملات اليومية في أنحاء العالم... ولهم الفخر.

ولما ارتفعت المحاكم الدينية، وطغت العلوم الطبيعية والتجريبية، واطلع العالم الأوروبي على اساطير الديانات القديمة، من فرعونية وإغريقية وبابلية وسومرية وهندية وبوذية... وانتشرت حرية البحث والنقد والتنقيب، وارتفع ضغط القواعد الصوفية المسيحية، تلك التي كانت تحتقر الحياة وتسيء إلى الوجود الإنساني وتشل العقل وتثلم النشاط... اعتقد الغرب بإمكان حصول التحسن الإنساني والرفاه العام، بطريق حصر القوى وبذل الجهود في المادة، وفي الآليات وفي اعمال الفكر وفي العلم الصحيح، دون التوسل بإمكانات مجهولة ومدعيات غامضة تقع فوق مستوى العقل البشري، بحيث لا يمكن سبر حقيقتها والاطلاع على حقائقها ودخائلها لخروجها من نطاق البحث العلمي الصحيح... لذلك فقد تزعزعت عند البعض اركان الإيمان بالنظريات الدينية وبالاقوال والمنقولات. وإذا كان الاوروبيون في زماننا هذا، لا ينكرون الله جهاراً فهم لا يرون في وجوده ـ كما يرى ابناء الشرق ـ ضرورة عملية في اعمالهم اليومية وفي انابيب مختبراتهم الزجاجية... وفي غمغمة مكائنهم الآلية، وفي دائرة اعمالهم السياسية والاجتماعية والفنية، إذ هم اسقطوا من تفكيرهم الدعاوى كافة التي تتحدى النواميس الطبيعية وتعارض الأدلة العلمية... وتنافي المشاهدة والاختيار...

فكان كلما فتح العلم الصحيح جبهة جديدة، تقلصت تجاهه المدعيات التي أدخلت على الدين الناصع. وكان كلما ثار الفكر الأوروبي ضد المنظمات الموضوعة، تركت المعابد موقعها للحرية الفكرية وللأعمال الفردية، حتى تأسست الديمقراطية وأعقبتها الاشتراكية فالشيوعية فأخرجت القواعد الدينية عن نطاق اعمالها نهائياً.

وبذلك أصبح الشعور الديني في أوروبة قضية من قضايا الماضي الغابر لا علاقة له بالأمور الزمنية. فحلت الضروريات المادية المثبتة محل القواعد الدينية الموضوعة، تلك المؤسسة على المنقولات... وزال نفوذ راسبوتين مثلا، وزملائه الذين جاءوا من قبله ومن بعده، أولئك الذين أساءوا إلى الدين المسيحي، فأخرجوه عن محوره الأصلي، فأصبح الانتفاع المادي عند الأوروبيين يسود جميع مظاهر النشاط البشري، وفوق شخصية الإنسان الروحية. وبهذا لم يبق من المثلث المسيحي عند القسم الاعظم من العالم الغربي إلا اسمه. فإذا ما ارتفعت الحشويات والزوائد المدخلة على الدين

الناصع وتجردت العبادات من التقاليد والطقوس المنهكة، فقد يعود البشر مرة أخرى بعد تجارب قاسية إلى عبادة الإله الواحد الروحي الذي بشر به السيد المسيح في أقواله ومواعظه وصلواته «الرب إلهنا رب واحد» (29 ـ 12 مرقس).. وناجاه من كل قلبه ومن كل جوارحه ومن صميم وجدانه.. «ابانا الذي في السماوات. ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا.. ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجّنا من الشرير.. لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين». (9 ـ 6 متى).

فليس في العالم من لا يطأطىء رأسه احتراماً لهذا الإله المنزه عن الصفات البشرية... الإله الروحي الواحد الذي بشر به السيد المسيح، وتضرع إليه بكل قلبه ومن أعماق ضميره وجوارحه ووجدانه.. الإله الذي يتوافق مع الذوق الإنساني في كل عصر من العصور، وإلى ان يرث الله الأرض ومن عليها.



الفصل الأول ولادة السيد المسيح

1 ـ لما عاد الشعب الإسرائيلي من اسر بابل وكان قد فقد استقلاله السياسي... دخل في معترك المنقولات والحواشي والتفسيرات والأشكال والرسوم والذبائح والقرابين وقواعد الهيكل وتقديم باكورات الأرض وابكار البقر والغنم والمعز وأوائل العجين والرفائع والخمر والزيت إلى الكهنة وعشر الأرض إلى اللاويين.. وعشر العشر إلى بيت الإله وإلى المخدع وإلى بيت الخزينة.. وذبائح التكفير عن الخطيئة والبخور والنذور إلى قدس الاقداس... تلك التي وضعها وفسرها وشرحها وملأها وقررها رؤساء الكهنة والصديقون والفريسيون كل من جانبه... وكان قد ارتفع من بينهم أي جدال سياسي أم عسكري أم اجتماعي، وأصبحت الأكثرية العظمى من الشعب تعمل باحكام التوراة التي املاها عليهم عزرا الكاهن الهاروني رجل الدين الذي أرسله ارتحشستا ملك الفرس (11 ـ 7 عزرا) من بابل إلى اورشليم لاشغالهم بالأمور الدينية عن الأمور السياسية وعن الفتن والثورات المسلحة. ونجحت هذه الطريقة. فسرعان ما تمسك اليهود بأوامر الكتاب وبالشريعة وبالطقوس الدينية بمادتها واشكالها ونصوصها وحروفها فظهر النزاع بين الطوائف والفرق اليهودية حول الشروح، واشتد الخصام بين الرؤساء والكهنة حول التفسيرات... فتركوا أمر بلدهم للحكام الأجانب المحتلين واشتغلوا بالوصايا العشر وبشريعة موسى وبالأعياد وبالمراسيم وبالتقدمات... وتفسيراتها... وشروحها..

وقد تختلج عيون العارفين والنبهاء من الأمة في اطراف السماء، منتظرة المسيح الموعود ليخلصها من أصحاب الخوذ الفولاذية، ويدك معبد جوبيتر وزوس دكاً.

وكان الرومانيون الذين احتلوا أرض اليهودية قد فسحوا في المجال، إلى اقصى حد ممكن، لكل اختلاف ديني أو جدال مذهبي أو خصام فقهي، لإشغال الجمهور عن الأمور السياسية، وإبعاده عن التفكير في أمور بلاده. فكانت الحرية الدينية قد تجلت بأسمى معانيها وأقصى حدودها، وكانت القواعد الدينية منوطة بأقوال الرؤساء، وما يقرره الكهنة والحاخاميون ذوو الجباب الطويلة العريضة، وشيوخ الطوائف ذوو العمائم الكبيرة.. ومرتبطة بما تقتضيه الطقوس والعنعنات والعادات والتفسيرات والحواشي الكثيرة المملة. وكانت السلطات الرومانية بقضّها وقضيضها تحت إمرة رؤساء الدين والكهنة، تشد أزرهم وتحمي سلطانهم. وما كان لأحد من رجال الاحتلال أن يدخل قدس الأقداس، ويقترب حتى من جُدُرْ الهيكل المقدس، مبالغة في احترامه ورعاية لشعور الجمهور المتدين.

ولما كان هيكل الإله يهوه في أورشليم يمثل التوحيد المطلق، فقد اعتاد الشعب الإسرائيلي أن يرى على مضض، وهو كاظم غيظه، بجانب هيكل إلهه، تمثال الإله جوبيتر منتصباً رافعاً رأسه في سماء فلسطين، يقابله تمثال الإله زوس، وهما يمثلان الشرك. كان يرى ذلك وهو في حالة من اليأس والقنوط، والرضى والقبول بالأمر الواقع، منتظراً اليوم الذي يسكن فيه غضب إلهه عليه فيرسل (المسيا) المسيح المخلص. ويعلم العارفون من الأمة اليهودية ان المسيح هو الذي يسكب عليه مقداراً من

الزيت المقدس فيكون ملكاً ومسيحاً ومقدساً. «فقال الرب قم امسحه لأن هذا هو، فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط اخوته، وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً» (12 ـ 16 صموئيل الأول).

وكان القصد من مسح الزيت، تقديس ـ تعميد ـ الملك والرجال والابطال، الذين يخدمون الشعب، أو الأماكن والمعابد والحيوانات والأحجار فتصبح مسيحة ومقدسة.

ولم يكن مسح الزيت للتقديس من اعمال الإسرائيليين فحسب، بل كانت الأمم السابقة كافة تقدس أبطالها به... فكان السومريون يسكبون الزيوت بالقرب من القرابين المقدمة للآلهة فتصبح مقدسة.. (كانت توضع عليها القرابين المقدمة للآلهة وتسكب بالقرب منها الزيوت ـ مجلة سومر العراقية).

وكان النبي صموئيل قبل ذلك أيضاً قد مسح شاؤول ملكاً على إسرائيل. وجاء في اخبار الأيام الأول (22 ـ 16) «لا تمسوا مسحائي ولا تؤذوا أنبيائي» مما يستدل منه ان المسحاء والأنبياء كثيرون، وأن كلمة المسيح كانت تطلق على كل رجل مخلص، يخدم الشعب الإسرائيلي بإخلاص فيكون مسيحاً وملكاً ومقدساً. فكان بنو إسرائيل ولم يزالوا ينتظرون من نسل داود مثل هذا المسيح الذي يجمع شملهم من شتات الأرض ويوحد كلمتهم ويأتيهم بملكوت الله الذي أخبر عنه كثير من أنبيائهم.

فالمسيح عندهم هو الملك العظيم والقائد الجبار الزمني.. والمخلّص الذي يخلصهم من الاسترقاق والاستعباد بجنود تأتيه من السماء... ويخلصهم من الذلة والهوان بقوة تأتيه من ملكوت الله كما خلصهم موسى من قبل، ويعيد اليهم ملكهم المضاع ومجدهم الغابر وهم قاعدون.

هذا ما كان يفهمه اليهود من كلمة المسيح. ولم يتوان بعض الفريسيين عن نفخ روح التعصب والانتظار وتقوية الآمال في قلوب الشعب بظهور المسيح الموعود. ولم تكن عند النبي يوحنا (يحيى) من الجرأة والشجاعة ما يمكنه من الدعوة لنفسه. فكان يبشر بقرب مجيء من هو اقوى منه.. بمجيىء المسيح المنتظر المخلص الذي سيخلص الشعب الإسرائيلي من محنته.

لذلك... كان كلما ظهر نبي أو رئيس أو كاهن عظيم توجهت إليه الأنظار، عساه يكون المسيح المنتظر أو المخلص الموعود «وكان يسوع يتمشى في الهيكل، في رواق سليمان، فأحاط به اليهود وقالوا له إلى متى تقلق انفسنا، ان كنت انت المسيح فقل لنا جهراً». (24 ـ 10 يوحنا). وهي شنشنة عند كل الأمم والأقوام الضعيفة والمغلوبة على أمرها، وجدت لتثبيت القلوب وتسلية الخواطر. فما تكاد تجد امة شرقية ضعيفة إلا ولها نوع من امثال هذه الأساطير وهي تنتظر الفرج وعيونها في السماء.

2 ـ ومن عادة المستعمر إذا ما وطىء أرضاً ان يضع نصب عينيه قبل كل شيء اخلاق الأمة وفضائلها وتاريخها وعنعناتها... فيفسدها ويقضي عليها بمختلف السبل الدنيئة فيعز كل ذليل ويذل كل عزيز.. ويشتري الضمائر وينكّل بالأحرار.. ولا يعدم رجالاً اذلاء وسياسيين ادنياء من ابناء الأمة نفسها ـ كالملك هيرودوس ـ يعضدونه بألسنتهم وسيوفهم وحرابهم، ويبيعونه ضمائرهم ومقدساتهم بثمن بخس، فيصرفون مرافق الأمة في سبيل عظمته... ويذلون امتهم في سبيل تقويته... ويكونون اكثر منه غيرة وحمية على مصالحه.

ان أمثال هؤلاء التعساء، ويسمون الأذناب، يجعلون الأمة بعد فساد اخلاقها ـ من حيث تدري ولا تدري ـ تسبّح بحمده، وتطرب بعدله، وتستسهل ظلمه، وتتحمل طغيانه، ولا تبغي عنه بديلاً. وبهذا الخلق السيِّىء والنفس الصغيرة أصبح الشعب الإسرائيلي يقول بلسان كهنته «ليس لنا ملك الا قيصر» (17 ـ 19 لوقا).

3 ـ وأما عند المطلعين والمدركين والنابهين والأحرار من الإسرائيليين، فقد طال الانتظار وحل اليأس واستولى القنوط ونفد الصبر. فبينما كان يظهر في كل عصر مئات من الأنبياء ـ خاصة في زمن الياس واليشع ـ فقد انقطع مجيئهم، ولم يظهر ذلك المسيح المخلص أو الملك الجبار أو القائد العظيم أو النبي المرسل... وقد رفعت السكينة (غطاء التابوت) وفقدت الألواح، ولم يزل شعب الله المختار في حيرة من أمره وارتباك وبؤس وشقاء... يئن تحت ضغط الحكام الأجانب وجنود روما اصحاب القمصان القصيرة والخوذ الفولاذية والسيوف اللامعة والفؤوس الثقيلة والحراب الحادة. وقد ضاق بهم ذرعاً ولم يبق منهم في القوس منزع فجعل يستعيد اقوال الأنبياء اشعيا وارميا وزكريا وعيونه تتردد في آفاق السماء نحو إله إسرائيل... نحو الله العلي الذي خلّصه من الفراعنة ومن البابليين ومن الآشوريين ووعد آباءه تكراراً ومراراً انه سوف لا ينساه، وأنه قد فضّله على العالمين طرا، وجعله شعبه المختار، لعله ينجيه ويخلصه بقوة الروح العظمى وبالمسيح الموعود وبجنود من السماء... مما هو فيه من الذل والهوان والرق والاستعباد.

4 ـ كان هذا الشعب الجاهل الفقير، البائس الحقير، تحت قيادة زمرة من العلماء المرائين الأفّاكين المنافقين، وأرباب الثروة والشرف، وأصحاب اللحى الكثيفة والعمائم الكبيرة والجباب العريضة الطويلة في القرن الأول الميلادي، وهو في عقر داره، اشبه بحالته عندما كان في مصر، تحت سلطة الفراعنة، يشتغل ليلاً ونهاراً، ويؤدي الجزية والضرائب والمكوس إلى الحكام الرومانيين الكفرة من جهة، وإلى الكهنة ورجال الهيكل وعلماء الدين وقدس الأقداس من جهة أخرى عن يد وهو صاغر.

في هذا القرن وفي هذه الظروف السيئة القاسية من حياة الشعب الإسرائيلي... ولد رسول المحبة والخلاص السيد المسيح (عليه السلام). وعندما شب وترعرع ودرس واطلع وشاهد قومه يساقون بالعصا كالعبيد وأيقن انه الوارث الشرعي لكرسي داود وعرش سليمان ومن حقه الزعامة على الشعب الإسرائيلي، لم يحتمل ضميره الحي وقلبه الرؤوف الرحيم الممتلىء رقة وحنانا هذا النوع من الظلم والجور فعزم على تخليصهم من قبضة الرومان الحديدية، واسترجاع استقلالهم السياسي المضاع كما فعل موسى من قبل.

اختمرت عنده هذه العقيدة وقرر أن لا سبيل للوصول إلى هدفه إلا الدين... والعودة إلى شريعة الأنبياء ودين الأجداد. وهو الطريق الذي سلكه الزعماء والمصلحون كافة من قبل. ومن بعد.

الفصل الثاني سيرة السيد المسيح

1 ـ شاع في اورشليم، عاصمة التوحيد وحواليها، أن شخصاً في الأردن ـ عين نون ـ يقال عنه إنه نبي أو معلم، يلبس وبر الإبل، ومنطقة من جلد على حقويه، يأكل جراداً وعسلاً برياً، يعمّد الناس بالماء لغسل الذنوب، ويعمد بمعمودية التوبة يسمى يوحنا المعمدان (يحيى).. يتمثل بقول النبي اشعيا «صوت صارخ بالبرية أعدّوا طريق الرب...»، ويقول للناس «توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات» ويقول «انا اعمّدكم بماء التوبة ولكن يأتي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً لأن أحلّ سيور حذائه هو سيعمّدكم بالروح القدس والنار» (12 ـ 3 متى)، ويقول «اني انا لست المسيح بل إني مرسل أمامه» (28 ـ 2 يوحنا). ويطلب من الشعب ان يؤمنوا بالذي يأتي بعده.

ذهب يسوع إلى الأردن مع من ذهب وقابل يوحنا المعمدان وجرى بينهما من الكلام ما جرى فامتنع يوحنا من تعميد يسوع بالماء نظراً لما شاهده فيه من القوة الباطنية، والوطنية الملتهبة، والذكاء اللامع، والإطلاع الواسع والنظر الثاقب، وعلائم النبوة والتفكير في المستقبل... مما يفوق مستوى المجتمع اليهودي فانبهر منه. قال له إذن «انا احتاج ان اتعمد منك لأن لك المجد في السماء». وأصرّ السيد يسوع على التعمّد منه فتعمّد.

وكان السيد المسيح قد تأثر من هذه المقابلة ومن التعميد ومن اقوال يوحنا المعمدان، وأحس في نفسه بقوة باطنية تدفعه إلى الأمام فعزم على توحيد المساعي مع زميله يوحنا المعمدان والقيام أولاً بمهمة التعليم والارشاد الديني تبعاً للخطة التي تقررت بينهما.

جاء في الأناجيل: لما خرج السيد المسيح من نهر الأردن تراءى له ان أبواب السماء قد تفتحت ورأى روح الله نازلاً مثل حمامة، وانه سمع صوتاً من السماء يقول: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت».

هام السيد المسيح بالصحراء بعد أن اعتقد ان روح الله تراءى له وحلّ فيه... وشرع يناجي ربه ويسمع صوت ضميره مدة أربعين يوماً وهو في عزلة تامة عن البشر، يقضي أوقاته بالصوم والصلاة، والتأمل والمناجاة، والخلوة والتوجه إلى الله العلي، ليصل إلى فهم ما تراءى له وسمعه من السماء وما قاله له يوحنا المعمدان. ولا شيء أزكى للنفس من العبادة والمناجاة بالروح والقلب وتصفية النفس، فأحس ان في عنقه رسالة إلهية عليه أن يؤديها، واقتنع بوجوب القيام بأعبائها مهما كلف الأمر.

2 ـ وإنه لفي هذا المعترك النفساني، رأى في المنام أن ابليس يقترب منه ويسعى لاغوائه في مختلف السبل والمواعيد فقال له «اذهب عني يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» (1 ـ 4 متى). ولم يتمكن ابليس من التقرب إليه في اليقظة بعد ان نزل روح الله عليه وحل فيه وأصبح يحمل الروح المقدسة... وإذا كان ابليس قد اقترب من الإله بوذا قبل السيد المسيح بخمسمائة عام في اليقظة ليجربه وليعطيه امبراطورية العالم (!) نعتقد أن السيد المسيح أجلّ وأقدس وأعظم من أن

يقترب منه أبليس ومن أن يدخل تحت تجربته في اليقظة وأن ينقاد له صاغراً ويبقى تحت أمره طائعاً ومن ان يأخذه ابليس من محل إلى آخر، ليجربه ويغريه بإعطائه ممالك العالم كله، حيث لا تحتمل الغفلة منه ولو للحظة من الزمان، كما انه اساساً لم يكن بحاجة ـ كبوذا ـ لقبول التجربة ودخول الامتحان.

3 ـ عاد السيد المسيح إلى كفرناحوم وشرع بإداء رسالته وإظهار معجزاته. فلحقه الناس من كل حدب وصوب... شيوخاً وكهولاً ونساء وصبياناً. وكان المرضى والمفاليج والبرصاء والكمه يتقاطرون عليه من كل مكان. وكان يبرئهم بقوة الإيمان والايحاء والروح. وشاع أمره وعلا صيته في الجليل أولاً ثم في الناصرة... وانتقل خبره إلى اورشليم وإلى الجهات كافة، فلحقه كثير من الناس من كل حدب وصوب إلا أنهم لم يلبثوا ان انفضوا من حوله لتعاليمه الغامضة وأقواله المبهمة ودساتيره الروحية التي لم يألفوا سماعها، ولم يفهموا لها معنى. وأما هو فكان يتحاشى الظهور في كبريات المدن، فيقضي اوقاته بالإرشاد والتعليم في القرى والأرياف ورؤوس الجبال وسواحل البحر.

4 ـ ومع رغبة السيد المسيح بتخليص الشعب اليهودي من نير الاستعمار، لم يجهر أمام الناس المحتشد حوله بكلمة واحدة ضد الدولة الرومانية، والاحتلال العسكري، وظلم الولاة وجور الحكام والتكاليف الباهظة والقوانين الجائرة، بل كان يتظاهر انه ملازم للأمور الروحانية وحدها حتى يحين الوقت. ومع هذا فلم تكن السلطات الحكومية غافلة عن حركاته، ولم تكن نائمة عن تحريضاته وعما يقوم به من الأعمال ويظهره من المعجزات. كما لم تغفل عما قام به قبله زميله يوحنا المعمدان وثيوداس المدعي ويهوذا الجليلي وغيرهم. فقد احاطته بالجواسيس والرقباء والعيون من كل جانب، وجعلت يهوذا الاسخريوطي، وهو من ابناء اورشليم وواحد من الاثني عشر من تلاميذه، عيناً عليه يرافقه أينما سار وحلّ، ويخبر المراجع المختصة بما يراه ويشاهده من حركاته وأفعاله وأقواله وأعماله.

وكان قد أظهر آياته لأول مرة في عرس قانا الجليل، وكانت أمه واخوته واخواته هناك، إذ حوّل بنظرة واحدة ماء ستة اجران خمراً، فحصل لغط عظيم بين اليهود من هذا الايحاء، فلم يتمكن من المكوث في الجليل «فانحدر إلى كفرناحوم هو وأمه واخوته وتلاميذه واقاموا هناك أياماً ليست كثيرة (12 ـ 2 يوحنا) للتخلص من العيون والجواسيس». ولم تكتف السلطات الحكومية بالاسخريوطي وحده، إنما كانت ترسل الجواسيس تباعاً الواحد تلو الآخر... من الفريسيين ومن الهيرودوسيين والكهنة والكتبة لامتحانه بالمسائل الدينية والسياسية، وللوقوف على آرائه وتعاليمه ومراميه ونواياه. وكانوا يريدون استدراجه بالكلام، والعثور على كلمة واحدة منه لاتخاذها حجة عليه. يقول لوقا «فراقبوه وارسلوا جواسيس يتراءون انهم أبرار لكي يمسكوه بكلمة حتى يسلموه إلى حكام الوالي وسلطاته» (20 ـ 20). وقال في محل آخر «وهم يراقبونه طالبين ان يصطادوا كلمة من فمه لكي يشتكوا عليه» (11 ـ 54).

فإذا كان قد ألقي القبض على يوحنا المعمدان وأودع في السجن فكان ولا بد للحكّام السياسيين من اصطياد زميله ورفيقه يسوع بكلمة واحدة وحبسه معه، وإلقاء الرعب في قلوب امثال هؤلاء السياسيين، على زعمهم، المتسترين بستار الدين والمرتدين ثياب الزهد والتقوى والعبادة والصلاح،

والقضاء عليهم قبل ان يشتد ساعدهم وتكثر اعوانهم، وقبل أن يحدثوا الفتن والقلاقل في البلاد الآمنة المطمئنة. كانت هذه الخطة المرسومة والتعقيبات قد اقلقت السيد المسيح فالتزم جانب العزلة بعيداً عن المدن اليهودية وعن أعين الرقباء. وكان يطوف في القرى ورؤوس الجبال متخفياً متنكراً لا يترك له اثرا، ويوصي حوارييه (تلاميذه) والمؤمنين به، والذين شفاهم من امراضهم ان لا يقولوا عنه شيئاً، وأن لا يتحدثوا بمعجزاته.. كل هذا انتظاراً لليوم الذي يتمكن فيه من الجهر بدعوته، وهو على يقين تام وإيمان كامل واعتقاد راسخ بأن الآب في يوم من الأيام سينصره ويهزم اعداءه، ويعيد إليه كرسي سليمان و مجد الملك داود. ولهذا التزم في هذا الدور من حياته جانب اللين والصفح والعفو مع كل فرد وحتى مع اعدائه الالداء فكان يقول «أحبوا اعداءكم، باركوا لاعنيكم». كل هذا لكي لا يشهدوا عليه زوراً ويوقعوه في ورطة منكرة. فكان يسمع اكثر مما يتكلم. وإذا تكلم لا يسمع صوته. يقول الإنجيل «لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته حتى يخرج الحق إلى النصر» (12 ـ 19 متى) وهو اليوم الذي ينصره الأب على مخالفيه ويستلم فيه كرسي داود. فكان يعفو عن كثير ويصبر على الأذى ويزدري بالجواسيس. وأرادت السلطات الحكومية اغتياله حتى قبل وصوله إلى المحاكم فأرسلت جواسيسها من الفريسيين والكتبة للإيقاع به باسم الكفر بشريعة موسى، فأحس السيد المسيح بذلك وترك المجيء إلى المدن والتزم الإقامة في الجليل. «كان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل لأنه لم يرد ان يتردد في اليهودية لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه» (10 ـ 7 يوحنا)... ولم يسلم من الرقابة وهو في الجليل أيضاً، فكانوا يأتونه للسؤال في أمر من أمور الشريعة ليتخذوها حجة عليه وهو يعلم قصدهم. فكان يلتزم جانب الاختفاء وعدم الظهور والحذر من الوقوع بأيدي هؤلاء الجواسيس والمأجورين والكهنة وأصحاب الثروات والرقباء.

ومع هذه الشدة التي كان تحت تأثيرها، كان يؤدي واجباته الدينية على أكمل وجه. فكان مواظباً على نشر تعاليمه، ومعالجة المرضى، ومطاردة الشياطين، وإظهار المعجزات، والقيام بما تتطلبه نبوته ورسالته، ودعوة اليهود إلى تهذيب الأخلاق والتوبة والتمسك بروح الشريعة لا بأشكالها ومراسيمها... ولو سراً لا جهراً. وكان يوصي بكتمان آياته ومعجزاته وأعماله وأقواله. وإذا ما اصطدم مع الفريسيين والكتبة ينقلب من صورة الحليم الهادي إلى صورة الغضوب الثائر فيعطيهم الأجوبة المسكتة المعقولة ويناهضهم بتقاليدهم ويهاجمهم بشريعتهم ويسكتهم ويكبتهم ولا يبالي.

5 ـ ولما قال السيد المسيح لصبية، وكانت في حالة اغماء وظنوا أنها ميتة «يا صبية قومي فقامت الصبية» (9 ـ 25 متى)، اتهموه بأنه يحيي الموتى بقوة سحرية فقالوا عنه «إنه يخرج الشياطين بقوة بعلزبول رئيس الشياطين» (12 ـ 26 متى)، ويضلل الناس بأقواله وأعماله فأرادوا اتخاذها حجة عليه، وأرادوا مسكه بتهمة أنه ساحر افاك مضل. «وتشاوروا عليه لكي يهلكوه» فتخلص منهم بعد جهد جهيد، وأيقن أنه مطارد في كل مكان، فخاب امله في هذا الشعب المتمرد، وقنط من هدايته ويئس من إيمانه، فلم يبق له إلا الإنزواء في محل مجهول بعيداً عن الأنظار، والاكتفاء بتعليم تلاميذه، وتهيئتهم ليقوموا من بعده بنشر دعوته.

فكان قد اخذ الحذر منه مأخذه وترك الذهاب إلى اورشليم تحت هذه الظروف القاسية «لأن

اليهود كانوا يطلبون ان يقتلوه» (7 ـ 1 يوحنا)، ولئلا يصاب بمكروه ويناله أذى قبل وقته. وهو في هذه الحالة من اليأس والقنوط قال له اخوته... «انتقل من هنا واذهب إلى اليهودية لكي يرى تلاميذك أيضاً اعمالك التي تعمل لأنه ليس أحد يعمل شيئاً في الخفاء وهو يريد أن يكون علانية... فأظهر نفسك للعالم.. لأن اخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به. فقال لهم يسوع ان وقتي لم يحضر بعد. انا لست اصعد بعد لأن وقتي لم يكمل. ومكث في الجليل» (7 ـ 2 يوحنا) وأحجم عن الذهاب إلى اورشليم.

6 ـ ولما اقترب عيد الفصح «وعلم ان اخوته قد صعدوا، حينئذ صعد هو أيضاً إلى العيد لا ظاهراً بل كأنه في الخفاء» (7 ـ 10 يوحنا). وفي منتصف العيد، ثارت فيه ثائرة النبوة ولم يطق صبراً، فدخل في جدال عنيف مع الكهنة وخطب في اليوم الأخير من العيد في الهيكل وصاح قائلاً «ان عطش احد فليأت إلي ويشرب. من آمن بي تجري في بطنه أنهار ماء حي» (3 ـ 37 يوحنا). فآمن به من آمن، وجحده بمدعياته من جحد، وقال البعض «اليس هذا هو الذي يطلبون أن يقتلوه» (7 ـ 25 يوحنا). وحدث «انشقاق في الجمع لسببه» (7 ـ 43). ومضى السيد المسيح إلى جبل الزيتون.

وكان السيد المسيح قد ايقن ان في عنقه رسالة إلهية لا بد أن يؤديها مهما كانت الظروف والأحوال، فعاد إلى اورشليم مرة أخرى وصعد الى الهيكل واجتمع حوله الشعب وجلس يخطب ويعلم ويكرز. فأحاطته الجواسيس والرقباء فكانوا يسمعون اقواله ويترقبون زلاته... ولما لم يجدوا في اقواله وتعاليمه ما يستوجب إدانته، تقدموا إليه بزانية «ليجربوه لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه» (8 ـ 6 يوحنا)، فقال كلمته المشهورة «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر»... وبعد ان انفضوا قال لها «ولا انا ادينك» (8 ـ 11 يوحنا) «اذهبي ولا تخطئي أيضاً».

فكان السيد المسيح بهذا الحكم قد كسب المعركة، وانخذلت الجواسيس فتفرقوا يمنة ويسرة للبحث عن مسألة أخرى. فتجلد السيد المسيح وصاح قائلاً: «انا هو نور العالم، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (8 ـ 13). فاجتمع الفريسيون وقالوا له مستهزئين مستهترين: «انت تشهد لنفسك» فقال لهم: «أليس شهادة رجلين حق... انا هو الشاهد لنفسي ويشهد لي الأب الذي أرسلني» (7 ـ 18 يوحنا). فبهتوا من هذا الجواب، ولما لم يعثروا على كلمة منه تستوجب سوقه إلى المحاكم، أرادوا الهجوم عليه بتهمة التجديف والكفر، فقال مدافعاً عن نفسه «لماذا تطلبون أن تقتلوني»، قالوا له: «ألسنا نقول حسناً انك سامري وبك شيطان» (8 ـ 48) إلا أنه في هذا اليوم أيضاً لم ينله أحد بأذى.

7 ـ وكان قد نشأ عن الآيات العظيمة التي فعلها يسوع ان انقسم الشعب إلى عدة اقسام، فريق قال ان يسوع هو الله، قد جاء إلى العالم؛ وقال فريق آخر كلا بل هو ابن الله؛ وقال آخرون كلا بما أن ليس لله شبه بشري، فلذلك لا يلد ولا يولد إنما يسوع الناصري نبي من أنبياء بني إسرائيل. وأما الكهان ورجال الدين فقالوا عنه انه مضل أفّاك كذاب يستحق القتل والصلب.

8 ـ ولما لم تجد السلطات السياسية ما يستوجب ادانته من الوجهة الشرعية، قررت اغتياله خفية عندما تسنح الفرص، وأوصت جواسيسها بذلك، فكان على حذر في حركاته واقواله. لذلك كان يوصي الذين

شفاهم من امراضهم أن لا يقولوا عنه شيئاً أبداً، ويؤكد لتلاميذه ان لا يعلنوا عن اعماله ومعجزاته إلا بعد أن يرتفع ابن الإنسان إلى السماء. وقد بلغ به الحذر والتكتم ان أوصى تلاميذه بأن لا يذكروا لأحد انه المسيح «اوصى تلاميذه ان لا يقولوا لأحد أنه يسوع المسيح» (16 ـ 20 مرقس). ولم يأتمن حتى من الذين يؤمنون به وبنبوته وبرسالته «لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه لأنه كان يعرف الجميع» (2 ـ 24 يوحنا). ومع هذا الحذر الشديد، والتيقظ من حركات الرقباء والجواسيس، ومن الوقوع في مخالفة زمنية، لم يفتر السيد المسيح لحظة عن اظهار معجزاته وعن تبليغ رسالات ربه. فكان يبرىء المرضى حتى في السبوت، رغم معارضة المعارضين المتعصبين. فقد قال للاعضب مد يدك فمدها. وكان ذلك يوم السبت فأراد الفريسيون الهجوم عليه وقتله لخرقه حرمة السبت فقال لهم «من منكم يسقط حماره أو ثوره في بئر ولا ينشله حالاً في يوم السبت» (14 ـ 5 لوقا). فتركهم وذهب لسبيله «فلما خرج الفريسيون تشاوروا عليه لكي يهلكوه فلما علم يسوع انصرف من هناك» (12 ـ 14 متى). وكان قد اظهر مرة ما يدل على عزمه ونواياه فيما لو ساعده الحظ ونجح في مهمته التي اخذها على عاتقه فقال «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً». قال لوقا عنها «جئت لألقي ناراً على الأرض» (12 ـ 49). وزاد متى على تلك الآية القوية الدالة على الحزم والعزم «فاني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها... وأعداء الإنسان أهل بيته. من احب أباً وأماً أكثر مني فلا يستحقني. ومن أحب ابناً وابنة اكثر مني فلا يستحقني (10 ـ 37).

من المحقق ان القصد من هذا التفريق بين افراد العائلة الواحدة هو بين الذين يقبلون التعاليم المسيحية وبين الذين لا يقبلونها من أهل البيت الواحد. فترك السيد المسيح اورشليم وهي تتلاطم في موجات الخضوع والخنوع وتتهاوى في ظلمات الحواشي والتفسيرات متوجهاً إلى كفرناحوم يائساً من إيمان هذا الشعب.

9 ـ كان قد أرسل يوحنا المعمدان من الحبس تلاميذه لحثه على العمل السريع والقيام بالمهمة المقررة بينهما فسألوه قائلين «أأنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟» فاهتز طرباً لهذا السؤال وقال لهما: «اذهبا وأخبرا يوحنا ما تسمعان وتنظران... العميان يبصرون والعرج يمشون والموتى يقومون»... (2 ـ 11 متى). أفلم يكن هذا السؤال اقراراً نهائياً وتصديقاً قاطعاً من يوحنا بمسيحيته. ألم يعترف يوحنا سابقاً ولاحقاً ولو ضمنا أنه المسيح المنتظر؟ أليس هذا إشارة من الرب؟ ألم يقل يوحنا الذي يأتي بعدي صار قدامي؟ ألم يقل اني لست المسيح بل إني مرسل أمامه؟ ألم يقل هوذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم؟ ألم يمتنع يوحنا من التعميد؟

لقد شغلت هذه الأسئلة أفكار السيد المسيح مدة من الزمن ولم تزل توقظ فيه روح المقاومة والوثبة والظهور.

10 ـ وبينما هو في هذا المعترك النفساني، إذ وصله خبر إعدام رفيقه وزميله يوحنا المعمدان لأسباب تافهة مضحكة، فاقشعر جلده وضاقت انفاسه. ولعل رئيس الربع السفاك سيسأل عنه أيضاً ليلحقه بزميله يوحنا فاضطر إلى الهجرة ليختفي في بلاد الرجس والشرك فراراً من مضطهديه وانصرف

بسفينة إلى ما وراء النهر «فلما سمع يسوع انصرف من هناك في سفينة إلى موضع خلاء منفرداً» (14 ـ 13 متى)، يناجي ربه ويستغيث من هذا الظلم الصارخ للأنبياء والمرسلين وقلبه يحدثه أن مصيره سيكون كمصير يوحنا المعمدان لا محالة ان عاجلاً أو آجلاً. وتبعه تلاميذه المذعورون من الناصرة إلى كفرناحوم وإلى ما وراء الأردن... إلى بلاد الرجس والأوثان فوصلوا جميعاً إلى أرض جينسارت ثم منها إلى صور وصيدا وثم إلى جانب بحر الجليل وإلى مدينة نفتاليم وزبولون تخلصاً من بلد كهذا البلد، رخصت فيه الأرواح، وأصبحت بلا ثمن، يتعلق بقاؤها على إشارة تصدر من الحاكم العام، حقاً أم باطلاً، وعدلاً أم ظلماً. ومع وجوده في محل آمن كان السيد المسيح يحس دائماً بالخطر المحدق به، فكان يكرر في كل مناسبة قوله: «ان ابن الإنسان يسلم إلى الناس ويقتل ويقوم في اليوم الثالث».

وفي الحقيقة كانت كيفية قتل المعمدان مجلبة لخطر عظيم على يسوع لأن خصوم المعمدان قد يستعينون بهيرودوس ليخلصهم من يسوع أيضاً. وكان من صلاحية الوالي الروماني قتل أي إنسان كان من أفراد المحمية الفلسطينية بمجرد اعتقاده أنه خطر على سلامة الدولة أو لأي سبب آخر. وحتى بدون سبب جوهري «ألست تعلم أن لي سلطاناً أن اصلبك وسلطاناً ان اطلقك» (19 ـ 10 يوحنا). وكانت الراقصة هيروديا قد ظفرت برأس يوحنا المعمدان ثمناً لهزها منكبيها وخفقها وركيها ورجّها بطنها وثدييها امام الوالي الثمل هيرودوس وصحبه... مما يستبان منه أن أرواح اليهود لم تكن لها قيمة بنظر الرومانيين. فكان من صلاحية الحكام السياسيين ورجال الاستعمار إعدام أي شخص يظهر لهم أنه يطلب الاصلاح ويتذمر من حكم الحكام وظلم الولاة والاحتلال العسكري ويظاهر الدولة والقوانين ويسوق الناس الى التمرّد والعصيان ضد السلطان الروماني وتحت ستار الدين المصطنع. فكان من حق السيد المسيح ان يذهب بعيداً عن المدن اليهودية خارجاً عن نطاق حكم الملك بيلاطس والوالي الخائن هيرودوس حفظاً لحياته من هؤلاء الثعالب.

وبينما هو في قيصرية فيلبس في بلد المشركين بعيداً عن أهله، أراد أن يمتحن تلاميذه ويقوي فيهم روح الإيمان فقال لهم: «من يقول الناس أني أنا ابن الإنسان»؟ فقالوا: «قوم يوحنا المعمدان، وآخرون ارميا أو واحد من الأنبياء». فقال لهم «وانتم من تقولون أني أنا». فأجاب سمعان بطرس وقال «أنت هو المسيح ابن الله الحي» (16 ـ 17 متى). فتهللت اسارير السيد المسيح وابتسم فرحاً وهو مغتبط بهذا الاسم والعنوان الجديد ومسرور من قوة إيمان تلاميذه، فباركه وقال له: «وانا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات» (16 ـ 18 متى). وبعد ان باركه «اوصى تلاميذه ان لا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح» (6 ـ 20 متى) لئلا يؤخذ بهذا الاسم قبل وقته.

11 ـ ومنذ أن اعطى له تلاميذه هذا العنوان الجديد حصل تبدل عميق في احواله الروحية وميوله وأحلامه... فبينما كان قد أوصى تلاميذه قبل لحظة ان لا يقولوا لأحد إنه المسيح، لئلا يؤخذ به قبل وقته، وبينما كان يتحاشى التدخل في أمور الامبراطورية الرومانية ولم يتكلم بكلمة واحدة ضد رومية

وضد هيرودس والإدارة المحلية وضد كل احد ولا يمس شعور فرد من الأفراد، وكان يتخفى في القرى ورؤوس الجبال تخلصاً من تعقبات السلطات الزمنية، ولا يتكلم علناً بكلمة واحدة مستهجنة ولم يرفع يده لضرب احد، وبينما كان يتجنب غاية التجنب مواجهة رؤوساء الكهنة و الظهور بمظهر المصلح الديني، والادعاء بالنبوة والرسالة إلا مكرهاً حتى يحين الوقت الذي ينتظره... إذ هو ينتابه بغتة حب الظهور على مسرح الحياة، والذهاب إلى اليهودية وحتى إلى اورشليم مرة أخرى لمنازلة الرؤساء والكهنة، ومقارعة الصدوقيين والفريسيين، وتحدي الرقباء والجواسيس «منذ ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه أنه ينبغي أن يذهب إلى اورشليم» (16 ـ 21 متى)، ليعظ ويكافح ويبلغ رسالات ربه إلى الشعب ويعلن مسيحيته وملوكيته للعالم، ويبشر بملكوت الله ويفتح اورشليم أولاً بالروح وثم بكلمة الله مهما كانت الظروف والأحوال ومهما كلف الأمر، ولو كان في ذلك فداء بنفسه. «فانتهره سمعان بطرس قائلاً حاشاك يا رب لا يكون لك هذا» (16 ـ 22 متى). ونصحه بلزوم المكوث بمحله الأمين حرصاً على حياته ومنعه من الذهاب إلى معقل الكهنة والصدوقيين والفريسيين والكتبة والمرائين والجواسيس. فلم يلتفت السيد المسيح إلى نصيحة تلميذه البار، ذلك التلميذ الذي قبل هنيهة، كان أول من سماه «انت المسيح ابن الله الحي»، وقال له بعنف وغلظة «اذهب عني يا شيطان انت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (16 ـ 21 متى). وعزم السفر إلى اورشليم للقيام بالمهمة التي آمن بها واعتقد بصحتها، وانه جاء إلى هذه الدنيا من اجلها ولو كان دونها الموت الزؤام. وقال لتلاميذه بقوة وعزم وكأنه يريد أن يذهب وحده معتمداً على ربه الذي لا محالة سينصره ويهزم اعداءه «ان أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني» (16 ـ 24 متى). فقالوا له «يا معلم لا تذهب إلى اليهودية لأننا نعلم ان الفريسيين قد ائتمروا مع رئيس الكهنة بك فلا تلقِ نفسك بالتهلكه». فقال لهم السيد المسيح «فليفعلوا كل ما يرغبون فاني لا اخافهم بل اخاف الله». ومشى نحو اورشليم بعزم ثابت غير ملتفت إلى عاقبة زميله يوحنا المعمدان من قبله، وغير ملتفت إلى ما اصاب تلميذه البار من انكسار لوسمه بالشيطان، وإلى تلاميذه ان جاؤوا أو احجموا معتقداً أن الأنبياء الذين جاؤوا قبله لم يهابوا الملوك، ولم يحاذروا بطش المخالفين. وهو يعلم ما ابتلي به الأنبياء إبراهيم وموسى وأيوب ويوحنا... من قبله، فلم يكن، هو دونهم في إداء رسالته، والقيام بواجبات مهمته الدينية والسياسية.

كان السيد المسيح بهذه الحركة الجريئة قد ترك حصنه ومعقله المعتصم به في بلاد الشرك في زبولون وفي قيصرية فيلبس، واتجه نحو خصومه عن علم وروية وإدراك، وقد احس بنفسه حافزاً يدفعه إلى أداء رسالته الإلهية. فلا بد أن يؤديها مهما كلف الأمر. لذلك انقلب بغتة من حالة المعلم المرشد المبشر، إلى حالة النبي المرسل والقائد الروحي، ومن ابن الإنسان المتواضع الحليم الوديع، إلى ابن الله العظيم الساكن في السماء، مع علمه أنه سيواجه ظلماً وغدراً وخيانة وسخرية من اعدائه. ومع علمه أنه سيجلد ويقتل ويصلب، إلا أنه لم يلتفت إلى هذه كلها، فمشى إلى الأمام بشجاعة منقطعة النظير ولحقه تلاميذه دون أن يحمل احد منهم صليبه أو ينكر نفسه. ولما التفت إليهم ورآهم يمشون وراءه قال لهم كالواثق من عمله «ها نحن صاعدون إلى اورشليم، وسيتم كل ما هو مكتوب عن

ابن الإنسان، لأنه يسلم إلى الأمم ويستهزأ به، ويشتم ويتفل عليه ويجلدونه ويقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم» (18 ـ 31 لوقا).

12 ـ من هو المسيح المنتظر عند اليهود؟ هو النبي المرسل والملك الجبار القائد الزمني العظيم من نسل الملك داود والمشمول بعناية الإله «يهوه» يمسحه الشعب بالزيت المقدس فيصبح مسيحاً وملكاً زمنياً ـ وليس روحانياً ـ على جميع إسرائيل. فيكون كداود وسليمان وشاؤول له الملك والمجد، وسلطانه سلطان أبدي لا يزول وجميع الأمم له يسجدون. ولما لم يجد بنو إسرائيل هذه الصفات التي ينتظرونها في السيد يسوع المسيح وشاهدوا أن تعاليمه كلها روحانية، لم يقتنعوا بأنه المسيح المنتظر الذي بشر به الأنبياء.. ولذلك رفضوه ولم يقبلوه، لاعتقادهم ان شريعة المسيح المنتظر هي شريعة موسى نفسها، وقد حل عليه روح الله. وانه محمول بملكوت الله وهو الذي يعيد إليهم مجدهم الغابر وشرفهم المضاع، بقوة إلهية وبقدرة ربانية. وأما السيد المسيح فقد أحس في نفسه انه حائز لجميع هذه الصفات، والقدرة على تخليص الشعب اليهودي من مخالب الرومان، بالوعظ والارشاد والمناظرة والاقناع والمكالمة والمحاججة أولاً وبالسيف مؤخراً. فكان قد وضع نصب عينيه قول النبي اشعيا «ويخرج قضيب من جذع يسي وينبت غصن من أصوله ويحل عليه من روح الرب...» ورؤيا النبي دانيال «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان اتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه امامه فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة... سلطانه سلطان أبدي لن يزول وملكوته ما لا ينقرض» (7 ـ 13 دانيال).

وفي رؤيا أخرى «ملكوته ملكوت أبدي وجميع السلاطين اياه يعبدون ويطيعون» (7 ـ 28 دانيال). وفي رؤيا ثالثة: «فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد اورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون اسبوعاً وبعد اثنين وستين أسبوعاً يقطع المسيح» (9 ـ 25 دانيال). كل هذه التنبؤات لم تزل تتمثل امامه ويرى نفسه أنه هو المقصود بهذه البشارات، وهو أحق بها من غيره. وكذلك بشرى النبي زكريا: «ابتهجي يا ابنة صهيون هو ذا ملكك يأتي إليك هو عادل منصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن اتان ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى اقاصي الأرض» (9 ـ 9 زكريا).. تشغل افكاره وكذلك كلمات النبي يوحنا المعمدان اثناء تعميده الناس في الأردن عند قوله «اني انا لست المسيح بل أني مرسل امامه» (2 ـ 28 يوحنا). وقوله «سيأتي من هو اقوى مني» (3 ـ 11 متى). والكلمات التي كان قد ذكرها وبشر بها وأيّدها من قبل النبي ملاخي في قوله على لسان الرب: «هانذا ارسل ملاكي فيهيّىء الطريق أمامي» (3 ـ 1)، تستحثه وتستعجله. وسؤال يوحنا: «أأنت الآتي أم ننتظر آخر؟».. تقلق باله. وصوت الوحي من السماء «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (3 ـ 17 متى) يشدد من عزمه. وقد اعترف تلاميذه أيضاً بمسيحيته في قولهم: «انت هو المسيح ابن الله الحي»... فلم يبق إلا الاقدام والاندفاع إلى الأمام.

13 ـ شرع في اثناء الطريق وفي مدينته الناصرة بالبشارة فكان يشفي المرضى ويحيي الموتى ويظهر المعجزات الكثيرة... ومما قاله «أنا خبز الحياة... من يقبل إليّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً... لأني قد نزلت من السماء... والخبز هو جسدي... ان كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة

أبدية، وانا اقيمه في اليوم الأخير» (6 ـ 34 يوحنا)... فلم تثمر هذه الموعظات ولم تؤثر هذه البشارات والكلمات في الشعب اليهودي. إنما بالعكس كانت السبب في ظهور الشغب والتذمر بين طبقات الجماهير لأنه قال «انا خبز الحياة الذي نزل من السماء» فكانوا يقولون «أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه، فكيف يقول اني نزلت من السماء» (6 ـ 41 يوحنا). وذكرها متى في انجيله «أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم وأخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا؟ أو ليس أخواته جميعهن عندنا؟ فمن اين لهذا هذه كلها» (13 ـ 55). وذكرها مرقس في انجيله «لما شاهد اليهود الحكمة والقوة التي تجري على يده قالوا: أليس هذا هو النجار؟ أليست أمه تدعى مريم واخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا؟ أو ليس اخواته ههنا عندنا؟» (6 ـ 2). وذكرها لوقا أيضاً في انجيله «وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه ويقولون أليس هذا ابن يوسف» (4 ـ 22). وأما التلاميذ والجماهير الغفيرة الذين كانوا يمشون معه فقالوا «ان هذا الكلام صعب من يقدر ان يسمعه» (6 ـ 60 يوحنا) وهجروه.

وانتشر خبر مجيئه في اطراف البلاد وهو يعلم ان الجواسيس تتحفز لملاقاته، والفرق الدينية تستعد لمنازلته ورجال رومية تتهيأ للقبض عليه. ويعلم ان هيرودس سيلحقه بيوحنا ساعة ظفره به... ويعلم ان الشعب يعتبره ساحراً فيه شيطان، وانه يخرج الشياطين بقوة بعلزبول رئيس الشياطين... ويعلم ايضاً ان تلاميذه لا يعتمد عليهم، وسينكره منهم اعزهم عليه قبل ان يصيح الديك ثلاث مرات... ويعلم أيضاً ان أحد تلاميذه جاسوس عليه يترقب اعماله ويسجل اقواله ويخبر عنها أعداءه.. ويعلم أن أمه وأخوته يعتبرونه مجذوباً ولم يؤمنوا برسالته «لأن أخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به» (7 ـ 2 يوحنا)، ولم يصنعوا مشيئة أبيه «من هم أخي وأختي وأمي؟ ان من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي» (12 ـ 50 متى). فهو إذن وحيد في هذا العالم لا معين له سوى إيمانه القوي المكين بالآب فلا بد أنه سينجده في آخر الأمر بقوة روحانية، أو بسرب من الملائكة، وسيخلصه من مخالب النسور وأنياب الثعالب ويرفعه إلى السماء.

وبهذا الإيمان والاعتقاد الراسخين قبل النزال والكفاح والصراع مع مخاصميه وأعدائه كافة. فاما إزالة الحيف، وقهر الفجار، ورفع الظلم، وفتح قريب ونصر عاجل، واستعادة ملوكية إسرائيل وهو وارث عرش داود وسليل الملك سليمان (عذرياً) وهو أمير البيت المالك، وهو مطمح انظار اليهود في المسيح، واما مصير كمصير الأنبياء الذين سبقوه... وعاقبة كعاقبة يوحنا المعمدان وشهادة في سبيل الأب العظيم. وقد أيقن في الشق الثاني لعلمه بفشل الشق الأول مع هؤلاء الغلاظ الرقاب، وكان قد وضع نصب عينيه الإهانة والجلد والقتل والصلب، فكان بانتظار تلك الساعة الرهيبة على مر الدقائق والساعات. وهذا حال الأقوياء بالروح والضعفاء بالمادة من اصحاب الديانات والمذاهب والأفكار الخاصة، وفي كل امة شهيد على هذه الشاكلة[1]...

(1) كان الحلاج دائماً يطوف في الأسواق وينادي: اعلموا ان الله قد اباح لكم دمي فاقتلوني تؤجروا وأستريح. وهذا ليس معناه كما أراد أن يفسره البعض انه القى نفسه بيده في التهلكة إنما شهادة في سبيل الأب الإله، وتنفيذاً لإرادته الأزلية ومشيئته الربانية (26 ـ 43 متى).

14 ـ وسارت القافلة من تخوم اليهودية نحو اورشليم عاصمة الدولة الدينية. تقول الأناجيل إنه أرسل أمامه سبعين شخصاً مبشرين ومنذرين وأوصاهم أن يكرزوا بقرب ملكوت الله، ومعالجة المرضى. والتفت إلى تلاميذه وهو سائر وقال «كل شيء قد دفع إلي من أبي... وليس أحد يعرف من هو الابن إلا الآب ولا من هو الآب إلا الابن». فنظر التلاميذ بعضهم إلى بعض متعجبين مستفسرين عن هذه المعرفة التي لم يفهموا لها معنى، فقال بعضهم: إذن لا احد يعرفها إلى الأبد! وقال آخرون: إذا كان كل شيء قد دفع إليه من أبيه فقد زال كل محذور ولم يبق الا استلام قدس الأقداس والهيكل واورشليم والمملكة اليهودية.

واجتاز في مدن كثيرة وقرى عديدة، يعلّم ويشفي المرضى بطريقه نحو اورشليم. وعلم بمسيرته هيرودس السفاك قاتل النبي يوحنا المعمدان... فدبر مكيدة لقتله قبل وصوله إلى اورشليم. «في ذلك الوقت سمع هيرودوس رئيس الربع خبر يسوع فقال لغلمانه هذا يوحنا المعمدان قد قام من الأموات، ولذلك تعمل به القوات» (14 ـ 1 متى). فأخبره بعض الفريسيين بنوايا هيرودوس وقالوا له «اخرج واذهب من ها هنا لأن هيرودوس يريد أن يقتلك». فقال لهم «قولوا لهذا الثعلب أنا اخرج الشياطين وأشفي المرضى اليوم وغداً وفي اليوم الثالث اكمل» (3 ـ 31 لوقا).

15 ـ واعتقد من معه من تلاميذه ان كل شيء قد دفع إليه من أبيه، فكانوا يظنون أن ملكوت الله سيظهر عتيداً لمعاونتهم عند وصولهم أبواب اورشليم، فيقاتل ويحارب عنهم، ويحطم اعداءهم، فيستلمون اورشليم غنيمة باردة، ويحكمونها بالروح أولاً، وبالسيف ثانياً بقوة الملكوت «وإذ كانوا قريباً من اورشليم وكانوا يظنون ان ملكوت الله عتيد ان يظهر في الحال» (19 ـ 11 لوقا). سأله الفريسيون متى يأتي ملكوت الله؟ أجابهم وقال «ان ملكوت الله لا يأتي بالانتظار والمراقبة ولا يقال هو ذا ههنا أو هو ذا هناك لأن ملكوت الله هو داخلكم...». وفيه إشارة عن لزوم الاعتماد على النفس وعدم انتظار نزوله من السماء. فلم يكن هذا الجواب والايضاح مما يرضي التلاميذ فأسقط في أيديهم. وعند ذاك سأله بطرس «وقال له ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا يكون لنا؟ فقال لهم يسوع الحق اقول لكم انكم انتم الذين تبعتموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون انتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون اسباط إسرائيل الاثني عشر» (19 ـ 27 متى). فسجل الاسخريوطي هذه الكلمات على صفحات قلبه القذر وأسرع بتبليغها الى الجهات المختصّة في دائرة الاستخبارات الرومانية.

ولما اقترب الحفل من اورشليم... اخذ السيد المسيح الاثني عشر تلميذاً على انفراد وقال لهم «ها نحن صاعدون إلى اورشليم وابن الإنسان يسلّم إلى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت... وفي اليوم الثالث يقوم» (20 ـ 18 متى). وهي من المسائل التي كانت تقلق باله وقد وضعها نصب عينيه دوماً. ولما كان في جبل الزيتون ارسل السيد المسيح اثنين من تلاميذه إلى قرية مجاورة وقال لهما تجدان جحشاً مربوطاً فحلاه وأتيا به وقولا لصاحبه إن الرب محتاج إليه. «كان هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل قولوا لابنه صهيون هو ذا ملكك يأتيك وديعاً راكباً على اتان وجحش ابن آتان» (21 ـ 5 متى). فأتيا به إلى يسوع وطرحا ثيابهما عليه وأركبا يسوع المسيح وسار السيد المسيح كفاتح

روحي نحو اورشليم ونظر إلى اورشليم وبكى (19 ـ 41 لوقا). والله وحده يعلم ما كان يدور في خلده لما بكى.

16 ـ وصل الموكب أبواب اورشليم واقتحمها، وكان مكوناً من السيد المسيح وهو راكب جحش اتان وحوله تلاميذه يحملون اغصاناً من الشجر، وينشدون الأناشيد، ويهتفون ويصرخون «اوصنا (المجد لله) هللوليا (سبحان لله) مبارك الآتي باسم الرب مباركة مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب اوصنا في الأعالي» (11 ـ 10 مرقس). ولما دخل السوق بطريقه إلى الهيكل، فزعت السلطات الرومانية من هذا النشيد، وارتجت المدينة، وتطلع الناس إلى هذا النبي الجديد الراكب جحش اتان كما هو مكتوب عنه في اسفار الأنبياء... وعلت الضوضاء كلما سار الموكب واجتمع حوله خلق كثير للاستطلاع، والتلاميذ يصرخون ويلوحون بأغصان الزيتون «مبارك الملك الآتي باسم الرب، سلام في السماء ومجد في الأعالي» (19 ـ 19 لوقا). ويقولون «اوصنا مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل» (12 ـ 13 يوحنا). فلم يحتمل بعض الفريسيين هذه الأناشيد والنداءات فاعترضوا عليه، وقالوا يا معلم انتهر تلاميذك... فقال لهم: «ان سكت هؤلاءِ فالحجارة تصرخ» (19 ـ 40 لوقا). ومشت القافلة غير عابئة بهذا التعرض.

17 ـ وأخيراً دخل يسوع الهيكل، بيت الله، وأول عمل قام به أنه قلب موائد الصيارفة، وأقفاص باعة الحمام، وصرخ قائلاً «مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارة للصوص» (21 ـ 14 متى)... وعلت الضوضاء من هذا التعرض. واختلط الحابل بالنابل، وتفرق التلاميذ شذر مذر، وشرع الأولاد يصرخون... ويهتفون «اوصنا لابن داود» مما استوجب غضب الكهنة عليهم وعليه. إلا آنه لم يمسه في ذلك اليوم أحد بسوء، فترك الهيكل وذهب إلى بيت عنيا وبات هناك.

وعاد في اليوم الثاني إلى الهيكل وجلس للمناظرة والمحاججة فقال مخاطباً الكهنة «ان العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله لأن يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا» (21 ـ 31 متى). وقال «ان الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزواية... وان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل اثماره» (21 ـ 43 متى). فأحاطته جواسيس الهيرودوسيين والفريسيين من كل جانب ليزلوا قدمه بالكلام سواء كان عن الدين ام السياسة، ليكون ذلك حجة لإلقاء القبض عليه قبل ان يلتف حوله الناس ويتفاقم أمره... فتقدموا إليه وقالوا يا معلم نعلم انك صادق ولا تبالي بأحد فقل أيجوز أن تعطى الجزية ليقصر أم لا؟ وهو سؤال ديني سياسي على غاية من الأهمية والخطورة في مثل هذه الحالة التي هو فيها، فعلم يسوع خبثهم وما انطوت عليه جوانحهم من الحقد والكيد وانهم يريدون اغراءه واغواءه فتوريطه بكلام يأخذونه به، فقال لهم: «لمن هذه الصورة فوق الدينار؟» قالوا لقيصر، قال: «اعطوا إذن لقيصر ما لقيصر وما لله لله». وهي من الأجوبة المفحمة. فانصرفوا عنه بخزي وعار وخجل وشنار.

وجاءه الجواسيس الصدوقيون، وهؤلاء لا يعترفون بقيامة الأموات ولا بالحشر والنشر والدينونة، ليصطادوه بكلمة تخالف شريعة موسى، فيتخذوها حجة عليه، فقالوا له: «يا معلم قال موسى: ان مات احد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويقيم نسلاً لأخيه. فكان سبعة أخوة وتزوج

الأول ومات وإذ لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه وكذلك الثالث إلى السبعة ثم ماتت المرأة أيضاً. ففي القيامة لمن من السبعة تكون زوجة؟». فقال السيد المسيح فوراً «انهم يوم القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء» (22 ـ 29 متى). وبهذا الجواب المسكت ألقمهم حجراً فانسحبوا من أمامه...

وسأله احد الناموسيين «يا معلم أي وصية هي العظمى في الناموس؟». فقال له «تحب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى العظمى... والثانية تحب قريبك كنفسك.. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء» (22 ـ 36 متى). فلم يكن في هذه الأجوبة المسكتة أيضاً ما يستوجب ادانته، فقرر الكهنة التريث والانتظار اياماً أخر، وإفساح المجال له في الكلام اكثر فأكثر، وعدم استفزازه اثناء المحاورات، حتى يقع في الشرك، ولا بد انه واقع لا محالة. وانفضوا من حوله حانقين عليه.

ولما صعد الهيكل في اليوم الثالث، كان أكثر جرأة من ذي قبل وقد انقلب من المناظر والمحاجج والمرشد إلى المهاجم وإلى المتعرض وكان يتكلم بلهجة السيد والآمر فنازله الكهنة والصدوقيون والفريسيون والكتبة ورؤساء الدين كافة من دون استثناء وهاجمهم هجوماً عنيفاً... فكان يخاطبهم أثناء وعظه «ويل لكم أيها الكتبة.. والفريسيون المراؤون... ويل لكم أيها القادة العميان... ويل لكم أيها الجهال والعميان ويل لكم أيها المراؤون... ويل لكم أيها الحيات أولاد الأفاعي» (13 ـ 23 ـ 13 متى). وقال لهم أخيراً «ها انا أرسل اليكم انبياء وحمكاء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة لكي يأتي عليك كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل إلى دم زكريا بن يرخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح... الحق اقول لكم ان هذا كله يأتي على هذا الجيل» (23 ـ 33 متى)[1]. فكانت هذه التهجمات الجريئة والكلمات القارصة المؤلمة قد استوجبت غضب الكهنة ورؤساء الهيكل عليه إلا أنهم كظموا غيظهم.

18 ـ وكان الكهنة قد التزموا، عن قصد، جانب الصمت والتريث، ولم يعارضوه في اقواله إلا بقصد مداعبته لإيقاعه في ورطة.. لذلك رأى الميدان أمامه واسعاً ليس فيه من مبارز قوي يخشى جانبه فشرع يضرب لهم الأمثال، ويذهب في امثلته كل مذهب، في مثل الكرامين وفي مثل صانع العرس لابنه وغيره من الأمثال المتداخلة «وهي محررة تفصيلاً في الأناجيل»، ثم ردد نظراته إلى الهيكل ودارها إلى اورشليم وتنهد وتحسر وقال «يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين كم مرة أردت أن اجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا» (23 ـ 37 متى). وأما الرؤساء، فلم يستطيعوا صبراً فشرعوا يتهامسون في ما بينهم وهم ينظرون إلى تعاليمه وأقواله هذه بعين حمراء... فاعتبروها كفراً بالإله، وتجديفاً بالشريعة، وتحقيراً لهم. ومع عدم وجود ما يؤخذ به شرعاً كانت النية معقودة على قتله والتخلص من تعاليمه، فكان لا بد أولاً من المذاكرة مع الحكام،

(1) حقاً لقد صدقت هذه النبوة كلمة فكلمة. فلم يمضِ بأكثر من 39 سنة أي في عام 71 بعد الميلاد حتى دخل تيطس القائد الروماني اورشليم فاتحاً وقتل رجالها ونساءها وشيبها وشبانها وأولادها وأطفالها كافة ولم يترك في اورشليم منهم نسمة حية.

والاطلاع على آرائهم، واخذ موافقتهم، لإلقاء القبض عليه ومحاكمته. وبدأت المذاكرة سراً بين الطرفين وكان عيد الفصح قريباً.

وقد تفرّس السيّد المسيح في وجوه القوم فرأى ان النجاح الضئيل الذي أحرزه في الهيكل اثناء المناظرة لم يكن بأكثر من سراب زائل، وأن الخطر قد أحاق به من كل جانب، وهو يقرأ المعاني المنطوية في العيون، ويكشف النوايا الكامنة في القلوب، فترك الهيكل كاظماً غيظه وهو على يقين انه قد خسر المعركة، ولم تؤثّر كلماته وأمثاله في قلوب قوم أشد قساوة من الحجارة.. والتفت وراءه فلم ير أحداً من أتباعه وتلاميذه كما كان يتبعه الفلاحون الفقراء والسمّاكون البؤساء والنساء والأطفال.. وذهب الى جبل الزيتون كعادته كسير البال قلق المضجع.

19 ـ ذكرت الأناجيل أنه في اليوم التالي بينما كان جالساً على جبل الزيتون سأله تلاميذه الحيارى في أمره «قل لنا متى يكون هذا وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر» (3 ـ 24 متى) فأجاب يسوع وقال لهم «انظروا لا يضلكم احد فان كثيرين سيأتون باسمي قائلين انا هو المسيح ويضلون كثيرين.. وسيقوم مسحاء كذبة وانبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب.. ها انا قد سبقت وأخبرتكم.. لا تعلمون في اي ساعة يأتي ربّكم.. ومتى جاء ابن الانسان في مجده، وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذ يجلس على كرسي مجده، ويجتمع امامه جميع الشعوب.. ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي ابي، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم.. ثم يقول للذين عن اليسار اذهبوا يا ملاعين الى النار الابدية المعدة لإبليس وملائكته الاصحاح» (24 ـ 25 متى). وبهذه الآيات الانجيلية المسندة الى السيد المسيح يكون قد تنبأ بظهور مسحاء كذبة وأنبياء كذبة، كثيرين في الحال وعقب وفاته فوراً.. وانهم سيظهرون آيات عظيمة، وعجائب باهرة فحذّر تلاميذه منهم وأثبت فيها ايضاً ان ابن الانسان سيكون قاضياً للأموات، وبيده ميزان الاعمال البشرية من خير وشر.. ورب يوم الدينونة والحساب والمتصرف بأبواب النعيم والعذاب.

20 ـ وفي اول يوم عيد الفطر وهم يأكلون.. تنبأ السيد المسيح بعد ان طفح الكيل، ولم يبق في القوس منزع، بأن واحداً من تلاميذه الاثني عشر سيسلمه الى الحكام فقال «الحق أقول لكم ان واحداً منكم يسلمني» (20 ـ 26 متى). وتناول رغيفاً وقسّمه وأعطى تلاميذه وقال لهم «خذوا كلوا هذا هو جسدي وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا» (31 ـ 26 متى). وكان في شك من إخلاص تلاميذه له فقال «كلكم تشكّون فيَّ هذه الليلة» (31 ـ 26 متى). ومضى حزيناً كئيباً الى ضيعة جشيماني وقد استولى عليه الهلع والجزع فترك تلاميذه هناك، واستصحب معه ثلاثة منهم وهم الأكثر إخلاصاً له، وقدّم الى الأمام وكأنّه يحاذر ان ينفرد عن العالم في الظلام الدامس، ويوجس خيفة من بقائه وحده، او من ان يبقى بعيداً عن الأنفاس البشرية.. او انه يريد من يواسيه في ساعة العسرة وفي محنته ويخفّف عنه ويلاته وآلامه واضطراباته فقال بقلب كسير «نفسي حزينة جداً حتى الموت امكثوا هكذا واسهروا معي» (38 ـ 26 متى).

وتجلّت فيه إرادة الحياة، وظهر فيه حبّ البقاء فاستولى عليه الخوف من الموت، شأنه شأن

سائر أحياء العالم، فخرّ على وجهه الى الأرض يناجي ربّه من أعماق قلبه، ويتضرّع إليه بكل جوارحه ان يصرف عنه هذه الميتة، ويخلّصه من أعدائه الأشداء، فقال متوسّلاً «يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ولكن ليس كما أريد انا بل كما تريد انت» (26 ـ 39 متى). وأخيراً قال في تضرعاته «يا ابتاه ان لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس الا ان اشربها فلتكن مشيئتك» (26 ـ 42 متى)... لما فرغ من صلواته وجد تلاميذه نياماً ولم يعبأوا به ولم يهتم بأمره منهم احد... فتبددت احلامه، وضاقت انفاسه، وخارت قواه، فقال لبطرس معاتباً: «اهكذا ما قدرتم ان تسهروا معي ساعة واحدة» (26 ـ 41 متى)!

21 ـ وكانت المذاكرة خلال هذه المدة مستديمة بين الكاهن قيافا والحاكم بيلاطس.. ولما كان قد قتل «ثوداس» المدعي عن نفسه قبل ذلك بقليل بأنه فوق العالمين وانه من روح الإله، ولمطالبته بالاصلاح الديني والسياسي وتفرقت اعوانه البالغة 400 شخص (36 ـ 5 أعمال)، وقتل النبي زكريا بن برخيا بين المذبح وقدس الأقداس (35 ـ 23 متى)، وقتل يهوذا الجليلي بعد فتنته الجامحة (37 ـ 5 اعمال)، وقتل يوحنا المعمدان بشكل مفجع كما مرّ اعلاه لدعوته الناس إلى المعمودية والاغتسال من الذنوب، وكان قتلهم جميعاً سياسياً اكثر مما منه ديني، وحذراً من وقوع الاضطرابات في المحمية الفلسطينية، على يدهم تحت ستار الدين والتعميد والتبشير؛ ولما كان قتل الأنبياء والرؤساء قد يستوجب تذمر الشعب المتدين، وهذا يسوع الناصري زميل يوحنا المعمدان لم يزل سائراً على الطريق نفسها التي سار عليها الأنبياء والمصلحون من قبله، ولم يزل الجمهور المتدين يلتف حوله ويستمع الى نصائحه وإرشاداته ومواعظه، وقد يغوي الناس بآياته ومعجزاته وأعماله، ولم تزل تقارير دائرة الاستخبارات السرية الرومانية تتوالى حول نشاطه وتنقلاته في القرى، واستفزازاته وتحريضاته للجمهور تحت ستار الدين والتبشير بقرب ملكوت الله وادعائه بملوكية إسرائيل، ولم تزل اناشيد تلاميذه عند دخولهم اورشليم «مباركة مملكة ابينا داود الآتية باسم الرب» (11 ـ 10 مرقس)، تخدش المسامع وترن بالآذان وتقضّ المضاجع، فقد قرر البلاط الروماني «ضرورة إلقاء القبض على يسوع الناصري ورفعه من الوجود» كالذين سبقوه من رجال السياسة المتجلببين بجلباب الدين، والمتسترين بستار الأنبياء، ولا قيمة لأرواح اليهود عندهم. ومع هذا كان من الحنكة السياسية ان تودع محاكمة السيد المسيح وإدانته وقتله بين يدي شيوخ الشعب ـ في مجلس السنهدريم ـ اعدائه الالداء وخصومه الاشداء. فهم الذين يلقون عليه القبض وهم الذين يحاكمونه. وهم الذين يصدرون الحكم عليه بالموت... وهم الذين يطالبون الامراء (بيلاطس وهيرودس) ويلتمسون منهما تنفيذ قرارهم فيه ويكون الأمراء بمعزل عن كل لائمة. وهي طريقة سياسية مبتدعة خبيثة نسجت على منوالها الحكومات الاستعمارية كافة فيما بعد. فأوعز الحاكم العام سراً الى قيافا رئيس الكهنة عن موافقته لوضع حد لهجمات المدعي عن نفسه انه المسيح، وانه ملك إسرائيل وانه ابن الله... وقد أقلق مضاجع الحكام وتجاوز على كرامة الرؤساء واهان الكهنة وشيوخ السنهدريم... وأوقع الخلاف بين الفرق الدينية، وجعل الناس شيعاً من مصدق بآياته ومكذب بمدعياته.

فاجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب في دار رئيس الكهنة الأكبر حنانيا وهو والد

الرئيس قيافا وتشاوروا في الطريقة التي يجب مسك يسوع الناصري فيها، وكيفية قتله (26 ـ 1 متى). وخطب قيافا في هذه الجلسة. ومما قاله «خير لنا ان يموت إنسان واحد من الشعب ولا تهلك الأمة كلها» (11 ـ 51 يوحنا). ومنذ ذلك الحين «تشاوروا ليقتلوه» (11 ـ 53 يوحنا). ولما علم السيد المسيح بقرار المجلس اختفى في مدينة افرائم مع تلاميذه (11 ـ 54 يوحنا) فأصدر المجلس قراراً آخر بالتحري عنه «اصدروا أمراً أنه ان اعرف أحد اين هو فليدل عليه» (11 ـ 11 يوحنا).

ومن جهة أخرى اصدروا أمراً إلى جاسوسهم القديم يهوذا الاسخريوطي الاورشليمي للقيام بدوره في التحري عنه، وإلقاء القبض عليه، واحضاره حياً الى دار رئيس الكهنة لمحاكمته... وأخيراً اودع السيد المسيح مقيداً ومخفوراً إلى مجمع الحيات، أولاد الأفاعي، القائلين ليس لنا ملك الا قيصر... المرائين المنافقين... لمحاكمته... فكانوا هم المدعين وهم القضاة وهم المطالبين بتنفيذ حكم الاعدام عليه. فصدر قرارهم بصلبه حتى الموت وحوّل الحكم إلى بيلاطس للتنفيذ.

بذلك انتهت حياة السيد المسيح وله 33 عاماً من العمر، ولم تمتد رسالته لأكثر من ثلاث سنوات، من دون ان يترك كتاباً مخطوطاً، أو كلاماً مقرراً، أو وصية مسجلة. فكان كمن أراد أن يغرس بستاناً في أرض يابسة جرداء، أو ان يبني هيكلاً للرب في ديار الشرك... وقضى نحبه قبل أن يشرع بالغرس أو ان يضع أساس البناء.



الفصل الثالث تعاليم السيد المسيح

1 ـ كان المجتمع الديني اليهودي في الزمن الذي ظهر فيه السيد المسيح مكوناً من عدة طبقات. يأتي في الطليعة المجلس الديني الأعلى ـ سنهدريم، وهو مكوّن من شيوخ البيوتات القديمة يرأسهم الكاهن الأعظم والحبر الأكبر حنانيا. وقد ينوب عنه ابنه قيافا في المسائل الثانوية. فكان من واجباته ملاحظة الأمور الدينية وتقرير القواعد التعبدية وتطبيق الأحكام الشرعية، ومحاكمة المخالفين والملحدين والضالين. ثم تأتي طبقة الكهنة على اختلاف درجاتهم.. ثم طبقة الصدوقيين وهم أرباب الغنى والثروة والجاه والمقام. وهؤلاء يعتبرون بمثابة الأحرار في الدين والسياسة ويتمسكون بأحكام التوراة فقط لا يهمهم غيرها «ويقولون إنه ليس قيامة اموات ولا ملاك ولا روح» (23 ـ 9 اعمال الرسل).. ويأتي بعدهم الفريسيون ومعناها بالعبرية المفروزون عن الشعب... وهم الفقراء والصعاليك والعباد والزهاد، يقفون عند ظاهر الشريعة، ويتبعون أدق التفرعات، ويتمسكون بأوهى التقاليد والعنعنات، ويقرون بقيامة الأموات ووجود الأرواح. ثم يأتي طبقة الكتبة ويقال لهم الناموسيون وخدمة الهيكل، والهيرودوسيون وهم طائفة سياسية بين اليهود تؤيد حكم الملك هيرودوس، والجليليون وهم طائفة دينية وسياسية معاً وكان قائدهم يهودا الجليلي الذي قتل سنة 11 م. لمخالفته أوامر قيصر في احصاء النفوس وقوله ان اليهود ليس لهم ملك غير الله فتفرقت اعوانه. وأخيراً فرقة الآزيين أو الآسينيين وهم من العمال والفلاحين والعطلة والسفلة تأسّست في نحو سنة 200 ق. م. وطريقتهم الاشتراك بالأموال إن قلّت أم كثرت ولكل فرد منهم أن يأخذ له ما يلزمه من مال اخوانه لقضاء حاجته. وتنحصر عبادتهم بتقديس الشمس عند طلوعها، ولا يأكلون لحماً ولا يشربون خمراً، ويبالغون في طهارة اجسادهم ويصومون كثيراً ويحترمون يوم السبت ويقرأون العزائم ويفسرون الاحلام، ويشتغلون بالسحر وكشف المستقبل... وإخراج الشياطين من المرضى ولا يتدخلون في أمور الكهنة والرؤساء... ولا يعارضون الفرق الدينية الأخرى.

فكان الشعب اليهودي بأجمعه تحت زعامة هذه الفرق الدينية متمسكاً بنصوص التوراة وحروفها التي أملاها عليهم عزرا الكاتب بعد سبي بابل والرؤساء من بعده، لا بحكمتها وروحها إنما بنصها ولفظها. وكان الموت جزاء كل من يعمل بما نهى الله عنه، أو يخرق حرمة يوم السبت مثلاً «يكون لكم يوم السابع سبت. كل من يعمل فيه عملاً يقتل. لا تشعلوا ناراً في جميع مساكنكم يوم السبت» (35 ـ 2 خروج). وكان قد رجم النبي موسى شخصاً بالحجارة حتى الموت لأنه احتطب يوم السبت (15 ـ 35 عدد). وقد وضع علماء اليهود وفقهاؤهم كتباً كثيرة تحتوي على تعاليم مرتبكة، تركت الأمة في حيرة من أمرها. وإذا كانت هذه الشريعة الشديدة حينذاك ضرورية لبني إسرائيل فقد أصبح من الواجب تلطيفها وتعديلها في الأزمنة المتأخرة.

في ذلك المعترك الديني ظهر السيد المسيح بتعاليم وتعديلات واكمالات تخالف كل المخالفة ما انطبع عليه الرؤساء والكهنة المحافظون. فكان الفرق شاسعاً بين السيد المسيح الأمير الشاب المتلىء

حماسة وهو يدعو الشعب اليهودي إلى الاتحاد والتآزر لتخليص الأرض المقدسة من لوث زوس وجوبيتر وشرف الأمة من رجس الأجانب... وأرض الوطن من الاحتلال العسكري الروماني وإعادة استقلال البلاد وملوكية إسرائيل وكرسي داود وسليمان وتعديل احكام الشريعة تبعاً لمقتضيات الحال والزمان، وبين الفريسيين المرائين المنافقين جواسيس دولة الاحتلال.. والصدوقيين أصحاب المقامات الرفيعة الذين كانوا يحذرون وعي الأمة واستنارة العامة محافظة على ما بأيديهم من نعمة. وأخيراً رؤساء الكهنة أصحاب الطول والصول... ومن الطبيعي ان يقلدهم الضعفاء والجهلاء والفقراء وسواد الأمة بالفكر والشعور. فأظهر الشعب بمختلف طبقاته العداوة... والبغضاء لذلك الأمير الشاب.. فتألبوا عليه وكذبوه وطعنوا بتعاليمه.

لم يكن السيد المسيح أقل علماً واطلاعاً على احكام التوراة والشريعة وأسفار الأنبياء والوصايا والفرائض وأحكام النكاح والنصوص والعادات والعنعنات من الكهان ورؤساء الدين. إنما يظهر من بعض المعاني الواردة في الأناجيل أنه كان مطلعاً فوق ذلك كله، على الفلسفة اليونانية وسواها من الفلسفات المنتشرة آنذاك كالرواقية والافلاطونية الحديثة وإلهيات فيلون اليهودي الاسكندري، وتاريخ الديانات السابقة والمعاصرة. فكان السيد المسيح قد وضع نصب عينيه أولاً فأولاً مناجزة قادة الأمة وهم الكهنة والعلماء والخواص والأثرياء... ثم القضاء على الصدوقيين والفريسيين والهيرودوسيين... ومن ثم إزالة الطبقات من بين الناس، وجعلهم اخواناً متساوين في الحقوق والواجبات. وكانت طريقته في ذلك كما هي عند فرقة الآزيين احتقار الغنى والحث على التجرد من الدنيا، باعتبار انها السبب في إيجاد الطبقات والفوارق بين الأمة. وهو يعلم ان الكهنة والرؤساء لا يتنازلون عن مقامهم الرفيع قيد شعرة، ويعلم أن المثرين أصحاب الأملاك الواسعة والثروات الضخمة لا يهمهم أمر الشعب شيئاً، وبالعكس فإنهم يتملقون للسلطات الحاكمة، ويرضخون لنيرها ويؤيدون بأموالهم سلطانها ويتغنون بعدلها.. ويطربون لسخائها ويتفانون بحبها... ويتباهون بعظمتها... ويستسهلون كل صعب لإرضائها ولاكتساب عطفها ومودتها. كل هذا لمحافظتهم على نفوذهم ومناصبهم، وعلى اموالهم واملاكهم. وتكون ارواحهم عادة ثمينة عليهم لا يجازفون بها لخير المجتمع. وقد ايقن السيد المسيح ان لا خير في هؤلاء عند حلول الثورات العامة وعند تطهير البلاد من رجس الأجانب. فكان يخاطب الكهنة والفريسيين «أيها المراؤون..». ويقول لأصحاب رؤوس الأموال «ما اعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله» (10 ـ 23 مرقس). وأراد السيد المسيح احلال الروح محل الصور والأشكال المادية.. والحكمة محل العادات والعنعنات. وان لا يكون يوم السبت مثلاً مانعاً لعمل الخير.. وتثبيت الإيمان مكان الرسوم الشكلية، والابتعاد عن الشروح الفقهية والسنن الموضوعة التي لا فائدة ترتجى منها... وحصر العبادة بالقلب والضمير لا بالأعمال الجسمانية والحركات التقليدية. فلم ترق هذه الدساتير والقواعد لعيون اليهود، وأصبح الكهنة والرؤساء والعلماء والخواص وذوو الأموال كافة من مخاصميه وأعدائه.

وقد رأى السيد المسيح بثاقب فكره ان شباب البلاد والصعاليك والفقراء والمهازيل اقرب إلى الثورات العامة ضد الأجانب المحتلين من الأغنياء ومن اصحاب المقاطعات والاملاك. فالانقلابات

السياسية الكبرى لا تقوم إلا بسواعدهم والبلاد لا تتطهر من رجس الأجانب الا بدمائهم، والديانات لا تؤسس إلا ببذل ارواحهم. ولذلك حذا السيد المسيح حذو الآزيين فأخذ من تعاليمهم ما راق له عند تأسيسه ما يمكن تسمته «الاشتراكية المسيحية».

2 ـ ولأجل ان يقوم السيد المسيح بما عزم عليه من الانقلاب السياسي والديني... وإيقاظ الناس من سباتهم... كان أول عمل قام به أنه اظهر ميله نحو الفقراء والمعوزين والملقين، فكان يتودد إليهم ويحنو عليهم ويواسيهم. وكان يعيش مع المساكين والحدادين والنجارين والمشردين والعشارين والآثمين وكل مملق بائس «ويقبل خطاة ويأكل معهم» (15 ـ 3 لوقا).

فالتزم جانب التصوف والتجرد عن الدنيا في هذا الدور من حياته. ولذلك كان من أهم تعاليمه التوبة والاستغفار والإيمان بالبشري واقتراب ملكوت الله. وان افراد الشعب كافة أولاد الله على التساوي لا فرق بين غنيهم ومملقهم وجميعهم أبناء الله واحباؤه واعزاؤه.. وتشجيع الفقر والابتعاد عن كنز المال «لأن العبد لا يمكن ان يعبد سيدين: الله والمال».

وقال مرة لأحد الأثرياء «بع أملاكك واتبعني». وقال لآخر «لا احد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله» (5 ـ 62 لوقا). وخطب مرة في جمع من تلاميذه والذين جاؤوا من اطراف اليهودية فقال... «طوبى لكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله. طوبى لكم ايها الجياع الآن لأنكم ستشبعون.. طوبى لكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون... ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم» (6 ـ 60 لوقا).

وعند مناجزته الأغنياء قال: «يعسر أن يدخل غني في ملكوت السماوات» (9 ـ 23 متى).

وقال: «ان مرور جمل من ثقب ابرة ايسر من أن يدخل غني في ملكوت الله» (19 ـ 24 متى). وقد سبب امثال هذه التبشيرات والبيانات والمواعظ السخط والتذمر بين طبقات الكهنة والصدوقيين فكانوا ينظرون إليه شزراً وبعين حمراء.

وأراد السيد المسيح ان يجرد تلاميذه من متاع الدنيا وشهواتها، لكي لا ينظروا وراءهم وتكون أرواحهم رخيصة عند الايجاب، فقال لبطرس «كل من ترك بيوتاً أو أخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل اسمي يأخذ منه ضعفاً ويرث الحياة الأبدية» (19 ـ 30 متى). لم يكن مصدر هذا التجرد من الأموال والأخوة والأخوات والآباء والأمهات هو الزهد والتقشف كما أراد ان يفهمه المتصوفون في الحياة، ولا جهلا بالأخلاق اليهودية في محبة النفس والأهل وفي جمع المال وادخاره كما أراد أن يفسره البعض من الناس، إنما كمقدمة أولى للوصول إلى مقاصد علوية أخرى بعيدة الغور، وهي تهيئة الناس للنضال ولكسر القيد الأجنبي، ثم الوصول إلى تطهير البلاد من لوث زوس وجوبيتر، وإلى تثبيت عظمة الإله الواحد الساكن في السماء.. في قلوب الناس.

3 ـ وكانت الأهداف التي يرمي إليها السيد المسيح ويحض الناس عليها هي قطع العلاقات مع الأمور الزمنية، حتى اذا ما قرعت القارعة وأزفّت الساعة.. وحلّ اليوم الموعود، تقاطر الناس دون عائق زرافات ووحداناً الى ساحة القتال لتخليص البلاد من رجس الأجانب. وقد جاء في خطبته في الجبل كثير من التعاليم والوصايا، ينظر إليها الزهاد والعباد والكهنة والرهبان والقسس والآباء من الوجهة

التعبدية الروحية... أنها غاية الخيال وأقصى المنال للوصول إلى السعادة الأخروية. ويراها ذوو النظر الصائب البعيد الغور أنها استحضارات تعبدية لليوم الموعود. منها «من أراد ثوبك فاعطه رداءك.. لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض بل اكنزوا في السماء.. لا تهتموا لحياتكم بما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون.. انظروا إلى طيور السماء، أنها لا تزرع ولا تحصد وأبوكم السماوي يقوتها. تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو لا تتعب ولا تغزل.. فلا تهتموا للغد، لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره. لا يقدر أحد ان يخدم سيدين.. الله والمال.. كما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم هكذا بهم. ومن أخطأ اليك فاغفر له ذنبه. وان لا تعرف شمال المتصدق ما تفعله يمينه. وفعل الخير، وإطعام الجياع، وإكساء العراة، وزيارة المرضى وتقديم الصلاة إلى الله، وعدم النظر إلى عيوب الناس. وان لا يتزوج الرجل إلا بامرأة واحدة فقط، ومنع الطلاق إلا لعلة الزنى ... الخ». وهي محررة في الاصحاح الخامس والسادس من انجيل متى.

فلم يكن القصد من طلب الدخول في ملكوت الله هو التزام طريقة الزهد والعبادة والرهبنة كما أراد أن يفهمه بعض القسس والرهبان إنما إعداد المؤمنين للمستقبل ولليوم الرهيب، وتهيئتهم لمقارعة الأسنة والسيوف والفؤوس. ولم يكن خافياً عن اعين السيد المسيح ان تلك الطريقة الصوفية لا ترضي احداً من الناس لا حالاً ولا استقبالاً وبخاصة اليهود عابدو الذهب والمال. انها قد تتعارض مع الميول والغرائز البشرية والاحتياجات الإنسانية والرغبات الدنيوية وربما توصل المتمسكون بها إلى البؤس والشقاء والفقر والاملاق وإلى الاستجداء والخراب والموت.

وبينما كان اليهود ينتظرون المسيح ليأتيهم بملكوت الله من السماء ويخلصهم من الذلة والهوان، ويعيد إليهم ملكهم الغابر ومجدهم الغائر وهم قاعدون.. كان السيد المسيح يقول لهم: «ان ملكوت الله لا يأتي بمراقبة، ولا يقال هو ذا هنا أو هو ذا هناك، لأن ملكوت الله داخلكم» (17 ـ 21 لوقا). فكان قصد السيد المسيح من هذه الموعظة ومن قوله ان ملكوت الله داخلكم، ان اعتدوا بأنفسكم ولا تنتظروا الجنود تنزل عليكم من السماء فتحارب عنكم وتسحق اعداءكم وانتم قاعدون. فلم يفهم اليهود هذا المعنى الغامض، ولم يتمكن السيد المسيح من التصريح لهم علنا بما يتعلق بالأمور الزمنية بأكثر من هذا، وهو يعلم أن الجواسيس قد أحاطت به من كل جانب يتربصون أقواله ويتوقعون زلاته ليتخذوها حجة عليه. ولما كانت هذه التعاليم وأمثالها تخالف كل المخالفة العقلية السائدة في المجتمعات اليهودية، لذلك رفضوه ولم يعتبروه المسيح الموعود المنتظر المخلص.

4 ـ وقد اسندت الأناجيل إلى السيد المسيح ما يقارب من الآية المارة الذكر. فقد روى متى في انجيله عن السيد المسيح «وفيما هو يكلم الجماعة اذا أمه وأخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلموه.. فقال له واحد هو ذا أمك واخوتك واقفون خارجاً طالبين ان يكلموك. فأجاب.. وقال للقائل من هي أمي ومن هم اخوتي. ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها أمي واخوتي لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي» (46 ـ 22).

ورواها لوقا بما يلي: «وجاء إليه أمه واخوته ولم يقدروا أن يصلوا إليه بسبب الجمع فأخبروه قائلين أمك واخوتك واقفون خارجاً يريدون ان يروك فأجاب وقال لهم.. وأمي وأخوتي هم الذين

يسمعون كلمة الله ويعملون بها» (8 ـ 19). من المحقق ان قد وقع ارتباك عند ترجمة ألفاظ هذه الآيات الانجيلية فاخرجتها عن معناها الأصلي وعما يرمي إليه السيد المسيح منها. فاننا ننزه السيد المسيح ونعتبره أجل واعظم من ان يصدر حكماً قاسياً كهذا الحكم بهذه العبارات الأليمة على أمه وأخوته واخواته فلا يقبلهم بحضوره ويرجح عليهم تلاميذه الذين شكوا برسالته مرات عديدة، ولم يخلصوا له طيلة حياته... ويجعل أمه وأخوته وأخواته من الذين لا يسمعون كلام الله ولا يصنعون مشيئة أبيه ولا يعملون بها. فان السيد المسيح الذي اظهر في كثير من المواقف عطفه وحنوه وميله الشديد لمساعدة النساء والأطفال والضعفاء والمرضى والعجزة وفرض احكام الطلاق الصارمة لفائدة النساء، لم يكن قصده في بيانه هذا ـ بعبارة أخرى غير هذه ـ الا ضرب المثل الأعلى للناس في ضرورة التجرد عن كل شيء وحتى عن الأمهات والأخوة والأخوات والبيوت والأموال في سبيل عبادة الإله وفي سبيل خير الشعب.

وأما علماء اللاهوت المسيحي فيقولون عند شرحهم هذه الآية الانجيلية ان العلاقة الوقتية الجسدية قد زالت مع أهل بيته وحلت محلها العلاقة الروحية مع تلاميذه فكان قد اتحد معهم إتحاداً روحياً، وهو شرح ديني محض.

ولما كان السيد المسيح قد اخذ على عاتقه شيئاً اعظم من العاطفة ووضع نصب عينيه مقارعة أكبر امبراطورية في العالم فلم يكن له بد من امثال هذه التعاليم ولم يكن لأي قائد في العالم ان يلهو في وقت المصاعب ويعبث في وقت الشدائد. واما الأمور العاطفية فتأتي في دور السلام[1].

5 ـ ومن تعاليمه المماثلة الأخرى التي ترمي إلى القصد نفسه هي أنه لما كان حسب تعليم الانجيل جميع الناس خطاة بحسب فساد طبيعتهم، فإنه جاء لا ليدعو ابراراً بل خطاة إلى التوبة، وقال لتلاميذه: قد سمعتم ما قيل للأوليين: عين بعين وسن بسن، واما انا فأقول لكم احبوا اعداءكم باركوا لاعنيكم احسنوا إلى مبغضيكم وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم وافعلوا الخير مع كل الناس واجعلوا كنوزكم في السماء، فما كل من يقول يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات بل الذي يفعل ما يرضيه. وعاملوا الناس بما تحبون ان يعاملوكم به. وان ما يدخل الفم لا ينجس الإنسان وإنما الذي يخرج من الفم ذاك ينجس الإنسان وهي الأفكار الشريرة. ومن قال لأخيه يا أحمق يستوجب نار جهنم.

وعندما جاءوا بزانية قال من منكم بلا خطيئة فليرجمها. ومن تعاليمه لا تحلفوا بالسماء، ولا بالأرض، ولا باورشليم، وعدم مقابلة الشر بالشر.. وقال «من ضربك على خدك الأيمن فأعطه الأيسر. ومن سخّرك ميلاً فامش معه ميلين. وأقم صلاتك في الخفاء واحترز من الرياء ومحبة المجد. ولا تدينوا كي لا تدانوا. اغفروا يغفر لكم. لا تقضوا على احد فلا يقضى عليكم. كما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا انتم بهم هكذا. والابتعاد عن المال والزنى والسرقة. وان اعثرتك يدك أو رجلك

(1) كان الغزالي قد حذا حذو السيد المسيح لما وقع في محنته واحتبس لسانه عن التدريس في بغداد فالتجأ إلى الله فسهل الله عليه الاعراض عن الجاه والمال والأهل.. والأولاد والأصحاب للقيام بعمل اعظم منها شأناً وأجل مرتبة. فترك أهله وأولاده كافة ورحل رحلته المشهورة (المنقذ من الضلال).

فاقطعها. وان اعثرتك عينك فاقلعها. وان اخطأ اليك اخوك فعاتبه وصالحه، وان الأب أبٌ للجميع والإله إلهٌ للجميع، وان الفقراء والمهازيل يدخلون ملكوت الله قبل الأغنياء، وان الناس في يوم القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء. وكل هذه التعاليم زهد وحب وبر واخاء وتقوى وصلاح ترمي إلى رفع الاحقاد وتقوية المحبة والعفو والتسامح ومكارم الأخلاق، حتى إذا ما استحكمت الأمور الروحانية يسهل استخدامها في سبيل الامور الزمنية. وبهذه التعاليم التي توافق القلوب الرقيقة كسب محبة الفلاحين والعمال والشيوخ والنساء فتجمعوا او مشوا وراءه.

يظهر من مطالعة هذه التعاليم وكثير امثالها مما يقتطف من الأناجيل أن الطريقة التي سار عليها السيد المسيح في تعاليمه للوصول إلى غاياته، هي أولاً الابتعاد عن العنف والشدة، وثم الزهد بالحياة والتجرد عن الدنيا، وترك اللذائذ الجسمانية، وتأسيس المحبة والأخوة بين الأفراد وإزالة الفوارق من بين الطبقات، وثم الفناء في الله للدخول في ملكوتة. وهي ما قد تسمى في زماننا الطريقة الصوفية السياسية السلبية الاشتراكية اللاتعاونية[1].

وإذا ما وصلت الأمة إلى هذه الدرجة من الفقر والاملاق بالملك والمال، ثم التكتل والاتحاد بالروح والقلب ينقلب الحمل الوديع الصوفي تدريجياً من القائد الديني إلى القائد الزمني، «ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً» (10 ـ 34 متى). ويسهل عند ذلك تطهير البلاد من لوثات المشركين. إلا أنه لم ينل النجاح ولم يحرز التوفيق في طريقته هذه، فكان قليل الأمل في هدي قومه اليهود إلى الإيمان برسالته، وقليل الأمل في امكان انتشالهم من العبودية والاسترقاق، وقليل الأمل في تكتلهم واتحادهم وخان به الزمان.

ولما يئس من هدايتهم ومن افهامهم كلماته ومقاصده وغاياته.. قال لهم بقلب حزين كسير «ولكن متى جاء ابن الإنسان ألعله يجد الإيمان على الأرض» (18 ـ 8 لوقا). وهي من الأنات الصادرة من أعماق القلب.

6 ـ من المحقق أن خطبة السيد المسيح في الجبل والطرق والتعاليم الأخرى الآنفة الذكر، الواردة في الأناجيل، وجميعها في الظاهر صوفية مفرطة... لم تكن مما ترضي رغبات الناس، وتكفل لهم الأمور الاجتماعية والمعاشية وسائر الاحتياجات البشرية. والسيد المسيح نفسه كان يعلم ذلك، فلم تكن هذه سوى مقدمات ابتدائية لتعاليم أخرى بخل الزمان بها. فلم تتح للسيد المسيح الفرص الكافية من الزمان والعمر الطويل لإظهار ما يكنه في ضميره من المقاصد العلوية والغايات البعيدة المدى، لتخليص الشعب من نير الاستعباد والاسترقاق وإعلاء كلمة الله في البلاد. وكان يتجلى ما يخامر قلبه ويدور بخلده ما ورد بآية شعرية في انجيل متى يقول فيها وهي بمثابة أنات صادرة من أعماق القلب: «يا اورشليم يا اورشليم.. يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين. كم مرة اردت ان اجمع أولادك كما تجمع الدجاجة افراخها ولم تريدوا» (37 ـ 24). فاضطر ان يلزم جانب التسامح والصفح حتى مع اعدائه والمبغضين له حتى يأتي الله بأمر من عنده.

---

(1) وقد حذا غاندي في زماننا حذو السيد المسيح ونجح نجاحاً باهراً في إخراج الانكليز من الهند بمغزله الهزيل وسياسة اللاعنف.

7 ـ يمكن اعتبار عدم نجاح السيد المسيح في اهدافه ومراميه الزمنية وتعاليمه في حياته إلى عدة أسباب، منها قصر الزمن الذي أدى به رسالته، فلم تمتد لأكثر من ثلاث سنوات، قضى اكثر من سنة منها في بلاد الشرك مختفياً عن الأنظار (14 ـ 13 متى) هي غير كافية للقيام بهذا الأمر العظيم... ومنها جهل الأمة وتمسكها بأقوال الرؤساء والكهنة، واعتبارها شروح التوراة وتفسيراتها وحواشيها الدين الحقيقي الذي جاء به موسى وهي ليست سوى صور وأشكال وحركات جسمانية بعيدة كل البعد عن الروحانيات، بينما كانت طرق السيد المسيح كلها روحانية وبعيدة جد البعد عن الجسمانية. ومنها ان الصدوقيين وأرباب الثراء والفريسيين وأذناب الرومان واللاويين ورؤساء اليهود كانوا لا يبغون عن قيصر بديلا.. ومنها زوال الروح الحربية حينذاك من الشعب اليهودي وقعوده عن القيام بمثل هذه الأعمال الجسيمة التي تهرق الدماء وتزهق النفوس والأرواح بسببها. ومنها ان الزعيم نفسه، لم يجسر ان يعلن حتى عن طريقته الدينية، وكان يوصي دائماً تلاميذه بالهرب من المحل الذي يقع فيه عليهم شيء من التضييق «ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى» (10 ـ 23 متى).. ويوصي دائماً بعدم اعلان آياته ومعجزاته وافشاء اعماله خوفاً من الرقباء اعدائه وحذراً من الوصول إلى القاضي والشرطي والسجن، أو من فتكهم به. وكان هؤلاء يترقبون حركاته ويتوقعون زلاته ويتربصون به الدوائر للقبض عليه.. وهو يعلم ذلك.

ومن جملة أسباب عدم نجاح السيد المسيح في مهمته واهدافه في حياته، فشل الثورة التي اشعل نارها يهوذا الجليلي عندما أراد هيرودوس احصاء النفوس فنكب العالم الإسرائيلي واضمحلت معنوياته بسببها (5 ـ 37 اعمال)، ومنها قتل «ثوداس» الذي كان قد ادعى عن نفسه انه فوق السالمين.. فقتل وتبددت جماعته البالغ عددهم 400 شخص (اعمال 5 ـ 36).. ومنها قتل النبي يوحنا في تلك الأيام لقيامه بالتبشير الديني واعلانه اقتراب ملكوت الله (14 ـ 11 متى).. ومنها تيقظ السلطات الرومانية وتعقيبها الداعين بالاصلاح الديني والدنيوي ونشرها الجواسيس والعيون في كل مكان. ومنها دخول السيد المسيح في جدال منهك مع كل طبقات الشعب الإسرائيلي ورؤسائه وكهنته من دون ان يستميل فرقة من الفرق الدينية إلى جانبه ليحتمي بها ويتخذها درعاً ضد خصومه... ومنها بقاؤه منفرداً وحده يدعو إلى الاصلاح بتعاليم بعيدة جد البعد عن مستوى العقلية اليهودية كالتجرد عن الدنيا، والاعتماد على الله، مثل الطيور في الأرزاق والمعيشة وترك الاملاك والمال والثراء والذهب والفضة... مما يخالف الروح والميول اليهودية في جمع المال وادخاره وعبادته، ومنها اهماله الاستناد على القوة في بادىء أمره لتقوية مركزه وتأييد فكرته والاكتفاء بالمعنويات فقط (الوعظ والتبشير.. شفاؤه الأمراض). على أن الفكرة بدون قوة لا تؤثر في قلوب قوم اشد قسوة من الحجارة... ومنها عدم عثوره على علماء في الدين، وفقهاء بالشريعة لمعاضدته في اعماله «فلما رأى بطرس ويوحنا ووجدوا انهما انسانان عديما العلم وعاميان تعجبوا» (14 ـ 13 اعمال). ومنها أنه كان، حتى في أواخر ايامه، يبلغ شريعته بالأمثال الغامضة التي لم يفهم أحد مغزاها، حتى اقرب المقربين إليه. ولم يفصح عن مقاصده حذراً من الجواسيس المحيطين به في كل جانب في حله وترحاله، حتى كان يتذمر هو نفسه من مستمعيه اليهود، لأنهم لم يفهموا امثاله واقواله «لماذا لا تفهمون كلامي لأنكم

لا تقدرون ان تسمعوا قولي» (43 ـ 6 يوحنا). وقد تذمر منه حتى تلاميذه فقال «كثيرون من تلاميذه إذ سمعوا ان هذا الكلام صعب.. من يقدر ان يسمعه. فعلم يسوع في نفسه ان تلاميذه يتذمرون على هذا» (6 ـ 60 يوحنا). فرجع كثير من تلاميذه إلى الوراء لقلة فهمهم اقواله ولم يعودوا يمشون معه. «فقال يسوع للاثني عشر لعلكم انتم أيضاً تريدون أن تمضوا» (6 ـ 76 يوحنا).

فلم يتمكن السيد المسيح من تذليل أمثال هذه العقبات ولم يحظ بأصدقاء اذكياء أقوياء.. أو علماء فقهاء من مجلس السنهدرين، ومن الفرق اليهودية المتنفذة الأخرى، يفهمون كلامه لكي يشدوا ازره ويعضدوه عند الملمات. وعلاوة على هذا كله انه نازل الكبير والصغير والعالم الجاهل.. والرفيع والوضيع في كل مكان حل به وفي كل مجتمع وعظ به. وبقدر ما كان متواضعاً بتعاليمه، كان مفرطاً بحملاته، قوياً بهجماته، شديداً بأقواله، ولذلك لم يؤمن برسالته في حياته اكثر من أحد عشر رجلاً من الصيادين والسماكين الأميين الفقراء الجهلاء.

وهؤلاء أيضاً آمنوا من دون ان يفهموا كلامه وان يدركوا مغزى امثاله في حياته وبقيت كلمة ملكوت الله عندهم مثلاً كالمعميات والألغاز التي لم يفهموا لها معنى. إذن كان وحيداً لا معين له في هذا العالم سوى إيمانه الكامل واعتقاده الثابت المكين بالإله الواحد الذي سينصره في آخر الأمر ويهزم اعداءه. فان لم ينجح هذه المرة فسيعود «ابن الإنسان مرة ثانية إلى الأرض آتيا على سحاب السماء مصحوباً بقوة ومجد كثير محاطاً بسرب من الملائكة» (24 ـ 30 متى) وهناك القول الفصل.

8 ـ ولعل السيد المسيح كان يستبدل طريقته السلبية هذه بطريقة إيجابية غيرها فيما لو كان قد التف الشعب حوله، واقتنع برسالته وآمن بمسيحيته، وحصل لديه نجاح أو بعض النجاح ـ فكان ينقلب حينذاك من الطريقة الدينية إلى الطريقة الزمنية ومن الإحجام إلى الإقدام.. ومن المعلم الديني إلى القائد الحربي. إلا أنه لم ينل النجاح في حياته لا في الطريق الديني ولا في الزمني.. ولا في السلبي ولا في الإيجابي. وما ذلك إلا لأن تعاليمه كانت مخالفة لروحية اليهود وسجاياهم في جمع المال وادخاره (لأن العبد لا يمكن أن يعبد سيدين: الله والمال). وقد امضى مدة رسالته كلها في رؤوس الجبال و سواحل البحر والقرى والأرياف.. بعيداً عن المدن الآهلة بالسكان لا يرى إلا القرويين والفلاحين والمساكين من اهالي الجليل، بصورة عرضية غير مقصودة فيظهر لهم آياته، ويشفي مرضاهم ويختفي عن الأعين، ويوصي بعدم التحدث عن معجزاته وعن افعاله واعماله. وقد قضى القسم الأعظم من ايام رسالته في مدينة فيلبس في بلاد الشرك وما وراء البلاد اليهودية.. ولم يصعد إلى اورشليم ويقابل الكهنة والرؤوساء وجهاً لوجه ويدخل معهم بمناظرات دينية عنيفة في رسالته إلا مرّة واحدة دامت ثلاثة ايام فقط.. ألقي القبض عليه بعدها.

9 ـ ومن المحقق أنه كان لديه تعاليم سرية أخرى لم يتمكن من أن يبوح بها لأحد وحتى لأقرب المقربين إليه «ان لي أموراً كثيرة ولكن لا تستطيعون ان تحتملوا الآن» (16 ـ 12 يوحنا). وآخر مثله «ان لي اشياء كثيرة اتكلم بها واحكم بها من نحوكم» (27 ـ 8 يوحنا). فقد انكره حتى تلميذه الأكثر اخلاصاً له قبل ان يصيح الديك ثلاث مرات ولم يؤمن برسالته إيماناً صحيحاً ولم يعرفه حق المعرفة بعض حوارييه «قال له يسوع انا معكم زمانا هذه مدته ولم تعرفني يافيلبس؟». وكان تلاميذه في شك من

صدق دعوته فكان يخاطبهم «يا قليلي الإيمان..» وشك بطرس من قدرة ربه بمدعياته، وأراد امتحان سيده فقال «يا سيد ان كنت أنت هو فمرني ان آتي اليك ماشياً على الماء فقال تعال... وإذ ابتدأ يغرق صرخ قائلاً: يا رب، نجّني، فمد إليه يسوع يده وامسك به وقال له.. يا قليل الإيمان لماذا شككت» (14 ـ 28 متى). والغريب في هذه الآية ان بطرس من السماكين القدماء.. والسماكون كافة يحسنون السباحة وكان هو أيضاً يحسنها بدليل ما جاء في انجيل يوحنا في غير موضع «فلما سمع سمعان بطرس أنه الرب ائتزر بثوبه وكان عريانا وألقى نفسه في البحر» (12 ـ 7 يوحنا). ومن يلقي نفسه في البحر لا بد أنه يحسن السباحة. واستدام شك تلاميذه به حتى عندما تراءى لهم من عالم الأرواح، وبعد أن رفعه الله إليه «ولما رأوه سجدوا له ولكن بعضهم شكوا» (28 ـ 18 متى). وجاء في انجيل مرقس «أخيراً ظهر للأحد عشر وهم متكئون ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام» (16 ـ 14 مرقس).

يئس السيد المسيح من هذا الوسط المضطرب ومن هؤلاء الناس الذين لا يفهمون مغزى كلامه فترك مقاصده للزمن، إلا أن الزمن غدر به، قبل أن يظهرها، وهو شاب في مقتبل العمر.

10 ـ ومن جملة تعاليمه قوله لليهود بمناسبات عديدة «فلا تدعو لكم أباً على الأرض لأن اباكم واحد الذي في السماوات» (23 ـ 9 متى) و «ابانا الذي في السماوات» و«ابوكم الذي في السماء» و«أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» وجميعها واحدة في الأصل مما يستدل منها انه كان متأثراً ببنوة الفراعنة للإله «اتون» إله الشمس، وبأقوال الأنبياء الذين سبقوه في بنوة اليهود للإله «يهوه» وبنبوة كل أمة حينذاك لإلهها الذي تعبده وبفلسفة وحدة الوجود الروحية التي كانت منتشرة حينذاك في بلاد اليونان... وتسربت إلى مصر وفلسطين وفيها الأب... واحد للجميع والروح واحدة للجميع. وحتى اليهود كانوا كالأمم الأخرى يعتبرون انفسهم ابناء يهوه فكانوا يقولون «لنا أب واحد وهو الله» (8 ـ 41 يوحنا). وبهذا الاعتبار كان السيد المسيح من جهة الروح المقدسة كسائر الناس ابن الله.

وكانت الفلسفة الرواقية ووحدة الوجود والافلاطونية الحديثة وطرق التصوف والزهد والحب والشفقة والرأفة بالأجسام الحية كلها قد انتشرت من الاسكندرية عاصمة العالم الثقافية إلى سواحل البحر المتوسط كافة وتأثرت بها جميع الأمم والأقوام. فكانت اورشليم المدينة الدينية الكبرى تشع من جوانبها بمختلف النظريات الفلسفية وكانت المؤثرات الدينية المجاورة من جوبيترية وافلاطونية وفيلونية وابيقورية وحتى المثلثات المصرية الإلهية تشغل العقول المفكرة وترهف الاحساس، وقد تأثر بها السيد المسيح وكان اقربها إلى غاياته ومقاصده الفلسفة الرواقية وفلسفة فيلون اليهودي الاسكندارني المستندة على الحب والألفة والاتحاد واشتراكية الأموال... والابتعاد عن المادة وعن التفاخر والغنى ثم الرفق بالإنسان والحيوان والتوبة والاسفار وعمل الخير للتخلص من الخطيئة ووحدة الروح والزهد والتصوف... حتى الوصول إلى وحدة الله... فكانت تعاليم السيد المسيح بجملتها قريبة من هذه التعاليم الاسكندرانية وقريبة من قواعد فرقة الآزية الاشتراكية المنتشرة بين اليهود.

وقد تمسك السيد المسيح بها باعتبار انها تجمع الفقراء وهم الأكثرية من الأمة... وترضي المتدينين، وتكون وسيلة لتوحيد الكلمة وطريقاً للوصول إلى الغايات المطلوبة الخفية.

وكان السيد المسيح يعلن دائماً في كل مناسبة أنه ليس وحده ابن الله إنما البشر كافة ابناء الله «لأنكم ابناء الله تدعون»... ويقول في مناسبات عدة «ابانا وأبوكم وأبي الذي في السماوات» ويقول في تضرعاته «كما انك أنت فيّ أيها الأب وانا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا... كما اننا نحن واحد» (17 ـ 21 يوحنا). ويقول بعد ذلك «انا فيهم وانت فيّ» (17 ـ 23 يوحنا). وكلها تدور حول وحدة الوجود الروحية. ويظهر ان بولس الرسول أيضاً كان متأثراً بوحدة الوجود الروحية. فقد قال في رسالته لأهل كورنثوس «فأنواع مذاهب موجودة ولكن الروح واحد» (12 ـ 4). وفي رسالته إلى أهل رومية «عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات يسوع المسيح ربنا» (1 ـ 2).

11 ـ ولما كان السيد المسيح يكافح الغني ويحبذ الفقر ويلازم الفقراء والجياع والمعدمين والمملقين ويواسيهم ويشفيهم من امراضهم، فقد كان من الطبيعي أن يجعل كل شيء تقبله النفس حلالا وكل شيء تنفر منه النفس حراماً من دون التقيد بنوعه وجنسه. ولهذا قال «ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان» (15 ـ 13 متى). وقد أوضح السيد المسيح قصده من هذه الكلمة في آخر موعظته في قوله «واما الأكل بأيد غير مغسولة فلا ينجس الإنسان» (15 ـ 20). وهذا ليس معناه البقاء على النجاسة والقذارة ولم يكن القصد منه كما أراد أن يفهمه الأغبياء والبسطاء ترك الاغتسال والاستحمام من بقايا وفضلات ما يدخل الفم. فهذه نجسة بالذات إلا ان هناك نجاسة لا تقل عنها أهمية وهي النجاسة التي تخرج من الفم والقلب وهي الكفر والأفكار الدنيئة وشهادة الزور والزنى والقتل وغيره. فإذا كانت الشريعة تأمر بغسل الأيدي والأواني فان السيد المسيح أراد أن لا يترك الفم والقلب ملوثين بالرجس من الأفكار والقول، وهو في دور كان فيه احوج من غيره إلى السلم والهدوء والسكينة والابتعاد عن الضوضاء والمشاتمة والمقاتلة وسفك الدماء. ولذلك فقد أراد تطهير الفم واللسان من الكفر والسب والشتم قبل تطهير الأيدي والأواني ليتمكن من تبليغ رسالات ربه وإلهه في جو يسوده الأمن والسكون والراحة والاطمئنان.. وبينما كان رؤساء الدين والكهان في بحبوحة من العيش الرغيد كان السيد المسيح مع علمه وفضله واطلاعه الواسع على دقائق الشريعة لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، ومع هذا فلم يتوان عن أن يوصي الناس الذين شفاهم من امراضهم بالتزام احكام شريعة موسى. «فقال له يسوع انظر ان لا تقول لأحد بل اذهب أر نفسك للكاهن وقدم القربان الذي أمر به موسى» (4 ـ 8 متى). وبهذه الآية الانجيلية اعلن السيد المسيح تمسكه بشريعة موسى وأيد أنه ليس صاحب شريعة مستقلة.

12 ـ وكان يتمسك ايضاً بيوم السبت «وصلوا لكي لا يكون هربكم في شتاء ولا في سبت» (24 ـ 20 متى). ويعظ الناس بقلب مفعم بالحب الإلهي، ولا يقيم للجسد وزناً بل يعتبر كرامة الإنسان في روحه الساكنة في جسده لا في جسمه ولباسه «الروح هو الذي يحيى اما الجسد فلا يفيد شيئاً» (6 ـ 63 يوحنا).

ولذلك كان يخاصم الحاخامين والرؤساء ذوي الطيلسانات الحريرية والجباب الطويلة العريضة خادمي الاجساد وتاركي الأرواح.

13 ـ وعند تأنيبه الكهنة والصدوقيين والفريسيين قال لهم «ان العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله لأن يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به واما هؤلاء فقد آمنوا». وخاطب الجموع يوماً مؤيداً تمسكه بشريعة موسى ومعترفاً بأن الآب الإله الذي في السماوات هو واحد لا شريك له فقال لهم «ان ما قاله لكم الكتبة الفريسيون من شريعة موسى احفظوه وافعلوه، ولكن حسب اعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ما لا يعملون.. وانهم يحبون المتكأ الأول في الولائم والمجالس والتحيات في الأسواق. وانتم جميعاً أخوة معلمكم واحد المسيح. فلا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن اباكم واحد الذي في السماوات» (23 ـ 9 متى). فكان هجومه العنيف هذا على الكتبة والصدوقيين والفريسيين كافة سبباً لنفرة الرؤساء ومن ورائهم الأمة اليهودية كافة من تعاليمه ومعاداتهم له.

وقد منع السيد المسيح تلاميذه من أن يكونوا من أصحاب الطيلسانات ومن السادة الرؤساء والعظماء ومن تسلطهم على الناس ومن الرياء والنفاق كما كان يفعله الصدوقيون والفريسيون فقال لهم «تحرزوا لأنفسكم من خمير الفريسيين الذي هو الرياء» (12 ـ 1 لوقا). وقال «انتم تعلمون ان رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم فلا يكون هذا فيكم» (20 ـ 25 متى). ومع هذا المنع الصريح فقد قرر مجمع نيقية تأسيس ثلاث بطركيات «رومية. انطاكية. اسكندرية» ثم اعقبها ببطركية «القسطنطينية والقدس». ورفض البروتستانت هذه التشكيلات ورفضوا لبس القلانس والزنانير وأثواب الكهنوت السوداء المغرية ورفضوا تعليق الصلبان المذهبة على صدورهم ليراها الناس في الأسواق والمجتمعات ورفضوا كذلك الترؤس والتسلط على الغير. كل هذا تبعاً لوصية السيد المسيح الآنفة الذكر.

14 ـ وقد حصل اختلاف كبير في تفسير ملكوت الله واجمع الآباء على أنها الكنيسة.. ولما كان السيد المسيح قد أسس كنيسة واحدة فكل كنيسة اعتبرت أنها هي كنيسة المسيح وهي ملكوت الله فقالت «انا الكنيسة وانا ملكوت الله». وكلمة الكنيسة معربة عن اليونانية واصلها اقليسيا أو ايكليسيا. فقد استعمل السيد المسيح هذه الكلمة لقصد التفريق بينها وبين الكنيس (كنشت) اليهودي لتكون لجماعته.

ويظهر من عبارات الأناجيل أن ملكوت الله لم يقصد بها الكنائس، كما أراد أن يفسرها الآباء، إنما تأتي بمعنى التجليات الربانية والرحمة الإلهية. فقد جاء في الصلاة التي أمر السيد باقامتها «ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك». وفي محل آخر «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره» وآخر «طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله». وجميعها تدل على رحمة الله وعنايته. وجاء في محل آخر «ان ملكوت الله لا يأتي بالانتظار والمراقبة ولا يقولون هو ذا ههنا أو هوذا هناك لأن ها ملكوت الله داخلكم» (17 ـ 21 لوقا). وفيه تحريض على لزوم العمل ولزوم الاعتماد على النفس وعدم انتظار جنود الله ورحمة الله وملائكة الله نازلة من السماء لطرد الرومانيين من فلسطين.

فكأن السيد المسيح يقول لهم ان ملكوت الله داخلكم، ان وحدتم صفوفكم وأصلحتم أنفسكم تنالوا مبتغاكم، وان تقاعستم وانتظرتم ملكوت الله من السماء لنصركم فشلتم وذهبت ريحكم. واما بولص الرسول فقد فسر كلمة ملكوت الله بكتابه إلى أهل رومية بقوله «لأن ليس ملكوت الله اكلاً

وشرياً بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس» (14 ـ 17) وهو تفسير ديني محض يأتي بجملته أيضاً أنه رحمة الله وعنايته. اما السبب الذي دعا الآباء إلى ان يعتبروا ملكوت الله هو الكنائس ما جاء في انجيل متى عن كلام السيد المسيح إلى تلاميذه في قوله لهم «الحق اقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء» (18 ـ 18). فكان بابا رومية الأعظم يدعي الرياسة المطلقة على العالم العيسوي وصلاحية غفران الذنوب، بالاستناد إلى هذه الآية الانجيلية.

15 ـ وأراد السيد المسيح التخفيف عن أمته في اقسام العبادات وتحريرها من الأشكال والصور والقواعد والرسوم والحركات... تلك التي كان قد وضعها الكهنة والرؤساء من عند أنفسهم ولم يأمرهم بها النبي موسى والأنبياء الذين جاءوا من بعده فاعتبر الصلاة مثلاً، التوجه إلى الله بالقلب والروح لا بالقيام والقعود والقفز والرقص والدندنة والحمحمة كما يفعله اليهود فقال «الساجدون الحقيقيون يسجدون للأب بالروح والحق لأن الأب طالب مثل هؤلاء الساجدين... الله روح. والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي ان يسجدوا» (4 ـ 25 يوحنا). ومنع تلاميذه من التبجح بالصلاة امام الناس وفي المجتمعات لئلا يكونوا كالمرائين والمنافقين فقال «وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك واغلق بابك وصل إلى أبيك في الخفاء» (6 ـ 6 متى).. واخبرهم بأن الصلاة لا تكون بالصراخ والعويل وكثرة الكلام وبالمزمار والترتيل والتنغيم (والبيانو والارغون) لأن الأب مطلع على السرائر ويعلم ما تخفي القلوب التي في الصدور فقال «وحينما تصلون لا تكرروا الكلام لأن اباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل ان تسألوه» (6 ـ 7 متى).

واما ما يتعلق بالصوم فقد أمر السيد المسيح تلاميذه ان لا يكونوا عابسين في ايام الصوم ولا يظهروا امام الناس بمظهر الصائمين. ولقد تساهل بعد ذلك بأمر الصيام فأمر تلاميذه ان لا يصوموا طالما هو معهم.. فتذمر منه تلاميذ يوحنا المعمدان فقالوا له «لماذا نصوم نحن والفريسيون كثير واما تلاميذك فلا يصومون» (9 ـ 14)، فقال لهم السيد المسيح «حتى يرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون في تلك الأيام» (2 ـ 20 مرقس). وضرب لهم مثلاً «ليس أحد يصنع رقعة في ثوب عتيق» (5 ـ 27 لوقا).

واما قواعد الصوم وكيفية الصيام ومدته فلم يرد لها ذكر في الأناجيل إنما هي من وضع رجال الدين.

16 ـ وكان قد سأله واحد من اليهود عن قسمة الميراث بغية ايقاعه في جريمة تدخله بالأمور الزمنية، واتخاذها حجة لالقاء القبض عليه، ولما أدرك السيد المسيح ذلك قال له «يا إنسان من اقامني عليكم قاضياً ومقسماً» (11 ـ 13 لوقا). وبهذا كانت أعمال السيد المسيح في هذا الدور كلها روحية حتى يحين الوقت.

كانت رسالة السيد المسيح روية بمجملها وقصدها ولم تكن زمنية الطابع، ولا هي موجهة الى قوم دون سواهم، بل هي رسالة سماوية للبشر كافة. وكانت رسالة متحرّرة من قيود اليهودية ومقاصدها. فكأن المسيح الذي جاء ليكمل، نقض بدل ان يكمل.

الفصل الرابع ملوكية السيد المسيح

1 ـ كانت الأفكار متجهة نحو ظهور المسيح الموعود من نسل الملك داود، لأن الأنبياء امثال دانيال واشعيا وارميا وزكريا ابن برخيا قالوا بذلك. وسجل النبي دانيال في سفره «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان آتي... وجاء إلى القديم الأيام... فقربوه أمامه فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملوكته ما لا ينقرض» (7 ـ 13).

وتنبأ النبي اشعيا بظهور فرع من احفاد الملك داود بن يسي يحل فيه الإله العظيم فيقضي بالحكمة والعدل والانصاف للفقراء والبائسين فيقول «ويخرج قضيب من جذع يسي وينبت غصن من اصوله ويحل عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالانصاف لبائسي الأرض» (11 ـ 1). وفي محل آخر منه «ويكون في ذلك اليوم أن اصل يسي القائم راية للشعوب اياه تطلب الأمم ويكون محله مجداً» (11 ـ 10 اشعيا). فان هذه التنبؤات وامثالها قد اغرت المشوقين من آل يسي بالعرض الإسرائيلي، وجعلت عيون الشعب تتطلع ذات اليمين وذات الشمال، وبين الشك والرجاء، تنتظر ظهور المسيح المخلص من نسل يسي الذي سيجلس على كرسي داود فتجتمع بذاته المسيحية والملوكية، ويقضي على الأجانب المحتلين، ويخلص شعب الله المختار من أيدي الغاصبين، ويعيد ملك داود وسليمان ويكون حكمه من البحر إلى البحر، ويؤيد شريعة موسى وما قاله الأنبياء والرؤساء والكهنة، ويثبت العادات والعنعنات والتفسيرات والشروحات كلمة كلمة وحرفاً حرفاً، ويخبر اليهود بكل شيء وعن كل شيء. «أنا اعلم بأن مسيا الذي يقال له المسيح يأتي. فمتى جاء ذلك يخبرنا بكل شيء» (4 ـ 25 يوحنا).

فلم يكن المسيح المنتظر عند اليهود والحالة هذه هو «روح الله وملكوت الله وابن الله... وأحد الأقانيم الثلاثة والجالس على يمين الله والإله المتجسد لحمل خطيئة البشر...» إنما كان نبياً مرسلاً أو ملكاً جباراً وقائداً محنكاً، من نسل داود بن يسي، كأحد انبيائهم وملوكهم وقوادهم الاسبقين، يعلم كل شيء ويعلّمهم كل شيء ويخبرهم عن كل شيء، فيمسحونه بالزيت المقدس الممزوج مع البلسم، كما مسح داود من قبله[1] ويصبح قديساً مسيحاً ملكاً مباركاً فيقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالانصاف للبائسين. هذا ما كان يفهمه الإسرائيليون من كلمة المسيح وهذا ما كانوا ينتظرونه من جذع داود بن يسي.

2 ـ وجاء في بشارة جبرائيل الملاك للأم مريم العذراء «ها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع. هذا

---

(1) فقال الرب قم امسحه، فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط اخوته، وحل روح الرب على داؤد من ذلك اليوم (16 ـ 13 صموئيل الأول).

يكون عظيماً وابن العلي يدعى. ويعطيه الرب الإله كرسي داود ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد» (1 ـ 33 لوقا). وفيها بشارة لجلوس الابن المولود على كرسي داود وتملكه على بيت يعقوب إلى الأبد.

وقال جمع من اليهود في الهيكل «ألم يقل الكتاب انه من نسل داود ومن بيت لحم يأتي المسيح» (7 ـ 24 يوحنا). وفي الكتاب أي كتاب الشريعة أيضاً إشارة على ظهور المسيح من نسل داود.

وجاء في خطبة بطرس الرسول في مجمع لليهود في اورشليم يضم التلاميذ الأحد عشر (2 ـ 14 اعمال الرسل) عن النبي داود «ان الله حلف له بقسم أنه من ثمرة صلبه يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه» (2 ـ 30 اعمال الرسل). فكان في هذا القسم الإلهي لداود أيضاً بشارة عن ظهور السيد المسيح من صلبه حسب الجسد وجلوسه على كرسيه.

فلما كان يسوع المسيح من نسل الملك داود (عذرياً) ومن بيت لحم، ومن بيت الإمارة، وهو شاب متعلم درس العلوم الشرعية فأتقنها واطلع على أسفار الأنبياء كافة فحفظها، كان من حقه ان يتطلع إلى كرسي داود وإلى العرش اليهودي. ومن حقه ان ينظر إلى الحكام المحتلين لبلاده شزراً، ومن حقه ان يطالب بملوكية إسرائيل، ومن حقه ان يرغب بالسيادة على بيت يعقوب. ولا بد أن أمه العذراء اخبرته سراً ببشارة الملاك لها، ولا بد أنه اطلع في الكتاب على نص ما حلف الله لداود مع القسم من انه سيقيم المسيح من ثمرة صلبه وحسب الجسد ليجلس على كرسيه. وقد تجمعت له في هذه الوعود الإلهية المسيحية والملوكية معاً.

فكان أول عمل سياسي قام به هو منعه الناس سراً اعطاء الجزية لقيصر، وهي طريقة سلبية يتخذها الضعفاء كافة تجاه الحكام الأقوياء. وكان يحث الشعب عليها سراً، ويقول إنه مسيح وملك. فكانت شهادة الكهنة امام الحكام قولهم «انا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع ان تعطى جزية لقيصر قائلاً إنه هو مسيح ملك» (23 ـ 2 لوقا). ولما شاع أمره بين الناس احاطته الجواسيس من الفريسيين والهيرودوسيين من كل جانب في الهيكل يريدون امتحانه والتثبت من ادعائه لتسليمه إلى السلطات الحكومية «وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة» (22 ـ 15 متى). فقالوا له «نعلم يا معلم انك صادق وتعلّم طريق الله ولا تبالي، فقل لنا ايجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟ فقال لهم اروني معاملة الجزية فقدموا له ديناراً فقال لهم لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا له لقيصر، ولما علم يسوع خبثهم قال لهم، إذاً اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (18 ـ 22 متى). وذلك للتخلص من امتحانهم لكي لا يتخذوها حجة عليه، فان في كلمة «علم يسوع خبثهم» وفي كلمة «إذاً» معنى مستتر يدل على خلاف ما هو ظاهر منها، وقد قالها مكرهاً والأصل عنده هو عدم اعطاء الجزية للمستعمرين.

3 ـ لم يرد في قوائم التهم الموجهة إلى السيد المسيح امام الحكام الرومانيين في الأناجيل الأربعة أيّ تهمة تتعلق بالأمور الدينية وبتجاوزه على المعتقدات السائدة بين الطوائف اليهودية. فكان اليهود يعلمون ان الله أب للجميع مجازاً لا حقيقة ويقولون «لنا أب واحد وهو الله» (8 ـ 41 يوحنا). فلم يستنكروا عليه قوله أبانا في السماء، وأبوكم في السماء، وأبي في السماء، ولم يعتبروا هذه الكلمة كفراً يستوجب لماثلها الموت الزؤام، كما انه لم يدع بأنه اكثر من مسيح والمسحاء كثيرون. فهذه أيضاً

لا تستوجب الموت. وكذلك شفاؤه المرضى يوم السبت وتعاليمه وجداله مع الصدوقيين والفريسيين حول تفسير احكام التوراة، واخيراً بياناته بحضور المجمع الديني اثناء محاكمته مما سبب لقيافا، كما جاء في انجيل متى، أن يمزق ثيابه خداعاً ومكراً لقوله «من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء» (26 ـ 64 متى). وهذه الكلمات أيضاً لم تكن من مبتكراته إنما هي من أقوال النبي دانيال الآنفة الذكر[1]. فلم تكن تلك التنبؤات والأقوال العائدة للنبي دانيال خافية عن قيافا ابن حنانيا رئيس الكهنة المطلع تبعاً لاشتغاله بالكهنوت اليهودي على اسفار الأنبياء كافة، فلا توجد والحالة هذه في أقوال السيد المسيح وبياناته ما يستوجب ادانته. وأما الحكام والأمراء فلم يكونوا غافلين عن تنقلاته ولم يطيقوا صبراً على مدعياته واقواله وبياناته، فقد وضعوه تحت الرقابة الشديدة منذ ان تعمد من يوحنا المعمدان، ومنذ ان بدأ يبشر بملكوت الله، ويظهر الآيات والمعجزات، فكان لا بد من القاء القبض عليه وإزالته من الوجود قبل ان يشتد أمره كما ازيل قبله زميله يوحنا المعمدان.

4 ـ ولما شاهد الحكام والأمراء والولاة الجموع الخارجة لاستقبال السيد المسيح يوم العيد عند مجيئه إلى اورشليم وهو راكب على جحش اتان كما جاء في الكتب وحوله تلاميذه حاملين اغصان الزيتون وسعف النخل وهم يصرخون «اوصنا... مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل» (12 ـ 13 يوحنا)، ويهتفون بكلام زكريا «ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت اورشليم هو ذا ملكك يأتي جالساً على جحش اتان» (9 ـ 9 زكريا)، ويقولون «مبارك الملك الآتي باسم الرب سلام في السماء ومجد في الأعالي» (12 ـ 14 يوحنا)، وشيوع قول نثنائيل للسيد المسيح «يا معلم انت ابن الله انت ملك إسرائيل» (1 ـ 49 يوحنا)، توجهت الأفكار والأنظار بشدة إلى ملك إسرائيل الجديد هذا الراكب على جحش اتان لاثبات ملوكيته على عرش إسرائيل كما هو محرر بالكتب... فأحاطته الجواسيس والعيون إحاطة السوار بالمعصم. وكان سؤال وكان جواب في الهيكل... وكان السيد المسيح يجيب عن الأسئلة كافة بحذر، اجتناباً من الوقوع في قبضة هؤلاء الأدنياء الجهلاء الذين لا يعلمون مقاصده النبيلة، وما يكنه في ضميره لهم من الخير والسعادة.

ولما لحقه الناس من كل حدب وصوب وشاع أمره في اورشليم عقد أعضاء المجمع الديني اجتماعاً خاصاً وتشاوروا مع رئيس الكهنة في أمر يسوع فقال احدهم «ماذا نفعل لو صار يسوع الذي هو من نسل داود بن يسي ومن بيت لحم ملكاً كما جاء في الكتب»، وقال آخر من الأعضاء: حقاً ان ذلك يكون وبالاً علينا، فانه يريد أن يصلح عبادة الله على حسب السنة القديمة فكيف يكون مصيرنا تحت سلطان رجل كهذا؟ فاننا نهلك نحن وأولادنا لأننا إذا طردنا من وظيفتنا فسنستعطي خبزنا! وقال آخر منهم الحمد لله لنا ملك ووال اجنبيان عن شريعتنا ولا يباليان بشريعتنا، كما لا نبالي نحن بشريعتهم، لذلك نقدر ان نفعل كل ما نريد، فان اخطأنا فان الهنا رحيم يمكن استرضاؤه بالضحايا والصوم والصلاة، ولكن إذا صار هذا الرجل ملكاً فلن يسترضى الا إذا رأى عبادة الله كما كتب

(1) «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان اتى... إلى القديم الأيام فقربوه قدامه»... (7 ـ 13).

موسى، وأنكى من ذلك يدعي أنه (المسيا) أي المسيح فيكون مسيحاً وملكاً علينا فمن الضروري رفعه من الوجود قبل ان يتفاقم أمره!

فلما سمع رئيس الكهنة هذا الرأي اجاب انه يجب عليه أن يتفق أولاً مع هيرودس والوالي بلوطس لتخليص المحمية اليهودية والشعب الإسرائيلي من تضليلاته.

ومما يدل على شيوع ادعائه بملوكية إسرائيل أيضاً أنه لما كان في عبر الأردن ارسلت إليه السلطات الرومانية بعض الجواسيس والخونة ليورطوه فيجعلوه ملكاً عليهم ثم يسلموه إلى الحكام. إلا أن السيد المسيح علم بثاقب فكره خبثهم ونواياهم السيئة فرفض طلبهم وتركهم ومضى مسرعاً في سبيله وحده نحو الجبل تخلصاً منهم لعلمه بما انطوت عليه جوانحهم وما يدور بخلدهم من النوايا الخبيثة. «واما يسوع فإذ علم انهم مزمعون ان يأتوا ويختطفوه ويجعلوه ملكاً عليهم انصرف أيضاً إلى الجبل وحده» (6 ـ 15 يوحنا)، وزاد عليه برنابا في انجيله: ولما وجده تلاميذه قالوا له لماذا هربت منا فلقد طلبناك ونحن حزانى باكون. فقال لهم: إنما هربت لأني علمت أن جيشاً من الشياطين يهيىء لي امراً قبل الوقت، يقوم علي بعده رؤساء الكهنة وسيطلبون أمراً من الحاكم الروماني بقتلي.

ويظهر من فحوى الأناجيل ان السيد المسيح كان قد وعد تلاميذه الأثني عشر باستلام السلطة الزمنية وحكم إسرائيل يوماً من الأيام وكان ذلك لما سأله بطرس «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا يكون لنا» (9 ـ 27 متى). فقال لهم «متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون انتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون اسباط إسرائيل الاثني عشر» (19 ـ 28 متى)... وفي هذه الآية الانجلية إما صراحة عن نوايا السيد المسيح في الجلوس على كرسي إسرائيل، وتوزيع كراسي الاسباط على تلاميذه فان الجالس على العرش هو ابن الإنسان في هذه الحياة الدنيوية وان الذي سيحكم اسباط إسرائيل الاثني عشر هم تلاميذه الاثنا عشر كل منهم سيحكم سبطاً من الاسباط او كرسي ملكوت السماوات حيث تكون الدينونة.

وربما لم يكن هذا الجلوس والحكم والدينونة خاصاً بيوم القيامة وفي العالم الآخر لمعارضته آية «اكرزوا للخليقة كلها»... ولأن الدينونة في العالم الآخر خاصة بالابن لا يشاركه فيها احد... ولأن الآب قد اعطى الدينونة للابن وحده.

ومن المحقق ان الرقيب يهوذا الاسخريوطي الخائن وهو واحد من الاثني عشر من تلاميذه قد ابلغ السلطات الرومانية بهذا التصريح الخطير في يومه وساعته. فكان هذا الوعد السياسي المتعلق بحكم فلسطين وتوزيع حكم الاسباط على التلاميذ كافياً وحده لتنبيه السلطات الرومانية إلى ما يكنه السيد المسيح من نوايا وأفكار في ضميره.. وكان هذا التصريح وحده كافياً لالقاء القبض عليه وإدانته. ولم يكن السيد المسيح غافلاً عن يهوذا الاسخريوطي لما وعده بكرسي من كراسي الاسباط، وهو يعلم اتم العلم ما تنطوي عليه جوانحه من الخبث والغدر والنفاق... إلا أنه كان يرغب باصلاحه جهد المستطاع ولم يقم لرقابته وزناً.

5 ـ ولما لم يجد قيافا ابن حنانيا رئيس الكهنة والكهان الذين معه ما يستوجب إدانة السيد المسيح من

الوجهة الدينية، تمسكوا بادعائه بملوكية إسرائيل. وكانت هذه الفكرة قد انتشرت بين الناس فاتخذوها حجة عليه لتقديمه إلى السلطات السياسية التي تهمها جداً امثال هذه المسائل وتغيظها. واما المسائل الدينية والاختلافات المذهبية فهي تسير دائماً مع مصلحتها وقد تحث الناس عليها وتبذل كل جهدها لتأجيج نيرانها.

وكان حنانيا نفسه مع كثير من الشيوخ وجمهور الشعب قد طلبوا بإصرار من الوالي قتل بولس الرسول، بعد التحاقه بالمسيحية، كطلبهم منه قتل يسوع المسيح قائلين له اننا إذ وجدنا هذا الرجل مفسداً ومهيج فتنة بين اليهود ومقدام شيعة الناصريين ويقول بقيامة الأموات وقد شرع أن ينجس الهيكل وأردنا ان نحكم عليه حسب ناموسنا (24 ـ 5 اعمال). فلم يوافق الوالي على طلبهم، ولم يوافق على تسليمه اليهم بحجة خروجه على الناموس. إنما ارسله إلى رومية لمحاكمته هناك وكان ذلك لادعاء بولس «عن واحد اسمه يسوع قد مات وكان بولس يقول انه حي وقد قام من الأموات» (25 ـ 19 اعمال). فلم تكن هذه التهمة مما تمس الأمور الزمنية ولم يكن لها علاقة بالملوكية على إسرائيل فلا يخشى منها على سلامة الدولة. لذلك لم يلتفت الوالي إلى طلبات حنانيا رئيس الكهنة... كما كان قد التفت إلى طلبه في قتل السيد المسيح.. ولم يعره اهتمامه ابداً.. فصرفه كما جاء وأرسل بولس إلى رومية لمحاكمته فيها لحمله الرعوية الرومانية.

فلو كانت التهمة الموجهة إلى السيد المسيح دينية صرفة ـ كما هي عند بولس ـ لما حكموا عليه بالموت إنما كانوا يحكمون عليه بالحبس أو النفي أو الابعاد عن الناس للاستفادة منه عندما تدعو الحاجة.

6 ـ وعلاوة على ما مر نستدل على أن التهمة الموجهة إلى السيد المسيح هي ادعاؤه بملوكية إسرائيل ولا علاقة لها بالأمور الدينية. ومما ورد في محاكمته عند بيلاطس من نصوص الأناجيل الأربعة ونقلها حرفياً:

انجيل لوقا: «.. إن وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع ان تعطى ضريبة لقيصر قائلاً إنه هو مسيح ملك. فسأله بيلاطس انت ملك اليهود؟ فأجابه وقال انت تقول» (23 ـ 11).

ـ «ان كنت ملك اليهود فخلص نفسك» (23 ـ 37).

ـ «وكان عنوان مكتوب فوقه بأحرف يونانية ورومانية وعبرانية هذا هو ملك اليهود» (33 ـ 38).

انجيل مرقس: «.. فسأله بيلاطس انت ملك اليهود؟ فقال له يسوع أنت تقول. فسأله بيلاطس أيضاً أما تجيب بشيء؟ فلم يجب يسوع بشيء حتى تعجب بيلاطس» (15 ـ 2).

ـ «فقال بيلاطس أتريدون أن اطلق لكم ملك اليهود؟ فماذا تريدون أن افعل بالذي تدعونه ملك اليهود» (15 ـ 9).

ـ «وكان عنوان علته مكتوباً ملك اليهود» (15 ـ 26).

انجيل متى: «فسأله بيلاطس أأنت ملك اليهود فقال له يسوع أنت تقول. فقال له بيلاطس أما تسمع كم يشهدون عليك. فلم يجب عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي» (27 ـ 11).

ـ «وكانوا يجثون امامه ويستهزئون به قائلين السلام يا ملك اليهود» (27 ـ 29).

ـ «وجعلوا فوق رأسه علته مكتوبة هذا هو يسوع ملك اليهود» (27 ـ 27).

ـ «ان كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به» (27 ـ 42).

انجيل يوحنا: «ثم دخل بيلاطس ودعا يسوع وقال له أنت ملك اليهود؟ اجابه يسوع مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي في هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود ولكني الآن ليست مملكتي من هنا... فقال له بيلاطس أفأنت إذن ملك؟ أجاب يسوع انت تقول إني ملك... لهذا قد ولدت أنا، لهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد الحق» (18 ـ 23).

ـ «قال لهم بيلاطس هو ذا ملككم فصرخوا خذه خذه اصلبه! قال لهم بيلاطس: أأصلب ملككم؟ أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلا قيصر» (19 ـ 15).

ـ «وكانوا يقولون السلام يا ملك اليهود وكانوا يلطمونه» (19 ـ 2).

ـ «ان اطلقت هذا فلست محباً لقيصر كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر» (19 ـ 12).

ـ «قال لهم بيلاطس اتريدون ان اطلق لكم ملك اليهود» (18 ـ 38).

ـ «وكان مكتوباً يسوع الناصري ملك اليهود» (19 ـ 19).

ـ «أجاب نثنائل وقال له يا معلم أنت ابن الله. أنت ملك إسرائيل» (1 ـ 19).

ـ «فقال رؤساء الكهنة لبيلاطس لا تكتب ملك اليهود بل ان ذاك قال انا ملك اليهود» (19 ـ 21).

يتجلى من الأقوال الدارجة في هذه المحاكمة عدة مسائل نذكرها باختصار:

1 ـ كانت التهمة الموجهة إليه أنه يدعو لنفسه سراً انه مسيح وملك وانه قال عن نفسه إنه ملك إسرائيل.

2 ـ لقد شهد رؤساء الكهنة أنه قال أنا ملك اليهود.

3 ـ لو لم تكن هذه الفكرة قد انتشرت بين الناس لما وقع هذا الاتهام.

4 ـ لم ينكر التهمة إنما كان جوابه الوحيد (أنت تقول) وهي بمثابة تأييد.

5 ـ كانت التهمة الموجهة إليه أنه يفسد افكار الأمة ويمنع سراً أن تعطى ضريبة لقيصر ويجهر باعطائها.

6 ـ لم يجب عن شهادة الشهود بكلمة واحدة ولم ينفها عنه فكان سكوته بمثابة اقرار حتى تعجب الوالي من سكوته.

7 ـ لقد اعترف بحسب رواية يوحنا فقط انه ملك الا ان مملكته ليست من هذا العالم.

8 ـ لقد اقتنع بيلاطس بادعائه بملوكية إسرائيل.

9 ـ لقد كتب عنوانه «هذا ملك اليهود».

10 ـ وقد وصلت الدناءة عند رؤساء اليهود ان يقولوا ليس لنا ملك الا قيصر.

11 ـ ليس فيها سؤال وجواب عن الألوهية وعن الأمور الدينية وعن كل ما يتعلق بشريعة موسى.

12 ـ الباسه الأرجوان والتاج كعلامة على ملوكيته.

13 ـ لما كانت هذه الجلسة فرصة ثمينة لاعلان رسالته ولتبليغ أوامره ونواهيه ولنشر مهمته التي

جاهد لها وبذل نفسه من اجلها.. فان اجوبته الغامضة وان كانت قد سببت الحكم عليه فكان من الحق ان يتكلم بوضوح لا لبس فيه ولا ابهام، وان يدلي بصراحة غير متناهية وهو يعلم ان اجله قد اقترب ولم يبق له خوف من اعلان ما لديه من الأفكار والتصورات وما يريد ابلاغه وبيانه ليس للحاضرين فحسب، إنما للعالم كافة طرا إذا كان مجيئه حقيقة لحمل خطيئة البشر وإذا كان حقيقة انه ابن الله وحده فعلا لا مجازا. وإذا كان هو حقيقة أحد الاقانيم الثلاثة، ولم يشأ ان يفعل ذلك وان ينطق بكلمة واحدة وقد اختار السكوت رغم اصرار الوالي عليه باعطاء الجواب والدفاع عن التهم الموجهة إليه.

7 ـ اتفقت الأناجيل الثلاثة على سؤال بيلاطس له «أأنت ملك اليهود؟» وعلى انه كتب فوق رأسه «هذا ملك اليهود». واتفقوا أيضاً على أنه لم يجب يسوع بشيء سوى قوله «انت تقول» واختلف يوحنا عنهم باعطائه بعض الأجوبة التي ربما لم يفهمها بيلاطس. فان هذه الأجوبة وان كانت ضئيلة لتدل على ان ليس في سكوته أمور لاهوتية منعته عن الكلام وعن الدفاع عن النفس.

وأما ما يعود إلى توصية السيد المسيح حوارييه ان لا يخافوا إذا ما وقعوا في ضيق «ومتى ما قدموكم إلى المجامع والرؤساء والسلاطين فلا تهتموا بما تحتجون وبما تقولون لأن روح القدس يعلمكم في تلك الساعة ما يجب ان تقولوا»، وقوله «فمتى ساقوكم ليسلموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا بل مهما اعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلموا لأن لستم انتم المتكلمين بل الروح القدس» (13 ـ 11 مرقس)، وقوله «تساقون امام ملوك وولاة لأجل اسمي، فضعوا في قلوبكم ان لا تهتموا من قبل» (21 ـ 12 لوقا)، وقوله «لأني انا اعطيكم فهما وحكمة لا يقدر جميع معانديكم ان يقاوموها أو يناقضوها» (21 ـ 15 لوقا). كل هذا عندما يتعلق الأمر بالأمور اللاهوتية. واما ما يتعلق بالملوكية وفي الأمور الزمنية فلا يحتمل تدخل روح القدس فيها. لذلك لو كانت التهمة الموجهة إلى السيد المسيح تتعلق بالأمور الدينية والروحانية لتدخل الروح القدس وأعطاه نطقاً وفهما ولكان ادلى في تلك الساعة الرهيبة بقوة الروح القدسية ما يريد ابلاغه للعالم اجمع.. ومن الدساتير الدينية ما قد تضيء مشارق الأرض ومغاربها وتمحو الظلمات المتكاثفة في العقول البشرية إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها وتكون نبراساً يهتدي بها حتى تتبدل الأرض غير الأرض... والسماوات غير السماوات.

ولما كانت التهمة لا علاقة لها بالأمور اللاهوتية وهي تتعلق بالأمور الزمنية فقط فلم يتكلم روح القدس عنه.. وهذا ما دعا إلى سكوته وعدم الدفاع عن نفسه واكتفائه بقوله «انت تقول»، وهو قرار ضمني بطلبه الملوكية، لم يكن بوسع السيد المسيح انكاره والتكلم خلافه.. وهو اجل واعظم من ان ينطق بخلاف ما يضمر أو ان يحلف كذباً اثناء المحاكمة باسم الله الحي.

8 ـ ومما يدل على وعده لتلاميذه بعرش اليهود وحكم الاسباط ما جاء في الاصحاح الأول من أعمال الرسل «أما هم المجتمعون.. فسألوه قائلين يا رب هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل فقال لهم يسوع ليس لكم ان تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الأب في سلطانه» (1 ـ 6 اعمال). وهذا أيضاً يدل بصراحة على أنه كان قد وعدهم بعودة ملوكية إسرائيل الا انه لم يعين لهم الزمان.

يستنتج مما مر اعلاه ان السيد المسيح اراد أن يخلص الشعب الإسرائيلي ـ كما فعل موسى من قبل ـ من طغيان المحتلين ومن الذل والهوان ومن دفع الضرائب إلى الأجانب... وان يعيد اليهم ملكهم المفقود واستقلالهم المنشود، وشرفهم المضاع. الا ان اليهود وعلى رأسهم الرؤساء والكهنة لم يدركوا هذه المقاصد النبيلة ولم يقدروا هذه الأفكار العالية فلذلك كان السيد المسيح قد التزم جانب الطريقة الصوفية في بادىء الأمر حتى إذا ما نجح فيها واجتمع حوله العدد الوفير من الناس انتقل تدريجياً من المعلم الروحي إلى القائد الزمني. إلا ان الشعب لم يتبعه، والكهنة لم يرضوا عن قيصر بديلاً، ورؤساء الدين غدروا به، والزمان لم يمهله، فوقع غنيمة باردة في يد الجواسيس، وفريسة في يد الجمهور الجاهل المتفسخ الاخلاق وهو في مقتبل العمر وقبل ان يتمم البناء الذي عزم على تشييده واقامته.



الفصل الخامس ألوهية السيد المسيح

1 ـ كانت الأساطير الهندية تدعي أن «برهمن» هو كل شيء في العالم ومنه ظهرت الموجودات. ولما انتقلت عناصر هذه الأسطورة من الشرق تناولها هرقليطس الحكيم اليوناني فصاغها بشكل أوسع وأقوى وأعم. فوضع منها فلسفة وحدة الوجود وادعى ان الوجود شيء واحد لا يتغير وهو الوجود الكلي وان ما عداه موجودات جزئية تتنازعها الاضداد. وكانت قد انتقلت عناصر فلسفة هرقليس هذه إلى الاسكندرية وشاعت بين الطبقات الراقية وانتقلت منها إلى سواحل فينيقية وفلسطين وآسيا الصغرى وتأثر منها كثير من الفلاسفة والمتصوفة والكهنة والرهبان ورجال الأديان فاشبعتها هذه الأمم والأقوام بحثاً وتدقيقاً حتى أصبحت جميع الموجودات وبضمنها الإنسان جزءاً صغيراً قائماً بالوجود الكلي وهو الله.

ومنهم من ذهب إلى الحلول.. وهو ان الله كل شيء في كل شيء... متصل مع الكون.. فلا قطرة ولا ذرة ولا نسمة الا وهي جزء من الذات الإلهية، ومنهم من قال لا حيز ولا جهة ولا مكان لله.. إنما هو في كل حيز وفي كل جهة وفي كل مكان. وادعى آخرون ان روح الله تحل بالموجودات فتتأله.

واما من الوجهة الدينية الإلهية فتقول التوراة «ان الله نفخ في انف آدم نسمة حياة فاصبح نسمة حية» (2 ـ 7 تكوين). ويقول النبي داود في مزاميره «انا قلت انكم آلهة» (72 ـ 7). ويقول النبي ارميا عن لسان الرب «اما املاء السماوات والأرض» ويقول بولس الرسول «لكن لنا إلهاً واحداً الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن به» (8 ـ 6 كورنثوس).. وامثاله كثير.

2 ـ وكان السيد المسيح مطلعاً على فلسفة وحدة الوجود ويعلم دقائق التوراة واسفار الأنبياء... وان كثيراً من اقواله لتدل على اطلاعه الواسع في الفلسفة الإلهية وفي التوراة في الاسفار، وعلى تأثره بأقوال الأنبياء الذين سبقوه، خاصة فيما يتعلق بالقواعد الإلهية وبوحدة الوجود. فقد اخذ السيد المسيح كلمة ابناء الله بالروح من المعتقدات الدارجة حينذاك بأن الفراعنة ابناء رع إله الشمس. ومن التوراة بأن اليهود ابناء الله «بنو العلي كلكم» (82 ـ 7 مزامير) ومن بنوة كل امة في أرض فلسطين حينذاك لإلهها الذي تعبده. وصاغ هذه القواعد بشكل أقوى وأعنف فتوسع فيها حتى قال «في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في أبي.. وأنتم فيّ.. وأنا فيكم.. ألست تؤمن أني أنا في الآب. والآب فيّ.. لكن الآب الحال في هو يعمل الأعمال... صدقوني اني في الآب.. والآب فيّ.. الذي رآني فقد رأى الآب... لأنهم أبناء الله يدعون.. مجدوا أباكم الذي في السماوات لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات.. كما ان اباكم الذي في السماوات. ليس لكم أجر عند أبيكم.. أبانا الذي في السماوات.. يغفر لكم أبوكم لأن أباكم واحد الذي في السماوات.. لا تدعوا لكم أباً على الأرض.. وهم أبناء الله اعطاهم سلطاناً أن يكونوا اولاد الله.. انا والآب واحد.. الله روح».

هذه الآيات الإنجيلية وامثالها كثير تدل دلالة واضحة على ان السيد المسيح ـ أولاً: لم يخصص

الآب لنفسه بل جعله عاماً شاملاً للجميع، وان هذه الأبوية الإلهية روحية مجازية لا ذاتية ولا شخصية ولا جسمية. وثانياً: انه قالها بصيغة المفرد «أبي الذي في السماوات» كما قالها بصيغة الجمع «ابانا الذي في السماوات» فإذا كان الآب اباً للجميع فمعناه ان جميع الأرواح العالمية منبثقة منه وصادرة عنه. وثالثاً: انه قال بالحلول «الآب الحال فيّ وانتم فيّ وانا فيكم». ورابعاً: انه صرح أن الله روح وهذا معناه ـ كما يقول البراهمة ـ انه روح العالم المستولي على الكائنات وان جميع الأرواح ما هي الا قبس من نوره. وخامساً: انه صرح بوحدة الروح الإلهية العامة الشاملة المقدسة في العالم... فان حلول الآب فيه، وهو في الآب، وانتم فيّ، وانا فيكم وانكم آلهة، وروح أبيكم الذي يتكلم فيكم، والله روح، وانا والآب واحد...

كلها تدور حول وحدة الوجود الروحية التي هي من جملة الأسس والقواعد الصوفية التي تميزت بها اقوال السيد المسيح وتعاليمه. فقد قال انه ابن الله بحالة مجازية... أي في الحالة التي يكون فيها البشر كافة ابناء الله... وقد تأثر بها لوقا أيضاً واعتبر البشر كافة ابناء الله بالروح... وذلك في الاصحاح الثالث من انجيله في قوله «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن ابن يوسف ابن هالي... بن شيت بن آدم بن الله» (3 ـ 23). فقد جعل لوقا آدم أبا البشر ابن الله بالروح فكان البشر كافة ومن ضمنهم السيد المسيح أولاد الله بالروح. يؤيد ذلك ما جاء في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومه في قوله «عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد وتعيين ابن الله بقوة من جهة الروح القداسة بالقيامة من الأموات يسوع المسيح ربنا» (1 ـ 2).

فكانت بنوية السيد المسيح من الوجهة الدينية منحصرة بالروح فقط وهي، كبنوية آدم لله.

3 ـ ولم يكن السيد المسيح أول من اطلق كلمة (الآب) على الإله الخالق، إنما كانت هذه الكلمة دارجة على الألسن. وكان اليهود كافة، كسائر الأمم والأقوام، يعتبرون انفسهم ابناء إلههم بالروح «انتم أولاد للرب الهكم» (14 ـ 1 تثنية). ويخاطبون الإله الخالق بكلمة الآب. فقد قال اليهود للسيد المسيح «لنا أب واحد وهو الله» (8 ـ 41 يوحنا). وجاء في المزامير «انا قلت انكم آلهة وبنو العلي كلكم» (82 ـ 7). وجاء في خطبة لبولس الرسول «فإذ نحن ذرية الله» (17 ـ 29 اعمال). وبهذا كان اليهود كافة ابناء إلههم العلي ومن ذريته.

وكان لما قال السيد المسيح اثناء وعظه في جمع من اليهود «انا والآب واحد» (10 ـ 30 يوحنا)، تناول اليهود حجارة ليرجموه (لأجل تجديف) قائلين له «انك إنسان وتجعل نفسك إلهاً» (10 ـ 23 يوحنا). عاد وفسر لهم آية المزمور الآنفة الذكر فقال «أليس مكتوباً في ناموسكم: انا قلت انكم آلهة وبنو العلي كلكم؟ ان قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله ولا يمكن ان ينقض المكتوب، فالذي قدّسه الآب وارسله إلى العالم أتقولون له انك تجدف لأني قلت اني ابن الله» (10 ـ 34 يوحنا). يستبان من هذه الآية الانجيلية إذا كان أولئك الذين صارت إليهم كلمة الله وآمنوا بها اصبحوا بحكم الناموس والشريعة اليهودية آلهة وأولاد الله العلي، بالروح والمعنى، أي إنهم منزهون عن الخطأ والزلل والفساد والكفر والدنس، فمن الأجدر ان يعتبر السيد المسيح نفسه وبهذا المعنى والقصد هو أيضاً ابن الله بالروح. فلا يجب والحالة هذه اعتبار قوله كلمة «ابن الله» تجديفاً وكفراً بالإله. وبذلك كان

السيد المسيح بصفته مرسلاً من الله إلى العالم، يستعمل هذه الكلمة دوماً ويقول انه ابن الله بهذا المعنى فقط ولم يقصد انه من عين الذات والجوهر مع الله مطلقاً.

وجاء في هوشع «يقال لهم ابناء الله الحي» (1 ـ 11)، ويقول اشعيا النبي «والآن يا رب أنت أبونا.. نحن الطين وأنت جابلنا وكلنا صنع يديك» (64 ـ 8). فكان السيد المسيح أيضاً كسائر انبياء بني إسرائيل يعتبر رسالته منحصرة باليهود ابناء الله فقط فقال لتلاميذه «ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب» (26 ـ 15 متى). كما وأنه كان يستعمل هذه الكلمة في كل مناسبة بشكل أقوى وأعم «واما أنتم فأبوكم يعلم انكم تحتاجون إلى هذه» (12 ـ 30 لوقا).

وإذا كان التلاميذ قد اعطوا للسيد المسيح عنوان فتى الله «إذا قام الله فتاه يسوع ارسله ليباركم» (3 ـ 26 اعمال) وفي محل آخر «باسم فتاك القدوس يسوع» (4 ـ 31 اعمال)، فلم تكن هذه الفتوة أيضاً خاصة بالسيد المسيح وحده. فقد اعطى هذا العنوان لكل من مسح نبياً في إسرائيل «أنت القائل بفم داود فتاك» (4 ـ 25 اعمال) وغيره كثير مما يدل على ان الفتيان هم المسحاء وكلمة أب وابن وفتى ليست مبتكرة، إنما هي يهودية قديمة، وقد اخذها اليهود أيضاً من الفراعنة.

كان الاعتقاد السائد عند الأمم والأقوام البائدة كافة ان الآلهة قد تحل في الاشخاص فتتألّه، وقد تتزاوج وتتناسل الآلهة والجان مع امهات بشرية. ولها بنون وبنات منها بالروح. فقد جاء في الأساطير العربية ان بلقيس ملكة سبأ من أب جنّي وأم بشرية. وفي أساطير اليونان ان الاثنين من ذرية الآلهة (17 ـ 28 اعمال). وكذلك ملوك اليابان وملوك التيبت كلهم أولاد الآلهة. وفي الأساطير الفرعونية ان ملوك الفراعنة منذ بدء الأسرة الخامسة كانوا يعتبرون أنفسهم ابناء الإله (رع) من أم بشرية. ولذلك كانوا يلقبون انفسهم بأبناء إله الشمس.

فكانت الأبوة والبنوة الإلهية بالروح قديمة جداً عند البشر. وبموجب هذه المعتقدات كان اليهود كسائر الأمم والأقوام يعتقدون بالحلول، ويعتبرون أنفسهم أبناء إلههم يهوه. فهو أبوهم وهم ابناؤه بالروح.

4 ـ كان اليهود الذين شفاهم السيد المسيح من امراضهم يتحدثون في اورشليم بألوهيته ويعتقدون أن الإله قد تجسد فيه. وبتلك القوة الإلهية كان يعمل الأعمال ويحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص. فقد جاء في انجيل برنابا ان السيد المسيح لما خرج من نهر الأردن متجهاً بطريقه إلى اورشليم رآه احد الذين شفاهم من امراضهم، وكان من المؤمنين بألوهيته، وبحلول الله فيه، فذهب مولولاً حتى دخل اورشليم وهو يصرخ وينادي في الأسواق: ان إلهنا آت ههنا، تهيأي لقبوله يا اورشليم! فلحقه الذين عرفوا السيد المسيح من قبل، والذين شاهدوا اعماله الباهرة، وآمنوا بألوهيتة واعترفت كذلك الجيوش الرومانية عبدة الأوثان الذين يعتقدون بصحة تجسد الآلهة وإمكانية حلولها بالأشخاص البشرية فثارت وارتجت وفزعت، وخرج الكبير والصغير وحتى النساء تحملن اولادهن على اذرعهن لرؤية الله الذي يقال عنه انه حلّ وتجسد بيسوع. ولما اقتربوا منه اخذ الذين شفاهم من امراضهم يصرخون «مرحباً بك يا إلهنا!» وصاروا يسجدون له كما يسجدون لله! وقال له احد الكهان الذي حضر مع الجمع الغفير، ان اليهودية اضطربت لآياتك وتعاليمك حتى ان بعضهم يجهرون بأنك أنت

الله، وآخرون يقولون بأنك ابن الله، ويقول فريق آخر انك نبي فنرجوك إزالة الفتنة التي ثارت في اورشليم بسببك!

ففزع السيد المسيح وانذهل من هول ما سمع، وتنفس الصعداء، وقال «انصرفوا عني يا مجانين، لأنني اخشى ان تفتح الأرض فاها وتبتلعني واياكم. فلقد ضللتم ان ظننتم أيها الإسرائيليون أني إلهكم وانا إنسان مثلكم. لعن الشيطان الذي اغراكم بهذه الفتنة ألف لعنة. وانا اشهد امام السماء، واشهد كل شيء على الأرض، أني بريء من كل ما قد قلتم، لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية، وعرضة لحكم الله، اتكبد شقاء الأكل والمنام، وشقاء البرد والحر كسائر البشر، لاحظوا ان موسى حوّل بعصاه الماء دماً، والغبار براغيث، والندى زوبعة، والنور ظلاماً، وقتل الأبكار، وشق البحر، واغرق فرعون، واوقف يشوع الشمس، وشق الأردن، وانزل ايليا النار من السماء وانزل المطر... وجميعها مما لم افعله حتى الآن، وجميعهم بشر مثلي كانوا يفعلون بقوة الله الذي ليس له بداية، وليس له نهاية، وقديراً على كل شيء بكلمته. وهو لا يرى لأنه روح. فهو غير متجسد، وغير مركب وغير محدود وغير متغير، لا تسعه سماء السماوات، وليس له من حاجة إلى أحد. وهو لا يأكل ولا ينام ولا يرقد ولا فيه نقص. فهو في كل مكان، يحيي ويميت، ويفعل كل ما يريد، في كل وقت وزمان، وانا بشر منظور وكتلة من طين تمشي على الأرض، وفان كسائر البشر، ولي بداية ونهاية، لا اقدر ان ابتدع خلق ذبابة». ولما اكمل خطبته لطم وجهه بكلتا يديه حزناً على هذا الشعب الجاهل المغفل، فتأثر الشعب وارتاع مما رأى وسمع. وحدث على اثر ذلك نحيب شديد، وطفقوا يبكون ويلطمون وجوههم عما فرط منهم، وقالوا اخطأنا إليك ايها الرب فارحمنا، وعادوا إلى اورشليم.

5 ـ ولما أراد رجال الكنيسة في القرن الرابع الميلادي اسباغ صفة الألوهية على السيد المسيح وجعله فوق المستوى البشري، كان لا بد من ان يحصروا الأبوية الإلهية بالسيد المسيح وحده والبنوة بالسيد المسيح وحده.. فقرروا في مؤتمر نيقية ان يكون المسيح «ابن الله الوحيد المولود من الآب». ونزعوا من الآب ابوته العامة للشعب واولوا اقوال السيد المسيح الواردة في الأناجيل «أبي وأبوكم وأبانا» فقالوا عن «أبوكم وأبانا» أنها بالتبني وعن «أبي» أنها حقيقة. وقالوا «بالأبوية والبنوية» الخاصة للآب والابن وذلك رغم معارضة البطارقة الموحدين امثال نسطوريوس وآريوس وغيرهما. فقرروا ونشروا الثالوث المسيحي المكون من «الآب والابن والروح القدس» تحت زعامة الملك قسطنطين المتنصر حديثاً.

6 ـ وكان السيد المسيح يقرر بتعاليمه ان في الإنسان نوعين من الروح، الأولى: الروح الإلهية الكلية المقدسة وهي التي لا يعتورها الفناء والتغيير.. وتسمى الروح الإلهية وروح الحق وروح القدس. والثانية الروح البشرية والقوة الحيوية وهي التي تجري عليها احكام الكون والفساد. وكان يقول أيضاً بوجود ارواح نجسة شيطانية تدخل في اجساد بعض الناس والحيوانات وتولد فيهم الأمراض ويمكن طردها بالأمر والزجر وبالادعية والقراءات.

بالنظر لعقيدة السيد المسيح بوحدة الوجود الروحية العامة كان يقول إنه ابن الله بالروح، وإنه من روح الله، فهو والآب من روح واحد «انا والآب واحد» (10 ـ 3 يوحنا). وكذلك روح العالم كلها من روح الله. إلا انها قد حلت فيه بقوة وبأكثر مما تجلت في غيره.

ولما جاء بعد ذلك الأب اوريجين Origen فسرها تفسيراً من عنده، فقال إن السيد المسيح والآب من جوهر واحد. وكان من نتيجة هذا التفسير ان صار السيد المسيح إلهاً ابن إله. إلا أن بعض الفرق المسيحية التي رفضت هذا التفسير وأنكرت ألوهية السيد المسيح باعتبار انه ليس من جوهر الله ولا من ذات الله لأنه مسبوق بالعدم ولأنه مولود كما سيأتي بيانه.

7 ـ لم تكن كلمة ابن الإنسان أيضاً من مبتكرات السيد المسيح. فقد استعملها قبله النبي دانيال عوضاً من كلمة ابن آدم. فقد جاء في رؤياه «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن الإنسان اتى وجاء القديم الأيام فقرّبوه قدّامه فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتا تتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان ابدي ما لن يزول... وملكوته لا ينقرض» (7 ـ 13). فصارت كلمة ابن الإنسان علماً للسيد المسيح (الناسوت).. وصارت كلمة فقربوه امامه (الجالس عن يمين الله). وصارت كلمة اعطي سلطاناً ومجداً وملكوتا (ابن الله) وصارت سلطانه أبدي (الكنيسة). فكانت رؤيا النبي دانيال هذه حجر الزاوية للديانة المسيحية العالمية.

8 ـ وكذلك كلمة (الرب) لا يقصد منها (الله) في كل وقت وزمان وإنما قد تستعمل أحياناً بمعنى المعلم والسيد والآمر والمتسلط وولي النعم... كرب البيت ورب العائلة مثلاً. وحتى كلمة الإله التي هي من المحقق أعز موقعاً واعظم شأناً وأكثر هيبة واوسع شمولاً من كلمة الرب قد تطلق احياناً على البشر، فقد جاء في قوله الإله للنبي موسى «انظر إني جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك نبيك» (7 ـ 1 تكوين). وفي قول الإله أيضاً للنبي موسى عن أخيه هارون «وهو يكون لك فماً وانت تكون له إلهاً» (4 ـ 16 خروج).

ويظهر ان بولس الرسول أيضاً كان يفرق بين كلمتي الرب والإله. فكان يطلق كلمة الإله وتأتي بمعنى المعبود على الله وحده، وكلمة الرب وتأتي بمعنى المالك المربي المدبر لأمور الناس على يسوع وحده فيقول برسالته الأولى إلى اهالي كورنثوس «كما يوجد آلهة كثيرون وارباب كثيرون لكن لنا إله واحد الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له[1] ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به» (18 ـ 6). ثم يحدد بولس الرسول ربوبية يسوع أيضاً فيقول «ليس احد يقدر ان يقول يسوع رب إلا بالروح القدس» (12 ـ 3). فكانت ربوبية السيد المسيح ـ وليس الوهيتة ـ متعلقة بالوجهة الروحانية فقط، بمعنى انه من روح الله المقدسة. ويفرق بولس الرسول كذلك بين الله وبين السيد المسيح فيقول «... رأس كل رجل هو المسيح ورأس المسيح هو الله» (11 ـ 3). ويقول في رسائله كافة «نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح» ويؤكد أن ليسوع المسيح إلهاً فوقه فيقول «كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح» (1 ـ 16 افسس). ويعتبر السيد المسيح خاضعاً لله الآب فيقول فحينئذ «الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي اخضع له الكل كي يكون الله الكل في الكل» (15 ـ 28 كورنثوس). فيظهر ان بولس الرسول قد جعل بهذه الفقرة الأخيرة الله شيء والابن شيء آخر، وجعل الابن بالنفس وبالذات سيخضع لله، فيكون الله وحده الكل في الكل، وهذه تخالف تفسير الأب اوريجن من

(1) هذه ترمز إلى وحدة الوجود الشائعة في الأوساط الدينية والفلسفية.

ان الابن من نفس الذات والجوهر مع الله. فلو كان واحد في الجوهر مع الله لكان مثله كمثل الله لا يشمله الخضوع لأحد ويكون هو أيضاً الكل في الكل مع الله. إذن ما هو مصير الابن وكذلك الروح القدس بعد ان يخضعا لله ويكون الله وحده الكل في الكل؟

وبالنظر لما جاء في الأناجيل الأربعة لم يكن الحواريون (تلاميذ المسيح) يصفون السيد المسيح في حياته بأكثر من معلم أو مرشد أو نبي أو مسيح.. وقد تكررت هذه الصفات في كثير من صفحات الأناجيل المقدسة، وقد أيد ذلك السيد المسيح نفسه في آخر يوم من حياته الدنيوية «انتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأني انا كذلك فإن كنت وانا السيد والمعلم قد غسلت ارجلكم فانتم يجب عليكم ان يغسل بعضكم ارجل بعض» (13 ـ 13 يوحنا). فيستبان من هذه الآية الإنجيلية ان التلاميذ كانوا يدعونه في حياته كلها معلماً وسيداً فقط، ولا يزيدون عليها شيئاً. ويكون السيد المسيح قد اعترف في آخر يوم من حياته لتلاميذه وقبل ان يلقى عليه القبض بساعات قليلة، بأنه المعلم والسيد لا أكثر ولا أقل وأيدها بقوله «حسناً تقولون لأني أنا كذلك» فما زاد على هذا التصريح الصريح فهو زائد عما جاء في الكتب المقدسة كما وان السيد المسيح نفسه، وحتى في تلك الساعة الرهيبة التي يعلم بها جد العلم ان قد اقترب أجله وانتهى أمره من أمور الدنيا والعالم، لم يطلب من تلاميذه أولئك الذين سيقومون بنشر ديانته من بعده أكثر من ذلك. ولم يقل لهم إني من عين الجوهر مع الإله! وأني احد الأقانيم الثلاثة!

وتصفه مريم المجدلية أيضاً في حياته وبعد مماته أنه ليس بأكثر من معلم. وهي تعرفه حق المعرفة منذ أن اخرج منها سبعة شياطين (8 ـ 2 لوقا). فكان قد ظهر لها بعد قيامه من مرقده الشريف ورآها تبكي عند باب القبر، قال لها يسوع: «يا مريم» فالتفتت تلك وقالت له: «ربوني!» الذي تفسيره يا معلم (20 ـ 16 يوحنا)[1]، ولم تقل له يا إلهي ولم يعترض هو عليها ويصحح كلامها. فكان تلاميذه ومعارفه كافة يعلمون انه معلمهم وسيدهم فقط ولا يزيدون عليها شيئاً ابداً، ويعلمه معاصروه اليهود كافة وحتى الذين شاهدوا اعماله ومعجزاته انه فرد من أفراد الشعب اليهودي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كسائر الناس ولم يمنحوه حتى منزلة الأنبياء.

9 ـ وكان لما شرع يوحنا بكتابة إنجيله في افسس من بلاد اليونان باللغة اليونانية، ولم يكن مطلعاً على الأناجيل الأخرى، وكانت افكاره مشبعة بقواعد الفلسفة والمنطق ووحدة الوجود الروحية.. استهل إنجيله بعبارة فلسفية قوية: «في البدء كانت الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله هذا كان في البدء عن الله، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان» (1 ـ 1). ثم قال «الكلمة صار جسداً وحل بينا» (1 ـ 14). وفي محل ثالث منه قال «قال لهم يسوع الحق اقول لكم قبل أن يكون إبراهيم انا كائن» (8 ـ 58). وفي محل رابع منه قال: «والآن مجدني انت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (17 ـ 5). وفي محل خامس منه قال: «لأنك احببتني قبل إنشاء العالم» (17 ـ 25 يوحنا).

(1) جاء ذكرها في إنجيل يوحنا مرة أخرى «فقالا ربي، الذي تفسيره يا معلم» (1 ـ 38 يوحنا).

وجاء في رسالة بطرس الرسول الأولى: «معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم ولكن قد اظهر في الأزمنة الأخيرة من اجلكم» (1 ـ 20)[1]. وجميعها تتصل بوحدة الوجود الروحية. فأصبح وجود السيد المسيح بعد ذلك ازلياً وقبل ان يخلق الله العالم، ثم أصبح يسوع المسيح بالتعاقب نازلاً من السماء راكباً على السحاب محاطاً بالملائكة... قاضي يوم الدينونة... حاكم محكمة العالم الكبرى وصاحب الملكوت، وبالأخير إله ابن إله، وآخر الكل ابن الله الوحيد.

ولما جاء «اوريجين» وشرح كلمة «ابن الله الوحيد» وكلمة «انا والآب واحد» قال عنه باعتبار أن مريم أمه فهو من عين جنس الإنسان. وباعتبار ان الله أبوه فهو من عين جنس الإله بمعنى أنه «واحدي الجوهر أو من عين الجوهر مع الإله». فقبل مجمع نيقية منه هذا التفسير وأدخله في صلب وثيقة الإيمان وقبلت الكنيسة ان للسيد المسيح طبيعتين: الأولى إلهية «اللاهوت»، والثانية البشرية «الناسوت». فقد حل اللاهوت بالناسوت فصار السيد المسيح إلهاً وبشرياً سوياً، وهذا معناه حلول الروح الإلهي بالجسد الإنساني. الا ان نسطوريوس لم يقبل هذا التفسير وخرج عليه وقال كلمته التي لم تزل متداولة عند النساطرة «الآهه الآهه. ومسيا مسيا».

10 ـ ومن جملة قواعد السيد المسيح بالنظر لما جاء في إنجيل يوحنا ان الولادة على شكلين: الأولى تلك الحاصلة من الأب والأم، ويشترك فيها العالم الحي كافة «المولود من الجسد جسد هو» (3 ـ 6 يوحنا). والثانية الولادة من الله بالروح «والمولود من الروح هو روح» (3 ـ 6 يوحنا). وهذه تخص أولئك الذين يؤمنون برسالة السيد المسيح «ان كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر ان يدخل ملكوت الله» (3 ـ 5 يوحنا)، فيصيروا أولاد الله «واما الذين قبلوه فاعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنين باسمه» (1 ـ 12 يوحنا). وبهذا المعنى يكون كل الذين قبلوه هم أولاد الله بالروح وابناء آبائهم بالجسد.

وكان المجمع النيقاوي قد قرر لأول مرة سنة 325 م. بأمر الملك قسطنطين المتنصّر حديثاً وتحت زعامته ومن قبل هيئة عددها 318 اسقفاً من القائلين بألوهية يسوع المسيح، قدسية الأناجيل الأربعة وإحدى وعشرين رسالة من بين مئات الرسائل، وكذلك دستور الإيمان وفيه «نؤمن بإله واحد. آب ضابط الكل... وبرب واحد يسوع.. إله ابن إله.. الوحيد المولود من الآب..»، وبهذا الدستور المقرر أصبح يسوع المسيح وحده ابن الله بالروح حقيقة (وابانا وابوكم) بالتبني ومجازاً. ويظهر أن لم يكن احد من العالم المسيحي يعلم أن السيد المسيح وحده ابن الله وأنه إله ابن إله قبل هذا القرار.

11 ـ واما الذين قتلوا أو صلبوا وقاموا من الأموات وصعدوا إلى السماء وتألهوا وسيعودون مرة ثانية ليملأوا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، فهم أكثر من أن يحصيهم عد. أولهم اوزيريس الفرعون الصالح الذي قتله أخوه ست غدراً فانصفته الآلهة واقامته من بين الموتى وجعلته إله الدينونة وقاضي الأموات واعطته مفاتيح أبواب النعيم والجحيم وأصبح كل من يعتقد به يحيا حياة ثانية بعد الموت، وآخرهم

(1) تقول الأساطير الزرادشتيه ان الإله العظيم كان قد خمر طينة زرادشت بيده ستة آلاف سنة قبل أن يخلق العالم.

مؤسس البابية الذي شنقته الحكومة الإيرانية ورآه تلاميذه أنه صعد إلى السماء. ولكل أمة في أدوار ضعفها بطل أو ابطال من هذا القبيل... قتل وصلب وصعد إلى السماء فتألّه وعودته منتظرة.

ولما كان المسيحيون حتى القرن الثالث الميلادي مضطهدين في كل مكان ومغلوبين على أمرهم فكان من الضروري أن يغدقوا على معلمهم ويسبغوا على سيدهم بعض الصفات الخاصة بالألوهية التي كانت معروفة حينذاك، لتكون له ميزة أكبر ومكانة اعظم في قلوب المؤمنين لئلا ينفضوا من حوله. وبعد ان كان السيد المسيح في حياته معلماً وسيداً ونبياً، وكان قد صادق عليها بلسانه الكريم في آخر يوم من حياته كما سبق ذكره، تأيد بعد انتقاله إلى جوار ربه انه ابن الله الأوحد وإلهاً ابن إله عند تابعيه وقاضي يوم الدينونة وهو يعمل معهم ناظراً إليهم ومعاوناً لهم في اعمالهم كافة دافعاً لهم إلى أن يرث الله الأرض. ذكر متى في إنجيله عن لسان السيد المسيح «وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (28 ـ 20). وذكر مرقس في إنجيله «واما هم فخرجوا وكرزوا في كل مكان والرب يعمل معهم» (16 ـ 19). وذكر لوقا في إنجيله «وانا بعد معكم» (24 ـ 44)[1]. واما الناجحون في حياتهم بأعمالهم من مؤسسي الديانات والمذاهب والطرق فلم يكن لأتباعهم من حاجة لمثل هذا التأييد وهذه البيانات.

12 ـ بعد ان مات الاسكندر المكدوني والقياصرة الرومان وانقرض اليونانيون القدماء وتنصر الملك قسطنطين على أيد أمه هيلانة ولم يبق لدين «ابوللو» من ناصر ونصير... وجد الآباء المضطهدون فرصة سانحة ومتسعاً لنشر تعاليمهم الإلهية في شرقي أوروبا، فأظهروا من المرونة اقصاها في توحيد بعض القواعد الوثنية مع بعض قواعدهم الإلهية لتطمين رغبات الشعب اليوناني ولجلبه إلى جانبهم من دون تذمر وتبرم. يقول الأب داود النسطوري في كتابه «الإنجيل والصليب»: وتحت هذا التسامح الديني العظيم المنقطع النظير تجسد إله اللاتين واليونان (ابوللو) الساكن في الشمس في هيئة شاب صوفي فأدى رسالته إلى العالم.

13 ـ واما ما يتعلق بروح القدس أو روح الله، فقد كتبنا فصلاً خاصاً عن الروح في كتابنا المقدمة[2] وذكرنا ان المصريين القدماء كانوا أول من فكر بوجود الروح فدفنوا موتاهم في الاهرامات انتظاراً لعودتها إلى صاحبه.. انتشرت هذه الفكرة ودخلت اساطير الأمم السابقة كافة من زرادشتية وبابلية ويونانية وغيره.. فلا حاجة بنا لتكراره.

واما النبي موسى فلم يذكر عن الروح شيئاً إنما جاء ذكره مؤخراً على لسان أنبياء بني إسرائيل كافة منها قول النبي اشعيا «ويخرج قضيب من جذع يسي وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم.. روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب» (11 ـ 1). ومنها قول النبي حزقيال «وحل على روح الرب» (11 ـ 4)، وغيره كثير.

واما في الأناجيل فقد جاء ذكر الروح القدس لأول مرة عندما تعمد المسيح من يوحنا المعمدان.

---

(1) لقد أخبر الإله «لاما» المتخذ مستقره في التيبت أيضاً تابعيه انه سيعود ويكون معهم دوماً فقد تنتقل روحه من شخص لآخر ولم يزل حياً يعيش مع تابعيه.

(2) هو الكتاب الأول في هذا المجلد.

فيقول عنه متى «وإذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه» (3 ـ 17). ويقول مرقص «رأى السماوات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلاً عليه» (1 ـ 10). ويقول لوقا «انفتحت السماء ونزل عليه روح القدس مثل حمامة» (3 ـ 1). ويقول أيضاً «أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من روح القدس» (4 ـ 1). ويقول يوحنا في إنجيله عن لسان يوحنا المعمدان «اني قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه وهو الذي يعمد بالروح القدس» (1 ـ 34). ويقول أيضاً «روح الحق الذي لا يستطيع العالم ان يقبله لأنه يراه ولا يعرفه. اما انتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم... في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في الآب وانتم فيّ وانا فيكم واما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء» (14 ـ 17 يوحنا). ويقول أيضاً «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا اليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب فهو يشهد لي».

يظهر من هذه الآيات الإنجيلية أن روح القدس ما هو إلا روح الله الكلي المستولي على العالم. وقد سمي تارة روح الله وأخرى روح الحق وثالثة روح القدس ورابعة روح الرب وخامسة المعزي... وكلها حسب النصوص شيء واحد. يقول بولس الرسول عنه «الستم تعلمون ان جسدكم هو هيكل للروح القدس» (6 ـ 19). فهو الذي يحل بالأحياء وهو الذي يمكث بين الناس ويعلمهم كل شيء وهو الذي ينبثق من الآب ويصدر عنه ويقول بولس الرسول «فمجدوا الله في اجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله» (6 ـ 20). وهو يشابه ما كان يسميه ارسطو وغيره من الفلاسفة العقل الكلي الذي يدير العالم. ويشابه ما كان يسنده المجوس والوثنيون إلى إله الشمس من نشره الضوء والحرارة على العالم، ولولاهما لما حصلت الروح العامة والقوة الحياتية في الكون.

فقد جعل الآباء المتأخرون هذا الروح شيئاً مستقلاً قائماً بذاته منبثقاً من الآب والابن عند الكاثوليك، ومن الآب وحده عند الأرثوذكس «روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي» (15 ـ 26 يوحنا). وهو احد الأقانيم الثلاثة.. وهو المحيي والمميت، وهو الذي يهب القوة والحياة للعالم.

14 ـ كان الفرس القدماء عبدة الشمس والنور والنار قد اتخذوا يوم 25 كانون الأول (ديسمبر) يوم ولادة الإله «مترا» إله الشمس، وذلك لاعتقادهم بأن الشمس تخلصت بذلك اليوم من قبضة إله الظلام ومن الهبوط إلى الحضيض فأخذت بالصعود في السماء وازداد النهار دقيقة واحدة طولاً. ويوم 23 آذار (مارس) هو يوم الاعتدال الربيعي ويسمى نوروز أي اليوم الجديد باعتبار أن الشمس في ذلك اليوم قد تخلصت من محنتها تماماً وتساوى الليل مع النهار فأخذت بالصعود في كبد السماء، اتخذهما الفرس عيدين وثنيين للمجوس. كما وان يوم 23 آذار (مارس) كان يوم تذكار الإله «اتيس» إله الرعاة المولود من نانا العذراء من دون ملامسة بشرية عند الرومان. وقد اعتبر المصريون القدماء يوم 27 ديسمبر يوم ولادة للإله اوزيريس إله الشمس ويوم 28 ديسمبر يوم ولادة للإله حوروس واعتبر اليونانيون القدماء يوم 24 ديسمبر يوم ولادة للإله ابوللو، إله الشمس. وجميعها ايام أعياد للوثنيين.

يدّعي بعض المؤرخين أن البابا ليبريوس بناء على حساب الراهب ديوليسيوس وطلبه قرر أن يكون يوم 25 ديسمبر يوم ولادة للإله السيد المسيح، وقد صادف اليوم الذي ولد فيه الإله مترا، خلافاً

للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التي كانت ولم تزل تعتبر يوم 6 يناير يوم ولادة للسيد المسيح. ويقال ان هذا اليوم أيضاً يصادف عيد ميلاد الإله ديونيسيس عند اليونان وعيد الإله اوزيريس عند الفراعنة المتأخرين.

واتخذ المسيحيون يوم 14 ايلول من كل سنة، وهو يوم الاعتدال الخريفي، عيداً للصليب. ويمتاز هذا العيد بإيقاد النيران ليلاً على سطوح الدور فيرقصون حولها ويقفزون من فوقها... وهو يقرب من عيد مترا إله الفرس المجوس وعيد ابوللو إله اليونان في الاعتدال الخريفي... وكلاهما إله النار وبيوت النيران. فكان المجوس أيضاً يرقصون ويقفزون من فوق النيران ابتهاجاً بهذا اليوم. وكانت عبادة إله الشمس والنيران المجوسية انتقلت إلى اليهود أيضاً فكانوا يوقدون النيران ويرقصون حولها ويعبر بناتهم وبنوهم من فوقها. «وعبروا بنيهم وبناتهم في النار» (17 ـ 17 م. ثاني). فان اسفار الأنبياء كافة مليئة بتحذير الشعب اليهودي من هذه العبادة المجوسية[1].

اعتبر هذا اليوم عيداً للمسيحيين بأمر الملك قسطنطين المتنصر. يعللون ذلك ان امه هيلانة لما وجدت بقايا الصليب في فلسطين اشعلت النيران فوق التلول واخبرته بواسطتها عثورها عليه. فاعتبر هذا اليوم عيداً للصليب توقد فيه النيران. فكان من الغريب ان يصادف عثور هيلانة المتنصرة على بقايا الصليب في هذا اليوم.. ويعلل الاستاذ العقاد في كتابه (الله) هذه الأعياد فيقول: «ان آباء الكنائس الأولى لم يحتفلوا بتلك الأعياد. وهم يجهلون تواريخها. لكنهم بدأوا بالاحتفال بها لاعتبارهم ان اكرام السيد المسيح فيها اجدر بالمسيحيين من اكرام الشمس وسائر الأرباب الوثنية. وكانوا يرون اتباع الكنيسة يندفعون إلى محافل الوثنيين في تلك الأيام فيصرفونهم عنها باحياء وتمجيد السيد المسيح..».

15 ـ لم يترك السيد المسيح كتاباً أو شبه كتاب أو صحائف معينة ثابتة يعتمد عليها. ولا توجد منابع ثابتة قديمة للوقوف على سيرة السيد المسيح غير الأناجيل وبعض الرسائل المحررة. وقد كتبت هذه الأناجيل والرسائل بعد السيد المسيح بجيل أو جيلين كرواية وقصة أو كموعظة كتبها أناس اختلفوا حتى على اسم والد يوسف النجار الذي كان معاصراً لهم أو كان في امكانهم تحقيقه من الذين يعرفونه، بغض النظر عن اجداده القدامى حتى الملك داود. فبينما قد اعتبرهم متى في إنجيله 26 جيلاً، وقال عن يوسف النجار انه ابن يعقوب ابن منان، وهو منحدر من نسل سليمان بن داود، فقد اعتبرهم لوقا في إنجيله 42 جيلاً وقال عن يوسف النجار انه ابن هالي بن منثان... ومنحدر من نسل ناثان بن داؤد.. فكان هذا الاختلاف الشديد في الانساب وخاصة في عدد الأجيال ما دعا الفلاسفة والنقاد إلى التردد والشك في روايتيهما في المسائل التي ترتكز عليها أسس الديانة المسيحية الأصلية، كالانبثاق والحمل بدون دنس والتجسد وحمل الخطيئة والقيام من الموت وتبليغ الشرائع من عالم الموتى والأرواح والصعود إلى السماء والجلوس عن يمين الله والألوهية، وغير ذلك من المسائل الهامة

(1) ما ترى يعملون في مدن يهوذا وفي شوارع اورشليم، الأبناء يلتقطون حطباً والآباء يوقدون النار والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكة لملكة السماوات (7 ـ 17 ارميا). ويقول النبي ارميا «وبنوا المرتفعات للبعل.. ليجيزوا بنيهم وبناتهم في النار للوكك» (32 ـ 35).

المتعلقة بالمعتقدات المسيحية الأساسية، ولم يرد لها نصوص واضحة في الكتب المقدسة. لذلك نعتقد بأن هذا التحريف وامثاله قد نجم من تلاعب اقلام المترجمين في انتخاب الكلمات والمصطلحات.

ومع هذا كله لا يوجد في الأناجيل ما يستدل منه على ادعاء السيد المسيح بالألوهية وعلى أنه إله ابن إله. وكل ما هو موجود هو ما جاء في إنجيل يوحنا قول السيد المسيح لليهود «أبي هو الذي يمجدني الذي تقولون أنتم أنه إلهكم» (8 ـ 54 يوحنا). فإن إلههم هذا الذي عناه السيد المسيح بهذه الكلمة هو بالوقت نفسه أبوهم بالروح أيضاً وهو كذلك إله السيد المسيح وأبوه بالروح، بدليل قوله لمريم المجدلية «إني اصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (20 ـ 18 يوحنا). وما جاء في إنجيل يوحنا أيضاً «... الذي رآني فقد رأى الآب. فكيف تقول أنت أرنا الآب ألست تؤمن أني أنا الآب والآب في الكلام الذي اكلمكم به لست اتكلم به من نفسي... لكن الآب الحال هو يعمل الأعمال... الحق الحق اقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي اعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها» (14 ـ 8 يوحنا). وقوله «انا والآب واحد».. وحتى هذه الآيات لا تدل على ادعائه بالألوهية إنما تدل على حلول الروح الإلهية فيه كحلولها في غيره، وقد تكون عند غيره أقوى وأعظم مما هي عنده بدليل قوله «ويعمل اعظم منها» وهو لا يقصد منها الألوهية إنما يقصد الحلول ووحدة الوجود وقوة الروح القدسية التي تحل بأي شخص كان، فيعمل بمثل ما عمل وقد يعمل اعظم منها، والإيمان المطلق بالله وبرسالته وبنبوته. ويدعي الآباء ان قول المسيح «اهدموا هذا الهيكل وانا أقيمه بثلاثة أيام». وقوله «أنتم تقولون إني انا هو ـ أي ابن الله ـ فقالوا له ما حاجتنا إلى الشهود انا قد سمعنا من فيه» دليلاً على ادعائه بالألوهية مع أنه لم يقل لهم نعم! إني انا يسوع وحدي ابن الله حقيقة لا مجازاً، إنما كان يقول إني ابن الله في الحالات التي يكون الذين صارت اليهم كلمة الله آلهة وأولاد الله وقد سبق ذكره.

فان امثال تلك الكلمات كان يقولها دوماً ولا يقصد بها الألوهية وانه إله ابن إله إنما يقصد بها وحدة الوجود الروحية.



الفصل السادس توحيد السيد المسيح

1 ـ ان الصلاة هي الرمز الحقيقي لكل ديانة. ففي نص الصلاة التي أمر السيد المسيح بإقامتها وتلاوتها كل صباح ومساء وفي كل لحظة هي برهان قاطع على اعتقاده وطريقته الدينية، وهي محررة في الاصحاح السادس من إنجيل متى كما يلي: «فصلوا انتم هكذا... أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض... خبزنا كفافنا اعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ولا تدخلنا في تجربة لكن نجّنا من الشرير.. لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين».

لم يكن في هذا النص ما يخالف الشريعة الموسوية إلا في بعض الكلمات التي لم تكن مألوفة عند اليهود. واما المعنى الحقيقي فهو موافق كل الموافقة للتوحيد وللديانة الإسرائيلية. وإذا اعتبرنا أن الآب هو العظيم أو السيد أو الله فهي موافقة أيضاً للديانة الإسلامية. وان كلمة «نجنا من الشرير» تطابق «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» و«لأن لك الملك والقوة» تطابق «باسم الله الرحمن الرحيم» بالروح والمعنى. وبهذا، لقد اعطى السيد المسيح الملك والقوة والمجد لله تعالى وحده لا شريك له فيها. إذن ليس فيها ما يخالف الديانتين السماويتين اليهودية والإسلامية. فإن هذا التوحيد الإلهي مما قد يعتبر الخطوة الأولى لتوحيد الأديان بين البشر ولو إلى حين.

2 ـ ومما يدل على توحيد السيد المسيح ما جاء بإنجيل مرقس حول سؤال الفريسي الذي أراد امتحانه في الهيكل امام الجمع المحتشد ليتخذها حجة عليه فقال «يا معلم أية وصية هي أولى الوصايا»؟ فأجابه يسوع «ان كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل! الرب الهنا رب واحد.. تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك.. ومن كل فكرك ومن كل قدرتك». فقال له الكاتب جيداً يا معلم بالحق قلت لأن الله واحد وليس آخر سواه...

فلما رآه يسوع أجاب بعقل، قال له: «لست بعيداً عن ملكوت الله» (12 ـ 29 مرقس) وبهذه الآية الإنجيلية صرّح السيد المسيح للإسرائيلين وللعالم كافة بالوحدانية المطلقة، وبأن الله واحد لا إله سواه وبأن الكاتب بتوحيده هذا ليس بعيداً عن ملكوت الله. ويستبان من قوله (إلهنا) بأن إلهه بالذات وبالنفس وإله غيره على السواء، دون ان تكون له ميزة خاصة به أكثر من غيره. كما وانه لم يذكر شيئاً عن الأقانيم الثلاثة مطلقاً.

ومن المعلوم أن هذه الآية الإنجيلية (اسمع يا إسرائيل..) وردت نصاً ولفظاً في الاصحاح السادس من سفر التثنية (6 ـ 4) من التوراة وهي من اقسام الوصايا والفرائض والأحكام التي أمر الرب الإله النبي موسى ان يعلّمها للشعب الإسرائيلي. وهذا نصّها في السفر المذكور حرفياً «اسمع يا إسرائيل! الرب الهنا رب واحد فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك»... الخ. وهي طبق الأصل لما تلفظ بها السيد المسيح بلسانه الكريم مع الفريسي مما يدل على انه قد حفظها

من سفر التوراة عيناً بنصها ولفظها. ولما كان الخطاب موجهاً إلى إسرائيل، فمن المحقق أن الرب المقصود بهذه الكلمات هو الإله يهوه إله بني إسرائيل دون غيره «قال الله لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله اسحاق وإله يعقوب أرسلني اليكم هذا اسمي إلى الأبد» (3 ـ 15 خروج). واما صفات الإله يهوه التوحيدية، فهي معلومة وواضحة في اسفار الأنبياء، وهو واحد لا إله سواه، ولا اقانيم له مطلقاً. وهذا هو التوحيد الإسرائيلي المعروف الذي أخبر عنه وأيده أنبياء بني إسرائيل منذ النبي إبراهيم حتى السيد المسيح.

وتتجلى عقيدة السيد المسيح نحو إلهه أيضاً بما جاء في إنجيل متى «... وقال له... أيها المعلم الصالح أي صلاح اعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس احد صالحاً إلا واحد هو الله». وقال ان أردت أن تكون كاملاً فاذهب بع املاكك واعط الفقراء وتعالى اتبعني» (19 ـ 16). ففي الفقرة الأولى صرّح السيد المسيح بالوحدانية المطلقة واثبت الصلاح لله وحده ونفاه حتى عن نفسه. فكان الله الصالح شيئاً وهو شيء آخر. فمن لم يقبل أن يكون مساوياً بالصلاح مع الله لا يمكن أن يكون مساوياً بالجوهر معه، ولو كان من ذات الله حقيقة ومساوياً بالجوهر معه لكان صالحاً مثله ومعه. وفي الفقرة الثانية أوصى بالفقر والزهد عن الدنيا وهي من جملة طريقته الصوفية المعلومة لغايات بعيدة المدى.

3 ـ تعتبر الشريعة الموسوية ان الإله يهوه خلق الإنسان على صورته «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (1 ـ 26 تكوين). «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه» (1 ـ 28 تكوين). فكان الإله عند اليهود متصفاً بالصفات البشرية ـ أو على حد تعبير متكلمي المسيحيين فيه أجزاء من الصفات البشرية ـ وهو يصعد إلى السماء وينزل إلى الأرض، ويأكل ويشرب ويجلس في خيمة الاجتماع ويقضي بين الناس، ويأتي كل يوم عند هبوب ريح النهار ماشياً لزيارة آدم وحواء في جنة عدن (3 ـ 8 تكوين). وله مكان، شديد الانفعال، سريع الغضب، حقود منتقم، غيور يفتقد ذنوب الآباء في الجيل الثالث والرابع من الأحفاد «لأني أنا الرب إله غيور افتقد ذنوب الآباء في الابناء وفي الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضونني» (5 ـ 9 تثنيه). بينما السيد المسيح نفى جميع هذه الصفات عن الإله وقال «الله روح والذين يسجدون له بالروح والحق ينبغي انْ يسجد له» (5 ـ 24 يوحنا)، وجعله إله الرحمة والرأفة والعطف والمحبة، وبهذا التنزيه امتاز السيد المسيح عن انبياء بني إسرائيل كافة. ولما كان الله روحاً فلا أجزاء له ولا أعضاء ولا اقسام له ولا أبعاض ولا أمثال له ولا أشباه ولا مادة له ولا عناصر، ولا ينقسم إلى قليل أو كثير، وبالروح يسجد له لا بالحركات والصور والأشكال. فكانت النقطة البارزة في الديانة المسيحية الأصلية التي جاء بها السيد يسوع المسيح (عليه الصلاة والسلام) هي الإيمان بالله على شكل يخالف من سبقه من الأديان كافة في مشارق الأرض ومغاربها، وخاصة منها الديانة اليهودية التي كانت تجسم إلهها تجسيماً كاملاً. فقد جعل الله روحاً ونزّهه عن كل الصفات والمزايا والأخلاق والسجايا البشرية، تنزيهاً مطلقاً، وأعطى له القوة والمجد والصلاح وحده. ولما كانت القواعد الدينية اليهودية تجسم الإله والثنوية المجوسية تثني الإله (إله الخير وإله الشر) والوثنية المنتشرة في العالم على الغالب تثلث الإله، فكان هذا الشكل من التوحيد والتنزيه المسيحي

بعيداً جداً عن العقلية البشرية فلم يدركه الأسبقون، ولم تدركه حتى المشبهة المسيحية الذين جاؤوا بعد السيد المسيح بعدة قرون، أولئك المتشبعون بقواعد التوراة والمتمسكون بنصوصها، ولم يزل يوجد منهم حتى الآن.

يقال ان التجسيم وصل عند بعض الآباء أنهم نقشوا صورة الله بشكل إنسان فوق جُدُرِ كنيسة أولم Ulum في المانيا، وكذلك في كنيسة اوبسالا Upsala في السويد، وهو واقف على قدميه في ايام التكوين، يخلق الكون والعالم يوماً فيوماً، وفي اليوم السادس يخلق الإنسان على صورته! فكان بعض الآباء ولم يزالوا يعتبرون الله على صورة الإنسان وشبهه بالنظر لما جاء في سفر التكوين «يوم خلق الإنسان على شبه الله عمله» (5 ـ 1 ت.) فاعتبروه جالساً على عرشه كما تجلس الملوك على عروشها، وقد اجلس ابنه عن يمينه ليعاونه في مهمته.. فابتعدوا عن صفات التنزيه التي جاء بها السيد المسيح واقتربوا من صفات التشبيه والتجسيم. كل هذا ليسهل عليهم تفسير ألوهية السيد المسيح وناسوتيته. حتى قال المتكلمون من المسيحيين بعد ذلك ان التنزيه المطلق يجعل الإله بمثابة قوة مجردة خيالية بعيدة عن الاتصال بمجرى الكائنات، فلذلك وجب ان يكون للإله جهة ومكان وله بعض الصفات والاجزاء البشرية من سمع وبصر وإرادة وكلام... الخ لحصول التقارب بين الخلق والخالق والعبد والمعبود... كل هذه الفلسفة الكلامية ـ وهي مخالفة لقول السيد المسيح «الله روح» (4 ـ 24 يوحنا) لتبرير إجلاس السيد المسيح عن يمين الله لأنه في انتفاء الجهة والمكان ينتفي عنه اليمين[1].

وكان أول من قال بجلوس السيد المسيح عن يمين الله استانوس البار في خطبة ألقاها في اورشليم بعد وفاة السيد المسيح بقليل في قوله «انا انظر السماوات مفتوحة وابن الإنسان قائماً على يمين الله» (7 ـ 57 اعمال). فرجمته اليهود بالحجارة حتى الموت (7 ـ 58 اعمال). فكانت هذه الخطبة من جملة الأسس الثابتة للديانة المسيحية.

4 ـ ومما يدل على توحيد السيد المسيح المطلق ما قاله لمريم المجدلية بعد وفاته وقبل أن يرفعه الله بالنظر لما ورد في إنجيل يوحنا «ولكن اذهبي إلى اخوتي وقولي لهم اني اصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (20 ـ 17). وبهذه الآية الإنجيلية اعترف السيد المسيح صراحة انه ليس بإله وإنما مخلوق للإله. وقد اعترف أيضاً أن له إلهاً فوقه اعظم منه «لأن أبي اعظم مني» (14 ـ 29 يوحنا). وأيد ذلك بولس الرسول برسالته إلى أهل افسس في قوله «كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح» (1 ـ 17) ومن كان له إله فوقه اعظم منه يعبده لا يمكن أن يكون إلهاً يعبد، وبالنظر لهذه الآية الإنجيلية كان الإله العظيم إلهاً للسيد المسيح ولغيره على السواء.

5 ـ والأهم من كل ما سبق ما جاء في الاصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا حول تضرعات السيد المسيح في أواخر أيامه عند قوله «تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال أيها الآب قد أتت الساعة، مجّد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً... وهذه الحياة الأبدية ان يعرفوك انت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (17 ـ 1).

---

(1) وجد الإنكليزي «كرفت» ورقة بردى محفوظة في المتحف البريطاني جاء فيها ان الإله «توت» الذي يزن اعمال الميت بميزان العدل الإلهي واقف عن يمين إله الدينونة الأعظم «اوزريس» ويقدم إليه التقارير.

يتبين من هذه الآية الإنجيلية أن الإله الحقيقي هو الله وحده، وان يسوع المسيح مرسل من قبل الله، وان الله شيء ويسوع المسيح الرسول شيء آخر. ولما كان لا يمكن إرسال من عنده صفة من الصفات الإلهية لقضاء عمل من الأعمال ان قل أو كثر كما قد ترسل الأنبياء والرسل والملائكة، فلذلك كانت صفة السيد المسيح الأساسية هي الرسالة، وقد ارسله الله كما أرسل غيره من الأنبياء لهداية البشر. أما وان الآب قد يرسل ابنه لقضاء أمر من الأمور، وان الابن قد يطيع أمر والده فيذهب تواً لقضاء ذلك الأمر، فهذه من الأخلاق البشرية ولا تليق بذات الإله.

ومما يؤيد رسالته أيضاً قوله «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» وهذا دليل على أنه مرسل من الله.

فمن الممكن والحالة هذه وضع تلك الآية الإنجيلية بالشكل الآتي دون خلل بالمعنى. «أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح رسولك».

6 ـ وأخيراً ما جاء في إنجيل متى حول صلب السيد المسيح قوله «صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: ايلي.. ايلي. لما شبقتني» أيْ إلهي.. إلهي. لماذا تركتني (27 ـ 45). ومن كان له إله يستغيث به لا يمكن ان يكون إلهاً حقيقياً يستغاث به.

7 ـ وبالنظر لما جاء في الأناجيل الأربعة بمجموعها، فإن الرب الإله الذي قصده السيد المسيح عند قوله اسمع يا إسرائيل، هو الرب الإله يهوه الواحد وحده، وان المخاطب في الصلاة وفي الدعاء وفي الاستغاثة وفي المناجاة هو الله الواحد وحده، وان العبادات على اختلاف أنواعها تكون ابتغاء مرضاة الله الواحد وحده، وان الذي اعظم من السيد المسيح هو الله الواحد وحده، وان أب الجميع وإله الجميع ـ ومن ضمن الجميع السيد المسيح ـ هو الآب أو الإله أو الله الواحد وحده، وان الإله الحقيقي هو الله الواحد وحده، ولا يمكن ان يسمى الرسول إلهاً حقيقياً. ولما كان الابن وروح القدس لم يبلغا منزلة الأبوية أو الألوهية الحقيقية التامة وان الآب اعظم منهما، فمن الضروري ان يتصفا بالنقص والعجز بالنسبة للآب. والناقص والعاجز لا يكون إلهاً. ولما كان الله روحاً وليس للروح أجزاء وأبعاض، فكان الإله الحقيقي كما جاء في الآية الإنجيلية الآنفة الذكر هو الله الواحد وحده ويسوع المسيح رسوله. فيصح والحالة هذه قوله: «لا إله إلا الله ـ يسوع المسيح رسول الله». وبهذه التفسيرات وأمثالها كما سيأتي في الفصول القادمة يمكن توحيد الأديان!

الفصل السابع نبوة السيد المسيح

1 ـ يتبين مما ورد في الأناجيل الأربعة ان السيد المسيح كان نبياً كسائر أنبياء بني إسرائيل الكثيري العدد. ظهر في زمن كانت فيه الامبراطورية الرومانية في أوج عزها وعظمتها وجبروتها... وفي وسط أمة قد تفسخت اخلاقها وتمزقت أوصالها مرتبطة بالعادات والعنعنات... ومنهمكة بشروح التلمود والأسفار والتوراة... منقادة إلى الرؤساء والكهنة والزهاد والعباد، متمسكة بظاهر الشريعة لا تعلم لكلمة الروح والخلود والدينونة والنعيم والجحيم معنى، فشرع بالوعظ والإرشاد تارة خفية وتارة جهراً... ملازماً احكام الشريعة الأساسية وبتعديلات وإكمالات طفيفة غايته تحويل العبادات من الرسوم والأشكال والحركات الظاهرية إلى القلب والضمير والوجدان والروح... وإلى مكارم الاخلاق والفضيلة وإلى المثل العليا من اقسام الوصايا العشرة.. فلم ترق للكهنة والشيوخ هذه التعديلات والاكمالات وتحامله على التقاليد والبدع والتفسيرات والتأويلات، ولم يساعده الحظ برجال اشداء يعضدونه بسيوفهم ورماحهم ويحمونه بفؤوسهم وحرابهم عند الشدائد والملمات. فلم يفد الوعظ والإرشاد مع ذلك الشعب المتعصب ولم تؤثر النصائح في أولئك الكهان والشيوخ الذين لا يبغون عن قيصر بديلاً، فكانت السلطات الرومانية الاستعمارية واقفة له بالمرصاد تتربص حركاته وسكناته واقواله وتعاليمه وقد احاطته الجواسيس من كل جانب للعثور على كلمة منه لاتخاذها حجة لقتله أو لتسليمه إلى السلطات المحتلة، فقضى عمره بالفيافي والصحاري ورؤوس الجبال، أو في زوايا البيوت مختفياً عن أعين الرقباء، ينتقل من مكان إلى آخر دون ان يترك له أثراً. وإذا ما كان قد ظهر في أواخر أيامه في الأعياد بضع مرات في الهيكل تحت ضغط إخوانه، وخطب وتكلم وجاهد وجادل، فكان يهدد بالموت ويرجم بالحجارة ويطارد فيختفي عن أعين الناس.

2 ـ ويظهر من بعض عبارات الأناجيل ان السيد المسيح كسائر أنبياء بني إسرائيل لم يحد بوعظه وارشاداته كثيراً عما جاء بالتوارة، ولم يخرج عليه إلا قليلاً. كما وانه لم يأت بشرع جديد، إنما كان معدلاً ومكملاً لبعض احكام شريعة موسى والأنبياء الذين جاؤوا من قبله. فقال «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق اقول لكم إلى ان تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (5 ـ 17 متى). فكان قصد السيد المسيح أولاً ارجاع قومه إلى التمسك بروح الناموس، أي الشريعة لا بظواهرها، وإعادتهم إلى عبادة الإله بالروح لا بالاسم واللفظ والحركات البدنية والمراسيم الكاذبة. وهذا غاية ما كان يتطلبه في بادىء الأمر من بني قومه.

ولو اعترف الشعب بنبوته وآمن برسالته، وساعده الزمان، لأصبح في الامكان الانتقال عند ذاك من عهد التبشير والسلام إلى عهد السيف والاصلاح، كما كان الأمر عند النبي موسى وداود. فقد جاء في إنجيل متى قوله «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل

سيفاً» (10 ـ 34 متى). وذكرها لوقا في إنجيله بقوله «جئت لألقي ناراً على الأرض» (12 ـ 29 لوقا). وعند الوصول إلى هذا الحد يمكن عند ذاك، وضع شريعة كاملة اساسية لاستعادة ملوكية داود وعرش سليمان، والتخلص من الأجانب كافة. وقد بذل السيد المسيح جهده للوصول إلى هذه الغاية فلم يفلح، ولم يكن موفقاً في مقاصده النبيلة، فلم يحصل على تلاميذ اقوياء وأتباع اشداء يعضدونه في مهمته، ولم يؤمن الشعب برسالته، ولم يمنحه حتى كرامة الأنبياء «لأن يسوع نفسه شهد ان ليس لنبي كرامة في وطنه» (4 ـ 44 يوحنا). وآخر مثله في إنجيل لوقا «ليس نبي مقبولاً في وطنه» (4 ـ 24).

وإذا كان السيد المسيح مزوداً بالزعامة الدينية ومتحلياً بالصفات النبوية هادئاً عطوفاً رحيماً كثير السمع قليل الكلام... فإن هذه الصفات النبيلة والأخلاق العالية كانت بعيدة عن الصفات والميزات اللازمة للزعامة الدنيوية، ولوضع شريعة عامة لهؤلاء اليهود المتمردين، ولطرد رجال الاحتلال، ولتخليص عرش داود وسليمان، ولاسماع اليهود كلماته ولتبليغهم رسالات ربه وللقيام بهذا العبء العظيم والعمل الجسيم. وقد تكلم عن أشياء كثيرة وجاء بمعجزات عظيمة ودعا إلى أمور جليلة، فلم يقنع اليهود بمسيحيته، ولم يصدقوا أقواله ولا صحة نبوته فأنكروه وكذّبوه ولم يزالوا ينكرونه ويكذبونه.

من المحقق لولا استناد النبي موسى على بيت لاوي الاشداء لما نجح في تبليغ قومه رسالات ربه، كما ولو كان عند الشعب الإسرائيلي شيءٌ من الشجاعة لقتلوا موسى شر قتله، وعبدوا العجل وعادوا إلى مصر لا محالة. فلم يكن نبي من أنبيائهم الا خائفاً يترقب ريب المنون، أم مجندلاً يتخبط بدمائه. يقول النبي ايليا (الياسٍ) في مناجاته «يا رب قتلوا انبياءك وهدموا مذابحك وبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي» (11 ـ4 رسالة بولس إلى رومية). فوقع السيد المسيح أيضاً كسائر الأنبياء فريسة في أيديهم فحكموا عليه بالصلب حتى الموت كعادتهم.

3 ـ كانت محاكمة السيد المسيح امام الحكام الأجانب صورية شكلية أكثر مما هي حقيقية. وما كان غسل الوالي يده من دم هذا البار الذي لا يتكلم ولا يجيب بشيء عن الاتهامات المسندة إليه، وما كان قول الحاكم بيلاطس: هل تريدون أن اطلق لكم ملك اليهود؟ وقوله: أي شر عمل؟ وقوله أأصلب ملككم وغيره وغيره.. الا مراوغات سياسية رومانية ومخادعات شيطانية استعمارية... لم يسبر غورها البسطاء من المؤمنين، ولم يعلموا ان اعدامه كان قد تقرر في البلاط الروماني قبل إلقاء القبض عليه، وحتى منذ اليوم الذي دخل فيه اورشليم في موكب فخم راكباً على جحش اتان كما هو مكتوب في الكتب، ومن حوله تلاميذه يصرخون «اوصنا ـ المجد لله ـ لأبن داود، مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل» (12 ـ 13 يوحنا)، الأمر الذي لا تحتمله السلطات الرومانية مهما كان نوعه.. مع علمهم أن ركوبه على جحش اتان لم يأت عفواً، إنما تحقيقاً لبشرى النبي زكريا القائلة «ابتهجي يا ابنة صهيون هوذا ملكك يأتي إليك هو عادل منصور وديع راكب على حمار وعلى جحش ابن اتان ويتكلم بالسلام» (9 ـ 9 زكريا).

4 ـ يتبين من بعض الجمل والعبارات الواردة في الأناجيل الأربعة ان رسالة السيد المسيح في حياته كلها

كانت تعود إلى بني إسرائيل فقط، دون أن تكون له أيّ علاقة مع الأمم الأخرى. فيظهر منها ان السيد المسيح كان كسائر انبياء بني إسرائيل يعتز بيهوديته، ويحبها ويتمسك بها ويتحمس لها... وينظر إلى الأمم والأقوام الأخرى عبدة الآلهة الأجنبية كأنهم لا يستحقون العناية الإلهية والرحمة الربانية. فقد جاء في إنجيل متى لما لحقتهم المرأة الكنعانية وهي تصرخ وراءهم ليشفي ابنتها، التفت السيد المسيح وقال لتلاميذه «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة». فأتت الكنعانية وسجدت له قائلة يا سيد ارحمني، فأجاب وقال «ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب» (15 ـ 24 متى). فان في قوله (لم أرسل إلا...) صراحة قاطعة لا لبس فيها. ولا شك في ان الرب الإله لم يرسله إلا إلى بيت إسرائيل فقط ولا علاقة له مع الأمم الأخرى مطلقاً. وان القصد من كلمة (البنين) هم اليهود شعب الله المختار، ابناء الله وأعزاؤه. والقصد من كلمة الكلاب الأمم اللايهودية كافة. ولما بكت امامه المرأة الكنعانية وتضرعت إليه وقالت «نعم يا سيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها» (15 ـ 27 متى)، ووافقت على أن تكون من زمرة الكلاب التي تأكل من فضلات موائد السادة اليهود. فلم يتمالك قلبه الرؤوف الرحيم وقال لها «عظيم إيمانك ليكن لك ما تريدين، فشفيت ابنتها» (15 ـ 28 متى). نعتقد بجزم ان من المحال ان ينطق السيد المسيح النبي العظيم بلسانه الشريف الكريم أمثال هذه الكلمات البذيئة للأمم والأقوام اللايهودية كافة وان يقطع كل صلة له مع كل فرد في العالم ويعتبر الذين سيؤمنون والذين لا يؤمنون كافة في الحال والاستقبال بمنزلة الكلاب باستثناء بيت إسرائيل فقط. فلا يمكن تفسيرها وتأويلها الا بتحريف المترجمين الكلم عن مواضعه وتصرفهم في انتخاب المترادفات من الكلمات المتقاربة بالمعنى، مما سبب ابتعاد المعاني عن وضعها الأصلي التي نطق بها السيد المسيح بلسانه الكريم وهي غيرها في الأصل.

5 ـ وجاء في إنجيل متى أيضاً: لما اعطى السيد المسيح تلاميذه الاثني عشر سلطاناً على إخراج الأرواح النجسة وشفاء الأمراض قال لهم «إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (10 ـ 6 متى). فأما ما نسب إليه قوله (ع. م) إلى طريق أمم لا تمضوا، فيظهر ان القصد من كلمة (الأمم) هي الأمم اللايهودية كافة على الاطلاق، فيكون بهذه الآية الإنجيلية أيضاً قد منع السيد المسيح تلاميذه من الذهاب إلى أمم العالم ومن تبشيرهم بملكوت الله، باعتبار أن الأمم لا يستحقون عناية الله وكرمه.

وأما قوله «وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا» فمن المعلوم أن سكان (اورشليم ـ القدس) و(السامرة ـ نابلس) كلهم من أولاد النبي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم والمسمى أيضاً إسرائيل، وذلك أنه كان لإسرائيل اثنا عشر ولداً وهم رؤوس الأسباط الإسرائيلية، فكان بعد أن توفي النبي سليمان انقسمت مملكته إلى قسمين: الأول سبط يهودا وحده وعاصمته اورشليم «لم يتبع بيت داود الا سبط يهودا وحده» (12 ـ 20 الملوك الأول) وملكهم رحبعام بن سليمان، ويشمل القسم الثاني الأحد عشر سبطاً يسكنون في مدن كثيرة وعاصمتهم (السامرة) وملكهم يربعام. فكان اليهود والسامريون والحالة هذه أولاد الاعمام، الا ان العداوة الدينية والسياسية كانت متأصلة بين الحكومتين لدرجة أن الحروب لم تنقطع بينهما طيلة حكمهما في فلسطين. وكان السيد المسيح قد وقف مرة في أحد اسفاره على

بئر يعقوب وطلب من المرأة السامرية ان تسقيه ماء «فقالت له المرأة كيف تطلب مني الماء لتشرب وانت يهودي وانا امرأة سامرية لأن اليهود لا يعاملون السامريين» (4 ـ 8 يوحنا).

فكانت العداوة قد وصلت بينهما لدرجة ان استغاث «آحاز» ملك يهودا بملك آشور قائلاً «انا عبدك وابنك، اصعد وخلصني من يد ملوك ارام وإسرائيل القائمين علي» (16 ـ 7 الملوك الثاني)، فدخل شلما نصر ملك آشور السامرة عنوة وأسر ملكها «هوشع ابن ايله» (17 ـ 4 م. ث).

ووصلت العداوة الدينية بين المملكتين حداً شملت حتى الأنبياء (23 ـ 13 ارميا) وقد اسندت حتى إلى السيد المسيح في قوله «وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا» وذلك رغم ان المدن السامرية تحتوي على أحد عشر سبطاً من الاسباط اليهودية وهم يشكلون الأكثرية العظمى من بني إسرائيل الذين أرسله الله إليهم كافة، لا إلى ابناء يهودا وحدهم. فلا يمكن تفسير هذا التباين الا بتحريف المترجمين النصوص عن اصلها.

وأكبر دليل على تحريفهم الكلام في التراجم العربية المتداولة في أيدينا هي أنهم جعلوا السيد المسيح سامرياً. فقد جاء في إنجيل يوحنا على لسان اليهود قوله «فأجاب اليهود وقالوا له ألسنا نقول حسناً انك سامري وبك شيطان، أجاب يسوع...» (8 ـ 48 يوحنا). بينما يعلم الصغير والكبير من اليهود المعاصرين ان السيد المسيح ولد في بيت لحم وهو من نسل يهودا بن يعقوب (عذرياً) وشخصيته معلومة عند الجميع. وكان كلما تعجب اليهود من آياته ومعجزاته يقولون كإعلام المعلوم «أليس هذا ابن يوسف»... فمن المحال والحالة هذه ان يقول له اليهود انك سامري، فلا شك أنها من اغلاط المترجمين.

ومع هذا، سواء كانت رسالة السيد المسيح منحصرة في خراف بيت يهودا وحدهم، أو تشمل خراف بيت إسرائيل كافة، فإن هذه الآية الإنجيلية قد أيدت للمرة الثانية ان رسالة السيد المسيح منحصرة في بيت إسرائيل فقط ولا علاقة له مع الأمم الأخرى.

يستنتج من الآيات الإنجيلية الآنفة الذكر، إذا كان السامريون أولاد الأعمام الممتزجون بالدم مع اليهود لا يستحقون بنوة الله وملكوته وعطفه وكرمه، فمن الأحرى ان لا تستحقها الأمم الأخرى القاطنة في فلسطين وما وراء فلسطين في الحال، والاستقبال وعلى مدى الأجيال وفي طول الأرض وعرضها.

6 ـ ويستدل كذلك مما ورد في تراجم الأناجيل على أن رسالة السيد المسيح في حياته كانت منحصرة بخراف بيت إسرائيل الضالة فقط بما قاله للفريسي في الهيكل «أن كل الوصايا هي أسمع يا إسرائيل! الرب الهنا رب واحد...». فكان خطابه هذا موجهاً إلى بني إسرائيل وحدهم دون غيرهم من الأمم وأن الرب الإله المنوه عنه هو يهوه إله بني إسرائيل. فكان السائل يهودياً والرب الإله رب اليهود والقريب يهودياً والشريعة المنوه عنها في بقية الآية شريعة اليهود، ولا علاقة للأمم الأجنبية في مجموعها ولا في جزء منها.

7 ـ وأكثر دلالة مما سبق ما جاء في إنجيل متى أيضاً قوله لتلاميذه «لا تعطوا القدس للكلاب ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم» (7 ـ 6). فلقد تكررت بهذه الآية

الإنجيلية كلمة (الكلاب) مرة أخرى، وزيد عليها كلمة (الخنازير). ومن البديهي أن القصد من كلمة القدس ملكوت الله ومن الدرر الوعظ والتبشير، والقصد من الكلاب والخنازير الأمم اللايهودية في مشارق الأرض ومغاربها.

ولما كانت الكلمات الآنفة الذكر أكثر من سابقاتها سباً وشتماً وحقارة بالأمم اللايهودية وذلك بوسمها بالخنازير التي هي عند اليهود أكثر نجاسة وقذارة من الكلاب، تؤكد اعتقادنا بأن السيد المسيح بريء من هذه المسبات والشتائم التي لا تليق بلسانه المبارك وبذاته الكريمة وبشخصيته المقدسة وبمنزلته النبوية وبرسالته الإلهية وهو القائل (ع. م) «احبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم...» من أي أمة كانوا. فلا بد وان كلماته الأصلية، بالفاظها ومعانيها التي لم تدون بوقته وزمانه قد فقدها حواريوه وتلاميذه وهي غيرها بالأصل أو انه من تحريف اقلام المترجمين الذين ارتبك عليهم الأمر عند نقلهم معاني هذه الكلمات والجمل من لغة إلى أخرى، والله اعلم.

8 ـ جاء في إنجيل مرقس لما قام السيد المسيح بعد صلبه بثلاثة أيام من قبره الشريف، تراءى لتلاميذه بجسده الإنساني وراءهم «وهم متكئون ووبخ إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (16 ـ 14 مرقس). ويقول متى عنها «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» (28 ـ 19). فكان قيامه من مرقده الشريف بجسده الإنساني لتكون لأقواله هذه صفة شرعية. ومن الواضح أن هذه الآية الإنجيلية لا تنسجم ولا تتفق مع اقوال المسيح السابقة الذكر، ولا يحتمل ان السيد المسيح النبي العظيم والسراج المنير يتكلم بعد وفاته سواء بجسده الإنساني أو من عالم القيامة والموتى والأرواح، بكلام يناقض ما قاله مراراً وتكراراً وجزماً وتأكيداً في حياته كلها، ويخالف آخره أوله، ويعارض بعضه بعضاً. فبينما لم يوجه في حياته كلمة واحدة لهداية الأمم الأجنبية وكان يقول كما نسب إليه وسبق ذكره، «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة». ويقول «ليس حسناً ان يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب»، ويقول «لا تعطوا القدس للكلاب ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير»، ويقول «اسمع يا إسرائيل»، ويقول لتلاميذه «إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا بل اذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»، ولم يكن ما يمنعه ان يقول لهم في حياته سراً أو جهراً صراحة أو إيماء اذهبوا واكرزوا للخليقة كلها، فمن الغريب ان يقولها بعد وفاته ومن عالم القيامة والأرواح وان يبلغ شريعة عامة للبشر كافة مما قد تناقض شريعته الأساسية وما قاله في حياته، وان يفدي بنفسه ويهان ويصلب مقدماً لحمل خطيئة الأمم الأجنبية التي لا يعرفها، والأهم من كل ما سبق ان ينطق بعد قيامه من الأموات بكلمة واحدة من عنده، وخلافاً لشرائع الآب العظيم ورغباته الذي لم يرسله إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة فقط، فيجعل ديانته أممية عالمية للبشر كافة.

وعلى سبيل الفرض لو كان بعد قيامه من الأموات قد أمره بها الإله العظيم، فنطق بها بلسانه الكريم، لكان سمعها منه واذعن لها وعمل بها قبل كل احد تلميذه البار القديس سمعان بطرس الرسول كما سيأتي بيانه.

9 ـ جاء في إنجيل يوحنا لما قام السيد المسيح من عالم الأموات ظهر لتلاميذه على شاطىء بحيرة

طبرية، وكان من بينهم تلميذه البار سمعان بطرس فأوصاه السيد المسيح بوصيته المشهورة المحررة بالاصحاح الحادي والعشرين جاء فيها «... فبعدما تغدوا قال يسوع لسمعان بطرس يا سمعان بن يونا أتحبني؟ قال له نعم يا رب انت تعلم أني أحبك! قال له إرع خرافي! قال له أيضاً ثانية يا سمعان بن يونا أتحبني؟ قال له نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك! قال له ارع غنمي! قال ... ثالثة يا سمعان بن يونا أتحبني، فحزن بطرس لأنه قال له ثالثة أتحبني، فقال له يا رب انت تعلم كل شيء، أنت تعلم كل شيء، انت تعلم أني أحبك! قال له ارع غنمي! الحق الحق اقول لك...» (21 ـ 15). هذا ما قاله السيد المسيح لتلميذه بطرس الرسول بعد قيامه من عالم الموتى، وهي توافق تمام الموافقة لأقوال السيد المسيح في حياته بأنه لم يرسله الرب الإله إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة، ولهذا لقد أوصى السيد المسيح تلميذه بعد قيامه بإصرار ثلاث مرات أن يرعى تلك الخراف فقط؟!

10 ـ واما متّى فقد ذكر في إنجيله هذا الظهور من عالم الموتى للتلاميذ بما يلي «واما الأحد عشر تلميذاً فانطلقوا إلى الجليل، إلى الجبل حيث أمرهم يسوع، ولما رأوه سجدوا له. فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً: «... اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم بسم الأب والابن والروح القدس» (28 ـ 16 متى)، فكان من الأحرى ان يسمع هذه الوصية بهذه الكلمات والمعاني سمعان بطرس، وهو واحد من الأحد عشر من التلاميذ الذين ذكر متى انهم حضروا في الجليل، وسمعوا بهذه الوصية التي اوصاهم بها السيد المسيح بعد قيامه من عالم الموتى. فلو كان قد سمعها أو سمع امثالها أو ما يشابهها من السيد المسيح سواء في حياته أو بعد قيامه من عالم الموتى في ملاقاته معه لأذعن لها وبشر بها بين الأمم قبل كل احد، بينما هي تخالف تماماً لما أوصاه السيد المسيح بعد قيامه تأييداً وتأكيداً كما مر اعلاه قوله «ارع غنمي! ارع خرافي». ومن البديهي ان الخراف التي امره برعيها هي خراف بيت إسرائيل الضالة التي أرسله الرب الإله إليها، وليس إلى غيرها. وهذا يدل على ان السيد المسيح لم يحد مطلقاً بعد قيامه من الموتى عن أوامر إلهه الذي لم يرسله إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة، وهو أجل وأعظم من ان يتكلم بكلام يخالف رغبات إلهه وأوامره وشرائعه.

11 ـ ومما يدل دلالة قاطعة أيضاً على ان بطرس الرسول لم يكن قد سمع من السيد المسيح تلك الكلمات، ما جاء في خطبته التي ألقاها في قيصرية أمام الجمع المحتشد بقوله «... نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات، وأوصانا أن نكرز للشعب، ونشهد ان هذا هو المعين من الله ديّاناً للأحياء والأموات» (10 ـ 14 اعمال الرسل)، فقد أيد سمعان بطرس بخطبته هذه أيضاً ان السيد المسيح بعد قيامته من مرقده الشريف وبعد أن أكل وشرب معهم اوصاهم ان يكرزوا للشعب فقط وليس للشعوب ولا للأمم ولا للخليقة كلها.

ولما كان القصد من كلمة الشعب هو الشعب اليهودي، شعب الله المختار وليس غيره، فان هذه الوصية أيضاً تطابق تماماً ما قاله السيد المسيح في حياته المباركة كلها، وتطابق أيضاً (ارع غنمي!) وبهذا يثبت مرة أخرى ان بطرس الرسول لم يكن على علم بكلمة (للخليقة كلها) ولم يسمعها من أحد، فلم يكن والحالة هذه مقصراً بإداء واجباته الدينية وبالتوصيات التي أمره بها سيده وحبيبه السيد المسيح.

12 ـ وجاء في اعمال الرسل «اما الذين تشتتوا من جراء الضيق الذي حصل بسبب استفانوس، فاجتازوا إلى فنيقية وقبرص وانطاكية وهم لا يكلمون أحداً بالكلمة إلا اليهود فقط» (11 ـ 19 اعمال الرسل). وهذه الفقرة أيضاً تدل على ان المؤمنين الذين تشتتوا في البلاد لم يسمعوا تلك الكلمات لا من فم السيد المسيح المبارك ولا بالتواتر من التلاميذ الذين سمعوها منه، فلذلك كانوا يبشرون بالكلمة اليهود فقط، باستثناء رجال قبرصيين كانوا يخاطبون اليونانيين مبشرين بالرب يسوع، فكانت الديانة المسيحية في هذا الدور منحصرة باليهود وحدهم.

13 ـ ولما قاوم اليهود الذين في انطاكية تبشير بولس وبرنابا واستهجنوا كل ما قالاه عن السيد المسيح «جاهر بولس وبرنابا وقالا لليهود، كان يجب ان تكلموا انتم آولاً بكلمة الله، ولكن إذ دفعتموها عنكم وحكمتم انكم غير مستحقين للحياة الأبدية، هو ذا نتوجه إلى الأمم» (13 ـ 46 اعمال الرسل). فقرر بولس الرسول الذي أصبح مبشراً قوياً للديانة المسيحية التوجه إلى الأمم ونشر هذه الديانة الجديدة المعدّلة الخاصة باليهود والمنسوبة إلى السيد المسيح في مختلف الأوساط الأممية، ونقلها من نطاق اليهودية الضيق إلى ساحة الأمم العالمية. ومنذ ذلك الحين توجه بولس لأول مرة إلى تبشير الأمم بملكوت الله وبيسوع المسيح الذي فدى نفسه فوق الصليب لحمل خطيئة الذين يؤمنون به، فقبلته الأمم بكل سرور وارتياح وعم تبشيره طول البلاد وعرضها فانتشرت الديانة المسيحة في أنحاء العالم. واعلن بولس في رسالته إلى أهل رومية قوله «لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني لأن رباً واحداً للجميع» (10 ـ 12). وبهذا أصبح الرب الإله رب العالمين.

14 ـ وبينما كان بطرس الرسول تبعاً لما سمعه من السيد المسيح في حياته ووصاياه المختلفة بعد قيامه، كما مرّ أعلاه، يبشّر بالديانة المسيحية بين اليهود فقط ويسعى إلى تهويد العالم نازعه عليها بولس الرسول. ومما قاله له «إذا كنت وانت يهودي تعيش أممياً لا يهودياً فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا» (2 ـ 14 غلاطية). وبناء على هذه النصيحة كان بطرس الرسول قد كتب لأول مرة إلى أهل غلاطية حول تساوي البشر في السيد المسيح فقال «ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وانثى، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع» (3 ـ 29 غلاطية). وبهذه الكلمة ومنذ هذا الوقت أصبح بطرس الرسول أيضاً أممياً.

وبهذا نجح بولس الرسول باستمالة بطرس الرسول إلى جانبه (11 ـ 2 اعمال) وبجعله مبشراً للديانة المسيحية العالمية لنشر كلمة الله بين الأمم ولمكافحة الوثنية في العالم، وان كان ذلك خلافاً لما جاء في نصوص الأناجيل كما سبق ذكره عن حصرها في خراف بيت إسرائيل الضالة فقط.

15 ـ شرع بطرس الرسول من جانبه أيضاً بنشر تعاليمه بين الأمم «فسمع الرسل والأخوة الذين كانوا في اليهودية ان الأمم قبلوا كلمة الله. ولما صعد بطرس إلى اورشليم خاصمه الذين من أهل الختان ـ أي اليهود ـ قائلين انك دخلت إلى رجال ذوي غلفة وأكلت معهم، فابتدأ بطرس يشرح لهم بالتتابع قائلاً: فلما ابتدأت أكلمهم حل روح القدس عليهم، كما علينا.. فان كان الله قد اعطاهم الموهبة... فمن انا، اقادر ان امنع الله. فسكتوا، قائلين إذاً اعطى الله الأمم أيضاً التوبة للحياة» (11 ـ 8 ـ 1 اعمال).

وهذه الفقرة تدل دلالة واضحة على ان الرسل والأخوة الذين في اورشليم كافة، وعلى الأخص بطرس الرسول لم يكونوا على علم مطلقاً بما نسب إلى السيد المسيح بعد قيامه من الأموات قوله «أكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها باسم الآب والابن والروح القدس». ولو كان قد سمع الرسل والأخوة كافة هذه الكلمات لما خاصموا بطرس الرسول عليها. ولو كان قد سمعها بطرس الرسول لاحتج بها واتخذها ذريعة مبررة عند الأخوة والرسل.

16 ـ ومن المعلوم أن السيد المسيح كان يتكلم اللغة الارامية أي السريانية ولم تكتب في حياته آية واحدة من الآيات والإلهامات الربانية النازلة عليه من الأب العظيم والتي نطق بها بلسانه الكريم، في الصحائف وفي الكتب، إنما كان يبلغها شفهياً إلى تلاميذه، وتنوقلت عنه شفهياً أيضاً إلى المؤمنين برسالته حتى كتبت الأناجيل المقدسة بعده بعشرات السنين وباللغة اليونانية والعبرية، فكان التعليم المسيحي خلال تلك المدة يدور حول ما علق بالأذهان من كلمات واقوال وتعاليم السيد المسيح الشفهية.

وإذا كانت الأناجيل الأربعة المقدسة قد كتبت لأول مرة بإلهام من روح القدس كما يرويه الآباء والرهبان، فقد تناقلت تلك النسخ بعد ذلك في أيدي النساخ والكتاب مع كثير غيرها من نسخ الأناجيل والمواعظ مدة تزيد على القرنين ونصف القرن كانت جميعها بدون تفريق معرّضة لأقلام النسّاخ والمترجمين في تزييد أو تنقيص وتعديل أو تحريف كلمة أو كلمات في اللفظ أو في المعنى حتى تقررت نصوصها نهائياً عام 325 م. في مؤتمر نيقية.

ولم نتأكد من ان النسخ المعروضة على مؤتمر نيقية أكانت هي النسخ الأصلية التي كتبها الآباء متى، لوقا، مرقس، يوحنا بأيديهم وبأقلامهم وبلغتهم، أم هي من النسخ المترجمة والمتداولة وبالأيدي. وحتى ولو كانت النسخ المقدّمة إلى المؤتمر هي الأصلية بذاتها، فان في ترجمتها بعد ذلك من لغة إلى أخرى قد تبعدها عن ألفاظ وأهداف ومقاصد السيد المسيح الأساسية لا محالة. ولما كانت الترجمة شيء والأصل شيء آخر فكان هذا هو السبب على اغلب الاحتمال في حصول هذه الاختلافات في المعاني والتحريف في الكلمات.

17 ـ والحقيقة التي لا ريب فيها، هي انه لم تتح الفرص الكافية والعمر الطويل للسيد المسيح لكي يجعل ديانته وشريعته أممية عالمية تشمل الخليقة كلها. ولعله كان يستبدل طريقته هذه التي درج عليها بطريقة أخرى مستندة على السيف، وعلى التبشير الاجباري فيما لو كان قد نجح بمهمته في حياته. فكان من الضروري في بادىء أمره، كسائر الأنبياء والمرسلين ان يخاطب بني قومه أولاً وان يجعل تعاليمه صوفية، سلمية، تعبدية فقط، على ان تعمم رسالته فيما بعد. إلا أنه قبل ان يشرع بالبناء، وقبل ان يبلغ جميع رسالات ربه، حتى إلى بني قومه، قضي على حياته على يد شرذمة من المرائين الأفّاكين المنافقين أعداء الله ورسله.

ومن المحقق أن مساعي آباء الكنيسة وجهودهم الجبارة فيما بعد، وتفانيهم بأرواحهم في سبيل اعلان كلمة الله في بلاد الشرك، وفي تثبيت الكنيسة بيت الله في مشارق الأرض ومغاربها كانت السبب بتخليص العالم البشري من عبادة الأصنام والأوثان وتوجهه إلى عبادة الله بالروح والقلب ـ

وهو ما تحمد عليه الكنيسة وتشكر ـ وان كان هذا التوجيه مشوباً بالتثليث وبالصليب المادي وبالتماثيل والرسوم التي لا تفرق كثيراً عن الأصنام والأوثان. وهي مخالفة لرغبات السيد المسيح وتعاليمه ولم يرد لها ذكر في الأناجيل.

18 ـ ومما يدل ويثبت نبوة السيد المسيح أيضاً ما جاء في إنجيل لوقا من القول «لقد قام بيننا نبي عظيم» (7 ـ 16). ومن المحاورة التي جرت بين كليوباس والسيد المسيح لما قال الأول «... المختصة بيسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدراً في الفعل والقول امام الله وجميع الشعوب» (11 ـ 19). ولم ينكر السيد المسيح هذا القول، إنما أيده واعترف بصحته.

ومما يؤيد نبوة السيد المسيح أيضاً ما جاء في إنجيل يوحنا «فقالت له الامرأة يا سيد أراك انك نبي» (4 ـ 19) و«انه نبي» (9 ـ 13) و«حقاً ان هذا نبي» (7 ـ 40). وفي إنجيل متى «فهمّوا ان يمسكوه وخافوا من المجموع لأنه كان عندهم مثل نبي» (21 ـ 41). و«هذا هو يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل» (2 ـ 11). وفي إنجيل مرقس «أنه نبي كواحد من الأنبياء» (6 ـ 15). ولم يستنكر السيد المسيح هذه الأقوال.

ومما يؤيد نبوة السيد المسيح أيضاً ما جاء بخطبة تلميذه البار بطرس في اجتماع عقده الحواريون بعد ان رفع الله السيد المسيح إليه في قوله «فان موسى قال للآباء ان نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من اخوتكم، له تسمعون بكل ما يكلمكم به، وكل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب، وجميع الأنبياء أيضاً من صموئيل وما بعده تكلموا وأنبأوا بهذه الأيام» (3 ـ 22 اعمال الرسل).

هذا ما كان المعاصرون والحواريون والتلاميذ وخاصة تلميذه البار بطرس الرسول، يعلمونه عن السيد المسيح في حياته وبعد وفاته، انه كان نبياً من أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله خصيصاً إلى خراف بيت إسرائيل الضالة بتعديلات قليلة لشريعة موسى.

19 ـ لم يكن السيد المسيح مطّلعاً على الغيب ما لم يأته الوحي من الأب العظيم ولا يعلم ما كان وما سيكون... وما حدث وما سيحدث بأكثر من سائر الأنبياء وبأكثر مما يوحى إليه من ربه وإلهه... ولم يكن مطلعاً على ما يكنه له يهوذا الاسخريوطي وما يدور بخلده من النوايا السيئة فمنحه كسائر الحواريين تلاميذه السلطات التي يتمتع بها هو «ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مريض وكل ضعيف» (10 ـ 1 متى). وكان من بينهم يهوذا أيضاً. وقد تكرر ذلك حتى في أواخر أيامه وهو صاعد لآخر مرة إلى اورشليم فقال لتلاميذه «متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون انتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر» (16 ـ 28 متى). وكان من بينهم يهوذا الاسخريوطي أيضاً.

فلو كان في ذات السيد المسيح صفة من صفات الإلهية ولو كان مطلعاً على الغيب وعرف من البدء من هو الذي يسلمه، ولو كان باكثر من نبي، لاطلع على أفكار يهوذا وما سيفعله في المستقبل واقصاه من جانبه وطرده من البدء، ولما اعطاه كرفقائه سلطاناً على اخراج أرواح نجسة، ولما وعده بكرسي في بني إسرائيل، ولما جعله من الذين يدينون العالم سواء في الدنيا أو في الآخرة، حتى

تأكد من خيانته في آخر يوم من حياته «الحق اقول لكم ان واحداً منكم يسلمني» (26 ـ 20 متى). ومع هذا فقد ذكر يوحنا في إنجيله «لأن يسوع من البدء علم الذين لا يؤمنون ومن هو الذي يسلمه» (6 ـ 65).

20 ـ ظهر في العصور الأخيرة بعض الكتاب والمؤلفين في أوروبا ولدى بعض شباب العالم المسيحي من يدّعي ان شخصية السيد المسيح وقتله وصلبه أسطورة منتحلة لا أصل لها في التاريخ لفقها بالدرجة الأولى بولس الرسول ثم بطرس ومتى وغيرهم من الرسل، وان كل ما اسند إليه كان معروفاً في أساطير الديانات السابقة من ولادة بدون دنس، وظهور الكوكب الدريء في المشرق، ويوم الميلاد، والولادة في المذود، والتعميد، وذبح الأطفال، والقربان المقدس، والآلام، والهبوط إلى جهنم، والقيامة، والصعود إلى السماء، والتثليث، وعيد الفصح، والكعك، والفطير، ويوم الأحد، والدينونة.. الخ... ويقولون ليس في التوراة الذي يجمع احاديث الأنبياء وفي الأدبيات اليهودية وفي التلمود وفي التواريخ القديمة الدينية ما يدل بصراحة ـ بغض النظر عن بعض الكلمات الغامضة ـ على ان سيظهر ابن الله وهو أحد الأقانيم الثلاثة، ويصلب فداء عن الذين يؤمنون برسالته وكفارة عن الخطيئة الواردة من آدم، ثم يقوم من قبره ويصعد إلى السماء ويجلس عن يمين الله... ومن الواجب على بني إسرائيل الإيمان به وببنوته للأب العظيم الذي أرسله إليهم. ويقولون لو كان يوجد في عالم الوجود بمثل هذه الماهية لما ظهرت لرجال الكنيسة واختفت عن أعين الأنبياء العظام امثال ابراهيم وموسى وداود وسليمان، كما لم يكن من حاجة لدخول تلك الماهية المقدسة العظيمة في ادوار الحمل والولادة البشرية، ثم في دور الطفولة والشباب والكهولة كسائر أفراد الناس، إنما كان من الأنسب ظهورها مباشرة بشخصيتها الكاملة وهي مزودة بقوى واضحة عظيمة التأثير وفوق الطاقة البشرية للتأكد من ان الله حقيقة، أحب العالم فبذل ابنه الوحيد لتخليص النوع الآدمي من الذنب الأساسي ومن الخطيئة الفطرية... وبذلك يكون لها موقع ممتاز في نفوس العالم كافة ويؤمن بها كل نسمة بشرية.

ويقولون أيضاً لو كان قد ظهر أو وجد أي شخص وادعى بمثل هذا الادعاء وعلّم ونادى بتعاليمه في الهيكل والمجتمعات وأتى بالمعجزات ولحقه خلق كثير وحوكم وصلب ورفع وتأله.. لعرفه القاصي والداني وشاع خبره في الشرق والغرب ودوّن اليهود اخباره في كتبهم كسائر الأنبياء في حياته وبعد مماته... ولآمن به ولو قسم من بني إسرائيل مع أنهم قاطبة، باستثناء بعض الأشخاص، ينكرون وجوده، ويقولون إن الزمن الذي ظهر فيه السيد المسيح كانت المدنية اليهودية في أوج عزها وسؤددها وكان فيها الكتاب والمحررون والكهنة والمؤلفون... كما كانت هناك حكومة منظمة لها دواوينها وقوانينها وهي تتبع أدق المسائل السياسية كإرسال بولس الطرسوسي إلى رومية لمحاكمته فيها مثلاً لأنه ليس لحاكم مستعمرة فلسطين الحق بمحاكمته واعدامه لحمله الرعوية الامبراطورية الرومانية.

فمن المحال والحالة هذه، في حكومة هذا وضعها، ان يسجل في اسفار الأنبياء امثال حبقوق وعاموس وصفنيا وميخا وملاخى.. وتختفي شخصية السيد المسيح، وهو يأتي بدين جديد ويدعي انه

ابن الله وحده، ويظهر الآيات والمعجزات ويبرىء الأعمى والأكمه والأبرص ويحيي الموتى ويشفي المفلوجين والمقعدين، ويخرج العفاريت والشياطين ويتبعه خلق كثير، ثم يصلب ويقوم ويرفع إلى السماء... ولم يدون اسمه وتسجل اعماله العظيمة الباهرة التي تفوق معجزات كافة الأنبياء العظام الذين سبقوه وحتى اعمال النبي موسى، فكان من الواجب أن يؤمن به وبرسالته نصف اليهود على اقل تقدير ويدون اليهود اسمه واعماله آكثر من أي نبي آخر من أنبيائهم، واليهود ميالون للدين ومتمسكون به أكثر من أية أمة أخرى. ولم يزل يطبع في أوروبا الشرقية والغربية كثير من المجلات التي تلقي الريب والشكوك وتنشر الالحاد وتنكر وجود المسيح وتقارن بين اساسات الدين المسيحي وقواعده وبين ما سبقه من الأديان الوثنية وتعتبره ديناً ملفقاً من أديان كثيرة.

21 ـ فنقول لقد اغتر هؤلاء الناس بتشابه القواعد والمراسيم الدينية وآوصلهم طيشهم والحادهم وغرورهم إلى انكار وجود السيد المسيح. فلم يكن السيد المسيح شخصاً خيالياً إنما هو احد أنبياء بني إسرائيل الذين لا يحصيهم عد يمتاز عنهم بدساتيره الدينية والفلسفة الاسكندرانية في صباه، واستمع إلى عظات النبي يوحنا المعمدان، فأصبح عالماً بأحكام الشريعة، مطلعاً على تاريخ اليهود الديني.

فكان علمه واطلاعه واقوال يوحنا المعمدان ووطنيته الصادقة وانتسابه إلى الملك والنبي داود وحقه الصريح بالإمارة على إسرائيل، وفوق الكل رسالته النبوية كلها، من العوامل المؤثرة في اندفاعه في مهمته، وقيامه بإداء واجباته الدينية وبالوسيلة تخليصه الشعب الإسرائيلي من ظلم الرومان، ولاستعادة كرسي داود وسليمان. وكانت طريقته للوصول إلى اهدافه الزمنية هي أولاً الوعظ والإرشاد، والوعد والوعيد، والزهد بالحياة، والصفح عن الزلات، وعمل الخير وتقوية الروح والصلح والسلام. وإذا ما آمن الشعب بنبوته، وانقاد لرسالته، وعلا اسمه وقويت شوكته وذاع صيته، انقلب من القائد الديني إلى القائد الزمني ـ كالأنبياء موسى وداود وسليمان ـ ولم يكن هو دونهم مرتبة ان لم يكن أعلاهم درجة. الا أن الزمان كان قد تبدل والمحيط السياسي قد تحول، فلم ينجح بمقاصده ولم يفلح بدعوته مع هؤلاء اليهود غلاظ الرقاب كما وصفتهم التوراة، أولئك الذين لا يبغون عن قيصر بديلاً. ولم تتح له الفرصة الكافية من الزمن لنشر دعوته وتطبيق تعاليمه ووضع خططه، وكانت تنقلاته المستديمة بين السهول والجبال والمدن والقرى، قد اقلقت مضاجع الحكام وحسبوا لها ألف حساب. فلم تكن عيونهم غافلة عنه في حلّه وترحاله ولم تكن واقعة ثيوداس المتنبي، وفتنة يهودا الجليلي، وتبشير يوحنا المعمدان عنه ببعيد، فقرّر البلاط الروماني إلقاء القبض عليه وإعدامه كما أعدم زميله يوحنا من قبل.

فأوعز البلاط إلى رئيس الكهنة من طرف خفي فألقى الواشون القبض عليه وسلّم للوالي لإزالته من الوجود، حتى تستقر المستعمرة وتسلم من تعاليمه، ومما يحتمل ظهوره على يده وعن ثمرة نشاطه، لكي يكون اعدامه مانعاً لظهور الأنبياء من بعده. ولا قيمة لأرواح اليهود عند الرومانيين. وفي الحقيقة ان الحكم على السيد المسيح بهذا الشكل المفجع والوضع المؤلم كان رادعاً للمتنبئين فلم يظهر في بني إسرائيل نبي بعد السيد المسيح حذر القتل والصلب.. فكان خاتمة أنبياء بني إسرائيل. فلم

يكن السيد المسيح أول نبي خطب بالهيكل، وطورد وحكم عليه بالقتل والصلب. فقد سبقه كثير من الأنبياء خطبوا وبشروا وانذروا من منبر الهيكل فحكم عليهم بالموت كالنبي ايليا (الياس) وازخريا (زكريا ابن برخيا) ويوحنا (يحيى) و(ارميا) و(اوريا ابن شمعيا) وغيرهم كثير. وكان قبل السيد المسيح بقليل قد ادعى ثوداس عن نفسه انه شيء ويقصد بالشيء ان فيه عنصراً إلهياً فتبعه 400 شخص وآمنوا بدعوته. ولولا ان اهلكتهم الحكومة الرومانية عن بكرة أبيهم ورفعت اسمهم وذكرهم من الوجود، ولو كان قد سلم بعض تلاميذه من الموت وانتشروا بين الأمم، لكان لهم شأن لا يعلم غير الله مداه.

ولما كانت تعاليم السيد المسيح الدينية الأساسية المحررة بالأناجيل... صوفية بحتة، ومؤسسة على قاعدة وحدانية الوجود الروحية وجميعها تدور حول الزهد والتقوى والحب والاخاء والتجرد من العالم المادي للوصول إلى العالم الروحي والخروج من العالم المحسوس للدخول في عالم الملكوت، فقد رأى الآباء ان هذه التعاليم الصوفية لا يمكن ان تكون ديناً عاماً للبشر فأخذوا كثيراً من فروع قواعد الديانات المتعارفة حينذاك، ومن معتقدات البلاد التي بشروا فيها ولا تتعارض مع أساسات الدين المسيحي ليستسيغها الناس وليقبلوا عليها بسهولة، فدخل فيها كثير من المتشابهات مع نظريات ديانة الفراعنة والكلدان واليونان والفرس والرومان والبرهما والبوذا. ولما اطلع علماء المقارنة بين الأديان في زماننا على هذه المتشابهات ساقهم الخيال إلى انكار وجود السيد المسيح وإلى اعتبار القواعد الدينية المسيحية شكلاً منسوخاً للديانات الوثنية. وفاتهم ان وجود السيد المسيح وتعاليمه الدينية الأساسية، وهي ظاهرة وواضحة بين سطور الأناجيل المقدسة شيء، والتفسيرات والمقررات والمنقولات والقواعد والنصوص المترجمة من لغة إلى أخرى والتقاليد المتخذة مؤخراً في مؤتمر نيقية وما بعده من المجامع المسببة للتذمر والانشقاق بين المطارنة والبطاركة ولخروجهم على مقررات المجامع شيء آخر. ولا يجوز تلبيس الواحدة مع الأخرى.



الفصل الثامن شريعة السيد المسيح

1 ـ لم تكن الظروف السائدة في اليهودية عند ظهور السيد المسيح بحاجة إلى تشريع جديد. فكانت الشريعة اليهودية التعبدية كافية لاحتياجات الجمهور المتدين، وكانت الأحكام والقوانين الزمنية كفيلة لاستتباب الأمن بين الناس. فكانت الحاجة تتجلى في ظهور مخلّص ينتشل الشعب من الجهل والضلال ومن تردي الأخلاق، ويخلّص البلاد من استبداد الحكام الطغاة الكفرة، ويجرد الرؤساء والكهنة من الرياء والنفاق، واقسام العبادات من الحواشي والتفسيرات والتشديدات، وينقل القواعد الدينية من الأشكال والأوضاع والمظاهر والحركات والمراسيم إلى الضمير والوجدان والإيمان والحب والروح والقلب، وإلى الفناء بالله.

فلم تتح الظروف السائدة في فلسطين للسيد المسيح ان يبلغ رسالات ربه حتى إلى اليهود وان يعدل احكام الشريعة الموسوية تعديلاً جوهرياً، ويرفع عنها القواعد الشكلية والأشكال والرسوم. فكل ما هو موجود في الأناجيل، تعديل طفيف لبعض احكام شريعة موسى، وجميعها ـ باستثناء احكام الزواج والطلاق ـ تميل إلى التخفيف والتلطيف والتسهيل وترمي إلى التساوي بين الناس وإلى رفع الطبقات وإلى مكافحة الأغنياء ومواساة الفقراء (وهي ما تسمى في زماننا الاشتراكية) والانسياب نحو الاخوة البشرية، وتأييد المحبة والألفة بين الناس، والعفو عن الأخطاء والزلات، والتجرد عن الدنيا للدخول في عالم الملكوت، والتصوف القاضي إلى وحدة الوجود، وأخيراً الفناء بالله. ولما كان لا يوجد في شريعة موسى ما يدل على مصير الروح بعد الموت وليس فيها قيامة اموات فكان قد اتجه اليهود بكليتهم نحو الماديات. فلم يفهموا للمعنويات وللروحانيات معنى، بينما كانت شريعة السيد المسيح بعيدة كل البعد عن عبادة الذهب وعن كل الماديات والطقوس والمراسيم الشائعة الشكلية، قريبة كل القرب من عالم الإيمان والضمير والوجدان وملكوت الله، ومتصلة اشد الاتصال بالروح ومصيرها. وهذا ما دعا اليهود إلى ان يرفضوا نبوة السيد المسيح وشريعته.

2 ـ وكانت تعاليمه الإلهية تتلخص بعبارة «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (20 ـ 18 يوحنا)، الآب العظيم الذي هو اعظم من السيد المسيح «لأن أبي أعظم مني» (14 ـ 29) ومن كل شيء في العالم، وبأن الله روح لا يشمله الزمان ولا يحيط به مكان، فلا نزول إلى الأرض ولا صعود إلى السماء، ولا تشبيه عنده ولا تجسيم. وبذلك رفض آية خلق الله الإنسان على صورته، وقرر بأن ملكوت الله لا يقال هوذا هنا أو هوذا هناك، ولا يجب انتظار مجيئه من الخارج مع سرب من الملائكة لرفع الظلم وإزالة الحيف وجمع الكلمة وتكوين الوحدة ومقاتلة الكفار وطرد الرومان وإزالة زوس وجوبيتر من الميدان.

الا ان الظروف الجارية في فلسطين، ووضع الرؤساء والكهنة السائد، والجواسيس والعيون المحيطة بالسيد المسيح من كل جانب، تلك التي كانت تعد انفاسه وتقض مضجعه لم تساعده على ان يعلن فكرته هذه بوضوح، وان يظهر تعاليمه وآراءه بصراحة، فالتزم في اقواله وتبشيراته ـ وحتى ما يعود منها إلى الإلهيات وإلى الآب العظيم ـ جانب الامثال والالغاز، وجعلها تستتر بجلباب كثيف لا

يمكن لكل احد ان يسبر غورها، ويفهم مراميها «قد كلمتكم بهذا بأمثال ولكن تأتي ساعة لا اكلمكم أيضاً بامثال بل أخبركم عن الآب علانية» (16 ـ 25 يوحنا). وقد قال لتلاميذه مرة «ان لي أشياء كثيرة اتكلم واحكم بها من نحوكم لكن الذي ارسلني هو حق. ولم يفهموا انه كان يقول لهم عن الآب» (8 ـ 27 يوحنا). وقال لهم مرة أخرى «إن لي أموراً كثيرة ولكن لا تستطيعون ان تحتملوا الآن» (16 ـ 12 يوحنا). وقد تذمر منه حتى تلاميذه لأنهم لم يفهموا غاياته من امثاله «وقالوا له لماذا تكلمهم بأمثال» (13 ـ 10 متى). ومع هذا العتاب لم يتمكن السيد المسيح من التصريح بآرائه واقواله وتعاليمه حتى لتلاميذه. فكان يتكلم بقدر ما تسمح به الظروف فقط، لدرجة أنه كان يتذمر لعدم فهم الناس كلامه واقواله. فقد قال مرة لمخاطبه «لماذا لا تفهمون كلامي؟» ولم يفهم حتى تلاميذه، رغم مصاحبتهم له، مغزى امثاله «واما هم فلم يفهموا من ذلك شيئاً» (12 ـ 18 لوقا). وآخر مثله «هذا المثل قال لهم يسوع واما هم فلم يفهموا ما هو الذي كان يكلمهم به» (10 ـ 6 يوحنا). والأغرب من كل ما سبق انهم لم يفهموا حتى اقواله الصريحة التي لا غموض فيها ولا إبهام «كان يعلم تلاميذه ويقول لهم ان ابن الإنسان يسلم إلى أيدي الناس فيقتلونه فيقوم في اليوم الثالث واما هم فلم يفهموا القول وخافوا ان يسألوه» (32 ـ 9 مرقص). وقد اعترف تلاميذه بعدم فهمهم كلامه فقالوا «ما هو هذا القليل الذي يقول عنه، لسنا نعلم بماذا يتكلم» (16 ـ 18 يوحنا). فكان اصطناعه هذا الغموض والابهام في اقواله وتعاليمه انتظاراً لمجيء الوقت الذي يتمكن فيه من الادلاء بمقاصده بصراحة وعلناً وجهراً.

3 ـ ويظهر ان السيد المسيح لم يحظ بتلاميذ نبهاء اذكياء يفهمون اقواله ومغزى امثاله ويدركون مرامي كلماته ويسجلون مواعظه وتعاليمه، وأنى لهم ان يفهموا حينذاك المعنى المستتر في كلمات «ملكوت الله وإرادة الله. ووحدة الروح. والآب. والابن. وانا فيكم وانتم فيَّ وانا في الآب والآب فيَّ. ومثل الزيوان والعريس والمعزى روح القدس وغرس الكرم» (12 ـ 1 مرقص)، وجميعهم من السماكين والأميين مما أدى إلى ضياع كثير من اقوال وتعاليم السيد المسيح الاساسية الثمينة حيث لم يدوّن منها كلمة واحدة إلا ما علق بالأذهان من هنا وهناك فقط. وحتى هؤلاء التلاميذ كانوا في شك من صدق رسالة السيد المسيح ونبوته، فكان يخاطبهم دائماً بقوله «يا قليلي الإيمان». ويقول لهم «أيها الجيل غير المؤمن إلى متى اكون معكم... إلى متى احتملكم» (9 ـ 49 مرقص). وفي آخر يوم من حياته «قال لهم يسوع كلكّم تشكون فيَّ هذه الليلة» (26 ـ 21 متى). وفي الحقيقة لقد شكّ بعض تلاميذه به بعد قيامه من الأموات «ولما سجدوا له ولكن بعضهم شكّوا» (28 ـ 18 متى). ومما يدل دلالة واضحة على شكّ التلاميذ بصدق ما جاء به سيدهم. وما قاله توما بعد ان رفع الله السيد المسيح إليه «ان لم ابصر في يديه أثر المسامير وأضع يدي في جنبه واصبعي في أثر المسامير لا أؤمن» (20 ـ 25 يوحنا). ولما ظهر السيد المسيح للمرة الثانية لتلاميذه من عالم الأرواح قال لتوما «... هات يدك وضعها في جنبي ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً» (20 ـ 27 يوحنا). ففي مثل هذه الحكومة الظالمة ومع أولئك اليهود ومع هؤلاء التلاميذ الشكّاك، وفي هذا الوسط الديني والسياسي، لا يمكن تبليغ شريعة إلهية جديدة بأصولها وفروعها. ولا بد ان كثيراً من القواعد والتعاليم التي تمكّن السيد المسيح من تقريرها في

حياته القصيرة فقد أضاعها تلاميذه وفقدها حواريوه، وخسرتها البشرية. ولقد اجاد القديس يوحنا عندما ذكر في آخر آية من إنجيله قوله «وأشياء اخر كثيرة صنعها يسوع ان كتبت واحدة واحدة فلست اظن ان العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة. آمين» (21 ـ 25).

وإذا كان لوقا قد شاهد هذا النقص وأراد تلافيه فأسند إلى السيد المسيح أنه بعد ان رفعه الله إليه قد فتح من عالم الأرواح ذهن تلاميذه فقال «حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب» (24 ـ 45 لوقا). فلم يخلف السيد المسيح كتاباً مسطوراً أو رسالة مخطوطة حتى يقرأها ويفهمها تلاميذه. وكل ما هو موجود حتى ذلك التاريخ من الكتب المنوّه منها هي التوراة وأسفار الأنبياء وما يلحقها من الحواشي والتفسيرات فقط، ولا يوجد كتب غيرها. ولعل القصد منها هو أن يتذكروا اقواله وتعاليمه. وإذا ما كانت الديانة المسيحية قد انتشرت على ايدي الآباء المتأخرين فقد بقيت الكنيسة بدون كتاب إلهي رسمي موحد معترف به حتى القرن الرابع الميلادي إلى أن قرر مجمع نيقية قدسية الأناجيل الأربعة، التي اعتبرها الآباء فيما بعد انها قد كتبت بإلهام من روح القدس، وان لم تكن مطابقة لفظاً ونصاً وحكماً مع بعضها. وقد كتبت بعد السيد المسيح بعشرات السنين من قبل اشخاص لم يشاهد بعضهم السيّد المسيح ولم ينالوا بركاته.

ومع هذا، سواء أكانت الأناجيل الأربعة بجملتها من عظات السيد المسيح حقيقة أو كتبت بإلهام من الروح القدس كما يقوله الربانيون أو من روايات اصحابها كما يدعيه الملحدون، فمما لا شك فيه أن اقوال وتعاليم السيد المسيح الأصلية التي لم ينلها الاندثار والتحوير والتحريف اثناء الترجمة ظاهرة بنية في صفحات الأناجيل. وفيها مثلاً أن السيد المسيح قد اعترف بأنه ليس صاحب شريعة مستقلة، وانه متمسك بشريعة موسى. ومن لم يكن صاحب شريعة لا يسوغ له ان يدين احد، لذلك قال «إني لم آت لأدين العالم» (12 ـ 47 يوحنا)، وقال «اما انا فلست أدين أحداً» (8 ـ 15 يوحنا). وقال للزانية «انا أيضاً لا ادينك» وقال «ما جئت لانقض بل لاكمل» (5 ـ 17 متى). وقال «لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك انفس الناس بل ليخلص» (9 ـ 56 لوقا). مما يستبان منه ان السيد المسيح لم يأت بدين جديد وان المسيحية الأصلية هي بمثابة فرقة من الفرق اليهودية المتمسكة بأحكام وشريعة التوراة بتعديلات واكمالات طفيفة. وكان لما بدّل بولس الرسول شريعة موسى وبدّل حرفاً وحروفاً من الناموس (الشريعة) استقلت الكنيسة المسيحية وانفردت عن الكنيس اليهودي ثم أصبح لكل كنيسة من الكنائس المتعددة البالغ عددها 500 كنيسة وما فوق، شريعة خاصة مستقلة تمام الاستقلال عن غيرها بالمفرد وعن شريعة وموسى بالجملة.

4 ـ اسندت الأناجيل إلى السيد المسيح قوله «من طلق امرأته الا لعلة الزنى يجعلها تزني ومن تزوج مطلقة فانه يزني» (5 ـ 31 متى). وفي الحقيقة إذا كان الاقتصار على الزوجة الواحدة في البيت قد يوافق الطبيعة البشرية المدنية، ويولّد الحب والألفة بين الزوجين، فان في احكام الطلاق جوراً وصرامة على الرجل والمرأة على حد سواء. وذلك لأن الطبائع والأخلاق والعادات والأمزجة البشرية متفاوتة عند الناس. فقد يحصل الاتفاق بين الزوجين، وهو الغالب، وقد لا يحصل، وهو النادر. فعند عدم حصوله قد يجعل الدار جحيماً لا تطاق. وإذا كان هذا التشريع الجديد في احكام الطلاق قد

وضع للمحافظة على حقوق المرأة من تهوسات الرجل، وهو عمل في غاية النبل والشرف، فقد اعطى نتائج سلبية عند التطبيق العملي، وعند اصطدامه بالغرائز البشرية، وذلك بسوقه الناس إلى سوء الخلق والبعد عن المسكن والسكوت على مضض عن المخالفات، مع ان الشرائع يجب أن تزيل المفاسد وتثبت الفوائد. ولقد توسع بولس الرسول في احكام الزواج والطلاق وكتب الاصحاح السابع من رسالته إلى أهل كورنثوس وفيها من الأحكام الصارمة ما قد تقضي على النسل البشري. وكان من جملة ما قاله «حسن للرجل ان لا يمس امرأة» (7 ـ 1)، ثم اجاز اضطراراً واحدة.

وسبق ان اعترض الحواريون على هذا الحكم الجائر الصارم المخالف للطبائع البشرية وقالوا «ان كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق ان يتزوج» (19 ـ 11 متى)، فقال السيد المسيح «من استطاع ان يقبل فليقبل» (19 ـ 12 متى). فأصبح الحكم ثابتاً لا محيد لأحد عنه وقبلته الشعوب المسيحية مرغمة كافة. وكان هذا التشريع نتيجة لكلمة وردت في التوراة وهي «لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون جسداً واحداً» (2 ـ 24 تكوين). فيقول متى عن لسان السيد المسيح «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان» (19 ـ 7 متى). ولما كان الزمان قد تبدل والتفكير البشري قد تطور، فان لم يكن بمقدور الآباء تفكيك هذه العقدة وإيجاد مخرج لها تتوافق والعقلية البشرية في هذه العصور المضطربة، فقد اخذتها المحاكم المدنية على عاتقها معتبرة الزواج لا يتجاوز العقد بين الطرفين كسائر العقود... متى شاء احد المتعاقدين يمكنه فسخه. فأصبح الطلاق خاصة في اميركة أكثر مما هو بكثير في بلاد أصحاب الأديان الأخرى.

5 ـ وكان السيد المسيح متمسكاً بشريعة النبي موسى ومرتبطاً بها ويتعصب لها ويعمل بها ويحافظ على مناسكها ويسمي اليهود أبناء وقال «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لانقض بل لأكمل. فالحق الحق اقول لكم إلى ان تزول السماء والأرض لا يزول حرف أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكمل الكل» (5 ـ 17 متى). وقال «على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون. فكل ما قالوا لكم ان تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ولكن حسب اعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون» (13 ـ 2 متى). وفي هذه الآية الإنجيلية صراحة كافية عن تمسك السيد المسيح بشريعة موسى. وقد أمر اتباعه بحفظ هذه الشريعة والعمل بها. وكان السيد المسيح قد ارسل الأبرص بعد أن شفاه من مرضه إلى الكنيس وقال له «انظر أن لا تقول لأحد بل اذهب وار نفسك للكاهن وقدم القربان الذي أمر به موسى شهادة لهم» (4 ـ 8 متى). مما يستدل منه تمسكه حتى بالقرابين. وأما الآباء فقد وفقوا على استبدال يوم السبت المؤيد بالمادة الرابعة من الوصايا العشرة «اذكر يوم السبت» (8 ـ 20 خروج) بيوم الأحد تبعاً لوصية قسطنطين ملك الروم المتنصر بدعوى ان السيد المسيح قد قام من قبره يوم الأحد فجعله يوم عطلة. ووافق الآباء على هذا التبديل ليكسبوه بينما يوم الأحد كان عطلة للمجوس الوثنيين عبدة الإله أبوللو إله الشمس عند اليونانيين وكان يسمى يوم الشمس. ومما يدل على احترام السيد المسيح ليوم السبت توصيته لتلاميذه بقوله «وصلوا لكي لا يكون هربكم في شتاء ولا في سبت» (24 ـ 20 متى).

وأبطل بولس الرسول شريعة الختان أيضاً مع ان السيد المسيح نفسه كان مختوناً تبعاً لسنة اليهود.

6 ـ ولما تحقق عند العلماء الاخصائيين خطأ الأرقام المحررة للأجيال والإنسال في العهد القديم وثم في العهد الجديد عند ربط نسب يوسف النجار بآدم ابن الله (إنجيل لوقا)، وقدّم علم الجيولوجيا المعلومات الكافية عن التكوين واظهر علم الآثار القديمة المعلومات الثمينة عن سلالات الفراعنة الأقدمين.. وخاصة حول ما جاء في الألواح البابلية السبعة عن أساطير الخليقة والتكوين وعن ظهور البشر فوق سطح الأرض، وثبت ان نقوش «استاودندره» مثلاً ترجع إلى عشرات الألوف من السنين... وان للتوراة ثلاث نسخ متباينة عن بعضها... تزلزلت قدسية العهد القديم وحصل الشك في صحة ما ورد فيه من الأنباء. ولهذه الأسباب وأمثالها رفض بعض الأكليركيين في جلسة يوليو سنة 1917 المنعقدة في مجلس كانتربري الكنيس ان يقولوا نعم عندما يلقي عليهم السؤال الآتي «هل تصدق تصديقاً حقيقياً وتؤمن إيماناً صادقاً كل ما جاء في أسفار العهد القديم والعهد الجديد التي يتكوّن منها الكتاب المقدّس وانه اتى من عند الله؟». فلم يستطع الاكليريكيون قبول اليمين بهذه الصيغة لأنهم لا يؤمنون إيماناً صادقاً يصحة كثير من المنقولات والأخبار، والقصص والروايات الواردة في الكتاب المقدس، وبأنها جاءت من عند الله وقالوا إننا لا نستطيع الإيمان بحكاية حوت يونان مثلاً.

وبناء على هذا التذمر قرر المؤتمر الكنسي بأربعة وسبعين صوتاً ضد أربعة اصوات أن يكون السؤال الى الشمامسة على الوجه الآتي: «هل تؤمن حقاً بأن اسفار الكتاب المقدس نقلت إلينا في كثير من اجزائها وبطرق شتى الوحي الإلهي الذي تمم بالمسيح؟» فيكون الجواب «نعم».

فإذا كان الشمامسة لا يستطيعون الإيمان بجميع ما جاء في العهد القديم والجديد حرفاً بحرف، كيف يؤمنون ببعضه ويجحدون بالبعض الآخر؟ وأيها التي يؤمنون بها والتي يجحدونها؟ وما هو الفرق بين حكاية يونان وقد ذكرت بالإنجيل عن لسان السيد المسيح وبين صعود عيسى بجسده المادي إلى السماء وهو كابن الإنسان. ولم تذكر بالأناجيل مباشرة؟ إنما جاء ذكرها في آخر آية من إنجيل مرقس (16 ـ 19) يقول جورج بوست الأميركي عنها إنها لا توجد في النسخة القديمة.

الفصل التاسع التثليث واللاهوت

1 ـ لم يكن لجماعة السيد المسيح المتفرقة حتى القرن الثالث الميلادي من كتاب سماوي ملهم سوى التوراة وما تتداوله الأيدي من الموعظات والرسائل. ولما تأسس المجمع النيقاوي وعرض عليه كثير من الكتب والقصص والروايات والمخطوطات والمواعظ انتخب منها أربعة كتب متقاربة مع بعضها سميت الأناجيل وإحدى وعشرون رسالة. فكانت هذه الكتب والرسائل هي المنبع الوحيد للديانة المسيحية. وقد تقرر عند الآباء ان هذه الأناجيل الأربعة والرسائل قد كتبت بوحي وإلهام من الروح القدس فأصبحت مقدسة. ومهما يكن الأساس الذي تستند عليه الأناجيل والرسائل فان ما جاء فيها من المواعظ والأقوال المنسوبة إلى السيد المسيح جميعها تدور بصراحة كاملة حول توحيد الإله الساكن في السماء وتمجيد الآب. وفي كل صفحة من صفحات الأناجيل المقدسة المذكورة يوجد صراحة او ضمناً شيء عن تغزيز الإله الواحد العظيم.

وإذا كان يوحنا يميل في إنجيله ويسعى أكثر من غيره نحو تأييد الآب والابن وجعلهما في مستوى واحد وشيء واحد، فلا يوجد في الأناجيل الأخرى ما يشير ولو بطرف خفي عن عقيدة التثليث في اقوال السيد المسيح وتعاليمه في حياته. إنما جاء في آخر آية من إنجيل متى كما سبق ذكره ان السيد المسيح بعد وفاته بثلاثة أيام قام من الأموات وتراءى لتلاميذه بجسده المادي «ولما رأوه سجدوا له ولكن بعضهم شكّوا فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً دفع الي كل سلطان في السماء وعلى الأرض فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن وروح القدس» (58 ـ 16). وروى مرقس هذا الظهور بما يلي «أخيراً ظهر للأحد عشر وهم متكئون ووبّخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام وقال لهم اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا للخليقة كلها» (16 ـ 14)[1]. وهذا ما قد سبق ذكره تفصيلاً في فصل نبوة السيد المسيح. وبعد ان عدّد يوحنا بإنجيله ظهور السيد المسيح بعد وفاته قال «وهذه مرة ثالثة ظهر يسوع لتلاميذه بعدما قام من الأموات».

واما بولس الرسول الذي لم يكن مطلعاً على الأناجيل فيقول في رسالته إلى أهل كورنثوس «ليس أحد يقدر ان يقول يسوع رب الا بالروح القدس. فأنواع مذاهب موجودة ولكن الروح واحد وأنواع خدم موجودة ولكن الرب واحد وأنواع اعمال موجودة ولكن الله واحد الذي يعمل الكل في الكل» (12 ـ 3). فقد جعل بولس الرسول الله الواحد هو الذي يعمل الكل في الكل، من دون تقسيم الأعمال إلى الأقانيم كما سيأتي بيانه، وجعل السيد المسيح رباً بالروح المقدسة فقط، ونفى عنه الألوهية، وفرّق بين الألوهية والربوبية. والرب بالعبرية كما سبق ذكره يأتي بمعنى المعلم والسيد

(1) يقول الأب عبد الأحد الآشوري في كتابه «الإنجيل والصليب» ان جورج بوست الاميركاني ذكر في كتابه قاموس الكتاب المقدس ان من 9 ـ 20 من الاصحاح السادس عشر من إنجيل مرقس المتداولة بالأيدي لم تكن في كتاب مرقس القديم ووضعت مؤخراً.

والعظيم والآمر وليس بمعنى الإله مطلقاً بدليل قوله «فقالا ربي الذي تفسيره يا معلم» (1 ـ 28 يوحنا).

ويقول بولس الرسول أيضاً «لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح الذي بذل نفسه فدية لأجل الجميع» (2 ـ 5 تيموثاوس الأولى). وبهذا اعترف بولس الرسول بهذه الجملة بالوحدانية المطلقة للإله العظيم، وبالوسيط بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح ولم يشركه بالألوهية، إنما اعتبره كوسيط وشفيع بين الله والناس فقط، لما له من منزلة عظيمة عند الله.

ويقول بولس الرسول أيضاً «لكن لنا إله واحد الآب... ورب واحد يسوع المسيح» (8 ـ 6 كورنثوس). وبهذا يكون قد فرّق بهذه الجملة أيضاً بين الإله والرب.

2 ـ بينما كانت الديانة المسيحية بمثابة فرقة من الفرق اليهودية ومستندة على الإله الواحد يهوه إله بني إسرائيل، وكان السيد المسيح كسائر الأنبياء مرسلاً إلى هداية خراف بيت إسرائيل الضالة فقط، جُعلت عامة ولجميع الأمم والأقوام. وفي الحقيقة لقد اثمرت ثمراً جيداً بنشرها الديانة الإلهية في البلاد الوثنية.

ولما كان تثليث الآلهة منذ ازمان سحيقة في القدم منتشراً في سواحل شرقي البحر المتوسط، وقد ائتلف الناس مع التثليث، فقد جاء الآباء بالمثلث الإلهي المسيحي لمكافحة تلك المثلثات الوثنية واعطوا بعد ذلك لكل اقنوم من الأقانيم الثلاثة صفات خاصة يمتاز بها عن غيره. فقد يمتاز الآب في المثلث الإلهي المسيحي بكونه مكوّن الكائنات والخالق لكل العوالم، وهو الأقنوم الأول من المثلث، وهو والد الاقنوم الثاني؛ ويمتاز الابن بالحلول والتجسد، وأنه مخلص العالم من الخطيئة، وهو رب الدينونة، والذي يؤمن به لا يدان، وهو ولد الاقنوم الأول، وهو الاقنوم الثاني من المثلث، وهو ابن الله، وهو من جوهر الله؛ ويمتاز الروح القدس بأنه المنبثق دوماً من الاقنومين الأول والثاني عند الكاثوليك، ومن الآب وحده عند الارثوذكس وهو المحيي والمعيد وهو الذي يهب الحياة للعالم وهو سر الحياة. وهو الروح المقدسة المستولية على العالم، وهو الدليل والمرشد، وهو الاقنوم الثالث وهو المعزي. فاعتبرهم الآباء ثلاثة أقانيم للإله الواحد، وجعلوا كل اقنوم من الأقانيم على الانفراد لا يمكن أن يكون إلهاً مستقلاً كاملاً قائماً بذاته إنما مقيد بالانضمام إلى غيره من الاقانيم. وهذا معناه أن الآب لا يمكن أن يكون إبناً ولا أباً وابنا في وقت واحد، والابن لا يمكن أن يكون أباً ولا ابناً وأباً بوقت واحد، وكذلك الروح القدس.

ولما كان لكل اقنوم من الاقانيم الثلاثة عمل معين وصفة خاصة ووجود مطلق كما مر أعلاه، فان ما يثبت لأحدهم من الامتيازات والصفات والأعمال المعينة لا يثبت للآخر. وهذا معناه ان احدهم لا يتدخل في عمل الآخر، كما وان كلاً منهم لا يكون عين الاثنين الآخرين. فتتجلى الألوهية من اجتماع الأقانيم الثلاثة فيكون الواحد ثلاثة واحداً. ويفسره بعضهم بأنه إله واحد متشكل من ثلاثة اشخاص «برسونا» أو حسب تعبيرهم «برسوبا» ومعناه باليونانية «الاقنوم» بطبيعة «ناتورة» واحدة... الا ان كل واحد منهم مستقل بأعماله وأفعاله، وان كل واحد منهم متمم للآخر، وباجتماع الثلاثة تحصل الألوهية التامة ويكون الإله واحداً. فكان هذا التثليث أساساً للعقيدة المسيحية.

ولما كان الابن والروح القدس لم يبلغا درجة الابوية «لأن أبي اعظم مني» (14 ـ 29 يوحنا)، فمن الضروري للإلهين غير الواصلين لمرتبة الابوية أن يتصفا بالنقص والعجز وقلة العلم بالنسبة للأبوية. فإذا اعتبر ان كل واحد منهم إله تام كامل، فإن واحداً منهم يكفي ان يكون إله الكائنات والعالمين كافة. فهو الخالق وهو المحيي والمميت، وهو الذي يعفو عن كثير من الخطايا والسيئات، وهو على كل شيء قدير وبيده كل شيء فتنتفي الحاجة إلى الإلهين الآخرين. وان لم يكن كل منهم إلهاً تاماً كاملاً... ولم يكن بوسعه أن يريد كل شيء ويفعل كل شيء... ويقدر على كل شيء وان رضخ لأقوال الإلهين الآخرين ورغباتهما، فمعناه ان كلاً منهم إله ناقص. واسناد العجز والنقص إلى الإله محال.

فإن السيد المسيح الذي لم يرض ان يخاطب بعنوان «الكريم ـ الصالح» «لماذا تدعوني صالحاً، ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله» (19 ـ 17 متى)، ويقول «أبي اعظم مني» (14 ـ 28 يوحنا)، ويصرح انه يجهل بعض الشيء «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب» (13 ـ 21 مرقس)، ويوصي تلاميذه ان له إلهاً يعبده «إلهي وإلهكم» (17 ـ 20 يوحنا).. لا يقبل ولا يرضى أن يكون مساوياً للآب أو متحد الجوهر والذات مع الآب. فلو كان في الحقيقة من الجوهر نفسه ومن عين الذات ومساوياً مع الآب الإله بالذات والجوهر كما يقول بعض الآباء، لعلم كل شيء وقدر على كل شيء، وما خفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء. فليس للألوهية درجات ولا يوجد إله عالم وإله جاهل وإله صغير... وإله كبير... وإله قادر وإله عاجز.

3 ـ ومن أهم اقسام علم اللاهوت المسيحي «الأسرار الإلهية» وهي «التجسد والتثليث والفداء والقربان». فقال المتكلمون منهم عنها انها موحاة من الله وان معرفة الله لا تقاس بمعرفة الناس، وان الوصول إلى معرفة الله هو الوصول إلى الألوهية، وان الإيمان بالأسرار الإلهية هو الاعتقاد بأمر موجود لا يمكن إدراكه. فكان من الضروري الاعتقاد بالأسرار دون تحري حقيقتها... ومع هذا لقد شرحها الآب نعمة الله العذاري في كتابه «سلاحك أيها المسيحي» فقال عن التجسد هو اتخاذ السيد المسيح جسداً بشرياً من احشاء السيدة مريم العذراء، والفداء هو تألم السيد المسيح وموته فداء عن خطايا البشر ليرجع لهم البنوة الإلهية. فكان قد اشفق الله على البشر وأرسل ابنه الوحيد ليخلصهم. فكانت غاية التجسد افتداء الناس وسببه الخطيئة. وقد لزم التجسد ليكون التعويض عن الخطيئة موازياً مع شرها باعتبار أنها إهانة غير متناهية لحقت الله. فان المهان هو الله والمهين هو الإنسان فلا يوازي هذه الإهانة سوى التجسد. ويقول الأب عن سر الثالوث الأقدس، منذ الأزل افتكر الله بذاته وهذا الفكر هو الابن المولود من عقل الله يسوع المسيح. ويحب الآب الابن والابن الآب وهذا الحب المتبادل هو الروح القدس.

من المحقق أن القواعد الدينية لا تدخل ضمن نطاق العقل والمنطق وليس للمحاكمة الفكرية والجدل فيها مجال... فمن الضروري للمؤمنين قبول النظريات والقواعد الدينية كما جاءت دون تفكير، واعتبار الإيمان فوق العقل والإيمان بها دون طلب الدليل والبرهان. وقد آمن المسيحيون بالتثليث بفضل التكرار المستديم والتلقين المستمر ـ والتعلم في الصغر كالنقش في الحجر ـ ومن المعلوم أن المولود يولد على الفطرة فيتأثر بما يسمعه في صغره من أبويه في بيته، ومن اصدقائه في

مدرسته، ومن كهّانه وقساوسته، وشيوخه في معبده. فيرسخ الدين الموروث في مخيلته فيوحد ويثني ويثلث ويعبد الشيطان والبقرة ويسجد للشمس والقمر، ويستعطف الهياكل والصور، ويقبّل التماثيل والحجر. ولا شيء عنده أقوى من معبوده. وقد يبذل دمه عن طيبة خاطر في سبيل دينه ومعتقده وإرضاء لموجودات علوية ـ مهما كان جنسها ونوعها ـ اعتقد بوجودها.

4 ـ اطلق السيد المسيح برواية يوحنا عن الروح القدس كلمة «المعزي». فقال «واما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» (14 ـ 26 يوحنا). وفي محل آخر «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله انا إليكم من الآب روح الحق الذي من عنده الآب ينبثق فهو يشهد لي» (15 ـ 26). وآخر مثله «ان لم انطلق لا يأتيكم المعزي ولكن إذا ذهبت ارسله إليكم» (16 ـ 7). مما يستدل منه ان روح القدس أو روح الحق أو المعزي ينبثق من الآب وحده. ولم يكن قد نزل إلى العالم حتى في زمن السيد المسيح ولم تذكر الكتب كيف يمكن إرساله للتعليم والتذكير وإداء الشهادة. وبما أن هذا النوع من الإرسال نقص بذات المرسل (روح القدس) فليس في استطاعته ان يقبل الإرسال كما ترسل الملائكة لأمر ما وان يعلم ويذكر ويؤدي الشهادة لأحد... إذا لم يكن تابعاً، لا متبوعاً والتابع لا يكون إلهاً. فكانت هذه الأوصاف التي وصف السيد المسيح بها «الروح القدس» و«المعزي»... لا تنطبق على الأوصاف التي وصفه بها الآباء ورجال الكنيسة حتى وصلوا إلى اعتباره احد الأقانيم الثلاثة وله عمل معين في نشر الروح ومنح الحياة للعالم. واما بولس الرسول فقد وصفه برسالته إلى أهل كورنثوس بقوله «أم لستم تعلمون ان جسدكم هو هيكل للروح القدس... فمجدوا اللّه في اجسادكم وفي ارواحكم التي هي للّه» (6 ـ 19). وهو خير وصف للروح القدسية الإلهية المستولية على العالم.

5 ـ وكان قد انقسم مجمع نيقية إلى قسمين: الموحدين وهم القائلون بالإله الواحد وبأن السيدة مريم هي أم المسيح وليست أم الإله... والإلهيين القائلين بألوهية السيد المسيح التامة، وأنه إله ابن إله، ومتحد بالجوهر مع اللّه، كما هو الحال في الشمس ونورها وحرارتها، مع اعترافهم بأن الاشخاص الثلاثة في الثالوث لا يمكن ان يكونوا شخصاً واحداً. فقالوا إن اللّه هو الواحد بذاته ظهرت منه الأقانيم الثلاثة دون ان يحدث فيه انقسام أو تمييز. فوضعوا جملة «الآب والابن والروح والقدس الإله الواحد». ولما رفض الموحدون هذه الجملة قدم الأب «صابلليون» للمجمع صورة ائتلاف قال فيه «اللّه واحد... لا يمكن ان يكون اللّه مركباً من ثلاثة آلهة ولا ان يتحد ثلاثة أشياء فيكونوا اللّه. ولكن اللّه عينه تجلى ويتجلى مرة بشكل آب ومرة بشكل ابن ومرة بشكل الروح القدس بالتناوب».

فرفض اقتراحه أيضاً وثبت اعتقاد الإلهيين تحت معاونة الملك قسطنطين وتشرد الموحدون، امثال اريوس ورفقائه.

6 ـ ولما دخلت الفلسفة الكلامية في صفوف المسيحيين قالوا إن شخصية اللّه تستوجب إيجاد علاقة بينها وبين البشر أي بين العابد والمعبود. فان البعد اللانهائي والتنزيه المطلق للّه قد يستوجبان قطع العلاقة وعدم الاتصال بين الطرفين. فلأجل وصف وجود اللّه وتعيين شخصيته كان لا بد من حصول التقارب بين الصورة الإلهية والصورة البشرية، ووجود علاقات شخصية بين الخالق والمخلوق، وظهور

الاتصال بين الإله الروحاني والبشر الجسماني. فلذلك ظهر السيد المسيح حاملاً الصفتين الظاهرتين، اللاهوتية والناسوتية ليكون وسيلة للتقارب والاتصال بين الطرفين ولذلك تجسد وصار إلهاً وبشراً سوياً. وبهذا المنطق ابتعد الآباء عن تنزيه الإله تنزيهاً تاماً، واعتبروا بأن تنزيه الإله من الصفات البشرية معناه جعله فكرة خيالية فاقتربوا من اعطائه شخصية (برسونا)، والشخصية هي التي فيها شيء من جزئيات البشر، وذلك ليسهل بهذه الشخصية تشبيهه بصفات البشر. كل ذلك تأييداً وإيضاحاً لما ورد بالتوراة «خلق الله الإنسان على صورته».. وترك المتكلمون جانباً قول السيد المسيح الصريح «الله لم يره احد قط»، ويدخل ضمن الأحد السيد المسيح نفسه، وقوله «الله روح وبالروح والحق ينبغي ان يسجد له» وقوله «ان الروح ليست له لحم وعظام» (24 ـ 39 لوقا). فكان الروح كما يفهمه الروحانيون الحقيقيون، ليس بجسم ولا جنس ولا نوع ولا عرض وليس مركباً من أجزاء ولا عناصر ولا يشمله الكيف والكم وليس بفاعل ولا منفعل ولا زماني ولا مكاني ولا والد ولا مولود ولا يقبل القسمة والاشعاع والانبثاق والتجزئة إلى قليل أو كثير. وقد أيد ذلك الأب نعمة الله في كتابه «سلاحك أيها المسيحي» عند بحثه عن طبيعة الإنسان فقال «ان النفس لا تنقسم لأنها بسيطة لا كم لها، فنفس الطفل ليست جزءاً من نفس والديه وبالأحرى ليست جزءاً من ذات الله لأن الروح لا اجزاء له... وهو بسيط لا يتجزأ..». وبشهادة الأب هذه يثبت ان الروح لا اجزاء له، فلا يمكن أن يصدر عنه أو يشع منه شيء، ولا ينقسم على نفسه لا بقليل ولا بكثير. فإذا كان الله روحاً كما قاله السيد المسيح فمن المستحيل أن ينقسم على نفسه أو ان تنبثق منه بعض الأقسام والأجزاء لتكوّن موجوداً آخر غيره.

ولم يتمكن المتكلمون المسيحيون من التوفيق بين ما جاء في مقررات نيقية بأن السيد المسيح إله ابن إله ومساوٍ بالقدرة والقوة والجوهر مع الآب، وبين ما جاء في كثير من الآيات الإنجيلية حول التنزيه والتوحيد وخاصة ما جاء في إنجيل يوحنا (20 ـ 17) عن كلام السيد المسيح بعد وفاته وعندما تراءى لمريم المجدلية ورآها تبكي فقال لها «.. ولكن اذهبي إلى أخوتي وقولي لهم اني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم». والغريب في هذا الموضوع ان مجمع نيقية قد اخذ بما ورد في الأناجيل عن قول السيد المسيح بعد قيامه من مرقده الشريف وعندما تراءى لتلاميذه من عالم الأرواح قوله «.. اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس»، ولم يأخذوا بالآية السابقة «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»، وقد قالها أيضاً بعد قيامه من الأموات ومن عالم الأرواح. وهي تؤيد وتؤكد ان الآب الإله شيء والسيد المسيح شيء آخر، وأن الآب أب له وللجميع على التساوي... والإله إله له وللجميع على التساوي ولم يحصر منهما شيئاً لنفسه. ومن كان له إله يعبده لا يمكن ان يكون إلهاً يعبد. كما وأنه لم يذكر جملة التثليث في حياته أبداً، واساساً لم تكن هذه الفكرة موجودة لا عنده ولا عند تلاميذه ولا حتى عندما كتبت الأناجيل.

وفي اثبات الوهية السيد المسيح يقول الآباء ان الأنبياء كانوا يتكلمون باسم الله، وكان السيد المسيح يتكلم باسم نفسه ويعتبرون كلامه هذا دليلاً على ألوهيته، فمن الواضح أن هذا الادعاء يخالف ما جاء في قوله «أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم».

وبينما يقول السيد المسيح «لا تظنوا أني جئت لانقض الناموس والأنبياء. ما جئت لانقض بل لأكمل» (5 ـ 17 متى). وكانت الشريعة اليهودية مستندة على الإله الواحد يهوه وقد أيّد ذلك الأنبياء كافة وحتى السيد المسيح نفسه بأقواله وتعاليمه المختلفة الآنفة الذكر. فاضطر الآباء في مجمع نيقية عام 325 الى نقض التوحيد الإسرائيلي بأوصافه المعلومة الذي هو أعم وأعظم كلمة في الناموس بمعناه ومبناه وتثبيت المثلث المسيحي الإلهي في دستور الإيمان بمكانه، كل ذلك لامكان مكافحة المثلثات الوثنية المنتشرة في العالم، واحلاله بمحلها وتسهيل إقامة عبادة الله العلي بمكانها، دون تنفير الناس وازعاجهم في تكليف تبديل ديانتهم.

7 ـ ولم يكن تثليث الآلهة من مبتكرات المسيحيين. فقد ترجع جذور التثليث إلى اقدم العصور التاريخية. وكان البشر قد استساغوا التثليث واعتقدوا به. وعند بحثنا عن الآلهة في أوّل كتابنا «المقدمة» ذكرنا ما عثرنا عليه من تثليث الآلهة عند مختلف الأمم والأقوام البائدة نثبتها فيما يلي. قلنا: يظهر ان تثليث الآلهة قد شغل افكار البشر منذ ازمان سحيقة، بل يحتمل أن تكون هذه النظرية موجودة منذ فجر التاريخ.

ان اقدم ما عثرنا عليه في تاريخ الفراعنة الثالوث المكوّن من الآلهة اوزيريس وايزيس وحورس، وهو الآب والأم والولد الإله الواحد وقد مزج بذاته الطبائع الثلاثة المختلفة دون ان يطرأ عليه تغيير. وهذا التثليث خاص لبلدة ابيدوس.

ثم يأتي الثالوث الثاني المكوّن من آمون وزوجه موت، وابنه خونس. وهو تثليث بلدة طيبة (تب) عاصمة الفراعنة وهو أيضاً الأب والأم والولد الإله الواحد. وله أيضاً ثلاثة طبائع مختلفة دون ان يطرأ عليه تغيير.

ويلي التثليثين السابقين ثالوث مكوّن من فتاح وسخت وايموس وله عين الصفات والطبائع، وهو تثليث بلدة منف.

ثم يأتي الثالوث الرابع عند المصريين أيضاً وهو آلهة الحساب بعد الموت مكون من انوبيس ومعات وتوت. فان انوبيس مكلف بوزن قلب الميت بالميزان الإلهي ومعات ربة الحق والعدل تضع ريشتها في كفة الميزان المقابلة للقلب وتوت يدون بقلمه نتيجة الوزن ثم يقدم التقرير إلى الإله العظيم اوزيريس. ووجد الانكليزي «كرفت» ورقة بردى محفوظة في المتحف البريطاني فيها اسطورة يوم الحساب عند الفراعنة وفيها قد وقف الإله توت عن يمين الإله اوزيريس يقدم التقارير.

ثم يأتي الثالوث الخامس عند السومريين مكوّن من آنو. بعل. آيا. وآنو الأب إله السماء وما فيها، وبعل إله الأرض وما عليها، وآيا إله الزوابع والمياه والأمطار. وهو الثالوث المقدس عند الكلدانيين أيضاً.

ويأتي بعد هؤلاء الثالوث السادس عند البابليين مكون من سن، شمش، عشتار. فان الإله سن إله القمر وهو الآب وشمش هو ابن إله القمر وعشتار الأم وهو أيضاً الأب والابن والأم.

ثم يأتي الثالوث السابع عند الهنود والبراهمة مكوّن من براهما، فشنو، سيفا. فإن براهما رأس المثلث وهو الإله الأعظم خالق الكائنات منه بدأت وإليه ترجع. وفشنو الحافظ الأمين

للخلائق وبيده البقاء والحياة وهو إله الشمس. وسيفا هو المغني والمعيد ومعناه الرؤوف الرحيم المنعم والمخلص.

ويعقب هؤلاء المثلثات المثلث الثامن عند السومرين أيضاً وهو مكون من آبو وزوجته وابنه. وفي المتحف العراقي تمثال الإله آبو وتمثال زوجته وقد كتب تحتهما العبارة الآتية «ويجنب الإله يشاهد تمثال زوجته المقدس وعلى قاعدته شكل طفل لم يبق منه إلا رجلاه ربما كان يؤلف مع الإله وزوجته ثالوثاً أسطورياً مقدساً. عثر عليهما في تل اسمر حوالى 800 ق. م.».

ثم يليه الثالوث التاسع وهو يخص آلهة الحساب عند اليونانيين القدماء مكون من مينوس، رادامانت، ايباك أولاد زوس الإله الأعظم. فان رادامانت مكلف بمحاسبة موتى الآسيويين، وايباك مكلف بمحاسبة موتى الأوربيين، ومينوس رأس الثالوث لآلهة الحساب ومن واجباته ملاحظة اعمال اخويه رادامانت وايباك، وله القول الفصل في الحالات التي يظهر فيها اختلاف، ثم يقدم التقرير إلى الإله الأعظم زوس ـ جوبيتر. وهو مأخوذ من تقديم الإله توت المصري تقريره إلى الإله اوزيريس.

ويعقب هؤلاء الثالوث العاشر وهو خاص بالمسيحيين ومكوّن من الآب والابن والروح القدس الإله الواحد. فان الآب رأس الثالوث وهو خالق الكائنات والابن بيده دينونة العالم يوم الحساب والروح القدس المحيي والمميت.

ولم يشأ العلي اللاهيون ان يبقوا بدون مثلث فجعلوا مثلثهم مكوناً من الله ومحمد وعلي وآخرون من محمد وعلي وفاطمة. ومثلث آخر مكون من المعنى والاسم وروح القدس. فان المعنى هو الآب وهو الله والاسم هو الابن وهو محمد وروح القدس هو الباب وهو سلمان الفارسي. وهو المثلث الثالث عشر.

ومما يدل على تغلغل التثليث في عقول الناس ان يكون للكلدانيين مثلث حتى للجان ويسمى الجان المثلثة، مكوّن من لبارتو، لباصو، آخازو. فان لبارتو هي انثى ولباصو وآخازو ذكور. وان لبارتو هي بنت الإله آنو. ويسكن هذا المثلث في اهوار القصب وسواحل الأنهر فيهاجم الأطفال ويوقع فيهم الأمراض أو يغرقهم (مجلة سومر العراقية).

وللكلدانيين مثلث آخر مما سبق مكوّن من الجان ليلو، ليلتو، ليلي. فليلو ذكر اعزب يهاجم النساء في الخلوات والممرات والدهاليز والصحارى فيواقعهن جبراً، وهي خير وسيلة لتبرير الحمل غير المشروع، وليلتو وليلي جنيتان ليس لهما زوج... فتهاجمان الذكور من البشر في اليقظة أو في الحلم (!) (مجلة سومر العراقية).

8 ـ لماذا توجه الفكر البشري نحو التثليث؟. من المعلوم ان الإنسان الأول وحتى بعض فلاسفة اليونان، كانوا يعتقدون ان لكل إله زوجة وان الآلهة تتناسل فيما بينها وتتكاثر كالبشر. ولما كانت اصغر عائلة تتكون عادة من ثلاثة أشخاص وهم الأب والأم والولد، فلأجل رفع التكاثر، يغلب على الظن، ان بعض الرهبان والكهنة القدماء قرروا الاعتماد على الثلاثة فقط. وعندما دخلت الفلسفة خلال الديانات حذفوا كلمة التناسل واقاموا عوضها الأفعال والصفات فأصبح الإله واحداً بالذات مثلثاً بالأفعال والصفات من دون أن يطرأ عليه تغيير. هذا ما توصلنا إليه ولم نجد للتثليث سبباً آخر.

الفصل العاشر معجزات السيد المسيح

I ـ في الزمن الذي ظهر فيه السيد المسيح كانت النظريات والمعتقدات والأساطير السومرية والكلدانية قد انتشرت في جميع أنحاء الشرق الأوسط، وتأثرت بها الأمم والأقوام المجاورة كافة. ولم يزل كثير من تلك القواعد والمعتقدات باقياً بين الشعوب ومتغلغلاً في عقول الجهلاء والهمج والسذج من الناس حتى هذا اليوم.

وكان من جملة تلك المعتقدات الفاسدة ان الأمراض مس من الجان والشياطين والأرواح النجسة والخبيثة. وان الكهنة والرهبان والسحرة هم القادرون باسم الآلهة على الوقاية منها أو اخراجها وطردها من الجسد عند دخولها فيه، وفي الأحوال الصعبة وعندما يستعصي عليهم الأمر دعوا بعلزبول رئيس الشياطين لمعاونتهم في طردها، فينجحون احياناً، خاصة في الأمراض العصبية بقوة الايحاء والتلقين والتنويم المغناطيسي وبوسيط أو مباشرة.. ويخفقون في حالات أخرى دون ان يعلموا اسباب نجاحهم أو اخفاقهم، ودون ان يعلموا الأسباب الحقيقية لتلك الأمراض، ظناً منهم أنها من اعمال الجان والشياطين. وكان ان انتشرت الأمراض بين طبقات الشعب اليهودي الجاهل الفقير[1].

ولما اكتشفت في الأزمنة المتأخرة أسباب الأمراض العقلية والعصبية ادعى بعض الكتّاب والفلاسفة ان ألوهية السيد المسيح لا تدل على علمه بكل شيء وخاصة بأسباب الأمراض العصبية، وفاتهم ان معجزات الأنبياء تتجلى عادة وعلى الغالب في شكل اقوى وأوضح وأعنف من نفس الأعمال التي يقوم بها في زمانهم السحرة والكهنة والرهبان، كالسحر في زمن النبي موسى مثلاً. فيظهر ان السيد المسيح لم يشأ الخروج على هذه القاعدة ومعارضة الاتجاهات السائدة في العالم كله حينذاك طالما لا ضرر منها على بشارته، فرأى من الواجب ان يسكت السحرة والكهنة ويكبتهم في أعمالهم، فكانت آياته ومعجزاته المحررة بالأناجيل ـ تنحصر ـ الا القليل منها ـ باخراج الشياطين والجان والأرواح النجسة والخبيثة من الأجساد البشرية، وذلك ليس بقوة بعلزبول كما كان يفعله كهنة الكلدان وسحرة اليهود، إنما بقوة ربانية وقدرة إلهية، كما جاء على لسان السيد المسيح في قوله «انا بروح الله أخرج الشياطين» (12 ـ 28 متى). وكان يبرىء الأكمه والأبرص والأخرس، «فلما أخرج الشياطين تكلم الأخرس... اما الفريسيون، فقالوا برئيس الشياطين يخرج الشياطين» (9 ـ 23 متى). وكان قد اعطى هذه القوة لتلاميذه الاثني عشر أيضاً «ثم دعا تلاميذه الاثني عشر واعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف» (10 ـ 10 متى).

---

(1) منها الأمراض العصبية كالصرع والصداع والآلام والفالج والاغماء والأمراض العقلية كالجنون والعته ومنها الأمراض الجلدية كالبرص والكمه والجب «وبرص كثيرون كانوا في إسرائيل» (4 ـ 27 لوقا) وغيرها من الأمراض بنتيجة السفالة الحياتية والاجتماعية والخلقية.

فبالنظر لما جاء في الأناجيل، كان السيد المسيح يخرج الأرواح الخبيثة بروح الله وبالكلمة «أنا أخرج الأرواح بكلمة» (8 ـ 16 متى). وذكر لوقا انه اخرج من مريم المجدلية وحدها سبعة شياطين «مريم التي تدعى المجدلية التي خرج منها سبعة شياطين» (8 ـ 2 لوقا). وكان السيد المسيح يصرّح ان الشياطين تستقر في جسد الإنسان وتربطه فتمنعه عن العمل مدة طويلة «وهذه ابنة إبراهيم قد ربطها الشيطان ثماني عشرة سنة. اما كان ينبغي ان تحل من هذا الرباط في يوم السبت» (13 ـ 6 لوقا). فكان إخراج الشياطين وشفاء الأمراض من أهم آياته ومعجزاته «ها أنا أخرج شياطين وأشفي اليوم وغداً وفي اليوم الثالث اكمل» (13 ـ 22 لوقا). وذكر لوقا في انجيله أيضاً ان الشياطين والأرواح النجسة كانت تتذمر وتشتكي من طردها من الجسم الإنساني. وعند حضور السيد المسيح بمكان ما تكلمه بصوت ولفظ يسمعه الجميع «آه ما لنا ولك يا يسوع الناصري اتيت لتهلكنا.. فانتهره يسوع قائلاً اخرس واخرج» (4 ـ 24 لوقا). وذكر لوقا أيضاً ان الشياطين كانت تشهد له بمسيحيته وبأنه ابن الله «وكانت شياطين أيضاً تخرج من كثيرين وهي تصرخ وتقول انت المسيح ابن الله فانتهرهم لأنهم عرفوه انه المسيح» (4 ـ 41 لوقا). وذكر لوقا أيضاً ان الشياطين طلبت منه مرة بعد خروجها من إنسان مجنون ان يأذن لها في الدخول بقطيع الخنازير «فأذن لهم فخرجت الشياطين من الإنسان ودخلت في الخنازير» (8 ـ 23 لوقا). وقد يراها عياناً وهي صاعدة نازلة فقال لهم «رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء» (10 ـ 18 لوقا).

فكان اليهود الذين لا يؤمنون بمعجزاته واعماله واقواله هذه وامثالها، يتهمونه بإخراج الشياطين بقوة بعلزبول «لأنكم تقولون أني بقوة بعلزبول أخرج الشياطين» (11 ـ 18). وكان لما اعطى السيد المسيح تلاميذه الاثني عشر أيضاً سلطاناً ليخرجوا الشياطين ويبرئوا المجانين لم يتمكن أحد منهم في حياته من القيام بهذه المهمة. وكان يوبخهم لقلّة إيمانهم «قلت لتلاميذك ان يخرجوه فلم يقدروا... فانتهر الروح النجس قائلاً أيها الروح النجس الأصم انا آمرك أخرج منه ولا تدخله أيضاً» (9 ـ 25 مرقس). وذكر لوقا ان من آياته انه كان يأمر الحمى فتذهب في الحال من الجسد الإنساني «وكانت حماة سمعان قد اخذتها حمى شديدة فسألوه من اجلها فوقف وانتهر الحمى فتركتها وفي الحال قامت» (4 ـ 38 لوقا)[1].

3 ـ ومن معجزاته أيضاً قلبه أجران المياه خمراً يوم عرس قانا وذلك عندما قالت له أمه «ليس لهم خمر» (2 ـ 2 يوحنا). فامتعض وانزعج بادىء الأمر من هذا التكليف في هذا الوسط الخليع الذي تهتز فيه الأرداف وترتج فيه الأكفال اثناء نوبات الرقص المختلط. حتى قال لها بعنف وفتور «مالي ولك يا امرأة» (2 ـ 4 يوحنا). ولما عاد إليه روعه وتقوّت روحه وتجلت نبوته طلب ان يملؤوا أجران الخمر ماء فنظر إليها فانقلب الماء خمراً[2]. وجاء في الأناجيل ان من آياته امتلأت شبكة سمعان سمكاً لما

(1) شاهدت بأم عيني كما شاهدها كثير غيري سلسلة حديد مثبتة في جدار كنيسة مار بهنام الأثرية التي تبعد عشرين ميلاً عن مدينة الموصل ـ ويسميها ابن بطوطة كنيسة الجب ـ يربط فيها المجانين حتى ينالوا الشفاء أو يهلكوا.

(2) يقول علماء المقارنة بين الأديان ان تحويل الماء خمراً كان معروفاً أيضاً في عبادة ذيونيس إله الخمر وإله الشمس.

أمره بإلقائها في بحيرة جنيسات «فصارت شبكتهم تتخرق... وملأوا السفينتين حتى أخذتا في الغرق» (5 ـ 6 لوقا). وشفاؤه رجلاً اعضب قد يبست يده «وقال للرجل مُدّ يدك فعادت يده صحيحة» (6 ـ 9 لوقا). وإعادته البصر إلى العميان «ووهب البصر لعميان كثيرين» (7 ـ 21 لوقا). وأمره الرياح وموج البحر بالسكون «فقام وانتهر الريح وتموج البحر فانتهيا وصار هدوء» (8 ـ 24 لوقا). وإشباعه خمسة آلاف رجل بخمسة أرغفة وسمكتين «فأخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين وباركهن ثم كسر واعطى التلاميذ ليقدموا للجميع فأكلوا وشبعوا جميعاً ثم رفع ما فضل عنهم من الكسر اثنا عشر قفه» (9 ـ 16 لوقا).. وشفاؤه ابن خادم الملك في كفرناحوم من الحمى «قال له يسوع اذهب ابنك حيّ» (4 ـ 50 لوقا). وقال لآخر «قم احمل سريرك وامش» (5 ـ 8 يوحنا). و«تفل على طين وطلى بالطين عين الأعمى منذ ولادته فصار بصيراً» (9 ـ 6 يوحنا). ومن معجزاته احياؤه الموتى. فقد أحيا لعازر «بعد ان مضى على موته أربعة أيام» (11 ـ 1 يوحنا)، وغيره.

ومن الغريب أن تعتبر الأناجيل ان القسم الأعظم من معجزات السيد المسيح قد وقعت يوم السبت وسبّبت اعتراض اليهود عليه لخرقه حرمة السبت.

4 ـ صرّح الدكتور راشدال شماس كارليل في مؤتمر رجال كنيسة كمبردج بأن قراءته الكتاب المقدس أظهرت له ان عيسى ليس بإله إنما كان رجلاً بكل معنى الكلمة، وانه لم يدع الألوهية ولم يجهر بها إنما ادعى انه مسيح فقط، وأنه كان رجلاً وله جسم ونفس وإرادة بشرية. ولا تدل ألوهية المسيح على علمه بكل شيء وخاصة بأسباب الأمراض العقلية التي كانوا يعتقدون بأنها اخذ من الشياطين. ولقد تكلم يسوع عن أشياء كثيرة وردت بالأناجيل وقال إنها ستحدث في المستقبل ولم يحدث شيء منها.

5 ـ قلت: يظهر ان الدكتور راشدال أشار إلى ما جاء في تراجم الأناجيل عن بعض الأقوال المنسوبة إلى السيد المسيح، زاعماً أنه لم يتحقق شيء منها حتى الآن، وفاته ان كثيراً منها قد تحقق فعلاً. ولعل القسم الآخر لم يحن الوقت بعد لتحقيقها، أو ان لها أهدافاً أخرى غير ما هو ظاهر منها، أو قد وقع بعض الأخطاء والتحريف عند ترجمتها ونقلها من لغة إلى أخرى. فكأن الدكتور بقوله هذا كان ينتقد مسألة اخراج الشياطين من المرضى بدعوى أن الوهيته لا تدل على علمه بكل شيء. وسبق أن ذكرنا شيئاً عن الأمراض في أول هذا الفصل وفيه الكفاية. ويدّعي الدكتور أيضاً أن يسوع تكلّم عن أشياء كثيرة وقال انها ستحدث ولم يحدث منها شيء. وهو يشير بقوله هذا مثلاً إلى ما ورد في الأناجيل في قوله «الحق اقول لكم ليس أحد يترك بيتاً أو أخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً لأجلي ولأجل الإنجيل الا ويأخذ مئة ضعف الآن في هذا الزمان بيوتاً وأخوة... الخ. وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية» (10 ـ 29 لوقا). وفي قوله «متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون انتم أيضاً على اثنى عشر كرسياً تدينون اسباط بني إسرائيل» (19 ـ 28). وإلى ما جاء في إنجيل متى قوله «ومتى طردوكم من هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى فإني الحق اقول لكم لا تكملوا مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان» (10 ـ 23 متى). وفيه أيضاً «الحق اقول لكم ان من القيام ههنا قوماً

لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته» (16 ـ 28). وفيه أيضاً قوله «من الآن ترون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء» (16 ـ 64). وفيه قوله: «وللوقت وبعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطي ضوءه والنجوم تسقط من السماء وقوات السماوات تتزعزع وحينئذ تظهر علامات ابن الإنسان في السماء» (42 ـ 29). وفي إنجيل يوحنا «الحق اقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (1 ـ 51). وقوله أيضاً «الحق اقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله» (24 ـ 34 متى). وأمثاله من الآيات البيّنات كثير.

ولقد خان الدكتور ذكاؤه فلم يشاهد ببصيرته ان معظم هذه التنبؤات قد تحققت فعلاً قبل أن يمضي ذلك الجيل المجرم. ولم يعلم ان أولئك السمّاكين الجهلاء الفقراء أصبحوا رسلاً مبشّرين في المدن التي حلّوا فيها ونالوا حقيقة، وفي ذلك الزمن أكثر من مئة ضعف مما كانوا يملكون. فبينما كانوا لا يملكون أكثر من شباكهم لصيد السمك أصبحوا أغنياء مكرمين. فقد جاء في اعمال الرسل «كل الذين كانوا اصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل» (4 ـ 24)، وعلاوة على ذلك، فقد شاهدوا انتشار شريعة ابن الإنسان، وقوته وعظمته بأم عيونهم. وفي عام 71 ميلادية ولم يكن قد مضى بأكثر من 39 سنة على انتقال السيد المسيح إلى جوار ربه وقبل أن يكملوا مدن إسرائيل، شاهدوا غضب الله على ذلك الجيل المجرم بالذات وبالنفس، ذلك الذي آذى السيد المسيح. فكان قد رفع الله يده عن اورشليم لما دخلها القائد الجبار تيطس أو تيتوس فاتحاً بعد حصار دام خمسة أشهر فأحرق بيوتها وهيكلها وقتل رجالها ونساءها وشيبها وشبانها وأولادها وأطفالها. وكان جيشه يبقر بطون الحوامل ويقذف الأجنة بالهواء ثم يتلقاها برؤوس الحراب. وبذلك تحقق قوله عليه السلام «ولا يمضي هذا الجيل حتى يكون سخط على هذا الشعب ويقعون بفم السيف» (21 ـ 24 لوقا). وتحقق أيضاً قوله «الحق اقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله» (24 ـ 34 متى). وتحقق أيضاً قوله «ان من القيام ههنا قوماً ما يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته». فلا بد وان قيافا ابن حنانيا رئيس الكهنة وزملاءه الذين اصدروا حكمهم بصلب السيد المسيح، وكانوا يصرخون امام قصر الحاكم الروماني بيلاطس «خذه! خذه! اصلبه! اصلبه! دمه علينا وعلى أولادنا!» (27 ـ 25 متى)، كان حياً وكان بانتظار اخذ نصيبه من الحراب الرومانية ومن غضب ابن الإنسان! فيا له من سخط ربّاني وانتقام إلهي تزلزلت له أركان أورشليم، ويا لها من تنبؤات لم يتنبأ بمثلها قبله احد من الأنبياء، أروني! أي نبي من أنبياء بني إسرائيل ثبتت تنبؤاته بمثل هذه التنبؤات؟

وغاب عن بصيرة الدكتور راشدال الذي كان يؤمل سقوط النجوم على الأرض وكسوف الشمس وخسوف القمر، ان تلك التنبؤات كانت كلها رموزاً لابن الإنسان. فقد ظهرت حقيقتها للمرة الثانية عند نزول غضب الله عام 132 م. على رؤوس اليهود الجناة، ليس على اورشليم وحدها هذه المرة، إنما على كل المدن والقرى اليهودية والإسرائيلية في أرض فلسطين كلها، فكانت كما قال السيد المسيح

«ايام انتقام وسخط على هذا الشعب» (22 ـ 21 لوقا)، اسوأ بكثير من تساقط النجوم وكسوف الشمس وخسوف القمر. فلم يترك القائد الروماني بلوطس منهم في فلسطين نسمة حية، وهرب من سلم من السيف تاركين بيوتهم واملاكهم وما ملكت إيمانهم وراءهم تنعي من اقتناها. وبذلك تحققت أيضاً تنبؤات السيد المسيح في قوله «ويسبون إلى جميع الأمم» (21 ـ 24 لوقا). فلم يبق مدينة في طول الكرة الأرضية وعرضها لم يكن فيها يهودياً مسبياً. فهل يريد الدكتور اكثر من هذه الزعازع؟! ولولا بعض سياسة الأميركان الذين اختلط دمهم بدم اليهود، لما عادوا بزماننا هذا ـ رغم دعاء السيد المسيح عليهم ـ إلى فلسطين!! ألا لعنة الله ولعنة السيد المسيح على من كان السبب في عودة اليهود إلى فلسطين فلا بد ان تصيبهم هذه اللعنة.



الفصل الحادي عشر صلب السيد المسيح[1]

1 ـ لقد شغل خلق العالم وظهور البشر افكار الحكماء والفلاسفة في مختلف بقاع الأرض، ومنذ اقدم العصور. فكان لكل أمة من الأمم البائدة نوع من الأساطير حول الخلقة والسماء والأرض، وخاصة منها ظهور النوع البشري. ومن اقدم الأساطير هذه واكثرها شيوعاً اسطورة السومريين التي وجدت في حفريات بابل منقوشة في الألواح السومرية السبعة جاء فيها أن الآلهة لما غرسوا جنة عدن قرب بلدة اريدو المقدسة خلقوا «لولو» وزوجه وتركوهما فيها لعبادته واباحوا لهما كل نوع من ثمارها إلا العنب وما فيه من رحيق منعش لأنه خاص للآلهة. فأكلا منه وشربا من رحيقه. فغضبت عليهما الآلهة وطردتهما من الجنة إلى الأرض فحصل النوع البشري منهما[2]. وانتقلت عناصر هذه الأسطورة إلى الكلدانيين والآشوريين ومنهم إلى سواحل البحر.

وذكرت التوراة أن الله خلق آدم وحواء وأسكنهما الجنة وأباح لهما كل ثمراتها إلا ثمرة معرفة الخير والشرّ فأكلا منها وعصيا ربهما فاخرجهما من الجنة واسكنهما الأرض عقاباً لهما.

2 ـ ولما ظهرت الديانة المسيحية وتمسكت بما جاء في التوراة اخذ بعض الآباء من هذه الرواية ما راق لهم منها وزادوا عليها ان آدم وحواء قد ارتكبا «خطيئة» عند أكلهما من الشجرة المحرّمة، فكان نسل آدم مستحقاً لعذاب نار جهنم الأبدي. إلا أن الله بعد ذلك أحب العالم فخفف عنه الجزاء وعزم على تخليص النوع الآدمي من الذنب المغروس ومن الخطيئة الفطرية[3]. ولأجل اعطائها الصفة التشريعية ضحّى بابنه الوحيد كفارة عنهم وجعل كل من يؤمن بابنه يسلم من الخطيئة وتكون له الحياة الأبدية «لأنه هكذا احب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (3 ـ 16 يوحنا). فاعتبر بعض آباء الكنائس ان الإله قد غضب على آدم وحواء وحكم على نسلهما بالعذاب الأبدي ثم أحب الله العالم وندم على حكمه فضحّى بابنه الوحيد كفّارة عن البشر! وان السيد المسيح قد حمل وزر خطيئة العالم في جسده على خشبة الصلب وجعل نفسه فدية عن علم وروية واختيار في سبيل خلاص الذين يؤمنون به من الخطيئة. وان الآب قد بذل ابنه الوحيد لتكون للذي يؤمن به الحياة الأبدية.

وبعد ان توفي السيد المسيح ورفعه الله إلى جواره[4]، كما مرّ بحثه، بالغ بعض الكهنة والرهبان

---

(1) لما كان السيد المسيح أجل من ان يتفل عليه، واعظم من ان يحقر ويهان ويقتل ويصلب على أيدي شرذمة من اليهود المرائين المنافقين، فليس على الله بمستنكر ان يحفظه بعنايته، ولا بمستبعد ان يجعل احد اليهود شبهاً له، أو ان يغير منظر الاسخريوطي حتى يظنه كل احد هو المسيح فيصلب عوضاً منه.

(2) بين عدن والأردن.

(3) peccatum original.

(4) وقد أيّد ذلك القرآن الكريم في قوله: ﴿إذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾ (آل عمران).

في ألوهيتة وبالغوا في المعصية التي ارتكبها آدم وحواء، وبالغوا بالخطيئة وغفران الذنوب بالمفرد والجملة السابقة واللاحقة للاحياء والأموات (لاحظ وثيقة الغفران)، وبالغوا في ضرورة الاعتراف امام الراهب، وتمسّكوا بما منح السيد المسيح تلاميذه خاصة حول غفران الخطايا «من غفرتم خطاياه تغفر له ومن امسكتم خطاياه أمسكت» (20 ـ 22 يوحنا). وبالغوا بالشفاعة لأولاد الكنيسة، وبالغوا بالخطيئة والمعصية والذنب المغروس الموروث من آدم وقالوا لا يرفعه ويظهره الا العماد. فقالوا عنه انه باب الكنيسة والحياة المسيحية به يصير الإنسان ابناً لله وعضواً في جسم المسيح السرّي. فهو يمحو الخطايا وعقوباتها، ويهب الفضائل الإلهية، وحق إرث السماء ومشاهدة الله والتجند لله ضد الشيطان، ومن المستحيل الخلاص بدون عماد. وقال المتكلمون منهم ان الخطيئة الأصلية سبّبت الولادة بدون النعمة الإلهية فأصبح البشر يولدون في حال الخطيئة الأصلية أي بدون النعمة الإلهية ـ ما عدا مريم العذراء ـ وان التعميد وحده قد يرفع الخطيئة ويمنع المحاذير كافة، حتى وصلت مبالغات التعميد لدرجة ان كان مسيحيو الاسبان يتحاشون غسل اجسادهم بالماء والاغتسال والاستحمام طيلة حياتهم لئلا يذهب ماء التعميد من اجسادهم. ويقال إنهم كانوا يهدمون الحمامات كلما استولوا على مدينة إسلامية في الأندلس. وأعظم هذه المبالغات وأشدها وأخطرها هي أنهم جعلوا الله ظالماً منتقماً مغفلاً حقوداً يظلم الناس بالجملة وعلى مدى الأجيال البشرية لا لذنب ارتكبوه إنما لأن آدم أكل من الشجرة الممنوعة فحكم عليهم بالعذاب الأبدي دون أن تكون لهم يد في الخطيئة المزعومة. وبعد هذا الحكم الفادح يندم على حكمه فيحب العالم ويخفّف الجزاء فيبذل ابنه الوحيد كفارة عن ظلمه لكي لا يهلك كل من يؤمن به. وجميع هذه المبالغات مخالفة لصفات الله ولعدل الله وربوبيته، في حكمه إدانة البشر قبل أن يخلقوا. وأما حبه مؤخراً العالم وتخفيفه الجزاء عنه بعد ذلك الحكم الصارم وندمه على هفوته وفدائه ابنه الوحيد كفارة عن ظلمه، فهي من الأخلاق البشرية ولا تليق بذات الإله.

كل هذه المبالغات والإنجيل يقول «لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم» (3 ـ 17 يوحنا). ويقول «لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص» (9 ـ 56 لوقا). وهذا معناه: لم يرسل الله السيد المسيح لكي يحرج العالم وليدينه بأمور لا دخل له فيها وليبتليه بالطقوس المتنوعة وليوقعه بهذه الورطات والخطيئات والمبالغات، إنما ليكون نبراساً وهدى للناس يستضاء بنوره ويخلص البشر من عبادة البعل وبعلزمول ومترا وابوللو وزوس وجوبيتر ويعيدهم إلى عبادة الإله الواحد مبدع السماوات والأرض، وبذلك يخلص العالم من الظلمات والشرور.

ولما كانت الدعوى إلى اعتناق الديانة المسيحية قد انتشرت بادىء ذي بدء في رومية والقسطنطينية وأثينا واسميرنه وآسيا الوسطى على يد بولس الرسول وزملائه من بعده، وانتشرت بعد ذلك في الاسكندرية وفي المدن المصرية كافة وفي السواحل السورية على أيدي القسس والرهبان، وكانت هذه الأمم والأقوام كافة تعبد الآلهة الكثيرة والشمس والأصنام والأوثان، فقد احسنت الكنيسة صنعاً لما اعلنت الحرب العوان على المثلثات الوثنية وعلى الآلهة الأخرى السماوية والأرضية في العالم أجمع، وجعلت العبادة منحصرة بالإله العظيم الساكن في السماء وحده. وبهذا انتشرت عبادة الله

العلي في أنحاء الأرض كافة بفضل جهود الآباء ومساعي الكنيسة المسيحية. إلا أن الكنيسة نفسها، مماشاة لعواطف الشعوب الوثنية المتنصرة، تنازلت وتساهلت مؤخراً عن كثير من قواعدها الإلهية التوحيدية فوافقت على أن يحل الصليب المصنوع من الخشب والحديد والذهب والفضة والمعادن الأخرى، محل الأصنام، وأن تحل هياكل الآباء والكهّان والقدّيسين محل الأوثان، فكأنها استبدلت جبة بقميص، فامتلأت جُدُرُ الكنائس والأديرة والبيوت وبالهياكل والصلبان والتماثيل ورسوم الأم مريم والسيد المسيح والبطاركة والمطارنة والشهداء والأبرار والصالحين، تعلّل ذلك أنها رموز لا أصلاً وتذكاراً لا حقيقة، كل هذا لاستهواء افئدة المؤمنين وجلب قلوب المتمردين وتحريك عواطف المتدينين وتطمين رغبات الخاشعين وتسكين ثورات الوثنيين.

ومع هذا فان قسماً من الآباء سبق ان عقدوا سنة 754 م. مجامع حرّموا فيها اتخاذ الصور والتماثيل والذخائر وطلب الشفاعة من العذراء المباركة و اعتبروها هرطقة. إلا أنهم طوردوا ولم يفلحوا. ولما ظهرت اللوثرية انكرت الاستحالة والرهبانية والصلاة إلى القديسين وطلب الشفاعة واتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس والطهر والغفرانات والصلاة لأجل الموتى... الخ. وثبت الصليب عند التقليديين رمزاً لتضحية الإله ولده وكفارة عن خطيئة المؤمنين به. فكان الاقنوم الثاني من الأقانيم الثلاثة والحمل المذبوح لأجل خلاص البشر. وكان مذبحاً ذبح عليه المعصوم، وكان أكبر فجيعة في العالم، وكان أساس الكنيسة وعماد الإنجيل وهو الذي يؤمن به تكون له الحياة الأبدية. فإن لم تكن وفاة السيد المسيح فوق الصليب فيكون بناء عقيدة الكنيسة قد هدم من الأساس وقد زالت الذبيحة والخطيئة والنجاة والتثليث. فكان الصليب هو الأساس الذي بنيت عليه قواعد الديانة المسيحية الكاثوليكية. وبهذا الاعتقاد يرسم كل النصارى ـ سوى البروتستنت ـ الصليب بأصابعهم الثلاثة الأولى أو الخمسة على وجوههم وصدورهم قائلين «باسم الآب والابن والروح القدس» ويسجدون له صباحاً ومساءً.

3 ـ ويدّعي الآباء ان السيد المسيح قام بعد ان توفّاه الله بثلاثة أيام من القبر وتراءى بجسده لتلاميذه وقال لهم «انظروا يدي ورجلي، إنّي أنا هو، جسّوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظم كما ترون لي» (24 ـ 29 لوقا). وبعد ذلك قال لهم «اعندكم ههنا طعام فناولوه جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد عسل فأخذ وأكل قدّامهم» (24 ـ 42 لوقا). ثم «أخرجهم خارجاً وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأصعد إلى السماء» (54 ـ 51 لوقا). «وأخذته سحابة عن أعينهم» (1 ـ 9 اعمال الرسل). «وجلس عن يمين الله» (16 ـ 19 مرقس).

ولم تذكر الكتب ماذا حلّ بجسد ابن الإنسان المادي الذي انفرد في الحال عنهم، وأصعد أمامهم إلى السماء، وجلس عن يمين الله، ومتى خرج من ماديته، وانقلب نوراً، أو إلى أية حالة أخرى، أو كيف يبقى وحده نورانياً في وسط كله أرواح مخلّداً بجنب الله الذي كله روح (الله روح) وقد حفّته الملائكة التي كلها أرواح. ولما كان الروح شيئاً والنور شيئاً آخر، ولا تجانس بينهما، فكان اعتبار صعود روحه الزكية المباركة الطاهرة وحدها إلى جوار ربها ـ دون جسده المادي أو النوراني ـ أقرب إلى الوسط الإلهي الروحاني، ولإمكان حصول التجانس بين الجميع.

ومن جهة أخرى، إذا كان (اللّه روح) كما نطق به السيد المسيح بلسانه الكريم فهذا معناه أن اللّه ليس بجسم محدود الأطراف. فإذا انتفت عنه الجسمية انتفى الحد، وإذا انتفى الحد انتفت الجهة، وإذا انتفت الجهة انتفى المكان، وإذا انتفى المكان ينتفي عنه اليمين.

4 ـ ويدّعي المعارضون أن التوراة التي جاءت بقصة آدم وحواء وإخراجهما من الجنة وإبراهيم واسحق ويعقوب ويوسف وأخيراً بشريعة موسى التفصيلية والأنبياء الذين جاءوا من قبل ومن بعد لم تذكر لا اجمالاً ولا تفصيلاً ولا إيماء ولا إشارة شيئاً عن انتقال خطيئة آدم إلى أولاده وعن الذنب المغروس والصليب والآب والابن والروح القدس، كما وانها لم تذكر شيئاً عن أزلية السيد المسيح وكينونته قبل أن يخلق كل العالم، وعن وجوده قبل أن تخلق كل الكائنات وعن انه كان معروفاً قبل تأسيس العالم وعن صلبه لحمل خطيئة البشر وعن قدسية الصليب وعن سائر القواعد المسيحية الأخرى المتعارفة. فقد ظهرت هذه وأمثالها لأول مرة في إنجيل يوحنا عن لسان السيد المسيح بأنه ناجى ربه في صلواته قائلاً «والآن مجّدني أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عند ذاتك قبل كون العالم» (17 ـ 5 يوحنا). وقوله «لأنك احببتني قبل إنشاء العالم» (27 ـ 25 يوحنا). ثم ظهر في رسالة بطرس الجملة الآتية «وكان المسيح معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم ولكن قد اظهر في الأزمنة الأخيرة من اجلكم» (1 ـ 30 بطرس).



الفصل الثاني عشر الشفاعة والمغفرة

1 ـ بعد ان ألقى رجال الدين الرعب في قلوب المؤمنين بسبب الخطيئة التي ارتكبها آدم وبيوم الدينونة والحساب والكتاب والنعيم والعذاب، صنعوا تجاهها غفران الخطايا والشفاعة في المحل الأول لإمكان ايصال المؤمنين بسهولة وبجرة قلم واحدة إلى الحياة الأبدية وإلى عالم الملكوت وإلى أبواب تحتوي النعيم.

ولم تكن هذه الشفاعة منحصرة بالعالم المسيحي وحده إنما هي منتشرة في الأديان كافة، ففي كل ديانة يوجد نبي أو قديس أو كاهن أو بطل أو سيد أو شيخ أو شهيد يشفع عند الله لأمته ولتلاميذه ولمريديه ومحبيه وللمؤمنين به والمنتسبين إليه. وكل من هؤلاء التلاميذ يعتقد ان بطله وشيخه وقديسه محبوب عند الله وان الشفاعة له وحده وهي مقبولة عند الإله لا يحتمل ردها.

تذكر التوراة ان الله رفع غضبه عن بني إسرائيل لما تمردوا وأخطأوا وعبدوا العجل وطلبوا اللحم ورفعه عنهم تبعاً لشفاعة موسى ونصيحته «اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم، فقال موسى ارجع واندم فندم الرب» (32 ـ 14 خروج). ورفعه عن مريم التي تكلمت شراً على موسى فأصيبت بالبرص (عدد 11 و 12) بسبب شفاعة موسى. واما الأناجيل فلم تذكر ان السيد المسيح قد قال في مواعظه وتبشيره عن الشفاعة شيئاً إلا أنها ذكرت انه بنفسه سيكون قاضي الدينونة وإله الحساب بعد الموت، وكل من يؤمن به يخلص من الخطيئة ومن العذاب الأبدي. لذلك لم تبق من حاجة لتثبيت كلمة الشفاعة في الأناجيل. وأسند إلى السيّد المسيح أيضاً أنه اعطى امتيازات إلى تلاميذه (وبالوسيلة إلى الكهنة والرهبان) عند زيارته لهم بعد قيامه من مرقده الشريف في عالم الموتى اعظم من الشفاعة بكثير عند قوله «من غفرتم خطاياه تغفر له ومن امسكتم عنه امسكت» (20 ـ 22 يوحنا). وقوله «الحق اقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء» (18 ـ 18 متى). فقد انتقلت هذه الصلاحية الواسعة على مدى الأزمان إلى القسس والرهبان كافة ورفعت الخطايا ومحت الذنوب عن كاهل العالم المسيحي ـ بمجرد المعمودية والاعتراف أمام الراهب ـ فلم يبق من حاجة لعالم الدينونة ولا حتى للشفيع.

2 ـ كان قد أودع الرب الإله دينونة افراد البشر بيد الابن يسوع المسيح «لأن الآب لا يدين احداً بل قد اعطى كل الدينونة للابن» (5 ـ 22 يوحنا). ولما كان الابن إله الصفح والعفو والرحمة فهو أيضاً لا يدين أحداً «أما انا فلست ادين أحداً» (8 ـ 15 يوحنا) «وان كنت أنا ادين فدينونتي حق»، فأصبح لا دينونة للمؤمنين بيسوع المسيح «اقول لكم ان من يسمع كلامي ويؤمن بالذي ارسلني فله حياة أبدية ولا

يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (5 ـ 24 يوحنا). فيدخلون عالم الملكوت بدون سؤال وجواب وبدون ظهر وشفيع[1].

ويظهر ان بولس الرسول لم يطلع على الآيات الإنجيلية الآنفة الذكر فكان أول من استعمل كلمة الشفاعة في العالم المسيحي بينما الآيات المذكورة قد نفت الشفاعة ولم تترك لها من حاجة. فقد جاء في رسالته إلى الرومانيين عن شفاعة السيد المسيح لأمته «... عن يمين الله الذي أيضاً يشفع فينا هو المسيح» (8 ـ 34). وفي رسالته إلى تيموثاوس «لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس.. الإنسان يسوع المسيح» (2 ـ 5). وفي رسالته إلى العبرانيين «اذ هو حيٌّ في كل حين لأجل الشفاعة» (7 ـ 2). فإذا كان الآب لا يدين احداً بل قد اعطى كل الدينونة للابن، وإذا كان الذي يؤمن بالابن وبالذي ارسله لا يأتي إلى الدينونة بل يكون قد انتقل من الموت إلى الحياة فلم تبق من حاجة للشفاعة. ثم يعود بولس الرسول ويجعل دينونة الله حسب الأعمال فيقول برسالته إلى أهل رومية «... دينونة الله العادلة. الذي سيجازي كل واحد حسب اعماله» (2 ـ 6). وهذا يدل على عدم اطلاعه على الأناجيل التي تنص على أن الآب لا يدين أحداً...

3 ـ ولما دخلت الفلسفة اليونانية في ثنايا التعاليم المسيحية جاءت الكنيسة بتعاليم فلسفية جديدة كلامية أخرى عن شفاعة السيد المسيح لأمته. فقال المتكلمون المسيحيون: ان الله لا يخلص احداً من نار جهنم بسبب الخطيئة بدون ما شفيع، فان الإنسان مفتقر بصورة قطعية إلى الشفيع ويستحيل على الإنسان التقرب من الإله العظيم بطلب الشفاعة. فيجب والحالة هذه ان يكون الشفيع إلهاً تاماً وبشراً تاماً. فكان من الضروري وجود السيد المسيح الجامع للصفتين الكاملتين الإله التام ليتقرب من الله بصفته الإلهية ويتقرب من البشر بصفته البشرية، ويكون واسطة للتقارب بين الطرفين ويقوم بدور الوسيط والشفيع لأمته. وفات هؤلاء الآباء الآية الإنجيلية «لأن الآب لا يدين أحداً».

وبينما كان الآب قد اعطى الدينونة كلها للابن، وكان الابن أيضاً لا يدين أحداً من المؤمنين به الذين سينقلون من الموت إلى الحياة حسب منطوق إنجيل يوحنا، جاء المتكلمون المسيحيون بهذا المنطق الغريب لتثبيت الخطيئة للبشر والشفاعة للابن وتأكيد لاهوتية السيد المسيح وناسوتيته وتأييد منزلته العظيمة عند الآب. ثم ظهر بعد ذلك في تقاليد الكنيسة وقواعدها شفعاء آخرون أمثال السيدة مريم والدة السيد المسيح وميكائيل وجبرائيل من الملائكة. وثم الحواريين والاعزة والقديسين والمعترفين (الموديانا) وهم الذين تحملوا العذاب والآلام في سبيل المسيح ودينه.. واخيراً الرهبان المأمورين بإجراء الأسرار السبعة، وثم كل قسيس وراهب وكاهن. ووصل الأمر إلى بيع اذرع من الجنة كما هو معلوم. كل هذه المعتقدات والسيد المسيح الذي لم يقبل مداخلة أمه العذراء بأمر من أموره البسيطة لتدبير الخمر في عرس قانا ويقول لها بعنف «مالي ولك يا امرأة» (2 ـ 4 يوحنا)، ولا يقبلها بحضوره في

(1) تذكر الأساطير الفرعونية ان آمون الإله المصري كان قد أودع دينونة البشر إلى الإله اوزيريس وهو الذي يزن حسنات العباد وسيئاتهم بميزان العدل الإلهي فيرسل الصالحين إلى جنان فرعون لينعم في ظلال اشجار التين ويرسل الأشرار إلى حفر النار للعذاب الأبدي. وبهذا كان الإله آمون قد استراح من عناء حساب البشر عن اعمالهم.

وقت التعليم المسيحي ويجعلها من الذين لا يصنعون مشيئة الله[1] لا يحتمل قبوله تدخلها وشفاعتها مع أنها أجلّ وأعظم من أن تتدخل بأمور لا علاقة لها فيها.

وفي عهد الفراعنة كان الناس ينقلون موتاهم من مسافات بعيدة لدفنها في حضيرة معبد اوزيرس إله الحساب والدينونة بعد الموت تيمناً وتبركاً بضريحه المقدس، وحتى ينالوا، بتقريبهم منه وبالتجائهم إليه، شفاعته يوم الدينونة ورحمته يوم الحساب. وقد انتقلت عناصر هذه العقيدة منذ خسمة آلاف سنة أو ما يزيد، وخلفاً عن سلف إلى الأمم والأقوام كافة، قديمها وحديثها. ولم يزل هذا الإنسان يدفن موتاه في البيع والكنائس والجوامع والمعابد بجوار القديسين والأولياء والشهداء والصالحين طلباً لشفاعتهم ورغبة في الانتساب إليهم وطمعاً بجاههم عند الله[2].

4 ـ ما معنى الشفاعة؟ لا يمكن تعريف معنى الشفاعة دون تصور الإله العظيم كملك من ملوك البشر جالساً على عرشه، وقابضاً على سوط العذاب فظاً غليظاً، حانقاً حقوداً، جاهلاً مغفلاً، قاهراً جباراً، منتقماً، وبالاجمال دكتاتوراً ظالماً (تعالى الله عن ذلك كله) خلق الخلائق ونفر منهم وندم على ما فعل «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه» (6 ـ 6 تكوين)، فحكم عليهم بسبب الخطيئة التي ارتكبها آدم بالجزاء الأبدي، فأخذ البشرية كلها بجريرته، دون ان يكون لهم دخل فيها، ثم عاد إليه رشده وندم على ما فعل وأراد تلافي انفعالاته بشكل مشروع فبذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل العالم.

5 ـ كيف ظهرت الشفاعة؟ كان الإنسان الابتدائي يعتقد أن كل الشرور والنكبات والأمراض متأتية من غضب إلهه عليه، ولا يمكن تسكين غضبه وإزالة حدته، ولا يمكن اكتساب عطفه ورحمته الا بلطخ الدماء البشرية الحارة على مذبحه. ووصل الاعتقاد عند الفنيقيين ان لا يمكن تسكين غضب إلههم مولوخ عند نزول الشدائد وتوالي النكبات الا بمجموعة من القرابين البشرية. فكان الآباء والأمهات تحت تلقينات الكهنة وترغيباتهم يقدمون عن طيبة خاطر فلذات اكبادهم طائعين إلى مذبح الإله، فتذبح الأطفال بالعشرات حتى ينتشي مولوخ من دمهم الحار ويفرح ويبتسم فيزول غيظه ويرتفع غضبه. ويظهر لنا ان النبي إبراهيم أيضاً، بالنظر لما جاء في فصل التكوين، أراد تحت ذلك الاعتقاد السائد في فلسطين تقديم ولده ذبيحة لإلهه. وكان أهل الحبشة يذبحون بنيهم للشمس وبناتهم للقمر، والفرس يقدّمون ضحاياهم البشرية اما بالسيف واما بالدفن أحياء، واليونانيون يذبحون شخصياً واحداً قبل شروعهم بالحرب ضد الأعداء، كل ذلك لارضاء آلهتهم. فكانت القاعدة العامة، هي ان

---

(1) «قال له واحد هوذا أمك وأخوتك واقفون خارجاً طالبين ان يكلموك فأجاب وقال للقائل له من هي أمي ومن هم أخوتي. ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها أمي واخوتي لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي» (12 ـ 42 متى).

(2) وكان قد انتقلت كلمة الشفاعة من سوريا المسيحية إلى الجزيرة العربية فاعتبر كهان العرب أصنامهم شفعاء عند الله. ثم ظهر من بين رجال الدين الإسلامي من قد أجاز الشفاعة ومنحها للأولياء والشهداء والأبرار والصالحين. وكل صوفي يسمى من أهل الله ومن اعزاء الله ومن احباء الله قد يشفع للناس بالمفرد والجملة.

يشق الكاهن صدر الشخص وينزع قلبه ويرفعه إلى الشمس أولاً، ثم يطرحه تحت أقدام الصنم الذي يرمز إلى إلهه.

ولما ظهرت الديانة المسيحية وانتشرت في الأطراف كافحت ما تبقى من هذه المعتقدات الظالمة في كل مكان بكل ما لديها من قوة وطاقة حتى أبادتها نهائياً ورفعتها من الوجود، فاستبدلها الكهان بذبائح وقرابين وضحايا ونذور من الحيوانات على مذابح الآلهة. ثم تطورت الذبائح الحيوانية أيضاً إلى شفعاء ووسطاء عند الإله العظيم لكسب عطفه وعفوه، وتأمين لطفه وكرمه. وبمرور الأزمنة أصبح لا يمكن نيل مودّته ورحمته ولا يمكن تسكين غضبه وتلطيف غيظه إلا بالوسيط والشفيع. ولما انتشرت هذه العقيدة بين الناس تكوّنت في كل أمة طبقات من الاحباء والأعزاء على الله، أولئك الذين لا يرد لهم طلباً ولا يؤخر لهم حاجة... فيقترب هؤلاء وحدهم منه ويطلبون مغفرته للمجرمين والسفاكين والأشرار واللصوص من منتسبيهم... ويدخلون الجنة من يشاءون فيغفرون لمن يشاءون ويعذبون من يشاءون ويكون الإله العظيم ألعوبة في أيديهم مسروراً من تصرفاتهم مغتبطاً بأعمالهم. فلا يذهب إلى الجحيم الا من لا شفيع له، ولا يدخل النار إلا من لا يملك ما يدفعه للدلالين والسماسرة لطلب الغفران ونيل الشفاعة. وبذلك تنتفي عن الخالق صفات القدرة والإرادة والعلم والرحمة، وأخيراً صفة العدل الإلهي. وكل هذا نقض بذات الله وانكار بصفات الله وكفر بعدل الله (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً).

6 ـ واما في عالم المسيحي فقد ظهر مؤخراً كثير من الفرق المسيحية كما سيأتي بيانه، الاعتراف امام الراهب وغفران الخطايا، وأبطلوا الغفرانات والشفاعات كافة. ومنهم من قال ان لا لزوم للناس من ان يعترفوا بخطاياهم ولا حاجة بطلب الشفاعة بل يكشفونها للاخوة فقط. وان سلطان مغفرة الخطايا منوط بالله وحده وأبطلوا كذلك الصلاة إلى القديسين والى الموتى ودفع أجرة على القداديس. ولم يعترفوا بعصمة البابا. ومنهم حتى من قال بضرورة عزله إذا هرطق. وقد يشكو رجال الأديان كافة من كل أمة قلة إيمان الشباب في هذا اليوم. وفاتهم جميعاً ان نظرية الشفاعة والزيارة والمغفرة بشكلها المتداول بين الناس مما تشجع على ارتكاب الجرائم وتخرق قواعد الدين وتفسد الأخلاق تحت أمل التوبة ونيل الشفاعة والمغفرة فيما بعد.

الفصل الثالث عشر اختلاف في طبيعة المسيح

1 ـ في القرن الأول الميلادي كانت الديانات السائدة في العالم كافة ـ سوى اليهودية والزردشتية ـ وثنية، تعبد الأصنام باعتبار أنها رمز للآلهة. وكانت الفلسفة اليونانية قد انتشرت في كل مكان. ولم تزل الاسكندرية واورشليم وسائر العواصم المهمة تشع من جوانبها بقواعد الفلسفة الإغريقية فتثير عقول الناس. وكان الاعتقاد السائد عند الأمم والأقوام كافة في الشرق والغرب ان الآلهة تسكن في السماء، وعند الإغريق تستقر منها في جبال الأولمب وكريت، وعند السومريين والكلدانيين تسكن منها في أعماق المياه والأهوار وتتزاوج وتتناسل، ولكل منها زوجة وبنون وبنات وللبعض منها محظيات وعشيقات، وقد تتقمص الأشكال البشرية فتطوف الشوارع والأسواق وتقف في الممرات والمنعطفات وتختلط مع الناس وتبلّغ الشرائع والأوامر والنواهي الإلهية، وتأكل وتشرب وتحب وتبغض وتتدخل في الشؤون البشرية.

وقد تغلغلت امثال هذه المعتقدات في عقول الناس كافة فكانوا يحاذرون بطشها ويخافونها فينقادون لأوامرها ومطاليبها ورغباتها. وقد تأثّرت حتى الأديان السماوية من تجسد الآلهة والملائكة والشياطين وأيّدت التوراة هذا التجسد بشكل واضح في أماكن عديدة، من ذلك: «وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة» (3 ـ 8 تكوين). ثم ظهر الرب لإبراهيم... وبشره بغلام... وظهر لإسحاق... ثم ظهر ليعقوب.. «وكلّم الرب موسى وجهاً لوجه وعيانا لا بالألغاز» (12 ـ 8 عدد)، «وكان موسى يتكلم والله يجيبه بصوت» (19 ـ 19 تكوين). وايدت الأناجيل تجسد ابليس لاغراء السيد المسيح فلم يفلح. وأيّدت الديانة المسيحية تجسد السيد المسيح في احشاء مريم العذراء كما وان القرآن أيضاً أيد تجسد الملائكة وروح الله في اماكن كثيرة.

2 ـ كانت الأمم الكبيرة البائدة من فرعونية ويونانية وكلدانية وبابلية، قد قبلت تثليث الآلهة. فكان لكل مدينة كبيرة مثلث إلهي. وكان يوجد في مصر وحدها عدة مثلثات إلهية وقد سبق ذكرها.

ولما تسلّلت الفلسفة اليونانية والمنطق الى الديانات، ارتفع التكاثر من بين الآلهة وأقيم عوضه الصفات والأفعال، فأصبح الإله واحداً بالذات مثلثا بالأسماء والأعمال والصفات. ويظهر لنا ان المثلث المسيحي كان قد وضع في هذا الاتجاه تأييداً لكلمة «الإله الواحد» إلا أن الآباء المتأخرين جعلوا لكل من الثلاثة «برسونا» أي شخصية مستقلة وسمّاها البعض منهم «اقنوم».

وأما الأمم الصغيرة الساكنة في سوريا وفلسطين وسواحل البحر فلم يكن التثليث شائعاً عندهم، إنما كانوا كلهم موحِّدين. فكان لكل أمة ولكل مدينة ولكل قبيلة في فلسطين، إله واحد تعبده. فكان بعل فغور إلهاً للموابيين ومولك إلهاً لبني عمون وعشتروت إلهة للصيداويين وملكوم إلهاً للعمونيين وبعل إلهاً للادميين والبعلم إلهاً للاراميين وبعل زبوب إلهاً لعقرون (1 ـ 4 م. ث)، و«داجون إلهاً لاسدود» (5 ـ 8 ص 10)، وغيرهم من الآلهة في أرض فلسطين. فتكون المدينة مدينة الإله،

والشعب شعب الإله والجيش جيش الإله، وكل شيء متعلق بأمر الإله وإرادته. فهو الذي يحارب الأعداء، وهو الذي يكسب الحرب والظفر لعباده، أو يسلط عليهم اعداءهم فينتقم منهم لاهمالهم عبادته. فكان الإله يهوه على هذه الشاكلة إلهاً لبني إسرائيل وحدهم، وكان قد خطب الملك والنبي سليمان امام مذبح الرب عند اكماله بناء الهيكل وتجاه كل جماعة إسرائيل فقال «أيها الرب إله إسرائيل ليس إله مثلك في السماء من فوق ولا على الأرض من أسفل» (8 ـ 22 الملوك الأول)، وجاء في سفر النبي اشعيا «هكذا يقول الرب إله إسرائيل» (37 ـ 21)، وامثاله حول إله إسرائيل في اقوال الأنبياء كثير. وكان مقر الإله يهوه في السماء وفي اورشليم «في اورشليم المدينة التي اخترتها لنفسي لأضع اسمي فيها» (11 ـ 36 م 10).

ولم يكن يهوه والحالة هذه رب العالمين. وإذا كان بعض الأنبياء قد اعتبروه خالق الكائنات، فهو عند الآخرين منهم رب إسرائيل فقط. فقد جاء في سفر الخروج من اسفار التوراة في كلام الرب لموسى ما نصه: «ثم قال الرب انا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، فغطى موسى وجهه لأنه خاف ان ينظر إلى الله» (3 ـ 6 خروج). واستدامت هذه المعرفة والعقيدة عند انبياء بني إسرائيل كافة حتى ان السيد المسيح نفسه أيضاً كان متأثراً بهذه المعرفة. فقد جاء في إنجيل مرقس ان السيد المسيح قال لقوم من الصدوقيين الذين أرادوا امتحانه: «أفما قرأتم في كتاب موسى كيف كلمه الله قائلاً أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب» (12 ـ 26 مرقس). وكذلك قوله لجموع اليهود في وعظه: «فلا تدعوا لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماوات» (23 ـ 9 متى)، «اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد». وكلها ترمز إلى الإله الواحد يهوه إله بني إسرائيل، ومن هنا نشأ التوحيد الإسرائيلي.

وبما ان الفكر البشري لم يكن حينذاك يستوعب وجود الإله الواحد لكل البشر وللعالم أجمع، كما وان الروح اليهودية لا تحتمل شركاء لها من الأمم الأجنبية في إلهها يهوه، فلم ينتشر التوحيد الإلهي الإسرائيلي في العالم وبقي منحصراً باليهود فقط.

3 ـ كان بولس الرسول قد وضع تعاليمه ونشر رسائله عن شخص يدعى يسوع المسيح من نسل داود من جهة الجسد وابن الله بقوة من جهة الروح المقدسة، وأنه فدى بنفسه فوق الصليب لحمل الخطيئة، وقام من الأموات، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الله، وهو الذي ينقذنا من الشرير، وهو الذي يشفع لنا، وهو الذي يدين العالم، والإيمان والمعمودية به تجعل الناس أبناء الله فيكونوا ورثة ملكوت الله... ولما رفض اليهود هذه التعاليم «وامتلأوا غيرة على دينهم وجعلوا يقاومون ما قاله بولس مناقضين ومجدفين.. قال لهم: كان يجب ان تتكلموا انتم أولاً بكلمة الله ولكن إذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم غير مستحقين للحياة الأبدية هو ذا نتوجه إلى الأمم» (46 ـ 13 أعمال الرسل). فاعتبر بولس الرسول الرب الإله ليس إلهاً لبني إسرائيل وحدهم، إنما إله وأب لجميع الأمم والأقوام على السواء، حتى أقصى الأرض «قد اقمتك نوراً للأمم لتكون انت خلاصاً إلى اقصى الأرض» (46 ـ 13 اعمال). فاعتبر بولس الرب الإله ليس إلهاً لبني إسرائيل وحدهم، انما إله وأب لجميع الأمم والأقوام حتى أقصى الأرض «قد اقمتك نوراً للأمم لتكون انت خلاصاً الى أقصى الأرض» (47 ـ 13 أعمال).

ولما كتب بولس الرسول رسالته إلى أهل تسالونكي جعل فيها الرب الإله رباً وأباً للجميع بقوله «والله ابونا الذي احبنا» (2 ـ 17). وفي رسائله إلى أهالي كورنثوس وغلاطيه وفيلبي وافسس وكولوسي وإلى سائر الأمم والأقوام يقول «نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح». وفي رسالته الثالثة إلى أهالي كورنثوس عن لسان الرب يقول «فأقبلكم وأكون لكم أباً وأنتم تكونون لي بنين وبنات يقول الرب القادر على كل شيء» (6 ـ 18)، وامثاله في رسائله كثير. وبفضل جهوده هذه، أصبح الله العظيم ـ وليس يهوه ـ أباً لجميع البشر على التساوي، وأصبح البشر كافة أبناء الله وبنات الله من دون تفريق.

ثم يبحث بولس الرسول عن لزوم الابتعاد عن عبادة الأوثان وعن الحظوظ الجسدية (الزنى، العهارة، النجاسة، الدعارة...)، ولأجل دخول الأمم بهذا الدين الجديد دون نفور وتبرّم، قرر رفع الاختتان عن كاهل الناس «ها أنا بولس اقول لكم أنه ان اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً» (5 ـ 1 غلاطية). ولم يذكر برسائله الكثيرة المتنوعة شيئاً عن ولادة يسوع المسيح العذرية وعن طفولته ونشأته ولا عن معمودية يوحنا المعمدان وكيفية نزول الروح المقدسة عليه ولا عن تعاليمه ومعجزاته الكثيرة... ولا عن سيرته وحركاته... والأحوال السائدة في زمانه. ولا عن يهوذا الاسخريوطي.. وكيفية صلبه. والأهم من كل ما سبق أنه لم يذكر شيئاً عن أمه السيدة مريم العذراء واخوته واخواته وعن كل ما جاء في الأناجيل الأربعة من مختلف المسائل الهامة المتعلقة بشريعته والاساس الذي بنيت عليه الطريقة المسيحية مع أنه كان أقرب زمناً للسيد المسيح من غيره وأكثر اطلاعاً على نسبه وطفولته وشبابه ونشأته وتعاليمه وكل حركاته والظروف التي كانت محيطة به... وبالأخير صلبه بشكل مفجع، فكأنه هو ومحررو الرسائل الأخرى (بطرس. يوحنا. يعقوب. يهوذا) لم يطلعوا على هذه كلها ولم يطلعوا على الأناجيل وما فيها مما يظن أنها قد كتبت بعدهم وسجلت أشياء لم يعرفها معاصرو السيد المسيح والمقربون إليه وحتى حواريوه، أو أنه اكتفى بما فيها، ولم يشأ تكرارها.

4 ـ كلمة الانجيل معربة عن اليونانية (Anghelos انقليوس) وتأتي بمعنى روح او ملك وهي مشتقة أيضاً من Evanghilion وتأتي بمعنى البشارة أو التبشير بالسعادة. ويسمى الأنجيل بالآرامية... والسريانية القديمة التي كان يتكلم بها السيد المسيح «كاروزوتا» وتأتي بمعنى الموعظة. فكانت الرسائل والأناجيل كلها كاروزوتا أي المواعظ والبشارة. وكان بولس يطلق دائماً على رسائله كلمة إنجيل «ان انجيلنا لم يصل لكم بالكلام فقط بل بالقوة أيضاً» (1 ـ 4 تسالونيكي)... إلا أن الكنيسة اعتبرت المواعظ الأربعة فقط أناجيلَ لتقاربها مع بعضها وما عداها رسائل.

5 ـ وكان في القرن الثالث الميلادي قد ظهر نور جديد في آفاق الشرق يبشر بحياة سعيدة بعد الموت ويبشر بيسوع المسيح ابن الله الوحيد الذي ولد من حمل بدون دنس وتجسّد في احشاء أمه العذراء ثم فدى بنفسه لحمل الخطيئة البشرية وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الله وبيده مفاتيح الملكوت والذي يؤمن به لا يدان. وبينما كان السيد المسيح «عليه الصلاة والسلام» قد تحدى العقول البشرية كافة وقال «الله روح» وبذلك نزه الإله عن الصورة البشرية وعن التجسم والتجسد والتحيز والجهة والمكان ووجه العبادات من الصور والأشكال والحركات والمراسيم إلى الضمير والوجدان والروح

والقلب، إذ قد تطورت هذه القواعد بيد الآباء بشكل غريب فأخرجوا الإله من دائرة التنزيه وأدخلوه في دائرة التجسيم والتشبيه.. وأخرجت العبادات من دائرة الروح والضمير والوجدان والاحساس والقلب وادخلت في دائرة الهياكل والتصاوير والرسوم والصلبان لتسهيل دخول الامم الوثنية بهذا الدين الجديد.

وكان لما قتل استفانوس البار في اورشليم رجماً بالحجارة لقوله في خطبة ألقاها في مجمع من اليهود... «انا انظر السماوات مفتوحة وابن الإنسان قائماً عن يمين الله» (7 ـ 57 اعمال).. وصمم المجمع اليهودي على «قتل تلاميذ المسيح كافة» (5 ـ 33 اعمال) لكفرهم وتجديفهم بالإله يهوه العظيم... هرب فيلبس إلى السامرة وباقي الأخوان التلاميذ إلى فينيقية وقبرص وانطاكية ولحقهم برنابا وغيره من المؤمنين ثم آمن شاؤول بيسوع المسيح بعد أن كان من اشد اعداء الكنيسة... وشرع الأخوة الرسل يبشرون كل من جهته وحسبما يتوصل إليه عرفانه وادراكه وما علق بفكره من تعاليم السيد المسيح في سواحل البحر الأبيض المتوسط وجزائره كلها. فاختلفت الروايات واضطربت الأفكار وتبلبلت الآراء وظهرت المتناقضات في ولادة السيد المسيح وتعاليمه وطبيعته وصلبه.

6 ـ لا يوجد من بين الأنبياء العظام من شغلت ولادته وتعاليمه ومعجزاته الأفكار البشرية كالسيد المسيح، يضاف ما يتعلّق بصلبه وقيامه من الموتى وصعوده إلى السماء وجلوسه عن يمين الله. فقد شغلت سيرته هذه العقول وحيّرت الألباب وسبّبت لكثير من الناس في مختلف الأزمنة والأوقات أنواع التقولات ومختلف الاتجاهات وشتى المعتقدات.

ولما اخذ العلم والدين في الأزمنة المتأخرة كل منهما مجراه على حدة، واستقل الواحد عن الآخر، وانتشرت أصول التفسير الحر في أوروبا، وارتفع ضغط العقيدة الصوفية المسيحية، دخل علماء النقد والتدقيق والمقارنة بين الأديان وبخاصة منهم الماديون أمثال الدكتور راشدال السالف الذكر واعوانه من الفلاسفة في تحليل وتدقيق نصوص الأناجيل المقدسة، ورسائل الرسل، فوضعوها تحت حادة النقد العالي الحر، فكان ولا بد من ذكر بعض ما ظهر لهم منها، ثم الرد عليها لدفع الشبهات. فيقولون، لقد ظهر لنا من النصوص الإنجيلية ان في النصف الأول من القرن الأول الميلادي، كان التعارف عند جميع المعاصرين ان يسوع المسيح من جهة الجسد، هو ابن يوسف وأمه مريم وأخوته يعقوب وموسى وسمعان ويهوذا، وكذلك اخواته كلهم أولاد هذين الأبوين بموجب الشريعة الموسوية ما فيه ريب لمستريب، ولا فيه ما يستوجب الاستنكار والاستفهام، وشاهدوا أنه لم يكن من قد اقترب في حياته من نسبه الإنساني لا من اعدائه ومناوئية الذين حقّروه وأهانوه وكذبوه وصلبوه، ولا من محبيه ومقربيه ومريديه الذين ألّهوه وعبدوه وعن يمين الله أجلسوه، ولم يطعن احد بجهة اتصاله بيوسف لاعتبارهم انه وأخوته كلهم من نسله بموجب الشريعة الموسوية كسائر الناس. ولو كان هناك بعض الشك والريب في نسبه الإنساني، لما قصر اليهود أبداً، وهم بالدعاية ماهرون، في مهاجمته في حياته وجهاً لوجه من هذه الناحية.

ويؤيدون مدعياتهم هذه بنصوص من الأناجيل، من ذلك مثلاً، لما كانت معجزاته النبوية واضحة كل الوضوح لا يمكن لأحد دحضها واغفالها ولا يمكن حتى لليهود اعدائه الالداء جحدها وانكارها،

كانوا كلما شاهدوا معجزاته الباهرة يقولون متعجبين بحضوره وعلى مسمع منه كإعلام المعلوم، كما جاء في إنجيل متى «أليس هذا ابن النجار... فمن اين لهذا هذه كلها» (13 ــ 55 متى). وفي إنجيل لوقا «وكان الجميع يشهدون له... ويقولون أليس هذا ابن يوسف» (4 ــ 22 لوقا). وفي إنجيل يوحنا «أليس هذا يسوع ابن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه» (6 ــ 41 يوحنا). وكان السيد المسيح يسمع كلامهم ولم يستنكره وكان يقول لهم، جواباً لكلامهم هذا، برواية متى «ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه» (31 ــ 57 متى). وفي رواية لوقا «ليس نبي مقبولاً في وطنه» (4 ــ 24). ولم يزد على هذه البيانات شيئاً.

وشاهد علماء التحقيق أيضاً ما جاء في إنجيل يوحنا في قوله بأن «فيلبس وجد نثنائيل وقال له وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع بن يوسف الذي من الناصرة» (1 ــ 45).

وشاهدوا ما جاء برسالة بولس الرسول إلى أهل روما قوله «عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات يسوع المسيح ربنا» (1 ــ 2).

وما جاء كذلك في قول بولس إلى ثيماوس الثانية «اذكر يسوع المسيح المقام من الأموات من نسل داود بحسب إنجيلي» (2 ــ 8).

وأيضاً في خطبته التي ألقاها في انطاكية قوله «من نسل هذا ــ أي داود ــ حسب الوعد اقام الله لإسرائيل مخلصاً يسوع» (13 ــ 23).

وأيضاً ما جاء بخطبة القديس بطرس الرسول عن السيد المسيح بقوله «ان الله حلف لداود بقسم أنه من ثمرة صلبة يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه» (2 ــ 31 اعمال الرسل).

وما جاء أيضاً في بشارة الملاك جبرائيل للأم مريم العذراء بقوله «يعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ويملك على بيت داود إلى الأبد» (1 ــ 33 لوقا).

وفي إنجيل يوحنا قوله «ألم يقل الكتاب أنه من نسل داود ومن بيت لحم... يأتي المسيح» (7 ــ 43).

وما ذكره لوقا في انجيله قوله «وعندما دخل بالصبي يسوع ابواه ليضعا له حسب عادة الناموس (2 ــ 28 لوقا).

وقوله للمرة الثانية «وكان ابواه يذهبان كل سنة إلى اورشليم في عيد الفصح» (2 ــ 41 لوقا).

وقوله للمرة الثالثة عن لسان السيدة مريم العذراء لما وجدته بعدما فقدته ثلاثة أيام في اورشليم بأنها اقرت واعترفت صراحة ان يسوع ابن يوسف وذلك في قولها له «وقالت له أمه يا بني لماذا فعلت بنا هكذا هوذا ابوك وانا كنا نطلبك معذبين (2 ــ 48 لوقا). وأيّد برنابا أيضاً هذه الحادثة بإنجيله فقال «فعنفته أمه مريم قائلة يا بني ماذا فعلت بنا فقد نشدتك وأبوك ثلاثة أيام ونحن حزينان» (9 ــ 13 برنابا).

ويقولون، لا يحتمل ان تنطق الأم العذراء الصدّيقة كذباً وبخلاف الواقع مطلقاً مهما كانت الظروف والأحوال ومهما كانت درجة الخوف على حياته، فكان في امكانها عدم تلفظ هاتين الكلمتين

(ابوك وانا) دون خلل بالعتاب، كما ولا يمكن أن تكون جميع هذه النصوص المختلفة وامثالها كثير الواردة في الأناجيل الأربعة وفي رسائل الرسل كلها مغلوطة ومحرفة ولا أساس لها من الحقيقة.

وأمّا متى، فقد ذكر في الأصحاح الأول من انجيله قوله «كتاب ميلاد يسوع المسيح بن داود بن إبراهيم» (1 ـ 1). وبعد ان عدّد متى أسماء الأجيال فرداً فرداً منحدراً من إبراهيم حتى يوسف بن يعقوب، عاد ونفى ما ذكره في قوله عن «يسوع بن داود ابن إبراهيم» فقال عن يسوع «لما كانت أمه مخطوبة ليوسف قبل ان يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس» (10 ـ 8) ثم قال «إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً يا يوسف بن داود لا تخف ان تأخذ مريم امرآتك لأن الذي حبل به فيها هو من الروح القدس» (1 ـ 21)، إلى أن قال «فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمر ملاك الرب واخذ امرأته ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر ودعا اسمه يسوع» (1 ـ 24 متى).

فكان في قول متى (قبل ان يجتمعا) قد قطع صلة جسدية بشرية ليسوع بيوسف مما لم يكن في حاجة لتعداده. وقد نفى بهاتين الكلمتين كل الآيات الإنجيلية وأقوال التلاميذ والرسل الآنفة الذكر، وعلى الأخص كلمات الأم مريم العذراء المتكررة.

ويقول النقّاد أيضاً، لا يوجد في الكتب المقدسة ولا في الرسائل وغيرها أي تصريح أو كلام للسيدة مريم العذراء عن حملها به بأعجوبة سماوية، وقبل ان تجتمع بيوسف كما رواها متى، لا في البدء ولا في النهاية، ولا في طفولة السيد المسيح ولا في كبره، ولم تشهد له حتى بعد ان اشتد ساعده وشرع يؤدي رسالته ولم يبق له من خوف من اعدائه، ولا حتى بعد أن توفاه الله ورفعه إلى جواره وانتهى أمره من أمور الدنيا قاطبة، كما وأنها لم تخبر بها حتى اخوته لكي يؤمنوا به وبرسالته «لأن اخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به» (7 ـ 5 يوحنا)، ولو كانوا على علم بها، لآمنوا تحت تلقين أمهم قبل كل أحد بنبوته وبرسالته لا محالة.

كما وان يوسف نفسه أيضاً لم يصرح لا أولاً ولا آخراً لأحد عن حلمه الآنف الذكر لتأييد رسالة السيد المسيح وتثبيتها وكان أولى بها من غيره.

وكذلك السيد المسيح نفسه لم يتبرأ طيلة حياته من يوسف، ولم يقل كلمة واحدة لليهود عنه لا نفياً ولا اثباتاً عند قولهم بحضوره وعلى مسمع منه: أليس هذا ابن يوسف... كما مر اعلاه. كما وانه لم يصرح في تعاليمه ومواعظه ولم يومىء بشيء في اقواله ومواعظه عن كيفية حمل أمه به. وكل ما كان يقوله إنه ابن الله وهي في الحالة التي يكون فيها البشر كافة ابناء الله.

فيستدل النقاد من هذه كلها، ان المعاصرين للسيد المسيح كانوا جميعاً يعلمون انه بموجب الشريعة الموسوية من ثمرة صلب داود حسب الجسد كما ذكرها بطرس الرسول (2 ـ 30 اعمال) ونفخة قوية من الله القاها الملاك على مريم البتول من جهة الروح القداسة كما ذكرها بولس الرسول (1 ـ 2 رومية) وبهذا كان مثل السيد المسيح كمثل آدم أبو البشر، قد يحملان كلاهما النفخة الإلهية الكبرى (2 ـ 7 تكوين).

هذا ما يستبان من فحوى آيات الأناجيل المقدسة المترجمة عن ذات السيد المسيح، وهذا ما كان يعلمه عنه اليهود ومعاصروه كافة، ويعلمه عنه بطرس الرسول، وكذلك بولس الرسول، وما ذكرته عنه

خاصة أمه الصدّيقة البتول في حياته. ولما كان كل كلمة من كلمات الأناجيل الأربعة تعتبر مقدسة على السواء، ولا يجوز التفريق بينها، فمن الضروري قبولها كلها كما جاءت، وكما هو ظاهر منها، حيث لا يمكن قبول بعضها ورد الآخر منها أو تفسيرها بغير ما هي عليه، أو تأويلها بعيداً عما يفهم منها.

ويقولون إذن، كيف يمكن التوفيق بين الآيات الإنجيلية المختلفة وأقوال الأنبياء والرسل الآنفة الذكر كلها من جهة، وبين ما ورد في الآية الوحيدة في انجيل متى في قوله «وجدت حبلى قبل ان يجتمعا» وهي التي طغت على كافة التنبؤات والآيات الإنجيلية الأخرى كلها وقطعت كل صلة جسدية للسيد المسيح بداود من جهة أخرى. وإذا كانت هذه الآية الوحيدة صحيحة ومقدسة ألم تكن الآيات الأخرى كلها أيضاً محترمة وصحيحة ومقدسة، وأية منهما يعوّل عليها؟ مع العلم أن لا يمكن اغفال كلمة واحدة من الآيات الواردة بالأناجيل... ولم يزالوا في شك مستديم!

قلت: من المحقق لم تكن تلك الآيات الإنجيلية وأقوال الأنبياء والرسل خافية عن اعين رجال الدين المسيحي، ولا بد انهم قد وضعوا لكل آية منها شرحاً خاصّاً، وتأويلاً معقولاً لم يطلع عليه، أو لم يقنع به النقّاد والفلاسفة أولئك الذين يأخذون كعادتهم بظواهر الكلم، ويتركون القاعدة المرعية في المسائل الدينية، بأن لكل ظاهر باطناً ولكل كلام تأويلاً. فلا يجب والحالة هذه اخذ النصوص الدينية المسيحية على ظواهرها، خاصة الواردة منها عن طريق التراجم، قبل الوقوف على حقيقتها من نسخها الأصلية التي كتبها الآباء القدامى بأيديهم، أو من العلماء الاخصائيين باللغات القديمة، وبأمور الدين. فما هذا التباين الا من اغلاط المترجمين. ومما يدل على اغلاط المترجمين وتحريفهم الكلم عن مواضعه أيضاً، هو أنه بينما كانت مريم العذراء مخطوبة ليوسف، وهي خطيبته وليست امرأته، فكان في قوله مكرراً مرتين (مريم امرأتك) الواردة في كلام الملاك ليوسف تعبير غريب غير مأنوس. فلو كانت امرأته لما ذكر انها مخطوبة ليوسف، ولما كلّم ملاك الرب يوسف عنها في الحلم. ومن المعلوم ان في اللغة العربية بين الخطيبة والمرأة فرقاً ظاهراً لا حاجة لذكره وبيانه.

ومما يثبت وقوع الأخطاء الكثيرة في الترجمة أيضاً ما جاء في قول متى «قبل أن يجتمعا وجدت حبلى...» وفي قوله «ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر» وكذلك في قوله «وهو يكلم الجماعة إذ أمه وأخوته واقفون خارجاً طالبين ان يكلموه» (12 ـ 48 متى) وفي إنجيل مرقس «أليست تدعى مريم واخوته يعقوب وموسى وسمعان ويهوذا، أو ليس اخواته جميعهن عندنا» (6 ـ 2 مرقس). وفي إنجيل يوحنا «لأن اخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به» (7 ـ 2 يوحنا)... فان في كلمة «قبل ان يجتمعا» دلالة على ان يوسف بعد ذلك قد اجتمع بها، ويستدل أيضاً من كلمة «لم يعرفها حتى ولدت...» انه قد عرفها بعدما ولدت ابنها البكر، ومن كلمة «لأن اخوته لم يكونوا يؤمنون به...» ان قد صار ليسوع اخوة وهم بتعيين الأسماء يعقوب ويوسي... مع ان هذه الجمل والعبارات بهذه الألفاظ والكلمات مخالفة كل المخالفة لما تقرر وتحقق عند العالم المسيحي قاطبة بعد ذلك، بأن السيدة مريم العذراء لم تعرف يوسف لا في البدء ولا في النهاية، ولا قبل الولادة ولا بعدها... وكان هذا ما نعنيه مراراً وتكراراً عن وقوع اخطاء الكتّاب والنسّاخ في الترجمة، أولئك الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون المعاني بغيرها.

وفي الحقيقة إذا اعتبرنا ان نسخ الأناجيل الأربعة الأصلية التي كتبها الآباء القديسون بأيديهم باللغة اليونانية أو العبرية أو الآرامية حتى عرضها على المجمع النيقاوي عام (325 م.) قد حفظها الروح القدس وسلمت من كل تحريف وتحوير في أيدي النساخ والكتاب، فان في ترجمتها من لغة إلى أخرى بعد ذلك، وخاصة تكرر الترجمات، لا بد ان تحصل بعض الأخطاء في الكلمات المترادفات وفي المعاني المتقاربة. فمثلاً إذا كان القصد من كلمة (مار) هو السيد المسيح جعلوا معناها (الرب الإله) وإذا كان غيره جعلوا معناها (سيد). وكذلك التحريف الواضح الذي عثرنا عليه في قول اليهود للسيد المسيح «انك سامري» (8 ـ 48 يوحنا). وكذلك في جملة «لا تخف ان تأخذ امرأتك مريم» الواردة أعلاه بدلاً من مريم خطيبتك ـ بغض النظر عن التأويلات العاطفية ـ فان الخطأ في كلمة واحدة قد تقلب المعنى المقصود رأساً على عقب.

ولما كانت الأناجيل الأصلية قد ترجمت لحد الآن الى ما يقارب الاربعمائة لغة، فمن المستبعد جداً أن تكون التراجم في اللغات كافة قد حافظت على نفس النصوص والألفاظ وروح المعاني والأهداف التي نطق بها وقصدها السيد المسيح بلسانه الكريم، وكذلك الأم العذراء، وكذلك التلاميذ والرسل ومحرّرو الأناجيل الأربعة، حيث لا يحتمل ان يحل روح القدس كما هو معتقد المسيحيين على كل مترجم ليحفظه من التحوير والتحريف. ولأجل حل هذه المشكلة والتوفيق بين النصوص المتباينة المذكورة جاء الربانيون بتفسير آخر اكثر مطابقة للواقع، وذلك أنه لما كانت السيدة مريم العذراء من نسل الملك داود وقد تجسد فيها السيد المسيح، فمن هذا الوجه أي من جهة اتصاله بأمه قد يعتبر من ثمرة صلب داود، ومن نسله حسب الجسد، ونفخة قوية من الله ألقاها الملاك على مريم العذراء من جهة الروح المقدسة.

وبما ان إعلان تجسّد السيد المسيح في أحشاء السيدة مريم، وهو على قيد الحياة، والادعاء انه بدون أب بشري، والجهر بأنه من روح الله فقط، قد يولد انعكاساً واضطراباً بين اليهود المعاندين، مما قد تخشى عواقبه، فكان لحكمة إلهية ان اخفت هذه المسألة عن أعين الناس، طيلة حياته، ثم انكشفت للعالم بعد انتقاله إلى جوار ربّه. ولذلك كانت رواية متى وحدها لحكمة ربّانية، ولأجل أن يظهر الله آياته سبباً فيما بعد، لأن يتأكد ويتأيد عند العالم المسيحي في مشارق الأرض ومغاربها وإلى ان يرث الله الأرض ومن عليها بأن السيد المسيح ولد ولادة عذرية، ومن الروح القدسية، وبكلمة إلهية، وبنفخة ربانية القاها الملاك على مريم البتول.

ومع هذا كله، فقد يترتب على الآباء ان ينوروا بالشروحات المقتضية تلك الآيات الإنجيلية وأمثالها أكثر فأكثر ويرفعوا الالتباس من بين الناس. ولأجل الوقوف على وجهة نظر الاكليروس الديني المسيحي وإيضاح ما غمض من تلكم الآيات الإنجيلية، عرضنا هذه الفقرات على العالم الاخصائي بعلم اللاهوت الأب الروحاني القس روفائيل بيداويد في معهد شمعون الصفا الكهنوتي لبطريركية الكلدان في الموصل، فوردنا الجواب من حضرته، وتلقيناه بكل امتنان وسرور فكان دينياً عاطفياً روحانياً يستند بمجموعه على الإيمان المطلق. وبعد الاستيذان من حضرته نثبته حرفياً ادناه ليطلع عليه من كان في قلبه ريب، وليقنع بشروحاته وتأويلاته من أراد ان يقنع.

معهد شمعون الصفا الكهنوتي لبطريركية الكلدان

الموصل 23 ـ 3 ـ 1956

حضرة الاستاذ الفاضل

أرجو ملاحظة النقاط الآتية:

1 ـ ان تفسير الحقيقة الإنجيلية لا يقوم بجمع نصوص متشابهة باللفظ وربطها ببعضها للاستدلال على أمر، قد يكون بعيداً كل البعد عن الصحة الموضوعية، بل التفسير يجب ان يلم بالأمر من كل نواحيه ويدرس النصوص مع مقابلتها ليأتي مطابقاً للواقع. وهذا ما يسمى في علم النقد بدراسة الـ context أي القرائن وسياق الكلام.

2 ـ ان التفسير الصحيح يجب ان يستند على النص الأصلي، لا على ترجمته، مهما كانت دقيقة. والحال ان لغة الأناجيل هي اليونانية. فكل تفسير لا يستند عليها، لا قيمة علمية له، والترجمات العربية، هي كثيرة، لا يجب الوثوق بها، بدون فحصها ومقابلتها مع النص الأصلي. ولا بد إذاً من ترجمة دقيقة تحمل شروحاً ضرورية كما هي ترجمة اليسوعيين في بيروت أو ترجمة البولصيين في حريصا (وهذه الأخيرة منقولة عن اليونانية مباشرة بدون تقيد بما سبقها من الترجمات الواردة).

3 ـ ان الالتباس الواقع في كلمة «امرأة» و«خطيبة» قائم على ما أوردته في الملاحظة الثانية. فالنص اليوناني يذكر «امرأة»، لكن المسيحيين استثقلوا وقع هذه الكلمة، لاعتقادهم المكين ببتولية العذراء الدائمة، قبل الولادة، وفي الولادة، وبعد الولادة ففضلوا أن يقرأوا «خطيبة» في محلها، وهي كلمة لا تخل بالمعنى المقصود، حيث ان عقد الخطبة عند اليهود كان يخول الرجل حقوق الزوجية، وكانت الابنة تعتبر امرأة للرجل. وفعلاً نقرأ في لوقا (2 ـ 5) «مع مريم امرأته المخطوبة».

4 ـ ان المسيح كان حقاً من ذرية داود، حسب وعد الرب في الأنبياء. وأراد متى أن يذكر نسب المسيح عن نسب يوسف. مع ان هذا لم يكن أباً طبيعياً ليسوع، لأنه لم يكن من عادة اليهود ان يذكروا نسب النساء «وكما لا يخفى، ان متى كتب انجيله لليهود، فاضطر على التقيد بعاداتهم» خاصة ولأن يوسف كان من بيت داود كما كانت مريم امرأته أيضاً، فلم يجد صعوبة في ذلك، بينما لوقا «وكان يكتب للوثنيين» ذكر نسب المسيح عن نسب أمه مريم من ذرية داود أي النسب الطبيعي الحقيقي، ونسب متى هو النسب الشرعي وكان كافياً للمرام.

5 ـ كان من الواجب واللائق ان يكون المسيح ابناً شرعياً، ولم يعارض أحد قط، ولا الخصوم أنفسهم، شرعيته. فكانوا يظنون يوسف أباه حقاً، لكنه من المحقق أن يوسف، مع كونه زوجاً حقيقياً للعذراء مريم «وهذا لا يفرض أنه عرفها معرفة زوجية، إذ إن شرعية الزوجية تقوم على صحة العقد نفسه، بغض النظر عن الجماع اللحمي الذي هو من مكملات الزواج، ليس

غير». كان غريباً عن الأعجوبة السماوية الكبرى التي تمت في العذراء مريم امرأته بحبلها بالمسيح بقوة الروح القدس، لكنه قبل هذا الشرف العظيم ورضى بأن يدعى «أبا المسيح» ليضمن للمسيح وللعذراء أمه جميع المفاعيل الشرعية الناتجة عن هذه البنوة الشرعية والزوجية الشرعية حيث ان بنوة المسيح ليوسف كانت في الواقع شرعية، وفي نظر المجتمع طبيعية. هذا هو اعتقاد المسيحيين في كل زمان ومكان، ولم يوجد في المسيحيين من اعتقد الخلاف، إلا إذا نبذ الإيمان بالله وإنجيله ورفض تعليم الكنيسة والتقليد الشريف. وليس صحيحاً القول بأنه في النصف الأول من القرن الميلادي الأول كان قوم يعتقدون بأن يسوع من جهة الجسد هو ابن يوسف وأمه مريم... الخ. بل لا نجد أي ذكر للقديس يوسف في الأجيال الأولى. وحاول المسيحيون ان يغالوا بألوهية المسيح، حتى إن بعضهم أنكروا حقيقة طبيعته البشرية وهو تعليم خاطىء حرّمته الكنيسة.

فالمسيح في اعتقاد المسيحيين المستقيم هو إله كامل وإنسان كامل: إله حق له أب، وهو الآب الأزلي، الاقنوم الأول من الثالوث الأقدس، ولده ولادة روحية منذ الأزل، «ولذلك نسمي المولود منه: الكلمة» وليس له أم طبيعية.

وهو إنسان حق له أم طبيعية هي العذراء مريم منحته الطبيعة البشرية وليس له أب بشري حيث ان ولادته تمت بقوة الروح القدس.

غير أن الحكمة الإلهية، صيانة لشرف المسيح وأمه، وهبتهما مربياً باراً وحارساً أميناً: القديس يوسف بن يعقوب ليكون زوجاً شرعياً لمريم العذراء وأباً شرعياً للمسيح. هذا ما اقتضى بيانه وتفضلوا بقبول احتراماتي.

المخلص لكم

القس روفائيل بيداويد

7 ـ وكلّما مضت السنون والأعوام كانت بشارة السيد المسيح آخذة على يد الآباء القديسين بالتوسع والانتشار رغم معارضة الوثنيين ومعاكسة «اليهود غير المؤمنين الذين افسدوا نفوس الأمم على الأخوة» (14 ـ 3 اعمال)، والناس بالفطرة بجانب المظلومين والمغدورين والمضطهدين وضد الحكام والأمراء الظالمين في كل دور من الأدوار البشرية.

والحق يقال: لقد قاسى رجال الكنائس من التقتيل والتشريد ما تقشعر منه الأبدان في سبيل نشر الديانة المسيحية الإلهية وإبادة الوثنية. وكان المضطهدون في كل وقت وزمان وعند الأمم والأقوام كافة يسبغون على رئيسهم الأعلى القتيل جزافاً صفات القوة والقدرة ويعتبرونه بعد قتله انه صعد إلى السماء واستلم مقدرات العالم وسيعود ليملأ الأرض احساناً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً لتثبيت قلوب المؤمنين برسالته لئلا ينفضوا من حوله.

ولقد تقرر عند رجال الكنائس ان السيد يسوع المسيح قد فدى بنفسه لحمل خطيئات البشر الموروثة من آدم وهي أكله من الشجرة الممنوعة، ثم جلس عن يمين الله وأخذ بيده دينونة العالم وأنه إله وإنسان في وقت واحد في الطبيعتين وليس من طبيعتين... وقد حصل اتحاد جوهري بين الطبيعتين... وكلما مر الزمان وتداولت الدهور وكرت العصور ازدادت الشروحات وكثرت المقولات والتأويلات والتفسيرات... فدخل في التعاليم المسيحية المقدسة الأصلية الناصعة شتى المقالات ومختلف الموضوعات فازداد الناس رغبة ورهبة بيسوع المسيح وتعلقاً بابن الله الحي، ومخلص العالم... وحامل الخطيئة... والمفدي بنفسه لخلاص البشر.. وابن الله البكر... وحمل الله الذي يرفع خطيئة العالم... ونور العالم... والراعي الصالح... وخبز الحياة... والطاهر المنزه عن الدنس... وصورة الله غير المنظورة... وثمن الخطيئة... والشفيع عند الله... وصورة المولى... والخروف الذبيح... والراهب العالي... والإله الثاني... وأحد الأقانيم الثلاثة... ومانح الحياة الأبدية... وأخيراً المنبثق من الآب... وفي النهاية إلهاً ابن إله. ومتّحد بالجوهر وبالذات مع الله.

وزاد عليه يوحنا اللاهوتي مؤخراً من الأسماء والصفات من انه الألف والياء. والبداية والنهاية. والأول والأخير. وصاحب مفاتيح الهاوية والموت والسيف الماضي ذو الحدّين.. وأرواح الله السبعة... والقدوس الحق ورب الأرباب وملك الملوك... وبينما كانت المسيحية بمثابة فرقة من الفرق اليهودية إذ بها تتفرد بهذه التعابير والمصطلحات والمواعظ والكلمات المبتكرة الجذابة عن الكنيس اليهودي. وافترق الكنيس اليهودي عن الكنيسة المسيحية، وأصبحت الديانة المسيحية بفضل جهود رجالها ومرونة احكامها عالمية، قد تداوي جروح البشرية في الدنيا وتبشر بحياة سعيدة بعد الموت بينما بقيت الديانة الإسرائيلية جامدة ومنحصرة باليهود فقط.

ولما جاء المبشرون بالتثليث المسيحي وبهذه القواعد والكلمات والتراكيب والطقوس الدينية المختلفة قبلها منهم الناس وآمنوا بها لقربها من معتقداتهم السابقة. وعلاوة على ذلك لأنها تغفر الذنوب والسيئات السابقة واللاحقة بالمفرد والجملة، وتحرّك العواطف وتهيج الأحساس، خاصة منها ما يتعلق بمحاكمة السيد المسيح عند قيافا وفي البلاط الروماني، وبغسل بيلاطس يده بالماء من دم هذا البار الوديع المعصوم الذي لا يتكلم ولا يدافع عن نفسه، وبكيفية حمله الصليب وصفعه وقتله وصلبه.. كل ذلك بشكل مفجع، كانت كلها من الأمور المبكية المؤثرة المهيجة التي تحرك الرحمة والعطف والاشفاق وتمزق القلوب التي في الصدور. فكان من الأسباب الداعية لانتشار المسيحية بسرعة في العالم الغربي الوثني هي مقارنتها مع الوثنية الجامدة المتحجرة الهزيلة وظهورها بمظهر الديانة الجديدة التي تسلي القلوب الملتهبة وتطمئن النفوس المضطربة وتبشّر البؤساء والفقراء بحياة سعيدة بعد الموت، حتى إذا ما فاتتهم السعادة الدنيوية يجدونها في اليوم الآخر.

8 ـ ومن الأسباب الداعية لانتشار الديانة المسيحية بسهولة أيضاً بين الوثنيين في اليونان وروما ثم في أوروبا توافق ايام العطل والأعياد بين الطرفين. فقد اعتبر الآباء يوم الأحد وكان يوم الشمس عند الوثنيين يوم عطلة للمسيحيين عوضاً من يوم السبت المؤيّد بوصايا الرب «اذكر يوم السبت لتقدسه» (20 ـ 8 خروج). وصادف يوم 25 ديسمبر وهو يوم ولادة إله الشمس ابوللو عند اليونان ومترا عند

الفرس... يوم ولادة السيد المسيح وغيره من العطل والأعياد كما سبق ذكره كثير. كما وان الكنيسة تسامحت بإبقاء الهياكل والتماثيل في بيت الله باعتبارها رمزاً للقديسين، وقبل الآباء أيضاً المراتب الكنسية كافة من اليونانية ليسهل على اليونانيين قبولها... فقد جاء في لاروس القرن العشرين ان كلمة بابا مأخوذة من اليونانية pappas ومعناها الآب، وكلمة بطريرك patriarche مأخوذة من اللاتينية patriarches وهي مركبة من كلمتين patria بمعنى سلالة بلد وarchien بمعنى قائد فيكون معناها قائد البلد. ولم يكن لهذه الرتبة الكهنوتية اسم قبل العصر الخامس. وكلمة مطران metropolits مشتقه من metropole وأصلها من اليونانية metropolis ومعناها المدينة الأم أي قاعدة البلاد.

9 ـ ولما كان رئيس الاساقفة يقيم في عاصمة المملكة سمي بهذا الاسم. وأسقف eveque قديم جداً إذ وجد مستعملاً في اعمال الرسل ورسائل القديس بطرس ومعناه المفتش، فقد كان في بعض مدن الإغريق وظيفة تفتيش حكومية كان يسمى الذي يتولاها بهذا الاسم. وكلمة خوري cure يونانية... وهي انه في البدء لم يكن في كل مدينة غير كنيسة واحدة وكان الأسقف يقوم بوظائفها الدينية. فلما كثر عدد الكنائس في المدن والقرى أودع أمرها إلى قسيس ينوب عن الأسقف فأصبح من الدرجة الثانية ووظيفته العناية بالنفوس. ومن هنا نشأ اسم cure ومعناه المعتني. وكلمة قس أو قسيس pretre مأخوذة من اللاتينية presbytre وهذه من اليونانية presbuters ومعناها الشيخ لأنهم كانوا ينتخبون القسس من الشيوخ المسنين. وكلمة شمّاس diacre فرنسية مأخوذة من اللاتينية diaconus وهذه مأخوذة من الإغريقية diakonus ومعناها الخادم. ولعله كان الخادم في معبد إله الشمس فسمي بالعربية شمّاس. وأما الناقوس cloche يقول لاروس عنه: يظهر ان النواقيس كانت مستعملة على الأقل في الصين والهند منذ الأزمان الواغلة في القدم وكانت بلا شك معروفة عند الإغريق والرومان. وكان البابا سابنيان Sabinien على ما يقال أول من أمر بأن يدعى القداس بصوت النواقيس وعمّم شارلمان استعمالها في جميع دولته.

وأما الرسائل (أعمال الرسل) فهي مجموعة من كتب وضع معظمها بولس الرسول عن سياحته وتبشيراته في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين واليونان وإيطاليا، وخلاصتها ان شخصاً عالياً سماوياً من روح الله يسمى يسوع المسيح، فدى بنفسه الإنسانية لحمل خطيئة الذنب المغروس، فقتل مصلوباً ويجب الإيمان بصلبه وبرفعه إلى السماء وبمحبته وطاعته. وأما شريعته الواجب اتباعها فهي رفع الاختتان عن كاهل الأخوة والامتناع عن أكل ما ذبح للأصنام ومن الدم والمخنوق والزنى (15 ـ 29 اعمال). وهي أول التبشيرات التي قام بها بولس وبرنابا لأهالي انطاكية لتسهيل نشر الديانة المسيحية.

10 ـ في الحقيقة، كان أول من وضع قواعد الديانة المسيحية العالمية وبشّر بها وتفادى بنفسه من أجلها وفي سبيل نشرها بين الأمم وهو بولس الرسول. وإليه يعود الفضل في إبادة الوثنية من العالم وإحلال عبادة الله بمحلها وعوضاً منها. فقد خطب مرة في أثينا أمام هيكل الإله المجهول فقال «أيها الرجال الاثينيون ان الذي تتقونه وأنتم تجهلونه، هذا أنا أخبركم عنه، هو الإله الذي خلق العالم وكل ما فيه إذ هو رب السماوات والأرض لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيادي».

وأما سيرة بولس الرسول، وما جاء به من الأحداث في خطبه ورسائله وبياناته وشروحاته وما نقض وأبرم من أحكام الشريعة، فهي مفصّلة في أعمال الرسل وفي رسائله الموجهة إلى أهل رومية... وكورنثوس وغلاطية وافسس وفيليبي وتسالونيكي وتيطس وفيليمون وجميعها تبشر بالسيد المسيح. وقد حذا تلاميذه والآباء الذين جاءوا من بعده حذوه فسجل كل منهم رسائل أصبحت تعد بالمئات، كلها عن حياة السيد المسيح وتعاليمه. وانتشرت الرسائل في كل مكان وبشر بها الآباء بصدق واخلاص حتى نشروا الديانة المسيحية في اصقاع العالم وبين مختلف الطبقات من الناس رغماً عن التضحيات الجسيمة التي تكبدوها بسمائهم والاضطهادات الدائمة التي شاهدوها في حياتهم حتى قضوا نهائياً وفي كل مكان على الوثنية والأوثان... إلا ان هذه التبشيرات والتعاليم المسيحية لم تحظ بالقبول لدى الأمم الآسيوية كما حظيت عند الأمم الأوروبية، وذلك لما للآسيويين من دين قديم (الزردشتية. البرهمية. البوذية...). فلم يستطع الآباء زحزحة الشرقيين عن معتقداتهم. وأما الأمم الأوروبية فلم يكن لديهم دين متكامل، وقد تشبعت افكارهم بالفلسفة اليونانية والرومانية والأساطير الإلهية، فلهذا أمكن نشر الديانة المسيحية بينهم بسهولة أكثر.

11 ـ وكان ادخال بولس الرسول الفلسفة اليونانية وقواعد المنطق في ثنايا الشريعة المقدسة قد أدى إلى حصول اجتهادات أخرى وظهور رسل ومجتهدين آخرين. فكان التلاميذ، تقليداً لاستاذهم بولس الرسول، يرون في انفسهم القدرة على التأويل والتفسير والتبشير ووضع الرسائل والمواعظ فكثرت الرسائل والأناجيل عن سيرة السيد المسيح وتعاليمه. وكان كل من كتب موعظة سماها إنجيلاً anghe-los فظهرت فرق وطوائف ومبدعون كل واحدة منهم تكفر الأخرى وتعتبر تعاليمها هرطقة heresie. ولما ظهرت المخاصمات واشتدت المنازعات انقسمت المعتقدات المسيحية إلى ملل وطوائف ليس لها عد. كل منها يعتقد في ذات المسيح ولاهوته وناسوته وازليته وانبثاقه ما لا يعتقده الآخر. ومن بين هذه المعتقدات المتضاربة ظهر علم الكلام المسيحي (علم اللاهوت). ومنذ أن افترق بولس الرسول عن أحكام التوراة ونقض شريعة موسى برفع الاختتان بقيت الكنائس بدون كتاب إلهي مقدس مدة ثلاثة قرون أو ما يزيد، كانت خلالها متمسكة بكتب ورسائل وأناجيل ومواعظ متفرقة من هنا وهناك لا علم لأحد بما لدى الآخر من القواعد المسيحية. فكانت الجماعة اليونانية المتمسكة بإنجيل يوحنا مثلاً لا علم لها بما في إنجيل متى من صفة ولادة السيد المسيح والاحكام الشرعية الأخرى. فكانت الديانة المسيحية الأصلية ان تأثرت خلال هذه الفترة بمختلف التيارات الأجنبية والأديان والمعتقدات المجاورة... والمنابع الخارجية فتطورت تطوراً عجيباً.

ولما كثر الكلام في مجمع نيقية سنة 325 م. واشتد الخصام بين مختلف الفرق المسيحية خاصة بين الآباء الموحدين وعلى رأسهم اريوس الذي أنكر ألوهية المسيح لأنه مخلوق وليس من ذات الله ولأنه مسبوق بالعدم ومولود من أم بشرية، وادعى ان مريم هي أم المسيح وليست أم الإله، وبين الإلهيين وعلى رأسهم اثاناسيسوس القائل ان المسيح إله تام وانه متحد الجوهر مع الله وان مريم أم الإله... تدخل الملك قسطنطين تحت تأثير أمه هيلانة المتأثرة بتعاليم الأساقفة ووقف الى جانب الالهيين. فيقال ان المجمع انتخب من بين الرسائل والمواعظ المتضادة والمتباينة البالغ عددها 33 انجيلاً أربعة

كتب وهي الأكثر تقارباً وانسجاماً مع بعضها اطلق عليها وحدها اسم الأناجيل، وإحدى وعشرون رسالة ملحقة سمّيت جميعها «الكتب المقدسة» أو «كتب العهد الجديد» ورفضت الأناجيل والرسائل الأخرى المخالفة، ومن جملتها إنجيل برنابا الشهير. وبذلك رفضت مدعيات الآباء الموحدين، ويقال ان عددهم كان يقارب الثلثين من المجموع... وثبتت قواعد الإلهيين. ويقال ان عددهم كان لا يزيد على 318 اسقفاً. وإليك جدولاً يوضح أسماء محرري الأناجيل الأربعة:

إسم الإنجيل	محرّره	محل كتابته	تاريخ كتابته	وفاة المحـرر	الملاحظات
انجيل متى	متى	اليهودية	38 م.	62 م.	من أصحاب السيد المسيح
انجيل مرقس	مرقس	رومية	61 م.	توفي في مصر	من أصحاب بطرس الرسول
انجيل لوقا	لوقا	بلاد الروم	63 م.		من أصحاب بولس الرسول
انجيل يوحنا	يوحنا	افسس	98 م.		من أصحاب السيد المسيح

ولما كان لوقا رومانياً أو يونانياً كما يظهر من اسمه، فكان أن كتب انجيله باليونانية على أغلب احتمال. وكلما تكررت المجامع بعد ذلك ابتعدت التعاليم المسيحية عن أصولها الصوفية المؤسسة على الأخوة البشرية والعطف والمودة «فأنتم يجب عليكم ان يغسل بعضكم ارجل بعض» (13 ـ 13 يوحنا). والحب «وصية جديدة أنا اعطيكم ان تحبوا بعضكم بعضاً بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي» (13 ـ 34 يوحنا). تلك القواعد التي بشر بها السيد المسيح وأوصى تلاميذه بها تأييداً وتأكيداً. ورغم هذه الوصية الثمينة لم تزل الحرب سجالا بين الطوائف المسيحية ويهرطق التلاميذ بعضهم بعضاً عوضاً من غسل أرجلهم!

12 ـ وكان قد قرر المجمع النيقاوي الآنف الذكر دستور الإيمان على الوجه الآتي:

«نؤمن بإله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والأرض كل ما يرى وما لا يرى وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور نور من نور الله حق إله من إله حق مولود غير مخلوق مساو للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء... الذي من اجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء وتأنس وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي وتألم وقبر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب وأيضاً يأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملكه وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن يسجد له ويمجد... الناطق بالأنبياء وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية... ونعترف بالمعمودية الواحدة لمغفرة الخطايا ونرتجي قيامة الأموات والحياة في الدهر العتيد... آمين».

فمن دستور الإيمان هذا يتجلى البعد الشاسع بين الديانة المسيحية الأصلية التي جاء بها السيد المسيح المستندة على الزهد والحب والتقوى ووحدة الوجود الروحية... وما وصلت إليه العقائد

المسيحية في القرن الثالث الميلادي. ولذلك ظهرت الفرق والطوائف المسيحية المنشقة عن هذا الدستور والمبدعون والهراطقة منذ العصور الأولى المسيحية. فمنهم من قال لا يمكن أن يكون شخص إلهي يتمكن حقيقة من الاتحاد بشخص بشري فاعتقدوا أن جسد السيد المسيح كان جسداً بالصورة فقط وانه تألم ومات لا بالحقيقة. ومنهم من أنكر ألوهيته وزعم ان المسيح المنبثق من اللاهوت نزل على الإنسان يسوع عند معموديته وتركه عند صلبه ورجع إلى السماء. وأنكر اريوس لاهوتية السيد المسيح وادعى انه مخلوق وليس مولوداً من الآب فلا يساويه في الجوهر وله أقنومان إلهي وبه ابن الله وبشري وبه ابن مريم. ويدعي اليعاقبة ان للمسيح أقنوماً واحداً وطبيعة واحدة وكلاهما إلهي، بينما الكاثوليك يدعون بوجود طبيعتين ومشيئتين.

ومنهم «ماني» ألّف كتاباً سمّاه الإنجيل (ارتنغ) ووفق به بين انجيل المسيح وبين آرائه عن إله النور وإله الظلام والأرواح الطيبة والخبيثة، ومنهم من قال كل من اعتنق الديانة المسيحية وعرف المسيح يخلص مهما كانت اعماله لأن المسيح اشترى لشعبه الحرية الكاملة فأدى هذا الاعتقاد إلى سقوطهم بالخبائث واصبحوا إباحيين وغيرهم كثير كما سيأتي.



الفصل الرابع عشر الطوائف المسيحية

1 ـ بينما كانت الوثنية منتشرة في أنحاء أوروبا كافة وخاصة في سواحل البحر الأبيض المتوسط ظهرت الديانة المسيحية المستندة على العواطف والاحساس ويوم الدينونة والنعيم والعذاب والسعادة بعد الموت، تدعو الناس إلى تمجيد السيد المسيح عوضاً من الآلهة الوثنية الكثيرة... تكافح عبادة الاصنام والأوثان في كل مكان، أولاً بالوعظ والإرشاد والتبشير والتخويف، وثم بالحديد والنار والعذاب والموت، حتى قضت عليها وأبادتها في أوروبا من الوجود وحلت محلها.

وقد اظهر الآباء في هذا الدور من الكياسة والمرونة اقصاهما، في سبيل نشر الديانة الإلهية، في ربوع البلاد الوثنية. فقبلوا اضطراراً كثيراً من القواعد المألوفة الجارية بين الناس آنذاك والتي لا تتعارض مع مبادئهم الأساسية لكي يسهل على الوثنيين قبولها من دون جبر وإكراه.

من المحقق أن للآلهة الوثنية فلسفة دينية اخلاقية قد تسلسلت منذ ازمان بعيدة. وما كان زوس وجوبيتر وميركوري وهرقل إلا رموز للإله الواحد، يعتبر كل منهم إله الآلهة ورب الأرباب... وكان اعظم الفلاسفة امثال افلاطون وارسطو ورجال المدرسة الفيثاغورية كافة من الالهيين الموحدين، وقد انتشرت فلسفتهم في كل مكان. فكان الوثنيون يعبدون الأصنام والأوثان، لا باعتبارها من الفضة والذهب والحجر والخشب، إنما باعتبارها رمزاً للإله الأعظم الساكن في السماء... وهي النظرية نفسها التي تمسكت بها الكنيسة في إبقاء التماثيل والرسوم في الكنائس باعتبارها رمزاً للقديسين والآباء والصالحين.

ولما دخلت الفلسفة اليونانية وفلسفة الشرق الروحية وقضايا المنطق في مباحث الكنائس المسيحية اضطر رجال الدين المسيحي إلى توفيق النظريات المسيحية مع الوقائع الفلسفية جهد المستطاع. فظهر علم الكلام المسيحي. فكانت طبيعة المسيح اللاهوتية والناسوتية، وكان الانبثاق وماهية الروح القدسية موضع جدال وبحث داما قروناً كثيرة. وكان منها بحث التثليث ونفي الألوهية عن الروح القدس، ونفي الألوهية حتى عن كل اقنوم على الانفراد. ومنها وحدانية الذات الإلهية وإنكار ألوهية المسيح وانه ليس من ذات الله لأنه مسبوق بالعدم ولأنه مولود. ومنها ان السيد المسيح حينما تجسد لم يكن إلا ذاتاً واحدة وطبيعة واحدة وعند الآخرين منهم ان للمسيح ذاتاً واحدة وطبيعتين لاهوتية وناسوتية. وان المسيح من حين اتحدت فيه اللاهوتية والناسوتية لم يبق إلا إرادة واحدة، وعند البعض منهم انه إله كامل وإنسان كامل. فقد ولده الآب الإله ولادة روحية منذ الأزل بدون والدة، وهو إنسان كامل مولود من أمه مريم بدون أب بشري إنما بنفخة من الروح الالهية المقدسة فقط، وغيرها من النظريات والأقوال المتضاربة المرتبكة. وبعد هذه المجادلات المنهكة تقرر أن يكون الإله واحداً بطبيعة واحدة ذات ثلاثة أقانيم (الآب والابن والروح القدس الإله الواحد) واعتبر هذا مثلث المسيحيين.

وبينما كان يعتبر روح القدس كما جاء في الكتب المقدسة ينبثق من الآب فقط، فقد قرر المجمع الكنسي المنعقد في افسوس، ان الروح القدس ينبثق من الابن أيضاً كانبثاق النور والحرارة من الشمس.

2 ـ حار علماء المسيحية ومفكروها وفلاسفتها في تفسير معاني الكلمات الواردة في دستور الإيمان وفي القواعد والمقررات حول الالوهية والربوبية، والذات، والجوهر، وكذلك حول ماهية روح القدس والمعزي والإرادة والطبيعة وانبثاق اللاهوت ونزوله على الناسوت ومعرفة الأسرار الإلهية وكينونة الواحد ثلاثة، والثلاثة واحد. ولم يزل في نفس المثقفين من رجال المسيحيين شيء عن هذه المعتقدات التي لم يستسغها العقل البشري الناضج كما وان السيد المسيح لم ينطق بها في تعاليمه مما سبب ظهور بعض الفرق المسيحية التي اعلنت عدم وجوب التصديق بما لا يقدرون على فهمه. ومع ان تعاليم السيد المسيح واضحة كل الوضوح، وظاهرة كل الظهور، في ثنايا وخلايا الكتب المقدسة، فقد ارتبك الأمر على المترجمين الذين ترجموا الكتب ونقلوها من لغة إلى أخرى مما سبب ضياع أهداف السيد المسيح ومقاصده الأساسية وبالوسيلة ظهور الاختلافات بين رجال الدين المسيحي. فان الذي يقول «انا نور العالم» وهو قول حق لا شائبة فيه لا يقول «لم ارسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» ولا يقول لتلاميذه «إلى أمم لا تمضوا» ولا يقول لهم «ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير» مثلاً. فان امثال هذه التحريفات في التراجم قد اوجبت ان تكون القواعد الدينية عرضة لمجادلات رجال الدين، وبالوسيلة، لظهور البدع والشكوك والتفاسير المختلفة، وحتى الهرطقات والانكار والالحاد.

وكان قد عقد رجال الكنائس ما يزيد على العشرين مجمعاً دينياً لتقرير العقائد الواجب اتباعها وتثبيتها درءاً للالحاد، فكان اعتراضاً من بعض البطارقة وكان اعتزالاً وانشقاقاً من الآخرين. فكانت تعاليم المجامع نفسها أيضاً سبباً لانقسام الكنائس وتعدد الطوائف المسيحية لأسباب أكثر ما يقال عنها انها تقليدية فرعية لا أساس لها في الكتب المقدسة، كتلك الأسباب التي دعت نسطوريوس إلى خروجه على مقررات مجمع افسوس عند قوله ان العذراء المباركة هي أم المسيح وليست بوالدة الإله، فلم يقبل منه هذا الكلام.

3 ـ واختلفت الآراء واضطربت الأفكار. فكان كل بطريق وكاهن وراهب يرى نفسه قادراً على استنباط احكام جديدة من الكتب المقدسة، فكثرت الطوائف المسيحية وتعددت... فمنهم من منع الناس عن الحظوظ والشهوات النفسانية والزينة وقرر لزوم الأخذ بأهداب الزهد والتقوى والعبادة والتدين والتصوف... الخ. تبعاً لأحكام الإنجيل. ومنهم من أعد نفسه لأصعب أنواع الشدائد والتعذيب وحتى التخلص من الحواس الخمس بوسائط خارجة عن نطاق الطبيعة متأثراً بالنظريات الهندية.. ومنهم من نفى الوهية الروح القدس كالمكدونيين أصحاب مكدونيوس، لكن تعاليمهم لم تنتشر وقد حكم مجمع الأساقفة المنعقد في القسطنطينية ببطلان مذهبهم. ومنهم من قال بالاقانيم الثلاثة لكنه يرى أن في كل اقنوم على حدة خاصة تنافي الألوهية. ومنهم من جعل كل اقنوم على الانفراد لا يمكن أن يكون إلهاً مستقلاً كاملاً قائماً بذاته إنما مقيد بالانضمام إلى غيره من الاقانيم. ومنهم نويتيوس رئيس المونرضية وبولس السمسياطي فكانا يقولان بوحدانية الذات الإلهية. ومنهم الأسقف اريوس

الذي انكر الوهية المسيح وقال انه ليس من ذات الله وانه مسبوق بالعدم ضرورة لأنه مولود وانه جائز الوجود وان الحكمة في وجوده هي لكي يكون واسطة لانقاذ العالم من الخطيئة. فانعقد لذلك المجمع النيقاوي سنة 325 م. وحكم ببطلان مذهب هذا الشماس الاسكندري، وألّف المجمع دستور الإيمان الذي يجب على المسيحيين ان يتمسكوا به وقد سبقت تفاصيله.

ومنهم انستاسيوس الذي أنكر تلقيب العذراء بوالدة الإله وقال إنما هي أم المسيح فقط... وتابعه في ذلك البطريرك نسطوريوس فانعقد لهذا السبب المجمع في مدينة افسس تحت امرة كيرلس بطريرك الاسكندرية وحكموا على النساطرة بالهرطقة. وأما اساقفة المشرق الذين كانوا في المجمع المذكور فاجتمعوا أيضاً في افسس وحرموا كيرلس المذكور... ومنهم افتيخيوس الذي أراد الابتعاد عن آراء النساطرة فكان يعلم بأن المسيح حين تجسد لم يكن له إلا ذات واحدة وطبيعة واحدة وأيد ذلك قيصر القسطنطينية ثاودوسيوس بمجمع عقده في افسس سنة 494 م. تحت رئاسة ديستوروس بطريرك الاسكندرية وتسمت مقلدوه «منوفزية». وبعد هذا انعقد مجمع آخر في خلكيدونية والذي علّم بأن للمسيح ذاتاً واحدة وطبيعتين طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية... ومنهم يعقوب البرادعي اسقف اورفا الذي غيّر المنوفزية بصورة أخرى وأخذ يجمع فروع هذا المذهب إلى أن مات سنة 578 م. وبه تسمت تلك الطائفة باليعقوبية.

4 ـ وأراد هرقل قيصر القسطنطينية ان يرد طائفة المنوفزية إلى جانب الكنيسة فاتفق مع اثناسيوس البطريرك المنوفيزي على ان يرد أصحابه إلى الكنيسة بشرط أن يكون الاعتقاد العام ان السيد المسيح من حين اتحد فيه اللاهوت والناسوت لم يبق له الا إرادة واحدة وتأثير واحد ناشىء عن تلك الإرادة. فقبل هذا الرأي كل من سرجيوس بطريرك القسطنطينية وكورش بطريرك الاسكندرية واثناسيوس بطريرك انطاكية والبابا هنري الأول اسقف رومية ولم يخالف في ذلك الا صفرنيوس بطريرك اورشليم فعقد ضدهم مجمعاً في سنة 634 م. ثم اجتمع مجمع آخر في القسطنطينية سنة 680 م. وحرّم تلك الطائفة والبابا المذكور أيضاً. وظهر الراهب بيلاجيوس في رومية فأنكر سريان خطيئة آدم وحواء إلى الانسال البشرية المتعاقبة، وأنكر ان الإنسان يحتاج إلى تجديد القلب بنعمة من الله تمنعه من ارتكاب الخطيئة وقال من عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليه ان يحمل اوزاره... إلا ان هذا المذهب تلاشى بعد مجمع قرطاجنة عام 412 م. وظهر كثير من اصحاب البدع غير هؤلاء لا حاجة إلى ذكر اسمائهم وآرائهم، ولأجل الرد على أصحاب هذه البدع كانت تنعقد المجامع بين آونة وأخرى. وقد تكون مجامع علمية تشترك فيها الطوائف المسيحية كافة أو مجامع ملية خاصة بطائفة من الطوائف.

الفصل الخامس عشر المجامع الدينية

أولاً: المجمع النيقاوي الملتئم سنة 325 م. بأمر قسطنطين الملك ضد الآريوسيين وتثبيتاً للاهوت المسيح وفيه ترتب دستور الإيمان كما سبقت الإشارة إليه. وكان عدد أعضائه 1250 عضواً من بينهم 318 اسقفاً اكثرهم من الشرق.

ثانياً: المجمع القسطنطيني المنعقد عام 381 م. بأمر ثيودوسيوس الملك ضد المكدونيين تثبيتاً للاهوت الروح القدس وبأن المسيح هو جسد حقيقي ونفس حقيقية وأنه إله تام وإنسان تام وتثبيت الدستور النيقاوي. وزاد فيه لفظ روح القدس المنبثق من الآب وكمله. وكان عدد اعضائه 150 اسقفاً وبهذا يكون قد ثبتت عقيدة التثليث نهائياً.

ثالثاً: المجمع الافسسي الملتئم سنة 431 م. بأمر الملك ثيوديسيوس الثاني وكان عدد اعضائه 1200 اسقف. وكان انعقاده لأجل دحض تعاليم نسطوريوس. وتم ذلك تحت رئاسة كيرلس بطريرك الاسكندرية قبل وصول الاساقفة الشرقيين الذين عند وصولهم اجتمعوا تحت رئاسة يوحنا الانطاكي وعزلوا كيرلس الاسكندري. وأما الملك فكان ضد نسطوريوس... وحكم هذا المجمع بوجود اتحاد جوهري بين الطبيعتين في المسيح وبأن الإله والإنسان في المسيح واحد وبأن مريم والدة الإله فرفض نسطوريوس ذلك.

فاجتمع مجمع آخر يدعى بمجمع اللصوص في افسس أيضاً سنة 449 م. فحكموا بأن المسيح ذو طبيعة واحدة فثار اوباش الرهبان على فيلافيانوس بطريرك القسطنطينية وضربوه حتى مات.

رابعاً: المجمع الخلكدوني المنعقد سنة 451 م. بأمر الملك مرسيانيوس وكان عدد اعضائه 520 اسقفاً كلهم من الشرق. وكان انعقاده تثبيتاً للرأي الذي حدده البابا وهو ان الطبيعتين في المسيح غير ممتزجتين وغير منفصلتين وان المسيح هو واحد في الطبيعتين وليس من طبيعتين.

خامساً: المجمع القسطنطيني الثاني المنعقد سنة 553 م. بأمر الملك يوسيانوس ضد معلمي الطبيعة الواحدة ونتج من ذلك انفصال القبط والأرمن واليعقوبيين عن الكنيسة الشرقية الملكية.

سادساً: المجمع القسطنطيني الثالث المنعقد سنة 680 بأمر الملك قسطنطين تثبيتاً لوجود مشيئتين في المسيح. وحرّم البابا هنوريوس وستة بطاركة آخرين وكان البابا المذكور ميتاً. وعقد مجمع آخر سنة 754 م. حرّم اتخاذ الصور والتماثيل في العبادة والذخائر وطلب الشفاعة من العذراء المباركة في جميع الكنائس الشرقية، إلا أن ايرين أم الملك قتلته وملكت عوضاً منه وأرجعت الصور والذخائر. وتلا ذلك مجمع جنتيلي سنة 717 م. ومجمع فرانكفورت سنة 794 م. بأمر لويس الخامس وقد حكم فيهما ضد الايقونات والصور والذخائر.

سابعاً: المجمع النيقاوي الثاني المنعقد سنة 787 م. بأمر الملكة ايرين المذكورة وأعضاؤه 477 اسقفاً ضد مكسري الايقونات فقبلت رومية هذا المجمع وأنكرته فرنسا وانكلترة والفلمنك.

ثامناً: المجمع المنعقد في القسطنطينية سنة 869 م. من قبل اللاتين الغربي وفيه ثبت كون الانبثاق من الآب والابن. وفي سنة 879 م. انعقد المجمع الشرقي اليوناني وفيه حكم بأن الانبثاق من الآب وحده وتم بذلك الانشقاق بين الشرق والغرب.

وفي المجمع التاسع والعاشر والحادي عشر ثبت انتخاب الباباوات.

وفي المجمع الثاني عشر سنة 1215 تثبتت الاستحالة والغفرانات، وسمح باستئصال الهراطقة. وفي المجمع الثالث عشر و14 و15 و16 و17 و18 ثبتت فيها أمور مختلفة حول الكنائس وسلطات البابا وغيره. وفي التاسع عشر انعقد مجمع في تريدنتو من 1542 إلى 1563 م. وكانت مقاصده إيضاح العقائد الرومانية والرد على الآراء البروتستانتية التي كان شرع بها وقتئذ مرتينوس لوثيروس.

وكان السبب الذي شدّد عزم لوثيروس المذكور في ذلك بيع أوراق الغفرانات المخترعة في زمن البابا ليون العاشر الذي تولى الكرسي سنة 1513 م. وكانت تباع في ويتمبرغ وهي مدينة كان لوثيروس المذكور مدرّساً فيها، عن يد راهب دومنيكي يقال له تتزل وهذه صورتها:

«ربنا يسوع المسيح يا فلان... ويملك باستحقاقات الاله الكليّة القداسة، وانا بالسلطان الرسولي المعطى لي، احلّك من جميع القصاصات والاحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها، وأيضاً من جميع التفريطات والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة، ومن كل علة، ولئن كانت محفوظة لأبينا الاقدس البابا والكرسي الرسولي، وأمحو جميع أقذار الفجر، وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وارفع أنواع القصاص التي كنت ملزماً بمكابدتها في المطهر، وأردك حديثاً إلى الشركة في أسرار الكنيسة، واقرنك في شركة القديسين، وأردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك حتى إنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطأة إلى محل العذابات والعقاب ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح. وان لم تمت سنين طويلة فهذه النعمة تبقى غير متغيّرة حتى تأتي ساعتك الأخيرة.. باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد أمين». الأخ يوحنا تتزل وقد وقّع ذلك بيده.

ويقال بأن لوثريوس عندما كان يريد ان يسمع اعترافات بعض الناس بحسب قواعد التقليديين كانوا يأبون القيام بها بناء على كونهم اشتروا بها رخصة عفي بها عنهم فشرع يرفض هذه الأوراق واستدرج شيئاً فشيئاً لمقاومة جميع تعاليم الكنيسة الرومانية وتقليداتها المنافية لروح الكتاب المقدس.

وأما المجمع العشرون المنعقد في رومية سنة 1869 م. فلا يزال مفتوحاً. وكانت مقاصده اثبات العصمة في الباباوات.

الفصل السادس عشر التقليديون والانجيليون

1 ـ بعد هذه المجامع أصبح العالم المسيحي في استقامتين كبيرتين: الأولى تضم التقليديين وهم المتمسكون بالتقاليد الكنسية القديمة، والثانية تضم الانجيليين وهم المتمسكون بالإنجيل فقط. فاما الكنائس التقليدية فهي اللاتينية واليونانية واليعقوبية من أرمن وقبط وسريان ونسطورية وكلدانية وأهمها الكنائس الكاثوليكية وكنائس الروم الارثوذكس. فاما الكنيسة اللاتينية وتسمى الكنيسة البطرسية، فان مؤسسها الأصلي هو بطرس الرسول وهو أول تلاميذ المسيح ورئيسهم، والباباوات هم خلفاؤه، وتسمى عند الشرقيين الكنيسة الغربية لتسلطها على الأكثر على البلاد الغربية ووقوعها هناك، ورئيسها البابا الروماني وهو مستقل بسياستها وشعوبها، والمتمسكون بتقاليدها منتشرون في أنحاء العالم كافة.

وأما الكنيسة اليونانية ويقال لها كنيسة الروم الارثوذكسية الشرقية، فهي وإن كانت تشترك مع الكنيسة اللاتينية في كثير من التقاليد والتعاليم إلا أنها تخالفها بكونها لا تعترف إلا بالمجامع السبعة الأولى فقط، وتبني معتقداتها عليها وعلى اقوال يوحنا فم الذهب وبطارقة المشرق ولا تعترف لبابا رومية بالسيادة أو بالترؤس عليها، وإنما تتساهل ليكون له الرتبة الأولى. وتختلف معها أيضاً على انبثاق الروح القدس من الابن والمطهر وعدم جواز التقديس على الفطير وإنكار سيادة القديسين حيث ان سعادتهم لا تكمل إلا بعد الدينونة الأخيرة.

وأما الكنائس الإنجيلية فتقسم إلى ثلاث فرق وهي لوثرانية وكلوينية وانكليكانية. إلا أنهم جميعاً متفقون في المعتقدات على مجرد ما في الكتاب المقدس فلا يخضعون لشيء من التقاليد ولا إلى أحد من الآباء ولا إلى المجامع إلا ما هو منصوص بالأناجيل. وليس لكنائسهم من يترأس عليها رياسة عامة، ولا يسلمون بأسرار غير المعمودية والعشاء الرباني، وينكرون الاستحالة والرهبانية، والصلاة إلى القديسين وطلب شفاعتهم، واتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس، والطهر والغفرانات والصلاة لأجل الموتى، والتبرير بالأعمال الوفائية والصلاة بلغة غير مفهومة من السامعين. وما عدا الكنائس الثلاث المهمة الكبرى (اليونانية واللاتينية والإنجيلية) هناك كنائس أخرى تفرّعت من الكنائس المذكورة أو اقتطعت منها لاختلافها في العوائد والطقوس. وأصبح تابعوها طوائف مستقلة وقد رجع قسم منهم إلى الكنيسة الرومانية واعترفوا بسيادتها عليهم مع الموافقة على بعض معتقداتها كالاعتقاد بطبيعتي المسيح وبانبثاق الروح القدس من الابن مع إبقاء حريتهم فيما عدا ذلك في الطقوس والعوائد والمعتقدات، ومن تمييز هذه الطوائف بإضافة لقب الكاثوليكية على اسمها الأصلي مثل قبط كاثوليك وأرمن كاثوليك.

2 ـ وهناك فرق تسميها الكنائس الثلاث هراطقة. وهم على نوعين: النوع الأول موحدو الطبيعة وهم يختلفون عن الروم واللاتين في قضايا كثيرة بذات المعتقدات. وأساس افتراقهم هو ما يعتقدون به مع

ديوستوريوس ويرساموس وفلو، ممن يعتبرونهم مؤسسي شيعتهم، بأن طبيعتي المسيح الإلهية والإنسانية قد اتحدتا اتحاداً عظيماً حتى صارتا طبيعة واحدة. ويحددون معتقدهم بقولهم صراحة ان طبيعة المسيح مع أنها واحدة هي مركبة ومزدوجة. ويطلق على هؤلاء اسم يعقوبيين نسبة إلى يعقوب البرادعي الذي قاد هذه الشيعة ورتّبها في القرن السادس المسيحي. وهم يقسمون إلى آسيويين وافريقيين.

فأما الآسيويون فرأسهم بطريرك السريان الذي يسكن في دير الزعفران قرب ماردين. وقد جعل له وكيلاً لإدارة الكنائس التي فيما وراء دجلة يسكن في دير مار متى قرب مدينة الموصل. ويسمى البطريرك عندهم اغناطيوس. وخرج من هذه الطائفة المونوتليون الذين رفضوا القول بوحدة الطبيعة، وسلموا مع الروم بأن في المسيح طبيعتين ولكن له مشيئة واحدة فقط. وكان قد حرّم المجمع السادس المنعقد في سنة 680 م. هذا القول فوقع على أصحابه اضطهاد شديد، ولم يبق لهم مأمن إلا بين المردة في جبل لبنان. وفي سنة 667 م. اشتهر هناك القس يوحنا مارون فسامه رسول الكرسي الروماني اسقفاً على البترون، وتكفّل بأن يجلب إلى إيمانهم أهل الجبل. ونجح في سعيه وصار له حزب كبير اجتلبه من اصحاب المشيئة الواحدة. وإليه انتسبت الطائفة المارونية فكان لهم بطريرك يعقب انطاكية يقيم في دير قنوبين ويضيف إلى اسمه بطرس.

وأما الأفريقيون فرأسهم هو بطريرك القبط المقيم في مصر، ويقسمون اقباط اصليين وحبش. فأما الاقباط الاصليون فهم القاطنون في مصر وبلاد النوبة. وأما الحبش فهم أكثر عدداً من الاصليين يرأسهم اسقف في الأمور المدنية يخاطبونه بلفظ أبينا. ويوجد منهم من دخل في طاعة روما وأصبحوا كاثوليكيين.

3 ـ أما الأرمن فيتفقون أيضاً مع ذوي الطبيعة الواحدة إلا أنهم يختلفون عنهم في عوائد وآراء وطقوس، فلا شركة بينهم وبين اليعقوبيين، يسوسهم ثلاثة بطاركة، الأول يسكن في أرمينية في دير اشمياظين. والثاني البطريرك المسمى كاتوليكوس ويسكن في مدينة سيس ومنطقة اطنه وقبرص وسورية. والثالث يسكن في جزيرة في بحيرة وان تسمى اغطار ويحسبه بقية الأرمن عدواً للكنيسة. ولديهم رئيس الاساقفة يقيم في القسطنطينية وآخر في اورشليم ومثله في بولندا.

4 ـ وأما النوع الثاني فهم النساطرة ويمتازون عن باقي الطوائف باعتقادهم ان نسطاريوس حرمه مجمع افسس ظلماً وعدواناً ويعتقدون بأنه لم يكن في المسيح طبيعتان فقط بل اقنومان أيضاً. وكان يحسب هذا الاعتقاد ضلالاً مميتاً. وأما في هذه الأيام فيحسبه العلماء الكاثوليكيون غلطاً لفظياً لا معنوياً لأن هؤلاء النساطرة يعتقدون بأن في المسيح اقنومين كما ان فيه طبيعتين ويقولون على حد تعبيرهم (الاهه الاهه ومسيا مسيا) ومعناه ان الإله هو الإله والمسيح هو المسيح. لكنهم يقولون أيضاً بأن هذين الاقنومين وهاتين الطبيعتين قد التصقتا حتى صار منهما رؤية واحدة... أو حسب تعبيرهم (برسوبا). واحد ومعنى برسوبا باليونانية اقنوم. ومن ذلك يظهر أنهم يريدون بالرؤية ما يريده باقي المسيحيين بالاقنوم. وما يدعوه المسيحيون طبيعتين يدعونه هم اقنومين. ولما ادعى نسطور ان في المسيح المتجسد اقنومين وطبيعتين قال اوطاخي أن في المسيح اقنوماً واحداً وطبيعة واحدة. فالسريان الذين

تبعوا نسطور سموا أنفسهم نساطرة أو سرياناً شرقيين، والذين انضموا إلى اوطاخي سموا أنفسهم يعاقبة نسبة إلى رئيسهم يعقوب أو سرياناً غربيين (قدماء).

5 ـ ولما وصل المبشرون الأوروبيون في غضون القرن الرابع عشر بلاد الشرق لحقهم جماعات من النساطرة فسماهم البابا كلداناً وجماعات من اليعاقبة وسموا سريان كاثوليك. وأما منشأ كلمة سريان فهي لما انتشرت الديانة المسيحية في نهاية القرن الأول الميلادي في ربوع سورية كان أول من تنصر فيها من الشعوب الشرقية القديمة الآراميون وتبعهم بعد ذلك من جاورهم من القبائل واستعاضوا عن اسمهم القديم باسم «سرياناً» مشتق من سيريا أي سورية التي اخذوا عنها ديانتهم وذلك تمييزاً لهم من الوثنيين. ولم يزل المتكلمون بالآرامية العامية يطلقون كلمة «سورايا» لكل مسيحي من أي أمة كان.

الفصل السابع عشر البدع والهرطقة

1 ـ كان كثير من أصحاب الشيع والبدع والهرطقات لا حاجة لبيان معتقداتهم بالنظر لأنهم فرق ضئيلة لا أهمية كبيرة لهم في العالم المسيحي. ان الكنيسة الرومانية تدّعي بأن كل المذاهب المسيحية على وجه الاطلاق هي شيع هرطقية خارجة منها ومنفصلة عن شركتها.

يقول العلامة نوفل ان هذه الدعوى تصح لأية كنيسة أمكنها ان تثبت لذاتها القدميّة بالثبات على المعتقدات الصحيحة الأصلية. اما كنيسة روما فليس لها في هذه الدعوى الا الاستناد على امانة التقليدات. غير ان سلامة الذوق تقتضي بأنه كلما قلت التقليدات في كنيسة من الكنائس دل ذلك على قدميتها بالنسبة إلى التي تزيد عليها في ما هو من هذا القبيل، لأن التقليد على ما يستبان من مجريات رومية قابل للزيادة، والزيادة احداث. والأحداث في الدين لا ريب في أنه بدع. والابداع هو ما يسميه المسيحيون هرطقة.

أما الانجيليون فلا يأنفون من الاعتراف بحداثة ظهورهم منذ القرن السادس عشر. وقد اجروا الاصلاح في حالة الكنيسة وليس بالمعتقدات باستنادهم إلى الكتب المقدسة فقط... مع صرف النظر عن جميع تلك التقاليد المتضاربة التي تستند إليها رومية وغيرها من الكنائس التقليدية.

2 ـ ان أول من اقام الحجة على الكنيسة الرومانية واعتزلها هي الكنيسة اليونانية التي ما برحت مزاحمة لرومية على مجد الرئاسة. وعندما تولى فوتيوس بطريرك القسطنطينية صرّح في سنة 866 م. بابتداع كنيسة روما عدة أمور منكرة من جملتها صوم السبت وافساد دستور الإيمان بإضافة لفظة (والابن). ثم لما حرم قصاد رومية سرولاريوس بطريرك القسطنطينية لعدم موافقته على مبادىء المصالحة التي قدموها له في سنة 1054 م. حرم هو كذلك هؤلاء القصاد واضاف اعتراضات أخرى على اعتراضات فوتيوس. ولما يئس الباباوات من اخضاع اليونانيين بالوسائط السلمية واللين والوعد والوعيد عدلوا إلى استعمال الشدة والجبر كما هي العادة. فحرك البابا انوسنت الثالث قواد الصليبيين لنزع المملكة من يد اليونانيين فافتتحوا القسطنطينية في 12 نيسان (ابريل) 1214 م. ودامت سلطتهم عليها إلى سنة 1261 م. واستعملوا الشدة نفسها في كنائس سورية وفلسطين ليخضعوا بطاركتها، إلى أن احوجوهم أن يفضلوا مودة العرب على مودتهم، ويختاروا تسلط شعب يرتضي بجزية، على أن يتسلط عليهم ملك روحي طمعه وطمع قصاده لا يشبعان. ولما دخل السلطان العثماني مدينة القسطنطينية وسقطت دولة اليونان في سنة 1453 م. كانوا يصرخون نعم نعم عمامة السلطان محمد ولا تاج البابا المثلث!

وظهر في مدينة ليون في فرنسا شيعة يسمى اصحابها بالولدنسيين نسبة إلى مؤسسها بطرس ولدنس خلال سنة 1160 م. انكروا رئاسة البابا. وتختصر تعاليمهم في الرغبة في أن يتمثل رؤساء الكنيسة وخدامها بالرسل في المسكنة وتحصيل قوتهم بأيديهم، وان لجميع المسيحيين نوعاً من

السلطان على تعميم وتثبيت وانذار الناس فلا يلزم للناس ان يعترفوا بخطاياهم للكهنة بل يكشفونها للأخوة فقط، وان سلطان مغفرة الخطايا منوط بالله وحده، وان الصلاة للموتى لا تجدي نفعاً وغير ذلك، ويقال ان بقاياهم لم تزل موجودة.

3 ـ وفي القرن السابع عشر ظهر كرينيلوس جنسينوس اسقف ايرس في الفلمنك. وكان من جملة تعاليمه «ان كل من يثبت ان يسوع المسيح كفّر بآلامه وموته عن جميع خطايا البشر فهو مخطىء». وقد صرّح البابا انوسنت العاشر بأنها هرطقة محضة وهي زائفة تهين الله. وتتضمن عقائد هذه الفرقة بأن لا شيء في اعمال الكنيسة الرومانية وعقائدها صحيح بتمامه وغير فاسد. وان طغمة الاكليروس قد اهملوا واجباتهم وان الرجال مرتدون ويودون لو يرجعون إلى طهارتهم الأصلية وإلى السيرة الأصلية التي وضعها منشئو رهبانيتهم ويرغبون بتنوير الشعب في ديانتهم الصحيحة. ويجب أن يكون الكتاب المقدس بأيدي الشعب يفهمه بلسانه. وان مخافة الله ليست بالطقوس الدينية إنما بالأعمال الصالحة ونقاوة القلب والعبادات والصوم والصلاة. وان من مات من أثر العبادة يكون قديساً. ثم لما كثر الاضطهاد على هذه الشيعة التجأوا إلى بلاد هولاندة ولم يستطع الباباوات ولا قصّادهم ان يخضعوهم بالانذارات ولا بالتوسلات بل لا زالوا مستقلين عن روما.

4 ـ وفي أوائل القرن التاسع عشر شرع الباباوات بتوسيع نطاق سلطتهم على الكنائس الشرقية وفرضوا على الروم الكاثوليك استعمال الحساب الغريغوري وإبطال الحساب اليوليوسي في الطقوس الدينية... فرفض هذا الأمر مكسيموس بطريرك الطائفة المذكورة إلى أن خلفه البطريرك كلمنديس فرضخ لأمر الباباوات وحصل من جرّاء ذلك تصدع في وحدة ابناء هذه الطائفة. وبعد جدال عنيف رضخت جميعها الا القليل منها لأوامر البابا وأصبحت الكنيسة تحت أمرته.

5 ـ وكان قد عقد سنة 1869 م. مجمع في رومية تقرر فيه عصمة الباباوات، الأمر الذي سبّب الانشقاق والخلاف بين الكنائس اللاتينية كافة في الشرق والغرب على السواء... فان بعضاً من اساقفة الكنيسة اللاتينية وشعوبها في أوروبا اعتزلوا الباباوية رأساً ولقبوا انفسهم بالكاثوليك القدماء، وعقدوا اجتماعات في ميونيخ وكولون واتفقوا على بقائهم على الإيمان الكاثوليكي القديم المبين في الكتب المقدسة ورفض تحديدات الفاتيكان واعتبارها بدعة، وانه لا يمكنهم بعد الآن ان يعتبرو اساقفة روما الحاليين كرؤساء الكنيسة الكاثوليكية ولا الاساقفة الذين وقّعوا على عقيدة العصمة. ويدّعون أنه لما كان يمكن قبل هذا القرار عزل البابا إذا هرطق، ولكن الآن لا يمكن ذلك بعد نشر هذه العقيدة الجديدة. فإذا، ما من ريب إذا قيل بأنه لم يبق والحالة هذه وجود لبابا شرعي ولا اساقفة شرعيين من اتباعه، فابطلوا في هذا المجمع الغفرانات والصلاة إلى القديسين ودفع أجرة على القداديس وابطلوا أمر البابا الذي يمنع العامة من مطالعة الكتاب المقدس، وهم مستعدون للتفاهم مع الكنائس الأخرى شرقية وغربية، لوضع قانون كنسي للاشتراك في الإيمان الواحد الذي يكون عنوانه الوحدة في الأمور الجوهرية الضرورية مع محافظة كل كنيسة على خصوصيات لا تفسد جوهر الإيمان القديم. وظهر شيع صغرى أخرى نذكر منها:

ـ السونيوسيون ومؤسسها سونيوس أسسها سنة 1547 م. وتقسم إلى نوعين: الأول: ينكر تثليث

الاقانيم الالهية ويسلّم بألوهية السيد المسيح، ومنهم من ادعى بأن تعاليم المسيح الحقيقية قد فقدت قبل أن يجتمع مجمع نيقيه وقبل ان يصدر تعاليمه؛ والثاني: يقرّر ويعترف بأن كل معرفة إلهية يجب أن تؤخذ من الكتب المقدسة ولا يجب ان يؤخذ على ظاهره بل يشرح طبقاً لما يقبله العقل السليم.

ـ الكويكرس أي الأصحاب... ويعتقدون بالنور الباطني وان لكل إنسان نوراً كافياً لخلاصه ان استعمله.

ـ وهناك فرق بروتستنتية عديدة الآن، خصوصاً في الولايات المتحدة، بعضها أقرب الى اليهودية منها إلى المسيحية.

الفصل الثامن عشر العقل والإيمان

1 ـ عاشت المسيحية في أوروبا فترة من الزمن لا تملك الاضطهاد لأن لا سلطة زمنية لها. فكان المسيحيون الضعفاء يصرحون بأن المعتقد الديني تابع لرغبات الفرد لا يجوز اكراه الناس عليه. ولما انتشر الدين المسيحي في ربوع أوروبا وقوي ساعد الآباء وايدتهم الدولة بجيوشها، ظهر مبدأ العنف والشدة والإكراه، فوضعوا قواعد تحدّ الفكر وتكبح العقل وتثلم النشاط... وبشروا بأن لا سبيل إلى الخلاص إلا عن طريق الكنيسة المسيحية وان الذين لا يؤمنون بسلطان الكنيسة تحيق بهم لعنة الله. وأفضى الأمر إلى فرض صنوف العقوبات فظهرت شتى القواعد الدينية المحدثة كخلود من مات بغير تعميد في الجحيم ولو كان طفلاً. ومصادرة املاك الملحدين وحرمانهم من الوراثة وامثاله كثير.

وظهر نظام الرهبنة والصوفية المسيحية وهي اجتناب الملذات والتخلص من المطامع والاهواء والرغبات والتزام العيش البسيط وتعذيب الجسم للتكفير عن الخطايا، ثم جاء القديس اوغسطين (430 م.) فأعلن ضرورة الاضطهاد واتخاذ طريقة العنف لخير البشرية، فوقع مختلف أنواع العقوبات للملحدين واعتبر الكتاب المقدس فوق العقل البشري... ومصدر العلم، وباب المعرفة.

2 ـ وفي هذا الدور وجه الآباء نشاطهم لدراسة الفلسفة اليونانية الشائعة في أوروبا الجنوبية وتطبيق هذه الفلسفة على العقيدة الدينية والتوفيق بين العقل والإيمان وجعلهما في مستوى واحد... وإذا امكن جعل الفلسفة اليونانية والقوانين الطبيعية على وفاق مع القواعد المسيحية وجعل المنطق والعقل يؤيدان النص الإلهي، باعتبار ان العقل وحده لا يكفي للوصول إلى الحقيقة ما لم يستصحبه الإيمان لأن العقل وحده لا يقدر أن يدرك معنى تثليث الاقانيم مثلاً. فلا بد من مشاركة الإيمان مع العقل للوصول إلى السلامة. وبهذا المنطق أصبح العقل خاضعاً للقواعد الدينية، وأصبحت القوانين الطبيعية وسيلة لتأييد الكتب المقدسة.

ولم تكن هذه الطريقة خاصة بالكنيسة الكاثوليكية وحدها... فقد تعدتها إلى الكنيسة الإنجيلية أيضاً. واستدام الفكر الأوروبي في هذه الاستقامة حتى القرن الثاني عشر... حتى صرح لأول مرة ابيللارد بضرورة تحرير العقل من قيود الإيمان ومن الوحي المنزل ومن نصوص الكنيسة بكتابه نعم ولا sic et non. فقامت قيامة الكنائس وصادروا كتابه وأحرقوه واتهموه بالكفر والزندقة والهرطقة والالحاد. الا ان هذه الشدة لم تفتّ في عضد الأحرار الأوروبيين فظهر من بعده روجر بيكون وأعلن ضرورة استقاء العلم عن طريقة التجربة والاختبار... وأعقبه غيره حتى يومنا هذا...

الفصل التاسع عشر المسيح في القرآن الكريم

قبل ان نختتم هذه الفصول، لا بد أن نذكر بعض الآيات البينات الواردة في القرآن الكريم عن السيدة مريم العذراء وعن ولادة السيد المسيح وسيرته ومعجزاته وكيف رفعه الله إليه بعد وفاته.

فقد جاء في سورة آل عمران عن ولادة السيدة مريم العذراء: ﴿إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً. فتقبل مني إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى واني سميتها مريم واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم انّى لك هذا قالت هو من عند الله...﴾. وامرأة عمران هي حنة خالة النبي يحيى ابن زكريا والمعنى في (محررا) أي إنه نذراً خالصاً مفرغاً لعبادة الله وخدمة الكنيسة. ولم يكن يحرر عندهم الا الغلمان، ولا يبرح مقيماً فيها، ولما وضعتها انثى اعتذرت إلى الله من نذرها لأنها لا تصلح لخدمة الكنيسة. ومعنى مريم بالعبرية العابدة والخادمة، واعيذها أي امنعها واجيرها بك وذريتها من الشيطان الرجيم.

وفي سورة آل عمران أيضاً حول السيدة مريم: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم أن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين. يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ والمعنى في كلمة (اصطفاك) أي اختارك و(طهّرك) أي من مسيس الرجال و(اصطفاك) الثانية أي اعلى درجتك على جميع نساء العالمين و(اقنتي) أي اطيعي ربك واطيلي الصلاة والعبادة.

وفي سورة الأنبياء ﴿والتي احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ واحصنت من الحصانة والمناعة وروحنا أي روح الله المقدسة.

وجاء في سورة مريم من القرآن الكريم وصفاً شاملاً عن السيدة البتول وعن ولادة السيد المسيح نذكر منه: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من اهلها مكاناً شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً. قالت اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً. قال إنما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً. قالت انّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا. قال كذلك قال ربك هو عليّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضياً. فحملته فانتبذت به مكاناً قصيّا. فاجآءها المخاض إلى جذع النخلة. قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً. فناداها من تحتها الا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا. وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً. فكلي واشربي وقرّي عينا. فإما ترين من البشر احداً فقولي اني نذرت للرحمان صوما فلن اكلم اليوم إنسيا. فاتت به قومها تحمله، قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا. يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا. فاشارت إليه، قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيا. قال اني عبد

الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا. وجعلني مباركاً أينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّا. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا. والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا. ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾. فان القصد من الكلام في المهد هو انه كان يكلم الناس صغيراً وقبل أوان الكلام. فقد تكلّم ببراءة أمه مما رماها به أهل القرية من القذف وهي من المعجزات النبوية.

وفي سورة آل عمران: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين. قالت رب انّى يكون لي ولد ولم يمسني بشر، قال كذلك يخلق الله ما يشاء إذا قضى امراً فإنما يقول له كن فيكون. ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل...﴾. فقد قالت الملائكة لمريم: «يا مريم ان الله يبشّرك ببشرى من عنده وهي ولد يولد لك من غير بعل ولا رجل وقد سماه الله [الكلمة] وجعله [وجيهاً]» أي شريفاً ورفيعاً في الدنيا والآخرة. وأما قولها «أنّى يكون لي ولد» فهو تعجباً منها لأنه لم يمسّها بشر، لا شكّاً في قدرة الله تعالى.

وفي سورة النساء: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله﴾ فهو من روح الله وكلمته وكفى.

وفي سورة آل عمران: ﴿ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ أي ان مثل عيسى في الخلق والإنشاء من غير أب كمثل آدم في خلقه من تراب من غير أب وأم فإن خلق عيسى أبلغ في القدرة من خلق آدم.

وفي سورة المائدة: ﴿ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام﴾ فان الإله أجلّ وأعظم من أن يأكل الطعام!

وفي سورة النساء: ﴿لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾ يؤيد ذلك قول السيد المسيح «لأن أبي أعظم مني».

وفي سورة المائدة: ﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيّدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني وتبرىء الأكمه والأبرص باذني وإذ تخرج الموتى باذني...﴾ كان ذلك لما طلب اليهود منه ان يخلق لهم طيراً من التراب كما خلق الله آدم من التراب لكي يؤمنوا برسالته. فأخذ طيناً وصوّره على صورة طير. ثم نفخ فيه فإذا هو طير بإذن الله تعالى فآمنوا به.

وفي سورة الزخرف: ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله. ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ فان كلمة «ربي وربكم» توافق ما جاء في إنجيل يوحنا قول السيد المسيح لمريم المجدلية «إلهي وإلهكم».

وفي سورة آل عمران أيضاً: ﴿ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ وهذه كسابقتها.

وفي سورة المائدة ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين. وليحكم أهل الإنجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ وهي واضحة كل الوضوح لا تحتاج إلى تفسير.

وفي سورة الحديد: ﴿وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم...﴾.

وفي سورة المائدة أيضاً ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وانت خير الرازقين. قال الله اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني اعذبه عذاباً لا اعذبه احداً من العالمين﴾.

وفي سورة المائدة أيضاً ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم. انت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق، ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك انك انت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما امرتني به، ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شيء شهيد﴾.

وفي سورة آل عمران: ﴿إذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾. وهذه توافق ما جاء في الأناجيل الأربعة لا بالصلب، إنما بالوفاة، ثم القيام من عالم الموتى بعد الوفاة، وكذلك الصعود إلى السماء، دون تعين المحل والمكان في جنب الله.

وفي سورة النساء: ﴿... وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم... وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه...﴾. فيظهر من سياق الآية القرآنية ان السيد المسيح أجل وأعظم من ان يقتل ويصلب ويهان على أيدي شرذمة من اليهود المنافقين، فليس على الله بمستنكر ان يجعل واحداً من اليهود شبهاً للسيد المسيح فيقتل ويصلب عوضاً منه ويكون السيد المسيح بمنجى من القتل والصلب تكريماً له.

وفي سورة المائدة أيضاً: ﴿لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا، الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما انزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ فلا تحتاج هذه الآية الكريمة للشرح والتفسير والإيضاح.

فأين هذه الآيات القرآنية الكريمة من قول اليهود امام الحاكم بيلاطس لما تظاهر بإطلاق سبيل السيد المسيح «خذه! خذه!» (19 ـ 15 يوحنا)، «اصلبه! اصلبه!» (22 ـ 21 لوقا)، «دمه علينا وعلى أولادنا» (27 ـ 25 متى)، إذا اطلقت هذا فلست محباً لقيصر (19 ـ 12 يوحنا).

ان هذه الآيات البينات الواردة في القرآن الكريم وأمثالها كثير التي تبحث عن ولادة السيد المسيح العذرية وعن طفولته وسيرته، ومعجزاته، وأخيراً عن وفاته ورفعه إلى جوار ربه، توافق كل الموافقة بالروح والمعنى لما جاء في الأناجيل الأربعة المقدسة. فقد أيّدت الديانة الإسلامية وجود روح الله وهو الذي يسميه العالم المسيحي «روح القدس»، وأيدت أيضاً أن مثل السيد المسيح كمثل آدم خلقه الله بنفخة إلهية كبرى في السيدة مريم العذراء بدون أب بشري، وقد أيّده روح القدس وهو الكلمة.

ومن المعلوم ان السيد المسيح عند تبليغه رسالات ربه في حياته النبوية كلها لم ينطق بكلمة واحدة لا صراحة ولا إيماء عن وجود المثلث الإلهي، إنما كان بالعكس يكرر في كل مناسبة توحيد الإله المنزه عن الصفات البشرية (الله روح) وعن كل شائبة، كقوله «اسمع يا إسرائيل! الرب إلهنا رب واحد...» ولم يعدد لهذا الواحد شيئاً من الأقانيم، كما وأنه لم يدع لنفسه بالألوهية مطلقاً. ولا يوجد في الأناجيل وفي رسائل الرسل كلها ما يدل على ان التلاميذ والرسل القدامى كانوا على علم بمدلول الاقانيم الثلاثة ومعانيها.

ولما قرر العالم المسيحي قبول عقيدة التثليث، وضع الصيغة الآتية: «الآب والابن وروح القدس الإله الواحد» فلم يكن له بد من الاعتراف بكلمة الإله الواحد بالنظر لما جاء في نصوص الأناجيل الصريحة، إلا أنه عاد وجعل له اقانيم ثلاثة لإعطاء السيد المسيح منزلة اعظم من منزلته النبوية التي لم تمر في فكر السيد المسيح أبداً. وهي آراء وتعاليم كنسية تقليدية لا أصل لها في الكتب القديمة ولا اثر لها مطلقاً في تعاليم السيد المسيح الأساسية في حياته كلها. كانت أمثالها وما يشابهها سائدة في المثلثات الوثنية البائدة في مصر واليونان وسومر والكلدان... كما سبق بحثه في فصل التثليث من كتابنا هذا.

وكان المجمع الديني المنعقد عام 1881 في ويستمنستر قد قرر اخراج الفقرة السابعة والثامنة من الاصحاح الخامس من رسالة يوحنا الأولى، وكذلك الفقرة السادسة عشرة من الاصحاح الثالث من رسالة بولس الرسول الأولى إلى ثيماوس حول عقيدة التثليث بحجة ان ليس لهما أثر في المتن اليوناني القديم مع انهما اعظم مستند تستند عليها عقيدة التثليث كما هو معلوم.

وبما ان الأب رأس المثلث وهو الله، وان كلمة «روح القدس» هي الروح الإلهية المقدسة وهي مؤيدة بالقرآن، فقد ينحصر الخلاف بين الديانتين العظيمتين في اعتبار الاقنوم الثاني السيد المسيح انه «ابن الله» حقيقة لا مجازا وفي اشراكه بصفة الألوهية فقط.

وبالنظر للتساهل والتكامل والتراخي الملحوظ عند مختلف الطبقات من الناس في إداء شعائر العبادات وفي التمسك بقواعد المعتقدات الدينية، ولما ستكون عليه في المستقبل القريب والبعيد، لقد

أصبح من الضروري اعادة النظر في كلمة «ابن الله» التي كانت متداولة فيما سبق على الألسن، وكان حتى السيد المسيح يستعملها عن نفسه وعن الجموع اليهودية كافة، بأن لم يكن القصد منها ان لله ولداً أو اولاداً كسائر البشر، إنما كان القصد منها هو التشبه بأخلاق الله وصفاته وميزاته كنسبة الولد لأبيه والعمل بما يرضي الأب. وبهذا التفسير والتأويل قد تزول نقطة الخلاف الوحيدة من بين الديانتين العظيمتين.

وإذا ما ترك رجال الدين الإسلامي والمسيحي جانب التعصب الديني المذموم، وتساهل الآباء في اعتبار الاقانيم الثلاثة هي بمثابة صفات للإله العظيم كالسمع والبصر والإرادة والعلم والروح والحياة والكلام... وفي حالة قبول معتقد كمعتقد الإلهيين الموحدين (deisme) الذي كان قد انتشر في أوروبا في القرن الثامن عشر، بعد تعديله بما يوافق الحال والزمان... ولا غضاضة في ذلك، ولكل ان يمنح الإله الواحد ما يراه من الصفات اللائقة بالوهيته، يرتفع آخر اختلاف ديني من بين الديانتين العظيمتين، فتكون هذه الخطوة الأولى في توحيد الأديان بين البشر، لتتمكن من الوقوف صفاً واحد وبجبهة واحدة تجاه حريق اللادينية المنتشر في أقطار العالم، والدين النصيحة ومن الله التوفيق.

الكتاب التاسع

ابن الانسان امام المحاكم

الفصل الأول في غرفة الأمراء في دار الولاية

في محاكمة السيد المسيح

جميع الشعب اليهودي المحتشد، ورؤساء الكهنة والشيوخ والحاخامون ورؤساء الفرق اليهودية يصرخون: «خذه! خذه! اصلبه! اصلبه! دمه علينا وعلى أولادنا. ان أطلقت هذا فلست محباً لقيصر!». من هو ابن الله والله أبوه؟ السيد يسوع المسيح أم الملك سليمان!

الحاكم العام في المحمية اليهودية الحاكم بيلاطس البنطي: لا تخلص المحمية اليهودية من ثائر حتى يظهر ثائر آخر غيره.

الأمير هيرودس اليهودي حاكم مدينة الجليل: كلهم متجلببون بجلباب الدين وكلهم متسترون بستار الأنبياء، حتى اذا ما قويت شوكتهم انقلبوا ثواراً وقادة وحكاماً.

الحاكم بيلاطس: صحيح، ما تخلصنا من يوحنا المعمدان، ومن ثيوداس المدعي عن نفسه، ومن زكريا بن برخيا، ومن يهوذا الجليلي، حتى ظهر لنا هذه المرة الشخص المسمي نفسه «ابن الإنسان» والمدعو «يسوع الناصري» يطوف القرى والمدن ويقلق المحمية اليهودية بأقواله ومدعياته الدينية والسياسية. فقد تصلني التقارير السرية عن نشاطه تباعاً من جواسيسنا الكهان والكتبة والفريسيين والصدوقيين وخاصة من جاسوسنا القديم يهوذا الاسخريوطي، ومن سائر الأفراد الذين يمشون معه، ويتظاهرون انهم أبرار مؤمنون به وبرسالته وبمدعياته، وقد أحاطوه من كل جانب وفي كل مكان يحصون عليه أنفاسه. وكلما وقفوا على شيء جديد من أهدافه وأقواله وتعاليمه ومراميه ونواياه، وعثروا على كلمة سياسية منه ضدنا أخبرونا بها[1]. وكذلك عن تنقلاته في القرى والأرياف بين كفرناحوم والجليل والناصره ورؤوس الجبال وسواحل البحر وعن أسئلتهم الدينية والسياسية وأجوبته لهم. فهذه الرقوق المكدسة والاضبارات قد امتلأت بأمثال هذه التقارير السرية عنه.

الأمير هيرودس: في الحقيقة لقد وصلني أنا أيضاً الشيء الكثير من جواسيسي عن يسوع الناصري وتنقلاته في المدن والأرياف وعن مدعياته الدينية والسياسية، الا اني لم أعطه لحد الآن الأهمية الكافية. فهل قد وصلت أعماله درجة خطرة على المحمية اليهودية كما كان قبله يوحنا المعمدان؟

الحاكم بيلاطس: من المعلوم ان من مصلحة الامبراطورية الرومانية تقوية النزاع وتشديده بين الاحزاب والفرق والطوائف الدينية والسياسية، ومن واجباتي السياسية إيثارها وإيقادها، وإيقاع التفرقة وتشديد الخصومة المذهبية بين الطوائف الدينية في المحمية لإشغالهم عن التفكير في أمور بلادهم السياسية. ومن مصلحة الامبراطورية أيضاً في بعض الظروف والاحوال النزول عند رغبات رجال

---

(1) 20/20 لوقا

الدين اليهودي، ان كانوا على حق أو بغير حق، طالما لا ضرر للامبراطورية منها لاكتسابهم الى جانبنا، ولربطهم بعجلتنا. وهذا قيافا ابن حنانيا الرئيس الديني على اليهود كان ولم يزل يشكو ويتذمر من نشاط يسوع الناصري الديني والسياسي ويطلب مني قتله وحذفه من الوجود، ومن المحقق عندي ان يسوع الناصري كان قد صحب يوحنا المعمدان في الاردن، عندما كان يعمد يوحنا الناس بالماء. وبالنظر للتقارير السرية التي وصلتني حينذاك من جواسيسنا، أنهما كانا قد اتفقا على وضع خطة مشتركة أولا دينية، ثم سياسية للقيام بانقلاب سياسي خطير في المحمية، لإعادة ملكية اليهود. فيظهر لي ان يسوع الناصري، هذا الأمير الشاب الوطني، المنحدر من نسل الملك داود والمتحمس لكرسي أجداده القدامى، كان كما زعم الرئيس قيافا، لم يزل سائراً على الخطة التي وضعها له يوحنا المعمدان، أو انها وضعت باتفاق الطرفين. وقد يلتف الجمهور المغفل والمتدين حوله، ويسمع لنصائحه وبياناته وإرشاداته وتبشيراته ومواعظه الدينية الخلابة، وقد يغري الناس بخطبه وأقواله وأعماله وأفعاله ومعجزاته وسحره، فلذلك أصبحت حركاته لا تحتمل ولا تطاق.

الامير هيرودس: هل يعتقد الأمير الحاكم العام أن يسوع الناصري قد قام بأعمال ثورية معينة ثابتة مقررة ضد الامبراطورية الرومانية لإخراجها من أراضي اليهودية بالقوة؟

الحاكم بيلاطس: نعم. ان التقرير الذي وصلني مؤخراً عن نشاطه السياسي من جاسوسنا يهوذا الاسخريوطي، أحد تلاميذه الاثني عشر، والذي كان ولم يزل يرافقه في حله وترحاله ويسجل عليه حركاته وكلماته وأفعاله وأقواله ويخبرنا بها، ان هذا الخادم الصادق الأمين للامبراطورية اخبرني بهذا اليوم، أنه بينما كان سائراً عند أبواب أورشليم التفت الى تلاميذه الاثني عشر وقال لهم بلهجة الآمر القائد الفاتح ما معناه بالحرف الواحد: «متى جلس ابن الانسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون اسباط اسرائيل الاثني عشر[1]». وفيه صراحة كافية عن نواياه ومراميه وأفكاره في الجلوس على كرسي داود جده الأعلى، وتوزيع كراسي الاسباط على تلاميذه فيصبحون كلهم على زعمه بكل سهولة وبطرفة عين، حكاماً على يهودا جميعها. وفوق ذلك، لقد وصلت إغوآته للناس وللدهماء لدرجة انه لما دخل اورشليم فرش له الجمهور ثيابهم في الطريق وكانوا يصرخون قائلين: «اوصنا لابن داود مبارك الآتي باسم الرب ملك اسرائيل. مباركة مملكة ابينا داود الآتية باسم الرب. اوصنا في الاعالي[2]». وهذه التقارير كلها تؤيد تماما ما كان ادعاه الرئيس قيافا عن ادعائه بالملوكية على اسباط يهوذا الاثني عشر وتحريضه الناس سراً على استعادة ملوكيتهم القديمة وتذكيرهم بكرسي داود الآتية باسم الرب وبملوكية اسرائيل. كما وان التقارير المماثلة عن نشاطه السياسي كثيرة، ولو كان نشاطه منحصراً في الامور الدينية وحدها لشجعناه عليها وهي في مصلحتنا، الا انه قد يتدخل في الامور السياسية ويتطلع الى ملوكية اسرائيل والى القعود على كرسي أجداده القدامى باعتبار انه الوارث الشرعي للعرش اليهودي، وهذا مما يزعجنا ويتنافى مع مصلحة امبراطوريتنا الرومانية.

---

(1) 19/28 متى

(2) 21/9 متى و11/10 مرقس و12/13 يوحنا.

الحاكم هيرودس: ألا يفكر الأمير الحاكم ان لبيان الكراسي معنى دينيّاً آخر غير ما هو ظاهر منه، لا نفهمه نحن؟ وربما كان القصد من الجلوس على الكراسي المجيدة هو المقام المحمود عند إلهه على زعمه، أو انه الجلوس على مائدته في ملكوته، وادانة اسباط اسرائيل الاثني عشر يوم الدينونة[1]. ولذلك أفلا يجب التريث في الامر حتى نأخذ تفصيلات اكثر عن هذا البيان الخطير، منه أو من غيره؟ وهو الآن في اورشليم وفي متناول ايدينا في كل وقت وزمان!

الحاكم بيلاطس: بالنظر للتقارير التي وصلتني عنه، فهو يفسد الأمة ويمنع اعطاء الجزية لقيصر ويدعي انه مسيح وملك، لم يترك حاجة للتريث اكثر من هذا، فلا بد من النزول عند رغبات قيافا الرئيس الديني، وإلقاء القبض عليه وحذفه من الوجود بأقرب وقت ممكن.

الحاكم هيرودس: فإذا كان ولا بد من حذفه من الوجود، ولما كنا قد قتلنا «ثوداس» المدعي عن نفسه بأنه من «روح الاله[2]» وقتلنا «النبي زكريا بن برخيا» بين المذبح وقدس الأقداس[3]، وقتلنا «يهوذا الجليلي» بعد فتنته الدينية الجامحة[4]، وقتلنا «يوحنا المعمدان» بشكل مفجع قبل أيام معدودات[5]، وقد وقع هذا القتل والتقتيل خلال هذه السنوات الاخيرة على مرأى ومسمع من الناس، وان قتل الزعماء والانبياء ورجال الدين قد يولد انعكاساً وانتكاساً ونفرة وتذمراً بين الجماهير الدينية والوطنية نحن في غنى عنها وقد يصعب علينا تلافيها. ومن جهة أخرى لما كان الزمان قد تبدل والأمة انتبهت، فمن واجباتنا الادارية والسياسية إزالة وجود أمثال هؤلاء الشبان الوطنيين المتحمسين لأوطانهم، المستترين خداعاً ومكراً بستار الدين، قبل أن يستفحل أمرهم ويلتف الناس من حولهم، لتأمين سلامة المحمية، فمن الواجب والحالة هذه الايعاز الى الهيئات الدينية اليهودية، وعلى رأسهم قيافا، وهو بجانبنا ولا يحيد عن أوامرنا، ومن الممكن إعطاؤه بعض الشيء من المال، لإلقاء القبض على يسوع الناصري المدعي بكرسي داود جده الأعلى والمعتبر نفسه الوارث الشرعي لعرش اليهودية، على أن ينفذ المجمع الديني المذكور حكم القتل والصلب من قبله مباشرة دون مراجعتنا ودون أن يكون لنا دخل فيه، وعلى ان نتظاهر نحن كمخالفين، أو على الاقل محايدين أو ممانعين في قتله على قدر ما تتحمل المخالفة والممانعة، ونتظاهر أيضاً بلزوم اطلاق سبيله والعفو عنه، على ان لا يفلت رأس الحبل من أيدينا، وبذلك يرتفع اسمه وجسمه من الوجود، ونكون نحن بمنجى عن كل لائمة، من الشعب المتدين!

الحاكم بيلاطس: خطة «يهودية» محكمة، وفكرة حسنة وسياسة مصيبة. يصفق بيده، فيدخل الخادم، يحضر قيافا رئيس الكهان!

الخادم: تأمر!

---

(1) 22/29 لوقا
(2) 5/36 أعمال
(3) 23/35 متى
(4) 5/37 أعمال
(5) 9/9 لوقا

بين الحاكم بيلاطس وقيافا رئيس الكهان

الحاكم بيلاطس: لقد ثبت عندي وتحقق ما ذكرته لي عن نشاط يسوع الناصري المتجول في القرى ورؤوس الجبال وسواحل البحر وبين الناصرة والجليل وأحياناً في المدن والقرى، وعن ادعائه بانه ابن الله وحده، وأنه جاء بقواعد دينية جديدة تخالف الدين اليهودي المحترم، وأحكام التوراة المقدسة، وعلاوة على ذلك انه قد يتعرض بلسانه وخطبه في المجتمعات وفي الهيكل وفي كل مكان على الهيئات الدينية المبجلة، ويتجاوز على كرامتهم لدرجة انه قد يصفهم بأنهم الحيات أولاد الافاعي[1] تحقيراً لهم، وأمثاله من الكلمات القارصة البذيئة وغير اللائقة بمقامهم وبمركزهم الديني الممتاز الموقر. فلا بد والحالة هذه من وضع حد لنشاطه ومدعياته، وإنهاء أعماله السحرية التي يقوم بها لاغراء الناس، المخالفة للدين اليهودي، الواجب التوقير والاحترام.

الرئيس قيافا: زد على ذلك ايها الأمير الجليل، انه كما اخبرتكم سابقاً يفسد الأمة، ويمنع ان تعطى جزية لقيصر. ويدّعي انه مسيح وملك[2]. وهذا مما لا نرضاه نحن أبداً، فليس لنا ملك إلا قيصر[3]؟!

الحاكم بيلاطس: ان ما يهم قيصر ويهم الامبراطورية الرومانية ويهمنا جميعاً بالدرجة الاولى صيانة موقع رجال الدين الممتاز من التعرّض والمحافظة على القواعد الدينية المحترمة. ولما كان يسوع الناصري قد جاء بقواعد دينية جديدة تخالف أحكام التوراة المقدسة وتجاوز على كرامة الرؤساء وتعرض للكهان وللفريسيين والصدوقيين والكتبة ورؤساء الهيئات والفرق الدينية الجزيلة التوقير والاحترام، وعلاوة على ذلك رماهم بالكذب والتزوير ووصمهم بالرياء والنفاق وأوقع الخلاف بين الطوائف الدينية وجعل الناس شيعاً من مصدق بمعجزاته ومكذب بمدعياته، مما استوجب القلق في نفوس الشعب والاضطراب في المحمية الآمنة المطمئنة، مما لا يحسن السكوت عنه، ومما لا نرضاه أبداً. فبالنظر للقوانين المرعية، فان من صلاحيتكم ايها الرئيس الجليل مطاردة هذا الشخص المدعي انه ابن الله وانه ابن الانسان وانه المسيح المنتظر وانه ملك اليهود. وان اقتضى الامر فان من صلاحيتكم إلقاء القبض عليه ومحاكمته بحضور المجمع الديني الجزيل التوقير والاحترام ثم الحكم عليه وصلبه حتى الموت. وقد أمرنا كاتبنا ان يضع الجند الامبراطوري تحت أمركم وان يقدم لكم المعونة وما يلزم من النقود لصرفها عن يدكم وبمعرفتكم على تنقلات الشهود وبالطريقة التي ترونها مناسبة وضرورية لإلقاء القبض عليه ومحاكمته، على أن يجري قتله وصلبه وإعدامه من قبلكم مباشرة وتحت أمركم ونظارتكم من دون مراجعتنا، وذلك لتخليص المحمية والشعب اليهودي النجيب من نشاطه ومدعياته ومن اغراءاته وتهجماته على رؤساء الدين الاجلاء الكرام، ومن أعماله السحرية التي قد تبهر الناس المغفلين والشيوخ والعجائز والارامل والاولاد والصبيان.

الرئيس قيافا: سيكون مثلما ترغبون وكما تريدون وتأمرون ايها الأمير العظيم العادل الجليل الجزيل التوقير والاحترام!

---

(1) 23/32 متى
(2) 23/1 لوقا
(3) 19/16 يوحنا

الفصل الثاني **شهادات المتآمرين**

يجتمع شيوخ الشعب والكتبة والفريسيون وأعضاء المجمع الديني (السنهدريم) في دار رئيس الكهنة قيافا ويستعرضون اقوال ومدعيات الشخص المدعو يسوع الناصري في الهيكل والمجتمعات ويستمعون الى شهادة الشهود ويتشاورون في كيفية مسكه وقتله «وتشاوروا ليقتلوه[1]».

الرئيس قيافا: والآن ايها الشيوخ الاجلاء لنستمع الى شهادة الشهود. وهذا الشاهد مردخاي من خيرة الرجال الصادقين.

مردخاي: أنا رأيت يسوع الناصري يخطب في الجموع وكان يتعرض في أقواله لرجال الدين ويقول: ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون، ويل لكم أيها القادة العميان وأيها الجهّال والعميان انكم مشحونون رياء وإثماً ونفاقاً. فأنتم تشهدون على انفسكم انكم قتلة الانبياء. وكان يسوع يحتقر الكهنة ايضاً ويقول لهم، ان العشارين والزواني يسبقونكم الى ملكوت الله. ويقول لهم ايضاً أيتها الحيات بنات الأفاعي ها أنا أرسل إليكم انبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض الى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح فان هذا يأتي على هذا الجيل[2]. فان هذه الكلمات القارصة سمعتها منه بأذني. علاوة على ذلك كله، كان يدعي ويقول: اني انقض هذا الهيكل المصنوع بالأيادي وفي ثلاثة أيام ابني آخر غير مصنوع بأيادي[3].

الرئيس قيافا: يا له من متعرض على رجال الدين. وفوق ذلك يدعي انه هو الذي يرسل الانبياء والحكماء، ويدعي انه ينقض الهيكل ويبنيه في ثلاثة أيام. فهو يستحق القتل بهذا التجديف. ولنستمع الآن الى شهادة عزرا فهو أيضاً بشهادته من الصادقين.

عزرا: وأنا رأيت بعيني يسوع الناصري لما اقترب من اورشليم نظر اليها وقال «انه ستأتي ايام ويحيط بك اعداؤك بمترسة ويحدّقون بك ويحاصرونك من كل جهة ويهدمونك وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجراً على حجر (43 ـ 19 لوقا). ورأيته وهو يخطب في الهيكل أمام جمع محتشد ويقول: «يا أورشليم! يا أورشليم! يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها. كم مرة اردت أن اجمع أولادك كما تجمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. هوذا بيتكم يترك لكم خرابا[4] وان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى

---

(1) 11/53 يوحنا
(2) 23/36 متى
(3) 26/61 متى
(4) 23/37 متى

لأمة تعطي أثماره[1]». وسمعته أيضاً يقول لتلاميذه متوعداً: «الحق أقول لكم انه لا يترك ههنا حجر على حجر لا ينقض، واذا سمعتم بحروب فلا ترتاعوا لأنه ستقوم امة على امة ومملكة على مملكة[2]. وأما ذلك اليوم فلا يعلم به احد الا ابي وحده. ومتى رأيتم اورشليم محاطة بجيوش فحينئذ اعلموا انه قد اقترب خرابها[3]. وسيكون في تلك الأيام ضيق لم يكن مثله منذ ابتداء الخليقة الى الآن. ولن يكن مثله. ولا يمضي هذا الجيل حتى يكون سخط على هذا الشعب ويقعون تحت السيف ويسبون الى جميع الأمم وتكون اورشليم مدوسة من الأمم[4]. وكلمات أخرى كثيرة مثلها.

الرئيس قيافا: لقد سمعتم انه جعل إله اسرائيل أباه وحده وقد تنبأ بهلاك هذا الشعب وتنبأ بخراب بيوت الشعب وبوقوعه تحت السيف وسبيه وسقوط اورشليم بيد الاعداء، وأنها ستكون مدوسة من الأمم، وقوله لا يمضي هذا الجيل حتى يكون سخط على هذا الشعب ويسبون الى جميع الأمم، فمن الواجب صلبه جزاء تجديفه وتنبؤاته هذه. وإن كنتم توافقون لنستمع أيضاً الى شهادة الياهو فهو من الصلحاء.

الياهو: أنا سمعت يسوع الناصري يقول لتلاميذه: «متى جلس ابن الانسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون اسباط اسرائيل الاثني عشر[5]». وفهمت منه انه يدّعي الملوكية على اليهود. وأما قوله «اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» فقد قالها اضطراراً لئلا تكون حجة عليه ويسلم الى الوالي.

الرئيس قيافا: سبق أن أخبرت الحاكم العام بيلاطس عن ادعائه الملوكية على اليهود وتوزيعه كراسي الاسباط على تلاميذه، وذلك لإثبات براءتنا من مدعياته لئلا يصيب الأمة سوء من ورائه. وطلبت من الحاكم أن تكون كرسي ملوكيته أعواد الصليب. وهذا يهوذا من أصدق الشهود تفضلوا واستمعوا لشهادته.

يهوذا: أنا سمعت يسوع الناصري يقول لتلاميذه: «متى جاء ابن الانسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذ يجلس على كرسي مجده ويقول للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي ابي رثوا الملكوت المعد لكم». ثم يقول للذين على اليسار: «اذهبوا عني يا ملاعين الى النار الابدية المعدة لابليس ولكم[6]». وسمعته يخاطب الجمهور ويقول لهم: أنتم جعلتم الهيكل مغارة للصوص، ورأيته يقلب موائد الصيارفة وأقفاص باعة الحمام عند مدخل الهيكل. وسمعته أيضاً يخطب في الهيكل ويقول: «أنا نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة». وسمعته يضلل الناس ويدّعي انه

(1) 21/43 متى
(2) 24/7 متى
(3) 21/20 لوقا
(4) 21/24 لوقا
(5) 19/28 متى
(6) 25/31 متى

يحيي الموتى ويبرىء الأعمى والأصم والأخرس والأبرص والمفلوج، ورأيته بقوة بعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين من المصروعين ويقول لروح الأخرس والأصم: أنا آمرك اخرج منه ولا تدخل أيضاً[1]. وسمعته يقول: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية، فانه لم يرسل الله ابنه الى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم. من آمن به فلا يدان ومن لم يؤمن به فقد دين لانه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد»[2].

الرئيس قيافا: يظهر لنا من قوله ابن الانسان انه يقصد به هو نفسه وانه هو الذي يرسل الناس الى عالم الملكوت والى النار الابدية ويدّعي انه نور العالم. وقد يخيل للناس انه يحيي الموتى وبقوة سحره يبرىء الأعمى والمفلوج. وبقوة بعلزبول رئيس الشياطين[3] يخرج الشياطين. ويظهر لنا أيضاً انه قد اطلع على اقوال النبي ناثان عن لسان الرب للملك داود حول بناء ولده سليمان بيتاً للرب وعلى ان الذي سيبني البيت للرب سيكون ابن الله والله ابوه (9 ـ 22 أخبار). فقد جعل يسوع نفسه عوضاً من سليمان، ابن الله الوحيد والله ابوه. كما اعتبر نفسه مخلص العالم وجعل الذي يؤمن به لا يدان. فيا لها من مفتريات ويا لها من مدعيات كاذبة بل يا له من تجديف يستحق صاحبه القتل والصلب. وأخيراً أيها السادة لنستمع الى شهادة شمشون فهو ثقة عندنا.

شمشون: وأنا سمعت يسوع الناصري يقول في صلواته: «والآن مجدي أنت أيها الآب بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم». وكان يقول: «قبل ان يكون ابراهيم انا كائن». ويقول في تضرعاته: «لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم»[4]. «وكما انك أنت فيّ أيها الآب وأنا فيك ليكن تلاميذي أيضاً واحداً فينا، فأكون أنا فيهم ونكون مكملين الى واحد». وسمعته يقول الى تلاميذه «صدقوني أنا والآب واحد»[5]. ثم ادعى انه ابن الله[6].

الرئيس قيافا: كيف يكون كائناً قبل أبينا ابراهيم وكيف يكون هو والآب واحد وكيف يكون ابن الله؟ كل هذا يرمي الى ما يسمونه وحدة الوجود الروحية والى الادعاء بالألوهية والى الاشتراك مع الله، وكله كفر وتجديف يستوجب لقائله ولمدعيه الموت. فيجب والحالة هذه إلقاء القبض على هذا الشخص المدعو يسوع الناصري دون ابطاء وتخليص الناس من تضليلاته ومدعياته الكاذبة، فقد أصبح تجديفه لا يحتمل وتعرضاته لنا لا تطاق. ولنكتفِ الآن أيها الشيوخ الاجلاء بهؤلاء الشهود ونصرف الباقين لأن شهادتهم كلها مماثلة.

احد الشيوخ: أنا اعلم ان يهوذا الاسخريوطي وهو واحد من الاثني عشر من تلاميذه هو أحد مستخدمي

(1) 9/25 مرقس
(2) 16 و3/17 يوحنا
(3) 12/24 متى
(4) 17/25 يوحنا
(5) 10/30 يوحنا
(6) 10/37 يوحنا

دائرة الاستخبارات السرية الرومانية، وقد اندس بين تلاميذه ليكون على صلة وثيقة به، وهو يطمع بالمال ويبغي الكسب حتى من الجاسوسية أو أي جهة كانت، فان وافقتم على إعطائه شيئاً من المال فأنا مستعد على مكالمته وتحريك اطماعه. فهو الذي يدلنا على مكانه بل هو الذي يلقي القبض عليه ويسلمه لنا حياً ومكبلاً بالأصفاد فنحاكمه ونقتله ونصلبه جزاء ما جنته يداه.

الرئيس قيافا: أنا أدفع ثلاثين من الفضة من أموال خزينة الكنيس لمن يلقي القبض عليه ويسلمه لنا حياً.

الشيوخ كافة وبعد ان تشاوروا: نصادق على صرف المبلغ من خزينة الكنيس في سبيل صلب يسوع الناصري المضل الجاحد المجدف والمتعرض للكهنة والكتبة والمدعي الملوكية على اسرائيل، والذي اعتبر نفسه ابن الله وواحداً مع الله وأوقع الخلاف بين الناس وأقلق راحة الحكام والأمراء «وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه[1]».

(1) 26/4 متى

الفصل الثالث في جبل الزيتون

السيد المسيح «لتلاميذه»: الحق أقول لكم ان واحداً منكم يسلمني هذه الليلة[1].

السيد المسيح: الذي يغمس يده معي في جفنة الطعام وأنا أعطيه اللقمة هو الذي يسلمني «أعطي اللقمة الى يهوذا الاسخريوطي».

يهوذا الاسخريوطي: «بعد أن أكل اللقمة ودخله الشيطان» هل أنا هو يا سيدي؟

السيد المسيح: انت قلت. فما انت ستعمله اعمله بأكثر سرعة[2]. يبهت التلاميذ ثم يتقدمون الى الطعام بتردد ووجوم، وفيما هم يأكلون الفصح أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال: «خذوا كلوا. هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم. اصنعوا هذا الذكري». وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً: «اشربوا منها كلكم الآن. هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا[3]. قوموا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة». وأما الاسخريوطي فخرج للوقت، فخرّ السيد المسيح على وجهه الى الارض قائلاً:

«يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا. بل كما تريد أنت».

وفي الصلاة الثانية قال:

«يا أبتاه ان لم يكن ان تعبر عني هذه الكأس الا ان اشربها فلتكن مشيئتك».

وفي الصلاة الثالثة قال:

«يا أبتاه ان شئت ان تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا ارادتي بل ارادتك». وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الارض[4]، فابتلّت الارض من عرقه الزكي. وبعد ان أكمل صلاته رفع عينيه الى السماء وقال «أيها الآب قد أتت الساعة. مجّد ابنك ليمجّدك ابنك أيضاً. وهذه هي الحياة الأبدية. ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته»[5].

يدخل الجند والخدم من باب البستان التي فيها السيد المسيح وتلاميذه بمشاعل ومصابيح وقرقعة سلاح.

الاسخريوطي من بعيد «للجند والخدم»: ان الذي أقبّله هو يسوع. امسكوه وأوثقوه بالأصفاد والأغلال.

السيد المسيح للاسخريوطي: يا يهوذا أبقبلة تسلم ابن الانسان؟

---

(1) 26/20 متى

(2) 13/28 يوحنا

(3) 14/20 مرقس

(4) 22/45 لوقا

(5) 17/4 يوحنا

الجند والخدم للسيد المسيح: ان هذا ليس وقت عتاب!. فتقدموا وألقوا أياديهم عليه وأمسكوه!

السيد المسيح للجند والخدم: من تطلبون؟

الجند والخدم للسيد المسيح: يسوع الناصري!

السيد المسيح للجند والخدم: إني أنا هو! فلا تتعرضوا للباقين وان كنتم تطلبونني دعوا هؤلاء يذهبون.

الجند والخدم للسيد المسيح: مد يديك!

السيد المسيح للجند والخدم: كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصي لتمسكوني اذ كنت معكم في كل يوم في الهيكل لم تمدوا علي الأيادي ولكن هذه ساعتكم[1].

[في دار قيافا رئيس الكهنة حيث اجتمع الكتبة والشيوخ وأعضاء المجمع الديني].

الرئيس قيافا يخاطب السيد المسيح: من هم تلاميذك وما هي تعاليمك؟

السيد المسيح: أنا كلمت العالم علانية. أنا علّمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود دائماً. ولم اتكلم بشيء في الخفاء. لماذا تسألني أنا. اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم: هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا[2].

أحد الخدم (يلطم السيد المسيح على وجهه): أهكذا تجاوب رئيس الكهنة[3].

السيد المسيح (يخاطب الخادم): ان كنت قد تكلمت ردياً فاشهد على الرديء، وإن حقاً فلماذا تضربني!

أحد الشيوخ: ان كنت انت المسيح فقل لنا جهراً، فنحن بانتظاره. هل انت المسيح ابن المبارك؟

السيد المسيح: ان قلت لكم لا تصدقوني. وان سألتكم لا تجيبوني. ولا تطلقوني. نعم. أنا هو وسوف تبصرون ابن الانسان جالساً عن يمين قوة الله، وآتياً على سحاب السماء[4].

الرئيس قيافا: أفأنت ابن الله؟

السيد المسيح: انتم تقولون اني أنا هو!

الرئيس قيافا (يمزق ثيابه): ها قد جدّف، ما حاجتنا بعد الى شهود، قد سمعتم التجاديف[5]. الحق خير لنا أن يموت انسان واحد في سبيل سلامتنا وسلامة الشعب وسلامة حكومتنا العادلة المجيدة المحبوبة ولا تهلك الأمة كلها[6] ولا يمسنا من ورائه سوء. ولم يبق من حاجة بعد الى استماع الشهود لأننا سمعنا تجديفه من فمه. فما رأيكم ايها الشيوخ الكرام وماذا ترون[7]؟

---

(1) 26/55 متى
(2) 18/21 يوحنا
(3) 18/22 يوحنا
(4) 14/62 مرقس
(5) 14/63 مرقس
(6) 11/51 يوحنا
(7) 26/66 متى

الجميع بلسان واحد: انه يستحق الموت[1]!

الخدم (للسيد المسيح) يبصقون عليه ويغطون وجهه ويلكمونه ويلطمونه ويجلدونه ويقولون له مستهزئين: تنبأ لنا أيها المسيح من هو الذي ضربك[2].

ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه[3].

قيافا (للخدم): أرسلوه موثقاً الى دار الولاية عند الأمير بيلاطس البنطي الوالي لمحاكمته في دار الإمارة أيضاً ولصلبه هناك.

(1) 26/67 متى
(2) 26/68 متى
(3) 27/1 متى

الفصل الرابع المحاكمة

[يجتمع كل جمهور اليهود ويجيئون بابن الانسان الى ديوان بلاطس ويشتكون عليه[1]].

الحاكم بيلاطس «للجمهور المحتشد»: أي شكوى تقدمون ضد هذا الانسان؟

الجمهور: لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك.

بيلاطس: أيَّ شر عمل؟

الجمهور: إنّا وجدناه يفسد الأمة ويضل شعبنا ويمنع ان نعطي الجزية لقيصر قائلاً انه مسيح وملك[2].

بيلاطس: خذوه انتم واحكموا عليه حسب ناموسكم.

الجمهور: انه يستحق الصلب ولا يجوز لنا أن نقتل أحداً، وهذه أيام العيد خاصة، وانت بيدك الحكم الأخير.

بيلاطس [يدخل دار الولاية ويدعو يسوع المسيح لحضوره]: هل أنت ملك اليهود؟

السيد المسيح: أنت تقول.

بيلاطس: انظر كم يشهدون عليك وكم يشتكون منك!

لم يجب السيد المسيح ولو بكلمة واحدة حتى تعجّب الوالي جداً[3].

بيلاطس: أما تجيب بشيء؟

السيد المسيح: سكوت!

بيلاطس [يخرج من غرفته ويخاطب الجمهور]: أنا لا أجد علة في هذا الانسان!

الجمهور [يشددون صراخهم]: انه يهيج الشعب ويعلّم في كل يوم في انحاء المملكة بدءاً من الجليل الى هنا[4].

بيلاطس: اذن، نرسله الى غرفة هيرودس حاكم الجليل لمحاكمته هناك! اذهبوا معه!

هيرودس: هل انت ابن الله؟ هل انت ملك اليهود؟ ألا تسمع كم يشتكون عليك؟

السيد المسيح: لم يجب بشيء[5].

هيرودس [يكرر سؤاله بعنت]: ألم تجب بشيء؟

السيد المسيح: سكوت. (لأنه يعلم ان هيرودس هو الذي قتل يوحنا المعمدان وقدّم رأسه ثمناً الى الراقصة هيروديا لذلك لم يجبه بشيء).

---

(1) 23/1 لوقا
(2) 23/2 لوقا
(3) 27/14 متى
(4) 23/5 لوقا
(5) 23/9 لوقا

هيرودس [يحتقره]: ألبسوه لباساً لامعاً ـ للاستهزاء به ـ وأعيدوه الى بيلاطس[1].

بيلاطس [للجمهور المحتشد رياء ونفاقا]: من تريدون ان اطلق لكم بمناسبة عيد الفصح، اللص باراباس أم يسوع الذي يدّعي انه المسيح؟

الجمهور [بتحريض من رؤساء الكهنة]: باراباس[2].

بيلاطس: وأي شر عمل يسوع؟ اني لا أجد فيه علة الموت!

الجمهور [يزداد صراخا]: اصلبه! اصلبه!

بيلاطس [للسيد السيح]: هل انت حقاً ملك اليهود؟

السيد المسيح: أمن ذاتك تقول هذا، أم آخرون قالوا لك عني؟

بيلاطس: ألعلي أنا يهودي! امتك ورؤساء الكهنة أسلموك الي. ماذا فعلت[3]؟

السيد المسيح: مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم الى اليهود، ولكن مملكتي ليست من هنا[4].

بيلاطس: أفأنت إذاً ملك!

السيد المسيح: انت تقول اني ملك، لهذا قد ولدت أنا، ولهذا قد أتيت الى العالم لأشهد الحق! كل من هو من الحق يسمع صوتي[5].

بيلاطس [يتظاهر أمام الجمع المحتشد بخلاف ما يبطن من رغبته في قتل السيد المسيح]: قد قدّمتم إليّ هذا الانسان كمن يفسد الشعب، وها أنا قد فحصته فلم أجد فيه علّة واحدة، ولا هيرودس أيضاً. ولكم عادة ان أطلق لكم واحداً في عيد الفصح أفتريدون أن أؤدبه وأطلقه؟

الجمهور [يصرخ]: خذه! خذه! اصلبه! اصلبه! وأطلق لنا باراباس[6].

بيلاطس [يظهر الحيرة والقلق والاضطراب كذباً وزوراً أمام الجمهور]: يا لها من معضلة! كيف أصلب ملككم!

رؤساء الكهنة: ليس لنا ملك إلا قيصر[7].

يرتعش بيلاطس خوفاً من اسم قيصر، فيأخذ يسوع الى داخل القصر ويضفر العسكر اكليلاً من شوك ويضعونه على رأسه ويلبسونه ثوب ارجوان ويقولون له السلام يا ملك اليهود! وكانوا يلطمونه ويستهزئون به! فخرج يسوع خارجاً وهو حامل إكليل الشوك وثوب الارجوان[8].

---

(1) 23/10 لوقا
(2) 27/22 متى
(3) 18/35 يوحنا
(4) 18/37 يوحنا
(5) 18/38 يوحنا
(6) 23/16 لوقا
(7) 19/16 يوحنا
(8) 19/4 يوحنا

بيلاطس [للجمهور المحتشد]: ها أنا اخرجه اليكم. فاني لست اجد فيه ما يستوجب صلبه. هذه ثالثة أقولها لكم أي شر عمل هذا[1].

رؤساء الكهنة والجمهور يصرخون: انه يدعي الملوكية على اليهود!

بيلاطس: ان لم يكن ملكاً فلعله المسيح المنتظر!

قيافا: ان المسيا المنتظر عندنا هو النبي المرسل والملك الجبار والقائد العام من نسل الملك داود المشمول بعناية الإله، يمسحه الشعب بالزيت المقدس فيصبح مسيحاً وملكاً على اليهود ولا علاقة له بالروحيات مطلقاً. فيكون كشاؤول وداؤود وسليمان له الملك والمجد على الأمم وحكمه أبدي على جميع الأقوام وقد حل عليه روح الله وتكون شريعته شريعة موسى وسلطانه سلطان أبدي لا يزول وجميع الأمم له يسجدون وملوكته ما لا ينقرض (83 ـ 7 دانيال). ولما كانت هذه الصفات والمزايا لا توجد في يسوع الناصري فهو ليس المسيا المنتظر عندنا.

بيلاطس: إذاً، ان لم تقبلوه ملكاً على اليهود ولم تعتقدوا انه المسيح المنتظر، خذوه انتم واصلبوه حسب ناموسكم[2].

الجمهور المحتشد: لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أن يموت هذا الشخص المسمى يسوع الناصري لأنه جعل نفسه ابن الله[3] وانه مرسل من عند الله وانه ملك اليهود ومنع ان تعطى جزية لقيصر ولا يجوز لنا أن نقتل أحداً في أيام العيد، خذه أنت واصلبه!

بيلاطس [يخاطب السيد المسيح]: من أين أنت؟ أما تكلمني بصراحة؟ ألست تعلم ان لي سلطاناً أن أصلبك وسلطاناً أن أطلقك؟!

السيد المسيح: ليس لك علي سلطان البتّة لو لم تكن قد أعطيت من السماء[4].

بيلاطس [متعجباً من هذه الشجاعة ومن هذا الجواب الجريء، فيغسل أمام الجمهور يديه بالماء رياء ونفاقاً] ويقول: اني بريء من دم هذا البار[5].

شيوخ الشعب والجمهور وعلى رأسهم قيافا يصرخون: اصلبه! اصلبه! دمه علينا وعلى أولادنا[6].

بيلاطس [متردداً]: ان القوانين المحلية لا تساعد على صلبه ما لم يكن قد اقترف جرماً مشهوداً. فأنا لا أصلبه بمجرد الادعاء. لذلك خذوه أنتم واصلبوه تبعاً لديانتكم وشريعتكم وناموسكم[7]، وليكن دمه عليكم وعلى أولادكم وأنسالكم وذرياتكم جيلاً بعد جيل ونسلاً بعد نسل وظهراً بعد ظهر وبطناً بعد بطن الى أبد الآبدين. وها انا قد غسلت يديّ أمامكم من دم هذا البار وليس لي علاقة معه البتة!

قيافا [ينهض ويخاطب بيلاطس أمام الجمهور المحتشد بصوت جهوري وبلهجة الغاضب المتوعّد وقد نفد

(1) 23/22 لوقا
(2) 19/7 يوحنا
(3) 19/8 يوحنا
(4) 19/10 يوحنا
(5) 27/24 متى
(6) 27/25 متى
(7) 19/7 يوحنا

صبره من هذه المماطلة]: ان المجمع الديني (السنهدريم) قرّر إعدام هذا الشخص المدعو يسوع الناصري، وان تنفيذ القرار بموجب القواعد المحلية والقوانين المرعية يعود إليك مباشرة بصفتك الحاكم العامّ في المحمية، ونراك متردداً في تنفيذ الطلب، فإذا أطلقت هذا فلست محباً لقيصر وكل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر[1]، ويكون قد عصى على قيصر. وأما نحن فليس لنا ملك إلا قيصر[2]. اصلبه، دمه علينا وعلى أولادنا ولا علاقة لك بدمه البتة.

بيلاطس [يهتز خوفاً ويرتعش هلعاً وقرفاً من هذا التهديد المفاجىء وغير المألوف من قيافا]: إذاً، لقد أصبحت المسألة سياسية أكثر مما هي دينية، وأصبح من الضروري صلبه وحذفه من الوجود. ونادى بأعلى صوته: خذوه! واجلدوه! واصلبوه في جلجثة! «حينئذ اسلمه اليهم ليصلب» (16 ـ 19 يوحنا).

[يأخذ حراس الوالي يسوع الى دار الولاية ويجمع كل الكتيبة ثم يعرّونه ويلبسونه رداء قرمزياً، ويضفرون له اكليلاً من شوك ويضعونه على رأسه وقصبة في يمينه، وكانوا يجثون أمامه، ويستهزئون به قائلين: السلام يا ملك اليهود! وبصقوا عليه وأخذوا القصبة من يده وضربوه على رأسه فسال دمه على الارض ثم نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به الى الموضع المسمى جلجثة أو الجمجمة للصلب[3]].

فكان الذي أرسله الله الى الناس نوراً وهدى، وبشيراً ونذيراً، موثقاً بين يدي شرذمة من الأفّاكين المرائين المنافقين. وكان نور العالم ومخلص العالم وحامل خطيئة العالم ومانح الحياة الأبدية للعالم، المشمول بالعناية الربّانية، حاملاً صليبه على عنقه، ومسوقاً للصلب الى موقع جلجثة! وكان اليهود من حوله يضحكون وبه يستهزئون، ومنه يسخرون، وله يتهامزون، وعنه يتلامزون، وإليه يتغامزون. وفي الوقت الذي كان يرى بأم عينيه هذا الضحك والهزء والسخرية والهمز واللمز والغمز، وهو في هذه الساعة الحرجة الرهيبة، يرفع رأسه الى السماء ويقول: «يا أبتاه! اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون[4]». وعلّق فوق رأس المصلوب عنوانه المرسل من بيلاطس، وكان مكتوباً «يسوع الناصري ملك اليهود» (38 ـ 33 لوقا). ثم جاء واحد وطعن المعلّق في جنبه بحربة، وللوقت خرج دم وماء، وسال الدم والماء على الصليب ومنه فوق الارض، فارتوت الارض من ذلك الينبوع الزكي الطاهر[5].

---

(1) 19/12 يوحنا
(2) 19/16 يوحنا
(3) 27/27 متى
(4) 24/33 لوقا
(5) 19/34 يوحنا

الفصل الخامس بين الحواريين

الراهب بطرس: هنا، في هذا المكان نصب الصليب المقدس، وهنا فدى ابن الانسان السيد المسيح نفسه لخلاص العالم. وهنا فاضت روحه المقدّسة، وهنا توفاه الله. وهنا سكبت الأم العذراء دموعها السخية على ابن الانسان ولدها، وهنا سفك الدم الزكي الطاهر فارتوت هذه الارض من ذلك الينبوع المقدس. ومن هنا رفعه الله في اليوم الثالث الى جواره. ومن هنا انتشرت تلك الذرات المباركة من ابن الانسان يمنة ويسرة، ولم يزل توجد هنا وهناك، شيئاً من تلك الذرات والذريرات المقدسة لا محالة، فوق اديم هذه الارض، بل وفوق تراث فلسطين كلها، تستغيث بارئها وتستصرخ ربها وتستعين إلهها من هذا الظلم الفادح.

الراهب فيلبس: هل من العدل الالهي أن يذهب الدم الزكي عبثاً وهدراً بأيدي هؤلاء السفاكين الآثمين؟ وهل من العدل الالهي أن يطأ هؤلاء المجرمون بأقدامهم الملوثة ونعالهم القذرة ذلك الدم الطاهر المقدس المسفوح فوق اديم فلسطين ظلما وعدوانا وهو لم يزل يستصرخ ربّه ويستنجد إلهه اللحظة تلو اللحظة لإنزال العقاب بهؤلاء الظالمين الغدّارين المنافقين!

الراهب بطرس: لا تستعجل يا قداسة الراهب! ألا تتذكر قول سيّدنا يسوع المسيح وهو يخاطب اليهود في قوله «ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل اثماره[1]».

الراهب فيلبس: أتذكر ذلك، وأتذكر أيضاً قوله «تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة»[2]، وقوله ايضاً «ومتى رأيتم اورشليم محاطة بجيوش فحينئذ اعلموا انه قد اقترب خرابها»[3]، وقوله أيضاً «ويكون سخط على هذا الشعب ويقعون بفم السيف ويسبون الى جميع الأمم وتكون اورشليم مدوسة من الأمم»[4]، وقوله أيضاً «الحق أقول لكم لا يمضي من الجيل حتى يكون هذا كله»[5]، وتنبؤات أخرى كثيرة مثلها.

الراهب بطرس: يقول الناس ان أمد الله أربعون سنة. ويقول السيد المسيح «لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله». ويقول: «هوذا بيتكم يترك لكم خرابا» (37 ـ 23 متى). فلننتظر غضب الله وغضب السيد المسيح على هذه الأمة الآثمة المتمردة الكافرة بنعمة الله هذه المدة، فلا بد وأن ينصب خلالها على رأس هذا الجيل بالذات وبالنفس سخط عظيم وغضب إلهي لم تر أمة من الأمم أمثاله ويسبون الى جميع الأمم في شتات الأرض وتكون بيوتهم في فلسطين خرباً الى أبد الآبدين. كما تنبأ به سيدنا يسوع المسيح.

---

(1) 21/43 متى
(2) 24/7 متى
(3) 21/20 لوقا
(4) 21/24 لوقا
(5) 24/34 متى

الفصل السادس أورشليم بعد 39 سنة

أحد التلاميذ: لقد صدق سيدنا يسوع المسيح بأقواله وتنبؤاته كافة. ففي عام 71 بعد الميلاد المصادف عام أربعمائة وتسعين بعد سبي بابل، ولم يكن قد مضى أكثر من 39 سنة على الدم الزكي المسفوح ظلماً وعدواناً، حتى ظهر غضب الله على اليهود، فرفع يده عنهم، وتجلى سخطه عليهم، فعجّل لهم العذاب وعلى أولادهم وذراريهم.

التلميذ الثاني: حقاً لقد صدق سيدنا يسوع المسيح وصحّت تنبؤاته حرفاً حرفاً وكلمة كلمة وبتعيين المدة والزمان والمكان. فقد جاءهم في التاريخ المذكور تيطس أو تيتوس ابن الامبراطور اسبازيانوس القائد الروماني الجبار ومعه حملة مؤلفة من ثلاثين ألف مقاتل، من ذوي القمصان القصيرة، مجهّزين بالسيوف والفؤس ولابسين زرد الحديد، وحاصروا اورشليم خمسة أشهر. وبعد ان دكّوا أسوارها دكّاً دخلوها عنوة واقتداراً وأحرقوا بيوتها وهيكلها وقتلوا رجالها ونساءها وشيبها وشبانها وأولادها وأطفالها وبقروا بطون الحوامل وفتكوا بالأجنة التي في الأرحام فامتلأت شوارع اورشليم بالجثث والأشلاء وسقطت الدور المحترقة على رؤوس الذين اختبأوا تحتها تخلصاً من السيف فدفنوا أحياء. فكان هذا تحقيقاً لتنبؤات سيدنا يسوع المسيح في قوله «ومتى رأيتم اورشليم محاطة بجيوش فحينئذ اعلموا انه قد اقترب خرابها». وقوله أيضاً يخاطب اورشليم «فانه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة ويهدمونك وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجراً على حجر»[1]. وقوله أيضاً «ولا يمضي هذا الجيل حتى يكون سخط على هذا الشعب ويقعون بفم السيف»[2]. وقوله يخاطب الكهنة والكتبة والرؤساء «الحق أقول لكم ان هذا كله يأتي على هذا الجيل»[3]. وبذلك صدقت أقوال سيدنا يسوع المسيح وتنبؤاته بكل صراحة وكلمة فكلمة وحتى في تعيين الوقت والزمان والمكان. وفي الحقيقة لقد نزل غضب الله على أرض اليهود وعلى اورشليم وعلى رؤوس ذلك الجيل المجرم قبل ان يمضي ـ ولعل قيافا كان حياً بينهم ـ ذلك الجيل الذي طلب من بيلاطس بعناد وإصرار أن «خذه! خذه! اصلبه! اصلبه! دمه علينا وعلى أولادنا!»[4]. فلقد تجلى سخط الله وغضبه على ذلك الجيل بالذات وبالنفس وعلى أولادهم ونسائهم وذراريهم باعترافهم وتعهداتهم وتصديقهم واقرارهم مع سبق الاصرار فوقعوا تحت غضب فم السيف كما قال سيدنا يسوع المسيح بفمه المبارك،

---

(1) 19/43 لوقا
(2) 21/24 لوقا
(3) 23/36 متى
(4) 27/25 متى

فيا لها من أقوال وتنبؤات صادقة لم يتنبأ أحد قبله بمثلها أبداً. ويا له من انتقام ربّاني تزلزلت له أركان اورشليم فاحترقت منه أركان الهيكل. الا ان اليهود كفروا بربهم فعبدوا البعل والبعليم والعجل وملكوم وقتلوا أنبياءهم زكريا، يوحنا المعمدان، السيد المسيح.. ظلماً وعدواناً. فكان كل نبي من أنبيائهم إما مضرجاً بدمائه وإما خائفاً يترقب ريب المنون.

التلميذ الأول: هل ان دم السيد المسيح يعادل دماء سكان اورشليم وحدهم!

التلميذ الثاني: فلننتظر غضب الله للمرة الثانية على من تبقى في أرض اليهودية من اليهود؟

الفصل السابع بعد قرن كامل

أحد النسّاك: أرأيت؟ لقد نزل غضب الله عام 132 للمرة الثانية على رؤوس اليهود، ليس هذه المرة على اورشليم وحدها بل على الشعب اليهودي بأجمعه، وعلى المدن والقرى اليهودية كافة. فكانت «أيام انتقام وسخط على هذا الشعب»[1]، كما قاله وتنبأ به سيدنا يسوع المسيح. فقد سلّط الله عليهم هذه المرة القائد الروماني بلوطس فدخل اراضي اليهودية بعد أن مضى على دم السيد المسيح المسفوح قرن كامل، فاكتسحها من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب وأشعل 50 مدينة و985 قرية وأراضي وبساتين لا تعد ولا تحصى، وأمعن باليهود ذبحاً وقتلاً وحرقاً وصلباً فأهلك منهم 580 ألف نسمة بين رجل وامرأة وصبي وطفل، ولم يترك منهم في أرض اليهودية باقية، وهرب من سلم من السيف فانتشروا في انحاء العالم تاركين املاكهم وبيوتهم وما ملكت ايمانهم وراءهم تنعي من اقتناها، فلم يقع أي نوع من السخط والغضب الربّاني كما وقع على رؤوس هذه الامة عدوة الله وعدوة العالم أجمع. وكان لما أجلاهم بلوطس عن أراضيهم استبدل اسم الأراضي اليهودية باسم فلسطين السورية كيلا يبقى لمن بقي منهم حياً أمل في العودة إليها. وظلّت جزءاً من الامبراطورية الرومانية حتى الفتح العربي. وبذلك تحقّقت نبوءة السيد المسيح مرة أخرى بأجلى مظاهرها وأوضح معانيها في قوله «أيام انتقام وسخط على هذا الشعب». فكان انتقاماً وسخطاً ربّانياً لم يسجل التاريخ له مثيلاً، وتحقّق قوله أيضاً «ويسبون الى جميع الأمم»[2]. وقد صدق سيدنا بأن لم يبق في العالم امة كبيرة أم صغيرة، ولم يبق في الارض مدينة كبيرة أم قرية صغيرة لم يكن لديها مشرّدون وسبايا من اليهود. وصدق أيضاً في كلامه «وتكون اورشليم مدوسة من الأمم»[3]. وفي الحقيقة لقد صارت اورشليم وأراضي اليهودية كافة مدوسة تحت أقدام الرومان! وصدق كذلك في كلامه بقوله «هوذا بيتكم يترك لكم خراباً» (27 ـ 23 متى). فلم يبق عمارة في فلسطين قائمة.

الناسك الثاني: ومع هذا كله يا قداسة الراهب، لم يكن اليهود قد أدوا بعد ثمن دم السيد المسيح. ألم يقل قيافا رئيس الكهّان والجمهور الذين كانوا معه بكل عناد وإصرار وتهديد «خذه! خذه! اصلبه! دمه علينا وعلى أولادنا». فاذا كان آدم ابو البشر قد غفل مرة واحدة وبدون قصد وبدون سابق اصرار فأكل من شجرة معرفة الخير والشر الممنوعة تحت إغواء زوجته وهو لا يدري، فغضب عليه الرب، مع انه قبل اكله من تلك الشجرة الممنوعة لم يكن يعرف الخير من الشر ولم يقدّر نتيجة عصيانه ومخالفته لأوامر إلهه، فانتقلت خطيئته هذه كما هو معتقد المسيحيين كافة الى اولاده وأنساله جيلاً بعد جيل الى أبد الآبدين. ألم يكن من الاحرى ان يقع دم السيد المسيح على اليهود وعلى إلههم

---

(1) 22/21 لوقا
(2) 21/24 لوقا
(3) 21/24 لوقا

وذويهم وذراريهم وأنسالهم بطناً بعد بطن وظهراً بعد ظهر وجيلاً بعد جيل ونسلاً بعد نسل والى أبد الآبدين الى أن تقوم السماوات والارض والى أن يرث الله الارض ومن عليها، وذلك باعترافهم وإقرارهم وتعهداتهم مع سابق اصرار أمام الحاكم العام بيلاطس، وهي مسجّلة عليهم يكررها في كل يوم بالكنائس ملايين النفوس. فلذلك كان سخط الله وغضبه يلازمانهم اينما وجدوا وكانوا، وفي كل زمان ومكان، واينما حلوا وارتحلوا، وفي كل وقت وآن... وكان بعد ان تركوا أرض فلسطين سلّط الله عليهم الامم والاقوام في كل زاوية من زوايا الارض تنتقم منهم حيثما اقاموا واستقروا وسكنوا، تسفك دماؤهم وتستباح أنفسهم وتغتصب املاكهم وتستحل أموالهم وما ملكت ايمانهم، يسامون سوء العذاب ضرباً ولكماً وصفعاً ووكزاً ولطماً ووخزاً كماسبق وفعلوا بالسيّد المسيح. ممقوتون محتقرون، منبوذون في بلاد المشرق كما في بلاد المغرب. وما ظلمهم الناس، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. فلذلك كان تخليص اليهود من السبي والتشريد، والسعي في إعادتهم الى اورشليم، وتعمير بيوتهم بعد خرابها، وحتى السكوت عنه، لا يفرّق عن الكفر بشريعة السيد المسيح وبأناجيله وأوامره ورغباته وأقواله، والويل كل الويل للساعين به وسيحيق غضب الله عليهم وعلى أمتهم إن عاجلاً أو آجلاً بصور وأشكال لا نعلمها. وستكون كل نكبة تحيق بهم مصدرها غضب السيد المسيح. فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً على سوء تصرفاتهم هذه باسم الفلسفة الانسانية.

الفصل الثامن المزايا والسجايا والاخلاق عند اليهود

[يجتمع في قاعة الدير الكبرى شيوخ الطوائف المسيحية تحت رئاسة الشيخ سمعان لاستعراض المزايا والسجايا والأخلاق عند اليهود في الأزمنة المتقدمة والمتأخرة، والمذاكرة حول ما يجب اتخاذه من التدابير لإبطال أعمالهم الاستفزازية وحس الانتقام الراسخ في أعماق نفوسهم ضد البشرية، وأساليبهم المتخذة لنشر الالحاد والانكار واللادينية واللاقومية واللاوطنية لتأمين تساويهم مع الأمم والشعوب].

الرئيس الشيخ سمعان: الآن الكلام أيها السادة للشيخ ناصيف ليذكر لنا باقتضاب مجمل ما حل باليهود في أوائل عهدهم، وما اكتسبوه على أثر ذلك من مزايا واخلاق، ثم يعقبه الشيوخ الحاضرون كل حسب رغبته في الكلام.

الشيخ ناصيف: لقد أحاط بالشعب الاسرائيلي منذ تكونه ظروف ومؤثرات وملابسات استثنائية جعلت منه شعباً يختلف عن جميع شعوب العالم في حياته النفسية، وفي حياته العامة، بمختلف مظاهرها المادية والمعنوية، ترجع جذورها الى زمن مكوثهم عند الفراعنة في مصر، حيث كانوا في أقسى أشكال العبودية يساقون بالعصا الى السخرة لجمع التبن وقطع اللبن وبناء المدن وتشييد الاهرامات للفراعنة (12 ـ 1 خروج). يستعبدون ويسامون سوء العذاب. يُذبح أبناؤهم وتصادر أموالهم وتزهق أرواحهم عند تراخيهم وعند تكاسلهم في أعمالهم، ولما خرج بهم النبي موسى من مصر الى سينا كانت نفوسهم تحت ذلك الضغط والجبر والاكراه والضنك والاضطهاد قد امتلأت ضغينة وحنقاً وحقداً وغلاً وألماً نحو البشرية كافة. وقد تجلّى ذلك الحقد وظهرت آثاره فيما نسبوه الى إلههم من حس الانتقام، فجعلوه اكثر قسوة وشراسة من البشر، قد يفتقد ذنوب الآباء في الابناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيه (5 ـ 20 خروج). وكذلك بما جاء في سفر التثنية من التوراة في أقوال النبي موسى عن لسان الرب، وهو في صحراء سينا وحتى قبل أن يدخل بهم ارض الميعاد: «واذا دفعها الرب إلهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف... وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً، فلا تستبق منها نسمة ما (17 ـ 31). والأكثر حنقاً وغلاً من هذا ما جاء في سفر العدد (17 ـ 31) عن غزوة النبي موسى للمديانيين. فتدّعي التوراة والعهدة اليها، انه لم يكتف بقتل الذكور كافة انما أمر قادته بقوله «اقتلوا كل ذكر من الاطفال وكل امرأة عرفت رجلاً، بمضاجعة ذكر، اقتلوها. لكن الاطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيّات (17 ـ 31 عدد). وهو لم يسبق لقائد في العالم كله منذ أن كان الانسان يعيش في الغابات حتى هذا اليوم ان يصدر أمراً عسكرياً كهذا الأمر. والأغرب من ذلك ان مدينة مدين المذكورة هي المدينة التي آوت النبي موسى عند هروبه من مصر لقتله القبطي، وكان قد خدم عند كاهنها راعياً لغنمه، ثم تزوج ابنته صفورة. وكان قد ظهر له الرب لأول مرة في جبل حوريب المجاور لمدين في عليقة من نار، وناداه موسى! موسى! اخلع نعليك لأن

الأرض التي أنت واقف عليها أرض مقدسة، وأمره بالعودة الى مصر... فكيف يهاجم النبي موسى أهالي هذه المدينة التي آوته في وقت كان فيه خائفاً يترقب، وهي مجاورة للأرض المقدسة التي كلمه الرب لأول مرة فيها؟ وكيف يأمر بقتل كل ذكر من أطفالها وكل امرأة عرفت رجلاً من نسائها..؟ لا نعتقد ان هذا الأمر صحيح. ولا بد ان قد حصل خطأ بالترجمة العربية. فنحن نجلّ النبي موسى وهو من أعاظم الانبياء، عن هذه القسوة والشراسة وننزّهه عن هذا الحقد والغل! والاكثر مرارة من ذلك ما جاء في سفر يشوع بن نون خليفة النبي موسى قوله لقادته «حرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف» (21 ـ 6). ومثله كذلك، المذبحة العامة التي أجراها الملك شاؤول بأمر من النبي صاموئيل عند مباغتته عماليق لوقوفهم في طريق اسرائيل يوم خروجهم من مصر قبل مئين من السنين، عن لسان الرب بقوله «اضرب عماليق وحرّموا كل ماله ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة وطفلاً ورضيعاً» (3 ـ 15 ص10). وقد نفّذ شاؤول الأمر إلا انه كان قد عفا عن ملكهم «اجاج» فقط. ولما علم النبي صاموئيل بذلك أحضر اجاج وقطعه بيده ارباً ارباً «فقطع صموئيل اجاج» (33 ـ 15 ص 10 الاول). وهو منتهى الغل والحقد والغيض، فلا عجب والحالة هذه في وقعة دير ياسين 1948 المعلومة ولا عجب في مباغتة 600 جندي يهودي ليلة 14 تشرين الاول 953 وهجومهم على قرية اقبية المجردة من السلاح وقتلهم 18 امرأة و30 طفلا و16 رجلا وهو نسخة طبق الأصل للغلّ الموروث الآنف الذكر.

الشيخ بطرس: نجد أيها السادة ما يقابل النماذج من الاسفار التي ذكرها الشيخ ناصيف ما ورد في تعاليم السيد المسيح في قوله: «من ضربك على خدك الأيمن فأعطه الأيسر»، ونجد عطفه على النساء والاولاد والاطفال (5 ـ 18 متى)، ونجد ما ورد عن محمد بن عبد الله نبي الاسلام والمسلمين من انه كان قد عفا عن المشركين أهل مكة اعدائه الالداء لما دخلها فاتحاً وحقن دماءهم؛ ونجد ما يقابل خطبة يشوع خليفة النبي موسى، خطبة أبي بكر الصديق خليفة النبي محمد في جيش اسامه قوله «لا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لأكل... وسترون في المعابد والأديرة والجوامع أناساً يعبدون الله فلا تمسوهم بسوء...». فاذا كانت التعبئة العسكرية قد ساقت جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك الى الاسراف في القتل فلم تكن تلك العبقرية العسكرية ولا جزء ضئيل منها ولا أثر لها عند امراء بني اسرائيل، انما هو حقد مكبوت نحو البشرية يتجلى لضعفهم وحقدهم بذبح النساء والاطفال، ويظهر عندما ينالون من عدوهم ضعفاً وهو يدل على الجبن والغدر والغيظ واللؤم الكامن المكبوت في قلوبهم، وعلى العقد النفسية المتأصلة والمتمركزة في أرواحهم، وقد تتنفس وترتاح بسفك الدماء البشرية. فان لم يتمكنوا من دم الرجال، فدماء النساء والاطفال، خاصة عندما يستولون على قرية من القرى الآمنة المطمئنة العزلاء. فيا لها من بطولة وشجاعة ويا لها من مزايا وسجايا لا توجد أمثالها عند الأمم الأخرى!

الشيخ نعيم: ساعدوني أيها السادة الأجلاء ان ألخص لكم النكبات التي حلت باليهود منذ ظهورهم حتى أزمنتهم المتأخرة، فكان قد اضطهدهم الأكديون في أور الكلدان «في العراق» لسوء سيرتهم، قبل ستة آلاف سنة، فأخرجهم الأكاديون من ديارهم، فهاجروا الى حرّان، وكان معهم النبي ابراهيم.

واضطهدهم الكنعانيون في فلسطين لما هاجروا اليها في بادىء أمرهم، واضطهدتهم الفراعنة في مصر شر اضطهاد، فكانت تصادر أموالهم وتذبح أبناءهم ويساقون للسخرة في بناء الاهرامات والمدن وقطع اللبن، خاصة في زمن رعمسيس الكبير حتى خرج بهم النبي موسى هارباً الى سينا. ثم جاءهم سبي الاشوريين فنقل من السامره منهم أحد عشر سبطاً الى نينوى وجوارها ولم يترك في فلسطين سوى سبط يهودا وحده في اورشليم، ثم جاءهم سبي نبوخذ نصّر وساق سبط يهودا من اورشليم الى بابل، حتى وصل الاضطهاد عليهم في بابل لدرجة ان أراد هامان وزير الملك احشويرش ابادتهم نهائياً (9 ـ 3). وأصدر الملك أمراً بذلك لولا ان اقتريت ايستر الى الملك... وخلّصت الشعب من الابادة. فكانوا قد لاقوا من البابليين أكثر مما قاسوه على أيدي المصريين من صنوف الأذى والمحن وأنواع الضغط والاكراه. فكانوا يساقون قسراً الى الاعمال الشاقة والى القيام بحفر الأنهر وكرى السواقي من الترسبات، وبعد ان يأخذ التعب منهم مأخذه يجلسون على حافة الأنهر يذرفون الدموع على صهيون (137 المزامير). ولما احتلّ الملك الفارسي كورش مدينة بابل أخرجهم منها وأعادهم الى فلسطين للتخلص منهم، فاضطهدهم الرومان طيلة حكمهم في فلسطين، ثم اكتسح تيتوس القائد الروماني مدينة القدس بعد حصار دام خمسة أشهر فدخلها عنوة، وقتل من كان فيها من اليهود عن بكرة أبيهم، ويقال ان عددهم كان يقارب النصف مليون نسمة.

الشيخ سليم: وأما أنا فسأذكر لكم كيفية خروجهم من أرض فلسطين، وما حل بهم بعد ذلك في البلاد التي استوطنوها. فكان قد سلّط الله عليهم بلاطس القائد الروماني الجبار عام 132م.، فكنسهم من أرض فلسطين كنساً لا هوادة فيه، ولم يسلم من السيف إلا من كان طويل العمر، فتشردوا في الآفاق، وأصابهم ما يصيب المهاجرين والسبايا المشردين من أنواع المذلة والهوان، فقاسوا صنوف الأذى والمحن، تحت مختلف أنواع الضغط والجبر والاكراه والعسف والاضطهاد من الأمم والأقوام المختلفة الذين حلّوا بكنفهم، وما تخلصوا من محنة الا ليقعوا بنكبة أقوى وأشد منها. كل ذلك لمنازلتهم أبناء البلاد المسيحيين في ميادين الاقتصاد والحرف والصنائع وأخذهم الربا الفاحش، ولسوء سيرتهم واستغلالهم الشعوب ودسائسهم وفساد نواياهم وعدم امتزاجهم مع الأمم والأقوام، فأصبحوا لكل ذلك منفورين منبوذين من الأمم كافة، يسامون سوء العذاب أينما حلّوا وسكنوا. فامتلأت نفوسهم تحت هذا الضغط المستديم ضغينة وحقداً وألماً على البشرية كافة، حتى اذا ما أحسوا من عدوهم ضعفاً ونالوا منه مقتلاً نكّلوا به تنكيلا. فلا تعرف الرحمة الى قلوبهم سبيلا، وبهذا أصبح لهم سجايا خاصة انفردوا بها عن شعوب العالم. والسبب في ذلك كله يعود الى وصايا أنبيائهم عن لزوم محافظة الزرع المقدس «لا تأخذ بناتهم لأبنائك» (34 خروج)، لأنهم شعب الله المختار. فلا يجب تدنيس زرعهم مع «عام ها آرصى» أي مع شعوب الارض. فكانت أمثال هذه الوصايا قد أبعدتهم عن الاختلاط مع الامم وجعلتهم يعيشون وحدهم على الانفراد.

ولما تفشّت وافتضحت وانتشرت عنهم هذه المزايا والسجايا والخصال والقيم الاخلاقية في أوروبا، سخطت عليهم الامم، فأصبحوا موضع احتقار وكراهية وطردوا من البلاد بالمفرد وبالجملة. فقد طردوا من فرنسا ثلاث مرات عام 1182 م. و1306 م. و1394 م.، وطردوا من انكلترا مرة واحدة

عام 1290 م.، وكان عددهم سبعة عشر ألف نسمة. وطردوا من ألمانيا مرات عديدة، وكان آخر اضطهاد وقع عليهم في ألمانيا على يد هتلر. وطردوا من اسبانيا نهائياً وكان عددهم مئتي ألف. وأصبحت كلمة «جويف» أي يهودي في أوروبا تأتي بمعنى المسبة والشتم والنفرة والحقارة. ولم يبق في أوروبا من يحمي حمى اليهود في الأزمنة المتأخرة سوى رجال الاستعمار والاستثمار من الانكليز المسيحيين المحافظين، أولئك الذين تجمعهم مع اليهود الشركات والاعمال الكبرى. فلم يكن اضطهاد هتلر لليهود في زماننا هذا صادراً عن حمق وغباوة وجهل. فكان قد اضطهدهم قبله شتّى الأمم والأقوام منذ السومريين والبابليين والاكاديين حتى هذا اليوم، والسبب في ذلك كله هي العوامل التي انطوت عليها نفوسهم. وما ظلمهم أحد ولكن كانوا يظلمون أنفسهم.

الشيخ سليمان: ومن جملة السجايا اليهودية ان الفرد منهم يعتقد انه فوق البشر. وكما تفضل وذكره الشيخ سليم، يعتقد انه شعب الله المختار الذي اصطفاه الرب لنفسه، وفضله على العالمين كافة. ولئن غضب عليه مدة من الزمن فانه لا ينساه. والدليل على ذلك هو ان الرب قد اصطفى أنبياءه ورسله العظام كافة ـ باستثناء نوح ومحمد (ص) ـ من اليهود. ولهذا السبب كان اليهودي لا يبغي عن يهوديته بديلا أنى كان، وأنى أقام، وحيث وجد. فانه أولا يهودي ثم أمريكاني أو بريطاني أو فرنسي أو روسي رغم أنف الامريكان والبريطان والفرنسيين والروس. وكان ولم يزل يعيش أجنبياً عن البلد الذي هو فيه غير مكترث بالأمم والشعوب الأوروبية والامريكية ولا يفكر بغير فائدته فقط. وأما الاخلاص والنصح والوفاء والمحبة للفرد ولأبناء الوطن الذي يعيش فيه، فهي عنده بمقدار ما يعود اليه منهم من فائدة وربح.

ولما لم يكن لليهودي وطن قومي يلوذ به وليس له دولة يحتمي بها، فهو عدو لدود لكل وطن ولكل دولة. فلذلك كان من جملة اغواءاته اللاوطنية للجميع لكي يتساوى مع كل فرد في العالم.

وبينما كانت كلمة وطن ووطني في القرن التاسع عشر تطغى على الألسن في جميع انحاء العالم، وكانت الوطنية مدار افتخار الناس في نواديهم ومجالسهم، اذ تراخى الناس في زماننا هذا بحب الاوطان وفترت الدعوة اليه، تحت تأثير تلك الدعايات السيئة والمخدرات اليهودية.

وكان من جملة ما اتصف به اليهود من الاخلاق والمزايا نكران الجميل. فكان آخر ما فعله اليهود في هذه السنين الاخيرة ان عضّ اليد البريطانية التي كتبت له وعد بلفور وأدار وجهه عنها الى امريكا. ولن يحجم عن كسر اليد الاميركانية التي آوته في بلادها وساعدته في فلسطين متى وجد له مستنداً أقوى منها. وكان آخر من خان بلاده منهم روزنبرغ اليهودي، عالم الذرة الذي اعدمته مع زوجته الحكومة الاميركانية بالكرسي الكهربائي يوم 20 حزيران 1953 لإفشائه أو لبيعه اسرار الطاقة الذرية، أو الهيدروجينية الى روسيا السوفياتية. كما وان روسيا السوفياتية كانت قد اعتقلت في مطلع عام 1953 اربعة أو خمسة اطباء يهود بتهمة قتلهم بعض القادة الروسيين لحساب امريكا. فكانت أهداف هذا الشعب هي العداوة والتقويض والهدم والغش والتزوير لجميع الأمم دون استثناء ودون تمييز ودون تفريق!

الشيخ بولص: أنا اعتقد أيها الشيوخ الكرام ان اليهود أمة ثورية تدعو الى التمرد والهدم والتخريب. وهي

لا تشعل النار بيدها ولا تقوم بأعمال التدمير والتخريب بنفسها، انما تسيّر الاعمال الكبيرة جهد طاقتها من وراء ستار وبيد غيرها من الاغبياء ثم تميل الى الجانب الظافر لتأخذ نصيبها من الاسلاب والغنيمة ان قلّت أو كثرت. فكان من أهم مزاياها هي انها تعلم كيف تسوق غيرها لقضاء مصالحها وتستخدمه في اداء مقاصدها. وأكبر مثال على ذلك استخدامها في زماننا هذا الاميركيين في مآربها وغاياتها. وبهذه السجايا المتركزة في عروقها وعرفت بها بين الأمم كانت قد اصبحت منبوذة من جميع أمم العالم. فكان ذكاؤها وقابلياتها على الاعمال سبباً لاضطهادها. ودام هذا الحال الى أن ظهر من بينهم في الازمنة المتأخرة بعض الافراد نادوا في الاوساط العمالية المسيحية بالعدالة والحرية والمساواة. ولم يكن القصد من هذا المثلث الذي أرادوه وأعلنوه صيانة حقوق العمال المسيحيين ومنحهم الحرية والمساواة، انما تخليص قومهم وابناء امتهم من البؤس والشقاء والذل والهوان والضيق والاضطهاد الذي نالهم من خزي مولدهم وحقارة عنصرهم، ومن سوء أفعالهم ومحايلاتهم، ومن ابتزازهم أموال الناس بالباطل وبالربا الفاحش ليحصلوا على حريتهم في العمل ومساواتهم بالحقوق والواجبات مع اهل البلاد الاصليين. وبذلك يكون قد ارتفع عنهم دنس الغرباء النزلاء المذمومين المنفورين المكروهين ويكونون احراراً في اعمالهم وقد تخلصوا من مصادرة أموالهم ومن اداء الجزية المفروضة عليهم ومن إلزامهم بالسخرة وبالخدمات الاجبارية. والأهم من هذا كله قد نالوا حقوق الانسان ما قد يجعلهم في مأمن من الطرد الاجماعي او الفردي من البلاد مهما فعلوا وصنعوا.

الشيخ حنا: تعلمون أيها السادة ان اليهودي قد انصرف منذ البداية في التفكير بمشكلته الاجتماعية العويصة المعقدة، وهي كما تعلمون حضراتكم تشرده في العالم وهدر حقوقه وسحق كرامته وتهديد حياته واجتماع الأمم كافة على نبذه وتحقيره. فكان ان انصرفت نفسه واتجه فكره في شتّى أدوار حياته الى التخلص من هذه الاوضاع الاليمة المزرية ومن المحن والشدائد والسبي والتشريد، والى طلب الثأر والانتقام من مضطهديه في الشرق والغرب بكل الممكنات. وكان بانتظار اليوم الذي وعده الهه يهوه على لسان انبيائه بانه سيمد يده ثانية ويقتني بقية شعبه التي بقيت، من أربعة أطراف الارض، ويرفع راية للأمم، ويجمع منفي اسرائيل... وفي الحقيقة انهم بعد عناد وسفك الدموع عند حائط المبكى وتمسك بالعادات والعنعنات والتقاليد وبأحكام الاسفار دام 2000 سنة تمكنوا مع قلتهم من تذليل العقبات التي كانت تعترضهم في التساوي مع باقي الناس. فأعادوا في بلاد الغرب شرفهم المضاع، وتحكموا برقاب مئات الملايين من الآريين، وانتقموا من المسيحيين الذين اضطهدوهم الف عام وكالوا لهم الصاع صاعين، وذلك بالتسلط على ثرواتهم والتلاعب في عقولهم واستخدامهم في غاياتهم باسم الانسانية والعدالة والمساواة. وانتقموا كذلك من العالم كافة بنشرهم اللادينية واللاوطنية واللاقومية، حيث أصبحت كلمة الدين والوطنية والقومية تحت تأثير تلقيناتهم الفلسفية حديث خرافة عند نصف العالم، بينما يحتفظ اليهود بدينهم وقوميتهم وعنصريتهم اكثر وأشد من أي فرقة أو شيعة أو مذهب آخر في العالم كله. فلا تجد من بينهم من يتزوج بغير اليهودية مطلقاً، عملاً بوصية أنبيائهم «لا تأخذ بناتهم لأبنائك (42 خروج). وذلك «لئلا يختلط الزرع المقدس بشعوب

الارض» (2 ـ 9 عزرا). كما وان لم يترك أي منهم من يهوديته قيد انملة شيئاً، فهو يهودي بخصاله وميزاته. وهو يهودي بأوصافه وسجاياه، في كل وقت وزمان وفي الظروف والاحوال كافة. ومهما كان مظهره ولغته ولونه السياسي وسواء كان ذكراً أو انثى وحدثاً أو صبياً أو يافعاً أو كهلاً أو شيخاً وتلميذاً أو استاذاً أو عالماً أو جاهلاً وغنياً أو فقيراً وفوضوياً أو اشتراكياً أو شيوعياً أو رأسمالياً، ووزيراً أو صعلوكاً، وسواء كان في نيويورك أو لندن أو موسكو أو في قرية من قرى جبال همالايا أو في القطب الشمالي، أو في غابات خط الاستواء، فهو يهودي بدينه وقوميته وعنصريته وخصاله ومزاياه وسجاياه لا يفتر عنها قيد شعرة ولا يتزحزح عنها قيد انملة. واذا ما تظاهر بخلافها، فهو غش يقصد منه المخادعة والمحايلة وخدمة اليهودية العالمية في مختلف نواحيها.

الشيخ داود: ومما يؤسف له، أن ظهر في الازمنة المتأخرة، نفر من اتباع السيد المسيح طمعوا بالاموال المغدقة عليهم أو انخدعوا بالتزييفات اليهودية فبشّروا من حيث يدرون ولا يدرون بالقواعد الانسانية والاخوة البشرية وحقوق الانسان، وروجوا الدعايات اليهودية وانتسبوا الى جمعيات البناء الحر! المؤسسة على قواعد الكابالا السرّية، ظاهرها التعاون والمحبة والخدمة والمساعدة للمنتسبين إليها، وحقيقتها قواعد سرية اجتماعية تترك الأديان جانباً فتدافع عن اليهود باسم الانسانية والبشرية، وتسهل لهم الاختلاط والتساوي مع البشرية. فنشروا قواعد هذه الجمعية بمختلف الطرق وأدخلوها في عقول الناس بشتى الوسائل والسبل وانخدع بأساليبها الشفّافة البرّاقة من انخدع من الناس.

الشيخ يعقوب: ان ما تفضلتم به أيها الشيخ الجليل عن الاخلاق والمزايا والسجايا اليهودية هو الصواب عينه. فكان في القرن الخامس عشر قد استفحل نفوذ اليهود في أوروبا كافة، وخاصة في بولونيا وايطاليا، فأسس اسحاق لوريا اليهودي المدرسة الكابالية في ايطاليا وقبل فيها من أبناء جنسه اليهود لتدريبهم على فنون السحر الأسود وعلوم السيميا، والكيميا، والتبشر بما في عالم الغيب من أخبار، وكتابة الطلاسم والتمائم وشعوذة الارقام والحروف. كل هذه الشعوذات وضعت لإفساد قواعد الدين والاخلاق العامة والشعائر الدينية وتقويض أسس العالم القديم، واستعمال بعض الصيغ السحرية للوصول الى الغايات الخفية وهدم تعاليم المسيحية الروحية وكذلك الاسلامية ومبادئهما الاخلاقية، وتقويض النظم الاجتماعية. كل ذلك انتقاماً لليهودية.

وكان قد تأسّس بواسطة خريجي هذه المدرسة الكابالية، ومن بقايا جماعة فرسان المعبد الضالة، جمعية الصليب الوردي أو جمعية الصليب الأحمر أو صليب الندى Die Rosenkreuser وقد أُعطي لها هذا الاسم للتضليل والتمويه على العالم المسيحي، وهي كشعبة ثانية للكابالا السرية. وذكر بعض المحققين ان غايتها كانت توسيع حركة الهدم والتقويض التي تشنها الكابالا في الخفايا، وايقاد الثورة ضد المنظمات الدينية باسم العلم والفلسفة وسحق جميع المبادىء الدينية والاجتماعية، وإنكار وجود الله بصفاته المعلومة، وإنكار صفات السيد المسيح وتحقير العذراء البتول والطعن بالتثليث وقبول رياسة الشيطان وتركيب السموم وقتل الاطفال... كل ذلك بقصد الانتقام من الاديان المناوئة للدين اليهودي.

الشيخ ايليا: والسبب في ذلك كله يا حضرة الشيخ، ان اليهود، وان لم يتظاهروا بحقيقة معتقداتهم، فانهم يحتقرون في قلوبهم الديانتين العظيمتين الاسلامية والمسيحية، وبالنظر للمعتقدات التي كانت سائدة في فلسطين، وفي عقلية العالم اجمع، انه كان لكل قبيلة ولكل عشيرة ولكل مدينة ولكل أمة.. إله خاص تعبده وتحتمي به، لا علاقة له بالأمم الأخرى، فتكون القبيلة قبيلة ذلك الإله، والمدينة مدينة الإله، والأمة أمة الإله، والجيش جيش الإله، وكل شيء متعلق بأمر ذلك الإله وإرادته كما هو معلوم. وعلى هذا الاعتبار كان في ارض فلسطين التي حلّ فيها اليهود «ملكوم» إله العموريين و«كموش» إله الموابيين و«مولك» إله بني عمون و«عشتروت» إلهة الصيداويين و«داجون» إله اسدود و«بعل فغور» إله المديانيين و«البعل» إله الكنعانيين. وعلى هذه القاعدة كان الإله «يهوه» إله العبرانيين وحدهم، يؤيد ذلك ما جاء في الاصحاح التاسع من سفر الخروج في قوله «قال الرب لموسى ادخل الى فرعون وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين اطلق شعبي ليعبدوني» (9 ـ 1)، وما جاء في الاصحاح السادس «اتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً» (7 ـ 6). وجاء في الاصحاح الثالث قول الرب لموسى «ثم قال أنا إله أبيك إله ابراهيم وإله اسحاق وإله يعقوب... قد رأيت مذلة شعبي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم الى ارض تفيض لبناً وعسلاً»... فقال موسى: «ها انا آتي الى بني اسرائيل وأقول لهم إله آبائكم ارسلني اليكم... فاذا قالوا لي ما اسمه»... فقال الله لموسى تقول لبني اسرائيل يهوه إله آبائكم إله ابراهيم وإله اسحق وإله يعقوب ارسلني إليكم. هذا اسمي الى الابد... اذهب واجمع شيوخ اسرائيل وقل لهم إله ابراهيم واسحق ويعقوب ظهر لي قائلاً اني قد افتقدتكم وما صنع بكم في مصر فقلت اصعدكم من مذلة مصر...». وأمثال ذلك في مختلف التوراة على لسان مختلف انبياء بني اسرائيل كثير مما يستدل منه ان «يهوه» بصفته الالهية إله العبرانيين وحدهم وهم شعبه المختار. وكما ان الحشرات والحيوانات من مخلوقاته، فإن سائر الناس وأمم الارض كافة أيضاً من مخلوقاته. هذا ما كانوا يعتقدونه ويعملون به وكانوا قد أسندوا الى إلههم يهوه صفات الإله يا ـ ياوه إله الكلدانيين والسومريين فجعلوه على صورة البشر. والبشر على صورة الإله[1] لا فرق بينه وبين الأفراد البشرية من الوجهتين الجسدية والاخلاقية[2]، حتى جاء السيد المسيح واعتبر الإله الخالق رب العالمين كافة وليس رب اليهود وحدهم، ونزّهه عن الصفات الجسدية، وعن الاخلاق البشرية فقال: «الله روح، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا»[3]. كما اعتبرت الديانة الاسلامية «الله نور السماوات والارض»[4]. فلذلك لم يهتم اليهود بإله المسيحيين والمسلمين الذي تشمل رحمته جميع العالمين على السواء. واذا كانوا يقولون بأفواههم أمام العالم «الله رب العالمين» فهي لا تتجاوز حناجرهم، وفي حدود المجاملة والمراوغة والرياء والنفاق.

الشيخ رزق الله: أنا اعتقد أيها الشيوخ الاجلاء، انه أصبح حس الانتقام من البشرية عند اليهود من

(1) وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا.
(2) راجع كتابنا يهوه إله بني اسرائيل.
(3) 4/24 يوحنا
(4) 35 النور

السجايا الخلقية الوراثية. فقد امتزج بلحمهم ودمهم منذ آلاف السنين. وقد يرجع تركيزه الى اليوم الذي دخلوا فيه ارض مصر كدخلاء مهاجرين كما تفضّل به الشيخ ناصيف، ولعدم امتزاجهم مع أهل البلاد ولسوء سيرتهم وطباعهم وأخلاقهم ودسائسهم ونواياهم السيئة مع شعوب العالم أصبحوا مكروهين منفورين وأذلاء صاغرين. فقال الرب «اني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم» (7 ـ 2 خروج). وكانوا تحت استعباد المصريين. قال الرب «... أنا أيضاً قد سمعت أنين بني اسرائيل الذين استعبدهم المصريون... أنا الرب أنقذكم من عبوديتهم، وأتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً» (5 ـ 6 خروج). فلذلك نما وترعرع في قلوبهم حسّ الانتقام من الأمم. ولما لم يتمكنوا من الانتقام من المصريين عسكرياً عند خروجهم من مصر، انتقموا منهم بطريقة السرقة والاحتيال، فاستعاروا منهم بحجة التزين بها في العيد «أمتعة ذهب وأمتعة فضة وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين» (22 ـ 3 خروج)، ثم هربوا بها الى سينا، ما جعل شرطة فرعون تطاردهم حتى البحر لا لإعادتهم الى مصر، فكانت مصر قد سئمت من أعمالهم، انما لاسترداد المنهوبات والمسلوبات منهم. وكان آخر من انتقموا منه وأغفلوا الإنكلو ـ امريكان بدعاياتهم الجهنمية ضده في زماننا هذا هو الشعب الالماني العظيم بعد الحربين العالميتين الاولى والثانية كما هو معلوم.

أما التعاليم الكابالية السرية الهادمة التي تفضل ببيانها الشيخ يعقوب، فهي صورة واحدة من صور الحقد والكيد على الشعوب وشكل واحد من أشكال الانتقام من الأمم والأقوام والذي يرجع تركيزه الى زمن أسرهم في بابل[1]. وقد ازداد حدة وشدة لما اشغل الرومان أراضي اليهودية ووضعوا اليهود تحت حمايتهم، فكانت قلوبهم قد امتلأت حنقاً وحقداً وألماً وغيظاً على شعوب العالم كافة، خاصة بعد المذبحة الكبرى التي قام بها القائد الروماني الجبار بلوطس عام 132 م. حيث لم يترك في فلسطين منهم باقية فتفرق من بقي حياً منهم في البلاد وتشرّدوا في الآفاق شذر مذر. وكان قد اتجه قسم منهم نحو الحجاز واتخذوا المدينة وجوارها مسكناً لهم فوجدوا من عرب الحجاز واليمن أجمل ترحيب. الا ان حنقهم وحقدهم على البشرية كانا مانعاً لهم من الائتلاف والامتزاج مع العرب. وفي الحقيقة ان اللوم يعود كما سبق وذكره الشيخ سليم الى بعض أنبيائهم الذين أدخلوا في مسامعهم وعقولهم أنهم شعب الله المختار المقدّس للرب، واذا غضب عليهم إلههم فانه لا يتركهم ولا ينساهم. وانهم فوق شعوب العالم... فقد جاء في الاصحاح الرابع عشر من سفر التثنية قوله «انتم أولاد للرب إلهكم لانك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك لتكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الارض». ومع انه شعب الله المختار، كانت خيانة الأمم وسلب ثروات شعوب الارض مباحة في نظرهم. ولذلك كان من السهل عليهم خيانة عهودهم مع العرب المسلمين الموحدين والاتفاق مع كفار قريش في مكة عبدة الاصنام والاوثان للهجوم على المدينة. ورغم ما رفع القرآن من قدر أنبيائهم

---

(1) جاء في المزمور المئة والسابع والثلاثين ما نصّه «على أنهار بابل هناك جلسنا بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون! ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين، رنموا لنا من ترنيمات صهيون... ان نسيتك يا اورشليم أنسى يمني. ليلتصق لساني بحنكي ان لم أذكرك يا بنت بابل. طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا. طوبى لمن يمسك أولادك ويضرب بهم الصخرة..؟!».

وشريعتهم وأحبارهم، حزبوا الاحزاب ضد صاحب الشريعة الاسلامية ودسوا الدسائس ضد العرب المسلمين. ولما يأس المسلمون من هدايتهم، دكوا قلاعهم في بني النضير وبني قريضة أولا ثم دكوا حصونهم وصياصيهم في خيبر ثانياً، ثم أجلوهم عن الحجاز نهائياً. كل ذلك جزاء ما اقترفته أيديهم من خيانة ومن إنكار للجميل.

الشيخ يوسف: ساعدوني أيها الشيوخ الكرام لأقول كلمة حول انتقام اليهود من الاسلام والمسلمين بعد طردهم من الحجاز، فكان اليهود قد عادوا وانتقموا من المسلمين انتقاماً لم يشهد التاريخ له مثيلا. فكان عبد الله بن سبأ اليهودي اليماني قد اسلم زمن عثمان، ومن قواعد الاسلام كما في قواعد المسيحية انه يجبّ ما قبله أن يقطع علاقته بما سبقه ويعفو عنه، فقبله المسلمون كمسلم، فشرع يتنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم. فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عند أحد، فأخرجوه من الشام حتى أتى مصر، وأظهر فيها الزهد والتقوى والغيرة على الدين، وأصبح أكثر ديانة وإسلاماً وأشد غيرة وحمية على الاسلام من المسلمين، وشرع يضع الخطط السرية لكي يفسد على المسلمين ديانتهم، ولكي ينتقم لدينه ولأمته منهم، فترأس عصابة من مساعديه اليهود الذين أسلموا كذباً وزوراً مثله وأخفوا شخصياتهم وراء أسماء اسلامية حديثة، فكان يعلمهم ويقول لهم بالنظر لما رواه الطبري في حوادث سنة خمس وثلاثين: العجب ممن يزعم ان عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً رجع ووضع لهم شروط الرجعة، وبعد أن سرد لهم قواعد مفسدة أخرى كثيرة مثلها ليس هذا محل ذكرها وهي مسجلة بالتواريخ، بث دعاته في الانصار وزوّدهم بتعاليم نارية جهنمية. ومما قاله لهم: ان عثمان أخذها بغير حق فانهضوا في هذا الأمر وحرّكوه وانشروه في كل مكان وابدأوا بالطعن على امرائكم والتذمر من أعمالهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس... فآمن بدعواهم بعض الخوارج على الامن والنظام، وتبعهم السذّج والبسطاء من الدهماء والذين في قلوبهم مرض، والذين يرغبون في تعكير صفو الديانة الاسلامية لغاية في أنفسهم، والذين لم يدخل الايمان في قلوبهم بعد. وشرع يكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر في عيوب ولاتهم، وبما يصنعون، وأوسعوا الارض اذاعة وشائعات، وهم بالدعاية ماهرون، وكانوا يحرضون الناس على الحج والحضور في المدينة في الموسم القادم بمهمة القيام (بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) كما جاء في القرآن الكريم، فألّب أنصار بن سبأ الناس على الخليفة الثالث الى أن قتلوه بحجج واهية، منها انه استخدم في أعماله من يعتمد عليهم من بني أعمامه وان هؤلاء بصفتهم قوّاداً للجيوش المحاربة قد نهبوا ما عثروا عليه عند فتحهم الامصار... وبذلك أوقع ابن سبأ وعصابته الخلاف والنزاع بين المسلمين الذين لم يكونوا قد تعوّدوا على أساليب الحكم الديموقراطي الجمهوري بعد، فظهر ذوو الأطماع والغايات وظهرت على أثرهم الحروب الداخلية وتوقفت الفتوحات الخارجية واصطدم المسلمون بعضهم مع البعض وذبح في تلك الوقائع خيار المسلمين. وأصبح المسلمون حرباً على المسلمين فحصلت من وراء مفسدته تلك، مذابح ذهب ضحيتها كثير من الصحابة والمقربين. ولم يرتق ذلك الفتق الذي أحدثه ابن سبأ في صفوف المسلمين حتى هذا اليوم، وسيبقى على شدّته الى ما شاء الله أن يكون. فكان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي نادى به المسمي نفسه كذباً وزوراً

عبد الله بن سبأ وهو في الحقيقة يهوذا ابن اليهودية ما هي إلا تعاليم جهنمية وضعها مع عصابته بحذق ومكر ودهاء لتمزيق الوحدة الاسلامية. وقد نجح فيها مع كل الأسف، نجاحاً كبيراً وانتقم من الديانة الاسلامية ومن الاسلام والمسلمين أعظم انتقام وشر انتقام.

الشيخ منصور: ولم تكتف تلك العصابة بذلك فكان بعض منهم يأتون بأحاديث مرتبة بدعوى انهم وجدوها في التوراة ـ والقرآن يحترم الانجيل والتوراة كل الاحترام ـ ولم تترجم التوراة الى العربية إلا في عام 718 م.، فكان يتقبلها منهم بعض المحدثين وأصحاب القلوب الطيبة الطاهرة كحقيقة دينية أو كشرح لما غمض لبعض النصوص فيثبتوها في كتبهم دون ملاحظة مطابقتها مع نصوص القرآن الكريم.

واستند عليها بعد ذلك الموتورون وأصحاب البدع والضلالات ومؤسّسو الفرق الدينية والمذهبية الغالية في دعم ضلالاتهم كالاسماعيلية والقرمطية والفاطمية والخطابية والحلولية... إلخ. أولئك الذين كان يختفي وراءهم اليهود فيحثونهم على المضي في التخريب والفوضى والهدم والتقويض والتمزيق والالحاد... وفوق الكل الانتقام بمختلف صوره وأشكاله من الديانة الاسلامية التي قضت على ديانتهم في الحجاز وحلّت بمحلّها.

الفصل التاسع تفسيرات وتحديات

[يجتمع شيوخ الطوائف المسيحية للمرة الثانية في قاعة الدير الكبرى تحت رياسة الشيخ سمعان لاكمال استعراض أقوال اليهود سابقاً ولاحقاً وتفسيراتهم الخاطئة لأقوال أنبيائهم وتحدياتهم المستمرة للديانتين العظيمتين المسيحية والاسلامية].

الشيخ الرئيس سمعان: والآن الكلام للشيخ جورجيوس ليذكر لنا شيئاً عن أقوال أنبياء بني اسرائيل وعن تفسيرات اليهود الخاطئة لأقوال أنبيائهم الواردة في الاسفار كبشارة للسيد المسيح.

الشيخ جورجيوس: أن تنبؤات أنبياء اليهود الكرام الواردة بالأسفار حول السيد المسيح كثيرة، فمنها ما جاء في (13 ـ 7) من سفر النبي دانيال في قوله «كنت أرى في رؤيا الليل واذا مع سحب السماء مثل ابن الانسان أتى... وجاء الي القديم الايام... فقربوه أمامه فأعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة... سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض». ومنها ما ورد في الاصحاح الحادي عشر من سفر النبي شعيا قوله «ويخرج قضيب من يسي ويثبت غصن من اصوله ويحل عليه روح الرب، وروح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب» الى أن يقول «ويكون في ذلك اليوم ان اصل يسي القائم راية الشعوب أباه تطلب الأمم ويكون محله مجداً». ومنها ما ورد في المزمور المئة والعاشر للنبي داوود في قوله «قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع اعداءك موطئاً لقدميك». فمما لا شبهة فيه ان هذه التنبؤات هي بشارة صريحة واضحة للسيد المسيح الذي ظهر من نسل داوود بن يسي عذريا وقد حلّ عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، ومخافة الرب. وكانت رايته عند جميع الشعوب، وقد طلبته واحترمته الأمم والأقوام والمذاهب والاديان كافة في مشارق الارض ومغاربها ـ سوى اليهود ـ وسلطانه ابدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض، واستدامت هذه المعرفة والبشارة تخص السيد المسيح وحده دون معارض مدة عشرين قرناً.

ولما ظهر الصهاينة في زماننا هذا وأعادوا النظر في أسفار أنبيائهم مرات ومرات شاهدوا في آخر الاصحاح الحادي عشر من سفر النبي اشعيا العبارة الآتية «ويكون في ذلك اليوم ان السيد ـ الرب ـ يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه التي بقيت من آشور ومن مصر ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر ويرفع راية للأمم ويجمع منفي اسرائيل ويضم مشتتي يهودا من أربعة أطراف الارض فيزول حسد افرايم وينقرض المضايقون من يهودا، افرايم لا يحسد يهودا، ويهودا لا يضايق افرايم وينقضان على أكتاف الفلسطينيين غرباً وينهبون بني الشرق معاً ويكون على ادوم ومراب امتداد يدهما وبنو عمون في طاعتهما ويبيد الرب لسان بحر مصر ويهز يده على النهر بقوة ريحه ويضربه الى سبع سواق ويجيز فيها بالاحذية...».

وشاهد الصهاينة في سفر النبي زكريا أيضاً العبارات الآتية عن لسان الرب «غرت على صهيون وعلى اورشليم غيرة عظيمة» (15 ـ 2). ويقول زكريا عن لسان الرب أيضاً «ترنمي وافرحي يا بنت

صهيون، لأني ها أنذا آتي واسكن في وسطك يقول الرب... والرب يرث يهوذا نصيبه في الارض المقدسة ويختار اورشليم بعد» (10 ـ 2). ثم يقول الرب «ها أنذا اخلّص شعبي من أرض المشرق ومن أرض مغرب الشمس وآتي بهم فيسكنون في اورشليم ويكونون لي شعباً وأنا أكون لهم إلهاً» (8 ـ 8). ويقول «وأقوي بيت يهوذا وأخلص بيت يوسف لأني قد رحمتهم، ويكونون كأني لم ارفضهم، لاني أنا الرب إلههم، فأحييهم» (9 ـ 10). ثم يقول «لأن كبرياء الاردن خريت» (3 ـ 12). ويقول «في ذلك اليوم أجعل امراء يهوذا كمصباح النار بين الحطب وكمشعل نار بين الحزم فيأكلون كل الشعوب حولهم عن اليمين وعن اليسار، فتثبت اورشليم أيضاً في مكانها» (5 ـ 12). ثم يقول «وهذه تكون الضربة التي يضربها الرب كل الشعوب الذين تجندوا على اورشليم» (12 ـ 14).

هذا قليل من كثير من الانات والصرخات الصادرة من أعماق قلوب ساستهم وانبيائهم الذين عاصروا دور الاضمحلال اليهودي في فلسطين مما قد تبعث ميت الأمل في النفوس وتوقد شعلة التفاؤل في المستقبل.

فان ما يهمنا بالدرجة الأولى في موضوعنا هذا أيها السادة الاجلاء، هو تفسير اليهود الخاطىء لما ورد في عبارات الاصحاح الحادي عشر من سفر النبي اشعيا الآنف الذكر. فبينما هي إشارة واضحة صريحة للسيد المسيح كما مر أعلاه، تقول الصهاينة إن الذي سيحل عليه روح الرب، روح الفهم والمعرفة هو أي فرد سيظهر من جذع داوود بني يسي في مستقبل الايام، فيكون كشاؤول وداوود وسليمان... مسيحاً وملكاً على عموم اسرائيل ويكون له الملك والمجد على الأمم، وسلطانه سلطان أبدي في اورشليم لا يزول، وجميع الأمم له يسجدون، كما ذكرته الكتب والانبياء، وفي زمانه سيعيد الرب كرسي داوود في اورشليم، ويمد يده ثانية ليجمع شتات اسرائيل من أطراف العالم ويسخّر راية الأمم المتحدة لخدمته. ويقولون لقد حصل قسم من هذه التنبؤات في هذا الزمن وستحل البقية الباقية منها على يد المسيح والملك في المستقبل القريب؟!

الشيخ ميخائيل: لقد تفضل الشيخ جورجيوس وأخبرنا عن تفسيرات اليهود الخاطئة لتنبؤات الانبياء الواردة في الاسفار بحق سيدنا المسيح، وأنا اريد أن اكمل هذا الموضوع لأهميته الكبرى لتعلقه بذات السيد المسيح. فكان لما أراد النبي داوود أن يبني بيتاً للرب في اورشليم، وكان قد استحضر كل ما يلزم للبناء، جاءه النبي ناثان، وأخبره بقول الرب، فقال: «يقول الرب، متى كملت أيامك، واضطجعت مع آبائك، اقيم بعدك نسلك الذي يخرج من احشائك، وأثبت مملكته، هو يبني لي بيتاً، وأنا أثبت كرسي مملكته الى الابد، أنا اكون له أباً، وهو يكون لي ابناً، ان تعوج اؤدبه بقضيب الناس وبضربات بني آدم، ولا أنزع رحمتي عنه... ويأمن بيتك ومملكتك الى الابد وكرسيك يكون ثابتاً الى الابد» (12 ـ 7 صموئيل الثاني). ولما حضرت داوود الوفاة، اوصى ابنه سليمان أن يبني بيتاً للرب إله اسرائيل (6 ـ 22 أخبار الاول) وقال له: «قال الرب: لقد سفكت دماً كثيراً... فلا تبني لي بيتاً لاسمي... هو ذا يولد لك ابن... ويكون اسمه سليمان... هو يبني بيتاً لاسمي، وهو يكون لي ابناً، وأنا له أباً، وأثبت كرسي مملكته على اسرائيل الى الابد» (8 ـ 22 أخبار الاول). وجمع داوود كل رؤساء اسرائيل... وقال «اسمعوني يا اخوتي وشعبي. كان في قلبي أن ابني بيت قرار للرب، ولكن الله قال لي لا تبنِ بيتاً

لاسمي لانك رجل حروب، وقد سفكت دما... ان سليمان ابنك هو يبني بيتي ودياري لاني اخترته لي ابنا، وأنا أكون له أبا، وأثبت مملكته الى الابد» (1 ـ 8 ـ 28 أخبار الاول). ولما جلس الملك سليمان على عرش اسرائيل شرع ببناء البيت للرب (هيكل سليمان) واكمله.

ولما كانت كرسي سليمان قد زالت من الوجود ولم يتحقق ثباتها ولم يكن من المعقول أن يدعو داوود ابنه سليمان رباً بالروح في مزاميره عند قوله «قال الرب لربي اجلس عن يميني...» فكانت هذه البشارة لا تعود الى الملك سليمان مطلقاً، انما تعود الى ابن انسان آخر من نسل الملك داوود بن يسي الذي ثبتت مسيحيته وكرسي مجده حتى هذا اليوم، فمن هو ابن الانسان هذا؟

ولما كان السيد المسيح من نسل النبي داوود بن يسي عذرياً، وان الكنيسة هي بيت الرب حقيقة، وقد ثبتت الكنيسة المسيحية فعلاً حتى هذا اليوم وستثبت الى الابد، ولا يمكن أن تتزحزح مطلقاً، تبعاً لقول سيدنا يسوع المسيح «على هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (16 ـ 19 متى)، فكانت تنبؤات النبي ناثان الآنفة الذكر تعود الى السيد المسيح صراحة، وبصورة لا تقبل الشك والجدل.

وأما الصهاينة فيقولون ان من الواضح البيّن الذي لا شك ولا شائبة فيه ان بيت الرب المنوه عنه في هذه النبؤات هو هيكل سليمان الموجود الآن والقائم جداره حتى هذا اليوم في اورشليم (1 ـ 22 أخبار الأول) وان الذي بنى بيت الرب هذا وأكمله هو النبي والملك سليمان بالذات وبالنفس، ولا يوجد من بنى بيتاً للرب بموجب الشريعة اليهودية غيره. اذن، ان الملك سليمان الذي اختاره الله لبناء البيت هو بذاته ونفسه ابن الله، والله ابوه بالروح، وقد كملت نبوة النبي ناثان ووصايا النبي داوود بحق الملك سليمان منذ زمن بعيد، وانتهى الامر، ولم يبق فيه مجال للبحث، وقد آن الأوان لإعلانه على ملأ الناس دون خوف من أحد وان بيت الرب المذكور (هيكل سليمان) لم يزل قائماً وسيبقى قائماً الى الابد، ولم تنقطع علاقة اليهود به حتى هذا اليوم وقد يزوره اليهود كافة تحت رمز البكاء التعبدي (حائط المبكى) وستبقى هذه العلاقة ثابتة وسيبقى الهيكل «بيت الله» قائماً الى أبد الآبدين، واذا كان الكرسي المنوه عنه قد زال موقتاً، فقد زال قبلها مرات ومرات، ثم عاد، وسيعود مرة اخرى. وأكبر دليل على عودته الى الملك سليمان هو انه قد عاد هذه المرة على ايدي المسيحيين أنفسهم وبمعاونتهم الفعلية دون غضاضة، وحتى بموافقة الهيئات الدينية المسيحية على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم. والدليل على موافقتهم أيضاً، هو انه لم يعترض أحد منهم على ذلك، ويقولون: ان سكوت الهيئات الدينية معناه الرضا والقبول وهو بمقام الاعتراف بالحق والصواب، وإقرار بالأمر الواقع الذي لا مناص منه، ولم يكن من المعقول الاعتراض عليه بعد تلك الصراحة الواردة في الاسفار، خاصة بعد أن ثبتت أقدامنا هذه المرة في فلسطين وعادت المملكة الاسرائيلية والكرسي الى ما كانا عليه. هذا ما يقوله الصهاينة ويتمسكون به، وهي مدعيات كاذبة يجب سحقها وحذفها من الوجود قبل أن تستفحل. فلا يجب أن تمر بابتسامة طارئة هازلة.

فكان توجه الصهاينة الى اورشليم في زماننا هذا، بغض النظر عن العوامل الاقتصادية، ما هو إلا لاستعادة حصن صهيون وتثبيت كرسي سليمان وتجديد بناء الهيكل وإقامة مملكة اسرائيل وتأييد

نبوة النبي ناثان مرة أخرى، تلك النبوة القائلة بأن بيت الله والكرسي والمملكة ستثبت ولا تزول الى الابد. فلو لم يكن هذا المثلث اليهودي هو المقصود بالذات، لوافق اليهود على تشكيل دولتهم في الاراضي التي قدّمتها لهم انكلترة وأمريكا وفرنسة وروسيا في افريقيا وآسيا وأمريكا.

واذا ما تشكلت وتمركزت الحكومة اليهودية ـ لا سمح الله ـ في فلسطين مرة أخرى على أيدي من كفر بأقوال السيد المسيح من أبناء الكنيسة المجيدة، واذا ما حانت لليهود الفرص، فاسترجعوا اورشليم ودخلوا الهيكل بيت الله مرة أخرى، فستظهر في مستقبل الايام، وعندما تحين الفرص، فرقة واحدة منهم، ان لم يكونوا كلهم، فتعلن على رؤوس الاشهاد وبدون خوف ووجل، وبدون حياء وخجل، ان الملك سليمان هو ابن الله والله ابوه بالحق والاستحقاق وذلك بموجب الشريعة اليهودية وبالاستناد الى نصوص التوراة (العهد القديم) و(الكتاب المقدس) الذي يتمسك بنصوصه النصارى واليهود على حد سواء ولا يمكن اغفال حرف واحد منه، وستكون علامة ابن الله الثابتة هو المثلث اليهودي (الكرسي، والمملكة، وبيت الله «الهيكل»)، بموجب قول الرب الواضح الذي لا لبس فيه ولا ايهام على لسان انبيائه داوود وناثان.

ويدّعي اليهود ان عدم جهرهم بهذه الحقيقة الثابتة الواضحة الناصعة خلال هذه المدة الطويلة هو ضعفهم العام وخوفهم من المسيحيين الذين يعتبرون سيدهم يسوع المسيح هو ابن الله. أما الآن وقد تشكلت لهم حكومة رسمية وزال ضعفهم، فلم يكن لهم بد من الجهر بالحقيقة سواء رضي العالم المسيحي أم لا، فان ما ورد في الاسفار من عبارات لا يمكن تأويلها بغير ما هو ظاهر منها مطلقاً الا وهي: لا يوجد من يستحق عنوان ابن الله غير الملك سليمان.

ولما كان ليس لله عند المسيحيين أولاد كثيرون، وبما ان اليهود لم يعترفوا بمسيحية يسوع المسيح، ففي الخطوة الثانية سيعلن اليهود ـ لمصلحتهم السياسية ـ نبوة الملك ناثان على لسان الرب، بأن كرسي سليمان لا يزول الى الابد. وأن لا يوجد في العالم كله من يستحق عنوان ابن الله والله ابوه سوى الذي بنى البيت الله «الهيكل» وهو الملك سليمان (8 ـ 12 اخبار الاول) بموجب نصوص الاسفار الصحيحة الواضحة، فيصبح الصراع بين المسيحيين وبين اليهود اكثر مرارة مما هو بين العرب واليهود. فان الطعنة النجلاء التي تريد الصهاينة إنزالها بالديانة المسيحية في مستقبل السنين والاعوام، لهي أقوى اثراً وأعظم شأناً وأشد مرارة مما قد يصيب العرب في حدودهم الاقليمية.

فلا بد للعالم المسيحي، ورجال الدين المسيحي، ان يتدبروا ما يخفيه الصهاينة في خطواتهم الاولى، وهي التمركز أولاً في فلسطين، ثم القيام بحملة خفية استهزائية غامضة، غير مباشرة وغير محسوسة كما هي عادتهم، ضد الكنائس المسيحية وضد الديانة المسيحية، والطعن بذات السيد المسيح الذي سببت ديانته لهم المذابح والآلام والمصائب والاكدار والحسرات والنكبات والبكاء والاحزان والطرد والسبي والتشريد وخراب البيوت مدى الحياة، منذ القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثامن عشر، فينتقمون منه ومن ديانته ومن المسيحيين كافة مستخدمين في ذلك كل وسيلة. وحتى ضعاف العقول من أبناء الكنيسة اولئك الذين نبذوا شعائر دينهم باسم العلم والفلسفة والانسانية والمدنية

واعتبروها خرافة اكل الدهر عليها وشرب... وبهؤلاء وامثالهم من الكفرة الفجرة سيصل اليهود بسهولة الى غاياتهم وأهدافهم الخفية المتعلقة بالابوة الالهية للابن سليمان والبنوة السليمانية للاب العظيم. ولم يزل الاكليروس الديني في سبات عميق لا يهمه من أمر اليهود شيئاً، واليهود في يقظة وانتباه شديدين دائمين لا تغمض لهم عين في سبيل إعادة مجدهم الغابر وتثبيت اقدامهم في فلسطين بكل الوسائل الممكنة. فيا لها من مصيبة ويا لها من نكبة ستصيب العالم المسيحي على ايدي البعض من أبناء الكنيسة الميسحية وستقع على رؤوس المؤمنين من المسيحيين ان عاجلا أو آجلا.

وقد يضحك اليهود في كنيسهم ومخادعهم على ذقون السادة السذج الاغبياء من ابناء العنصر الآري الاوروبي ويبتسمون من عقول السياسيين الانسانيين النجباء(1) اولئك الذين يعتقدون «ان الدين في المعابد والوطن للجميع» وهي الكلمات التي وضعها ونشرها اليهود أنفسهم في العالم أجمع ليستفيدوا هم منها. وهي كلمة حق يراد بها باطل كما تعلمون. فهي كلمة حق على ان تشمل أبناء الوطن المخلصين لأوطانهم فقط.

ذلك أيها الشيوخ الاجلاء ما فهمه أو ما أراد أن يفهمه ويفسره ويعلمه الصهيانة من أقوال انبيائهم. وتلك هي تفسيراتهم الخاطئة وغاياتهم الخفية، وهي واحدة من أهدافهم السرية التي يعملون ليلاً ونهاراً لتحقيقها تحت أمل تثبيت دولتهم الحديثة في فلسطين. واذا كان في الحقيقة زمن النبؤات عند امم العالم كافة، قد فات، ومضى وانقضى، فقد جعله الصهاينة لأنفسهم ميثاقاً قومياً ودستوراً عاماً وهدفاً صهيونياً لتأمين بقائهم في فلسطين وللانتقام من الأمم الأخرى التي اضطهدت اليهود منذ عشرة قرون او اكثر. فقد اخبرني احدهم انهم وضعوا هذه التنبؤات وأمثالها في المحل الارفع من اعمالهم. وقد يبشر الحاخامون الصهاينة سراً في كل معبد وفي كل كنيس وفي كل مناسبة واحتفال وخلوة ويكررها الشباب الصهيوني فيما بينهم في كل وقت وزمان وفي كل مدرسة وجامعة وفي كل يوم وساعة، ويحلم بها أثرياء اليهود في كل أمة وفي كل بلدة وفي كل دولة... لينهبوا خيرات أرض المشرق ويجعلوا الأمم المجاورة لفلسطين تحت أمرهم وفي طاعتهم... وكلهم ساعون لإخراج تلك التنبؤات إلى حيِّز الوجود وكلهم جادون في تثبيتها وتأييدها بالوسائل والوسائط الممكنة كافة. وهي طعنة نجلاء كما تعلمون أيها السادة في نحر العرب وفي صميم الديانة المسيحية وفي ذات السيد المسيح.

الشيخ بدر: تأتي الصهيونية يا سادتي الكرام عند اليهود في الدرجة الاولى لأسباب دينية، وفي الدرجة الثانية لأسباب قومية، وفي الدرجة الثالثة لأمور اقتصادية كان قد نادى بها انبياء اليهود كافة. ويعتبر عزرا الكاهن الهاروني أول من نادى بالصهيونية عند تأسيسه القومية اليهودية حين عودتهم من اسر بابل. فكان قد ارغم اليهود كافة على ترك زوجاتهم الاجنبيات بقصد المحافظة على النسل المقدس شعب الله المختار. جاء في بياناته ومواعظه قوله «والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم (1) الى الابد لكي تأكلوا أنتم خير الارض وتورثوا بنيكم اياها الى الابد» (12 ـ 9 عزرا). وهي لوحة صدق أو انموذج حيّ للانانية اليهودية. فاليهودي لا يطلب سلامة

أحد ولا خير أحد مطلقاً. فلا يهمه سوى نفسه أولا وبني جنسه ثانياً. فيجب ان تكون خيرات الارض وثروات العالم كلها لهم وحدهم ولأبنائهم وأحفادهم فقط الى الأبد (؟) واذا كان بيد أحد شيء منها فلهم الحق في استردادها بالسبل كافة.

وجاءت ايها السادة الاجلاء كلمة الصهيونية كما تعلمون على لسان النبي زكريا أيضاً في قوله عن لسان الرب «غرت على صهيون» (15 ـ 2)، وفي قوله عن لسان الرب «ترنمي وافرحي يا بنت صهيون» (10 ـ 2). وجاء في سفر يوئيل «والرب من صهيون يزمجر ومن اورشليم يعطي صوته فترجف السماء والارض ولكن الرب ملجأ لشعبه وحصن لبني اسرائيل... فتعرفون اني أنا الرب إلهكم ساكناً في جبل صهيون. مصر تصير خرابا وادوم تصير قفراً» (15 ـ 2)... مما يستبان منه ان الصهيونية ليست حديثة عهد عند اليهود انما يرجع تركيزها الى زمن انبيائهم وسياسييهم القدامى في دور اضمحلال دولتهم. فكانوا قد وضعوها لتثبيت عزائم المشردين منهم في الآفاق، ولتسليتهم في غربتهم ومواساتهم في محنتهم، ولكي يضعوا جبل صهيون واورشليم وحائط المبكى نصب أعينهم دوماً جيلاً بعد جيل. وقد وعدهم انبياؤهم ايضاً بأن الرب إلههم «يهوه» كما مرّ أعلاه سيعيد يده ثانية ويعاونهم في نهب خيرات المشرق كله كما عاونهم سابقاً في نهب امتعة المصريين عند خروجهم من مصر ـ ويدخل طبعاً بنطاق المشرق الاردن والظهران ومنابع النفط كافة التي قد تشتغل غالبا برؤوس الأموال اليهودية الانكلو امريكية ـ وجعل الأمم المجاورة لفلسطين كافة تحت امرهم وطوع يدهم ورهن اشارتهم وفي طاعتهم(؟!).

فكانت أمثال هذه التنبؤات والصرخات والمغريات والمسليات والمنبهات والمواعيد في أسفار الأنبياء حافزاً قوياً لتوجه الصهاينة الى فلسطين دون أي بقعة في العالم.

وفي الحقيقة، لقد ملك اليهود في هذا اليوم زمام المال في العالم وتحكّموا باقتصاديات الدول وتكمنوا من تسخير راية الامم المتحدة لمقاصدهم، عن طريق شراء ضمائر بعض رجال السياسة لتأمين منافعهم وتمشية امورهم، ومن اخضاع رجال الاقتصاد والمصانع والمعامل لمآربهم، ومن أخذهم الامم الغربية الى جانبهم، ومن استخدام الشعوب الآرية كافة في تسهيل مصالحهم وجعلها طوع يدهم ورهن إشارتهم، وإقناعها بفضل ما يملكونه من وسائط الدعاية بظلامتهم وبأحقية قضيتهم، وبصدقهم وإخلاصهم وانسانيتهم. وقد نجحت مساعيهم في الممالك الاستعمارية كانكلترة وفرنسة وأمريكا وروسيا في اعادة الشعب اليهودي الى فلسطين، وفي اعادة تأسيس دولة اسرائيل، وفي اعادة كرسي داوود وسليمان، رغم تنبؤات السيد المسيح وأقواله ورغباته الواضحة التي لا تقبل الشك والجدل.

ولما كانت فكرة المسيح المنتظر ذائعة في الاوساط اليهودية الرجعية، وكان المجمع اليهودي الرجعي يؤمن بقرب ظهور المسيح، وكان قد أعلن غابيتاي تسيبي اليهودي الازميري عن نفسه عام 1666 أنه المسيح المنتظر وأقام اليهود وأقعدهم في العالم كله، فقد تعلن جماعة من اليهود مرة اخرى، وتجد هذه المرة من يؤازرها ويؤيدها: أولاً ان الملك سليمان هو ابن الله، والله أبوه بالروح؛ وثانياً ان روح الرب قد حل على وايزمان أو على بن غوريون أو على أي فرد منحدر من جذع يسي، كما جاء في

الاصحاح الحادي عشر من سفر النبي اشعيا فيمسحه بعض الكهان بالزيت المقدّس وتعلن تلك الأقليات المصطنعة تحت استهجان الأكثرية الكاذبة وازدرائها ومخالفتها الظاهرية أنه المسيح المنتظر الذي بشر به الأنبياء وقد عاد بالفعل كرسي داوود، وعادت المملكة، ولم يبق سوى بيت الله (الهيكل) وهذا أيضاً سيعود قريباً.

وقد يعترف السياسيون الغربيون حينذاك، باسم الفلسفة والمدنية والحقوق الانسانية... بالأمر الواقع. وقد يعلن رجال سياسة اليهود من جانبهم، لتخدير افكار المؤمنين من أبناء العالم المسيحي المضطربة، بأن هذه الاعمال والمقولات انما هي فردية شخصية، قامت بها أقلية ضئيلة تبعاً لحرية الاديان والمذاهب لا يعبأ بها، وهي لا تعبر عن أفكار الاكثرية اليهودية وعن الشعور القومي وهي كالحزب الشيوعي الاسرائيلي لا قيمة لها عند الاكثرية الاسرائيلية، فيقنع الديمقراطيون من أبناء العالم الغربي بأقوالهم ومدعياتهم ويبتسم اليهود ازدراء وسخرية من عقولهم. ويقصد اليهود من ذلك كله تقوية عزائم الشباب اليهودي ليكونوا اكثر تمسكاً بتوراتهم وبأقوال انبيائهم عند تأسيس دولتهم المزعومة وتثبيتها.

الشيخ عيسو: يعتقد اليهود أيها السادة ان مواعيد الرب يهوه على لسان انبيائه ورسله لهم ستحقق لا محالة وستمكث في الارض الى أبد الآبدين. وأما أقوال سيدنا يسوع المسيح الذي لم يعترفوا بوجوده، فانها ستذهب كالزبد جفاء. وعند هذا الحد سيتجلى للعالم كافة وجود حالتين متناقضتين متضادتين: الاولى ما ورد في أسفار التوراة من ان سليمان الذي بنى بيت الله هو ابن الله والله ابوه بالروح بشكل واضح لا يقبل التأويل والتفسير. وكذلك مدعيات انبياء اليهود الاخرى من ان الاله سيمد يده ثانية فينتشل اليهود شعبه المختار من أطراف الارض ويخلّصهم من غربتهم ومن السبي والتشريد ويجمع شتات اسرائيل من جهات العالم ومن جزائر البحر ويعيدهم الى اورشليم ويسكن في وسطهم وكأنه لم يرفضهم(!) ويرفع راية للامم تجعلهم في حرز من أعدائهم ويعيد لهم «الكرسي. المملكة. بيت الرب» ويثبت لهم ويحييهم من جديد تأييداً لما جاء في قوله «لاني أنا الرب إلههم فأحييهم» (9 ـ 10 زكريا). وفي الحقيقة، وقد تكون الحقيقة أحياناً مرّة، لقد ظهرت تباشير هذه المواعيد الالهية والادعاءات النبوية. ولا يمكن اغفالها ولا يمكن انكارها. فقد عادوا الى فلسطين فعلاً وتخلصوا من غربتهم ومن السبي والتشريد. وعادت الكرسي وعادت المملكة ولم يبق سوى بيت الله! وقد يعود هذا ايضاً ان دام هذا الحال، بوقت قريب!؟

وأما الحالة الثانية، فهي ما جاء عن السيد المسيح في الاناجيل قوله «باسم ابن الله الوحيد» (18 ـ 3 يوحنا)، وقوله «اني في الآب والآب فيّ». ووجود المثلث المسيحي المكون من الآب والابن وروح القدس المنتشر في اربعة اطراف العالم والذي يؤمن به ما يقارب نصف العالم. يضاف اليه أقوال السيد المسيح التي تؤكد ان «ستقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة» وقوله «ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تحمل اثماره» وقوله «وتكون اورشليم مدوسة من الأمم» وقوله «ويسبون الى جميع الأمم»، وقوله «هوذا بيتكم يترك لكم خرابا»، وقوله وهو يشير الى بناية الهيكل «الحق أقول لكم انه لا يترك ههنا حجر على حجر لا ينقضي» (1 ـ 24 متى)، وقوله «فمتى رأيتم رجسة الخراب قائمة في المكان

المقدس فاعلموا ...»، وكثير من أقواله المتشابهة الاخرى التي لا غموض فيها ولا تقبل الشك والجدل والتأويل عن مصير اليهود المؤلم، وليس لها ولا فيها مدة وزمان، فلا يمكن أن تنتهي مدتها ومفعولها في وقت من الأوقات.

فلنا إذن ان نسأل من خلفاء السيد المسيح ومن الجالسين على كرسي السيد المسيح في أنحاء الارض على اختلاف مللهم ومذاهبهم وطرائقهم، مَن من هذين الادعائين سيثبت بالقول والفعل والواقع، وسيمكث في الارض، ومن الذي سيكون هو الصحيح؟ فأما ما يعود الى الأبوية والبنوية الالهية حسب المعتقدات اليهودية والمسيحية فقد سبق ذكرها بإسهاب، وأما ما يعود الى ملكوت الله، فاذا كان قد نزع من اليهود كيف يعاونهم ذلك الاله في عودتهم الى فلسطين؟ واذا كان سبيهم وتشردهم قد حصلا تحت تأثير دعاء السيد المسيح عليهم وتحت أوامره ورغباته فكيف يجوز للعالم المسيحي كما قد نراه الآن معاونتهم في عودتهم الى فلسطين؟ واذا كان قد ترك بيتهم خراباً فكيف يجوز معاونتهم ومدهم بالمال لتعمير بيوتهم مرة اخرى في فلسطين؟ بل كيف يصح للعالم المسيحي السكوت عن عودتهم الى فلسطين؟ أو ليس الساكت عن الحق عند مقدرته على الكلام وعلى منع الظلم بمثابة الظالم نفسه؟ أو ليس السكوت يعتبر بمثابة الرضا والقبول! أو ليس قبول عودتهم الى فلسطين يأتي بمعنى إنكار أقوال السيد المسيح وعدم اعطائها الاهمية الكافية وهو لا يقل عن كفر يهوذا الاسخريوطي؟ فهل للعالم المسيحي أن يتدبر ما يكنه وما يبيته اليهود في خطوتهم الثانية لبنوة السيد المسيح ولديانة السيد المسيح! وهل لساسة العرب أن ينتبهوا الى ما جاء في تنبؤات النبي زكريا واشعيا الآنفة الذكر، وهي بمثابة مواثيق وأهداف قومية للصهاينة!

الشيخ جبرائيل: بعد أن اطلعتم أيها الشيوخ الكرام على نظرة اليهود الى السيد المسيح والى الديانة المسيحية، اسمحوا لي أن أقول استطراداً كلمة ـ وان كانت خارجة عن الصدد الذي نحن فيه ـ حول نظرة الديانة الاسلامية الى ذات السيد المسيح والى الديانة المسيحية وأقرأ عليكم بعض النماذج من آيات القرآن الكريم لمقايستها مع نظرة اليهود. فتأملوا أيها السادة الكرام ما تنطوي عليه هذه النماذج من القرآن المجيد وما فيها من آيات التبجيل والتقدير والاحترام للسيد المسيح وللذين اتبعوه وللقسس والرهبان كافة. فهي لوحات نورانية خالدة تتدفق منها الروحانيات الخالصة بمعناها ومبناها قد جمعت بكلمات قليلة معاني جد ثمينة رفيعة عالية، وما اكثر أمثالها في القرآن الكريم. فقد جاء في سورة الحديد (26) ثناء عاطراً على السيد المسيح وعلى انجيله، وعلى الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتبعوه، وهذا خلافا للغلظة التي في قلوب اليهود. وفيها انتقاد حلو لطيف للرهبانية المسيحية المؤسسة على ابتغاء رضوان الله في قوله ﴿وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم﴾. وتأملوا أيها السادة هذه الآية الكريمة الآخرى من (سورة المائدة 45) التي جعلت الانجيل هدى ونور وموعظة حسنة في قوله ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور مصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾، وهذه آية أخرى ثالثة من (سورة آل عمران 55) التي أيدت صعود السيد المسيح الى جنب الله وجعلت اتباع

السيد المسيح فوق الذين كفروا الى يوم القيامة في قوله ﴿إذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة﴾. وأخيراً أيها السادة الأجلاء اكتفي بقراءة هذه الآية الكريمة أيضاً من (سورة المائدة 81) وفيها تفسير بليغ لروحية اليهود وما انطوت عليه جوارحهم وجوانحهم من خبث ولؤم وعداوة للبشرية كافة وجعلهم ـ مع المشركين بمنزلة واحدة ـ من جهة، ومن جهة أخرى انها تثبت وتؤيد المودة التي عند النصارى وخاصة العواطف الرقيقة والخشوع والعلم والحق عند القسس والرهبان في قوله ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بان منهم قسّيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾. فلا يمكنني أن انقل لكم ما هو موجود كله في القرآن الكريم حول تعظيم السيد المسيح وتبجيل الاناجيل واحترام الديانة المسيحية ورجالها، فيكفي أن اذكركم ان فيه سورة كاملة باسم امنا العذراء (مريم) من الواجب على كل مسيحي قراءتها والاطلاع على ما فيها من آيات التنزيه والتوقير والمودة والاحترام للأم العذراء وللسيد المسيح وللديانة المسيحية ما لا يوجد مثله حتى في العهد الجديد، وأما قوله ﴿وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم... وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه﴾ فيظهر لي انه جاءت بقصد التنزيه والتمجيد والاحترام للسيد المسيح واعتباره أجلّ وأعظم وأرفع من أن يجلد ويقتل ويتفل عليه ويصلب على يد شرذمة من اليهود الأفّاكين المرائين المنافقين. فلذلك أبدله الله من اليهود أنفسهم بشبهه، فليس ذلك على الله بمستنكر، فأين هذه الآيات البينات الساطعات، ممّا قاساه السيد المسيح على أيدي اليهود في حياته، ومن قولهم بعناد وإصرار «اصلبه! دمه علينا وعلى أولادنا».

الفصل العاشر حالة اليهود

[يجتمع شيوخ الطوائف المسيحية للمرة الثالثة في قاعة الدير الكبرى تحت رئاسة الشيخ سمعان لاستعراض حالة اليهود في القرون المتوسطة والمتأخرة في أوروبا وامريكا].

الشيخ بديع: سبق أن ذكرتم يا حضرة الشيخ منصور في حديثكم اسم الاسماعيلية، وانا أعلم ان هذه المنظمة السرية كانت تعمل على تقويض قواعد الديانة الاسلامية وهدمها لتحلّ محلّها. وكان لها قواعد وتعاليم ونظم ظاهرية معلومة ومراتب ودرجات سرية باطنية لا يعلمها إلا الرؤساء الذين يديرون امورها وشؤونها فقط. وكانت جمعية الكابالا السرية اليهودية التي تفضل وذكرها الشيخ يعقوب بحديثه، قد تأسست على غرار نظم الاسماعيلية وتعاليمها المذكورة لهدم النصرانية وتقويض أسسها، ثم أخذت الجمعيات والفرق الأخرى المؤسسة في انحاء أوروبا كثيراً من قواعد وتعاليم الكابالا كجمعية فرسان المعبد Les Templiers في أدوارها الاخيرة، وجمعية الالبيين Alpigenses وجمعية الصليب الوردي Die Rosenkruzer وجمعية البناء الحرّ (الماسونية) La Franc Maconnerie وجمعية الشعلة البافارية Der Illuminatenordin وأخيراً الاشتراكية La Socialisme والشيوعية Le Communisme وغيرها، وكلها كانت متأثرة كلياً أو جزئياً بقواعد الكابالا السرية اليهودية العالمية فيما يتعلق بمهاجمة القواعد الدينية والقومية والوطنية. وكلها تهدف الى الثورة على النصرانية وإضرام الثورة العالمية. وكان يجثم وراء تلك الجمعيات على اختلاف مراميها واهدافها السياسية والاقتصادية والاجتماعية منذ القرن الرابع عشر حتى هذا اليوم ـ كما كان الحال في الاسماعيلية ـ جمعية يهودية سرية عالمية تشرف عليها وتدير حركاتها من الخفاء وبواسطة عملائها القادة اليهود الذين يندسون في كل فرقة ويدخلون كأعضاء في كل جمعية ويتظاهرون كأنهم اغبياء بسطاء لا حول لهم ولا طول فينفذون في كل فرع من فروع الجمعية ويصبحون بما يتظاهرون به من اخلاص وخدمات وتفادٍ مصطنع في سبيل تمشيتها وغاياتها رؤساء يديرون شؤونها وينظمون امورها ويضعون قواعدها نظراً لما توحيه في الخفاء إليهم الجمعية السرية العالمية الآنفة الذكر. وكانت أهداف اليهود فيما سبق بمجموعها، ترمي الى تحقيق المساواة والعدالة والحرية للجميع، وبعد أن تحقق لديهم هذا المثلث في الازمنة المتأخرة، خطوا الخطوة الثانية فأيدوا الاستعمار لتكون لهم فيها أسواق تجارية، وقبضوا على وسائط الدعاية التي هم بحاجة ماسّة إليها، وقبضوا كذلك على زمام الشؤون المالية فامتلكوا ثروات العالم وتحكموا في مقدرات الأمم الغربية وتلاعبوا بمصائر الحكومات بما لهم من نفوذ في الدوائر الخارجية (امريكا) وفي مختلف دوائر الدول الديموقراطية (انكلترا) فخلقوا بنفوذهم هذا مولودهم الجديد دولة اسرائيل في أرض فلسطين مهد السيد المسيح!.

الشيخ يوحنا: كل ما ذكرتموه صحيح. وهو مسطور في تاريخ أوروبا الحديثة. وكما تعلمون حضراتكم، لما شرع اليهود بتأسيس جمعية الكابالا، وهي كلمة عبرية معناها التقاليد اليهودية أو التقاليد العبرية،

كان القصد منها على الغالب نشر روح التمرد والثورة والعصيان بين طبقات الناس. وكان قد اخذ عنها بعض الجمعيات والطوائف والفرق الهادمة الاخرى كأصحاب القداس الاسود واخوة الشياطين وطوائف السحرة... المنتشرة في أوروبا، كثيراً من التعاليم الفلسفية والروحية والشعوذة والسحر والتقويض والهدم والازدراء بالدين والمعتقدات. وكان القصد الأساسي من تلك الجميعة هو الانتقام بصورة خفية من العناصر كافة التي اضطهدت اليهود وطردتهم مراراً وتكراراً من البلاد من جهة، ولتأمين التساوي بالحقوق والواجبات مع أهالي البلاد الاصليين من جهة أخرى، ولمواجهة الخصومة ضد السامية اليهودية المنتشرة في الاوساط المسيحية كافة من جهة ثالثة. ولقد تشعب من جمعية الكابالا كما تفضلتم عدة جمعيات علنية وسرية تظهر شيئاً من مقاصدها وتخفي أشياء. ولها مراتب ونظم ورموز ودرجات سرية قد تخفى شخصياتها على كل أحد، وحتى على المنتسبين إليها. ولقد تطوّرت بمرور الزمن فأصبح لها مركز عام مكوّن من بضعة أشخاص لا يعلم أحد اسماءهم ومقرّهم ـ ولعله في نيويورك الآن ـ أعدادهم معيّنة، كلما مات منهم شخص قام بمكانه من هو دونه في المرتبة. فلا يزيدون ولا ينقصون منذ خمسة قرون أو اكثر حتى هذا اليوم. فهؤلاء هم الذين يديرون اليهودية العالمية وبالوسيلة دفة اليهود في العالم. وهم الذين كانوا ولم يزالوا يسيّرون الجمعيات ويضعون لها الخطط الأساسية. وهم الذين يمنحون للأفراد الرتب والدرجات. وهم الذين يحشدون الانصار والمقربين في صفوف متعاقبة متدرجة في المكانة والرفعة والمرتبة للاطلاع على ما يضر وينفع بالمصالح اليهودية ويتخذون التدابير اللازمة لدفع الاذى والاضرار عن الأمة قبل وقوعها. وهم الذين يضعون الأسس والقواعد والمناهج لدور الاذاعات والجرائد والمجلات. كل ذلك لغرض السيطرة على الأمم والاقوام وتخليص اليهود مما هم فيه من البؤس والشقاء وتساويهم الأمم الاخرى. وفي الحقيقة ان لم ينجحوا في مساعيهم هذه مع الشعوب العربية السامية رغم انهم نجحوا بفضل ذكائهم السامي مع الشعوب الآرية، فنالوا منهم كل ما يبتغون. وزيادة عما كانوا يأملون وأكثر مما يرغبون، مستفيدين من غباوة بعض أوغاد السياسة ومن الكفرة المرتدين عن الدين المسيحي باسم المدنية والفلسفة والانسانية.

الشيخ شمعون: وزد عليه يا جناب الشيخ القديس، أن من جملة الجمعيات العلنية التي سادت في القرن السادس عشر في بولونية، ثم انتشرت في أوروبا كلها جمعية بعلشم أو بلسم وهي كلمة عبرانية معناها (اسم البعل) أو (اسم الاله) أو (اسم الله) الاعظم. وهي كلمة كان يستعملها اليهود منذ أن كانوا في فلسطين يعبدون البعل والبعليم (6 ـ 10 قضاة). وكان البعل، وهو من آلهة البابليين، قد انتقلت عبادته من بابل الى سورية ولبنان وفلسطين فأصبح من أعظم آلهة اليهود لما كانوا يعبدون الآلهة الكثيرة في فلسطين وكانوا يحلفون باسم البعل في الايمان المشددة والمغلظة. فنشروا هذه الكلمة في العالم كله دون أن يعلم أحد من هو هذا البلشم في اوروبا، او اسم الله الاعظم في الشرق، وما مصدره وما اشتقاقه. وفي وقت كانت التعاليم اليهودية قد انشرت في أوروبا بواسطة جماعات الكابالا الباطنية والتلقينات المتكررة الغامضة التي لا يعلم أحد ما وراءها، كان المشعوذون اليهود الذين تتوفر فيهم بعض الحالات الغامضة والوقوف على المغيبات والمهارة في الشعوذات ومخاطبة الارواح

أمثال غابيتاي تسيبي اليهودي الازميري الذي اعلن عن نفسه عام 1666 انه المسيح المنتظر، وأقام المجتمع المسيحي واليهودي وأقعدهما بخزعبلاته وشعوذاته ومدعياته حتى توسطت المراجع المسيحية العالمية بالخليفة العثماني لتأديبه، فأسلم وتراجع عن مدعياته بالظاهر ثم هلك بالحبس العثماني. وكذلك اسرائيل البدولي مؤسس طائفة «الحسديم» عام 1740 الذي نشر طريقة «الزوهار» في أوروبا كلها. وكان بارعاً في افانين السحر وضروب الشعوذة. وكذلك هو هايلبرن المسمى ايضاً بحويل ابن اوري وأمثالهم كثير، كانوا كلهم يدّعون انهم بقوة بعلشم يخطبون الارواح ويعالجون الامراض ويعلمون بما في الغيب ويفتحون في رأس كل سنة «الملحمة» فيطلعون على ما تخبئه الاقدار من جفاف وأمطار وضيق ورخاء وعسر ويسر ونحس وسعد، وانهم يسخّرون الجان والشياطين في اعمالهم السحرية ويتدخلون في امور الناس وبين المرء وزوجه، ويجلبون الخير والشر، ويصنعون الخوارق ويتصرفون بالنواميس الكونية... كلها عندما تلفظ كلمة بلشم أو بعلشم الذي كان سراً من الاسرار التي لا يعلم أحد معناه... وأما يعقوب فرنك الذي سمى نفسه البارون فون أوفنباخ وهو من أشهر دعاة الكابالا وأعلمهم باسرارها وقواعدها، فكان كذلك من دعاة جمعية الزوهاريين الآنفة الذكر. ومعنى الزوهاريين بالعبرية الضوء أو الشعلة. فهو وأصحابه اخوان الشعلة كانت غايتهم المثابرة على التقويض والهدم ونشر الالحاد وإنكار الاديان حتى الدين اليهودي نفسه ليكون الالحاد قدوة للآخرين ولا خوف على الدين اليهودي، فخرجوا على التقاليد اليهودية رياء ومكراً وتتبرّؤا من الديانة اليهودية كذباً وزوراً لكي يتبعهم الطائشون من ابناء الكنيسة المسيحية في نشر الالحاد والانكار والازدراء والاستهزاء بالتقاليد الدينية. وقد أخذ المشعل أو الشعلة بعد ذلك كثير من الجمعيات الاخرى واتخذوها نبراساً لهم دون ان يعلموا مصدرها والظروف التي ظهرت فيها. فكان هؤلاء وأمثالهم كثير قد أقنعوا الاغبياء من الآريين بقدرتهم على تبديل مجرى الحادثات والتدخل بشؤون الكون. كما وانهم قد يتلاعبون بعقول الاوروبيين والامريكيين في زماننا هذا بطرق أخرى عصرية زمانية كالحرية والمساواة والحقوق البشرية... الخ.

وأما ما يعدد الى الاشتراكية والشيوعية فان نظرتهما الى الاديان معلومة ولا حاجة لذكر شيء عنهما.

الشيخ ناصر: تعلمون أيها السادة ان حملة الصليبيين الأولى عام 1096 كانت متجهة نحو جبل صهيون في بيت المقدس، حيث يعتقد ان السيد المسيح صلب هناك. وكانت التراتيل الدينية التي يرتلها اولئك الناس تؤثر في نفوسهم أشد التأثير، فلذلك كان قد استولى على جسم المجتمع الأوروبي موجة من السخط والكره على اليهود الذين صلبوا السيد المسيح، فنتج عن ذلك اضطهادات اليهود في مختلف انحاء أوروبا، ثم تبع ذلك طردهم أفراداً وجماعات من البلاد التي هم فيها، إلا انهم كانوا يعودون بمختلف السبل والوسائط الى تلك البلاد التي طردوا منها. ولما كانت حركات اليهود في أوروبا الغربية وحيلهم ودسائسهم وإفساداتهم وأخذهم الربا الفاحش كما ذكره الشيوخ الاجلاء، أصبحت لا تطاق ولا تحتمل، ولما كان الطرد الفردي والاجماعي من البلاد لم يؤثر فيهم، فكانت الافكار قد أجمعت على ابادتهم للتخلص منهم ومن أعمالهم ودسائسهم وإفساداتهم فأبيدوا لأول مرة في بلاد الراين حيث

قتل منهم 85000 نسمة وهرب الباقون الى بولونيا. وفي الحملة الصليبية الثانية كانت قد انتقلت المذابح والاضطهادات الى فرنسا، ثم انتقلت في الحملة الثالثة الى انكلترا، وكان اليهود يشكلون في المدن وحدات قومية مستقلة بهم وحدهم ويختارون العزلة ويتكتلون بأحياء خاصة، وقد يقدمون الرشوات الكبيرة للملوك والامراء والحكام لحمايتهم وليغضوا النظر عن سلبهم أموال الناس بالربا الفاحش وبالباطل، وعن أعمالهم المخالفة للقوانين المحلية... ودام هذا الحال على هذا المنوال حتى حدثت الثورات التحريرية الافرنسية والامريكية والالمانية والانكليزية فتحرر اليهود مع من تحرر من أبناء البلاد وأصبحوا كسائر أبناء البلاد متساويين بالحقوق والواجبات.

وكان لما قويت شوكة اليهود في انكلترا، اتفق زعماء الصهيونية مع وزير خارجية انكلترا عام 1842 على «تأسيس مستعمرة يهودية في فلسطين تكون بمثابة الحصن الشرقي لقنال السويس». فكان الساسة والكتاب الانكليز تحت تأثير مغريات الصهاينة يؤيدون وجود حكومة يهودية تحت حماية بريطانيا العظمى في فلسطين للاحتفاظ بطريق الهند، فقام اليهود الانكليز أولا بإنشاء المستعمرات اليهودية في فلسطين وأعقبهم اليهود الالمان فعمروا المزارع والحقول الزراعية ثم جاء وعد بلفور وأعقب ذلك سياسة انكلترا الخرقاء في ارهاب العرب وقلع دورهم بالمفرقعات لكسب عطف اليهود في أمريكا والصهيونية العالمية.

الشيخ جميل: اسمحوا لي أيها السادة الكرام ان أذكر لكم بعض المقتطفات عن استغلال اليهود للحرية الامريكية. فقد جاء في تصريح استقلال أمريكا عام 1776 عن فلسفة الحرية الانسانية «ان الناس قد خلقوا متساوين في الكرامة والحقوق، وان الله قد وهبهم حقوقاً شرعية، بينها الحياة والحرية والسعي وراء السعادة...»[1]. ولما علم يهود العالم بما في هذه الوثيقة من حرية، وهي ما كانوا يتمنونه منذ زمن بعيد للتخلّص من حركة العداء ضد الساميين، تسرّبوا إليها من كل فج عميق، وجاؤوها من كل حدب وصوب. فدخلها منذ عام 1884 حتى الحرب العالمية الاولى ما يربو على الاربعة ملايين يهودي، فأصبحت الولايات المتحدة مهجراً لليهود، ثم تحولت الى مستعمرة لليهود. وجاءت الوثيقة الدولية «لحقوق الانسان»، ولا أعلم أيها السادة ممن يطلب الانسان الغربي اطلاق حقوقه المهضومة، بينما الانسان الشرقي يتعوذ من شر الانسان الغربي، فلا ريب ولا جدال بانها تخص اليهود وحدهم وبان كان لليهود، بواسطة لجان فروع البناء الحر «الماسونية»، النصيب الاكبر في وضع هذه الوثيقة، بصورة سرية وغير محسوسة. فقد جاء فيها «يولد الناس أحراراً ولهم حق الحياة والكرامة والحقوق المتساوية، ولهم أن يعملوا بروح الاخوة فلا تعذيب ولا عقاب ولا معاملة سيئة ولا قسوة لأحد من البشر، والناس كافة متساوون أمام القانون ولهم حق الامتلاك وإبداء الرأي وحق الاجتماع بلا تمييز في القومية أو الدين أو الجنس أو السن، وان يشترك في جميع خدمات المجتمع وأعماله وله حرية التنقل والاقامة... الخ. وهي تمثل حالة اليهود مع المجتمعات الغربية قبل هذه الوثيقة وما كانوا عليه من معاملة سيئة خير تمثيل، بينما كان اليهود في البلاد الاسلامية قاطبة يتمتعون بكامل حريتهم

(1) وهي تشابه ما جاء بكلام عمر بن الخطاب قبل ألف وثلثماية سنة، وهو يعاتب عامله على مصر في قوله «كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً».

ويتعاطون أنواع الحرف والتجارة والصنائع دون تمييز، ولهم حق التملك والتنقل، فقد استفادوا من وثيقة حقوق الانسان الآنفة الذكر أعظم فائدة، واكتسبوا في البلاد الغربية حرية الدين والكلام والصحافة والاجتماع والامتلاك وارتفع عنهم التفتيش والحجز والمصادرة والغصب والسخرة، ونالوا حقوق المساواة مع أهالي البلاد وفي المحاكم وحق تقديم الظلامات الى الحكام ورفع الحيف وتأسيس المعامل وتعاطي التجارة وأعمال الصيرفة... الخ. كل هذه الحقوق والحريات جاءتهم مؤخراً عفواً وبدون ثمن. ولم يكونوا بعد تلك الاضطهادات ليحلموا بها فتحرروا من تحرر من الناس وأصبحوا مواطنين معترفاً لهم بتلك الحقوق والحريات، وبينما كان عليهم أن يتمازجوا مع أهالي البلاد حافظوا بالعكس على عنعناتهم وسجاياهم الخلقية ومزاياهم اليهودية دون أن يتنازلوا عنها مثقال ذرة. يضاف الى ذلك كله انهم وجدوا الشعوب الآرية في الغرب وفي امريكا أقل منهم ذكاء ومقدرة على الاعمال الفكرية والأشغال الذهنية فاستولوا تدريجياً على مقدرات أمريكا الشمالية والجنوبية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فاستعمروا واستثمروا بأدب ولطف وباسم الحرية والعدالة والمساواة اتعاب ما يقارب المائة والخمسين مليونا من النفوس الآرية المسيحية، فاستخدموهم في أداء مصالحهم، وساقوهم الى ترويج غاياتهم، حتى أصبحوا سادات امريكا الحقيقيين، وأصبحت الحكومة الامريكية نفسها تحاذر من النفوذ الصهيوني في نيويورك وواشنطن، وأصبح رجال المال والاعمال ورجال الصحافة والسينما فيهما أغلبهم من الصهيونيين. فكان لمدينة نيويورك التي تضم أربعة ملايين يهودي تأثير كبير على مقدرات الشعب الامريكي وعلى السياسة الامريكية وخاصة على السياسيين الامريكان بالذات وبالنفس، وبالمفرد والجملة. ووصل الأمر أن يكون اليهود سادة الموقف في أمريكا ولهم الكلمة العليا حتى في انتخاب رئيس جمهوريتها وأعضاء بلدياتها ولجان دوائرها الصناعية والتجارية... والشعب الامريكي العظيم رغم عدده وعدته، لم يزل ينظر اليهم بعين العطف، ممزوجاً مع الخوف والحذر، ولم يفتح فاه، ساكت صامت جامد كالغرانيق (التماثيل) لا ينطق بكلمة واحدة، بينما الشيوخ والنواب في الكونغرس الامريكي من اليهود، ومن المسيحيين عملاء تل أبيب، يبيعون ويشترون بمقدراته، وهو يتباهى بمشعل الحرية في مدخل نيويورك، وقد يتغنى بالحرية والعدالة والمساواة. وأما في انكلترا فقد وصل الامر أن يكون دزرائيلي رئيساً للوزارة وأحد اليهود وزيراً للدفاع والبحرية في وزارة العمال(١٩) وكذلك آخر نائب للملك في الهند، وغيره نائب الملك في فلسطين، رغم ما لاقته من الحقارة والهوان من الصهيونيين في تل أبيب... كأن الشعب البريطاني قد عقم ولم يبق فيه من يتولى نيابة الملك. وقد يبتسم اليهود في الخفاء من بلادة بعض أفراد الشعوب الآرية ومن عقولهم الصغيرة الساذجة المحدودة الشاذة هذه.

الفصل الحادي عشر امور دينية فقط!

[يجتمع شيوخ الطوائف المسيحية للمرة الثالثة في قاعة الدير الكبرى تحت رئاسة الشيخ سمعان].

الشيخ الرئيس سمعان: والآن اسمحوا لي أيها السادة أن ألخص الموضوع وأقول كلمتي من الوجهة الدينية فقط، ولا علاقة لي بالامور السياسية والاقتصادية. فان الأشد ألماً من كل ما سبق ذكره، ان بعضاً من أبناء الكنيسة المغفلين وبعضاً من أصحاب القلوب الطيبة الطاهرة الانسانيين، ومن السياسيين الماكرين، ومن المشعوذين المرتشين، ومن الاغبياء والبلداء والبسطاء المخدوعين... أخذوا يبشرون بالمساواة المطلقة لجميع البشر، الكلمة التي اخترعها ونشرها اليهود في أنحاء العالم لفائدتهم، متزعمين هذه الحركة الانسانية المغشوشة اكثر من اليهود أنفسهم، لا لفائدة البشرية أجمع، ولا كما امرت به الديانتان العظيمتان المسيحية والاسلامية بعدم التفريق بين المؤمنين، والمساواة المطلقة بين البيض والسمر والسود والصفر والحمر، انما لفائدة اليهود فقط. وهذه الشعوب الملونة والمتأخرة أمامنا لم تزل تئن تحت غطرسة المستعمرين، وما من مغيث لها من اولئك الانسانيين المزعومين. وعلاوة على ذلك كله ان من أبناء الكنيسة المجيدة من يبرىء اليهود من دم السيد المسيح ويعتبره خرافة أكل الدهر عليها وشرب، ومنهم من يسخر من النبوآت ومن الروحيات ويعتبر زمنها قد فات وقدسها قد مضى وانقضى، ومنهم من يسعى الى تأسيس دولة يهودية في فلسطين لأغراض استعمارية لعدم اعتماده على الدول العربية وتحت أمل الاستفادة من اليهود وقت الشدائد والمحن دون ملاحظة وجود الاحزاب الشيوعية في اسرائيل التي تقوم بنشاطها علناً، بينما هذه الاحزاب محرّمة في البلاد العربية كافة، وذلك لاستفادتهم منها في الاوقات الحرجة وفي وقت من المحتمل على زعمهم قد تتغلب فيه الشيوعية على الديمقراطيات فتكون هذه الاحزاب الشيوعية سنداً لدولة اسرائيل المزعومة في المستقبل المجهول، وهو في منتهى حدود الحمق والغباوة والبلاهة والسذاجة والجهل وعدم الوقوف على الاخلاق اليهودية. ومنهم من يعطف على اليهود باسم التاريخ والانسانية، فيزودهم بالمال والسلاح مجاناً لتقويتهم، ولتثبيت أقدامهم في أرض فلسطين ويمنع تجهز البلاد العربية بالسلاح لئلا يستعملوه في طرد اليهود من أرض فلسطين. ومنهم من يؤيد وعد بلفور اليهودي البريطاني ويؤيد ضرورة تأسيس وطن قومي لليهود، فيستغل الانتداب على فلسطين ويمكّن اليهود من الهجرة إليها بالآلاف. ومنهم من يقضي على الانتفاضات والثورات العربية ضد الصهيونية، ويقلع دور العرب المجاهدين بالمفرقعات، ومنهم من يعقد المؤامرات ويصدر في مارس من عام 1950 التصريح الثلاثي المكون من الدول الاستعمارية أمريكا وانكلترا وفرنسا حول لزوم محافظة الامن والسكون والاستقرار وعدم التجاوز على حدود الغير وضمان الحالة الراهنة على حدود بلاد الشرق الاوسط،

كل ذلك بقصد المحافظة على وليدتهم دولة اسرائيل الحبيبة. ثم يجري نفوذه الجبار على مختلف الهيئات الدولية في جمعية الأمم المتحدة، وفي مجلس الامن الدولي للتصويت بكل ما يعود بالنفع والفائدة للصهيونيين. ومنهم من يصرح ويتبجح في مجالسه النيابية ويتزلف لليهود دون حياء وخجل بقوله «قلبي مفعم بالعطف على الصهيونية» وذلك لكسب أصوات اليهود في الانتخابات النيابية، وإفهام اليهود بمعاونته الفعلية في تأسيس الدولة اليهودية في أرض فلسطين.. ومنهم من يرسل المساعدات العسكرية والاقتصادية تباعاً الى اسرائيل بينما يضع الشروط المجحفة على العرب لقاء تسليحهم، ويتظاهر بحسن النية وبالاخلاص للعرب فيوصيهم وينصحهم بقبول الأمر الواقع الذي لا مناص منه في فلسطين. ومنهم من يلتزم جانب السكوت العميق وينام على الضيم رغم صراخ العرب وعويلهم، مع قدرته على ايقاف اليهود عند حدهم وقدرته على تأليب العالم المسيحي عليهم فيما لو تحرك من مكانه وأطلق لسانه ضدهم، الا انه بسكوته ذلك، اعانهم بصورة غير مباشرة في تأسيس دولتهم المزعومة.

وأما عن حكومة امريكا الرسمية فقد جاء في تقرير ايزنهاور رئيس الولايات المتحدة انه بالنظر لما نشرته الجرائد الاخبارية ان اسرائيل تسلمت من امريكا منحاً مالية بلغت 63 مليون دولار في عام 1952 وسبعين مليوناً في عام 1953 و39 مليوناً من الدولارات خلال الاشهر الاولى من سنة 1954 باسم المساعدة الاقتصادية، بينما هي في الحقيقة معاونة عسكرية لتقوية جيش اسرائيل، فإن هذه الارقام والاعمال الآنفة الذكر كلها قد تثبت وتؤيد جلياً ان الولايات المتحدة واقعة تحت النفوذ الصهيوني، وأن الصهاينة قد تتلاعب في عقول الامريكيين باسم الديمقراطية والحق والعدالة والانسانية والبشرية.

ولقد ظهر أيها السادة الاجلاء شريط سينمائي يبدو فيه السيد المسيح وهو مكبل بالاغلال ويحمل على عنقه صليباً من الخشب ويمشي ويتعثر ثم يسقط على الارض. فيرفع جندي روماني من حراسه سوطاً ويهوي به على جسده مرات ومرات. فينهض تحت لهيب السياط والدماء تسيل من جراحه فوق اديم الارض فترتوي الارض من دم ابن الانسان المقدس. كل ذلك لإعلام الناس ان الرومان هم الذين صلبوا السيد المسيح، وليس لليهود دخل فيه. ورجال الدين المسيحي يشاهدون هذا التحريف الواضح للتاريخ وهم ساكتون.

وبينما قد يؤثر الفاتيكان في سياسة الدول الغربية ويعاون على الأقل في كفاحها ضد الشيوعية، ويحاول عقد المؤتمرات لقلب نظام الحكم الشيوعي في روسيا السوفياتية، وبينما تلقي الحكومات الشيوعية من جهتها القبض على ممثلي الفاتيكان من رجال الدين وتحاكمهم كجواسيس للانكليز والأمريكان، لم نسمع عن صدور أي بيان أو عمل من الفاتيكان ضد اليهود وضد تأسيس الصهاينة دولة لهم في فلسطين.

والأشد مرارة من كل ما سبق ذكره ما نشرته جريدة الاخبار البغدادية بعددها 3918 بتاريخ 25 تشرين الثاني 1953 من ان مجلة الكنيسة الانجليكانية البريطانية نشرت مقالاً حماسياً تدافع به عن اليهود وتنتقد به الحكومة البريطانية انتقاداً شديداً لتعيينها مستر كلوب البريطاني قائداً للجيش

العربي الاردني الذي حدّد حركات اسرائيل الحربية أثناء تشكيل الدولة الاسرائيلية؛ واختتمت المجلة مقالها بقولها «ان العرب مخطئون... واسرائيل على حق». فلو كانت المجلة مدنية، سياسية، علمية... لقلنا ان صاحبها يهودي صهيوني وله ان يتدلل على من تحبه ويحبها. اما وانها مجلة الكنيسة فلا يحتمل ان يكون رئيس تحريرها يهودياً. الا انه يحتمل ان يكون كاتب المقال يهودياً وقد نشرها بمجلة الكنيسة. كل هذه الامور تجري حتى في الكنائس المسيحية ويطلع عليها الآباء والأبناء وكلهم ساكتون. وما تبقى من تلك الذرات والذريرات المقدسة المنتشرة فوق اديم فلسطين من دم ابن الانسان تشتد تحت اقدام اليهود ألماً وتهتز غضباً وتستنجد إلهها وتستصرخ بارئها من هذا الظلم الفادح ومن اهمال اولادها ومن عقوق أبنائها ومن سكوت خلفائها وخاصة وخصوصاً من جحود بعض رجال الكنائس والبيع والصوامع، اولئك الذين جلسوا على عرشها ونسوها أو تناسوها وناموا أو تناوموا واكتفوا بحمل الصلبان المذهبة فوق صدورهم، كأن لم يكن في تراب فلسطين شيئاً مذكوراً، ورفعوا حتى عن كاهل اليهود وتعهداتهم «خذه! خذه! اصلبه! اصلبه! دمه علينا وعلى أولادنا!». وكما ان رجال السياسة والجيش الذين كانوا السبب في نكبة فلسطين بتخاذلهم وأنانيتهم وأطماعهم مسؤولين أمام الله وأمام التاريخ والعالم، وقد يلاقون جزاءهم العاجل في الدنيا والآجل في الآخرة، فنحن الشيوخ وكل فرد من أبناء الكنيسة المجيدة مسؤولون أمام الله وأمام السيد المسيح وأمام السيدة الوالدة البتول العذراء وأمام القديسين الذين بذلوا أنفسهم وأرواحهم وتعذبوا في رومية والقسطنطينية وفي اورشليم وفي كل مكان عن شوق ورغبة وعن طيبة خاطر في سبيل ألوهية السيد المسيح وفي سبيل أناجيل السيد المسيح وفي سبيل تأسيس كنيسة السيد المسيح وأمام التاريخ والعالم، عن عودة اليهود الى فلسطين. واذا كانوا قد عادوا هذه المرة أيضاً لسوء الحظ في زماننا هذا الى الارض المقدسة على أثر اخفاق بعض المسؤولين، وأطماع بعض المسيحيين الاستعماريين من الساسة الانكلو أمريكان المشعوذين الذين باعوا دينهم ودنياهم لليهود بثمن بخس، فلا تيأسوا ولا تحزنوا، ولا تقنطوا أيها الشيوخ الأجلاء. فكان اليهود قد عادوا اليها مرات ومرات، وأُخرجوا منها أذلاء صاغرين منكوبين وسبايا متشردين مهتوكين مدحورين مهزومين كرّات وكرّات، والتاريخ شاهد عدل. ولا يمكن، بل من المستحيل، ان يسقط كلام السيد المسيح من شاهق عزه وأعالي مجده وسمو مقامه ويقع على الارض ويهبط الى الحضيض على يد شرذمة من الأوغاد المرتدين عن الديانة المسيحية، فهو مكتوب بأحرف من نور في كبد السماء وهو ثابت كالطود لا يتزحزح في أركان الأزلية والأبدية.

تذكروا أيها الشيوخ الأجلاء، ألم يخاطب ويعاتب سيدنا يسوع المسيح اورشليم العاصية، العاتية، بلهجة قاطعة، قاسية بقوله: «يا اورشليم! يا اورشليم! يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين...» ويتوعدها بقوله «ويهدمونك وبنوك فيك ولا يتركون فيك حجراً على حجر» (43 ـ 19 لوقا)، الى ان يخاطب اليهود بقوله: «هوذا بيتكم يترك لكم خرابا» (37 ـ 23 متى). وقد صحّ وثبت وتأكد كلامه كله فطردوا من اورشليم وأصبحت بيوتهم خربات في طول فلسطين وعرضها. اذن، كيف يجوز للعالم المسيحي إعادتهم الى فلسطين مرة اخرى ليعمروا بيوتهم فيها، بل كيف يصح السكوت لمن يقدر على الكلام، عند عودتهم الى فلسطين ثانية ليعمروا بيوتهم بعد خرابها، رغم دعاء السيد المسيح عليهم؟ ألا يحق

ويجب ويحتم على روساء الدين المسيحي وقادته والقسس والرهبان كافة أن يتأملوا لحظة ويعيدوا النظر في أقوال ربهم المضاعة التي جحدها أبناؤها؟.

لقد أجمعت الأناجيل على قول السيد المسيح «السماء والارض تزولان وكلامي لا يزول» (31 ـ 13 متى و21 ـ 13 مرقس). فاذا كان كلام السيد المسيح حقاً لا يزول وهو حق رغم انف محرر المقال في مجلة الكنيسة الانجليكانية، ورغم انف الساسة الانكلو امريكان المرتدين عن دينهم، ورغم انف كل راضخ لرغبات اليهود وآمالهم ومطامعهم، فلا بد من ان يظهر في اقرب وقت، أمثال الراهب بطرس الناسك بطل الحروب الصليبية فيطوف أوروبا شرقيها وغربيها وينادي بالويل والثبور، ويوقد نار الحرب الصليبية الحديثة على اليهود انتصاراً لأقوال السيد المسيح التي لا تزول ولا يجب ان تزول. ولا بد من الضروري أن تبقى اورشليم مدوسة من الأمم الى الابد، ولا بد ومن الضروري أن تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة في ارض فلسطين الى الابد، ولا بد من أن ساسة الشعوب سيدركون في أقرب وقت خطأهم في مساعدة اليهود، وفي تسليح اليهود، وفي العطف على اليهود، وفي مساواتهم اليهود، وفي تسليمهم مقدرات شعوبهم بيد اليهود، وفي تأسيسهم بأيديهم دولة لليهود، وفي تعميرهم بأيديهم مساكن لليهود. ولا بد من ان ينشط مجمع اساقفة الانكلو امريكان من غفوته ويستيقظ من سباته فينهض من رقدته، ويعيد النظر في أناجيله، وفي أقوال ربه وسيده، فيعلن انتصاراً للسيد المسيح، ودون خوف من اليهود، الحرب على المستعمرين المسيحيين وعلى اليهود الصهيونيين سواء بسواء. ولا بد من أن يستفيق في يوم من الايام مئات الملايين من المسيحيين الانكلو امريكان من غفلتهم فينتقموا ممن تغافل عن آيات الاناجيل وعن أقوال السيد المسيح وأهدافه من رؤساء دينهم، ومن رجال سياستهم، اولئك الذين اغفلوهم باسم الاستعمار، والانسانية ضاربين اقوال السيد المسيح وكلمة الارض المقدسة عرض الحائط. فأعادوا اليهود الى ارض الميعاد التي أزالهم عنها السيد المسيح، وساهموا في بناء دولة اسرائيل التي هدمها السيد المسيح.

وبما ان أحكام السيد المسيح وأقواله لم تكن لمدة معينة، محدودة ولمرة واحدة فقط، انما ستبقى الى ابد الآبدين، وهي ثابتة كالبنيان المرصوص نافذة الحكم والمفعول ما دامت السماوات والأرض، ولا يحتمل أن تزول أبداً، فمن المواجب والحالة هذه على رجال الدين المسيحي توثيقاً لأقوال السيد المسيح وانتصاراً لحرمة الاناجيل وصيانة للديانة المسيحية أن يعقدوا مؤتمراً دينياً عالمياً باسم السيد المسيح يحضر فيه من اقطار الارض آلاف البطارقة والمطارنة والقسس والرهبان على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم ونحلهم، ويشترك فيه كل مؤمن بالسيد المسيح وكل معتقد بديانته، للمذاكرة حول ما يجب عمله واتخاذه للمحافظة على بنوة السيد المسيح للإله العظيم، وعلى كيان الديانة المسيحية وعلى حيثياتهم الذاتية من تصرفات اليهود، والتبرؤ من كل الاعمال والافعال المجحفة بالدين، تلك التي اتخذها وارتكبها رجال السياسة، والتخلص من الاشتراك بالاثم والعدوان في معصية احكام الاناجيل، وتعيين وتثبيت الصيغ والمناهج والمواضيع التي سيذكرها ويلقيها القسس والرهبان على الناس في وعظهم بالكنائس، ويحرضون المؤمنين بألوهية السيد المسيح، وهم الاكثرية الساحقة بالعالم، لكي يسقطوا كل حكومة ملحدة تجرؤ على مخالفة الكتب المقدسة وتتحدى احكام الاناجيل

ويرغموا رجال السياسة على إزالة دولة اسرائيل التي ستزاحم الديانة المسيحية من ارض فلسطين في المستقبل القريب ونقلها الى محل آخر من الارض ذات الطول والعرض. اذا كان هناك ضرورة لتأسيس دولة لليهود، وتحديد الارض المقدسة المذكورة موطن السيد المسيح، وتعيين الاماكن التي تجول فيها وبشر وأنذر وعلّم في أرجائها ووطأ بأقدامه المباركة ترابها، وهي التي كانت ولم تزل تحمل لا محالة شيئاً وأشياء من ذرات أو ذريرات ابن الانسان، ووضعها تحت وصاية مجلس الامن الدولي أو جمعية الأمم المتحدة مباشرة وجعلها حكومة دينية، مدنية، أممية لشعوب العالم كافة على السواء، دون تفريق بالدين والمذهب والجنس واللون والعنصر لتأمين الاستقرار في الشرق الاوسط. وبذلك تطمين افكار العالم المسيحي في محافظة بنوة السيد المسيح للإله العظيم من العبث والزوال، وصيانة قدسية الاناجيل من الزلل، وبذلك أيضاً القضاء على المثلث اليهودي المنوي إحداثه والجهر به عند سنوح الفرص لغاية تثبيت عزائم شبابهم، وهو المكوّن من: الكرسي، المملكة، بيت الله، وإزالته من الوجود قبل أن يخلق وقبل أن يظهر ما يؤيده ويثبت اركانه ويشرع بمزاحمة المثلث المسيحي بمدعياته ومفترياته.

وخلافاً لذلك كله، فان لم تنتقم الامم المسيحية ممن كان السبب في اعادة اليهود الى الارض المقدسة، وممن أعانهم في تعمير بيوتهم مرة اخرى بعد خرابها، وان لم تسعَ بإجلائهم عن أرض فلسطين، وان لم يقم كل من جانبه في الكفاح لتخليص الارض المقدسة من لوث أقدام اليهود واكتفت بابتسامة مرة هازئة تجاه هذه الحقائق... فهذا معناه انهم جميعاً مشتركون بالاثم والعدوان والتقويض والمعصية، وعاملون على ازالة كلام ربهم وسيدهم بالفعل والقوة، وعن علم وإدراك، وعن قصد وأصرار، وعن رؤية واختيار. وقد تقع الواقعة الكبرى والكارثة العظمى بعد استيطان اليهود أرض فلسطين، وبناء بيوت لهم فوق أرضها، وعند تأسيس مملكة لهم فيها واستقرارهم عليها، فترتفع عند ذاك بطبيعة الحال عمن يتبقى منهم في الخارج صفة المشردين والسبايا. واذا دخلوا في يوم من الأيام اورشليم القديمة أيضاً فيكون قد استلم وايزمان أبواب بيت الله فتتحقق تنبؤات اشعيا الآنفة الذكر بحذافيرها بحقه أو بحق غيره يقال عنه انه من غصن يسي فيصبح مسيحاً وملكاً على اسرائيل تبعاً لنبؤات الأنبياء كما جاء بخطبة زميلنا الشيخ ميخائيل، فتكون عند ذاك قد وقعت الواقعة بالفعل وحلت النكبة الكبرى حيث لم يبق في ذلك أي مجال للتفسير والتأويل، فتضطرب أفكار المسيحيين في طول كرة الارض وعرضها، وتحصل الشكوك وتتزلزل المعتقدات في صحة ما جاء بالأناجيل. ولن يبقى للكنائس المسيحية حينذاك من عمل الا ان تغلق أبوابها. فكان من الضروري ومن المحتم على الشعوب المسيحية الغربية وعلى كل من يهمه أمر الديانة المسيحية ان يتدارك الامر قبل فواته ويتخلص من حفنة من اليهود، اولئك الذين جاؤوهم باسم الحرية والعدالة والاخوة البشرية والحقوق الانسانية فاستغلوهم في مقاصدهم وأسروهم بأقوالهم المعسولة فأوثقوهم بأحابيلهم وخدّروهم فأناموهم بسحرهم وأقنعوهم، فاستخدموهم في ملء صناديقهم فاستولوا مع قلتهم على دور الاذاعات والتلفزيونات والجرائد والمجلات وكل وسائل النشر وكافة وسائط النقل ومختلف أمور الصناعة والمعامل والحرف والتجارة والصرفة وقبضوا بأيديهم على منابع الثروة وأسّسوا الشركات الاستثمارية واستولوا كذلك على وزارات الخارجية في الدول الاستعمارية كافة لجعل اقتصاديات المستعمرات على

حسابهم والاسواق التجارية تحت تصرفهم. وأصبح المائتا مليون انكلو أمريكاني عملاء محترمين وزبائن مخلصين يسعون ليلاً ونهاراً ويقدمون نتائج أتعابهم الى أسيادهم عن طيبة خاطر دون ان يحركوا ساكناً ودون ان يتذمروا وتقشعر جلودهم حنقاً وغيظاً على هذه الأقلية المستغلة لأتعاب الملايين منهم. فان لم يتمكن اليهود من صرف دسائسهم ونشاطهم وشطارتهم على العرب الساميين في الشرق، فقد نجحوا والحق يقال، بفضل ذكائهم السامي الوقّاد في الغرب وعلموا كيف يستغلون جهود مئات الملايين من الآريين مع بقائهم يهوداً صهاينة على طول الخط. وبذلك أصبح الغربيون مضحكة للأمم الشرقية وهم لا يشعرون.

حضرت أيها السادة الكرام مجلساً من مجالس اليهود، فكان البحث يدور حول أقوال الأنبياء الكرام أشعيا وزكريا، فتكلم كوهين هارون فقال لقد سعينا 2000 سنة بصبر وثبات لنيل حقوقنا واستعادة شرفنا وإحياء تراثنا الديني والسياسي. أما وقد رجعنا الآن الى فلسطين وعادت كرسي داود وسليمان وجلست مملكة اسرائيل في فلسطين ووصلنا بفضل راية الامم الى ما كنا نصبو اليه، فلا توجد قوة في العالم تعيق سيرنا وتؤخر خطانا وتمنعنا من السير، ومن الجهر بالحقائق المسجلة، وبما هو واقع. وسنعمل كل ما هو بصالحنا ولا نهاب من الآن وصاعداً أحداً. ولدينا من الأسباب ما تجعل أوغاد السياسة بجانبنا دائماً. فلا تهمنا بعد هذا مصالح غيرنا الدينية والسياسية. وهذا يفسر أيها السادة الروحية السائدة عند اليهود أجمع.

وليس يخاف عليكم أيها السادة ان الشعب اليهودي منذ نشأته الاولى في مصر كان قد تمرن على تعاطي التجارة والصيرفة والربا والمداينة والحرف الصغيرة... ولازمها حتى هذا اليوم، إلا انه لم يلازم ولم يمارس كما تعلمون صنعة الحرب والضرب مطلقاً. وأما النجاح الذي أحرزه يشوع بن نون خليفة النبي موسى في أرض فلسطين لما دخلها لأول مرة فاتحاً فلم يكن حينذاك هناك حكومة موحدة يخضع لها السكان تقف في وجهه، انما كان هناك مدن وُقرى، ولكل مدينة وقرية ملك أشبه شيء برؤساء القرية العراقية أو العزبة المصرية (العمدة). وكان التناحر بينهم شديداً مما سبب أن يستولي عليهم يشوع الواحد بعد الآخر، بحرب طفيفة أو بدون حرب بمدة قصيرة. فقد جاء في سفر يشوع (24 ـ 12) انه في فتوحاته هذه قتل واحداً وثلاثين ملكاً(1) ولم يدخلوا بعد ذلك بحرب طاحنة فاصلة مع أحد من الحكومات المجاورة أبداً. انما كانت حروبهم كلها داخلية مع الفلسطينيين. وحتى لما وصلت حكومتهم القمة في زمن النبي سليمان لم تتجاوز حدود مملكتهم أراضي فلسطين مطلقاً، رغماً عن مبالغات اليهود المفرطة عن عظمة جيوش الملك والنبي سليمان وعدد فرسانه ومركباته وشرائه. فان رزون بن اليداع، ملك دمشق كان له عدواً عنوداً لدوداً. ولم يتمكن سليمان من القضاء عليه وعلى دولته (32 ـ 11 م. اول). ثم انقسمت حكومة سليمان بعد وفاته الى اليهودية وعاصمتها اورشليم، والاسرائيلية وعاصمتها السامرة. ولم تتوحد مرة أخرى حتى انقراضهما. وكان قد غزاهم شيشق فرعون مصر (12 اخبار الثاني) أيام رحبعام بن النبي سليمان ودخل اورشليم فاتحاً وأخذ خزائن بيت الرب التي ادخرها النبي سليمان كلها. وغزاهم شلمانصر ملك آشور (8 ـ 16 م. ث.) وأخذ أحد عشر سبطاً من أسباطهم الاثني عشر أسيراً الى نينوى. ولم يعودوا مرة أخرى الى

فلسطين ولم يتصلوا مرة ثانية بسبط يهوذا أبداً. فهم ليسوا من نسل يهوذا ابن النبي يعقوب والمسمى «اسرائيل»، انما هم من احفاد أولاد اسرائيل، فانتشروا في العراق وايران والافغان. ثم غزا فلسطين بعد ذلك بختنصر ملك بابل واخذ السبط الثاني عشر أيضاً وهو سبط يهودا أسيراً الى بابل. وبعد عودتهم الى اورشليم من الاسر استولى عليهم الرومان ثم تشردوا من فلسطين الى الغرب فانتشروا في سواحل البحر ومنها الى مختلف انحاء أوروبا وثم الى امريكا. فكان الادعاء بان حدود مملكتهم كانت من البحر الى البحر، ومن الفرات الى النيل، ما هو إلا قول هراء وادعاء فارغ لا يستند على شيء من الحقيقة مطلقاً. فان السبب في اشاعتهم هذه الكلمة هو ما جاء في سفر النبي زكريا (9 ـ 9) في قوله: «ابتهجي يا بنت صهيون، اهتفي يا بنت اورشليم، هوذا ملكك يأتي إليك هو عادل منصور... وراكب على حمار وعلى جحش بن اتان، سلطانه من البحر الى البحر ومن النهر الى أقاصي الارض...». وهي كما تعلمون بشارة للمسيح. وأما الصهاينة الذين لم يعترفوا بالسيد المسيح فقد اعتبروا بالاستناد الى هذه الرؤيا ان حدود مملكتهم كانت من الفرات الى النيل وهي من الاكاذيب والمدعيات اليهودية الفارغة.

وكان قد تفرّس النبي موسى بما تنطوي عليه أفئدة أمته، فوصفهم عن لسان الرب بقوله كما جاء في سفر لاوي «ألقى الجبانة في قلبوهم في أرض أعدائهم فيهزمهم صوت ورقة مندفعة كالهارب من السيف ويسقطون وليس طارد» (27 ـ 27). وهو وصف عارف حكيم بما تنطوي عليه جوانح أمته، فمن المحقق والحالة هذه ان المحاربين الآن في فلسطين ليسوا من انسال الشعب الاسرائيلي انما من انسال الروس والبولونيين... الذين اعتنقوا في سالف الازمان الديانة الاسرائيلية وهم اقلية ضئيلة في فلسطين لا يعبأ بها. وسنرى في اقرب وقت عندما يحمى وطيس حرب طاحنة، تسيل فيها الدماء بغزارة، كيف يتجلى الرعب والخوف والفزع في أفئدتهم حيث لا تنفعهم السيارات المصفحة ولا الدبابات الامريكانية الثقيلة ولا الطيارات النافورتة البريطانية ولا الالغام الارضية ولا التدريب العسكري العنيف ولا السفن والزوارق البحرية، فيهربون من ميادين الحروب وليس طرداً كما وصفهم نبيهم. فان الشجاعة لا تشترى بالدولارات. والجرأة لا تأتي بالباونات. والصبر على الكريهة يوم الغمغمة عند استعمال السلاح الابيض أمر عسير. ولم يكن استقبال الموت بثغر باسم والتسابق اليه من شأن اليهود عبدة الذهب. فلا بد ولا بد من ان يظهر في يوم من الايام بلوطس العرب وبنطس العرب ويقذفهم في البحر مرة أخرى، ولا يبالي بما قد يفعله بعض ساسة الانكليز والامريكان بعد ذلك. ويتشرد من يسلم منهم ويصبحون سبايا مرة أخرى «ويسبون الى جميع الأمم» كما تنبأ بها وقالها بلسانه الكريم السيد المسيح. ولا محيد عنها. ولا تحويل لها. ولا تبديل بها. مهما تقلّبت السنون والأعوام، ومهما كانت الظروف والاحوال، ومهما ساعدهم الكفّار والفجّار الذين ارتدوا عن دينهم وباعوا دينهم ودنياهم بثمن بخس لليهود رغم إرادة السيد المسيح وأقواله وتنبؤاته ورغم رغباته وآماله وكلماته التي لن تزول ولا تزول ولا يمكن ان تزول وكانت ولم تزل تدوي وستبقى داوية ومدوية في ردهات المعابد والكنائس والأديرة والصوامع وفي قلوب ثمانماية مليون مسيحي أو اكثر من المؤمنين بالسيد المسيح ما دامت السماوات والارض. ولطالما اليهود الذين كفروا بربهم وعبدوا البعل

والبعليم وقبلوا وتعهدوا مع سبق الاصرار أن يكون دم السيد المسيح عليهم وعلى أولادهم وأحفادهم وذرياتهم باعترافهم وتصديقهم، وبما ان لا يمكن التغافل والتسامح عن دم ابن الانسان، فسيبقى دمه عليهم وعلى أولادهم وذرياتهم وأجيالهم وأنسالهم وبالوسيلة على ذريات كل من اعانهم، وعلى كل من سكت راضياً في عودتهم مع قدرته على منعهم من أي أمة أو دين كان، جيلاً بعد جيل الى ما شاء الله أن يكون! فان غضب الله، وغضب السيد المسيح، وغضب الأم العذراء وكذلك غضب القديسين الذين فدوا ارواحهم في سبيل ديانة السيد المسيح، قد يقع اليوم أو غداً أو بعد سنة أو بعد قرن، ولا قيمة للزمن بأشكال لا نعرفها، على رؤوس اولئك الذين يطبلون ويزمرون بالحقوق الانسانية وبالحق والعدالة، ويتهمون غيرهم بالظلم والعدوان، وبالكفر والالحاد، وبإنكار الاديان، وبتحدي الحقوق الانسانية، ويبثون دعاياتهم وينشرون بجرائدهم ومجلاتهم، ويخطبون بملء أشداقهم وأفواههم بمجالسهم وأنديتهم، ويملؤون الفضاء صراخاً وعويلاً وضجيجاً بخطبهم وبياناتهم ويعلنون في كل يوم وبكل مناسبة عن اضطهاد مخالفيهم للملل والاقوام وللمذاهب والاديان، مع انهم بإعادتهم اليهود الى فلسطين وبأعمالهم هذه المخالفة لقواعد دينهم ولأقوال ورغبات ربهم وسيدهم يسوع المسيح اكفر من الشيطان واجحد من يهوذا الاسخريوطي وانكر من اليهود بالسيد المسيح. فللننتظر ذلك اليوم كما انتظر مثله الذين من قبلنا. وقد نشاهده بعيوننا كما شاهده بعيونهم اولئك الذين من قبلنا. وقد يأتي بدون سابق انذار، وبأشكال مختلفة لا نعلمها. وكما ان لا يقال ملكوت الله هنا أو هناك، فان غضب الله أيضاً لا يقال متى يجيء وكيف يجيء. فليس على الله بمستنكر ولا بمستبعد أن يقبل طلبات السيد المسيح فيظهر ما لم يكن في الحسبان، فيشتغل الانكلو امريكان بدفع الازمات الحادة واتقاء شرور الاعداء فيتركون فلسطين وحدها لتعطي حسابها عما جنته اناملها واقترفته يداها. ويتحرك عند ذاك الشرق الاوسط. فتنفجر براكينه ويقذف حممه على رأس اسرائيل، فيقع الرعب في قلوبهم فيهزمهم صوب ورقة مدفوعة بالهواء كما قالها عنهم ربهم على لسان نبيهم فتصدق مرة أخرى أقوال سيدنا يسوع المسيح «تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة» (7 ـ 24 متى و8 ـ 13 مرقس) في فلسطين. والتاريخ يكرر نفسه فلننتظر اذن سادتي الكرام أولا ما سيفعله رجال الدين المسيحي في مشارق الارض ومغاربها من تحريضهم المؤمنين بالكنائس والبيع والصوامع والمعابد على العصيان المدني ضد كل مستهتر بأقوال السيد المسيح من رجال السياسة، أولئك الذين يعطفون على اليهود على حساب الديانة المسيحية حتى يتم إسقاطهم وإسقاط احزابهم السياسية في الانتخابات النيابية وفي المدارج الحكومية كافة، وانتخاب من يضع في منهجه السياسي إخراج اليهود من الاراضي التي وطأها السيد المسيح بأقدامه، وتأسيس حكومة أممية عالمية فيها، وثانياً انتظار ظهور غضب الله على اليهود وعلى أحباء اليهود من الانكلو امريكان وعلى من يعطف على اليهود من ابناء الكنيسة، ولننتظر ثالثاً ظهور بلوطس العرب، وبنطس العرب الذي سيقذفهم في البحر ولا يبالي بمن يرضى ويمن يغضب من ابناء الشرق ومن ابناء الغرب على السواء ويخلص الارض المقدسة مهد السيد المسيح من اليهود وينتقم منهم للسيد المسيح كما انتقم قبله منهم بلوطس الرومان، وبنطس الرومان ويخلد اسمه الى أبد الآبدين.

الكتاب العاشر

هذا هو الاسلام

الديـن الإسلامي

الدين الإسلامي المجيد بحد ذاته

دين تجديد وإقدام	طغى على العنعنات والعادات الجاهلية.
دين لإصلاح البشر	أصلح ما فسد من الأخلاق الإنسانية وحث على مكارم الاخلاق.
دين بناء وإنشاء	وضع الأسس والقواعد الاجتماعية لتأمين السعادة البشرية ولحكم العالم.
دين هدم الأباطيل	حطّم الأغلال والأصفاد وأباد الأصنام والأوثان وهدم الآلهة المتحجرة التي تعبد من دون الله.
دين شرع وقضاء	جاء بأحسن القواعد لتنظيم الأحوال الشخصية والعلاقات الاجتماعية.
دين سعي وعمل	حث المسلمين على السعي والعمل فقال «اعملوا» و«اسعوا» و«اعدوا».
دين قوة وعنف	قارع الضالين والمنافقين والمرائين وعبدة الاحجار.
دين حرب وضرب	امر بالجهاد في سبيل الله وفتح العالم المعمور خلال نصف قرن.
دين أمن وسلام	فرض على المسلمين تعاطي السلام عند دخول البيوت وفي كل ملاقاة.
دين الاشتراكية المعتدلة	منع تداول فيء الارض بين الاغنياء كيلا يكون دولة بينهم ويحرم منه سائر الناس (الحشر).
دين الديموقراطية المعتدلة	امر بالشورى بين المسلمين في أمورهم الزمنية.
دين الرأسمالية المعتدلة	حافظ على حقوق الفرد دون ان يضر بالمجتمع.
دين وسط بين الأديان	جعل الأمة الاسلامية وسطاً لا هي يمينية متطرفة ولا هي يسارية متطرفة ولا هي مادية متطرفة ولا تعبدية متطرفة.
دين التأميم	جعل الملك لله (مالك الملك) والارض ومنتجاتها للدولة ـ ومنع ابن الخطاب قواده من اقتناء الاراضي الزراعية في العراق.

دين محبة واخاء	وحد القلوب المتنافرة وساوى بين المسلمين كافة لا فضل لأحدهم على الآخر الا بالتقوى.
دين علم واختبار	ألحّ على وجوب التفكير في خلق السماوات والارض.
دين تمييز وإدراك ودليل وبرهان	ندّد بأولئك الذين لهم عيون لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها.
دين للدنيا والآخرة	أباح للمسلمين ان يأخذوا نصيبهم من الحياة الدنيوية كاملة غير منقوصة.
دين للبشرية كافة	حارب القومية والعنصرية.
دين خضوع وخشوع	لله وحده.

إذاً، فالدين الإسلامي لم يكن دين جهل وغباء. وفقر وكسل. وتوكل وقعود. وركون وسكون. وقباب ورفات. وقبور وأجداث. وبكاء وعويل. ومجاذيب ودراويش. وطرائق ومشيخات. ومزارات وزيارات. وأبواب وعتبات. وروايات ومنقولات. وعادات وعنعنات. ومفسدات ومنقضات. وانقياد واستسلام. وحلول وفناء. وموت قبل الموت. لا. انما هو حياة وخلود في الدنيا يجب ان يحيا ويخلد فيها الاسلام والمسلمون. وروح في الآخرة. وقد وعد النفس المطمئنة بالرجوع الى ربها راضية مرضية. هذا ما اعتقده. واعمل به. وحثّ العالم الاسلامي عليه. ومن الله التوفيق.

الفصل الأول الديانة الإسلامية

محمد (ص) دعوته. معجزاته. التوحيد. الجنة. الصفات. أسماء الله الحسنى

1 ـ ولد يتيماً وشب في احضان جده، ثم كبر في ظل عمه، يسميه الناس الأمين لنبله وشرفه. سافر الى الشام تاجراً فرأى، وسمع، ووعى. دخل غار حراء متعبداً متهجداً يناجي ربه، فوصل الى ما يصبو إليه. يمشي في شوارع مكة وئيداً متأملاً وعيناه تارة في السماء يقلّب وجهه ليستطلع بثاقب بصره حجب الغيب ويكتشف ببصيرته أسرار الكون، وأخرى بالارض موطد العزم على نشر الدين الاسلامي وإعلاء كلمة الله مهما كانت الظروف والاحوال. لا يخاف بطشاً ولا يقيم لأعدائه وزناً، ليضع الأسس الدينية والدنيوية لسعادة البشر كافة. يقتحم ما يكتنفه من الصعوبات غير هيّاب، ويزدري بالاصنام والتماثيل والآلهة المتحجرة رغم التهديدات والاهانات، فيقال له: نجعلك ملكاً علينا ودع آلهتنا، فيقول: لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر. فيحاولون إغواءه بكل الوسائل بالشدة (السب والشتم والقطيعة والاهانة)، واللين (المال والملك والرياسة والسيادة). وهو يرفض هذا وذاك، مؤمناً بأن الله يصدق وعده، وينصر عبده، ويهزم اعداءه. وهو في هذا المعترك النفساني في غار حراء يأتيه الوحي فيول له ﴿اقرأ﴾ فيرتعد هيبة ويقول لست بقارىء فيعود داره مرتعشاً ويتدثر من وطأة الوحي، فيقال له ﴿يا أيها المدّثر قم فأنذر﴾، فينهض من دثاره حائراً يترقب، فيقال له ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾، فيقولها سراً، ويبلغها همساً، ولم يؤمن برسالته سوى أم المؤمنين ومن الرجال أبو بكر ومن الأطفال علي بن ابي طالب ومن الموالي زيد بن حارثة فيقال له ﴿فاصدع بما تؤمر﴾، فيدعو الناس سراً وعلانية، وقد ضاقت به الرسالة ذرعاً. ثم يقال له ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما انزل إليك من ربك فان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾، فينهض بقلب ثابت، وعزم صادق، متحدياً قريشاً كلها، ساخراً بآلهتها، هازئاً بقوّتها، ويصيح من جبل ابي قبيس: ايها الناس قولوا ﴿لا إله إلا الله﴾. فتدوي هذه الصرخة في وديان مكة فتضطرب قريش لهول ما سمعت، وتعصف بها عاصفة الذعر، فتأخذها الراجفة، تتبعها الرادفة، وتجاوبه بصوت خافت مخنوق: (أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟) ـ اعل هُبل! ثم ينعكس صداها الى أقاصي الجزيرة والى الفراتين ويردى والنيل وسيحون وجيحون فالعالم المعمور. ولم يزل العالم الاسلامي يردد تلك الصرخة فوق المآذن خمس مرات باليوم. ذلك الشاب الكهل هو اول المسلمين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب سيد قريش وسيد كل مسلم (ص) فدعا الناس لدين التوحيد فلحقه من لحقه وعاداه من عاداه، حتى اتخذ المدينة مقراً لإقامته، فانتشر أمره، وذاع صيته، وقويت شوكته، فدانت له جزيرة العرب من أقصاها الى أقصاها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

2 ـ وكان من أهم معجزاته، أولاً، هو نفسه، أكبر آية لله في خلقه، لا يضاهيه بشر آخر مثله منذ ان خلق

الله الأرض ومن عليها، بصفته مصلحاً لجميع الأمور التي تهم الانسانية من عقيدة دينية، او حقائق علمية، او خطط سياسية، او قواعد اجتماعية، او إصلاحات عمومية، او تساو بين الناس. ثانياً، القرآن وما فيه من بلاغة واتزان ونغم واسلوب سهل ممتنع، والعرب قوالون يطربون لكل كلام فصيح، ويسجدون لكل قول بليغ، فدعاهم كافة ـ على فصاحة ألسنتهم وكثرة استعمالهم لأنواع البلاغة في الاطالة والايجاز والتصرف في أفانين الالفاظ المركبة ـ ان يأتوا بسورة من مثله، وقد صرفهم الله عن ان يأتوا بآية من مثله، فاستسهلوا قتاله ثلاثة وعشرين عاماً، ولم يأتوا بكلمة من مثله، فطغى عليهم هذا الاسلوب من القرآن فأعجزهم وأسكتهم فطأطأوا رؤوسهم احتراماً له وآمنوا بما فيه.

3 ـ وكان أعظم ما قام به سيد الرسل نشره التوحيد في جزيرة العرب وتسويته الخلافات والخصومات المستديمة بين القبائل والعشائر، وتأليفه القلوب المتنافرة، وقضاؤه على النعرة الجاهلية، وإحلاله الحق والعدل، وجعله الناس متساوين بالحقوق (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى)، وإزالة الطبقات القبلية، والفوارق العرقية من بين الطوائف البشرية، ونهيه عن النعرة القومية والعنصرية، وتباين الالوان، وجعله المسلمين كافة اخواناً. وفي دور، كانت الارستقراطية القبلية قد وصلت الذروة في مكة وفي انحاء الجزيرة العربية، وفي زمن، كان معظم البشر في انحاء العالم يعيش كالدببة في الغابات، كان سيد الرسل يعلن من فوق منبره في المدينة للناس كافة قوله تعالى ﴿يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. ان أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. فلم يشهد التاريخ البشري قيام اي كيان عالمي يجمع شتات الاجناس والالوان والعروق البشرية المتباينة تحت لواء واحد أساسه العدل والاخاء والتساوي والتسامح والاصلاح والتواصي بالصبر، كما جاء به سيد الرسل. كما وان المذاهب الاجتماعية كافة لم تصل حتى عند أرقى الحكومات السياسية المعاصرة، بعد مضي ألف وثلاثمائة سنة، الى هذه المرتبة من التساوي بين الناس بعد.

4 ـ ان الفرد العربي خصيب الخيال سريع الانتقال حاضر البديهة، فصيح الكلام، طليق اللسان، ذكي الفؤاد، حاد الطبع، سريع التأثر. وكان في جزيرة قاحلة شديدة القيظ لا تدر اللبن والعسل الا قليلاً، ولا تنبت الحب والبقل الا نادراً، مما استوجب ان يكون العربي في حرمان وإملاق دائمين. فلما وعى احكام القرآن، ورأى فوائد الغزوات والمغانم الكثيرة، وسمع بما في الجنة من نعيم دائم، وحور عين امثال اللؤلؤ المكنون، وقصور شامخات، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وعسل مصفى لذة للشاربين، دخل بهذا الدين المؤمِّن لدنياه وأخراه عن رغبة وهوى، علّه يجد في اليوم الآخر ما لم يجده في هذا اليوم. والعرب كافة يحبون الحرب والضرب والغزو والقتال، لا يهابون الموت ولا يخافون مقارعة الاسنة والسيوف، فصادفت الدعوة رغبة في قلوبهم، فآمنوا بما جاء في القرآن من وعد ووعيد والتفوا حول سيد الرسل يعضدونه بألسنتهم ورماحهم وسيوفهم لإعلاء كلمة الله، أو الموت، للوصول إلى عالم الفردوس. فكانت السبب المباشر لانتشار الديانة الاسلامية في انحاء العالم.

5 ـ وقد أطنبت الديانة الاسلامية بالوعد والوعيد فتوسعت ما أمكنها التوسع بوصف لذائذ الجنة وعذاب أهل الجحيم والخلود فيهما ابداً، ففزعت المخيلة العربية لهذا الترغيب والترهيب، وتفادى المسلمون بأرواحهم في سبيل الله للوصول إلى قصور الجنان والابتعاد عن أبواب الجحيم، وانقضى

القرن الاول الهجري والافكار متجهة بشدة نحو الجنة ونعيمها وجهنم ولهيبها، فلم يكن في مقدور الفكر العربي في هذا القرن التوجه نحو العلوم الطبيعية والعقلية رغم بقائه في سوريا وفلسطين ومصر وبلاد الروم والفرس واحتكاكه مع العناصر الأجنبية المختلفة، ورغم ما قد رفع القرآن من قدر العلم والفكر وحثّ عليهما. واستدام هذا الطغيان الديني على الشعور العربي حتى زمن المنصور العباسي، فحينذاك شرع بنقل الكتب اليونانية إلى العربية.

6 ـ وبعد ان دخل الفكر العربي في دور السكون واتصل بالعلوم الأجنبية، توجه نحو الطبيعيات والعقليات حتى أصبح حامل لوائها بعد ان قتلها بحثاً وتنقيباً وتمحيصاً. فكانت الفلسفة اليونانية والمنطق والعلوم الرياضية، كالحساب والهندسة والفلك، تدرّس بالمدارس وفي أروقة الجوامع، ولم ير أحد ضيراً بها لموافقتها للقرآن الذي يأمر مراراً وتكراراً بلزوم التفكر في خلق السموات والأرض وما فيهما من سنن وقواعد. وكان الملوك والأمراء يحبون العلم ويكرمون العلماء من أي أمة أو دين كانوا.

7 ـ ولما دخل العقل بين القواعد الدينية، ظهر الجدال واشتد الخصام حول صفات الله، فوصلت الفلسفة اليونانية في عقول القوم إلى ان يقول ابو الهذيل العلاف دون ما خوف ووجل: الجنة وجهنم محدثتان ولكل محدث نهاية. فللجنة وجهنم نهاية وتنتهي حركتهما ويحصل السكون المهيب ويكون الملك لله وحده. وبهذا المنطق اليوناني نفى الخلود فيهما. ان هذه الحرية الفكرية في العالم الاسلامي لم يسبق لها مثيل في العالم مطلقاً.

8 ـ إن ما يهمنا في هذا الموضوع بالدرجة الأولى أمران: الألوهية والصفات. فأما الألوهية، فهي التوحيد المطلق وإسناد جميع القوى السائدة بالكائنات إلى الله الواحد الاحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد. وأما الأسماء والصفات، فقد اختلفت في الأديان السماوية اختلافاً كبيراً، فكان النبي ابراهيم يسميه تارة يهوه وأخرى آلوهيم. أما النبي موسى فقد سمّاه بالتوراة اهيه ويهوه وإله اسرائيل. وسماه يشوع «رب الجنود». وأما عيسى، فقد عناه بالاناجيل بكلمة الآب. وكانت هذه الأسماء مقتضبة والصفات متباينة. حتى جاء الاسلام فعرفت اسماؤه وصفاته تفصيلاً من القرآن، وهو رب العالمين خالق جميع الكائنات، كل شيء فيها خاضع لأمره ومن آثار صنعه وقوله، خلقها بقول كن، فكان كل شيء عنه صدر وأحاط به علمه لا شريك له في ألوهيته وليس لأحد اي صفة من صفات ربوبيته.

وكان لما بعث الله رسوله محمدا (ص) مبشراً ونذيرا، وصف نفسه الكريمة في كتابه المنزل ببعض الصفات المماثلة منها عند البشر، ليسهل فهمها ـ ولا يمكن ان يصف نفسه جل جلاله بغيرها ولم يسأل احد من الصحابة ـ على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم من السيد الرسول ـ عن سر ذات الله وعن معنى تلك الصفات الأزلية كالعمل والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والوجه واليد... انما كانوا جميعاً يكتفون بما ورد في القرآن ويهتدون بهدى الأحاديث النبوية، وأثبتوا تلك الصفات بدون تشبيه وغير تعليل، ولم يفرق احد منهم بين صفات الذات وصفات الفعل، كما وانه لم يتعرض احد منهم إلى تأويل شيء من ذلك، فقبلوها كما وردت من دون زيادة او نقصان. وكانت الأسماء والصفات الواردة في القرآن ترى انها متضاربة بالنسبة لنا، ما ادى إلى ظهور عدة فرق متباينة في

العالم الاسلامي وحصول مشاحنات لا نهاية لها، وقد جمعت من القرآن وسميت أسماء الله الحسنى وهي تسعة وتسعون اسماً كما يلي:

هو الله الذي لا إله الا هو الرحمان الرحيم الملك القدوس (الطاهر من العيوب) السلام (سليم من العيوب) المؤمن (يعطي الامان) المهيمن (الرقيب) العزيز (الغالب) الجبّار (العالي فوق خلقه) المتكبر (العظيم) الخالق البارىء (الخالق) المصور (التخطيط والتشكيل) الغفار (يغفر الذنوب) القهار (الذي يقهر عباده) الوهاب الرزاق الفتاح (يقضي بين خلقه ويفتح أبواب الرزق) العليم القابض (يمسك الارزاق وغيرها) الباسط (يبسط الرزق وغيره) الخافض (يخفض الجبارين) الرافع (يرفع الاولياء) المعز المذل السميع البصير الحكم (الحاكم) العدل (لا يجور في الحكم) اللطيف (لا يدرك بالكيفية) الخبير (العالم العارف) الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير (كبير الشأن) الحفيظ المقيت (المقتدر او الذي يعطي اقوات الخلائق) الحسيب (الكافي والمحاسب) الجليل الكريم الرقيب (لا يغيب عنه شيء) المجيب (يستجيب الدعاء) الواسع (تسع رحمته كل شيء) الحكيم الودود (محبوب) المجيد (الشريف والممجد) الباعث (يبعث الخلق) الشهيد الحق (المتحقق الوجود) الوكيل (الكفيل) القوي المتين الولي (الناصر والمتولي) الحميد (المستحق الحمد) المحصي (أحصى كل شيء) المبدىء (أنشأ الأشياء واخترعها ابتداء) المعيد (يعيد الخلق من الموت إلى الحياة) المحيي المميت الحي القيوم الواحد الماجد الواحد (المنفرد بالذات) الاحد (المنفرد بالمعنى) الصمد (السيد) القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر (في كل شيء) الباطن (غير المرئي) الولي (مالك الأشياء) المتعالي (المنزّه عن صفات الخلق) البر (العطوف) التوّاب المنتقم (المبالغ في العقوبة) العفو (الصفوح) الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط (العادل في حكمه) الجامع (يجمع الخلائق) الغنيّ (عن غيره) المغني المانع الضارّ النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبّور.

9 ـ فيظهر من تدقيق هذه الأسماء ومما ورد في القرآن من الصفات غيرها، أن منها تجسيمية ومنها تشبيهية ومنها جبرية ومنها قدرية... ما استوجب حيرة المتكلمين عند دراستهم الصفات الالهية، فأضافوا إلى الله ما يضيفون إلى الانسان من الصفات، فوصفوه بأقوى الصفات وأعنفها، فكان من تعدد الصفات الازلية منافاة لما يجب لله من تنزيه مطلق، مما سبب اضطراب الأفكار في العالم الاسلامي، وانتهى الأمر إلى القول بأن هذه الصفات ليست مساوية ولا مشابهة لأي صفة انسانية لأن ليس كمثله شيء حتى يقاس به.

10 ـ وكانت أول مسألة اعترضت سبيلهم هي: هل اسماء الله هذه هي الله ذاته أو غير الله ومضافة إليه وأنها مستعارة مخلوقة وقد نسبت لله ـ مع العلم ان التسمية لا تزيد في الشيء ولا تنقصه ـ فقال أهل السنة ان اسماء الله هي تحقيق صفاته يستندون بذلك إلى بعض آي الذكر الحكيم في ذكر الآلهة التي تعبد من دون الله بأسمائها المخلوقة المستعارة فقال عنها ﴿ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ وفي قوم هود ﴿اتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾. فكانت أسماء الله ليست من تسمية الخلق، انما تحقيق صفاته. وقالوا لا شيء من صفاته يخالف أسماءه وبينما يسمى الرجل صالحاً وهو طالح، فان ذاته تعالى لا يخالف اسماً له صفته.

11 ـ والقسم الآخر من المسلمين وهم القائلون بخلق القرآن كما سيأتي بيانه، قالوا: ان الخلق عرفوا الله بأسماء ابتدعوها من مخلوق كلامهم فأعاروها اياه من غير ان يعرف له اسم قبل الخلق. فهؤلاء ومن جملتهم المعتزلة، يقولون إن القرآن مخلوق ومن قول البشر لم يتكلم الله بحرف منه. ولذلك كانت الأسماء من ابتداع البشر.

ويقول قسم آخر من المسلمين: إن الله لا يدرك بشيء من الحواس الخمس وهي اللمس والشم والذوق والبصر بالعين والسمع بالاذن حتى تستوصفه، محتجين بذلك بقوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار﴾ و﴿ليس كمثله شيء﴾ فيقولون لم تره العين ولم تسمعه الاذن، انما ترى آياته وأفعاله وأموره مرئية منظوراً اليها في الدنيا كل يوم وساعة. فكان من الضروري قبول هذه الأسماء كما وردت ﴿سبح اسم ربك﴾.

الفصل الثاني المشبهة والمجسمة

التجسيم عند الأمم

1 ـ **احمد بن حنبل**: لقد تحيّر اصحاب الحديث وأرباب السلف الصالح وأهل السنة والجماعة حين شاهدوا المعتزلة تدخل في صفات الله وبالخير والشر وخلق القرآن، فقرر احمد بن حنبل السير على منهج أئمة السلف من أصحاب الحديث مثل مالك بن أنس ومقاتل بن سليمان للوصول إلى السلامة فقال: نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرّض للتأويل ونحترز عن التشبيه ونقول: ﴿كل من عند ربنا﴾، آمنا بظاهره وصدّقنا بباطنه ووكلنا علمه إلى الله؛ وأفتى بأن كل من حرك يده عند قراءته ﴿خلقت بيدي﴾ او أشار باصبعه عند روايته حديث «قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن» وجب قطع يده وقلع اصبعه. وبهذا أصبحوا لا مجسمين ولا منزّهين، انما سلفيين.

2 ـ **الحنابلة**: ومع ان الحنابلة جرّدوا الديانة الاسلامية من الادغال النابتة حولها من بعض الجهات، الا انهم جمدوا حول صفات الله الواردة في القرآن كقوله تعالى ﴿يد الله فوق ايديهم﴾ و﴿كل شيء هالك الا وجهه﴾ و﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾ و﴿انني معكما أسمع وأرى﴾ و﴿انا معكم مستمعون﴾ و﴿لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾... إلخ، بأنها معاني حقيقية ولا يقبلون بالمجاز والتأويل مطلقاً، بينما المعاني الحقيقية تستلزم التجسيم والتحيز وضرورة الوجود بمكان ما، فيصبح محلاً للحوادث، ويؤثرون ان تتكون صفات الله الواردة في القرآن نصاً بنص، وحرفاً بحرف، لا تأويلا ولا تمثيلاً، فيحملون حملة شعواء على كل من يلزم جانب التأويل والمجاز. ويقولون إن السلف الصالح ما كان ينكر صفات الله ولا يؤوّلها فلا ننكرها ولا نؤوّلها. ويعودون فيقولون: في الحقيقة ان هذه الصفات تقتضي التجسيم والتحيّز فيما اذا اتخذت صفات اجسام، وهي في الحقيقة صفة لغير جسم، فان هذه المعاني ليست مجازاً بل حقيقة على معنى يليق بذات الله تعالى، لا كما يكون ذلك في المخلوقات والمحدثات.

3 ـ **المحدثون**: المحدثون الأولون هم من ائمة الامة الاعلام ومن التابعين الاخيار لعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص ورفقائهم، ثم إلى من بعدهم مالك بن انس ومحمد بن ادريس الشافعي وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل، وسموا اصحاب الحديث لأنهم اعتنوا بتحصيل الأحاديث وبناء الأحكام على النصوص لا على القياس والرأي ما وجدوا خبراً أو رواية.

وجمد بعض اهل الحديث من رجال السنة المتأخرين حول نصوص القرآن واستندوا إلى ظاهر الآيات القرآنية فلم يتحركوا عنها قيد شعرة لفرط تدينهم حتى وصلوا إلى التجسيم، فجعلوا الله مجسماً يمكن ادراكه بالحواس الخمس وهو في موضع دون موضع، وانه على السماء دون الأرض، وانه على العرش دون ما سواه من المواضع. وأثبتوا له السمع والبصر والعين والوجه واليدين بدون تكييف

ولا تمثيل، مستندين بذلك على ظاهر النصوص القرآنية كقوله تعالى في الكلام والنظر، ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ فيزعمون ان الله تكلم بصوت وأدرك موسى منه الكلام بسمعه، وقوله تعالى ﴿ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم﴾، وقوله تعالى ﴿ووجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة﴾ اي سيكون النظر بالعين المجردة وهي من الحواس الخمس، وفي السمع والبصر قوله تعالى ﴿وهو السميع البصير﴾، وفي العين قوله تعالى ﴿ولتصنع على عيني﴾ وقوله تعالى ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾ وقوله تعالى ﴿فانك بأعيننا﴾. وفي حديث لعبد الله بن عمر أن النبي (ص) ذكر الدجال فقال: «تعلمن انه اعور وأن الله ليس بأعور»، وفي رواية ابن عباس (ان ربكم ليس بأعور) فيقول المحدثون هذا بيان انه بصير ذو عينين خلاف الأعور... وفي المجيء قوله تعالى ﴿هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ وقوله تعالى ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾.. وحول العرش والاستواء قوله تعالى ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ وقوله تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾ وقوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وقوله تعالى ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾... وفي النفس قوله تعالى ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾... وفي الجهة والمكان قوله تعالى ﴿تعرج الملائكة والروح اليه﴾، وقوله تعالى ﴿أأمنتم من في السماء﴾، وقوله تعالى ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ وقوله تعالى ﴿اني متوفيك ورافعك إليّ﴾ وقوله تعالى ﴿اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾، وقوله تعالى ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سماوات﴾، وقوله تعالى ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض﴾... وفي يد القدرة قوله تعالى ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ وقوله تعالى ﴿يد الله فوق ايديهم﴾ وقوله تعالى ﴿بيدك الخير﴾ وقوله تعالى ﴿ان الفضل بيد الله﴾ وقوله تعالى ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ وقوله تعالى ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾ وقوله تعالى ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ وقوله تعالى ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ وقوله تعالى ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ وقوله تعالى ﴿وما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي﴾. ويقولون إنه خلق آدم بيده مسيساً ولم يخلق ذا روح بيده غيره. ومن يقل خلاف ذلك فانه المعطل ليدي الله. وفي حديث عن كعب الاحبار لم يخلق الله بيده غير ثلاث، خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده. ويقولون إنه في موضع دون موضع وانه على السماء وانه على العرش دون ما سواه من المواضع. وفي رواية أبي داود عن سيد الرسل أن الله فوق عرشه فوق سمواته. وانه قال للأمة السوداء: أين الله؟ قالت في السماء، فقال اعتقها فانها مؤمنة. وانه قال: ما بني آدم بشر إلا وقلبه بين اصبعين من أصابع الرحمن فان شاء أقامه وان شاء ازاغه. وفي الكف في رواية عن أبي هريرة أنه قال: من فاوض الحجر الاسود فانما يفاوض كف الرحمن. وفي حديث آخر: كلتا يديه يمين. وفي حديث آخر مثله: ان الصدقة تقع في يد الرحمن قبل يد السائل. وآخر مثله: الركن ـ الحجر الأسود ـ يمين الله في الأرض يصافح به خلقه. وفي حديث عن قتادة: لما قضى الله خلقه استلقى ووضع احدى رجليه على الاخرى. وفي الأحاديث: لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد، حتى يضع الجبار فيها قدمه فتزوى وتقول قط قط. وحديث آخر مثله عن أبي عباس: الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره الا الله. وفي الرواية قول سيد الرسل برواية عدى بن حاتم الطائي: ما منكم من احد الا سيكلمه الله ليس

بينه وبينه ترجمان. وقوله: ترون ربكم يوم القيامة كما ترون الشمس والقمر جهاراً لا تضامون في رؤيته. وقوله برواية ابن عباس: آتي يوم القيامة باب الجنة فيفتح لي فأرى ربي وهو على كرسيه او سريره فيتجلى لي وأخرّ له ساجداً. وآخر: اذا تكلم الله بالوحي سمعوا له مثل صلصلة الحديد على الصفران. وفي الحركة والانتقال قوله عن أبي هريرة: ينزل ربنا في كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني أستجب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له. ويقول المتكلمون منهم: انه تعالى يتحرك اذا شاء وينزل ويرتفع اذا شاء ويقوم ويجلس اذا شاء وان امارة ما بين الحي والميت التحرك وكل حي متحرك لا محالة... وفي وجه الله بمدلوله المتعارف تستند المشبهة إلى ظاهر بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى ﴿فثم وجه الله﴾ وقوله تعالى ﴿كل شيء هالك الا وجهه﴾ وقوله تعالى ﴿كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام﴾ وقوله تعالى ﴿انما نطعمكم لوجه الله﴾ وقوله تعالى ﴿الا ابتغاء وجه ربه الاعلى﴾. ويقولون كل وجه هالك الا وجه ذاته تعالى الذي هو أحسن الوجوه وأجمل الوجوه وأنور الوجوه الموصوف بذي الجلال والاكرام، الذي لا يستحق هذه الصفة غير وجهه. ثم يقولون ان الوجه منها غير اليدين، واليدان منه غير الوجه... إلخ.

ملحوظة: هنا يرد على الخاطر، اذا رفضنا التأويل الذي يحتم القصد من كلمة «وجهه» هو ذاته تعالى وقبلنا الكلمات بظواهرها ومدلولاتها كما يزعم هؤلاء المشبهة والمجسمة وكان الوجه منه غير اليدين، فماذا يكون مصير اليدين والقدمين والكف والأصابع بعد ان يكون (كل شيء هالك الا وجهه)؟ وكان بعض فرق الغلاة من الشيعة أمثال البنانية وغيرهم يقولون انه يفنى كله غير وجهه، وهو كفر والعياذ بالله.

وفي القرآن الكريم يقول المحدثون: لا نقول هو الله فهو كفر، ولا نقول هو غير الله لأن كل شيء غير الله مخلوق، فنقول انه كلام الله وصفة من صفاته خرج منه كما يشاء ان يخرج.

4 ـ ويقول المحدثون الآنفو الذكر عن الصفات، كما لا نقيسها ولا نشبهها ولا نكيفها فلا نفكر بها ولا نكذبها ولا نبطلها ولا نقول جسم مركّب وأعضاء وجوارح، الا انا نقول لقد ميز الله في كتابه السمع من البصر، وفرّق بين كلامه ونظره وسمعه، فليس كله سمعاً وليس كله بصراً وليس كله أعلى وأسفل ويداً ونفساً وعلماً ومشيئة وإرادة... الخ. ويعترفون ان له حداً وغاية ونهاية ثم يعودون فيقولون لا يعلم حده احد غيره وهو على عرشه فوق سماواته فنؤمن بالحد ونكل علم ذلك إلى الله وحده.

5 ـ وأما ما يعود إلى العرش والكرسي فقد جعل المشبهة الله فوق عرشه فوق السماء السابعة دون ما سواها من الأماكن محدود الأطراف، مستندين بذلك غلطاً إلى ظاهر ما ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾ ـ غافر ـ وإلى أحاديث موضوعة مخالفة لما ورد بالقرآن في أماكن كثيرة، منها ما اسند إلى ابن مسعود انه قال: بين السماء السابعة وبين الكرسي خمسمائة عام وبين الكرسي إلى الماء خمسمائة عام والعرش على الماء والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه. وعن ابن عباس انه قال: الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره الا الله، وأمثاله كثير. وأعجب منه حديث الأوعال التي تحمل العرش بقرونها، فقد روى ابن عباس: لحملة العرش قرون لها كعوب

ككعوب القني ما بين أخمص أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ومن كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام ومن ركبته إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام ومن ترقوته إلى موضع القرن مسيرة خمسمائة عام. ورواية اخرى مثلها عن ابن عباس في حديث السحابة وفي آخره يقول: ... وفوق ذلك ثمانية أوعال ما بين أظلافهن وركبتهن مثل ما بين السماء والأرض وعلى ظهورهن العرش... ثم الله فوق ذلك. وحديث آخر عن عروة أنه قال: حملة العرش منهم من صورته على صورة النسر ومنهم من صورته على صورة الثور ومنهم من صورته على صورة الأسد. وكلها أحاديث خيالية موضوعة مكتوبة من صنع المحدثين.

6 ـ **ضحك الرب:** لم تأنف المجسمة من إسناد حتى الضحك لله تعالى. فقد جاؤوا بعدة أحاديث مسندة إلى السيد الرسول عن ضحك الله عند سروره فأثبتوها في كتبهم وجميعها من الموضوعات، لا تمت إلى سيد الرسل بشيء. منها حديث أبي موسى عن سيد الرسل انه قال: يتجلى ربنا ضاحكاً يوم القيامة. ومنها حديث رزين العقيلي انه قال: يا رسول الله، أيضحك الرب؟ فقال: نعم. فقال: لن نعدم من رب يضحك خيراً. ولجابر وأبي الوادك ونعيم بن همار أيضاً أحاديث مماثلة في ضحك الرب. وكذلك لعبد الله بن مسعود حديث طويل حول ضحك الرب من عبده حين يقول له: أتهزأ بي يا إلهي؟.. وهم مصرّون على انه يضحك إلى قوم ويصرفه عن قوم ويعتقدون ان ضحك الله اصل وحقيقة للضحك ويضحك كما يشاء ثم يقولون هو نفس الضحك، يضحك كما يشاء وكما يليق به.

7 ـ **المحدثون ايضاً:** بعد ان أثبت المجسمون المغالون بأحاديث موضوعة مكذوبة الحد والعرش في السماء السابعة واليدين والكف والأصابع والرؤية والنزول والصعود (الحركة) والقدم واليمين والجهة والمكان والسمع بسمع والبصر ببصر والعين والضحك والوجه والنفس والعلم والكلام... الخ، ذهبوا إلى أبعد من هذا. فقد نسب الرواة إلى ابن عباس انه قال: ان النبي (ص) رأى ربه «جعداً امرد عليه حلة خضراء». وفي اخرى: رأى ربه مرتين في صورة شاب امرد. وكلها مكذوبة مدسوسة من عمل اليهود وعلى طرفي نقيض من قوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار﴾. ومن حديث أبي ذر: نورانيّ أراه. ومن حديث عائشة أم المؤمنين: من زعم ان محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.

والغريب ان بعض المغالين من المحدثين قد قبلوا بعض الأحاديث مع مضاربتها نصوص القرآن، يكفي عندهم أن يكون الرواة والمحدثون ممن يعتقد بصحة رواياتهم وأقوالهم. فقد وزن رجال الحديث زهد الرواة والمحدثين وصدقهم وإخلاصهم وتعبداتهم ولم يزنوا أقوالهم ومطابقتها القرآن، فقبلوا من أبي هريرة وابن رزين وابن عباس ومن اليهود الذين اسلموا ليفسدوا الشريعة الاسلامية، كلّ ما قالوه عن حسن نيّة أو سوء قصد عن السيّد الرسول من دون النظر إلى مطابقة الموضوع مع ما هو موجود في القرآن، مكتفين بإخلاص المحدث وتقواه وتظاهره بالاسلام، ومن دون ملاحظة المرونة التي عند اليهود في الزي والمظهر والتطور، فأصبحت تلك الروايات والمنقولات مع سماجتها من السنن النبوية وثم من المعتقدات الاسلامية، تضاهي بقوتها النصوص القرآنية رغم مخالفتها لأحكام القرآن.

8 ـ المشبهة والمجسمة أيضاً: ولم تقف الحالة عند ما سبق ذكره، فظهر جماعة من الشيعة الغالية وجماعة اخرى من اصحاب الحديث يطلق عليهم اسم الحشوية صرحوا بالتشبيه جهاراً. فكان أهل الشيعة الغالية أمثال نصر وكهمش وأحمد الهجيمي وهشام الجواليقي يقولون ان معبودهم صورة ذات اعضاء وأبعاض يجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار، وأجازوا على ربهم المصافحة والملامسة والرؤية في الدنيا والآخرة. فهؤلاء هم الذين ينزعون إلى تشبيه الله بالإنسان نزعة مادية، وهي مأخوذة من كتب اليهود «وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا. فخلق الله الانسان على صورته» (1 ـ 28 تكوين).

9 ـ الاحاديث النبوية: تفرّس السيد الرسول في ما ستؤول اليه الأحاديث النبوية فقال: «سيفشو الحديث عني فاذا سمعتم عني حديثاً فاعرضوه على كتاب الله فان وافقه فاقبلوه والا فردّوه». فلم ترق أمثال هذه الأحاديث بعض المحدثين فقالوا عنها انها من الموضوعات. وذهب آخرون إلى أبعد من ذلك فقالوا إنها من وضع الزنادقة، وقالوا قد صح عندنا خلافها، وهو قوله عليه السلام: «الا واني أوتيت القرآن ومثله معه» وقال الخطابي في كتابه «تذكرة الموضوعات»: ان تلك الأحاديث من وضع الزنادقة. وقال العجلوني كذلك. وأيد ابن حزم بانها موضوعة ومن وضع الزنادقة. كل هذا لتأييد وتثبيت بعض الأحاديث الموضوعة المعارضة لنصوص القرآن، والمخالفة للمعقول والمنطق الديني، مع علمهم ان الأحاديث في زمن السيد الرسول لم يدون منها الا القليل، وقد تلاعبت فيها الأيدي والألسن والغايات والأهواء، ولم يسلم من العبث الا القرآن وحده. لذلك لا يوجد ذو عقل ودين يقبل من أبي هريرة أحاديث تخالف نصوص القرآن ومن ابن مسعود عن ضحك الرب اذا لم يكن لكلمة الضحك معنى بالعربية خلافاً لما هو معروف عندنا من معنى الضحك الذي تبدو فيه الاسنان او برق السحاب. ومن كعب الاحبار بان الله جل وعلا «كتب التوراة بيده وخلق ادم بيده وغرس جنة عدن بيده» وهي مأخوذة من كتب اليهود «والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحتين» (32 ـ 17 خروج). و«غرس الرب الاله جنة في عدن شرقاً» (20 ـ 8 تكوين). وأمثال ذلك من الأحاديث الموضوعة الغريبة كثير. ومن المعلوم ان أبا هريرة كان قد أسلم قبل وفاة النبي (ص) بنحو من ثلاث سنوات وعلى رواية من سنتين. فمن الغريب انه روى من الأحاديث حول الحدود والفرائض والأحكام... ما لو جمعت لزادت على ما روته الصحابة كافة. وكانت أحاديثه معظمها خيالية مفرطة وعلى جانب كبير من الغرابة كحديث الشيطان عند التأذين مثلا، نتزه السيد الرسول عن ان يخرج من لسانه ذلك الكلام.

10 ـ غلاة الشيعة: والقسم الآخر من المشبهة غلاة الشيعة الذين أرادوا الانتقام من الديانة الاسلامية فخرجوا على تعاليم العقيدة الأصلية بشأن التوحيد وجعلوا الله جسماً له وجه ويدان وعينان وأذنان وقدمان ولحم ودم. وغاية ما قالوه إنه جسم لا كالأجسام ووجه لا كالوجوه ويد لا كالايدي، الخ... وانه بالسماء فوق عرشه قد استوى عليه، وهو في جهة معينة منها. وأجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة. ونقل الشهرستاني عن الكلبي ان بعضهم كان يجوِّز الرؤية في الدنيا، يزوره ويزورهم. ونقل عنه ان داود الخوارزمي كان يقول هو أجوف من أعلاه إلى صدره وصمت ما سوى ذلك، وان له وفرة سوداء وله شعر قطط. ويقول الخوارزمي: وأما ما ورد بالقرآن من الاستواء والوجه واليدين

والجنب والمجيء والفوقية... فأجروها على ظاهرها، اعني ما يفهم منها عند الاطلاق على الاجسام. ويقول: اعفوني من الفرج واللحية واسألوني ما وراء ذلك.

11 ـ **دس اليهود**: ويستدل داود الخوارزمي على الصورة والجسم بأحاديث مكذوبة من عمل اليهود وعبدة النار مسندة إلى سيد الرسل منها: «خلق آدم على صورة الرحمن». وهي مأخوذة من التوراة وهي: «وقال الله نجعل الانسان على شبهنا». ومنها: «خمّر آدم بيده أربعين صباحاً». وهي مأخوذة من كتب المجوس وهي: «ان اله النور خمّر طينة زرادشت ستة آلاف سنة». ومنها: «وضع يده على كتفي». وأخرى: «لقيني ربي وصافحني ووضع يده بين كتفي... الخ»، مأخوذة من التوراة عند: «لقاء الله يعقوب في مخاضة يبوق ومصارعته معه حتى طلوع الفجر، ما سبّب خلع فخذه من شدة الكفاح أثناء الصراع ولم يتركه حتى باركه...». وغير ذلك كثير. والسبب في هذا كله أن التوراة لم يترجم إلى اللغة العربية الا في القرن الثامن الميلادي، فلم يطّلع على ما فيه المسلمون الاولون وخاصة منهم رواة الأحاديث، فكان اليهود الذين اسلموا ليفسدوا الاسلام قد أدخلوا صفات إلههم يهوه التجسيمية وقواعدهم المختلفة الواردة بالتوراة في الديانة الاسلامية بمكر ودهاء من دون ان يشعر بهم احد من المسلمين، فتقبلها منهم اصحاب القلوب الطاهرة عن حسن نية واستفاد منها الموتورون والمغرضون لتعكير صفاء الديانة الاسلامية.

12 ـ **غلاة المشبهة**: وقالت المشبهة ايضاً: اشتكت عيناه من كثرة البكاء على طوفان نوح حتى رمدت عيناه، فعادته الملائكة، وإن العرش ليئط من تحته كأطيط الرحل الجديد؛ وإنه ليفضل من كل جانب أربعة اصابع من عرشه. وقالوا: ينادي الله يوم القيامة بصوت يسمعه الاولون والآخرون. وقالوا: ان موسى كان يسمع كلام الله كجر السلاسل، ومن قال ان القرآن مخلوق فهو كافر.

13 ـ **تجسيم الآلهة**: لم يكن تجسيم الآلهة والملائكة والجان والشياطين خاصاً بهؤلاء المشبهة والمجسمة. فهي عنعنة قديمة عند البشر متغلغلة في معتقدات الشرق القديمة كافة. فكان السومريون والكلدانيون واليونانيون والمصريون والفينيقيون والسوريون وفي مقدمتهم اليهود يعتقدون ان الإله او الآلهة ارواح وقوى على شكل البشر قد تنزل إلى الأرض فتطوف الشوارع والمنعطفات وتدخل البيوت او تتكلم مع الناس وتقضي الحوائج، وتبلّغ الاوامر والشرائع ثم تختفي عن الأعين. وهي متغلغلة في مشاعر الاقوام البائدة المذكورة كافة، ولذلك كانوا يوجسون خيفة حين يدعي مخاطبهم أنه إله او رب او ملك فينقادون لأوامره ونواهيه وما يبلغه من الشرائع.

14 ـ **الأديان السماوية**: وقد تناولتها صراحة او ضمناً حتى الاديان السماوية الثلاث المعلومة الكبرى تبعاً للاعتقاد السائد في تلك الازمنة. فان الإله يهوه بالنظر للاصحاح الثامن عشر من فصل التكوين كان قد ظهر لابراهيم مع ملكين معه بأشكال بشرية، فقدم لهم ابراهيم اولاً ماء ليغسلوا أرجلهم ثم جاءهم بعجل سمين فذبحه لهم وأكلوا وبشروه باسحاق، ثم ذهبوا إلى قوم لوط وكان لهم مع لوط محاورة معلومة. وظهر يهوه تكراراً لاسحق ويعقوب، فخلع فخذ يعقوب أثناء صراعه معه، وظهر لموسى مراراً عديدة في طور سيناء، وكلمه بصوت ولفظ، وقال له: «اخلع نعليك... الخ»، وقال له: «لن تراني...»، وكان ينزل بين آونة وأخرى إلى الأرض فيجلس في خيمة الاجتماع ليقضي بين الناس فكان يخاصم

ويقهر، ويعقد العقود والمواثيق، ويشتد غضبه ويتشفى ويحقد، ويفتقد ذنوب الآباء في الابناء وفي ابناء الابناء، حتى الجيل الثالث والرابع من مبغضيه ثم يعفو ويصفح، لا فرق بينه وبين الاشخاص البشرية من الوجهتين الجسدية والاخلاقية. أما الشريعة الاسلامية، فقد نفت هذا التجسيم نفياً باتاً. الا ان روح الله (جبرائيل) ظهر أمام مريم ام السيد المسيح فتمثل لها بشراً سوياً، وظهر أمام سيد الرسل في صورة اعرابي... وفي الديانة المسيحية ظهر ابليس للسيد المسيح مراراً لاغوائه فلم يفلح. وأخيراً ادعى المسيحيون اختلاط اللاهوت بالناسوت، فصار عيسى إلهاً وبشراً سوياً. ولم يشأ قسم من العالم الاسلامي أن يبقى سيد الرسل أقل مرتبة عمن سبقه من الانبياء، فأسندوا إليه أنه رأى ربه مرتين وهو جعد أمرد عليه حلة خضراء وأنه وضع يده على كتفه، و... و...

وسيد الرسل يقول: «نوارنيٌّ أراه؟»، والمحدثون يقولون: انه رآه ليس مرة واحدة انما مرتين، وجميعها مأخوذة من الاسرائيليات ومن دس اليهود حتى جاءت المعتزلة وقضت على هذه المنقولات والمدعيات.

الفصل الثالث المعتزلة

1 ـ كان نتاج العقل العربي قبل الإسلام منحصراً ببعض الحكيمات والكهانة والألغاز والتوصيف جاءت غالباً على لسان الشعر. ولم يكن عندهم ما يسمى نظرات فلسفية تعود إلى الكون والعالم وما وراء الطبيعة وإلى الآلهة إلا القليل جداً. وهذه النظرات الطفيفة تقوم على بعض شؤون الطبيعة وهي متفرقة لا رباط بينها. فكانوا وثنيين أكثر مما هم إلهيين. وكان العقل السامي ولم يزل عندما يصدم بما يعجز عن فهم كنهه وإدراك حقيقته يرجعه إلى الصنم أو إلى الإله فيرتاح من إعمال الفكرة ومن تحري الأسباب الطبيعية، ولذلك كانت قوة الأصنام والآلهة عندهم غير محدودة.

ولما جاء الإسلام أعطى القوة والقدرة لله جميعاً، وانقضى القرن الأول الهجري والعرب تحت اندفاع التيار الديني الشديد لإعلاء كلمة الله في الشرق والغرب، مكتفين بما لديهم من القرآن والحديث. ولم يكن قد دخل فيما بينهم ما يسمى العلم والطبيعيات والفلسفة، كما أنه لم يكن من المعقول في هذا العهد أن يسمح الزعماء للعامة بالاطلاع على ما لدى الأمم الأخرى من الأفكار والتصورات العلمية والفلسفية ما لم يتغلغل الدين في أعماق وجدان المسلمين مما لا يمكن زحزحته بالمحاكمات العقلية والدساتير الفلسفية. وإذا كان قد ذكر المؤرخون عن هذا العهد أن خالد بن يزيد بن معاوية قد اشتغل بالكيمياء، فلعله اراد بها العثور على الذهب، لإعالة أتباعه لا لقصد العلم نفسه.

2 ـ دخل في الديانة الإسلامية في هذا العهد طوعاً أو كرهاً كثير من المسيحيين واليهود والصابئة والمجوس وأناس من مختلف الملل والنحل، فأدخلوا معهم فلسفة دياناتهم المختلفة، فبرزت من بينها الفلسفة الكلامية المسيحية من ملكانية ويعقوبية ونسطورية، فتداولتها الألسن الإسلامية حتى انتشرت بين العلماء والمفكرين. ولما كثر الاختلاط بين المسلمين والعناصر المسيحية المختلفة، وكذلك بينهم وبين الايرانيين والهنود والأمم الأخرى، حصل حس الانتباه والتجسس والمراقبة، فبدأت المناقشة بين العلماء وبين رجال الدولة فكثرت الرغبة للوقوف على أكثر مما هو موجود في القرآن بين مختلف الطبقات، وبدأ ينمو حب الاطلاع على العلوم والأفكار التي عند مختلف الأمم.

3 ـ وأجاز الآباء المسيحيون أمثال القديس يوحنا الدمشقي في الشام وتلميذه القديس أبي قره في بغداد القسس والرهبان في هذا العهد، عن قصد تدريس الشبان المسلمين العلوم الحديثة وتلقينهم كثيراً من المسائل العقلية والجدلية ومسألة الاختيار التي تقابل الجبر وبعض العناصر الفلسفية المتضافرة مع القواعد المسيحية، وبعضاً من الفلسفة اليونانية والدخول معهم في محاورات كلامية ومناظرات دينية في القدر والاستطاعة وحرية الإرادة والقول بأن الله مصدر كل خير، وبأنه تعالى يهيّىء ما هو الأصلح للناس، وبنفي الصفات والأسماء، كل هذا لإيقاظ الأفكار وإيقاع الشبهات في المعتقدات الدينية الإسلامية بصورة غير مباشرة وغير محسوسة وتحت شعار العلم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان المتخرجون في مدرسة جنديسابور وحرّان والإسكندرية ونصيبين وقنسرين والرها، والذين

حصل لهم اتصال بمدنية الأقاليم المجاورة وبعبقرية الإغريق والفرس، يبثون الأفكار الطبية والعلمية والفلسفية في الأوساط الراقية الإسلامية وفي المدارس الدينية وبين مختلف طبقات الناس حتى في قصور الملوك والأمراء، فيتباحثون ويتجادلون في مختلف المواضيع حتى أصبحت الفلسفة تشع في جوانب بغداد كافة، فارتبك الأمر على المسلمين ولم يبق إمكان بقاء القواعد الإسلامية على حالتها ومحافظتها على عصمتها وصفائها. ومن جهة ثالثة، كان هذا الخليط من الأمم ينفثون سمومهم في ميادين العقائد والدين ـ متظاهرين أنهم أكثر تديناً وأشد إخلاصاً للدين المحمدي من غيرهم ـ ويفسرون الآيات المتشابهات ويرشدون ويحدثون ويزهدون ويتصوفون على حساب الإسلام والمسلمين. فظهر على أثر هذا الاحتياج علم الكلام وظهر على أثره المتكلمون فالمعتزلة.

4 ـ **علم الكلام:** كان علم الكلام يبحث في العقائد الدينية بالأدلة العقلية والحجج المنطقية لتقرير الحق فيها، وكان يدعو إلى المناظرة والمخاصمة والمجادلة بالأقوال لا بالمنقولات، غايته حفظ عقيدة المسلمين وحراستها من تشويش أهل البدع، خاصة ما نشره الإيرانيون القدماء المغلوبون على أمرهم من المعتقدات الدينية، فشرع المتكلمون في الرد على المخالفين والملحدين وجدالهم بمثل حججهم بالعقل والمنطق لا بالنص والحديث. فكان ضرورياً للعلماء الأحرار أن يتكلموا وللمنورين أن ينعزلوا وللدين أن يتفلسف، فأطلق على العلماء كافة الذين يناظرون ويجادلون في العقائد الدينية مناظرة عقلية منطقية اسم المتكلمين. ولم يتدخل الأولون من المسلمين في الآيات المتشابهات قدرية كانت أم اختيارية أم جبرية كما سبق بيانه، فقبلوها كما جاءت من دون جدال ولا بحث، واكتفوا بالمعنى الإجمالي منها لعدم تحمل عقلية الجمهور ما فيها من معان قد يظهر أنها متضاربة. أما وأن الوضع قد تبدل والزمان استدار والأفكار انتبهت والفلسفة انتشرت، فأصبح من الضروري لقسم من العلماء (المعتزلة) أن يردوا على هذه المدخولات ليس بالمنقولات والأحاديث والآيات القرآنية، كما قد يفعله بعض رجال الدين وأنصاف العلماء، إنما بالفلسفة نفسها. فكانت طريقة المتكلمين التي ساروا عليها، تقديم الأدلة والبراهين العقلية والنظر المجرّد والعلم والمنطق لإثبات وجود واجب الوجود مثلاً، فتعمقوا بدراسة الفلسفة اليونانية واستوعبوا نظريات حدوث العالم والجزء الذي لا يتجزأ والذرة... الخ، وفسّروا الآيات المتشابهات بشجاعة فائقة وأوّلوها تأويلاً يساعدهم في حوارهم مع خصومهم. وكان لوقوفهم ضد المحدثين والمفسدين والملحدين والمجسمين وجميع أصحاب الفرق الغالية والبدع والضلالات أثره الحسن في تثبيت قواعد التنزيه وترصين بنيان الديانة الإسلامية. ويعود الفضل في ذلك إلى رجال فرقة المعتزلة.

5 ـ أما أصحاب المدرسة القديمة المحافظة، وكان يرأسها أحمد بن حنبل، فبقيت جامدة حول النصوص لا حراك فيها، فلم تقدم ولم تؤخر، وكأنها بمعزل عما أتاه الدخلاء والمضللون والمفسدون الذين قبلوا الديانة الإسلامية مرغمين، أو من الملل الأخرى من نصرانية ويهودية ووثنية وبقايا الزرادشتية والمانوية والمزدكية، وكانوا بمثابة المحافظين في السياسة والفلسفة والعلم والدين، فوقفوا عند النص لا يتزحزحون قيد شعرة من حرف ولفظ. وعندما تغلبت هذه المدرسة القديمة على المتكلمين والمعتزلة في زمن المتوكل، ثبتت قواعدها واستدامت عقائدها ولم تزل مستديمة في جمودها حتى يومنا هذا.

6 ـ كان البحث المنطقي في أوائل القرن الثالث قد عمّ المسلمين جميعاً فظهر المتكلمون في مختلف الأقطار ومن مختلف الفرق والطوائف الإسلامية من معتزلة ومرجئة وخوارج وشيعة أمثال النظام والأشعري وحسن البصري وجهم بن صفوان وأبي هذيل العلاّف وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء. وكان المعتزلة منهم بمثابة الأحرار في السياسة والفلسفة والعلم والدين، لا يتقيدون بقيد ولا يحدون بحد. قد يعتمدون على إلهام العقل وما يوحيه الفهم فيؤولون ويقولون إن العقل لا يقنع بالغموض وله حق الشرح والتأويل، فوقفوا للدفاع عن عقيدتهم ودحض حجج خصومهم إسلاميين كانوا أم غير إسلاميين. ولما لم يكن للمسيحيين في البلاد العربية حكومة سياسية يأسفون على ضياعها، فلم تكن بين المسلمين والمسيحيين العرب عند الفتح الإسلامي عداوة بأكثر من اختلاف في المعتقدات. كما ولم تكن اليهود أيضاً خطراً على الإسلام بأكثر من دسائسهم وإيقاعهم التفرقة بين المسلمين، كما فعله عبد الله بن سبأ عند إثارته الفتنة على عثمان وإعلانه ألوهية علي بن أبي طالب كما ألّه زميله بولس الرسول من قبله عيسى بن مريم. فكان الخطر كله على الإسلام متأت من جانب الفرس القدماء الذين أضاعوا استقلالهم السياسي فتمسكوا بحب آل البيت وبحلول الجزء الإلهي بعلي بن أبي طالب وأحفاده من بعده لإيقاع التفرقة بين المسلمين وإدخالهم الضلالات وتثبيت نظمهم الإجتماعية ودينهم القديم وتقاليدهم ومختلف أنواع البدع في قواعد الدين. وكانت عشوش الزنادقة من ثنوية ومزدكية ودهرية ومانوية ومجوسية متأصلة على الأكثر في البصرة. فانبرى لهم ولأرباب الفرق الأخرى إسلاميين كانوا أو ملحدين، رجال المعتزلة يهتكون أسرارهم ويفضحون أفكارهم ويكشفون عوارهم ويجادلونهم بمثل قواعدهم في الفلسفة والعلوم العقلية والمنطق لا بالروايات والمنقولات، وبما رواه زيد عن عمرو، إنما بالمنطق الصحيح والحجج الدامغة. ولم يكتفوا بذلك بل تعدّوا إلى التبشير بالدين الإسلامي، فأرسلوا الرسل والوفود إلى بلاد المجوس لدحض حجج المخالفين، فأسلم على يدهم خلق كثير، حتى إن الخلفاء كانوا لا يجدون من يقوم بمجادلة أمثال هؤلاء الملحدين سوى رجال المعتزلة. فكان المأمون قد اتخذ ثمامة بن أشرس المعتزلي للرد عليهم.

وكانت المعتزلة أكثر جرأة وإقداماً من زعماء الفرق الإسلامية الأخرى كافة في التأويل والتفسير. فقد ناضلوا المجسمة والمشبهة والشيعة الغالية والخوارج وجميع الفرق الأخرى المعارضة لعقيدتهم. ففي الوحدانية مثلاً قالوا: إن ذاته تعالى ليست مركبة من أعضاء وأبعاض وأمور كثيرة. فلو كان مركباً لافتقر إلى أجزاء، وكل جزء من أجزائه غيره، والله غني ومنزّه عن الافتقار إلى سواه. وقالوا لو شاركته الصفات في القدم لشاركته في الألوهية ووجب وجود إلهين اثنين قديمين وهو فاسد، وإن كانت محدثة فيكون قد أحدثها الله في نفسه وأصبحت حادثة وأصبح محلاً للحوادث وهو محال. فكانت أحديته فردية لا تقبل التركيب ولا تعدد ولا كثرة فيها. وإن صفاته عين ذاته. فلم يكن علمه زائداً على ذاته إنما هو هو. وهكذا في سائر الصفات كما سيأتي بيانه.

7 ـ **من هم المعتزلة؟**: ظهر الاعتزال في العالم الإسلامي منذ أن حصل الاتصال في سوريا بين العرب المسلمين ورجال الدين المسيحي، خلافاً لما يقال من أن أول من اعتزل هو واصل بن عطاء. فكان القسس والرهبان في سوريا منهمكين بتفسير معنى الاختيار والإرادة والتثليث والانبثاق وماهية

الصفات والقدر والإرادة الجزئية... إلخ، فتناولها منهم العرب في العصر الأول الهجري واعتبروا أن اللّه عادل خير لا يصدر عنه شر، فلا يمكن أن يقدر أعمال البشر بما فيها من الشرور والموبقات منذ الأزل، فهو ظلم وهو ليس بظلاّم للعبيد. ولذلك كان من الضروري وجود إرادة جزئية فعّالة عند البشر تقدر الخير فتفعله والشر فتجتنبه. فكان هذا الاعتقاد مبدأ القدرية في العالم الإسلامي.

8 ـ وكان أتباع القدرية أسلاف المعتزلة يقولون: إن اللّه لم يقدر على خلقه شيئاً من أفعالهم وأعمالهم ومما هم عليه، وإن الإنسان مختار وله إرادة جزئية وله حرية الاختيار وله أن يقدّر أعماله وأفعاله من خير وشر، وليس للّه فيها صنع ولا تقدير لا نفي ولا إثبات. فهو خالق أفعال نفسه. فهو لذلك محاسب على أفعاله. فأخذها منهم المعتزلة وأضافوا إليها العدل، وهو أن اللّه لا يصدر عنه شر ولا يخلقه ولا يأمر به، إنما يثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته.

وتسمى المعتزلة أيضاً أهل التوحيد، وهو الدفاع عن مبدأ الوحدانية، فينكرون أن للّه صفات زائدة على ذاته. ويقولون هي هو، وإن اللّه يعلم بعلم، وعلمه ذاته. ويسمون أيضاً أهل الوعد والوعيد، وهو أن اللّه صادق في وعده ووعيده. فظهر أمرهم في القرن الثامن الميلادي أي بعد المائتين من سني الهجرة من بين التيارات الفكرية المختلفة، بأنهم أهل النظر العقلي وأنهم أهل العدل. وقويت شوكتهم عند دخولهم في الكفاح ضد الثنوية المنتشرة بالبصرة، القائلة بوجود إلهين أثنين، إله الخير وإله الشر، أو عنصرين اثنين في الخلقة، عنصر الخير وعنصر الشر. وكانت تعاليمهم خليطاً من أقوال القدرية والجهمية. فقد أخذوا من القدرية نفي القدر وحرية الإنسان في اختيار أفعاله، وأخذوا من الجهمية جميع أقوالها سوى الجبر. وبذلك ذابت القدرية والجهمية في بوتقة المعتزلة.

9 ـ شرع المعتزلة لأول مرة بالعالم الإسلامي في تحكيم العقل في جميع المسائل المعروضة عليهم. فأوّلوا نصوص القرآن تبعاً لما يقتضيه العقل والمنطق لا كما يريده الإلهيون والسلفيون أصحاب المدرسة القديمة وهم أهل السنة والجماعة والحنابلة والمتصوفة، من الجمود والوقوف على حد اللفظ والنص وظاهر الشرع دون زيادة أو نقصان أو تأويل أو تفسير. فقد وضعوا التأويل في أول صفحة من أعمالهم، ليتسنى لهم تفسير القرآن بما تقتضيه الأحوال في كل زمان ومكان، وعلى توالي السنين. والتأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل بالمعنى ويخالف لسان العرب. فقالوا: لا يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها إنما يجب الجمع بين المعقول والمنقول، ومن الضروري قبول التأويل على أن لا تخرج كلها من ظاهرها إنما بقدر ما يساعد المجاز ولسان العرب فقط. فقالوا مثلاً: ما القصد أن اللّه تعالى في السماء أو فوق العرش إلا أنه فوق العباد وفوق كل شيء وأعلى من كل شيء ومحيط بكل شيء بدون تحديد ولا حصر ولا نسبة في جهة دون غيرها. وأما قوله تعالى ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ فمعناه أنه أعلا وأفضل وأعظم من غيره. وفي قوله تعالى ﴿وجاء ربك﴾ أنه أمر ربك، وهكذا... وقالوا لقد ذكر القرآن الكريم «التأويل» بصيغة المدح في قوله تعالى ﴿أنبئنا بتأويله أنا نراك من المحسنين﴾ (36 ـ يوسف).

10 ـ كان أول من تكلم في الصفات ونفاها وقال بخلق القرآن بالنظر لما رواه ابن الأثير هو الجعد بن درهم في البصرة. وبالنظر للمقريزي هو الجهم بن صفوان في خراسان. وكان خالد بن عبد اللّه

القسري قد ضحى الجعد بن درهم يوم عيد الأضحى لقوله: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليما. وقتل سالم بن آحوز أمير ترمذ جهم بن صفوان لقوله: لا يجوز أن يوصف الباري بصفة الخلائق لأن ذلك يوجب التشبيه.

وكان من أهم ما اعترض سبيل المعتزلة «الكلام»، وهل هو صفة من صفات الألوهية. فقالوا: إذا كان الكلام من صفات الله وقديماً، كان من الضروري أن يكون أزلياً وموجوداً قبل أن يخلق الله العالم، وإلا فإذا كان الله قد استعمل صفة الكلام هذه ضمن حدود الزمان والمكان فقد يعتريه التبدل والتغيير عما هو عليه عند تكلمه، أي إنه يتبدل من وضع الساكت إلى وضع الناطق وهو محال، لأنه لا يمكن إسناد التبدل إلى الله تعالى. فإذا كان الكلام من صفات الله فإن كلام الله، وهو القرآن، وجب أن يكون أزلياً مع الله. والاعتقاد بقدمه إلى جانب قدم الله شرك. هذا مع العلم أن القرآن يعود كله إلى الأمور الدينية والدنيوية ضمن حدود الزمان والمكان لتأمين سعادة البشر في الدارين. وقالوا لو كان القرآن بحرفه كلام الله ومقرراً منذ الأزل لا تغيّر فيه، ولم يكن سيد الرسل إلا واسطة لنقل هذا الوحي إلى الناس، كيف يمكن تفسير الناسخ والمنسوخ والتعديل والتبديل تبعاً لوقائع الزمن وحادثاته كحادثة التيمم عند فقدان الماء مثلاً.

وفي نفي اللفظ والكلام عن الباري تعالى قالوا في تفسير قوله تعالى ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ هو بإرادته تعالى لا بلفظة ﴿كن﴾ عن كل حادثة في العالم. وأما المشبهة فتقول: إنه بلفظه وقوله وإرادته جميعاً. فإذا قال له ﴿كن﴾ كان وإذا لم يقل ﴿كن﴾ لا يكون.

ومن جملة قواعد المعتزلة أن أفعال العباد من فعل العباد لا من فعل الله. فان الله لم يخلق أفعال العباد لا خيراً ولا شراً وأن للإنسان إرادة كاملة حرة يخلق أفعاله وأعماله بها، إن كانت خيراً فيثاب عليها وإن كانت شراً فيعاقب عليها، يستندون بذلك على آي الذكر الحكيم ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ و﴿تخلقون إفكا﴾ ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾. وقوله عز وجلّ ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا﴾.

وقالوا: كل من فعل شيئاً فهو مسمى به ومنسوب إليه. فلو خلق الله الكذب والخطأ والظلم والكفر... إلخ، لنسب كل ذلك إليه، تعالى الله عن ذلك. وقالوا من فعل الجور كان جائراً أي ظالماً، ومن فعل الظلم كان ظالماً، ومن أعان فاعلاً على فعله ثم عاتبه عليه كان جائراً عابثاً، ومن خلق خلقاً ثم خلق من يضل ذلك الخلق فهو ظالم عابث. قالوا والعدل من صفات الله تعالى والظلم والجور منفيان عنه، قال تعالى ﴿وما ربك بظلاّم للعبيد﴾ و﴿إن الله ليس بظلاّم للعبيد﴾ و﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ و﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾. وقالوا إذا كان فعلكم خلقا لله وعذّبكم على فعلكم فقد عذّبكم على ما خلق. وقالوا أيضاً: قد فرض الله علينا الرضا بما خلق فإن كان الظلم والكفر والكذب مما خلق فقد فرض علينا الرضا بالكفر والظلم والكذب، فلذلك، إن الله لا يريد الشر ولا يخلقه ولا يأمر به. وقالوا إذا كانت أفعال العباد من خلق الله تعالى وكان العباد لا فعل لهم في تصريف شؤونهم، وإذا كان الله عالماً بمن سيظلم وسيؤمن وسيكفر من عباده منذ الأزل انتفت الحاجة إلى إرسال الرسل وبطل التكليف وبطل حساب الآخرة. ولذلك قالوا بالاختيار ليثبتوا على أن

الإنسان محاسب على أعماله من خير وشر وليقيموا الحجة على عدل الله، وإنه لا يمكن أن يصدر عنه شر أبداً. ولهذا كان الإنسان عندهم خالقاً لافعال نفسه.

11 ـ وبعد ان اطّلع المعتزلة على الاديان الثلاثة الكبرى وعلى ديانة الفرس الأقدمين والهنود توصلوا الى ان في الانسان علماً فطرياً يؤدي الى معرفة إله خلق العالم، وأعطى الانسان عقلاً يميز به الخير والشر، فكان للإنسان حق الاختيار. ولذلك كان الانسان خالقاً لأفعاله تحت استطاعة يخلقها الله فيه. وبهذا كان الله عادلاً لا يمكن أن يصدر عنه شر لأحد. وأما خصوم المعتزلة فيقولون إن الله بقدرته المطلقة وإرادته التي لا يحاط بها، يخلق جميع الافعال والحوادث. فكان كلما تمادى المعتزلة بنفي القدر والصفات، غالى بعض المسلمين بالجبر.

والقدرة الطبيعية عند المعتزلة هي آثار صنع الله وتجليات قدرته ومبدعات حكمته.

12 ـ اتفق المعتزلة بالإجمال على القول بأن الله قديم وبنفي الصفات الإلهية. وقالوا عالم بذاته لا بعلم، قادر بذاته لا بقدرة، حي بذاته لا بحياة. فلو شاركه العلم والقدرة والحياة في القدم لشاركته في الالوهية، فكان كلامه محدثاً مخلوقاً. واتفقوا ايضاً على نفي رؤية الله تعالى بالابصار ونفوا عنه التشبيه واتفقوا أيضاً على عدل الله ووعده ووعيده وعلى ان المعارف كلها عقلية حصولاً ووجوباً قبل الشرع وبعده وعلى ان الامامة بالاختيار.

13 ـ من أهم رجال المعتزلة أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال وكان تلميذ الحسن البصري. وله قواعد، منها: القول بنفي صفات الباري من العلم والقدرة والحياة، ومنها نفي كلمة خيره وشره من الله تعالى، لأن الباري حكم عادل لا يجوز عليه الظلم والجور فيحكم عليهم شيئاً ثم يجازيهم عليه. فالعبد لما له من عقل وإرادة هو الفاعل للخير والشر والايمان والكفر والطاعة والمعصية ومنها المنزلة بين المنزلتين أي إن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن مطلق ولا هو كافر مطلق، مع أن الخوارج يكفّرون مرتكب الكبيرة.

14 ـ ومنهم أصحاب أبي الهذيل حمدان بن ابي الهذيل العلاف. انفرد عن اصحابه بعدة قواعد منها: ان الباري تعالى عالم بعلم وعلمه ذاته، قادر بقدرة وقدرته ذاته، حيٌّ بحياة وحياته ذاته، وذلك لجعل الباري وحدة لا وجوه فيها ولا كثرة. ومنها قوله: إن حركات أهل الجنة وجهنم تنقطع فيصيرون إلى سكون دائم لأن الجنة وجهنم محدثتان ولكل محدث نهاية. وقوله: إن الله قادر على فعل الشرور ولكنه لا يفعلها لقبحها. وأما جهم بن صفوان فكان يقول ان الجنة والنار تفنيان بالمرة ويبقى الله وحده كما كان وحده.

15 ـ ومنهم أصحاب ابراهيم بن سيار بن هاني النظام وهو من أعظم فلاسفة المسلمين. ردّ على القائلين بالمزاج، وعلى فلاسفة اليونان أمثال أنباذوقليس وأرسطو، وعلى القائلين بقدم العالم وبقدم حركة الكواكب، وانفرد عن اصحابه بمسائل أهمهما قوله: إن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي وليست هي مقدورة عليه. وقال: انما يقدر على فعل ما يعلم أن فيه صلاحاً للعباد، ولا يقدر على أن يفعل لعباده في الدنيا ما ليس فيه صلاحهم. ولا يوصف بالقدرة على أن يزيد في عذاب أهل النار شيئاً، وكذلك لا ينقص من نعيم أهل الجنة شيئاً. ومنها قوله في نفي الارادة، فيقول: إذا قلنا إنه

مريد لأفعال عباده فالمعنى أنه آمر بها. وقوله: إن الله تعالى خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن معادن ونباتاً وحيواناً وإنساناً، ولم يتقدم خلق آدم خلق أولاده، انما كمن بعضها في بعض في حالة الذر. فالتقدم والتأخر انما يقع في ظهورها من مكامنها دون حدوثها ووجودها، وهي نظرية الكمون الفلسفية كما تكمن النار في الحطب والفحم. وينكر النظام اجماع الامة والقياس كإجماعهم على ان محمداً ارسل إلى البشر كافة، ويعوّل على الامام المعصوم كسائر الشيعة، ويقول إن الله يخلق العالم خلقاً متجدداً بمعنى ليس يوجد تماسك وارتباط بين وجود العالم في اللحظة الحاضرة ووجوده في اللحظة التي سبقتها أو التي تليها. ففي كل لحظة يخلق الارادة والقدرة والحركة لاستدامة العالم. وطعن في أخبار الصحابة من أجل فتاويهم بالاجتهاد واعتبر أبا هريره أكذب الناس، وطعن على العادة بعمر بن الخطاب وكذّب بانشقاق القمر. وله آراء أخرى ليست من موضوعنا. جاء في كتاب «الفرق بين الفرق» أنه عاشر في شبابه قوماً من الثنوية فتأثر بمذهب ماني، وبعد كبره عاشر قوماً من ملحدة الفلاسفة، ثم خالط هشام بن الحكم الرافضي. وأكثر المعتزلة متفقون على تكفيره، منهم أبو الهذيل ومنهم الجبائي...

16 ـ ومنهم أصحاب معمر بن عقاد السلمي، وهو من أعظم القدرية مرتبة بنفي الصفات ونفي القدر خيره وشره من الله تعالى. ومنهم الهشامية. فقد أنكر هشام بن عمرو إمامة علي (رض) لأن الأمة لم تجتمع على إمامته، واعترف بإمامة معاوية لاجتماع الأمة على إمامته. وجاء بعد هؤلاء كثير من زعماء المعتزلة أمثال احمد بن حائط، وبشر بن المعتمر، وعمرو بن بحر الجاحظ، وثمامة بن أشرس، وأبو الحسن بن عمرو، والخياط، وأبو موسى بن عيسى، وأبو علي الجبائي، والكعبي، والقاضي عبد الجبار، وأبو علي الفارسي، والقاضي الماوردي، والصاحب بن عباد، والزمخشري صاحب الكشاف، وغيرهم من رؤوس مذهب الاعتزال.

17 ـ ومن جملة الموضوعات العامة التي تناولها المعتزلة مسألة تأويل نصوص القرآن لنفي الجسمية، فأوّلوا الآيات التي تشعر بالجسمية كقوله ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ بأنه تعبير مجازي يدل على اثبات غاية السخاء له ونفي البخل عنه فبني المجاز على ذلك. وفي الاستواء على العرش قالوا فلان على عرش ملكه وان لم يقعد على السرير البتة، وفي ﴿انما نطعمكم لوجه الله﴾ و﴿ويبقى وجه ربك﴾ قالوا الوجه يعبر عنه بالذات وهو الله تعالى كما يقال وجه الامر أي الامر نفسه، وليس المقصود الوجه الذي هو جزء من الجسد. وقالوا عن ﴿لما خلقت بيدي﴾ أي أنا بذاتي وتحت عنايتي وهي تأكيد للخلق كما يقال بيده الأمر والنهي والطلاق والعتق. وقالوا عند تفسيرهم ﴿وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة﴾ أي منتظرة، وكذلك السمع والبصر فهو يسمع الأصوات ويرى الأشياء بلا عين ولا اذن فلا يبصر ببصر ولا يسمع بسمع، فإن وجهه كله، وان سمعه ادراكه الصوت إياه، وانه عليم بالمسموعات التي يسمعها غيره وان بصره عليم بالمرئيات التي يراها غيره وان يده عطاؤه موسوعة ومقتدرة فهو عالم بصير سميع مطلع. فلا يستدل من هذا التفسير انه منقوص اعمى لا بصر له، وأبكم لا كلام له، وأصم لا سمع له، وأجزم لا يدان له، ومقيّد لا حراك به. فهو عكس ذلك يسمع ويرى لا في آلات السمع والبصر وهي الأذن والعين، وهذا تفسير لقوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾

فلا يدرك بشيء من الحواس البشرية، خلافاً لما يقوله المشبهة. وان القول بإدراكه كما فسرت ﴿كلم الله موسى تكليما﴾ تشبيه وتجسيم لله تعالى، وكذلك عن نزوله وصعوده إلى سماء الدنيا فليس معناه انه شيء محدود الاطراف قد يكون بمكان فينتقل منه إلى غيره فيملأ مكاناً كان فارغاً. فهذا محال، لان الله بكل مكان من غير زوال، وهو القيوم الذي لا يزول عن موضع ليملأ موضعاً آخر. فكانت صفات الله وأسماؤه شيئاً واحداً كله سمع وكله بصر وكله يد وكله أعلى وأسفل وكله علم ومشيئة وإرادة وكله ذاته. وكما ان الله هو الرحمن فإن الرحمن هو الله، وان ما ينزل إلى سماء الدنيا فهي رحمته وتجلياته. ونفوا عنه تعالى الجهة والمكان والوجه واليد والقدم لاعتقادهم ان اثباتها يوجب التجسيم. فلا جهة ولا حد ولا مكان ولا وجه ولا يد، ولا قدم لله تعالى. وقالوا كل جسم محدث، لحاجة الاجسام إلى الأعراض الثلاثة: الطول. العرض. العمق. وما لا يتعدى عن الحوادث فهو حادث. وقالوا اذا انتفت الجسمية انتفت الجهة، واذا انتفت الجهة انتفت رؤية الناس له حيث يكون كل مرئي في جهة معينة من الرائي. وللرؤية شروط أهمها تأثير الضوء والتحيّز وغيره. وقالوا لم يكن لله تعالى في الأزل اسم ولا صفة وان هذه الأسماء من ابتداع البشر.

18 ـ دخل المعتزلة في جدال عنيف حول القرآن، هل انه مخلوق لله او قديم بلفظه وحرفه وصوته. فقالت الحنابلة: إنه قديم بلفظه وحرفه وصوته، وقال أصحاب السلف الصالح، القرآن كلام الله لا نقول فيه مخلوق ولا غير مخلوق، وقالت المعتزلة: انه مخلوق لله وان حروفه وألفاظه وأصواته محدثة بدليل قوله تعالى ﴿كتاب احكمت آياته ثم فصّلت﴾ وكل محكم مفصل فله محكم مفصِّل فهو خالقه ومفصله ومبدعه. وقوله تعالى ﴿كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق﴾ فأخبر انه قصص لأمور أحدث القرآن بعدها. وقوله تعالى ﴿بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ﴾ فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ولا يحاط إلا بمخلوق. وقوله تعالى ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ فهو محدث. وقالوا لا يوجد شيء عن أزلية القرآن الكريم لا في القرآن نفسه ولا في الأحاديث النبوية ولا عن أهو مخلوق أم غير مخلوق. وقالوا لا يكون الكلام إلا بحركة اللسان والصوت هو جسم وعرض. وأما كلام الله فهو مخلوق محدث أحدثه الله دون ما صوت. ولا يمكن أن يكون القرآن قديماً أزلياً لأن القدم والأزلية من صفات الله وحده.

19 ـ ولأجل تطمين الأفكار المضطربة والتوفيق بين الطرفين وتطبيق أحكام العقل مع النظريات الدينية، ادعى ابو الحسن الاشعري ان الكلام على قسمين: احدهما الكلام المقروء باللفظ والحرف فهو مخلوق وحادث كما يقول المعتزلة، والآخر الكلام بالمعنى النفسي وهو القديم الأزلي القائم بذاته وهو كلام الله الحقيقي لا يتغير بتغير العبارات. فالكلام النفسي لا يخلو منه إنسان في اليقظة او في النوم، وهو المسمى بالنجوى وبحديث النفس وان لله كلاماً نفسياً قديماً لا يتغير وهو القرآن. وأيّده الماتريدي بتفسيراته هذه، الا ان المعتزلة لم تعترف بهذه التأويلات.

20 ـ **قلت**: ان القرآن مركّب من حروف وألفاظ عربية سامية مشتركة بالأصل مع اللغات السامية الاخرى كالسريانية والكلدانية والعبرية وضعها الإنسان السامي الأول وأكملها المتأخر للتعبير عن قصده، كما وضع الإنسان اللاتيني والصيني الحروف اللاتينية والصينية. وان اللغة العربية لم تزل ناقصة حتى

للدلالة على المعاني والحاجيات الخاصة بالإنسان. فلا يعقل أن تكون بهذا النقص الظاهر كافية للتعبير وإفادة المقصد عن مدلولات كلام الله وعن ذاته وصفاته بالمعنى الحقيقي. ولما كان من المستحيل على الطبيعة أن تدرك ماهيات ما وراء الطبيعة وتفهم حقائق عالم الغيب، وتضع لها اسماً أو رمزاً، فمن المستحيل ايضاً والحالة هذه، التعبير عن صفات تخص ذات الله تعالى وحده بمدلولات بشرية وكلمات إنسانية. وأما الحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة، فهي مركّبة من الأجزاء البشرية، والله تعالى منزّه عن التركيب والاجزاء. فلذلك ان اسماء الله الحسنى لا تدل على كنه ذات الله وحقيقته وصفاته انما وسيلة تدلنا على فهمه. فكانت هذه اللغة المختارة للقرآن ناقصة ليس فيها من الكلمات والمعاني ما تعبّر عن كنه ذات الله وبيان ما هو موجود وكائن في ذات الله. فان لغة لم تضمن احتياجات البشر وتسد عوزه، لا يمكن منطقياً ان تحتوي على معانٍ وكلمات ومدلولات ومصطلحات تعبّر عن صفات تخص الإله وحده ليس له فيها شبه ولا مثيل؛ فلا يحيطها إدراكنا ولا تستوعبها أفكارنا حتى نضع لها رسماً أو رمزاً كذاته تعالى أو كالعرش والكرسي مثلاً؛ ولأجل إفادة المعنى والقصد كان من الضروري استعمال هذه الكلمات البشرية للدلالة على تلك الصفات. فان هذه الكلمات والمعاني لا هي بمدلولها كما يزعمه الحنابلة وأهل السنة، ولا هي مؤوّلة كما يزعمه المعتزلة والمتكلمون، ولا هي حقيقية كما تزعمه المشبهة والمجسمة. فان هذه الصفات قد وضعها الانسان بشكل أجمل وألطف وأقوى وأعنف لما هو موجود عنده منها، او نظراً لما يجب ان يكون عليه بالنسبة إلينا، مع ان ذات الله مجردة من كل هذه الافعال والكلمات والصطلحات ومن جميع المقاييس والمتعارفات البشرية، وقد زلّ من ظنّ كلام الله مركّباً من حرف ولفظ وصوت كما هو الحال في الانسان. فان كلام الله هو المعنى، ومن صفات الانبياء ادراكه. فقد جاء في سورة يوسف ﴿انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ وفي سورة الزخرف ﴿انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ وفي سورة مريم ﴿فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدا﴾. فان انزاله وجعله عربياً وتيسيره بلسان القوم ما هو الا لإمكان تفهم معانيه بالنسبة لنا، فكان الاصل شيئاً والميسر والمجعول شيئاً آخر. فقد جعل وأنزل باللسان العربي لتدركه العقول والافهام. فلا يجوز اعتباره كالكتب او المعاني المترجمة من لسان الى آخر لأن ما هو موجود عند الانسان اللاتيني مثلاً موجود عند الانسان العربي ان لم يكن عيناً فتقريباً، وأما ما هو موجود في ذات الله، فلا يمكن ان يكون مشابهاً لا تقريباً ولا مجازاً لما هو عند الانسان. فان الكلمات والاسماء والصفات الواردة بالقرآن لا هي حقيقية ولا مجازية ولا تشبيهية. وقد اقتضى الامر ان يكون الشيء باللغة العربية الضيقة المحدودة التي لا تستوعب حتى المعاني الانسانية. فلا يمكن ان تعبر عن المعنى الأصلي المقصود بالذات. فان اليد والوجه والقدم والعرش والصفات ومن جملتها الكلام، هي ليست بالنسبة لما نعلمه من معاني هذه الكلمات. فلا يمكننا ان نقول عنها حقيقية ثم نستدركها ونقول انها ليست كما في البشر، بل كما يليق بذات الله، كما قال السلف، أو مجازية كما قالته المعتزلة في قولهم عن ﴿يداه مبسوطتان﴾ وهو اثبات منتهى السخاء له ونفي البخل عنه. وكذلك القول في لفظ «الله. الأحد. الصمد»... الخ، فهي اسماء محدثة عربية من وضع البشر. هي غير ذات الله. وما ادل على ذلك ان السريان يسمونه الآهه والعبرانيين

آلوهيم والكلدان الوهه والبابليين ابل والانباط اللات والعرب إله وقريش اللّه. وكلها في اللغات السامية واحدة. وكلها تدل على شيء واحد وترمي الى هدف واحد. وأما حقيقة ذات اللّه فهي مجهولة لا يهتدى إليها. وكذلك الحال في الصفات الاخرى. فلما كان ليس للرحمة حد تقف عنده، فقد يستدل من وصفه بكلمة «الرحمن، الرحيم» بأن رحمته تشمل العوالم كلها دون استثناء احد من خلقه، وستشمل حتى الشيطان الرجيم، وهي تنافي وصفه بكلمة «الجبّار. القهّار. المنتقم». ومن جهة اخرى، لا يمكننا التعبير عن هذه الصفات بغير هذه الاسماء والصفات العربية لانعدام المدلولات الحقيقية عندنا وهي لا شك غيرها بالذات. كما انه لا يمكن للبشر ان يضع لها اسماء مستقلة من عنده، لعدم وقوفه على كنهها وحقيقتها. فعندما يقال ﴿ليس كمثله شيء﴾ ينتفي عنه كل وصف بشري وكل تصور وخيال؛ ولما كان النطق والكلام من شأن البشر واللّه منزه عنهما، فكان الايحاء يقع في نفس الرسول ﴿وأوحي اليّ هذا القرآن لأنذركم به﴾ (الانعام). فينطق به لسانه وباللغة التي يعلمها. فلا يمكنه وليس باستطاعته ان يقول غير اليد والوجه والعرش والرحمن والمنتقم لعدم وجود الكلمات الدالة على ذلك الشيء.

21 ـ والحقيقة ان رجال المعتزلة باستثناء المغالين منهم والمفرطين والمغرضين والضالين، كانوا احراراً في آرائهم وفي تأويلاتهم، فلم يقفوا عند حد ولم يردعهم قيد، حكّموا العقل في جميع القضايا وأولوا المنقولات كافة حسبما يقتضيه الزمن والحال، فقالوا كلمتهم المشهورة «اذا تعارض العقل مع النقل وجب التأويل لما يقتضيه العقل». وكان جل قصدهم تخليص الدين الاسلامي من التبلبل والفلسفة والمذاهب المتضاربة المنتشرة في العالم الاسلامي كله، وجعل الديانة الاسلامية اكثر صفاء ومرونة وأشد مراساً وحجة، لتتوافق مع المعقولات في كل عصر وزمان، ويهضمها الوجدان البشري ويستسيغها التذوق الديني في كل وقت وآن، فتعرضوا حتى للقرآن وقالوا بشجاعة فائقة النظير انه مخلوق للّه. وكان لقولهم هذا أهميته الكبرى في نظر الجمهور المتدين، وخاصة في زماننا، بعد ان ترجمت الكتب المقدسة الى مختلف اللغات. وقالوا ان العبد يخلق افعاله وان اللّه لم يخلق افعال العباد لا خيراً ولا شراً وغيره كثير. ولو قالها اليوم أحد لحكم على قائلها بالكفر والالحاد. فكافحوا وجادلوا لتأييد آرائهم وتثبيت أفكارهم. واذا كان رؤوس المعتزلة قد نفوا ان يكون الانسان العاقل كالبهائم لا فكر ولا عقل ولا دخل ولا رأي له في تسيير شؤونه، فقد اثبتوا من جهة اخرى الحرية الفكرية وأيدوا المواهب العقلية الممنوحة للانسان من اللّه وجعلوا الفرد مسؤولاً عن اعماله وجديراً ان يتحمل مغبة افعاله، فتغلبوا ـ او كادوا ـ على الجبريين الجامدين وأنصاف العلماء لولا ان ظهر المتوكل الخليفة العباسي متوكئاً على أكتاف علماء الدين لتثبيت مركزه السياسي وتأييد عرشه وسلطانه فأعلن مطاردة المعتزلة والرجوع الى السنة والحديث والتسليم والتقليد. يقول المسعودي: ولما انتهت الخلافة إلى المتوكل امر بترك النظر والمباحثة في الجدال، والترك لما كان عليه الناس في ايام المعتصم والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد. وأمر الشيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة... إلخ. فأكرم المتوكل علماء الحديث ومنع القول بخلق القرآن وأظهر السنة وشنّع على المعتزلة. ومن جملة اعماله انه امر نائبه بمصر ان يحلق لحية قاضي مصر محمد بن ابي الليث المعتزلي ويطوف به

الاسواق. فنهض أرباب الحديث، ونشط العلماء الرجعيون يحدثون بالروايات والمنقولات، حتى اجتمع حول كرسي عثمان بن ابي شيبة في مدينة المنصور نحو ثلاثين ألف نسمة من الشعب المتعصب الجاهل في اليوم الواحد، وشمّروا عن ساعد الجد لمهاجمة المعتزلة وأثاروا الجماهير ضدهم وأظهروا الشكوك في سلامة معتقداتهم وصحّة ايمانهم. وأكثر من هذا، فقد أفتى ان دماءهم وأموالهم حلال للمسلمين وليس على قاتل الواحد منهم قود ولا ديّة ولا كفارة بل لقاتله عند الله القربى والزلفى، فخنقوا حرية البحث والاستقراء وأعلنوا ان ليس لأحد ان يتعرض لاحكام الدين ويجتهد ويستنبط حكماً جديداً من القرآن. وكانت الأئمة تدعو الله من فوق المنابر ان يطيل عمر المتوكل «محيي السنة». وكانت الجماهير ترفع من شأن المتوكل لقضائه على المعتزلة الكفرة والاعتزال الممقوت. وكان الشعراء ينظمون القصائد في مدح المتوكل لأمره في إحياء السنة وفي الرجوع الى الحديث والى الروايات والمنقولات. وهذا جل ما كان يتوقعه المتوكل من حركة كهذه في سبيل توطيد عرشه الذي زعزع اركانه المماليك الاتراك، فكان ارتجاع الى المنقولات، وكان جمود حول الروايات، فغلّقت أبواب العقول وكمت افواه النبهاء بالجبر والاكراه، فانطفأت شعلة الاجتهاد وسبتت الأمة وانكمشت على نفسها فيما يعود بمستوى المعرفة العميقة والفهم الراسخ وسقطت عن قوتها المفكرة المبدعة في ميادين العلم والتنظيم، ولم تزل في سبات عميق راضية بما لديها من الاقوال، قانعة بما اكتسبته من المنقولات والروايات، لا يوقظها موقظ ولا يهزها شيء رغم تبدل الزمان ورغم ما قاسته من تبدل الظروف والاحوال. والله وحده يعلم ما كان يؤول اليه العالم الاسلامي لو دام نفوذ المعتزلة حتى يومنا هذا. ومما لا شك فيه ان هدف المعتزلة كان جعل الاعتزال دين الدولة الرسمي، وبذلك نشر الاعتزال في طول البلاد الاسلامية وعرضها والقضاء على الجبريين والشيعة الغالية والخوارج والمرجئة والمانوية والثنوية والصابئة وتعاليم اليهود والنصارى، وكلهم متسترون بالاسلام وكلهم متجلببون بجلباب التوحيد، وعند ذاك الحد يزول التمسك بالعادات والعنعنات وتحل المعقولات مكان المنقولات والتطور بدل الجمود والنظر الى الامام عوضاً من النظر الى الوراء ويتجلى التوحيد الخالص من الشوائب المنزه عن التجسيم والتشبيه.

22 ـ وكان من جملة اهداف المعتزلة إسقاط الاحاديث الموضوعة وتحرير عقول الفقهاء والمحدثين من الاحاديث والروايات المكذوبة المدخلة على الدين وتخليص الناس من الاوهام والخيالات والقصص والأباطيل. فإحلال العقل السليم والقياس الصحيح والعلم الثابت والنظر الصائب عند ذاك لا يكون الاله دكتاتوراً جباراً منتقماً جبرياً يعفو ويصفح عن المجرمين ويعذب المتقين الصالحين (وهذا يخالف قول الاشعري: لو ادخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفا ولو ادخلهم النار لم يكن جوراً) انما يكون قد ألزم نفسه بالعدل ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾. وقد اعطى للانسان العقل والارادة ليرى ببصيرته الاعمال فيزنها بعقله فيعمل الخير عن بينة ويجتنب الشر عن علم وإرادة، فلا يستند على القضاء ولا يركن الى القدر ولا يؤمل شفاعة بعد اجرام، ولا ينتظر مسيء مثوبة ولا محسن عقوبة، فيزول احتمال المغفرة بمجرد الذهاب الى الحج والوقوف في عرفة، والشفاعة بمجرد الانتساب الى احد الاولياء من رؤوس الجناة والمجرمين، ويرتفع الخوف

والقلق المستحوذان على قلوب المؤمنين والصالحين في يوم الدين، وبذلك يكثر الخير في العالم ويقل الشر فيتجه العالم الاسلامي من الصالح الى الاصلح متمشياً مع الزمان.

23 ـ واذا كان قد دب فيما بين صفوف رجال المعتزلة بذور الشقاق والخلاف وارتد عن الاعتزال أمثال بشّار بن برد من عبدة النور والنار، وأحمد بن الراوندي رأس الضالين والملحدين، وزميله عيسى الوراق رأس الزنادقة، وفضل الحذاء وغيرهم من المنافقين الذين تظاهروا بالاعتزال لضرب الاعتزال وتحطيمه، واذا كان بعض من رجال الشيعة والرافضة والاشاعرة وكثير من العلماء الجبناء ارتدوا بعد الحركة المعادية حذر البطش فأصبحوا بعد اعتزالهم من المرتجعين المحافظين المقلدين ومتآخين مع المحدثين الذين يحاربون العقل ويميتون الفكر؛ واذا كان حتى من هولاء المرتدين من اعلن موخراً الحرب الشعواء على المعتزلة ومذهب الاعتزال وأحرقوا كتبهم تقرباً الى الله وزلفى، يؤيدهم بذلك الخلفاء والامراء ورجال الدولة لمصلحتهم السياسية، فلا بد وان الحركة الفكرية تنطفىء جذوتها. ولا بد للرجال الاحرار ان يقبعوا في دورهم او يختفوا عن الانظار حرصاً على حياتهم. الا ان كل هذا لا يضير مذهب الاعتزال شيئاً.

24 ـ كان الاعتزال سيفاً مسلطاً في وجه رجال المانوية والمزدكية والشعوبية وكل من تحدثه نفسه العبث في الديانة الاسلامية. ولما قضى اهل السنة والجماعة على المعتزلة وزال الاعتزال من الاوساط الدينية في القرن الرابع الهجري وما بعده، رأت اصحاب المذاهب الغالية الجو صافياً، والميدان خالياً من المعارضين الاشدّاء الاقوياء، فشرعوا ببث تعاليمهم ونشر قواعدهم الهدّامة في كل مكان. ولم يكن بمقدور الحنابلة ورجال اهل السنة والجماعة المحافظين على امانة النصوص والجامدين على المنقولات والروايات، الصمود تجاه هذه التيارات العنيفة. كما لم يكن لديهم من الجرأة والشجاعة ما يمكنهم من الوقوف وقفة المدافع والمناضل عن حياض القواعد الاسلامية وتفنيد اقوال المخالفين بالحكمة والموعظة والعقل والمنطق، فانتشر الاسماعيلية والقرمطية والفاطمية في كل بلد وصقع، وعمّت الافكار الهدّامة البلاد الاسلامية كافة من أقصاها الى أقصاها، حتى ظهر صلاح الدين الايوبي فقضى نهائياً على الفاطميين في مصر وشمال افريقية، وظهر نور الدين زنكي في الشام وعضد مذهب الاشاعرة، ثم ظهر العثمانيون ونشروا المذهب الحنفي في طول البلاد وعرضها. وقام رجال الصوفية من جانبهم بوضع قواعد مماثلة وضمن قواعد السنة ـ كما سيأتي بيانه ـ لتخليص الناس من الانزلاق بهاوية التطرف والتردي، فتقلصت المذاهب الغالية والعلى اللاهية تدريجياً وزالت من الوجود حيث لم يبق منها سوى شراذم متفرقة هنا وهناك لا يعبأ بها. ولو كان قد انتشر الاعتزال في البلاد الاسلامية من اقصاها الى اقصاها لما حصلت هذه النكبات. ولو لم يحصل الارتجاع والانتكاس والجمود على المنقولات، لكان العالم الاسلامي غير ما هو عليه اليوم.

وأما الادعاء بأن رجال المعتزلة التجأوا الى الرافضة والى الشيعة لتأييد مركزهم، وأصبح الرفض والاعتزال متصادقين متآخيين وقلما يوجد معتزلي إلا وهو رافضي، وأن الزيدية على مذهب المعتزلة وأنهم يعظمون رجال المعتزلة كتعظيمهم أئمتهم، وأن شيعة العراق ايضاً كلهم معتزلة... كله ادعاء لا يستند الى الحقيقة لتباعد الاهداف بين العقيدة الاعتزالية المستندة على التوحيد والعدل،

وبين المقولات الشيعية المستندة على شفاعة الأئمة ـ ومعناها اسناد المحاباة لله تعالى لقسم من خلقه ـ المخالفة للعدل. ويظهر ان المعتزلة لما استعادوا سلطتهم الدينية تحت رعاية الصاحب بن عباد في عهد فخر الدولة، وظهروا مرة اخرى في خوارزم فتمذهب اهل المدينة بمذهبهم ونبغ من بينهم محمود الزمخشري صاحب الكشاف داعية الاعتزال، لم ترق هذه الحالة في اعين خصومهم اهل السنة والجماعة فأرادوا تنفير الناس منهم فألصقوا بهم هذه الفرية دون ان يبرروا مدعياتهم ويبينوا اوجه الاتفاق بينهما في كتبهم. واذا كان زيد بن علي بن الحسين بن علي قد تتلمذ على واصل بن عطاء الغزال وصارت اصحابه كلها بوقته وزمانه معتزلة، واذا كان النظام المعتزلي قد اعتمد على الامام المعصوم، واذا كانت الشيعة قد قبلت شيئاً من قواعد المعتزلة كما قبلت المذاهب الاخرى منها اشياء، فهذا لا يكون حجة لاعتبار المعتزلة كافة من ارباب الشيعة او الشيعة كافة معتزلة.

25 ـ بينما كان على الخلفاء العباسيين ان يتخذوا لهم موقفاً مشرفاً فوق الاحزاب والفرق الدينية ويلتزموا جانب الحياد في جميع الاختلافات، ويمنعوا التطرف والمغالاة في القواعد الدينية عند جميع الفرق على السواء، فقد التزم المأمون والمعتصم والواثق جانب المعتزلة وأفرطوا في التشديد على المحدثين، والتزم المتوكل ومن جاء بعده من الخلفاء جانب المحدثين فأبطلوا أقوال المعتزلة واضطهدوا رجالها وأمروا بالرجوع الى الحديث والسنة وبالتمسك بأعمال السلف الصالح كما سيأتي بيانه، كان عليهم ان يترفعوا ويتنزّهوا عنها ويكتفوا بالحراسة على القواعد الاسلامية الاساسية فقط.

26 ـ وكان هفوة المعتزلة انهم طعنوا صراحة وجهراً بالرواية وهاجموا رجال الحديث ورموهم بالكذب والتزوير وقطعوا عنهم اعطياتهم، وسدوا عليهم سبل عيشهم، فأضاع المحدثون من أهل السنة مدار رزقهم وأصبحوا أعداء ألداء للاعتزال. وبينما كان المعتزلة يسعون الى حمل الناس على قبول مذهبهم بالحجة والاقناع، ادعى خصومهم، انهم عسفوا مؤخراً بمخالفيهم واستباحوا دماءهم وملأوا منهم السجون وجلدوا ظهورهم بالعصي والسياط وأرادوا تمشية قواعدهم بالجبر والإكراه، وتحت ظل السلطان لا بالوعظ والارشاد والنصح والاقناع وطمعوا بالمال والمناصب الحكومية. فان صحّ ذلك فهي غلطات بشرية كان عليهم ان يتنزّهوا عنها. وكان لما تشدّد المعتصم في امتحان الناس بخلق القرآن ونفي التشبيه وإنكار الرؤية وغالى من بعده الواثق بالاعتزال وأسرف في المحنة، شرع الناس يتضجرون ويتذمرون من هذا الارهاب. وجمهور الناس في كل عهد من عهود الخليقة ضد الحكام الغاشمين المسيطرين وبجانب المضطهدين والمظلومين، فأصبح الجمهور ضد المعتزلة، وبدأ الشغب والقيل والقال في كل مكان. وكانت الموضوعات على جانب عظيم من الخطورة مما تمس عقائد الجمهور المتدين مباشرة كقول المعتزلة بعدم رؤية الله يوم القيامة، وبخلق القرآن وبالانسان يخلق أفعاله، وحدوث اسماء الله الحسنى، ولا مغفرة ولا شفاعة، ومسائل الخير والشر، والقضاء والقدر وغيره من الامور التي تهم الجمهور المتدين وتهيج العامة وتدعو الى الشغب. حتى جاء المتوكل على الله فأعلن سنة 236 كما سبق بيانه إبطال أقوال المعتزلة بالجملة والرجوع الى السنة والحديث والتمسك بأقوال السلف الصالح، فشمّر المحدثون عن ساعد الجد وشرعوا في التحدث عن الصفات والاسماء الحسنى والرؤية وغيرها فانتصروا انتصاراً باهراً وانتقموا من المعتزلة وكالوا لهم الصاع صاعين،

وجاءتهم هبات المتوكل وأعطيات الموقوفات ومنح الامراء والاثرياء فاتسع رزقهم ونما ريشهم. وكان احمد بن حنبل شيخ المحدثين يمتحن المعتزلة ومن لف حولهم بالقول بخلق القرآن، فرجع كثير من المعتزلة خوفاً على انفسهم من العقوبات وثبت المذهب الحنيف مذهب أهل السنة والجماعة وسطع نجم المحدثين فأصبح لا يحلّ أمر إلا برأيهم، ولا يعقد نهي الا بمشورتهم، وتعدى الطور الى أبعد من ذلك، فكان الحنابلة يكبسون الدور ويتدخلون في أمور الناس ويأمرون وينهون، هذا حلال وهذا حرام، حتى ضجّت بغداد وارتجّت وفزعت، فكان ارتجاع الى السلف الصالح، وعودة الى ما قاله ابو هريرة وابن العباس.

ذكر ابن الأثير في أخبار سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة حول فتنة الحنابلة ما خلاصته:

وفيها عظم امر الحنابلة في بغداد واشتد امرهم وقويت شوكتهم وزاد شرهم وفتنتهم، وصاروا يكبسون الدور وان وجدوا نبيذاً اراقوه او مغنيّة ضربوها، واعترضوا في البيع والشراء ومشي الرجال مع النساء والصبيان، ولما أصبح أمرهم لا يطاق وارهجوا بغداد اصدر الراضي بالله توقيعاً ينكر عليهم فعلهم ويهددهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره. ويقول بتوقيعه المذكور الموجّه الى الحنابلة مما يمس موضوعنا ما نصّه بالحرف الواحد:

«تارة انكم تزعمون ان صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته، وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين المذهبين والشعر القطط والصعود الى السماء والنزول الى الدنيا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً»... الخ.

فان هذه الوثيقة التاريخية الموقّعة بتوقيع الخليفة الراضي بالله العباسي المعاصر لهم لتدل على ما كان عليه الحنابلة في بادىء أمرهم من الإفراط والغلو والطيش والاعتقاد بالتشبيه، خلافاً لما جاء به المعتزلة من التنزيه المطلق. ويظهر لنا ان الحنابلة لم يكونوا كما هم عليه في الحال الحاضر. فان العلماء والمفكرين بعد أن فتر امر المعتزلة وارتفع ذكرهم وزال سلطانهم خفّفوا بعد ذلك من غلواء المتحمسين فأصبح دستورهم «كما اننا لا نثبت فلا ننفي ونكل ذلك علمه الى الله». وبهذا التخفيف والتعديل وأمثاله، دخل هذا المذهب المعتدل في نطاق المذاهب الاربعة المقبولة وخرج من دائرة المذاهب الغالية.

الفصل الرابع السلفيّة ـ أهل السنّة والجماعة
الجبريّة، المرجئة، الشّيعة

1 ـ **السلفية**: يسمون أيضاً الصفاتيّة. هم الذين يثبتون لله صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والجلال والاكرام والجود والانعام والعزّة والعظمة. ولا يفرّقون بين صفات الذات وصفات الفعل، ويقولون إن هذه الصفات قديمة وقائمة بالذات وهي ليست عين الذات إنما زائدة عن الذات الإلهية، ويثبتون كذلك صفات جبرية مثل اليدين والرجلين ولا يؤولون ويسمونها صفات جبريّة. ولما كان المعتزلة ينفون الصفات ويقولون انها عين الذات، والسلف يثبتون الصفات ويقولون انها وراء الذات، سمّي المعتزلة معطلة، والسلف صفاتيّة.

وقد بلغ بعض السلف في إثبات الصفات لحد التشبيه. ومنهم من توقّف عن التأويل وقال عرفنا ان الله ليس كمثله شيء فلا يشبه شيئاً من المخلوقات وقطعنا بذلك، الا أنّا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه مثل قوله ﴿الرحمن على العرش﴾ وقوله ﴿خلقت بيدي﴾ وقوله ﴿وجاء ربك﴾ وقوله ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ ولسنا مكلّفين بتأويلها، فقد أثبتناه يقيناً. وقال قائلهم: والبحث عن سرّ ذات الله اشراك. وأما الذين قالوا لا بد من التفسير والتأويل، فقد وقعوا في التشبيه، وهو تشبيه صفات الباري بصفات الخلق وكلّهم يتعلّقون بظواهر الكتاب والسنّة. وكان الامام مالك بن أنس من الذين توقّفوا عن التأويل وكان يقول: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والايمان به واجب. وتبعه بذلك احمد بن حنبل وسفيان وعبد الله الكلابي وغيرهم، ثم انحاز اليهم ابو الحسن الاشعري علي بن اسماعيل بن اسحق بن سالم بن عبد الله بن بلال بن ابي بردة بن ابي موسى الاشعري، فأيّد مقالتهم بمناهج كلامية ونصر مذهبهم فكان مذهباً لأهل السنة والجماعة. وكان الاشعري في بادىء أمره من كبار رجال الاعتزال ثم خرج عليهم والتجأ الى أهل السنة وتمسّك بعقيدتهم وبأقوال السلف الصالح وأئمة الحديث، وسلك طريقاً وسطاً بين أقوال أهل السنّة القدماء المتمسكين بالنقل دون العقل وبين المعتزلة الذين يحكّمون العقل ويعتمدون عليه. فقد حكّم العقل في إثبات صحة المنقولات فارتاح إليها أهل السنة وتمسّكوا بها. فكانت قواعده التي وضعها مذهباً عاماً لأهل السنة والجماعة.

2 ـ **مذهب اهل السنة والجماعة**: ان القصد من السنة طريقة السيد الرسول (ص) والمراد من الجماعة طريقة الصحابة والتابعين وفقهاء الامة والمحدثين وأئمة السلف.

الأشعري: كان الأشعري يقول بالفاعل المختار في كل شيء، ويقرّر ان العقل لا يوجب المعارف قبل الشرع. واذا كانت العلوم قد حصلت بالعقل، فان الشرع يجب البحث عنه بالسمع، وان الله تعالى لا يجب عليه كل شيء وهو عالم بعلم وعلمه واحد وقادر بقدرة وقدرته واحدة ومتكلّم بكلام وسميع بسمع وبصير ببصر. ان صفاته هذه أزلية قائمة بذاته تعالى وهي راجعة الى اعتبارات في كلامه لا الى الكلام

نفسه. وان للألفاظ المنزّلة على لسان الملائكة الى الانبياء دلالات على الكلام الازلي والدلالة وهي العبارات وهي القراءة والمقروء والتلاوة والمتلو، فالذكر محدث، والمذكور قديم، وان الكلام هو معنى قائم بالنفس والعبارة دالة على ما في النفس. وقال: ان جميع أفعال العباد مخلوقة مبتدعة من الله تعالى مكتسبة للعبد.

وأنكر الاشعري على المعتزلة تأويلاتهم، كما أنكر على المشبّهة تشبيهاتهم، وأنكر على الحشوية مقالاتهم، وأنكر على الشيعة ما قالوه في أئمتهم، وقال: تثبت الامامة بالاتفاق والاختيار دون النص والتعيين، اذ لو كان نص لما خفي، والدواعي تتوافر على نقله، وان عمرو بن العاص ومعاوية بغيا على الامام الحق فقاتلهم مقاتلة أهل البغي، وأهل الشراة مارقون عن الدين، وان علياً (رض) كان على الحق في جميع احواله، ونزّه الباري تنزيهاً مطلقاً عن كل ما يتعلق بالحلول والجزء والجسم الانساني. وقال ببعث الجسد وبرؤية الله يوم القيامة لا على جهة ومكان وصورة ومقابلة واتصال شعاع. وقال: ان الكافرين فقط محجوبون عن رؤيته تعالى يوم القيامة تبعاً لقوله تعالى ﴿كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ بينما نفاها المعتزلة استناداً لقوله تعالى ﴿لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار﴾. وقال الاشعري ايضاً: ان كلام الله هو القائم بذاته وهو قديم. وأما الكتاب الذي بين أيدينا فقد أنزل في زمن من الأزمان وعنده يستطيع الانسان ان يضيف الى نفسه ما يخلقه الله فيه من الأفعال وأن يعتبر ذلك من كسبه. وان الله ابدي ازلي خالق كل شيء فعّال لما يريد، عالم بما كان وسيكون، وان معرفة الشؤون الالهية لا تكون الا بالوحي والالهام، وما النظر العقلي المستقل الذي يعتمد عليه المعتزلة الا آلة للإدراك فقط. وفيه يستطيع الانسان ان يدرك وجود الله. وقال بجواز اسناد الكمال لله على معنى يخالف صفات المخلوقات. وأثبت السمع والبصر لله تعالى صفتين هما إدراكان وراء العلم. وأثبت أيضاً اليدين والوجه كصفات جبرية مع ترك التعرض للتأويل كما فعل السلف. وقال: كل ما يقع في الكون يصدر عن الله مباشرة دون ما واسطة، وان الله يفعل في خلقه ما يشاء ويحكم ما يريد. فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً ولو ادخلهم النار لم يكن جوراً، إذ الظلم هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف او وضع الشيء في غير موضعه. وقال: ليس للعبد تأثير في توجيه مقدوراته، فان القدرة والمقدور من افعال الله وإرادته يستند بذلك الى قوله تعالى ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ وبهذا اقترب من مذهب الجبريين. وأثبت القضاء والقدر فقال: هما قد يجيئان بمعنى الخلق. قال الله تعالى ﴿فسوّاهن سبع سماوات﴾ اي خلقهن. وقال تعالى ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ اي خلقها، وبهذا المعنى تكون جميع الحوادث بقضاء الله وقدره. وجعلها عقيدة لأهل السنة والجماعة. وقال الايمان هو التصديق بالقلب والقول باللسان. وقال لا يتصور من الله ظلم ولا ينسب إليه جور ولا يرجع إليه تعالى نفع ولا خير، فلا ينتفع بشكر شاكر ولا يتضرر بكفر كافر. ومن الامور الغائبة مثل اللوح والقلم والعرش والجنة والنار، ومعجزات الانبياء وكرامات الاولياء... كله صدق وحق. وكما انه اثبت التنزيه المطلق لله فقد اثبت التشبيه ايضاً بإسناده السمع والبصر واليدين والوجه لله تعالى كما هو مدلولها عند البشر كصفات جبرية مع ترك التأويل. فكان منزّهاً ومشبّهاً، وكان قدرياً وجبرياً في وقت واحد.

وبهذه الطريقة اقام الاشعري مذهبه بين المذاهب المتطرفة وتميز في توحيد الصانع وقدمه وقدم صفاته، وفي عدله وحكمته وأسمائه، وفي اجازة رؤيته من غير تشبيه ولا تعطيل، مع الاقرار بكتبه ورسله والاعتقاد بالحشر والنشر وسؤال الملكين في القبر، وفي النبوة والامامة وفي سائر اصول الدين والاقرار بالحوض والميزان والصراط وبشفاعة محمد (ص). فكان مذهبه هذا مذهباً وسطاً (حنيفاً) يطمئن رغبات المؤمنين ويثبت عواطف المتقين ويرضي عقول الجمهور. وهو مذهب اهل السنة والجماعة. فانتشر مذهبه اولا في العراق وثم في مصر بمعاضدة الملك الناصر صلاح الدين الايوبي، وفي سوريا بمعاونة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وفي بلاد المغرب على يد ابي عبد الله محمد بن تومرت رأس دولة الموحدين، وأخيراً في آسيا الصغرى على يد العثمانيين. وبهذا انتشر مذهب الاشعري في امصار الاسلام كافة حتى اليوم، ولم يبق مذهب يخالفه سوى مذهب الحنابلة في اثبات الصفات، والشيعة الامامية في شفاعة الأئمة. وكما انه كان السبب لرفع التطرف، الا انه انتج توقف الافكار وشلّ العقول والرجوع الى المنقول وفلج الحركة الذهنية في العالم الاسلامي، وذلك بالركون لإرادة الله والتسليم المطلق لقضائه وقدره وبأن خيره وشره من الله تعالى، والتوكل على الله وعدم الاعتماد على النفس، وببعث الجسد ورؤية الله يوم القيامة... الخ. وكان الاشاعرة ومن تمذهب بمذهبهم من أهل السنة والجماعة يلعنون الفلاسفة والمعتزلة وأهل الفكر ومن يذهب مذهبهم ويحرقون كتبهم تقرّباً للجمهور الجاهل وزلفى الى الله. وبهذه الطريقة النكدة انطفأت الآراء الحرة من رؤوس المفكرين فكانت السبب في سقوط العالم الاسلامي من شاهق عزّه ولم يزل منحدراً لا يرتقي.

كانت هفوة الاشعريين انهم جعلوا من قواعدهم سد باب الاجتهاد، والتوقّف عن استنباط أحكام جديدة، وعن اخذ قواعد حديثة من القرآن، واعتبارهم كل حركة تجددية يقول بها الاحرار وأهل الرأي تخالف آراءهم اعتزالاً وكفراً، فجمدوا على المنقولات والروايات وجمد المسلمون بجهودهم، فكانوا السبب بتأخر العالم الاسلامي عن اللحاق بالموكب العالمي. وأراد الشيخ جمال الدين الافغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده، حتى في الأزمنة المتأخرة، إيقاظ العقول من سباتها وتنبيه الافكار من غفلتها فكانت صيحتاهما صرخة في واد.

ولحسن الحظ لم يجابه العالم العربي طوال الالف سنة الماضية وهو في ركوده ورقاده تياراً قوياً من الملل المخاصمة والمعادية يخشى جانبه سوى الحروب الصليبية، وقد انتهت بفضل شجاعة صلاح الدين وشهامته؛ وثانياً طغيان المغول وقد اضمحلت دولتهم بسرعة. وأما الاتراك السلجوقيون والعثمانيون، فقد اعتنقوا الاسلام واستعربت ثقافتهم وحياتهم الاجتماعية فأصبحوا مدافعين عن العالم العربي والاسلامي بغض النظر عن جمودهم. ولولاهم لتبدّل وجه التاريخ، جزاهم الله خيراً.

3 ـ **الجبرية**: ان الجبريين ضد القدريين وهم يسندون جميع حركات الكون ومن جملتها أفعال العباد الى الله تعالى وهم الغلاة في نفي استطاعة العبد على الفعل ونفي الاختيار له، ويقولون ليس للعبد دخل في تسيير أموره، وإن الانسان والجماد سواء لا يختلفان الا في المظهر، وكلاهما مسيّر لا مخيّر، وان

الأفعال جميعها، خيرها وشرها من الله تعالى. فالانسان مجبر جبراً مطلقاً على تنفيذ ارادة الله ﴿ولكل وجهة هو موليها﴾ فلا ارادة ولا اختيار للفرد في أعماله ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم. وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾ انما قد تنسب الافعال إليه مجازاً لا حقيقة كما يقال طلعت الشمس ودارت الرحى من غير ان يكونا فاعلين او مستطيعين لما وصفنا به. وكذلك الثواب والعقاب والاعمال كلها (جوهر وعرض) جبر. ويقولون لو لم يكن جبر لوجب وجود خالقين اثنين، فإن الله يخلق الانسان والانسان يخلق أفعاله. فلو كان الله خالقاً لبعض الاعراض ويكون الناس خالقين لبعضها لكانوا شركاء في الخلق، وهذا مخالف لمشيئة الله واختياره وهو محال، يستندون بذلك الى آي الذكر الحكيم ﴿قل الله خالق كل شيء﴾ و﴿الله خلقكم وما تعملون﴾ و﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ و﴿إنّا كل شيء خلقناه بقدر﴾ و﴿قل كل من عند الله﴾ و﴿من يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا﴾ و﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ و﴿إن تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضلّ﴾ و﴿من يضلل الله فلا هادي له﴾ و﴿فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ (فاطر) و﴿يضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ (27/ابراهيم).

ولما كان في القرآن الكريم آيات قدرية وآيات جبرية فكان النزاع يدور حول فكرتين: الأولى فكرة المعتزلة، ويقولون: ان الانسان يخلق أفعاله وهو حر بإرادته ان فعل الخير فيثاب وان فعل الشر فيعاقب، وهو قادر على خلق ما يريد ان يفعله وله الخيار بأن يعمل وأن لا يعمل. ﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإما كفورا﴾ و﴿اما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾.

والفكرة الثانية فكرة الجبرية وزعيمهم جهم بن صفوان، ويقولون: ان الانسان ليس حراً بأعماله ولا يخلق أفعاله وليس له إرادة ذاتية، ولا يقدر ان يحرّك يده ورجله بإرادته، انما الارادة ارادة الله والخلق خلق الله وكل حركة وسكون في العالم متعلّق بأمر الله. وان قبول المبدأ القائل ان العبد يخلق أفعاله معناه تحديد قدرة الله وهذا معناه أن الله يخلق بعض الاعراض والانسان يخلق اعراضاً اخرى. وانفرد منهم جهم بن صفوان بجواز الخروج على الامام الجائر.

وكان جهم يقول: لا يجوز أن يوصف الباري بصفة الخلائق لأن ذلك يوجب التشبيه. ونفى كون الله حياً عالماً، وأثبت كونه قادراً موجداً فاعلاً خالقاً لأن هذه الاوصاف مختصة به وحده، ولأن البشر يوصف بالحياة والعلم ولا يوصف بالقدرة والخلق. ومنها قوله: ان الانسان ليس بقادر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة وانما هو في أعماله لا قدرة ولا إرادة ولا اختيار له، وانما يخلق الله الأفعال فيه كسائر الجمادات. وكما يقال أثمرت الشجرة وجرى الماء كذلك الثواب والعقاب جبر، وحركات أهل الجنة وجهنم تنقطع وهما يفنيان لأن كل حركة تنتهي بالسكون. وحمل قوله تعالى ﴿خالدين فيها﴾ على المبالغة للتشويق والترهيب. واستشهد على الانقطاع بقوله تعالى ﴿خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض الاّ ما شاء ربك﴾ وقال بحدوث كلام الله تعالى ولم يسم الله متكلما به. ولما ظهرت بدعته في ترمذ قتله سالم بن احوز لغلوّه في بعض أفكاره.

4 ـ **المرجئة**: سمّوا مرجئة لأنهم أخّروا العمل عن الايمان. والإرجاء بمعنى التأخير لأنهم أخّروا حكم أصحاب الكبائر إلى الآخرة. وهم الذين يؤجّلون العمل ويمهلون أقسام العبادات فيضعونها بعد

الايمان. يقال ارجأه اي أخّره وأمهله، فيأتي عندهم الايمان في المقام الأول وهو المعرفة بالله والمحبة والخضوع له بالقلب والاقرار باللسان، وانه واحد ليس كمثله شيء. وعند الآخرين منهم: هو التصديق بالقلب فقط. فمن عرف الله بقلبه وآمن به فهو مؤمن. وأما الإقرار باللّسان وأقسام العبادات الأخرى كالصوم والصلاة... فليست عندهم جزءاً من الايمان، يستندون بذلك إلى ما ورد في الحديث «الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله» وان ما تفعله الجوارح من حركات ـ ومن ضمنها الإقرار باللّسان ـ لا تدخل ضمن هذا التعريف. ويقولون: ان لا تضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وبهذا الدستور العام لا يحكمون بالكفر على احد ممن نطق بالشهادتين، وهم الغلاة في اثبات الوعد والرجاء ونفي الوعيد والخوف عن المؤمنين.

الا ان اكثرية المرجئة اجتنبوا الغلوّ إلى هذا الحد وقرروا ضرورة الاقرار باللسان مع التصديق بالقلب. وأما الأعمال والتعبّدات على اختلاف أشكالها وأنواعها، فهي عند الجميع ليست ركناً من أركان الايمان، ويقولون: ان مرتكب الكبيرة مؤمن الا انه فاسق لارتكابه كبيرة فلا يخلد بالنار، لان الخلود خاص بالكفّار. وبهذا كان عثمان وقتلته وعلي وقاتله مؤمنون.

والايمان عندهم واحد بالأصل لا يزيد ولا ينقص، فإما مؤمن بالكلية، وقد يتعدى بعض الحدود، او كافر بالكلية فيتعدى الحدود كلها لا وسط فيه ولا محل للزيادة والنقصان. فأوّلوا الآية القرآنية ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا﴾ اي زادتهم تصديقاً اكثر مما كان عندهم.

ولفرقة المرجئة عدة أصناف، منها أصحاب يونس بن عون زعم ان الايمان بالقلب واللسان وانه هو المعرفة بالله والمحبة والخضوع له بالقلب والاقرار باللسان، وانه واحد ليس كمثله شيء، وإن صدرت من المؤمن معصية فلا يضر يقينه. والمؤمن يدخل الجنة بإخلاصه لا بطاعته.

ومنهم من قال: ما دون الشرك مغفور لا محالة وان العبد اذا مات على توحيده لم يضره ما اقترف من الاثام.

ومنهم أصحاب غسان الكوفي زعم ان الايمان هو المعرفة بالله ورسوله والاقرار بالوحدانية والمحبة لله تعالى وبما انزل الله على عبده ورسوله بالجملة دون التفصيل. وادعى غسان ان ابا حنيفه كان مرجئاً وعدّه من المرجئة. يقول الشهرستاني: ولعله كذب. انما كان يقال لأبي حنيفة وأصحابه مرجئة السنة لتعريف الايمان التصديق بالقلب وهو لا يزيد ولا ينقص، فظنّوا انه يؤخر العمل عن الايمان.

ومنهم: «مرجئة السنة» أمثال سعيد بن جبير وحماد بن سليمان وأبي حنيفه وأبي يوسف ومحمد بن الحسن وكلهم أئمة لم يكفروا أصحاب الكبائر بالكبيرة ولم يحكموا بتخليدهم بالنار خلافاً للخوارج والقدرية.

فكان تقليل المرجئة المخلّص من شأن الأعمال والعبادات والطاعات (كالصوم والصلاة) وجعلها بالدرجة الثانية من الايمان خطر عظيم على العامة فيما اذا علموا ان الأعمال والتعبّدات البدنية ليست ركناً من أركان الايمان فتقل المواظبة والتمسّك بها، فهاجمتهم المعتزلة والخوارج والشيعة والقدرية من كل جانب، لأن المعتزلة والخوارج جعلوا العبادات جزءاً من الايمان. وادّعت الخوارج ان

من أتى الكبيرة فهو كافر مخلّد في النار. والكبائر التي ما دون الشرك هي: قتل النفس التي حرّمها الله الا بالحق، والزنا، وشهادة الزور، والتأخر عن الزحف، والسحر، وعقوق الوالدين، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وقذف المحصنات. والخوارج هم الغلاة في إثبات الوعيد والخوف على المؤمنين خلافاً للمرجئة. وقالت المعتزلة عنها: انه في منزلة بين المنزلتين أي لا مؤمن ولا كافر، بينما اعتبرته المرجئة مؤمناً فاسقاً بتلك الكبيرة فقط فلا يخلّد بالنار إنما يخلّد بالنار الكافر.

وكانت المرجئة تعد كل مؤمن بالله ورسله مسلما من أي فرقة كان او مذهب وإن كان من أصحاب الكبائر، وعفو الله يشمل جميع المؤمنين. وقد يدخل مرتكب الكبيرة الجنة بدون حساب وعذاب. وبهذا التسامح اتسع نطاق المرجئين ودخل فيه كل مصدق بالله خلافاً للمعتزلة والخوارج والشيعة الذين ضيّقوا دائرة الايمان حتى جعلوها خاصة بكل معتزلي وخارجي وشيعي.

5 ـ **الشيعة**: توفي رسول الله (ص) ولم يعيّن من يخلفه ولو كان نصٌ لما خفى. وكان السيد الرسول (ص) صريحاً في تبليغ رسالته الاسلامية لا يهاب احداً من أصحابه وإلا لما بلغ رسالته. فلم يكن بحاجة إلى الايماء من طرف خفي او التعريض والتلميح والاشارة، ولم يسلك طريق الغموض والايهام في أقواله وأعماله، فاذا أراد شيئاً يعلنه من فوق منبره في وقت تكون فيه الصلاة جامعة يمليه بكل صراحة ووضوح وبكل قوّة وشدّة ويفرضه على المسلمين فرضاً يسمعه القاصي والداني، فتسير بذكره الركبان وتتناقله الألسن. ولا يعقل ان يخالف الصحابة بأجمعهم ـ باستثناء بعض الافراد ـ امراً رغب فيه وحثّ عليه وأوصى به السيّد الرسول ويكتمونه جميعاً. وكان أول خلاف حصل بين الأمة الاسلامية خلاف الإمامة. ففي الصدر الأول اختلف المهاجرون والأنصار يوم السقيفة، فقالت الأنصار «منا أمير ومنكم أمير». وذكر المهاجرون الحديث عن السيد الرسول «الائمة من قريش» فأذعن الناس وسكنت الثائرة ووقى الله الاسلام شر الفتنة، فبايعوا الخليفة الأول (رض) بالإجماع سوى جماعة من بني هاشم، وأبي سفيان من بني أمية تأخروا عن البيعة.

وحدث الخلاف الثاني في تنصيص أبي بكر على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) بالخلافة وقت الوفاة وزال الخلاف بقول أبي بكر «لو سألني ربّي يوم القيامة لقلت ولّيت عليهم خير أهلهم». فسكنت الفتنة وزال الشغب، فبايعوا الخليفة الثاني بالإجماع.

وكان الخلاف الثالث في أمر الشورى حتى اتفقوا كلهم على بيعة أمير المومنين عثمان (رض) فكثرت الفتوح في زمانه براً وبحراً وامتلأ بيت المال. الا ان أقاربه من بني أمية كسائر القواد والأمراء الفاتحين في العالم، ساروا شططاً في التصرف بالأموال المكتسبة من الامصار، فضاقت أنفاس مخالفيه الذين كانوا يطمعون في الأموال وبمنصبه، فحصل بينه وبينهم كلام فيه بعض الجفاء ووقعت بعد ذلك اختلافات كثيرة حتى ملّ الطامحون بمقامه طول مدته فألّب عبد الله بن وهب بن سبأ اليهودي اليماني المسلم، الناس عليه من الامصار وقتل مظلوماً بيد الثوار.

وحصل الاختلاف الرابع في زمن امير المؤمنين علي بن ابي طالب (رض) بعد ان بايعه أهل المدينة بالأكثرية. فكان أول اختلاف وقع في زمانه بينه وبين طلحة والزبير، ما أدى إلى خروجهما إلى مكة فالبصرة فكانت حرب الجمل. ثم حصل الخلاف الثاني بينه وبين معاوية فكانت حرب صفّين. ثم

حدث الخلاف الثالث في التحكيم[1] وقد ظهر خلاف ما كان يتوقعه، وأعقبه الخلاف الرابع بينه وبين الخوارج فكانت حرب النهروان حتى قتل مظلوماً بسيف الخوارج.

وكان قد استفاد من هذه الخلافات المستمرة عبد الله بن وهب بن سبأ الآنف الذكر. وكان يتربّص الحوادث والوقائع فابتدع إلهية علي بن أبي طالب وحلول الجزء الإلهي فيه وفي أولاده وأحفاده، وأحدث القول بوصية رسول الله (ص) لعلي (رض) بالإمامة من بعده وادعى انه خليفة النبي على أمّته بالنص والتعيين. وقال ان لكل نبي وصياً وعلي بن أبي طالب وصي محمد (ص) فمن أظلم ممن لم يجز وصية محمد (ص) في ان علياً وصيّه في الخلافة على امته. وقال في الناس: العجب ممن يصدّق ان عيسى يرجع ويكذب ان محمداً يرجع. وقال لأتباعه: ان عثمان اخذ الخلافة بغير حق فانهضوا وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحدّث بالرجعة وتناسخ الأرواح... الخ.

وبعد ان استولى الأمويون على الامبراطورية العربية بالبذل والدهاء، اجتمع الموتورون من العرب والفرس والموالي والشعوبيين والعبيد حول احفاد علي بن أبي طالب فنشأ حزب الشيعة، واحتضن السياسيون والمتطرفون من رجال الفرس القدماء هذا الحزب ووضعوا له أسسه وقواعده لغاية في أنفسهم، وكيفما راق لهم الهوى، مستفيدين من سماحة العرب، ومن تشاحن العرب، ومن ديموقراطية الاسلام، ومن غموض بعض الوقائع ومبهمات القرآن، فوضعوا الأحاديث وحرّفوا التاريخ وأوّلوا النصوص تحت ستار علوم مزعومة منسوبة إلى محمد بن الحنفية وولده أبي هاشم، من إنكار الظاهر وتعزيز الباطن. وأظهروا التشيّع لآل البيت وتغالوا فيهم كعادتهم في المغالاة وصبغوا أفكارهم ومعتقداتهم القديمة بصبغة اسلامية يبرأ منها الدين الاسلامي.

انقسم الشيعة بعد ذلك إلى عشرين فرقة رئيسة: منها اثنتان كيسانية ومنها ثلاث زيدية ومنها خمس عشرة إمامية ثم يليهم الغلاة[2]. والجميع متفقون على ان الخلافة والإمامة لا تخرج عن أولاد علي (رض)، وإن خرجت فبظلم من غيرهم او بتقية من عندهم. والإمامة لا تناط باختيار العامة ولا دخل للناس فيها انما هي قضية اصولية تنصيصية تعيينية.

وعند هذه الحدود، تجلّت مسألة الاختلاف بالإمامة على وجهين: احدهما القول بأن الإمامة تثبت بالاتفاق والشورى والاختيار، والثاني القول بأن الامامة تثبت بالنص والتعيين.

الوجه الأول: ان من قال تثبت الامامة بالاتفاق والشورى والاختيار تصح عنده إمامة كل فرد من المسلمين، ولو كان عبداً رأسه زبيبة على ان يكون كفؤاً وترتضيه الامة وتنتخبه للامامة ويقع عليه الاختيار كما

---

(1) يدعي بعض النقاد أن كلا من الحكمين أبي موسى وعمرو خلع صاحبه من الخلافة فخسرها علي ولم يخسر معاوية شيئاً لأنه لم يكن آنذاك خليفة.

(2) الغلاة هم الذين غالوا في حب علي بن أبي طالب وبغض أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية. واسموا رفضة لأن زيداً بن علي بن الحسين امتنع من لعن أبي بكر وعمر وقال هما وزيرا جدي فرفضوا رأيه. وبالغوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخلقية وحكموا فيهم بأحكام إلهية. فربما شبّهوا الإمام بالإله والإله بالإمام وأباحوا محرمات الشريعة وهم البنانية والمغيرية والجناحية والمنصورية والخطابية والحلولية وغيرهم كثير كما سيأتي بيانه، ولا يخفى أن الشيعة الامامية والزيدية يسمونهم أيضاً غلاة ويعتبرونهم خارجين عن الإسلام.

كان الحال عند الخلفاء الراشدين (وهي أشبه بالحكم الشعبي السائد في زماننا. وقد توصلت اليه الحكومات الاوروبية بعد مضي اثني عشر قرناً) وهي توافق تماماً ما جاء في القرآن الكريم ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ وفي قوله تعالى ﴿وشاورهم في الامر﴾ (آل عمران). وكان قد حدد بعضهم أن يكون قرشياً وبذلك صح عندهم امامة معاوية وأولاده، وحدد آخرون منهم أن يكون هاشمياً فثبت عندهم امامة العباسية. وبهذا التحديد أصبحت الامامة وراثية وانقلبت إلى ملك عضوض.

الوجه الثاني: وأما الذين قالوا تثبت الامامة بالنص والتعيين فقد اختلفوا بعد علي (رض). فقالت الكيسانية انها في ابنه محمد بن الحنفية نصاً وتعييناً، لأن علي بن أبي طالب أعطاه الراية يوم الجمل ولأن الحسين أوصى اليه عند خروجه إلى الكوفة، ثم اختلفوا من بعده. فمنهم من قال انه لم يمت وسيرجع فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وتوقفوا عنده، ومنهم من قال الامامة بعده في ابنه أبي هاشم وافترقوا بعده. فمنهم من نقل الامامة في نسله وصية بعد وصية، ومنهم من نقلها إلى بنان بن سمعان النهودي، ومنهم من نقلها إلى علي بن عبد الله بن عباس، ومنهم من نقلها إلى عبد الله بن حرب الكندي، ومنهم من نقلها إلى عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب.

وأما الذين لم يقولوا بالنص على محمد بن الحنفية قالوا بالنص على الحسن والحسين واختلفوا. فمنهم من نقل الامامة في أولاد الحسن فقالوا بإمامة ابنه عبد الله بن الحسن ثم في ابنه محمد بن عبد الله ثم في اخيه ابراهيم.

ومنهم من أجرى الوصية وساق الامامة في أولاد الحسين وقال بإمامة ابنه علي زين العابدين نصاً عليه ثم اختلفوا بعده فقالت الزيدية بإمامة ابنه زيد ثم بأولاده.

وأما الإمامية فكانت اختلافاتهم أكثر من اختلافات الفرق كلها. فقالوا بإمامة محمد الباقر بن علي زين العابدين نصاً عليه، ثم بإمامة جعفر الصادق بن محمد الباقر وصية اليه. ثم اختلفوا بعد جعفر في أولاده الخمسة: محمد، اسماعيل، عبد الله، موسى، علي. فمنهم من قال بإمامة محمد ابنه وهم: الشميطية والعمارية، ومنهم من قال بإمامة اسماعيل ابنه فأنكر موته في حياة أبيه وقالوا برجعته وهم المباركية ووقفوا. ومن بينهم من ساقها إلى محمد بن اسماعيل ثم إلى أولاده نصاً بعد نص حتى يومنا هذا وهم الاسماعيلية. ومنهم من قال بإمامة عبد الله الافطح بن جعفر وأولاده، وهم المعمرية. ومنهم من قال بإمامة موسى بن جعفر نصاً عليه حيث قال والده «سابعكم قائمكم» واختلفوا. فمنهم من توقف في موته وهم المطورة، ومنهم من ساق الامامة إلى ابنه علي الرضا بن موسى وهم القطعية واختلفوا في كل ولد بعده. وساق الإمامية الاثنا عشرية الإمامة من علي الرضا إلى ابنه محمد التقي (الجواد) ثم إلى ابنه علي التقي (الهادي) ثم إلى ابنه الحسن العسكري الزكي، واختلفوا بعد موته إحدى عشرة فرقة. ومن بينهم من نقلها إلى ابنه محمد المهدي القائم المنتظر وهو الامام الثاني عشر وهم فرقة الائمة الاثني عشرية، وقالوا عنه هو حي لم يمت وسيرجع فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، ومنهم من ساقوا الإمامة بعد الحسن العسكري إلى اخيه جعفر وقالوا بالشك في حال محمد المهدي المنتظر. ولا حاجة لذكر الاختلافات التي وقعت في حال كل من الاثني عشر والمنازعات التي جرت بينهم وبين اخوتهم وبني اعمامهم، فهي مذكورة في الشهرستاني وغيره. واتفقوا

جميعاً بالقول بالرجعة بعد الموت، والقول بالغيبة ثم بالرجعة بعد الغيبة، واتفقوا أيضاً على عصمة الأئمة. ولما لم تحصل لهم الخلافة الزمنية (مقاتل الطالبيين) اتفقوا على ان الائمة كافة هداة روحانيون. واعتقدوا ان البعض منهم سيرجع ويملك العالم وينتقم من أعدائه ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

وقد ارتفعت تلك الفرق وزالت تلك الاختلافات كافة ولم يبق في زماننا هذا من الفرق المهمة سوى الاسماعيلية في الهند وإمامهم (آغا خان) وهي من الشيعة الغالية، وفرقة الأئمة الاثني عشرية وقد جعلتها الحكومة الايرانية مذهباً رسمياً لها، وبذلك حافظت على وجودها وهي من الشيعة المعتدلة، وكذلك الزيدية في اليمن. واذا كان لم يـزل يوجد هنا وهناك من فرق «العلي الإلهية» شراذم صغيرة وبقايا متفرقة في مختلف البلاد، فلا قيمة لهم ولا يعبأ بهم.

وكان قد تميز في بادىء الأمر المذهب الكيساني، ومؤسسه كيسان مولى امير المؤمنين علي بن ابي طالب وتلميذ محمد بن الحنفية. وخلاصته: إحاطة الامام بالعلوم الإلهية وبعلم التأويل والباطن وعلم الآفاق والانفس وانفراد الامام بتأويل الشريعة واعتبار طاعة الامام طاعة القانون الإلهي وان الدين طاعة الامام... الخ. ولما علم محمد بن الحنفية دعوى الكيسانية ان ال البيت يلمون بجميع العلوم قال: «والله ما ورثنا من رسول الله الا ما بين هذين اللوحين» ـ يعني القرآن، وتبرّأ من الكيسانية علناً وجهراً.

ولما انتقل ابن الحنفية إلى جوار ربه قالوا انه حي ولا يموت ولن يموت وانه محبوس برضوى إلى ان يؤذن له بالخروج. وهو عندهم المنتظر. وقالوا انه افضى إلى ابنه ابي هاشم جميع العلوم التي استأثر علي بن ابي طالب بها إليه وكافة اسرار العلوم وتقدير التنزيل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن لأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً.

وكان لما اعلن المختار زعامته على الشيعة الكوفية وكان خارجياً ثم صار زبيرياً ثم صار شيعياً، قال للسائب: انما انا رجل من العرب رأيت ابن الزبير على اليمامة ورأيت مروان انتزى على الشام فلم اكن دون احد من رجال العرب هؤلاء، فأخذت هذه البلاد (الكوفة) فكنت كأحدهم الا أني قد طلبت بثار أهل بيت النبي اذ نامت عنه العرب (الطبري). فقبل المذهب الكيساني وأعلن الدعوة لمحمد بن الحنفية، وقال انه يجوز البدء على الله تعالى وهو ان الله يغير ما اراد ويبدل ما يريد حسب الحال ومقتضيات المصلحة، فان البدء بالعلم ان يظهر خلاف ما علم والبدء بالارادة ان يظهر خلاف ما اراد والبدء في الامر ان يأمر بشيء ثم يأمر بخلافه. والقصد من اسناد هذا التبدل والتحول إلى الله تعالى أنه كان يخبر قومه بحادثة فإن اصابت فتلك من الوحي أو من ارشاد الامام، وان اخطأت قال قد بدا لربكم غيره.

ثم ان المختار خدعته السبئية فقالوا له انت حجة هذا الزمان وحملوه على ادعاء النبوة فادعاها وزعم ان الوحي ينزل عليه فتكهن وسجع.

وكانت الكوفة عندما تغلب عليها المختار تغلي كالمرجل بأفكار ثورية يضرم اوارها اناس من مختلف الملل والنحل، كلّهم مستاؤون من الطبقة الحاكمة، فتمكن المختار من جمعهم تحت لواء التشيّع

لآل البيت واعتبر محمد بن الحنفية المهدي المنتظر فأغدق عليه من الالقاب والصفات ما تجعله فوق المستوى البشري، فكانت تلك المنح والهبات أول فكرة وضعت لعقيدة الغيبة والرجعة والمهدية التي قبلتها الفرق الشيعية كافة فيما بعد.

وكان لما اراد محمد بن الحنفية قدوم العراق خاف المختار من ذهاب دولته عند قدومه فقال لجنوده: انا على بيعة المهدي، ولكن للمهدي علامة وهي ان يُضرب بالسيف ضربة فان لم يقطع السيف جلده فهو المهدي. فلما سمع محمد بن الحنفية قوله أقام بمكة خوفاً من ان يقتله المختار.

وأما المذهب الزيدي فيُنسب الى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب. وكان زيد قد تتلمذ في الاصول على واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة. فادّعى الإمامة العلوية في الكوفة، ونافس فيها جعفراً الصادق. ورأى ان لا نص في إمامة علي (رض)، وأيّدته فرقة الصباحية في ذلك. وكان من مذهبه جواز إمامة المفضول مع قيام الافضل. فكان يقول ان علي بن ابي طالب افضل الصحابة الا ان الخلافة فوّضت الى أبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب الناس، وسيف أمير المؤمنين علي عليه السلام من دماء المشركين من قريش لم يجف، والضغائن من صدور القوم من طلب الثار كما هي. فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ولا تنقاد إليه الرقاب كل الانقياد. وكانت المصلحة ان يكون القائم بهذا الشأن اكثر ليناً وتودداً وتقدماً بالسن منه، ولذلك يجوز ان يكون المفضول إماماً والافضل قائم فيرجع اليه في الاحكام.

ولما سمعت شيعة الكوفة هذا المقال وانه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه فسميت الرافضة وجرت بينه وبين محمد الباقر مناظرة لتتلمذه على واصل بن عطاء فكان مذهبه اكثر اعتدالاً وأقرب مودة الى المذاهب الاسلامية الاخرى من الفرق الشيعية كافة. ولم تتناوله في بادىء امره الايدي والعقول الاجنبية حتى التجأ الائمة المتتابعون الى جبال الديلم وخراسان وأسّسوا الدولة الزيدية في طبرستان (863 ـ 928) وعند ذلك ظهرت فرقة الجارودية وزعيمها سرجون فمالوا عن القول بإمامة المفضول وكفّروا الصحابة الذين نصّبوا أبا بكر وانقسموا إلى عدة فرق.

من أهم فرق الشيعة هي فرقة الاثني عشرية الامامية وهي التي عاشت الى وقتنا الحاضر، وإليها ينتمي معظم شيعة الفرس والعراق والهند، وهي الشيعة المعتدلة. تأتي بعد الزيدية قربة ومودة الى الفرق الاسلامية الاخرى. وهم القائلون بإمامة علي بن ابي طالب بعد السيد الرسول ويدّعون ان النبي (ص) عيّنه لإمامة الناس من بعده في مواضع تعريضاً، كإرساله ليقرأ سورة البراءة على الناس أثر ابي بكر، لوحي أتاه ان يقرأها رجل من آل البيت، مما يدل على تقديمه علياً على أبي بكر. وكتأميره في بعث عمرو بن العاص وفي بعث اسامة بن زيد كان فيهما ابو بكر وعمر ولم يؤمر احداً على علي. وفي مواضع اخرى تصريحاً كمبايعة علي له على روحه على ان يكون وصيّه ووليه من بعده. وفي خطبته يوم غدير ختم قوله(ص): «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه. وانصر من نصره واخذل من خذله. وأدر الحقّ معه حيث دار» ما هي الا نصوص الخلافة والإمامة بعد سيد الرسل.

وأما من جهة الاسماء والصفات الالهية والقضاء والقدر، فلم يكن في المذهب الجعفري الاثني

عشري ما يخالف قواعد اهل السنة والجماعة. كما انه لا يوجد في العقيدة الشيعية فلسفة خاصة ثابتة وآراء معيّنة مبتكرة بأكثر من تأويل نصوص القرآن في جانب الائمة. فقد قبلوا شيئاً من قواعد المعتزلة وشيئاً من قواعد الجبرية فكانوا وسطاً بين المذاهب المتطرّفة.

قال جعفر الصادق: من زعم ان الله على شيء او في شيء فقد أشرك. اذ لو كان على شيء كان محمولاً ولو كان في شيء لكان محصوراً ولو كان من شيء لكان محدثاً...

وجاء في الملل والنحل للشهرستاني: ان جعفراً الصادق تبرّأ عما كان ينسب بعض الغلاة إليه وبرىء من خصائص مذاهب الرافضة من القول بالغيبة والرجعة والبدء والتناسخ والحلول والتشبيه. لكن الشيعة بعده انتحل كل واحد منهم مذهباً وأراد ان يروّجه على أصحابه، ونسبه إليه وربطه به، والسيد بريء من ذلك ومن الاعتزال والقدر. فقد جاء في قوله عن الارادة مثلاً: الله تعالى أراد بنا شيئاً فما أراده بنا طواه عنّا وما أراده منّا أظهره لنا فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عمّا أراده منّا.

وكان يقول في الدعاء: اللهم لك الحمد ان اطعتك ولك الحجة ان عصيتك لا صنع لي ولا لغيري في احسان ولا حجة لي ولا لغيري في إساءة. وهذا قوله في القدر امر بين امرين لا جبر ولا تفويض.

وجاء في اخبار موسى الكاظم ـ وقد سأله ابو حنيفة وهو صبي ـ فقال: المعصية ممن؟ فقال الكاظم: إما من العبد او من الله او منهما، فان كانت من الله فهو أعدل وأنصف من ان يعذّب عبده ويؤاخذه ويظلمه بما لم يفعله، وان كانت المعصية منهما فهو شريكه والقوي أولى بإنصاف عبده الضعيف، وان كانت من العبد وحده فعليه وقع الامر وإليه يتوجّه المدح والذم وهو أحق بالثواب والعقاب وبالجنة والنار. فقال ابو حنيفة: ذرية بعضها من بعض.



الفصل الخامس الالهيات عند فلاسفة الإسلام(*)

الكندي

يأتي الكندي بالدرجة الاولى بين فلاسفة الإسلام. وهو فيلسوف العرب دون منازع، ورابع أربعة حذاق التراجمة دون شك. ولم يكن الكندي فيلسوفاً فحسب، إنما كان عالماً بالموسيقى والكيمياء وعلم التنجيم والبصريات وله عدة مؤلفات أهمها في البصريات انتشر في الغرب كما في الشرق.

كان الكندي متأثراً بشدة بالفلسفة اليونانية وخاصة بالمذهب الفيثاغوري الجديد وعنها أخذ ثقافته وفلسفته. كما وان له مواقف ايضاً في الرياضيات وعلم الكلام والطب والفلكيات هامة، وقد ترجم كثيراً من الكتب اليونانية إلى العربية.

وأما فلسفته في الإلهيات فيعتبر ان العالم مخلوق الله وان الأعلى يؤثر في الادنى متسلسلاً في مراتب الوجود حتى يصل الاثر المادة ولا يؤثر المعلول بالعلة لأنها أرقى منه.

ونفس الانسان قبس من نور الله لا يفنى. وهو بين العقل الإلهي وبين العالم المادي مستقل عن الجسم، الا انه مقيّد به طوال الحياة.

ويقول ان العقل الاول او المحرّك الاول هو الله. وهو علة جميع المعلولات والمعقولات في الوجود. والعالم غير متناهٍ بالقوّة والحركة لا نهاية لها.

وأما عقل الانسان فهو يأتي بالدرجة الثانية، وهو فيض من الله. وبه يحصل العلم الاسمى. وأما عمل الانسان فهو من كسب الانسان لارتباطه بالعالم المادي. وبهذا يقترب الكندي من المعتزلة.

وللعقل عنده درجات وأفعال أخرى خارجة عن نطاق موضوعنا.

الحكيم الفارابي (870 ـ 950 م)

يسميه اهل الشرق المعلم الثاني بعد ارسطو، المعلم الاول. يقسم الفارابي (259 ـ 339 هـ) الموجودات الى ستة أقسام: أولها الموجود الاول وعنه صدر العقل الاول، وهو مصدر الكل ومحرك الفلك الاعظم وعلة الاشياء. ويقول ان كل موجود إما واجب الوجود بالذات وإما واجب الوجود بالغير. فأما واجب الوجود بالغير فهو يفتقر الى سبب يخرجه الى عالم الوجود او يحتاج الى من ينقله من الوجود بالقوة الى الوجود بالفعل. وأما واجب الوجود بالذات فهو الذي لم يسبقه علة أو سبب لوجوده، فان «العلة الأولى» هو الذي صدر عنه الكل وهو الذي اوجد هذه الموجودات وفي علمه منذ الازل مثلها وصوّرها. ويستلزم العقل ان يكون الموجود الاول واحداً ولا علة توجده وليس بحاجة الى من يستند اليه او يمد ببقائه. فلا يشمله الزمان ولا يستوعبه المكان ولا يتغيّر من حال إلى آخر. كل

(*) قبل الدخول في هذا الموضوع لا بد لنا أن نذكر أن المواضيع التي تناولها فلاسفة الإسلام كثيرة لا يهمنا منها سوى آرائهم حول الإلهيات فقط. سنذكره باختصار جهد الإمكان.

شيء عنه صدر وأحاط به علمه. واحد بذاته وهو عقل محض لا تخالطه كثرة وهو المسمى «الله» وعنه تفيض العقول منذ الأزل دون ان يناله النقص.

وصف الانسان هذا الواحد بأشرف الاسماء وأدقها وأقوى المعاني وأشدها الدالة على اسمى الكمال ومنتهى القوة والقدرة وغاية الجلال والجمال. على ان هذه الاسماء الحسنى قد تضاف اليه مجازاً دون ان تكون متناقضة مع وحدانيته ودون ان تستوجب التعدد في ذاته.

ويأتي بعد العقل الاول عقول الافلاك كما يسميها ارسطو ويسميها الفارابي الملائكة وهي العقول التي تصدر عنها العقول الكثيرة المنتشرة في الاجرام السماوية وهي الواسطة لنقل الافكار إلى النفوس.

وفي المرتبة الثالثة يأتي «العقل الفعّال» ويسميه الفارابي روح القدس أو «الروح الأمين» وهو الموصل بين الموجودات العلوية والموجودات السفلية.

وفي المرتبة الرابعة تأتي النفس وهي جواهر تصدر من العقل الفعّال وتتكاثر بتكثير الاجسام. فما كان منها بالاجرام السماوية فهي الملائكة، وما كان منها على سطح الارض فتلبس جسم الانسان او الحيوان او النبات، وأخيراً المعادن والمواليد الاربعة (الماء والهواء والنار والتراب).

وفي المرتبة الخامسة تأتي «الصورة» وهي التي تعطي للمادة شكلها.

وفي المرتبة السادسة من سلسلة الموجودات المتصلة تأتي المادة وهي أحط الموجودات. فكان العالم كلٌ منظّم مرتّب بديع فائض عن الله وصادر عنه منذ الأزل. وهذا هو مذهب الصدور للفارابي.

وكان أهم ما تميّز به الفارابي عن سائر الفلاسفة في فلسفته الشرقية، هي إضافته مسائل الحكمة الدينية الى مسائل الحكمة المنطقية، وتوفيقه بين الدين والفلسفة وبين العقل والروح، فاجتنب بهذا التوفيق جهد الامكان الاصطدام مع رجال الدين. الا انه لم يسلم من وصمته بالزندقة والإلحاد.

وفي حياة الفارابي (اوائل القرن الرابع الهجري) كانت بغداد والممالك الاسلامية تشع من جوانبها كافة برجال الفلسفة والدين من متكلمين ومعتزلة ومحدثين وصوفيين وفقهاء وأصحاب المذاهب المعتدلة والمغالية، ولكل من هؤلاء نظرات خاصة حول الإله العظيم وما يجب أن يتصف به من الأسماء والصفات ولا سيما حول العلم والكلام والإرادة والخير والشر والقضاء والقدر والرؤية وغيره.

فكان المعتزلة كما سبق ذكره يؤولون الصفات ويقولون في علمه مثلاً عالم بذاته لا بعلم، وفي قدرته قادر بذاته لا بقدرة... فلو شاركته هذه الصفات بالقدم، لشاركته في الألوهية. وفي الكلام لو تكلّم لاعتراه التبدّل والتغيّر حين الانتقال من الوضع الساكت الى الوضع الناطق وهو محال وغير ذلك.

وأما اضدادهم الصفاتية، فيقولون بتعداد الصفات ووجودها في الذات الإلهية منذ الأزل، وبأن الله فرّق بين السمع والبصر، وان الله يعلم علماً ليس متميزاً عن ذاته وان سمعه وبصره وعلمه خاص به لا نعلمه لأنه «ليس كمثله شيء». وعندهم الإيمان بالصفات واجب.

فدخل الفارابي في هذا المعترك وكان ميله الى جانب المعتزلة فيما يخص الصفات واضحاً. كما وانه كان متأثراً بوحدة الوجود.

ابن سينا

اذا كان الفارابي المعلم الثاني، فان ابن سينا يعتبر أمير الفلاسفة في العالم الإسلامي. برع في الطب والفلسفة والإلهيات والشعر والفقه. وأما نظرياته الفلسفية الكثيرة، فقد شاعت في الغرب كما في الشرق، اذ من أعظم مؤلفاته «القانون في الطب» الذي أصبح كتاباً مدرسياً تعتمد عليه دور العلم في أوروبا. طبع خمس عشرة طبعة لاتينية وظلّ معمولاً به حتى القرن السابع عشر. ان ما يهمنا من فلسفته آراءه حول الإلهيات والعالم فقط. وسنحصر كلامنا حولهما.

الوحدانية: يقول ابن سينا ـ كما قال الفلاسفة من قبله ـ لما كان الله واحداً بالذات من كل وجه وهو عقل محض، فلا يمكن ان تصدر عنه صور كثيرة ولا حتى صورة مادية، انما يصدر عنه واحد فقط. ولما كان لم يسبقه احد غيره في الزمان والمكان فكان واجب الوجود ولو كان قد سبقه غيره لكان ذلك الغير هو واجب الوجود.

ويقسم ابن سينا واجب الوجود الى واجب الوجود بالذات وواجب الوجود بالغير او كما يسميه ممكن الوجود. فأما واجب الوجود بالذات فهو الذي لم يكن مركّباً من أجزاء لئلا يفتقر الى أقسام منها، اذن هو جوهر بسيط غير مركّب من أجزاء وأبعاض ولم يسبقه أحد بالوجود ولا يناله العدم ولا كثرة فيه ولا عدد، منزّه عن التغيّر والتبدّل والكثرة كما وان وجوده عين ذاته (وقد هاجمه الغزالي بأن للجوهر حيزاً والله منزّه عن ذلك).

وأما ممكن الوجود فهو الذي يحتاج الى غيره للخروج الى عالم الوجود، وهو العالم العلوي والسفلي ما سوى الله.

ويقول: إن العالم كان في علم الله، وعلم الله أزلي. فكان العالم ممكن الوجود بذاته واجب الوجود بغيره مفتقراً الى الخروج من الوجود بالقوة الى الوجود لفعل، فخرج بإرادة الله. وكيفية خروجه هي انه عندما تحرّك العالم بإرادة الله ظهر الزمان. فكان مبدأ الزمان والعالم واحداً. لذلك لم يكن العالم حادثاً وفي زمان ما. انما كان قديماً بعلم الله. ويقول: إن الخير والشر من قدر الله وان الله لا يرضى الا الخير وقد يحصل الشرّ عرضياً للوصول إلى الخير.

بهذا التحليل تمكن ابن سينا من التوفيق بين ما يقوله فلاسفة اليونان بقدم العالم وما يقوله اصحاب الديانات السماوية الثلاث الكبرى بحدوث العالم وان الخير والشر من الله تعالى.

يذهب ابن سينا الى ما ذهب إليه الفلاسفة الأقدمون، وهو ان المحرّك الأول صدر عنه العقل الاول وصدر عن العقل الاول العقل الثاني وهو الفلك الاعلى والكائنات السماوية... حتى العقل العاشر وهو العقل الفعّال الذي تصدر عنه النفوس الانسانية ومادة الاشياء الارضية والصور وغيره... فكان الصدور والانبثاق يأتي متسلسلاً من واجب الوجود إلى العقل الأول وإلى العقول التي تليه حتى يصل الأثر الى فيما تحت فلك القمر، وهي مادة الأشياء وأحطّ الموجودات.

وبعكس هذه السلسلة النازلة يوجد عنده سلسلة صاعدة وهي ان النفوس تسعى دوماً للتجرّد من المادة والصعود إلى مصدرها الأصلي الذي صدرت منه، وهو العقل الفعّال وبذلك الوصول إلى الله.

وأما حول الصفات فيقول: يجوز ان تضاف الصفات إليه كالقول انه فعّال مريد وانه عقل محض على ان تكون بطريقة الإضافة لا تتعارض مع وحدته.

وكما عند ارسطو، فعنده ان الله لا يعلم الا الكلّيات بمعنى انه يعلم الاشياء علماً كلياً لا يدخل تحت تصرف الزمان وتقلباته واختلافاته والمكان وصوره وأشكاله. وأما الجزئيات بما انها معرّضة للكون والفساد وتنقسم بانقسام الزمان الى ما كان وما يكون، وانها تتبدّل وتتغيّر، بينما علم الله لا يتغير. ولو تغيّر لكان محلاً للحوادث، فإدراكه لها لا تكون الا بإحاطته أسبابها وأنواعها فقط لذلك لا يعنى بها.

النفس والجسد: يعتبر ابن سينا ان الانسان مركّب من نفس وجسد. فأما النفس فهي جوهر مستقل قائم بذاته تفيض من العقل الفعّال وتلازم الجسد بالعرض فتدخل الجنين في بدء تكوينه على كره منها وتستمر معه وتألفه طول الحياة وتنسى مستقرّها الاول في الأفلاك. الا انها تذكره وتحن إليه وتبكي عليه ثم تطرب مرة ثانية عند الموت لما تفارقه لتعود الى مصدرها الذي صدرت منه في عالم فلك العقل الفعّال وما فوقه ـ حيث الجنة هناك ـ فتبقى النفس السعيدة وأعدادها قليلة جداً باتصال مع العقل الكلي فلا يبلغ هذه المرتبة من المجد والسعادة الا من كان ذا حظ عظيم لأن الله أجلّ من ان يكون شريعة لكل وارد. وقد اثبت آراءه هذه في القصيدة الآتية التي تعتبر من غرر الأدب الصوفي المتعلّق بالنفس والجسد.

هبطت عليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة ناظر ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كرهٍ لديك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات تفجّع
ألفت وما سكنت فلما واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ... ومنازلاً بفراقها لم تقنَع
حتى اذا اتصلت بهاء هبوطها ... عن ميم مركزها بذات الاجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخضع
تبكي وقد ذكرت عهوداً بالحمى ... بمدامع تهمى ولمّا تقلع
وتظل ساجعةً على الدمن التي ... دُرست بتكرار الرياح الأربع
اذ عاقها الشرك الكثيف وصدها ... قفص عن الاوج الفسيح المربع
حتى اذا قرب المسير من الحمى ... ودنا الرحيل الى الفضاء الأوسع
وغدت مفارقةً لكلٍّ مخلّف ... عنها حليف الترب غير مشيّع
هجعت وقد كشف الغطاءُ فأبصرت ... ما ليس يدرك بالعيون الهجّع
وغدت تغرّد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كل من لم يرفع
فلأيّ شيء أهبطت من شاهق ... عال الى القعر الحضيض الأوضع
ان كان أهبطها الإله لحكمة ... طويت على الفذ اللبيب الأروع
وهبوطها ان كان ضربة لازب ... لتكون سامعةً بما لم تسمع

وتعود عالمةً بكل خفيّة | في العالمين فخرقها لم يُرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها | حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألّق بالحمى | ثم انطوى فكأنه لم يلمع

وأما غيرها من النفوس الشريرة فحظها التعاسة والشقاء. وعندما تلازم النفس الجسد لا تتصل معه بالجوهر انما تلبسه وتتقمصه فقط. ولها قوّتان: عاملة وعاقلة. فالعاملة تدبّر أحوال البدن. والعاقلة هي القوى الذهنية، وهي عنده على عدة أقسام نضرب صفحاً عنها.

والنفس في النباتات تقوم بفعل التغذية والنمو والتكاثر. وفي الحيوانات تقوم بهذه الوظيفة مع بعض الإدراك والإرادة والإحساس.

وأما في الانسان فتسمو كثيراً عما هي عليه في النبات والحيوان وتسمى النفس الناطقة ولها ملكات ظاهرة وهي الحواس الخمس وملكات باطنة وهي المصورة والمفكرة والمدركة والحافظة...

وأما الجسد الإنساني فيتكوّن من امتزاج العناصر الأربعة كسائر الأجسام الا انه أكثر اعتدالاً وأكمل مزاجاً.

وعند بحثه عن الاحكام الشرعية والبعث يقول إن اقسام العبادات تخص العامة من الناس وان محمداً (ص) عندما أراد ان يخرج امته من ظلمات البداوة إلى نور الحضارة نشر فيهم الاعتقاد ببعث الاجساد يوم الحشر للنعيم أو العذاب البدني الابدي، لان العرب لا يدركون معنى السعادة الروحية الصرفة الا ما كان منها محسوساً وملموساً.

واذا كان قربه من السلطان في حياته قد منع كثيراً من مناوئيه علماء الدين من تكفيره فقد رماه معاصروه بعد مماته بالزندقة والإلحاد وأمر الخليفة المستنجد في بغداد بإحراق كتبه ومؤلفاته... وأعدم الطغرائي وزير السلطان مسعود بن محمد السلجوقي سلطان الموصل في ايران بتهمة الالحاد لدفاعه بكتابه «حقائق الاستشهاد» عما ورد بكتاب «الشفاء» لابن سينا من بعض العبارات الدالة على الإلحاد.

الغزالي

في أواخر القرن الخامس الهجري، في وقت وصلت فيه الحركة الكلامية والمذاهب الدينية من خوارج ومعتزلة وجبرية ومجسمة وأشعرية وباطنية... والنظرات الفلسفية من يونانية وهندية ودهرية ومسيحية وإسلامية والفرق الحسّية من صوفية وشيعية وسالمية وكرامية في البلاد الإسلامية ذروتها، تتعارض الواحدة مع الاخرى وتصطدم بعضها مع بعض، ظهر في الميدان، الديني والفلسفي، الفقيه الصوفي الشافعي حجة الاسلام ابو حامد محمد الغزالي (450 ـ 505 هـ) الطوسي مدافعاً ومناضلاً عن حياض الديانة الاسلامية يفند أقوال المتكلمين والفلاسفة والدهريين، ويهاجم المذاهب المخالفة للعقائد الاسلامية بقلمه (المنقذ. المقاصد. التهافت. ميزان العمل. الاحياء) ولسانه (بتدريساته بالنظامية في بغداد وفي نيسابور) محطماً آراء الفلاسفة المستندة على العقل والدليل والبرهان ومحاولاتهم إخضاع الدين للعقل، والمتكلمين الذين يحاولون اخضاع العقل ومدركاته لعقائد الدين، والصوفيين الذين يستندون إلى ناحية الكشف والنظر الباطني في أمور الدين مع اهمال العلوم

العقلية، مقيماً فلسفة دينية اخلاقية صوفية مستندة على التذوقات القلبية والاحساسات الروحية والحقائق العلمية، يدعو الناس إلى هدم الصرح الشامخ الذي بناه الفلاسفة الإسلاميون من مختلف الفرق والطوائف على أساس الفلسفة الاغريقية وإلى استبدال الاتجاهات العقلية بطريق الدين والتصوّف للوصول إلى المعرفة الإلهية، مدّعياً حصولها بنور يقذفه الله في نفس الصوفي وبطريق القلب الذي وحده يدرك المعرفة والحقائق، وأن هذا الإدراك وحده هو الموصل إلى سبيل السعادة، متخذاً مسألة الخلاف الدارجة عند الفلاسفة بين الفلسفة والدين موضوعاً لأبحاثه فنجح بمعالجتها نجاحاً كبيراً.

العالم: تقول الفلاسفة ان الله سبب وجود العالم، والعالم قديم صدر عن الله منذ الأزل، لأن الشيء لا ينتج الا مثله لذلك يستحيل صدور حادث من قديم. فيرد عليهم الغزالي بقوله: بينما كان العدم مستمراً اقتضت إرادة الباري القديمة ان يبتدىء الوجود في اللحظة التي ابتدأ بها. ولم يكن الوجود قبل ذلك مراد الله تعالى فلم يحدث. وقد حدث بالإرادة القديمة كما وأنه سينتهي بفعل إرادة قديمة، فكان العالم محدثاً وليس أزلياً ولا أبدياً، وكذلك الزمان والحركة والمكان أمور نسبية حادثة عبارة عن العلاقة بين الأجسام وبين تصوراتنا. وأما اعتبار الزمان قديماً لا مبدأ له ولا نهاية كما يتخيله الفلاسفة فهو من الأغاليط، فلا فرق بين البعد الزماني والبعد المكاني؛ وينفي قانون «السببية» أي ارتباط المسبّبات بالأسباب. فيقول: «ان الاقتراف بين ما يعتقد في العادة سبباً وما يعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا». ومعنى نفي السببية إنكار القوانين الطبيعية وارتباط الحوادث الكونية مع بعضها في شؤون العالم وإبطال العلم وجعل كل شيء حاصلاً بمشيئة الله. وكان قصده من ذلك إعطاء المجال لتفسير معنى المعجزات وخوارق العادات كإحياء الموتى وقلب العصا ثعبانا. ويعترف بسببية واحدة وهي إرادة الله في كل شيء، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وكما يريد وعلى ما يريد، وان الطبيعة مسخّرة لله تعالى لا تعمل بنفسها بل هي مستعملة من جهة فاطرها. والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته (المنقذ).

قلت: لما اقتضت إرادة الباري ان يبتدىء الوجود منح كل ذرة من ذراته قوّة من عنده ووضع سنناً كونية ثابتة مقرّرة، وهي المسماة القوانين الطبيعية التي لا تتبدل ولا تتغير بأي حال من الأحوال، وهي دائبة على عملها منذ اللحظة التي ابتدأ بها الوجود وإلى ان يرث الله الأرض والعوالم.

ويرد الغزالي على الفلاسفة ايضاً في قولهم بقدم العالم وان حقيقة الإله هي العلم والعقل، وان الله لا يعلم بالجزئيات ولم يعلم الا نفسه، فيقول: انه تعالى يعرف العالم ومطلع على الجزئيات لأن إرادته الأزلية هي التي استوجبت وجوده ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾.

وينفي كذلك الاتحاد وحلول الاجزاء الإلهية بالأشخاص البشرية والوحدة والتجسيم، ويقول: إن التقرّب إلى الله تعالى لا يكون بالمكان والمسافة انما بالمعنى والحقيقة. ويقول: ان في العالم حوادث كثيرة ولها أسباب، وللأسباب أسباب أخرى ولا يمكن التسلسل إلى ما لا نهاية ولا بد انها تنتهي. والسبب الأول هو القديم. فكان من الممكن صدور الحادث عن القديم ومن المستحيل وجود حادث لا محدث قديم له.

ويتناول الغزالي مسألة الأفعال، هل هي من فعل الله كما يقوله أهل السنة والجماعة ام من فعل الانسان كما تقوله المعتزلة او من فعل الطبيعة والاتفاق كما تقوله الفلاسفة؟ فيقرر ان الفاعل هو الذي يصدر منه الفعل مع الإرادة للفعل ومع العلم بالمراد. وبما ان الإرادة والفعل بالإنسان ما هي الا شعور بالقدرة على العمل وهي ليست عملاً حقيقياً، فكان الفاعل الحقيقي والقادر على كل شيء واحداً، وهو الله. أما الطبيعة فليس لها عمل مباشر انما تفعل بإرادة الله.

الكلّي والجزئي: في الفلسفة اليونانية المنتقلة إلى العالم الإسلامي أبحاث ومطالعات كثيرة حول الكلي والجزئي، خلاصتها ان الله لا يعلم الا الكليات في العالم ولا يعلم الجزئيات ولا يعلم الا نفسه. وان علم الله واحد لا يتجزأ ولا يتغير... وقد تأثّر منها بعض فلاسفة الاسلام كما مرّ.

فرد عليهم الغزالي بأن الله يعلم الأشياء علماً كلياً واحداً بجميع تفرّعاتها وما ستؤول إليه بعد تجزئتها ويعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون في أجزاء العالم بالجملة والتفصيل بعلم واحد.

وما الإنقسام والتجزؤ في الشيء الا عوارض نسبية لا تستوجب التغير في العلم ذاته. ولما كان التمييز بين شخص وآخر في حال من الأحوال لا يستوجب تغييراً في ذات الانسان فانه يعلم الانسان من حيث انه انسان مطلق ويعلمه بأفراده فرداً فرداً.

وكما ان الصانع يعلم تفرعات ما صنع فان من أوجد شيئاً من العدم لا بد وأن يكون عالماً بتفرعات ما أوجد.

ولما كانت إرادته الأزلية علّة الكليات والجزئيات فلا بد من ان يحيط علمه بها وتشمل ظاهرها وباطنها وجليها وخفيها ودقائقها كافة.

ويقول إن اعتبار الفلاسفة ان الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات فهو أشبه شيء بحالة الميت الذي لا يعلم بما يجري حوله ويفرق عنه انه يشعر بنفسه انه حيّ فقط. وهو نقص بذات الله.

بهذه الآراء والمطالعات وأمثالها كثير في كتبه المتداولة ـ نضرب صفحاً عنها بغية الاختصار ـ جعل الغزالي حادثات الكون كافة كبيرها وصغيرها عظيمها ودقيقها جليها وخفيها، وبضمنها الأفعال البشرية، من فعل الله وإرادته. وان الله يفعل ما يشاء. وكان قد كفّر الفلاسفة لقولهم بقصر علم الله على الكليات وقدم العالم وأزليته وإنكار بعث الأجساد وبأن العقوبات روحانية لا جسمانية. وقسّم الفلاسفة إلى ثلاثة أصناف: (1) دهريين. (2) طبيعيين، وهؤلاء جميعاً زنادقة. (3) إلهيين وهم حكماء اليونان كسقراط وأفلاطون وفلاسفة الاسلام كابن سينا والفارابي وهؤلاء هم الكفرة.

وهذا ما جعل علماء العصر الحاضر يرمون الغزالي ورفيقه الاشعري بأنهما مبدأ جمود الحركة الذهنية في العالم الاسلامي وبتوجيههما المسلمين إلى الاستكانة والركون لإرادة الله والتسليم المطلق لقضائه وقدره وإلى عدم الاعتماد على النفس. ولما كانت الطريقة التي سار عليها الغزالي هي معرفة هذا العالم بطريق الدين لا بطريق العقل، فكانت النتيجة الملموسة من فلسفته الصوفية ان اصبح العقل مشلولاً والفكر جامداً والفرد الانساني كالريشة في مهب الرياح لا وعي له ولا إرادة بأعماله وأفعاله وكل ما يصدر عنه.

ظهرت أقوال الصوفية من حب وجمال وفناء ووحدة الوجود... لمقابلة مدعيات الشيعة الغالية

المنتشرة حينذاك في كل مكان، ولم يكن بمقدور المفكرين من أهل السنة والجماعة الوقوف ضد تلك التيارات العنيفة والذود عن التعاليم الاسلامية الصحيحة حتى ظهر الغزالي، فانتصر لأهل السنة. وكان انتصاره موقتاً وعبارة عن فسح في المجال لانكشاف التصوف بقواعده المعتدلة الموضوعة، فظهر بعده ابن عربي فوضع قواعد وحدة الوجود على أساس رصين.

واذا كان قد ظهر بعد ذلك في العالم الاسلامي من ندّد بآراء الغزالي ـ كابن رشد وغيره ـ فان الطريقة الصوفية التي أحدثها الغزالي، وهي مزج التصوف بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، قد أخذت بالتوسّع والانتشار في الاقطار الاسلامية كافة لتحل محل الشيعة الغالية، فكانت عامة الناس تنقاد إلى شيوخ الطرق الصوفية من حيث يدرون ولا يدرون حتى أصبح الدين الاسلامي صوفياً والمسلمون كافة صوفيين. وكان الامراء والحكّام الجهلاء يتظاهرون بالتدين والتصوف مراعاة للجمهور ويكافحون الآراء الحرة ويطاردون الفلاسفة، بل ويحكمون عليهم بالموت وعلى كتبهم بالإحراق بتهمة الزندقة والإلحاد وبأنهم خطر على الدين، كل ذلك لاكتساب عطف الدهماء.

ابن رشد

اذا كان ابن سينا أمير الفلاسفة والغزالي آخر فيلسوف ديني بالشرق الاسلامي، فان ابن رشد كان خاتمة الفلاسفة بالغرب الاسلامي.

تناول ابن رشد الفلسفة اليونانية وخاصة منها الفلسفة الارسطية والمذهب الافلاطوني الجديد من جوانبها كافة، وأشبعها بحثاً وتمحيصاً، وشرحها ودرسها درساً عميقاً، فبنى فلسفته الشامخة على جدرانها، وخالف الفارابي وابن سينا والغزالي وابن باجه وانتقدهم كلما سنحت له الفرصة انتقاداً مراً. فقال عن الغزالي انه لم يلزم مذهباً من المذاهب في كتبه بل هو مع الاشاعرة اشعري ومع الصوفية صوفي ومع الفلاسفة فيلسوف، وقد استعمل الفلسفة كواسطة لتأييد مذهبه الديني وطريقته الصوفية.

ويقول ابن رشد بقدم العالم كأرسطو ويأتي بكتابه «فصل المقال» على أدلة كثيرة منها شرعية ومنها عقلية لتأييد مقاله. فأما الشرعية فيستند على قوله تعالى ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ و﴿كان عرشه على الماء﴾ بمعنى ان وجوداً قبل هذا الوجود وهو العرش والماء وزماناً قبل هذا الزمان كان موجوداً. وقوله تعالى ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ يقتضي بظاهره ان وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود سيحصل. وقوله تعالى ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ ومعناه ان السماوات خلقت من شيء. ويقول: ليس في الشرع ان الله كان موجوداً مع العدم المحض ولا يوجد هذا فيه نصاً. لذلك لا يوجد عدم قبل الايجاد. فالمتكلمون يستندون بحدوث العالم على قواعد كلامية منطقية وعلى الاجماع فهو خطأ يعذرون عليه.

وأما الأدلة العقلية فان الموجود لا يخلو إما وجد من شيء غيره وعن سبب فاعل وهي الأجسام التي تدرك بالحس كالماء والهواء والأرض والحيوان والنبات، وقد اتفق الجميع على تسميتها محدثة، وإما موجود الذي لم يكن من شيء ولا عن شيء ولا تقدمه زمان فقد اتفق الجميع على تسميته قديماً وهو الله.

فالمتكلمون وافلاطون وشيعته يرون الزمان الماضي والوجود الماضي متناهياً والمستقبل غير متناه. وارسطو وفرقته يرون الماضي غير متناه كما هو الحال في المستقبل.

وأما ما يسمى محدثاً فهو ليس محدثاً حقيقياً ولا قديماً حقيقياً. فإن المحدث الحقيقي فاسد ضرورة، والقديم الحقيقي ليس له علة، لذلك سمّاه افلاطون محدثاً أزلياً لكون الزمان متناهياً عنده في الماضي. ولو كان العالم حادثاً لوجب وجود عالم آخر حدث منه والتسلسل باطل.

يعتبر ابن رشد الموجودات جميعها سلسلة واحدة متصلة ومرتبطة مع بعضها ارتباط علة بمعلول أعلاها، واجب الوجود، وأدناها الصورة الهيولانية، وفي وسطها العقول المحرّكة للأفلاك والموجودات العقلية. وهي تعقل بصلتها وارتباطها بالعلّة الاولى، كما وانها الواسطة لنقل الافكار إلى المادة الجسدية. والعالم بأجزائه معرّض للتغير دوماً، فلا وجود بعد عدم ولا عدم بعد وجود، وانما هو متحرك منذ الازل بحركة مستديمة تتراوح تارة من القوة إلى الفعل إلى القوة يحرّكها محرّك أزلي بواسطة العقول المحركة للأفلاك وهو عقل محض وجوده ذاته، يعلم الكليات والجزئيات بعلم قديم لا يوصف. انه يعلمها بعلم محدث لانه منزّه عن الكليات والجزئيات. وهذا المحرّك الأول لهذه الحركة المستديمة هو الصورة الاولى، وهو موجد العالم، وهو الله.

ويرى ابن رشد وجوب تحكيم العقل في جميع الامور الا في عقائد الايمان. ويرى ان الدين ما هو الا احكام شرعية ليس للنظريات العقلية فيه من نصيب. ولذلك تحامل في كتابه «الكشف عن مناهج الادلة» تحاملاً شديداً على المتكلمين وبعض الفلاسفة وأصحاب المذاهب الذين ما انفكوا ينظرون في الدين نظراً عقلياً ويقول: لما كانت النظريات العقلية حول إثبات واجب الوجود قد تذوب امام النقد العلمي فيجب القاؤها في حظيرة العلماء وفي طي الكتمان دون اعلانها للجمهور ودون اتخاذها وسيلة لتأييد الطرق الدينية والمذاهب المختلفة كما فعله الغزالي. ولما كانت الشريعة قسمين ظاهراً ومؤولاً، وان الظاهر منها يخص الجمهور وان المؤول يخص العلماء فلا يحلّ للعلماء ان يفصحوا بالتأويل للجمهور كما قال علي (رض): «حدّثوا الناس بما يفهمون. أتريدون أن يكذب الله ورسوله». فعلى جمهور الناس ان ينظروا إلى هذا الدين كما هو لئلا تزل اقدامهم فيقعوا في الشك والالحاد.

ويتحامل ابن رشد على فرقة الحشوية لقولها أن طريق معرفة وجود الله هو السمع لا العقل، بمعنى يكفي ان يتلقى الايمان من صاحب الشرع دون اعمال الفكرة كيوم المعاد مثلاً.

ويهاجم الاشعرية لبناء مذهبهم في إثبات وجود الله على حدوث الجزء الفرد المكوّن للأجسام. ولما كانت الأجسام محدثة بحدوثه فكان العالم على زعمهم حادثاً ومن الضروري ان يكون لكل حادث من محدث أزلي.

فيقول ابن رشد: ففي هذه الحالة يجب ان يكون فعله المتعلق بالمعقولات أزلياً فتكون المعقولات ازلية. ومن جهة اخرى إن كان الفاعل حيناً يفعل وحيناً لا يفعل، وجب ان تكون هناك علّة صيّرته بإحدى الحالتين. فما هذه علّة العلل؟ وهذا يستوجب التسلسل كما وان هذا يستوجب التغير والتبدل فينتقل من العمل إلى السكون ومن السكون إلى العمل والله منزّه عن ذلك.

وينتقد المتكلمين عند قولهم بعلم المحدث في وقت حدوثه بعلم قديم. فكان كل فعل حادثاً وقد حدث بإرادة قديمة.

ويقول ابن رشد رداً عليهم: ان الإرادة شيء والفعل شيء آخر. واذا كان المفعول حادثاً فواجب ان يكون الفعل المتعلق بإيجاده حادثاً. والحادث لا يمكن أن يكون عن فعل قديم انما عن فعل حادث. ولاجل إخراج الفعل إلى حيّز الوجود على كر الدهور تبعاً للإرادة القديمة، تقتضي العزم في كل لحظة على الإيجاد ولم يكن قبل ذلك الوقت. وهذا يستوجب حالة زائدة على ما كانت عليه في حالة عدم الفعل. ولما كان الباري لا يقوم به حادث، فان الطريق الذي سلكه المتكلمون والاشعريون في معرفة الله ليست طرقاً نظرية يقينية ولا طرقاً شرعية يقينية. ويقرر ابن رشد «ولا يقال انه يعلم حدوث المحدثات وفساد الفاسدات لا بعلم محدث ولا بعلم قديم. فإن هذه بدعة في الاسلام» (الكشف عن مناهج الأدلة ـ ص 54).

وأما الشرع فلم يصرّح في الإرادة لا بحدوث ولا بقدم. إنما صرّح بأن الإرادة موجدة موجدات حادثة في قوله تعالى ﴿انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون﴾.

ويفنّد آراء الصوفية لقولهم ان المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شيء يلقي في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية وإقبالها بالفكرة على المطلوب. ويقول بمخالفة هذه الطريقة لنصوص القرآن الذي يدعو الناس إلى النظر في ملكوت السماوات. ولو كانت هذه الطريقة هي المقصودة لبطلت طريقة النظر العقلية. ووضع كتابه «تهافت التهافت» ليدحض به آراء الغزالي حول المسائل الثلاث التي كفّر الفلاسفة من أجلها فمهّد إلى هذا بالاستدلال بالقرآن على وجوب النظر العقلي للانتفاع بتراث اليونان وتأويل ظاهر النصوص بما يقتضيه العقل السليم. حاول ان يوافق بين العقل والوحي بأن الوحي متمّم للعقل ولا يمكن معرفة الله والحشر والنشر والنعيم والعذاب إلا بالوحي.

وأما في الوحدانية فيقول ابن رشد: لو كانا اثنين لجاز ان يختلفا او يتفقا. فان اختلفا يستحيل ان يتم مراد واحد منهما. فلم يبق الا ان يتم مراد الواحد ويبطل مراد الآخر. فالذي بطلت إرادته عاجز والعاجز ليس بإله.

وأما إن اتفقا على حالة صنع العالم، فلا بدّ ان يكون اتفاقهما بطريقة التعاون والمداولة، والطريقتان نقص في كل واحد منهما مع ان الذي يقدر على اختراع البعض يقدر على اختراع الكل لا يشارك في فعله مقتدر مثله. اذن العالم وحده والفاعل واحد.

ولابن رشد آراء واسعة حول الصفات والتنزيه والجهة والرؤية والقدر والعدل والمعاد في كتابه «الكشف عن مناهج الادلة» نضرب صفحاً عنها بغية الاختصار.

ولم يسلم ابن رشد من انتقاد علماء الدين لآرائه الفلسفية. فقد ردّ عليه شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية وغيره.

فنقول: يظهر مما سبق ان فلاسفة الاسلام كافة اخذوا عناصر فلسفتهم من فلاسفة اليونان وانبهروا بها وفاتهم جميعاً ان مجمل ما ورد في أقوال وآراء أولئك الفلاسفة موجود مثله او ما يشابهه خير منه ان قل او كثر اجمالاً او تفصيلاً في نصوص القرآن، ولو كانوا قد اتجهوا إليها لوجدوها محتوية على لباب الفلسفة وكان في مقدورهم التوسّع فيها وتأسيس فلسفة اسلامية مستقلة لا

تشوبها الفلسفة اليونانية. يقول طنطاوي جوهري «ان آيات العلوم الكونية في القرآن تبلغ نحو 750 آية كلها في عجائب الكون بينما لا تزيد آيات الفقه عن مئة وخمسين آية فقط».

ولقد ضلّ الفيلسوف الاسلامي الرازي المتشبّع بالفلسفة اليونانية عند قوله «لا قيمة للكتب العربية بالنسبة للكتب اليونانية»، ويقصد منها ان الدماغ اليوناني لهو أعظم أثراً من الدماغ العربي وان الفلسفة اليونانية لهي أرقى مما ورد في القرآن. وما كان السبب لهذا الحكم القاسي الا لأن رجال الدين منعوا الفلاسفة من التحرش بنصوص القرآن وتفسيرها تفسيراً مادياً. ولأجل التدليل على فساد حكمه هذا، نذكر باختصار نبذاً مما ورد في آراء فلاسفة اليونان وما قالوه بعد إعمال الفكر ودراسة العالم وتدقيق أحوال الكون وما يقابله في نصوص القرآن. واذا كان قد أخذ فلاسفة اليونان بعضهم عن بعض، فان سيّد الرسل لم يأخذ شيئاً من أحد.

اسم الفيلسوف	مجمل آرائه	الآية القرآنية
طاليس	ـ الماء هو الجوهر الأساسي في المادة الحيّة	وجعلنا من الماء كل شيء حيّ
انكسيمندريس	ـ جميع حادثات الكون يمحوها الدهر	وما يهلكنا الا الدهر
اكسانوفان	ـ الآلهة فوق متناول خيال الانسان ـ صمد. ثابت. كله سمع وكله بصر	ليس كمثله شيء وهو السميع البصير
انبادوقليس	ـ ان النفس البشرية إلهية	فنفخنا فيه من روحنا
هرقليطس	ـ النار كل شيء والله هو النار وهو النور	الله نور السماوات والارض
انكساغور	ـ ان الآلهة بعيدة عن المادة ولا ندرك ـ وهوحقيقتها وتعلم كل شيء وهي في كل شيء	اللطيف الخبير. وكان الله بكل شيء محيطاً
افلاطون	ـ لقد أعطى الله العالم حركة منظّمة ـ سائراً عليها من الازل إلى الأبد ـ ومنعه من ان يجري على غير هدى.	ولن تجد لسنة الله تبديلا. ولن تجد لسنة الله تحويلا
ارسطو	ـ لا يمكن ان يكون هناك محرّكان اثنان أزليان فلا بد ان يكون على رأسهما محرك واحد. ـ تنتقل الحركة من المحرّك الأعظم إلى سماء القمر وإلى الأرض فتؤثر السماء على الأرض	لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض
زينون	ـ لا تخلو ذرة في الكون الا وفيها جزء من الألوهية	هو الأول والآخر والظاهر والباطن

وغيره من المتشابهات في المعنى كثير.

وفي القرآن كثير من الآيات لو فسّرها المفسّرون تفسيراً علميّاً كونياً وأوّلها المتأوّلون بما يقتضيه العقل ويوافق القواعد الطبيعية، لكانت صالحة لبناء فلسفة إسلامية مستقلة مما تفوق اليونان بمراحل.

ومما لا شبهة فيه ان القرآن قد أشار بوضوح، ان من طرف خفي، إلى كثير من المسائل الطبيعية وإلى حادثات الكون. ولو كانت حرّية البحث والاستقصاء موجودة، ولو لم يتغلّب أصحاب الحديث على أصحاب الرأي لظهر ـ كما يقوله المستشرقون ـ أمثال كوبرنيك وغاليلو في صفوف العالم الاسلامي ولاكتشف المسلمون كثيراً من الحادثات الطبيعية والكهربائية مثلاً من سورة النور قبل الاوروبيين بقرون.

الا ان الاكثرية من رجال الدين الاسلامي القدماء توجّهوا بكليّتهم إلى أقسام العبادات من القرآن وتركوا المسائل الطبيعية وأهملوا الحادثات الكونية وكافحوا وجادلوا كل حركة فكرية تخالف آراءهم وتعارض ما انطوت عليه نفوسهم وكفّروا المعتزلة والفلاسفة وأهل النظر العقلي او احرقوا كتبهم تقرّباً إلى الله على زعمهم. ولسوء الحظ انهم أماتوا العالم الاسلامي قبل ان يموتوا.



الفصل السادس التصوف

1 ـ ان الصوفيّة هي من الطرق الدينية السريّة الفلسفية، وضع قواعدها فلاسفة الهند واليونان القدماء وتسمى Sophisme. انتقلت إلى العالم الاسلامي عند انتقال الفلسفة الكلامية ـ المسيحية في القرن الثاني الهجري خلافاً لما يقال انها كانت موجودة عند العرب حتى قبل الاسلام. كان لها تأثير محسوس على العقائد الاسلامية متخفية وراء الزهد والعبادة والتقوى ومتسترة بلباس الصوف. غايتها تأسيس فلسفة نفسية سرية باطنية Esotèripuè مجرّدة لا علاقة لها بالزهد والعبادة، وتأويل النصوص والأحاديث حسب العقل وبطرق ملتوية لتخفيف ما اعترى الناس من هول ما ينشره الوعّاظ والخطباء حول يوم القيامة وما فيه من حساب وصراط وجحيم وعذاب، مقيمة محبّة الله عوضاً من اكتساب العلم ومن العبادة والطاعات لاجتذاب الناس حولها. قام بها رجال أفذاذ غير كثير، وضعوا قواعدها بروية ودهاء لمقابلة القواعد المذهبية الغالية: الاسماعيلية. القرمطية. الفاطمية. التناسخية. الحلولية.... ـ وإبطال مفعولها، ولتخليص ما يمكن تخليصه من الناس من الانزلاق في هاوية المذاهب المتطرفة والغالية المذكورة التي كانت تعمل على تحطيم الديانة الاسلامية فوصلوا إلى تساوي المعاني المتضادة من خير وشر وطاعة وعصيان وهدى وضلال وحسن وقبح ومن ثم إلى وحدة الوجود.

2 ـ **الغزالي**: لم يكن للتصوف شأن يذكر حتى ظهر الغزالي في الميدان الصوفي فوضع للتصوف قواعد جديدة ضمن نطاق القواعد الاسلامية وهاجم الفلاسفة والفلسفة اليونانية هجوماً عنيفاً وأخذ يسعى في إقامة فلسفة دينية اخلاقية بكتابه تهافت الفلاسفة والمنقذ من الضلال... وفي تدريساته بالنظامية في بغداد. وكان قصده الوصول إلى الحقيقة بالطرق النفسانية والتمسك بالزهد والتقوى والعزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة وتزكية النفس وتهذيب الاخلاق حتى يصل إلى تخلية قلبه من غير الله تعالى، وإلى نور يشرق في نفسه من مصدر علوي، او نور يقذفه الله في صدره، حتى قال بعد ان اعتكف في منارة جامع دمشق وفي بيت المقدس والمدينة عشر سنوات: لقد رأيت بوضوح ان الصوفية أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، وقد تحصل الأحوال بالذوق والرياضة وبالإعراض عن الدنيا والهرب من علائق الحياة، وان الحقيقة التي يدّعيها المتصوفة لا تحصل بقراءة الكتب إنما بالوجد والاستغراق والخلوة والزهد وترويض النفس والتجربة والامتحان.

وقال أيضاً: اني علمت يقيناً ان الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة وان سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق. وقال: ان الصوفية أوّلها استغراق القلب بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية في الله ـ (المنقذ).

استطارت شهرة الغزالي في أنحاء العالم الاسلامي واتبعه خلق كثير وصار التصوف عند أهل السنة بعد الغزالي دعامة يقوم عليها صرح الزهد والتقوى. وكان قصده ان يوجّه الناس إلى الله وحده وإلى تزكية الأخلاق وتطهير الروح من الأدران.

وتناول الغزالي مسألة الخلاف بين الفلسفة والدين فقال: ان الدين ليس مجرد أحكام شرعية او عقائد دينية انما هو شيء تتذوقه الروح. ولا يصل الناس إلى العالم العقلي الا بالخلوة فيرى الأمور الالهية فيلتذ لذة كبيرة. وفي إثبات وجود الله يقول: ان الكشف الباطني واليقين الشخصي والحدس مما يثبت لنا وجوده تعالى. ويقول ان النفس البشرية قبس من نور الله، وينفي الحلول والاتحاد ووحدة الوجود فيقول في كتابه المنقذ: وعلى الجملة ينتهي الامر إلى قرب يكاد يتخيّل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوحدة وكل ذلك خطأ... ويفرّق بين العلم والدين فيقول: العلم يستند إلى العقل والدين ينبجس من القلب ومن الوجود الإلهي. فالعقل لا يمكن ان يكون مصدر العقيدة الدينية انما الكشف الباطني هو الأساس في العقيدة. فأصبحت إلهيات ارسطو والعلوم الرياضية والمنطق والهندسة..... عنده موضع الشك ومحطّ السخط يجب مطاردة أصحابها.

3 ـ يقول ثوبان بن ابراهيم وهو ذو النون المصري 245 هـ: ان العلم الحقيقي لا يحصل الا بالوجد والاستغراق حتى يصل المؤمن إلى حالة الفناء في الله. ويقول ابو يزيد البسطامي المتأثر بالفلسفة الصوفية الهندية عن الفناء والبقاء: ان الفناء خاص بهذا الوجود وأما البقاء فهو الرجوع إلى الله بعد الوفاة. وقال أيضاً: لقد خرجت من وجودي كما تخرج الحية من قميصها فشاهدت ان الحب والمحب والحبيب واحد لا جزء له لأن الكل في عالم الوحدة واحد. ويقول الحسن البصري: مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة. ويقول معروف الكرخي: ان محبة الله شيء لا يكتسب بالتعلم وإنما هي هبة من الله وفضل. ويقول ذو النون المصري أيضاً: عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي.

4 ـ وكان الغزالي وابن عربي والاسيوطي وذو النون المصري والبسطامي والشعراني وغيرهم من رجال الصوفية يتسابقون عن قصد خفي كما سيأتي بيانه في توجيه العالم الاسلامي إلى القواعد الصوفية وإلى الزهد والتقوى والعبادة والتوكل، فوصلوا من حيث لا يشعرون إلى ترك الدنيا والتخلي عن كل مقومات الحياة والحضارة والمدنية، وعن التوثب الفكري والمجهود العقلي فأهملوا التمسك بقواعد السنة. وكان نتيجة لذلك ان ازدروا بالقوى الفاعلة في الانسان وان يتوجهوا بكليتهم نحو الله المحبوب.

وأخذ بعض رجال الدين والمشائخ والوعّاظ والخطباء بالظاهر مما قالوه، فكانوا ولم يزالوا ينشرون هذه القواعد الصوفية عن حسن نية في الاوساط الاسلامية، فكان الاقتداء بهم علة في تأخر المسلمين لتركهم الجانب العقلي والعلمي وميلهم إلى التصوف والفقر والاستكانة. ومع هذا كله لم يحرم العالم الاسلامي من رجال أحرار في مختلف الأزمنة حثّوا العالم الاسلامي على الكسب والعمل خلافاً لرغبات المتصوفة، فقالوا: ان الله لا يحب العبد البطال. وقالوا: الكاسب حبيب الله. وغيره من الجمل والعبارات الحاثة على العمل.

5 ـ لم يكن القصد من التأويل الذي كان يرمي إليه الصوفيون قلب الديانة الاسلامية وإقامة ديانة جديدة عوضها كما أراد ان يفعله القرامطة والاسماعيلية والمذاهب الغالية الاخرى، انما أرادوا تفسير النصوص الغامضة بما يقبله العقل والمنطق والفلسفة الشائعة في الاوساط المفكرة، قصدوا ذلك لمقابلة المذاهب المتطرفة، وإبطال مفعولها ضمن نطاق قواعد السنة فأعطوا للفلاسفة وللعلماء

والأذكياء طريقة التفكير العميق، والوجد والاستغراق والمراقبة والخلوة للوصول إلى مرتبة الكمال ومرتبة الاتصال والفناء في ذات الله فالوحدة... وأعطوا أفراد الناس طريقة الاذكار والأوراد والتسابيح والتهاليل وحلقات الذكر المتعبة المضنية لاشغال أفكارهم وأجسامهم، وأباحوا لهم نقر الدفوف لاستهوائهم واستغوائهم، فصادفت هذه الطريقة هوى في قلب كل عاطل واتخذها وسيلة للارتزاق فامتدت جذورها في طول البلاد الاسلامية وعرضها لرخص ثمنها.

ولا يزال الدراويش والمشائخ ماثلين أمام أعيننا، والزوايا والتكايا لا يخلو منها بلد اسلامي مملوء بالمتصوفين، ودستورهم العام الفقر والعطل والكسل والزهد ولبس المرقع والعباءة وإرسال الشعر وحمل الحربة وإظهار الحيل والخبل.

6 ـ ظهر من بين فلاسفة المتصوفة أدباء وعلماء وشعراء كابن عربي وأويس القرني وابن الفارض والشبلي والنابلسي وذي النون المصري والبسطامي وجنيد البغدادي والشعراني وشقيق البلخي والحلاج والغزالي وابراهيم بن ادهم وحسن البصري وابن الرومي ومعروف الكرخي وعبد الكريم الجيلي وجلال الدين الرومي ويحيى بن معاذ الرازي وسهل التستري وبشر الحافي وابي الحسين النوري ورابعة العدوية وابي سعيد ابن أبي الخير وداود الطائي وكثير غيرهم. كما وظهر من بينهم من اتخذ التصوف حرفة لنيل البلغة من العيش فكانوا طفيليين على هذه المائدة ولم يزالوا.

7 ـ **تعريف التصوف:** يقولون ان التصوف هو ذوق او نزعة روحية او خلجات وجدانية مبتنية على صفاء النفس توصل صاحبها إلى التجرد من الدنيا والحلول والاتحاد بالمحبوب، ولا يمكن الوصول اليه بالتعليم ولا يوصف بالألفاظ بل بالذوق والحال وتبدل الصفات والسلوك. ومن لم يتذوق أحوال الصوفية لا يفهم لهذه الاحوال معنى، وان اول مرحلة من مراحل التصوف الفقر ثم كثرة القراءات والأوراد والأدعية والاستغاثات والعزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة وتزكية النفس وتهذيب الاخلاق وتصفية القلب لذكر الله. وبهذه الطريقة يصل الشخص اولاً إلى درجة المريد فالزاهد فالناسك ثم إلى حظيرة التصوف فيكون أولاً مريداً ثم زاهداً ثم ناسكاً ثم بدلاً ثم بطلاً ثم قطباً ثم غوثاً.

ويقول آخرون منهم ان التصوف هو مذهب وحدة الوجود المبني على أساس التفكير الحر المقترن بصفاء النفس. أما الزهد والعبادة والحب والاخلاق والادب والشعر والذوق... فليست من جوهر مذهبهم الصوفي ولا هي قوائم نزعتهم الصوفية وان كانوا لا يتجرّدون منها بل يلابسونها.

8 ـ **القواعد الصوفية:** ترجع عقيدة فلاسفتهم وكبارهم (العارفين) في جوهرها إلى معرفة الحكمة الإلهية والمعرفة الخاصة بالذات الإلهية (تيوصوفيا Théosophie) وثم وحدة الوجود ووحدة الشهود. وما الشرائع الدينية عندهم الا لطلاب الجنة وللخائفين من النار فيطلبون الفناء في ذات الله للأنس به وبالظفر بالجنة الروحية. وحب الله عندهم كاف للوصول إلى الخلاص.

ومعنى المعرفة عندهم هي الإدراك لصفات الوحدانية التي امتاز بها الأولياء فرأوا الله بقلوبهم.

ومعنى المحبة عندهم مشاهدة الله بالقلب وفناء المحب في المحبوب ويقصدون بالفناء إرادة العبد في إرادة الله. ويحصل هذا بترك الهوى والشهوات ومنع النفس عن ميولها ورغباتها ومحو

الصفات وصرف القلب عن إدراك المحسوسات والتخلّق بالأخلاق الحميدة وخروج العبد من إرادته للدخول في إرادة خالقه والتأمل في الله حتى يفنى في الكلية اللانهائية فلا يشاهد شيئاً سواه. ولما يفنى عن نفسه وينغمس في نور معرفة الله وهو في حالة المحو، يصل مقام الاتحاد فيشاهد الحق والخلق معاً في آن واحد فتكون هويته هوية الوجود الكلي التي هي الله وهي مرتبة الجميع عندهم.

9 ـ ويزعم العارفون ان المعرفة بالذات الإلهية هي شيء يلقى في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية وإقبالها بالفكرة على المطلوب ويحتجون بذلك بقوله تعالى ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ وقوله تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا﴾ ومثل قوله تعالى ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ إلى اشباه ذلك. والمعرفة عندهم هي العلم الباطني المتولّد عن الكشف والشهود وفيه تظهر الحقائق للصوفي.

والعارفون هم الذين محيت رسومهم برسوم غيرهم وفنيت هويتهم بهوية غيرهم فيعبدون الله حق عبادته ويحبونه بجميع حواسهم وينصرفون إليه بقواهم كافة لا يطلبون بذلك غير الوصول إلى ذات الله. وان استغراقهم في المشاهدة قد يشغلهم عن التسبيح والعبادات بواسطة الألسن والجوارح فلم يبق قيمة للتسبيحات والعبادات بالنظر إلى حياة روحية باطنية لأن مقر الزهد هو القلب ومقر العبادات هي الصور والأشكال الخارجية ولا عبرة لها. وأنهم قد وصلوا إلى اليقين فسقطت عنهم التكاليف والعبادات ﴿واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين﴾ (الحجر)، وان أرواحهم قد انطلقت من القيود فلا تهمهم بعد ذلك الشرائع ولا تخصهم الأوامر والنواهي والمحلّلات والمحرمات إلا قليلاً. وربما ذهل العارف وغفل عن كل شيء فصدر عنه اخلال بالتكاليف الشرعية فلا يهتم لها لأن عذاب الآخرة عنده مجرّد تخويف ﴿وما نرسل بالآيات الا تخويفاً﴾ (الإسراء). فإذا كانت العبادات ضرورية في الحقيقة لكل المشائين على أقدامهم في الطريق، فإنها تفيض على حاجة أولئك الذين وصلوا خاتمة المطاف، وعند ذلك تسقط عنهم. يلوح لنا انها وضعت لمقابلة قواعد رجال الباطنية الذين لا يتقيدون بظاهر الشريعة.

وتحت هذه العقيدة يقول البعض منهم: لما كان الجسد المادي لا يتمشى مع ما في عالم الآخرة من الحياة الروحانية، فإن النعيم والعذاب من المجاز التمثيلي ـ على حد تعبيرهم ـ لا من الحقيقة.

10 ـ ولكل من العارفين «طريقة» خاصة للوصول إلى المعرفة. وقد يكتسب العارفون منهم المعرفة بالله بمجرّد الإنتساب إلى الطريقة أو بمجرّد اللحظة من الشيخ. ويحتم على الصوفي نسيان نفسه بل ونسيان نسيانه، ولا يبلغ الصوفي الكمال الا في اللحظة التي يفني فيها معرفته في العارف.

وأما الطرق العامة عندهم فهي أولاً التوبة والاستغفار والزهد في الدنيا والخشوع وعمل الخير والتوكل والتسليم لإرادة الله والاستغراق والحال والجذب ثم المجاهدة والمراقبة والخلوة والتوجه إلى الله والالتجاء إلى الله وترديد اسم الله والذكر والوجد ثم المشاهدة بالقلب وإدراك الحقائق فالمعرفة فالاتحاد بالحق. وعند الوصول إلى هذا الحد يتولى الله بواطنهم فتسقط عنهم التكاليف الدينية او قد يظهر منهم ما يخالف ظاهر الشرع فلا يبالون لأنهم يفضلون دائماً أعمال القلب على صور العبادات كما مرّ.

11 ـ وأما أهل الكشف من الصوفية، فهم في أسمى مرتبة الكمال يشاهدون الحقائق ببصيرتهم وبنور يقذفه الله في قلوبهم فيشهدون الله في كل شيء وفي أنفسهم وان لم تكن نظائر لله فهي شبيهة به، وتبلغ النفس سعادتها متى أحسّت بفنائها في الله. وعند هذا الحد لا خير ولا شر ولا طاعة ولا معصية فلا خوف من عقاب ولا رجاء ثواب.

والزهّاد وهم أقل مرتبة من العارفين بالله فهؤلاء يتركون لذائذ الدنيا وطيباتها تحت أمل الوصول إلى أحسن منها وإلى ثواب أخروي أطيب منها ويرجون ثواب الله في اليوم الآخر كأنهم يستبدلون خرقة صوف بجبة خز فلا فرق بينهم وبين العامة المتمسكين بالمحسوسات والرسوم الدينية الظاهرية. وفريق آخر يسمى العباد وهم المواظبون على العبادات بأنواعها وأشكالها عمال، يعملون لأجرة يأخذونها في الآخرة. وأهل التقوى أولئك الذين يعملون الطيبات. والأبدال المحدثون بآلاء الله وأهل الله، هم المطلعون على أسرار العالم الباطني وتأويل النصوص.

فكانت جميع الأعمال الصالحة التي يفعلها هؤلاء الزهّاد والعبّاد والأبرار الصالحون هي لقاء الجزاء الأخروي، وما هؤلاء في الحقيقة إلا اناس عاجزون عن النجاح في المعترك الإنساني راضون من الحياة بأحقر ما يمكن وبشظف العيش.

من المحقق ان الرياضة البدنية والعذاب الجسماني والجوع والسهر والخلوة.. لأجل الوصول إلى درجة العارفين هي فلسفة هندية برهمية مسيحية انتقلت إلى العالم الاسلامي بطريقة التصوّف الهندي والمسيحي، كما انتقل طرد الجان والشياطين والعفاريت والأرواح الشرّيرة والأدعية والبخور والطلاسم والتمائم والعزائم والسحر... ـ وجميعها من وظائف الشيوخ ـ من الكلدانيين إلى العالم المسيحي وثم إلي العالم الاسلامي. وهذا ما دعا الكثيرين من المستشرقين ان يعتبروا التصوف الاسلامي نسخة طبق الأصل للتصوف المسيحي.

12 ـ **الخواص من أهل الله:** اعتبروا القطب هو مدار العالم في سلمه وحربه وصناعته وتجارته، وما يحدث من حل وربط وخراب وعمران فصادر عن علمه وراجع إلى تدبيره، وأن الغوث هو الذي بيده تقاليد الأمور خيرها وشرها يغيث المستجيرين، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف عنه السوء. وان الولاية خاصة بأولئك الذين يتولاهم الله بعنايته ويعصمهم من المعصية فيشاهدون الله بقلوبهم فيكشف لهم ما لا يكشفه لغيرهم، وهم في حالة جذب دائمة لا يصحون من سكرهم الا وقت الصلاة ويحفظهم الله بعنايته من المعصية في حالة سكرهم. وان الولي هو الذي يصل إلى مقام الفناء عن ذاته وإرادته ويمكث بالإرادة الإلهية فترتفع بينهما الحجب فيصبح لا (أين) أي لا مكان له. وان الابدال والابطال هم الذين تتعدد صورهم في الوجود وروحهم واحدة والتكاليف الشرعية تتعلق بأي صورة أرادوها، وهولاء هم الخواص من أهل الله.

13 ـ وعندهم للصوفي ثلاث حالات: الاولى حالة الصحو وهي حالة الشعور والوعي ويشترك معهم فيها البشر كافة. والثانية حالة السكر وهي فقدان الوعي والشعور. والثالثة حالة الشهود وتسمى حالة الصحو الثانية وهي تعقب حالة السكر فيشعر الصوفي انه باتحاد مع الإله.

ومن أسس الصوفية «الحب». فقد تغنّى به المتصوفون كافة ولكل منهم ليلاه ونعماه. وكان

مشايخ الصوفية يظهرون الحب لكل ما هو جميل اينما تألق لعيونهم، ذلك الجمال الذي يحب لذاته ولأنه جميل ودائم الجمال وقد ملأ النفس غراماً وحبورا. فقالوا ان الله جميل يحب الجمال.

14 ـ ومن أسس الصوفية أيضاً الذوق والحال. فأما الذوق فيكون في معرفة الله وهو نور يقذفه الله في قلوب أوليائه وبه يفرّقون بين الحق والباطل دون التماس معلم او سماع كتاب. وقد أفسح هذا التعريف في المجال لكل جاهل ان يكون من رجال الصوفية طالما لا يطلب منه العلوم الدينية ولا معلم ولا سماع كتاب. وأما الحال فهو ما يولد في القلب من غير ما طلب أو رغبة. ولذلك يسمون أنفسهم «أهل القلوب» و«أهل الله».

ومن أسس الصوفية الثابتة أيضاً التجرّد والشك، وهي تجرّد الذات عن كل وهم وفكرة ومعتقد وتقليد، والتوجه بالكلّية إلى اليقين للوصول إلى الحقيقة بل الاتصال بالله. ولا يحصل اليقين الا بالشك والتدقيق والزهد عن الحاجات والفقر فيدخلون بالاعتكاف ويعتزلون العالم سنوات لترويض النفس حتى الوصول إلى أعلى الدرجات في المراتب الصوفية، اعني إلى اليقين الذي ينشدونه والحقيقة التي يبحثون عنها.

15 ـ واذا ما أراد قسم من فلاسفة الاسلام تخفيف ما اعترى الناس من هول يوم القيامة من حشر ونشر وحساب وكتاب ونعيم وعذاب وتخليص العامة من السقوط في هاوية المذاهب المتطرفة التي وضعت شفاعة الأئمة لمنتسبيهم في يوم القيامة بالدرجة الاولى من معتقداتهم، فوصلوا إلى وحدة الوجود والحلول تحت تأثير الفلسفة الهندية والفيثاغورية والافلاطونية. فقد أساء هؤلاء المتصوفة التبع والدراويش والمشايخ وأصحاب القباب والطرائق إلى هذه الفلسفة من حيث يدرون ولا يدرون واتخذوها حرفة فأوصلوها إلى حضيض الارتزاق.

ان هذه الكتلة من الناس تنقسم الى عدة أقسام: منهم فلاسفة روحانيون وهم أرباب وحدة الوجود، كانت لهم أهداف سرية ومرام معينة لم يطلع على كنهها الا الخواص منهم، ومنهم عبّاد حقيقيون وزهّاد خالصون تركوا الدنيا وما فيها لمن يريدها وتفرغوا للعبادات وللحب الالهي عن حسن نيّة، ومنهم من هو في بحبوحة من العيش يفضل موارد تكيّته وموقوفات زاويته وقد اتخذها وسيلة لتأمين العيش الهنيء، ومنهم المفاليس يلبسون المرقعات الملونة من رقع خضر وحمر وبيض وصفر، أو خرقة أو جلداً من جلود الغزال أو عباءة صوف غليظة فيرسل شعره حتى يختلط بلحيته ويتوشح بسبحة ألفية ويجلّل رأسه الأشعث الأغبر بقبعة هرمية طويلة فيدّعي كشف المغيبات وإظهار الكرامات، ومنهم من يتّخذها وسيلة للتدخل في أمر النساء، وآخرون يعلّمون الأحداث الاستهتار وشرب الحشيش، ومنهم من يفتح الفال ويضرب بالرمل.

لقد أصبحت الزوايا والتكايا والمعابد مأوى لكل متشرّد عاطل، مع ان عمر بن الخطاب كما هو معلوم كان قد طرد أمثال هؤلاء العاطلين عن العمل من الجامع فيما بين الصلاتين. وكان يقول لهم: «لا يقعدّن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني، فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضّة».

يقول الامام السيوطي: وأما هذا الزمان فكثير من يدّعي التصوف وليس عنده من شروطه شيء

ولا اتقن سنن رسول الله (ص) ولا عرفها، فضلاً عن ان يعمل بها، وانما يعمد إلى كتب صنّفها هؤلاء وهؤلاء فيأخذ منها ما اختاره ويقرّره. ولهذا ترى الواحد منهم عليه ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض لأنه لم تشرق عليه أنوار السنة ولا صفا باطنه حتى يستنير ظاهره فترى الجاهل منهم يدمدم ويدندن حول الوحدة المطلقة وحول قدم الروح ونحو ذلك... الخ.

16 ـ وبينما أهل السنة والجماعة كفّروا المعتزلة والفلاسفة، نظروا الى شيوخ الطرائق والمتصوفة بعين العطف والسماح رغم خروجهم على التقاليد الاسلامية ونقرهم الدف ونفخهم المزمار ورقصهم في حلقات الذكر، وما ذلك الا لاستنادهم الى ما ورد في القرآن الكريم من بعض العناصر الصوفية وقد تتوافق مع أهداف مختلفة، منها (نور 4 و35، حديد 3، بقرة 115، الاسراء 21، حجر 29، ق 15 و16). الا ان هذا التسامح سبّب بعد ذلك طغيان المتصوفين وثم تغلبهم حتى على رجال الشرع والدين فارتفعت القباب نحو السماء واتجه العالم الاسلامي بكليّته نحو المشائخ والطرائق والدروشات. وأصبح لشيخ القادرية والتاجية والسنوسية والدمرداشية والشاذلية والمولوية والرفاعية والبكتاشية والنقشبندية... وغيرهم من الشرق الى الغرب من المنزلة الرفيعة في قلوب اصحابهم ما لا يوجد مثله لأي صحابي من أصحاب سيد الرسل، أولئك الذين شيّدوا صرح الديانة الاسلامية بسواعدهم ودمائهم. وقد أورد الشعراني في كتابه طبقات الأولياء الكبرى اسماء كثيرة عن الاولياء والصلحاء والمجاذيب والشهداء.

17 ـ واعتقد الناس ان اولياء الله الذين لا خوف عليهم، هم هولاء الشيوخ والشهداء والاولياء وأنهم اصحاب الخوارق وخرق القواعد يتصرفون بالنواميس الطبيعية تصرف المالك فلا يمنعهم جدار ولا يصدهم حائل، يصعدون الى السماء ركضاً ويمشون على الماء هوناً يستقبلون الملائكة النازلة إليهم ويطاردون الشياطين المارة من حولهم، قد سقطت عنهم التكاليف، وارتفع بينهم الحجاب وأصبحوا من المقربين والشفعاء عند الله، بل من المتصرفين في أبواب الجنة والجحيم يُدخلون فيها من يشاؤون، شركاء لله في ملكه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. كل هذه المدعيات وذلك الإله العظيم يرد دعاء رسوله الكريم ويقول له ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فانهم ظالمون﴾ (آل عمران)، فلا نعلم كيف يكون لهؤلاء الشيوخ هذه السلطة الدينية وسيّد الرسل ليس له من الأمر شيء.

وأما الحجاب الذي يخطه الشيخ بيمينه فكان يحمي حامله من كل أذى سماوياً كان أو أرضياً يحتمل وقوعه. وكانت حجب احد الشيوخ المشهورين في شمال العراق تباع وتشرى لعهد قريب، يعتقد اللصوص وقطّاع الطرق انها تحميهم حتى من طلقات بنادق رجال الأمن.

18 ـ وفي كتاب الاحياء، ومنهاج العابدين، وفي كتب الاسيوطي والشعراني وغيرهم كثير من الموضوعات والقواعد الصوفية والتعبدات الدينية لا تقل ان لم تزد على مقالات ابن عربي في الاولياء والابدال والابطال ومشيهم على الماء وصعودهم الى السماء، وإزالة الجبال، وتسخير السباع، وملك مفاتيح الارض، والتصرف في قوانين الكون وقطع المسافات البعيدة بمدة وجيزة وانطواء الكون والزمان والمكان والوجاهة عند الله، وغير ذلك من المبالغات المفرطة والمدعيات الغالية كثير، نعتقد ان جميعها وضعت لمقابلة ما أسبغته الشيعة الغالية على أئمة أهل البيت.

ومن المبالغات الغريبة الغالية أيضاً ان احد شيوخ الطوائف الاسلامية الاخرى كان قد ادعى ان اسم الله الاعظم مكوّن من ثلاثة وسبعين حرفاً كان النبي سليمان يعرف منها حرفاً واحداً وبه صنع معجزاته. وعند الشيخ المدعي اثنان وسبعون حرفاً، وحرف واحد عند الله استأثر به في عالم الغيب وحده. فآمن بدعواه خلق كثير دون ان يطلب احد منهم البرهان على مدعاه والسبب في تستره من اعدائه ولماذا لم يستخرج بقوّة حرف واحد من حروف اسم الله الاعظم نافورة نفط من جوف الارض يغرق بها خصومه ومناوئيه. هذا مع العلم لم يرد لاسم الله الاعظم المزعوم ذكر لا في القرآن ولا في الاحاديث النبوية، ولعله انتقل من الاسرائيليات الى العالم الاسلامي. فقد دخل المعتقدات الاسلامية ما دخل من أنواع أمثال هذه المقولات والقواعد والاكاذيب ولم تزل متأصلة في عقول كثير من المسلمين في مشارق الارض ومغاربها.

19 ـ يقال ان في مصر 48 طريقة صوفية تتفرّع عن سبع طرق أساسية هي: الرفاعية والقادرية والشاذلية والاحمدية والنقشبندية والبيومية والدسوقية، وأتباعها يبلغون اربعة ملايين نسمة والرئيس الاعلى لهولاء جميعاً هو شيخ مشايخ الطرق الصوفية من بيت البكري منذ الفتح العثماني، وهو الذي يختار الآخرون في القطر المصري من أجل رجاله، ويكون تعيينه بمرسوم ملكي كريم تهبه الحكومة في كل سنة «كركاً» من جلد الفرو الثمين وعمامة. وفي ايران طرق كثيرة للتصوف منها الحلولية والاوجاغية والنعمة الالهية والكونباذية... ومن مراتب التصوف الايراني القلندرية والرندية... نضرب صفحاً عنها.

20 ـ واذا غضضنا النظر عن بضعة اشخاص من رجالهم الفلاسفة الذين وضعوا القواعد الصوفية لمقابلة المذاهب الغالية، وآخرون منهم ساقهم التعبّد عن حسن نيّة الى الصلاح فالزهد والتقوى، فهناك كتلات من البشر الكسالى لبسوا الخرق والمرقعات وسلكوا هذا الطريق السهل للتخلّص من الكد والعمل وتكاليف الحياة المضنية، فآثروا الكسل على الجد، والفقر على الغنى، والخمول على العمل، وجعلوا احتقار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة خلافاً لأحكام القرآن التي تشمل الحياة بأسرها في الدنيا والآخرة وبالنفس والجسد وبالفرد والمجتمع، وخلافاً للرسول الاعظم الذي فرّق في أقواله وأفعاله كافةً بين الحياة الروحية والحياة الدنيوية المادية، وهو القائل عليه السلام: «كاد الفقر يكون كفراً». وبما انهم فقراء بالعقل والمال وثقلاء بالحركة والنشاط فقد مدحوا الفقر ووضعوا وزوّروا كثيراً من الأحاديث عن سيد الرسل حول الفقر في قوله «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني مع المساكين»، وآخر «يدخل الجنة فقراء أمتي قبل الأغنياء بخمسمائة عام». وفي وعظهم الناس قالوا: «ان الفقر حلية نبيكم فاكتسوها والغنى حلية الطغيان فلا تلبسوها»، وقالوا: «ان الأرزاق مقدرة وعلى المؤمن ان يقنع ويرضى بما هو موعود به ويسلم بالقضاء والقدر بما هو مكتوب عليه من الأزل». فكان يجب على المؤمن الحقيقي عندهم ان يكون فقيراً مملقاً لا يملك داراً ولا كساء ولا كسوة، وحكموا ان من كان غنياً كان مصيره الى النار لتكوى بدنانيره جباهه وجنوبه.

ولم يسلم حتى الغزالي من الوقوع بهذا الخطأ فجاء في كتابه «الاحياء» بطريقة فلسفية وسطى فقال: ان الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك وان الغني المنفق أفضل من الفقير

الحريص، ثم عاد وقال: فأما الغني المتع بالمال فلا يتصور ان يفضل على الفقير القانع. وتركوا النص ﴿يأيها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد﴾ (فاطر)، مما يجعل الغنى فوق الفقر. وقوله تعالى ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾. وقول سيد الرسل: «التمسوا الرزق من خبايا الارض». وقوله: «اليد العليا خير من اليد السفلى»، فتركوا وأهملوا هذه كلها لصعوبتها وأخذوا من المسيحيات بالنظر لما جاء في انجيل متى عن لسان السيد المسيح قوله: «لا تهتموا قائلين ماذا نأكل او ماذا نشرب او ماذا نلبس» (6 ـ 31). وفي محل آخر أيضاً قوله: «لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون» (6 ـ 25). وأخذوا أيضاً من الصوفية المسيحية ما جاء في الأناجيل «لا يمكن للعبد ان يخدم سيدين: الله والمال»، فقالوا: «الله والدنيا لا يجتمعان في قلب واحد». فكانوا كالطفيليات يمتصون دماء غيرهم ليعيشوا. واذا ما اصاب احدهم عيشة هنية بفضل اغفاله البسطاء من الناس او بمرقد آبائه وأجداده فجاءته مختلف الايرادات والهبات من مختلف الجهات سكت عن مدح الفقر. ومن لم يساعده الحظ رضي بشظف العيش وكسرات الخبز يتظاهر بالزهد عن الدنيا ولذائذها ويظهر خلاف ما يضمر لأن اليد قصيرة والتمر عال.

21 ـ لقد ألّف الاستاذ زكي مبارك عن التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق كتاباً في مجلدين ضخمين وأورد فيهما نماذج طيبة من أدبهم وأخلاقهم. واذا ما انتقدهم مرة فقد حبّذ طريقتهم مرّات ومرّات فأيّد التذوق الروحي والخروج من العالم الجسماني للدخول في العالم الروحي والشعر والخيال والفناء في ذات الله، واعتبرها حالة روحية لا يعرفها ولا يتوصل إليها إلا العارفون بالله... الخ. كما وان هناك كتباً كثيرة حول التصوف للشعراني والطيباوي البشبيشي وفصلاً في مقدمة ابن خلدون وكتاب الفقر والزهد في إحياء العلوم للغزالي وغيرهم.



الفصل السابع الجزء الإلهي ووحدة الوجود

﴿وجعلوا له من عباده جزءاً. ان الانسان لكفور مبين﴾ (الزخرف)

1 ـ يدّعي القدماء ان أفراداً من البشر يحل فيهم جزء من الإله، فتكون لهم صفة من صفاته فيتألهون. ويدّعي آخرون وحدة الوجود الروحية ويقولون كل شيء في هذا الكون من المحسوسات والملموسات والقوى صادرة عن الله فلا وجود غير الله. فهو الكل في الكل في هذا الكون. ويدعي أرباب وحدة الوجود المادية ان الأساس في كل شيء في هذا الكون هو المادة. وأساس المادة الذرة. وأساس الذرة كهاربها أو دقائقها فكل شيء صادر عنها ولا جزء غيرها.

فكان لزاماً ان نأتي بمستندات كل فريق من هؤلاء المدعيين ثم نذكر رأينا في الجزء الإلهي ونبدأ بوحدة الوجود المادية أولاً لأهميتها.

يدّعي أرباب وحدة الوجود (مونيزم) القدماء ان الموجودات كلها من أصل واحد. ومن ذلك الواحد تفرّعت هذه الكائنات. وهذا الواحد هو الله. فكل شيء صادر عن الله. وان الأشياء جميعها واحدة في العقل، كثيرة في الحس. ويقولون لو كانت الأشياء وكيفياتها حقيقة على ما يبدو في الحس كالتراب والهواء والماء والنار (الاسطقسات) لوجب ان يبقى كل منها على حالته دون ان يعتوره التغير. فان حصول التغير والتبدل على الشيء لدليل على ان الجوهر شيء والشكل شيء آخر. اذ ان التغير يبطل ان يكون الشيء هو هو. ولهم حجج فلسفية في انتقاء الكثرة ليست من موضوعنا.

2 ـ كان البراهمة في الهند اول من وضع نظرية وحدة الوجود لاعتقادهم ظهور الكون من الإله براهما، لا بطريقة الخلقة ولا كعمل العامل في معمله، انما كظهور الشجرة من النواة والشبكة من العنكبوت. فكان براهما جوهر العالم الفرد وكانت الموجودات كافة ومن ضمنها الانسان تحمل جزءاً او جوهراً من براهما. فكان هذا الاعتقاد مبدأ وحدة الوجود وتناسخ الأرواح وانتشرت هذه العقيدة في ايران واليونان.

وكان قد تناول وحدة الوجود لأول مرة اكسانوفان الحكيم اليوناني، ووضع بارمنيديس تلميذه، قواعدها وأصولها. يقول ارسطو في كتابه ما بعد الطبيعة: ان اكسانوفان ألقى نظرة على المجموع وقال ان الأشياء كافة عالم واحد ودعي هذا العالم «زوس ـ الله». الا انه لم يبين توحيد هذا العالم بالصورة او بالمادة. وكان بارمنيدس يقول بامتناع حصول الوجود من العدم، والوجود واحد بالأصل، ولا يوجد خارج الوجود وجود آخر يمكن اكتسابه. فكان العالم وجوداً واحداً ليس فيه كثرة ولا يعتوره التغير والفساد. ويقول مليسوس الحكيم اليوناني لو كان الحار والبارد والماء والنار والذهب والحديد كما تبدو لنا، لوجب ان تبقى هذه على حالتها دون أن يمسّها التغير. فعندما نوقن ونعتقد بأن هذه المادة حارة، وقد تكون باردة، معنى ذلك ان الوجود اختفى وظهر اللاوجود، وهذه

معرفة حسّية كاذبة ترينا الوجود معرضاً للتغير، مع ان الحقيقة هي ان الوجود واحد في العالم كله وليس له بداية ولا نهاية. فهو لامتناه، وان اللامتناهي هو واحد اضطراراً. واذن فان الوجود واحد لامتناه وما هذه الموجودات والمحسوسات والصور والاشكال الا من أقسام العرضيات.

3 ـ ثم جاء ديموقريطس الحكيم اليوناني العظيم ووضع لأول مرة نظرية الذرة أو جزء الفرد او الجزء اللايتجزأ أو الجوهر الفرد atom وادعى ان الموجودات جميعها مكوّنة من الجواهر الفردية وتختلف الموجودات باختلاف الجواهر المؤلفة لها من حيث الشكل والمقدار والترتيب والوضع. وحتى النفس الانسانية مكوّنة من جواهر لطيفة ولم يستثن الآلهة، فقال انها مكوّنة من جواهر ألطف وأدق وتابعة للفساد بعد الكون. ولقد اثبت العلم القسم المهم من نظرية ديموقريطس الذرّية، وهي نظرية علمية فنية لم يسبق لأحد من البشر ان تنبأ بمثلها. هذا، مع العلم ان العلماء لم يتمكنوا لحد الآن بوسائطهم من مشاهدة الذرة انما تمكنوا من تحليلها واستخدام الطاقة الكامنة فيها كما سيأتي.

4 ـ وكان فلاسفة الاغريق القدماء كما هو معلوم يدّعون ـ ولعلهم أخذوها عن الكلدانيين والسومريين ـ ان العناصر الأساسية المكوّنة لهذا العالم أربعة: التراب والماء والهواء والنار، وان اختلاف الأشكال والصور في الكون يتوقف على اختلاف نسب هذه العناصر. ثم تطورت الفكرة وظهر بجانبها: حرارة وبرودة ورطوبة وجفاف. وسادت هذه النظريات حتى بزوغ شمس العلوم في الأزمنة المتأخرة فتناولها العلماء الاوروبيون (لا فوازييه ورفقاؤه) وافترضوا بان العناصر هي المادة التي لا يمكن تحليلها إلى ما هو أبسط منها بأي وسيلة كانت معروفة. وقادهم هذا الافتراض إلى ان كل مادة في الكون هي عناصر ما لم يمكن تحليلها وإرجاعها إلى أبسط منها تركيباً. وبهذا بلغ عدد العناصر المكتشفة في زماننا هذا ثلاثة وتسعين عنصراً منها الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والنيكل والحديد والمانغانز والذهب والفضة والراديوم والاورانيوم... وغيره.

5 ـ وأطلق المتأخرون على نظرية ديموقريطس المارة الذكر «الفكرة الذرية». وخلاصتها بأن كل مادة تتألف من أجزاء صغيرة متناهية في الصغر وان صفات المادة وخواصها ترجع إلى شكل هذه الاجزاء وحجمها وحركتها. ودامت هذه النظرية حتى النهضة العلمية الحديثة باعتبار ان كل مادة تتكوّن من اجزاء صغيرة متناهية في الصغر لا تقبل التجزئة والانقسام وقد سمّيت هذه الاجزاء ذرات (أتوم).

وفي زماننا تطورت هذه النظرية الذرية إلى ان الذرة التي تتكوّن منها المواد تتألف هي ايضاً من أجزاء وجسيمات أصغر منها بكثير، وهذه الاجزاء هي الذريرة او النواة التي تكون في وسط الذرة (وهي أشبه شيء بالقسم الأصغر من البيضة). وتتكوّن النواة من وحدات بنائية قسم منها موجبة الشحنة تسمى (بروتون) وبعضها متعادل التكهرب وتسمى نيوترونات. وسميت الاجزاء الاخرى التي تدور حول النواة الكترون وتعريبها الكهارب أو الدقائق وهي تحمل شحنة سالبة. فيكون قد حصل تعادل بين الدقائق الموجبة والسالبة في كيان الذرة. وأما الكهارب المذكورة فهي تدور حول الذريرة وفي أفلاك معيّنة حيث أصبح يطلقون عليها الذرة الفلكية لتشابهها مع المجموعة الشمسية. فالذريرة بمثابة الشمس والالكترونات بمثابة السيارات التي تدور حول الشمس. والنسبة بين الفراغ الذي تشغله النواة ومحتوياتها وبين الشمس ومنظومتها تقريباً واحدة. ويستنتجون من هذا ان حركة المادة

هي واحدة في المنظومة الشمسية وفي العالم الذري (نظرية بوهر). ويختلف تركيب النواة في العناصر الأساسية المختلفة. فنواة الحديد تتألف من 26 بروتونا و30 نيوترونا بخلاف ذرة الذهب التي تتألف نواتها من 79 بروتونا و118نيوترونا. هكذا لكل عنصر ترتيب خاص. وقد تصبح البروتونات والنيوترونات قلقة غير مستقرة فيحصل فيها الإشعاع كما هو الحال في عنصر الراديوم وتتألف نواتها من 88 بورتونا و138 نيوترونا فيقذف إشعاعات يفقد بسببها من وزنه كثيراً فيتحول إلى الرصاص. وقد ثبت انه يفقد نصف وزنه خلال 1730 سنة. ومن الصعب جداً تفكيك أجزاء الذرة لتماسك أجزائها بشدّة مع بعضها. وعند تفكيكها، يقول العلماء، قد ينطلق مقدار عظيم من الطاقة الكامنة فيها من عقالها. وهذه الطاقة المخزونة والكامنة في قلب الذرة هي غير الطاقة الحاصلة من احتراق الذرة أو تفاعلاتها الكيميائية (الفحم، النفط). فبينما قد تعطي الطاقة الاحتراقية مقداراً معيناً من الحرارة بالتفاعل مع الأوكسيجين فتولّد ثاني اكسيد الكاربون، فان الطاقة الذرية الكامنة في غرام واحد من البترول مثلاً قد تنسف أساطيل بريطانيا البحرية. فكانوا يسعون إلى طريقة يمزقون بها جدران الذرة وأجزاءها للحصول على الطاقة الذرية الكامنة فيها بأقل كلفة واستخدامها لمآربهم الخاصة.

6 ـ وكان الماديون القدماء يدّعون ان لكل ذرة أو مادة في الكون خصائصها الثابتة لا تتغيّر بأي حالة من الاحوال. فان ذرة الحديد والفوسفور والاوكسجين... الخ، هي هي في كل زمان ومكان، وان خواص ذرة الحديد التي تجول في دم أي شخص لا فرق بينها كيمائياً وذرة الحديد التي في المسمار مثلاً. وان ذرة من الذرات المادية بعد ان تترقرق في وجنة غادة حسناء قد تنصب عرقاً من جبين حمّال، وقد تدخل في جسم احد الحيوانات وتستقر مدة في النباتات وأخرى في الأرض، وهي كما هي كيمائياً، وان جميع المواد المكوّنة للجسم ثابتة لم تتغير بالأصل الا ما كان بالشكل، وان كل ذرة من هذه المواد لها أوصافها وتعاملاتها وقوّتها. ويقولون: لا يمكن لأي فرد أن ينزع من الفسفور خواصه ولا يمكن لأي فرد ان يجعل ذرة النتروجين مشتعلة.

7 ـ أما الماديون المحدثون فقد شاهدوا ان بعض العناصر لها قابلية الاشعاع الذاتي وتسمى «العناصر المشعة». وهي تتحطم باستمرار من تلقاء نفسها عند إشعاعها تحطماً طبيعياً منظماً فتفقد كل ذرة قسماً من الوحدات التي تتألف منها وهي البروتونات والالكترونات وغيرها. ويصدر اثناء التحطيم أشعة ألف، وأشعة بيتا، وأشعة جاما، فتتحوّل إلى عنصر غير العنصر الأصلي. مثال ذلك اليورانيوم والراديوم والثوريوم والبلوتوريوم والعناصر المشعّة منها بنتيجة الإشعاع الذاتي. وكلّما كان الاشعاع ضعيفاً كان التحطيم بطيئاً. فعنصر اليورانيوم يحتاج إلى ملايين السنين لكي يكمل تحطيمه نهائياً فينقلب إلى الرصاص. فأصبحت العناصر بالنظر للنظرية الذرية الحديثة يختلف بعضها عن بعض بسبب الاختلاف في عدد الوحدات التي تتكوّن منها.

ان الذرات والجزئيات التي تتألف منها مختلف المواد هي في حركة مستمرة من دون ان يعتورها التوقف والعطل، سواء كانت المادة صلبة او سائلة او غازية. وتختلف سرعة حركة الجزئيات باختلاف حالة المادة. ففي حالة الصلابة تكون حركة الجزئيات فيها أبطأ، كما انها أشد تقارباً من بعضها

بالنسبة لحالة السيولة. وفي حالة السيولة تكون الجزئيات أسرع وأبعد عن بعضها بالنسبة لحالة الصلابة. وأما في الحالة الغازية فتكون متباعدة جداً وأشد سرعة.

يستنتج من ذلك ان في كل مادة طاقة حركية قد تتحول إلى أنواع أخرى من الطاقة فتظهر في صور مختلفة، منها الحرارة والضياء والكهربية... الخ. وفي أنواع الطاقة هذه تجد أنواع القوى التي نشاهدها كل يوم.

8 ـ يرجع الفضل إلى اللورد روذرفورد في اقتحام مركبات الذرة. فكان هذا العالم اكتشف بوسائل علمية ناجحة بين جدران مختبره عالماً أكبر من العالم المحسوس، هو عالم الذرة اللامرئي. ذلك هو التركيب الداخلي للذرة. فبينما كان يظن ان الذرة هي جسم صلب لها أبعادها (ولو كان ذلك نظرياً) وان الطاقة ما هي الا اهتزازات منبثقة من المادة، والمادة باقية على حالتها لا يمكن استحالتها نهائياً إلى طاقة، فقد أثبت في بعض عناصر معينة تحوّل بعض الاجزاء من المادة إلى نوع من الاشعة فتختفي المادة نهائياً او على الاقل يتناقص وزنها من انبعاث الطاقة المتمادي. وبعد ان تم اكتشاف 93 مادة أساسية في هذا الكون ـ وتسمى العناصر الأساسية ـ علم ان لكل منها تركيبها الخاص من حيث البروتونات والنيوترونات والالكترونات. فقد شاهد اللورد روذرفورد ان العناصر التي تعرف باسم «العناصر الراديومية» تشع باستمرار، وذلك بانفجار ذراتها فيتسرب منها اشعة خاصة، وان هذه الاشعة تتحول إلى ذرات جديدة بعناصر أقل وزناً من العنصر الاصلي. فكان التحول خاصة بالعناصر الراديومية الفعّالة من عنصر إلى آخر واقع في الطبيعة باستمرار، خلافاً لما كان يعتقد باستحالة تغير العناصر الأساسية.

وبعد ان تم له هذا الاكتشاف اكتشف ان ذرات المواد الاخرى ايضاً قد تنفجر وتعطي أشعة من الطاقة ثم تتكاثف وتنقلب إلى ذرات جديدة. فقد جزأ خلال سنة 1919 العنصر المسمى نيتروجين وحوّله إلى الاوكسجين والهيدروجين وذلك بإطلاقه دقائق الفاعلية. وبهذا الفتح العلمي العظيم اصبح من الممكن ـ ولو نظرياً ـ استحصال الذهب من الحديد.

ثم ولج اللورد في داخل الذرة وشاهد انها ليست كرة صلبة دقيقة كما كان يظن سابقاً انما هي مجموعة من الجزئيات الكهربية (الكهارب) او ما تسمى الالكترونات، وهي متناهية في الدقة، تدور بسرعة هائلة في حيز فارغ حول مركز أكبر نسبياً من تلك الجزئيات، وهذه هي نواة الذرة. فقد تسبح هذه الجزئيات في ذلك الفراغ حول تلك النواة في داخل الذرة.

9 ـ وبالاجمال، فان الذرة مكوّنة من ذريرة او نواة كثيفة، شحنة كهربيتها موجبة، وتسمى دقائقها بروتون. وفي المنطقة التي حول النواة فراغ تسبح فيه شحنات كهارب سلبية تسمى الكترون او كهارب كثافتها خفيفة نسبياً. وقد توازنت هذه الشحنات الايجابية والسلبية ضمن الذرة، عدّل الايجابي منها السلبي. وفيها دقائق اخرى تسمى نيوترون وهي متعادلة كهربياً أي لا سلبية ولا ايجابية فلا شحنة لها.

تمكن كوروفت من تمزيق هيكل النواة بتوجيه بعض الاشعة والبروتونات والقذائف عليها، خاصة اشعة ألفا التي تصدر من الراديوم ونواة الايدروجين الثقيل فشرعت تصطدم الواحدة بالاخرى وتتمزق فتنتشر منها الدقائق.

فكأن الكائنات جماداً ونباتاً وحيواناً مكوّنة من جزئيات عنصر الماء وهو الايدروجين. وبهذا ظهر ان حرارة الشمس والنجوم والسدم ما هي الا من تمزق الذرات واحتراق الايدروجين فيتكوّن على الاثر غاز الهليوم. وكان قد اكتشف هذا الغاز بالشمس قبل العثور عليه في الأرض.

10 ـ وقد استبشر الناس بالحصول على طاقة لا تنفد من هذا التحليل والتحطيم، فيقول العلماء إن القوة اللازمة لهذا التحطيم لا تقل عن هذه القوة ان لم تزدها وهي جارية في الحالة الطبيعية في الشمس، تحت تأثير ملايين الفولطات من التيار الكهربي تنبعث الطاقة العظيمة منها باستمرار منذ ملايين السنين وإلى ملايين السنين. وهذا هو السبب باستمرارها وعدم نفادها. فلو كانت الحرارة الصادرة من الشمس متولدة من احتراق الذرات او تفاعلاتها الكيمائية لنفدت طاقة الشمس منذ زمن بعيد؛ الا ان مصدر الطاقة الحاصلة في الشمس هو من تحطيم ذرات العناصر الموجودة فيها تحت تأثير ملايين الفولطات الكهربية فتبعث الطاقة المخزونة في الذرات باستمرار. ولما كان هذا التحطيم قد يخص جزءاً يسيراً من مادة الشمس بالنسبة إلى حجمها فان جرمها لا يتضاءل الا قليلاً جداً.

وقد نجح الامريكيون بتحطيم بعض ذرات اليورانيوم (1000-1) بعد ان صرفوا مئات الملايين من الدولارات فتمكنوا من صنع القنبلة الذرية. وعندما يتوسّع العلماء في هذا الموضوع ويصرفون في بناء او تحطيم العناصر بزيادة او تنقيص كهرب من كهاربه، يتمكنون حينئذ من تبديل النحاس ذهباً.

وبعد ان تم تحطيم بناء الذرة ظهر جلياً انها مكوّنة من دقائق كهربية موجبة وسالبة ومعتدلة، وان هذه الذرة هي المادة الأساسية في بناء هذا الكون. ولا يغربن عن البال ان العلماء لم يشاهدوا الذرة ولا يمكن ان يشاهدوها بالوسائط الفنية الحاضرة لصغر حجمها. فان اصغر ميكروب لا يرى الا بأعظم ميكروسكوب مكوّن من مائة مليون ذرة. إذاً، فالدقائق الكهربية هي الجزء الأساسي في بناء الكائنات ويجب ان تكون الكهربية المحور الاصلي الذي تدور عليه وحدة الوجود المادية.

11 ـ وثبت لدى العلماء ان في صخور الأرض ايضاً عناصر مشعة بمقادير عظيمة قد تطلق إشعاعات تمزق بعض ذرات الغازات التي يتركّب منها الهواء فتجلعه موصلاً للكهربية، ما يجعل الطبقات الهوائية القريبة من الأرض أقوى موصلاً للكهربائية منه في الطبقات العليا. فقد شاهد العالم «هيس» توقف ايصال الغازات الكهربية عند غطسها بالماء مئة قدم تحت سطح البحر حيث لا تؤثر الأشعة هناك وتكون موصلاً رديئاً فيما بعد 12 ألف قدم من طبقات الجو.

ان اكتشافات العناصر المشعة قلب النظريات العلمية رأساً على عقب وثبت ان الاشعاع ما هو الا مظهر من مظاهر الاضطراب وعدم السكون والاستقرار في اجزاء الذرة فتنفجر الذرة، فتنطلق كهارب، منها الكبيرة وتسمى ألفا والصغيرة بيتا. والذرة الباقية تختلف عن الذرة السابقة بأوصافها وخواصها الكيماوية والطبيعية. فان عنصري الثوريوم والاورانيوم يتحوّلان تحت تأثير الانفجار والانطلاق إلى عنصر الراديوم. وهذا ايضاً يشع فيتحوّل إلى رصاص. واذا كانت عملية الاشعاع هذه جارية بالطبيعة فهي بحاجة إلى مئات آلاف بل ملايين السنين لحصول التبدّل.

وأما العناصر الاخرى كالفلزات، فان اشعاعها غير محسوس. ولطالما تناول العلماء هذه الطريقة

ونجحوا مبدئياً في قسم منها. فلا بد أنهم واصلون إلى هدفهم الاعلى وهو اكتشاف سر الكون واستخدامهم القوى الطبيعية واستغلالها لمنفعة البشر.

12 ـ وشاهد العلماء بعد ان تضعف قوّة الأشعة في الطبقات العليا من الهواء (12 ألف قدم) أنها تعود وتقوى مرة ثانية عند الوصول إلى 13 ألف قدم وما فوق، فعمد بعضهم إلى ارسال مناطيد إلى 16 ألف قدم تحمل آلات وأدوات آلية لتدوين الأشعة. وثبت وجود نوع من الأشعة، عظيمة الطاقة قوية النفوذ تفوق أشعة اكس وأشعة الراديوم قادمة من الفضاء السحيق ولعلها من الشمس وسميت هذ «الأشعة الكونية» ولا تعلم فوائدها بعد.

الا ان أحدث رأي فيها هو انها كهارب (الكترونات) تنطلق من الشمس بسرعة الضوء، وعندما تقترب من الارض تنجذب بفعلها المغناطيسي وتتجمع أقواساً، وعندما تدخل منطقة الهواء تحلل ذراته. وهذا هو السبب في ظهور الضوء القطبي. وما الحرارة التي نحسّ بوجودها في الشمس الا تموجات أشعة ما وراء الحمراء تصلنا سوية مع أمواج النور. وهذه الدقائق الكهربية المنبعثة من الشمس تقطع مسافة قدرها 186,000 ميل بالثانية، وان حصة الأرض من هذه الطاقة الكهربائية الصادرة من الشمس هي بمثابة واحد من 2300 مليون جزء يشع في جوانب الشمس إلى الفضاء السحيق.

يظهر من هذا كله ان الأساس في هذا الكون هو الدقائق الكهربية وقد تتجلى بأشكال وصور مختلفة (ذهب، صخور، ماء...) تبعاً لظروفها وبصفات وخواص متباينة مع ان الاصل فيه واحد.

13 ـ ان هذه المطالعات العلمية المستندة إلى التجربة والمشاهدة والتحقيق والبرهان، قد أفادت البشر فائدة عظمى، فأعطته المراسلات اللاسلكية والتلفزة والراديو وغيرها. ويشتغل العلماء الآن على نقل الطاقة الكهربية لاسلكياً من محطات عظيمة تؤسس في أماكن معينة فتلتقط أمواجها آلات خاصة وتستعمل بالإضاءة وتسيير السيارات وتدوير مكائن المعامل وحاجات الانسان كافة.

يقول أصحاب نظرية وحدة الوجود المادية انه لا يجب تحري وحدة الوجود في قواعد الفيزياء والكيمياء بين المادة والطاقة بل بين الكهارب السالبة (الالكترون) والموجبة (البروتون). فهي الأساس في بناء الكائنات وهناك توجد أسرار الكون، وان التي أوجدت القوة الفكرية والذهنية والروحية بالبشر هي ايضاً تلك القوى المادية نفسها.

14 ـ انا لنكتفي بهذا القدر من وحدة الوجود المادية، ولننتقل الى الوحدة الروحية لنرى ما يقول الروحانيون. فاذا كانت مسألة وحدة الوجود المادية قد شغلت بال كثير من الفلاسفة منذ الاغريق حتى يومنا هذا، كما سبق بيانه، ويرجعون العناصر الطبيعية وهذا الوجود بأجمعه الى عنصر واحد ومبدأ واحد وأصل واحد وهو ما يسمى سابقاً بالجزء الفرد وفي زماننا بالالكترون او الكهرب، فان القسم الثاني وهم فلاسفة الصوفية الروحانيون يطلبون الوحدة بالمعنى الديني. بمعنى ان العالم هو الله الواحد، وان تعدّدت الصور والأشكال فما هي الا مظاهر مختلفة لوحدته. وعلى هذه الطريقة سلك اكثر صوفيي الاسلام والمسيحيين.

واذا كانت طريقة ارباب علماء الطبيعة الماديين مبنية على الفكر والدرس والبحث والاختبار

والتجربة، وهي لا تخرج عن نطاق المادة، فان طريقة رجال الصوفية الروحانيين هي وجدانية تفكيرية مقترنة بصفاء النفس الانسانية وكلاهما يلتقي في مذهب وحدة الوجود.

ان التطورات العلمية الحديثة قد وجّهت رجال العلم والمادة وجهة ابتعدت فيها كثيراً عن الوجهة الروحية والدينية، فحصلت بينهما فجوة سحيقة. والسبب في ذلك نفرة رجال الصوفية والدينية من التقرب الى العلم الحديث وابتعاد رجال العلم الحديث من التقرّب الى الوجهة الروحية. ولو كان الطرفان كما يعتقدانه قد اعتبرا ان العالم وحدة في الوجود وأن التطور في الحياة من جملة سنن الخالق الموضوعة لهذه العوالم، تلك السنن المقررة الثابتة التي ليس لها تبديل ولا تحوّل، لم يبق الا وسائل التعرّف إلى تلك السنن وهي التي قد يكتشفها العلماء الطبيعيون. وبهذا التقارب يمكن سد الفجوة الحالية التي تفصل بين رجال العلم والدين.

وينقسم رجال الصوفية الى قسمين، قسم منهم العباد والزهاد، والمشعوذون حاملو الدبابيس وضاربو الدفوف وأهل الخانقات والتكايا والدراويش... وقد ذكرنا شيئاً عنهم في فصل سابق من كتابنا هذا، والقسم الآخر الفلاسفة وهم أرباب وحدة الوجود. ونخصّهم بالذكر في موضوعنا هذا.

15 ـ ان فلاسفة الصوفية القائلين بوحدة الوجود الروحية يختلفون في تصويرها الى فريقين، احدهما يرى الله روحاً عامة تلبست المادة، والمادة جسم لذلك الروح. فان الله بنظرهم كل شيء وفي كل مكان لا تخلو منه ذرة في طول هذا الكون وعرضه. والفريق الآخر يرى ان لا حقيقة للموجود والاشياء المحسوسة والملموسة في هذا الكون، فكلها وهم وخيال. والحقيقة هي ان لا موجود غير الله فكل شيء وكل ذرة هي الله مباشرة وان التعدد في الاشياء لا يستوجب تعدد الله.

فقد قضت وحدة الوجود عند جميع رجال الصوفية وعلى اختلاف آرائهم ومشاربهم بأن كل ذرة في هذا الكون محمولة بجزء من الوحدة الإلهية. وفي زماننا عندما اكتشفت الاشعة الكونية واللاسلكية، وما وراء البنفسجية وغيره، واقتحم رجال العلم قلب الذرة واطلعوا على دقائقها وكهاربها، ظهر لهم ان كل ذرة محمولة بجزء من الوحدة الكهربية وأن الكهربية هي الاصل في بناء هذه الكائنات ومنها انبثقت الصور والاشكال، فالتقى الفلاسفة مع رجال الصوفية في هذه المرحلة وجهاً لوجه وألقوا عصا ترحالهم.

16 ـ اتخذ بعض فلاسفة الصوفية وحدة الوجود أساساً لعقيدتهم من الطريقة الروحية. فعند بعضهم ان كل ما هو محسوس ومعقول يُرد الى مركز واحد وهو الله. وعند الآخرين، هم الذين تركوا الدنيا وما فيها وتفانوا في الله وقالوا لا يوجد في الكون الا شيء واحد فقط وهو الله، فقالوا ان لا موجود غير الله، وهو الكلام الذي يستنتج منه التوحيد بين ذات الله والعالم. يقول ابن عربي: «وفي كل شيء له آية تدل على انه عينه». ويقول ابن الفارض:

مـا للنـوى ذنـب ومـن أهـوى معـي ... ان غـاب عـن انسـان عينـي فهو فـي

ويقول أيضاً:

وفي الصحو بعد المحو لم اك غيرها ... وذاتـي بذاتـي اذ تجـلّـت تحـلّـت
ومـا زلـت ايـاهـا وإيـاي لم تـزل ... ولا فـرق بـل ذاتـي لـذاتـي احـبـت

وأمثالها كثير وكلها ترمي الى الوحدة.

ويقولون ان العالم ليس له وجود من ذاته، فحكمه حكم العدم لأنه قائم بالله لا بنفسه، وانما هذا العالم مظاهر مختلفة الصور والاشكال لذاته مما يعبّرون عنها بالتعينات في كلامهم، وهي قائمة بالوجود الكلي وهو الله.

ولما كان الله هو المضل وهو الهادي، فلذلك كانت الافعال خيراً كانت ام شراً، طاعة أم عصياناً، عبادة ام فجوراً، تعود أليه ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾. فكان كل ما يقع في الكون من الأفعال والحادثات هو فعل من أفعال الله تعالى ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ (96 ـ الصافات)، وهو حق وعدل. واذا كان كل شيء من خلق الله تعالى وهو حق وعدل فلا يوجد في الكون والحالة هذه ما يسمى باطلاً، وان كلمة باطل محال وممتنع الوقوع لا وجود له في الكون ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾. ومن هذا المبدأ تتساوى عندهم المتضادات من طاعة وعصيان، وخير وشر، وحسن وقبح، وعفاف، وخنا، وضلال وهدى باعتبار انها بمجموعها من أفعال الله تعالى لا من أفعال الانسان. ويقولون ان الخير والشر مثلاً هما بالنسبة إلينا وتبعاً للزمان والمكان والأحوال والأشخاص. وقد يكون الخير عند البعض شراً والعكس بالعكس (مصائب قوم عند قوم فوائد) فكانت الأفعال والحوادث والموجودات كلها عدلاً وحقاً. فلذلك قال محيي الدين بن عربي: ان وحدة الوجود لا يدركها الا من ادرك اجتماع الضدين.

واذا كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الالهية وبفعل الله في كل شيء، فيقول الصوفيون بوحدة كل شيء في العالم وبوجود الله في كل شيء. فكانت تسبيحاتهم «ما يعرف الله الا الله». وأما المحسوسات والعالم بأجمعه فيعتبرونها فعلاً من أفعال الله.

وهناك فريق من المتصوفة من أرباب وحدة الوجود الروحية في طليعتهم محيي الدين بن عربي وعمر بن الفارض وعبد الكريم الجيلي والرصافي وغيرهم، ويقول آخر:

انـــا مـــا اهـــوى ومـــن اهـــوى أنـــا ... نـحـــن روحـــان حـــلـــلـــنـــا بـدنـــا
فـــاذا ابـصـــرتـــنـــي ابـصـــرتـــه ... فـــاذا ابـصـــرتـــه ابـصـــرتـــنـــا

ويقول ابن الفارض ايضاً في خمريته: وقد وقع التفريق والكل واحد...

ويلاحظ مما سبق ذكره ان رجال الصوفية وضعوا فكرة وحدة الوجود الروحية وحلول الاجزاء الالهية في الاشخاص البشرية لمقابلة الشيعة الغالية في اعتقادهم بحلول الجزء الالهي بعلي بن ابي طالب وأحفاده من بعده فجعلوها عامة شاملة للبشر كافة.

واقترب بعض الصوفية من صفات التشبيه اكثر من اقترابهم الى صفات التنزيه، وذلك لاعتقادهم بالوحدة ـ خلافاً للمعتزلة الذين تمسكوا بالتنزيه الى اقصى حدوده ـ وأوّلوا آيات التشبيه. فان البعض من الصوفية لا يفرق بين «الحق والخلق» وعندهم ان الحق (الله) نظر في الازل فأخرج صورة من نفسه وجعلها الخلق (آدم). وما الكثرة الظاهرة الا مظاهر وتعيينات. فان الظاهر هو الخلق وكل المحدثات. والباطن هو الحق والحقيقة الوجودية واحدة في الاصل. وهذا دعا الحلاج ان يقول «انا الحق»، وعمر ابن الفارض «انا هي»، وأبو زيد البسطامي «سبحاني ما أعظم شأني». وبهذا المعنى يصلون الى الاتحاد ووحدة الوجود. ويقولون ان الوجود المحض لا اسم ولا وصف له.

فعندما يُقترب من عالم الظواهر تظهر الاسماء والصفات. فان الخلق مظهر لصورة الحق (خلق الله الانسان على صورة الرحمن). وهذا معناه ان وجود العالم وجوده عينه، فكان الحق والخلق شيئاً واحداً، فلذلك كان منهم من يقول في تسبيحاته او في حلقات الذكر «لا هو الا هو» ويقصدون لا احد في الكون الا «هو». ومنهم من يقول ان الكون والعالم ما هو الا موجودات جزئية قائمة بالوجود الكلي كأمواج البحر لا وجود لها في الحقيقة غير الماء، تقبل هذه الموجودات الصور والأشكال ولا تلبث ان ترجع الى المجموعة الكلية، أو هي مظاهر صوتية تدل على المعنى، والمعنى هو الوجود الكلي. وكذلك المخلوقات ليست الا موجودات جزئية ومظاهر للوجود الكلي، والانسان أكمل مظهر جزئي من مظاهر الوجود الكلي لاكتسابه العقل والارادة، والبشر متفاوتون في تعيناتهم ودرجاتهم. فيقولون عن محمد (ص) مثلاً انه مظهر جزئي للانسان الكامل. ويقول ابن عربي عنه: انه حادث وقديم جعله الله عمداً، أقام عليه قبة الوجود. ويفسر ذلك معروف الرصافي بقوله: ان الحادث منه مظهره الجزئي والقديم منه الوجود الكلي كسائر الموجودات. فان الكائنات بأجمعها وكل ذرة من ذراتها عندهم هي جزء من حقيقة ابدية وكلية أزلية. تلك هي حقيقة واجب الوجود. فيرون ان شوقاً يتمثل في حنين الجزء الى الكل او العاشق الى المعشوق فوصلوا الى التوحيد بين ذات الله وذات الانسان وهو مقام الجمع عندهم. يقول ابن الفارض في تائيته:

ما كان لي صلّى سواي ولم تكن صلاتي لغيري

ويقول عبد الكريم الجيلي (767 ـ 814) وهو احد ائمة المتصوفة وصاحب كتاب «الانسان الكامل»: ان مظهر تعدد الاديان يعود الى تعدد الصفات الإلهية، وان المسيحيين أخطأوا في تحديد تجسّد الشخصية الإلهية في شخصية السيد المسيح وحده، بينما يقول الله تعالى ﴿ونفخت فيه من روحي﴾. ويقول الجنيد: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربّه ناظر إليه بقلبه فانكشف له الجبار من أستار غيبه فان تكلّم فبالله وان نطق فمن الله وان تحرّك فبأمر الله وان سكن فمع الله وهو بالله ومع الله. ويقول الحلاج:

يا سرّ سرّ يدقّ حتى يخفى على وهم كل حيّ
وظاهراً باطناً تجلّى لكل شيء بكل شيّ
يا جملة الكل لست غيري فما اعتذاري اذاً اليّ

«لا انت الا انت» وهؤلاء لا يسمون الله بصيغة الغائب وهو موجود وحاضر في كل مكان، ومنهم يقول «لا انا الا انا» وهؤلاء يعتبرون التفريق بالانيّة إقراراً بوجود الثنائية، وهو عندهم شرك. والمتقدمون في الوحدة منهم يعتبرون «انا، انت، هو» في عالم الوجود الكلي واحد.

وقد دافع الحلاج عن ابليس الذي اعتبر السجود لغير الله شركاً، معتبراً السجود لا يكون إلا لله وحده. ويقول ان خرق الأمر كان مقدّراً على ابليس منذ الأزل وقضت مشيئة الله ان يعصي أمره فأطاع المشيئة الإلهية فكان عصيانه أهون عليه، ولو كان قد سجد لأبطل المشيئة الإلهية الأزلية من السجود لغير الله ومن إبطال مشيئة الله. ويقول الحلاج: حسناً فعل ابليس اذ عصى ربه وثبت على مبدأه التوحيدي وما رجع عن دعواه. فهو افضل مخلوق دافع عن التنزيه الالهي. ويقول: فان قتلت أو

صلبت ما رجعت عن دعواي كأستاذي ابليس. وبهذا يكون الحلاج قد وصل الى اقصى حدود التنزيه كما وان في قوله «انا الحق» ويقصد بها انا في «صورة الحق» وقد اخذها من التوراة «خلق الله الانسان على صورته» وهو من مذهب الحلول، يكون قد اقترب من صفات التشبيه فيكون من القائلين بالتنزيه والتشبيه في وقت واحد. ويقول الحلاج بوجوب التضحية في سبيل المحبة والشقاء، في سبيل المحبوب والعبودية الكاملة والرضوخ لله وحده دون تحري الاسباب.

ويقول العاملي: ان سائر الصور الارضية والسماوية على اختلافها صور تجلياته وشؤون ذاته فلا موجود الا الوجود الواحد، والتعدد واقع في نفس الامر الا ان ذلك لا يستوجب تعدداً في ذات الوجود (الوحدة الوجودية)، كما ان تعدد أفراد الانسان لا يوجب تعدداً في حقيقة الانسان (الوحدة العددية). وبهذا انتقل هؤلاء من التوحيد المنزه عن صفات المحدثات الى وحدة الوجود في مظاهر المحدثات كافة. يبدو لنا انها مأخوذة من فلسفة مليسوس الحكيم اليوناني السابق الذكر.

17 ـ يقول معروف الرصافي في كتابه «رسائل التعليقات»: اذا كانت ذات الله عبارة عن الوجود الكلي المطلق اللانهائي، كان من البديهي ان الله منزّه عن المكان، لأن المكان انما هو من شأن الوجود الجزئي. فكيف يكون في مكان من لا تسعه الا الكلية اللانهائية. فهو محيط بكل شيء ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ فلا يجوز ان يكون في مكان دون مكان، اي لا يجوز أن يخلو منه مكان، فيكون حينذاك جزئياً. وكما ان كليته تنزهه عن المكان، فان سرمديته أي لا نهائيته تنزهه عن الزمان، وان الكلية هذه هي عرش الله الذي استوى عليه ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ اذ لا يسعه غيرها، وهي ايضاً كرسيه الذي وسع السماوات والارض. ويقول في تفسير الآية القرآنية هو «الاول» الذي ليس له بداية و«الآخر».الذي ليس له نهاية، ومعنى هذا انه هو السرمدي اللانهائي، والظاهر الذي نراه بأعيننا وندركه بحواسنا، و«الباطن» الذي لا نراه ولا ندركه، وليس معنى هذا الا انه كل شيء ولا موجود غيره. فهو الوجود الكلي المطلق اللانهائي وهذا معنى «لا موجود الا الله».

18 ـ قد يفقد الصوفي التمييز بينه وبين الله وهو في حالة الحال والاستغراق والمحو، فيرى جميع الاشياء هي الله، كقول الحلاج: ما في الجبة غير الله. وأما في حالة الصحو فيؤيد الحلاج انيّته كما جاء في قوله (انا الحق):

بيني وبينك إنّي ينازعني ... فارفع بإنّيتك أني من البين

يقصد به يوجد يا إلهي بيني وبينك شيء هو (انا) يقلقني ويعذبني فارفع انت بقدرتك (انيّ) اي انا من بيننا. وهي من الشطحات المنكرة لم يقبلها منه أرباب وحدة الوجود، لأن انا عندهم إنكار لتوحيد الحق. فلا يلفظ (انا) الا الله. وعند البعض منهم لا تتضمن وجوداً مستقلاً انما وجود الكلي المطلق لأن الكل واحد في عالم التوحيد.

19 ـ وتتلخص العقيدة الصوفية الاسلامية عند بعض الفلاسفة ان العبد وجود جزئي قائم بالوجود الكلي، وهو فعل من أفعال الله، وأفعال الله من صفاته وصفاته من ذاته، وما سوى الله من حيث الذات فعدم. فكل شيء موجود معدوم، لان العدم صفته الذاتية والوجود انما ثبت له بالعرض لا بالذات. فلا موجود حقيقة الا الله وان الموجودات والصور والاشكال الكونية وان كثرت وتعددت فهي

في نفس الامر من مراتب تعيينات الحق وآثار نوره وصفاته التي هي عين ذاته. فالكائنات كلها كالالفاظ التي لا وجود لها في الحقيقة وانما هي مظاهر صوتية تدل على المعنى، والمعنى هو الوجود الكلي المطلق. والمخلوقات كافة حادثة بمظاهرها الجزئية وقديمة بالوجود الكلي وهي قائمة به، فكان كل مخلوق حادثاً وقديماً في آن واحد. فليس في الوجود الا الله وأسماؤه وصفاته، فكانت تسبيحاتهم «لا موجود غير الله». ويقولون ان سيد الرسل قالها بمفهوم العبارة، فقد جاء في القرآن الكريم ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ و﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾ و﴿ويد الله فوق ايديهم﴾ و﴿وهو معكم اينما كنتم﴾. فان هذ الموجودات الجزئية المحدودة ما هي الا مظاهر مختلفة الصور للوجود الكلي اللانهائي، وهو الله الفاعل الحقيقي. ولذلك نفى سيد الرسل عنه الرمي والبيعة وحصرها بالله وحده. فلم يكن لله مكان ولم يشمله الزمان، لان المكان والحدود من خصائص الوجود الجزئي المتناهي. وأما وجود الله فهو كلي لا نهائي ولا تسعه الا الكلية اللانهائية. ولذلك كان الله في كل مكان وعلى كل مكان ولم ينتقل من مكان الى آخر كان فارغاً ليملأه ﴿وكان الله بكل شيء محيطا﴾ فكأن كل ذرة في هذا الكون هي عرش الله الذي استوى عليه ﴿وسع كرسيه السموات والارض﴾ وان العالم قائم بالله لا بنفسه، وان كل فعل او حركة في هذا الكون هي من صنع الله وخلقه وعلى سننه الثابتة التي لا تقبل التبديل والتحويل ﴿لا تبديل لخلق الله﴾.

20 ـ ويعتقد فلاسفة الصوفية وأرباب وحدة الوجود بالحلول[1] وهو ان يكون الله كل شيء، في كل شيء، متصلاً مع الكون، مندمجاً مع الموجودات فلا تكون قطرة ولا ذرة ولا نسمة ولا مادة الا وهي جزء من الذات الالهية. وأما الانسان فهو أكمل مظهر جزئي من مظاهر الوجود الكلي، الا انه ليس جميع أفراده متساوين في الاوصاف المكتسبة خصوصاً في العقل والنطق والارادة، لذلك ترتب على وجوده الجزئي المتفاوت الاوصاف، الثواب والعقاب في هذا العالم الفاني، واما في العالم الباقي أو عالم الوجود الكلي، فان العاصي والطائع كلاهما سواء أمام الله.

21 ـ من المحقق ان الكلي والجزئي والبقاء والفناء... وغيرها من التعابير والمقولات مأخوذة من الفلسفة اليونانية والهندية. فلما انتشرت في البلاد الاسلامية تأثر بها العلماء والمفكرون وازدردها كل منهم وهضمها بالوجه الذي يريده ويشتهيه. فظهر على اثرها الفلاسفة الطبيعيون المتأثرون بفلسفة ارسطو امثال الكندي والفارابي وابن رشد وابن مسكويه، وتأثر بها المتكلمون ورجال المعتزلة، كأبي الهذيل العلاّف والنظام والجاحظ ثم الاشعري، وكذلك رجال الادب كأبي العتاهية والمتنبي والحريري وابي العلاء المعرّي، ورجال التصوف كالغزالي ومحيي الدين بن عربي والحلاج وابن الفارض والجيلي وغيرهم، ورجال الطب والفلسفة كالرازي وابن سينا والفارابي وغيرهم، ورجال المذاهب الدينية كالقرامطة والفاطميين والاسماعيليّين وغيرهم، وكلهم متأثرون بالفلسفة اليونانية.

22 ـ كانت فلسفة المتصوفين المتطرفين وأرباب وحدة الوجود، التي تهمّنا في هذا الموضوع، هي التقرّب الى الله لا من الطريقة الشرعية بل من الطريقة الروحية (الحلول. الفناء. الاتحاد). وهم يحكّمون

(1) لمقابلة أرباب الشيعة الغالية باعتقادهم في حلول الجزء الإلهي بعلي بن أبي طالب وأولاده وأحفاده من بعده.

الذوق ويدركون الأشياء بعين القلب لا بنور العقل، لذلك يسمون انفسهم «اهل القلوب» خلافاً لأهل السنة الذين يرون الحقائق بالعقل والفطرة الكاملة ضمن حدود الشرع والكتاب والسنة. وكان المعتدلون منهم ملازمين طريقة اهل السنة والجماعة فكانوا يقولون: لا فاعل في كل شيء الا الله. وظهر من بينهم من قال مفترقاً عنهم: لا موجود في كل شيء الا الله. وساقهم هذا القول الى مذهب وحدة الوجود المخالفة لعقيدة اهل السنة. ووصل المغالون منهم الى الحلول والاتحاد بالمحبوب. فعندهم كل ما هو موجود في هذا الكون من المحسوسات يرجع الى مركز واحد وهو الله المحبوب، فخرجوا من الدنيا غير آسفين عليها وتجرّدوا من اللذائذ الدنيوية غير ملتفتين إليها، فلم تهمهم بعد ذلك حتى الشرائع والعبادات ولم تغرهم الجنة ونعيمها ولم تخفهم النار ولهيبها.

23 ـ ان الذين زهدوا في الدنيا وتوصلوا الى هذه المرتبة من التصوف هم اشخاص قليلون يعدون على الاصابع نعتبرهم من فلاسفة الاسلام ومن الائمة الاعلام امثال جنيد البغدادي وابراهيم بن ادهم والجيلي وعمر بن الفارض وابن عربي وأبي طالب المكي والشبلي والبسطامي وأشباههم. فلم يخرج هؤلاء عن دائرة الشرع الا قليلا. واذا ما شطحت أقلامهم وألسنتهم، في بعض الاحيان، وقالوا ما قالوا، فهي من حالات تعتريهم تسمى عندهم حالة المحو، وهي حالة الاستغراق وفقدان الوعي والشعور (البحران العصبي)، وهم متمسكون بالنصوص وحفظ الحدود واداء الشريعة. وكان ابو يزيد البسطامي يقول: لو نظرتم الى رجل اعطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الامر والنهي وحفظ الحدود واداء الشريعة. واذا كان البسطامي قد أيّد وجود من يرتفع من زملائه المشايخ أصحاب الكرامات في الهواء، فكان متمسكاً بأداء الشريعة رغم ان الشريعة لا تقبل منهم الارتفاع في الهواء.

وفي الفتوحات المكية، والفصوص، شطحات كثيرة وعبارات غامضة وجمل واصطلاحات وتراكيب مبهمة لا يفهمها الا كاتبها ولعله كتبها بهذا الغموض عن قصد بالنظر للزمان والظروف التي كانت محيطة به، فلم يكن بوسعه ايضاحها مما سبّبت التقوّلات الكثيرة، وما ذلك الا لعدم حل رموزها والوقوف على كنهها ومراميها.

24 ـ انقسم رجال الدين الشرعيون في المغالين والمفرطين من شيوخ الصوفية إلى قسمين، منهم من اخذ بالظاهر فأفتى بكفرهم وخروجهم عن دائرة الديانة الاسلامية، وذلك لهفوات صدرت من متطرفيهم كاعتبارهم الولي أفضل من انبياء بني اسرائيل واعتقادهم بوحدة الوجود والحلول والاتحاد وان لا يكون الى الله حاجة، وسقوط المطالبات وانتفاء الاختيارات وغيره، حتى قال اسماعيل بن المقري: من شك في تكفير اليهود والنصارى وطائفة ابن عربي فهو كافر. ولم يزل كثير من رجال الدين يكفّرونهم. والقسم الآخر وزنوا اعمال بعض من شيوخهم وأئمتهم بميزان العدل والانصاف والحقيقة ووقفوا على افكارهم وسيرتهم وتعبداتهم وأقوالهم وما يدور بخلدهم، وشاهدوا ببصيرتهم ما انطوت عليه جوانحهم، وفناءهم بحب الله، فاعتبروا ما صدر منهم من الشطحات، ما هي الا حالات نفسية لا شعورية، فأفتوا ببراءتهم وإيمانهم الكامل، وهم العلماء الأجلاء عبد الوهاب الشعراني واحمد بن حجر الشافعي والفاضل الهروي المشهور بعلي بن القاري وصاحب الدر المختار،

وقاضي القضاة البساطي المالكي، والتوريزي المغربي، وأخيراً جدي الاكبر رئيس علماء الموصل عبد الله بن مصطفى بن يوسف بن سليمان ـ الشهير بابن الدملوجي المتوفي سنة 1257 هـ في كتابه المسمى «كف المعارض ببراءة ابن عربي وابن الفارض». ومما قاله فيهما: لو اطلعنا عياناً ممن علمنا بدايته وحسن سيرته ومحافظته على الشريعة الى نهايته عند سلوكه الى الله وفي الله، واستغراقه في بحر التوحيد والعرفان واضمحلال ذاته ومحو صفاته بصفات الرحمن، وغيبوبته عن كل ما سواه، بحيث لا يرى في الوجود الا الله تعالى وهو مقام الجمع والحالة التي يسمونها الفناء في التوحيد كما يشير اليه الحديث القدسي والكلام الانسي «ان العبد لا يزال يتقرّب اليّ بالنواقل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» (الحديث)، على مخالف للشريعة من حلول واتحاد وغير ذلك، لقصور العبارة عن بيان حاله وتعذّر الكشف عنها بمقاله. كما نسب لذينك الامامين اللذين كلامنا فيهما لا نرضاه ولا نقبله منه، بل نجتنبه غاية الاجتناب ونعرض عنه غاية الاعراض، وكل صاح يعتقده أو يقول مثل ذلك فهو ضال كافر... ولكن نسلم له ما هو فيه من الاحوال فلا نجري عليه حكم الجهلة ولا حكم من ضل في تيه الالحاد من البطلة لاحتمال ان يكون صدور ذلك منه حالة الاستغراق والسكر المعنوي في حب الله... ولا اعتداد بذلك.

ويقول عبد الله الدملوجي بكتابه المذكور عند تعريفه مقام جمع الجمع عندهم: «فان السالك أولاً يغني عن نفسه وعن السوى، ويستغرق في بحر بقاء المولى هو المعبر عندهم بمقام البقاء بعد الفناء، ثم يسترد من تلك الحالة الى سيرته الاولى التي هي في محل الرفعة أولى، فانه لا يمنعه الكثرة عن الوحدة والوحدة عن الكثرة، فلا يزال مترقياً في المراتب العلى وتارة يتخلى وتارة يتجلى وتارة يتحلى وتارة يتعلى الى مقامه الاعلى وهذا كله في مقام الانس الى حضرة القدسي سبحانه وتعالى... الخ».

ويقول في محل آخر: «ولا يجب الاعتقاد بولاية كل من يدّعيه اذ رب جاهل فاجر بليد يدعي تلك المرتبة الجليلة وشتان ما بينهما، بل من يعتقد في مثل ذلك الولاية، اما ان يخرج من ربقة طريقة المؤمنين أو يدخل في زمرة الناقصين القاصرين. وللتمييز بين الطيب والخبيث علامات اعظمها المواظبة على الواجبات العلمية والعملية والمجانبة عن الكبائر الفعلية والقولية، مع صحة الاعتقاد على الوجه الشرعي. فمن لم يكن على هذين الحالين ويدعي الكرامة او الولاية، فانه فاجر شرير يستحق التأنيب والتعزير»... الخ.

ويقول ايضاً في محل آخر عند بحثه عن الشيوخ المتصوفين: «ومنها ما ابتدعه جهلة المنتسبين للشيخ احمد الرفاعي قدس سره من الاذكار الملحنة مع الاشعار الملحونة، ومن التصفيق والرقص والضرب بالدف وغير ذلك من الافعال القبيحة والاقوال الشنيعة فإما أن يعتقدوها يتقرّبون بها الى الله تعالى او لا. فان اعتقدوها قربة فقد ضلّوا، وإن لم يعتقدوها كذلك فهم سفهاء يجب على الولاة وعلى من يقدر منعهم عن ذلك»... الخ.

فقد أيّد جدي الاكبر بفتواه هذه لزوم مطاردة المتصوفين والمتمشيخين الذين اتخذوا التصوف والديانة الاسلامية رأس مال لأرباحهم وضلوا وأضلوا.

يقول محمود شكري الالوسي: ان الكرامة لا تصدر عن فاسق ومخالف للشريعة. ومن يتعاطى تلك الاعمال فسقه ظاهر للعيان وقد اتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

25 ـ وبعد ان اوردنا تباعاً آراء علماء الفن الحاضر والفلسفة والمتصوفين في الذرة والكهربة، نلخّص:

يقول القرآن الكريم ﴿الله نور السماوات والارض...﴾ و﴿وهو معكم اينما كنتم﴾ و﴿يد الله فوق ايديهم﴾ و﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾ و﴿اينما تولوا فثم وجه الله﴾ و﴿اذا سألك عبادي عني فاني قريب﴾ و﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ و﴿وهو اللطيف الخبير﴾ و﴿الظاهر والباطن﴾ ويقول المتصوفون لا حيز ولا جهة ولا مكان لله انما هو وجود كلي حاضر وموجود في كل حيز وفي كل جهة وفي كل مكان، ولا موجود في الكائنات غير الله. ويقول ارباب العلم الحاضر ان الكهارب اساس الذرة والذرات المشحونة بالطاقات الكهربية قد ملأت كل حيز وكل جهة وكل مكان وهي التي قد تربط العالم والكائنات بعضها ببعض ومنها تصدر القوى العامة. وهي في غنى عمن يديرها من خارجها.

وهذا تلخيص التلخيص. القواعد الدينية تقول: انه نور وقد ملأ نوره السماوات والارض، والصوفي يقول: لا موجود في الكون الا الله، والطبيعي يقول: لا موجود في الكون غير دقائق الكهرب، فقد اتفق الجميع في الاوصاف واختلفوا بالاسماء.

26 ـ نقول: ان الله جلّت عظمته وهو ﴿على نور يهدي﴾ لما اراد صنع هذه الكائنات اعطاها حركة واحدة من عنده ومنحها قوانين معينة ثابتة منظمة مقدرة ﴿قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾ حيث لم يبق لها من حاجة للتزييد أو التنقيص ﴿انا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (49 ـ القمر) أو التبديل او الاصلاح ﴿خلق كل شيء فقدره﴾ وأعطى كل ذرة من ذراتها بل كل دقيقة من دقائقها الكهربية ـ والذرات لبنات الكون قوة من عنده وقبساً من نوره ﴿الله نور السماوات والارض﴾ (النور). فكانت دقيقة كهربية (الالكترون) تحمل شيئاً من سنا برقه، فتسير اضطراراً ـ وهي غير عاقلة ـ تحت تلك القوانين المعينة المقدّرة الثابتة التي اخذتها مرة واحدة من مبدعها الاعظم دون زيادة ان نقصان ﴿واحصى كل شيء عددا﴾ لا تتعداها ولا تتحداها ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ (يونس). فلا نور ولا حركة ولا قوة ولا طاقة الا به ومنه ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ (الزمر). وقد احاط بكل ذرة من ذرات الكون ﴿وكان الله بكل شيء محيطا﴾ (النساء). اذن لا يعقل ان تكون قوة الله وقدرته موجودة في كل ذرة ومحيطة بكل دقيقة وقد ملأت كل حيّز وجهة ومكان، متزاحمة مع القوة الموجودة في بناء الدقائق الكهربية المتموجة المتلاطمة في قلب كل ذرة من ذرات الكون، وجنباً الى جنب معها ان لم تكن هي في الاصل تحمل اجزاء قوته. وعلى هذا فان القوى السائدة في الكون كله مستمدة من تلك القوة العظمى وهذا ما يعنيه المتصوفة في قولهم «لا موجود غير الله»... وفي قولهم ان يكون الله كل شيء في كل شيء متصل مع الكون مندمج مع الموجودات...

27 ـ وهنا تثار مسألة من أهم المسائل وأدقها وأخطرها وهي هل ان النور مخلوق الله او ان الله هو النور نفسه؟

ان القاعدة العامة في العالم الاسلامي ان كل شيء في هذا الكون من خلق الله تعالى ومن

جملته النور. وذلك بالاستناد إلى ما ورد في آي الذكر الحكيم ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾ (61 ـ الزمر). واذا كانت الديانة المسيحية قد اعتبرت الله روحاً (انجيل يوحنا)، فقد جاء في القرآن الكريم ﴿الله نور السموات والارض﴾ (النور). فان المعنى الظاهر من هذه الآية ان الله نور وقد ملأ نوره السموات والارض ولا يوجد في الكون نور غيره. ولما كان كل ذرة من ذرات الكون تحتوي على مقدار من الطاقة، وهذه الطاقة هي نور متكاثف قد تنقلب الى النور دوماً، فكان النور الكامن في قلب كل ذرة من الذرات المكوّنة للسماوات والارض، ما هي الا قبس من نوره ولا يوجد نور آخر صادر عن غيره.

والنور واحد بالأصل، متفاوت بالقوة والإشعاع والتألّق. فان من النور ما يصدر من السراج الضئيل، ومنه ما يستخرج من البطريات الكهربية أو من الطاقة الذرية وتحسب قوته بملايين الفولطات، ومنه ما يأتي من كوكب الشمس تحت تأثير التيارات المغناطيسية العنيفة، واخيراً نور الله الذي لا نعرفه وليس باستطاعتنا تقدير عظمته ومفعوله. وكل هذه الأنواع نور بدرجات مختلفة.

قال جل وعلا ايضاحاً لصفة نوره ﴿مثل نوره﴾ وهي للتشبيه ولبيان صفته وماهيته ﴿كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دريّ﴾. والمشكاة الكوة غير النافذة أو الانبوبة أو القدح أو ما على شاكلته، والمصباح هو السراج أو المادة المشتعلة في داخل الزجاجة فتتلألأ الزجاجة كتلألؤ الكوكب الدرّي ﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ فان وقود ذلك السراج أو المادة المضيئة في الزجاجة (النور) تأتي من الطاقة الكامنة في زيت أشجار فصيلة الزيتون الدهنية مثلا، وهذه الطاقة لا هي ايجابية صرفة ولا سلبية صرفة انما معتدلة أو من كليهما ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾. فقد تنقلب طاقة الزيت أو كلتاهما الشرقية أو الايجابية والغربية أو السلبية الى ضياء دون ان تمسّها نار ﴿نور على نور﴾ كله جل وعلا نور مضاعف ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ اي هداه كالمصباح في ظلمة الليل.

وجاء في القرآن الكريم ﴿وهل اتاك حديث موسى. اذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس او أجد على النار هدى. فلما أتاها نودي يا موسى اني أنا ربّك فاخلع نعليك انك بالواد المقدّس طوى﴾ (طه). وفيه أيضاً ﴿اذ قال موسى لأهله اني آنست ناراً.... فلما جاءها نودي ان بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين﴾ (8 ـ النمل). وفي سورة الصف: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾. وفي الأحاديث: روى ابو ذر انه سئل سيّد الرسل هل رأيت ربك فقال «نورٌ أنّى أراه». اذن هو جل وعلا نور على نور وهو أصل النور الذي غمر السموات والأرض.

يقول الحكماء: ان النور في المصطلح هو الظاهر بذاته والمظهر لغيره. والظهور معناه الوجود وعكسه الخفاء أو العدم. فاذا كان الله نور السموات والأرض، فهذا معناه لا يوجد نور سواه يزاحمه في نوره مهما كان نوعه وتألقه، وان كل الأنوار والنيران المرئية واللامرئية فيض عن نوره، او انها النور الفائض من نوره، كما وأنه لا يوجد وجود غيره اذ انه الأصل في الوجود، فهو موجود بذاته موجد لما عداه. ويشمل هذا الوجود حتى دقائق الأنوار والأشعة الكونية المختلفة. ويقولون: ان هذا الايجاد لم

يكن قد أوجد من العدم أو جيء به من لا شيء انما هو صادر عنه بطريقة الصدور والفيض. وهو الذي جعل السموات والأرض وما فيهما تستنير بنوره وتحمل قبساً من سنا برقه ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾.

والنور بالضم في اللغة هو الضوء على الاطلاق أياً كان أو شعاعه ان قلّ أو كثر.

والنور من الوجهة العلمية هو نوع من الطاقة، يصدر من الشمس ومن الاجرام الفلكية ضوءاً وحرارة بموجات مختلفة تقدّر سرعته بـ 186,300 ميل بالثانية يصل إلى الأرض منها في كل يوم مقادير معينة يستفيد منها عالم الأحياء في استدامة حياتهم، وقد خزّن بعضٌ من هذه الطاقة منذ ملايين السنين ولم تزل في أعماق الأرض وسطحها يمكن قلبها ضوءاً وحرارة. فان كل حركة عظمت أم صغرت تحصل في الآفاق أو في الانفس وحتى الأعمال الذهنية، ما هي الا من انقلاب تلك الطاقة إلى حركة. والطاقة في الاصل كامنة في نواة الذرة وتسمى الطاقة الذرية، وعندما تنبثق من داخل الذرة تتحول إلى موجات متباينة منها محسوسة ـ أي منظورة ـ وهي الانوار المرئية كنور الشمس المتكوّن من الألوان السبعة، ومنها محسوسة غير منظورة، كحرارة الشمس المتكوّنة من الأشعة فوق الحمراء، ومنها لا محسوسة ولا منظورة انما تؤثر في الالواح الزجاجية (ما وراء المرئية) كالأشعة السينية مثلاً. وهذه الطاقة أبدية أزلية لا تفنى. وهي مستديمة تتحوّل من حال إلى حال ثم تعود إلى أصلها تحت ظروف وأحوال معيّنة.

ولما كانت اللغات البشرية لا تستوعب كنه ذات الله، فمن المحال وصف حقيقته بالكلمات والمصطلحات البشرية، كالنور والضوء وغيره. ولذلك قال القائلون: البحث عن كنه ذات الله إشراك. ومن جهة اخرى: لما كان البشر قديماً يسجدون من دون الله لقرص الشمس (الفراعنة) ولنورها (المجوسية) ولكونها مستقراً للآلهة (الكلدانية والسومرية والفينيقية والبرهمية....)، فقد حرّم القرآن الكريم عبادتها والسجود لها. فقال جل وعلا ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن﴾. وبهذا كان النور على اختلاف أنواعه وقوّته من الوجهة الدينية مخلوقاً لله تعالى ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا﴾.

28 ـ وأما النسّاك والزهّاد والرهبان والكهنة والمتصوفة والشيوخ وأصحاب الطرائق الدينية من مختلف الأمم والأقوام والملل والنحل، فلم يزالوا يصفقون ويرقصون في حلقات الذكر، وينقرون الدفوف وينفخون المزامير حول وحدة الوجود الروحانية والاتحاد والحلول، وقد وصفهم عبد الغفّار الأخرس الموصلي بقصيدة قال فيها:

أقـال الله صفّـق لـي وغـنّـي ... وقـل كفـراً وسـمّ الكفـر ذكـرا؟

29 ـ بعد هذه المقدمات والنظريات المادية والروحية نقول: ان حلول الجزء الالهي أو القوة الالهية بقسم خاص معيّن من أفراد البشر عند البعض، وفي أفراد البشر والموجودات كافة عند الآخرين، والتناسخ بين البشر والحيوانات، وكذلك وحدة الوجود في الكائنات والعوالم، هي فلسفة هندية يونانية مسيحية اسلامية تناولتها جميع الامم والاقوام وصاغتها بقوالب شتى، كل حسب تفكيره وأهوائه ورغباته، ترجع جميعها إلى أساس واحد.

وهنا توجد مسألة أخرى. يقول الصوفيون: «لا موجود الا الله»، فيقول اللاوجوديون رداً عليهم: لأجل ان يكون الكائن موجوداً يجب ان تكون العلة التي أوجدته موجودة قبل وجوده. فاذا قلنا: الله موجود، فيقال: من أوجده؟ واذا قلنا أوجد نفسه فمعناه إرادة أو علّة سابقة له أظهرته إلى الوجود، فنصبح أمام إرادة سابقة ووجود حادث أو علّة ومعلول. ومعنى الوجود هو الحادث. وفات هؤلاء ان وجود الباري عزّ وجلّ لا يقاس بوجود الكائنات فلا تشمله المقاييس المنطقية.

فكلما أراد البشر لأسباب سياسية او عاطفية ان يسبغ على انسان ما أكثر من حقه كبشر في هذا الكون فيمنحه أو يهبه الجزء الإلهي، وما دام لا يطلب عى هذه المنحة دليلاً أو برهاناً، فتصبح هذه المنحة بمرور الأزمان والأجيال حقيقة ثابتة وعقيدة راسخة، بل الدين الأساسي الذي لا يجوز مناقشة أحكامه وفلسفته، فيتكاثر عند ذلك حول معبد الإله أو المتأله أو الوالي أو الشهيد أو القدّيس أو الضريح المقدّس الراقصون أو الباكون، اولئك الذين لا يعلمون لمَ يرقصون وعلى ما يبكون. ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً. ان الانسان لكفور مبين﴾ (14 ـ الزخرف).

30 ـ ان اعطاء الجزء الالهي لافراد البشر وجعلهم آلهة أو شبه آلهة او انصاف آلهة او تلثيه إله وثلثه بشر (جلجامش البطل الاسطوري السومري) هي شنشنة قديمة عند البشر وضع أسسها وقوانينها وتعاليمها الكهنة والرهبان ورجال الأديان، حتى أصبحت عند كل أمة ديناً ثابتاً لا يمكن ولا يجوز تمحيص حتى فروعه أو الاعتراض عليه، وان التفوه بكلمة واحدة ضد التعاليم عند الامم كافة قد يعتبر تجاوزاً على الآلهة والمتألهة والمراقد والشيوخ والشهداء والأولياء والصالحين وجحوداً بالدين بل كفراً يستوجب الموت.

فكثر المتألهون وازداد عددهم. فكلما قتل او صلب خفية أو جهاراً احد واضعي المذاهب والاديان اعتبره مريدوه وتلامذته الضعفاء المغلوبون على أمرهم انه فدى نفسه لحمل خطيئة البشر، أو انه حي لم يمت بفضل ما يحمله من الاشعاع القدسي لآل البيت المصطفوي، او انه صعد الى السماء او اختفى بالسراديب أو سافر الى الجبال او الجزائر النائية هرباً من أعدائه، وأنه سيعود للانتقام من قتلته في آخر الزمان مرة أخرى، وانه سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. فينتظرون الفرج من السماء وعودته مزوداً بأعظم جزء من الأجزاء الإلهية. وهي نظرية في منتهى السذاجة تدل على الخور والضعف والهزيمة. فلكل أمة مغلوبة على أمرها نوع من هذه الأساطير المسلية وضعت لتثبيت قلوب المؤمنين برسالة المتأله وتشجيعهم على الثبات بمعتقداتهم. ان الذين صعدوا الى السماء من مختلف الامم والاقوام ولم يموتوا ولا يموتون كثيرون. فان اليهود ينتظرون المسيّا أي المسيح، والمسيحيون ينتظرون رجوع السيد المسيح، والبوذيون ينتظرون بوذا، والزردشتيون ينتظرون شاه بهرام، والهندوس ينتظرون رجوع كرشنا... وأما في العالم الاسلامي فهم كثيرون جداً نذكر منهم محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قتله عيسى بن موسى والي المنصور على المدينة فقالت الجارودية انه حيّ لم يقتل ولا مات ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وكذلك يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد قتل بالكوفة أيام المستعين فقالت طائفة أن يحيى لم يقتل ولا مات ولا يموت... الخ. وكذلك محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين قتل

بالطالقان فقالت أتباعه انه حيّ لم يقتل ولا مات ولا يموت... الخ. وقالت الدروز ان الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي لم يمت ولا يموت... الخ. وقالت فرقة الممطورة ان موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين حيّ لم يمت ولا يموت... الخ. وقالت فرقة الناوسية مثل ذلك في أبيه جعفر بن محمد بأنه حيّ لم يمت ولا يموت... الخ. وقالت طائفة منهم مثل ذلك في أخيه اسماعيل بن جعفر الذي ينتسب إليه الاسماعيلية بأنه لم يمت ولا يموت... الخ. وقالت السبئية مثل ذلك في علي بن أبي طالب بأنه حيّ لم يمت ولا مات ولا يموت... الخ. وقال بعض الكيسانية ان عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب حيّ في جبال أصبهان الى اليوم لم يمت ولا يموت... الخ. وقالت اليزيدية عبدة الشيطان ان الشيخ فخر الدين حيّ لم يمت ولا يموت وأنه سيبعث حيّاً وسيكون ظهوره في الشام وسيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وسيعيد مجد اليزيديين فينتقمون من أعدائهم. ولم يزالوا ينتظرون الفرج من السماء وعودته. وكان آخر من شاهده من تلامذته يصعد الى السماء ميرزا علي محمد مؤسس مذهب البابية وذلك لما شنقته الحكومة الايرانية فقالت البابية انه حيّ لم يمت ولا يموت. وغيرهم كثير. الا انه لم يعد احد منهم بعد ولم يزل أتباعهم ينتظرون.

31 ـ ان هذه الأوهام والخيالات التوكلية وأمثالها الكثيرة في العالم الشرقي هي التي أماتت النفوس وشلّت العقول وأرخت العزائم وأقعدت الهمم، وجعلت عيون العالم الاسلامي تتجه الى السماء بينما عيون العالم الغربي تحدّق في خبايا الأرض، فصنعوا القطارات والسيارات والطيارات والمدرعات والغواصات واكتشفوا الاشعة الكهربائية، وأخيراً دخلوا في خدر الذرة ومزّقوها إرباً واستحصلوا منها على الطاقة الذرية... الخ. فحكموا بها علينا وتحكّموا بنا وأذلونا واستهزأوا بنا ونحن على ذلك من الصابرين نمني أنفسنا بأن لنا الجنة وليس لأحد حق الاعتراض والكلام.

32 ـ ولم يزل كثير من المستشرقين الاوروبيين ممن ينتمون الى العلم والفلسفة يستخفّون ويستهزئون بنا وبديننا استخفافاً واستهزاء ساخراً في كل فرصة سانحة تحت ستار العلم والتاريخ. وآخر ما عثرنا عليه في كتاب «عقيدة الشيعة» للمستشرق دوايت م. رونلدسن الدكتور في اللاهوت والفلسفة تعريب «ع. م.» يقول في صفحة 349 عند بحثه عن الشيخ احمد الاحساتي ما نصّه: «وقد رأى في كربلا والنجف ان الناس الذين هم من قومه في حالة الحزن واليأس وهم يدعون ليلاً ونهاراً لتعجيل الفرج برجعة الإمام راعيهم الذي يقودهم الى مرعاهم».

فلا بد وأن المترجم قد اعتنى كثيراً عند ترجمته هذه الفقرة لما لها من الخطورة والوقع السيّىء عند طائفة كبيرة من العالم الاسلامي. إذاً، لم يكن قصد رونلدسن من هذه الجملة الا الاستهزاء والازدراء بطائفة من المسلمين لاعتقادهم بالرجعة فاعتبرهم كقطيع من الماشية تنتظر راعيها لإيصالها الى مرعاها.

ومع اني لا أؤمن بالرجعة ولا أعتقد بصحّتها ولا أدين بها وأعلم انها وضعت لتثبيت قلوب المؤمنين لئلا ينفضوا عن اولي الامر منهم، الا انني أنتقد اولئك الذين لا يرون الخشبة في عيونهم ويرون التبنة في عيون الآخرين كما قيل. فكان على رونلدسن، إن كان من رجال العلم والتاريخ حقيقة،

ان يعلم ان في كل امة ابطالاً اختفوا او قتلوا او صلبوا، فصعدوا الى السماء وتألّهوا ولم يموتوا ولن يموتوا وسيعودون مرة ثانية الى الأرض لينتقموا من أعدائهم ويملأوا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وهي شنشنة قديمة عند البشر وخاصة عند الطوائف المغلوبة على أمرها يرجع أصلها الى اوزيريس الفرعون الصالح المقتول والمتأله، ثم الى بعل إله الكلدان الذي سيرجع ثانية الى الحياة كشمس الربيع، ثم الى بوذا الذي سيرجع ثانية الى الأرض ويكون قاضي الأموات. ثم الى السيد المسيح الذي «سيعود مرة ثانية الى الأرض» (23 ـ 21 يوحنا). وقال: «ها أنا معكم كل الأيام الى انقضاء الدهر» (28 ـ 20 متى). و«ظهر ثلاث مرات لتلاميذه بعدما قام من الأموات» (21 ـ 14 يوحنا). فلم تبق من حاجة للدكتور العالم أن يغمز ويلمز ويزدري قسماً من العالم الاسلامي لعقيدة موضوعية ليست من أصل الدين في شيء تماثل معتقده الأساسي ولعلها تكون مقتبسة منه كما اقتبسها من غيره.

ويظهر لنا ان الآب رونلدسن قد اعتبر بقياس غير صحيح هذا القسم من العالم الاسلامي كالعالم المسيحي الذي قال عنه السيد المسيح نفسه لسمعان بطرس أحد حواريه في أوقات مختلفة، كما جاء في الأناجيل مرة «يا سمعان ارع خرافي»، وأخرى «يا سمعان ارع غنمي»، وثالثة «يا سمعان ارع غنمي» (21 ـ 18 ـ 15 انجيل يوحنا). فكأن الغنم والمراعي قد ملأت نفسه فأقضّت مضجعه وأراد إشراك غيره من الأمم فيها فظهرت على قلمه «راعيهم الذي يقودهم الى مرعاهم». فإذا كان ولا بد من ان يقول كلمة فكان عليه أن يوجّهها الى أمته على لسان نبيه وإلهه والى مجلس الفاتيكان بعد أن أصدر في عام 1870 قراره بأن بابا من باباوات رومية «معصوم» عن الخطأ والزلل حيث أصبح منح العصمة للأشخاص البشرية مما تقرره المجامع وهذا الناس. فان هذا البابا المعصوم هو الراعي الصالح على زعمهم وهو الذي يقود أمته الى المرعى على لسان إلهه. وأما العالم الإسلامي فليس عنده مرعى وليس عنده راعٍ وليس له من يقوده سوى القرآن وحده.

33 ـ وبعد، تقول الحكماء: إن لكل القوى في هذا الكون محصلة résultante واحدة تلك هي مجمع أو مصدر القوى العامة الكلية، ومنها سبق ان صدرت وانبثقت كل القوى فكوّنت الدقائق والذرات ومنحتها قوّتها المستديمة الثابتة ونشاطها المستمر الدائم، مرتبطة بأنظمة وقوانين كونية لا تتغير ولا تتبدل. وهذه هي سنن الكون التي ليس لها تبديل ولا تحويل.

ولما كان الله علة العلل، وهو غير معلول، وانه السبب لجميع المسببات ولا تبديل لخلق الله ولسنن الله ولإرادة الله ﴿ان ربي على صراط مستقيم﴾، فكانت جميع الحادثات الكونية تجري وفق تلك السنن الثابتة دون استثناءات، وهي ما تسمى المقدورات. ومن المحال أن يحصل خلاف فيها أو توقيف أو تعطيل أو تغيير لأي سبب من الأسباب. ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ (يونس). فان الحجر تسقط ما لم تدفعها قوة الى فوق مثلاً، وهذه هي سنة الله في الكون التي لا يرافقها التغيّر أبداً. فكان المحال هو الخروج عن سنة الله الموضوعة للكون. وكل انسان مقيّد ومرتبط بتلك السنن الثابتة، وهو جزء من الكل في هذا الوجود ليس له ميزة خاصة فيها. ومهما كانت منزلته الروحية، وحتى اذا كان نبياً، فان السيف يقطعه والسكين تجرحه والسهم يخرقه والشيب يأخذه والموت يذوقه ﴿أفإن متّ فهم الخالدون. كل نفس ذائقة الموت﴾... ومن المحال أن يستطيع تبديل سنّة واحدة من سنن الكون او ان

تبدّل له بأي شكل من الأشكال ولأي سبب من الأسباب. وهذا لا ينافي قوله تعالى ﴿ان الله على كل شيء قدير﴾ لأن إرادة الله لا تتعلّق بالمستحيلات كتعطيله سنّة من سنن الكون أو كخلقه إلهاً مثله[1] او كتوقيفه حركة الشمس للحظة من الزمن، او خلود انسان بجسده المادي في الحياة الدنيوية، فكانت أفعاله تعالى كافة، مرتبطة بسننه وقواعده الموضوعة الجارية أمامنا كل يوم وهي المسماة السنن الكونية او القوانين الطبيعية. فمن المحال والحالة هذه تعطيل السنن الكونية وإبطال القوانين الطبيعية، وتبديل مجرى الحادثات وخرق قواعد الكائنات بالاستغاثة والادعية والوساطة والنذور والزيارات.

وأما قوله تعالى ﴿ادعوني استجب لكم﴾ فهي لتحويل أنظار البشر عن غيره وحصرها بذاته تعالى، وهي لا تخرج عن نطاق سنن الكون، وقد تتعلّق باليوم الآخر فقط لا بإهلاك الظالم أو اعطاء الذكور من الولادات او شفاء المريض... الخ. فان لهذه وغيرها قواعد وقوانين منها معلومة وأخرى في طريق الكشف. فاذا كانت الأوبئة والامراض المعدية تجرف في كل سنة ملايين من الأنفس البشرية، فقد تحدد فتكها بعد اكتشاف الأمصال الواقية والشافية لها. وقد يجد العقل البشري لاكتشاف ما استعصى عليه منها وجميعها من سنن الله الثابتة الموضوعة لهذا الكون، لم يكن يعرفها الانسان الاول ولم يزل الانسان الحاضر يجهل الشيء الكثير منها ﴿علّم الانسان ما لم يعلم﴾. وقد حثّ جل وعلا الانسان على السعي فقال ﴿وان ليس للإنسان الا ما سعى. وان سعيه سوف يرى﴾ وقد رأى ثمرة سعيه في اكتشافه هذه الأمصال مثلاً.

وأما دعاء سيد الرسل من ربه فهو لتفهيم الناس ان الأمر بيد الله ولا يمكن خرق أو تبديل أي حالة من الحالات الطبيعية الا أن يشاء الله. ومشيئة الله لا تكون الا وفق سننه وقواعده الثابتة المقررة ﴿وخلق كل شيء فقدّره تقديرا﴾ (الفرقان). والمقدر هي النواميس الثابتة المقدرة من الأزل، التي لا يمكن مطلقاً أن تتبدل وتتغير بالالتماسات والشفاعات ﴿وأحصى كل شيء عددا﴾.

قال لي أحد رجال الدين ان الشفاعة هي الدعاء، قلت: إما أن يقبل الله الدعاء فعليه أن يغيّر مقدوراته الأزلية، وإسناد التغيّر والتبدّل والتحوّل الى الله محال، وإما ان يرد الدعاء وهي نكبة للشفيع لا يكررها، فسكت.

34 ـ تقول الديانات السماوية بقوة واحدة في هذا الكون، وهي مصدر القوى. فيقول المسلمون «لا قوة الا بالله» ويقول السيد المسيح «تضلون اذ لا تعترفوا بقوة الله».

وأمّا الطبيعيون والماديون القدماء فيقولون بامتزاج القوة مع المادة. ففي كل مادة قوة مستقلة بذاتها عن غيرها وليس هناك قوة بدون مادة الا ما كان كهرباً شارداً، لا بد أنه سيوضع فوق ذرة ما بعد حين. وأما الطبيعيون المحدثون فلا يعترفون بوجود المادة المستقلة عن القوة ويعتبرون القوة هي الكل في الكل، وما هذه الأشكال والأجسام وكل ما يسمى مادة الا صور مختلفة لقوة يمكن إرجاعها جميعاً الى دقيقة الكهرية.

---

(1) ان هذا المثال نظري وغير وارد. لان كل مخلوق محدث. والمحدث لا يكون إلهاً فمن المحال ان يقال يقدر او لا يقدر.

وبهذه النظريات تمكنوا من توضيح اشعاع الراديوم وغيره من المعادن المشعة ثم اقتحام قلب الذرة والوقوف على مكنوناتها فتمكنوا من استخدام اشعة اللاسلكية والفوق البنفسجية وما وراء الحمراء، واكتشفوا الاشعة الكونية والسينية، وصنعوا الاسلحة الذرية الفتاكة ـ ونحن هنا قاعدون نستجدي منهم السلاح والعتاد وننتظر المدد والعون من الغيب دون ما تعب وعمل ونصب. فان إنكار نظرياتهم المستندة الى العلم والفن بدافع التعصب الاعمى يعد ضرباً من الحماقة والجنون. والحقيقة انهم ليس لديهم خيالات ولا أوهام ولا أسرار وألغاز ومدعيات فوق الافهام، انما علومهم معروضة لكل من يريد تناولها واقتباسها من جميع الملل على السواء.

35 ـ ولنا ان نتساءل اذا كان عالم الاحياء (الحيوانات والنباتات) قد تكامل تحت تأثير المحيط والاقليم والغذاء والمؤثرات الخارجية، وهلكت الاجناس والانواع التي لم تلتئم وتمتزج معها كما يدّعيه داروين، فما هي المؤثرات التي استوجبت تكامل العالم المادي، واستكملت قوانينه الثابتة التي ليس لها تبديل ولا تحويل، وهي كما هي فوق الارض وفي الشمس وفي المجرات والسدم لكل ذرة من ذرات عناصره، وعددها في هذا اليوم ثلاثة وتسعون عنصراً ترتيبها الخاص لا تتعداه من حيث النواة ومحتوياتها، والالكترونات واعدادها والطاقة الكامنة فيها وقوّتها وشدها وتماسكها. وماذا حلّ بالذرات التي لم تتلاءم مع القوانين؟ واذا قيل لا توجد ذرة لا تتلاءم مع القوانين فكيف اصبحت وهي غير مفكرة وغير عاقلة متلائمة معها مع تبدّل الاوساط والاوضاع والمحيط والاقليم؟ فكانت ذرة الايدروجين مثلاً بدقائقها ومحتوياتها هي هي في الارض وفي الشمس وفي الجوزاء وفي البر والبحر والهواء، وحتى الشاردة منها في الفضاء محافظة على مقاييسها وخواصها الثابتة دون حصول شذوذ واستثناءات، ان لم تكن كلّها صادرة من عجينة واحدة، ومن وجود واحد ومن معمل واحد ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ (تبارك). وهذا المعمل من صنع عالم حكيم.

36 ـ ولما كان الفلاسفة الماديون لا يقبلون الا بما تقع عليه أعينهم ويلمسونه بأيديهم، ويشاهدونه بأبصارهم ويتحققونه بتجاربهم ومختبراتهم، فلا يعتقدون بوجود القوة الكلية، او محصلة القوى تلك التي بإرادته تعالى صدرت عنها فتناثرت في طول الفضاء وعرضه، هذه الذرات المكونة لجميع الكائنات بهذا النظام الكامل، فحصل لكل ذرة مركباتها وأجزاؤها وقوّتها وحركاتها الذاتية الثابتة المستديمة بأصلها وطبعها، وهي دائبة على حركتها الفاعلة بقوّة الاستمرار لا حاجة لها بالتزييد والتنقيص والتعديل والتبديل، وبالأوامر الجديدة وبالحفظ والصيانة من الخلل والزلل. فاذا سئلوا اذن كيف نشأت وحصلت الكهارب وأدخلت بنسبة معينة ضمن جدران الذرة، فكوّنت مختلف الاجسام البسيطة بأوصاف متباينة بعضها عن بعض، وان تزييد او تنقيص إلكترون واحد من بناء الذرة قد يحوّلها مثلاً من الراديوم الى الرصاص والعكس بالعكس؟ قالوا: لا علم لنا بذلك! ووقفوا في زماننا هذا عند الالكترون والبروتون والنيوترون والبوزيترون وهي أنواع الكهارب. فنقول: من الحق ان يمجد ذلك الاله العظيم الذي وسُع كرسيه السماوات والارض ونظّم هذا الكون بهذا النظام البديع.

37 ـ لنعد الى الصدد فنقول ان اعطاء الجزء الالهي او القوة الالهية لبعض أشخاص بشرية دون غيرهم، ما هي الا هزء وسخرية يستعملها رجال الدين والمشعوذون لاستهواء الناس السذج وجر المغنم. فعندما

نفخ الله في الانسان بروح من عنده ﴿فاذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾ (الحجر ـ 29) أصبح البشر كافة، الانموذج العالي لعالم الاحياء يحمل نفخة من روح الله، فاكتسب بها قوام حياته وقواه العامة وثم أعماله الذهنية، وبالوسيلة، تفريقه الخير من الشر والجميل من القبيح، وخلق الأفعال والأعمال، وقابلية التطور والانكشاف. الا أن هذه المنحة الالهية لم تحفظه من الوقوع في الخطأ والزلل، ولا يمكن لأي بشر ان يسلم منها.

واذا كان الأنبياء معصومين من الكفر والكذب في تبليغ الشرائع، فليسوا بمعصومين أيضاً من الخطأ والزلل في الجزئيات من أمورهم الدنيوية. فقد ﴿عصى آدم ربه فغوى﴾ وقال ابراهيم: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ وقال نوح: ﴿ربي ان ابني من أهلي﴾ ويونس: ﴿ابق الى الفلك المشحون﴾ وداود: ﴿استغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب﴾ ويوسف: ﴿رفع أبويه على العرش وخرّوا له سجدا﴾. وجاء في سورة التوبة: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة...﴾ وفي سورة الحج: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان...﴾. وعاتب جلّ جلاله رسوله الكريم عتاباً لطيفاً في قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لمَ أذنت لهم﴾ (42 ـ التوبة). وفي قوله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ (التوبة). وفي قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي لمَ تحرّم ما أحل الله لك﴾ (تحريم). وفي قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾... (الأحزاب). وغيره في القرآن كثير وكلها تؤيد وقوع الخطأ وتنفي العصمة عن الأنبياء في أحوالهم الشخصية. فمن المكابرة ان يرتقي غيرهم ومن هو دونهم فوق منزلتهم، فلا عصمة لبشر مطلقاً.

38 ـ ولقد ساق رجال الدين البشر منذ أقدم العصور الى تقديس الأبطال المؤهلين وعبادتهم فعلّموهم كيفية الركوع والخضوع وسكب الدموع على العتبات والمراقد، حتى أصبح طلب الغفران عن الخطايا للدخول في عالم الملكوت ولطم الخدود وضرب الصدور لنيل الرضا والشفاعة، عادة مستحكمة بالنفوس لا يجوز التفكّر في حقيقتها. واستغلّوا ما غرسه زملاؤهم بالأمس ولم يزالوا يغرسون ليستغل زملاؤهم القادمون. ولا عمل للكهّان سوى التنعّم بلذائذ الحياة الى أقصى حدّ ونفخ روح التعصّب في صدور المؤمنين المتألمين.

39 ـ ومما يؤسف له أن الحكومات وعلى رأسها الملوك والأمراء في مختلف الأدوار التاريخية، قد أظهرت لهؤلاء الكهنة والرهبان ورجال الأديان ما تستطيعه من آثار المودة والاحترام، وأغدقت عليهم الرتب والأوسمة والألقاب وأسباب العيش والرفاه، وصرفت عليهم الهبات والأعطيات وأموال الأوقاف تارة للاستفادة من نفوذهم، وأخرى للتخلّص من شغبهم وفتاويهم، حتى لا يثيروا الفتن ويوقدوا الثورات باسم الآلهة، أو الذين حلّ فيهم الجزء الإلهي، بزعمهم. وإذا كان بعض الملوك والحكّام قد حصدوا شوكتهم وحصدوا رؤوسهم مرة، فقد تغلبوا باسم الآلهة مرّات ومرّات، وقلبوا العروش على رؤوس أصحابها كرّات وكرّات، والتاريخ شاهد عدل.

ولما كانت الأدوار التي لعبها رجال الكهنوت في اوروبا المسيحية اصبحت لا تطاق وفوق تحمّل البشر، فقد فصلت حكومتها الامور الدينية عن الامور الزمنية. وأصبحت اكثر المعابد خالية من

المؤمنين، تلك التي ذرف فيها البشر المسكين دموعه السخينة على عتباتها، تبعاً لما كان يمليه عليهم طائفة من رجال الدين المرتزقة. وأما الحكومة التركية فقد قضت نهائياً على نفوذ رجال الكهنوت والأديان ومنعت اكتساء اللباس الخاص لرجال الدين في خارج المعابد، ذلك اللباس الذي استهوى البشر أحقاباً طويلة من الزمن. وكذلك فعلت الهند البرهمية، فقد فصلت الأمور الدينية عن الأمور الزمنية فصلاً تاماً وتركت عبادة الآلهة (البقر والأوثان) في المعابد لمن يخشاها.

وماذا حدث؟ الجواب، لا شيء. ولم نر ان الله غضب على البلاد المذكورة، وثبت ان بعض ما جاؤوا به منذ ستة آلاف سنة أو ما يزيد كان باطلاً ولا قيمة له في شؤون الكون. وقد أضحى تسعة وتسعون في المائة من تلك التشكيلات الدينية في طول كرة الأرض وعرضها، جوفاء ليس لها مستند. وستكون هذه قدوة للحكومات الأخرى فيستغني البشر بعد تجارب قاسية دامت عشرات الآلاف من السنين من كتلة من الناس ضلّوا وأضلّوا، فيكون للناس كافة دين واحد ويكون هذا الدين لله وحده ولا موجود غيره. وهذا الدين البسيط ليس محتاجاً إلى كهنة ورهبان وقساوسة ورجال أديان. وليس فيه هات وهات للدلالة إلى أبواب الجنة. ﴿ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (47 ـ النساء).

ولما كانت النظريات المؤسسة على العلم والفن والتجربة والبرهان قد انتشرت في جميع أنحاء المعمورة وخاصة بين الشبان المتعلمين، وانتبه العالم من غفلته، فقد تضاءلت تجاهها نظرية حلول الجزء الإلهي والعصمة ونحوهما في بعض الأشخاص البشرية ولم تزل هذه آخذة بالخسوف، وتلك بالازدهار.

فما كان على الكهّان والرهبان ورجال الطرائق والأديان الا ان يسايروا الزمن الذي يعيشون فيه ويخفّفوا من غلوائهم درءاً للإلحاد، ولا يغترّوا بالسكون النسبي الذي يشاهدونه في هذا اليوم لمقاصد سياسية، فقد بلغ السيل الزبى، وثقلت الموازين، ولم يبق للإنسان المتعلم الحاضر من الطاقة ما يستسيغه من النظريات الجافة التي لا يقبلها حتى الذوق الديني، وان ردّ الفعل سيكون قريباً ما لم تلج سنة التطور سبيل فروع المعتقدات الدينية.

40 ـ وأما عقيدة تناسخ الأرواح فكانت ولم تزل سائدة في الشرق، وأهمها في التيبت وفي بعض بلاد الهند وايران وعند المغالين من الشيعة (كالنصيرية والدروز والاسماعيلية). وقد تحدّث عنها أفلاطون قبل المسيح بخمسمائة عام. وكانت منحصرة بتناسخ الأرواح البشرية فقط. فكانوا يعتقدون انها ان كانت صالحة تذهب عند الآلهة او في الشمس او في الكواكب التي هبطت منها، وان كانت شريرة دخلت جسم امرأة ثم في الحيوانات حتى تتصهر وتكفّر عن سيئاتها. وبعد ان تتخلص من الشرور ترتقي إلى الآلهة. وقد تعود للدخول في الأجسام البشرية المتألهة والصالحين مرة أخرى.

ونقل البيروني، عن التناسخ عند الهنود، ان النفس طالبة للكمال وعمر الانسان قصير فكان من الضروري تنقلها من بدن إلى بدن لتستفيد أكثر فأكثر وهي ترتقي من الأدنى إلى الأعلى، ومن الأرذل إلى الأفضل حتى تصل الكمال... وقد تأثّرت منها الفلسفة الأفلاطونية والمانوية ثم المسيحية وبعض المذاهب الاسلامية. فقالت السبئية بتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة بعد علي بن أبي طالب. وقالت

النصيرية ان مرتكبي الآثام يعودون يهوداً أو نصارى أو مسلمين سنّيين. وأما الذين ينكرون على علي بن أبي طالب فيعودون حميراً أو بغالاً أو كلاباً. ولم يزل كثير من البشر يعتقد بالتناسخ.

وقد أسند في انجيل يوحنا (23 ـ 20) إلى السيد المسيح قوله لحواريه «اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم عنه خطاياه أمسكت»، وان قبولهم الروح القدس معناه حلوله فيهم واكتسابهم الجزء الإلهي. وكذلك أسند إليه انجيل متى (20 ـ 28) «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» فكان حلول الجزء الإلهي في باباوات رومية والقسس على طول الأزمان والأجيال وإلى انقضاء الدهر مما استوجب عصمة الباباوات من الوجهة الدينية كما يزعمون.

41 ـ ان الدين الاسلامي مؤسس على التوحيد المطلق، وبه يمتاز المسلمون ودستورهم العام (لا إله الا الله) وقد ألحّ القرآن في كثير من آياته على التوحيد وناجز الاشراك بالله ﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحدا﴾ ومنع العكوف على التماثيل والأصنام ﴿... ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾. ان خلاصة الدين الاسلامي القضاء على الإشراك وحصر العبادة بالله وحده. فلم يشأ قسم من العالم الإسلامي التخلّص من الأوثان والأنصاب والتماثيل والقباب والأصنام، فاستبدلوا الشكل وبقي الأصل. فلنا ان نسأل ما هو الفرق بين تلك الأنصاب والأزلام والأحجار الجاهلية وقباب المشايخ الأولياء والصالحين وغيرهم المرتفعة نحو السماء؟ ان المشركين كانوا يعترفون بوجود الله ويعبدون الاصنام لتقرّبهم إلى الله زلفى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ (القرآن). فكان حربهم لا لإنكارهم وجود الله، إنما لإشراكهم الأصنام في عبادة الله، ولتوجّههم إلى الأصنام للوصول إلى الله، والله يقول ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ ولم يقل: توسطوا بالشفعاء واتخذوا لكم وسطاء.

42 ـ **الأحاديث:** لم يسأل احد من الصحابة في زمن الرسول عن كنه ذات الله وصفاته وقبلوا ما جاء في القرآن عن التوحيد والصفات دون جدال او قيد او تحقيق. ولا يحتمل ولا يعقل ان ينطق سيّد الرسل بأحاديث مخالفة في جوهرها لما جاء بالقرآن انما هي شرح لما غمض منه فقط.

ولما حصل التصدع بالصفوف في القرن الاول والثاني الهجري خلط كثير من الرواة والمحدثين عملاً سيئاً وآخر أسوأ منه، فوضعوا الأحاديث بروية ومكر ودهاء، حيث يصعب تفريقها وتمييزها، كل منهم حسب رغباته وأهوائه وميوله الدينية والسياسية والانتقامية، مما أشكل الأمر حتى على المحقّقين. وقد صحّ عند البخاري 2761 حديثاً من 600,000 حديث، وصحّ عند مسلم 4000 حديث من 400,000 حديث، ومع ذلك لقد جاز عليهما كثير من الأحاديث الموضوعة رغم معارضتها لأحكام القرآن ونصوصه.

لقد روى أبو هريرة حول الرؤية عن سيد الرسل انه قال: هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة؟ قالوا لا، قال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا لا، قال والذي نفسي بيده لا تضارون في رؤيته الا كما تضارون في رؤية احدهما.

وروى مثله جرير بن عبد الله قال: قال سيد الرسل انكم سترون ربّكم كما ترون القمر ليلة البدر

لا تضامون في رؤيته. مع ان هذين الحديثين يخالفان كل المخالفة ما جاء بالقرآن في قوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ فقد قبلهما البخاري وزملاؤه، وكصحيحين، اعتماداً على أبي هريرة وجرير، وأثبتوا الرؤية في القواعد الإسلامية قسراً، وقبلتها الفرق الاسلامية كافة سوى المعتزلة. وأمثاله كثير. والأنكى، اعتبار أهل السنة والجماعة ـ بدافع التعصّب المقوت ـ حديث «سيفشو الحديث عني فما وافق منها القرآن فهو عني وما خالفه فليس عني» بأنه من وضع الزنادقة. وأفتى بذلك الخطابي والعجلوني وغيرهما. وخلافاً لذلك أثبتوا حديث «الا واني اوتيت القرآن ومثله معه» وآخر «لألفينّ أحدكم متكياً على متكأ يصل إليه عني حديث فيقول لا نجد هذا الحكم في القرآن، الا واني أوتيت القرآن ومثله معه» وهما من أوضع الموضوعات. وفي الأحاديث الموضوعة المكذوبة يقول الدارقطني: الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود. ويقول شعبة: تسعة أعشار الحديث كذب. ويقول زيد: أمرنا رسول الله الا نكتب شيئاً من حديثه. وفي جامع مسلم: لا تكتبوا شيئاً عني غير القرآن. وكتب عمر بن الخطاب إلى الأمصار بعد ان استخار الله شهراً كاملاً: من كان عنده شيئاً من الأحاديث فليمحه. وفي مسند أحمد قال ابن شهاب: سمعت علياً يقول: ما عندنا كتاب نقرأه عليكم الا ما في القرآن وما في هذه الصحيفة أخذتها من رسول الله وفيها فرائض الصدقة. وفي الحقيقة ان المحدثين تخيّروا الثقاة من رواة الأحاديث غير ان اهتمامهم بمطابقة هذه الأحاديث مع نصوص القرآن ونقدها وتمحيصها كان ضئيلاً.

43 ـ وأما الأحاديث التي رفضت لضعف إسنادها كقوله: خلق آدم على صورة الرحمن وهي مأخوذة من التوراة: «وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا» (تكوين 26). فهي كثيرة ومن دس اليهود. ومع هذا لقد تمسك بهذه الاحاديث المكذوبة الموضوعة والمأخوذة من الاسرائيليات أقليّة ضئيلة لا يعبأ بها من أرباب الغايات الخاصة كداود الخوارزمي وزملائه، فاتخذوها حجة لتأسيس مذاهبهم الغالية. ولم يكتفوا بقبول أمثال هذه الأحاديث إنما أدخلوا الحلول والتناسخ والرجعة فيما بين الله والانسان، فألّهوا الأئمة آل البيت وجعلوهم متصرفين بهذا الكون، وآل البيت براء منهم. ولم يكتفوا بذلك أيضاً فألّهوا الأشخاص البشرية الاخرى، حتى جعلوا حلول الجزء الالهي في ابي مسلم الخراساني لانتقامه للايرانيين من العرب وفي كثير من الايرانيين واضعي المذاهب الدينية الغالية كما سيأتي بيانه.

44 ـ **البدع الاسلامية**: كان عبد الله بن وهب بن سبأ اليهودي اليماني المسلم، قد أظهر الزهد والتقوى والغيرة على الدين وبالغ ظاهراً في حب آل البيت النبوي حتى زعم ان الله حلّ في علي بن ابي طالب، كما زعم زميله بولس الرسول اليهودي المتنصّر من قبله بحلوله في عيسى بن مريم. وبحلول الجزء الالهي هذا كان علي على زعمه يستحق العبادة والتأليه كما تألّه عيسى بن مريم. وكان القصد منها تمزيق الوحدة الاسلامية والانتقام من سيد الرسل الذي مزّق شمل اليهود وهدم ديارهم ودكّ صياصيهم، فآمن بدعواه قوم سذّج راحوا إلى الامام بن أبي طالب وقالوا له: أنت الله أنت خالقنا ورازقنا فارتاع الإمام وفزع وهاله الأمر، فدعاهم إلى التوبة فأصرّوا وأبوا فحفر حفرتين وقذفهم في النار أحياء وأنشد:

لمـا رأيـت الأمـر أمـراً منكـراً ... اجّجـت نـاري ودعـوت قنـبـراً

فصاحوا وهم يحترقون لا يعذّب بالنار غير رب النار فأنت الله حقيقة. فردّدت صداها آركان المملكة الاسلامية كافة حتى استقرّت في قلوب جاهلة راقصة طروبة لمثل هذه الادعاءات لأغراض سياسية انتقامية، فأحلّتها محل العقيدة الثابتة لحلول الجزء الإلهي في علي وبنيه. ومن ابن سبأ هذا تشعّبت الأصناف الغلاة من الرافضة. وهؤلاء هم الفرق الغالية في حب آل البيت. وأما ابن سبأ فقد جاء في كتاب «الفرق بين الفرق» عنه ان علياً رضي الله عنه خاف من إحراق الباقين منهم شماتة أهل الشام وخاف اختلاف أصحابه عليه فنفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن. فلما قتل علي، زعم ابن سبأ ان المقتول لم يكن علياً وإنما كان شيطاناً تصوّر للناس في صورة علي، وان علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم وانه سينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه.

وأما عبد الله بن السوداء فقد جاء في كتاب «الفرق بين الفرق» أيضاً نقلاً عن الشعبي انه كان يهودياً من أهل الحيرة وأراد ان يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي وأولاده، فأظهر الاسلام ليعين السبأية على قولها. فذكر انه وجد في التوراة ان لكل نبي وصياً وان علياً وصي محمد وأنه خير الأوصياء. فلما سمع منه ذلك شيعة علي قالوا لعلي انه من محبيك. فرفع علي قدره وأجلسه تحت درجة منبره. ثم بلغه عند غلوه فيه فهمّ بقتله فنهاه ابن عباس عن ذلك ونفاه مع ابن سبأ إلى المداين، فافتتن بهما الرعاع بعد قتل علي وتنبأ لهم ابن السوداء فقال: والله لينبعن لعلي في مسجد الكوفة عينان تفيض أحدهما عسلاً والأخرى سمناً ويغترف منه شيعته إلى آخر الزمان(؟).

45 ـ كثرت البدع الدينية والمذهبية بعد ذلك، أثبت منها الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» أكثر من 70 فرقة إسلامية لكل منها نظريات خاصة بالإله، نذكر منها ما هو على جانبي النقيض من نظرياتهم حول الإله، ونبدأ بالفرق المشبهة وهي البنانية والهشامية والنعمانية... وجميعها من البدع المتطرفة.

46 ـ كان داود الخوارزمي يقول ان معبودهم جسم ولحم ودم، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ورأس ولسان وعينين وأذنين. ومع ذلك، جسم لا كالأجسام ولحم لا كاللحوم ودم لا كالدماء، ولا يشبهه شيء. وهو أجوف من أعلاه إلى صدره، ومصمت ما سوى ذلك، وان له وفرة سوداء وله شعر قطط، وقال: اما ما ورد في التنزيل من الاستواء والوجه واليدين والجنب والمجيء والاتيان والفوقية فأجروها على ظاهرها ـ أعني ما يفهم منها عند الاطلاق على الاجسام ـ ويستدلّ بذلك على أحاديث اسرائيلية موضوعة مكذوبة منها (خلق آدم على صورة الرحمن) ومنها (حتى يضع الجبار قدمه في النار)، ومنها (قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن)، ومنها (خمر طينة آدم بيده أربعين يوماً)، ومنها (لقيني ربي وصافحني وكافحني ووضع يده على كتفي حتى وجدت برد أنامله في صدري). وغير ذلك من الأحاديث وضعها أمثال ابن سبأ ونسبوها إلى سيد الرسل.

نقول أما «خلق آدم على صورة الرحمن» فهي مأخوذة من التوراة كما مرّ بيانه. وأما «لقيني ربّي وصافحني وكافحني...» فهي أيضاً مأخوذة من التوراة وهي عند ملاقاة يعقوب إلهه في مخاضة يبوق ومصارعتهما حتى طلوع الفجر مما سبّب خلع فخذ يعقوب (تكوين 23 ـ 22). وأما «خمّر طينة آدم بيده أربعين يوماً» فهي زردشتية. فإن طينة زرادشت بقيت في الخمرة ستة آلاف سنة قبل ان يخلق. فكانت هذه الأحاديث جميعها اسرائيلية زردشتية.

47 ـ والفرقة الثانية المضادة للمشبهة وعلى طرف النقيض منها هي المعتزلة، ونظرياتها بحق الإله مخالفة تماماً لما سبق. وهي إسلامية في مبادئها وموضوعاتها وقد قبلها العالم الاسلامي أجمع، وهي ان الله واحد ليس كمثله شيء وليس بجسم وليس بشبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم، ولا شخص ولا جوهر ولا عرض، ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة، ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة، ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع، ولا افتراق ولا متحرّك ولا ساكن ولا متبعّض، وليس بذي أبعاض وأجزاء وجوارح وأعراض، وليس بذي جهات، ولا بذي يمين ولا شمال وأمام وخلف وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان، ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول في المكان. ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدثهم ولا يوصف بأنه متناه ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات، وليس بمحدود، ولا والد ولا مولود ولا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار ولا تدركه الحواس ولا يقاس بالناس ولا يشبه الخلق ولا تجري عليه الآفات ولا تحلّ به العاهات، غير مشبه بكل ما يخطر بالبال ويتصوّر بالوهم والخيال، لم يزل أولاً سابقاً متقدماً للمحدثات موجوداً قبل المخلوقات، ولم يزل عالماً قادراً حياً. ولا يزال كذلك لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام ولا يسمع بالأسماع، شيء لا كالأشياء، عالم قادر حيٌّ لا كالعلماء القادرين الأحياء، وأنه القديم وحده ولا قديم غيره ولا إله سواه، ولا شريك له في ملكه ولا وزير له في سلطانه ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق، ولم يخلق الخلق على مثال سابق، وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ولا بأصعب عليه منه، ولا يجوز عليه اجترار المنافع ولا تلحقه المضار ولا يناله السرور واللذات ولا يصل إليه الأذى والآلام.

48 ـ وبين هذين الانموذجين صفات للباري تعالى عند مختلف الفرق والطوائف الاسلامية سنذكرها باختصار فيما يلي:

وجدنا في كتاب جدّنا الأكبر عبد الله الدملوجي كلاماً على صيغة التوحيد عند الصوفيين منقولاً عن القشيري، وهي:

ان الحق سبحانه موجود قديم واحد حكيم جوّاد قادر عليم فاطر قاهر رحيم مريد سميع مجيد رفيع متكلم بصير متكبّر قدير حي باق صمد، عالم بعلم، قادر بقدرة، مريد بإرادة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، حي بحياة، باق ببقاء، وله يدان هما صفتان يخلق بهما ما يشاء على التخصيص وله الوجه الجميل، وصفاته ذاته مجتمعة بذاته، لا يقال هي هو ولا هي اغيار له هي صفات له أزلية ونعوت سرمدية، وانه أحَديّ الذات ليس يشبهه شيء من المصنوعات ولا يشبهه شيء من المخلوقات، ليس بجسم ولا جوهر ولا صفاته أعراض، لا يتصور في الاوهام ولا يقدر في العقول ولا له جهة ولا مكان، ولا يجري على وتيرة ولا زمان، ولا يجوز في وصفه زيادة ولا نقصان، ولا يخصه هيئة وقد، ولا يقطعه نهاية وحد، ولا يحلّه حادث ولا يحمله على الفعل باعث، ولا يجوز عليه لون ولا كون، ولا ينصره مدد ولا عون، ولا يخرج عن قدرته مقدور ولا ينفك عن حكمه مفطور، ولا يقال لمَ فعل ما فعل اذ لا علة لأفعاله، ولا يقال ما هو اذ لا جنس له فيتميز بإمارة عن أشكاله، يرى لا عن مقابلة ويُرى لا عن مقابلة ويصنع لا مباشرة ومزاولة، له الاسماء الحسنى يفعل ما يريد ويذل لحكمه

العبيد لا يجري في سلطانه الا ما يشاء، ولا يحصل في ملكه غير ما سبق له القضاء، ما علم ان يكون من الحادثات أراد ان يكون، وما علم انه لا يكون مما كان ان يكون أراد ان لا يكون، خالق أفعال العباد خيرها وشرها ومتبوع في العالم من الأعيان والآثار قليلها وكثيرها... الخ.

49 ـ وأما الدروز ويسمون أنفسهم الاعراف وهم الساكنون في جبل الدروز وفي بقعة من حوران وبعض قرى لبنان وتبلغ نفوسهم ما يقارب ربع المليون نسمة يرجعون بأصلهم إلى آل تنوخ الذين هاجروا من اليمن وقت سيل العرم. سموا الدروز نسبة لواضع مذهبهم محمد بن اسماعيل الطهراني الدرزي ولقبه لافشكين. فان الإله عندهم هو الحاكم بأمر الله الفاطمي المتولي الحكم في مصر عام 996 م، ولما قتل الحاكم واختفى بجوار جبل المقطم أعلن وزيره حمزه بن علي بن احمد الطهراني انه صعد إلى السماء، وادّعى الإمامة في ظل الحاكم بأمره، ولقّب نفسه بهادي المستجبين. فوضع هذا الطهراني للدروز صيغة الاعتقاد وهي الايمان بوحدانية الله ـ الحاكم المولى، وانه فرد صمد منزّه عن الازواج والعدد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، لا بداية له ولا نهاية، عادل لا غرض لفعله، قادر لا مردّ لحكمه، إن أثاب فبفضله وان عاقب فبعدله، والايمان بالملائكة والانبياء والرسل والقضاء خيره وشره وبالقدر، والاعتقاد بخلود النفس التي تتقمّص في الاجساد البشرية إلى يوم الحشر حين تجزى كل نفس ما كسبت، قال الله للعالم كن فكان، والاعمار مقدّرة.

ووضع حمزة الطهراني المذكور «ميثاق ولي الزمن» ونصّه: «توكلت على مولانا الحاكم الاحد الفرد الصمد المنزّه عن الازواج والعدد اقر «فلان بن فلان» انه قد تبرّأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات على أصنافها واختلافها، وأنه لا يعرف شيئاً غير طاعة مولانا الحاكم جلّ ذكره، وان الحاكم بأمره إله واحد أتباعه له موحدون، اختفى، وحين يظهر آخر الزمان سيعين أتباعه أمراء وسلاطين يحمون البشر، وسيعذب غير أهل ملّته عذاباً أليماً». وقد أقفل باب الدخول بهذا المذهب.

والإله عند النصيرية وضع قواعده محمد بن نصير مولى حسن العسكري حفيد موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ويعتقد النصيريون ـ وهم فرع من الامامية أحد فروع الشيعة ـ ان الإله تجلّى للمرة الأخيرة في علي بن أبي طالب كما تجلّى قبله في شمعون (بطرس الرسول) وهارون واسماعيل وهابيل، واتخذ له في كل دور رسولاً مبشراً ونذيراً، أوّلهم آدم ثم نوح فابراهيم فموسى فعيسى فمحمد، ولكل من هؤلاء الرسل ستة أئمة يصدرون من «الأساس» وفيه يحل الجزء الإلهي. وان أئمة محمد هم علي وهو «الأساس»، والحسن والحسين وزين العابدين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر.

وللنصيريين ثالوث مكوّن من: (1) المعنى (الأب) الغيب المطلق، وهو (الله ـ علي)، (2) الاسم: (الابن) صورة المعنى وهو (محمد)، (3) الباب (روح القدس) وهو للوصول إلى المعنى وهو (سلمان الفارسي). ويعتقدون ان الملك جبرائيل لم يكن سوى الاسم الذي أطلق على سلمان الفارسي وهو الذي حمل القرآن كلّه إلى محمد وهو حامل هذه الرسالة الإلهية.

والإله معبود مقدّس فرد لا شريك له يحل في الاجسام متى شاء، وهو المعنى الحقيقي لا يعلم معناه الا هو. ولما حلّ في علي بن ابي طالب حصل عند محمد العلم الكامل، سوى المعنى الذي لا

يعلمه الا علي، فهو أبدي أزلي دائم وحاضر في كل مكان وزمان وله التصرف المطلق وإليه ترجع الأمور، وهو إمام بالظاهر وإله في الباطن لا يأكل ولا يشرب ولم يلد ولم يولد. فأما الظاهر فهو القسم البشري، وابن الانسان منه، فهو قسم الناسوت الذي كان يأكل ويشرب ويلد ويولد، وأما الباطن، منه فهو قسم اللاهوت الذي لا يأكل ولا يشرب ولا يلد ولا يولد.

وقد انقسموا ـ على قلّتهم ـ إلى عدة فرق منها عبدة الشمس ويعتقدون ان علياً يقيم فيها ومحمداً عينها فيسجدون لها صباح مساء. ومنها عبدة القمر، ويقولون ان علياً يقيم فيه وأما محمد فهو في الشمس، وسلمان الفارسي فهو في السماء، وأرواح المؤمنين في الكواكب. ومنها عبدة الهواء، ويقولون لا يوجد محل خال من الهواء، فالهواء هو الله. ومنها عبدة الحيوانات ويقولون ان أرواح السلف تحلّ فيها. ومنهم من يصلي صلاة الفجر لحسن بن علي، والظهر لمحمد، والعصر لفاتر ـ أي فاطمة ـ والمغرب للحسن، والعشاء للحسين. ومنهم من يقول بالاستناد إلى حديث ورد عن سلمان الفارسي ان النبي يوم المباهلة (4 شوال سنة 10هـ) وهو امام وفد بني بلحارث المسيحيين من نجران جمع أهله الخمسة (هو وحفيداه وابنته وزوجها) ودثّرهم بدثاره وقرأ من سورة آل عمران ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين﴾. لذلك، ربط بين الأشخاص الخمسة هؤلاء وبين الصلوات الخمس، وخصّص كل صلاة لواحد منهم. ويسمى كتابهم المقدّس «كتاب المجموع» مكوّن من ست عشرة سورة، نذكر «سورة العقد» رقم (10) وهي أصغر السور: (1) أشهد ان الله حق. (2) وقوله حق. (3) وان الحق المبين علي بن ابي طالب الانزع البطين. (4) والنار مثوى الكافرين. (5) والجنة روضة للمؤمنين. (6) والماء من تحت العرش يطوف وفوق العرش رب العالمين. (7) وحملة العرش الثمانية الكرام هم الذين إليه مقربون. (8) عدّتي في شدّتي وعدّة المؤمنين. (9) سر عقد ع (علي) وم (محمد) وس (سلمان الفارسي) (ملخص من كتاب الأستاذ عمر عنايت).

وكان قد أظهر سلمان الفارسي لأول مرة أحقية علي بالخلافة وغرس بذرتها عند حلفائه بني عبد القيس ثم نمت وأينعت فتحوّلت إلى مذهب التشييع.

50 ـ وأما الإله عند البابية فهو حلول الجزء الإلهي في ميرزا علي محمد. ادعى أولاً انه باب المهدي المنتظر فتبعه جماعة من الإمامية الباطنية، ثم قال انه باب الدين، ثم قال انه النقطة ويقصد بها ان للوجود نقطة ومظاهر. فالنقطة هي الخالق والمظاهر هي الانبياء. ثم قال انه خالق الكائنات وانه هيكل إلهي أرسل فيما سبق الانبياء ليمهدوا له العقول البشرية والطريق المستقيم. وكان يدّعي تارة انه الحسن وأخرى انه الحسين، وكان قد حلّ فيهما وفي الأئمة الأخرى، وأسمى نفسه «الذكر»، يزعم ان ما ورد في القرآن من قوله تعالى ﴿انا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ هو المقصود بها. وكتب كتابه وأسماه «البيان» زاعماً ان الآية ﴿خلق الانسان. علّمه البيان﴾ تعود إليه إلى ان شنقته الحكومة الايرانية. الا ان أتباعه ينفون قتله ويؤكدون رؤيتهم له وهو صاعد إلى السماء، فانتقلت الألوهية إلى أحد أتباعه ميرزا حسين الملقب بهاء الله وكتابه الأقدس، ثم إلى ميرزا عباس، ثم إلى شوقي المقيم في حيفا. وسنذكر شيئاً عن الدين البهائي الذي جاء به بهاء الله في نهاية هذا الفصل.

51 ـ يتجلى الجزء الإلهي عند الاسماعيلية[1] بعلي بن ابي طالب ثم بابنه الحسن ثم بزين العابدين بن الحسين ثم بمحمد الباقر ثم بجعفر الصادق ثم بابنه اسماعيل الذي توفي في حياة أبيه[2]. فانتقلت الإمامة والجزء الإلهي إلى حفيده محمد المكتوم بن اسماعيل ثم إلى جعفر المصدق ابن محمد، ثم إلى محمد الحبيب بن جعفر. وفي زمن هذا الإمام ظهر عبد الله بن ميمون القداح وأعقبه حسين الأهوازي، وحمدان الأشعث، الملقّب بقرمط، وعبد الله الشيعي، فنظّموا قواعد الاسماعليلة كما سيأتي بيانه في الفصول القادمة.

52 ـ كانت الامبراطورية الفارسية قد ازدهرت مدة اثني عشر قرناً ووصلت جيوشها حتى اليونان ومصر ثم قضى عليها العرب، الا ان ابناء ايران لم يغفلوا قط عن مجدهم الشعبي الغابر، ولم يرضخوا أبداً للعرب، ولم يرضوا بالنظام الجديد إلا بمقدار، ولم تطمئن رغبات البعض منهم للشريعة الاسلامية العربية. يضاف الى كل ذلك ضرورة الانتقام من العرب الذين قضوا على امبراطوريتهم الواسعة الأطراف، ومن كل مَن هو عربي. فتوجهت الأفكار الى ما بذره عبد الله بن سبأ بحلول الجزء الإلهي بعلي بن أبي طالب، فأنشأوا مختلف الفرق الاسلامية المعارضة لأهل السنة والجماعة وأسّسوا شتى النزعات المتنافرة للوحدة الاسلامية، واستمالوا أهل التشيّع بإظهار محبة أهل بيت السيد الرسول الاعظم واستبشاع ظلم علي بن أبي طالب وأولاده وأحفاده من بعده، فظهرت بالتعاقب فرق غلاة الشيعة ويسمون بالتاريخ الاسلامي الغالية وهم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود البشرية وأوصلوهم الى حدود الألوهية وآمنوا بحلول الروح الالهي في أجساد البشر، وتناسخ الارواح حتى شبّهوا الامام بالإله، والإله بالإمام، وأدخلوا نظرياتهم الفارسية والمزدكية والزرادشتية والمانوية في الحلول والتناسخ وأثبتوا البدء والرجعة فانتشرت الدعوة العلوية في كل مكان لا سيما وراء النهر وخراسان.

لم يسأل أحد من هؤلاء المغالين عما شاهدوا في الأئمة من صفات الألوهية، مع أن الأئمة كافة كانوا دائماً يتبرّأون الى الله من هذه المقولات ويطردون قائليهم من مجالسهم، ولو كان لهم من القوة والقدرة والتصرف بشؤون العالم وما يسبغونه عليهم ويسندونه إليهم من الخوارق والجاه المقبول والمحل الارفع والمقام المحمود عند الله كما يزعمون، او ان الجزء الإلهي قد حلّ فيهم وحدهم كما يدعون، لزلزلوا الارض وقلبوا ما في بطونها من الاثقال على رؤوس مناوئيهم. الا ان الحرية الدينية سمحت لكل مشعوذ متهوس من ساسة الفرس القدماء والموالي والخدم أن يدّعي ما يروقه من المقولات، وأكثرها مضحك، لهدم أركان هذا الدين، كما سيأتي بيانه، ولم يتبعهم بها سوى بني جنسهم الناقمين على العرب وعلى كل ما هو عربي.

---

(1) مع العلم ان الله عند جميع الغلاة لا يمكن معرفته بحد ذاته فهو فوق كل وصف وتقدير، انما الامر تأليه بالمشاركة وذلك بحلول جزء من الاجزاء الالهية بالافراد، فيتألهون.

(2) كان الامام السادس جعفر قد عين ابنه اسماعيل خلفاً له، ولكنه عاد فعين ابنه الثاني موسى الكاظم (المتوفى 183/799) لانه وجد اسماعيل مرة في حالة السكر، ولكن بعض اتباعه لم يسلموا له بحق نزع الامامة عن اسماعيل فحافظوا على ولائه وساقوها بعده في ابنه محمد (الفرق بين الفرق).

53 ـ أما بعد، فإنّا نكرر ما قلناه ونستعيذ بالله من أن نرمي جميع الايرانيين بالمروق عن الدين كما ذكرنا سابقاً؛ ففيهم المسلم الحق والمجتهد الأكبر في الدين، كما انه بعد قبولهم الديانة الاسلامية اختلطوا مع العرب اختلاطاً تاماً وامتزجوا معهم امتزاجاً كاملاً فحصل بينهم التآخي والمصاهرة والمحبة حيث صاروا أمة واحدة تقريباً. واذا كانوا قد خضعوا للعرب سياسياً، فقد أخضعوا العرب لثقافتهم ومدنيتهم. ولا نكران ان العرب والدول العربية استفادوا من علوم الفرس وثقافتهم وسياستهم واجتماعياتهم ومدنيتهم وحضارتهم الشيء الكثير، كما استفادوا هم من دين العرب وآدابهم ونفوذهم وسلطانهم ومعتقداتهم وتوحيدهم أكثر فأكثر، فخدموا الدول والشعوب العربية ولم يزالوا يخدمون الديانة الاسلامية بصدق وإخلاص في مختلف الميادين السياسية والادبية والفكرية والاجتماعية والتعبدية. وكان لهم النصيب الاوفر في تأسيس الحضارة الاسلامية وترقية الآداب العربية والتراث الاسلامي العظيم. ظهر منهم الوزير والكاتب والقائد والعالم والأديب والإمام والمجتهد والفيلسوف مما لا يحصيهم عد. كما كان فيهم كذلك الإلهيون المغالون والقواد الماكرون والسياسيون المشعوذون، اولئك كانوا ينظرون الى الدين الاسلامي من خلال تاريخهم ودينهم القديم ونظمهم وتقاليدهم. وهؤلاء هم الذين نعنيهم.

54 ـ في الدرجة الأولى من الغلاة ترى «السبئية» فهم يزعمون ان علياً لم يقتل، وأن المقتول بسيف ابن ملجم كان شيطاناً تصوّر للناس بصورة علي وأنه صعد إلى السماء كما صعد ابن مريم. وفيه الجزء الإلهي ولا يجوز ان يموت وهو في السحاب، والرعد صوته والبرق سوطه واذا سمعوا صوت الرعد قالوا «وعليك السلام يا أمير المؤمنين»، وأنه سينزل بعد ذلك الى الارض فيملأ الارض عدلاً... الخ. وقالوا بتناسخ الجزء الالهي في الائمة بعد علي.

ويليها «الكاملية» ويقولون بتناسخ الارواح عند الموت ويعترفون بالحلول. ومعنى الحلول عندهم ان الله قائم بكل مكان، ناطق بكل لسان، ظاهر بشخص من أشخاص البشر ويكون إما بجزء وإما بكل.

ومنهم «العليائية» وكانوا يفضلون علياً على النبي. ويزعمون ان علياً بعث محمداً، ويقولون ان محمداً عبد، وعلياً رب. ومنهم من قال بألوهيتهما ويقدّمون علياً في أحكام الألوهية. وقال قائلهم:

كفى في فضل مولينا علي، وقوع الشك فيه انه الله، يموت الشافعي وليس يدري عليٌّ ربه أم ربه الله!

وفرقة قالت بألوهية آدم والنبيين بعده نبيّاً الى محمد، ثم بألوهية علي ثم بألوهية الحسن والحسين، ثم ألوهية علي ثم محمد بن علي، فجعفر بن محمد ووقفوا هنا. فكانت الخطابية تصيح في شوارع الكوفة «لبيك جعفر لبيك».

ومن الغلاة «السليمانية» وهم الذين قالوا بنبوّة سلمان الفارسي، وقوم قالوا بألوهيته.

ومنهم «القرامطة» وهم شعبة من الاسماعيلية، ادّعوا حلول الجزء الإلهي في محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد. ومنهم من قال بحلوله في أبي سعيد الجبائي وأولاده من بعده، ومنهم من قال بألوهية أبي القاسم النجّار باليمن. وقالت طائفة منهم بألوهية عبد الله ثم الولاة من ولده. وتعرّض سليمان بن الحسن للحجّاج في طريق مكّة وأسرف في القتل منهم. ثم دخل مكة وقتل من كان

في الطواف، وأغار على أستار الكعبة، وطرح الجيف في بئر زمزم وضرب واحد منهم الحجر الأسود وقال «كم تعبد في الارض، وآل محمد لا يظهرون» واقتلعوا الحجر الأسود وحملوه الى البحرين ثم أعادوه.

ومنهم «المغيرية» ومؤسسها سعيد العجلي مولى خالد بن عبد الله القسرى. ادعى الإمامة لمحمد بن عبد الله بن الحسن، ثم ادّعاها لنفسه، ثم ادّعى النبوة فقال: ان الله صورة وجسم ذو أعضاء على حروف الهجاء.

ومنهم «المنصورية» ومؤسّسها أبو منصور العجلي. خدم عند محمد بن علي الباقر، فما طرده وتبرّأ منه، ادعى انه هو الإمام خليفة الباقر. وكان يقول ان الكسف الساقط من السماء هو علي وهو الله، وزعم انه صعد الى السماء ورأى معبوده فمسح بيده على رأسه وقال له «يا بني بلّغ عنّي» فتبعه خلق كثير.

ومنهم «الخطابية» ومؤسّسها أبو الخطاب. خدم عند جعفر الصادق وقال ان الأئمة انبياء. ثم قال ان الائمة آلهة وان أولاد الحسن بن علي انبياء الله وأحباؤه وإنهم لا يموتون، ولكنهم يرفعون الى السماء، وإن جعفر هو الإله في زمانه، وليس هو المحسوس الذي يرونه وإنما تشبّه على الناس، ولما نزل على العالم لبس هذه الصورة. ولما علم الإمام جعفر خبث نواياه طرده وتبرّأ منه، فادّعى الألوهية لنفسه، فقتله عيسى بن موسى صاحب المنصور. وافترقت الخطابية بعده خمس عشرة فرقة كلهم يزعمون ان الائمة آلهة، وأنهم يعلمون الغيب، وجوّزوا كلهم شهادة الزور لموافقيهم.

ومنهم «اليزيغية» وبطلها يزيغ. وكان يقول ان جعفراً هو الإله، وأبا الخطاب الامام، وهو نفسه خليفة الامام.

ومنها «العجلية» وبطلها العجلي. كانت تجتمع على عبادة جعفر الصادق فصلبهم ابن هبيرة في كناسة الكوفة. وزعمت الخطابية بأجمعها ان جعفراً الصادق اودعهم جلداً يقال له جفر فيه كل ما يحتاجون إليه من علم الغيب وتفسير القرآن. وتبرّأ جعفر الصادق من هؤلاء جميعهم الى الله.

ومنهم «المعمرية» وهؤلاء استحلوا الخمر والزنا وسائر المحرّمات.

ومنهم «الراوندية» وهم شيعة العباسيين، يدعون انّ العباس احقّ الناس بالخلافة بعد رسول الله، فألّهوا المنصور أبا جعفر الخليفة العباسي، فقاتلهم وصلبهم في جذوع النخل.

ومنهم «الكيالية» اتباع احمد بن الكيال. وكان هذا داعياً لأحد الأئمة المستورين. ولما طرده الإمام وتبرّأ منه، ادعى لنفسه الإمامة وجاء بنظريات مضحكة عن خلقة العالم. وكان يقول: كلما اضمحل العالم وانحلّ أرجعته الى سيرته الاولى لأني انا القائم بأمره. ويقول: الألف من احمد يدلّ على الانسان حيث استقامة القامة، والحاء على الحيوان لانه معوج ومنكوس، والميم على الطائر لانه يشبه رأس الطير، والدال على الحوت لانه يشبه ذنب الحوت فقد جمع في نفسه العالم الحيّ. ويقول ان الله خلق الانسان على شكل احمد. فالقامة مثل الألف واليدان مثل الحاء والبطن مثل الميم والرجلان مثل الدال. ورغم هذه السخافات، فقد اتبعه قسم من الناس.

ومنهم «الجناحية» الذين قالوا بإلهية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر.

ومنهم «الحلحانية» المنسوبون الى ابي حلحان الذي زعم ان الإله يحلّ في كل صورة حسنة. وكان يسجد لكل صورة حسنة.

ومنهم «الهشامية» وبطلهم هشام بن سالم الجواليقي، وهشام بن الحكم. وكان الأخير يقول ان معبوده في مكان مخصوص طوله سبعة أشبار، متحرّك، ومتناه بالذات، غير متناه بالقدرة. ويقول الجواليقي انه على صورة انسان أعلاه مجوّف، وأدناه مصمت، وهو نور ساطع يتلألأ، وله حواس خمس ويد، ورجل، وأنف، وعين، وفم، وله وفرة سوداء، وهو نور أسود ولكنه ليس بلحم ودم. وغلا ابن الحكم في حق علي فقال انه إله واجب الطاعة.

ومنهم «النعمانية» أصحاب محمد النعمان، وكان يقول ان الله لا يعلم شيئاً حتى يكون، وانه نور على صورة إنسان.

ومنهم «النصيرية والاسحاقية» وهم من غلاة الشيعة، قالوا بتناسخ الأنوار الإلهية في الأئمة. وقالوا ان ظهور الروحاني بالجسد الانساني أمر لا ينكره عاقل كما ظهر جبرائيل بصورة أعرابي، والشيطان بصورة إنسان، فإن الله ظهر بصورة أشخاص. ولما كان علي وأولاده أفضل العالمين، فقد ظهر الحق بصورتهم ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم. ففي هذا أطلقنا اسم الألوهية عليهم. وقالوا: لم يكن قتال المنافقين، ومكالمة الجن، وقلع باب خيبر، بقوّة جسدية إنما هي من أوّل الدلائل على ان فيه جزءاً إلهياً وقوّة ربّانية، أو يكون هو الذي ظهر الإله بصورته وخلق بيده، وأمر بلسانه.

ومنهم «البيانية» أصحاب بيان بن سمعان الهندي. قالوا بانتقال الإمامة إليه أي إلى بيان نفسه. وهو من الغلاة القائلين بإلهية علي بن ابي طالب. قال: حلّ في علي جزء إلهي واتحد في جسده، به كان يعلم الغيب، وبه كان يحارب الكفّار وبه قلع باب خيبر. وعن هذا قال والله ما قلعت باب خيبر بقوّة جسدية، ولا بحركة غذائية، إنما بقوّة ملكوتية. قال بنان: وربما يظهر علي في بعض الأزمان. وزعم ان معبوده نور على صورة إنسان عضواً فعضواً وجزءاً فجزءاً، وأنه يفنى كله إلا وجهه. ثم ادعى بيان انه قد انتقل إليه الجزء الإلهي بنوع من التناسخ فصار إماماً وخليفة. وقال عن نفسه انه المذكور في القرآن ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ وقال: انا البيان وانا الهدى والموعظة. فقتله خالد بن عبد الله القسري.

ومنهم «الغرابية» زعموا ان الله أرسل جبريل الى علي فغلط في طريقه فذهب الى محمد لأنه كان يشبهه.

ومنهم «المفوضية» زعموا ان الله خلق محمداً وفوّض إليه تدبير أمور العالم، ثم فوّض محمد تدبير أمور العالم الى علي.

ومنهم «الذمية» الذين زعموا ان علياً هو الله، وشتموا محمداً. وزعموا ان علياً بعثه لينبىء عنه فادعى الأمر لنفسه وأرضى علياً بان زوّجه ابنته.

ومنهم «الشرقعية» ويقال لهم المخمسة، وهم أصحاب الكسا وأصحاب العبا. زعموا ان الله حلّ في خمسة أشخاص: النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين. فقال شاعرهم:

لـي خمسة أطفي بهم نار الجحيم الحاطمة
المصطفى والمرتضى وابنيهما وفاطمة

وادعى الشرقعي يوماً ان الإله حلّ فيه.

ومنهم «المخطئة» يزعمون ان جبرائيل أخطأ فقالوا غلط الأمين. ومنهم من نسبها الى الخيانة فقالوا «خان الأمين». وقال قائلهم:

خان الأمين وصدّها عن حيدر تالله ما كان الأمين أمينا

ومنهم «الحلولية» أصحاب محمد بن علي الشلغماني، زعموا وجوب إيلاج الفاضل نوره في المفضول، وهي من آثار الإباحية، والاشتراك في النساء وإباحة اللواط. ومنهم أتباع مازيار، كانت لهم ليلة يجتمعون فيها على الخمر والرقص رجالهم ونساؤهم، فإذا أطفئت السرج افتض الرجال النساء. ويزعمون: كان والد «شروين» مؤسّس دينهم من الجن وأمّه بعض بنات ملوك فارس وأنه أفضل من محمد...

55 ـ ومن الطوائف الاسلامية المعاصرة، الأحمدية ومؤسّسها ميرزا أحمد المرتضى القادياني، ويسمّيه أتباعه المسيح الموعود، وخليفة المسيح الثاني (محمد ص. ع.). قام بتأسيسها أولاً بالهند ثم انتشرت في افريقيا. يدعي الميرزا احمد ان محمداً(ص) ليس خاتم النبيين، ولم تزل النبوة باقية في أمة محمد. ويقول في كتابه «مواهب الرحمن» ترجمة البشرى: ونعني بختم النبوة كمالتها على نبيّنا الذي هو أفضل رسل الله وأنبيائه، ونعتقد بأنه لا نبي بعده الا الذي هو من أمّته، وهو من أكمل أتباعه الذي وجد الفيض كلّه من روحانيته وأضاء بضيائه.

ثم يقول: وهذه ليست بنبوة أخرى، ولا محل للحيرة، بل هو أحمد تجلّى في مرآة سجنجل آخر، ولا يغار رجل على صورته التي أراه الله في مرآة وأظهر... فمن كان من النبي وفي النبي فإنما هو هو لأنه في أتم مقام الهناء ومصبغ بصبغته، ومرتد بذلك الرداء، وقد وجد الوجود منه... (مجلة البشرى عدد 7 و8 سنة 11)، مما يستدل من عبارته هذه قوله بحلول اجزاء النبوة فيه. ومن جملة أقواله «من فرق بيني وبين المصطفى فما عرفني وما رأى». وبهذا الادعاء أصبح الحلول عنده كاملاً.

ولم يكتف الميرزا أحمد بذلك، بل قال: «ان الله سمّاني نبياً بوحيه وكذلك سميتُ من قبلُ على لسان رسولنا المصطفى». وليس مراده من النبوة إلا كثرة مكالمة الله وكثرة ما يوحى... وكل من حصلت له هذه الدرجة يكلّم الله ذلك الرجل بكلام أكثر... الى ان يقول: اني احد من الأمة النبوية سمّاني الله نبياً تحت فيض النبوة المحمدية، وأوحى إليّ ما أوحى فليست نبوّتي الا نبوّته وليس في جبّتي الا أنواره... (الاستفناء صفحة 24 طبع فلسطين ـ ترجمة البشرى).

وبعد ان تمّ للميرزا حلول فيض النبوّة فيه عاد وأظهر إمكان حلول الجزء الإلهي بالأشخاص البشرية فيقول في كتابه «البراهين الأحمدية» المنشور نبذ منه في مجلة البشرى المذكورة «... لا يمكن لنا ان نسمي هؤلاء الأصفياء آلهة. ولكن تكون لهم علاقة المحبة والقرب مع الله بصدق وصفاء بصورة كأن الله قد نزل فيهم... ولكن ليس انهم أصبحوا آلهة بل يوجد بينهم وبين الله تعلّق كتعلّق الحديد بالنار عندما يلقى الحديد بالنار حتى يحمر ويصبغ بصبغة النار. وفي هذه الحالة تصبح الأشياء كلها تحت أمرهم ويسمع صوتهم ما في السماء وما في الارض من نجوم السماء والشمس والقمر والهواء والماء والبحار والنار وتعرفهم وتقبل في خدمتهم...». وهذا معناه حلول الجزء الإلهي فيهم. ويظهر لنا انه هو المقصود من الأصفياء.

ونشرت مجلة البشرى بعددها الخامس والسادس لسنة 1365 هجرية إيضاحاً لمدلول كلمة نبوة القادياني ما قاله ميرزا غلام احمد القادياني عن نفسه ما يلي: «في اي المواضع التي أنكرت فيها النبوّة والرسالة انما انكرت هذا المعنى فقط، وهو انني لم أجيء بشريعة مستقلة ولا انا نبي مستقل، لكن بالحصول على الفيوض الباطنية من رسولي المقتدى وبعد ان سميت باسمه وحصلت على عالم الغيب بواسطته، فبهذا المعنى انا نبي ورسول، ولكن من دون شريعة جديدة. ولم أنكر أبداً ان يقال عني نبي بمثل هذا المعنى». وبهذا لقد اعترف القادياني بأنه نبي ملحق بالأنبياء وليس مستقلاً استقلالاً تاماً. توفي القادياني سنة 1908، وأعقبه خليفته الأول نور الدين المتوفى سنة 1914، وخلفه بشير الدين محمود أحمد.

وفي زماننا ادعى سلمان المرشد النصيري بالألوهية، وانه تجلّت فيه الربوبية، وأيّدته السلطة الافرنسية المحتلة في سوريا بعد اتفاق جرى بينه وبينها، فأصبح الرب سلاحاً في يدها ضد الوطنيين، وصار يزعم أنه يشفي المرضى ويحيي الموتى ويعيد الغائبين ويخرج النار من الأرض، ويسيل اللبن والعسل من تحت إبطه، ويضرب الحائط بعصاه فتتفجر منه المياه... وغيره من أعمال المشعوذين في الملاهي والمسارح. وسئل مرة: أنت إله وآغا خان إله فكيف تتسّع الأرض لإلهين؟ فأجاب: ان الخالق يبث روحه فيمن يشاء، وقد بثّها في مائة من مخلوقاته فيصبحون أرباباً مثلي. وتبعه خلق كثير من سكان جبال اللاذقية، وأفسد في الأرض فشنقته الحكومة السورية سنة 1946، ولا نعلم هل ادعى أتباعه انه صعد الى السماء وسيعود لينتقم من أعدائه. وأفادت أخبار يوم 15 نيسان 1950 ان محمد بن سليمان بن عوس ادعى الألوهية في اللاذقية أيضاً وتبعه الحمقى من الناس.

البهائية: وأما ما يعود الى البهائية او الدين البهائي المنتشر في زماننا هذا، فقد جاء الميرزا حسين الملقّب بهاء الله بدين انساني جديد مقتبس كله من الديانات السابقة معنى وحرفاً كحاطب ليل ولم يأت بشيء جديد. فقد أيّد ما جاء به السيد المسيح والسيد الرسول من الدعوة الى الصلح والسلام، وإزالة الفروق العرقية من بين الأجناس البشرية، والتساوي بين الناس، ونبذ الحروب والابتعاد عن سفك الدماء، مؤولاً نصوص الأنبياء السابقة بما تقتضيه ديانته الجديدة، فادعى انه الآب السماوي، وحلول الجزء الإلهي فيه. وأدخل في ديانته الحلول والاتحاد، وكثيراً من القواعد المسيحية وبعض الكلمات والجمل والمعاني والتراكيب وحتى نفس الألفاظ القرآنية، وإليك بعض المقتطفات والنماذج من أقواله.

فقد جاء في الفصل الرابع من كتاب «ملكوت الآب السماوي الموعود» لمؤلفه (فرجي ف. فيل) المطبوع بمعرفة المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في العراق حول المجيء الثاني للمسيح نقلاً عن كتاب «الايقان» قوله: ويوضح حضرة بهاء الله ان رجوع حضرة المسيح قد تحقق بمجيء ذاته نفسه بعد مجيء حضرة الباب.

وفي قوله: يتخذ لنفسه في كل مقام اسماً خاصاً ورسماً مخصوصاً.

وفي قوله: كل فرد يعرف حقيقة المسيح، و يستطيع عرفان بهاء الله الآب السماوي، وسيعترف جمّيع العالم في النهاية برياسة الآب السماوي للسلام ويقرّون له بذلك، وان الآب نفسه سيظهر على الارض ظهوراً يشبه ظهور الابن.

وفيه عن كلام بهاء الله حول وحدة الوجود: اننا من الله واننا إليه سنعود وهذا الرجوع الى الله الهدف الاسمى لكل بهائي.

وفيه: لما كانت النبوات الواردة في الكتب لا تشير الى مجيء يسوع المسيح بل الى مجيء الآب السماوي، فيكون المسيح والآب كلاهما شيئاً واحداً (انا وابي كلانا واحد)، فكان المسيح والآب السماوي شيئاً واحداً وإن تعدّدت الأسماء. وكلمات البهاء نفسه تعلم بالتأكيد «بأن الآب قد ظهر على الارض بالجسد لا بالروح، ولأجل ان يظهر الله أسمى صفاته اتخذ الهياكل البشرية واسطة لذلك».

وجاء في الفصل 24 منه: ان بهاء الله حثّ البشر على تحرّي الحقيقة فقال «يا ابن الوجود صنعتك بأيادي القوة، وخلقتك بأنامل القدرة، وأودعت فيك جوهر نوري فاستغنِ به عن كل شيء، لان صنعي كامل وحكمي نافذ، لا تشك فيه ولا تكن مريباً... فاني فيك قائماً قادراً مقتدراً قيّوماً».

وجاء فيه نقلاً عن كتاب المقتطفات لبهاء الله «يا عبادي لو تعرفون بدائع وجودي وفضلي عليكم لانقطعتم بأنفسكم عن كل الأشياء، ولعرفتم أنفسكم عرفانكم نفسي، ولرأيتم أنفسكم مستغنية عن كل ما سواي، ولشاهدتم بحور رحمتي وفضلي متموجة فيكم».

وفيه نقلاً عن سورة الهيكل «تعالت النسمة التي هبّت من رداء ربك الأبهى، فقد فاحت نفحاتها فجعلت كل شيء جديداً فطوبى للعارفين».

وفيه نقلاً عن ألواح حضرة بهاء الله التي كتبها لشاه ايران، ولسلطان تركيا ولقيصر روسيا ولرؤساء الجمهوريات في اميركا ولامبراطوري فرنسا والنمسا وللملكة فكتوريا وللمسيحيين واليهود كافة: «قوموا عن القبور، الى م أنتم نائمون، وقد نفخت النفخة الأخرى الى من انتم تنتظرون ـ هذا ربكم الرحمن، انظروا كيف بآياته تكذبون. قد زلزلت الارض بزلزال عظيم ووضعت أثقالها ـ أفلا تؤمنون، أفلا ترون الجبال كالعهن المنفوش، وكيف ان الناس من عظمة الأمر منصعقون».

وفيه من كتاب المقتطفات: «قل هل من شك في الله... انظروه قد نزل من سماء فضله بقوة وسلطان... قد جاءكم وعن يمينه الفردوس، فضلا من لدنا عليكم، واكرعوا خمر الحياة... ثم سعرت في جهنم لهيبها، اسرعوا وادخلوا الفردوس».

وفيه يقول بهاء الله، وهو الكائن الأعظم عند مريديه، عن يوم الحساب: «... لا تظنوا ان ما ارتكبتموه قد محي من نظري، لا وجمالي، قد كتبنا أعمالكم كلها على الألواح الزبرجدية».

وفيه يقول بهاء الله عن الادانة والدينونة «... انهم ينعمون بلقاء الآب السماوي ويفوزون بالنعم الروحانية على مائدته التي يقيمها لجميع الشعوب».

وفيه يقول بهاء الله «قل إنا أجرينا من عرشنا أنهار البيان لينبت بذلك كلأ الحكمة والعرفان في القلوب، أفلا تشكرون. ان الذين يستكبرون عن عبادة ربهم أولئك من المبعدين. واذا تتلى عليهم آياتنا يصرّون ويستكبرون، ويتجاوزون الحدود ولا يعلمون... وقد جاءهم بغتة ما هو الموعود. انظر كيف يفرون... هذا يوم يفر فيه كل امرىء من نفسه فكيف من عشيرته الادنون، لو انتم تدركون. قل تالله قد نفخ في الصور فصعق الناس، ونادى المنادي وارتفع صوت النذير، «الملك لله القادر الحافظ المعين، قد اسودت الوجوه، إلا من وهبه ربه قلباً منيراً وسكرت أبصار الذين احتجبوا عن مشاهدة وجه ربك البهي المحمود».

وفيه عن كتاب المقتطفات ايضاً: «يا قوم ان اردتم ان تعرفوا الله وتكشفوا عظمة عزته فانظروني بأعينكم... ولو تمعّنتم في أمري بدوام ملكوتي وتدبّرتم مخلوقاتي ببقاء ربّكم السلطان المهيمن العليم، كذلك أظهرنا حقيقة تجلينا لعل يقوم الناس من غفلتهم ويكونوا من العارفين».

وفيه نقلا عن كتاب نظام حضرة بهاء الله العالمي: «لعمري سوف نطوي العالم وما فيه ـ ونبسط مكانه نظاماً جديداً آخر. انه على كل شيء قديراً».

وفيه نقلاً عن كتاب المقتطفات أيضاً: «وترى الناس سكارى وعلى وجوههم آثار غضب عظيم، كذلك نحشر المجرمين، وتراهم يجتمعون على أصنامهم. قل لا عاصم لكم اليوم من أمر الله، هذا يوم شديد، قل قد طويت السماء والارض في قبضته، وقد اخذ المجرمون بسيماهم وهم لا يعلمون، ويشربون من ماء غسلين وهم لا يعرفون، قل قد ارتفعت الصيحة وقام من في القبور، وهم الى من حولهم ينظرون. وقد اسرع البعض للقاء ربهم الرحمن، وسقط آخرون على وجوههم في النيران وبقي البعض في دهش وذهول، قد نزلت الآيات وهم عنها غافلون، ولاح الدليل وهم ساهون، واذا رأوا الرحمن اسودت وجوههم وهم لاهون يسرعون الى الجحيم يظنونها الأنوار، تعالى ربك عما يصفون».

يستدل من مقتطفات الآيات البهائية الآنفة الذكر أن منها تدل على ادعاء البهاء بالألوهية، ومنها تدل على وجود إله غيره يأمره بكلمة (قل) وفيه تناقض غريب. واذا كان في الآيات القرآنية أيضاً من جهة ﴿إنّـا أنزلناه في ليلة القدر﴾ ومن جهة أخرى ﴿قل هو الله أحد﴾ فإن السيّد الرسول لم يدع بالألوهية وان وضعه ومناسباته مع إلهه واضح ومعلوم.

56 ـ يظهر مما تقدّم، انه قد منح الجزء الإلهي للأشخاص تبعاً للاختراصات والاهواء السياسية والمذهبية حتى أصبح الأمر فوضى تناوله كل متهوس. ومن الغريب ان يجد هؤلاء المتهوسون اتباعاً وأنصاراً في كل زمان. والصحيح ان البشر كان ولم يزل طفلاً في هذا الكون لم يبلغ سن الرشد إلا عندما ينجح بتوحيد النظريات الدينية فيجعل له معبوداً واحداً الله وحده لا شريك له، وديناً واحداً بالأصول والفروع ويستغني عن سواه، فتزول جميع الغضاضات ويحل التآخي والوئام بين أفراده بعد تجربة قاسية دامت آلاف السنين لم يستفد منها سوى الملوك ورجال الأديان.

57 ـ اذا نظرنا الى السماء والى الارض والى ما حولنا من الطائر في السماء الى السابح في الماء الى حركة السيارات الى طنين الذباب الى ما يحصل من التعامل الكيمائي في أنابيب الزجاج الى كل مادة وكل ذرة وكل دقيقة في هذا الكون، نرى فيها قوة تحرك وتسيّر هذا الكون والعوالم بقواعد وسنن ثابتة لا تتغير، تابعة لتلك القوة العظمى الكلية التي هي مصدر القوى ﴿قل كل من عند الله﴾ فمنها صدرت وإليه تعود ﴿والأمر يومئذٍ لله).

الفصل الثامن صراع الصوفية والشيعية

1 ـ **الولاية**: كان الاعتقاد السائد عند العرب في الجاهلية ان لأرواح الأنبياء والعظماء وكبار الكهنة والرهبان وللأصنام والأوثان موقعاً ممتازاً وكرامة مرموقة عند الإله العظيم. وقد تتوسط بين الإله العظيم والانسان لمحو الذنوب والآثام ولنيل السعادة الدنيوية والأخروية، وكانوا قد اتخذوهم أولياء لهم. والولي في اللغة يأتي بمعنى المحب الصديق والنصير والرب، والمنعم ـ (القاموس)، فلم تكن من الحكمة الإلهية نزع هذه العقيدة من رؤوس العرب مرة واحدة إنما جاء تحريمها تدريجياً كما هو الحال في تحريم الخمرة. وبينما كان العرب يتخذون الأصنام والأوثان أولياء لهم ويعبدونهم لتقرّبهم الى الله زلفى ﴿والذي اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى﴾ (الزمر) صرفهم عنها أولاً الى ذاته تعالى فقال جل وعلا ﴿الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، ثم ندّد بالأولياء أشدّ التنديد، وعرّض بهم أقوى التعريض فقال عز وجل ﴿أم اتخذوا من دونه أولياء، فالله هو الولي وهو على كل شيء قدير﴾ (الشورى). وبهذه الآية الكريمة نفى الباري الولاية عن كل شخص بشري وحصرها بذاته تعالى.

وجاء في القرآن الكريم تأييداً وتأكيداً لما مرّ أعلاه قوله تعالى: ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً قل هل يستوي الأعمى والبصير ام هل تستوي الظلمات والنور﴾ (الرعد) وقوله تعالى ﴿انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون انهم مهتدون﴾ (الأعراف) وقوله لرسوله الكريم ﴿قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض﴾ (الأنعام). ﴿أنت وليّي في الدنيا والآخرة﴾ (يوسف)، وكلها تنفي الولاية عن غير الله نفياً باتاً.

ولما شاهد رجال الصوفية فرق الشيعة تعلن من فوق المآذن خمس مرات في اليوم الشهادة بالولاية لعلي بن ابي طالب مقرونة مع شهادة لا إله إلا الله وشهادة محمد رسول الله منحوا الولاية لشيوخهم كافة دون قيد او شرط، فأصبح كل شيخ من شيوخ الطرائق ولياً من أولياء الله، وارتفعت قبابهم بعد موتهم نحو السماء، اضطروا الى ذلك لمقابلة القواعد الشيعية بأمثالها.

2 ـ **الشفاعة**: في تاريخ الفلسفة الدينية ان أول من قال بوجود وسطاء وشفعاء بين الإله العظيم والناس هو فورفوريوس تلميذ أفلوطين الاسكندراني مؤسس الأفلاطونية الجديدة. فقد قال: ان بين الإله اللامتناهي وبين العالم المحسوس يوجد موجودات أخرى بمثابة أشياء او أنصاف الآلهة، وفي هذه الساحة تعين البشر للوصول الى الإله العظيم اللامتناهي. وعند انتشار هذه الفكرة في الأوساط الدينية والفلسفية تأثر بها القسس والرهبان في العالم المسيحي فقالوا: ان السيد المسيح يقترب من الإله العظيم بصفته اللاهوتية ويقترب من الناس بصفته الناسوتية فيكون وسيطاً وشفيعاً بين الله والناس. وقالوا: «اذ هو حيّ في كل حين لأجل الشفاعة» (بولس) وقالوا: «عن يمين الله الذي أيضاً يشفع فيها هو المسيح» (بولس).

ولما كانت الشفاعة قد شغلت حيّزاً كبيراً في الديانة المسيحية وأصبح بعد ذلك كل بطريق وجاثليق وكل قسيس وراهب شفيعاً عند الله وله حتى غفر الذنوب بالمفرد والجملة «من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم عنه أمسكت» (متى)، فقد انتقلت الشفاعة من سوريا المسيحية الى الجزيرة العربية فاعتبر كهّان العرب أصنامهم شفعاء عند الله ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ (يونس).

لقد حارب سيد الرسل العرب وهم يعترفون بوجود الله ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ (لقمان) ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر ليقولنّ الله﴾ (العنكبوت) و﴿لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ (الزخرف). فمع اعتراف العرب في الأدوار الجاهلية بأن الله خلق السماوات والارض وما بينهما كانوا مشركين يشركون الأصنام والأنصاب والأوثان في عبادتهم، لا لعبادة الأصنام والتماثيل نفسها، إنما لتكون شافعة لهم عند الله وتكون واسطة بين الله وبينهم. فكان حربهم لاتخاذهم شفعاء من دون الله ولإشراكهم التماثيل والأحجار في عبادة الله ومناجزتهم حتى يقولوا «لا إله إلا الله وحده» قولاً وفعلاً دون إشراك القباب والأصنام والتماثيل. فكان من الحكمة الإلهية إزالة هذه المعتقدات من عقول العرب لا بمرّة واحدة إنما تدريجياً، كما حدث في الولاية وفي تحريم الخمرة. فبينما كانت الآيات الكريمة في بادىء الأمر ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ و﴿ما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ و﴿من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ و﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ و﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً. ولا يقبل منها شفاعة﴾ وآيات أخرى كثيرة مثلها، اذ قد تبدّل الأمر وانحصرت تلك الشفاعة بعد ذلك بالله العظيم وحده لا يشاركه فيها أحد. فقال عزّ من قائلٍ ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، قل لله الشفاعة جميعاً﴾ (الزمر) وحرّمت الشفاعة على كل أحد بشراً كان أم حجراً سوى الله، هذا ما كان في صدر الاسلام الأوّل.

ما معنى الشفاعة؟ لا يمكن تفسير معنى الشفاعة دون تصور الإله العظيم كملك جبّار وديكتاتور ظالم منتقم حقود يظلم الناس تبعاً لرغباته وانفعالاته وهواه، فيتغير ويتبدل ويتحول على غير هدى ويغضب ويثور بدون شعور، ويرضى ويسترضى ويثب وينتقم ويعطي ويمنع ويقبل الشفاعة والنذور ويدير شؤون العالم تبعاً لمشيئة متبدلة متحوّلة زمنية متغيرة حسب الحال والطلبات، ويحتاج الى شفيع أو وسيط لتسكين غضبه وإزالة حدّته ولتحويله عن قصده وإرادته ﴿تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً﴾.

فات هؤلاء الناس جميعاً ان معنى الشفاعة في الذنوب يوم القيامة كما فهمته العامة هي إسناد المحاباة لله تعالى لقسم من خلقه وهي مخالفة للعدل الإلهي. وفاتهم أيضاً انه تعالى لم يقبل من سيد المرسلين دعاءه يوم احد فنزلت الآية الكريمة ﴿ليس لك من الأمر شيء او يتوب عليهم او يعذّبهم فهم ظالمون﴾، وان سيد الرسل نفسه ما كان يدري ما يفعل به ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾، وهو القائل لابنته: يا فاطمة بنت محمد اعملي فاني لا أغني عنك من الله شيئاً. وفاتهم أيضاً ان الله لا يغيّر مقدوراته ولا يبدل إرادته الأزلية بدعاء الصالحين وشفاعة الشافعين لان ذلك معناه إسناد التبدّل والتغيّر الى الله وهو محال. وبالنظر لما مرّ أعلاه، فاذا كان هو نفسه لا يدري

ما يفعل به يوم القيامة، فمن هو الذي بوجاهته المزعومة يقترب من الله العظيم ويغني غيره ناهيك بنفسه! والله يقول: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئا﴾.

ولما كان في كل ديانة وعند كل امة وفي كل فرقة وطائفة وحزب وجماعة ممن يعتقد بوجاهتهم وشفاعتهم عند الله كثيرون، فإما ان يكون الله شريعة لكل وارد، فيقبل شفاعتهم كافة دون قيد او شرط، فلا يذهب الى الجحيم إلا من لا شفيع له، ولا يذهب الى النعيم إلا المحسوبون والمنسوبون للأولياء والشهداء والشفعاء والصالحين، وهي منافاة لما يجب لله تعالى من ربوبية وتنزيه وعدل. وإما ان يردّها كلياً او جزئياً، وحتى الرد الجزئي والفردي يكون رادعاً للشفيع لا يكررها مرة اخرى، كل هذا على فرض ـ كما يقوله البعض ـ ان الله تعالى أشبه شيء بملك من ملوك الارض له ما يشبه العواطف الإنسانية والمقاييس البشرية، والله تعالى منزّه عن ذلك.

ورغم ذلك كله لما شاهد رجال الصوفية ان الشيعة اتخذت الأئمة العلويين هداة وشفعاء عند الله جاؤوا بعدة أحاديث عن شفاعة محمد (ص) لأمته، دون ملاحظة مخالفتها لأصول القرآن الكريم ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾. واعتبروا الأقطاب والأولياء والشهداء وجهاء وشفعاء عند الله العظيم. فارتفعت قبابهم نحو السماء في طول البلاد الاسلامية وعرضها، وأصبح لا يخلو بلد إسلامي إلا وفيه قبة أو قباب لشيوخ الصوفية يزورها ويدفن بجوارها مختلف الطبقات من الناس طلباً للانتماء تحت لوائها وطمعاً بشفاعتها يوم القيامة، لما لها ـ كما يزعمون ـ من منزلة سامية مرموقة عند الله العظيم. كل ذلك لمقابلة قباب النجف والكربلاء ولصرف الناس عن التوجه إليها.

3 ـ **النور المحمدي**: اسندت الاناجيل الى السيد المسيح قوله «قبل ان يكون ابراهيم انا كائن» (8 ـ 58 متى)، وقوله «لانك احببتني قبل إنشاء العالم» (17 ـ 25 متى)، وقوله «والآن مجّدني انت ايها الآب بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (17 ـ 5 متى).

وجاء في الاساطير الزرادشتية أن الإله خمّر طينّه زرادشت بيده ستة آلاف سنة قبل خلقه العالم ثم جعلها في شجرة أنشأها في الجنة ثم غرسها في جبل من جبال اذربيجان، ثم مزجتها الملائكة بلبن بقرة فشربها ابوه فانتقلت نطفة ثم مضغة ثم علقة في رحم أمّه.

وجاء في رواية الملا محمد تقي الخونساري في كتابه «خلاصة الأفكار» عن الامام جعفر الصادق عن أبيه عن علي بن ابي طالب انه قال: ان الله خلق نور محمد قبل ان يخلق آدم وخلق مع نوره اثني عشر حجاباً... ثم أظهر الله اسم محمد على اللوح... ثم أظهره على العرش... عشرات الآلاف من السنين الى ان وضعه الله في صلب عبد المطلب وعبد الله ومحمد وإلى نفوس الأئمة... ولما اطلع رجال الصوفية على هذه الرواية أسندوا الى سيد الرسل انه قال: كنت نبياً وآدم بين الماء والطين، وافترضوا انتقال النور الإلهي المحمدي هذا الجوهر الواجب الوجود الى كل الأولياء والشهداء والصالحين من بعده، فأصبح هؤلاء كافة يحملون قبساً من النور المحمدي الذي خلقه الله قبل ان يخلق العالم.

ولما شاهد فلاسفة المتصوفة ان الشيعة تقول ان الإمامة تورث قالوا ان مشيخة الطريقة وراثية

فينتقل نور الشيخ منه الى ابنه. ولم تزل أحفاد شيوخ الطرائق تعتبر شيوخاً مهما طال على جدّهم العهد، وحتى أطفالهم والأجنّة التي في بطون أمهاتهم تحمل ذلك القبس المحمدي.

4 ـ **السلسلة الروحانية**: ولأجل مقابلة الشيعة الإمامية الاثني عشرية بأئمتهم ساق الصوفيون الخيال الى إنشاء مملكة من الأرواح تدير شؤون العالم من وراء ستار. يقول محيي الدين بن عربي (المتوفى في دمشق عام 1240م) في «الفتوحات المكية» عنها: وهم اثنا عشر نقيباً في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، على عدد بروج الفلك الاثني عشر، كل نقيب عالم بخاصية كل برج وبما أودع الله تعالى في مقامه من الأسرار والتأثيرات... وزاد عليهم الغوث ومقامه بمكة، والأوتاد عددهم أربعة، والأقطاب سبعة، والأبدال أربعون، والنجباء ثلثمائة. وكلما مات منهم رجل أبدل الله بمكانه رجلاً فلا ينقصون ولا يزيدون...

حتى الغزالي كان مؤيداً لهذه السلسلة الصوفية فيقول في كتابه «المنقذ من الضلال»: ولقد كان في عصرهم جماعة من المتألهين لا يخلي الله العالم منهم، فانهم أوتاد الارض. كل هذه لمقابلة الشيعة الإمامية بأئمتهم.

5 ـ **الحب**: ولما شاهدوا حب الشيعة لأئمتهم جاؤوا بالحب الإلهي فكان الحب من أسس القواعد الصوفية الثابتة الرصينة وقد تغنّى به رجالهم كافة كما هو معلوم.

6 ـ **الحلول**: ولما شاهد فلاسفة المتصوفة مغالاة بعض فرق الشيعة بأئمتهم وإخراجهم من حدود البشرية وإيصالهم الى حدود الألوهية حتى شبّهوا الإله بالإمام والإمام بالإله، ولم يكتفوا بذلك حتى جعلوا حلول الروح الإلهي في بعض الأفراد من زعمائهم، وقالوا بتناسخ الأرواح، وبالرجعة، وبأن الله قائم بكل مكان ناطق بكل لسان ظاهر بشخص من أشخاص البشر... الخ، جعلوا حلول الجزء الإلهي في كل ذرة من ذرات الكون، فقالوا بوحدة الوجود الروحية ووحدة الشهود والاتحاد والفناء وبالوجود الكلي المطلق اللانهائي... الخ، فكانت تسبيحاتهم «لا موجود غير الله». وبذلك جعلوا حلول الجزء الإلهي في الموجودات أوسع مدى وأكثر شمولاً من الشيعة الغالية.

7 ـ **قلت**: لقد أيّد القرآن الكريم ان سيد الرسل محمد بن عبد الله(ص) كان رسول الله ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفّار﴾ وكان بشراً مثل الناس ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ ولم يكن بأكثر من رسول ﴿وما محمد الا رسول...﴾ ولم يكن لحكمة بالغة أباً لأحد من الناس ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ وكان بشراً رسولاً ﴿قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولا﴾. ومع هذه النصوص القاطعة الواضحة في القرآن الكريم قال عليه السلام: لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ولكن قولوا عبد الله ورسوله. كل هذا حذراً من أن يؤلّه بعد انتقاله الى جوار ربّه كما أُلّه السيد المسيح من قبله. وكان كل فرد من الصحابة على حذر من روايات اليهود الذين أسلموا ليفسدوا الإسلام، فلم يجد المنافقون في زمن الشيخين سبيلاً والحالة هذه لرفعه إلى السماء وتأليهه وعبادته.

ولما ظهرت الحروب الداخلية وانقسم المسلمون على أنفسهم وشرعت المشاغبات والتحرّكات تنتشر خفية وجهاراً في النصف الثاني من خلافة الخليفة الثالث، رأى عبد الله بن سبأ اليهودي اليماني المسلم الميدان مساعداً لنفث سمومه. ولما لم يتمكن من تأليه محمد بن عبد الله(ص) لوجود

النصوص القاطعة الآنفة الذكر، ولوجود من بقي من الصحابة الأشداء الآخرين، اتجه إلى تأليه علي بن أبي طالب والأئمة وأولاده وأحفاده من بعده، وتبعه بذلك وأيّده بمقالات سفسطائية زميله عبد الله بن السوداء اليهودي المسلم من أهل الحيرة كما ذكرناه تفصيلاً قبلاً، فوجدت كلمتهما مرتعاً خصباً في رؤوس القوميين من ساسة الفرس القدماء والشعوبيين والموالي والعبيد، فانتشرت ألوهية الأئمة وعبادتهم هنا وهناك وفي كثير من الأقطار الاسلامية.

ولما استولى البويهيون على بغداد والاتابكيون على الموصل وسورية وتغلب المغول على البلاد الاسلامية وأشغل الفاطميون شمال افريقية وزال السلطان العربي من الميدان السياسي وانكمش العرب في عقر دارهم على أنفسهم وقويت شوكة الشيعة الغالية في كل مكان وخلا الجو للمنتقمين من الدين وانتشرت قواعد الاسماعيلية والفاطمية والخرمية والقرمطية والخطابية والنصيرية والدرزية والباطنية... الخ، من جبال الصين في الشرق حتى البحر الأطلنطي في الغرب، وامتد التشيّع بمختلف قواعده وألوانه وأشكاله في طول البلاد الاسلامية وعرضها، وتبعهم شعب كثير في كل مكان، ظهرت فلاسفة المتصوفة في الميدان الديني للكفاح ضد المذاهب الهدّامة وتخليص ما يمكن تخليصه من الناس من الانزلاق في هاوية المذاهب المتطرفة كما فعلته المعتزلة في القرن الثاني الهجري مع خصومهم، إسلاميين كانوا أم غير إسلاميين، في التوحيد والتنزيه. وبينما كان المتصوّف لا يتجاوز حدود الزهد والعبادة والتجرّد من الملذات وترك الدنيا للوصول إلى حياة أفضل في الآخرة والتوجّه إلى الله العظيم بالتعبدات المفرطة والصلاح والتقوى... (وكما هو الحال عند الصوفية المسيحية ـ سوى الرهبنة ـ) تطور تدريجياً فمنح رجالاً منه جميع ما أسبغته الشيعة الغالية لأئمتهم من الصفات والمزايا ـ سوى العصمة ـ كالولاية والشفاعة والحلول والنور المحمدي والسلسلة الروحانية والجاه المقبول عند الله العظيم، والتدخل في شؤون العالم احياء وأمواتاً، وافترضوا وجود الاثني عشر نقيباً والأقطاب والأبطال والأبدال والأولياء والنجباء الأحياء منهم والأموات لإدارة شؤون العالم من وراء ستار ومن بطون اللحود. كل ذلك لمقابلة تلك المذاهب الغالية بمثل قواعدها، ولتخفيف حدّة ما شدّده الوعّاظ وعظّمه الخطباء من هول يوم القيامة، والحشر والنشر وعذاب القبر، بواسطة الأولياء والشفعاء على قدر ما تتحمّله قواعد السنة. ونجحوا نجاحاً باهراً بعد صراع خفي مرير، سفكت فيه الدماء الغزيرة في مصر وشمال افريقية كافة وأخيراً في سوريا والبلاد العثمانية أجمع، كما ونجح كذلك من بينهم الشيخ عبد القادر الكيلاني وخلفاؤه من بعده في الجبال الكردية وفي الهند وباكستان، الا أنهم اخفقوا جميعاً في العراق الجنوبي لقربه من ايران حامية حمى التشيّع.

8 ـ ومن أغرب الغرائب وأعجب العجائب لم يتطرق من كلا الجانبين أحد منهم لا صراحة ولا إيماء، لا بقلمه ولا بكلامه، الى هذا التطاحن الصامت العنيف، مما يدل على انه كان منحصراً في رؤوس الفلاسفة من رجال الصوفية فقط، أولئك الذين وضعوا قواعد مذهبهم لمقابلة القواعد الشيعية وإبطال مفعولها، ضمن نطاق قواعد أهل السنة والجماعة دون ان يجلبوا عليهم نقمة أهل الشيعة، ودون ان يشعر بها أحد، وحتى شيوخ الطرائق المختلفة المنتسبة الى الصوفية نفسها. ولا نعلم كيف يعتقد رجال الصوفية في البلاد الايرانية من أصحاب الطرائق الحلولية والنعمة الإلهية والكونيادية والارجاغية... بقواعد الطائفتين المتعارضتين ولأي منهما أكثر إخلاصاً وأشد تمسكاً.

الفصل التاسع العوامل المؤثرة في الإسلام

يمكن تصنيف العوامل الأساسية المؤثرة في الديانة الإسلامية إلى ثلاثة اقسام:

1 ـ العوامل السياسية الدينية، 2 ـ العوامل الفلسفية، 3 ـ العلماء الضالون والدهريون والملحدون.

1 ـ العوامل السياسية الدينية

الخوارج: يقال لهم النواصب والحرورية والشراة.

قد تأتي في طليعة العوامل المؤثرة فرقة الخوارج المتطرفة، أولئك الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يوم صفين حين قال له القوم: يدعونا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف؛ وقالوا لترجعن الاشتر عن قتال المسلمين وإلا لنفعلن بك كما فعلنا بعثمان. فاضطر إلى رد الاشتر بعد ان هزم الجمع. ولم يكتفوا بذلك فحملوه على ان يبعث الاشعري وكيلا عنه للتحكيم، وكان يريد إرسال عبد الله بن عباس، فجرى الأمر على خلاف ما كان يتوقعه. ولما رفض قرار التحكيم ولم يقبله خرجت الخوارج عليه، وقالوا لم حكمت الرجال لا حكم الا الله، ولا حكم للرجال ولا طاعة لمن عصى الله. وغضبوا ونابذوا علياً. فقال علي عليه السلام كلمته المشهورة: كلمة حق أريد بها باطل، وجعلوا من أساسات مذهبهم تكفير عثمان وعلي وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضي بالتحكيم أو صوّب الحكمين أو احدهما، وتكفير معاوية وناصريه ومحبيه، والخروج على الامام الجائر وقتاله إذا خالف السنة، وجواز الامامة في غير قريش حتى إذا كان عبداً أو حراً. وأجازت فرقة الشبيبيّة منهم إمامة المرأة، وزعموا ان غزالة ام شبيب الشيباني كانت الامام بعد قتل ابنها شبيب، وكانت قد دخلت الكوفة وقامت خطيبة وصلّت الصبح بالمسجد الجامع، فقرأت في الركعة الأولى بالبقرة وفي الثانية بآل عمران. وأجازوا أيضاً أن لا يكون في العالم إمام أصلاً. وقالوا بصحة خلافة أبي بكر وعمر وخلافة عثمان في سنيه الأولى حتى غيّر وبدل، وخلافة علي في سنيه الأولى حتى حكّم. ونفى بعضهم امامة علي بن أبي طالب لأنه لم يبايعه بالخلافة سوى قسم ضئيل من ابناء الحجاز والعراق فقط، فلم يحصل على اجماع الأمة. وقالوا بتكفير اصحاب الكبائر ومن جملتهم الامامان عثمان وعلي. فناظرهم عبد الله بن عباس فلم يرجعوا، وقاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقتل منهم جماعة، ومع هذا لقد دخل في دعوة الخوارج خلق كثير.

كانت بعض قواعد مذهبهم الآنفة الذكر معتدلة لولا تكفيرهم الامامين العظيمين، مع أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كان يقول عنهم: «اخواننا بغوا علينا». ويقول عليه السلام: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه».

ولما شرّدهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يوم النهروان انهزم فريق منهم إلى شمالي افريقيا فظهر مذهبهم في هذه الأماكن وافترقوا إلى عشرين فرقة. ولم تزل بقايا فرقة الاباضية منهم في طرابلس الغرب وفي الناحية الشرقية من الجزيرة العربية وفي زنجبار وحواليها.

وخرجوا في البصرة وقتلوا عامل عبد الله بن الزبير عليها، وحاربهم المهلب بن أبي صفرة تسع عشرة سنة، وكان قائدهم أولاً نافع بن الأزرق ثم قطري بن الفجاءة وسمي أمير المؤمنين. وكان غلوّهم انهم كفّروا عثمان وعلياً وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عباس وسائر المسلمين الذين لم يدخلوا معهم.

ومنهم من قال ان المسلم هو الذي يشهد الشهادتين ويتبرأ من الامامين ويؤمن بما جاء من عند الله جملة، وان القدر خيره وشره من العبد، وان العبد يخلق افعاله ويبدع أعماله، وان الله يريد الخير دون الشر وليس له مشيئة في معصية العباد. ومنهم الفرقة الميمونية الضالة الذين أجازوا نكاح بنات البنات وبنات أولاد الأخوة والأخوات وقالوا ان الله حرّم نكاح البنات وبنات الأخوة والأخوات ولم يحرم نكاح أولاد هؤلاء. وأنكروا كون سورة يوسف من القرآن وقالوا عنها انها قصة (ولعل ان تكون هاتان الفقرتان الأخيرتان تهمة ألصقها بها معارضوهم). ومنهم الاباضية أصحاب عبد الله بن الاباضي الذين يقولون ان مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين ولا مؤمنين ومناكحتهم وشهادتهم جائزة. واستحلوا بعض اموالهم كالخيل والسلاح وحرموا اخذ الذهب والفضة عند الغنيمة.

يظهر من هذه النتف الصغيرة ان قسماً قليلاً من قواعد الخوارج حسنة، والأقسام الأخرى منها فيها الشيء الكثير من الغلو والتجاوز على الشريعة الإسلامية مما سبب الانشقاق في الصفوف وإشغالهم الحكومتين الأموية والعباسية مدة طويلة من الزمن. فإذا كانت دساتيرهم من جهة سياسة زمنية قويمة، فمن جهة أخرى تعرضوا بدون جدوى للخلفاء الراشدين ما استوجب نقمة العالم الإسلامي عليهم. ولولا ذلك التهوس الجامح والتعصب الأعمى لكانوا أول فرقة اصلاحية في العالم الإسلامي.

الإسماعيلية والقرامطة: الفرقة الثانية التي هزت الديانة الإسلامية هزاً عنيفاً هي الشيعة الإسماعيلية، وتسمى الباطنية، وتسمى السبعية، وتسمى التعليمية، وأبطالها عبد الله بن ميمون القداح وحسين الاهوازي وحمدان الاشعث الملقب بقرمط والحسن بن صباح وغيرهم.

كان أبو الخطاب داعية لمحد الباقر وثم لجعفر الصادق ولما غالى فيهما تبرءا منه، وطرده السيد الصادق من مجلسه، فقبض عليه عيسى بن موسى وصلبه سنة 138 هـ مع سبعين رجلاً من اتباعه، فتحول بقية اتباعه ومن بينهم ميمون القداح إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق فاتخذوه إماماً لهم. وهؤلاء هم أصل الإسماعيلية ومؤسسوها، فوضعوا عقيدة الإمام الصامت والامام الناطق، والإمام المستقر، والإمام المستودع، وقواعد التأويل وعلم الباطن... وما هي في الحقيقة إلا حركة قومية آرية ضد السامية العربية، تمثل وجهات نظر المذاهب والأديان كافة التي قضى عليها الإسلام، غايتها احلال المجوسية محل الإسلامية، وإحياء مذهب النور والنار والدهرية ونشر الإباحية والزندقة والالحاد وإنكار الشرائع.. فانتحلت انتسابها إلى العلويين مكراً وخداعاً، واحتمت وراء محمد بن إسماعيل بن جعفر كذباً وزوراً... وأما انها نمت وترعرت في اليمن وسوريا والعراق، فهي من مخادعة القواد القائمين بنشرها وتضليلهم وإخفاء مقاصدهم الباطنية عن الأعين. فقد أتى القداح بنظريات خليطة من قواعد الفلسفة اليونانية والديانة المسيحية والزردشتية والمانوية والمزدكية والبرهمية،

فأخرجها تحت ستار الديانة الإسلامية مذهباً قوياً سداه التشيع لآل البيت ولحمته إنكار الظاهر المكشوف وتعزيز الباطن المستور، وبذلك إيقاع التفرقة بين المسلمين والقضاء على الديانة الإسلامية. واستطاع بفضل قواعده السرية ومكره ودهائه من سوق الكتل الكبيرة من الناس السذج والرعاع والدهماء إلى قبول مذهبه حيث لا يعلم احد من العرب غاياته الحقيقية التي هي هدم الإسلام وتعاليمه ونظمه السياسية والاجتماعية والأخلاقية. فقد جعلها حركة سرية باطنية ذات رتب كالماسونية قد تخفى عقائدها وشخصياتها حتى على المنتسبين إليها. فلم يتيسر لأحد الوقوف والاطلاع على اسرارها. وجمعت في طياتها كثيراً من الفرق المتباينة مع بعضها، وأصبحت تعبر عن لسان حال المظلومين والمغدورين والمضطهدين كافة من الاعراب والفرس والموالي والروم والصابئة والبربر... أولئك الذين قبلوا الديانة الإسلامية رهبة لا رغبة، ولم يكن قد دخل الإيمان في قلوبهم بعد، فكانت الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية والخرمية... وغيرهم جماعات منفصلة عن بعضها، مرتبطة برباط داخلي مع بعضها، قد احكم عبد الله بن ميمون القداح، بوضعه الحركة الباطنية الموحدة، صنعه.

قسّم القداح الناس إلى رتب وفرق ودرجات لكل منها تعاليم وإرشادات خاصة. أول درجة منها علنية تخص السواد الأعظم من الناس وهي التفجّع على آل البيت وتثبيت الأئمة السبعة ثم الأئمة المستورة وتفضيل علي بن أبي طالب وأمثال ذلك. وآخر درجة منها سرية بحتة تخص الزعماء والقواد والمقربين، وهي ان الله الخالق والمصور أبعد من أن تتناوله الأيدي والعقول لعلوه وبعده عنا، فيحكم بصفاته على العالم والعالم كله صادر عن الله بطريقة الافاضة والصدور. فإن الله في كل شيء ومع كل شيء. ويقولون ان الإله خلق النفس، فالإله هو الأول والنفس هي الثاني، وسموها العقل والنفس أو الأول والثاني. ولما كان ليس من المعقول الاعتقاد بإله لا يرى، فكان ضرورياً ظهور الإله بالنفس لتلقين الشريعة، وهذا ما دعا أن يكون الإله دائماً بين البشر. والإله منزه عن الصفات البشرية لا يحيط الإدراك كنه وجوده، كان قد خلق العقل الكلي ثم خلق الروح الكلي (يظهر انها مقتبسة من فلسفة انكساغورس الحكيم اليوناني). فكل ثالوث مكوّن من الله والعقل الكلي والروح الكلي، وهذه مأخوذة من ثالوث النصارى، ثم ادخل عليها الزمان والمكان وبتأثيرهما تحركت الروح نحو العقل، ومن هذه الحركة تحركت الافلاك، ودخلت في المادة فحركتها وتجسد العقل، فصار ناطقاً وتجسد الروح فصار «اساساً» والامام علي هو أساس النبي محمد، وقد اباح لمحمد بكل شيء إلا «المعنى» فاحتفظ بها لنفسه. ولكل نبي من الأنبياء السبعة (آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإسماعيل) أساسٌ. فكما ان علياً اساس محمد فان هارون اساس موسى، وبطرس اساس عيسى، والقداح نفسه اساس محمد بن إسماعيل بن جعفر. ولكل نبي سبعة أئمة يعلمون الناس ديانتهم. وعند انقضاء سبعة أئمة يأتي نبي جديد لتجديد احكام الدين تبعاً للزمن، ويكون له سبعة أئمة. وعند الخوف والمظالم يستتر الإمام فيقوم الباب أو الإمام الناطق أو الإمام المستودع عوضاً منه فينشر دعاته دعوته... الخ. واستفاد واضعو هذا المذهب من السماوات السبع والأفلاك السبع لتأييد الأئمة السبع، ولهذا أطلق عليهم اسم السبعية. وقد اخذ القداح هذا العدد من مذهب زرادشت المجوسي الذي يعتبر ان لإله

الخير «اهورا مازدا» سبعة ملائكة حوله ومن المقربين إليه. وقد أخذ المجوس هذا العدد من الكلدانيين الذين يعتبرون الأفلاك السبعة آلهة وهو من الاعداد المقدسة عندهم.

نظّم الحسن بن صباح، وهو فارسي من خراسان، الحركة الإسماعيلية ونشرها في جميع أنحاء فارس والعراق والشام.

وكانت الحرية الدينية في البلاد الإسلامية قد وصلت منتهاها في ذلك العهد الذي ظهر فيه ابن القداح والحسن بن صباح، فكانت الأحزاب السياسية تظهر عادة مبرقعة ببرقع الدين والمذهب والفرق الدينية للتخلص من تعقيبات السلطة الزمنية حيناً من الدهر حتى تجلب حولها الأنصار. وفي سبيل هذه الغاية تتذرع بجميع الوسائل حتى تحشد حولها جموع البسطاء والدهماء فتعلن الثورة للتغلب على السلطة السياسية. فكانت الإسماعيلية في بادىء أمرها في القرن الثاني الهجري مكونة من أفراد الشيعة الغالية وكثير من الفرس، ظاهرها التفجّع على آل البيت المظلومين، حتى إذا ما اشتد ساعدها، ظهر منها فرقة القرامطة التي افزعت العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري، ثم ظهرت الخلافة الفاطمية في مصر في القرن الخامس، ثم ظهر الحشاشون في سوريا والخرميون في إيران في القرن السادس... وقد اتخذ زعماء هذه الحكومات والفرق حق العلويين الشرعي في الخلافة والإمامة ستاراً يخفون وراءه القضاء على السيف العربي المسلط فوق رؤوسهم.

فكان عبد الله بن ميمون القداح الفارسي الأهوازي (المتوفى 261 هـ) رئيس فرقة الإسماعيلية ومؤسسها من الزعماء السياسيين. درس الفلسفة الطبيعية واطلع على الأديان. فألف بين أهل الإيمان وبين الزنادقة والملحدين والسياسيين الموتورين، واتخذ منهم قوة تعمل على قلب الدولة العباسية متخذاً كل وسيلة لاجتذاب السذج من الناس، فأظهر الشعوذة والسحر والكرامات، واتخذ الحشيش والافيون، وكل نوع من المخدرات لإغواء حواشيه ومريديه بأن الجنة تحت أمره وطاعته. ومن جهة أخرى اظهر الزهد والتقوى والعبادة والعلوم والتفجّع على آل البيت لاجتذاب العناصر الأخرى من الناس إلى جانبه، مع أنه لم ينظر إلى الأئمة العلويين بأكثر من نظرته إلى سائر العرب الغاصبين. فقد اتخذهم ذريعة لاكتساب عطف الشيعة حتى يتم له تحقيق غاياته الخفية، وأطلق عليهم عنوان الإمام الصامت والإمام المستقر والإمام المستور والإمام المعصوم وأخيراً الإمام الإله المتلبس صورة البشر لتلقين الشريعة. وهذا معناه وضعهم تحت الحجر والوصاية وعزلهم عن الناس والاستفادة من اسمائهم فقط. يقول الاستاذ محمود الملاح في كتابه «الوحدة الإسلامية»: ووقع بين الخادم والمخدوم تبادل في المنفعة، هذا يريد الكيد للإسلام وذاك يريد أن ترفع على رأسه الاعلام! بأي ثمن كان.

ولما كان لدى القداح مختلف الطبقات من الناس فلأجل تأمين الانضباط بينهم وسوقهم إلى المجزرة كان من جملة دساتيره وقواعده الأساسية الاطاعة المطلقة والانقياد الأعمى للرئيس حتى الموت، وتضحية النفس في سبيل الجماعة واحتقار الجسد والسمو بالروح للوصول إلى دينه، دين الحق. يقال لما وجد الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق مرة سكران قالوا انه بسكره دل على تفوقه وعلى عدم تقيده «بظاهر» الشريعة بل «بباطنها»، فاعتبروا «ان لكل ظاهر باطناً ولكل شرع تأويلاً». ودعواهم أنه «لا يصلح كل معلم بل لا بد من معلم معصوم» لكي يقوم بإيضاح الباطن وإظهار التأويل

فكانت الحاجة واضحة إلى التعليم والمعلم، ومن الضروري ان يكون المعلم معصوماً. وهذا سبب تسميتهم بالتعليمية.

درس الإسماعيليون كتب اليهود والنصارى والزرادشتيين والهنود، واطلعوا على الفلسفة اليونانية وفسروها بأساليبهم الخاصة، فوضعوا قواعدهم على اساس مستوى الناس العقلي والاجتماعي والثقافي، وجعلوها طبقات بحيث من كان في طبقة لا يعلم شيئاً عن الطبقة التي بعدها لحشد جميع الناس تحت لوائهم. فكانت طبقات الاتباع مقسمة بالنظر للعمر والثقافة العامة والاخلاص للدين. فأما الأحداث فيدرسون العلوم الابتدائية تحت ارشاد اساتذتهم فترسخ في نفوسهم الطاعة والانقياد لرؤسائهم، فأما الأكبر سناً فيدرسون الحكمة الدنيوية والفلسفة اليونانية والرياضيات والفلكيات وجميع العلوم الأخرى الموافقة لعقيدتهم. وأما الذين يتجاوزون الخمسين من العمر فيطلعون على أساليب معرفة الناموس الإلهي وأسرار الكون، وهي درجة الأنبياء عندهم. وأما الشيوخ فيشهدون حقائق الأشياء فيرتفع عنهم الحجاب فلا تؤثر فيهم سنن الكون ويكونون قد بلغوا منزلة الملائكة. وكلها ترمي إلى هدم تعاليم الإسلام توصلا إلى الملك والخلافة الإسلامية.

واعتبر القداح ان من حق الإمام ان يهب لمن يشاء الإمامة الروحية فيسمي الإمام الظاهر أو الامام الناطق أو الإمام المستودع، وكذلك من حقه منح الانتساب إلى آل البيت بالروح (الطعمة) فيكتسب الشخص الصفة العلوية. وعلى هذه القاعدة فقد وهب ومنح وأعطى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق الإمامة الروحية إلى عبد الله بن ميمون وجعله اماماً ناطقاً. ولما مات عبد الله بن ميمون ونجح ابنه سعيد في تأسيس الدولة الفاطمية في شمال افريقيا ادعى انه من آل البيت وأنه المهدي بهذه الصفة.

أهم مخلفاتهم «رسائل اخوان الصفا» وهي أشبه شيء بدائرة معارف تحتوي على جميع العلوم المعروفة يومئذ، مما يدل على اتساع نطاق العلوم فيما بينهم واحترامهم للعلم والعلماء. والحق انهم قد اصابوا حظاً وافراً من العلوم الطبيعية. إلا ان القصد من هذه العلوم ومن وضع هذه الرسائل لم تكن خدمة للعلم نفسه، إنما لإنشاء أسس دينية فلسفية تقوم بمقام الديانة الإسلامية، إلا أنهم لوثوا الدين وشوهوا الفلسفة. فكان أولئك الأخوان زمرة من أجل العلماء والفلاسفة والفقهاء في ذلك العصر، اضطروا إلى ان يكونوا جمعية سرية تعمل وراء الستار تخلصاً من السلطات الزمنية حتى، إذا ما نضجت الفكرة وكثر الاعوان انقلبوا إلى جمعية سياسية تناضل في سبيل قلب الحكم. وهكذا كان.

تتكوّن الرسائل من خمسين، وعلى رواية، إحدى وخمسين رسالة تبتدىء بتعليم الحساب ومختلف الرياضيات وتجعل للحروف والاعداد ميزات خاصة ومعاني رمزية، ثم تنتقل إلى المنطق والطبيعيات والله والعالم وعلم النفس الإنسانية، وتنتهي بالحلول بمعرفة الله. وتعتبر الرسائل ان العالم كله صادر عن الله بطريق الصدور، وتدعي ان الله أجل وأعظم من ان يعذب الإنسان مخلوقه الممتاز ويحرقه بالنار ويحنق ويغضب عليه. وجميعها استحضارات علمية ظاهرها الدعوى إلى آل البيت وهدفها إيقاد الثورات في العالم الإسلامي وتهيئة الأفكار للنضال والكفاح ضد السلطات الزمنية والإسلامية وإبطال الشرائع وإقامة المجوسية والاباحية والعودة إلى مذهب «مزدك» الإباحي.

فظهرت الحركة الإسماعيلية في اليمن تحت زعامة منصور، وفي افريقيا تحت زعامة أبي عبد الله الشيعي، وفي سورية بزعامة زكرويه بن مهرويه، وفي البحرين بزعامة أبي طاهر، وفي الاحساء بزعامة أبي سعيد، واتخذوا لهم جميعاً قواعد وتعاليم اباحية شذوذية لإغراء الرعاع والدهماء وجلبهم إلى حظيرتهم، نغض الطرف عن ذكرها لقبحها.

ظهرت القرامطة أولاً في سواد الكوفة تحت زعامة حمدان الاشعث الملقب بقرمط سنة أربع وستين ومائتين، وانتشرت في جنوب العراق ثم انتشر لهيبها في جميع البلاد العربية. وأحدثوا القول بالعلم الباطن وهو تأويل النصوص والشريعة وصرفها عن ظواهرها. وكان من أمرها ما كان كما هو معلوم، فجعلوا الأموال والنساء وحتى البنات والأخوات والغلمان مشاعاً للجميع (وهي مأخوذة من المزدكية المجوسية)، وأبطل أبو سعيد الجنابي حاكم الاحساء اقسام التعبدات جميعها. وكان أبو ظاهر القرمطي قد بنى داراً في هجر وأراد نقل الحج إليها، فذهب إلى مكة وقتل ما يزيد على ثمانين ألف إنسان من الحجاج، وأقام فيها أحد عشر يوماً وقيل ستة أيام، وقلع الحجر الأسود وحمله معه. واستمر الحجر الأسود عند القرامطة اثنين وعشرين سنة إلا أربعة أيام، فأحدثوا رجة في العالم الإسلامي امتد أثرها ثلاثة قرون متوالية.

وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري كان البويهيون قد اشغلوا بغداد وأعلنوا فيها المذهب الشيعي. وأمر معز الدولة أن يكتب على أبواب المساجد «لعن الله الظالمين لأهل البيت» وأمر أن يضاف في الآذان كلمة «حي على خير العمل» و«اشهد ان علياً ولي الله»، واضطهدوا أهل السنَّة والجماعة فقويت شوكة الإسماعيلية في كل مكان.

وبعد هذا العهد ظهر الفاطميون بمصر وهم فرع من الإسماعيلية فأرسلوا الرسل إلى إيران والأفغان والهند واليمن مبشرين ومنذرين. ومنهم تحدر الدروز والحشاشون فانتصر مذهب الإسماعيلية في مصر والهند وإيران وتركستان واليمن والجزيرة العربية وفي كل بلد وصقع من البلاد الإسلامية، وظهرت معتقدات الإسماعيلية أو السبعية وآثار رسائل اخوان الصفا عند فرق كثيرة من العالم الإسلامي كالباطنية والفاطمية والقرمطية والخرمية والحشاشين والدروز والنصيرية وأخيراً البابية والقاديانية، وكلهم يرتوون من معين الإسماعيلية. ولما استولوا على الحكم اقترفوا كثيراً من الفضائح، فارتجت البلاد الإسلامية من اقصاها إلى اقصاها من هول المصاب. وعلى أثر هذا الاحتياج ظهرت المتصوفة بقواعدها المعلومة لمقابلة هذه المذاهب المتطرفة وإبطال مفعولها كما سبق بيانه. وقد ثبت من سيرة الفاطميين والإسماعيلين والقرامطة وكل الداعين إلى نصرة آل البيت من ارباب الشيعة الغالية انهم رجال اديان لا رجال سياسة وأنهم غير صالحين للحكم الزمني. فلذلك فشلت الحكومات كافة التي تأسست على يدهم.

وأما نظريات الشيعة الأكثر غلوا كنظريات داود الخوارزمي والجواليقي والكيالي ثم الكاملية والعليائية والمنصورية والراوندية والغرابية والبيانية والمفوضية.. وهم كثيرون وقد سبق ذكرهم، فلم تؤثر تأثيراً عميقاً في الديانة الإسلامية لأنها كانت هزلية أكثر مما هي عقلية فانقرضت من دون ان تحدث أثراً محسوساً.

ومن البدع المنتشرة في زماننا، وقد شذّت عن الديانة الإسلامية الصحيحة، القاديانية والبهائية والنصيرية والدرزية والتيجانية والمولوية والبكتاشية... الخ. فأما القاديانية وتسمى الأحمدية ومركزها في الهند، فتدعي حلول نبوة سيد الرسل بميرزا أحمد القادياني المسيح الموعود والمهدي الموعود. وأما البهائية فهي تدعو إلى كتابها «الاقدس» وتأليه مؤسسها حسين علي الملقب بالبهاء وإلى نبذ القرآن لعدم صلاحه للقرن العشرين. والنصيرية مذهب قديم من مبتدعات غلاة الشيعة اتباع محمد بن نصير حفيد موسى بن جعفر. والدروز اتباع محمد بن إسماعيل الطهراني وإلههم الحاكم بأمر الله الفاطمي وقد سبق ذكرهم جميعاً. والتيجانية طريقة صوفية معلومة بالمغرب. والمولوية والبكتاشية لم يبق لهما من أهمية.

2 ـ **العوامل الفلسفية الدينية:** القسم الثاني من العوامل المؤثرة في الديانة الإسلامية هي الفلسفة الدينية والطبيعية. فقد كان المسلمون في العصر الأول الهجري يتمسكون بظاهر القرآن والأحاديث، ولما حصل الاتصال في سورية بين المسلمين والمسيحيين كان لا بد لعلماء النصارى ان يتباحثوا مع المسلمين حول صفات الله الواردة عندهم والمماثلة منها في القرآن. ولعل تلك المباحثات اتخذت عن قصد لإدخال الفلسفة العقلية بين صفوف المسلمين، ولإلقاء الشبهات في قلوب المؤمنين لكسر حدة انتشار الديانة الإسلامية في العالم. ولما كان المسيحيون قد تدربوا منذ قرون مضت على الجدال حول الصفات والإرادة الجزئية والقدر ويوم الآخر والكلمة وحلول الجزء الإلهي في الأفراد البشرية وغيره من الموضوعات الفلسفية الدينية فقد اثمر سعيهم. فشرعت هذه الأبحاث تسري بين الناس وتجري على ألسنة العلماء والمفكرين من المسلمين، فظهر على اثرها أولاً القدرية والمتكلمون والشيعة ثم أهل الاعتزال والأشعرية والصوفية.

أول مسألة تناولها المعتزلة، وقد سبق بيانه: لما كان الله عادلاً خيّراً لا يصدر عنه الشر ولا يظلم الناس فليس من الممكن أن يقدّر أعمال العباد وأفعالهم من خير وشر منذ الأزل ثم يعاقبهم على ما خلق وقدر. فهذا ظلم وهو ليس بظلّام للعبيد. فكان من الضروري ان يكون للإنسان إرادة جزئية يصرّف بها أفعاله وأعماله ويكون مسؤولاً عنها. فكان هذا مبدأ الاعتزال.

قام معتزلة البصرة في القرن الثاني الهجري بكفاح عنيف ضد الثنوية القائلة بإلهين اثنين إله الخير وإله الشر. كما أنهم دخلوا في جدال عنيف مع أهل السنّة والجماعة حول كلام الله فقالوا إن القرآن مخلوق، ولو كان كلام الله ازلياً لوجب ان يكون القرآن أزلياً وموجوداً قبل ان يخلق الله العالم، مع ان احكام القرآن تابعة للزمان والمكان وتعود إلى المخلوقات. وقالوا أيضاً إذا كان قد استعمل الله الكلام ضمن حدود الزمان لوجب أن يعتريه بعض التغيير والتبدل، أي إنه يتحول من الساكت إلى الناطق وإسناد التحول إلى الله محال.

وبأمثال هذه المطالعات والآراء الحرة نزهوا الله عن الصفات البشرية رغماً عن رغبات المشبهة والمجسمة وعن أولئك القائلين ان الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول: ألا من مذنب فأغفر له... الخ.

إلا أن الأمر لم يدم بأيديهم فتغلب أهل السنّة والحديث عليهم في زمن المتوكل العباسي. ووضع

الأشعري قواعده الدينية الوسطى بين المذاهب المتطرفة فثبت مذهبه هذا وتقوى فانتشر وسمي مذهب أهل السنَّة والجماعة. ولما كان الأشعري قد اثبت القضاء والقدر وخيره وشره من الله تعالى، والتوكل المطلق على الله، والركون لإرادة الله في كل شيء، وعدم الاعتماد على النفس، فكان هذا النظام الديني الضيق وهذه القيود والمعتقدات، السبب في جمود الأفكار وشل العقول والرجوع إلى المنقول في المعاملات الزمنية كافة وتأخر العالم الإسلامي.

وما عدا الفلسفة الشرقية الآنفة الذكر فقد اثرت الفلسفة الافلاطونية والارسطوطاليسية تأثيراً عظيماً في آراء علماء الديانة الإسلامية، واعتنقها أكثر فلاسفة الإسلام وتأثر بها جميع الفرق الدينية والكتاب والشعراء والأدباء، وتغلغلت حتى في أروقة الجوامع والمدارس الدينية. وكان قد سعى كثير من فلاسفة الإسلام للتوفيق بين النظريات اليونانية وعقائد الديانة الإسلامية فنجحوا في قسم منها وتركوا الأقسام المستعصية في غموض وإبهام، حتى قال ابن رشد في كتابه «فصل المقال» ان تفسير النصوص الدينية بما يقتضيه القياس العقلي والمنطق شيء يعود إلى العلماء والفلاسفة وأما العوام فلهم ان يأخذوا بظاهر النص فقط.

وهناك فلسفة دينية ثالثة لا تقل خطورة عما سبق وهي الفلسفة الصوفية. تأسست لمقابلة قواعد الشيعة الغالية وإبطال مفعولها كما سبق ذكره، فتساهلت في كثير من قواعد الشريعة. وهي لا تنظر إلى ظاهر النص إنما تفسره تفسيراً ذاتياً فلا تطلب نعم الجنة ولا تهاب من لهيب جهنم فتقيم عوضاً من النعيم والعقاب «محبة الله» أو «العشق الإلهي» وهو لا يأتي بالرغبة والطلب إنما هو نور إلهي ينزل من السماء ليوضع في قلوب المؤمنين، وهو لمقابلة حب الشيعة لأئمتهم. وتدعي الصوفية ان الحب يمنع المحبوب من استعماله الجزاء الصارم. يقول محيي الدين بن عربي في الحب:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب انّى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني

ويقول عمر بن الفارض:

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي ... فأصبح لي عن كل شغل بها شغل

وتقول رابعة العدوية في الحب:

احبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك للحجب حتى اراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ان تفسير القرآن الذي يرمي إليه الصوفيون ـ كما قلنا سابقاً ـ هو ليس هدم الديانة الإسلامية وإقامة المذهب الصوفي عوضها كما أراد أن يفعله الإسماعيليون، إنما تأويل القرآن والنصوص الغامضة منه بما يقبله العقل والفلسفة الدارجة ضمن حدود السنة، والتوجه نحو الفناء في الله عوضاً من تكاليف العبادات الشاقة المضنية، ولتخفيف ما اعترى الناس من هول يوم القيامة،

ولتخليصهم من الوقوع في هاوية الفرق المتطرفة التي سهلت عليهم دخول الجنان بمجرد الانتساب إلى التشيع فوصل قسم منهم إلى وحدة الوجود والحلول.

ولم يسلم حتى الغزالي من الوقوع في طريقة التصوف للوصول إلى الحقيقة كما مر بحثه في فصل التصوف.

كانت النقطة البارزة في طريقة المتصوفين هي ابتعادهم عن أحداث تغيير في نظم الديانة الإسلامية وإيصال الأذكياء منهم الى معرفة الله بطريقة الوجد والاستغراق والتأمل والخلوة والتفكر العميق والحلول فوحدة الوجود، وإشغال العوام والبسطاء والسذج من الناس بالأوراد والتسابيح والاذكار واللف والدوران والحمحمة والدندنة وحركات البدن. وإذا كان القصد الخفي من الصوفية هو مقابلة الفرق الهدامة بمثل قواعدها التي قام بها رجال عظماء ذوو فطنة ودهاء، غيرة منهم وحمية على الدين، وقد أثمرت مساعيهم، فقد اساء المتأخرون الى هذه الفكرة النبيلة وأوصلوها إلى غير ما وضعت لها. فكان الضرر متأتياً من توجيههم العامة بإفراط إلى الأولياء والشهداء والصالحين وإلى والتجرد عن الدنيا ومن مدحهم الفقر والمرض والجوع... لاكتساب الطاعات، ومن ادخالهم في عقول الناس البسطاء ان المجاذيب والمجانين والاغبياء والبلهاء والنزلاء والفقراء كافة، الخ.. هم من أهل الله فلا يطلب منهم العلم ولا العبادات ولا المعقولات ولا التمسك بالشريعة ولا. ولا. فانتشرت هذه القواعد في أنحاء العالم الإسلامي كافة وآمن بهم الجهلاء من الناس وسكت عنهم العلماء، فكانت طريقتهم هذه هي المعطلة لكل الأسباب والقوى والنشاط والعمل، وكانت مبدأ الشلل.. فظهر على أثره الضعف والاستسلام والفتور والذلة والمسكنة. فلا قوة ولا ثقة ولا اعتماد على النفس إنما انتظار المقدرات من السماء، والشفاعة من الأولياء، واعتبار الخير والشر من الله تعالى، وترك الدنيا للوصول إلى حياة افضل في الآخرة. ولهذه الأسباب الظاهرة لم يجلبوا عليهم نقمة أهل السنّة والجماعة، إنما بالعكس تمكنوا من اكتساب رضاهم وغض أهل السنة النظر عن شطحات شعرائهم وعن اصحاب المواجد والاستغراق منهم.

والفرقة الدينية الرابعة هي فرقة الأئمة الاثنا عشرية وتسمى الشيعة الإمامية ثبتت وانتشرت قواعدها أكثر من قبل لما اتخذها الملوك الصفويون مذهباً رسمياً لدولتهم. وقد تسربت مبالغات العجم القدماء في فروعها وأحكامها فكانت مبادئها إيرانية بحتة وان كانت تعتبر من الشيعة المعتدلة بالنظر للشيعة الغالية، إلا أن فيها شيئاً من الافراط في عصمة الأئمة وزيارة القبور والتمسك بالصالحين والأولياء والمقربين واتخاذهم هداة روحانيين وشفعاء ووسائط للتقرب إلى الله العظيم. ولولا امثال هذه المبالغات التي وضعها الإيرانيون القدماء لغاية في انفسهم لكان كل فرد من العالم الإسلامي شيعياً حيث لا يعقل أن يوجد شخص واحد من المسلمين يعادي آل بيت نبيه الأبرار منهم والصلحاء والاتقياء المنزّهون عن شوائب السياسة وعن الخروج على السلطان وعلى الأمن العام بقصد الوصول إلى الحكم الزمني.

لقد انتهج المذهب الشيعي الاثنا عشري منهجاً سلبياً مع جميع الحكومات الإسلامية السابقة منذ الأمويين فالعباسيين وأخيراً بشدة مع العثمانيين الأتراك طيلة حكمهم بالعراق. وأما في الأزمنة

المتأخرة فقد ابتعد عن كونه مذهب عطف وإشفاق وتألم وإحساس، ولم ير غضاضة في ذلك. ومن دواعي الاغتباط ان الشباب الشيعي العربي في زماننا قد يقترب رويداً رويداً من الشباب السني بالرغم من رغبات الشيوخ الارتجاعية، وقد يشترك معهم في تأليف الاحزاب السياسية المدنية خلافاً لآراء المحافظين من الوزراء والشيوخ وبعض رجال الدين والصحافة.

3 ـ **العلماء الضالون والملحدون والدهريون**: كانت العلوم الطبيعية المنتشرة في الأوساط الإسلامية هي الرياضيات والفلكيات والطب والكيمياء. ولم يكن تضاد بين هذه العلوم وبين الديانة الإسلامية، فظهر صنف خاص من بين العلماء اشتغلوا بتحري اسباب الحادثات الطبيعية وحقيقة الأشياء فنسبوا حادثات الكون إلى الدهر، ولم يكونوا بحاجة إلى إرجاع الموجودات إلى مبدأ واحد فعّال أسمى منها جميعاً، فسموا دهريين بالنسبة إلى أولئك الذين ورد اسمهم في القرآن، وما هم في الحقيقة الا زنادقة ملحدون لا يؤمنون بكتاب ولا يعتقدون بدين. وكان مذهب الدهرية «زرفان ـ دهر» قد انتشر في عهد يزدجرد الثاني (457 ـ 438 م) حتى عمّ بلاد فارس وحل محل مذهب الثنوية فجعل الدهر هو المبدأ الأسمى، وهو الفلك الأعظم، واستدام تحت ظل الإسلام تارة سراً وأخرى جهراً.

الزندقة كلمة فارسية تطلق على أتباع ماني الحكيم اصلها «زندكر» بالفارسية، ومعناها «حياة الدهر» أو «بقاء الدهر». وكانت الزندقة منتشرة بالحيرة لما كانت تحت حكم الفرس، ثم انتقلت إلى الحجاز وانتشرت بين قريش، حتى جاء الإسلام وقضى عليها في العراق وفارس. فمنهم من اسلم حقيقة ومنهم من اسلم ظاهراً وحافظ على زندقته وعلى التدين بدين الفرس القديم (الثنوية) باطناً وخاصة مذهب ماني، فلم يكن عنده سوى الشهادتين، فكان أولاده وأحفاده مثله. فظهرت الزنادقة هنا وهناك كلما سنحت لهم الفرص مستفيدين من الحرية الدينية. وتميز من بينهم صالح بن عبد القدوس، والافشيني، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، ويونس بن أبي فروة، وبشار بن برد، وحماد عجرد، وابن المقفع. فكانوا يدينون بماني ويؤمنون بالنور والظلمة، دين المجوس، ويتظاهرون بالإسلام وكلهم من الفرس. فناصبتهم المعتزلة العداء أولاً بالبصرة ثم في كل مكان ظهروا به. وتميز من بين المعتزلة إبراهيم النظام وأبي الهذيل العلاف ومعمر بالرد عليهم.

وإذا كان الدهريون يعتبرون من اخلاف مذهب ماني الحكيم، فقد اخذوا شيئاً من الفلسفة اليونانية فقالوا بقدم العالم وسنن الكون والقوى الطبيعية وأنكروا عالم الغيب وما وراء المحسوسات. فلا دين لهم ولا إله عندهم، إنما يؤمنون بما تقع عليه حواسهم. فلا ثواب ولا معاد ولا نعيم ولا عقاب. ومنهم من كان يدعو إلى الشعوبية والعودة إلى بيوت النيران ولا يؤمن إلا بما يحكم به العقل، وهم أشبه شيء بالماديين الأحداث أو الحسيين أو التناسخيين الذين ينكرون قوى ما وراء الطبيعة ويعطفون كل شيء على المادة.

وإذا كان هؤلاء الملحدون الضالون قد ظهروا في كل عهد من عهود الخليقة، وقد رد عليهم بعض فلاسفة اليونان ورجال الدين المسيحي، وندد بهم القرآن ورد عليهم فلاسفة الإسلام ونازلتهم المعتزلة وأخيراً ابن تيمية وجمال الدين الافغاني برسالته «الرد على الدهريين»، فكانوا ولم يزالوا متمسّكين

بالعلوم الطبيعية فيظهرون بمظهر العلماء والفلاسفة ويعتقدون أنه ما من شيء وراء المادة وما يهلكهم الا الدهر. وفاتهم ان هذه المادة التي يعتبرونها الاصل في الكائنات ما هي إلا جزء من كل.

وأما في زماننا فإن عدم اطلاع رجال الدين على العلوم الحديثة بجميع فروعها (علم طبقات الأرض، علم الآثار القديمة، علم وظائف الأعضاء (الفسلجة)، علم الروح الحديث، علم الاجنة، علم الحياة، علم الكيمياء، علم التشريح التطبيقي، الطبيعيات، والرياضيات والطب... الخ) مجملاً أو مفصلاً، وعدم وجود مستشارين لهم بهذه العلوم أو عدم اعطائهم لها الأهمية الكافية، وجمودهم على ما قيل قبل ألف سنة، وقعودهم عن مقارعة الحجة بالحجة، سبب انتشار اللادينية في صفوف بعض الشبان الأحداث اصحاب النظر البسيط والاطلاع المحدود. وأصبح رجال الدين يطلبون من الأحداث قبول النصوص قسراً ويستندون بمطالبتهم هذه على الآيات والأحاديث حرفاً بحرف، ويتحرفون على المنقولات، ويتزلفون إلى السلطات، ويندبون حظ الشباب العاثر، دون ان يفندوا اقوال الماديين والفلاسفة العصريين وآراء الملحدين بأدلة عقلية علمية مقبولة، وحتى دون ان يقوموا برفع الأدغال النابتة حول جذع الدين لكي يهضمها الوجدان العصري ويقبلها الشباب المثقف عن طيبة خاطر. فكان لجمودهم هذا ان افلت الشبان من اليد فانتشرت اللادينية واللاأدرية واللاوجودية في كل مكان.

سمعت في 1 كانون الثاني (يناير) 1947 احد الخطباء يشرح ويفسر من محطة راديو بغداد بحماس ظاهر قوله تعالى ﴿قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾... فقلت صدق الله العظيم وعفا عنك. أفلا تشرح وتفسر للشباب قوله تعالى: ﴿افلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾ وتحثهم على السير والدرس والعبرة والعمل.

ورأس الضالين الملحدين أحمد بن يحيى أبي الحسين الراوندي (هلك 298 هـ) ذكره ابن الجوزي في كتابه «المنظم في التاريخ» بأنه رأس الملحدين. له كتاب «فضائح المعتزلة» وضعه للرد على كتاب الجاحظ «فضيلة المعتزلة»، هاجم فيه المعتزلة هجوماً عنيفاً، فرد عليه الخياط بكتابه المسمى «الانتصار» وقد ترجمه ونشره في سنة 1925 هـ س. نيبرغ Neyburg، وله أيضاً «الكتاب الدامغ» و«كتاب الزمرد» انكر فيهما الإله، وتعرض للأنبياء وازدرى بالتعبدات واستهزأ بالقرآن نغض الطرف عنها. وكان يأخذ الدراهم من اليهود فيهاجم المسلمين ويأخذها من المسيحيين فيهاجم اليهود ويأخذها من المسلمين فيهاجم اليهود والمسيحيين. يقول ابن الجوزي: إني اعجب كيف يعدم قاطع الطريق ويترك ابن الراوندي فيعيش فيبلغ الـ 66 سنة من العمر حتى يهلك هلكة طبيعية (وهو أكبر دليل على روح التسامح السائد حينذاك).

ومن مشاهير الملحدين عيسى الوراق وكان على وتيرة ابن الراوندي.

وعثر ب. كروس P. Kraus في كتاب المجالس للمؤيد الشيرازي الفاطمي على بعض القطع منقولة من كتاب «الزمرد» فيها هجوم سخيف على جميع المنظمات الدينية. نغض أيضاً الطرف عنها.

ودرس كروس المذكور مؤلفات الفيلسوف زكريا الرازي دراسة عميقة. ويقول الاستاذ اديوار A. A. Adiwar في كتابه «العلم والدين» إنه سمع من كروس الاستاذ في السوربون ان زكريا الرازي يقول ان

«لا قيمة للكتب العربية بالنسبة للكتب اليونانية» وليس بخاف ان قصده من الكتب العربية هو القرآن، وقد اتجه الرازي نحو المذهب المادي واعتقد بنظرية ديمقريطس الذرية اعتقاداً تاماً فتعرض للديانات والكتب المقدسة بأسلوب غامض غير محسوس. ويقول كروس إن الإنسان حين يقرأ كتاب الرازي هذا يرى نفسه امام فولتير قبل ثمانية عصور. وكان الرازي قد ستر نفسه بستار العلم والدين رياء. ويقول الاستاذ «دي بور»: لم يكن الرازي ليحفل بأوامر الشريعة كتحريم الخمر وغيره، وله نزعة اباحية هي التي أدت به إلى التشاؤم. ومع انه يعتقد بوجود الخالق إلا أنه يعتبر أن أول المخلوقات نور روحاني بسيط ومنه نشأت النفوس بالعقل أو بالنور الفائض من نور الله... الخ مما يستدل منه انه كان متأثراً بإله النور (مسترا) وقضى طيلة حياته في بغداد والشام ومصر والأندلس محترم الجانب كطبيب وكيميائي وفيلسوف ديني.

ولما بلغ الثمانين من العمر عميت عيناه وهو في مدينة الريّ. وفي هذا الدور من حياته كان معدماً لا يملك قوتاً، حتى توفي بفقر مدقع وإليه ينسب هذان البيتان.

لعمري وما أدري وقد آذن البلى ... بعاجل ترحال إلى أين ترحالي
وأين محل الروح بعد خروجها ... من الهيكل المنحل والجسد البالي

وبالرغم من انتشار الالحاد في الشرق لم يكن اضطهاد الملحدين ملحاً كما حصل بالغرب من انواع التعذيب والتقتيل والاحراق الا القليل. وكان كثير من العلماء والفلاسفة المحققين يرغبون أن يأخذ العلم والدين مجراه على حدة دون ان ينال الواحد من الآخر شيئاً ودون ان يحصل اصطدام ونزاع بينهما. وهذا ما حصل فعلاً في زماننا بالغرب بعد تجارب قاسية. ولما استقل الواحد عن الآخر في أوروبا حصل انكشاف بالعلوم فقطعت اشواطاً بعيدة في مضمار الخدمة البشرية وارتقاء المدنية العصرية.

وإذا كانت الديانة المسيحية خلافاً لما جاء به واضعها الأعظم مقيدة بالتثليث، المخالف للعلم والمنطق والعقل، فإن الديانة الإسلامية مؤسسة على التوحيد المطلق. وهذا التوحيد في الحال والاستقبال وفي كل عهد من عهود البشرية يوافق العلم والمنطق والعقل. وبعد التوحيد لا تنشأ أية صعوبة في إجراء التعديلات بالفروع ورفع المحدثات والمنقولات وما رواه زيد وعمرو ﴿ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وعند ذلك يسمو الدين ويخرج من كونه آلياً وتعبدياً، ويكون وجدانياً خالصاً لله وحده ﴿فلا تدعوا مع الله احداً﴾ ويتخلص العالم الإسلامي من وخزات الأوروبيين وقولهم ان سبب تأخر المسلمين وجود القرآن فيما بينهم.



الفصل العاشر رجال الدين الإسلامي

1 ـ كان بعض المحدثين في العصر الأموي والدور العباسي يضعون الأحاديث غير هيّابين، تبعا للظروف والحاجات، ويستنبطون الأحكام الفقهية غير وجلين نزولاً عند رغبات الخلفاء، فكانت الأحاديث الموضوعة والمسندة إلى سيد الرسل قد تجاوزت الحد، ما سبّب التعب المضني لرجال الحديث الاخصائيين. ورغم ما بذله البخاري وزملاؤه من الجهد والاستقصاء لم يزل يرتاب في صحة كثير من الأحاديث، بل ان القسم الأعظم منها موضع شك كما قال البخاري.

وأما الأحكام الفقهية فقد ردت بعد لأي إلى خمسة فقهاء عظام، ولو كان هؤلاء الخمسة متفقين لهان الأمر، إلا أنهم متضاربون أيضاً بعضهم مع بعض، مع ان الحقيقة هي واحدة لا تتجزأ. وسبب التباين ليس الاجتهاد المجرد وحده المتساوي عند الجميع إنما يدخل فيه اختلاف الروايات عن النبي (ص) ونصوص اللغة وطرائق الاستنباط واطلاع المجتهد وذكاؤه ونزاهته واستغناؤه (كالفتوى في طلاق المكره) فكانت الفتاوى والأحكام الفقهية تارة صحيحة وأخرى سياسية أكثر مما هي دينية. واستمر الأمر في جذب ودفع بين رجال الدين الرسميين والسلطان منذ الأمويين والعباسيين حتى يومنا هذا. فقد افسدت السياسة في مختلف الأزمنة اعمال رجال الدين وإخلاصهم للحقيقة، كما افسد رجال الدين اعمال السلطان في كل فرصة بفتاوى سياسية يصدرونها ويثيرون الجماهير والرعاع ضده باسم الدين حتى الخلع أو الموت. فكان قد استفتى مالك بن انس في الخروج مع محمد بن عبد الله العلوي وقيل له ان في اعناقنا بيعة لأبي جعفر المنصور فقال: إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين. فأسرع الناس إلى بيعة محمد فكان ما كان من ورائها.

2 ـ وأما في الأزمنة المتأخرة فكانت فتوى واحدة من شيخ الإسلام كافية لخلع أي سلطان كان من سلاطين بني عثمان. ولهذا كان الواحد منهم يحاذر بطش الثاني به فيتملق رجال السياسة لرجال الأديان حذراً من اثارة الشعب وإهاجة الجماهير عليهم، والعكس بالعكس. لذلك كان الملوك والسلاطين يغدقون الرتب والأوسمة وأسباب العيش الهني على شيوخ الطرق وعلماء الدين، فيكيل هؤلاء المدح والثناء جزافاً لهم فوق المنابر ويدعون لهم بطول العمر والبقاء بالمقياس الكبير. يقول ابن المبارك:

وهل افسد الدين الا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

خطب عبد العزيز بن سعود عند استيلائه على الحجاز، ومما قاله «لم يفسد الممالك الا الملوك وأحفادهم وخدامهم والعلماء المتملقون وأعوانهم ومتى اتفق الأمراء والعلماء ليستر كل منهم على صاحبه فيمنح الأمير المنح، العلماء يدلسون، ضاعت حقوق الناس».

وهذا ما دعا الشيخ محمد عبده ان يتبرأ من كل ما يسمى سياسة وسياسي ومن ساس ويسوس وأن يقول:

ولست ابالي ان يقال محمدٌ ... ابل أو اكتظت عليه المآتم

ولكن ديناً قد أردت صلاحه ... مخافة ان تقضي عليه العمائم

3 ـ يقول بعض كتاب الافرنج ان الكتب العلمية مملوءة بأسماء علماء العرب والمسلمين حتى القرن الثاني عشر الميلادي، فيزول ذكرهم في القرن الرابع عشر. فقد حملوا شعلة العلوم أربعة قرون كاملة أضاؤوا بها العالم. فوضع العرب والمسلمين أشبه بولد ذكي نابغ أتى بالمعجزات في صباه، وأصيب بالتوقف والجمود والعته في كهولته. ولم يزالوا يفحصون الأسباب التي أدت إلى توقف هذا النبوغ والدهاء ويقولون: بالنظر لما وصل إليه من النضج الفكري والعلمي في الفلكيات والهندسة والحساب والفلسفة وخاصة الطب في القرن العاشر والحادي عشر الميلادي سواء في الشرق أو في الغرب العربي، كان من المحتم ان يظهر كوبرنيك ونيوتن وكبلر وغاليله من صفوف المسلمين، لا من غيرهم. وهم يسندون هذا التوقف إلى استيلاء المغول، وظهور طوائف الملوك، وإحراق هولاكو 36 مكتبة عامرة في بغداد سنة (1258 م)، والقائها في دجلة، وهجوم تاشفين على الأندلس، ثم احراق الكردينال كسيمنس مليون كتاب مخطوط في باب الرملة عند استيلائه على قرطبة، وغيره من الأسباب المدمرة.

4 ـ ويقول جورج سارتون في مقدمة كتابه «تاريخ العلوم» عن تأخر الشرق: من المحقق ان العالم الغربي كان مصاباً بأخذ علومه ومعرفته من أساليب المدرسة القديمة (الإنجيل والتوراة) فقد تمكن في عهد النهضة (رنِسّانْس) من التخلص من تلك الأساليب باهتدائه إلى طريقة التجربة والامتحان والاختبار في كل ما يسمعه ويقع عليه نظره، وأما الشرق فقد بقي متأخراً ولم يحسن تطبيق ما أوجده من الطرق للتخلص من أمثال تلك الأساليب، فتأخّر عن الغرب.

5 ـ وعندنا ان مبدأ هذا الخمود والجمود يرجع إلى قضاء المتوكل العباسي على المعتزلة وبالنتيجة على الحركة الفكرية ورجوعه إلى المنقولات. وكلما مرت السنون والأعوام ازداد الضغط على الحركة الفكرية والبحث والاستقراء الا ما كان منها موافقاً للتعاليم الإسلامية الموضوعة التي جاء بها الأشعري والغزالي، حتى ظهر التفكك السياسي بأجلى معانيه في الخلافة الإسلامية عند غزو المغول سنة 1258 م، وعند ذاك زال السلطان العربي وتوارى السؤود واضمحلت الزعامة، وانتهت الخلافة واختفت الحرية الفكرية وزال البحث والتنقيب والإبداع من الرؤوس المفكرة، وساد التقليد الأعمى وظهر نسّاك الشرق وأساؤوا فهم الطريقة الروحية فأسندوا الحادثات الطبيعية والسنن الكونية كافة إلى قوى غيبية تسيّرها كيفما شاءت وأنّى شاءت، تبعاً لرغبات متبدلة متحولة لا قرار لها. فكانت هذه الطريقة السبب المباشر في كبت عقول الفلاسفة وملكاتهم ومواهبهم وتحويل انظارهم عن الماديات، وبالوسيلة ابتعادهم عن اكتشاف السنن الطبيعية، والنواميس الكونية الثابتة، التي ليس لها تبديل ولا تحويل. وكان اعظم إساءة ارتكبها رجال الدين في تلك الأدوار، منذ قضائهم على المعتزلة واستلامهم السلطة الروحية حتى الآن، هي سدهم باب الاجتهاد في الشريعة، وفي اختيار احسن الحكم الزمني وإخضاعهم الناس لمقام الخلافة، وحكم الملوك، مهما كانت منزلة الخليفة أو الملك

الدينية والزمنية، وإقناعهم العامة أن فساد الأعمال وسوء الأحوال وظلم الأمراء وجور الحكام، ليس من صنع أولي الأمر أنفسهم إنما هو تحقيقاً لإرادة الله وقضائه وقدره، وان الأرجح التوكل على الله، وتفويض الأمر لله، فهو المعز وهو المذل، وهو الرافع وهو الخافض، وهو الضار، وهو النافع، وما على الرجل المسلم إلا الرضاء والتسليم والاغتباط بما هو فيه، وتعليمهم الناس الطاعة والخضوع والاستسلام للأوامر والنواهي التي كانت تفيد دائماً الخلفاء والملوك والأمراء بالاستناد إلى ما ورد في آي ذكر الحكيم: ﴿يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ (النساء)، وإهمالهم الشورى في أمور الدولة الزمنية، وإبعادهم الناس عن الحياة والأعمال الدنيوية، باعتبار أن الدنيا دار فناء والآخرة دار بقاء، وتركهم اصول التأويل الذي احدثه واتخذه رجال المعتزلة لإصلاح الشريعة وتحويرها حسب الزمان والمكان، وتمسكهم بأصول التقليد وبما وضعه الأئمة من غير نظر ولا تحقيق، واهتمامهم بأقسام العبادات فقط من النصوص القرآنية وإهمالهم الآيات الكونية، وتركهم الحث على السعي والعمل، وتأييدهم القضاء والقدر والتوكل بغير ما هو عليه في الشريعة، وتكفيرهم أصحاب النظر العقلي، وخضوعهم لرغبات الخلفاء والملوك والأمراء والحكام...

والسبب الثاني هو زوال السلطان العربي وضياع استقلال البلاد السياسي. فكانت سياسة القبائل التركية التي تعاقبت على الحكم عصوراً في الشرق لا تشجع العلماء والأذكياء والنوابغ خوفاً من وقوع الانتكاسات السياسية على ايديهم، إنما ترعى العباد والزهاد وشيوخ الطرائق والمتصوفة والمتشبهين برجال الدين، وتتظاهر الزهد والتقوى رياء أمام الناس. واتخذت كثيراً من البدع التعبدية تقرّباً للجمهور العربي الإسلامي.

وقد وصف الشيخ محمد عبده في كتابه «الإسلام والنصرانية» عند بحثه عن الترك والديلم الوضع الديني السائد في أواخر أيام العباسيين خير وصف فقال:

كثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده في خلوته، ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته. أما العلم فلم يحفلوا بأهله، وقبضوا عنه يد المعونة وحملوا كثيراً من اعوانهم ان ينتظموا في سلك العلماء... ثم يضعوا للعامة في الدين ما يبغض إليهم العلم، ودخلوا عليه من باب التقوى وحماية الدين، وزعموا الدين ناقصاً ليكملوه، أو مريضاً ليعللوه، أو متداعياً ليدعموه أو يكاد ان ينقض ليقيموه. ونجحوا في اقناع العامة بأن في ذلك تنظيم شعائره وتفخيم أوامره... فخلقوا لنا هذه الاحتفالات وتلك الاجتماعات وسنّوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرّق الجماعة واركس الناس في الضلالة، وقرروا أن المتأخر ليس له ان يقول بغير ما يقول المتقدم، وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر، وتجمّد العقول، فكل ما تراه الآن مما تسميه إسلاماً، فهو ليس بإسلام، وإنما حفظ من اعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج. ومن الأقوال قليلاً منها حرفت عن معانيها، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجمود، وعدّوه ديناً. نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه، فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام، وإنما هو شيء سموه إسلاماً...

6 ـ ولما انتقل الحكم إلى سلاطين بني عثمان اشتغلوا بالفتوحات ولم يعنوا بالعلوم والمدارس كعنايتهم بالحرب والضرب والغزو والجهاد مداً ثم جزراً. وبصفتهم خلفاء قبضوا بأيديهم الحديدية على

الثقافة الإسلامية العامة، وكانوا في جميع حياتهم مقلدين لا مجتهدين، فجمدوا على فقه أبي حنيفة وحده، وكافحوا المذاهب الأخرى والعلوم العقلية والآراء الحرة تقرباً إلى الله على زعمهم. وأفسحوا في المجال لكل فرد ان يكتسي الكسوة الدينية. ولما انتبهت أوروبا في القرن السادس عشر، وهو عهد النهضة، وكان الشرق أرقى بكثير من الغرب، في سبيل المعرفة العقلية، اهتدى الغرب إلى أصول الاختبار والفحص والتجارب في كل ما تقع عليه عيناه ويصطدم به فكره للتأكد من صحته، كما يقول سارتون. وبهذا الفحص والتنقيب والتحليل ارتقى الغرب بفضل امتحانه واختباره للأشياء ولكل ما يعرض عليه من الأقوال والمدعيات والمنقولات والآراء والنظريات، وبقي الشرق مقلداً للأسلاف العظام ومقيداً بجميع أقوالهم وأفعالهم. وكان لا يحجم العالم التركي حين يسأل عن مسألة ان يقول «كتاب بويله ديور» (أي ان الكتاب يقول هكذا). ففي الكتاب الخبر اليقين فلا اعتراض لأحد على الكتاب. وبهذه العقلية النكدة اصبحوا محرومين من حس التفكير والاستقصاء والاختبار.

7 ـ ولما نهضت أوروبة كانت الامبراطورية العثمانية في تدهور وانحطاط لا يهمها سوى المحافظة على حدودها من تسلط الأجانب. وكانت تتلقى الضربات القاسية الواحدة تلو الأخرى من مجاوريها، وكانت احوالها الداخلية أيضاً سيئة. فان الانكشارية والملالي كانوا ينشرون الفوضى والاضطراب بالبلاد، ويتدخلون في كل كبيرة وصغيرة باسم الدين، كما كان قد فعله الحنابلة في بغداد، فتأخرت البلاد الشرقية بعكس الأمم الغربية التي قطعت اشواطاً بعيدة في مضمار العلوم والصنائع المعروفة.

8 ـ ومن جهة أخرى كانت الخلافة عبئاً ثقيلاً على كواهل سلاطين بني عثمان. وقد تردت سلالتهم بعد السلطان العاشر منهم. فبصفتهم خلفاء كان من الواجب اللازم عليهم مراعاة جانب رجال الدين الإسلامي (المشايخ والدراويش) ارضاء للعالم الإسلامي. وكان أول شيخ ظهر عندهم «بكتاشي ولي» مؤسس الطريقة البكتاشية. ففتحوا المدارس الدينية في الجوامع الكبيرة في جميع المدن المهمة واستثنوا طلبة العلم من الخدمة العسكرية، وأسّسوا التكايا والزوايا في كل صوب من البلاد، وأغدقوا عليها المخصصات والاطعاميات، حتى طغى نفوذ رجال الدين والمشايخ والدراويش على الحكام والأمراء والولاة. وكان رجال الدين يعتبرون العلوم الأوروبية كفراً وإلحاداً وأن القرآن وفقه ابي حنيفة كافيان لنيل سعادة الدارين. فكانت جوامع استانبول، وقد شاهدناها عياناً في أوائل القرن العشرين وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني، مملوءة بالعمائم، ودروسهم لا تتعدى بعض احكام الصوم والصلاة فقط، حتى قضى عليهم مصطفى كمال فيما بعد فتخلص الشعب التركي من ضغط الصوفية الإسلامية ومن القواعد التعبدية الاجبارية. ولم يفسر القرآن باللسان التركي الا في نهاية الثلث الأول من القرن العشرين، فاطلع الأتراك على ما في القرآن من نصوص دينية وأحكام ومعلومات. ومما اتذكره ان السلطان عبد الحميد خان الثاني كان قد أمر بلزوم تدريس اصول الدين في المدارس العالية في استانبول بقصد حفظ العقيدة. فبينما كان المسيو اريستاكي يبحث لنا عن آراء داروين ولامارك وبوفون وغيرهم من الفلاسفة حول اصل الأنواع في عالم الاحياء وعن قوانين المادة مثلاً، كان يعقبه في الدرس الشيخ سعيد افندي فيذكر لنا الفروق بين الملائكة والجان والشياطين من جهة، وبين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء والسحر والعرافة من جهة أخرى.

9 ـ وكان رجال السياسة في الحكومة العثمانية يتخذون من رجال الدين أدوات لتثبيت مراكزهم، فأعطوا مجالاً واسعاً لأصحاب الطرائق من مولوية وبكتاشية ورفاعية ونقشبندية وقادرية وسنوسية وغيرها. وكان أول الشيوخ بكتاش ولي قد اتخذه السلطان أورخان ثاني سلاطين بني عثمان شيخاً لجنده، وآخر الشيوخ أبو الهدى الرفاعي اتخذه السلطان عبد الحميد الثاني شيخاً له في بلاطه، وكانوا يغدقون عليهم واردات الأوقاف والهبات والاعطيات ـ والاطعاميات لإدارة التكايا والزوايا، ولقسم آخر منهم الرواتب والمخصصات تحت عنوان «دعاكو» أي الداعين للسلطان، فأصبح للمشايخ نفوذ عظيم في دواوين الحكومة. فإن برقية من أحد نقباء الطرائق إلى السلطان كانت كافية لعزل حتى والي الولاية من منصبه. فانتشرت الطرائق وتحكمت المدعيات بالأخبار عن المغيبات وبالكرامات وبالمشي على الماء وبالصعود إلى السماء والأخبار بما هو آت وبصلاة الصبح في القدس والظهر في المدينة والعشاء في مكة وغير ذلك كثير.

10 ـ ومما يجب ذكره أن هؤلاء الشيوخ لم يتورعوا عن التدخل في معالجة الأمراض من الجهة الروحية لما لهم من صلة محمودة وكلام مسموع وجاه قديم وشفاعة ترتجى ورجاء مقبول في عالم الغيب. فكانوا يعالجون مرض العين بالبصاق، والفالج بضرب الحذاء، والمرض الخبيث (الحمرة) بأدهان يصنعونها وعزائم يتمتمون بها، وداء الكلب بآيات من سورة الكهف يقرأونها، والصداع بمسامير في الحائط يدقونها. ولكل نوع من الأمراض صنف خاص من الشيوخ يمارسونها بطريقة الاختصاص تسمى عندهم «تسلومة» قد ادخلت في عقول الناس ان القطب الرباني والغوث الصمداني صاحب الكرامات ومجلي الظلمات كان فيما سلف قد سلم ووهب وأباح وأعطى ومنح أولاده أو احد مريديه ما أخذه من اشياخه من معالجة هذه الأمراض بهذه الطريقة، على أن تنتقل إلى أولاده وأحفاده إلى ما شاء الله. وكان إلى وقت قريب قد ينقل المريض إلى مرقد الشيخ الولي لينال الشفاء بفضل روحانيته. ولم يستنكر علماء الدين هذه الخزعبلات ولم يشنوا عليها غارة شعواء نكراء.

وكان قد تفرس فؤاد باشا الكبير الوزير التركي الحر فيما ستؤول إليه حالة الدولة من بقاء هذه المجموعات الدينية تنخر كالسوس في جسم المجتمع الإسلامي، فسجل في المادة السابعة عشرة من وصيته المشهورة المقدمة حسب رغبته بعد وفاته إلى سيده السلطان عبد العزيز العبارة الآتية: ضرورة قتل التعصب الناتج عن تفرق الأديان، والعمل على نشر الفلسفة الدينية، واعتزال الدولة مسائل الأديان... وهذه الفقرات الثلاث هي مجمل ما ورد في كتابنا هذا.

11 ـ وبالاجمال، كان السبب في تأخر الشرق عن الغرب سيطرة رجال الدين وهيمنتهم على الدولة والعواطف والعقول. فلما نهضت أوروبة وارتقت في القرن السادس والسابع والثامن عشر وأراد بعض سلاطين بني عثمان مجاراة الأوروبيين والاندماج في منظومتهم والاشتراك في نهضتهم وقف في وجوههم الانكشارية من جهة ورجال الدين من جهة أخرى معتبرين كل حركة من حركات الأوروبيين وعلماً من علومهم كفراً وإلحاداً وتشبهاً بهم، باعتبار أنها من اعمال الدين المسيحي وهي مخالفة لأحكام الشرع الشريف الأنور، فكانت فوضى سببت خلع كثير من السلاطين أو قتلهم حتى تولى السلطان محمود فقضى نهائياً على الانكشارية وحدد نفوذ الصوفية وهم الملالي. ولم يكن بمقدوره

القضاء عليهم تماماً لقوة شوكتهم فلبس اللباس الافرنجي والطربوش وتحاشى لبس القبعة حذراً من اتهامه بالتنصر والتشبه بالكفرة اعداء الدين، ويسمونهم جميعاً «كاور» أي كافر.

استمر نفوذ رجال الدين بعد ذلك بين مد وجزر حدث خلالها كثير من الفتن والشغب، كفتنة الخواجة سعاوى افندي لقتل عبد الحميد الثاني، وظهور الجمعية المحمدية ضد الانقلاب العثماني الأخير، وفتنة الشيخ سعيد والملا اسعد الأزميري في زمن مصطفى كمال فشنقهما بعد لأي، وأمثال ذلك كثير.

وأشد مرارة من هذا كله ما فعله رجال الدين حين أسس المسلم المجري ابراهيم متفرقة أول مطبعة في استانبول، وأخرج للناس أول كتاب مطبوع. فكانت مشاغباتهم عظيمة كادت تؤدي بعرش السلطان كما هو معلوم.

12 ـ وبينما كانت العصابات البلغارية والصربية واليونانية توقع الاضرابات وتشغل الفتن في الولايات العثمانية الست في البلقان، وكان الاتحاد البلقاني متحفزاً للهجوم عليها، وبينما كانت الامبراطورية الإسلامية محاطة من جوانبها بدول معادية وكان القريب والبعيد من الدول الأوروبية يريد تحطيمها والقضاء عليها وتقطيع أوصالها، كان المسلمون الأتراك فيها تحت زعامة رجال الدين الرسميين ومشايخ الطرق البكتاشية والمولوية والنقشبندية والرفاعية والقادرية، وهم كثيرون، منهمكين بنقر الدفوف وضرب الطبول، والبكتاشيون منهم خاصة مشغولون بشرب الخمور وبالفسق والفجور، بالتكايا والزاويا، ومع هذا يطلبون المدد من السماء. فكان نتيجة لتلك الموبقات خروجهم من البلقان بالعريات التي دخلوا بها كما قال أحد كتاب الانجليز.

13 ـ ومن المعلوم ان القوانين المدنية التي كان يسنها مجلس الوزراء العثماني لا تعرض على السلطان للتصديق ما لم تعرض أولاً على المشيخة الإسلامية للاطلاع على موافقتها لأحكام الشرع الشريف أو عدمه. فان نفوذ الجامدين من رجال الدين هذا كان قد شل أيدي رجال الحكم العثماني وأقعدهم عن مجاراة المدنية الأوروبية وعن قبول الأساليب العلمية الحديثة فتردى الفرد وتردت معه الأمة والحكومة، فكان هذا من أسباب اضمحلال الدولة العثمانية. ومن لم يشاهد الأدوار العثمانية من ابناء هذا الزمان، لا يعلم ما كان لرجال الدين والشيوخ من نفوذ مطلق وكلام مسموع ومنزلة مرموقة في دواوين الدولة العثمانية وفي توجيه مقدرات الشعوب الإسلامية.

14 ـ ومما يهمنا في هذا الموضوع السد المنيع الذي اقامه رجال الدين في استانبول والولايات العثمانية جمعاء، بضمنها سواحل سورية، ضد تسرب المدنية الأوروبية إلى البلاد التركية وبالوسيلة إلى البلاد العربية وإيران والافغان وحتى الهند. فقد حرمت هذه البلاد رؤية نور المدنية الأوروبية قرنين كاملين. فكان سبب تأخر هذه البلاد عن مجاراة التمدن الحديث هي استانبول التي كانت قابضة بيدها الحديدية على مقدرات الشرق الأدنى والأوسط وطرقهما حيث لم يمكن تسرّب المدنية بطريق روسيا القيصرية يومئذ، وهي بذاتها متأخرة، ولا بطريق مصر، ولم تكن قد نهضت بعد، وكانت حيناً بشغل شاغل مع نابوليون وغيره، فانعزل الشرق عن الغرب انعزالاً تاماً وأصبحت الثغرة بينهما واسعة.

لم نقل ما قلناه آنفاً جزافاً. فقد بلغ الجهل بعواقب الأمور أن شيخ الإسلام في استانبول حتى

في زمن المشروطية العثمانية (1908) امتنع تحت تأثير التعصب الديني الشديد من الموافقة على قراءة اقسام النصائح والإرشادات في خطبة الجمعة والعيدين باللغة التركية بحجة ان باب الاجتهاد مغلق، وليس لأحد أن يبتدع شيئاً جديداً من عنده، ولا يجوز من الوجهة الشرعية تبديل النصوص الواردة من السلف الصالح، وما قاله الفقهاء العظام السالفون. وكان نتيجة لهذه الآراء ان استبدلت الحكومة التركية الحديثة في دور اتاتورك، فضلاً عن اقسام النصائح والإرشادات من خطبة الجمعة والعيدين، اقسام التعبدات كافة باللغة التركية وحتى كلمة الله أكبر إلى «تنرى اولودر». وإذا كانت الحكومة التركية قد عادت وجعلت الآذان باللغة العربية وسنت القوانين بذلك، فهذا ليس معناه عودتها إلى التمسك بالسياسة الدينية في أمورها الزمنية كما أراد أن يفهمه بعض رجال الدين في البلاد العربية، إنما لكي تكفل لكل فرد الحرية التامة في اداء فرائضه الدينية حسب مشيئته، باعتبار أن هذه الحرية تعد أداة جوهرية في صيانة مبدأ الدولة المدنية، وان تحريم الآذان باللغة العربية معناه المساس بهذا المبدأ.

15 ـ ومع هذا كله، فإذا كانت الدولة الإسلامية العثمانية في الحقيقة هي رمز الجمود والتردي والتقهقر وسبب السقوط والتأخر، فكان للأتراك العثمانيين فضل كبير في المحافظة على بيضة الإسلام، بعد ان تفسخت الحكومات العربية على أيدي المغول. فإن لم يكن للأتراك حركة فكرية ولم يستطيعوا أن يخلقوا لهم مدنية يفخرون بها بين الأمم، فيكفيهم فخراً أنهم حافظوا على الكيان الإسلامي طوال ستة قرون وعلى كيان العرب من ان يبتلعهما الصليبيون المتأخرون. فمن المعلوم ان العرب في هذه الفترة كانوا في أضعف دور من أدوار حياتهم ناهيك من المبشرين الفرنسيين والبريطانيين والإيطاليين والأوروبيين وكل الذين تعضدهم الحراب وأكياس الذهب.

16 ـ اقتلعت الأمتان العظيمتان التركية والإيرانية مؤخراً ـ باستثناء بعض الانتكاسات الموقتة ـ ذلك النفوذ الديني من أيدي الملائين والشيوخ ولم يبق لفتاويهم السياسية[1] من قيمة. ولم نر الله غضب عليهم ودمر بلدهم، بل بالعكس، منذ ان تخلصتا من تدخلاتهم وفتاويهم بأن هذا حلال وهذا حرام، قوي الدين المحمدي عندهما أكثر من ذي قبل، سالماً من الخرافات والأوهام والخزعبلات والموضوعات والتفسيرات والتأويلات فقطعتا شوطاً بعيداً في مدة قصيرة في مضمار التمدن العصري. وها هي الحكومة التركية بهذا اليوم، مع فقرها تخطب ودها الدول الكبرى، يقابلها مصر. وقد نهضت منذ زمن محمد علي وقبل نهوض الحكومة التركية الأخير بقرن كامل ومع غناها المفرط لم تزل مشلولة الأيدي والأقدام. حصل التقدم في تركيا بعد نبذها تعاليم رجال الدين وفتاويهم وفصلها الأمور الزمنية عن الدينية واستغنائها عن قراءة البخاري في السفن البحرية (نذكر هنا استطراداً انه عند مذاكرة الميزانية في المجلس النيابي خطب جميل صدقي الزهاوي حول ضرورة إلغاء مخصصات قراءة البخاري في السفن الحربية من الميزانية. ومما قاله: ان السفن بحاجة إلى البخار الشريف وليس إلى قراءة البخاري الشريف. فهاجمه علماء الدين والمشايخ هجوماً كاد يقضي

(1) كالفتوى في تحريم شرب التنباك في ايران، والفتاوى المتكررة في خلع سلاطين بني عثمان.

عليه، وأخيراً شطبت المخصصات من الميزانية)، وكذلك قبولها العقلية الأوروبية وميلها إلى الماديات في أمورها الزمنية وتركها التمسك بالدعاء والاستغاثة والنذور وزيارة القبور والأدعية الفارغة عند مدلهمات الأمور. ويقولون إن الخطباء يدعون من أعلى منابرهم في كل خطبة جمعة «اللهم انصر الإسلام والمسلمين» منذ ألف سنة ولم نر أن الله استجاب دعاءهم، فكان من الضروري التمسك بقوله تعالى ﴿ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ وقوله تعالى ﴿وأعدوا لهم﴾ ووضع احكام امثال هذه الآيات الكريمة موضع التطبيق والعمل.

وأما في إيران فعند مذاكرة الميزانية في المجلس النيابي الإيراني اعترض بعض النواب من رجال الدين على شطب مخصصات عاشوراء من ميزانية الدولة، وكادت أن تفقد الوزارة ثقة المجلس لولا ان تداركها المغفور له رضا شاه بهلوي بخطبة ألقاها في المجلس جاء فيها: ان زعيمين من زعماء العرب اقتتلا لأسباب سياسية فما بالكم وانتم إيرانيون لا علاقة لكم بهما تصرفون المخصصات لجانب واحد منهما فقط. وأمر بشطب المخصصات من الميزانية.

17 ـ ورأيت في كتاب «حياة الشرق» للأستاذ الكبير محمد لطفي جمعة يقول: «ان بعض المسلمين قد أصابهم العمى. فإن خطباء المساجد كانوا إلى عهد قريب يخطبون ويقولون: اللهم اجعل بلادهم وأموالهم ونساءهم وأولادهم حلالاً لنا وملكاً لنا... اللهم انصر...! اللهم اخذل...! وكانت قد مضت اجيال والآية معكوسة، فكانت بلاد المسلمين وأموال وثروة المسلمين وكنوزهم حلالاً للأوروبيين، وكأن الدعاء كان معكوساً، فكانت الإجابة سلبية. أيضاً فكان النصر للغرب والانكسار للشرق فكانت السيادة لأوروبا والهزيمة والعبودية للعرب والمسلمين»...

ومن جهة أخرى، لقد اخذ الأتراك بدساتير العلوم الحاضرة وحكّموا العقل في أمورهم الزمنية وتمسكوا بالحقائق ونبذوا الخيالات والأوهام. وما تأخر مصر النسبي وخاصة بالطبقات الوسطى وما دونها الا بتمسكها الشديد بقبور الأولياء والصلحاء والشهداء والطرائق الدينية والمشيخات الشاذلية والرفاعية والسنوسية والمحمل الشريف وغيره، وقبولها حرّية التبشير في بلادها وحمايتها التكايا والزوايا رغم جامعاتها وكلياتها العلمية الراقية.

18 ـ ان الحكومة التركية المسلمة وهي المتمسكة اليوم بلباب الديانة المحمدية بعد ان فصلت أمورها الزمنية عن الأمور الدينية، ولم تترك للدين أيّ صلة بالشؤون السياسية أو بما تضعه الدولة من تشريعات زمنية مختلفة، فرضت ان يكون رجال الدين عندها ممن اكملوا دراساتهم الابتدائية والثانوية ثم كلية الالهيات والدروس فيها أربع سنوات، لا يطلعون خلالها على اختلافات الفقهاء حول المسح على الخفين مثلاً، إنما على فلسفة الأديان عند جميع الأمم والأقوام قديمها وحديثه، غائبها وحاضرها في شرق الأرض وغربها، فيتخرجون منها وهم على جانب عظيم من الثقافة الدينية والعلمية ومن الاطلاع الواسع على اللغات الأجنبية والأديان المختلفة السماوية والأرضية السابقة واللاحقة. ولم تستنكف الحكومة عند الإيجاب من استقدام الأساتذة لكليتها هذه من الأوروبيين سواء كانوا مسيحيين أو يهوداً مثلاً، لأن الغاية هي اكتساب العلم، والعلم يطلب ولو بالصين، مع ان الصين ليس فيها سوى علماء بوذيين.

فتخلصوا من الشيوخ والدراويش ومن علماء ومجتهدين يسميهم الناس أصحاب سماحة وفضيلة ومكرمة كانوا قد اتخذوا الدين وسيلة للتحكم بالناس ومدوا أيديهم للتقبيل والتلثيم، وتعودوا أن يأمروا فيطاعوا، مع أنهم لا يعلمون سوى بعض الأحكام الفقهية الموضوعة والتفاسير القديمة المغلوطة والقصص الإسرائيلية والروايات والمواعظ الخرافية يؤثرون على الحكام وولاة الأمر، أو يتملقون إليهم باسم الدين لكم الأفواه أو لإنزال العقاب بالأحرار، ومصادرة الكتب والمجلات والمطبوعات التي لا تروق في أعينهم وليس باستطاعتهم تنفيدها، وهم أبعد عن مقارعة الحجة بالحجة والكلام بالكلام. فيحيطون انفسهم بسياج من الأرواح والمبهمات ويتكلمون وكأنهم الواسطة بين الله وعباده ويقولون وكأنهم وكلاء الله على أرضه ولا مرد لكلامهم ولا اعتراض على قولهم.

19 ـ كان السبب الوحيد لمناصبة الأوروبيين العداء للحكومة العثمانية البائدة كونها مسلمة ومقراً للخلافة الإسلامية. وقد كفاها ما قاسته من الويلات في البلقان وخارجه حيث تألبت عليها جميع الأمم والعناصر المسلمة والمسيحية وما من معين لها في العالم الإسلامي كله، حتى قطّعوا أوصالها إرباً إرباً بعد الحرب العامة الأولى، فاستغنت عنها للتخلص من شرور الأوروبيين المتحكمين برقاب مئات الملايين من العالم الإسلامي، أولئك الذين لم يرقهم يوماً من الأيام وجود الخلافة بيد الأتراك المستقلين استقلالاً تاماً لا شائبة فيه، حذراً من وقوع الانتكاسات السياسية في مستعمراتهم الإسلامية على يدهم، ويودون انتقالها إلى ملوك وسلاطين ضعفاء يقفون عند رغباتهم ويتحركون بإشاراتهم ويقررون ما يروقهم فنبذتها غير آسفة عليها وتركتها لمن يحلم بها. وها هي اليوم تتنفس بملء رئتيها.

20 ـ لا شك أن الخلافة الإسلامية في عهد الأتراك كافحت المذاهب الإسلامية الغالية والمتطرفة تلك التي أوجدتها عقول ساسة الفرس القدماء وقضت عليها أو كادت، وحافظت على بيضة الإسلام ستة قرون متوالية من هجمات أوروبا النصرانية المسالمة تارة والمسلحة تارة أخرى، تلك التي كانت موطدة العزم على نشر الديانة المسيحية بين المسلمين من الغرب إلى الشرق بالإغراء والاكراه، كما فعلته فرنسا في البربر يوم 16 آذار (مارس) 1930 عندما فرضت المرسوم المشهور على سكان جبال الاطلس في مراكش وهو المرسوم المسمى «الظهير البربري» الذي أوقفت بموجبه تطبيق الشريعة الإسلامية بينهم. وكادت بذلك ان تجعل التراث الإسلامي في خبر كان كالتراث اليوناني والروماني. وقد شاءت الأقدار ان تتبدل الأوضاع العالمية ويكون هجوم الأوروبيين بعد زوال الخلافة العثمانية في هذا الزمن اقتصادياً فقط ومستوراً في غلاف من السكر الديموقراطي لإخفاء مرارته.

21 ـ لما دخل البريطانيون استانبول عند هدنة الحرب العالمية الأولى عثروا على بعض الوزراء والشيوخ يقولون بكفر مصطفى كمال ورفقائه وخروجهم عن الطاعة لسلطانهم وخيانتهم لأوطانهم ومروقهم عن الدين، الا ان مصطفى كمال ألقمهم الحجر وملأ أفواههم بالتراب، فتشردوا في البلاد.

22 ـ سألني أحد نبهاء الأتراك بعد اعلانهم رفع احكام الزواج: كيف يجوز تعدد الزوجات وكيف يمكن لشخص متزوج وله بضعة أولاد من زوجته أن ينكحها غيره إذا طلقها بالثلاث. فأجبته أن الأتراك دخلوا في الديانة الإسلامية منذ ثمانمائة سنة تقريباً، ولم يطلعوا على فلسفة الديانة ولم يسبروا

غورها، ولم يطلعوا على كنهها وحقيقتها، وكانوا في جميع عهودهم مقلدين لا مجتهدين، ومنقادين لما يمليه عليهم علماؤهم. كان تعدد الزوجات شائعاً في جزيرة العرب كلها، وكان تشريع الاقتصار على الزوجة الواحدة قد يستوجب تذمر المسلمين وتمردهم، فكان من الضروري أن يحدد الشرع التعدد أولاً، ثم يحرمه تدريجياً، كما جرى في تحريم الخمرة، لذلك اباح الشرع الأخذ منهن مثنى وثلاث ورباع، وربط هذه الاباحة بالعدل. ﴿فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة﴾، ولما كان العدل بينهن مستحيلاً ﴿ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ فكانت النتيجة الحكمية الاقتصار على الزوجة الواحدة، الا في حالة وجود أسباب اضطرارية (العقم، الأمراض، ادارة قطعان الماشية)، فكان الافتاء، بإمكان توزيع العدل بينهن خروجاً على الأوامر الإلهية بعد قوله تعالى: ﴿ولن تعدلوا...﴾ الا ان العالم الإسلامي لم يشأ ان يفهم هذا المنطق، وعدم الامكان، ومغزى القول، اباح الفقهاء التعدد بدون قيد أو شرط مؤوّلاً العدل والكساء والطعام والمنام.

23 ـ ولما كان تعدد الزوجات قد يستوجب هبوط المواهب العقلية والخمول الذهني وحصول الضغائن بين الأخوة، والأمهات الضرائر، فقد تصبح الدار جحيماً لا تطاق. فتزول المحبة والأخوة من بين الأفراد للأسرة الواحدة، وتفسد الأخلاق وتعم الفوضى وتزداد الفتن والقلاقل ويحل الخراب والدمار، ثم الشكوى عند الحكام لاقتسام المال الموروث من الوالد الشره الذي اساء استعمال احكام الشريعة، وأوقع الأسرة بهذه النكبة لتطمين رغباته البهيمية وشهواته الحيوانية. وأما أولاد الملوك فكان يذبح بعضهم بعضاً للوصول إلى العرش، وبأي ثمن كان، والله وحده يعلم ما تؤول إليه المملكة وأمور العباد من الفوضى والاضطراب، إلى ان يستقر الأمر بيد الملك الجديد. فكان من الضروري العودة إلى احكام القرآن، وقبول مبدأ الواحدة ان لم تكن ضرورة ماسة يقررها الحاكم العدل. وقد أراح الله منها الأمم الأوروبية قاطبة. فان لم نتعظ من احكام ديننا، فقد اتعظنا من الأوروبيين، وعلمنا منهم أن الزواج معناه اشتراك الطرفين بتوحيد مصالحهما في الحياة، أساسه التعارف والامتزاج والحب، وعلمنا منهم حق المرأة في الحياة ولزوم تدريسها وتعليمها لتكون عضواً نافعاً في المجتمع، وعلمنا منهم ان نصف العالم الإسلامي مصاب بالشلل بسبب جهل المرأة، وعلمنا منهم ان المرأة الجاهلة لا تلدل إلا على مثالها وعلى شاكلتها. وكان هذا السبب في عقم المرأة المسلمة من ان تلد النوابغ والعباقر. مع ان تعليم المرأة المسلمة من قواعد ديننا الأساسية. فقد قال سيد الرسل: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». إلا اننا لم نحسن تطبيق ما أوجدناه حتى اخذناه من الأوروبيين.

24 ـ ولما كان قد ثبت في الاحصائيات ان قد يولد مقابل كل 100 ولادة من الذكور 104 اناث، وعلاوة على ذلك فقد تتكبد الذكور بعض النقص في الحروب، والأعمال الشاقة المضنية، مما يزيد في اعداد النساء، ومن المفروض أيضاً ترجح بعض النساء العوانس والأرامل الاقتران بنصف رجل ان لم يحظين برجل كامل لوحدهن، فيظهر من هذا وغيره ان في تعدد الزوجات في بعض الحالات فوائد لا تنكر، وأهمها حصانة النساء السائبات. الا ان هذا النوع من التعدد المقيد والذي اساء استعماله المسلمون القدماء، يجب تحديد احكامه بقواعد وقوانين زمنية صارمة على ان تقترن بالضرورة القصوى ـ كالعقم والأمراض المزمنة ـ وعلى ان تكون وسيلة لتطمين رغبات الزوج البهيمية. وثانياً تأمين العدل

المادي والروحي بين الاثنتين حقيقة ولا قولاً، وعلى ان لا يكون القصد منه استهتاراً بالزوجة الأولى أو انتقاماً منها.

25 ـ وأما من جهة الطلاق، فهذه سورة الطلاق والبقرة والنساء بالقرآن واضحة، سامح الله العلماء والفقهاء الذين اخرجوا احكامها إلى غير ما هي عليه لمنفعة الرجل. يقول عز وجل: ﴿فان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله، وحكماً من اهلها، ان يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾. فهذه المرحلة الأولى للتوفيق بين الطرفين.

ولما كانت الطبائع البشرية مختلفة فقد يكون الطلاق أمراً ضرورياً لا مناص منه، وعند هذا الحد يكون الطلاق مرتان رجعياً ﴿الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان﴾. وفي الثالثة لأجل ان لا يكون الطلاق العوبة بيد الرجل، حرّم عليهما الاقتران للعبرة والتحذير فيكون بائناً ﴿فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾. فيكون كل فرد منهما حراً بنفسه وله ان يتزوج بالغير، وبمن يشاء. وللمرأة إذا توفي زوجها الجديد أو افترقت منه لسبب آخر كالطلاق وغيره ﴿فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾ (230 ـ البقرة)، فيجوز عند ذاك عودتها إلى زوجها الأول، مع العلم ان هذا التشريع جاء مخالفاً لأحكام الديانة اليهودية التي حرّمت عودتها إلى زوجها الأول[1] فكأن هذا التشريع لم يأت عفواً، إنما تعديلاً لما جاء في الشريعة اليهودية فلا «تيس مستعار» فيه، ولا تلاعب بأحكام الشريعة.

26 ـ واما ما يعود إلى أحكام الطلاق فقد جاء في القرآن الكريم ﴿يا أيها النبي وإذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن، واحصوا العدة واتقوا الله ربكم، لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، فإذا بلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف، واشهدوا ذوي عدل منكم، واقيموا الشهادة لله﴾(الطلاق)، فإن هذه الآية القرآنية يفهمها حتى عُمي القلوب. فان اعتبار الواحدة ثلاثة ـ كأحكام التثليث عند المسيحيين ـ وطرد الزوجة المطلقة من الدار دون معروف أو احسان محاباة للرجل، وتخليصاً له منها بضربة واحدة، كل ذلك مخالف للشرع وظلم للمرأة واجتهاد مغلوط من الفقهاء، كان في زمن ابن الخطاب لأسباب نفسية اجتماعية. ولما كان الطلاق أعمق أثراً من العقد، فكما ان العقد بحضور شهود، فلا طلاق الا بحضور شهود أمام حاكم عدل. وقد أيد القرآن الكريم شهود الطلاق وأصر على ان يكونوا من ذوي العدل، وعلى اقامة الشهادة لله. فكان لكل خليفة من بني عثمان ان يجتهد ويلغي الفتوى ويرجعها إلى ما أمر به القرآن الكريم، فإذا ترك رجال الدين أحكام القرآن فلا ذنب للدين. فإن الطلاق بالجملة، وبدون شهود، وطرد المطلقة من الدار ثم تسليمها إلى «التيس المستعار» دون ذنب اقترفته، وعن علم ورؤية من زوجها ليس له أثر في القرآن. فكان تمسك الأتراك بهذه الفتاوى المغلوطة تعتبر تقليداً أعمى. فإذا تعارضت المنقولات مع نصوص القرآن، فالحكم للقرآن وحده.

(1) جاء في الاصحاح الرابع والعشرين من سفر التثنية: اذا مات الزوج الأخير الذي اتخذها له زوجة، او طلقها من بيته، لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تتنجست (24/3).

27 ـ وفي مسألة الطلاق كان من الواجب على الفقهاء ملاحظة الجانب الأخلاقي فيه أكثر من الجانب الديني، لأن الشريعة يجب ان تثبت المنافع، وتزيل المفاسد، عن الأفراد والجماعات. بمعنى أن الشريعة الزمنية يجب أن تكون اخلاقية اجتماعية أكثر مما هي دينية تعبدية. إلا أن وضع المحاكم الشرعية فيما يتعلق بالطلاق كانت تسوق الأمة إلى فساد الأخلاق، وإزالة المنافع، وتثبيت المفاسد. فقد اتجه الفقهاء العظام بكليتهم نحو ما فهموه خطأ من الدين وتركوا الجانب الأخلاقي والاجتماعي في أمور الأمة، فكانوا قد سهلوا الطلاق للناس، وحكموا بصحته، حتى إذا ما قاله المرء في حالة الغضب أو في حالة السكر أو فيما بينه وبين نفسه لأمور جداً تافهة دون ملاحظة حالة الزوجة وما يؤول إليه أمرها وأولادها، وسكتوا عن اخراجهن من بيوتهن، وعن احتمال ما سيحدثه الله بعد ذلك من الألفة والمحبة بينهما، وتغاضوا عن حدود الله المؤيدة تأكيداً في احكام الطلاق بصورة عامة[1]، وتسامحوا مع الزوج كلما نكح زوجه ثم طلقها بالثلاث واستبدلها بغيرها... كل ذلك دون ملاحظة أن الطلاق حلال بغيض، شرّعه الله ليحل به أزمات الناس في وقت تستحيل فيه الحياة الزوجية الهانئة السعيدة.

28 ـ يقول المتفقون ان الفقهاء العظام قد اعطوا وأباحوا للزوجة حق الفسخ إذا اشترطت ذلك وفي اثناء العقد، فتستعمل حقها إذا لم توافق على تعدد زوجات رجلها مثلاً، فنقول: هذا صحيح. إلا أنا نسأل من اعطى المرأة فرصة استعمال حقها هذا منذ 1300 سنة حتى اليوم؟ وإذا كانت المرأة الأميركية قد تجد عملاً لها إذا طلبت طلاقها من زوجها، فماذا تعمل المرأة المسلمة، إذا فسخت عقدها بيدها، وهي عاجزة عن نيل معيشتها بعد أن وصلت إلى هذه الدركة من الحضيض وصارت متاعاً بيد الرجل؟ ومن المحقق ان الذنب كل الذنب يعود للمجتمع الذي أوصلها لهذه الحالة من التقهقر والسقوط، مما سبب محو شخصيتها، حيث لم يبق لها من كينونة تعتمد عليها. نعم، انها تستعمل حقها هذا حين تمارس حريتها كاملة غير منقوصة بالنظر لما منحتها الشريعة من الحقوق، فهل تسمح لها القوانين، والعرف والعادات المكتسبة بذلك؟ وماذا يوجب على الزوج الذي يغري ويفسد كل يوم بنتاً ثم يهجرها، ويطلقها في اليوم الثاني، وكأنه طير يحلق بجناحيه فيطير من غصن إلى غصن، ومن شجرة يتنقل وراء شهوته، ويرقد إينما راق له الهوى؟ فكأن الشرع قد وضع بجانب الرجل، وكأن المرأة متاع ساقط تابعة لتهوسات الرجل ورغباته كالقميص متى شاء نزعه، أو كالحذاء متى أراد استبداله، أو أنها آلة شهوانية، لا حق ولا عقل ولا فكر لها.

29 ـ ولطالما أن المرأة بالنظر للشرع الإسلامي، ترث وتستورث، فلها ان تدير أملاكها وزراعتها وتجارتها بنفسها مباشرة. وهذا لا يكون من وراء جدار أو من تحت البرقع أو بواسطة الوكلاء. فهي إذن شخصية كاملة قد منحتها الشريعة الإسلامية كل الحقوق الممنوحة للرجل، سواء بسواء، تلك الحقوق التي لم تنلها المرأة الفرنسية حتى هذا اليوم ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾(32 ـ النساء). إلا ان رجال الدين تبعاً لعواطف وهمية خيالية، ولئلا يصيبها سوء وينالها مكروه سلبوها حريتها وحقوقها وحبسوها في الدار، باعتبار انها دمية تشتهى أو غادة تقتنى، وأغلقوا

---

(1) يقال إن قوانين بعض مقاطعات اميركا تقضي بتأخير البت في الطلاق شهراً واحداً لإعطاء الفرصة للزوجين بمراجعة أنفسهما.

عليها الباب باسم الدين والنخوة والشهامة والكرامة. ولو استطاع الشيوخ لنزعوا منها الاحساس كالذوق واللمس والسمع والبصر لئلا تذوق وتلمس وتسمع وتبصر فيسوقها إلى الشرود والفجور والبغي والعصيان، بينما اعطاها الشرع حقوقها كاملة غير منقوصة ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾، ورفع عنها كل اكراه وتضييق ﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾. وما من احد من رجال الدين يطلب تطبيق هذه الأحكام. ولو كان اعطي للمرأة المسلمة حقوقها بوقته وزمانه لما وصلت الأمة الإسلامية والعربية لهذه الدركة من الحضيض، ولما اضطرت تركيا لقبول القانون السويسري، وقد تضطر الحكومات الإسلامية الأخرى إلى سن القوانين للأحوال الشخصية ولو بعد حين. يقال لما نشر قاسم أمين كتابه تحرير المرأة المسلمة ولزوم تعليمها، ذهب احد رجال الدين إلى داره يطلب من زوجه ليستمتع بعذب حديثها وصباح وجهها. ومن المضحك ان الحاكم بأمر الله الفاطمي الرجل الشاذ في أخلاقه وأطواره كان قد حرّم على الحوانيت صناعة احذية النساء أو بيعها لئلا يخرجن من بيوتهن وإبقائهن بين جدران البيت حتى الموت. فيترتب على المرأة المسلمة قبل كل شيء ان تشهر الحرب العوان على رجال الدين أولئك الذين ما برحوا يصدرون الفتاوى بحرمانها حق الحياة وسلبها حقوقها المؤيدة بالقرآن وجعلها آلة متحركة بالدار وصندوق تفريخ.

30 ـ سئمت نفوس الأتراك امثال هذه الاضطرابات والاختلافات. وكان من الضروري حفظاً للأسرة التركية وللمجتمع التركي، الشطب مرة واحدة على أقوال الرواة والفقهاء للتخلص من تسليم نسائهم إلى أزواج غيرهم. وجعلوا التعدد والعدة والطلاق تابعاً لأحكام القرآن مباشرة غير ملتفتين إلى تفلسف الفقهاء، فكما ان العقد لا يكون الا بحضور القاضي والشهود وذوي العدل، فلا طلاق إلا بحضورهم أيضاً. فهم الذين يعقدون وهم الذين يفرقون، هذا هو المعقول والصواب والموافق لما جاء في القرآن المجيد. وأما ما يقوله الرجل بينه وبين زوجته وفي السوق والحقل والدكان لأسباب مضحكة، فلا قيمة لها ولا يلتفت إليها البتة فلا تستوجب هدم الأسرة مطلقاً. ومما يضحك انني كنت قد قرأت ان أحد الفقهاء العظام ولا اتذكر اسمه كان يقول اني درّست الفقه أربعين سنة بالنظامية في بغداد ولم اتلفظ بلساني كلمة (طلق)، إنما كنت اتلفظها (ط. ل. ق.) لئلا تمر بخيالي امرأتي حينما اتلفظها فتصبح طالقاً مني وهي منتهى السخف.

31 ـ لما أراد الملك فيصل اصدار قانون الغاء الوقف الذري انبرى له رجال الدين وأخبروه ان الشرع قد اباح الوقف الذري فإلغاؤه مخالف لأحكام الشرع الشريف. وبعد مذاكرات جرت في المجلس النيابي العراقي اسدل عليه الستار. ولم يزل الوقف الذري نافذ المفعول ولا حاجة لبيان الاضرار المتآتية على المجتمع الإسلامي من بقاء هذه الخربات في طول العراق وعرضه. ان الغريب في هذا الأمر انصياع العالم الإسلامي وانقياده لقول رجل من الصحابة (عبد الله بن عمر) حول أمر لم يرد له نص صريح في القرآن. والأغرب سكوت العالم الإسلامي حتى يومنا هذا وقبولهم اقوال ووصايا الحكام والأمراء والولاة والطغاة والظالمين والجبابرة الغاشمين، فأوقفوا ما عندهم لأحفادهم لئلا يصادرها منهم خلفهم تبعاً لسياسة ذلك الزمان من جهة، وليؤمنوا معيشة أولادهم وأحفادهم وذرياتهم إلى ما شاء الله من جهة أخرى. فقد هلكوا ولم يزل المجتمع يقاسي ظلمهم واعتسافهم. وهنا يصح القول الإيراني «مرده بلا زنده بلا» أي أنه بلاء في حياته ومماته.

ولأجل المحافظة على الوقف من ان تعتوره تقلبات الزمن، جاء الفقهاء تزلفاً لأولئك الحكام والأمراء بقاعدة فقهية لا تقل قوة عن نصوص القرآن الكريم، فقالوا «شرط الواقف كنص الشارع»، وأدخلوها في عقول الأمة قسراً لدرجة يمكن للفرد أن يرتكب بعض المخالفات الشرعية، لأن الله غفور رحيم، ولا يمكنه أن يمس حاجة من أمور الأوقاف لأنها نار وبوار على غير ما أوصى به الواقف، بينما الشرع الإسلامي قد اعتبر من مات فات ولم يبق له من علاقة مع الاحياء ﴿ما يستوي الاحياء ولا الأموات... وما أنت بمسمع من في القبور﴾. وأما الوصية التي يستندون عليها في فتياهم، فيجب ان تكون للأمور الخيرية والمنافع العامة فقط لا للأفراد والذريات بطنا بعد بطن وظهراً بعد ظهر إلى ما شاء الله كما هو محرر بالوصايا كافة.

33 ـ ولا بد هنا من الكلام على جامعة الأزهر في بلوغها الألف سنة باعتبارها اقدم جامعة في العالم. فقد اجيز فيها مئات الألوف من رجال الدين الأجلاء ولم يستطع احدهم عندما كانت لهم الكلمة المسموعة المطاعة، وحتى لما كانت السلطة في مصر إسلامية شرعية صرفة، أن يمنع المصريين من زيارة القبور ومن مراجعة القباب، ويرشدهم إلى توحيد الدعاء إلى الإله الواحد الأحد، وينصحهم بلسانه وقلمه بعدم الخضوع والانتماء إلى المشايخ والأولياء والصلحاء وبمجانبة الزوايا والتكايا، ويعلّمهم الديانة الإسلامية الحقة التي جاء بها محمد بن عبد الله سيد الرسل، ويزجرهم عن الاعتقادات الباطلة والخيالات الواهية والمشاعر الكاذبة. وها هي مصر مكتظة من اقصاها إلى اقصاها بشيوخ الأزهر، وما منهم من ينبس ببنت شفة عما يراه من الضلال ويستنكر المعتقدات والأهواء الباطلة ويرسلها حملة شعواء نكراء. ولم يكتسب اقسام الشباب من الأزهريين وارباب قسم الفلسفة من الجامعة المصرية، والكتّاب المصريين ذوي المواهب السامية والأفكار المنيرة من الشجاعة الدينية والأدبية ما تدفعهم إلى الطلب من الشيوخ ان يقوموا برفع الادغال النابتة في أصل الدين ويذكرهم ان بقاءها في هذا العصر الذي طغت فيه الماديات، ان لم تتدارك ستقضي عليه عاجلاً أم آجلاً، وان من الضروري تأسيس مجمع ديني إسلامي عالمي في مصر من علماء عصريين وشباب ازهريين وفقهاء مصلحين وفلاسفة بالأديان وحكماء بالشرائع والقوانين لتحوير الفروع حسب مقتضيات الزمن وتقليم البدع والضلالات والخرافات والشعوذات المدخلة على الدين، بل لتركيز اصول الدين والمعتقدات والعبادات على أسسها الأصلية، والأصح تخفيضها جهد المستطاع والتمسك بأسهل وأخف الروايتين وترك ما يسمونه (الاحوط) من إحدى الروايتين. وبغض النظر عما رواه ابن عباس وأبو هريرة وامثالهما وأحدثه المشائخ والأولياء والشهداء والصالحون، على أن يكون قرارهم بمثابة اجماع الأمة لتنسجم الديانة مع عقول الشباب في الحال والمستقبل ويهضمها الوجدان العصري في كل دور من أدوار الخليقة وإلى ان يرث الله الأرض. وذلك درءاً للالحاد والجحود المتفشيين في الصفوف والمسببين النظر إلى ذوي العمائم بالسخط والأزدراء.

34 ـ قد تترك الأديان مراكزها السامية رويداً للعلوم والفنون العصرية وقد يأتي يوم ـ وهو ليس ببعيد ـ ترفع فيه الدواعي السياسية فتكف الحكومات عن معاضدتها نهائياً. ويقال إن الأزهر يعتمد اعتماداً كلياً على ميزانية الدولة فيلفظها الشباب المتعلم بسهولة ويتركها المتدينون والمؤمنون تحت الضغط

والإكراه. والسبب في ذلك كله جمود رجال الدين وتبلورهم حول ما قيل قبل أكثر من ألف سنة، أو إلى ما نقل إليهم عن اشياخهم. فليس لهم من حيلة للتخلص من تلك الروايات وليس باستطاعتهم التملص من تلك المنقولات حتى يذوب ما بأيديهم تحت أشعة العلوم العقلية كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس المحرقة.

لقد ادخلت جامعة الأزهر في منهاج تدريساتها، الجغرافيا والتاريخ والهندسة وشيئاً من العلوم الطبيعية، لتقترب من الجامعات الأوروبية. فلا يمكن أن تكون جامعة عصرية ما لم تفسر القرآن الكريم بالنظر لحالة المسلمين بهذا اليوم، وبالنظر لما سيكون عليه في المستقبل القريب والبعيد، بغض النظر عما رواه الرواة والمحدثون من الأحاديث الموضوعة والمخالفة للنصوص، سواء كانت من اقسام العبادات أو من المعاملات. ومن جهة ثانية إجراء اصلاحات اساسية في كلية الأزهر على أن لا يقبل في صفوفه إلا المتخرجون من الصفوف الاعدادية (الثانوية)، وعلى ان تعطى دروس اضافية في مبادىء علم الحياة والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي باعتبار أن الدين يأمرنا بلزوم التفكير في خلق السماوات والأرض، وهو يشمل العالم المادي والعضوي وباعتباره من اعظم العوامل المؤدية إلى تكامل النواحي الروحية والخلقية والمساعي الإنسانية وارتقاء الجنس البشري.

35 ـ تأسّست في القاهرة الجمعية الفلسفية المصرية وقامت بنشر مكتبة كاملة من الكتب الفلسفية والاجتماعية، فمنها المترجمة من اللغات الأجنبية، ومنها المحررة من قبل الأساتذة والأدباء والفلاسفة المصريين المعاصرين. وهو عمل ثقافي كبير تحمد عليه الجمعية. إلا أنّا باستثناء صرخة واحدة تحت عنوان من هنا... نبدأ عن حالة الكهانة في الحكومات الإسلامية سابقاً، لم نر ولم نسمع عمن اقترب من جدران الأزهر ومن وضع المنقولات تحت النقد العلمي أو انتقد المؤسسات الدينية الموضوعة من تكايا وزوايا وغيره، أو جاء بشيء حول ضرورة التحرر من القيود التي وضعها رجال الدين الإسلامي رغم عنفها، أو دعا إلى عبادة الله وحده دون اشراك القباب والأحداث البالية، أو خفق قلبه خوفاً ورعباً على مصير هذه الديانة المجيدة وما سيؤول إليه أمرها بعد عشرات السنين، كأن فلسفتهم وعلومهم منحصرة بعلوم الأوائل وبتراث الأوروبيين واليونانيين فقط وفي عهد النهضة وما قبله وما بعده فقط. وكأن الديانة الإسلامية المعاصرة بريئة من المدخولات ومنزهة من الحشويات ومحافظة على قواعدها الأصلية التي جاء بها القرآن دون زيادة أو نقصان. فليس فيها ما يستوجب الاعتراض والكلام. فكأن هيبة شيوخ الأزهر قد شلت افكارهم وعطلت اقلامهم. وإذ كان شباب الأزهر على تمام الاستعداد للقيام بهذه الرسالة فيما إذا افسح لهم في المجال، فمن المحقق أنه لن يكون في استطاعتهم الظهور تجاه شيوخهم وأساتذهم.

36 ـ فإن لم يكن بمقدور الشباب الأزهريين والكتاب المصريين ان يسألوهم، فلنا أن نسألهم ومن حقنا سؤالهم. ولا نريد ان نسألهم عن العلوم العقلية عند معارضتها للقواعد الدينية وعما اتخذوه لمقابلة الوعي الشامل عند الشباب المتحفز، وما اعدوه لمقابلة المذاهب المتطرفة عند انتشارها، وعن التفسير العصري للقرآن الكريم، وعن تأخرهم في تفسير النصوص وتأويلها حسبما تقتضيه الحالة الاجتماعية الحاضرة عند مختلف الأمم والأقوام في مختلف درجات العرض من الكرة الأرضية، وعن

ضرورة رفع المحدثات والعلاوات والتشديدات التعبدية والأباطيل المدخولة على الدين... الخ. إنما نسألهم ولو من جهة واحدة فقط، وأخف من كل ما سبق ذكره، وذلك عما عملوه هم وأسلافهم منذ ألف سنة لتحطيم الاصنام (قباب الأولياء) المنصوبة فوق رؤوسهم، يشاهدونها صباح مساء مع علمهم النظري مخالفتها لدين التوحيد، وعن جهودهم بدعوة المصريين الذين هم بتماش معهم لترك المشائخ والصلحاء والأولياء والاوتاد والاقطاب والابدال والابطال والطرائق الصوفية المختلفة. (ويقال ان في مصر 48 طريقة صوفية ولها شيخ المشائخ)، وعما حصلوا عليه من النجاح بتوجيه العالم الإسلامي إلى عبادة الله وحده وهم يرتلون بكرة وعشيا ﴿وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا﴾، و﴿إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾، و﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حبا لله﴾، و﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾، و﴿لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذمنها عدل ولا هم ينصرون﴾، و﴿قل لله الشفاعة جميعا﴾، و﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾، و﴿ما يستوي الاحياء ولا الأموات، ان الله يسمع من يشاء وما انت بمسمع من في القبور﴾، و﴿انك لا تسمع الموتى﴾، و﴿ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم، ويوم القيامة يكفرون بشرككم، ولا ينبئك مثل خبير﴾، و﴿ما أدري ما يفعل بي ولا بكم، ان اتبع إلا ما يوحى إليَّ وما انا إلا نذير مبين﴾، و﴿قل افاتخذتم من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا﴾، و﴿قل اني لا املك لكم نفعاً ولا ضرا﴾، والظاهر إما انهم يرون تلك الاضرحة والبدع والضلالات بأعينهم ويسكتون عنها وينامون على الضيم والسكوت عن البدع ضلالة، فهم مقصرون في إداء واجباتهم، وإما أنهم أيضاً يعتقدون بالأولياء وبشيوخ الطرائق وبهذه الانصاب وعلى قدرتها بتبديل سنن الكون وبمنحها الضر والنفع أو أنها الواسطة بين الله وعباده (كمديري التشريفات) وهناك الطامة الكبرى. فإن مؤسسة دينية كهذه تؤيد ضر الأولياء ونفعهم وتسكت عن تفسير الشفاعة بغير ما هي عليه فتضر ضرراً بليغاً بالمجتمع الإسلامي.

وهي تعمل منذ ألف سنة ولا تقدر وتتمكن من افهام معنى الشفاعة والولاية على وجهيهما الصحيحين، ومن تقويم اعوجاج الناس ودعوتهم إلى الدين الصحيح الذي جاء به سيد الرسل، لجديرة ان تقوَّم قبل تقويمها الناس، وسيكون ذلك قريباً.

37 - وإذا كانت الشفاعة قد شغلت جانباً كبيراً في الديانة المسيحية وأصبح لكل فرد من الهيئات الروحانية الحق بغفر ذنوب الناس ومحو الخطايا والآثام، وإذا كان إله بني إسرائيل تبعاً لما جاء في التوراة يأتمر بأوامر النبي موسى في قوله: «وعند ارتحال التابوت كان موسى يقول: قم يا رب... وعند حلوله كان يقول ارجع يا رب» (10 ـ 35 عدد)، وقد يتحفز لأمر ما ثم يرجع عن عزمه ويندم ويقبل النصيحة «اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم... فقال موسى ارجع... واندم... فندم الرب على الشر الذي قال انه يفعله بشعبه» (11 ـ 22 خروج). وبالنظر لأحكام التوراة وتبعاً للنظريات السائدة عند الأمم الأخرى ينتقم من الجيل الثالث والرابع من مبغضيه ثم يتقبل منهم الذبائح والقرابين فيعفو ويصفح بـ «ذبائح الخطيئة»، فان إله المسلمين لا يقبل الرشوة والذبائح والنذور للعفو عن الجناة والمجرمين، ولا يتحول ويتبدل عن إرادته الأزلية بشفاعة الشافعين، ولا يأتمر بأوامر الأنبياء، ولا

يرضخ لرغبات الشهداء والصالحين وميولهم، ولا يندم ولا يقبل النصيحة من الأولياء والوجهاء والأصحاب والمقربين. وقد حصر الشفاعة والولاية بذاته تعالى وحده وهو القائل جل جلاله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾. وهو القائل جلّت عظمته: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾. إذن ماذا سيفعل أولئك الشفعاء والأولياء في ذلك اليوم الذي لا تملك فيه نفس لنفس شيئاً؟ فقد يتجلى الجواب في قوله تعالى: ﴿قل لله الشفاعة جميعا﴾ سواء رضي طلاب الشفاعة أم لم يرضوا. هذه هي الحقيقة المجردة بغض النظر عن الإسرائيليات المدسوسة في القواعد الإسلامية، وعن المسيحيات، وعن التأويلات الصبيانية التي تأتي بها المشائخ والدراويش وبعض رجال الدين حول الذبائح والجاه والولاية والشفاعة.

38 ـ ان تقديم الذبائح والقرابين إلى الآلهة لاكتساب رضاها نظرية قديمة يرجع رسوخها إلى أقدم العصور البشرية انتقلت إلى الكلدانيين والرومانيين والإسرائيليين ولم تؤيدها الديانة الإسلامية إلا ما كان منها لوجه الله وإطعام الفقراء. ولما كان النبي موسى قد استند منذ بدء رسالته على سبط لاوي وليس في شريعته شفعاء ولا يوجد فيها عقاب آخروي، فقد شدد ما أمكنه التشديد في العقاب الدنيوي، وفرض تقديم الذبائح والقرابين إلى المذبح كجزاء عن كل حادثة تقع أو مخالفة تحدث. وحدد لكل مخالفة شرعية عدداً من أنواع الحيوانات، وأطنب في وصفها وقواعدها وفي دمائها ولحومها وجلودها وشحومها حيث لا يخلو فصل في التوراة إلا وفيه وصف لها. ومع هذه النصوص القاطعة التي شغلت مكاناً كبيراً في شريعة موسى وفي التوراة، إذ ظهر يوشع أو هوشع (اليسع) وقرر أن إله بني إسرائيل لا يحب الذبائح والنذور ولا ينتشي من ريح القتار (الشحوم المحرقة) إنما يريد التقوى والتوجه إليه بالروح والقلب وقال: «اني أريد رحمة لا ذبيحة». فترك اليهود كل الذبائح والنذور والمواقد وإحراق الشحوم وتركوا وأهملوا أعظم ركن من أركان التوراة دون غضاضة. وبعد، فما بال بعض القضاة والمشرعين من رجال الدين الإسلامي أولئك الذين يتغلبون ويتزاحمون ويتنابذون ويتنافحون في المجالس بقول سيد الرسل: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» وما منهم من يجسر أن يغير ويبدل أصغر أمر زمني أو أدنى عمل تعبدي قالته الشيوخ الأقدمون، مما ليس فيه نص قاطع، بأسهل منه حتى وان كان من المدخولات ـ كالذبائح والنذور للمراقد مثلاً، مع أنها من الإسرائيليات ومحرمة في الديانة الإسلامية ـ في زمن كهذا انتشر فيه الالحاد واقتضته المصلحة، واستوجبه الزمان واستلزمته العلوم الاجتماعية. أما وأنهم مصرون على أن لا يتزحزحوا قيد شعرة عن اختلافات الفقهاء في مبطلات الصيام ومفسدات الصلاة ومنقضات الوضوء، أما وأنهم لا يرون ببصيرتهم ما ستؤول إليه احكام التعبدات والمعتقدات هذه بعد سنين معدودات، أما وأنهم لم يتفقوا على هدف واحد، وكانوا ولم يزالوا يكفّر بعضهم بعضاً في المعتقدات، وقد اعتنق كل فريق منهم مذهباً يخالف الآخر، فليس لنا إلا ان نطلب من السلطات الزمنية ان تقوم بتأسيس المجمع الديني الآنف الذكر وتأخذ على عاتقها إدارة الشؤون الدينية والروحية ـ لمدة من الزمن ـ وتضع لرجال الأديان قوانين مسيرة لأعمالهم.

39 ـ قد تجعل كل دولة لنفسها فلسفة دينية خاصة تتمسك بها وتحتمي وراءها، وقد تكون مصيبة في

ذلك أو خاطئة. وإذا ما علم بعض رجال الدولة خطأ فلسفتهم ولم يكن بمقدورهم تعديلها ومعالجتها لأسباب داخلية او خارجية يتظاهرون مرغمين بصحّتها مماشاة للجمهور، ويعللون ضميرهم المعذب بالأمر الواقع وجهل الأمة. وقد تحين الفرص الثمينة فتحصل الثورات العنيفة فتنقلب المنظمات الخاطئة رأساً على عقب، كما حدث في تركيا في زمن مصطفى كمال، وفي إيران في زمن رضا شاه بهلوي، وفي الهند في زمن جواهر لال نهرو، وفي سوريا بعد نيلها الاستقلال الكامل، فتؤسس حينئذ فلسفة دينية متناسبة مع العقل والعلم موافقة للرقي العصري خالصة من الشوائب ومنزهة عن المدخولات والأهواء، ولا خوف عليها حينذاك، حتى إذا ما ألغيت الأديان الرسمية من القوانين الأساسية فيكون الدين البسيط الذي لا يتجاوز الكلمتين محفوظاً بالقلب ولا حاجة به لمرشد.

40 ـ من المحقق انه كلما فتحت العلوم ثغرة بالصفوف، انسحب من امامها رجال الأديان كما وقع للاكليروس المسيحي. فانه لم يجن من محاكمة غاليله ولافوازيه ومن سجن كوبرنيك وإحراق برونو فائدة، وبقيت الأرض تدور والنظام الشمسي ثابتاً والمادة خالدة، ولم ينفعه ارشاء العلماء والفلاسفة للتوفيق بين المكتشفات العلمية والأحكام الدينية، ولم يفلح بتوقيف التيار العلمي العالمي ولم تثمر نصائحه وارشاداته لأن زمن الاعتقاد الناشف المخالف للعقل والمنطق قد فات، وزمن الضغط والاكراه قد مضى وانتشرت الفلسفة والعلوم والنظرية والعلمية في كل مكان وصقع من البلاد الأوروبية، فأصبح الشباب المتعلم المثقف متجهاً بطبيعة الحال نحو التمرد والعصيان على المنظمات القديمة الجافة الناشفة، واضعاً تحت المقاييس العقلية والتجارب العلمية والاختبار كل ما يعرض عليه من المنقولات. وتحت هذه التأثيرات انسحب رجال الدين المسيحي من الميدان تاركين الموقع للغالب عن طيبة خاطر. وبذلك خضع الوحي المسيحي بعد كفاح دام بضعة قرون لسلطان العقل ونقده.

41 ـ أراد الشيخ طنطاوي الجواهري أن يمثل الدور عينه الذي مثله رجال الدين المسيحي للتوفيق بين المكتشفات العلمية والنصوص الدينية بتفسير القرآن الكريم (الجواهري في تفسير القرآن الكريم) فأدخل فيه العلوم الطبيعية والرياضية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً وهو عمل حسن إلا أنه لم يقدم ولم يؤخر.

42 ـ ولما كان الدين لا يقاس بالمقاييس العقلية ولا يدخل في الأنابيب الزجاجية ولا يمت بصلة مع القواعد الفيزيائية والكيميائية والرياضية وهو عمل وجداني صرف، وجب أولاً تجريده من البدع والضلالات وأقوال الرواة وجهلة المحدثين، وإرجاعه إلى التوحيد المطلق الذي لا تشوبه شائبة (لا إله إلا الله) وعند ذلك يعطي طريقة الانكشاف الذاتي كوحدة مستقلة في شؤونها لا علاقة لها بغيرها، تسير موازياً وجنباً إلى جنب مع العلوم العصرية، يهضمه الوجدان البشري في كل عهد من عهود الخليقة إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها. اما التوفيق بينه، وهو في حالته الحاضرة، وبين العلوم التجريبية لتأييد مركزه وترصين بنيانه، كإيضاح القنبلة الذرية مثلاً بآية القرآن الحكيم، يعتبر ضرباً من العبث. وسبق ان بذل ابن رشد ثم الكواكبي والغلاييني وغيرهم من فلاسفة الإسلام جهدهم للتوفيق بين الديانة الإسلامية والفلسفة اليونانية أو العلوم العقلية فلم يفلحوا.

43 ـ وبينما قد تغلب الدين الإسلامي على جميع العقائد السابقة له بفضل سهولته وبساطته وقلة

تكاليفه ومطابقته للمعقولات، إذ قد ضيّق الاسلاف الخناق على المسلمين وشددوا عليهم ديانتهم السمحة وتمسكوا بالجانب الأصعب من إحدى الروايتين، غيرة منهم على زعمهم، وحمية على الدين، لعلهم بذلك يكسبون الأجر والثواب، أو لئلا يقعوا بالاخطاء فيحملوا وزرها، حتى اخرجوها عن محورها الأصلي، وإذا كان قد قبلها الأقدمون تحت تأثير التعصب الديني الشديد ولمقابلة الشعوبية بمثل قواعدها، فقد بدأ السأم يظهر في صفوف المتعلمين والمثقفين والطبقات الأخرى، خاصة بعد انتشار العلوم الطبيعية المثبتة، فانفجر ذلك التعصب وزال من بين الطبقات الراقية حتى من بين الطبقات الوسطى وأصبح كثير من المحرّمات (الخمر والميسر والرقص الافرنجي وأنواع الموبقات... الخ) كالمباحة في النوادي والمجتمعات وحتى في الملاهي والمقاهي. وإذا اعتبرنا ان الشرق قد انتبه من سباته وأفاق من غفلته، فانه سيمثل الدور نفسه الذي لعبه العالم الغربي في الميادين الدينية، فلا ينقضي هذا الجيل إلا والمعابد خالية من المؤمنين، وسيبقى رجال الدين قابعين في اماكنهم، متمسكين بطريقتهم في الوعظ الناشف، والارشاد البارد، يقدمون الاحتجاجات ضد كل جديد، ويحثون الحكومات عبثاً لمصادرة الكتب والمجلات التي لا تروق بأعينهم، وليس باستطاعتهم تفنيدها والرد عليها، إذ ليس في طاقتهم تخفيف ما شددوه أو تفكيك ما عقدوه.

وبينما نسمع في كل يوم عن عقد المؤتمرات السياسية والاقتصادية والرياضية... فلم نسمع مرة واحدة عن تأسيس مجمع ديني لإصلاح الشريعة كأنها سالمة من الشوائب والمدخولات لا تحتاج إلى الاصلاح. فكان لزاماً على أولي الشأن، كما قلنا سابقاً، تأسيس مجمع ديني دائم من فقهاء عصريين وفلاسفة مدنيين ومن شباب الأزهر والنجف الأحرار، لشطب ما ادخلته الفرق والمذاهب في الديانة الإسلامية وإرجاع أحكام الدين والإيمان والقواعد التعبدية إلى ما هو موجود منها في القرآن وحده دون التقيد بالروايات والمنقولات المتضاربة، ويكون قراره بمثابة اجماع الأمة. وتأسيس مدرسة دينية موحدة يدرس فيها الشباب من جميع الفرق والأمم الإسلامية كافة دون تفريق بين المذاهب، على أن تعطى درجة الدكتوراه للنوابغ منهم في العلوم الدينية الإسلامية، وتسلم بيدهم قيادة الأمة الروحية فيما بعد ويمنع غيرهم من ممارستها.

44 ـ ومن الأمثلة المؤسفة على ما هو عليه بعض رجال الدين ما حدث في سنة 1944 حين نشر الشاعر الأديب المغفور له معروف الرصافي كتابه «رسائل التعليقات» وجل ما فيه بعض الأخبار والمعلومات عن الصوفية الإسلامية، وطرف من وحدة الوجود الروحية، وتفسير صوفي لآية الحكيم بأن (الظاهر) هو المرئي المحسوس (والباطن) هو اللامرئي واللامحسوس، ونتف أخرى عن تساوي المتضادات في الافعال والحركات، وعما قالته المتصوفة والفلاسفة عن الكلي والجزئي وغيره من الآراء والمطالعات، فرأوا ان هذه الأفكار بدعة، وللديانة اهانة، قد تستوجب الحبس والضرب والجزاء، فقاموا وقعدوا وحوللوا وحوقلوا كأن السماء انشقت والأرض ألقت ما فيها وتخلت، فراجعوا الوزير المختص، وشكّلت لجنة التحقيق من علماء نبهاء. وبعد سؤال وجواب لم يظهر فيه ما يمس الديانة الإسلامية جوهرها، وكفى الله الرصافي هذه الهجمات.

وفات هؤلاء الأجلاء أن وحدة الوجود هي فلسفة هندية يونانية تأسست قبل المسيح بقرون ثم

انتقلت إلى العالم المسيحي ومنها إلى العالم الإسلامي، فظهر من الفلاسفة وشيوخ المتصوفة من ظهر ممن لا يسعهم عد، وقالوا ما قالوا مما لا يحصره حد. وكان التسامح الديني عند العالم الإسلامي يومئذ قد بلغ منتهاه في القرن الثالث والرابع والخامس الهجري، وخاصة في عهد المعتزلة، خلافاً لما هو عليه اليوم من ضيق الفكر وقلة التسامح. وكان لكل ان يقول ويجتهد على ان لا يمس جوهر الدين المحمدي وهو التوحيد المطلق بشيء. وكان قد قرر أود الخوارزمي (ان لله وفرة سوداء وشعرا قططا ونصفه الأعلى مجوف ونصفه الأدنى مصمت وقال اعفوني عن الفرج واللحي وأسألوني ما سوى ذلك) وغير ذلك من السفسطات ولم يمسه أحد بسوء إنما كانوا منه يضحكون.

45 ـ وبينا كان من قواعد الإسلام عند بعض الأئمة النظر العقلي لاكتساب الإيمان الصحيح وان الإيمان بوحدانية الله لا تكون إلا بالفعل، وبشحذ الفكر لا بالنقل والتلقين، وبينما كانت الدعوة إلى النظر والبصيرة لا بالبصر في الكون لاستنباط نواميسه والوقوف على سننه يكررها القرآن مئات المرات في سوره المختلفة، وجميعها تدعو الإنسان العاقل إلى التدبر والتأمل وتحذره من إيمان العجائز المستند على المنقولات، وبينما الذين يؤمنون بالله العظيم عن طريق النظر العقلي العلمي في الكون يكون إيمانهم صادقاً لا تشوبه شائبة التقليد الأعور والجهل الأعمى فلا يعرفون لغير الله خضوعاً ولا إذعاناً كما أمر به القرآن المجيد، وبينما بلغ الأمر عند الآخرين إلى أبعد من هذا وهو تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض، فقد نكب العالم الإسلامي بهذه الحرية الفكرية لأول مرة عندما التزم المتوكل على الله الخليفة العباسي جانب المحدثين وأهل السنّة والجماعة وقضى على الاعتزال والمعتزلة (سنة 234 هـ). ثم جاء الأشعري بمذهب أهل السنة والجماعة، وجاء الغزالي بمذهب الصوفية وتبعهم بعد ذلك رجال الدين والشيوخ والدراويش فأصبح التسليم بالقضاء والقدر وبما كان ويكون وتقليد السابقين في الفتاوى والأحكام والاجتهاد والآراء أمراً محتوماً، فسكنت الأفكار وسكتت الألسن واستقرت النفوس وهبطت المعرفة العقلية إلى الحضيض، فساد النقل وضعف العقل وصارت المنقولات هي القول الفصل. وحدثت فترة سكون وجمود تشبه الموت. وخلال هذه المدة الطويلة لم يظهر فكر جديد ولا رأي حديث بل بالعكس كراهة لكل جديد وتمسك بكل قديم ونفرة من كل بحث عقلي. فصار دستور الفقهاء المتأخرين: ما تداوله الأئمة السابقون قبلناه وما ردوه رددناه وما لم يستعملوه تركناه. وبهذه العقلية النكدة انعدمت الشخصيات وارتفعت المعقولات وانتشرت الروايات وعمت الجهالات وسادت المنقولات. فكان لا يدرس بالمدارس الدينية إلا الاجرومية والحلبي وأمثالهما. وكان المحدثون يحدثون بالحديث والرجوع إلى أقوال السلف فلم يبق ناطق عن رأي ولا متكلم عن فكر لأن العلوم بكل فروعها وشعبها قد كملت. وعلى يد أولئك الشيوخ السالفين قد ختمت. فكأن الزمان قد عقم وهو سائر نحو الانحطاط والبشرية قد اضمحلت وهي تهوي إلى الحضيض. ولم يسلم، حتى المغرب، مؤخراً من الجمود ومن اضطهاد الحركة الفكرية. فقد اصدر عبد الله بن عياش منشوراً حرّم فيه النظر العقلي والفلسفة وأمر بإحراق كتبها واضطهاد رجالها. فشرع الفقهاء من كل جهة في الشرق والغرب على السواء يكافحون الفلسفة والفلاسفة وأصحاب النظر العقلي الحر. وقد اظهر حتى بعض العظماء من رجال الدين كابن تيمية وابن قيم الجوزية والسبكي الشافعي (771 هـ)

وغيرهم عداءهم ونفرتهم من الفلسفة والمنطق والفلاسفة. ولحسن الحظ انهم في جميع ادوارهم كانوا محرومين من السلطة الزمنية ولو تهيأت لهم لحجروا وقيدوا. ودام هذا الحال حتى ظهور الافغاني والشيخ محمد عبده والكواكبي وغيرهم من أصحاب الأفكار الحرة فشرعوا بالتأليف بين العقل والإيمان.

46 ـ فكانت الدساتير والطرق الأساسية التي سار عليها العالم الإسلامي وتبعهم في ذلك شيوخ الإسلام وما دونهم في عهد السلطنة العثمانية هي المحافظة على العقيدة العامة والتقليد المطلق لأولئك الأعاظم الذين انتهت العلوم عندهم. ومعنى التقليد هو الاعتراف الصريح بالجهل. فكانت النتيجة جموداً بحتاً حول النصوص ثم حفظ الاحاديث وروايتها كما جاءت، هذا متواتر وهذا ثقة وهذا حسن وهذا ضعيف وهذا غريب، دون نقد عقلي. وأما الفقهاء فوظيفتهم نقل الأقوال وان استعصى عليهم الأمر في مسألة لم يسبق لها مثيل، فإخراجها عند اصول الأئمة السابقين. فبطل استعمال الفكر والاجتهاد حتى في الفروع وفي أقسام المعاملات. وانتشرت هذه الطريقة في جميع البلاد العربية. فلا يدرس بالمدارس الدينية الرسمية والخصوصية وبالجوامع والتكايا إلا فقه أبي حنيفة، وضرب زيد عمرا، وفي بعض العواصم شيء من الفقه الشافعي والناس على دين ملوكهم، فانتشر تقليد المذهب الحنفي حتى عم البلاد. فكان لا يحتمل أن يتفوه أحد برأي خاص. وقد نفي الشيخ محمود شكري الألوسي لميله إلى الاصلاح الديني. فكبت النبوغ وخرست الألسن وتقدم الجهلاء وتأخر العلماء وكثرت العمائم، فلا رادع يزجر ولا زاجر يردع..

47 ـ وفات هؤلاء العلماء الأماجد ان المستشرقين الأوروبيين وضعوا القرآن كما وضعوا الكتاب المقدس قبله تحت التدقيق والانتقاد التاريخي، وحللوه تحليلاً دقيقاً كل منهم حسبما يرى ويهوى، فكان منهم منصف ومنهم مغرض. وكنا نحن عن هذه التحليلات والانتقادات بمعزل، فلا فكرة ولا رأي ولا رد ولا جواب.

ترجم القرآن إلى الانكليزية والفرنسية والالمانية والطليانية وإلى جميع اللغات الأخرى كما أنه وضع من قبل المستشرقين تحت ضوء الانتقاد العلمي التاريخي منذ القرن التاسع عشر.

وكان على علمائنا الأفاضل ان يطّلعوا ويدرسوا ما قاله هؤلاء المستشرقون الأوروبيون من اتهامات ضد القرآن، وأن يردوا عليهم بأدلة عقلية تاريخية مثبتة ومقنعة، لكنهم لم يفعلوا.

وإذا كان قد ظهر في الأزمنة المتأخرة المصلح الديني الكبير السيد جمال الدين الافغاني يطوف البلاد شرقيها وغربيها رافعاً عقيدته «أيها المسلمون انتبهوا»، فقد عاكسته السياسة في حله ومرتحله، حتى قضى مأسوفاً عليه في استانبول مخلفاً وراءه تلميذه النابغ الشيخ محمد عبده ولكن ما من سميع...



الفصل الحادي عشر ضرورة فتح باب الاجتهاد

1 ـ في العالم تياران شديدان: الأول التيار الديني والمنقولات عن الأسلاف، والثاني تيار العلوم العقلية والمبادىء الاجتماعية. فأما التيار الديني فهو ثابت بقواعده بين دفتي القرآن الكريم يضاف إليه الأحاديث النبوية وأقوال السلف والعلاوات والتفرعات والتفسيرات والروايات والمنقولات. وأما تيار العلوم العقلية والمبادىء الاجتماعية فلا استقرار له، وهو في كل يوم الى تطور. فأصبح الإنسان العاقل المفكر تحت تأثير هذين التيارين المتناقضين المتنازعين المختلفين المتضادين. فقد يسير الفرد مع أحدهما تارة ومع الآخر تارة أخرى، فينقسم على نفسه وليس له قرار في أحدهما، فيبقى معلقاً مذبذباً حائراً متردداً بين هذا وذاك وهو عاجز عن ان يخلص لأحد هذين التيارين اخلاصاً تاماً، وينتمي إليه وحده، فيأخذه التردد والشك والحيرة. فقد تتبدل القواعد العلمية والاجتماعية على كر السنين والاعوام، وتتغير معهما حياة الإنسان الخصوصية والعادات والأخلاق والاحتياجات، ما يجعل من المستحيل وضع كثير من الوصايا والأحكام الاجتماعية والاخلاقية التي كانت متوافقة مع حالة المجتمع العربي موضع التطبيق للاستفادة منها، لتبدل الوضع الاجتماعي.

2 ـ ان حالة العالم الإسلامي من العلم اليوم لهي أشبه بحالة الأوروبيين في القرن الثامن عشر عندما تزعزع نفوذ الكنائس ولم تكن العلوم المثبتة قد تكاملت ورسخت بعد في عقولهم. فان تلفّت المسلم والعربي إلى الوراء يرى التراث الإسلامي الهائل، وفي مقدمته القرآن الكريم والسنن النبوية وما فيهما من قواعد وحكم وعظات، ثم ما نشأ من دول وحكومات وأدب وثقافات وثم الفقه الإسلامي والفلسفة والتشريع ينتهي في القرن السابع الهجري وهو تراث عظيم لا يمكن اغفاله، قد يفوق تراث أي من الأمم الأخرى بنظمه القويمة وبدساتيره المعقولة، فيبهره ماضيه الزاخر بالمآثر، فيعتز به ويرى فيه أسساً للبناء، ومبعثاً للعزة القومية، فينجذب إليه وإلى البيئة السالفة التقليدية بشدة. فلذلك كان ولم يزل كثير من الكتاب والقواد والسياسيين والمفكرين والمؤلفين يطلبون العودة إلى الثقافة الإسلامية، مع علمهم بعدم ملاءمتها الزمان الذي هم فيه.

3 ـ وعندما يلاحظ المسلم والعربي، وخاصة منهم الفتيان والشباب، المدنية الأوروبية الجارفة، والثقافة العامة، والحركة الفكرية الجبارة، وما وصلت إليه العلوم الطبيعية، يندفعون إليها بشدة فيسترسلون عفواً في هذه البيئة الجديدة، مع أنهم لم يزالوا بعيدين عنها، ولم يسبروا غورها ولم يهضموا ثمرتها. وأما رجال الدين فلم يزالوا يطلبون التمسك بالتقاليد والعنعنات الإسلامية القديمة، والرجوع إلى الوراء وإلى الماضي البعيد، دون ان يعبّدوا الطريق ودون أن يعيدوا إليه دور الشباب كما قد يفعله البريطانيون بتقاليدهم وعنعناتهم الهرمة المشينة.

4 ـ وعندنا أن في كلتا الحالتين، أي في التمسك بالتقاليد العربية الإسلامية البحتة، أو في قبول المدنية

الأوروبية بغثها وسمينها وبدون نقد، معناه الانتحار القومي، إذ في الحالة الأولى معناه البقاء في عزلة تامة عن العالم، وفي الحالة الثانية التجرد المطلق عن التراث الإسلامي الذي يشمل الدين والتشريع والعلم والفلسفة، وهو من اثمن ما جادت به العقول البشرية والعبقرية الإنسانية. فإلى أن يتمكن العربي من فهم حقيقة المدنية الأوروبية ويستفيد من لبابها دون قشورها، ويتعمق في جوهرها دون ظواهرها، ولأجل ان لا ينساق على غير هدى، من الضروري على المفكرين العمل على الجمع بين أحسن ما في الشرق وأحسن ما في الغرب من تراث وحضارة وفلسفة، واقتباس النواحي المادية والذهنية (العلم والمعرفة) وترك النواحي التقليدية والروحية من المدنية الأوروبية، واقتباس النواحي الأخلاقية والروحية (العقل، الوحي الإسلامي، والنظم الأخلاقية) وترك الأساطير والخرافات والعلاوات والشروحات من المدنية العربية والإسلامية. وبذلك نمشي على الطريقة المثلى المفيدة.

5 ـ وأما ما يعود إلى الأحكام الإسلامية الأساسية الأخرى، فهي أيضاً نظم قويمة متينة يمكن تحويرها حسب الزمن للاستفادة منها في كل وقت وزمان، ومن جملة مزاياها أنها تركت باب الاجتهاد بالفروعات مفتوحاً على مصراعيه لتأمين احتياجات المسلمين في كل عصر من العصور فلا يشينها فقدان الأدمغة التشريعية.

ان الإسلام بحد ذاته حركة تجدد وتقدم وإصلاح قام بها سيد الرسل للقضاء على العنعنات الجاهلية والعقلية القديمة، وإقامة العدل والاحسان بين الأفراد، وتأسيس الحكم الزمني لسعادة البشر ورفاهه، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل أينما وجد وكيفما حدث.

كان الحكم الزمني في التقاليد الإسلامية خليطاً من المذاهب السياسية المعاصرة كافة. فكان فيه اصول الحكم الجمهوري، وفيه الحكم الفردي المطلق، وفيه الشوري، وفيه الديمقراطية، وفيه الاشتراكية، وهو يؤمن سعادة الفرد دون أن تتعارض مع سعادة المجتمع. وإن لم يهتد البشر إلى الآن إلى طريقة من الحكم تؤدي إلى العدل الشامل بين افراد البشر، فإن أصول الحكم الإسلامي الذي سار عليه الخلفاء الراشدون لم تهذب حسب الزمن وحسن استعماله، ولو لم يتسامح رجال الدين مع الخلفاء والملوك في تطبيق قواعده لكان أحسن بكثير من كل المذاهب السياسية المعاصرة التي لم يزل يتخبط فيها البشر. لذلك كان من الواجب اتباع حركة التجدد والتقدم والاصلاح الاجتماعي على كر السنين والأعوام، بل في كل يوم من الأيام، وهذا يستلزم إبقاء الباب مفتوحاً للمجتهدين في كل عصر من العصور. إلا ان الفقهاء المتأخرين كانوا اضعف وأفقر من ان يستنبطوا حكماً جديداً من القرآن. فقلدوا وأغلقوا الأبواب وناموا، ولم يزالوا نياماً والعالم في حركة مستمرة.

6 ـ يحتوي القرآن في جوهره على اللفظ والمعنى، وإذا تركنا الغلو في الدين جانباً، فان اللفظ هو كما قالت المعتزلة مخلوق لله. وقال الأشعري بأن الألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء دلالات على الكلام الأزلي، والدلالة مخلوقة محدثة، والمدلول قديم أزلي. ولهذا أصبح من الممكن تفسير القرآن إلى اللغات الأجنبية إن رضي رجال الدين أم رفضوا. وأما المعنى فكما عبر عنه الأشعري كلام النفس، أو بما يعبر عنه بالمعنى القائم بالنفس أو بلسان النجوى لله لا يدركه إلا الأنبياء، وهو يحتوي

على فصول وأبحاث كثيرة متنوعة، منها تاريخية، وإسرائيليات، وأمثال، وأخلاقيات، وحقوق، واجتماعيات، وفرائض، وتعبدات، ووعد ووعيد ... الخ... وفوق الجميع التوحيد المطلق لله.

7 ـ فأما الإيمان بالله والتوحيد فهو يتوافق مع كل عقل سليم، وفي كل عصر وزمان وخاصة مع العلوم الطبيعية. فان اعظم العلماء والفلاسفة والمفكرين أمثال ديكارت، وليبيج، ولوك، وسبنسر، وغيرهم من الأوروبيين في القرن السابع والثامن والتاسع عشر كانوا من فرق الإلهيين الموحّدين Deiste. وكلما توسّعت الفيزياء وارتقت قواعدها ثبت وجود المكون الأول أو القوة الكلية الأولية بوضوح أكثر. فالإيمان بوجود الله، القائم على العلم، لهو أعظم شأناً من الإيمان المستند على التلقين وعلى المغيبات والمجهولات. ومعرفة الله بالتلقين لا تكفي للشخص أن يكون مسلماً حقاً، فان المكتشفات العلمية قد تدنو بنا من معرفة الله شيئاً فشيئاً. فقد وضع الله لهذا الكون الأنظمة والسنن والقوانين الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل بأي حال من الأحوال وبأي ظرف من الظروف ولأي شخص كان، ورتب الشرائط والأحوال الدقيقة اللازمة لاستدامة الحياة على سطح الأرض، ومنح للخلية مثلاً قابليتها المختلفة حيث تصنع وهي غير مدركة من بين فرث ودم لبناً سائغاً ودمعاً صافياً وظلماً عذباً وصملاخاً (وسخ الأذن) مراً ونطفة حية، وأعطى للأقسام الأخرى من الخلايا قابلية قلب الطاقة الغذائية إلى طاقة حركية... وجمع في نواة الحيمن (الحوين المنوي) والبيضة، كافة الأوصاف والعوامل الوراثية (الذريات) الخاصة بالشخص الكامل، ولكل نوع من أنواع الحيوانات أوصافه على حدة، منها المادية (العضلات، العظام، الاغشية، الكبد، الرئة...) ومنها المعنوية (العقل، الذكاء، وكافة الأعمال الذهنية) وكلها في حالة الذر، ضمن الجسيمات المسماة عوامل الوراثة، الموضوعة فوق المصبغيات (كروموسوم)، تلك التي لا يمكن تمييزها لدقتها إلا بأكبر العدسات المجهرية، كل هذه التشكيلات الدقيقة محفوظة ضمن نواة الحيمن وفي حالة الذر. والحيمن نفسه لا يرى إلا في المجهر. يقول آمريسون: فلو جمعت العوامل الوراثية التي يرجع اليها البشر الاحياء في العالم اليوم، ووضعت بمكان واحد، لكانت أقل من جوزة صغيرة. وبالاجمال تتجلى قدرة الله وعظمته وآياته، في الآلية الحيوانية والنباتية، فهذا هو عالم الذر، وهذه هي الذريات ﴿وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى﴾ (الاعراف). هذا ما يتعلق بالخلية وبعالم الاحياء.

8 ـ وبعد ان اقتحم العلماء قلب الذرة واطّلعوا على مكنوناتها، وعلموا ان كهارب ذرة عنصر الماء (الهيدروجين) مثلاً هي هي في الأرض وفي الشمس وفي الكواكب والسدم وفي رحاب الفضاء، محافظة على مقاييسها الإيجابية والسلبية والمعتدلة، وكذلك العناصر الأخرى كالصوديوم والبوتاسيوم والحديد والنحاس... الخ. وقد اكتشف منها ما يزيد على الخمسين عنصراً في الشمس والنجوم، لكل منها ترتيبها الخاص الثابت لا تتعداه من حيث اعداد الكهارب المشحونة فيها ﴿وأحصى كل شيء عدداً﴾، وجميعها غير مدركة وغير عاقلة، لم يبق للعقل السليم إلا ان يسلم بوجود المكون الأعظم الذي رتب هذا الكون بهذا الترتيب المتناسق البديع. وهذا المكون يجب ان يكون قادراً على الخلق والتكوين، وقادراً على صيانة ما خلق، من ان يعتوره الخلل والزلل. وهذا هو البرهان العظيم على وجوده تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ (النساء). فكان هذا الخلق والتكوين وكانت

هذه النواميس الثابتة الدقيقة للصيانة والاستمرار صنع مهندس عالم حكيم خلقها ورتبها وصنعها ونظمها ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ ولا يعجزه حفظ ما خلق، وصيانة ما أوجد، وتنفيذ ما رتب ونظم ﴿ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم﴾. فكان الإيمان بالله المستند على الفكر والعلم ومعرفة الأنظمة والنواميس الكونية أعظم بكثير من إيمان العجائز وما يشابهه من الإيمان المستند على المنقولات والعنعنات والتقاليد ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾. فقد تتجلى آيات الله في هذه النواميس والقواعد الكونية التي لولاها لاختل النظام وحصلت الفوضى في كل جزء من أجزاء العالم. وقد ندد القرآن الكريم بالغافلين عن آياته الكونية هذه، عز وجل ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ (يونس). فمن المحقق أن آيات الله المنوّه عنها هذه لا تنحصر في رؤية الشمس والقمر والحجر والشجر والليل والنهار. فهذه ظاهرة عند الجميع، ولم يغفل عنها احد. فان آيات الله التي غفل عنها العالم الإسلامي، هي القواعد الفيزيائية والكيميائية والقوانين الكونية والنواميس الطبيعية حتى الطاقة الذرية... تلك التي اكتشفها الغرب مؤخراً، وكان من المحتم اكتشافها على يد فلاسفة الإسلام في القرن الرابع والخامس الهجري لما وصلت العلوم الفلكية والرياضية إلى ذروتها في أروقة الجوامع والمدارس لو لم يقف في وجه العلماء رجال الدين، يحرقون كتبهم ويفتون بكفرهم وهدر دمائهم تقرباً إلى الله وزلفى على زعمهم. فان الله تعالى قد فرض على أمثال هؤلاء الناس الغافلين عن آياته هذه اقسى العقوبات وأشدها ﴿والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾ (القرآن). فان ذلك الإله العظيم لم يعرفه البشر حق معرفته بعد، ولم يعبده عبادته بعد، ولم يقدره حق قدره بعد ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (الانعام). وقد كشف العلم عن جانب واحد من أفعاله وآياته وهو جدير ان يعرف ويعبد، لا عن طريقة التلقين إنما عن طريق القواعد الفيزيائية والكيمائية والنواميس الكونية الثابتة الرصينة التي لا تفتقر إلى الصيانة، والإيمان به يوافق العلم والعقل والمنطق.

9 ـ وبعد الإيمان بالتوحيد تأتي أقسام التعبدات وهي الصوم والصلاة، صور وحركات يقصد بها تهذيب النفس. وهي تتعلق خاصة بين العبد وخالقه، تأتي بالمنزلة الثانية كما قالته المرجئة، تشترك فيها الأديان كافة بتبدل بالأوضاع والحركات، الغاية منها تقديم الخضوع والخشوع لله تعالى.

10 ـ وأما قسم الشريعة وهي القسم المهم من أساسات الدين؛ لما كانت قد تطورت من حال إلى حال ومن حكم إلى حكم ومن مبدأ إلى مبدأ كنسخ قبلة المسلمين الأولى، والتيمم عند فقدان الماء، وتطور احكام الصوم والصلاة وغيره كثير في زمن السيد الرسول، القصير الأمد. فكان من الاحرى تطورها بعد مضي ألف وثلاثمائة سنة. لذلك يجب أن تكون هذه تابعة دون قيد أو شرط للاجتهاد تبعاً لتيار المدنية العصرية، بمعنى عدم الارتباط أو التقيد بآراء وأقوال السلف الصالح والفقهاء المجتهدين العظام ورجال المذاهب المختلفة، لئلا تكون سداً في سبيل انكشاف الحالة الاجتماعية. فوجب والحالة هذه تفسير القرآن بالنظر لاحتياجات المسلمين بهذا اليوم، ليكون لهم دستوراً في أعمالهم اليومية وفي تدوير معاملهم الآلية، لا تفسيره إلى نسبة حالة المسلمين الاجتماعية قبل ثلثماية وألف سنة أو أكثر، عندما كانوا يعيشون في الجزيرة العربية القاحلة. معناه ان لا يطلب من الدين، ولا ينتظر منه،

ان يكون واسطة لارتقاء الأمة الإسلامية بهذا اليوم كما يتخيله ويتصوره ويتشوق إليه الجمهور الكبير من المسلمين، إنما وضع الدين بموضع قد يتماشى مع التيار الاجتماعي جنباً إلى جنب كل ما تداولت الأعوام والسنون دون ان يحصل تضاد فيما بينهما مع التمسك الشديد برمز الديانة الإسلامية وهو التوحيد المطلق. وبهذه الطريقة فقط يمكن مكافحة الالحاد.

11 ـ وكان قد اعتبر رجال الدين القرآن انه كتاب عبادات، والآيات الكونية والزمنية والمادية انها روحانيات. ولو كان قد فسر المفسرون ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره...﴾ من وجهتها المادية لتيسر كشف الكهرباء على يد المسلمين مثلاً، فابتعدوا عن الدنيا واقتربوا من الآخرة، حتى فسر الشيخ محمد عبده القرآن لأول مرة بنوع من الحرية بالنسبة إلى زمانه. وكان هذا التفسير الحر بنظر الجامدين شيئاً عظيماً فهاجمه الجامدون، ولم يزل قسم من علماء الدين يهاجمونه ويكفّرونه. يقول معاصروه لم يكن حين ذاك باستطاعة كل فرد من الأزهريين ان يتتلمذ عليه إلا من كان يقوى على حمل المسبات والهجمات. الا ان سبابهم وهجومهم جعلهم اضحوكة عند المثقفين والمطلعين وعند الأذكياء والنبغاء من الأزهريين. ولم يظهر من بعده من يجرأ ويفسر القرآن تفسيراً مادياً عصرياً بالنسبة لحاجة المسلمين لهذا اليوم.

12 ـ ان كلمة القضاء والقدر وخيره وشره من الله تعالى مثلاً، ـ وهي من أسس الديانة الإسلامية وفي تفسيرها الجاري على الألسن، وهي من صنع الأشعري ـ وكان قد وضعها للتأليف بين الفرق الإسلامية، قد شلت أيدي الناس وأقعدتهم عن العمل المجدي لأن المكتوب، على زعمهم، سيجري حتماً، فارتخى العاطل، وتوكأ عليها الجاهل، بإسم الدين. وفسروا معنى القضاء انه إرادة الله في الأزل مع تعلقها بالمراد، والقدر هو إيجاده للأشياء على الوجه المعين وبالوقت المعين الذي أراده الله في الأزل. فقالوا: لا يمكن تبديل إرادة الله وقضائه وقدره، وقعدوا عن العمل، وما يسد الرمق، وقالوا: جرى، فلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون، وأصبحوا تحت هذه الدساتير المخدرة وأمثالها كثير، جداً، من المخلوقات الجامدة بل من المتحجرات، لا حول ولا طول ولا قوة لهم في شؤون انفسهم، قد يحركهم القضاء ويقعدهم القدر وتتصرف بهم المقدورات وهم كالريشة في مهب الريح، أو كدمية تتلاعب بها الأكف، أو ككرة تتقاذفها الأقدام، لا رأي ولا فكر ولا دخل لهم في اعمالهم، أن كبر أو صغر. فان شاء الله كان، وان لم يشأ لم يكن (وقد شاء الله على زعمهم، ان يجعل اكتشاف القنبلة الذرية عن يد الامريكيين لا عن يد عبدته المسلمين). وبهذه العقلية النكدة كان قد اناط الفرد المسلم قوته وقدرته إلى قوة خفية، هي التي تسيره كيفما شاءت وأنّى شاءت. فلا قوة ولا إيمان ولا ثقة بالنفس، إنما تسليم مطلق بالقضاء والقدر، لأن المقدر على زعمهم لا يتغير. وكان قد وضع هذه العقيدة الجبرية، في بادىء الأمر بعض الشيوخ المتكلمين عند قولهم ليس للإنسان خلق الأفعال. فلو كان الإنسان يعمل بذاته لكان شريكاً لله بالخلق. وأيّدهم بعد ذلك الأشعري وجعلها عقيدة لأهل السنّة والجماعة، وكفروا المعتزلة لقولهم ان العبد يخلق افعاله وليس لله دخل فيه، وكفروا القدرية لقولهم ان للإنسان قدرة ذاتية. وبعد ان ارتفع ذكر المعتزلة ثبتت عقيدة الأشعري وانتشرت في مشارق الأرض ومغاربها وحطمت آخر ما تبقى للفرد المسلم من قوة واعتماد على النفس وأصبح القضاء والقدر

وخيره وشره من الله تعالى يكررها المسلمون صباحاً ومساء. ولم يكتفوا بذلك فمدحوا الشقاء والتعاسة والفاقة والبؤس والجوع والمرض والنقص والفساد والبذاذة والدمامة... كل هذا لكي يدخلوا الجنة. وخفي عن بصيرتهم ان الله يدخل جنته العلماء العاملون، ﴿وقل اعملوا وسيرى الله عملكم﴾ وأنه يورث الأرض عباده الصالحين ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ (105 ـ الأنبياء)، أولئك الذين يجازفون بأرواحهم فيطيرون مثلاً فوق القطب لتعيين ضغط الهواء أو لاكتشاف الأشعة الكونية والمناجم فيشيدون لأنفسهم ولأمتهم وللبشرية كافة المجد الاثيل والفوائد الجمة، لا أولئك المساكين المرضى بعقولهم وأبدانهم... وبهذا حطموا العالم الإسلامي وهدموا اركانه الأربعة، فكان اندحار وكان سقوط، وارتخت الهمم واستولى الخدر وظهر الشلل في جميع النواحي، ولم تزل آثاره مستديمة حتى هذا اليوم. فان كل عمل وفعل إن نجح أو لم ينجح يقال عنه إرادة الله. ولم يقل احد منهم أردت، وعملت. وأما الغربيون فيريدون ويعملون الطائرات مثلاً، ولم يقل أحد منهم إرادة الله عملت الطيارة. ولما ضاعت فلسطين قالوا إنها إرادة الله، وقال اليهود غنمناها بسواعدنا وأعمالنا. فكان من الواجب الديني ـ والأخلاقي عندهم أن لا يدخل أي تغيير أو تعديل على كل أمر واقع، وعلى كل ما يحدث، وحتى الظلم والفقر والجهل، وحتى الرضوخ للأجانب، وحتى الألم والمرض كله بأمر الله وإرادته. ومهما كان الشعب جاهلاً كأن أكثر تمسكاً بهذه العقيدة النكدة الجبرية. فوجب تفسير القرآن الكريم من الوجهة المادية والزمنية وتبديل عقلية المجتمع الإسلامي عن هذه العقيدة المضرة والشطب على أمثال هذه المعتقدات وإقامة آية الذكر الحكيم ﴿ما اصابك من حسنة فمن الله، وما اصابك من سيئة فمن نفسك﴾. فان الله قد اعطى للإنسان العقل ليميز به الخير من الشر والقدرة على الأعمال، ولا يعقل ان يكون الله مصدر الشرور بالعالم، ولا يعقل ان تكون المذاهب الهدّامة الآخذة بالتوسع والانتشار بإرادة الله. ولا يعقل ان يكون سقوط الدين، يعبدونه ويوحدونه دون سائر الأمم، بهذه الدركة اذلاء صاغرين بأمره وقضائه وقدره مثلاً. فانه، جلّ شأنه، لا يتدخل بالجزئيات من أعمال الناس ولا ينفعل من أمور البشر، ولا يتأثر من المخالفات. فهو إله الكائنات وما وراء الكائنات، وإله عالم الغيب واليوم الآخر، لا إله هذه الأرض الحقيرة وحدها، ولا إله هذا الإنسان التافه المغرور وحده. وأما قوله تعالى: ﴿قل كل من عند الله﴾ فهذه تتعلق بالكليات كخلقة العالم والكون لا بالجزئيات من الأعمال البشرية، والافعال الإنسانية، من اخذ وعطاء، وقبض وصرف، وتطريق المعادن وغمغمة الآليات ـ المكائن ـ ولغو وحديث. وأمثال هذه بالشريعة الإسلامية كثير يحتاج إلى تصفية عامة. الا انها بحاجة إلى عقول سليمة صحيحة لا تطمع في المال، وجسارة نادرة لا تهاب جعجعة المرتجعين، وإلى اخلاص للدين المحمدي.

13 ـ وبالنظر إلى ما وصل إليه العالم المتمدن ولما سيصل إليه في المستقبل القريب والبعيد ولأجل بقاء الديانة المحمدية محافظة على رونقها وجمالها وبهائها، ولئلا يلفظها الشباب المتشبع بالعلوم العصرية، ولئلا تحطمها المبادىء والمذاهب الفلسفية والاجتماعية الحديثة، كان من الضروري إعادة النظر في فوات الأوان في تلك القواعد الإسلامية ووضعها على أسس عملية بسيطة سهلة ذات فائدة للمجتمع الدنيوي بقدر فائدتها للأخروي، والشطب على كثير من المعتقدات والتفرعات التي ليست من

أصل الدين في شيء، ولا تفيد العالم الإسلامي لا في الدنيا ولا في الآخرة، ووجب ارجاع الديانة الإسلامية إلى ابسط ما يكون من القواعد، الا وهو التوحيد المطلق، دون الالتفات إلى أولئك الذين يريدون ارجاع الناس إلى ما عمله الأقدمون والسلف الصالح في اعمالهم اليومية في هذا العصر الذي طغت فيه الماديات وتضاءلت الروحيات. وإذا كان المسلم في صدر الإسلام يكفي ان يكون مسلماً بمجرد قوله لا إله إلا الله، وإذا كانت المرجئة في الصدر الأول الإسلامي قد اعتبروا بكل جسارة اقسام التعبدات في الصف الثاني ومرجئة بالنسبة للإيمان، فمن الممكن بعد مضي ألف سنة الاستعانة بما ورد من التخفيفات في القرآن الكريم وتأويل النصوص وتسهيلها جهد المستطاع وجعلها متناسبة ومتناسقة لا مع عقلية الشيوخ المتحجرة إنما مع عقلية ابناء العصر الحاضر وعقلية الشباب المتشبع بقواعد العلوم الرياضية والطبيعية والذرية وعقلية الأجيال القادمة إلى ما شاء الله ان يكون، وذلك دون التعرض لقواعد الدين الأساسية، ولمقابلة تلك المذاهب والقواعد الفلسفية والاجتماعية الحديثة الآخذة في زماننا هذا بالتوسع والانتشار بشكل مرعب مهيب وإبطال مفعولها. وليعلم وليتيقن رجال الدين ان الوعظ والارشاد في الجوامع والمعابد وفي دور الاذاعة والبث اللاسلكي وفوق المنابر لا يؤثر في عقول الشباب المتشبع بالمدنية الأوروبية الجارفة والمذاهب المتطرفة الحادة، تلك العقول المتعطشة إلى كل شيء جديد. وان الاعتقاد حتى بدوام الحال على ما هو عليه في هذا اليوم فيه الشيء الكثير من قصر النظر. فان أي تبدل في السياسة العالمية قد يقلب الوضع الحاضر رأساً على عقب. وهذا الشعب الهندي الذي كان يفضل الموت وهو قرير العين تحت أقدام بقرته، قد ترك هذا التعصب الديني المقوت، ذلك التعصّب الذي كان يوقد أواره المحرّضون.

فان العالم المادي سيجرف العالم الروحي حتماً ان لم تتداركه العقول الجبارة بالتأويل والتفسير والتخفيف والتيسير، بما يتناسب مع عقلية ابناء هذا الزمان والعصور المقبلة. وسيكون المسؤول عن هذا الدين امام الله هؤلاء الذين نصّبوا انفسهم أوصياء عليه، ومنعوا تطوره مع الزمن، فكانوا السبب بشرود الشباب عن المعابد.

14 ـ هل ان الدين في العالم صائر إلى الزوال؟ إذا نظرنا إلى الدين على انه عبارة عن مجموعة من المعتقدات والشعائر والروايات والعبادات، قد تعتبر حقائق محددة، ثابتة، معينة، لا تقبل التعديل والتأويل والتخفيف والتيسير والإصلاح، أو انه دولة تقيم الحد على شارب الخمر والزاني والمرابي والسارق، فان الحروب الفاصلة وتقدم العلم الطبيعي والصناعة والتجارة وسرعة المناقلات وتطور الأخلاق والتقدم الإنساني عند الفرد والمجتمع قد تقضي عليه تدريجياً كما قضت عليه في الأمم السابقة، وفي بعض الأوساط الأوروبية والأمريكية المعاصرة. وأما إذا نظرنا إلى الدين على انه عبارة عن مجموعة من قواعد تؤمن مكارم الأخلاق وتهذب الأرواح وتصقل النفوس وتوصي الناس بالحق والصبر، وأنها سعادة وهدى وتبشير وإرشاد، فانه ثابت بقواعده في كل الظروف والأحوال في قلوب المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وذلك ليس بقوة الحكومات وبمساندتها والقوانين الأساسية وصرامتها، إنما بقوة إيمان الفرد. فكان على الهيئات الدينية في كل دين أن تقوم أولاً بتصفية الدين مما أُدخل عليه في القرون السالفة من العلاوات والتشديدات والتفسيرات، وإعادته

إلى سيرته الأولى، وإلى ابسط قواعده، وإلى اسهل شعائره، والتسامح إلى اقصى حد ممكن في فروعه، ليسهل على المؤمنين ممارسة احكامه دون مشقة وعناء وتبرم، وجعل اقسام المعاملات والاجتماعيات منه اكثر مطابقة لحاجة المؤمنين بهذا اليوم.

15 ـ لم يكن للعرب عند نزول الشريعة وفي صدر الإسلام الأول من عمل سوى العبادات والجهاد في سبيل الله لنشر الديانة الإسلامية وإعلاء كلمة الله، وقد منع ابن الخطاب المجاهدين اقتناء الأراضي الزراعية في العراق، لئلا تشغلهم عن الفتوحات والحرب، تاركاً الزراعة والتجارة والأعمال الصناعية الأخرى للذميين من مختلف الطبقات. ولما كان الجهاد قد يستوجب بذل النفوس والأرواح في سبيل الغاية المنشودة، فكان من الضروري المواظبة على التعبدات، والتمسك الشديد بالتقوى والطاعات، والصبر على المكاره والملمات، وتحمل الأذى والمشاق، ومقاومة الجوع والعطش... الخ. وتثبيتها في صدور المؤمنين إلى اقصى حد ممكن.

ومن المعلوم كلما انتقل الإنسان من البداوة إلى الحضارة، انتقل معها من الأحكام الدينية إلى الأحكام المدنية، ومن احكام النقل إلى احكام العقل. فكان لما دخلت الأمة الإسلامية في دور السكون والهدوء في القرن الثاني والثالث الهجري ظهرت مختلف الفرق الإسلامية، لكل منها منهج خاص وأحكام خاصة. وقد اتخذت فرقة المرجئة الإيمان بوحدانية الله وحده كافياً للإنسان ان يسمى مسلماً، وأرجأت الأقسام التعبدية الأخرى إلى الدرجة الثانية. ويقال إن أبا حنيفة كان من مرجئة السنة. واعتبرت فرقة الصوفية لزوم التقرب إلى الله بالحب والقلب، لا بالأشكال والصور والرسوم والشعائر والحركات... ولكل فرقة من الفرق الإسلامية الأخرى طريقة خاصة. وخلافاً لهذا التحرر والانتقال جاء رجال الحديث بسنن تعبدية وأحكام اضافية وشريعة تكميلية لم يكن لها ذكر في القرآن مستندين بذلك على حديث موضوع: الا واني اوتيت القرآن ومثله معه، خلافاً لما ورد في القرآن الكريم: ﴿اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

16 ـ واعتبروا قسراً أن تلك الأحاديث والسنن التعبدية المروية عن فلان وفلان هي من أساسات الديانة الإسلامية وبمنزلة النص. وأيدها الأشعري بمقالاته واستدامت نافذة المفعول حتى يومنا هذا دون ان ينالها التعديل والاصلاح، كأن ليس بمقدور الفقهاء التخلص من تلك الروايات التي لم تسجل في حياة الرسول (ص). فكان من الضروري بعد مرور ألف وثلثماية سنة، وفي هذا الزمن الذي طغت فيه الماديات وتبدل الوضع الاجتماعي والحربي، الذي كان سائداً في القرن الأول الهجري، ان تلطف وتعدل تلك الأحكام التي ليس فيها نص قاطع إلى ان يقتضيه الزمان والحال. فبينما كان الاشتغال يوم السبت عند اليهود يستوجب حتماً الرجم حتى الموت بموجب نصوص التوراة الصريحة، فقد ارتفع هذا الحكم وزال من الوجود ابدياً. وإذا كان يمكن رؤية قطع يد السارق في الجزيرة العربية فلا يمكن مشاهدتها في سواها بفضل رجال السياسة والوعي.

17 ـ وكان قد احتكر رجال الدين الإسلامي تأويل الكتاب وتفسير النصوص وقيادة الأمة وأقاموا أنفسهم أوصياء ووكلاء عليها ومنحوا لأنفسهم سلطة الحارس التي وكلت إليه المحافظة على التقاليد، ووضعوا

الحجر على العقول والقواعد للحد بين الكفر والإيمان، ولوّحوا بسوطهم الرهيب لكل من خرج على المنقولات فوقفوا بالمرصاد لكل من يستعمل عقله، ولكل من يكتب شيئاً نافعاً، ولكل من يتكلم بغير لسانهم، وألّبوا الجماهير الغافلة باسم الدين على كل من يخرج عن نطاق ما وضعوه، وعضدهم الملوك تمشية مع عقلية الجمهور المتدين، وأصدروا فتاويهم النكدة بتكفير الأحرار وأصحاب النظر العقلي حتى لهفوات صدرت من ألسنتهم أو لشطحات خرجت من افواههم، أو لآراء سجّلوها في كتبهم، أو لطلبهم الاصلاح الديني، مع أن علماء الدين الأحرار اصحاب الأفكار النيرة الآخرين منهم كانوا أكثر تسامحاً وأبعد من تكفير المسلمين لأسباب تافهة. فكانت القاعدة الفقهية عندهم هي: إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر في مائة وجه وتحمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر. فلم يدر الجامدون انهم بغلوائهم قد اساؤوا إلى هذا الدين وتعاليمه السمحاء.

18 ـ ويعجبني وايما الحق مرونة الأباء المسيحيين المتأخرين في الحلول والاجتهاد والتخريج والتأويل والادعاء عند مجابهتهم الصعوبات. فانهم بعد دور النهضة (رنسّانْس) جعلوا المبادىء والنظريات العلمية منطبقة على شرائعهم مما قد يستوجب الاستغراب والاستفهام. ففي القرن السابع والثامن عشر بعد ان اشتد الكفاح بين العقيدة الدينية والقوى العقلية تراجع رجال الدين خطوة إلى الوراء في انكلترا البروتستانتية، فأعلنوا ان القوى العقلية والمكتشفات الطبيعية لا تعارض احكام الدين بل تؤيد قواعده وتوطد دعائمه، وآمنوا بقوة العقل البشري وتشريعه وقدرته على العمل، وشرعوا بحركة تأويل النصوص المقدسة وتحميل الألفاظ فوق طاقتها للمحافظة على قدسية الدين وحرمة تعاليمه، كتأويلهم أيام الخلق الستة بمدات جيولوجية ستة وادعائهم «اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» انها فصل الأمور الدينية عن الأمور الزمنية، وان المدنية الأوروبية الحالية مدينة للتعاليم المسيحية ومؤسّسة عليها. يقولون لولا هذه التعاليم لما وصلت اوروبا وأمريكا المسيحيتان إلى ما وصلتا إليه اليوم بعد ان كانت التعاليم الكنسية عقبة كؤوداً في سبيل المدنية الأوروبية عشرة قرون أو أكثر (المجالس الإرهابية). وأما تعاليم السيد المسيح نفسه فهي روحية صوفية في معناها ومبناها. ومن جملة تعاليمه ما جاء في إنجيل لوقا (14 ـ 25): «إذا كان احد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر ان يكون لي تلميذاً»، وقوله عليه السلام: «من اقامني عليكم قاضياً أو مقسماً». وأما خطبته في الجبل فهي معلومة. فان هذه الأمثلة وغيرها لا يمكن ان تكون اساساً لأي مدنية زمنية عالمية. وأما التعاليم الدينية التي جاء بها الأب توما الاكويني فهي مأخوذة من الافلاطونية الجديدة لا علاقة لها بالتعاليم المسيحية. فان المدنية الأوروبية والثورة الفرنسية مستمدتان من الفلسفة اليونانية ومن الافلاطونية الجديدة المستندة الى العقل لا من الأناجيل ولا من التوراة. فحصل للكنائس قسس وعلماء «وأطباء» اخصائيون بعلم النفس والاجتماع والطب والدين... يعظون الاطفال والمراهقين والنساء والشيوخ كلاً على حدة وفي حلقات مختلفة، عن الاقتصاد، والاجتماع وحفظ الصحة الخ... التي يعتبرونها من صميم رسالتهم.

وأما رجال الدين الإسلامي فقد كافحوا الذكاء الإنساني وأسكتوا كل متكلم لا يؤيد تعاليمهم،

وكبتوا كل فكرة تعارض أقوالهم، وأغلقوا باب الاجتهاد في الأصول والفروع، وتمسكوا بكتب الأقدمين. فلا فكر جديداً ولا رأي حديثاً، إنما كراهية لكل جديد وتكفير لكل حديث، وتقليد الأوائل، ولا قيمة عندهم للعقل.

19 ـ كانت الشريعة الإسلامية في بادىء أمرها متناسبة مع عقلية الشعب العربي، وكانت كل الأحكام والمعاملات فيها، بتعديلات طفيفة، متوافقة مع حالة المجتمع السائد في جزيرة العرب ومع عاداته وأخلاقه ومع مدنيته وبداوته. ولما كانت القواعد والأحكام المذكورة بمجموعها ارقى بكثير من النظم الاجتماعية السائدة يومئذ في البلاد المجاورة كإيران والافغان والهند وسوريا والعراق وافريقيا الغربية ومصر ونجد وغيره، فتقبلها سكان هذه المدن على اختلاف اقاليمهم وعاداتهم القومية عن طيبة خاطر تحت عنوان الشريعة الإسلامية. فصارت كل أمة جزءاً من كل، واستدامت قروناً طويلة والجامعة الإسلامية تربط هذه القوميات. ولما انتبهت الأمم والأقوام الإسلامية تساءلوا هل أن قسم المعاملات من الشريعة الإسلامية الموضوعة قبل ألف سنة لعشائر العرب كافلة لسعادة مجتمعنا وكافية لادارة أموالنا وأمورنا في هذا العصر الذي طغت فيه الماديات وعلم الاقتصاد والتجارة والحرب والسياسة. وقد وصلت العلوم العصرية الأخرى إلى ما وصلت إليه في أوروبا؟ وهل يجب التقيّد بآراء الفقهاء ورواة الأحاديث ورجال الدين في أمور الدولة وفي الأوقاف والربا والتجارة والأمور الشخصية والعقوبات وغيره مما يتعلق بأقسام المعاملات؟ فكان الجواب: لما كان من أهم قواعد الشرع الإسلامي تغيير الأحكام بتغير الزمان، وان رجال الدين لم يزالوا متمسكين بأقوال السلف الصالح والفقهاء والمجتهدين ولم يغيروا حكماً واحداً بتغير الزمان، فكان من الضروري فتح باب الاجتهاد والتصرف بأموال الأوقاف وتأسيس البنوك والاستمداد من القوانين السويسرية والبلجيكية والمعاملات والأحوال الشخصية الموافقة مع روح العصر الحاضر. وتحت هذه الضرورة الماسة اقتبست بعض الدول الإسلامية الحديثة من القوانين السويسرية المدنية، ففتحت المصارف ابوابها وصودرت الأوقاف كافة على حساب الدولة، وجعلت اقسام المعاملات والأحوال الشخصية كالوصايا والفرائض والنكاح تابعة لما يستوجبه الزمان وشرائط الحياة الحديثة.

20 ـ التفكير الحر من أسس الديانة الإسلامية. وقد أمرنا الله به بقوله: ﴿افلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت﴾، و﴿في الأرض آيات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون﴾. وقال: ﴿انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾، و﴿افلا تتفكرون﴾، و﴿افلا تعقلون﴾، وفي الحديث الصحيح قوله عليه السلام: «تفكر ساعة واحدة خير من عبادة سنة»، فكان النظر بالعقل واستعمال الرأي والفكر والبحث والتأمل وتقديم البرهان للوقوف على السنن الطبيعية واكتشاف القواعد والنواميس الكونية للتصرف بها والاستفادة منها والتحري في أسباب كل حركة في هذا الكون حتى الوقوف على كنهها وماهيتها، فرضاً على كل مسلم. وكان الفقهاء في صدر الإسلام يدركون ما أمر الله به من استعمال الفكر والعقل والنظر بالبصيرة في خلق السماوات والأرض فجعلوا للعقل حق التشريع، وأعطوا للفكر والرأي منزلتهما في المعاملات والأحكام، حتى سمّيت مدرسة أبي حنيفة «مدرسة أهل الرأي». ولما سقطت الأمة عن قوتها المبدعة وطاقتها المفكرة، رأى بعض من رجال الدين أولئك الذين

اعتادوا التقليد، في أصحاب العقول الحرة غير المقيّدة، اعظم خطر يهدد كيانهم، فبذلوا كل جهدهم لقتل العقل وإقامة صرح التقاليد والعنعنات والتمسك بالمنقولات، بينما الأوروبيون اكتشفوا بعقولهم كثيراً من المجهولات ولم يزالوا مجدين باكتشاف ما استعصى عليهم منها.

يقول ابن رشد: وإذا تقرّر ان الشرع قد اوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، وكان الاعتبار شيئاً أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه وهذا هو القياس، فواجب ان نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي، وبين ان هذا النحو من النظر الذي دعا إليه الشرع وحث عليه، هو اتم أنواع النظر بأنواع القياس وهو المسمى برهاناً الخ... ويقول الغزالي: ان النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية، ولذلك اننا نحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عدمه... الخ. ويقول الشيخ طنطاوي الجواهري في مقدمة الجزء الأول من تفسير القرآن الكريم: فأما آيات العلوم الكونية، فإنها تبلغ نحو 750 آية كلها في عجائب الكون ومنافعه، وقد ذكرها الله في كتابه أكثر مما ذكر من الأحكام الشرعية، والعناية الإلهية توجهت إليها أكثر من توجهها إلى احكام الفقه. وأما علم الفقه فلا تزيد آياته الصريحة عن 150 آية فقط. فلنقم نحن وندرس علوم العوالم كلها باعتبار ان ديننا يأمرنا به.

21 ـ كانت الحركة الذهنية والفكرية وباب الاجتهاد في الأمور الفرعية، سوى فيما يتعلق بالتوحيد، مفتوحاً على مصراعيه في الصدر الأول الإسلامي. وبعد ان تغلب أهل السنّة والجماعة، وهم أصحاب المذهب الحنفي على المعتزلة في زمن المتوكل العباسي، كان ارتجاع إلى أقوال السلف وأغلقت معه الأدمغة الإسلامية. فلا توجد قاعدة فقهية واحدة وافق رجال الدين على تبديلها أو تغييرها بتغير الزمان. ولما كان قد عجز فقهاؤنا عن ان يأخذوا شيئاً جديداً من القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد وقفوا في وجه كل تقدم مادي وتجمدت الشريعة الإسلامية في أيديهم، فقد اتجه الشباب إلى الغرب لعله يجد ما يملأ به فراغ فؤاده. هذا مع العلم ان قواعد الاجتماع والاقتصاد مثلاً في المذاهب الإسلامية الخمسة لو جمعت وأخذ منها ما يصلح لهذا الزمن وحسن استعمالها، لهي ارقى بكثير مما هي عليه بالغرب. الا انها بحالتها الحاضرة كالماسة المتحجرة المحتاجة إلى جلاء. ففي القرآن الكريم كثير من القواعد الاجتماعية والأوامر الاقتصادية لم يلتفت إليها المتشرعون الأولون تقرباً وزلفى للأمراء والأغنياء، ولم يلتفت اليها الفقهاء المتأخرون لتعارضها مع العرف الجاري، ظهرت بوادرها في العالم الغربي بعد مضي ألف وثلثمائة سنة، فانبهر بها الشباب الطائش وهو لا يعلم أنها من قواعد دينه الأساسية، منها قوله تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، فما اتيكم الرسول فخذوه وما نهيكم عنه فانتهوا﴾ (الحشر). فان هذه الآية الكريمة قد منعت تداول الثروة العامة وبالوسيلة رؤوس الأموال بين الأغنياء وتجمعها في أيدي عدد محدود معدود من الأثرياء والمياسير وكبار الزراع، وفرضت توزيعها على المحتاجين والمملقين من ابناء الأمة، كيلا تكون دولة بين الأغنياء فقط، ويحرم منها السائل والمحروم ولكي يأخذ كل منهم نصيبه منها. وهي ليست من اقسام الصدقات المعتبرة من البر والاحسان، كما انها ليست من اقسام الزكاة التي هي ضريبة مفروضة على الأمة، إنما هي من

اقسام العدالة الاجتماعية. فأين منها الفقهاء وأين منها العقول التشريعية!. وهذا ما نعنيه من ان فقهاءنا أضعف من ان يستنبطوا حكماً جديداً من القرآن.

فمن هذا المبدأ الديني يمكن فرض الضرائب التصاعدية على الأغنياء. ومن هذا المبلغ المالي يمكن تأسيس المزارع التعاونية ومعاونتها بالارشاد الفني والقروض والآلات الزراعية لمساعدة الفقراء فيزيد الانتاج في البلاد وتقلّ الفروق الاقتصادية ويتوفّر العمل ويكافح الفقر.

22 ـ أما وإن الأوروبيين تفكروا في خلق السماوات والأرض وكانت لهم عيون يبصرون بها وآذان يسمعون بها، فقد انتقلوا من عهد الزراعة إلى الصناعة والتجارة والاختراعات والاكتشافات وتحكموا بتقرير إخصاب الأنثى ذكوراً واناثاً ـ في الضفادع ـ واستخدموا الأشعة المختلفة وأخضعوا القوى الطبيعية لخدماتهم وأغراضهم ومصالحهم. وأخيراً اقتحموا مركبات الذرة، وقبضوا على قسم من القوى الكامنة فيها، وتصرفوا فيها واستخدموها لمقاصدهم وصنعوا آلة الراديو، والقنبلة الذرية، والصواريخ، واللاسلكي، وطاروا في الجو، وغاصوا في البحر. فكان من حقهم ان يجعلوا العالم الإسلامي منقاداً ذليلاً تحت أمرهم.

وأما العالم الإسلامي والعربي، فلم يكن لأي واحد منهم أي اختراع منها، ولم يحسن حتى تطبيق ما أوجده من القواعد الاجتماعية، ولم يلتفت حتى إلى أوامر دينه حول الاستعداد للحرب في البر والبحر، وهو لم يزل يراوح بمكانه دون ان يتقدم خطوة واحدة إلى الإمام ويطالب بالعودة إلى الماضي البعيد، ويبغي التمسك بأقوال السلف الصالح، والالتفاف حول القبور وهو عاجز مهين لا يصلح إلا للبكاء ولطم الخدود وضرب الصدور وطلب الشفاعة مجاناً، ويمني نفسه بأن له الجنة. وفاته ان الله لا يورث أرضه إلا للصالحين من عباده. والصالحون الوارثون هم مكتشفو الطاقة الكامنة في قلب الذرة ـ وأصحاب الفيالق البرية، والمدرعات البحرية، والاسراب الجوية.

23 ـ كثير من الكتاب والمفكرين المعاصرين يندبون حظ الحضارة الإسلامية ونظمها السياسية والاجتماعية، ويعتقدون أن أمة تدين بالإسلام ليست في حاجة إلى غيره من النظم، ويتشوّقون إلى حكومة دينية، تقوم بإقامة الحدود الشرعية، ويحثون الناس عليها، ويزعمون ان الروحانية هي علاج الشرق، والمادية وباء الغرب... فأما النظم والقواعد الدينية الأساسية التي لا مجال للاجتهاد فيها، وهي مؤيدة بالنصوص القطعية، فهي حقائق ثابتة خالدة، تهدف إلى الإيمان بالله، والتعاون على البر والتقوى، والإرشاد وتهذيب النفس، والتذرع بالحق والصبر... وهي قواعد مقدسة لا تتبدل ولا تتغير، ومن الضروري على كل مسلم المحافظة عليها بالمال والروح، وبالقلب واللسان. وأما النظم السياسية والاجتماعية الخاصة بالحكم والدولة وبالأحوال الشخصية، فهي قواعد غير ثابتة معرضة في كل يوم للتبديل والتعديل تبعاً للمصالح المدنية والحاجات الزمنية، تهدف إلى تسيير أمور الناس بما تقتضيه الحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وفي كل يوم هي في شأن.

من المحال ان يتقلد شخص واحد القواعد الدينية والقواعد المدنية المتضادة ويسير بهما إلى النهاية بنجاح ـ باستثناء أبي بكر وعمر. ولو كان قد اضمر علي بن أبي طالب خلاف ما أظهر، وهو أجلُّ من ذلك، في إقرار معاوية بالشام حتى اخذ البيعة منه، لما حصلت تلك النكبات التي هزت المملكة

الإسلامية هزاً عنيفاً وأوقفت الفتوحات الإسلامية وسببت الحروب الداخلية. وكلنا نعلم سيرة الخلفاء الأمويين وخاصة العباسيين الا من شذ منهم، ونعلم كيف كانوا يحكمون بهواهم ويستغلون الأحكام القرآنية تبعاً لرغباتهم ومشيئتهم ويصرفون أموال الأمة في سبيل منافعهم ورغباتهم ولذاذاتهم، وعلى منشآت الحريم والخصيان والغلمان والشرب والغناء والاسراف والبذخ، ونعرف ما كان يجري في قصورهم ومجالسهم، ونعلم ان اكثر أولادهم نبت لغرس غير مشروع في السراري والجواري، يؤيدهم بذلك رجال الدين بفتاوى يصدرونها كتعدد الزوجات مثلاً. يقول ابن جرير في تاريخه عن حوادث سنة مائتين: وأحصي في هذه السنة ولد العباس فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكر وأنثى. فكانوا يحكمون بما انزل الله ويسرقون الملايين من أموال الأمة ويصرفونها في سبيل شهواتهم، ثم يقطعون يد السارق البائس الفقير، ويتظاهرون بالتّدين ويسوقون الناس إلى الصوم والصلاة وهم أبعد من ان يتقيّدوا بقيود الشرائع. ولا تقل قصور بني عثمان المنيفة عن قصور بني العباس خلاعة وسفهاً في التبذير والاسراف. وكنا نشاهد عياناً في زمن عبد الحميد الثاني، السراري والجواري والمحظيات تطوف شوارع استانبول في شهر رمضان. فكان من الواجب (لو أمكن) إقامة الحدود الشرعية على هؤلاء الملوك والسلاطين والخلفاء حماة الدين، قبل غيرهم. إذن، ليس في حكم هؤلاء الذين كانوا يحكمون بما انزل الله ويخوضون بالملذات حتى الذقون، ما يستوجب الحسرات. وما علينا إلا تأسيس نظم اجتماعية وسياسية توافق العصر الحاضر الذي نعيش فيه، لنتمكن من مكافحة الأوروبيين ومقارعتهم بسلاحهم نفسه، وجدالهم بسياستهم وعلومهم ونظمهم وقواعدهم عينها. وأما الرجوع إلى تلك النظم القديمة وإلى تلك الحكومات الدينية، فمعناه التجرد عن العالم المتمدن والانعزال عن المجموعة العالمية الزمنية. ومن هو الذي يدعنا نعيش تحت تلك النظم احراراً مستقلين استقلالاً تاماً، ونحن نستجدي منه السلاح والعتاد، وأمرنا منوط بما يصدرونه من قرارات في مجالسهم (كتأسيس دولة إسرائيل مثلاً)، في هذا العصر الذي طغت فيه الماديات وتضاءلت الروحيات واتسعت المناقلات وأصبح العالم واحداً؟ وأي شعب يستطيع ان يعيش في عزلة عن شعوب العالم وعن التقدم العام ومن التطور العالمي ويقف وحده في هذا المعترك بين الدول المتقدمة الجشعة، ويصمد امام العلم وأمام النظام؟ وهذه اعظم نكبة شاهدناها في زماننا وهي فشل ملايين العرب امام حفنة من المتحضرين.

24 ـ تقرر عند كثير من الناس الحمقى تحت تأثير العواطف الدينية وما ينشره الكتّاب والوعّاظ والشيوخ ورجال الدين أن الخير، كل الخير، في أعمال السلف الصالح، والشر كل الشر في اعمال الخلف الطالح، وأن ما عمله الأولون يجب ان يبقى نبراساً يستضاء به في العالم الإسلامي ما دامت السماوات والأرض، وأن ما جاء به المتأخرون ضلال وظلمات بعضها فوق بعض وحياد عن الطريق، كأن الإنسانية في هبوط مستمر وهي تسقط ولا تعلو، وتتأخر ولا تتقدم، أو كأن العقل البشري في تقهقر مستديم، وهو يضمر ولا ينمو، ويصغر ولا يكبر، وأن القدماء دائماً ابداً خير من الذين يجيئون بعدهم، ولا توجد المعارف والعلوم الا عندهم، فكان ولا بد من تقليدهم والاقتداء بهم من دون أي تفكير أو تردد، وأن أي نقد أو اعتراض أو شك، معناه التجاوز عليهم بل على الدين الإسلامي نفسه.

فكانت هذه العقلية التي تمثل اتجاهات رجال الدين، هي السبب في توقف كل عمل ذهني واجتهاد وتجدد وابتكار ونهوض ووثوب، إلا ما كان منه ضمن النطاق الذي رسمه الأولون وحددوه في كتبهم وأقوالهم وما عداه هذر وهراء، ولقد أجاد أحد الشعراء عند قوله:

قـل لمـن لا يـرى الأواخـر شـيئاً ويـرى للأوائـل التـقـديـمـا
ان هـذا القـديـم كـان حـديـثـا وسـيـكـون هـذا الحـديـث قـديـمـا

25 ـ ليس في الأناجيل ما يحث على العمل الدنيوي، إنما بالعكس حث الناس على التجرد من الدنيا للدخول في عالم الملكوت. فيقول السيد المسيح لأحد الأثرياء: «بع أملاكك واتبعني». ويقول: «لا يمكن للعبد ان يخدم سيدين، الله والمال». وكان الدين المسيحي بيد بابوات رومية عائقاً لأهل أوروبا عن الاختراع والاكتشاف. وكان الغرب كما هو الحال في الشرق يأخذ ثقافته من الكتب الدينية (الإنجيل والتوراة)، وفي عهد النهضة (رنِسّانْس) ترك هذه الطريقة وأخذ يسعى لوضع كل ما يعرض عليه من الأفكار والمطالعات تحت الفحص والاختبار، وفتح طريقاً جديداً في الحياة المادية والروحية، فأصبح غنياً بمادته وروحانيته. أما مادته فتتجلى في صناعاته واختراعاته ومكتشفاته، وأما روحانيته فقد تطورت عنده العبادات من التثليث في ردهات الكنائس والسجود للصليب، إلى بناء المستشفيات والمختبرات والمؤسسات العلمية، وإغاثة اليتامى والفقراء والمهاجرين والمشردين واللاجئين والمعوزين وأبناء السبيل والأعمال الخيرية، ومساعدة الصليب الأحمر، وحماية الأطفال ومختبرات الامصال... وكل ما يعود على البشرية والإنسانية بالخير والسعادة والرفاه، فقطع شوطاً بعيداً في مضمار المدنية الزمنية. فنجح في عمله وكسبه حياته وبيته، وعلم كيف يعيش عيشة هنيئة ويستخدم قوى الطبيعة ويصنع السلاح ويتحكم برقاب الأمم المتأخرة... وأما الشرق فلم يتزحزح قيد انملة عما كان عليه في السابق، وعما وضعه له فقهاء العجم وقضاة ما وراء النهر وأحفاد المجوس من قواعد ومعاملات، ومن هذا حلال، وهذا حرام، وهذا مكروه، وهذا مستحب. فلم يكن له من مكتشفات المادة والقوة والطاقة نصيب، وهو عالة على الغرب قد يستجدي منه كل حاجياته، وحتى سلاحه. واعتقد ان الأرزاق مقدرة من الأزل ولا قيمة للمجهود البشري. وأما في الروحانيات، فلم يحسن تطبيق ما أوجده من القواعد الشرعية والاخاء، والمحبة، والسلام، والفضائل، والاشراق، والسكينة، والطمأنينة ومكارم الأخلاق. واعتقد ان الروحانيات هي المواظبة على العبادات (الصوم والصلاة) للوصول إلى حياة افضل في اليوم الآخر بعد الموت، فاتجه بكليته إليها، ووضع اعماله اليومية تحت مقاييسها، ويا ليتها كانت رادعة في تجنب الجشع والطمع والنهب والسلب. ولعل أكثر الزهاد والعباد درجة، وأعظم رجال الدين منزلة، أكثرهم جشعاً وطمعاً في اقتناء المال وادخاره. وبهذا أصبح الشرق معدماً بمادته وفي روحانيته. وأما القرآن الكريم فلم يكن عقبة في سبيل التقدم الإنساني في الماديات والروحانيات كما يزعمه المغرضون إنما يأمر بالسعي والاجتهاد والعمل والكفاح والتفكير، وتقوية الاخلاق، وتربية الرجال وطلب العلم والمعرفة والتجارة والزينة ولذائذ الحياة... الخ، وإلا لما أمكن إيضاح تقدم المسلمين في أوائل عهدهم.

ظهر المصلح الكبير لوثر فساق العالم المسيحي إلى احكام القرآن، وساق المتصوفة والمشائخ

والدراويش ورجال الدين الإسلامي المسلمين إلى التوكل والزهد والفقر والعطل، وإلى الوراء لا إلى الأمام، وإلى أحكام الرواة، لا إلى أحكام القرآن.

26 ـ اننا نطلب ان يكون أكثرية العلماء ورثة الأنبياء لا ورثة الجهلاء. فان العالم ليس هو المطلع على بعض الأحاديث والتفاسير وأقوال الفقهاء حول الصوم والصلاة والخمر والميسر والنعيم والعذاب، فيلبس العمامة البيضاء، والجبة السوداء، ويتصدر المجالس، يعيش على الصدقات، وأموال الأوقاف باسم الدين، إنما نريده مطلعاً على فلسفة الأديان القديمة منها والحديثة، يعتني بالنفس الإنسانية لتكون نزيهة فاضلة متصلة بخالقها، يبلّغ كلمات الله التي تهدف إلى الحق والصلاح، يرشد الناس إلى العمل المثمر الدنيوي. طبيباً للروح وللمجتمع، عالماً بتفرعات العلوم الحديثة، مجتهداً بأمور الدين، قادراً على تأويل النصوص القرآنية بالنظر لما يقتضيه الحال الحاضر الإسلامي، يتصرف كيفما يجتهد على ان لا يمس جوهر الدين. وإذا كان من بين رجال الدين الإسلامي ومن شباب الأزهر، والنجف، من هم أحرار بأفكارهم، يسايرون العلوم العقلية، ويسبقون الزمن، فهم اقل جسارة من ان يظهروا على مسرح الاصلاح الديني، حذر البطش، يقابلهم الأكثرية العظمى من رجال الدين وشيوخ الأزهر والنجف، الجامدين على المنقولات، أولئك الذين لا يتحركون قيد شعرة عما ورثوه عن أسلافهم...

27 ـ ان كل الأديان السماوية مؤسّسة على طريقتين: الأولى معرفة الله وعبادته، والثانية تنظيم الحياة الإجتماعية. فأما الأولى فهي تتعلّق بوجدان الفرد ورغباته، لا بالزجر والإكراه ﴿لا إكراه في الدين﴾ إنّما بالوعظ والإرشاد ﴿فذكّر إنما أنت مذكّر﴾. وأما الثانية وهي أقسام المعاملات والأحوال الشخصية كما قلنا سابقاً، فيجب ان تكون أخلاقية اجتماعية أكثر مما هي دينية، وأن تكون كافلة لأمور البشر اليومية، تابعة لأحوال الزمان وتقلّباته واحتياجاته. فإن الجمود على أحكام زمنية مضى عليها ألف سنة أو أكثر معناه الوقوف، والوقوف هو الموت. وهذا ما دعا الأوروبيين الى ان يحكموا ان سبب تأخّر العالم الإسلامي هو تمسّكهم بشرائعهم لا في أقسام التعبّدات بل في أقسام المعاملات.

28 ـ لقد تطورت الشرائع الإلهية حسب الحال والزمن، وتطورت تعاليم الأنبياء حسب الأمم والأقوام، وحصل الناسخ والمنسوخ في زمن السيد الرسول، وظهر الاختلاف في الرأي بين الصحابة الكرام في تطبيق قواعد الشريعة، واجتهد أئمة الفقه في أصول الدين وفروعه كل حسبما تراءى له... فهل يجب الوقوف والثبات إلى ما شاء الله على ما قاله بعض الأئمة قبل ألف سنة أو ما يزيد؟ وبينما يتقدم العلم تقدماً سريعاً، فان تقدم اتباع الهيئات الدينية في مضمار الحياة الإنسانية والاحتياجات البشرية بطيء جداً أو أنه كالمعدوم. والسبّب في ذلك فقدان الأدمغة التشريعية، وعجزها عن استنباط احكام جديدة من القرآن موافقة لروح العصر بل والعصور المقبلة. وقد أدّى جمود أصحاب العقول على قواعدهم الموروثة وإهمالهم التفكير بما في السماوات والأرض، وابتعادهم عن التأمل في سنن الكون وازدرائهم بالعلوم الطبيعية والكونية، وتمسكهم بأقسام العبادات فسقط من الشريعة الإسلامية...

وإذا كان المجتمع العربي الإسلامي في بادىء أمره عشيرياً، وقد وضعت احكامه الزمنية بالنسبة لاحتياجاته في المدن في الصحاري والبراري، أفليس من الضروري تغيير وتحوير تلك الأحكام الفرعية في عصر اللاسلكي والصيرفة الدولية وجشع المستعمرين، وقبول احدث الأساليب العصرية كما فعلت تركيا وتفعله الهند لإمكان اللحاق بالمجتمع العالمي ونحن عضو فيه، بغض النظر عن هذا مباح وهذا مكروه، وهذا جائز وهذا ممنوع؟ أو ليس ان هذا وهذا قد يقعدنا عن السباق العالمي والدولي ويجعلنا من اقسام البرابرة المتوحشين؟ إذاً، لا استقلال للبلاد الإسلامية ما لم تندمج في المنظومات الغربية وتقبل علومها وأساليبها العلمية في الحياة، دون تاريخها وتقاليدها، عن طيبة خاطر، مع المحافظة على النصوص القطعية الإسلامية التي لا مجال مطلقاً للاجتهاد بها.

29 ـ وبينما كان الأناضول في العهد العثماني البائد اسوأ بكثير من البلاد العربية، ومدينة انقرة احط بكثير من أي ولاية عربية، بل من أي عزبة مصرية، وكانت الأمية في الأناضول تكاد ان تقضي عليه، فقد طبّقت تركيا الجديدة القانون السويسري في مجاهلها وفي قمم جبالها وكهوفها فوصلت إلى ما وصلت إليه. وأما العراق فقد ارتد إلى الوراء خاسئاً فأوجد ما سماه «قانون العشائر» لإبقاء العراقيين عشائر بدوية على طول الخط بنظر العالم ولمصلحة الأجانب. هذا القانون الذي لم يكن له أثر في زمن الحكومة العثمانية وهو أشبه شيء «بالظهير البربري» مما يستدل منه الأجنبي ان العشائر العراقية على جانب من التوحش والبربرية بحيث لا يمكن ان تعامل معاملة قانون مدني، وجعل فيه ديّة الرجل بضع مئات من الروبيات أي ما تساوي قيمة حيوان، ورغب شيوخ العشائر في إبقائه لمنفعتهم. ووافق رجال الحكم في إبقائه لفائدتهم. ويدّعي المنافقون من العراقيين ان البلاد سائرة إلى الأمام.

30 ـ دخل في الدين الإسلامي حشويات لا عد لها، ووضعت احاديث لا حساب لها، وفسر رجال الدين القرآن كل حسبما يهواه تحت تأثير الاحتراصات والتهوسات السياسية. وكان أول من اتخذ الدين ألعوبة غير شريفة لقهر العدو ووسيلة لكسب الحرب، معاوية بن أبي سفيان في حرب صفين حينما رفع القرآن على أسنة الحراب ودس الأفكار الدينية في الاختلافات السياسية، فأصبح الدين من تلك اللحظة وسيلة للتقرب بيد الرواة والمحدثين فاستغلوه استغلالاً مغرضاً، به قتل الثوار عثمان بن عفان الإمام الثالث، وبه كان يحارب أصحاب معاوية أصحاب علي، وبه كان يحرض اصحاب علي على قتال معاوية، وبه قتل الخوارج علياً، وبه قتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي، وبه سفكت دماء كثيرة من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وكلهم كانوا يستغلون ما ورد في الآية الحكيم ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ان يقتلوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ (33 ـ مائدة). وقوله تعالى: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾. وكذلك الحديث: «الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها». وقوله عليه السلام: «من أراد ان يفرّق أمر هذه الأمة وهي جمع فاضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان». فدوّن الرواة والمحدثون آراءهم وفتياهم تبعاً لسياسة الملوك والخلفاء، فكثرت الأحاديث والروايات واضطربت الأفكار، واستفاد من هذا التبلبل الفرس القدماء والموالي

والشعوبيون. وكان هذا سبباً لظهور الفرق الدينية والمذاهب المختلفة في العالم الإسلامي، فتكونت الحزازات، واستحكمت الاختلافات، وطغت العداوات، وكفّر بعضهم بعضاً. ولم تزل آثارها مستديمة وجارية إلى الآن. فلا يمكن توحيد العالم العربي والإسلامي قلباً وروحاً قبل أن ترفع الاختلافات المذهبية، ولا يمكن رفع الاختلافات المذهبية الا بفصل الأمور الدينية والمذهبية عن الأمور الزمنية، واعتبار الدين والمذهب أمراً وجدانياً يخص الأفراد لا علاقة لهما بدواوين الحكومة وسياسة الدولة، وفي أمور المجتمع، والقضاء على التبشير بكل أشكاله وألوانه وصوره، وإزالة الطائفية من المجالس الوزارية والنيابية والدواوين الحكومية، حتى من الجوامع والمعابد، واعتبارها جرماً لا يغتفر. ورفع المشيخات والدروشات، وسن القوانين المدنية للأحوال الشخصية حيث تشمل الجميع على السواء، ووضع الأنظمة الشديدة لرجال الأديان تمنعهم فيها من التدخل في الأمور الزمنية، وتحدد اعمالهم حتى في الأمور التعبّدية. عند ذلك يمكن الحصول على الوحدة الإسلامية، ويؤمل ان يكون للعرب وللمسلمين كافة موقعهم في الخريطة العالمية كأمة محترمة.

31 ـ ان الاستعانة بآراء الفقهاء المصريين المحدثين لوضع قوانين حديثة مستمدة بروحها من الشرع الإسلامي لا يحل المشكلة مطلقاً. فالعالم الإسلامي بحاجة إلى فقهاء قادرين على التأويل والتخريج والاجتهاد، لدرجة تكون النظريات والمبادىء العامة التي يقررونها مرنة سهلة منطبقة على احتياجات الأمة الزمنية في كل دور من ادوارها، وفي كل زمان ومكان.

32 ـ إن مسألة الأوقاف لا تقل خطورة عما سبق، فإن إلغاء الوقف الملحق قد يؤدي إلى تصرف الفرد بأملاكه وإلى استعمال هذه الثروة كرأسمال في الصناعة والتجارة.

ان للمسلمين والمسيحيين واليهود إوقافاً كثيرة قد تبلغ ميزانيتها جمعاً الملايين، وقد تستهلك هذه عبثاً دون ان ينال منها المجتمع خيراً. إنما قد يعيش بها آلاف الناس العاطلين الخاملين. فقد خسر المجتمع عمل هؤلاء الناس، والرأسمال المعطل بالأوقاف، ومن حق المجتمع المطالبة بها.

33 ـ ان أسباب التوقف بل الانحطاط في عقلية الفرد العربي هي عدم فهمه دينه الحقيقي. فبينما كان الدين المحمدي واحداً فقط، إذ قد نبتت المذاهب والطوائف الإسلامية والمشيخات والدروشات والطرق حول جذعه. فكان ارباب السلف الصالح، وأهل السنّة والجماعة، والمعتزلة والجبرية والخوارج والشيعة، والمشبهة والمتصوفة... الخ وانقسمت كل واحدة من هؤلاء إلى عدة فرق لا عد لها ولا حساب. وكل منهم غالى في طريقته وفسّر القرآن تبعاً لرغباته، وابتدع اكاذيب التاريخ، وجاء بأنواع الأحاديث نظراً لاحتياجاته وتهوساته وتأييداً لمذهبه وطريقته، فاشتد بينهم الخصام، وتباعدت المذاهب، فاختل النظام، وظهرت الفوضى، فتراجع المسلمون إلى الوراء. فلا فكر جديداً، ولا رأي حديثاً، إنما تكرار لما قيل وتمسك بما قيل، وغلو شائن، وتعصب مهين. والفرد العربي يرقص بين هؤلاء وهؤلاء، ورجال الدين والسياسيون الماكرون ينفخون في الأبواق وكل منهم يبكي على ليلاه.

34 ـ إن من الضروري الشطب على هذه الفرق والمذاهب والطرائق والدروشات والمشيخات وكل ما هو ليس من أصل الدين في شيء مرة واحدة، وإرجاع الدين إلى اصله كما جاء به سيد الرسل، رضي زيد أو غضب عمرو. ولكل معترض الحبل، كما فعل مصطفى كمال، والرشاش، وكما عمل رضا شاه

بهلوي، حتى تستقر الحالة وتصل الأمة العربية إلى ما وصلت إليه الأمم الأوروبية والامريكية من حرية الفكر، والادراك. عند ذلك يطلق لها حريتها وتفتح أبواب التبشير. ومن المعلوم ان انكلترا كانت تضطهد الكثلكة، وفرنسة تكافح البروتستانية في القرن السابع والثامن عشر، ولما رسخت الثقافة عندهما اعلنتا حرية التبشير الديني حيث لم يبق لهما من خوف منه.

35 ـ كان الضرر الأكبر متأتياً من ناحية التصوف، وذلك عندما يغري الشيخ تلميذه ومريده ويلقنه ان لا يمكن الوصول إلى معرفة الله والفناء بالله إلا بواسطته أو بنظرة منه أو التمسك بأذيال الأولياء والشهداء والصالحين، فتضخمت القباب وارتفعت نحو السماء، وضل الأكثرية من المسلمين عن الدين المحمدي بالتماسهم الجنة من الأجداث البالية، وزاد الطين بلة ما احدثته مسألة القضاء والقدر والشفاعة والتوكل على الوجه الذي فهمته العامة، ورسخت في عقول الناس من التسليم المطلق وعدم الاعتماد على النفس، فنزل التفكير إلى درجة الصفر، واتكأت الفرق على شفاعة الشافعين، فتنعم رجال الدين والمشايخ والدراويش من جهل الناس ومن اعطياتهم، وأصبح الفرد نافراً من الحياة، بعيداً عن العمل متوكلاً قانعاً خاملاً قد يطلب الموت للتخلص من مشاق الحياة وضيق العيش، وللوصول إلى لقاء الحبيب عند أبواب الجنة ساعة اقدم.

36 ـ كان أول من نادى بالتوكل في معناه المخالف للنص والحديث العباد والزهاد من رجال الصوفية. فقد عرّفوا التوكل أنه التجرد عن المال والإرادة والفكر والعمل وحصر الأمر كله بالله تعالى، وقبول ما أراده الله دون تردد. فهو المعطي وهو المانع. واعتمدوا في حياتهم على مائدة ربهم سواء أكانت نازلة من السماء أم جاءت عن يد الناس وبطريقة الاستجداء. وبينما أمرنا الله بالسعي والارتزاق والعمل، فقد جاءنا هؤلاء المشايخ بدساتير صبيانية ليست من أصل الدين في شيء، فقالوا ان العمل لا يزيد الرزق، والأرزاق مقدرة من الأزل، ويوم جديد ورزق جديد، وإن الله لا ينسى رزق عباده، وإنه كريم، والادخار ينفي الاعتماد على الله، والقناعة كنز لا يفنى، وغير ذلك من الدساتير والجمل المخدرة فأدخلوها في عقول الناس من كراسي الوعظ ومن فوق المنابر قسراً. فكان من نتيجتها ان اهمل التفكير في مستقبل الحياة، وادخار ما يحصل في اليوم الأبيض لليوم الأسود، وارتخت العزائم عن الجد والكفاح لنيل مستلزمات الحياة، وظهر الكسل والعطل، فالسفالة الخلقية والاجتماعية. وقد اتفق الشيوخ كافة عند تفسيرهم التوكل بأن هناك قوة عليا (الله) تدير شؤون العالم من وراء ستار. فما على المؤمن إلا توكيل هذه القوة والاعتماد عليها والاستسلام لها، وألا يدخر من حطام الدنيا شيئاً لأن الله هو الرزاق، ومن حاول ان يعمل ويوجد رزقه بالاعتماد على نفسه ويدخر، فهو كمن حاول أن يشارك الله في اعماله واتجاره وخلقه، فينبذ الاعتماد عليه لأنه هو الكفيل بأرزاق العباد وتموين العالم على حد تعبير هذا الزمان، وجميعها مأخوذة من المسيحيات. فقد جاء في إنجيل متى عن لسان السيد المسيح قوله: «انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها. فلا تهتموا قائلين: ماذا نأكل وماذا نشرب وماذا نلبس... ان اباكم السماوي يعلم انكم تحتاجون إلى هذه كلها. فلا تهتموا للغد». فانتشرت هذه العقيدة الصوفية الجبرية في كل زاوية وصقع في البلاد الإسلامية، فكانت هذه العقيدة خير وسيلة للتخلص من السعي والعمل والكد

والاجتهاد، فاستند إليها كل عاطل واتكل عليها كل ضعيف بالروح، فظهر الخور والجوع والاستسلام، وفسد العمل والاعتداد بالنفس، وأصبحت الأمة اتكالية في جميع أمورها. وهذا كله مغاير لقوله تعالى: «اعملوا، اسعوا، اعدّوا...» و﴿ليس للإنسان الا ما سعى﴾ ولقول سيد الرسل: «اعقل وتوكل». وهذا معناه اتخاذ الحيطة والوسائل اللازمة والاعتماد عليها قبل التوكل. ولم يسلم من التوكل حتى اعظم رجالنا وأجل علمائنا. يقال لما توفي الشيخ محمد عبده لم يترك وراءه لأولاده وأهله سوى بيت مبني باللبن والطين، فمنحت الحكومة أسرته ألف جنيه لإعالتها، بينما لا تجد في أوروبا المتخلصة من القواعد الصوفية المسيحية ـ سوى القسس والرهبان ـ من ينجح في اعماله على التوكل والقضاء والقدر. فهم الناجحون ونحن الخاسرون.

37 ـ وعندما يصطدم الشعور الديني بالشعور العقلي يكون الشعور الديني هو الغالب دائماً حتى عند المثقفين ثقافة عالية. وقد لا يسلم منها بعض الكبراء وحتى الرؤساء، لأن الفرد من نعومة أظفاره قد سمع ورأى التقاليد الدينية التي وضعها الشيوخ، وقد احاطته من كل جانب في بيته وفي مدرسته، في المجتمعات والنوادي والأسواق، في الكتب والمجلات الدينية، من أبويه، من أقاربه، من أصدقائه، بصورة مباشرة وغير مباشرة. والتعليم في الصغر كالنقش في الحجر، لا يمحوه الزمان، فيرضخ لتلك التقاليد الدينية المتمركزة في أعماق وجدانه. وإذا ما تظاهر بالتخلص من العنعنات الدينية لمدة من الزمن، فقد ينقاد لها مرغماً عندما يسمع من غيره شيئاً عنها فتستعيد قوتها تحت تأثير الشعور الديني العميق فيثور الفرد كما يثور البركان تاركاً عقله وراءه.

38 ـ والحقيقة ان التربية الابتدائية قد جعلتنا كلنا من رجال الدين. فان كلمة القضاء والقدر والخير والشر والتوكل والقناعة والنذور والأولياء والشفاعة والقسمة والنصيب والمكتوب وإرادة الله والعزائم والتمائم والشيطان والجان، وإن شاء الله والله كريم... الخ قد تجري على ألسنتنا دون أن نشعر، ونبشر بها بين الطبقات دون ان نعلم ونقصد. والضرر الأكبر متأت من استعمالها امام الأولاد والأطفال فيلتقطونها وترسخ في ادمغتهم دون تفكير. فان هذه التربية الابتدائية قد تؤثر في مخيلة الطفل حتى إذا ما كبر وسمع بأن ما تحت القبة إلا حفنة من تراب، هاج وماج وملأ الفضاء ضجيجاً.

39 ـ قالوا ان باب الاجتهاد مسدود ـ وهو قول هراء ـ وقالوا ليس لأحد ان يستنبط حكماً جديداً من القرآن، وذلك حذراً من ازدياد أعداد المذاهب. نعم إننا نجلّ أصحاب المذاهب إلا اننا لا نعترف بأن الله قد وهبهم من الذكاء والعلم والاطلاع والنظر ما لم يمنحه لغيرهم وهم بشر مثلنا، وليسوا أنبياء ولم يأتهم الوحي، فلماذا وإلى متى يبقى العالم الإسلامي مقيداً بأرائهم ونظراتهم، والزمان قد تبدل والحاجات قد تنوعت وتكاثرت ولم تزل رواياتهم وآراؤهم وأقوالهم ثابتة لا تتغير؟ ثم ان القول بأن الاطلاع والعلم قد انتهى عندهم معناه توجه الفكر البشري إلى الانحطاط والتدهور وليس إلى الارتقاء والتقدم، وهو مناف للواقع.

كان الفقهاء قد اعتبروا أركان الاجتهاد أربعة: الكتاب والسنة والاجماع والقياس. أما السنة فقد أجمع المؤرخون كافة على ان الأحاديث لم تسجل في زمن السيد الرسول. وباستثناء بضعة أحاديث لا

يشك في صحتها منقولة عن طريق الخلفاء الراشدين، فقد تلاعبت فيها الأراء والأهواء، وكانت جميعها روايات منقولة من فلان عن فلان حتى يصل أكثرها إلى أبي هريرة وابن عباس. يقول الدارقطني عنها: «الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود». ويقول شعبة: «تسعة أعشار الحديث كذب». وقد سبق ذكره. وأما الاجماع فلم تجتمع الأمة الإسلامية على أمر واحد منذ ثلثمائة وألف سنة حتى هذا اليوم. وأما الرأي والقياس فكانا سائدين مدة من الزمن في بغداد وارتفعا بارتفاع الأدمغة التشريعية. فلم يبق والحالة هذه من أركان الاجتهاد سالماً صحيحاً سوى القرآن وحده ومنه يمكن اخذ الشريعة.

ولما كانت الحوادث والوقائع والمؤثرات في العبادات والمعاملات في مختلف بقاع الأرض متنوعة ولا تقبل الحصر والعد، وان احتياجات المسلمين كل يوم في انبساط مستمر، ولم يرد عن كل حادثة نص في القرآن، ولا يمكن ذلك، ولما كانت النصوص الواردة متناهية والوقائع والحوادث غير متناهية واحتياجات المسلمين في مختلف اقاليم الأرض غير متساوية، وما لا يتناهى لا يحيطه ما يتناهى، أصبح من الضروري إعادة النظر في روايات الأحاديث، وتحطيم الاغلال التي وضعها الفقهاء السابقون، وفتح باب الاجتهاد الذي احكم سده الجامدون، في هذا العصر الذي طغت فيه الماديات وتضاءلت الروحيات، حتى يكون لكل حادثة، تبعاً لحاجة كل أمة في كل قطر، اجتهاد خاص لتيسير أمور المسلمين وتسهيلها في الروحيات والعبادات والمعاملات، دون ارغام الذين هم في تركيا وإيران والأفغان وحتى الذين هم في القطب الشمالي على اتباع قواعد شرعية سبق أن وضعت قبل ثلاثماية وألف سنة لسكان البلاد الحارة كالحجاز واليمن والجزيرة العربية.

فكان من الواجب على حماة الدين ان ينتبهوا إلى هذه الحالة الخطرة ويتيقنوا ان الوعظ والإرشاد على الطريقة القديمة المتعارفة وحدها لا يؤثر في عقول الشباب المتعطش إلى كل شيء جديد. فمن الضروري القيام بتأسيس مجمع ديني إسلامي عالمي دوري من شباب مثقفين وعلماء في الدين نابهين لا يتقيدون بقيد ولا يتأثرون بحد لإصلاح الشريعة، يقررون الأسهل، ويأخذون الأيسر، ويتركون الأعسر، مما ورد في القواعد التعبدية والشريعة بالاستناد إلى نصوص القرآن وحدها، بغض النظر عما جاء به رواة الحديث والفقهاء العظام من التقييدات والتشديدات والتفسيرات بدافع الاحوط على أن يكون قرارهم بمثابة اجماع الأمة ليسهل على الشباب المسلم في مشارق الأرض ومغاربها ممارسة شعائر دينه بسهولة، وعن طيبة خاطر ودون نفور وتبرم. فان السكوت العميق الذي سار عليه رجال الدين وإصرارهم على إبقاء كان على ما كان، معناه اعطاه المساغ لشرود الأحداث الناشئين عن المعابد، وإرغام الهيئات السياسية والاجتماعية على قبول القوانين السويسرية مثلاً.

40 ـ لقد تخلص العالم المسيحي من نفوذ البابا الجبار بعد أن ركعوا له خمسة عشر قرناً، وتخلص الصينيون من كهنة بوذا وكونفوشيوس بعد ان سجدوا على عتباتهما ستة آلاف سنة أو ما يزيد، وتخلص الإيرانيون من طغيان شاهاتهم، وفتاوى مجتهديهم السياسية بعد أن طأطأوا رقابهم وأحنوا ظهورهم مئات السنين، وتخلص الأتراك من استبداد سلاطينهم ورجال دينهم بعد ان خضعوا

لأوامرهم ونواهيهم عدة قرون، فمتى تتخلص البلاد العربية من البصرة إلى تطوان من القباب والزوايا والتكايا والمشائخ والمتشبهين برجال الدين، ويكون الدين كله لله وحده؟ وجوابنا عن هذا قوله تعالى: ﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. فان الذي تخلص من ذلك الطغيان الديني هو الشعب الأوروبي والصيني والإيراني والتركي نفسه تحت قيادة زعمائهم المدركين، فما على الشباب إلا ان يوقدوا الثورة الفكرية ضد المنظمات الدينية الجوفاء التي لم تكن من أصل الدين بشيء، ويرجعوا الدين كله إلى الله وحده، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وما دامت الشعوب العربية متأخرة بتفكيرها لم تصل إلى سوية إدراك تلك الشعوب فلا فائدة عاجلة ترتجى منها في الحال الحاضر، وستبقى على ما هي عليه مدة أخرى إلى أن يظهر من شباب الأزهر والنجف من يهز بقلمه عروش المحافظين ويحطم بآرائه مدعيات الجامدين من اساتذتهم.

41 ـ وقبل ان ننهي هذه المأساة لا بد لنا ان نذكر ونسجل ان رجال الدين المسيحي بعد أن جمدوا قروناً كثيرة حول نصوص الأناجيل والتوراة، شرعوا بعد عهد النهضة (رنِسّانْس) يتبارون مع رجال العلم. فظهر من بينهم الطبيب الفيلسوف والرائد والمخترع والمكتشف، ولم يزالوا يتماشون مع العلوم العصرية خطوة فخطوة وشبراً فشبراً بما يحمدون عليه. فاننا نطلب اولاً ان يكون رجال الدين عندنا على هذه الشاكلة من الوجهة العلمية، ليتباهى بهم العالم الإسلامي، وثانياً لم يكن قصدنا مما سبق قبول المدنية الأوروبية بحذافيرها. فاننا نعلم ان مكارم الأخلاق التي يؤيدها الدين قد تركت موقعها للحرية الفردية، وحلت المقتضيات المادية بمحل شخصية الإنسان الروحية، فأصبح الانتفاع المادي يسود جميع مظاهر النشاط البشري، ولم يبق للأخلاق قوة مؤثرة في المجتمع الأوروبي والأميركي. فكانت المدنية الأوروبية في تاريخها وتنظيمها وحياتها لا توافق القواعد الإسلامية. ونعلم أيضاً أن المدنية العصرية هذه قد تستنفد ما تبقى من القوى الروحية والأخلاقية وهي متدهورة إلى الحضيض، وقد تتقد فتنطفىء كما نفدت وانطفأت قبلها كثير من المدنيات العالمية، وقد تنتقل المدنية إلى ربوع آسيا فتزدهر في الصين والهند مرة أخرى. الا اننا نقصد في كلامنا هذا قبول الحضارة الأوروبية والأميركية العملية كما قبلتها اليابان وتركيا والهند وهي اللباب دون القشور، والانتاج دون الخلاعات، والمدفع قبل الاستغاثة. وأما الروحانيات فيجب المحافظة عليها كرائد في الأمور النفسية والخلقية دوماً لا بسوط الحكومة الجبار إنما بالوعظ والإرشاد والاقناع والحجاج والمنطق ﴿وما انت عليهم بجبار﴾ (القرآن). ونريد نهضة عامة عصرية شاملة مستندة على الأخلاق الإسلامية الفاضلة، على ان تكون بعيدة عن الفكرة العنصرية التي جاءتنا بها أوروبا مجرّدة عن الخيالات والأوهام التي جاءنا بها المشايخ ورجال الدين، وتفكيراً جديداً في القواعد الإسلامية مما يوافق روح العصر والعصور المقبلة وأن تكون الشريعة الزمنية متحركة تتطور نحو التقدم لا تعرف للوقوف معنى أبداً.

42 ـ لقد اخذ لوثر كثيراً من القواعد الإسلامية فقال: «لا رهبانية في المسيحية». ونفى التوسط بين الله وعباده، وأنكر شفاعة القدّيسين، وتمسّك بقوله تعالى ﴿ادعوني استجب لكم﴾. فصار كل مسيحي من

البروتستان قسيس نفسه. ووصل الشيوخ والدراويش إلى ولاية ابتدعوها، ومذاهب اخترعوها، وشفاعة اختلقوها، بينما كان من الواجب على كل فرد منهم ان يكدح إلى هدفه الروحي بنفسه.

43 ـ فمن المعلوم أن سيد الرسل كان يصلي تارة قائماً وأخرى قاعداً. وقعوده لم يكن عن مرض أو علة فتصح الصلاة والحالة هذه في حالة القيام والقعود والاضطجاع والمرض حتى بحركة الرأس والعين، كما هو مصرح بكتب الأحاديث. وكانت الصلاة والسجود فوق الأرض أو التراب ثم فوق الحصى، ثم فوق الحصران، ثم فوق السجاد، ثم فوق الطنافس. فلماذا لا يصح السجود فوق لوح الخشب وتستبدل اليوم تبعاً للضرورات العصرية واللباس الحاضر بالمقاعد لأداء الصلاة والسجود عليها، كما صرّح بذلك أحد رجال الدين الأحرار، فيدخل الناس إلى المساجد أفواجاً بشوق ورغبة لا مزيد عليهما، كما يدخل المسيحيون كنائسهم النظيفة؟ ألم يكن بوسع رجال الدين ان يجتهدوا ويعلنوا جواز الصلاة فوق المقاعد والسجود على الألواح الخشبية؟ الجواب أنهم تمسكوا بالشكل والحركات الجسمانية فقط، وهي الوقوف والركوع والسجود والقنوت وشعائر الصلاة الأخرى، ويا ليتها كانت على سياق واحد عند الجميع إنما تختلف عن بعضها باختلاف المذاهب. ولم يلاحظوا أن القصد من الصلاة هو التوجه إلى الله بالقلب وبالروح لا بالحركات والأشكال والصور والأوضاع الجسمانية.

44 ـ اننا نعترف ان ليس بمقدور أحد منهم ان يقوم بهذا العمل، وهو ليس من الأعمال الفردية، إنما ـ كما قلنا سابقاً ـ يجب عقد مؤتمر ديني إسلامي من علماء متفقين نابهين مجتهدين لا مقلدين ولا متعصبين ولا جامدين، لإعادة النظر في أقسام العبادات كافة، على ان يتمسكوا بأحكام القرآن ونصوصه فقط، وعند تفسير ما غمض منه يقرروا الجانب الأسهل من إحدى الروايتين، ونظراً لما يقتضيه الحال والزمان من دون التقيد بالمنقولات والروايات والأقوال المتضاربة الأخرى، ويكون حكمه وقراره فوق حكم المنقولات كافة، وقاعدة للتشريع في كل عصر من العصور، ويعتبر بمثابة «اجماع» الأمة، بغض النظر عما جاء في المذهب الحنبلي الذي ينص على أنه لا يصح الاجماع الا في زمن الصحابة ورجال المدينة المنوّرة. الا ان هذا يحتاج إلى مرونة أدبية وشجاعة دينية، ورجالنا محرومون منها. وإذا كانت القوة الباطنية للعالم الإسلامي المستندة على القرآن والسنة والتماسك الاجتماعي والأخوة الإسلامية وتعاليم التوحيد... جعلت العالم الإسلامي يصمد تجاه كل المؤثرات الخارجية العنيفة والهجمات المعادية المميتة طيلة هذه القرون، فمن المشكوك فيه ان يصمد من الآن وصاعداً تجاه المدنية الغربية الجارفة، وهذه بوادرها ظاهرة للعيان، ان لم تتداركها العقول السليمة.

45 ـ ولا بد ان نقول ان العالم الإسلامي كان قد استنزف كل قواه في الألوهية وفي النبوة وفي مباحث ما وراء الطبيعة وبعد الموت والحشر والنشر، وفي السماوات السبع، والأرضين السبع، وكان جل همه التزود للرحيل من العالم الفاني إلى العالم الباقي، بينما اهالي أوروبا وامريكا اتجهوا بكل قواهم إلى العالم المادي فأحدثوا حضارة قوية استعبدوا بها الشرق، ومدنية جارفة اغلقت في وجوه الناس أبواب العالم الروحي، ولم تترك سوى عالم المادة مسرحاً للبحث والتنقيب. وانتبه شباب الشرق، ورأى نفسه حائراً، بل العالم نفسه حائراً بين العالم الروحي والعالم المادي، فتباعد عن الروحانيات ولم يزل

يسعى ويقطع الخطوة إثر الخطوة حول الماديات. فان لم يتدارك رجال الدين القواعد الروحانية ويكفوا من غلوائهم وتعصبهم ويتخذوا ابسط الأساليب الدينية وأسهلها وأيسرها، فسيزداد عدد الشاردين من المعابد سنة بعد سنة وجيلاً بعد جيل. ولهم بعد ذلك ان يحوللوا ويحوقلوا وما من سميع لهم ولا مجيب.

ومن المفيد أن نذكر في نهاية هذا الفصل بعض النبذ عن الكفاح المتحصل في أوروبا خلال القرن السادس عشر بين رجال العلم والاكليروس الديني، ذلك الكفاح الذي أدى إلى دور النهضة المذكور في هذا الفصل أكثر من مرة للوقوف منه عن كيفية تحرر العقل من ضغط العقيدة الدينية والصوفية المسيحية.

بينما كان العالم الأوروبي يأخذ علومه ومعرفته من الوحي المسيحي، وما يقوله الآباء والقسس والرهبان، ويميل تحت تأثير تلك المعرفة والتلقينات إلى الزهد والتقوى والعبادة، ويلتجىء إلى أبواب الكنائس لطلب الغفران والوصول إلى عالم الملكوت وإلى الخلاص من الخطيئة الموروثة من آدم أبي البشر، ترجمت الأناجيل إلى اللغات الأوروبية واطّلع على ما فيها من الأقوال والمدعيات والمتناقضات، وحب الاطلاع على أكثر مما هو موجود فيها، فاتجه نحو العلم وركض وراء العلماء، وتناول وتبادل الآراء الجديدة في المدارس والمجتمعات، وفي دور كان فيه الأوروبيون على درجة أشبه بما نحن فيه من العلم والمعرفة، ظهر روجر بيكون يدعو الناس إلى إعمال الفكر في السماء والأرض، وإجراء التجربة والاختبار والامتحان في كل ما تقع عليه العين وتسمعه الأذن من الادعاءات والمقولات للتأكد من حقيقته... فاهتزت لدروسه أوروبا من اقصاها إلى اقصاها، فظهرت بوادر الشكوك وعلامات التعجب والاستنكار، واستخف الناس باللاهوت وازدروا بالآباء... تميز هذا العصر بالثورة ضد المسيحية والتعاليم الكنسية، وتغلب النظر العقلي على الوحي المسيحي.

ظهر المصلحون للتوفيق بين الدين القديم والفكر الحديث، والجمع بين الإيمان والعقل، وتطبيق قواعد العلم على نصوص الأناجيل... الا ان المفكرين، رجال العصر الجديد لم يلتفتوا إلى الوراء، بل ساروا في طريقهم قدماً وكفلوا استقلال العقل وتحرره دون التحرش بالعقيدة الدينية، ودون منازلة رجال الدين... لم يفت الاكليروس هذه الطريقة، فلم يسعه السكوت على قيام المذهب الإنساني وانتشار العلم الطبيعي، وطريقة المشاهدة والاختيار والامتحان، فشرع بمقاومة الروح الجديدة سراً وعلانية، وأسرف بالتنكيل والاضطهاد إسرافاً. ولم يلن اصحاب الروح الجديد، إنما كتبوا ونشروا آراءهم ولو كان من ورائه الموت الزؤام.

وبينما كان لرجال الاكليروس استناداً إلى الوحي المنزل والكتاب المقدس، الكلام المسموع والنفوذ المطلق في الأوساط الاجتماعية والدينية، إذ قد اقلق مضاجعهم اصحاب الفكر الجديد بما اخترعوه من تجربة واختبار وامتحان في كل شيء، وقد علا صوت البحث العلمي في كل مكان حتى وصل ردهات الأمراء وكبار القوم... فكان كلما انتشرت الأفكار العلمية الحرة، ازداد ضغط الاكليروس على الاساتذة والمدرسين بالحبس والاحراق، وتعاون الكاثوليك مع البروتستانت والطوائف الأخرى في اتخاذ طريقة خطة الهجوم ضد الملحدين من أي صنف كانوا. فقد قبض على ده دومينس De Domins

وألقي في غياهب السجون ثم احرقت جثته وكتبه معه. وكانت مأساة برونو عام 1600 م. لقوله بمذهب كوبرنيكوس وتأييده له. ومثله غاليلو؛ ومثله شارون Charon كما هو معلوم.

وكان قد تميز في ميدان البحث العلمي الاساتذة بوررللي في الرياضيات وريدى في التاريخ الطبيعي وكثيرون غيرهما التزموا طريقة المنهج العلمي فتوسعوا بدراسة الضوء والحرارة والكهربية والمغناطيسية والجاذبية... فأعلن الاكليروس اتهامهم بالهرطقة والالحاد، فاضطهد بوررللي حتى اضطر إلى التسول، وألقى اولنا نفسه من نافذة محكمة التفتيش للتخلص من عذاب المحكمة. وأنكر بومبونازي Pomponazzi خلود النفس والمعجزات والكرامات وخوارق العادات...

وصدر أمر جيمس الأول في انكلترة البروتستانية بإحراق ليكات B. Legate عام 1611 م. بتهمة انه لا يقبل الاصلاح. وفي العام نفسه احرق ليخفيلد Lichfield بتهمة الالحاد. وبعد عهد النهضة ثار الناس بالمقابلة على الكنيسة، وخلعوا عنهم طاعتها وازدروا بها. فكان الفرنسيون يوسمون الرهبان بالغراب Corbeau تحقيراً لهم. فكان هذا ما جنته أيديهم، حتى عادوا إلى سيرتهم المعقولة من النصح والارشاد والتبشير والهداية فعاد الناس إليهم ولاذوا بهم...

وكان قد وضعت المطبوعات تحت الرقابة الشديدة. فقد أصدر البابا اسكندر الخامس عام 1501 منشوراً يقضي بعقاب من يطبع شيئاً بدون تصريح منه. ووضعت ألمانيا الرقابة على المطبوعات في أوائل القرن السادس عشر. وأصدر هنري الثاني ملك فرنسا قراراً يقضي بالاعدام على من يطبع شيئاً قبل ان ينال الترخيص اللازم، ومنعت اليصابات ملكة انكلترا الطبع من غير ترخيص، واستدام المنع حتى اوائل القرن التاسع عشر. وكذلك كان الحال في الحكومة العثمانية فكانت حتى الكتب المدرسية التي كنا نقرأها في المدارس كالحساب والهندسة والجغرافيا... مؤشر عليها «طبعت بموافقة وزارة المعارف الجليلة». فإذا كانت البشرية قد أعطت من ابنائها ضحايا للاكليروس الديني، فقد استفادت عوضاً منهم باستخدام القوى الطبيعية في اعمالها اليومية.



الفصل الثاني عشر خاتمة ونظرة عامة

1 ـ قبل ان نختم هذه الفصول، علينا أن نبيّن وجوب التفريق بين الدين الإسلامي وبين ما جاء به رجال الدين الإسلامي. فليس لمرونة الدين الإسلامي حد، وهو دين تعقل وتفكير، يطلب من معتنقيه الفهم والدليل والبرهان والتجربة والاختبار، والامتحان، وينهي عن التقليد الأعمى ويأمر النظر بالبصيرة في خلق السماوات والأرض، وفي كل شيء تقع عليه العين وتسمعه الأذن ويشتغل به الفكر، لأجل الوقوف على كنهه وحقيقته. يقول الله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾ (101 ـ يونس). والنظر في السماوات لا يكون للتفرج على قدرة الله في الخلق والتكوين أو لرؤية حركة الكواكب فحسب، إنما بالبصيرة للوقوف على ما في اعماق السماء من تعاملات حتى في القوى الحكمية والكيمائية، وعلى ما في الفضاء من حركات، وما تصدره الاجرام من أشعة، يقول: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ (19 ـ الذاريات). فلا ريب ولا جدال بأن هذه الآيات الأرضية هي القوى الطبيعية والآيات الحيوية، وهي علم وظائف الأعضاء (الفسلجة) وكل الأعمال الذهنية وغيرها، وان هذا الأمر أقوى أمر إلهي يدعونا إلى التبصر ورؤية الحقائق ودراسة ما في الكون دراسة عميقة. ويقول جلّت عظمته: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (53 ـ فصّلت). وقد بدأ زمن إظهار هذه الآيات في الآفاق للناس في القرن التاسع عشر على يد «باستور» وزملائه وهو اكتشاف عالم الاحياء الصغرى (الميكروبات)، وفي القرن العشرين الميلادي على يد «روزفورد» وهي البناء الداخلي للذرة وما فيها من دقائق كهربية وطاقة مشحونة تحير العقول والألباب، وفي عالم الاحياء الخلية الحية وما فيها من البناء المنظم والعمل المتقن وخاصة منها الصبغيات والذريات. فهل يجوز ان نبقى بعيدين من ان نعلم انه الحق من آياته هذه في الآفاق وفي أنفسنا لأننا لم نكتشفها أو لأنها من مكتشفات الأوروبيين، أو لأن المفسرين وأئمة الفقه ورجال الحديث وشيوخ الطرق لم يذكروها في كتبهم؟ ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً﴾ (269 ـ بقرة). لا جدال في أن الحكمة هي الحكمة الطبيعية ومن ضمنها القوانين الكونية والقوى العقلية يؤتيها الله من يشاء من عباده العلماء العاملين. ويقول جلّت قدرته: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فانها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾ (الحج) فحق لنا ان نكرر ما قاله الأولون: «تعالوا على الإسلام نبكي ونتحب».

2 ـ ادعى رجال الدين المسيحي أن معرفة الله لا تقاس بمعرفة الناس، وأن الوصول إلى معرفة الله هو الوصول إلى الألوهية. فمن الضروري الاعتقاد والإيمان بالأسرار الإلهية دون تحرّي حقيقتها. لكن ابناء الغرب تخلصوا في عهد النهضة (رنِسّانْس) من اخذ معرفتهم وعلومهم من أساليب تلك المدرسة القديمة فاهتدوا إلى طريقة النظر بالعقل وطلب الدليل والبرهان في كل ما سمعوه ونظروه، وهي

الطريقة التي أوجدتها وأمرت بها الديانة الإسلامية في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ (173 ـ النساء). فكان طلب الدليل والبرهان في كل ادعاء وكلام وعمل أمراً إلهياً. وكان كل ادعاء وكلام بدون برهان ـ سوى عالم الغيب ـ هذياناً لا يلتفت إليه. وتحت هذا الدستور الجليل اكتشف الأوروبيون القوى الطبيعية وأثبتوها بالدليل والبرهان لا بالكذب والبهتان والمدعيات الفارغة الجوفاء، ثم سخروها لمقاصدهم واستخدموها لمآربهم فصنعوا الآلات البخارية والكهربية واللاسلكي والتلفون والراديو والدبابات والرشاشات ومختلف الأسلحة النارية والقنبلة الذرية، وساروا في الأرض بالسيارات والقطارات وصعدوا في الجو بالمناطيد والطيارات، وذللوا أمواج البحر بالمدرعات والغواصات، وتناولوا وتبادلوا المكتشفات العلمية بعضهم عن بعض، فتحكّموا برقاب الأمم المتأخرة امثالنا لا بقوة الاكليروس والدين والملكوت بل بقلوب عقلوا بها وعيون ابصروا بها وآذان سمعوا بها وأدمغة فكروا بها. أما نحن فقد اصبنا بجمود القلوب وعمي العيون وصمم الآذان وخرس اللسان، لأننا لم نزل منذ قرون نصغي إلى اختلافات رجال الدين ومدعيات المشايخ ومبتدعات أهل الطوائف ومنقولات ارباب الطرائق وخيالات المتصوفة والنبوات والرسالات المحدثة، ودأبنا على زيارة القبور ولطم الخدود وضرب الصدور، وكفّر بعضنا بعضاً تبعاً لما قالوه لنا ونشروه بيننا، وقعدنا في الجوامع والمساجد والمعابد والتكايا والزوايا ننقر الدفوف وننتظر الفرج من السماء والمدد من الغيب والمعونة من الله ليرزقنا ويحطم أعداءنا ويورثنا ديارهم ويجعل أموالهم وأولادهم حلالاً لنا وينصرنا على القوم الكافرين في الدنيا ويدخلنا الجنة بشفاعة الشافعين وبجاه الأولياء والشهداء والصالحين في اليوم الآخرة. وفوق كل هذا الجهل والحمق المركب، وهو لا يفرق عن خيالات الحشاشين، ندّعي اننا مسلمون متمسّكون بأحكام القرآن مع اننا لم نتمسك إلا بجانب ضئيل من أحكامه وهي أقسام العبادات فقط، والله جلّ شأنه، يقرعنا ويقول: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم افلا تبصرون﴾. ويقول: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾.

3 ـ وكان رجال الدين فسّروا هذه الآية الكريمة الأخيرة في زمن من الأزمان الغابرة أنه جل وعلا، حثهم على ان يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا بالله العظيم. أما في زماننا، وقد تبدل الوضع فكان من واجبات رجال الدين كافة عند تفسيرهم هذه الآية وبعد أن وصلنا إلى هذه الحالة التي نحن فيها ان يصرخوا من فوق المنابر ويملأوا الفضاء صراخاً بأن الله أمرنا ان نذهب إلى أوروبا وأميركا وحتى الصين للدراسة ولمشاهدة ما وصلت إليه العلوم الرياضية والعقلية والآليات والميكانيك واستيعابها بعقولنا وقلوبنا واستخدامها بأمورنا وأعمالنا، وتسخير جميع القوى الطبيعية في أشغالنا وأعمالنا وتقوية شوكتنا وسؤددنا في الدنيا قبل الآخرة، وأمثاله كثير، ولم يفعلوا. وخلافاً لذلك نراهم يتشاءمون ويتطيّرون من ذهاب الشباب إلى الغرب للدرس والتحصيل ويندبون حظ الأخلاق الفاضلة والعنعنات الغالية ويملأون الصحف بالمقالات العاطفية الفارغة، وما هي في الحقيقة إلا خوفهم من انتشار العلوم العقلية وذهاب ما بأيديهم. فكان من الأحرى ان يطلق عليهم اسم رجال عبادة لا رجال علم، ورجال آخرة لا رجال دنيا.

4 ـ ومن الحث والتوصيات المشابهة التي أمرنا الله بها وأهملناها قوله تعالى: ﴿افلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ (سبأ). وهي أكثر شمولاً من التي قبلها، وتشمل تدقيق وفحص كل ما يحيط بنا من الماديات وما بين أيدينا وما خلفنا من الحادثات. ويقول جلت قدرته: ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ (105 ـ يوسف). فلنا ان نتساءل أي آية من الآيات التي في السماوات والأرض اكتشفها المسلمون على حقيقتها العلمية، تبعاً لهذه الآية الكريمة؟ هذا مع العلم وإلى وقت قريب لو قال قائل ان الأرض مدورة لقالوا كفرت! ولجأوا إلى الحكام ينادون بالويل والثبور ويطلبون قصاصه الشرعي. ويقول عز وجل: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾. ويقول: ﴿ما أوتيتم من العلم الا قليلاً﴾. ويقول: ﴿قل ربي زدني علماً﴾، ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ وغير ذلك كثير.

5 ـ فلنا ان نتساءل هل يوجد دين سماوي أو نظام أرضي يحث منتسبيه على طلب العلم والمعرفة والتفكير في خلق السماوات والأرض بأكثر من هذا الحث، ويوصي معتنقيه بأكثر من هذه التوصيات، ويقرع سالكيه بأكثر من هذا التقريع؟ إلا ان رجال الدين، لضعفهم وعجزهم، كانوا قد اتخذوا من القرآن ما هو متعلق بالعبادات وبالجنة ونعيمها والنار ولهيبها فقط فتوسعوا فيها ما شاء لهم الخيال والهوى وحثوا الناس على العبادات واكتساب الطاعات للوصول إلى الجنات وتركوا ما يتعلق منه بالأمور الزمنية والاجتماعية وحياة الأمم الإسلامية.

6 ـ لقد ضل أولئك الذين اعتبروا الدنيا دار فناء والآخرة دار بقاء. هذه نظرية سادت وانتشرت في البلاد الإسلامية والعربية منذ ان اضاع العرب استقلالهم السياسي في القرن الخامس الهجري وأصبحوا محكومين في عقر دارهم للمغيرين، فتوجهوا بكليتهم نحو الدين فأصبح المسلم الحقيقي عندهم هو الذي يقضي حياته بالنسك ولا يملك كسرة ولا كوخاً ولا رداء، الأشعث الأغبر الوسخ القذر البائس الجائع الدميم القبيح النتن المعفن المريض المجنون المجذوب الذي يموت قبل ان يصيبه الموت (موتوا قبل ان تموتوا). وهو في هذه الحالة النكدة الرثة الدميمة يواظب على الزهد والعبادة والتصوف والصلاح والتقوى، ويحج إلى مكة وإلى العتبات المقدسة، ويصلّي ويصوم ويتجهز لليوم الموعود. ولا نعلم هل سيباهي سيد الرسل الأمم يوم القيامة بمثل هذا الناس أم يقول بعداً بعداً سحقاً سحقاً... وهو القائل: «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». فقد قدّم الرسول الأعظم عمل الدنيا على عمل الآخرة لكي يخلد فيها الإسلام وتخلد فيها الديانة الإسلامية. ويترتب على الأمة التي تطلب الحياة وتخطب الخلود أن تعمل وتستفيد من القوى كافة الموجودة في الكون والمخلوقة لخدمة الإنسان وفائدته. إلا أن الأوروبيين اكتشفوا الراديو والرادار واكتشفنا الدفّ والمزمار. ودخل الأوروبيون في خدر الذرة للوصول إلى سر الكائنات ولطمنا نحن وجوهنا وصدورنا للوصول إلى قصور الجنات.

ان الله لم يخلق المسلمين ليكونوا تعساء فقراء بؤساء جهلاء، إنما ليرثوا الأرض وليبحثوا في مناكبها وأرجائها فيستفيدوا من رزقها وخيراتها ويستخرجوا نفطها ومعادنها، ويسخّروا القوى

الطبيعية لمنافعهم فيجعلوها دار فردوس يتمتعون فيها ببهجة الحياة، فيأكلون ويشربون ويلبسون ويكتسون ويأخذون حظهم ونصيبهم من الدنيا كاملة غير منقوصة ويتخذون أسباب السعادة والرخاء كافة.

7 ـ وكلمة العلم الواردة بالنصوص الدينية ليس معناه العلوم الدينية والشرعية كما فسرها ابن تيمية وغيره من رجال الدين عند قولهم: «ان العلم ما كان موروثاً عن نبي وكل ما سواه فليس بعلم». أو كما قاله الزمخشري: «ان العلم للرحمن فقط... وأما الإنسان فلا يمكن أن يعلم شيئاً». أو كما قاله غيره من رجال الدين: «كل علم ليس في الكتاب ولا في السنة ولا من علوم المسلمين فهو علم ضار لا ينتفع به». أو كمن حصر العلم في نوعين: (1) علم التوحيد والصفات، و(2) علم الشرائع والأحكام. وإذا كان لأولئك العلماء بعض المعذرة بالنسبة لزمانهم فلا معذرة لزملائهم في هذا العصر الذي طغت فيه العلوم الطبيعية وبان نفعها. فان هذه العلوم الدينية والشرعية أيها السادة الأجلاء، لا توجد في الصين حتى تطلب، إنما القصد من كلمة العلم الواردة في الكتاب والحديث، والآيات التي في السماوات والأرض، هي كل العلوم والحادثات والقوى السائدة في الكون، ومن جملتها العلوم العقلية الطبيعية (الفيزياء والكيمياء)، وكل ما هو موجود ومخلوق في الأرض وفي السماء من جرم الشمس حتى الدقائق والكهارب الشاردة في الفضاء والالكترونات المتماسكة في نواة ذرة الحديد والايدروجين مثلاً، فكان اكتشافها ضرورياً ودرسها إلزامياً واستخدامها في أمورنا أمراً دينياً وإهمالها كفراً والإعراض عنها إلحاداً. يقول الله عز وجلّ: ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ (يونس). فان آيات الله لا تظهر بمشاهدة الشمس والقمر والليل والنهار فحسب، إنما تتجلى آياته تعالى بدراسة قوانين الفيزياء والكيمياء وبتحليل مادة الكون... وان جزاء الغافلين عنها والمستهترين بها والمعارضين لها النار، بما كانوا يجهلون، ومنها يحيدون، ولها يمنعون وعنها ينصرفون، وبها يستهزئون.

8 ـ وأما بعض رجال الدين الإسلامي فقد اعتبروا مثلاً قراءة القرآن بحروفه كافية لنيل الثواب دون حاجة إلى تدبر معانيه والعمل بأحكامه، فكانت الوحدة القياسية عندهم للتعبد كثرة القرآءات وعدد الختمات القرآنية والغلو في الصوم والصلاة والقواعد الفقهية... فكان هذا وأمثاله مبدأ الجمود الديني، فجمّدوا وجمد المسلمون بجمودهم، وكفّروا المعتزلة لأخذهم بالتفكير الحرّ ولتحكيم العقل في الإلهيات، وناجزوا الأحرار القائلين: «إذا خالف حكم العقل ظاهر النص أو الحديث وجب الميل إلى حكم العقل وتأويل ظاهر النص». وأحرقوا أو صادروا الكتب الحرة ومنعوا انتشارها تقرباً إلى الله بالظاهر وخوفاً على مراكزهم ومناصبهم في الحقيقة، فأصبحت الديانة الإسلامية بنظرهم عبارة عن الصوم والصلاة والحج والزكاة فتوسعوا في أحكامها وأفرطوا ونفروا.

أما عند اخواننا الشيعة الإمامية، فان الشيء البارز في الديانة الإسلامية عندهم هو زيارة العتبات والتوجع والتألم والاكدار والأحزان والمآتم والتعزيات ولطم الوجوه وضرب الصدور، كأن الحياة كلها آلام وأحزان وصراخ وعويل. ولم نقصد بقولنا هذا النيل من رجال الدين. ومن أراد تحقيق

صدق ما قلناه، عليه بقراءة فصل الاستجاء في كتاب الحلبي ومشاهدة المواكب في الأيام المخصوصة والتعازي في الأفراح والأحزان وفيه الكفاية.

9 ـ إذا كان هناك من كبار المؤلفين ومن أئمة الباحثين في زماننا هذا من يطلب التحرر الكامل والعتق التام من تقاليد الماضي والتخلص من العقلية الشرقية القديمة تماماً، فان منهم من يرى إمكان إبقاء القواعد الإسلامية إذا أُصلحت. وعندنا ان كلا من اندفاع الأمة نحو المدنية الأوروبية دون نقد علمي وغربلة دقيقة وقبول اخلاقها وعاداتها وتقاليدها كما هو الحال عند بعض شبابنا أو ابقاءها على ما هي عليه من الجمود المطلق والسكون الدائم والخمول الشائن والتقليد الأعمى والعادات السخيفة والعنعنات البالية، كما هو الحال عند أكثرية الشيوخ الرجعيين المحافظين، هو الموت قبل الموت.

10 ـ فان بعض الشباب المثقف بعد أن فكّر ودبّر وقدّر ووضع المكتشفات والقواعد العلمية من جهة، والمنقولات والروايات من جهة أخرى، تحت التدقيق والانتقاد، أضاع ما كان يملأ ضميره من الأخلاق والمعتقدات الشرقية والإسلامية وأصبح فؤاده فارغاً منها. فأخذ يسعى إلى كل ما هو جديد لإشباع رغباته العصرية وتسكين عواطفه الملتهبة وتوفير احتياجاته الملحة. ولما لم يجد من يعرض عليه شيئاً معقولاً من منتخبات التراث الإسلامي الموافق لروح هذا العصر واحتياجاته، أدار ظهره إلى الجامع متجهاً على الأقل نحو دور السينما والملاهي والمراقص... فوصل إلى الجحود والشك والانكار. وأما الشيوخ ورجال الدين، فلا يريدون الرجوع خطوة واحدة عما رسمه لهم زملاؤهم السالفون وعما يسمى بأعمال السلف الصالح أو بالإمامة المعصومة والخلافة المغصوبة والحقوق المهضومة، وعما رواه أبو هريرة والكليني وغيرهما من الروايات والاسنادات، ويطلبون من الناس قبول هذه المنقولات وأمثالها كثير حرفياً ودون وضعها تحت جادة التدقيق والنقد التاريخي ومطابقتها للمعقول والمنقول.

11 ـ من الضروري على رجال الدين والمذاهب ان يحذفوا الحشويات ويخففوا من غلوائهم ويجعلوا احكام المعتقدات والتعبدات أكثر جاذبية، ويتركوا كلمة «الاحوط» التي فيها تشديدات كثيرة، ويتّخذوا في المعاملات كافة الرواية السهلة من الروايات درءاً للإلحاد، وان يميلوا كل الميل إلى الاجتماعيات وإلى الحياة لا إلى الممات ليطمئن اليها الشباب المثقف ويقبل إليها بقلبه وروحه دون أن يلوي شفاهه ويتبرّم. فان الاعتقاد بدوام الحال حتى على ما هو عليه في هذا اليوم، فيه الشيء الكثير من قصر النظر. فإن أي تبدل في الوضع الحاضر قد يقضي نهائياً على هذه التشكيلات الدينية ويجعلها في خبر كان، كما حصل في زمن مصطفى كمال ورضا شاه بهلوي.

12 ـ في الحياة الإنسانية وجهان يختلف الواحد منهما عن الآخر، هما الحياة المادية والحياة الروحية. وقد تمسك الغرب في اعماله اليومية بالحياة المادية فقط تاركاً الحياة الروحية، بينما العالم الإسلامي لم يزل متمسكاً في حياته الروحية أولاً ثم بالحياة المادية، وهو في طريقه إلى الحياة المادية نابذاً الحياة الروحية رويداً رويداً.

فمن الواجب على زعماء الأمة والمفكرين وقادة الرأي، فصل الأمور الدينية (الروحية) عن الأمور

الزمنية (الحيوية)، ليأخذ كل منهما مجراه على حدة ـ ولنا في الحكومة الهندية الحديثة عبرة ـ ويسعى كل منهما إلى تأسيس مدنية عصرية مقتبسة من العلوم والمعارف والرياضيات الأوروبية من جهة، ومستندة على الروحانيات والاخلاقيات الإسلامية البسيطة التي جاء بها القرآن وحده، مجردة من التفسيرات المطولة وخالية من الخرافات والحشويات والتشديدات والمهازل والمضحكات المبكيات التعبدية التقليدية من جهة أخرى، كيلا تكون سخرية للشامتين ومضحكة للمخالفين، وإعادة القواعد والأخلاق العربية الإسلامية إلى ما كانت عليه في زمن الخلفاء الراشدين لكي يسمو الدين ويهضمه الوجدان البشري في كل عصر من العصور ويقبله الضمير الإنساني في كل دهر من الدهور. وبهذه البساطة تأمين الحياة السعيدة للأمة واستقلال البلاد ـ كما فعلت تركيا الحديثة ـ وتخليص الديانة الإسلامية من وخزات الأوروبيين أولئك الذين ما فتئوا يصرخون بملء افواههم عن غل وقصد وجهل وحقد بأن سبب تأخر العالم الإسلامي هو وجود القرآن. ولو علموا ان القرآن قد خاطب المسلمين بلهجة قاسية وندّد بهم بقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فانها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾. لخجلوا من أنفسهم وسكتوا، لعلمهم ما لهذه الآية الكريمة من قيمة بالنسبة لما ورد في الإنجيل عن لسان السيد المسيح قوله للشاب اليهودي «بع املاكك واتبعني». قاتل الله كل مغرّض وجامد وخامد وخامل!.

13 ـ ولنا ان نتساءل من الذي أساء استعمال هذه النظم والوصايا القويمة والدساتير الزمنية المحكمة وأوصلها إلى حظيرة الاهمال والنسيان؟ مما لا ريب فيه أن سبب الجمود والارتجاع يرجع في اصله إلى المتوكل العباسي ثم إلى الأشعري والغزالي وشيوخ الصوفية سابقاً ولاحقاً، ثم إلى الولاة والأمراء والحكّام في الخلافة العباسية وفي ملوك الطوائف وفي الحكومة العثمانية، أولئك الذين استفادوا من «القواعد الدينية» في تثبيت عروشهم وهم أبعد من ان يتقيدوا بأحكام الدين، واتخذوا رجال الدين الرسميين الجهلاء ألعوبة بجانبهم وآلة بيدهم، تارة للتخلص من فتاويهم الخطرة وأخرى للظهور امام الناس بمظهر المتدين المتقشف، وما ذلك إلا رياء ونفاق يقصد منه تعزيز مراكزهم السياسية واستجلاب عطف الرعية. فترك رجال الدين الاجتهاد والأحكام الزمنية والاقسام الاجتماعية من نصوص الكتاب الكريم وتمسكوا بالبدع والمدخولات والمنقولات الموافقة لآراء الحكام والولاة وبأقسام التعبدات فقط من الأوامر الإلهية.

14 ـ بما ان المنقولات الخرافية والأكاذيب التاريخية قد تمكنت بطريقة الوراثة أولاً، ثم بالتلقين المتكرر من الرسوخ في اعماق أدمغة البسطاء، فمن الصعب بل من المستحيل رفعها وإزالتها بالبث والنشر بالمذياع (الراديو) وبالكلام والوعظ والإرشاد في المعابد، وتخليص الجهلاء من دجل الدجالين. وستبقى كذلك إلى أن يغزو العلم المنقولات والمنظمات الدينية الموضوعة التي لم تكن من أصل الدين في شيء أو إلى أن تقوم الحكومات بعمل إيجابي في اصلاح الشريعة. ولما كان الفرد عبداً للاعتبارات الدينية وأسيراً للمنقولات الروائية فكان من واجبات الحكومات العربية الحد من الرجال الذين استعملوا جميع الوسائط لإماتة النظر العقلي والفكر الحر المنصوص عليهما بالقرآن الكريم وتمسكوا بالمنقولات والروايات وطاردوا وكفّروا كل مصلح ديني يقف في سبيلهم.

15 ـ ولما كانت المعتقدات العامة تهم الجميع، وإلى ان يحصل الفرد على ثقافة كافية تمكنه من تفريق ما يعرض عليه من الأقوال والمدعيات، فمن واجب الحكومات تحديد مدى الحرية في هذا الشأن بقانون خاص واستعمال القوة والإكراه عند الإيجاب، كما فعلت تركيا وإيران والصين والهند الحديثة، حيث قضت هذه الحكومات في بدء نهضتها نهائياً بالشنق والرشاش والتقتيل دون هوادة على شعوذات التبشير بجميع اشكاله وأنواعه، ومنعت رجال الأديان كافة من دق الطبول ونفخ المزامير ونقر الدفوف واستغوائهم الناس باللباس المزركش والصلبان المذهبة والقلنسوات والزنانير والعمائم البيض والخضر والسود، فلا بد للحكومات العربية من الاهتمام بذلك.

16 ـ وإذا كان القسس والرهبان قد صهروا الديانة المسيحية واستخرجوا منها، رغم أسسها ومعتقداتها المخالفة للعقل، نظاماً دقيقاً يتوافق مع عقلية ابناء العالم النصراني على اختلاف ملله ونحله، لم يستطع رجال الدين الإسلامي من تقديم صور جذابة محببة للناس رغم ما لديهم من أسس قويمة معقولة ومن توحيد يوافق العقل والمنطق والذوق الإنساني. وكان الخطر الأعظم يتأتى من تدريسهم طلاب العلوم الدينية الأحداث على طريقتهم المؤسسة على المنقولات لا على التفكير الحر، فكان من الضروري على الحكومات العربية والحالة هذه، أن تؤسس كلية عالية موحدة لدراسة الإلهيات وفلسفة الأديان تحت اشراف وزارة المعارف يحاضر فيها اساتذة اخصائيون في الالهيات والشرائع، وتقبل فيها الطلاب من ابناء المذاهب المختلفة كافة على السواء كما هو الحال في المدارس المدنية، على ان تودع قيادة الأمة الروحية بعهدتهم فيما بعد، وتمنع ان يمارسها غيرهم في المستقبل. وتقضي قضاءً تاماً كما قضت على الكتاتيب المحلية، على ما يدرس بالجوامع والمساجد والمعابد والمعالم الدينية على الأصول القديم الذي ثبت فشله في حضيرة المذاهب الخمسة سواء بسواء... الخ وبذلك تنتزع قيادة الأمة الروحية من أيدي الشيوخ الجامدين الرجعيين المتشبعين بالعواطف المذهبية وتسلم إلى أيدي العلماء المثقفين العصريين دون الالتفات إلى ما رضي به زيد أو غضب منه عمرو.

17 ـ وإذا كان الكهنوت الديني في أوروبا قد فقد حماية الملوك والسلطات الزمنية واستقل بنفسه، فاننا نعلم أن السلطان الديني في بلاد العرب ـ باستثناء سورية ـ لم يزل مقيداً بالقوانين الأساسية. فقد ضمنت له قوانين البلاد واجب احترامه فلا يجرؤ احد على التحرش بسلطانه حتى في فروعه وعنعناته المخالفة لقواعده الأصلية. فقد يقضي دين رجال الدولة التمسك بالعنعنات الدينية مماشاة للجمهور المتدين حتى ولو كان ذلك مخالفاً لمصالح مملكتهم، وسيبقى كذلك حتى يهيىء الله للأمة العربية حكاماً اشداء لا يهابون الرجعية يسنون القوانين وينفذونها بحذافيرها. وبذلك يجعلون الدين وحدة وجدانية محترمة مستقلة بشؤونها لا علاقة لها بغيرها حتى يصل رجال الدين إلى درجة من القوة والشجاعة تجعلهم يتركون السلطة الدينية تمشي وحدها دون اعتبارها طفلة أو شيخة بحاجة إلى من تتوكأ عليه.

18 ـ ومن الأمثلة الدالة على دوام تدخل السلطات الدينية الإسلامية في الأمور الزمنية ما عثرنا عليه في جريدة «اخبار اليوم» المصرية المؤرخة 22 ـ 2 ـ 47 في مقال عن أزمة حدثت بشأن تعيين وزير الأوقاف. وخلاصتها، انه: لما اعدت رئاسة مجلس الوزراء المرسوم الملكي بتعيين الاستاذ علي عبد

الرازق وزيراً للأوقاف، لفت احد رجال الأزهر النظر إلى ان هيئة كبار العلماء اصدرت في عام 1925 قراراً بتجريد الاستاذ المذكور من درجة العالمية لأنه ألّف كتاباً اسمه «الإسلام وأصول الحكم»، وان هذا القرار يترتب عليه عدم اهلية المحكوم عليه للوظائف العامة دينية كانت أم غير دينية. وفي جهة أخرى من الجريدة نفسها عثرنا على الفقرة الآتية: رفع بعض علماء الأزهر عريضة إلى القصر الملكي يعترضون فيها على تعيين الشيخ عبد الرازق مديراً للأوقاف... الخ وكان هذا ما نعنيه بكتابنا هذا كله عن وجوب فصل الأمور الدينية عن الأمور الزمنية. فبأي جناية يحرم هذا الشيخ الوظائف المدنية؟ وبأي حق يقرر حرمانه أسباب عيشه؟ وهل ان العالمية مجرّد جبّة ترتدى حتى يجرد منها أو ان معناها الـ (أفروز) الإسلامي؟ كل هذه الشدة لكتاب كتبه قبل ربع قرن طالب فيه بالإصلاح (!)

19 ـ وإذا كان الملك والرياسة الدينية (الخلافة) قد اجتمعا بيد حاكم واحد، فقد افترقا بيد حاكمين كما حصل في أواخر الحكم العباسي وما بعده حتى ظهور الخليفة التاسع من بني عثمان (سلطان سليم) حيث جمع السلطتين الدينية والزمنية مرة أخرى بيده باسم الخلافة، وأعادها كما كانت في الأدوار الأولى. ومن المعلوم ان الخلافة التي مارس احكامها الأمويون والعباسيون والعثمانيون ليست أصلاً من أصول الدين وليس فيها نص أو حديث، إنما هي نظام تقليدي ورث مشوهاً عن الخلفاء الراشدين. وبينما كانت الأمة تنتخب خليفتها على أصول الحكم الجمهوري، أصبحت الخلافة ملكاً عضوضاً. فكان من الممكن اهمالها نهائياً وتأسيس مجمع ديني إسلامي عوضاً منها.

20 ـ وأما من الوجهة الدينية فقد جاء بالقرآن الكريم: ﴿لا اكراه في الدين﴾ (البقرة). و﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (الكهف). وكان سيد المرسلين مبلغاً ومبشراً ونذيراً فقط: ﴿فذكر إنما انت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾ (الغاشية). وهذا هو التسامح الديني العظيم الذي ينبغي أن يكون رائدنا.

21 ـ ان نسبي يتصل ببيت كله من رجال الدين والعلم والأدب، وانا مؤمن بواحدانية الله تعالى عن علم وبيّنة وإدراك لا عن تلقين وإرشاد، وليس لأحد ان ينكر تمسكي المكين بالقرآن الكريم، وأن يطعن بإخلاصي للديانة الإسلامية، لذا لم يكن لي بد من الجهر بالحقيقة التي أعتقد بصحتها حفظاً على الدين المحفوظة احكامه بين دفتي القرآن فقط والمختوم بقوله تعالى: ﴿اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾. فما زيد عليه فهو زائد، ويجب ان يحفظ من أن تقضي عليه العمائم بالبدع والخرافات والمضحكات والمبكيات.

22 ـ انا على يقين ان ما أطلبه من الإصلاح الديني والتفسير الحرّ الزمني للقرآن الكريم والتيسير دون التعسير وإعلان الثورة الجامحة على كل عتيق بال وقبول كل جديد معقول، والإيمان بشريعة العقل مع المحافظة على النصوص التي لا مجال مطلقاً لتأويلها وتخفيفها لكي نصل بأقصى ما يمكن من السرعة إلى ما وصلت إليه الأمم المتمدنة، لا يمكن ان يحصل إلا بتولي شخصيات من الشباب المثقف أمور الدين، شخصيات لا تهاب من ثرثرة الجامدين ولا تخاف من شغب الرجعيين، ولا تماشي رغبات رجال الدين الجامدين، ولا تخشى هياج الشعب الجاهل.

ولا بد من مجيء يوم للبلاد العربية أيضاً تظهر فيه الشخصيات الدينية الجبارة فتخلص البلاد بواسطتهم من ربقة الجامدين والسياسيين الماكرين، فيعلم الفرد بأن الحشويات المدخلة على الدين، كحلول الجزء الإلهي في بعض الأشخاص البشرية والتفسيرات، والتأويلات المتعاكسة المغلوطة، ومعظم المنقولات والروايات، ثم الأحاديث الموضوعة لغايات سياسية، وأخبار التاريخ الديني والفال والخيرة والطيرة... ليست من أصل الدين بشيء، ولا قيمة لها مطلقاً في أمور الدنيا والآخرة. وأن الدين الإسلامي قد كمل في اللحظة التي نزلت فيها الآية الكريمة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾، فكان كل ما زيد عليه بعد تلك الدقيقة زائداً لا يُلتفت إليه. فيُرجع حينئذ إلى الدين الصحيح ويُكتفى فقط بعبادة مبدع الكائنات ومنظم الدقائق والذرات ومصدر القوى وهو الله وحده لا شيء قبله ولا بعده.

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (53 ـ فصّلت).

